من الكتب الأكثر مبيعاً بحسب لائحة النيويورك تايمز

جون كيري

الكتاب المثير للجدل بقلم وزير الخارجية الأسبق

كل يوم هو إضافة

مكتبة
Telegram Network

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

جون كيري

«مكتبة ♔ النخبة»

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

Arabic Copyright © All Prints Distributors & Publishers s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

يُمنع تصوير و/أو تحميل و/أو توزيع الكتاب إلكترونيًا أو التسهيل لذلك بأي شكل من الأشكال دون موافقة الناشر. يُرجى الاستحصال على النسخ الإلكترونية المصرّح لها من قبل الناشر فقط، وعدم المشاركة في قرصنة المواد الإلكترونية المحمية بموجب حقوق النشر أو التشجيع لها. نقدّر دعمكم لحقوق المؤلف.

القرصنة الإلكترونية جريمة يعاقب عليها القانون! لا تكن مجرمًا.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٩
ISBN: 978-6144-58-505-4 النسخة الورقية
ISBN: 978-6144-58-397-5 النسخة الالكترونية

Originally published as: **Every Day Is Extra.**

Copyright © 2018, by John Kerry
All rights reserved.

Published by arrangement with the original publisher Simon & Schuster, Inc.

الخريطة: جيوبروجكتس
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: بسمة تقي

المحتويات

مذكّرة المؤلّف 9

الفصل الأول: الطفولة 13

الفصل الثاني: سنوات الكليّة المُشرقة 41

الفصل الثالث: قسَمُ اليمين 59

الفصل الرابع: الحرب 87

الفصل الخامس: الحرب داخل البلاد 131

الفصل السادس: تلمُّس طريقي 157

الفصل السابع: مجلس الشيوخ القديم 179

الفصل الثامن: مسؤولية واشنطن 215

الفصل التاسع: صنع السلام 225

الفصل العاشر: زمن التحوّل 239

الفصل الحادي عشر: السرطان والنهوض من الكبوات 295

الفصل الثاني عشر: بفارق همسة 329

الفصل الثالث عشر: نفض الغبار عنّي 383

الفصل الرابع عشر: رئيس جديد، مجلس شيوخ معطَّل 399

الفصل الخامس عشر: السيد رئيس اللجنة 423

الفصل السادس عشر: الدبلوماسية في عالم محفوف بالمخاطر 465

الفصل السابع عشر: شرف المحاولة 501

الفصل الثامن عشر: تفادي حرب 547

الفصل التاسع عشر: الجرح المفتوح 587

الفصل العشرون: حماية كوكب الأرض 623

خاتمة 649

شكر وتقدير 653

إلى أحفادي: ألكسندر، أليغرا، أستريد، إيزابيل،
جاك، ليفيا، سلون، وإلى آبائهم وأمهاتهم،
إلى زوجتي تيريزا، وإلى المستقبل.

تنويه

جميع الآراء التي طرحها جون كيري في الكتاب، التزمت الدار ترجمتها كما هي. لكنها لا تعبّر بالضرورة عن رؤية الدار وتوجّهاتها.

مذكّرة المؤلّف

«كلّ يوم هو إضافة» ، هذه العبارة ليست مجرّد تبيان للواقع؛ إنها سلوك ووجهة نظر حيال الحياة. هي تعبيرٌ يوجز الشعور الذي اعترى مجموعةً من الرجال الذين خدمتُ إلى جانبهم في فييتنام، بعد أن عادوا منها إلى ديارهم أحياء. إنها الاعتراف بتلقّي هدية ومواجهة لغز في آن. فلسفةٌ عاشها أشخاص كان محتملًا أن يموتوا يومًا ما، لكنهم نجوا، بينما قضى كثير من الرجال الطيبين. إنها التعبير عن الامتنان للبقاء على قيد الحياة، في حين لم يتمكّن آخرون من ذلك. وهي العهد بقبول مسؤولية عيش حياة مكرَّسة في سبيل هدف. وهي اعتراف بأننا، نحن الناجين، وخلافًا لكثيرين قضوا، قد عشنا أيامنا الإضافية على نحو أفضل، من خلال الاستمرار في الإخلاص لذكرى الإخوة الذين بُترت أيامهم بشكل مأساوي. أخيرًا، تعني عبارة «كلّ يوم هو إضافة» العيش مع حقيقة محرّرة، هل إدراكنا أن ثمة أشياء أسوأ كثيرًا من خسارة في خصومة أو في انتخابات. قد يكون أسوأ الأشياء، إضاعة هدية يوم إضافي، في التنحّي، وعدم الاكتراث لمشكلة ما.

هذا الكتاب، هو قصة رحلتي المستمرَّة مع العرفان لهدية أيامي الإضافية.

ثمَّة معركةٌ تستعر في الخارج

قريبًا، سوف تُصَدّعُ نوافذكم وتزعزعُ جدرانكم

فالزمن الآن يتغيّر

بوب ديلان «الزمنُ يتغيَّر»

الفصل الأول: الطفولة

«رائع» ، قالها والدي بما يشبه الهمس المبحوح المشوب بالرضى، وهو يتذوَّق مغمض العينين قطعة من الشوكولاتة السويسرية، التي أحببناها، أنا وهو، مذ كنّا - كلٌّ في زمنه - صَبْيان في المدارس الداخلية السويسرية، يعيشان في ظروف مختلفة تماماً. كنا فَتَيان وجدا أن الانغماس في الملذّات وإن كان آثماً، يساعد على ملء الفراغ.

كانت تلك آخر قطعة شوكولاتة تذوّقها والدي.

تسع سنوات، والسرطان يواصل على والدي عدوانًا لا ينقطع. أما الآن، أواخر العام ٢٠٠٠، وبعد أن وعده الأطباء بأنه لن يموت بسبب البروستات، ونصحوه بـ «الترقُّب والانتظار» . راح المرض الخبيث يتسلل بلا هوادة ولا رحمة إلى عظامه. كان الألم فظيعًا. لم يكن بوسعنا فعل أي شيء، سوى ضَخ المورفين المسكّن في جسده لإراحته بشكلٍ ما، أو لنقل حتى لتخديره.

كنتُ أنا وشقيقي كاميرون وشقيقتاي بيغي وديانا، أطفال يهيمون في طابق مرتفع من برج مستشفى ماساتشوستس العام، الذي ينتصب قبالة نهر تشارلز وملاعب الحديقة العامة الممتدة أسفله، بينما كان والدي يرتحل عنّا رويداً رويداً. كان يومًا دافئًا من أيام تموز/يوليو والسماء زرقاء صافية. كنت أستطيع رؤية النسيم الخفيف في تماوج الأشجار، بينما تُرصّع مراكب شراعية صغيرة حوض النهر أمام معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. ثمة جزء مني كان يرغب في الخروج، والإحساس بدفء الصيف، بعيدًا عن حقيقة موت والدي الوشيك. ولكن بالطبع، للحقيقة قدرة شديدة على جرّك وإعادتك إلى أرض الواقع. وقد شاءت المصادفات أن تحط قبل أيام قليلة مروحية الرئيس كلينتون في ملاعب الحديقة العامة الواقعة أسفل المستشفى، في زيارة رسمية له إلى بوسطن. رحت أراقب من الطابق الحادي والعشرين سير عالم الأحياء في الأسفل، عالم، لم يكن يملك أدنى لمحة أو فكرة ولو غامضة عن الدراما التي تدور في حياتنا. كنتُ أحد المنافسين الثلاثة المتبقّين للفوز

بمنصب نائب المرشح الرئاسي آل غور في الانتخابات المقبلة. فكّرتُ في أن والدي لن يعرف قط ما إذا تم تعييني، وانتابني شعور صادم. كان وضعاً غريباً اضطرّني إلى الجمع بين أمر خارجي اعتبرته مهمّاً، وبين عالمٍ خاص وحميميّ وقطعيّ أعيشه في تلك الغرفة.

كان والدي ينزلق أعمق وأعمق في النوم، وبات تنفُّسه ثقيلًا وشاقًا. الآن، غداة ميلاده الخامس والثمانين، كنت أنا وشقيقي وشقيقتاي نجلس متيقّظين إلى جانبه، ننتظر فحسب. وفي حين كنا نتقوقع متجهمين في مستشفى ماساتشوستس العام، كانت والدتي، ذات الأعوام السبعة والثمانين تلزم البيت، عاجزة عن البقاء معنا تلك الساعات الطوال بانتظار ما كان مقضيًّا. كانت قد ودعته عشية ذلك اليوم، حيث جلسَت قرب سريره، وكان وداعًا موجعًا. «أراك غدًا» ، كانت عبارتها الأخيرة له. كنا جميعًا نعرف أنها لن تراه، هي أيضًا كانت تعرف، والدموع في عينيها تشهد على ذلك. تساءلتُ: كيف يكون الوداع؟ وما الكلمات التي يمكن قولها لشخص عشتَ معه ما يزيد على ستة عقود؟ وشعرت بألم عظيم حيال والدتي التي بدا جليًا أن اللحظة تفوق قدرتها على الاحتمال.

أعرف أنني كنت محظوظًا كابنٍ لوالدين عاشا عمرًا مديداً، وشعرت بالامتنان لحضورنا جميعًا ساعة الوداع الأخير للتعبير عن مشاعرنا. لكن الزمن علَّمَني أن عمر الأبناء لا يهم. فمهما امتدَّ عمر أي من أبوينا وطال، فإننا، عندما يرحل، نبقى، بمختلف أعمارنا، أطفالاً. الآباء والأمهات يصنّفون في خانات مختلفة تماماً. فالشيخوخة والمرض يعكسان الأدوار، ويصبح مَن كان راعيًا في حاجة إلى الرعاية. هذه كانت حالنا. كان علينا نحن الأربعة، أبناء ريتشارد وروزميري البالغين، أن ننتظر عاجزين موت والدنا. وفي لحظة ما، سأل أحدنا الآخر: هل نحن حقًا على يقين أنه كان يريد الرحيل؟ هل أرادنا أن نفعل شيئًا ما، أي شيء، أن نتخذ إجراءات إضافية وأكثر جذريةً، مهما تكن تافهة أو عقيمة، من أجل إطالة أمد حياته ولو لأيام قليلة؟ هل كان متقبّلاً الرحيل حقًا؟ فجأةً، اكتشفنا أننا لسنا متأكدين من رغبة والدنا، ومضينا بعيدًا في جهودنا من أجل إيقاظه، وسؤاله عمّا يريد. «بابا، هل من أمر يمكننا فعله لك؟ ماذا تريد؟» . فتح عينيه على اتساعهما، ثم عدَّل جلسته، وأعلن بصوت واثق قوي: «أريد أن أموت» . كانت تلك آخر كلمات لفظها والدي. استلقى على الوسادة، وأغمض عينيه مرة أخرى، بينما كنا نحيط به جميعًا، نأخذ يديه في أيدينا، نلمس ذراعيه، وننظر إليه، وهو ينأى بعيدًا.

أعتقد أن هذا الإعلان الأكيد، قد أزاح عن كاهلنا، نحن الأبناء الذين كنا نحاول تخمين رغبته الأخيرة، عبأً ثقيلًا. كان انعتاقًا وارتياحًا، لكنه مع ذلك ظلَّ

صادمًا.

لم يعد له من وجودٍ الآن. وقد أدركت، حتى بعد جهودي الأخيرة التي صبّت في محاولة الحصول على إجابات لا تتعلق بأسرار الحياة فحسب، بل بأسرار حياته هو، أدركتُ أن الروايات الوجيزة التي سردها عليَّ، قد تركتني في مواجهة المزيد من الأسئلة التي كان هو عاجزًا عن الإجابة عنها، أو أنه تعمّد ألّا يجيب، ليس في ذاك اليوم فقط، بل كان على امتداد حياته كلّها. عزوتُ تحفُّظه هذا إلى الرزانة التي اتسمت بها الأجيال الكبرى. مع ذلك، كان والدي، وكنت أناديه أحياناً «با» أو «بوب» أو «بوبسِكل» تحبّباً، رجلًا محيِّرًا وشديد التعقيد. لكن ما لم أدركه بالكامل، مع تقدُّمي في السن، الأسباب التي تكمن خلف تحفُّظه العاطفي.

لا أزال أتساءل حتى اليوم، كيف كان ريتشارد كيري ذو الأعوام الستة عشية الثالث والعشرين من تشرين الأول/نوفمبر عام ١٩٢١. هل استيقظ في منزله بحي بروكلين ماساتشوستس، وتناول وجبته الصباحية، ثم عانق والديه مودِّعًا، وبمنتهى البراءة توجَّه إلى المدرسة حاملًا زوّادة الغداء؟ هل كان يتشوَّق إلى قدوم عيد الشكر في اليوم التالي؟ هل اندفع بعد الغداء إلى باحة اللعب خارج مبنى المدرسة، ليلعب الكرة، أو ليلعب مع رفاقه ألعابًا صبيانية، غير مدركٍ بتاتًا أن أقلَّ من خمسة أميال تفصله عن والده، الذي كتب قبل ثمانية أيام وصية ترك فيها كل شيء لجدتي، والذي يسير في فندق كوبلي بلازا في بوسطن، نحو دورة المياه، ويخرج مسدّسه، ليضعه على صدغه ويضغط على الزناد؟

قبل أن يُدقَّ جرس المدرسة معلنًا التحاق والدي وزملائه بصفوفهم، فإن ذلك الرجل البالغ ثمانية وأربعين سنة من العمر، جَدّي الذي لم أعرفه، قد مات من فوره، ميتةً عنيفةً فظيعة.

متى تلقّى والدي النبأ؟ مَن أخبرَه؟ ماذا قالوا له؟ هل أخرجه أحدهم من الصف، وأسرع به إلى البيت ليشارك والدته وشقيقه الأكبر في الصدمة والحزن؟ هل طرقَ الباب الخارجي شرطيٌّ وقسٌّ، ووقفا على العتبة بوجهيهما الحجريّين ليعلنا لجدتي النبأ المشؤوم؟

لسنوات، لم تكن لدي أدنى فكرة عن ظروف موت جدي. لم يقل والدي إلّا القليل عن ذلك. عندما كنت أسأل عن جدي: متى توفي؟ من أين جاء؟ ما كانت مهنته؟ أي كل الأسئلة التي يمكن للمرء أن يتصوَّرها، كان والدي يُطبق شفتيه كما لو كان يجهل كل شيء عن والده.

لفترة طويلة، قيل لي إن جدّي كان مريضًا. ولكن في وقتٍ لاحق، سمعتُ عنه قصصَ اكتئاب، أو تراجع في سير الأعمال، أو معاشرة نساء، والله وحده يعلم. فربما كان ذلك كلّه مزيجًا من أشياء كثيرة. أعتقد أنني كنت في السادسة عشرة، وبالتأكيد بعد وفاة جدّتي، عندما أخبرني أحدُهم بأنّ جدّي قد مات منتحرًا، ولكن هذا كلّ ما أخبرني به. لا تفاصيل، لا ظروف، فقط مأساة قديمة، كان من الأفضل أن تُدفَن حيث كانت، أي في الماضي. بعد أن كبرتُ، سألتُ والديّ وأبناء عمّي مستفسرًا عمّا كانوا يعرفونه عن انتحاره. لم يكن أي منه، على ما بدا، يعرف أي تفاصيل. كان لغزًا، وبدا أنه كان مُقدّرًا له أن يبقى كذلك. لكنّ ما كنت أعرفه على وجه اليقين، وبغضّ النظر عمّا كان والدي يعرفه أو يشعر به، هو أنّ ذلك كان مصدر ألم ومرارة حملهما معه حتى آخر يومٍ في حياته.

بُعَيْد انتحار جدي، حملَت جدتي والدي وشقيقته الكبرى ميلدرد، ورحلت إلى فيينا، حيث كان يقيم بعض أفراد أسرة كيري. ظلَّ شقيق والدي الأكبر منه وقتاً طويلاً في بوسطن، لمتابعة مستقبله المهني. لا شك في أن «غراني» [1] كما كنا نناديها قد فضَّلَت الابتعاد عن دوامة الغموض التي كانت تحيط بوفاة جدي. مع ذلك، وكما لو أن الانتحار وتحوُّل الحياة المفاجئ لم يكونا كافيين، وبعد سنة من تلك الصدمة، وكان والدي قد بلغ السابعة من العمر، أصيبت شقيقته، عمتي ميلي، الاسم الذي كنت أعرفها به، بمرض شلل الأطفال.

كتب والدي بعد سنوات عدة: «في العام ١٩٢٢، عندما كنت في السابعة من العمر، وقعت شقيقتي البالغة ثلاثة عشر عامًا من العمر ضحية حالة فتاكة من مرض شلل الأطفال. ظلَّت ترقد في الفراش على ظهرها طوال ستة أشهر، ثم انتهت على كرسيّ متحرّك مدى الحياة. في ذلك الحين، كنا نعيش في أوروبا، حيث قضينا معظم العشرينات» .

فضلاً عن موت جدي، شكَّل مرض عمّتي ضربة قاصمة. فقد استهلك هذان الحدثان جدتي. ومن الواضح أنهما تركا والدي حائرًا يبحث عن معنىً لذلك كله. من خلال استكشافي لمعتقدات والدي الدينية ومحاولة سبرها عبر محادثات عدة لاحقة، اكتشفت أن مرارته وحزنه العميق، إثر وفاة والده، وإصابة شقيقته المفاجئة بمرض رهيب، قد حطّمت لديه كل إيمان امتلكه يومًا ما.

على الرغم من نشأته الكاثوليكية في كنف والدة غيورة جدًا ومتشددة في إيمانها، لم يتمكّن والدي قط من التصالح مع المآسي التي ألمَّت بأسرته ومفهومٍ الإله الرحيم. لقد كانت والدتي، البروتستانتية المتغطرسة، هي مَن

جعلنا حقًّا نميل إلى التربية الكاثوليكية، وحرصَت على التزامنا متابعة دروس التعليم المسيحي، وتناول القربانة الأولى، وحضور القداس على نحو منتظم.

أصبحت طاقة جدتي كلّها مركّزة. فقد انخرطت في سعيٍ كبيرٍ بحثًا عن علاج، أو تحسُّن على الأقل، مركِّزةً جهودها في أماكن الاستجمام الأوروبية. ولدى عودة الأسرة من أوروبا عام ١٩٣٠، كان سعيها أخيرًا، يتضمَّن الإقامة في مدينة وورم سبرينغز جورجيا، حيث يقوم منتجع مياه معدنية حارة.

هناك التقت الأسرة مريضاً آخر مصاباً بشلل الأطفال، لم يكن سوى فرانكلين ديلانو روزفلت. وعندما أقسم روزفلت اليمين الدستورية الرئاسية، دُعي والدي إلى البيت الأبيض بصحبة أُسَر أخرى تقيم في وورم سبرينغز. أخبرني عمّا جرى بعد مراسم الحفل الافتتاحي، من أن أول مجموعة التقاها الرئيس، كانت رفاق رحلته في منتجع وورم سبرينغز. يتذكّر والدي، الذي كان في السابعة عشرة من العمر، صورة الستائر وهي تنزاح، وروزفلت الواقف هناك بدعامتيه الطبيتين، يتحدث إلى أصدقائه الذين قاسموه فهمَ حياةٍ تغيّرت فجأة إثر تعرُّضها لملاحقة عدوٍّ صامت.

لحسن الحظ، أن جدّي حصدَ، بدايَةً في شيكاغو وفي بوسطن من ثَمَّ، نجاحاً كرجل أعمال في تجارة المفرَّق، رافقه على الأقل حتى لحظة رحيله. فقد ترك من المال ما يكفي ليمكّن جدتي من العيش على نحو مريح طوال حياتها. وقد أدّت أزمة الكساد التي نشأت عام ١٩٢٩، دورًا مهمًّا في تقصير تخبُّطات الأسرة الأوروبية، ودفعتها نحو العودة إلى الولايات المتحدة. لكن ذلك لم يُحطِّم قدرة جدتي على عيش حياة هانئة. اشترت منزلًا في ساراسوتا التابعة لفلوريدا، التي كانت توفرُ مناخًا ملائمًا للعمة ميلي. كانت تقضي فصول الصيف في بايني بوينت بماريون التابعة لماساتشوستس، والمشرفة على البحر من بوزاردز باي حتى نوشون آيلاند الأمر الذي سيكون له، بفضل أسرة والدتي، دور كبير في حياتي. واصلت رحلاتها المتقطّعة إلى أوروبا، واستغلت قدراتها المادية من أجل إرسال والدي إلى المدارس السويسرية، وبعد ذلك إلى فيليبس أكاديمي آندوفر، ثم إلى جامعة ييل وكلية الحقوق في هارفارد.

لم يكونوا أثرياء، لكنهم بالتأكيد كانوا يتمتعون برغد العيش. عندما توفيت جدتي، تركت لوالدي من المال ما يكفيه لمواصلة حلمه في بناء مركبه والإبحار في المحيط.

كان والدي قد ورَّثني شغفه، أنا ابنه البكر، في سن مبكرة. كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر، عندما رافقته للمرة الأولى في رحلة تزلُّج إلى دافوس في سويسرا؛ وهو مكان سيصبح وجهة أقصدها مرارًا.

فهي المدينة التي تستقبل الندوة الاقتصادية العالمية. منذ اليوم الأول، الذي وضعت فيه قدميَّ على ألواح التزلج صعدنا قمّة الجبل. والألواح نوع من الخشب القديم ربط حذائي الجلدي البارد بقواعد تثبيت كأفخاخ الدببة، لا تملك أدنى شروط السلامة. فإذا سقطتَ تتحمّل ركبتك أو ساقك كامل الضغط بسبب إحكام شدها على تلك القواعد الثابتة. وكان والدي يقول بشكل عفويّ: «لا تخف، يكفي أن توجِّه الزلاجات أمامك نحو الأسفل، وتنطلق!» .

فيمَ كان يفكِّر والدي؟ لن أعرف ذلك أبداً، وقد طرحت عليه السؤال مرات عدة. لكنَّه في اليوم الأول أخذني إلى دافوس بارسن، الذي لم يكن المنحدر الأصعب، لكنه الأطول. والحقيقة أنني تحديداً هبطت معظمه على مؤخرتي. كان والدي شغوفًا بآلة التصوير السينمائية من قياس ٨ مليمترات. وأنا أحتفظ بأفلام عدة لمواقف مخزية، من أجل إضحاك أحفادي. لكنّني على الرغم من الأدلة المزعجة على مغامراتي المبكرة في هبوط المنحدرات، سوف أظلّ ممتنًا إلى الأبد لمبادرته إلى إدخالي عالم الجبال، وممارسة رياضة في أوج ازدهارها. وحتى اليوم، في كل مرة أجد نفسي فيها على جبل يغطيه الثلج، أشعر ببهجة عظيمة تغمرني وتنعشني.

أستطيع قول الشيء نفسه عن الملاحة. كانت الملاحة لوالدي ضربًا من الهوس. أما أنا فقد شكّلت الملاحة لي بداية علاقة خاصة لا تُفكُّ عُراها مع المحيط.

أتذكَّر بوضوح تجربتي الأولى مع سحر الرياح والشراع. كان الشعور بالريح ورذاذ الماء معموديةً من نوع مختلف: إمساك ذراع الدفة وتعلُّم إيقاع الأمواج، اختيال مقدِّم السفينة مع رشق الريح، انغمار حافة السفينة في الماء بما يكفي لتعطيل قوة الجاذبية، ولكن من دون بلوغ حد خطر الانقلاب، وتمايل المركب مع دوامة المحيط. كانت الملاحة قد أصبحت جزءًا مهمًّا من حياتي، ولكن ليس بالقدر نفسه الذي كانت تمثّله لوالدي. منذ أيام الجامعة، كانت، في الحقيقة، فواصل كبيرة بين الأوقات التي كنت أقضيها في البحر، وهي الفترات التي كنت أقضيها على دروب حملة انتخابية أو أخرى، أو في رحلة رسمية بصفتي وزيرًا للخارجية. وعلى الرغم من تباعد فترات الإبحار، كنت دائمًا أتوق إلى حرية ركوب البحر وسكينته. كان يجذبني. فحتى الأوقات القصيرة التي كنت أستطيع الخروج فيها إلى البحر، كانت وديعة تزخر بالعافية، وذكرياتها وحدها تكفي لتشعرني بالغبطة.

ربما كان البحر يجري مع الدم في عروقنا، وفي جينات أُسرتَيْ، كيري وفوربس. لم يكن شغفنا وهوانا مرتبطين على الدوام بالمحيط فحسب، بل

بالرحلة الأصلية التي حملتنا إلى أميركا عبر البحر، منذ قرابة ٢٥٠ عامًا. في الثامن عشر من أيار/مايو عام ١٩٠٥، وصلت أسرة جدي لأبي إلى إليس آيلاند على متن الباخرة إس إس كونيغين. يرد في بيان المسافرين الأجانب الصادر عن مسؤول قسم الهجرة الأميركية في مرفأ الوصول اسم فريديريك كيري، يبلغ الثانية والثلاثين من العمر، ذكر، متزوِّج، تاجر من النمسا، العنوان الأخير المعروف: فيينا، الوجهة مجهولة، دفعَ نفقة السفر بنفسه، يملك أكثر من ٥٠ دولارًا، يطأ للمرة الأولى أراضي الولايات المتحدة. تحت اسمه، يرد اسم إيدا كيري، ٢٨ عامًا، أنثى، متزوجة، وتحت اسمها، إريك كيري، أربعة أعوام، ذكر، عازب. عازب ومُسجَّل في الرابعة من العمر، تخيّلوا ذلك.

سرعان ما تحوَّلت وجهة فريديريك كيري «المجهولة» إلى شيكاغو، أول مكان اختاره لبدء حياته الجديدة. لسبب ما، لم تدم إقامته طويلًا، وانتقل إلى ماساتشوستس حيث كان يدير مصنعًا للأحذية. كان ناجحًا في أعماله، وأسكن أسرته في منزل مريح يحمل الرقم ١٠ داوننغ رود، بروكلين. كل الأشياء المألوفة كانت تدل على أن هذه الأسرة المهاجرة تعيش الحلم الأميركي. هذا هو العالم الذي جاء فيه والدي إلى الحياة.

بعد مرور عشرة أعوام على وصول الأُسرة إلى مرفأ نيويورك هاربور، أي في الثامن والعشرين من يوليو/تموز ١٩١٥، رُزقت بريتشارد جون كيري. لسوء الحظ، وبسبب المسافة التي وضعها والدي بينه وبيننا، على الصعيدين الزمني والعاطفي، وتجربة والده المأساوية، لم ننشأ ونكبر أنا وشقيقي وشقيقتاي، بل أيضاً والدتنا بل أسرتنا الموسعة في الواقع، مع قصة تلك الرحلة إلى أميركا عبر المحيط. كانت القصة الأميركية العظيمة بكل جوانبها المجيء إلى العالم الجديد لبدء حياة جديدة: عيش تجربة استقبال تمثال الحرية المجيد، الهبوط في إليس آيلاند، والبدء من نقطة الصفر. لكنها ضاعت إثر طلقة في الرأس في فندق كوبلي بلازا، وأفترض أنها أيضًا، ضاعت في أجزاء أخرى من الماضي، الذي لم يكن ينبغي لي أن أعرفه قبل ترشُّحي إلى انتخابات العام ٢٠٠٣ الرئاسية.

بعد فترة من الزمن، عرفتُ تفاصيل قصة رحلة جَدَّيَّ إلى أميركا كاملةً. ولطالما تساءلت إن كان لدى والدي المزيد من القصص عن مغامرتهما، غير التي رواها. يحضرني هذا البيت من الكوميديا الموسيقية هاملتون: «في نيويورك، بمقدورك أن تكون رجلاً جديدًا» ؛ لكن ليس بالضرورة بشكل كامل. ثمة أمر أدرك جَدّي ما هو، وما الذي يمكن أن يكون. ولا شك أنني لن أعرف ذلك قط. يمكنني فقط أن أتخيَّل الأسئلة التي لا بد أن والدي قد طرحها على نفسه بالتأكيد، إن لم يكن على شقيقه أو والدته. ويمكنني فقط أن أتخيّل كيف

تتأثر خيارات حياته وتطلّعاته في حال معرفته المزيد عن القصة. إن ما كنت أراه واضحًا وأصبح بديهيًا في علاقات والدي الأبوية، هو أن عدم قيامه بدور الأب النموذجي، قد أثَّر بي وبأشقائي تأثيراً عميقاً. وهو في الأساس عاش على نحو ما وحيدًا، عندما لم يكن الأمر يتعلق بسواه. كانت شقيقته مشلولة، وتستدعي من جدتي رعاية كبيرة. وكان شقيقه الأكبر غائبًا ومنشغلًا بمتابعة مستقبله المهني. وفضلاً عن ذلك، تخلّى عنه والده في لحظةٍ أنانيةٍ عنيفة ظلَّت بلا شك، غامضة في نظر صبي صغير. عندما اقتلعت والدته الأسرة من جذورها، وحملتها إلى أوروبا آملةً في العثور على علاج لمرض العمة ميلي، زُجَّ والدي في مدرسة بالعاصمة فيينا، التي كانت محطتهم الأولى. كان عليه يوميًّا أن يركب الترام إلى المدرسة التي كان التعليم فيها باللغة الألمانية. بعد ذلك، أُرسل إلى سويسرا، حيث تنقَّل بين مدارس عدّة داخلية، كانت إحداها قريبة من سان موريتز، وأخرى بالقرب من رول على ضفاف بحيرة جنيف. كان والدي يتحدث باعتزاز عن الزمن الذي قضاه في تلك المدارس. أعتقد أنها مثَّلَت له ما يشبه الأسرة. أراني ذات مرة ألبومًا صغيرًا يحتفظ فيه بصور لأصدقائه في المدرسة، وكانت أسماؤهم مكتوبة بخط اليد في الهامش. لم أسأله قط، لكنني على يقين أن ذكرياته الطيبة عن ذلك الوقت قد ساهمت إلى حد بعيد في قرار والدينا بإرسالنا، أنا وكاميرون (كام للتحبُّب) وبيغي، للدراسة في سويسرا.

بعد عودة الأسرة من تجوالها إلى الولايات المتحدة، سُجِّل والدي طالبًا في السنة الثانية بأكاديمية فيليبس آندوفر؛ ثم انتقل منها إلى جامعة ييل، حيث تخرج مع دفعة العام ١٩٣٧، التي شملَت من الأعيان، بوتر ستيوارت، الذي أصبح عضوًا في المحكمة العليا، وشخصية البترول المهمة في ولاية تكساس بيري باس. لقد وجدتُ أن من المثير للاهتمام تسمية تاريخ دفعة العام ١٩٣٧ «موعد مع القدر» .

بدا أن هذا القدر يعبِّر عن نفسه بسرعة. ففي صيف العام ١٩٣٩، أي قبل سنة والدي الأخيرة في كلية الحقوق بجامعة هارفارد، سافر إلى سان برياك سور مير، وهي مدينة صغيرة تنام على الساحل الفرنسي الغربي في منطقة بريتانيا، المسمّى الساحل الزمردي الذي كان يستقبل المصطافين على شاطىء صخري جميل تتخلّله شواطئ رملية متناثرة خلال المد الكبير، عندما تكون جاذبية القمر في أوجها. تؤدّي ظاهرة المد والجزر تلك، إلى ارتفاع وانخفاض في مستوى مياه البحر يصلان حتى ثلاثين قدمًا، تاركةً المراكب الشراعية الصغيرة ومراكب الصيد ملقاةً على قاع المرفأ، وكاشفةً مساحات رملية كبيرة تصل إلى عدة أميال، عند انسحاب المياه. إنها قوة الجاذبية نفسها التي تدفع مياه المحيط إلى الانقضاض على قمة سان ميشيل

الشهيرة بسرعة حصان يعدو جامحًا. كنا، نحن الصغار، نزور دير كلوني، أو نمشي على الشاطئ حتى أبعد مساحة مسموحة، إذ نواجه بعد ذلك الرمال المتحركة؛ ثم نركض عائدين مع ارتفاع المد، في سباق أشبه بلعبة مطاردة مع قوة جبارة. في وقت لاحق من العمر، كنت أنا وأبناء عمومي ننتظر بفارغ الصبر حدوث المد الكبير، لكي نلهو بالحفر في الرمل على مقربة من المنزل الذي تملكه أسرة والدتي هناك، بحثًا، بين الصخور، عن أسماك الإنقليس الرملية الصغيرة، ثاقبة الرمل، أو الأخطبوط. ما من كلمات قادرة على وصف المتعة الصافية التي يولِّدُها الدوس بأقدامٍ حافية تتلوّى على الرمل المشبع بمياه المد؛ النسيم الدافئ العليل الذي يلفحٍ أجسادنا ونحن نهرع إلى الصخور التي انكشفت لتوِّها بعد انحسار المد، مسلَّحين بشناكل معدنية طويلة نسبر بوساطتها الثقوب الصخرية لاستخراج أخطبوط حي من حين إلى آخر، ثم نقلبه وندقّه كالمجانين بمطرقة خشبية لتليين لحمه. يستطيع الأطفال قضاء ساعات لا تُنسى في ممارسة أنشطة كهذه.

سان برياك، فرنسا، وأوروبا على نحو أشمل، كانت موطن أسرة والدتي الموسَّعة منذ العام ١٩١٢، عندما انتقل جدَّاي لوالدتي، جيمس غرانت فوربس، ومارغريت تيندال وينتروب، من بوسطن. كان جدي شريكًا في شركة وليم بلير - William Blair، حيث كان منخرطًا مع بييترو جياني في تأسيس مصرف بنك أوف أميركا. كان هذا العمل وراء عيشه حياة موزّعة بين إنكلترا وفرنسا. وأنا على يقين من أن ذلك كان في دمه، حقيقة.

فقد وُلد جدي في شنغهاي، حيث كان والده يعمل في التجارة مع شريك صيني. كانت أسرة فوربس منخرطة في التجارة مع الصين منذ زمن بعيد، في مجالات عدة، كشحن الفراء والفضة والمنتوجات الصناعية والنسيج والخشب، أي كل ما يمكن أن يُباع في الصين مقابل شحنات الشاي والحرير والخزف والأثاث المنزلي المخصص للزينة. كانت تجارة رابحة، على الرغم من وجود إشارات خبيثة إلى أن الأفيون كان من ضمن تلك التجارة. ومن الجدير بالقول أن جزءاً كبيراً من تاريخ بوسطن قد بُني على شجاعة وعناد أولئك الذين ركبوا البحار بحثًا عن الثروة في أقاصي الأرض. وكان في أسرتنا كثير من أولئك المغامرين الذين شكّلوا جزءًا من هذا التاريخ. كانت الأسرة تفخر بهم.

ما الذي جعل أسرة جدّي لوالدتي تختار الغربة لفترة طويلة بهذا القدر؟ لم أحصل على إجابة وافية عن هذا السؤال ولا شرحًا كافيًا لدوافعه. وللأسف، لم أستكشف ذلك بما يكفي، وأتمنى الآن لو أنني فعلت. بالطبع، كانت سنوات العشرينات والثلاثينات تزخر بقصص أميركيين يعيشون حياةً

مترفة في أوروبا. وقد تأثّر العديد من طلاب الجامعات بالأفلام والكتب التي وصفت تلك الحقبة. وحقيقة الأمر أنني، خلال سنوات دراستي في جامعة ييل، جريت مع الثيران في بامبلونا، وارتدتُ حلبات مصارعة الثيران سائرًا على خطى همنغواي، وباحثًا عمّا قرأته في رواياته.

ما أعرفه، هو أنّ جدَّتي اتَّبعَت كليًا أسلوب الحياة الأرستقراطية الإنكليزية الريفية. كانت تملك ذوقًا رفيعاً (مكلفاً)، وتنفق بسخاء من أجل الحفاظ على أسلوب الحياة الذي كانت تريده. فقد نشأنا نحن الأطفال وترعرعنا في ظلِّ قصص رائعة تحكي مغامرات جدِّنا وجدَّتنا عندما كانا في مقتبل العمر. تبدو تلك القصص وكأنها خارجة لتوّها من صفحات الروايات أو الأفلام. كانت أسرة جدي فوربس قد رُزقَت بأربعة بنين وسبع بنات: جيمس، جوك، غريزلدا، آيلين، أنجيلا، روزميري، يان، أليستير، آيريس، مونيكا، فيونا. يبدو أنّ جدّي كان مقتنعًا بالمثل القائل إن سعر الجملة أرخص من سعر المفرق. كان يسافر كالمجنون في إطار أعماله، ويبدو أن ذلك لم يمنعه من إيجاد الوقت الكافي للعودة وإحبال جدّتي. وما إن يحقّق ذلك، حتى يعود إلى أسفاره وأعماله، تاركًا جدّتي في مواجهة حملها الجديد.

كانت الأسرة تعيش في منزلين بديعين معروفين جدًا في منطقة سوراي من الريف الإنكليزي: سكويريز كورت وبارو غرين.

خلال تلك السنوات الأولى لم تقتّن الأسرة في أي شيء. فقد كان البيت يعجُّ بالمُربّيات وعاملات التنظيف والسائقين وعمال البستنة والممرِّضات والطبَّاخين والخدم. وبالطبع، كان هناك العديد من الجياد والكلاب المتنوعة! في الواقع، كانت تربية الأطفال تقع على عاتق المُربّيات. وكان ذلك مألوفًا في أوساط الأُسَر الثريّة. لذا كانت الأبوَّة والأمومة مهمّة تنظيميّة أكثر مما هي عمليّة. كانت المُربّيات يحرصن على التأكُّد من أنّ الأطفال قد استحمُّوا وارتدوا ثياب النوم المناسبة، وشكروا والدَيْهم وعانقوهما، وتمنُّوا لهما ليلةً طيّبة. كانوا يرتدون ثيابًا مفصَّلة على قياساتهم، مصمَّمة في أشهر المخازن اللندنيّة المتخصّصة بملابس الأطفال، بما في ذلك المعاطف المخمليّة الجميلة التي كانت تُطرَّزُ أسماؤهم على حواشيها الداخليّة. بعد حين، طُويت تلك الملابس ورُميت في قاعة اللعب من المنزل المرمّم الذي كان لجيلي من الأحفاد امتياز الإقامة فيه. كنّا نتأنّق ونلعب مزيَّنين بتلك الكنوز التي لم تعد مناسبة، وتنتمي إلى عصر مضى.

عندما كان يحين وقت العطلة الصيفية، كانت جدتي تستأجر ثلاثة منازل على شاطئ بريتاني الفرنسي، وحافلةً يتكوَّم فيها الأطفال لتنقلهم إلى العبَّارة، ثم تتلقَّفهم حافلةٌ أخرى على ضفة المانش الفرنسية لتوصلهم إلى الفيلات. وينتقلون من هناك إلى التمارين الرياضية الشاطئية والوجبات الفخمة واللعب والشاي، وبالطبع، مختلف المغامرات الأخرى التي تعيشها أسرةٌ مترامية الأطراف أثناء لهوها.

في العام ١٩٢٨، اشترى جدّي عقارًا جميلًا يقع على نتوءٍ بحريٍّ في سان برياك سور مير، المدينة المجاورة للفيلات المستأجَرة. سمّى العقار لي زيسار، أي الأرض المقطوعة الشجر، أو المساحة المفتوحة. كان المنزل ولا يزال، يشكِّل وفق قناعتي أحد أجمل المناظر الطبيعية في العالم وأعظمها، إذ يطلُّ غرباً عبْر شجرة يابانية زرعها جدّي، على خليج صخريٍّ يصل حتى جروف شبه جزيرة كاب فرييل البعيدة، بل يتعدّاها، على شبه جزيرة بريتانيا نفسها، التي تشكِّل نتوءًا يرسم حدود بحر المانش الجنوبية. كان أيضًا، يطلُّ على فور لا لات، ذلك الحصن القروسطيُّ الذي جرى فيه تصوير المعارك المصيريّة لفِلم الفايكينغز الذي أُنتج عام ١٩٥٨، حيث مثّل دور البطولة كيرك دوغلاس وتوني كورتيس. لسنوات عدّة، كنّا نحن الأطفال نقوم بما يشبه رحلة الحجيج إلى الحصن، حيث كنتُ أنا وأبناء أخوالي وخالاتي وشقيقتي ديانا، نعيد تمثيل مشاهد المعركة الأخيرة أعلى قمة البرج، نقفز فيدبّ الذعر في قلوب المشاهدين لجُرأتنا وتهوُّرنا!

أصبحت لي زيسار مركز حياة والدتي وأُسرتها في فترة ما قبل الحرب. ومن العام ١٩٢٨ وحتى اجتياح ألمانيا لبولونيا، تمتَّعت الأسرة بأوقات ريفيّة وديعة في ظلِّ حياة أسريّة تفيض بالطاقة الشبابية. كان البيت مبنىً ضخمًا مشيَّدًا على الطراز الفيكتوري. بدا لي في الصور التي رأيتها مظلمًا وخانقًا، لكنّ الأسرة كانت تعشقه، وخصوصًا جدّي. وبفضل إلحاحه، أُعيد بناؤه أخيرًا بعد الحرب. لم تذهب والدتي إلى المدرسة بشكل رسميّ قط. في حين ذهب الصبية إلى الدراسة في إيتون. كانت والدتي وشقيقاتها يتعلّمن بإشراف مدرسين خصوصيين في منزل صغير من ملاك العقار. اليوم، يستخدم هذا المنزل كغرفة إضافيّة عندما يزدحم الزوّار في المنزل الرئيسيّ. عاشت والدتي وأشقاؤها وشقيقاتها حياة نشِطة مغامِرة لا مبالية، بل مُدلَّلة. لكن لم يكن يُنظَرُ إلى تربية أطفال ذلك الجيل، كما يُنظر إلى تربية الأطفال اليوم.

كانت المرّة الأولى التي ظهر فيها والدي في حياة هذه الأسرة عام ١٩٣٩. كان قد زار سان برياك صبيًّا صغيرًا. ثم عاد إليها لدراسة النحت خلال

العطلة الصيفية قبل سنته الأخيرة في كلية الحقوق. هناك، تعرَّف إلى روزميري إيزابيل فوربس، الوسطى بين بنات آل فوربس اللواتي كنَّ جميعهن يستمتعن بقضاء استراحة صيفية. هناك أحَبَّها وأحَبَّته. كان من الصعب تخيُّل عدم حدوث ذلك بين شاب أنيق، طالب في كلية الحقوق بجامعة هارفارد، يدرس النحت، وشابة أميركية خجولة إلى حدٍّ ما ولكن جذابة، تعيش في الخارج مع هبوب رياح الحرب كخلفيّة لذلك كله. بدا أن لقاءهما لم يكن مجرَّد معرفة عابرة.

كانت شقيقة والدتي أنجيلا، امرأة آية في الجمال، ذكية ومنفتحة. تزوّجت مؤخرًا بفريديريك وينتروب، وهو واحد من أهالي هاملتون ماساتشوستس. كانت تعيش في مزرعة آل وينتروب المسمّاة غروتون هاوس، وقد أُطلق عليها هذا الاسم، تكريمًا للمدينة الإنكليزية التي غادر منها جدُّنا الأكبر جون وينتروب، على متن الآرابيلا، ليصبح حاكم مستعمرة ماساتشوستس باي. كان هو من ألقى من بوسطن بعد عدّة أيام الخطاب الشهير الذي قال فيه: «سوف نكون مثل مدينة على جبل[2]» . وقد استخدم هذا الاقتباس الرئيسان جون كينيدي ورونالد ريغان. خلال ذلك الصيف، قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، زارت أنجيلا وفريد منزل لي زيسار. خلال تلك الزيارة، طلبَت روزميري من أنجيلا البقاء على اتصال مع ريتشارد كيري، وكان لها ذلك. فقد استجابَت أنجيلا لرغبة شقيقتها، ودعَتْه إلى غروتون هاوس لتناول غداء عيد الفصح في الربيع القادم. هناك، أفضى والدي إلى أنجيلا بموافقة روزميري على الزواج به، وأطلعها على البرقية التي كانت تقول بمنتهى البساطة: «نعم مع حبي. روزي» .

أتذكَّر جيدًا صوت تحطُّم الزجاج تحت قدميَّ. كنتُ أمسك بيد والدتي، وأسير بين خرائب لي زيسار. في صيف العام ١٩٤٥، نسف الجنود الألمان منزل والدتي الأثير وأحرقوه، قبل أن يُطردوا من سان برياك. نحن الآن في العام ١٩٤٧. كنت في الرابعة من العمر، وكانت المرة الأولى التي تعود فيها والدتي إلى فرنسا بعد سنتين من انتهاء الحرب. كانت رحلتي الأولى خارج الولايات المتحدة في سنٍّ مبكرة من الطفولة. لم أكن حقًا أدرك أين كنتُ، أو ما الذي كان يحدث. لكنني أتذكَّر بوضوح بعض الأمكنة والأصوات، كما أتذكَّر بعض المشاعر والعواطف. كان كلُّ شيء واضحًا وجديدًا في تلك اللحظات الأولى من ذاكرتي. لذلك أنا واثق جدًا بصحة ذكرياتي القليلة عن ذلك الزمن البعيد.

كانت والدتي تبكي، وأحزنني ذلك. لم أكن قد رأيتها تبكي من قبل. لم أكن أدرك لماذا كانت حزينة إلى هذا الحد، لكنني سِرتُ إلى جانبها مطيعًا. كان هناك درج حجريٌّ يرتفع في السماء، وينتصب وحيدًا على طرف الخرائب. كان هناك أيضًا مدخنة تتَّجه بشكل مماثل نحو السماء فوق الخرائب، في الجانب المقابل لما كانه المنزل ذات يوم. هذا كلُّ ما كنت أتذكَّره. لكنّ صورة الدمار ودموع والدتي ظلَّت تلازمني لتتحوَّل لاحقًا إلى انطباع قوي عن آثار الحرب. كنت أتقدَّم في العمر، وأدرك معنى رحلتي الممتدّة من حرب والديَّ إلى حرب جيلي. لم تكن تلك المقدّمة الأولى عن نتائج الحرب بدايةً محتملةَ الحدوث لأيٍّ يكن. لكن في أسرتنا بدا الأمر مألوفًا.

كنا نقيم في ميليس ماساتشوستس، لقد كانت موطننا. كان والدي يمارس مهنة المحاماة في مكتب بالمر أند دودج بمدينة بوسطن، بينما تؤدّي والدتي دورها كربَّة منزل تهتمُّ برعاية طفليها: أنا وبيغي.

في ذلك الحين، لم تكن مدينتنا أكثر من بلدة ريفية في ضاحية من ضواحي بوسطن. كنا نقطن إلى جوار مزرعة صغيرة، اسمها ساوث فارم. أتذكَّر بوضوح عندما كنت أسبح في البركة، كيف كنت أرتعد خوفًا من أسماك الإنقليس التي كنت أظن أنها أفاعٍ. ولا يزال هذا الرهاب يلازمني حتى اليوم. كانت شركة كليكوت كلوب كومباني، وهي مؤسسة تقوم بتعبئة زجاجات الصودا، قد اختارت مقرّها في ميليس، وكان مصنعها يملأ الهواء بعبق الروائح الشذية. كنت أتساءل عمّا يحدث في الداخل، وأحلم بأن أكبُر وأصبح رجل الأسكيمو الذي يظهر على الملصقات. وفي عزِّ الصيف، كنت أنا وشقيقتي بيغي نرتدي ملابس الثلج الثقيلة، ونلعب لعبة الأسكيمو. أعجَبُ كيف لم يكن يغمى علينا إثر ضربة شمس. في بعض الأيام، كنت أجلس في حضن المُزارع الذي يقود الجرّار، ببشرته الملوَّحة بالشمس، وقاموس مفرداته الحافل بالشتائم المتنوعة، التي يطلقها كلّما رفض محرك جرّاره التجاوب، أو حدث تهريبٌ في الزيت. كنت فخورًا بتلك التربية المُبكرة على الكلمات البذيئة، تلك العبارات السحرية التي قال والداي إن عليّ ألّا أتفوَّه بها قط وأن أنساها سريعًا. أذكرُ أنني كنت أجلس في حضنه لساعات بينما كنّا نحرث أو نعزق حقلًا. كنت مفتونًا باستمرار تمدُّد أثلام الأرض المحروثة، وهي تتوسّع في خطوط أنيقة.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

فيما بعد، سيحدث لي أن أقود جرارًا في غروتون هاوس، وحتى اليوم، يمكنني أن أُسعدَ جدًّا بمجرد الحراثة، وقياس التقدم الذي تمكّنت من إحرازه.

وقد وجدت ذلك مرضيًا للغاية. من حين إلى آخر، كان والدي يرفعني ويضعني في حضنه، حيث أتمكّن من قيادة سيارة الجيب على الطريق، مستخدمًا شجيرات الأزاليا كعلامات توجيه. كانت الحياة بسيطة وممتعة.

هذه الأيام، يعتريني شعور دافئ باطني بالحياة التي عشتها في ميليس. كانت مدينة نموذجية من الشمال الأميركي الممتد من ميلووكي حتى كيبك في كندا، حيث جميع السكان يعرفُ بعضهم بعضًا. كانت حاضنتنا تدعى هيلين كاسيدي، ابنة المزارع الذي كان يملك مزرعةً أسفل الشارع، مزرعة كاسيدي. كنّا نتوقّف فيها لأمر أو لآخر. وكنت أتسكّع في فناء المزرعة قرب الحظيرة. ذات مرة، كنت شاهدًا على قطع رأس دجاجة. لن أنسى قط منظر باقي الدجاجات وهنّ يقفزن ويقوقئن في الفناء احتجاجًا. بعد ذلك، كنت أبقى بعيدًا ولا أقترب من الحظيرة. كان آل كاسيدي جيرانًا رائعين. بعد سنوات، لدى ترشُّحي، سوف يظهرون في حياتي ويذكّرونني ببعض مغامرات تلك الأيام الخالية.

فجأة، ذات يوم، انتهى ذلك كلُّه، إثر انتقالنا إلى العاصمة واشنطن، حيث تسلّم والدي مسؤوليات جديدة، بدايةً، في قسم البحرية، في السلك الخارجي، عندما قام جون فوستر دولز بتوسيعٍ رئيسيٍّ في وزارة الخارجية. في ذلك الحين، لم أكن أعرف شيئًا ممّا يدور من حولي. كل ما كنت أعرفه، هو أنني كنت أكره أن أقول وداعًا، كانت الوداعات الخيط المشترك الذي ربط مراحل طفولتي كلّها.

في العاصمة واشنطن، سكنّا في منزل بجورج تاون يقع في شارع دومبارتون 2725، قبالة منزل المحرِّر الصحفي الشهير جو آلسوب. كان يملك ببغاءً رائعًا. ومن حين إلى آخر، كنت أملك ميزة السخرية منه واستفزازه. بدأت أرتاد مدرسة جاكسون الابتدائية التي تقع في آر ستريت، ولا تفصلها عن المنزل سوى بضعة أبنية. وفي نهاية المطاف، ذهبت إلى مدرسة سانت ألبانز سكول التابعة للكاتدرائية الوطنية.

كانت سانت ألبانز مدرسة متطلِّبة وصارمة. أتذكّر بوضوح ما الذي كان يحدث عندما نخالف قواعد النظام. كان ثمة ناظر يقال له المستر سبايسر، يأخذنا من رقابنا ويضغط عليها كالكماشة بين إبهامه وسبابته مجبرًا إيانا على الخضوع. كان ذلك مؤلمًا. وسرعان ما حقّق غايته في إخماد كل رغبة لديّ أو لدى الآخرين في إثارة الفوضى والصخب. كانت المدرسة تطبِّق نظامًا للعقوبات. وإذا لحق بك ما يكفي منها، فقد تقضي صبيحة يوم السبت محتجَزًا في باحة المدرسة، وقد وجدتُ السبيل إلى قضاء العديد من تلك الصباحات أيام السبت.

كنت ألعب كرة القدم في الخريف، والمصارعة في الشتاء، والبيسبول في الربيع. سوف يميّز هذا الدخول المبكر في ثلاث رياضات مختلفة سنوات دراستي الجامعية. كنت بفضل والدتي شبلًا تواقًا ومتحمسًا في الكشّافة. ففي مرحلةٍ من سنوات إقامتها في إنكلترا، التقَت والدتي اللورد بادن باول، مؤسِّس الكشافة. إثر ذلك اللقاء، أصبحَت من أشدِّ المؤمنين بها. وسرعان ما سجَّلت بيغي كبرعم، ثم أصبحَت فتاةً كشفية، وسجَّلتني كشبل. لكن أمّي لم تكتفِ بتسجيلنا والتفرُّج علينا من بعيد، من جوانب الحدث، بل كانت أيضًا لبوة العرين، وقائدة زمرتنا. كان صحفيُّ فوكس نيوز المستقبليّ، بريت هيوم، في عرين الأشبال نفسه الذي كنت أنتمي إليه، ولا بدّ أنني فعلت حياله شيئًا سيئًا ظلَّ يؤرِّقني طوال حياتي السياسية. لكنّني أحببت الكشافة، وانخرطت في مشروعاتها بحماسة، مواصلًا التقدُّم، حتى بلغتُ مرحلة: «سوف نكون كشافةً مخلصين» التي تأتي بعد مرحلة الأشبال، وتضمُّ الكشافة المكرَّسين.

كان والدي يملك مجموعة متطوِّرة من الأدوات التي اشتراها من مخازن سيرز وروبوك. كانت تشغل قبوًا يقع في العنوان رقم ٣٨٠٦، جنيفر ستريت، حيث كان والدي يختفي لساعات، وهو يعمل على صُنع المكتبات والخزائن. وكان إنجازي الأكبر في تلك السنِّ المبكِرة، أنني كسبت ما يكفي من الثقة، حيث سمح لي باستخدام تلك الأدوات على مزاجي. كنت أشغل نفسي في حلّ أحاجي الصور المتقطّعة (البازل) وفبركة أشياء غير صالحة للاستخدام. ذات يوم حزين، تبيَّن مع ذلك، أنه كان مفيدًا، وجدتُ كلبي الجميل، ساندي، مدهوسًا وميتًا في قناة طريق رينو الجانبية، على مقربة من ناصية منزلنا. كان ساندي أوَّل حيوان أليف عرفته ورأيته ميتًا. أتذكَّر عندما حملته وأخرجته من القناة كم كان متيبّسًا، جامدًا وباردًا. تساءلت: كيف لشيء كان ينضح بذاك القدر من الطاقة والحيوية أن يتحول إلى برودة وجماد؟ في ذلك اليوم، دارت بيني وبين والدتي أوّل محادثة بشأن الموت، تلتها محادثات أخرى كثيرة.

صنعتُ نعش ساندي بمساعدة والدي. استيقظنا جميعًا في الصباح وذهبنا بالسيارة إلى فرجينيا، حيث ساعدَت والدتي مدرسة بوتوماك (اسم رديف لواشنطن العاصمة) العليا للتجارة، على تطوير مسار نزهةٍ طبيعيٍّ لا يزال قائماً حتى يومنا هذا، ثم دفنَّاه هناك في مكان هادئ مرتفع يشرف على المسار. ما زلت أحتفظ بصورة رائعة لي مع ساندي جالسَين على كرسيِّ البابا، مسرورَين وخاليَي الوفاض تمامًا. كنت دائمًا أتذكّر ساندي كرفيقي وصديقي الشخصي. كان رفيقًا رائعًا، وبسببه، كنت دائمًا، منذ ذلك الحين، أقتني كلبًا كلما استطعت، بما في ذلك، اقتنائي كلباً على متن مركبي في فييتنام.

ثم دخل الدين حياتي. كنت أحضُر القدّاس رفقة جدّتي ووالديّ. لكنّني على غرار معظم الأطفال، كنت أنظر من حولي، وأنتظر النهاية لكي أقفز خارجًا. إنها تلك الفترة التي كانت الأُسَر المتدينة تتشارك فيها تجربة وعادة حضور القداس من دون معنىً حقيقيٍّ لذلك. لم أبدأ بالتفكير في ما نفعله وفي دوافع فعله، إلّا عندما بدأتُ بتحضير قربانتي الأولى في كنيسة شيفي شيس ماريلاند. وكان هذا بالضبط الغاية المرجوَّة من تحضيرها. أتذكّر أنني كنت متأثرًا بعمق في أثناء مناولتي القربانة الأولى. في حالتي، كان التحضير يشمل الصفعة التي وجَّهتها إليّ إحدى الراهبات عندما كنت أشاكس أثناء اصطفافنا بانتظار التوجُّه نحو الصفوف. فقد منحني ذلك إحساسًا حقيقيًّا بتوقُّع اللحظة التي سأكون فيها قادرًا على إحضار يسوع داخل روحي. لم أكن أعرف شيئًا عن تحوُّل الجوهر بالخبز والنبيذ، وأنهما جسد المسيح ودمه، لكنني كنت مقتنعًا أن المناولة المقدسة سوف تقرّبني من الله. وكان ذلك مهمًا في مجموعتي. عندما حان يوم المناولة، كنت متألّقًا، أو هكذا ظننت نفسي، في بذلتي البيضاء. أخيرًا، عندما جاءت اللحظة، كنت مع بقية المتلقّين جنبًا إلى جنب. واعتراني شعور عظيم بالسرور والهناء. شعرتُ كما لو أنّ هذه الأشياء كانت الحق والخير، وهكذا يفترض أن تكون. فيما بعد، كان الأمر مماثلًا في أثناء تأكيد القربان المقدس، إذ اعتراني شعور التوقُّع نفسه، والإحساس بأن ما يحدث لي من أشياء كان مصدر خير وغنى. خلال التأكيد، وقف الأسقف قبالتنا، وراح يطرح الأسئلة. لدى السؤال الأول، ارتفعَت يدي مع بقية الأيدي. لم يكن ذلك متوقعًا، لكنّ نيافته أشار إليّ، فنهضتُ واقفًا وكان جوابي أشبه بالصراخ. كان والداي مصدومَين، ولكن فخورَين في الوقت نفسه.

كنتُ أقيمُ في منزل طفولةٍ جديد، وكنت أحبُّه، وأحلمُ بأن أكبُر إلى درجة تسمح لي بتوزيع صحيفة الواشنطن إفننغ ستار، مستعينًا بعربتي ذات الأضلاع الخشبية الحمراء، حيث أستطيع تكديس الصحف. كنتُ أيضًا على وشك البدء باللعب في دوري البيسبول للناشئة، وهو هدفٌ يصعب تحقيقه على طفل يحتاج إلى استجداء والده، الذي لا يحب البيسبول، ليرافقه إلى ملعب غريفيث ستاديوم، حيث يستطيع حضور مباريات فريق السيناتورز. كنتُ معجبًا إلى حدّ الهوس باللاعب إدي يوست، وكنت أتابعه عن كثب. حتى أنني تمكَّنتُ من انتزاع توقيعه على عصا بيسبول لا أزال أحتفظ بها حتى اليوم.

ثم هكذا ببساطة، حان وقت الرحيل ثانيةً. فقد أعلن لنا والدي أنه قد عُيّن مستشارًا قانونيًا لدى المفوَّض السّامي في ألمانيا، وأن علينا الذهاب للإقامة في برلين. لم أصبح صبيّ كشّافة، ولم أوزِّع الإفننغ ستار، ولم أعش تجربة دوري البيسبول للناشئة. لا شيء من ذلك كلّه يستحق الشكوى. ولكن ثمَّة أحداثاً مهمة، يُفترض أن تكوِّن جزءًا من حياة صبيٍّ صغير، خصوصًا أنها

كانت قد بدأتْ تزرع بي تطلّعات وآمالًا، لكن لم يكن لي حق إبداء الرأي في هذه المسألة.

لا أعتقد أن والديَّ قد فكَّرا في أن ذهابنا إلى أوروبا، يعني التخلّي عن أشياء كانت تهمُّني حقًا. فيما بعد، أي بعد عودتي إلى الولايات المتحدة لمتابعة الدراسة الثانوية، كنت أحضر مباريات ابن خالتي الأصغر منّي سنًّا، روبي وينتروب، الذي كان يلعب في دوري البيسبول للناشئة، وكنت أقول في نفسي: لو أنني كنت ألعب أيضًا، لشعرت بمتعة عظيمة.

عشت في طفولتي مغامرةً رائعة، لكنّها لم تكن المغامرة اليوميّة المعتادة التي عاشها معظم أبناء جيلي. فعلى الرغم من الفرص المذهلة التي أتيحت لي، والتجارب التي عشتها، وصقلت شكل حياتي، كان ثمة جزء من ذاتي يتوق إلى مشاعر الراحة والتعاطف التي تمنحها الألفة، كالحيِّ الواحد، والمدرسة الواحدة، والفناء الخلفي الواحد، والجيران أنفسهم من سنة إلى سنة.

الآن، حان وقت الرحيل إلى برلين، وعيش حياةٍ جديدةٍ في مكان يعني الكثير لوالديّ. انطلقنا في المغامرة الكبرى، بعد أن حزمنا كل أمتعتنا، تاركين موطننا للذهاب إلى ألمانيا، والعيش فيها. في مكان ما من تلك الرحلة، علمتُ أنني ذاهب للدراسة في سويسرا. كان الأمر مقضيًّا، ولم يكن ثمة نقاش ولا خيار. قبلتُ لمجرد الإقرار بأن هذا ما تفعله عندما تراهن على كل شيء، وتترك وطنك لترحل إلى بلد آخر. كان والدي قد ارتاد المدرسة في سويسرا. لذلك على الأقل، كان هناك منطق تاريخيّ يبرِّر هذا القرار. كان شقيقي وشقيقتي الصغيران يكملان الرحلة إلى برلين للعيش مع والديّ. في ذلك الحين، لم أكن أعرف تمامًا أين كانت سويسرا، ولا أملك أدنى تقدير للمسافة التي ستفصلني عن والديّ. لا شك في أنني لم أفكِّر بمعنى التخلّي عن الأمان الذي يوفِّره العيشُ مع الوالدين والأشقاء في منزل واحد. ما كان يثيرني، في ذلك الوقت هو فرصة عبور المحيط على متن إحدى أعظم سفن ذلك الزمن، وهي الإس إس أميركا. كانت أصغر حجمًا من الإس إس يونايتد ستيتس، التي تحتفظ برقم السرعة القياسي في عبور الأطلسي، والتي سافرنا على متنها إلى النروج سنة ١٩٥٨، لكنها كانت سفينة جميلة بتصميمها الأنيق، ووسائل الراحة الرائعة المتوافرة على متنها. صدِّقوا أو لا تصدِّقوا أن الديبلوماسيين الأميركيين كانوا، في ذلك الزمن، يسافرون بالدرجة الأولى. لذلك أثار دهشتي أكثر، هو أننا كنا نسافر بفخامة.

تمكَّنت والدتي بطريقةٍ أو بأخرى، من ترتيب أمور السفر. فقد حزمت صناديق كبيرة، وضعت فيها كل ما يلزمنا أنا وشقيقتي بيغي في مدرستينا

الداخليَّتين. في تلك الفترة، كان والدي يقيم في باريس. كان يدرِّسُ في جامعة الدفاع التابعة لحلف شمال الأطلسي. وكالعادة، كانت مهمة تدبير الأمور الصعبة من نصيب والدتي. ركبنا القطار الذي أقلَّنا من واشنطن إلى مدينة نيويورك، حيث مكثنا يومًا أو يومين قبل الصعود على متن السفينة. لم تكن مهنة تأجير السيارات قد اختُرعت بعد، وكان السفر بالطائرة مع كلّ تلك الأمتعة أمرًا مستحيلًا. كانت أمّي قد وضعت برنامجًا هائلًا لليلة السفر. ذهبنا إلى برودواي لحضور مسرحية بيتر بان، التي تؤدّي فيها ماري مارتن دور البطولة. لا زلت حتى اليوم، أتذكَّر الرَّعشة التي سَرت في جسدي عندما رأيت بيتر بان يتمايل محلِّقًا فوق الجمهور، معلَّقًا بأسلاك شبه خفيّة. أمّا الكابتن هوك، فقد أشعرني برعبٍ لا حدود له، حتى أنني لفترة من الزمن، كنت أحلم بتماسيح وجرس ساعةٍ يدقُّ في البعيد. كانت نيويورك مدينة مذهلة، وبدايةً عظيمةً لمغامرة حياةٍ كنّا على أهبة الخوض في غمارها.

في اليوم التالي، صعدنا على متن الإس إس أميركا. ولو أن طفلاً في الحادية عشرة من العمر وُهب جنّة للَّعب، لاختار ذلك المكان. لقد فُتِنتُ بكل دقيقةٍ قضيتُها في الرحلة، وبدأت أستطلعُ منذ لحظة صعودنا. أتذكَّر كيف كنت أركض من طابق إلى آخر، وكيف كنتُ أُفاجأ، عندما كنت أجد نفسي أمام بوابةٍ كُتب عليها درجة ثانية أو ثالثة. بدا ذلك غريبًا. في بعض الأحيان، كنت أجد طريقةً لاجتيازها، ولكن معظم الوقت، كنت أستكشف مجمَّع الطوابق والقاعات التي تشكِّل الدرجة الأولى. كان هناك طاولات مَيْسَر، وطاولات بينغ بونغ، وأحواض سباحة، وقاعات رياضة، ومخازن وسراديب لا حصر لها، يحلو لك أن تضيع فيها.

كان العشاء مسألةً جدِّيّةً شديدة الأهميّة. إذ كان الجميع يحضرون في الساعة المحدَّدة بملابسهم الأنيقة، لتناول وجبةٍ من أطباق عدّة في قاعةٍ كبيرة ذات مستويين، حيث تعزف كل ليلةٍ فرقةٌ موسيقيّة ألحانًا حيّة. كانت الطاولات العليا والدنيا مغطاةً بمفارش بيضاء وأوانٍ فضيةٍ جميلة، ولقبطان السفينة طاولته الخاصة، لكنه كان يتجوَّل بين الطاولات؛ يتجاذب أطراف الحديث مع المسافرين، ويرحِّب بهم، حيث يجعلهم يشعرون بأهميتهم. كانت هناك على الأقل ليلة خاصة تتخلّلها قبعات الاحتفال، ونثار الورق الملوَّن والبالونات. منذ ذلك الحين، وذكريات تلك العشاءات الممتعة الرغيدة تحضرني، كلّما رأيت في فِلْم ما، مشهدَ وجبةٍ على متن سفينة ركابٍ عابرةٍ للمحيط.

ذات صباح باكر، أبطأت السفينة وتغيّر الهواء، وامتلأ برائحة الأرض، بينما رحنا ننزلق ببطء في الخليج الذي يحيط بميناء كوب، جنوب جزيرة غريت

آيلاند بميناء كورك. ثم توقّفت السفينة تمامًا. اقترب منّا مركب صغير سريع، ورُفع منه رَجلٌ صعدَ إلى السفينة عبْر كُوَّةٍ مسوَّاةٍ في جانبها. علمتُ أنه كان «ملاحًا» متخصِّصًا في قيادة السفينة وتوجيهها عبر القناة. كانت سفوح التلال الخضراء الساحرة التي تنحدر حتى الماء، أوَّل معرفة لي بخضرة إيرلندا المذهلة وجمالها. لم أكن أعرف عن إيرلندا سوى خطوط تاريخها العريضة، وخلفية ظاهرة الهجرة التي شهدتها. كنت أعرف أنّ ثمّة منطقة في إيرلندا، اسمها كاونتي كيري، وكان ذلك يفتنُني على نحوٍ شوفينيٍّ ضيّق الأفق. لم أكن أعرف أنني أشاهد المرفأ الذي رسَت فيه سفينة التيتانيك، للمرة الأخيرة قبل مرفأي ساوثمبتون وشربورغ، لتُبحر بعد ذلك إلى مصيرها المشؤوم. انزلقنا داخل المرفأ الجميل، حيث جاءت سفينة كبيرة توقَّفت بمحاذاة سفينتنا لإنزال المغادرين. لاحظت شابًا وشابةً جميلةً، ربما كانا طالبَين، يسيران معًا، ثم تعانقا قبل أن تغادر الفتاة السفينة مع القادمين إلى إيرلندا. كنت أنا وبيغي، قد باغتناهما ذات ليلة بعد العشاء، يتبادلان القُبل على الجسر السفليّ. كنتُ ممتلئًا بفضول صبيانيٍّ لاكتشاف علاقتهما. نعم، فعلى الرغم من سنّي المبكِرة، كنت قد بدأت أدرك الجنس الآخر إلى الحدِّ الذي جعلني أفتتن بتلك العلاقة. هل التقيا لتوِّهما على متن السفينة؟ هل كانت علاقتهما جدية؟ ما الذي كان يحدث؟ كنتُ مأخوذًا تمامًا بذلك الوداع. كانت صورة هذين الكائنيْن الجميليْن في عالمهما الرومنسيّ، قد انطبعت عميقًا في مخيِّلتي.

في اليوم التالي، وصلنا إلى مرفأ مدينة لو هافر الذي يعجّ بالحركة، حيث استقبلتنا خالتي آيلين. كانت تثرثر بالفرنسية مع الحمّالين الذين كانوا جميعًا يرتدون ثياب عمل زرقاء. في الواقع، بدا في نظر صبي صغير يرى المشهد للمرة الأولى، أن الجميع يرتدون ثياب عمل زرقاء. كانوا منهمكين في تنفيذ تعليمات خالتي الفوضوية بفصل الأمتعة، وكلّ ما تمكَّنتُ من سماعه، كان تلك العبارة المتكرِّرة «wala, wala» ، اكتشفت فيما بعد، أنها كانت كلمة رئيسية في اللغة الفرنسية، «voilà,voilà» ، التي يمكن ترجمتها بشكل أوَّليّ «هاكَ، أو ها هو» . لكن عندما كرَّرَتها خالتي مرارًا، وبسرعة كبيرة في كلّ مرة، كانت تعني بوضوح شيئًا يشبه «ها أنتم هنا، وأنا مرتاحة جدًا ومسرورة بأنّني وجدتكم!» .

من مدينة لو هافر، اتجهنا مباشرةً إلى منزل لي زيسار الذي أُعيد بناؤه وافتُتح السنة الفائتة. بعد مرور سبع سنوات، كنت أتشوَّق للعودة إلى هذا المكان الذي عرفته للمرة الأولى عندما كان خرابًا، وكنت أمسك بيد والدتي. سارت بنا السيارة بمحاذاة شواطئ النورماندي، التي شهدَت الإنزال الكبير خلال الحرب العالمية الثانية، ثم تجاوزنا قمة سان ميشيل، إحدى عجائب

الدنيا. ووصلنا إلى منزل لي زيسار الجديد. لم يكن ذلك المنزل على قدرٍ هائلٍ من الأهمية لوالدتي وأسرتها المباشرة فحسب، بل لكل أفراد أسرتها الكبيرة. فمنذ اليوم الأول لوصولي وحتى اليوم، كان المنزل الجديد وجواره مكانًا شديد الخصوصية في حياتي وحياة أسرتي وامتدادها، وصولًا إلى المزيد من الأجيال الآن.

لقد وضعت جدَّتي المنزل بتصرُّف أفراد الأسرة بالكامل. كانت تملك منزلًا خاصًا في المدينة أطلقت عليه اسم «بليزانس» . وكانت كلّ يوم، تأتي إلى المنزل الرئيسيِّ سيرًا على الأقدام، محاطةً بكلابها، ثم تتّخذ مكانًا في الحديقة وتفتتح الجلسة. كانت امرأة رشيقة وجميلة، تفيضُ حكمةً وأناقةً هادئة، بشعرها الأبيض الموشّى بخصلات مثل خيوط زرقاء.

أصبح منزل لي زيسار نقطة تجمُّع لذريَّتها من الأبناء، الذين أنجبوا الكثير من الأطفال. ذلك النسل الذي أنتمي إليه، جعل من المنزل ملاذًا للأجيال التالية. لكنه كان أكثر من مجرد ذلك. فقد أصبح المكان الذي صنع اللُّحمة بين أفراد الأسرة الذين اكتشفوا حياة الخارج بفضل جدّي وجدَّتي، ووجدوا حياتهم تتفتَّح حيث لعبوا ونشأوا. أمّا نحن، الذين نعيش في أميركا، فقد وفَّر لنا قوَّة الجذب التي وطَّدَت أواصر الصلة بيننا. كان أولاد العم التسعة والعشرون، بجوانب عدّة، أشبه بالإخوة والأخوات. لقد نشأنا معًا، وتقاسمنا الانتصارات والمآسي معًا.

خلال الصيف، كنا نذهب إلى دورات ممارسة التمارين الرياضية على الشاطئ، ونقوم بنزهات عظيمة، ونستعلم عن وقت احتساء الشاي، ونتمتَّع بروعة وجبات بعد الظهر الزاخرة بالبسكوت والشوكولاتة، والشاي أو شراب البرتقال؛ نلعب كرة المضرب، ونستكشف قرى الجوار المحيطة، وتاريخ الحرب؛ نقود الدراجات الهوائية لأميال على طرقات الريف الفرنسي، ونتناول أطعمة غريبة كالفطائر المرقوقة والكعك، تحت أسوار مدينة سان مالو. كنّا نقدِّم المسرحيات التي كتبناها لتسلية الكبار وتسليتنا. كان جوًّا مثاليًّا، وكانت جدَّتي تحرص على ذلك. وفي نهاية الإقامة، لم يكن الرحيل سهلًا على الإطلاق.

خلال تلك الرحلة الأولى للإقامة في الخارج، بدأتُ أشعر بالخوف من الانفصال عن الأسرة. كنتُ على وشك الذهاب إلى مدرسة داخليّة للمرة الأولى، وقد بدأت هذه الحقيقة تتعمَّق. بعد أن انتهيت من وداع أبناء عمي المؤلم، ركبنا القطار واتجهنا إلى باريس، حيث استقبلَنا والدي. ثم ذهبنا بالسيارة من باريس إلى زوغ، في الجزء الألماني من سويسرا. عندما توقَّفنا في زوريخ، ركنَّا السيارة في مرأب محطة القطار، ريثما ينتهي والدانا من

تصريف العملة. نتذكّر بوضوح، أنا وشقيقتي ديانا، أننا كنّا نتدرَّب على اللغة الألمانية مستخدمَين كتاب «كيف تتعلَّم الألمانيّة؟» كنَّا نُخرج رأسيْنا من نافذة السيارة، ونسأل المارّة عن الوقت: «كم الساعة الآن؟ Wie spät ist es?» ، ما أصبح لعبةً مسلِّيةً جدًا، حتى في نظر الذين كنّا نتوجَّه إليهم بالسؤال. لكن المشكلة، هي أن المارّة كانوا يفهمون السؤال فعلًا ويجيبون. كانت أجوبتهم السريعة تجعلنا ننظر ذاهلَين الواحد إلى الآخر، إذ لم نكن نفهم كلمة واحدة مما كانوا يقولون. كنّا ننفجر في نوبات ضحكٍ صاخبة حتى اقتراب الضحية التالية، ونكرِّر التمرين نفسه. وكما لو أنّ ذلك لم يكن كافيًا، فقد تحرَّكت شاحنةٌ كانت تحجب الرؤية، وظهرت ساعةُ محطة القطار الهائلة التي يستطيع الجميع رؤيتها أينما كانوا، فضحكنا بشكل هستيريّ. لا نزال حتى اليوم، يقول أحدنا، «Wie spät ist es?» .

كانت تلك الليلة آخر ليلةٍ قضيتها مع الأسرة قبل التحاقي بالمدرسة. قضينا الليل في أحد فنادق زوغ، أسفل جبل زوغربرغ، الذي شُيِّدَت مدرستي على قمَّته. جعلتني تلك الليلة الأولى في سويسرا أكتشف اللحاف؛ فصبي مثلي، تعوّد أن يأوي إلى الفراش، ويتغطّى ببطانية وشراشف، كان اللحاف في نظره طريقة غريبة للشعور بالدفء. عندما توجَّهنا إلى المدرسة الجديدة صباح اليوم التالي، شعرتُ كما لو أنني ذاهبٌ إلى السجن أو إلى المقصلة. دخلنا إلى فناء معهد مونتانا زوغربرغ، وهو مدرسةٌ في أوج ازدهارها. هناك، جرى تقديمي إلى المدير ورئيس المهجع. كانت ملابسي قد أُفرِغَت. ثم راحت الدقائق تمرُّ، وجاءت ساعة الوداع. كانت الدموع التي حبستُها تتدفَّق الآن. لاحظتُ أنّ والدتي كانت حزينة أيضًا. وعندما تمالكت نفسي وهدَّأتُ من روعي، صعد والداي وأشقائي إلى السيارة، وتلاشوا أسفل الجبل. كانوا يرافقون شقيقتي بيغي إلى مدرستها الداخلية قرب سانت غالن. كنتُ وحيدًا، وابتلعني فراغ هائل. طوال ثلاثة أسابيع، كنت أتصرَّف بشكلٍ آليّ، أفكِّر في البيت، وأشتاق إلى أسرتي، محاولًا بناء الصداقات والتكيُّف مع تجربة اغترابٍ حقيقيّة. كنتُ موزَّعًا بين مشاعر الحزن والتحمُّل والدموع ووجهٍ بملامح شجاعة.

كانت صحوةً قاسيةً، ولكن ساحرةً أيضًا. فسرعان ما راحت الصداقات تتشكَّل. أحببتُ شريكي في الغرفة، باري إلدريدج. ثم خيّمت الرتابة. تمكَّن مراقب المهجع من إقناعي بأنّ الوقت المتبقّي لقدوم عيد الميلاد، وهو تاريخ ذهابي إلى برلين، لم يكن بهذا البعد. بدأت أُحصي الأيام وأرتِّب أمور إقامتي.

كنتُ قد أرسِلتُ إلى هذا المكان بهدف تعلّم اللغة الألمانية. لكن بوجود مئة وخمسين إيطاليّاً، وخمسين ألمانيًا، وثلاثة أميركيين، كانت الإيطالية هي اللغة التي تعلمتها بالأحرى، وخصوصًا الشتائم والكلمات البذيئة. كانت الوسيلة الوحيدة لتمرير الأطعمة على الطاولة. ومرَّت الأيام. كنا نحن الأميركيين القلّة، نحظى بإشرافٍ خاص، وندرس في صفٍّ صغيرٍ منفصل. حلّ الخريف سريعًا على قمة الجبل المشرفة على منظرٍ خلّابٍ لبحيرة زوغ الشاسعة، التي تسمى زوغرسي بالألمانية. كان على مقربة من المدرسة، محطة القطار المُعلَّق الذي يشكِّل صلة وصلنا الوحيدة بمدينة زوغ، وبالعالم الخارجي. كان مسموحًا لنا ركوبه أيام السبت للذهاب إلى المدينة، حيث كنَّا نتسكَّع وننفق نقودنا. في ذلك الوقت، وقعتُ في حبِّ الشوكولاتة السويسرية. من حينٍ إلى آخر، كنّا نذهب في رحلةٍ ميدانيّةٍ إلى زوريخ. أذكر، عندما حلَّ عيد الشكر، أننا دُعينا نحن الأميركيين، إلى تجمُّعٍ ضمَّ أميركيين آخرين في فندقٍ قريب. كنتُ أنتظر رسائل والدتي بفارغ الصبر، وكنتُ أعشقُ تلك اللحظة التي أرى فيها خطَّ يدها المميّز على ذلك الغلاف الأزرق، الذي كنت أقرأ وأُعيد قراءة ما كان يحتوي عليه من حكاياتها عن الحياة في برلين.

بعد تأكيد مناولتي الكاثوليكية في واشنطن، كنت أصلّي كثيرًا في المدرسة. منحني ذلك قوة، وأشعرني بالارتياح. كانت هناك كنيسة صغيرة تحت نافذةِ مهجعنا الواقع في الطابق الثاني، حيث كنتُ أحضر القدّاس أيام الأحد. وليلًا، كنتُ أحياناً أجثو على ركبتيَّ أمام النافذة، وأتلو سلسلة من الصلوات. من حينٍ إلى آخر، كان باري ينضمُّ إليَّ. أتذكَّر أنني عدتُ إلى غرفتي ذات يومٍ لأجِدَ أنَّ باري قد رحل. كان السرير مقفرًا. أخبروني أنه عاد إلى الوطن، من دون تفسيرٍ حقيقيّ. كان ذلك كما لو أنه مات. أذهلني رحيله وشعرتُ بالفقد. كنّا قد أصبحنا صديقين، وكان صلة وصلي بأميركا. كيف تمكَّن هذا الصديق من الاختفاء هكذا؟

بدءًا بألم وداع أفراد أسرتي الذي لم ينقطع، وحتى الفقد المتأخر لأصدقاءٍ تعرّفتُ إليهم أثناء الحرب، كنت في كلّ مرّة، أعيش أوقاتًا رهيبةً بعد كلّ فراقٍ أو وداع، ولا أزال. وعلى الرغم من إيجابيّات التجربة، كانت المدرسة في سويسرا، المكانَ الذي شهد بداية ذلك كلّه.

ذات يومٍ من أيام الخريف، كنّا في الصفوف، عندما لاحظنا في الخارج، وجود عدد كبير من الجنود بالزيِّ العسكري، يحملون البندقيات، ويتنقّلون جريًا في أنحاء الحرم المدرسي. كانوا يندفعون نحو المباني ويتمترسون خلفها، ثم يركضون في المساحات المفتوحة كما لو كانوا يتجنَّبون نيرانًا معادية. كانوا جنودًا من الجيش السويسري ينفِّذون مناورةً حربية. بالطبع، انطلقنا خارج

الصفوف لكي نتفرّج. كنّا هناك، صبيان مدرسةٍ بأكملها، مذهولين لرؤية هؤلاء الرجال، وهم يحاولون التظاهر بأنهم يقاتلون في حربٍ للدفاع عن بلدهم، بينما راح مراهقون إيطاليون وألمان يصرخون ساخرين منهم. أعتقد أن طلاب المدرسة بأكملها تغيَّبوا عن حضور الدروس لبرهة من الزمن من أجل متابعة المناورات. لقد سحرني ذلك. بدا أن أداء دور الجندي كان مثابة هروبٍ بديعٍ من العالم الحقيقي. بالطبع، في الحادية عشرة من العمر، لم أكن أَفْقَهُ إلّا القليل عن وجه الحرب الحقيقي.

في شهر سبتمبر/أيلول سنة ١٩٥٧، وُضعتُ في مدرسة سان بول بمدينة كونكورد، نيو هامبشاير. وصلتُ مع علبة ملابسي التي جرى تطريز اسمي عليها وفق تعليمات مكتب القبول، جاهزًا لخوض مغامرة جديدة. كنتُ في الصف الثامن، وكانت مدرستي السابعة. (في إحداها، أي في مدرسة فيسندن سكول في نيوتن، ماساتشوستس، التقيتُ ديك برشينغ من مدينة نيويورك، الذي كان مثلي، في سنته الانتقالية قبل الذهاب إلى المدرسة الثانوية في إكزيتر ببريطانيا. لم نكن نملك أدنى تصوُّرٍ عن العلاقة التي ستربطنا في المستقبل. لكنّنا استمتعنا بالصحبة التي جمعتنا في تلك السنِّ المبكرة. وقد ساعد وجود ديك على تحويل المدرسة الداخلية إلى مكان ممتع، وفي بعض الأحيان إلى مسرح عفاريت).

يمكنني القول إنني وصلت إلى مدرسة سان بول في حالة من الضياع. كنت قد نُقلت مرارًا من مدرسة إلى أخرى، حيث كان من الصعب جدًّا الارتباط بثقافة أو مكان، وعلى نحوٍ أقل بعلاقات صداقة راسخة ومتينة. لكنني تعلَّمت كيف أتصرّف وأتنقّل على ملاعب كرة القدم في أوروبا. وكسبتُ قدرًا كبيرًا من الاستقلالية والثقة بالنفس أثناء أسفاري فيها. تُرى، كم يبلغ عدد الأطفال الذين يضطرون في سن الحادية عشرة، إلى السفر بمفردهم بالقطار من سويسرا إلى برلين، التي قسَّمتها الحرب الباردة، والبقاء ساهرين طوال الليل من أجل السفر عبر ألمانيا الشرقية، ورؤية الجنود الروس يدقُّون بفوهات بندقياتهم شبابيك المقصورة عندما يمسكون بك متلبسًا بجريمة النظر خلسةً؟

كنت واثقًا بنفسي، لكنني لم أفهم حركة مدِّ التيّار المهيمن في مدرسة سان بول، وجزره. بدا أن معظم زملائي كانوا من فيلادلفيا، ونيويورك ولونغ آيلاند وكونكتيكوت. كان العديد منهم يعرفون بعضهم بعضًا من أيام المدارس الريفيّة النهاريّة، أو المدارس الحضريّة العريقة. وقد أرسى ذلك كلُّه سلسلةَ قيادةٍ هرميّة شبه آليّة. كان جزء كبير من الدعابة وخفّة الظل، واللغة العاميّة الدارجة، مجهولًا لي. وسواءً كانت ستر مدراس القطنية أو أحذية بيل إند كو

الإنكليزية، فقد بدا أنها تشكِّل مرجعيّةً واحدةً في تقييم خلفيّة الطلاب الاجتماعية.

احتاجت إذن سان بول إلى شيءٍ من التكيُّف. ولكن على الرغم من هفواتي الشخصية وخَرَقي، أحببت حميميّة الصفوف، وجمال الحرَم الاستثنائي مع تغيُّر الفصول (خصوصًا، الفترة الاستثنائية التي تفصل بين الشتاء والربيع، المعروفة باسم فصل الوحل)؛ والتبادل الفكريّ بين الأساتذة والطلاب، وبين الأصدقاء أنفسهم؛ وسكينة أداء شانينغ لوفيفر على الأرغن لمرافقة التراتيل المسائية في كنيسة المدرسة البديعة؛ وتعلُّم لعبة الهوكي والاستمتاع بفرادة جليد البُرَك الأسود؛ ورَمْيُ كرة لاكروس، أو لعب الفريزبي الأخير في الضوء الطويل والكسول لمساءات الربيع الدافئة، حيث كنّا دائمًا نؤجِّل وقت الذهاب إلى الدرس؛ وعلاقات الصداقة العميقة، التي استمرَّ بعضها حتى اليوم، وضاعت من خيرتها اثنتان على أرض المعركة في فييتنام. لقد قدَّمَت إليّ مدرسة سان بول الكثير: كل ما يجدرُ بمدرسةٍ أن تقدِّمه، وأنا ممتنٌّ إلى الأبد، للتعليم الذي تلقَّيته بإشراف أساتذة استثنائيين مثل أندريه جاك، وهربرت شيرش، والأب المبجَّل جون توماس ووكر.

في خريف سنة ١٩٦٠، وفي يومٍ من أيام نوفمبر/تشرين الثاني تحديداً، سافرت إلى بوسطن، في زيارة لعيادة طبيب تقويم الأسنان. ركبتُ القطار من كونكورد إلى محطة نورث ستيشن في بوسطن، ثم ذهبت طواعيةً على الرغم من الألم إلى موعدي في كنمور سكوير. كنتُ بعد ذلك أخطِّط لركوب قطار بعد الظهر عائدًا إلى كونكورد. عندما وصلت إلى محطة نورث ستيشن، لاحظت وجود حشدٍ استثنائي من البشر، حيث كان العديد منهم يحملون لافتات كُتب عليها «كينيدي للرئاسة» ، أو يعتمرون قبعات بلاستيكية تحمل اسم «كينيدي» على أطرافها. كان ذلك عشيّة انتخابات السابع من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة ١٩٦٠. وعلمتُ أن السيناتور جون إف كينيدي، على وشك الوصول للمشاركة في تجمُّع الحملة الأخير، قبل الذهاب إلى حيِّ هيانيسبورت لانتظار النتائج.

من قبيل المصادفة، كان مُقرَّراً أن أُلقي في صباح اليوم التالي، قبل الاجتماع المدرسي اليومي الذي يلي الصلاة، كلمةً أستعرض فيها الآراء والحجج في الدفاع عن المرشح كينيدي، بينما يُلقي زميلي في الصف، ممثِّل الطلاب، لويد ماكدونالد، كلمةً في الدفاع عن نيكسون. ربما كان مجموع الديمقراطيين في سان بول لا يتجاوز الخمسة والعشرين. وقد بيَّن الاستطلاع المبدئيّ إثر مداخلتيْنا، ميلًا عامًا لمصلحة نيكسون. مع ذلك، كنّا نحن الديمقراطيين، مجموعةً مصمِّمةً وراسخةً في مبادئها. كان ولائي الديمقراطي

قد صيغ سنة ١٩٥٢، عندما كنت أرافق شقيقتي بيغي طواعيةً في أنحاء جورج تاون، حيث كانت تحمل كأسًا، وتطرق الأبواب بهدف جمع التبرعات دعمًا لأدلاي ستفنسون. فإذا كانت شقيقتي الكبرى ديمقراطية، فأنا البالغ من العمر تسع سنوات ديمقراطيٌّ إذن. أعتقد أنّ والدي ووالدتي كانا يوافقاننا في ذلك. فمنذ أن كان والدي في وزارة الخارجية، كانت ميوله ديمقراطية. لكنني كنت أحب جاك كينيدي، ولم أكن أثق بريتشارد نيكسون ذلك الوقت. كنت أجده ضحلًا وانتهازيًّا.

بقرار سريع، فوَّتُّ القطار قصدًا، وقضيت الوقت غارقًا في ذلك الجو. والأهم من كل ذلك، أنني جمعت بعض الأدبيّات التي مكّنتني من كتابة كلمة صباح اليوم التالي في أثناء سفَري عائدًا إلى كونكورد. لسوء الحظ، تأخَّر المرشَّح، وكان عليَّ أن أعود إلى المدرسة قبل أن يتكلَّم، لكنني كنت دائمًا أعتقد أن من الرائع حضوري هناك، وشعوري بالإثارة الاستثنائية، وباعتزاز ماساتشوستس لاستقبالها ذلك التجمُّع التاريخي.

قضيت الأشهر الأخيرة من دراستي في سان بول في جوٍّ من الرخاء الذي يوفِّره ربيع نيو هامبشاير الدافئ، بينما كنت أنتظر جواب القبول في الجامعة. ومن الجدير بالذكر أن معظم أفراد أسرتي قد درسوا في جامعة هارفارد على امتداد سنوات عديدة. والاستثناء الملحوظ في هذه السيرة السعيدة، كان والدي وشقيقه الأكبر، فقد درسا في جامعة ييل. كنت آمل في الذهاب إلى ييل، إذ لم أكن أريد البقاء قريبًا جدًا من المنزل. وعندما زرت حرمَها الجامعي، شعرت بصواب قراري. كنتُ متحمّسًا جدًّا عندما جاء قبولي في ييل. فقد جعل ذلك أشهري الأخيرة في سان بول خالية تمامًا من الهموم. كنت أنا وزميلي لويس روزفورد، قد خدمنا كمراقبَين لتلاميذ الصف الرابع في أحد المهاجع الصغيرة. وأخيرًا، عندما حان وقت التخرُّج، جاء هو، وبيتر وايت جونسون معي إلى برمودا، حيث عملنا على متن قارب والدي كطاقم آخِر مرحلةٍ في رحلة الإبحار عبر المحيط الأطلسي، وهي رحلة العودة إلى نيوبورت. كانت خاتمةً رائعةً لقيود المدرسة الداخلية، وبدايةً لحرية الجامعة.

قبل أن يُنتخب كينيدي رئيسًا في شهر نوفمبر/تشرين الثاني سنة ١٩٦٠، كان بدهيًّا لأيّ شخصٍ يتابع السياسةٍ في ماساتشوستس، أنّ يكون تيد كينيدي، أصغر الأشقاء الثلاثة الأحياء، مهيَّأً للترشّح واحتلال مقعد جاك في مجلس الشيوخ. قد تكون كلمة «مهيَّأً» ضعيفة، ولا تفي بالغرض. إذ كان الأمر محتَّمًا ومنظَّمًا. في الحقيقة، لم يكن ذلك خيارًا، بل هو ما ينبغي لتيد فعله. وما من شك في أنه كان يريد فعل ذلك. كان السياسيّ الأسهل، والأكثر طبيعيَّة

بين الأشقاء الثلاثة. كان ذا طبيعة اجتماعيّة ودودة، لم يكن ليفكّر في إلهاب مشاعر جمهور قاعةٍ أو حشدٍ، من خلال أداءٍ حماسيٍّ لأغنيةٍ من التراث الإيرلندي، مثل: Molly Malone أو My wild Irish rose. كان يحب القصص البسيطة الجيدة، والضحك من القلب. ويحاول دائمًا عدم تحميل الأمور من الجديَّة أكثر ممّا تحتمل. لكن كان انضباطه مذهلاً عندما تستدعي اللحظة ذلك. كان يبذل في عمله من الجهد، بقدر ما كان يبذله أي شخص من المحيطين به. كان السباق قد وضع أسرتين إيرلنديّتين استثنائيّتين، وسلالتين سياسيّتين، إحداهما في مواجهة الثانية. خلال الصيف، أي بعد تخرُّجي في المدرسة الثانوية، وقبل التحاقي بالجامعة، تطوَّعت في حملة كينيدي الانتخابية. كان يترشَّح ضدّ إدوارد ماك كورماك، المدّعي العام لولاية ماساتشوستس، وابن شقيق الناطق الرسمي باسم البرلمان. بدأتُ العمل بانتظام في مقرّ تريمونت ستريت بمدينة بوسطن. ولئلّا يبدو خصمها في موقع المتفوِّق، استأجرت حملة ماك كورماك، مبنىً كاملًا على بعد خطوات، جعلَت منه مقرَّها. كانت أكبر أسرتين سياسيّتين تتواجهان في أكبر شارع تجاري من المدينة. كان سباقًا تضمّن رهانات كبيرة، وتركيزًا وطنيًا عاليًا.

انخرطت في الحملة بكل طاقتي وحماستي. شابٌّ في الثامنة عشرة من العمر، نفض عنه التزامات الدراسة والامتحانات، وهو على وشك خوض مغامرة الجامعة الرائعة. كان كل شيء جديدًا ومفعمًا بالحيوية. في البداية، كنت أعمل كأيّ متطوع، في عنونة المغلّفات، وإرسال البريد، وجمع التواقيع، وأداء المهمات الصغيرة. وفي بعض الأحيان، كنت أعمل لساعات خلف إحدى طاولات المدخل الرئيسي في الطابق الأول. بمرور الوقت، تعرَّفت إلى بعض أعضاء الفريق الدائمين، وعلى وجه الخصوص، تيري حداد، الذي كان يعمل على مقربة من المتطوِّعين في الطابق الأول؛ فضلاً عن إدي مارتن، الملحق الصحافي، وآلبي كولن، الذي كان يتولّى إدارة شؤون المتطوعين. حتى أنني تعرَّفت إلى صهر تيد كينيدي، ستيفن سميث، الذي كان المدير الحقيقي. في تلك الفترة المبكرة، كان أولئك الأشخاص يشغلون مراكز مهمة في المنظمة. وبدا الوصول إليهم متعذرًا على المتطوّعين العاديين، وهم فئة كنت بلا أدنى شك أنتمي إليها. ولكن بمرور الوقت، وبالعمل الشاق، والحضور الدائم، وإنجاز مهمات غريبة، تمكَّنت من الحصول على مقدارٍ معيّنٍ من الثقة. أعتقد أنني على امتداد الحملة، ألقيت التحية على تيد، وصافحته مرَّتين أو ثلاثاً. أظنّ أنه لم يكن يتذكَّرني بتاتًا، ولكن، تلك هي طبيعة الحملات الانتخابية.

لو قمت بمقارنة غريبة، بين حياتي خارج الحملة وحياتي داخلها، لاتَّضح أنني بالفعل، قضيتُ مع رئيس الولايات المتحدة، شقيق تيد، جون إف. كينيدي، وقتًا أطول من الذي قضيته مع المرشّح الذي كنت أعمل لمصلحته. حدث ذلك اللقاء الأول بأغرب طريقة ممكنة. إذ أصبحت جانيت أوشينكلوس صديقتي، وهي أخت جاكي كينيدي غير الشقيقة. وقد عرَّفني بها زميلي في الغرفة بمدرسة سان بول، الذي كان صديقها لفترة من الزمن، لكنهما كانا قد انفصلا، ولو مؤقتًا على الأقل. خلال الصيف، دعتني جانيت إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزل أُسرتها، هامرسميث فارم، في نيوبورت. واتَّضح أن الرئيس كينيدي، كان خلال نهاية الأسبوع تلك، في زيارة لمشاهدة سباق كأس أميركا لليخوت.

أذكرُ أنني ركبت سيارتي، وانطلقت من بوسطن، ثم توقَّفت في الطريق لأتصل بجانيت، وأخبرها أنني قد أتأخّر. قالت إن عليَّ أن أسرع لأنّ الرئيس يريد الإبحار، وكانوا ينتظرون وصولي. ماذا؟! رئيس الولايات المتحدة ينتظر هذا الشاب الساذج، والمتطوع الغرّ في حملة شقيقه؟ مستحيل! لكنني عدت إلى السيارة، وضغطت على دواسة الوقود حتى التصقت بالأرضية، ثم رحتُ أقود كالمجنون، قائلًا في نفسي، إذا أوقفني شرطي السّير، قد أستطيع إقناعه أنني في طريقي إلى موعد مع الرئيس، للإبحار معه. ولو قُبض عليَّ، لانتهيت بلا أدنى شك في مصحٍّ للمختلِّين عقليًّا.

وصلتُ إلى الممرَّ المهيب الذي يقود من الشارع إلى المنزل. وهنا يمكنكم أن تصدّقوا أو ألّا تصدّقوا أشار إليّ عميل وحيد من دائرة الاستخبارات السرية بالدخول. قدتُ السيارة حتى الباب الرئيسيّ تحت القنطرة التي تغطّي ممرَّ المدخل، وذكرتُ اسمي لعميل سريٍّ آخر، ثم دخلت إلى المنزل. لا تدقيق هوية، ولا شيء من هذا القبيل.

كان البهو خاليًا، ولكن إلى اليمين، استطعت أن أرى شخصًا يرتدي بنطلوناً أبيض، وقميص بولو، يقف في حجرة الطعام، أمام النوافذ الكبيرة المشرفة على منظر مجيد يمتدُّ من أسفل العشب إلى مياه البحر، واللسان الساحلي الضيّق، الذي يرسم حدود مدخل خليج ناراغانست ونيوبورت. استدار الشخص، وسار نحوي مادًّا يده لمصافحتي وتحيّتي. كان الرئيس كينيدي. مددتُ يدي، وقلت: «مرحبًا، سيّد كينيدي» . لم أعرف أن أخاطبه قائلًا «سيدي الرئيس» . كنتُ ساذجًا طريّ العود. لم يُحجم أو يهتزّ، بل قال: «مرحبًا» ، وسألني عمَّا كنتُ عليه. أجبته: «أنا أعمل لمصلحة شقيقك في حملة انتخابات مجلس الشيوخ» . قال: «هذا هائل، أعتقد أن الأمور تسير على خير مايرام» ، أو شيئًا من هذا القبيل. ثم قال: «في أي جامعة ستتابِع دراستك؟» ، قلت له،

في جامعة ييل، غامزًا بعينيّ مع ضحكة، كما لو كنت أعذر نفسي لعدم ذهابي إلى هارفارد. ابتسم، ومن دون أن يفوته شيء، قال: «أوه، لا بأس، فأنا نفسي واحد من خرّيجي ييل الآن» . كان قد مُنح لتوِّه درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة ييل. وكان له، إثر ذلك، هذا التعليق الشهير: «أملك الآن أفضل ما في عالمَين: تعليم هارفارد ودكتوراه ييل» .

حتى اليوم، لا أزال ممتنًّا لتلك المحادثة التي جمعَتنا، وللكياسة والأريحيّة اللتين أبداهما الرئيس لهذا المتطوع الشاب، وصديق أحد أقاربه. قضينا بعد ظهر ذلك اليوم وقتًا لا يُنسى على متن زورق حرس السواحل، الذي كان يبحر في مياه خليج ناراغانست. جلست في قمرة القيادة، وتناولت الغداء مع الرئيس، وغرقت معه في محادثة حول السياسة والقضايا والعالم. من الواضح أن الرئيس كان مستمتعًا بهدوء اللحظة وسكينتها. استلقى تحت الشمس، ودخَّن سيجارًا. ومن حين إلى آخر، كان يجلس وحيدًا إلى جانب حافة الزورق، ويفكِّر في أشياء لا يعلمها إلّا الله. مساء ذلك اليوم، استمتعنا بعشاء رائع صحبة أفراد الأسرة، ثم ذهبنا إلى قاعة الجلوس، حيث جلسنا نستمع إلى الموسيقى، ثم رقصنا قليلًا، وتحدَّثنا كثيرًا.

فيما بعد، عندما عدت إلى مقر الحملة، كنتُ قد عشتُ قصةً، وكنت على يقين من أنني لم أكن أستطيع مشاركتها مع أحد أوّلاً، فأولًا يُحتمل ألّا يصدِّقوها، ثانيًا، لو فعلوا، لكان من المؤكد أنني قد أضع حاجزًا بيني وبين الأشخاص الذين أعمل معهم. كان درسًا مُبكرًا غير متوقَّع. في بعض الأحيان، تضعك الحياة في مواقف يُفضَّل ألّا تتحدَّث عنها، فهي تعنيك وحدك، ومقدَّرة لك دون غيرك.

كان أحد الأمكنة التي لم أتكلَّم عليها كثيرًا، مباركاً يصعبُ وصفُه، وميزةً يصعبُ على العديد هضمُها. تعرَّفت إليه في الثالثة من العمر، وكان مقدَّرًا أن يكون له دور أساسي في حياتي. يُسمّى ذلك المكان، جزيرة نوشون. تُعدُّ نوشون، إحدى جزر إليزابيت الخمس، الواقعة في عرض مياه ساحل ماساتشوستس الجنوبي، من خليج بوزاردز، بما فيها جزيرة بنيكيس. ابتداءً من وودز هول، الواقعة على يابسة كيب كود العليا، تقع جزيرة نوشون على طول سبعة أميال وعرض ميل واحد، وهي أولى، الجزر الخمس وأكبرها، إذ تمتدُّ غربًا حتى جزيرة باسك الصغيرة، ثم ناشاوينا، وكاتيهونك، حيث تقع مدينة صغيرة يقيم فيها عدد قليل من السكان على مدار السنة، وأخيرًا، جزيرة بنيكيس. في العام ١٨٤٣، اشترى جون موراي فوربس، جزيرة نوشون، أتبع بها جزيرتي باسك، وناشاوينا. ومنذ ذلك الحين، أصبحت مكان تجمُّع أسرة فوربس الموسَّعة خلال فصل الصيف. كانت والدتي ابنة جي. إم. فوربس، بالمعموديّة،

وهو السليل المباشر لوليم كاميرون فوربس (ابن عم جدّي الذي سُمّي شقيقي، كام، باسمه)، وابنة عم بعيدة له. لذا كنا محظوظين للغاية، إذ كان باستطاعتنا استئجار أيّ منزلٍ، من المنازل القليلة التي شُيِّدت للسكن الصيفيّ في الطرف الشرقي من الجزيرة. لا تزال معظم أراضي الجزيرة كما رسمتها الطبيعة الأم، بفضل الأيادي الخبيرة، وفرق عمل فوربس التي تنظّف الطرقات، وتزيل النباتات الحرجية، ويعمل أفرادها كحراس استثنائيين للتاريخ. نجم الجزء الأكبر من شغفي بالبيئة، وانخراطي في مشكلات المحيطات، وتغيرُّ المناخ، عن الدروس التي تعلَّمتها على جزيرة نوشون، وعن المثال الذي قدَّمه إليّ التزام أسرة فوربس، في الحفاظ على الطبيعة وحمايتها. لم تزرع فينا والدتي تذوُّق جمال الحياة البريّة وغموضها فحسب، بل زرعت حسّاً عميقاً بمسؤولية رعايتها. كانت جزيرة نوشون، ولا تزال، نموذجًا استثنائيًا للإدارة المسؤولة.

كانت أيضًا، ولا تزال، جنّةً للأطفال. إذ لا توجد سيارات على أرض الجزيرة، ولا طرقات مرصوفة، بل بضع طرق ترابيّة ورمليّة فقط، تمتدُّ على طول الجزيرة، أو تتلوّى عبر الأودية والحقول. هناك مزرعة وجرّار زراعي، وشاحنة وسيارة صيانة. في سنوات طفولتنا المبكِّرة، كانت تُربّى على الجزيرة المئات من الأغنام. وفي شهر أغسطس/آب، كانت تُساق في رتلٍ هائل، من الطرف الغربي للجزيرة إلى المزرعة الواقعة في الشرق، حيث يُجزُّ صوفها. كانت تربية الأغنام نشاطًا واسعًا على الجزيرة. ولكن كان عليك أن تكون في الثانية عشرة من العمر لكي تتأهّل لهذا الحدث الكبير المسمّى «سوق الخراف» . اليوم، تراجع عدد الأغنام بشكل هائل، ولم يبق سوى عدد قليل منها؛ فقد وجدت ذئاب القيوط البرية طريقها إلى الجزيرة، وفتكت بالقطيع.

تبقى نوشون مكانًا نادر الجمال، ذا ضوء سحريّ. ذات مرة، زارها الرسام جامي وايت، وامتدح نوعية الضوء فيها. في كل زاوية يختبىء سرٌّ من أسرار الجزيرة: شجرة تحمل اسمًا، أو مقبرة قديمة، أو شاطئ ساحر، أو غيضة من أشجار البتولا، أو جياد ترعى، أو أغنام تتسكَّع في حقل، أو جسر فوق مَصَبّ يجري من تحته تيار هادر.

على امتداد التاريخ، مرَّ بالجزيرة أشخاص مرموقون، وحلّوا ضيوفًا على الأسرة. فقد زارها الرؤساء، يوليس غرانت، وتيدي روزفلت، وكالفين كوليدج، وبيل كلينتون؛ جميعهم تركوا قبعاتهم للذكرى، ولا تزال محفوظة في متحف على الجزيرة. في شهر أيلول/سبتمبر سنة ١٩٥٣، زارها مَن سيصبح إمبراطور اليابان آكيهيتو، الذي كان وليَّ العهد في ذلك الحين. وقد تزوجت ابنة

رالف والدو إيمرسون بابن جون موراي فوربس. زارها أيضًا، الروائي هرمان ميلفيل، والشاعر أوليفر وندل هولمز، حيث كتب قصيدةً مدوَّنةً في سجل الضيوف. تكمن الحقيقة في أنّ عددًا لا يحصى من الفنانين، والكتّاب، والفلاسفة، والروائيين، والموسيقيين والعسكريين، قد قضوا بعض الوقت على الجزيرة. بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، كتب الجنرال بلاك جاك برشينغ، تقريره الرسمي عن الحرب، عندما كان يحلّ ضيفًا على وليم كاميرون فوربس، في قصر مانشن هاوس.

قضى الكولونيل روبرت غولد شو بعض الوقت على جزيرة نوشون. كان قائد أوّل فرقة من المتطوعين الزنوج إبّان الحرب الأهلية، وقُتل خلال هجوم شنَّه وهو يرأس رجاله في المعركة الثانية لحصن فاغنر.

كانت زيارة نوشون، عودةً سحريةً عملاقة في الزمن. كان أفراد الأسرة والضيوف يصلون إليها بالقارب، قادمين من وودز هول. ويجري استقبالهم على رصيف المرفأ، حيث كانت تنتظرهم مجموعة من الجياد، والعربات لإيصالهم مع أمتعتهم إلى المنازل. وحده ذلك المشهد، كان كافيًا لإبطاء وتيرة سَير الحياة، ودعوتك إلى دخول عالم آخر. كانت الجزيرة، لي ولأبناء أعمامي، المكان الذي نشعر فيه بالأمان، وحرية التجول، وخلق المغامرات، والتمتُّع بالصيف. كنّا نحن الأطفال نتجوَّل شهرًا كاملًا من دون أن ننتعل أحذيتنا، إلّا عندما كنّا نركب الجياد، أو نذهب للتسوق على اليابسة. كنا نُبحر، ونسبح، ونلتقط الجمبري والمحار، ونجني بلح البحر، ونصطاد، ونتنزّه، ونغنّي متحلّقين حول نارٍ نشعلها ليلًا، ونلعب، ونتزلَّج على الماء، ونتنافس في سباقات القوارب، ونُعشِّب الأحراج، ونقفز من الجسور إلى مياه التيارات الهادرة، ونلعب لعبة البحث عن الكنز، ونستمع إلى حكايات الأشباح التي كان يرويها أبناء أعمامنا الكبار. لم تكن هناك حدود لاختبارات الخيال، خصوصًا في عالم خالٍ من التلفزيون، كان ولا يزال، في الجزء الأكبر منه، كما قلت، جنَّةً على الأرض.

الفصل الثاني: سنوات الكليّة المُشرقة

وصلتُ إلى نيو هيفن في سيارتي الفولكسفاغن، من طراز «بيتل» ، وإنتاج سنة ١٩٦٢، وهو النموذج الأصلي الجميل. كنت قد حشوتها بأشياء تعتقد أنك تحتاج إليها، لكنَّك تستطيع الاستغناء عنها. كانت قيادة أوّل بيتل (فولكسفاغن) تجربةً فريدة. بمقصورتها الصغيرة ومقدِّمتها التي تنحدر بعيدًا عنك، شعرتُ كما لو أنها دميةً خارقة، تجلس داخلها ولا يفصل سوى القليل بينك وبين الطريق، أو الشاحنات أمامك، كما لو كنت تقود سيارة كارت موسَّعة، لذلك كانت قيادتها ممتعةً. كانت الرحلة إلى نيو هيفن، تمرينًا في إدارة قوة الدفع. كنتُ أضغط على دوّاسة السرعة إلى الحد الأقصى، في اللحظة التي أصل فيها إلى بوابة طريق ماساتشوستس السريعة، باستثناء حالات الطوارئ القصوى التي تقتضيها حركة السير، ولا أبطئ حتى مخرج نيو هيفن. في بعض الأحيان، كنت أشعر كما لو أن عليَّ الخروج من السيارة، ودفعها إلى أعلى التل. لكنها كانت موثوقة وقليلة التكلفة. وأشكر الله، أنّني لم أجرِّب قط قدرتها مقاومة الاصطدام.

أفرغتُ حمولة السيارة وسط فوضى ذوي الطلاب وحركة نقل الأثاث في الحرَم القديم، حيث يقيم طلاب السنة الأولى. حُدِّدَت إقامتي في مبنى بينغهام هول، الذي كان مدخله قبالة تمثال ناتان هيل، مثابة تذكير بكل مخاطر حركات العصيان. التقيت شريكي في الغرفة، دان باربييرو، وهو صديقٌ درسَ معي في سان بول. بقيت أنا وداني في الغرفة نفسها طوال مدة دراستي في ييل. وبقينا صديقين. بروحه المتّزنة الهادئة، خفَّف داني من حماستي. كان قد نشأ في نورث فالي ستريم، لونغ آيلاند، وهو واحد من أفراد أسرة عريقة متكاتفة، تتحدَّر من أصول إيطالية. كان والده أبًا رائعًا، عمل في متاهة السياسة النيويوركية، من نائب إلى قاضي منطقة. كان داني ذا موهبة موسيقية، وفاز بمكان مرغوب في مدرسة كورس سان توماس، وهي مدرسة تضمُّ أربعين طالبًا، وتتبع كنيسة سان توماس الواقعة في الجادة الخامسة من

حي مانهاتن. غنّى هناك في الكورس، كما كنا نفعل عندما كنَّا في سان بول. كان أيضًا عازف بيانو موهوبًا، يستطيع عزف أي مقطوعة بمجرد سماعها. أذكرُ أنه كان يقضي ساعات طويلة خلف البيانو في قاعة جوناتان إدواردز المشتركة، وهو يعزف بدافع المتعة الشخصية فقط. بعد ييل، والبحرية، وفييتنام، حيث خدم بتفوق وامتياز، اعتزل من أجل تخفيف الضغط عن نفسه، لفترة عمل خلالها سنوات عدّة، كمهندس تسجيل في مدينة نيويورك، حيث سجَّل ألبوم ستيفيووندر: Innervisions، وألبوم جون لينون: Mind Games، قبل أن يبدأ حياة مهنية في عالم العقارات والمال.

مرَّت السنة الأولى بسرعة. وكانت المرحلة الانتقالية من سان بول، سلسة لم تتخلَّلها أي عقبة. كنت قد تعوَّدت حياة الحرَم الجامعي، وألفتُ تبنّي الخيارات المتعلقة بالدراسة ووسائل الترفيه. فقد انضممت إلى بعض الأنشطة الخارجة عن نطاق المقررات المدرسية، واستمتعت بالحفلات، وتعلَّمت اللهو أثناء معظم عُطَل نهاية الأسبوع، وكنت أدرس من حين إلى آخر. للأسف، لم أكن طالبًا مجتهدًا في تلك المرحلة من العمر، وقطعًا، لست فخورًا بذلك. كان على شخص ما أن يؤدِّبني ويذكِّرني بالهدف من وجودي في الكلية، لكنَّ أحدًا لم يفعل. لطالما كنت أتساءل عن سبب عدم اكتراثي للفرصة الأكاديمية التي توفِّرها جامعة ييل.

في مرحلةٍ ما، كنت أُنحي باللائمة على مدرسة سان بول. ولكن بعد التفكير، لم يكن ذلك منصفًا. أعتقد أنني كنت فقط أحتاج إلى مرشدٍ قويٍّ يحفِّزني ويُلهمني في مرحلة مبكِرة، كي أفهم وأقيِّم أهميّة التاريخ وبداهته أو الأدب وإثارته، التي تبدو الآن بديهيَّةً ومقنعةً إلى حدٍّ بعيد. اليوم، لا أستطيع القراءة كما ينبغي لي أن أفعل، أو تقليص قائمة الكتب التي يجب أن أقرأها، والتي لا تنفكُّ تطول. من الممتع جدًا أن ألتقط كتابًا قرأته للمرة الأولى منذ زمن بعيد، وألاحظ اليوم أشياء فاتتني في السابق، أو أن أفهم على نحو أفضل موضوعات كانت تبدو لي قصيَّةً أو غامضة. إنها فضائل العمر والتجربة. اليوم، أجد نفسي في صراع مع الزمن، والرغبة في معرفة أكثر ممّا أعرف. أرى وأشعر بصلاتٍ مع التاريخ والحياة، لم أشعر بها قط عندما كنت في ييل. أعرف أن ذلك ليس أمرًا استثنائيًّا. إنّ ما كنت أراه في ذلك الحين مهمَّةً شاقّةً، أراه اليوم نافذةً مفتوحةً على العالم. هكذا كانت تلك السنوات في الجامعة، التي شكّلت لمحةً لا تقدَّر بثمن عن السلوك الإنساني بطبيعته الأبديّة وسحره. ربما كنتُ المرشَّح المثاليّ لما يسمّونه اليوم سنة استراحة. كم ألوم نفسي عندما أفكِّر في أنَّ الوقت الذي أختلسه اليوم، لأقضيه في التمتُّع والتعلُّم من خلال

قراءة الكتب والمقالات، كان متوفِّرًا لي كلّ يومٍ من أيام تلك السنوات الأربع. حين التحقت بكلية الحقوق، انفتح عقلي حقًا، وبدأتُ أتعلَّم كيف أفكِّر.

في شهر تشرين الأول/أكتوبر من سنتي الأولى، جاء الرئيس كينيدي إلى المدينة من أجل إلقاء خطابٍ في حديقة نيو هيفن، قبالة غرفتنا تمامًا. كان يقوم بحملة انتخابية لمصلحة السيناتور إيب ريبيكوف، ومرشّحي اللائحة الديمقراطية، ولمساعدة رئيس الحزب القوي، جون بايلي، على تسليم الولاية. تجمّعنا في الحديقة للاستماع إلى الخطاب. صعد الرئيس إلى المنصّة التي كانت أسفل المبنى الذي نقيم فيه تمامًا، ثم تكلَّم. كانت نبرة صوته المألوفة تملأ مكبِّرات الصوت، مُغرقةً أصوات بعض الجمهوريين الذين كانوا يقاطعونه ويشوِّشون عليه. كان أحد المشوِّشين بالذات قد لفت انتباهي. اتَّجهت نحوه، وطلبت منه أن يهدأ، فرأيت داني يقف إلى جانبه. عرَّفني داني به، كان هارفي بوندي، ابن شقيق ماك جورج بوندي الملقّب بـ«ماك» ، مستشار الرئيس كينيدي للأمن القومي، كما عرّفني ببيل بوندي، معاون وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى. من البديهي أن يكون هارفي، السّليل الوحيد للجناح الجمهوريّ في الأسرة. أعترف أنني كنت منزعجًا تلك اللحظة، ولكن سرعان ما نسيت ذلك.

أصبح هارفي صديقًا مقرَّبًا لي ولِداني. طلبنا منه أن يشاركنا في الغرفة العام القادم لدى انتقالنا إلى كلية جوناتان إدواردز. كان هارفي من مواليد مانشستر، ماساتشوستس، حيث تقيم أسرته منذ أجيال عدّة. خلافًا للسّواد الأعظم من طلاب دفعتنا، بدا أن هارفي، قد جاء إلى ييل، وهو يعرف بالضبط ما الذي يريد فعله لاحقًا. كان حادَّ الذكاء، موهوبًا في الرياضيات. وكان قد بدأ بالفعل ببناء مستقبلٍ مهنيٍّ في عالم الأعمال. كنتُ مبهورًا بوضوح رؤيته للدرب التي يسير عليها، وانضباطه في السعي إلى تحقيق خياراته. تعرَّف إلى بليكلي، التي ستصير زوجته، وهي طالبة في السنة الأولى. عرف من فوره، أو هكذا كان باديًا، أنها الشخص المناسب له. كانا لا يفترقان أو بالكاد تقريباً، وأصبحا متساكنين إلى حدّ ما، بالقدر الذي كان يسمح به ذاك الزمان. لذلك، كنَّا في الواقع، أربعة شركاء في الغرفة نفسها، ثلاثة من ييل، وواحدة من ويتون. تزوَّج هارفي ببليكلي، في شهر آب/أغسطس ١٩٦٦، أي بعد تخرُّجنا في شهر حزيران/يونيو، من السنة نفسها. في خريف تلك السنة، التحق العريسان بكلية التجارة والأعمال في دارتماوث، ثم انتقلا إلى شيكاغو، حيث نشأت بليكلي وترعرعت. في نهاية المطاف، أصبح هارفي، كبير المحلِّلين الماليين في مؤسسة وليم بلير وشركاه بشيكاغو، حيث يعيش مع بليكلي، حتى اليوم، سعيدَين مع أحفادهما.

خلال سنتنا الأولى، كانت ستقام مباراة كرة قدم بين فريقَيْ هارفارد وييل، في كامبريدج. ركبتُ «البيتل» وذهبت. ثم رحت أشرب حتى ثملتُ بشكل فظيع في منصّة الملعب. وبطريقةٍ أو بأخرى، تمكَّنت من إيجاد طريقي إلى حرَم الجامعة، حيث أُغمي عليَّ في لحظةٍ ما من المساء. عندما عدتُ إلى رشدي، ارتأيت أنّ وقت العودة إلى البيت قد حان. ركبتُ «البيتل» ، ورحتُ أقود إلى أن بلغتُ حالةً من صفاء الذهن جعلتني أدرك على الأقل، أنّ الفكرة لم تكن جيدة، فعدلتُ عنها. ركنتُ السيارة كيفما اتفق، وقفلتُ عائدًا إلى غرفة ابن عمي في مبنى إليوت هاوس، حيث غرقت في نومٍ تخلّلته زياراتٌ عدّة لغرفة الحمام بسبب نوبات الإقياء.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي، كانت تفوح منّي رائحة كريهة، بلغت من الشدّة ما أشعرني بالذعر. ركبت السيارة، وعدتُ إلى المنزل في غروتون، حيث قضيت ثلاثة أيام أعاني فيها صداعاً شديداً. يسعدني أن أقول إنني منذ ذلك الحين، لم أفقد الوعي ثانيةً بسبب الإسراف في الشراب، إلاّ مرة واحدة في فييتنام، ولم أتجرَّع رشفةً واحدةً من ذلك المشروب القوي، منذ سنة ١٩٦٢. فرائحته وحدها، تكفي لاستعادة ذكريات سيئة.

ذات يومٍ من الخريف الأول في ييل، التقيت دافيد ثورن. كنا نتمشّى في الحرم القديم على مقربة من غرفنا. وسرعان ما تركَّزت المحادثة في سبب اختياره كلية غروتون، وحياة أُسرته في روما، عاصمة إيطاليا، حيث كان والده ناشر صحيفة روم ديلي أميريكان. كان دافيد أول شخص ألتقيه في ييل، يقاسمني تجربة الذهاب إلى مدرسة سويسرية، في حين كانت أسرته تقيم في الخارج. قمنا بمقارنة سريعة لمذكّراتنا، لنجد أن ردود فعلنا على تجربة المدرسة الداخلية في بلد غريب، وفي سنٍّ مبكِّرة، كانت متشابهة إلى حدٍّ بعيد. وبالنظر إلى القواسم المشتركة في خلفيّتينا، أي صلة الوصل بأوروبا، وشغفنا بكرة القدم، وتجاربنا في المدرسة الثانوية، ورؤيتنا المشتركة للعالم، سرعان ما توثَّقت بيننا عرى صداقةٍ حميمة.

في السنة الأولى، أثناء فرصة الربيع، قرّرتُ أنا ودافيد القيام بالرحلة الأولى من عدَّة رحلاتٍ سنقوم بها معًا. كان اهتمامنا بأشكال نضال حركة الحقوق المدنية يتزايد يومًا بعد يوم، كالمسيرات، أو الاعتصامات، احتجاجًا على العار الذي يمثِّله التمييز العنصري. كان من الصعب على المرء أن يصدِّق أننا نعيش في بلد يطلب فيه من رجل أسود الذهاب للقتال دفاعًا عن وطنه. ولكن، في الوقت نفسه، لا يسمح لهذا الرجل نفسه بالاقتراع، أو دخول مدرسة معيّنة، أو استخدام دورة مياه ما، أو الجلوس إلى طاولة غداء ما، وهي

حقوق يمارسُها البيض بحرية. لا أزال أجد صعوبة في هضم حقيقة مُرّة، هي أنني عاصرت الزمن الذي كنّا فيه أمَّةً تمارِس التمييز العنصري.

قرّرتُ أنا ودافيد القيام برحلة ربيعيّة عبر ولايات الجنوب التي تمارس الفصل العرقي، حتى فلوريدا؛ والعودة بعد ذلك إلى فيرمونت، لقضاء بضعة أيام في التزلج على الثلج. كانت رحلة مجهدة، لكننا استمتعنا بالحرية الجديدة التي توفِّرها الحياة الجامعيّة، وكنّا فخورَين بالتزامنا الدفاع عن تلك القضايا.

اجتزنا الخط الفاصل بين الشمال والجنوب، حيث رأينا للمرة الأولى في حياتنا لافتاتٍ كُتب عليها «للبيض فقط» أو «ممنوع دخول الملوّنين» . كان ذلك صادمًا على نحوٍ لا يُصدَّق. عندما كنت في السنة الدراسيّة الأخيرة بسان بول، فزتُ بمسابقة الخطابة، حيث ألقيت كلمةً شديدة اللهجة، أوجزت فيها طبيعة ما يدور في الجنوب من أحداث. تكلّمت عن «الثورة» في بلدنا. ولكنّني اليوم، بعد مرور سنة على ذلك، وجدتُ نفسي أدخل مبنىً يحمل لافتةً واضحةً تقول: «للبيض فقط» . شعرت بالغثيان لرؤية كائنات بشرية مجبرة على الانعزال بسبب لون بشرتها. فقد كان أولئك الأفارقة الأميركيون، يذهبون إلى المرافق والمنشآت الخاصّة بهم، بوجوه جامدة تخلو من أي تعبير. وقد جعلني ذلك أُمعن في التساؤل: هل يمكن لهذا الذي أراه، أن يكون الولايات المتحدة سنة ١٩٦٣.

من نورث كارولاينا، إلى جورجيا، وحتى فلوريدا، كان المشهد يتكرَّر. بدا لي مستحيلًا أن يعتقد أي شخص كان، أنه يستطيع منع رغبة مجموعة من البشر في أن يكونوا أحرارًا، وأن يتمتَّعوا كغيرهم بالحقوق الكاملة نفسها، في البلد نفسه، حيث يعيشون تحت سقف الدستور نفسه. لم أكن أملك أدنى تصوُّرٍ عن السنوات المضطربة والعنيفة التي تلت، وكنت شاهدًا عليها. كنت أشعر بالغضب لرؤية الطلاب البيض يصرخون مثل كلاب مسعورة، ويطلقون الشتائم بحق الفتيات السوداوات اللواتي كنّ يحاولن الذهاب إلى المدرسة، تحت حماية قوات الولاية، أو القوات الفيدرالية. وعندما أطلق بول كونور العنان لكلابه البوليسية وهراواته، شعرتُ بالعار الذي لحق بنا جميعًا.

* * *

خلال صيف العام ١٩٦٣، وفي نهاية سنتي الدراسية الأولى، رأيت الموت عن قرب، وكدتُ أُقتل. ولولا الحظ للقيت حتفي. ركبتُ الطائرة مع هارفي، وطرنا إلى لندن، لتسلُّم الأوستين-هيلي ٣٠٠٠، التي قدَّمها إليه والده هدية إكمال سنته الدراسية الأولى بنجاح في غروتون، وانتقاله إلى ييل. قرّرنا عبور إنكلترا، وفرنسا بالسيارة، ومن يدري إن كنّا سنذهب إلى مكان آخر.

تسلّمنا السيارة ورحنا نقود بسرعة ٤٥ ميلًا في الساعة. ففي ذلك الوقت، كانت السيارات الجديدة تحتاج إلى ترويض. أخضعنا السيارة لزيارة فنية كاملة بعد الترويض، وانطلقنا نحو بورتسموث، لركوب العبّارة. قُدنا السيارة من مدينة لو هافر، حتى وصلنا إلى باريس، حيث كان يوم العيد الوطني، ثم تابعنا إلى سويسرا، ثم ليشتنشتاين، حتى النمسا. وكنَّا نقود ليلًا لنصل في الصباح إلى ليش، حيث تعلَّمت التزلُّج على الثلج. كنتُ أريد أن أخبئ مفاجأة لأوتمار سترولز، المدرِّب الذي علَّمني التزلُّج عندما كنتُ طفلًا. لكننا وصلنا مُبكراً جدًّا، وكان علينا أن نقتل من الوقت، عدداً لا بأس به من الساعات.

كان الفجر الطالع يضيء ذرى الجبال بأشعته الجديدة، عندما قررنا تسلُّق أحدها. كافحنا صعودًا لساعات عدّة، وسلكنا دروبًا لم يسبقنا إليها أحد. عندما بدا لنا أننا صعدنا بما يكفي، وقتلنا من الوقت ما يكفي، ورأينا السيارة أسفل الطريق كما لو أنها كانت نموذجًا مصغَّرًا، استدرنا. ومن أعلى الجبل، رحنا نبتلع المنحدر نزولًا، قافزين من قدمٍ إلى أخرى. كان ذلك مُبهِجًا ومُنهِكًا معًا.

بعد ذلك، تمتَّعنا بروعة زيارة صباحية مبكِّرة لأوتمار، وهو رَجلٌ استثنائيٌّ أصبح لي، أكثر من مجرد مدرِّب تزلُّج. كان فيلسوفًا في الجبال وفي الحياة. كان يعشق المتعة التي ترافق التزلُّج، لكنه علَّمني أن أحترم جبروت الجبال وجلالها. عندما كنت أستسلم للتعب، كان يقرصني قائلًا: «جوني، إن حياة الجبال قاسية» ، ويدفعني إلى إيجاد المزيد من الطاقة الاحتياطية في جسدي. أُدين لأوتمار بالكثير، فهو الذي أتاح لي متعة التسلُّق إلى أعلى ممّا تسمح به المصاعد الميكانيكية، بحثًا عن منبع حبيبات الثلج النقي البكر، ثم الانقضاض بسرعة البرق من وهدٍ إلى آخر، لأنتهي على أرض الوادي، مغمورًا ببهجة الهبوط العمودي.

لقد منحني أوتمار لحظةً ثمينةً أخرى، لا تُنسى، وهبتُها بدوري لأبنائي، وهي الصعود إلى قمة الجبل والجلوس هناك. عندما يتضاءل ثِقل أنفاسك وتهدأ، توقَّفْ وأصغِ جيدًا إلى الصمت. إنه الشخص الوحيد الذي علَّمني الإصغاء إلى الصمت.

من ليش، اتجهنا إلى مونتي كارلو، ثم إلى بريتانيا، لقضاء بعض الوقت في منزل لي زيسار. ذات ليلة، كنت أقود باتجاه دينان، وهي مدينة تاريخية جميلة، تقع على مسافة عشرين ميلًا من منزل الأسرة. كنتُ رفقة بيتر كورنبلو، وهو زميل دراسة لي ولهارفي. كان يقيم معنا لفترة قصيرة في منزل لي زيسار. كنا نقود السيارة عائدين من نادٍ ليليّ، وكنّا على وشك الوصول، ربما كنّا على مسافة ثلاثة أميال من المنزل. ونحن نقترب من منعطف قاسٍ

نسبيًّا، يتجه إلى اليسار على الطريق التي كنتُ أعرفُها جيدًا، جاءت سيارة من الاتجاه المقابل، وانحرفَت قليلًا على الخط الذي نسير عليه. ابتعدتُ قليلًا نحو اليمين. وقبل أن أنتبه لذلك، كانت العجلتان اليُمْنَيان محشورتين في حفرة السياج الممتدّة على جانب الطريق. راح الغبار يتصاعد أمام السيارة. وفجأة، شعرتُ أن مؤخرة السيارة ترتفع وتتّجه نحو الأمام. كناَّ ننقلب. شعرت بالقوة الطاردة تضغط على حزام الأمان، مع الإدراك الرهيب أنّنا كنّا نتحطَّم، وعلى وشك الانقلاب. لا أذكر كيف حطّت السيارة على الأرض، أو ما الذي حدث عند ارتطامها. أعتقد أنني سمعت صوت قرقعة معدنية هائلة، ثم صوت انزلاق على الطريق لمسافة أمتار عدّة، تبعه صمتٌ مطبق.

عندما عدتُ إلى رشدي، سمعتُ أشخاصًا يصرخون محذِّرين من أنّ السيارة قد تنفجر. بحثت عن بيتر، لكنني لم أشعر أنه كان إلى جانبي. حلَلتُ حزام الأمان، وشعرت بجسدي يتهاوى على الأرض، ثم زحفت خارج السيارة. سرتُ مبتعدًا بضع خطوات، ثم استلقيت على الأرض. سمعتُ أشخاصًا يتكلّمون ثانيةً عن السيارة، ويقولون إنها قد تشتعل. نهضتُ وسرتُ عائدًا إلى السيارة لانتزاع المفاتيح بغية تجنّب حدوث شرارة كهربائية. بحثت عن بيتر، فوجدته جالسًا على الأرض أيضًا، لكنه بدا بخير. كان هادئًا رابط الجأش بشكل لا يُصدَّق. بعد ذلك، استلقيت ثانيةً، ورحت أنتظر قدوم سيارة الإسعاف.

لم أشعر قط أنني كنت جريحًا على نحو خطير، وأواجه خطر التهلكة. لكنّني كنت غاضبًا من السيارة التي تسبّبت بالحادث، وحزينًا على هارفي، بسبب ما حدث لسيارته الجميلة. كانت محطَّمة بالكامل. نُقلنا سريعًا إلى المستشفى. غادر بيتر على الفور، لكنّ الأطباء أبقوني يومًا إضافيًّا شهدَ موكبًا منتظمًا لأبناء عمي الذين جاؤوا إلى مستشفى دينار، لمعاينة المثال الذي يجب ألاَّ يُقتدى به. بعد أسابيع، عدتُ إلى الولايات المتحدة، للالتحاق بالفصل الدراسي الخريفيّ. لم أتوقَّف قط عن التفكير في مقدار الحظ الذي لولاه لما كنتُ حيًّا. فقد انقلبتُ وسقطتُ على الأرض رأسًا على عقب في سيارة مكشوفة. لو كان رأسي في المكان الخطأ ونحن ننقلب، لتحطّم أثناء الارتطام بالأرض. أو كان يُحتمل أن أُقذف أنا وبيتر، خارج السيارة ونُقتَل، أو نُصاب بالشلل. لسنوات، وبسبب ذلك الحادث، أو الحرب في فييتنام، أو أيّ من الحالات الأخرى التي واجهت فيها خطر الموت، لم أتوقّف عن الشعور بالعرفان والامتنان لرحمة الله التي أنقذتني. كانت المرة الأولى التي بدأت أدرك فيها نعمةَ حظٍّ أن أعيش أياماً إضافية.

في السنة الأولى، تجنَّبت كرة القدم بُغية التركيز في ممارسة الهوكي على الجليد. انتسبتُ إلى فريق طلاب السنة الأولى للهوكي، حيث

لعبت في مركز الوسط من الخط الثاني، وحصلت على نتائج مشرِّفة في نهاية الموسم. لكنّني في النهاية، قرَّرت العودة إلى كرة القدم التي اشتقت إلى ممارستها. لذلك قمت في السنة الثانية، بتجريب منتخب كرة القدم الجامعي. كنت قد فقدت الاتصال بدافيد ثورن خلال الصيف، لكنّه دعاني إلى منزل أسرته في لونغ آيلاند، قبل رفع تقارير التدريب في نيو هيفن. لكنّ حصوله على مكان في الفريق كان أكيدًا، إذ كان لاعبًا في السنة الأولى.

في أواخر شهر آب/أغسطس، وصلتُ إلى منزل ثورن في حافلة الفولكسفاغن الأُسَرية التي كنت قد استعرتُها. كان لديّ كمٌّ من الأمتعة والخردة التي أنقلها من المنزل إلى ييل، لا يمكن حشوه إلا في حافلة، بالإضافة إلى صديقي الوفيّ، الببغاء فاوستوس، الذي عاش معنا طوال السنة الأولى. كنت محرجًا بعض الشيء بسبب سيركي المتنقّل. خرج دافيد من المنزل لاستقبالي، لكنّ عينيّ، كانتا مسمَّرتَين على فتاة سوداء الشعر، ترتدي بيكيني صغيرًا وتسير خلفه. «جون، أعرِّفك بشقيقتي جودي. جودي، أعرِّفُك بصديقي جون كيري» . وسرعان ما غدوت مفتونًا. وقد زاد افتتاني بها عندما قمنا بنزهة حول المنزل، حيث كانت تتعلّق بحمَّالة السقف، وتقف على مخمِّد الصدمة الخلفي، وكنتُ أقود مع دافيد باتجاه الجنوب وأراها في إطار النافذة الخلفية وهي تنشد بملء حنجرتها أغنية Miles 500. كنت مبهورًا بهذه المرأة التي تعيش بين نيويورك وإيطاليا.

كان ذاك لقائي جوليا[3] ثورن لأول مرّة. ثم التقينا بضع مرات خلال السنة الثانية. كان اهتمامي بها يتزايد. لكنَّ حياتينا كانتا مبرمجتين على نحو مختلف كليًا، فقد كانت تعمل في محطة التلفزيون الإيطالية، وأنا عالق في ييل لثلاث سنوات قبل البدء بحياة ما بعد جامعية. كانت في ذهاب وإياب مستمر بين نيويورك وروما، وكنت أعيش في نيو هيفن، أبني في عالمي الصغير صداقات دامت مدى الحياة. تخلَّلت السنة الثانية لمحات متقطعة، ومواعيد قصيرة مع جوليا، لم تفعل سوى إثارة شهيّتي.

في ييل، كانت تجارب فريق كرة القدم قاسية: كنا نقوم بتدريب مزدوج، أي دورتين يوميًا. وبين دورتي الصباح وبعد الظهر، كانت عضلاتي تتقلَّص، وبحلول المساء، كنت أمشي بصعوبة. لكنَّ الوضع كان أسوأ في اليوم التالي. والسبب في ذلك، هو أنني عندما بدأت، كنت في حالة جسدية لم أشهد أسوأ منها قط، وكان ذلك نتيجة الحادث الذي كنت ضحيته في فرنسا، قبل

شهر من عودتي إلى الجامعة. ومع ذلك، فقد تمكّنت من الانضمام إلى الفريق بشكل أو بآخر.

كانت إحدى مزايا لعب كرة القدم اللا متوقعة، هي أنها جمعتني من جديد بديك برشينغ. كان لقاؤنا الأخير في مدرسة فيسيندن. فقد ذهب ديك إلى أكاديمية فيليبس إكزيتر، ودرس سنة في لورنسفيل، بعد تخرُّجه. كنتُ أنا وديك، ودافيد ثورن، نتقاسم تجربة الذهاب إلى مدرسة داخلية في سويسرا، عندما كنَّا في مرحلة مبكرة من العمر. هناك، اكتشفنا نحن الثلاثة، تلك اللعبة الجميلة التي يسمّونها كرة القدم (soccer عند الأميركيين). لم أكن أتواصل معه كثيرًا في السنة الأولى، أمّا الآن، فإننا نلعب معاً في الفريق نفسه، فتوثقت الروابط بيننا. كان بيرش، كما كنا نناديه، موهوبًا على نحو لا يصدق، ورياضيًّا بالفطرة. وكان أيضًا أشبه بالرجل الحديديّ، يشرب البيرة، ويدخّن السجائر، ويطيل السهر في الاحتفال واللهو، ولا يستسلم أبدًا على أرض الملعب، وهو دائم الركض واللعب بالطاقة نفسها التي كانت لديه قبل اللعب. لم نعرف كيف كان يتمكَّن من فعل ذلك. وكان، إلى جانب ذلك، خفيفَ الظلِّ مُحبًّا للمزاح، يُضفي جوًّا من الحيويّة على التدريب، وكانت طرائفه تُجبر مدرِّبنا الإسكوتلندي المتحفّظ على الابتسام. ولن أنسى يوماً، حشرْنا فيه بيرش، في سلّة غسيل، ثم حملناه على أكتافنا حتى أرض الملعب، ونحن نغنّي صيغةً سخيفةً محرَّفة من نشيد حربيّ. وضعنا السلّة في وسط الملعب، ورحنا نتفرَّج على الغطاء يرتفع ببطء، ليبرز من تحته بيرش وسط هتافات الإعجاب والسخرية. كانت لحظة هراء محض، لكن أجواء المرح والضحك التي خلَّفتها، كانت تبرِّر هذا الهراء.

وسم يوم الجمعة الواقع في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، بداية نهاية الأسبوع التي شهدت مباراة هارفارد-ييل. بدأ ذلك اليوم لطيفاً إلى حدٍّ بعيد. ولجذب الانتباه، عنونَت جريدة ييل اليومية بالخط العريض: «أعلنت ملكة جمال الولايات المتحدة عن استعدادها لتقبيل كل الذين يرغبون في تقبيلها، إذا تغلَّبَت ييل على هارفارد» . وقد وضعت الجريدة صورة لملكة الجمال، لعلَّها تكون حافزاً لك على أن تلقي نظرة ولو خاطفة على المقال.

في منتصف صبيحة ذلك اليوم، ركبتُ حافلة الشعبة الرياضية، وذهبتُ إلى ملعب ييل بول، في نيو هيفن، من أجل ارتداء زيِّ فريق كرة القدم الرسمي، والقيام بتمارين إحماء قبل بدء المباراة الأهم بالنسبة إلى الفريقين، ذلك أنَّ هزيمة هارفارد تعني أنك أنهيت الموسم بجدارة.

كان خريف نيو إنغلاند، وهو في أبهى حلله، يزهو بيوم مشرق وبارد. وكنتُ متحمِّسًا لخوض أول مباراة في صفوف المنتخب الجامعي ضد هارفارد. كان ثمة نيجيريٌّ ديناميكيّ اسمه كريس أوهيري، يلعب في فريق هارفارد. وكان لاعبًا فذًّا، والهدّاف الأول في دوري آيفي، لكرة القدم، وقد اشتهر بأنه أطاح بالضربة القاضية حارس مرمى بإحدى ركلاته القوية.

بُعَيْد الساعة الواحدة والنصف، جرى استبدالي، وعدتُ إلى مقعد اللاعبين الاحتياطيين. كان قد مضى على بداية المباراة قرابة خمسٍ وعشرين دقيقة، عندما صعدت أصوات همهمة وسط الجمهور، راحت تتصاعد طردًا حتى استحالت صراخاً: «لقد أطلقوا النار على الرئيس!» كانت الكلمات نفسها تضرب مثل طلق ناري. في البداية، لم يكن ظاهرًا أن أحدًا كان يصدِّق، على الرغم من ترداد تلك الكلمات من دون انقطاع.

في الساعة ١:٣٦، أصدر راديو الإي بي سي بيانًا إخباريًا وطنيًا: أُصيب الرئيس كينيدي بجروح خطيرة إثر إطلاق نار على موكبه. وبعد أربع دقائق، أعلنت محطة السي بي إس، في أوّل تقريرٍ تلفزيونيٍّ وطنيّ عن محاولة اغتيال. ولم يمض وقت طويل حتى خيَّم على مقاعد الجمهور جوٌّ من الذعر، كان أشبه بفوضى مضبوطة، وزاغت الأبصار مذهولةً، واحتار الناس في ما يفعلون. وكان التركيز في اللعبة والاستمرار بها مستحيلين.

جرى تأكيد وفاة الرئيس كينيدي، في مستشفى باركلاند، دالاس، في تمام الساعة الواحدة من بعد الظهر، والثانية بحسب التوقيت المركزي، أي توقيتنا. لكنَّ الأنباء كانت غامضة، وكان بعضنا ينظر إلى بعض بحثًا عن أجوبة أو مواساة.

حتى اللحظة التي جلست فيها لأسرد تلك الأحداث، لم أتذكر من فاز في المباراة. حتى أنني لم أتذكَّر إن كنا قد أنهيناها. بحثت في أرشيف جريدة ييل ديلي نيوز، وعلمت أننا هُزمنا ٣-٢. وقد ورد في الخبر: «لم تُلغَ المباراة لأنها ابتدأت قبل ٢٥ دقيقة من إعلان اغتيال الرئيس كينيدي» .

منذ الدقيقة التي عدنا فيها إلى غرفتنا بعد المباراة، قضيتُ أنا وداني، وهارفي، الأيام الثلاثة التالية في قاعة جلوس جناحنا، ولم نكن نبتعد عن شاشة التلفزيون الصغير بلونيه الأسود والأبيض إلّا نادراً. كنّا مطعونين. وستبقى كلُّ صورة من تلك الأيام الحزينة محفورة في أذهاننا إلى الأبد: جاك روبي وهو يُطلق النار على لي هارفي أوسفالد؛ نعش الرئيس وهو يرقد في

البيت الأبيض والكابيتول؛ أسرة الرئيس كينيدي، قادة العالم وهم يسيرون خلف عربة النعش؛ جون جونيور وهو يحيي والده على درج الكاتدرائية.

كانت ابنة خالتي سيريتا وينتروب، التي تدرس في إحدى جامعات الجوار، تعرف أنني كنتُ قد التقيتُ الرئيس، وعملتُ لصالح تيد كينيدي، فركبَت سيارتها وجاءت إلى ييل، لتقاسمني صدمة ما حدث. كنا نتمشى في الجوار، وفي الشوارع المحيطة بالكلية. بقينا نتحدث حتى ساعات الفجر الأولى، محاولَيْن فهمَ ما حدث. أذكر أنني قلت لها: «مهما تكن الصعوبات ومهما يكن الثمن، فإنَّ علينا جميعًا واجب العمل لجعل الأشياء أكثر عدلًا» . في تلك الليلة، عاهدت نفسي على تكريس حياتي للشؤون العامة. لم أكن أعرف ما سأفعل، أو كيف سأصنع الفرق، لكنني أقسمت أنني سأفعل.

باقتراب صيف العام ١٩٦٥، كنت أفكر بالفعل في نيل شهادة الدبلوم والتخرج بعد سنة، في حين أنني لم أكن أعرف على وجه التحديد ما كنت أريد فعله بعد ذلك. كنت واثقًا أن هذا الصيف هو عطلتي الأخيرة، أي الوقت الذي أستطيع فيه أن أروي عطشي «لحرية الطريق» . في البداية، أشبعت هذه الغريزة بركوب دراجتي والانطلاق في شوارع برلين، وفيما بعد، على طرقات إنكلترا وفرنسا.

عملت الصيف الماضي في ماساتشوستس، حيث كنت أبيع موسوعة كوليير «من الباب إلى الباب» . إلّا أن ذلك كان مملاًّ، وشاقًّا. كنتُ في عزِّ الصيف، أطوف في الأحياء سيرًا على قدميّ، حيث يتبعني الصغار، وتلاحقني الكلاب وتقرض كعبيَّ، وأنا أحمل حقيبةً ممتلئة بعيّنات الكتب التوضيحيّة، مطبِّقًا طريقة العرض المصمّمة بعناية، التي يعلِّم مكتب كوليير الميداني مندوبيه كيفيّة استخدامها.

كنت أرتدي سترة وربطة عنق وأحمل حقيبة مستندات، أي كل مستلزمات العمل، وأنتقل من باب إلى باب في أحياء غير مألوفة، فرأيتُني في عالمَين: عالم الاستمتاع بدفء ليلةٍ صيفيّة وأنا أشاهد فِلمًا في سيارتي، وعالمٍ آخرَ كنت أطرق فيه الأبواب كالمجنون، فأسمع صوتاً غريباً وعدوانيّاً، يدعوني بفظاظة إلى لملمة أشيائي والابتعاد سريعًا.

ومهما يكن بيعُ الموسوعات مملًّا وشاقًا، فقد كان وسيلةً تعليميّةً رائعة. كان كلّ منّا، نحن البائعين، يطوِّر أسلوبه الشخصي، من خلال إدخال إضافات متنوّعة على خطاب البيع النمطيّ الذي حفظناه عن ظهر قلب. كنا نفعل كل ما في وسعنا لإقناع الآباء أو الأمهات، أنّ خزّانات المعرفة هذه، ستمنح أطفالهم القدرة على فعل أيّ شيء يريدونه. إن من الصعوبة بمكان، تخيُّل هذا

الخطاب بوجود الإنترنت في عالمنا الحالي. ولكن، بغياب توافر المعلومات الحديثة اللامحدودة، فإنَّ امتلاك موسوعةٍ شخصيّة يشبه امتلاك منجمِ من ذهب. كنتُ قادرًا على تزيين عرضي باستخدام مفردات استلهمتها من موسوعتنا المنزليّة في واشنطن. لقد أحببتها، وكنت استخدمها طوال الوقت. والحقيقة هي أنَّ هذه التجربة فتحت لي الأبواب للقيام برحلات فورية إلى أماكن قصيّة، من دون أن أستخدم الإنترنت، ومن دون القيام برحلة إلى المكتبة.

تعلَّمتُ الكثير من هذا العمل. فدخول بيت شخص ما، من دون موعد مسبق، إن سُمح لي بالدخول، كان بمثابة رؤيةٍ داخليّةٍ استثنائيّةٍ مرتجَلة، لشريحة من الحياة اليوميّة. ثم إنَّ الدخول إلى بيتٍ ما، يستدعي إرساء مقدارٍ معيّنٍ من الثقة. كان العرض يستغرق من خمس وأربعين دقيقة إلى ساعة من الزمن، وفقَ الهدف الذي تنشُدُ تحقيقه. وفي العادة، كانت تتخلَّل هذا الوقت سلسلة من الاستطرادات التي تتناول العناية بالكلاب، أو الأطفال، أو قصص الأصدقاء، أو القصص الشخصيّة. في بعض الأحيان، كان أولئك الأشخاص يرغبون في الحديث عن حياتهم، أو عن الحياة بشكل عام. فيما بعد، وعندما ترشّحتُ لمنصب الرئاسة، كنتُ أفكِّر في تلك الدروس التي تعلَّمتها من ذلك العمل. لقد علَّمني القدرة على الإصغاء، ومراقبة لغة الجسد، وفهم واقع الناس، ومعرفة متى أنسحب، ومتى أجمع أشيائي وأغادر. كان تمرينًا جيدًا لأي شخصٍ كان.

احتلَّ حادث خليج تونكين وقرار مجلس الشيوخ عناوين الصحف، قبل بضعة أسابيع من عودتي إلى نيو هيفن، للاشتراك في تدريب مبكِّر أواخر آب/ أغسطس من العام ١٩٦٤، لكنني لم أهتمَّ كثيراً بذلك. فقد كان لديّ موسم رياضيّ يجب الاستعداد له، وأصدقاء يجب أن أتواصل معهم، وقائمة طويلة من الأنشطة اللامدرسيّة. بالإضافة إلى كل ذلك، فقد كانت تلك سنة انتخاباتٍ رئاسيّة. كان ليندون جونسون يتأهّب لإحراز فوز تاريخيٍّ ساحق، وإلحاق هزيمة نكراء بباري غولدووتر. وقد كانت كلماته في نشرة الأخبار المسائية آيةً في الوضوح: «لن نرسل الشباب الأميركيين بعيدًا عن ديارهم مسافة تسعة آلاف ميل أو عشرة، ليقوموا بعملٍ يجب على الشباب الآسيويين القيام به من أجل أنفسهم» .

بحلول ربيع العام ١٩٦٥، كان عليّ أن أتخذ قراراً، وكان على أصدقائي المقرّبين اتخاذ قرارات عاجلة أيضاً. على حين غِرَّة، كان التجنيد يعنينا جميعًا، فانقلبت حياتنا رأسًا على عقب. ذلك أنَّ الكثير من الشباب الذين لم يأخذوا بالحسبان فوريَّةَ الخدمة الإلزامية، وجدوا أنفسهم فجأة في مواجهة ذلك

القرار. كنتُ واحدًا منهم، طالبًا مشتَّتًا ينوي ممارسة مهنة الصحافة، أو إدارة الأعمال، أو الانخراط في السلك الديبلوماسي، ليجد نفسه فجأة أمام خيارات لا بدّ له من اختيار أحدها: أَأَتوجّه إلى الدراسات العليا، أم إلى الدراسة في الخارج؟ كانت هناك خيارات فكّرنا فيها جميعًا، ولكنَّ كثيراً منّا توصَّل في نهاية المطاف إلى قناعة مشتركة، هي أنّنا أبناء جيل الحرب العالمية الثانية، ومراهقو الحرب الباردة. كنّا نؤمن بمبادئ العصر وروحه، وبالتحديات التي وضعها الرئيس كينيدي نصب عينيه، وأعلن عنها في خطابه الافتتاحي سنة ١٩٦١، وهي «دفعُ أيّ ثمن، وتحمُّل أيّ عبء» .

بعد أنِ ادّخرت من بيع الموسوعة خلال الصيف الماضي، ما يكفي لشراء سيارة قرّرتُ أنا ودافيد ثورن الذهاب إلى لندن، حيث يمكننا الحصول على سيارة رخيصة، والذهاب بها إلى حيث تقودنا الرغبات والأهواء. خطَّطنا لزيارة إسبانيا، التي لم يزرها كلانا من قبل. ولكنْ، كانت لدينا رغبة محدَّدة، وهي المشاركة في مهرجان سان فيرمين، الذي يقام سنويًّا في بامبلونا. كنتُ أريد أن أتذوّق طعم الحنين في رواية «الشمس تشرق أيضًا» ، وأن أذهب إلى بعض الأمكنة التي وصفها همنغواي، لعلّني أكتشف القيمة التي كانت تمثِّلها. كنتُ قد قرأت الكثير عن سباق الثيران، وقد وجدت أنّ حضور عددٍ قليل من عروض الكوريدا[4]، من شأنه أن يُشبع فضولك، وأن يأخذك في رحلة رومنطيقية إلى شريحةٍ أخرى من الحياة، مع عبء المسؤوليات التي كانت تلوح في الأفق. وقد أدركنا أننا لن نستطيع تحقيق ذلك إلّا بعد أن نتمتّع بقدرٍ مماثلٍ من الحرية، فاغتنمنا الفرصة وسافرنا.

ما إن وصلنا إلى لندن، حتى رحنا نبحث عن وسيلة النقل الملائمة للرحلة المثاليّة. خطرت لدافيد فكرة رائعة، وهي أن نحاول إيجاد سيارة أجرة «لندنيّة» ، ونجعل منها بيتنا النقّال. كان ثمة شيء سحريٌّ في المظهر، والصوت. وقد جعلتها رحابة المساحة المخصّصة للركاب مكاناً مثاليًّا لتكديس الأشخاص والحاجيّات. تُرى كم هو عدد سيارات الأجرة اللندنيّة التي يمكن أن تصادفها خارج لندن؟ كانت الفكرة جذابةً تلائم محفظة نقودنا وغرورنا.

وبفضل بعض الاتصالات الهاتفيّة، والمحادثات مع سائقي التاكسي، وجدنا مقبرة لندن لسيارات الأجرة. كانت تنتشر أمامنا في ضاحيةٍ لندنيَّةٍ بعيدة كميَّةٌ هائلةٌ من سيارات الأجرة السوداء، وهي ترقد في مثواها الأخير. ظنَّ المالك أننا اثنان من المجانين، ومع ذلك، فقد ساعدنا على اختيار وحشٍ بروحٍ ومحرّكٍ صالحٍ للعمل.

جُبنا أرجاء لندن على مدى يومين، حيث كنّا نلوِّح بأيدينا لتحيّة الأشخاص الذين كانوا يحاولون الترحيب بنا. بعد ذلك، أردنا الذهاب إلى مدينة لو مان الفرنسية التي تستقبل سباق الـ «٢٤ ساعة» ، وهو أحد أقدم سباقات العالم في قدرة السيارات على التحمُّل. كان السباق الثاني والأربعين في ذلك الحين، ولا يزال قائمًا حتى اليوم. ذات ليلة، وعند منتصف الليل، أدركنا أنّ علينا قطع مسافةٍ كبيرةٍ لحضور السباق، فتبادلنا النظرات، وقرّرنا في اللحظة نفسها ضرورة مغادرة لندن في الحال. كان علينا أن نبدأ بمغامراتنا التالية.

أذكرُ أنني قدتُ السيارة، حتى خرجنا من نايتسبريدج ومايفير، في منتصف الليل على وجه الدقة. ثم قاد دافيد من لندن إلى دوفر، فيما كنت أنام متقوقعًا على مقعد سيارة الأجرة الخلفيّ. لا أزال أتذكَّر حتى اليوم رائحة الجلد وأصوات خرخرة المحرك وأزيزه. سافرنا على أوّل عبّارة تغادر في الصباح. كان يومًا عاصفًا، ببحر هائج يشبه العبور الكلاسيكيّ لبحر المانش. وفي اللحظة التي حرَّرَت فيها العبَّارة كاسر الأمواج، أصبحت حركة السفينة عنيفة وغير منتظمة، ما دفع عدداً كبيراً من الأشخاص إلى الاصطفاف أمام دورات المياه بانتظار دورهم للتقيّؤ. وسرعان ما تحوَّلت العبّارة كلُّها إلى منطقة تقيّؤ منكوبة. ولحسن الحظ، كنتُ أنا ودافيد بحّارَيْن متمرّسَيْن، فلم نُصَب بأعراض دوار البحر، لكن رائحة برك القيء النتنة، التي غطَّت أرض دورات المياه، والمنطقة القريبة منها، كانت كافية للتفكير في هجر السفينة. ذلك أنني لم أرَ في حياتي، قبل ذلك اليوم أو بعده، هذا العدد من الأشخاص الذين كانوا يتقيّأون دفعةً واحدة.

استغرق عبور المانش وقتًا أطول من المعتاد، فلم نصل إلى مدينة لو هافر الفرنسية في وقتٍ مبكر. إثر نزولنا من العبّارة، اتجهنا مباشرةً إلى مدينة لومان، حيث قضينا الليل كلّه وزئير محرِّكات سيارات السِّباق يصمّ آذاننا. بعد ذلك، اتّجهنا بهدوء إلى منزل لي زيسار، حيث كنَّا ننوي الإقامة لبضعة أيام، قبل التوجُّه جنوبًا إلى بامبلونا، وكوستا دل سول، في إسبانيا. وضعنا إلى جانب مقعد السائق كرسيًّا بحريًّا ليكون مكاننا المفضَّل. كان الجلوس عليه، ومدّ القدمين على جناح السيارة الأيسر، وقراءة كتاب، أو تأمُّل منظر الريف المتماوج في الهواء الطلق، ضربًا من ضروب البذخ. كنتُ أقرأ سيرة ونستون تشرشل، فأغرتني، ونحن في طريقنا إلى منزل لي زيسار، بجولة صغيرة في شواطىء النورماندي التي شهدت الإنزال الكبير.

لم يكن دافيد قد ذهب إلى تلك الشواطئ قط، أما أنا فقد كان لي حظ الذهاب إليها عدة مرّات، كان أوَّلها تلك الزيارات التي قمت بها مع أسرتي، عندما جئنا إلى أوروبا للمرّة الأولى.

تُعدُّ قطعة الأرض التي وهبتها فرنسا للولايات المتحدة على جرف أوماها بيتش، حيث تقع مقبرة الجنود الأميركيين، أرضًا أميركيّةً مقدّسة. ولعلَّ قصّة يوم الإنزال الأول، واحدةٌ من أسمى هدايا الحرية والتضحية. هذه القصّة تكاد الآن تقطع أنفاسي. لم يكن بعيدًا ذلك اليوم الذي اكتشفتُ فيه ما يعنيه أن تكون هدفًا في مرمى النيران، حتى مع المعرفة المسبقة أنّ ذلك سيحدث لك، قبل الوقوع في كمين. لكنّني على قناعة تامة، بأنّ العنصر المجهول، أي عدم معرفة متى، وفي أي لحظة ستكون في مرمى نيرانٍ قادمة من خلف أكمة، أو من دشمة على نهر في فييتنام، يقع على مسافة سنوات ضوئية من أن تدرك، في اللحظة التي يُفتح فيها باب المركب الصغير الذي تقبع فيه، أنَّ الأشخاص، وربما كل الأشخاص الذين يقبعون إلى جانبك، سوف يسقطون صرعى خلال ثوانٍ. فكِّرْ في ذلك، فكِّرْ في ما يعنيه أن ترى قاربًا مدرَّعًا ممتلئاً بالجنود ينفجر بأكمله أمام عينيك، أو قارب إنزال ينفجر إلى جانبك وأنت تقترب من الشاطئ. تصوَّر تلك الجروف الهائلة التي ترتفع أمامك، وتنتظرك خلف دخان نيران الأسلحة التي تبدو وكأنها في كل مكان، وتلك التحصينات الأسمنتيّة الهائلة كالقلاع، والممتلئة بالمدافع الرشاشة، ومدافع الهاون. تصوَّر أنك مسمَّر في مكانك أسفل الجرف، محاولاً البحث عن غطاء غير موجود. ومع ذلك، فقد تقدَّم أولئك الرجال على ذلك الشاطئ. وبمشقَّةٍ بالغة، تسلَّقوا الجرف حتى أعلى التلّة، وفي نهاية المطاف، حتى برلين. لقد قضى ما يزيد على ٢٥٠٠ من الجنود والمظلّيين الأميركيين على شاطئَي أوماها، وأوتا، وخلف خطوط العدو في يوم الإنزال الأوّل وحده. كنت أنا ودافيد، نتنقّل بهدوء بين الصلبان ونجوم داوود، في جلال كامل لما تعنيه لنا جميعًا هذه القطعة الصغيرة من أميركا.

كان منزل لي زيسار محطتنا التالية. وبعد بضعة أيام، أطلقنا اسم باكسر على سيارة الأجرة التي جئنا فيها. كان مشتقًّا من أغنية The Name Game التي صدرت العام الفائت، ونالت شهرة واسعة. وبحسب الأغنية ولعبة الاسم، تُعطي كلمة تاكسي: اسم باكسي؛ الذي تحوّل من ثمّ باكسر. نعم، كنّا مجانين، لكنّنا كنّا أحرارًا بقدر ما كنّا نتخيّل ونأمل في أن نكون، عندما بدأنا هذه المغامرة الغريبة.

على الفور، نالت باكسر شعبيَّةً قويّةً في منزل لي زيسار: ففي إحدى المناسبات، تكدَّس قرابة عشرة من أبناء العم في الخلف، على الأرض والمقاعد الإضافية، وعلى المقعد الخلفي. كانت أشبه بسيارة مهرِّج السيرك، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى أصبحنا أنفسنا سيركًا: نروي النكات التافهة، ونضحك بشكلٍ هستيري. كنّا كريهين عمومًا. ذات مرّة، وبينما كنّا نتنزّه

ُ

فرحين، قرّرت باكسر التوقّف، وتجمّدت في وسط الطريق: كان شريط مكابح اليد قد انقطع، فتحرّرت المكابح، كما لو أنها في وضعية الضغط. بدا واضحًا أن باكسر لا تستطيع التحرُّك إلى أي مكان. توقَّفت حركة السير خلفنا، وبدأت السيارات تتراكم أمامنا وإلى جانبنا، إذ كنّا في وسط تقاطع رئيس.

لم تلبث أن سادت المكانَ حالةٌ من الهرج والمرج، وخرج أبناء العم محاولين تهدئة غضب السائقين العالقين، الذين خرجوا من سياراتهم، وأحاطوا بنا وبباكسر. راحت النعوت تتطاير من كل حدبٍ وصوب. تركتُ مهمّة الرّد على السائقين الغاضبين لأبناء عمي الذين كانوا يتكلّمون الفرنسية بطلاقة. ثم وقفَت إحدى بنات عمي في وسط الطريق، وأخذت تحاول توجيه حركة السير من حولنا ملوِّحةً في اتجاه، ثم في اتجاه آخر، لكنها بدَت أشبه بمشجِّعةٍ رياضيّةٍ وليس بشرطي سير. وكان كلّ ما تفعله يُسهم في خلق المزيد من الفوضى.

في أثناء هذا السيرك المستمرِّ من حولنا، اكتشفنا خرطومَين هائلَي الحجم يبرزان أسفل هيكل «باكسر» . وعلى الرغم من أن هذين الشيئين البارزين كان لهما شكلٌ أسطوانيٌّ، فقد راح أحدهم يتهكّم واصفًا إيّاهما بخصيتَي باكسر الكبيرتين. وأخيراً، وجدنا وسيلةً لخفضهما، فارتفعت العجلتان الخلفيّتان عن الأرض. بعد ذلك، استطعنا الوصول إلى أسفل السيارة وتحرير مكابح اليد، ثمَّ دفعنا باكسر إلى حافة الطريق، حيث أصلحنا المكابح؛ لا أتذكَّر كيف فعلنا ذلك. لكنّنا تجنّبنا الأضرار الجسدية التي قد يُلحقها بنا حشدٌ غاضب من السائقين الفرنسيين، الذين كانوا يتساءلون عمَّن يكون هؤلاء البريطانيون المتسكّعون الذين أفسدوا نهارهم. ومع ذلك، فقد كانت مغامرة رائعة، تجنّبنا فيها تأثيم الأميركيين، عبر التخفّي خلف جسد باكسر البريطاني التقليدي.

غادرنا منزل لي زيسار، وتوقّفنا بضع مرات على الطريق، ثم اتجهنا جنوبًا إلى جبال البيرينيه، ثم إلى بامبلونا، حيث كنتُ أنا ودافيد، نريد التأكد من أنّ همنغواي كان محقًّا بشأن الثيران، ومصارعة الثيران، والاحتفال. لست أدري كم هو عدد الأشخاص الذين قاموا بالرحلة نفسها، لكنني على يقين من أن أحدًا منهم لم يستمتع بقدر ما استمتعنا.

يعود تاريخ مهرجان سان فيرمين إلى العصور الوسطى، وكان يشمل في ذلك الحين مصارعة الثيران أيضًا. وقد بدأ الركض مع الثيران حوالى القرن السابع عشر، وشُيِّدت أول حلبة لمصارعة الثيران في منتصف القرن التاسع عشر. كان هناك دائمًا كثير من الأجانب الذين يشاركون في الاحتفالات، لكن المهرجان شهدَ إقبالًا شعبيًا هائلًا بعد اكتشاف همنغواي

للاحتفال. ومنذ نشر رواية «الشمس تشرق أيضًا» ، استمرّ المهرجان في التطوُّر حتى بلغ نسخته الحاليّة البديعة.

عندما وصلت أنا ودافيد في العام ١٩٦٥، كان الاحتفال لا يزال يحتفظ بقدر كبير من سحره الأصلي. أظنُّ أننا قضينا الجزء الأعظم من الليل، في الأكل، والشراب، والعربدة مع أشخاص لم نرَهم قبل ذلك قط. كان هناك الكثير من الطلاب الشباب، والأكبر سنًّا، والسُيّاح القادمين من جميع أنحاء أوروبا، والولايات المتحدة، وكندا، بالإضافة إلى حشود كبيرة من الإسبان. كانوا جميعهم سعداء فرحين بهذه الاحتفالية التي يعود تاريخها إلى عدَّة قرون.

كانت الذهنيّة السائدة حماسيّةً، وأشبه بعدوى تنتقل من شخص إلى آخر. في ساعات الصباح الأولى، قرّرنا بشكل نهائي الركض مع الثيران. وجدنا طريقنا إلى بداية السباق، حيث كان يتجمّع المئات من الشباب ببنطلوناتهم وقمصانهم البيضاء، والأشرطة الحمراء المعقودة حول رؤوسهم. كان مظهرنا غريبًا وفاضحًا، إذ كان كلانا يرتدي بنطلوناً من الجينز الأزرق، وقميصًا قطنيًا من نسيج دونيم، ولم يكن لدينا أشرطة حمراء.

كان من المقرّر أن تخرج الثيران من حظيرتها في تمام السابعة صباحًا. وكنّا قد اتخذنا موضعًا في بداية الشارع الضيق قبالة حلبة الثيران، لكننا أدركنا أننا لن نتمكّن من المشاركة في كامل السباق، فاقتربنا من الحظيرة التي تنطلق منها الثيران. كنا نظنّ أن التدريب الذي كنّا نمارسه استعدادًا لموسم كرة القدم، يمنحنا القوة الجسدية الكافية للركض بأسرع من أيٍّ من تلك الثيران. كنّا نجهل تمامًا ما كان ينتظرنا.

جرى إطلاق سهم ناريٍّ في الجو إعلانًا بإطلاق الثيران. وقد أدّى ذلك إلى ارتباك في صفوف العَدّائين، وانطلق بعضهم. أذكرُ أنني طلبت من دافيد ألّا يبدأ الركض كيلا نجد أنفسنا بعيدًا في المقدمة. آنذاك أُطلق سهم ناريٌّ ثانٍ معلنًا تحرير كامل قطيع الثيران من الحظيرة. بدأنا الركض. التفتُّ حولي فرأيت تلك الثيران السوداء بعضلاتها المفتولة تنقضُّ باتجاه الهضبة. صرختُ بدافيد، أن يركض لينجو بحياته. ظننتُ أنّنا ميّتان لا محالة.

بينما كنت أركض بأقصى سرعتي، التفتُّ إلى الخلف مرّات عدة، لعلّني أدرك على وجه اليقين، أنني لن أتمكّن من الركض أسرع من تلك الوحوش. بدأت أُقلِّبُ الاستراتيجيات التي تسمح بالخروج من هذا المأزق. كانت عتبات الأبواب تكتظُّ بالمشاهدين، وما من مكان يمكن اللجوء إليه. كنتُ قد فقدت أثر دافيد، ولم يكن لديّ أدنى شك بأنني سوف أتلقى بعد قليل طعنةً تسفك دمي، فقفزت إلى الباب التالي، حيث ارتطمت بالأجساد التي كانت محشورة فيه،

وسقطتُ على الرصيف. وعندما رأيت تلك الوحوش ذات القوائم الأربع تندفع نحوي، انطويت على نفسي كالكرة، في أصغر وضعيّةٍ جنينيّةٍ ممكنة، وانتظرتُ الأسوأ.

تخيّل المشهد: لم تكن الثيران قد عُزلَت بعد أو تشتَّتَت، وكانت مهووسة بالاندفاع إلى الأمام، ما جعلها تقفز من فوقي. نظرت إلى الأعلى لأكتشف أن القطيع قد مرَّ بأكمله. كان دافيد يقف إلى يميني في الطرف المقابل من الشارع. فقد نجح في حشر نفسه بين أجساد أخرى في عتبة أحد الأبواب، حاميًا نفسه وكاميرته. لم أكن أريد تفويت فرصة الوصول إلى حلبة الثيران، فنهضتُ، ورحتُ أركض على الفور خلفها، في تحريفٍ كلِّيٍّ جديد لمفهوم السباق مع الثيران. وفي لحظة ما، تمكَّنت من الإمساك بذيل أحد الثيران التي أُطلقَت لتوجيه القطيع، فجرَّني خلفه. كنت آخر شخص يدخل إلى الحلبة قبل أن تُغلقَ الأبواب خلفي.

عندما دخلَت الثيران إلى الحلبة، اندفعَت مباشرةً نحو الحظيرة، حيث مكثَت هناك تنتظر حتى المساء، لتخوض صراعًا حتى الموت. في غضون ذلك، امتلأت الحلبة بالعدَّائين، الذين كانوا ينتظرون إطلاق الثيران الصغيرة أو الأبقار التي تهاجم الحشد، وتطيح في الهواء كل من تجد في طريقها... لإمتاع المشاهدين. وصل دافيد إلى الحلبة مع موجة العدَّائين الثانية بعد أن كانت الثيران قد دخلَت الحظيرة. كنّا نجلس هناك ونقارن بين انطباعاتنا، وقد أُطلق عبر الحشد ثورٌ صغيرٌ جرى تغليف طرفي قرنيه بطابتَي تنس. اندفع الثور بأقصى سرعته داخل الحلبة، ورأينا أحد الأشخاص يتلقّى صدمةً مباشرة، فحلّق فوق الحلبة وسقط على الأرض بلا حراك. رأينا أيضًا أشخاصًا يُقذَفون فوق الحشود الواحد تلو الآخر، ليسقطوا على وقع صرخات التشجيع، والهتافات المتصاعدة. «أولليه» . في لحظة ما، أخطأني الثور وكاد يصدمني، لكنه لامسني وتغطّيتُ بالروث، قد تكون كلمة «روث» هذه، مجازًا يعبِّر بجدارة عن المشهد بأكمله. كانت متعةً عظيمة، على افتراض أننا لم نكن بين الجرحى.

كنّا نعيش مغامرةً في ريعان الشباب. لا يوجد منطقٌ سويٌّ لتبرير الرغبة في فعل مثل هذه الأشياء الخطيرة. كان الدافع عاطفيًّا ورومنطيقيًّا. أجل، ثمّة أوصاف أخرى، ولكن بالطبع، هنالك دائمًا نتيجة محتملة للتجرّؤ على القيام بفعل خطير. لكنها الحياة، ذلك أن ثمَّة أفعالاً كثيرة نختار القيام بها من دون أن يكون لها أي معنىً. كان ذلك بالتأكيد أحد هذه الأفعال. لا أزال حتى اليوم مسرورًا بخوض تلك التجربة، لكنني لا أنوي تزكيتها أمام أحفادي.

كان القادم هو الأفضل: بعد أن غيّرنا ملابسنا المنتنة، رحنا نستكشف بامبلونا. وتناولنا غداء مؤلفًا من طبق بايلّا، مع كمية مناسبة من النبيذ. بعد ذلك، انضممنا إلى الحشود، وتوجّهنا إلى حلبة مصارعة الثيران لحضور عرض المساء. كانت تجربتي الأولى، وكنت أشعر بالفضول. كنتُ قد قرأتُ الكثير، ولكنّني لم أكن قد شاهدتُ مصارعةً حيّةً قط. في يومنا هذا، تثير مصارعة الثيران الكثير من الجدل. فقد حرَّمتها بعض الأمكنة التقليدية، كبرشلونة على سبيل المثال، لكنّ المحاكم ألغت القرار. كنت مفتونًا بمصارعة الثيران، وأردت فهمَ القوى البدائيّة المختلفة التي تدخل في سياق هذا الصراع المفتوح من دون قيود، حيث كل شيء مسموح: صراع حتى الموت بين الإنسان والوحش. هل تستطيع براعة مصارع الثيران أن تبلغ حدًّا من القوة، حيث تلغي وحشيّة إراقة الدماء، أو تجعلها مقبولةً لدى المشاهدين؟ لا أستطيع الإنكار أنني وجدتُ في هذا الصراع الطقوسي جوانب آسرة، كالشجاعة والجمال والمعنى، لكنني أفهم الذين يعارضونه. ذلك المساء، في ذلك المكان بالذات، لم يكن هناك معارضون. كانت الحلبة تكتظ بالمشاهدين، وحرارة الإثارة تبلغ حدود الحمّى.

أظنُّ أن الماتادور، كان مانويل كانو رويز، ولقبه، إل بيريو. لقد أسرَ الجمهور ببراعته، مقدِّمًا عرضًا من الأناقة والاسترسال، جعل قلوبنا تصعد إلى حناجرنا. كانت هتافات «الأولليه» ترتفع أعلى وأعلى في الغسق. وكان المدرَّج يميل مع كل عرض، ويصعد هتاف «أولليه» خافتاً، ثم يعلو حتى يتحوَّل إلى صرخة إعجابٍ شاملة مدوِّية بالثور وبالرجُل. راح الثور والماتادور، يتناوبان على تقديم العروض، كما لو كانا يؤدّيان رقصة مسبقة التصميم. كانت جُرأة كل منهما تفوق جُرأة الآخر. وفي لحظة ما، جثا إل بيريو، على ركبتيه، ساحبًا الثور بجوار جدار الحلبة، بحيث لم يكن هامش الخطأ يتجاوز مليمتراً واحدًا. في كل مقطع كانا يلتحمان أكثر، مقدِّمَيْن أداءً بأناقة رقصة باليه. كانا ينفِّذان حركاتهما بكثير من التصميم. في النهاية، يمكن القول إنهما كانا على مستوىً واحدٍ من الاحترام المتبادل.

عندما انتهت المعركة، انفجرت الحلبة بعاصفة من التصفيق. ثم راحت وسائد المقاعد، والدجاج، والورود، والقبعات، تتطاير من كل حدبٍ وصوب، لتجد طريقها إلى أرض الحلبة الرمليَّة، وتتكوَّم فوقها. لم يُرضِ ذلك كلُّه نَهَمَ الجمهور الذي نزل إلى الحلبة: حملَ الناس الماتادور على أكتافِهم، وساروا به في موكب إلى سلسلة من الحانات، حيث غنوا له وشربوا على نَخْبه. كانت أمسيةَ استرسالٍ كامل.

لست أدري من أنفق سبعة أيام كاملة في المهرجان، لكن الذي أعرفه، هو أننا لم نفعل. رحلنا واتجهنا إلى كوستا دل سول، وشواطئها، وشمسها، ومياهها، حيث لم يكن يتهدّدنا خطر الثيران. بعد أيامٍ منشودة من الاسترخاء الحقيقي، قفلنا عائدين إلى منزل لي زيسار عبر أجمل وأسهل طريق أمكننا إيجادها. هناك مكثنا بعض الوقت، ثم ركب دافيد سيارة الباكسر، وذهب إلى منزل أسرته في إيطاليا. بعد أيام، جاءت جوليا في أول زيارة لمنزل لي زيسار. قضينا وقتًا رائعًا في اكتشاف بريتانيا، حيث استمتعنا برتابة لي زيسار وهدوئه، وزيارة الأسواق المحليّة. مرَّت أيام شهر آب بسرعة، وعادت جوليا إلى إيطاليا. أمّا أنا، فقد عدتُ إلى الولايات المتحدة لقضاء بعض الوقت مع أسرتي، ثم غادرت إلى ييل، حيث كانت سنتي الأخيرة فيها.

الفصل الثالث: قسَمُ اليمين

كان والدي واحداً من أوائل الطلاب الذين تطوَّعوا سنة ١٩٣٩، للطيران في أوروبا. وعلى الرغم من أن إصابته بالسلّ أبقته بعيدًا عن المعارك، فإنّني لا أزال أعتزُّ بصورةٍ مجعَّدةٍ بالأسود والأبيض، التُقطت له في طائرة مقاتلة، عندما كان طيَّارًا في سلاح الجو. وقد أحببتُ قصة والدتي التي تطوَّعَت ممرّضةً للعناية باللاجئين في مونبارناس، قبل أن يحتلّ النازيون المدينة. في ييل، سنة ١٩٦٥، كنتُ أنا وأصدقائي أبناء «الجيل الأعظم» . هم وعصرُهم أورثونا من دون عمدٍ منّا ومنهم الحسَّ بالمسؤوليّة: كنّا نقاسمهم رؤيتهم المثاليّة للخدمة، والواجب، والبلد. لكنّنا كنّا قد بدأنا للتوّ بالتركيز في فييتنام. وفي خريف العام ١٩٦٥، كانت تُلحُّ علينا أسئلة كثيرة، لكننا قد كوّنا اعتراضات بعد. وفي كل المناقشات الطويلة المتكرّرة التي كانت تدور كلَّ ليلة تقريبًا، حول الرغبة في متابعة الدراسات العليا، أو الدراسة في الخارج، أو حول موضوع التجنيد الإلزامي، وتحليل مضامينه، كان أصدقائي، دافيد ثورن، وديك برشينغ (حفيد الجنرال بلاك جاك برشينغ، الذي قاد حملة القوات الأميركية إبّان الحرب العالمية الأولى)، وداني باربييرو، وآخرون، يشعرون أن من الضروريّ التزام واجب خدمة العلم.

في أثناء معايَنتي المحدودة للحرب، عندما كنت في ييل، كان لرجلين اثنين تأثير كبير في نفسي: بيل بوندي، وهارفي بوندي، ابن شقيق ماك جورج، وهما الشخصيّتان الأساسيّتان «الأفضل والألمع» في إدارة الرئيس كينيدي. وكان التمييز بينهما صعبًا، بوجهيهما المستديرين، وشعريهما الأملسين، ونظّارتيهما السميكتين، إلّا أن المقارنة تتوقَّف بعد ذلك عند هذا الحد.

عندما ذهبتُ أنا وهارفي، لإلقاء محاضرتين في اجتماع ييل السياسي في العاصمة واشنطن، التقينا هناك ماك جورج. وقد أصرَّ أن نخاطبه باسمه المصغَّر ماك، على الرغم من أنه كان مستشارًا رئاسيًّا لامعاً، يشارك الرئيس في غدائه كل يوم ثلاثاء. وخلافًا لسلوكه العام الجدّيّ، كان هادئاً ومرِحًا خلال

لقائنا. ويوم زرنا برفقته المكتب البيضاويّ قال لنا ممازحًا: «أنتما الآن في مركز السلطة» . ويوم زرنا مكتبه، لاحظنا أكواماً من الوثائق والبرقيات تتكدَّس على طاولته، فصحَّت تسمية بعضهم لمكتبه «وزارة الدولة المصغّرة» التي كانت تضيق بها المساحة الصغيرة الغارقة في أحشاء المبنى الواقع في ١٦٠٠، من جادة بنسلفانيا. كان ماك يملك ذهنًا متوقّداً، ولعلّني أذكر أنه، عندما كان في سنة تخرُّجه بييل، كتبَ على ورقة امتحان اللغة الإنكليزية أنّ السؤال كان سخيفًا، واستبدل به سؤالاً طرحه بنفسه وأجاب عنه... ونجح.

لم يكن بيل متدنّي الثقافة، لكنَّ شخصيته كانت مركّبة، فقد كان يحافظ على مظهر ماك التقليدي نفسه، لكنّه كان قادرًا على رقص الشارلستون، وتقليد زملائه ببراعة. أمّا الخطأ الوحيد الذي كان عليك أن تتجنَّب ارتكابه في حضرة بيل، فهو الخطأ المتعلّق بِشؤون السياسة. كان ديمقراطيًا من رأسه حتى أخمص قدميه. وعندما خلطَت إحدى الصحف بين خطابَي الشقيقين بوندي السياسيَّيْن، اتّصل على عجل بالصحيفة، وطلب تصحيح ذلك.

وعندما كان في منصب معاون وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى، زار ييل، وألقى فيها خطابًا، ثم انضمَّ إلينا في الغرفة، وشرب معنا بضع زجاجات من الجعة. حشرناه بأسئلتنا عن رؤيته للحرب في فييتنام، فلا شيء في تلك الأيام كان أهمَّ من ذلك. قال إنّ فييتنام تُعدُّ تطبيقًا لنظرية الدومينو، وإن جهودنا كانت أساسيّة في هذه القضية. إذ كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى الشُبّان من رجالها للخدمة في صفوف القوات العسكرية خارج البلاد. «هذا ما يجب فعله، أيها الفتية» ، «نحن بحاجة إليكم» . لقد ترك لنا الشقيقان بوندي رسالةً واضحة، وهي الحسُّ الشخصيُّ بمسؤولية خدمة العلم.

كان السؤال الذي يؤرِّقني هو «أين أخدُم؟» ، وليس «كيف أؤدي واجب خدمة العلم؟» . أتذكَّر بوضوح بعض المتخرّجين حديثًا، عندما كانوا يأتون في عطلة نهاية الأسبوع، لزيارة الأصدقاء، أو المشاركة في لعبة هوكي. كنت أسألهم عن الخيارات التي اتّخذوها، فكانوا يقولون جميعًا الشيء نفسه: «اسمعْ، من الأفضل لك أن تتطوّع في السلاح الذي تريد الخدمة فيه، بدلًا من انتظار سَوْقك» . كنتُ أعشق المحيط، والسفن، وكل أنواع المراكب. فقد كنتُ طوال حياتي أعيش إلى جوار البحر؛ ولذلك، كان الخيار بديهيًا. في أوائل خريف سنة ١٩٦٥، وخلال الفصل الأول من سنتي الأخيرة، قرّرتُ تقديم طلب انتساب إلى مدرسة طلاب الضباط. مقارنةً بالتجنيد الإلزامي، كان الانتساب إلى مدرسة طلاب الضباط أكثر إغراءً. فقد كان يشبه تقديم طلب انتساب إلى الجامعة مجددًا، ولكن مع المزيد من الوثائق. ولحسن الحظ، قُبِل طلبي. وفي

الثامن عشر من شباط/فبراير، سنة ١٩٦٦، رفعتُ يدي اليمنى، وأقسمتُ على التطوُّع والانضمام إلى احتياطي سلاح البحرية الأميركية.

كانت السنة الأخيرة تمضي ببطء، وكان اهتمامنا بفييتنام يزداد أكثر فأكثر، كسؤال، وقضية، ووُجهة ممكنةً لكثيرين منّا. وكانت بطاقات التجنيد تُحرق في حرَم الجامعات. وبحلول موعد الامتحانات النصفيّة، كانت عناوين الصحف تتحدَّث عن معركة وادي درانغ. وكنَّا نتساءل: «كيف يمكن أن يدّعي الطرفان القدرة على تحقيق النصر، في حين كانت القوة النارية الأميركية مُهيمنة إلى حدٍّ بعيد؟ باقتراب أعياد الميلاد، وبهدف إعطاء فرصة للمساعي الديبلوماسية، أعلن الرئيس جونسون عن وقف مؤقت لعملية «هزيم الرعد» ، وهي قصفُنا الجوي المتواصل لشمال فييتنام.

أمّا أنا، فقد كنت أستجيب لكلمات مارك توين، الذي قال: «لا تدع المدرسة أبداً تقف حاجزًا في طريق التربية» . كنت آخذ هذه الكلمات على محمل الجدّ، على الرغم من اقترابنا جميعًا من التخرّج، حين سنستبدل بالخوذ قبّعاتنا الجامعيّة المربّعة. كنتُ أتحرَّق شوقًا إلى ممارسة هواية رائعة، هي الطيران، والتدرُّب على الإقلاع والهبوط في مطار تويد، الذي يقع على مسافة ثلاثة أميال من نيو هيفن.

كنت قد نشأت على القصص التي كان يرويها والدي عن وحدات سلاح الجو. وعندما وصلتُ إلى ييل سنة ١٩٦٢، اكتشفتُ أنّ مجموعة من الطلاب، قد شكّلوا إبّان الحرب العالمية الأولى أوّل نادٍ للطيران في ييل، وتطوّعوا ليصبحوا أوّل وحدة جويّة في البحرية الأميركية. كانوا عيونَنا في السماء، يستطلعون تحرُّكات العدو، ويحدِّدون مواقع حقول الألغام، ويطاردون الغوّاصات. قالت صحيفة ييل ديلي نيوز، في الرابع عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، سنة ١٩١٦، إنهم كانوا يقومون «بعمل الرواد» . لأنهم آمنوا بمسؤوليتهم تجاه البلد، ودفع بعضهم حياته ثمن قضيةٍ أكبر من أيٍّ منهم كأفراد.

مُستلهماً من أولئك الرواد الأوائل، ومن والدي، ومن زميلي في الدراسة فريد سميث، مؤسِّس فيدكس المستقبليّ، والذي كان حائزًا إجازته في الطيران، طلبتُ من والديّ أن يدفعا لي تكلفة دروس الطيران كهديّة تخرُّج. وبعد تردُّدٍ وأخذٍ وردّ، وافقا. باعتقادي، كان صعباً على والديَّ رفض طلبي. فقد كان الحصول على الإجازة يحتاج إلى أربعين ساعة تدريب، تتألّف من التعلّم على الإقلاع والهبوط، ومعرفة مجموعة النظم والقوانين والضوابط المتعلقة بالطيران، واستخدام أجهزة الملاحة الجوية. وقد عشقتُ كل دقيقة من الوقت الذي قضيته في التدريب: الدقة، والملاحة، واختبار الرياح العكسية،

والهبوط؛ وكلّها تضافرت لاستحضار اهتمامات صبيانية قديمة بكل الأشياء التي تملك محرّكًا وأداة قيادة. وإنني لأكره قول ذلك؛ لكن الهديّة غطّت على مناسبتها، أي التخرُّج نفسه. لاسيَّما وأنني لم أكن مجتهدًا في الدراسة، وقد تخرّجت بأسوأ معدَّلٍ سنويٍّ من سنواتي الدراسيّة الأربع.

وبالرغم من أن تعلُّم الطيران كان يستهلك وقتي، إلا أنني تمكّنت من قضاء بعض الوقت مع أصدقائي في أحد مجتمعات ييل المعروفة بالسريَّة، وتسمى «الجمجمة والعظام» . وفي ربيع سنة التخرُّج، كنت أرغب في ممارسة لعبة لاكروس[5] التي كنت أحبها، ومارستها آخر مرة في سان بول. تابعت دورة الربيع التدريبية لاعباً ثانوياً، ثم تمكَّنت من دخول الفريق. وقد تبيّن أن فريقنا كان من أقوى الفرق في البلاد؛ فقد فزنا على جامعة ماريلاند، وجامعة جونز هوبكينز، وجامعة فيرجينيا، وجامعة كارولاينا الشمالية، وأكاديمية وست بوينت. وقد جرى تصنيفنا على المستوى الوطني، إلى أن خسرنا مباراتين أساسيّتين، لا أزال أتذكّر الهدف الذي أضعتُه في إحداهما، والضربة التي أخفقتُ في صدّها. إنه لأمرٌ غريب أن تتذكَّر، بعد مرور نصف قرن، كلّ حركة، وتستعيد حرقة الخسارة في مباراة مصيرية.

في فترة الهدوء التي تلت الامتحانات النهائية، أخذتُ، أنا ودافيد ثورن وبيرش، بضعة أيام استراحة لتخفيف الضغط، والإبحار في مياه خليج بوزاردز، ونانتوكيت ساوند، على متن قارب والدي الشراعي، وهو من طراز كونكورديا، وبقياس تسع وثلاثين قدمًا. كانت إعارته لنا لفتةً سخية، لكنني لم أفهم قط ما كانت تعنيه تلك اللفتة: أهي تصديقٌ للفكرة التي تقول إن المسؤوليات الكبرى تأتي مع التخرُّج، أم هي مجرّد إذعانٍ لإلحاحي؟ وفي كل الأحوال، كانت بضعة أيام لا تنسى: أبحرنا حتى مرفأ هادليز، في جزيرة نوشون، حيث ألقينا المرساة لقضاء الليل. ولمّا كنّا في أواخر أيار/مايو، فإن الجزيرة كانت خالية، إلّا من قلة قليلة من المصطافين. وكانت غالبية المنازل فيها لا تزال مغلقةً منذ الشتاء. ومع ذلك، استولينا على قصر مانشن هاوس، وهو مبنى ضخم بألواح خشبية رمادية، يجثم فوق تلٍّ يشرف على المرفأ. وبعد أن خيَّم الظلام، تسلّلنا باتجاه القصر، وصعدنا إلى السطح الذي يغطّي الشرفة الأمامية، ثم وجدنا نافذة لم تكن مقفلة، ودخلنا خلسةً. كان هدفنا الوصول إلى «قاعة القبعات» في الطابق الأول، حيث أقام صديق كاميرون فوربس، الجنرال بلاك جاك برشينغ، بضعة أيام للاستراحة، وكتابة تقريره إلى الأمّة، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. وبعد أن أنهى تقريره، رحل وترك قبّعته التي لا تزال محفوظةً في صندوقٍ زجاجيّ. كان ديك سعيدًا بلمس هذا الجزء من تاريخ جدِّه. ولقد أسعدني أنني تمكنت من أن أُريه القبّعة، ولو أن ذلك كان يستدعي الدخول

عنوةً... ومن جزيرة نوشون، أبحرنا إلى نانتوكيت، ثم عدنا بالسيارة إلى نيو هيفن.

قبل أسبوع من التخرُّج، أذهلني حجم التغيير الذي كان على وشك استنزافنا بوضوحه الجديد وإلحاحه. قبل ذلك بأشهر، اختارتني إحدى اللجان لكي أكون خطيب يوم التخرُّج، بالرغم من أنني كنت قد كتبت كلمتي باستعجال، فجاءت خالية من المضمون الحقيقي ومتضمّنةً الكثير من الكليشيهات، على غرار الكتابات التي تقترن عادةً بمراسم احتفال التخرُّج. لم أكن متحمسًا لمضمون ما كنت على وشك قوله لزملائي. ومع ذلك، وخلال الأسبوع الأخير الفاصل بين الامتحانات النهائية واحتفالات التخرُّج، استغللنا الفرصة لقضاء أيام جميلة: كنّا حوالى تسعة زملاء أو عشرة، بمن فيهم برشينغ، وثورن. ذهبنا إلى جزيرة تقع في مجرى سان لورنس البحري، ولا تصل إليها الكهرباء، لنعيش فيها عزلةً ريفيّة أخيرة، قضيناها في السباحة، واحتساء كميّات وفيرة من الجعة، ولعب البوكر، وكان لنا، إلى جانب ذلك، كثير من قصص التبجُّح، والكلام المبتذل.

أذكرُ أنني كنت أنظر إلى الطاولة من حولي، عندما تبيَّن لي أنّ عددًا منّا كان على وشك التشتُّت بين فروع الجيش المختلفة، وأنّ عددًا آخر كان ينوي متابعةَ دراسات عليا في هذا الاختصاص أو ذلك. بدأنا نتحدث عن الحرب. كنت مذهولًا بمدى عجزنا عن وصف ماهية السياسة الأميركية الخارجية في ذلك الحين، على الرغم من أننا كنّا على وشك التحوُّل إلى رأس حربتها. لو أنكم قلتم لنا، عندما كنّا طلابًا في السنة الأولى، إننا بعد أربع سنوات، سنحمل بندقيةً ونقاتل الشيوعيين، لافترضنا أننا سنقاتل في هافانا، أو نعود إلى أوروبا، بهدف التصدّي للجيش الأحمر. ولكن فييتنام؟ كيف حدث ذلك؟ كيف انتهى الأمر بحلول مئتي ألف جندي من وحدات الجيش الأميركي، محلَّ الفرنسيين، في أدغال، ما كنّا لنتذكر أنَّها الهند الصينية؟ وفي لحظةٍ ما، أدركتُ أنني لم أكن لأستطيع الذهاب إلى يوم التخرُّج وإلقاء خطاب عاديّ، فيما تحتاج أمورٌ كثيرة إلى التقصّي والتعمّق والتحليل. بقيتُ في الحجرة، ورحتُ أكتب في حالة من الغضب. كان ذهني يغلي، وكنتُ أعيش صراعًا مع نفسي، لم أكن أعرف أسبابه... كان لديّ الكثير من الأسئلة.

كنت في باحة الحرم القديم، بعد ظهر يوم التخرُّج الذي كان جميلًا ومشمسًا. وضعتُ بعض تلك الأسئلة في خطابي، على الرغم من أنني لم أكن بعد، أملك كلّ الإجابات عنها. اختتمتُ ببيان شامل يوجز الثورة القادمة: «لم نفقد حقًّا الرغبة في الخدمة، لكننا نضع موضع الشك جذور ما نخدمه» .

في وقت لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، وفي كلٍّ من كليَّاتنا الفردية، سلَّمتنا ييل، شهادات التخرج. كان تعليمنا الحقيقيّ على وشك البدء.

كنت منهكًا، وربما ثملًا قليلًا، عندما خرجت من السيارة في نيوبورت، رود آيلاند، لتسجيل حضوري في مدرسة طلاب الضباط. كان ذلك صباح اليوم التالي لزواج هارفي بوندي، في ٢١ آب/أغسطس سنة ١٩٦٦، وبعد أكثر من شهرين بقليل من تاريخ التخرُّج. مشيتُ كالسائر في نومه، حتى مركز الفحص الطبيّ، بثيابي المدنية: قميصي الأبيض المجعّد، وياقتي المفتوحة من دون ربطة عنق. على الفور، جاءني الأمر: «زرّر قميصك!»

كان ذلك أوَّل أمرٍ من الأمور التعسُّفية القادمة، والتي بدا لي أنها كانت كثيرة. كان لديّ القليل من الوقت لكي أقلق بشأن مقدار سخافة مظهر قميصي المزرَّر حتى حافة ذقني، من دون ربطة عنق. إذ كنت أنتظر مقدّمة أكثر إهانة للدخول في الحياة العسكرية... بعد دقائق، جلستُ على كرسي الحلاقة، ورحت أنظر إلى شعري الذي حُلِق كلُّه، فاكتشفت أنَّ في رأسي ندوبًا لم أكن أعلم بوجودها. دامت الحلاقة حوالى تسعين ثانية، وكنتُ أكثر صلعًا من أيّ يومٍ مضى منذ ولادتي. لم يكن رأسي مصمَّمًا للصّلَع. أشكر الله، أن صورة السيلفي لم تكن معروفة في ذلك الحين. وإذا كان بعضهم يَرَوْن أنني اليوم أُشبهُ الزاحف المجنّح، فقد كان عليهم أن يروني آنذاك. يا لها من لحظة أعادتني إلى أرض الواقع! لكنني قلت في نفسي: «تبًّا، إنَّ كلّ شخصٍ آخر هنا، يبدو مثيرًا للسخرية أيضًا» .

مررنا جميعًا بخطوط الإمداد، حيث وُزِّع علينا زيّ موحّد، وأحذية وجزمات، أو «بونيز» ، كما كنّا نسمّيها نحن. لقد استفدت من الموستانغز، وهم زملائي في دفعة مدرسة طلاب الضباط الذين خدموا بصفة مجنّدين دون رتبة ضابط. وقد علّمني الموستانغز، كيف أبصق على حذائي لألمِّعه. كانت تذهلني قدرة تلك البردخة اللا نهائية بقطعة من القماش، ومادة شمعيّة، وبعض الماء، على إعطاء لمعانٍ، يجعل الأحذية تظهر كأنها مصنوعة من الجلد المُوَرْنش. علّموني أيضًا كيف أرتِّب سريري على طريقة البحرية. كنّا نستخدم ورقة الدولار لقياس طيَّة الغطاء، فلا تظهر بعد ذلك أية تجاعيد. أقصدُ أن السرير كان من القساوة، حيث يمكنك أن ترمي عليه ربع دولار معدنيٍّ، ليرتدّ إليك، وبزوايا مدسوسة بعناية، وكان ذلك آسرًا على نحوٍ ما. ثم سِرنا: آح، تنين، تلاتة، أربعة! قِفْ، استارِح، استاعِدٌ، انصراف، تجمُّع، وهكذا دواليك. سِرنا في كلِّ

مكانٍ من مدرسة طلاب الضباط. حتى عندما كنتَ بمفردك، كان عليك أن تسير وتنعطف بزاوية قائمة وفق النظام المُنضَمّ.

وعلى الرغم من أنني كنت أستطيع فعل ذلك من دون الحاجة إلى رأس محلوق، فقد أحببتُ الحياة العسكرية. كنتُ في الفوج كيبيك ٧٠٢، وكنّا نقيم في ثكنات الحرب العالميّة الثانية الخشبيّة، بقاعدة نيوبورت البحرية. بدا أنّ الجميع قد أصبحوا صورًا كاريكاتوريةً لكلّ الشخصيّات التي كنتُ قد رأيتُها في الأفلام السينمائية، بمن فيهم الكثير من الرجال الجدّيين القساة، النظيفين، والمتأهبين بجهوزيَّة تامة. لكنّ آخرين كانوا يواجهون صعوبات في فعل الأشياء على نحو صحيح. كنّا جميعًا نحاول تدبُّر أمورنا فقط؛ ولكنْ، سرعان ما تعلَّمنا أنّ لا أحد يستطيع أن ينجح، إلّا إذا نجح الجميع. كان أحد أكبر دروس الخدمة العسكرية أن ما من أحد يستطيع بمفرده أن يقوم بعمل جيد أو صحيح. ذلك أنَّ العمل الجماعيَّ بروح فريقٍ واحد هو أساسُ كلّ شيء. قد يبدو ذلك سخيفًا؛ لكن كان من الجيّد أن يشعر المرء، أنّه جزءٌ من استمراريّة تقليدٍ قديم: يفعل، ويتعلّم الأشياء نفسها، ويسير بدقَّة على خطى رجال الحرب العالمية الثانية، الذين عاشوا في هذه الأبنية والقاعات نفسها، وانتصروا.

استمتعتُ بالموضوعات الجديدة، كالهندسة، ودورة البخار، والملاحة، والتاريخ البحري، والبروتوكول العسكري. وراق لي أن أتعلّم قواعد التبادل الأساسية بين السفن، كإشارات الأعلام، وشيفرة مورس. وكنّا نجري مسابقات مع الوحدات الأخرى، ونخوض سباقات مذهلة. وكان ذلك عبارة عن تركيبةٍ تجمَعُ بين التلقين العقائدي، والاستعداد النفسي، والطقس التقليديّ الجماعيّ في تعريض الأغرار رغمًا عنهم، لمواقف محرجة أو مهينة على أيدي الأفراد الأقدم في الخدمة، بغية صهرهم في الجماعة، وتأهيلهم، وتحقيق التكافؤ بينهم. كان ذلك هدمًا للأشياء بهدف إعادة بنائها. كلُّ الأفلام السينمائية التي شاهدتموها عن معسكرات التدريب، واقعيّة. وقد كانت المكافأة الوحيدة لحصّةٍ تدريبيّةٍ جيّدة في مدرسة طلاب الضباط، هي المزيد من التدريب. وعلى الرغم من إصابتي مرتين بالتهاب رئويّ، فقد تلقّيتُ تكليفي، وسرتُ بفخر إلى الاحتفاليّة، ثم تلقّيتُ تحيتي الأولى من المعاون أوّل الذي درّبَنا. أعطيته الدولار التقليديّ لنيلي ذلك الشرف، ثم عدتُ إلى البيت من أجل الاستعداد لفرزي إلى وحدتي الأولى، تلبيةً لنداء الواجب. بعد اجتماعٍ شاملٍ للأسرة، وغداءِ يومِ عيدِ ميلادٍ لذيذٍ في غروتون هاوس، توجَّهتُ إلى تريجر آيلاند، في كاليفورنيا، وأنا أحمل رتبة ملازم. وهي رتبة كانت تعني على الأقل أنّ ما تعلّمتُه حقًّا، هو كيف أكون ضابطًا جيدًا.

كان والدي قد خطّط لإيصالي بسيارته من هاملتون إلى مطار لوغان في بوسطن. بُعَيْد انطلاقنا، تعطّلَت سيارته. عرّجنا على محطة وقود، تقع على الطريق التاريخية رقم ١ التي كانت متطورة جدًا. كنّا متأخِّرَيْن. وبدا أن الطائرة ستفوتني. كان إلى جانبنا رجلٌ يملأ خزّان سيارته بالوقود. سألتُه: «أيها الفتى، هل يمكنك أن تقلّني إلى لوغان؟» ودَّعتُ والدي هناك، في محطة الوقود. كان وداعًا مرتجلًا وسريعًا جدًا، إذ كنت في طريقي إلى المطار، وركوب الطائرة إلى سان فرنسيسكو، مفعمًا بالآمال السامية، وحسِّ المغامرة. كنت صبيًّا كبيرًا في الثالثة والعشرين من العمر، يذهب لأداء الواجب على متن سفينة. ما الذي لم يكن مشوِّقًا ومثيرًا في ذلك؟ كان والدي أكثر تشاؤمًا. لم يكن ليقول ذلك، لكنني كنت أعرف أنه لم يكن يؤمن بالحرب. لم يكن يرى لها نهايةً. للمرّة الأولى في حياتي، أدركت أن خلف الحزن الكامن في عينيه أمراً يتعلّق بي... عانقَني وذهبتُ.

عندما وصلتُ إلى محطة تريجر آيلاند البحرية، كنت مذهولًا: «يا إلهي، هل أنا محظوظ إلى هذا الحد؟ هل هذا حقيقيّ؟» أقمت على جزيرة بخليج سان فرنسيسكو، في غرفة من مبنىً سُمِّيَ «مقرَّ الضباط العازبين» ، تطلُّ على منظر سان فرنسيسكو الجانبي بكل جاذبيته، وأبعد، على جسر البوابة الذهبية. كانت المدينة متوهِّجة. وكان صيف الحب، ورقصة المشكال، ينتشران على نحو سريع؛ وقبل أن أرحل، كانا في أوج إزهارهما.

في الثالث من كانون الثاني/يناير، سنة ١٩٦٧، بدأت مدرسة السيطرة على الأضرار، في مبنىً خشبيٍّ قديم يعود إلى الحرب العالمية الثانية. قد يبدو القول إن دراسة السيطرة على الأضرار كانت مسلّيةً جدًا، ضربًا من ضروب التناقض اللُّغوي، لكنها الحقيقة. يا للتناقض الغريب! كنتُ أتدرَّب نهارًا على شيءٍ كاد يودي بي، وليلًا، كنتُ أستمتع بحياة سان فرنسيسكو الليليّة، بعيدًا كلّ البعد عن أفكار خطر الحرب.

في اليوم الأول، تعرّفتُ إلى شاب من أهالي ماساتشوستس، كان مكلَّفًا باتِّباع البرنامج نفسه، وهو فتىً رائع يتكلَّم بلهجةٍ قاسية، تجمَعُ بين لهجتَي بوسطن ونيويورك، ويهوى الحديث في السياسة. وسرعان ما أصبحتُ أنا وبول نيس، صديقَيْن، نتسكّع معًا، في صفوف الدراسة أو خارجها. كنّا نستمتع بزيارة الأماكن التي تستحقُّ المشاهدة، ونرتاد مطاعم حيِّ فيشرمان وارف الإيطالية الزاخرة بمفارش الطاولات ذات المربّعات، والإمدادات اللا نهائيّة من النبيذ. حضرنا أيضًا حفل فرقة Grateful Dead في صالة الفيلمور، وسمعناهم يغنون بعض أغانيّ المفضّلة، مثل (He Was A Friend Of Mine

وStage Banter. لم يكن كلانا يصدِّق أن بداياتنا في البحرية، كانت في الواقع تترجم كلّ ما كانت تمثّله البحرية. ربما ارتكب أحدهم خطأً ما، لذلك كنّا نقرص أنفسنا، لنتأكَّد من أنّ السرور الذي عشناه في أيامنا الأولى، أثناء أداء واجب الخدمة ملازمَيْن شابّيْن، وهي أدنى رتبة ضابط في سلاح البحرية، كان حقيقيًّا.

خلال فترة خدمتي في تريجر آيلاند، كنتُ أنا وبول، ومن حين إلى آخر، نستأجر طائرةً أسفل شبه الجزيرة بالقرب من بالو آلتو، ونطير فوق الشاطئ، أو نأخذ الأصدقاء في نزهة. وكانت الحرب تتحوَّل أكثر فأكثر إلى طنينٍ دائمٍ في خلفيّة الحياة الأميركية. كنتُ قد طوَّرتُ شكوكاً صحيحة حول ما يجري، ولكنني لم أكن في بداية العام 1967 مناهضاً للحرب بعد. كنت أنظر إليها من موشور السياسة، عبر قراءاتي لكتاب برنارد فول الذي صدر سنة ١٩٦٣، «The Two Viet-Nams» ، وكتابه الأحدث الذي صدر سنة ١٩٦٦، «Viet-Nam Witness 1953-66» ، والكثير من كتابات غراهام غرين. كنتُ على نحو خاص مصدومًا بتقارير دافيد هالبرستام عن الحرب، وكانت تبدو لي كارثيّة. كتب مقالًا احتفظت به لسنوات، يقول فيه: «كانت طواقم سايغون الصحفية من أكثر الطواقم ممانعةً وتبرُّمًا: لقد وقع الكثير منّا في حب فييتنام، رأينا أصدقاءنا يموتون من حولنا، ولم نكن نرغب إلّا في الاعتقاد بأن الحرب تسير على أحسن ما يرام، وبأننا سننتصر في نهاية المطاف. لكن كان من المستحيل أن نصدِّق تلك الأمور، من دون إنكار بيِّنة أحاسيسنا الشخصية [...] لذلك لم يكن لدينا من بديل سوى قول الحقيقة» . كان ذلك يبدو معقولًا.

لم أكن أملك أدنى فكرة عمَّا كانت الحرب تخبّئه لأبناء جيلي، ولكن كانت لديّ آمالي. كنت آمل في أن تُحَلَّ الخلافات السياسية من دون أن تصبح الحرب أشدّ وأعنف. وكان لديّ إحساس بالفضول والترقُّب، وأنا الشاب الذي ينظر إلى الحرب ويضعها في سياق الحرب العالمية الثانية. كنتُ أتدرَّب على القتال. وكان الرجال يتعرّضون لنيران من الجو، ومن كمائن على الأرض. وكان الكثير من نخبة شباب أميركا يعودون إلى ذويهم جثثًا في أكياس جنائزية. كان لديَّ إحساس عام بالخطر، ولكنني كنت، على غرار الكثير من الشباب، أشعر بالراحة في إخفاء نفسي تحت قشرة لا تُقهَر. ثم إنَّ الخدمة على متن سفينة في خطوط النار الأمامية، كانت أقلّ خطورةً من التعيينات الأخرى. بدا أن الخطر والحرب كانا لا يزالان بعيديْن جدًّا.

في كل يوم من أيام المدرسة، كنّا نرتدي زيّ العمل الموحّد، أي بنطلوناً وقميصًا خاكيَّيْن، ونتدرَّب على ما يجوز أو ما لا يجوز فعله في عملية السيطرة على الأضرار. كان التركيز في مقاومة الحريق هدفًا أساسيًا، فنشوب حريق على متن سفينة في عرض البحر ليس مزحةً: هناك وقود، وذخائر، ومواد قابلة للاشتعال في كل مكان، ولا ملجأ تحتمي فيه، ولا رجال إطفاء تتصل بهم. كنّا نحن سريّة الإطفاء. لذلك كنّا، في أثناء التدريب، نرتدي ملابس واقية من النار، ونحمل جهاز أكسيجين للتنفس، مثل جهاز الغوص، ونضع قناعًا. وعندما كنّا نشعل مواد خشبية، ووقود ديزل، كنّا نستعمل خراطيم حريق جبّارة لإخماد النار. وكانت السيطرة على أحد تلك الخراطيم، تشبه الإمساك بأفعى بايتون عملاقة تتلوّى هائجة. وكان الزحف عبر الدخان المعميّ والخانق منفّرًا ومثيرًا للأعصاب. أمّا تعلّم الحقائق العمليّة لحريق كهربائي، أو حريق كيميائي، أو حريق زيوت أو وقود، فقد كان أخّاذًا ومثيرًا للإهتمام. وكنّا نأخذ هذا الجزء من الدراسة بكل جدّيَّة. وقد جعلني هذا التدريب أُكنُّ احترامًا أبديًّا لرجال الإطفاء، ذلك أننا اكتشفنا على أرض الواقع، حجم الخطورة الهائل الذي يحيط بعملهم، والجهود الجسديّة الجبارة التي يبذلونها.

كان المدربون يلحّون على تحذيرنا من أخطار الحريق في عرض البحر. وكان ذلك تأكيدًا لما تعلّمناه. فقد نشب في شهر تموز/يوليو، حريق على حاملة الطائرات فوريستال، في خليج تونكين، بعد وقت قصير من رحيلنا عن تريجر آيلاند. كان على الملازم الأول جون ماكين، أن يكافح زاحفًا خارج طائرته لتجنُّب الجحيم. وقد أظهرت صحف البلد جميعها، وعلى صفحاتها الأولى، حاملةَ طائراتٍ مشلولة، وهي إحدى أكبر السفن التي بُنيت، وأضخمها على مَرِّ السنين، تجرُّ خلفها سحابةً من الدخان، وقد بُقِر جانبها المعدنيّ وتجعّد كالورق... ولَقِيَ المئات من الرجال الشبّان حتفهم في ألسنة اللهب. وفي اللحظة التي وصلت فيها السفينة إلى المرفأ، بعد بضعة أيام، كان الدخان لا يزال يتصاعد من فُرُش تحترق بلا لهب في مؤخّر السفينة، فكان البحارة يهرعون إليها من وقت إلى آخر، لإخماد الحرائق.

نعم، كان تهديد الحريق حقيقيًّا. ربما لم يكن شيئًا يُحتمل استخدامه في القتال ضد الفييتناميين، لكنه كان تدريبًا أساسيًّا لكلِّ ضابط من ضباط البحرية، وكنت سعيدًا بإنجازه.

إلّا أنَّ هناك أوقاتاً كانت أخفّ وطأةً علينا: فقد تعلّمنا في مرحلة معيَّنة من التدريب، كيف نُصلح ثقبًا في جانب السفينة: كنّا ننزل إلى داخل جهازٍ مصمَّم للتدريب على هذه الحالة من السيطرة على الأضرار، وهو نموذج لقاعة محركات مدمِّرةٍ مزعومة، ونمتثل للأوامر الصادرة عن مكبِّرات

الصوت: «إلى مواقع المعركة! على الرجال كافةً التوجّه فورًا إلى مواقع المعركة!» كان الجهاز يمتلئ بالمياه، وأجراس الإنذار تنطلق، ثم يصرخ أحدهم في مكبِّر الصوت، «لقد أُصِبنا، لقد أُصِبنا، هناك ثقب رئيس في الجانب، أصلِحوه في الحال» . كانت المياه تتدفق داخل الجهاز كالنهر. وقبل أن نتمكّن من التقاط أنفاسنا، كانت المياه تصل حتى خصورنا. كنت أنا وبول، ينظر أحدُنا إلى الآخر: «تبًّا، كيف وصلنا إلى هنا؟!» . مساء أمس، كنّا نجلس إلى طاولة مغطّاة بمفرش ذي مربعات، نشرب النبيذ الإيطالي، ونلتهم أطباقًا لذيذة، لنجد أنفسنا بعد قليل، مغمورَين بالمياه حتى عنقَينا، نحاول دسَّ فراشٍ في ثقب، لمنع سفينةٍ اصطناعيّةٍ من الغرق في حوض سباحة. وبعد يوم تدريبٍ شاقٍّ على نحوٍ خاص، كانت نظرة خاطفة تكفي لنتفق: «هيّا بنا إلى مطعم أولد سباغيتي فاكتوري» . كنت أظنُّ أن الهدف من هذا التمرين، هو أن نُظهر للجميع أنَّ محاولة إصلاح ثقب محاولة شاقة ومرعبة. وإنّني أذكر أن أحداً لم يستطع أن ينجح في هذه المهمة نجاحاً تاماً. كنّا نضحك طوال الوقت، ثم نستمتع بليلة رائعة في سان فرنسيسكو.

في وقت لاحقٍ من ربيع العام ١٩٦٧، وبعد انتهاء دورة السيطرة على الأضرار، التحقتُ، أنا وبول، بدورة تدريبٍ نوويّ، وبيولوجيّ، وكيميائيّ، على جزيرة تريجر آيلاند أيضًا. إنّ التدرّب في المدرسة النووية البيولوجية الكيميائية، يقتضي جدّيّة بالغة. ومع ذلك، فقد تسنّى لي ولرفاقي الضحك من بعض المواقف التي واجهتنا في أثناء التدريب. لم نكن حقًا نصدِّق بعض السيناريوهات التي يضعوننا فيها، لفرط التهديد الذي كانت تمثّله. وكنت على يقين من أنّ المدربين لم يكونوا مفتونين بهذا النوع من السيناريوهات، لكنني لم أكن أنا وبول، الوحيدَين اللذين كانا يتصوّران أننا نقاتل ضدّ طواحين الهواء. كنّا على وشك الذهاب إلى فييتنام لنقاتل رجال حرب العصابات على الأرض. وقد علمنا أن الفييتكونغ، لم يكونوا يملكون أسطولًا بحريًّا يهدِّد الولايات المتحدة، لكنّنا كنّا نتعلّم كيف نصلح ثقبًا في سفينةٍ بعد تعرُّضها لإصابةٍ بالطوربيد، ولم يكن مسموحاً لنا بأن نعترض على أمرٍ أو نرفضه. فقد كانت المهارات التي نكتسبها مهمّةً لأيّ ضابطٍ يخدم في البحر، لكنّنا كنّا نسخر قليلًا من كآبة روتين التدريب، إذ كان من الأسهل لنا أن نقضي اليوم في المزاح ورواية النكات.

كان التمرين الأكثر واقعيةً في تدريب المدرسة النووية البيولوجية الكيميائية، هو ارتداء لباس واقٍ من المواد الكيميائية، والتعرُّض لسحابة من غاز السيانو كربون، المماثل في الجوهر للغاز المسيّل للدموع، فتحترق حناجرنا، وتضيق أنفِاسنا، وتكاد عيوننا تخرج من محاجرها. إلّا أن المدربين لم

يعرّضونا لهذا وقتاً طويلاً، إذ لم يكونوا يحاولون إيذاءنا، بل كان هدفهم مساعدتنا على فهم الأعراض. وكانت الرسالة قد وصلت جليَّةً وواضحة للجميع. وقد تعلّمنا أيضًا كيف نقيس نسبة النشاط الإشعاعي. أمّا أنا، فكنت مبهورًا بتعلّم كلِّ ما يتعلّق بالهجمات النوويّة، كحجوم وأوزان الرؤوس النوويّة التي تحملها الصواريخ، ومناطق الضرر، وكيفيّة حساب الحجم والمفعول الممكن للسُّحُب الناتجة من الانفجارات النوويّة.

في أوائل صيف العام ١٩٦٧، صيفِ الحب، وصلَت علاقتي ببول، وإقامتي الرائعة في سان فرنسيسكو، إلى نهايتيهما. كان على بول الالتحاق بسفينته، وهي سفينة إنزالٍ لصهاريج الوقود، وكانت في طريقها للانتشار في فييتنام. أمّا أنا، فكان أمامي المزيد من التدريب. كان وداعنا حزينًا، وتعاهدنا على اللقاء بعد عودتنا إلى ماساتشوستس.

في الثامن من حزيران/يونيو، سنة ١٩٦٧، بدأت جولتي الرسميّة على متن اليو إس إس غريدلي، وكانت تمهيدًا لممارسة المسؤولية. وعندما وضعت قدميَّ على متن السفينة، هالني حجمها الهائل ونظافتها. كانت مدمِّرةً تحمل الصواريخ الموجَّهة الجديدة، وتتمتَّع بأعلى مستويات التطور التقني. كنت محظوظاً أكثر من دافيد ثورن، الذي تقرَّر فرزه للخدمة على متن اليو إس إس مادوكس، في خليج تونكين الشهير. وهي مدمِّرةً بُنِيَت سنة ١٩٤٣، وكنّا منذ زمن بعيد نسمّيها، ومن غير تحبّب «المرحاض النقّال» . كانت غريدلي، ومادوكس، تتبعان قاعدة لونغ بيتش البحرية، وتنتميان إلى السرب نفسه. وكان من المقرَّر لكلينا، ولسفينتينا، اتّباع المزيد من التدريب، قبل الانتشار على خط النار في الساحل الفييتنامي.

كان مسكن دافيد على متن السفينة في غاية الضيق، ولكنْ سُمح له أثناء وجوده في الميناء، بإيجاد شقّةٍ في المدينة، وكان ذلك ما فعله على وجه السرعة، وكنتُ أنا مباركاً له ذلك. كان مسكني على متن السفينة رحبًا مقارنةً بمساكن سفن المعركة، وكنت أتقاسمه مع ضابط متزوج برتبة ملازم أول، كان يقيم على اليابسة، فأنفرد بالمسكن حتى إبحارنا.

أخذت مسؤولياتي على متن غريدلي بكلّ جديَّة. وكان أهمَّ درسٍ تعلّمتُه في مدرسة طلاب الضباط، هو عدم التصرُّف كصبيٍّ غرّ يحملُ على كتفيه شريطتين، ويبدأ بالتجوُّل، وتوزيع الأوامر ذات اليمين وذات الشمال. رأيت الكثير من الرجال يفسدون كل شيء، لظنّهم أنَّ كونهم ضباطًا، يعطيهم الحقّ بإصدار الأوامر بشكلٍ آليّ. وذلك خطأ كبير، فالشرائط تمثّل فرصةً لتتعلَّم كيف تكون ضابطًا. أمّا الرقباء والمعاونون في سلاح البحرية،

فهم الرجال الذين يعرفون أسرار المهنة، وأنت لست سوى فتىً يحمل إجازة جامعيّة، أنهى دورةً لمدّة أربعة أشهرٍ في مدرسة طلاب الضباط؛ أنت حقًا لا تعرف شيئًا، مقارنةً بالمعاونين الأوّلين على وجه التحديد، والذين لهم من العمر ضعفا عمرك، ويخدمون في سلاح البحرية منذ عشرين سنة... لكي تنجح، استمع إليهم.

ربما لم أُقدّر ذلك في حينه، لكنّ الجيش كان يعطيني دروسًا عظيمةً في علم القيادة. فقد تعلَّمتُ المساءلة، وتقويم الذات، والتزام دقّة المواعيد، على الرغم من تأخُّري في اليوم الأول من التحاقي بمدرسة طلاب الضباط. وأدركت أهميّة قيادة الأشخاص، ليس عن طريق قول ما يجب عليهم القيام به، بل بإظهار المثال لهم. من السهل المجيء بقائمة طويلة من الدروس التي استوعبتُها، لكنّ هذه الدروس شكَّلَت وجهات نظري عن القيادة على نحوٍ أساسيّ.

منذ اليوم الأول الذي كنت فيه على متن غريدلي، جهدت في إعداد نفسي لتولّي مهمّات القيادة، أي قيادة السفينة. وقد قضيت عدّة أسابيع في تعلُّم تحديد موقع كل شيء، واستظهار أدلّة الدفع، والاتصالات، وإجراءات ظهر السفينة. عندما كنّا نُبحر لإجراء تمارين التدريب، كنت أسعى إلى تكليفي بمسؤوليات ضابط جسر مبتدئ: شاهدتُ واستمعتُ وتعلَّمت. عندما تكون مؤهلًا لقيادة السفينة، تستطيع تولّي مهمّات القيادة، وأنت المسؤول عن التأكُّد من أنّ السفينة تبحر إلى الوجهة التي يجب أن تصل إليها، إلى أن يجري إعفاؤك. وفي الحقيقة فإنك لست بمفردك، فهناك درجات من المسؤولية. وإذا كانت لديك شكوك، فابدأ أولًا بالتحقُّق مع ضابط السطح، وهو مسؤولك المباشر، والضابط الذي منحه القبطان كلَّ الصلاحيات لإدارة السفينة، فإذا كانت لدى المسؤول عنك شكوك هو الآخر، فإنَّ عليه أن يتَّصل بالقبطان ويقول: «سيدي، أنا بحاجة إلى أن تتحقّق من هذا» . لديك فريق يدعمك: لديك جهاز للملاحة، ومركز للمعلومات القتالية، وقاعة محركات، لكنّك تتعلّم كيف تدير ذلك كله، وتتعلّم متى تطلب المشورة، ومتى تمتنع عن ذلك. حتى عندما تكون مؤهلًا لقيادة السفينة، فإنك لست مؤهلًا لأن تكون ضابط السطح. ولكنك تكون كذلك، منذ اللحظة التي تقول فيها: «أُعفيك، سيدي» ، ويجيبك الآخر: «أنا معفى» ويؤدي لك التحية، وتصبح أنت المسؤول. لقد قضيت حياتي كلها مع المراكب، ولم أكن أستطيع الانتظار طويلًا لكي أتأهّل لهذا الأمر.

تعلّمتُ أيضًا، في تلك الأيام الأولى على متن غريدلي، أنّ هذا لم يكن التجربة البحرية التي كنت أريدها لأربع سنوات كاملة. كانت غريدلي، بطول ٥١٠ أقدام، وعلى متنها ٣٨٠ رجلاً وضابطًا. بدأتُ ملازماً أول، أي الضابط

المسؤول عن مظهر السفينة، وكل ما يحدث على الجسر، وبشكلٍ أساسيّ، خطوط الإرساء، وقوارب الإنقاذ، وأعمال الطلاء، وتثبيت الإرساء. كنتُ بالطبع ضابط السيطرة على الأضرار أيضًا، وضابط الطيران المسؤول عن عمليات المروحيات على ظهر مؤخَّر السفينة. وكان ذلك صعبًا في البداية، لكنّ حجم العمل وأسلوبه المتَّبع، جعلاني أشعر بالضجر، وأتوق إلى الخدمة على سفينة أصغر، مع إجراءات شكليّة أقلّ، ومسؤوليات أكبر. وكان ذلك أحد الأسباب التي دفعتني لاحقًا إلى تقديم طلب للخدمة على قوارب سويفت.

كانت قوارب الدورية، وزوارق سويفت، وبنات عمّها الأصغر حجمًا، القوارب النهرية، هي السفنَ الوحيدةَ التي كنتُ أستطيع قيادتها ضابطاً برتبة ملازم أول (رتبة المبتدئين). كنتُ أريد ممارسة مسؤوليات قياديّة، ومقدارًا معيّنًا من الاستقلالية التي تختلف عن الأسلوب المتَّبع على سفينة كبيرة تابعة لسلاح البحرية. وكنت أريد أيضاً رؤية حقيقة الحرب عن كثب. وقد كتبتُ لرئيس شؤون العاملين في البحرية، بعد ما يزيد على ستة أشهر، أي بتاريخ ١٠ شباط/فبراير، ١٩٦٨: «أطلب الخدمة في فييتنام. إن أولويّتي الوظيفية هي الخدمة على زوارق سويفت التكتيكية العاملة في المياه الضحلة، أو الخدمة ضابطَ دوريةٍ في سرب قوارب دوريات نهرية. وإنني أرى أن فرصة الخدمة في فييتنام هي جزءٌ في غاية الأهمية من الانتماء إلى القوات المسلحة، وأن طلبي هذا يصبّ في مصالح سلاح البحرية العليا» .

فيما كنّا نتدرَّب للذهاب إلى الحرب، كانت الحرب تأتي إلى عقر دار أميركا بطريقة متسارعة. وكانت الاحتجاجات تتفاقم. في وقتٍ لاحقٍ من ذلك الصيف، زار الرئيس ليندون جونسون، سنتشوري سيتي في لوس أنجلوس. وكنتُ أنا ودافيد، نشعر بالفضول لمعرفة شكل رد الفعل على تلك الزيارة، بالنظر إلى تزايد التحريض العام على الحرب. كان التقليد في البحرية يستقبح الأحاديث السياسية في مقصف الضباط، فلا أحد كان يناظر بشأن فييتنام على متن غريدلي. ولكنْ، وفي المساءات الهادئة، وعندما كنّا نخرج مع الضباط المبتدئين، أو الأصدقاء المدنيين، كان ثمة همس بيننا. أتذكّر رجلًا يعمل على متن غريدلي، كان قد خدم رئيسَ ميناء في دا نانغ، وهو ميناء في الجزء الشمالي من جنوب فييتنام، قال لي: «كُنّا نقوم بعمل عقيم يستحيل تحقيقه، وقد حالفنا الحظ في الخروج من هناك أحياء» .

وجاء صيف التحرير، صيف كين كيسي، وهايت آشبوري. وكان جميع أصدقائي يتقاسمون الإحساس بأن ثمَّة أمرًا عظيمًا يحدث، ويملأ الفضاء، وكنتَ تستطيع الشعور بذلك. وكانت الاحتجاجات تتزايد. وقد أردتُ أن أرى بأمّ عيني ما كانت تمثّله الحركة المناهضة للحرب. كنّا بالزيّ العسكري، في

النهاية، وكنّا مُبعَدين عن تيّارات الشارع الحقيقي التي تحيط بقضية فييتنام. ولم أكن أنا أو دافيد، نرغبُ في أن يُقبض علينا في تظاهرة احتجاج. لكنّنا كنّا نشعر أيضاً بالفضول، وبدأنا نتساءل عن الجذور الأساسيّة لهذه الحرب التي كنّا على وشك أن نصبح جزءًا منها. قرّرنا الذهاب لرؤية أولئك الأشخاص الذين تجمَّعوا احتجاجاً على زيارة ليندون جونسون. وفي وقتٍ لاحقٍ من بعد ظهر ذلك اليوم، وصلنا إلى فندق سنتشوري بلازا، فرأينا زمرةً من الأشخاص يغنّون بشكلٍ مسالم، ثم تغيَّر ذلك كلّه عندما بدأت الخطابات. وقد قال إتش راب براون، وهو طالبٌ وخطيبٌ مفوّه، ورئيس اللجنة التنسيقية لحركة اللا عنف: «لا يمكنني أن أُصدِّق أنّ ليندون جونسون أكثر إنسانيةً من هتلر» ، وأضاف وهو يزأر: «وضع هتلر البشر في أفران الغاز، وخنقهم حتى الموت، وليندون جونسون يقصفهم بالقنابل حتى الموت» . نظر أحدنا إلى الآخر، وكان لدى كُلٍّ منّا إحساس متبادل بالتوجُّس.

بدأ الحشد يهتاج، ثم تدخّلت الشرطة بقسوة. وما بدأ حركةً سلميّة، تحوَّل إلى حالة من الفوضى، عندما قامت شرطة لوس أنجلوس بتفريق المتظاهرين وضربهم. كانوا يصرخون: «غستابو!» ثم صعد المنظّمون إلى ظهر شاحنةٍ مسطّحة، وراحوا يحضّون المتظاهرين على شبك أذرعهم، بحيث لا تستطيع الشرطة كسر صفوفهم، فاستيقظت لدى كِلَينا الغريزة نفسها: «فلنذهب من هنا بحق الجحيم» . ثم انسحبنا على عجل، لكنّ المشهد بأكمله، لم يفارق ذهني.

لقد هزّني ذلك المشهد. كنتُ على وشك الانفجار، وكان بلدي يمعنُ في تمزيق نفسه إربًا في هذه الحرب.

عندما غادرنا سان دييغو في شهر شباط/فبراير، سنة ١٩٦٨، كنتُ أتشوَّق إلى المغامرة. أبحرنا بعيدًا عن ساحل كاليفورنيا في مجموعةٍ مؤلّفةٍ من أربع سفن، الفرقاطة غريدلي، وثلاث مدمِّرات، متجهين في تشكيلٍ واحد إلى بيرل هاربور. كان قضاءُ ليلةٍ أو ليلتين في عرض البحر بعيدًا عن الساحل سحريًّا. وها نحن الآن، في فترة التدريب، وبعيدًا عن كاليفورنيا، نُبحر بالسرعة القصوى، ونتّجه غربًا عبر المحيط الهادىء. كانت السفن تطلق صافراتها وتترك خلفها ثلماً هائلاً وهي تحرث الأمواج المتموِّرة، فيما كان المغيب يضيئنا برشقات قرمزيَّةٍ وبرتقالية. وقفتُ على سطح مؤخَّر السفينة، فشعرتُ بها تهتزُّ وتضطرب تحت قدميّ وهي تمخر عباب المحيط في سباقٍ عالي الوتيرة.

كانت سفينتنا تحمل راية السرب في هذه القافلة. لذلك، اتّخذنا مقدَّم السفينة في تشكيلٍ على هيئة ماسة. إنّ الوقوف على جسر فرقاطة بطول

٥٣٥ قدمًا وهي تُبحر بسرعة ٢٠ عقدة، والشعور بانسجامها مع البحر والسماء، وباهتزازها عُلُوّاً وهبوطاً مع الأمواج، وتأمُّل الشمس وهي تغرب في الأفق بانتظار وميضٍ أخضر، لَهِي لحظات بديعة لا تُنسى. ذلك هو السبب الذي يجعل الذين يركبون البحر عاجزين عن الخروج منه، ولعلَّ هذا ما أشار إليه جون ميسفيلد عندما قال: «على الرجال النزول إلى البحار ثانية استجابةً لنداء المدّ الصاعد، / إنّه نداء وحشيٌّ وجليٌّ لا يمكن تجاهله» .

طوّرتُ في السابق حسًّا جيدًا عن كيفيّة الحركة الخاصة بالمحيط. فقد علّمني الإبحار الكثير عن الرياح، والعواصف، والزوابع. وعلّمني الانخفاض تحت مؤخَّر مركب شراعي، في أثناء السباق، الكثير عن قياس المسافة، والسرعة، والزمن. كلّ هذه الأشياء كانت نافعةً لي وأنا أتعلَّم أسرار المهنة. وقد تعلَّمت أيضًا، أنّ من المضجر الإبحار على نحوٍ رتيب في اتجاه واحد. لكن سفينة عن يمينك، وثانية عن شمالك وثالثة خلفك، تجعلك متيقظاً لكل ما يجري من حولك. إن التحدي الأكبر وأنت تبحر في قافلة، هو الحفاظ على المسافة المناسبة بين السفن. وتشتدّ هذه الصعوبة في أثناء الليل، عندما يغدو كل ما يمكنك رؤيته أضواءً خافتةً ترسم أشكال السفن. كنت أعشق هذا الجزء من العمل، فقد كان مسلّيًا، وتحديًا مستمرًا. كنت أشعر كما لو أنني جزء من المسلسل الوثائقي التلفزيوني Victory at Sea، الذي يروي أحداث الحرب العالمية الثانية، بموسيقاه المنتصرة، وصوره الدرامية لقوافل السفن المبحرة والأمواج تنصَبُّ على مقدَّماتها، وتتطاير رذاذًا في الهواء، ووميض إشارات شيفرة مورس على الجسور للتواصل في ما بينها. ولو أنك سألتني عندما كنت مراهقًا عن تصوُّري للخدمة العسكرية، لكان الجواب هذا.

بعد أيام، وصلنا إلى ميناء بيرل هاربور، حيث يحيط بك تاريخ «يوم العار» . كنّا ننزلق ببطء داخل القناة، وإلى يسارنا صفٌّ من بوارج حربية، ونُصُب البارجة يو إس إس أريزونا التذكاريّ، وتلال هاواي الخضراء قبالة الطائرات الأولى للهجوم الياباني في السابع من كانون الأول/ديسمبر، سنة ١٩٤١. كنتُ متأثرًا بالدنوِّ عن كثب من تلك اللحظة التاريخية الرهيبة، والتي لم أتمكّن من استيعاب فظاعتها سريعًا. كانت لا تزال بعض مباني الحرب العالمية الثانية، بما فيها برج المراقبة، قائمةً على أرض المطار. وكنتُ حريصًا على زيارة أكبر عدد ممكن من المواقع التاريخية. وقد قضينا عدة أيام استراحة في ميناء بيرل هاربور، فاستأجرت خلالها سيارة جيب، واستكشفت الجزيرة بأكملها، حيث شربت عدة كؤوس من الكوكتيلات المزيّنة بمظلات صغيرة، في

حانات مخصّصة لاصطياد السيّاح المغفّلين، ومارست في وقت قصير رياضة ركوب الأمواج على شاطئ وايكيكي... ثم أبحرنا مجدّدًا.

لقد تولّيت واجب عمل إضافيّ كوني ضابط السفينة للشؤون العامة، فاقترح عليّ القبطان ونحن نبحر بعيدًا باتجاه الغرب، ونعبر مواقع معارك تاريخية مصيرية، أن أسرد للطاقم بعض الوقائع التاريخية، لا سيّما وأنّنا كنّا نمرّ عبر ميدواي، وخليج ليتي، فقدّمت موجزًا من دقيقة أو دقيقتين في مكبِّرات الصوت، وصفتُ فيه اثنتين من المعارك الرئيسة التي شهدتها الحرب العالمية الثانية، حيث يدرك الجميع معنى اللحظة الراهنة. أشكر والديّ على تذكيري دائمًا بمدى ارتباطنا الوثيق بالماضي، فقد غرسا بي حُبَّ التاريخ لقدرته على إعطائنا الكثير من الدروس عن الحاضر.

ومع ذلك، فإنَّ للتاريخ طريقةً مؤلمةً في اللّحاق بنا، والقبض علينا من دون أن نتوقّع ذلك أبداً. في شهر شباط/فبراير، وبعد رحيلنا عن بيرل هاربور، وبعد وقت قصير من عبورنا ميدواي، اقترب مني الضابط التنفيذي بسحنة رمادية، وطلب مني أن أجلس. فهمت على الفور أنّ الأنباء لم تكن جيدة: «هل تعرف فتىً يدعى ديك برشينغ؟» سألني. أدركتُ فورًا ما حدث، واسودَّت الأشياء كلّها من حولي. كانت قراءة البرقية تشبه لكمة في البطن:

«ريتشارد برشينغ [...] قُتِل إثر إصابته بجراح خلال مهمّة قتاليّة، عندما تعرّضت فيها وحدته لهجومٍ بالأسلحة الخفيفة والقذائف الصاروخية المعادية، في أثناء البحث عن بقايا عنصر مفقود من وحدته» .

استأذنتُ، ثم مشيتُ على الجسر وبكَيْت. كانت الصدمة وعدم التصديق طاغيَيْن. حاولت أن أفعل كلّ ما كان بوسعي للحصول على مروحيّة أو طائرة تعود بي إلى البيت، لكنّ ذلك كان مستحيلًا. تغيَّبتُ أنا ودافيد ثورن، عن حضور مراسم الجنازة، فقد كان كلانا في موقع عمله. شعرت أنني كنت أكثر خواءً ووحشةً من أيّ وقتٍ مضى في حياتي كلِّها.

عندما كتبت إلى ذويّ، لم أتردّد ولم أكتم شيئًا. كنت في غاية الحزن، ولم أكن أصدّق أن الحياة كانت بهذه القسوة والعقم. وقد تغيَّر بي شيء ما بفقدان بيرش، وأستطيع أن أدّعي أن أشياء تغيّرت في كلّ الذين عرفوه جيدًا. كان جزءًا كبيرًا جدًّا من حياتنا المشتركة في جامعة ييل. لقد كان ضوء الأمل لنا جميعًا، نحن القريبين منه: لم يكن يحمل الأمور على محمل الجدّ، بل كان مرحًا يمتلك روح الدعابة. وكان دائمًا على استعداد لاختبار حدود التوقعات المؤسّسية. في تلك السن، كنّا جميعًا نرى أنّ بقاءنا دائمًا معًا أمرٌ مسَلَّمٌ به،

نقتحم الحياة بثقة، بل بتبجُّحٍ. نشأنا معًا، وذهبنا في المرحلة المتوسطة إلى مدرسة فيسيندن معًا. لم يكن قط طالبًا جدّيًا يعرف، أفضل من أيٍّ كان، كيف يتدبّر أموره من خلال دفع الممكن إلى أقصى الحدود، لكنّه كان يفعل ذلك بتألُّق ووعي، ينفيان الحكم بانعدام المسؤولية في الخيارات التي اتّخذها. ولقد عاش حياةً باذخة، سمحت له بقضاء أوقات رائعة. كان هذا الرياضيّ الطبيعي الموهوب، في نظري وفي نظر جميع أصدقائه، كائنًا لا يُقهر... أمّا الآن فقد رحَل.

زاد موت بيرش من تشكيكي في الحرب، خطأً كان ذلك أم صوابًا. فقد جعل الشكوك المتنامية حول حقيقة ما قيل لنا أكثر حضوراً وحساسيّة. وكان ذلك ضربةً لما تبقّى بي من أيِّ وجهٍ مثاليٍّ للحرب. فجأةً، كانت هناك ضريبة شخصيّة، لم يكن أحد في عالمنا الصغير قد سدَّدها حتى الآن. كتبتُ رسالة إلى والديّ تعكس الغضب بشكل واضح: «إن لم يكن بوسعي أن أفعل غير شيءٍ واحد، فسوف يكون بذل كلّ جهدٍ ممكن، فعسى أن نجعل هذا العالم الذي نعيش فيه أفضل، ونُنهي، وإلى الأبد، كل هذه الرغبة باستهلاك أنفسنا في هذا الدمار الذاتيّ الغبيّ واللاّنهائيّ. قد يبدو الأمر اليوم كبيرًا عظيمًا، لكنَّ ذلك كان ردّ فعلٍ صادقاً لشابٍّ في الرابعة والعشرين من العمر، على موت أحد أعزّ أصدقائه.

في الوقت نفسه، كانت الجبهة الداخليّة تستيقظ أكثر فأكثر. وقد أحدث هجوم تيت (رأس السنة الفييتنامية) الشامل تغييرًا جذريًّا في العقليّة الأميركية. فالهجمات المدهشة على أكثر من مئة مدينة وبلدة، وعلى السفارة الأميركية في سايغون، أذهلَت الشعب الأميركي وصدمَته. لقد شاهدنا جميعًا المأساة على شاشات التلفزيون: مشاهد قصف صواريخ الفييتكونغ، وهاوناتهم، وهي تدكّ مدن البلد جميعها؛ الوحدات الأميركية التي تقاتل لحماية السفارة وجدرانها المتصدّعة؛ الجرحى الذين يجري إخلاؤهم على النقّالات. رأينا ذلك كلّه على الشاشات. أخيرًا، أعلن الجيشان الأميركي والفييتنامي الجنوبي انتصارهما في معركة تيت. أمّا من الناحية النفسيَّة السياسيَّة، فقد كان ذلك كارثة حقيقية. إذ قوَّض الهجوم الثقة بنهجنا، وصدمَنا جميعًا. وبحسب الرئيس جونسون والقائد العام في فييتنام، الجنرال وليم وستمورلند، فقد كان العلاج بكل بساطة، هو الزجّ بمليون إضافيٍّ من القوات في أتون المعركة. كانوا يعرفون أنّ لديهم هذا العدد، ولكنْ، هل كانت لديهم الاستراتيجية؟ هذا سؤال آخر.

لم أركّز في فرص أميركا خلال تلك المرحلة. كانت رحى الحرب تدور، وكان لديّ عمل يجب القيام به. كنت في السابق أتخيّل دائمًا أننا سننجح، فقط

لأنّنا كنّا الولايات المتحدة. ولم يكن لديّ وسيلة لمعرفة مدى بساطة هذه القناعة، إلى أن بدأت بالعمل على الأرض، وتمكّنتُ من رؤية الخيبات والشعور بها، كمناطق إطلاق النار اللا مشروط، وصعوبة فصل الفييتكونغ عن باقي السكان، وطبيعة حرب العصابات الوحشيّة، وضعف معنويات الجيش الفييتنامي الجنوبي وتدنّيها، وفساد حكومته. وسرعان ما أدركت أن الفرنسيين وآخرين قبلنا، كانوا يستعملون جملة بسيطة، ولكنَّها صحيحة ومعبِّرة: «كُنّا نقضم أكثر ممّا نستطيع أن نمضغ» . لم تكن حربًا كلاسيكية تُقرّر فيها مسبقًا أرض المعركة وتوقيتها، حيث يستطيع جيش ما تحريك دباباته واستخدام قدراته الجويّة. كانت وحشًا ذا طبيعة مختلفة تمامًا؛ من هنا كان مفهوم «كسب القلوب والعقول» قد أصبح وصفًا حارقًا وكاشفًا للتحدي القائم. بدأت أشعر أنّ جُلّ ما كنّا نفعله يقود مباشرةً، ليس إلى القلوب والعقول، بل إلى نفورهما. وكانت لدينا عقلية قتل أكبر عدد ممكن، وكان السكان المدنيون الفييتناميون يدفعون الثمن. بعد مرور ثلاث سنوات على هجوم تيت سنة ١٩٧١، أصبحتُ مناهضًا للحرب، إلّا أنني لم أكن أملك، حتى ذلك الحين، أدنى فكرة عن حجم الكذبة، كتزوير التقارير، والمبالغات، والخيبات الميدانيّة، إلى أن قرأت كتاب نيل شيهان «A Bright Shining Lie» بعد ما يزيد على عشرين سنة من خدمتي، فأدركت مدى العمق الذي وصل إليه النتن في ذلك الوقت.

بعد أن اجتزنا المحيط الهادىء، قضينا عدة أيام في ميناء سوبيك باي، في الفيليبين، وكان ميناء بحارةٍ فريداً. يكفي أن يُقال عن قصصه إنها أسطوريّة. من هناك، أبحرنا إلى خليج تونكين، حيث قضينا شهرين في العمل مع حاملات الطائرات التي كان طيارو البحرية ينطلقون منها لقصف شمال فييتنام. من إحدى حاملات الطائرات تلك، أقلع جون ماك كين، في مهمته المشؤومة بتاريخ ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٦٧، فأُصيبت طائرته في سماء هانوي وسقطَت. كانت مهمتنا تأمين الحماية الصاروخية لحاملات الطائرات، والعمل كسفينة إنقاذ تُبحر في أعقابها بشكل ثابت على مسافة خمسمئة ياردة، وتكون جاهزة لانتشال طيار من الماء في حال قذفٍ فاشل، أو تحطُّمٍ عند الإقلاع أو الهبوط. وسواء أكان ذلك في أثناء الليل من دون أية أضواء، أم في النهار، وفي كلّ عمليات الطيران القتالية، فقد كنّا في مركزنا خلف الحاملات. كان صوت هدير المحركات ليلًا، حيث لا تكاد ترى شيئًا، عميقًا ومهيبًا، يشبه زئير أسدٍ متوحّش في غابة. كانت المرة الوحيدة التي تمنّيتُ فيها لو أنني طيّارٌ في مدرسة طلاب الضباط. إلّا أن ما منعني من ذلك نصيحة والدي التي تقول إن الطيران يصبح مهنة وليس شغفًا، بالإضافة إلى احتمال قضاء ست سنوات في الخدمة.

في شهر آذار/مارس، وبعد قضاء شهرين في خليج تونكين، جرى إرسالنا إلى دا نانغ. ذهبنا إلى هناك للمشاركة في اجتماعات حصرية لأشخاص بعينهم. لم أعرف قط شيئًا عن تلك الاجتماعات. ولكن، كوني ملازماً أول مسؤولاً عن الجيغ، أي القارب المخصّص للقبطان وحده، فقد كنت سعيدًا بالتمكّن من النزول إلى اليابسة، عندما كنّا ننقل القبطان والطبيب إليها.

كان على رأس جدول أعمالي إجراء اتصالٍ هاتفيّ. لم تطأ قدماي اليابسة منذ وفاة بيرش. لذلك، لم يكن لديّ أيّ تواصل مع أحد بشأنه أو بأيّ شأن آخر. كنت أريد الاتصال بجوليا عبر نظام الراديو العسكري الاحتياطي. انتظرت دوري لثلاثين دقيقة، وتكلّمت معها لدقيقتين. كان تمرينًا محبِطًا، نبيل الهدف، لكنّ الاتصال كان رديئًا. وقد جعلني قِصر الوقت بائسًا لعدم تمكّني من قولٍ ما كنت أريد قوله. بالإضافة إلى ذلك، كان أفظع من الجحيم أن تتكلّم عبر خطٍّ هاتفيٍّ كما لو كنت على سطح القمر، تتكلّم عبر علبة كونسروة، والعالم كلُّه يستمع.

كنتُ أعرفُ أيضًا أنّ شريكي السابق في الغرفة، داني باربييرو، كان يخدم في وحدة تابعة للبحرية في مكان مجاور، أو هكذا كنت أظنُّ. كنت آمل في أن أتمكّن من العثور عليه، على الرغم من أن هذه المهمة كانت صعبة في أحسن الأحوال. كانت دا نانغ قاعدةً بحريةً هائلة الحجم.

ولكنْ شاءت المصادفة أنْ ألتقي داني في قسم الاتصالات الذي اتّصلت منه بجوليا. وجدته يخدم بوصفه ضابط اتصالات في وحدته التابعة للبحرية قرب كوانغ تري، شمال دا نانغ. كان مذهولًا، وكانت لحظة مدهشة. عندما افترقنا في ييل، لم نكن نعرف أين سنلتقي ثانية، ومتى. ولكنْ، في ذلك اليوم الأوّل من وجودي على اليابسة في فييتنام، كان رائعاً سماعُ صوت مألوف وودّي: بعد المكالمة، كنت على وشك العودة إلى السفينة، عندما تساءلت فجأة عمّا إذا كانت عيناي تخدعانني: على بعد عشرين ياردة، كانت مجموعة من جثث الفييتكونغ مكدِّسة مثل كومة من الحطب. لم تكن الجثث التي رأيتها من قبل، في أعقاب السفينة، أو خلال مراسم دفن، تشبه هذه الجثث في شيء. فتلك كانت مُسجّاة بكامل أناقتها في نعوش فاخرة، فيما كانت هذه باردة، متصلّبة، مشوّهة، ومكوّمة بعضها فوق بعض... أين كنتُ، بحق الجحيم؟!

أطلق اليوم الذي قضيته في دا نانغ الشرارة التي أشعلت فضولي. كنتُ على اليابسة لبضع ساعات؛ لكنّ هذه الزيارة الخاطفة جعلتني أرغب في

معرفة المزيد عمّا يعنيه أن تكون حقًا موجودًا هناك، وتشعر بتيارات الحياة اليومية التي يعيشها الفييتناميون، وترى من كان، أو لم يكن يعمل على نحوٍ جيد. شعرت بطاقة ملموسة في قسم الاتصالات، وفي الشارع، وفي حركة ذهاب وإياب الجنود وموظّفي الدعم من المدنيين. كنت مفتونًا، فرحتُ أسعى منذ تلك اللحظة إلى العودة قائداً لزورق سريع.

عدنا إلى عملنا الروتيني كسفينة إنقاذ في خليج تونكين. ومن حين إلى آخر، كنّا نطلق الصواريخ على قاذفات الميغ الفييتنامية الشمالية، عندما كانت تقترب من منطقة سيطرتنا النارية. لكنها كانت دائمًا تعود أدراجها في اللحظة الأخيرة، بعد أن تقوم بلعبة الدجاجة[6] الخطرة.

في الرابع من نيسان/إبريل، سنة ١٩٦٨، علمنا أنّ مارتن لوثر كينغ جونيور، اغتيل بطلق ناري في ممفيس. ولا أزال أتذكّر محادثتي مع والدي بشأن خطاب الدكتور كينغ، الذي ألقاه في شهر حزيران/يونيو، سنة ١٩٦٣، بمدينة ديترويت، والذي بات معروفًا فيما بعد بخطاب «عندي حلم» . كان قد استخدم فيه كلمة مثيرة للاهتمام وهي «غير مطابق» . نوّه والدي بأنّ المفردة تستخدم عادةً لتأدية معنىً سلبيٍّ في وصف شخصٍ لا يناسب المجتمع. لكن الدكتور كينغ وجّه هذه المفردة إلى نفسه مباشرةً. قال إنه فخور بأن يكون «غير مطابق» ، لأنه لم يكن يستطيع العيش مرتاحًا وسط التمييز العنصري، والتعصُّب الديني، والحقد الأعمى، وأعراض التدمير الذاتيّ الناتج من العنف. فكّرت في هذه الكلمات يوم سمعت بمقتل الدكتور كينغ. فكّرت في ما يعنيه أن يكون المرء «غير مطابق» للعنف، وفي واجباتي تجاه بلدي ضابطاً في سلاح البحرية. لم أجد أية أجوبة، لكنني بدأت أشعر بأهميّة تطبيق حسّ الضمير نفسه، أي الشجاعة نفسها، والتصميم نفسه، في طرح الأسئلة الصحيحة.

في نهاية شهر نيسان/إبريل، أو نحو ذلك، كنّا قد أُعفينا من العمل كسفينة إنقاذ، من أجل تمثيل الولايات المتحدة في احتفالية بحر المرجان بنيوزيلندا. بدايةً، ذهبنا إلى سوبيك باي، للتزوّد بالوقود والمؤن. كان القبطان يصرُّ على طلاء السفينة قبل زيارة ويلينغتون، ما حرَم أفراد كتيبتي بأكملها من الإجازة. كانوا يعملون على طلاء السفينة ليل نهار، وكانت دلاء الطلاء تتناثر في كل مكان. غنيٌّ عن القول، أن البقاء طوال شهرين كاملَين في عرض البحر من دون إجازة، لم يرُق لأفراد الطاقم. أخيرًا، وبعد أن سُحقنا وهُزمنا في سباق التقليد القديم لعبور خط الاستواء بحرًا، وعندما تحوَّل «الشراغيف» (أي البحّارة الأغرار الذين لم يعبروا خط الاستواء من قبل) إلى «أبناء نِبتون» (أي البحّارة الذين عبروا خط الاستواء من قبل)، استمتعنا بنهاية أسبوع رائعة

في زيارة ويلينغتون. كانت أفضل إجازة حصلتُ عليها خلال الوقت الذي قضيته على متن السفينة غريدلي. ولا أزال أحتفظ بسجاجيد جلد الخروف التي اشتريتها من ريف نيوزيلندا الخصب... بعد ذلك بدأنا برحلة العودة إلى كاليفورنيا.

ليلة الخامس من حزيران/يونيو، وباقترابنا من ساحل لونغ بيتش بعد تلك الجولة الأولى من العمل، وكنتُ أعمل حتى وقتٍ متأخّر مع فريق الشؤون العامة، سمعنا التقارير الإذاعيّة الأولى عن الانتخابات الرئاسيّة الأوليّة في ولاية كاليفورنيا. استمعت إلى خطاب الفوز الذي ألقاه بوبي كينيدي في فندق أمباسادور. شعرت للوهلة الأولى كما لو أن أحلام شقيقه جاك تعاود الصعود مجدَّدًا. ثمّ غيّرَ جنون طلقات المسدّس النارية من عيار ٢٢ فجأة كلّ شيء. رسونا على رصيف الميناء في الصباح الباكر، فرأيت جوليا ودافيد بين حشد المتعاطفين والأسر الذين تجمّعوا للترحيب بعودتنا إلى ربوع الوطن. عندما وقعت عيناي على دافيد، أومأ لي بإشارة من إصبعه على شكل مسدّس، رافعًا كتفيه ومقلّصًا عينيه، في وضعيّة من يُطلق النار، فكأنه كان يريد أن يقول: «ربّاه، الأوضاع سيّئة هنا أيضًا» . قلتُ في نفسي: «بحقّ يسوع المسيح، لقد تركت فييتنام لتوّي، حيث يسود الجنون والقتل. وها أنا الآن أعود إلى وطني، الولايات المتحدة، لأجد الوضع نفسه» . قضيتُ أنا وجوليا ودافيد بضعة أيام في شقّته، نشاهد مأساة الجنازة والحداد على شاشة التلفزيون، وكانت أشبه بذلك الزمن في ييل، عندما اغتيل الرئيس كينيدي. لن أنسى ما حييت حشرجة صوت تيد كينيدي، عندما قال «شقيقي» في تأبين شقيقه، مذكّرًا إيانا بكلمات جورج برنارد شو، التي آمن بها، وعاش وفقها، روبرت فيتزجرالد كينيدي: «يرى بعض الرجال الأشياء كما هي، ويسألون لماذا؟ أحلم بالأشياء التي لم توجد قطّ، وأسأل: لِم لا؟» .

في طريق العودة إلى الولايات المتحدة، تسلّمت أوامري بالخدمة على متن قوارب سويفت. كنت في غاية السرور. وبعد عودتي بأيام، غادرتُ غريدلي، وصرفت بعض الوقت قبل الالتحاق في آب/أغسطس، بدورة التدريب على قوارب سويفت، في قاعدة كورونادو البرمائية. ثم عُدت إلى المنزل في بوسطن، لقضاء بضعة أيام استراحة.

بدافع الفضول لمعرفة التيارات السياسية السائدة في ذلك الحين، اشتريت بطاقة لحضور مهرجان يوجين ماكارثي، في فينواي بارك. كنتُ أريد رؤية ما كانت تمثّله وتطرحه حملته الانتخابية، بعد أن ابتعدتُ لفترة طويلة من الزمن، حيث كنتُ في عالم مختلفٍ كلّيًّا. وقد جعلني ذلك أشعر على نحوٍ غريب، بانقطاع اتّصالي بكل الأحداث التي كانت جاريةً في بلدي، ولاسيَّماً

التيّارات السياسية السائدة خلال العام ١٩٦٨. كنتُ أعلم بوجود بعض المرارة بين معسكرَي ماكارثي وكينيدي، لكنني لم أكن أعرف أين وصل السباق بعد اغتيال بوبي. كان ماكارثي في حينه، يحمل بنفسه الراية المناهضة للحرب. وكنت أتساءل عمّا إذا كان ذلك يمثّل تهديدًا حقيقيًّا مشروعًا لنائب الرئيس هامفري، والذي كان لا يزال يؤازر جونسون في موقفه من الحرب. كنتُ أظنُّ أن لا شيء من ذلك كلّه قد جرى تحليله على نحوٍ صحيح. عشيّة المهرجان، كانت الصحافة بأكملها تناقش قدرة ماكارثي على ملء ملعب فريق Red Sox للبيسبول، بالمؤيّدين. لذلك، راح المتطوّعون يجوبون شوارع بوسطن، ويبيعون بطاقات الدخول بدولار واحد، قبل المهرجان بأربع وعشرين ساعة، لتأكيد قدرة ماكارثي على حشد الجماهير. عندما وصلتُ ليلة المهرجان، كانت تسود المكان حالة من الهرج والمرج. كانت ساحة كنمور سكوير تغصُّ بالشباب، وارتُجلَت قاعة رقص، كان الجميع فيها يقفزون، فيما راح الصبية الذين جاؤوا بلافتات كُتب عليها «نظيفون من أجل جين[7]» ووضعوا ربطات عنق كُتب عليها «يوجين» ، يوزِّعون عرائض مثل «الغذاء لبيافرا» على الأيادي التي كانت تريد أخذها. كان دفء الليل، والنسيم العليل والموسيقى وحشود الشباب تُشعرني بأنني عدتُ إلى زمن سان فرنسيسكو.

كان ملعب فين واي يكتظّ بالبشر الذين ملأوا الممرات الجانبية، وتجمّع آخرون في مرأب السيارات، حيث كانوا يمدّون أعناقهم للظهور على شاشات الكاميرات التلفزيونية التي جهّزها على نحوٍ مرتجَل طاقم ماكارثي، لتنقل مباشرة مشاهد آلاف المؤيدين القادمين من جادة بروكلاين آفنيو. حتى إنَّ بعضهم كان يتعلّق بلوحات الإعلان.

تكلّم كثيرون، لكنّ بيت سيغر غنّى. صعد إلى المنصة، وتكلّم بأعلى صوته: «هذه الليلة، أنا وأنتم نعيش حرباً علينا إيقافها» ، لكنّ الجمهور لم يسمع، وراح يغنّي «If I Had A Hammer» . في النهاية، كان يغنّي معهم. أربعون ألفًا من الأصوات اجتمعت في صوت واحد. كنت تسمع الغناء على امتداد الطريق، وعلى الجانب الآخر من نهر تشارلز حتى كامبريدج. ثم تكلّم آلن آركين، وليونارد برنشتاين، فارتفعت الهتافات مجددًا. وقبل أن يصعد ماكارثي إلى المنصة بثلاث دقائق كاملة، بدأت الحشود تزأر: «نريد جين» ... وكان لها ما أرادت.

دخل ماكارثي دخول الملوك. خرج من الظل أسفل المدرجات التي تتوسّط الملعب محاطًا بخيّالة شرطة بوسطن. وباقترابه من قاعدة البيسبول

الثانية، حيث كانت المنصّة، انفجرت الحشود. لم يكن ماكارثي خطيبًا مُلهَمًا. كان صوته رتيباً، ولا يتحمّس إلّا فيما ندَر. ومع ذلك، فإن رسالته كانت واضحة ونقيّةً كالبلّور. كان يريد لأميركا أن تصبح «أميركا الثقة، أميركا تثق بحُكمها» . في لحظةٍ ما، شبّ أحد الجياد وصهَل، فالتقَطَ الميكروفون صهيلَه. «حتى الجواد يوافق، على ما أظنُّ» قالها ماكارثي مازحًا. وعندما تحوّل إلى الحديث عن فييتنام، سمّاها «الحرب المقدّسة» ، واتّهم إدارة جونسون، التي كانت تُجري محادثات مع حكومة فييتنام الجنوبية، باتّباع عقيدة «المعصوميّة عن الخطأ» . كانوا مشغولين جدًا بإلغاء «الهرطقة» لاتخاذ القرار الصحيح: «علينا أن نأخذ على عاتقنا إصدار حكم أخلاقيّ على الحرب بعد أن بلغت منتصف مسارها لنقول إننا نرى أنَّ ما تفعله محض غباء، ونقرّ بأنه كان عملاً خاطئاً» ، قال ذلك تحت وهج الأضواء الكاشفة.

شعرتُ فجأةً أنني لم أكن في مكاني بين أقراني. عندما كنت في سان فرنسيسكو وفي جامعة ييل، لم يكن لديّ أية مشكلة في سماع هذا النوع من الخطابات السياسية. الآن صرت بحارًا. وأكثر من ذلك، أنا ذاهب إلى الحرب، إلى فييتنام، وفيما كنت قد وصلت إلى مرحلة من التشكيك الجدّي في الحرب، لم أكن أعرف بعد شيئًا عن الأمور التي سرعان ما اكتشفتها، وأشعرتني بالغضب. كانت لديّ تحفّظات، وكنت أسمع أكثر فأكثر أشياء تغذّي الشكوك. لكنني أحسستُ أنّ الحرب كانت تمثّل إخفاقاً عميقًا على مستوى القيادة، وكنت على يقين من أنّ نسيج بلدنا كان يتفكّك ويتمزّق. لكنني كنتُ أحتاج إلى معرفة المزيد لكي أقتنع بكيفيّة ترميم هذا النسيج.

* * *

في أواخر شهر تموز/يوليو، سنة ١٩٦٨، وصل خمسة ضباط مع طواقمهم إلى قاعدة البحرية الأميركية البرمائية، كورونادو، في كاليفورنيا، للقيام بدورة تدريبية من أربعة أشهر، قبل الانتشار في إطار عملية Operation Market Time [8] في فييتنام. استأجرت شقّة قبالة الشاطئ في ميشن بيتش، على المحيط الهادئ، جنوب لايولا، تبعد بضعة أميال عن القاعدة. كنت يوميًّا أركب دراجتي الهوائية، وأذهب إلى قاعدة التدريب كورونادو، برفقة صديق جديد، وهو ضابط استخبارات اسمه جيل ويتكومب، كان معيَّنًا في مدرسة اللغة مع باقي مجموعتنا. وجد جيل شقّةً على الشاطئ، أبعد باتجاه الجنوب، لكننا كنّا نلتقي يوميًا في مدينة الملاهي، ونتدرّب على ممارسة اللغة الفييتنامية، فيما كنّا نمرّ بمقرّ التجنيد التابع لسلك البحرية، وهي طريقٌ عمليّة مختصَرة تؤدّي إلى كورونادو. لا شكَّ في أن منظرنا كان جميلًا: ضابطان في

سلاح البحرية بالزيّ الخاكي، يقودان دراجتَي سباق فرنسيّتَين، ويمرّان عبر زمرة من مجنّدي البحرية الذين يمارسون تمارين ضغط رياضية، ويتنقّلون من تمرين إلى آخر، في حين أن الضابطين يعملان على درسهما اليوميّ للغة الفييتنامية.

خارج ساعات العمل، كنّا أحرارًا في استغلال وجودنا بسان دييغو، إلى الحدّ الأقصى. كنّا نركب الأمواج على الشاطئ، ونرتاد فندق كورونادو الشهير، حيث جرى تصوير فِلم Some Like It Hot، ونذهب إلى الرقص في مقر التجنيد التابع لسلك البحرية. تعلّمنا في صفوف الدراسة كلّ شيء عن قوارب سويفت: محركاتها، وإجراءات الاتصالات، والتسليح. والأهمّ من ذلك كلّه، تعرّفنا إلى الطواقم التي ستشكّل فرقنا في فييتنام. لقد كانت إمكانية الخدمة أخيرًا على متن قارب سريع شيئًا رائعًا. كانت هذه القوارب الواطئة والغليظة، التي يبلغ طولها خمساً وخمسين قدمًا، والمصنوعة من الألومنيوم، والمزوّدة بمدافع رشاشة، توشك أن تصبح بيوتاً لنا، تبعد عن بيوتنا الأساسيّة. لم تكن تلك القوارب مصمّمةً لهذه الوظيفة، بل كانت مصممة لتعمل كتاكسي لمنصات استخراج النفط العاملة في مياه خليج مكسيكو. ولكنْ، عندما بات واضحًا أنّ سفينةً جديدة كانت ضرورية للعمل في المياه الضحلة على امتداد الشاطئ الفييتنامي، انتزع سلاح البحرية تلك القوارب. كان يعمل على كل قارب طاقم من ستة رجال، بينهم ضابط واحد، وهوالضابط المسؤول برتبة ملازم أول عادةً (رتبة مبتدئ). وكانت القوارب مسلّحةً بمدفع رشاش مزدوج عيار ٥٠، منصوب على سطح مقصورة القيادة، ومدفع رشاش بسيط عيار ٥٠، منصوب في مؤخَّر المركب، فوق منصة مدفع الهاون عيار ٨١ ملم. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك قاذفات قنابل من طراز M-79، وبندقيات رشاشة طراز M-16، وقنابل مضادة للأفراد، وقنابل مسبّبة للارتجاج الدماغي، ومسدسات عيار ٣٨، وبندقية مضادة لأعمال الشغب، وكل الأسلحة الأخرى التي يمكن للرجال أن يَسْتَجْدوها، أو يستعيروها، أو يسرقوها. كانت القوارب عالية القدرة، مجهزة بمحركَي ديزل بقوة ٤٨٠ حصاناً. ولكنْ، بسبب حجم حمولة الذخائر، فإنَّ سرعتها لم تكن تتجاوز ٢٥ عقدة إلّا فيما ندَر، أي ما يعادل أقلّ من ٢٥ ميلًا في الساعة. كانت مجهزة بمساكن لأربعة أفراد، اثنان منها تحت مقصورة القيادة، واثنان في المقصورة الرئيسة. وكان فيها أيضًا موقد صغير وثلاجة، يوفّران بشكل لائق الطاقة اللازمة لبضعة أيام بدائيّة بعيدًا عن القاعدة.

كان الشعور جيدًا عندما خرجنا للمرة الأولى في مهمة هجومية، بدايةً، تحت مراقبة صف ضباط البحرية من ذوي الخبرة، يحملون رتبة معاون أول، ثم بمفردنا. كان تولّي زمام القيادة يمنح شعورًا بالرضى، كما كانت توقّعاتي بالضبط. بدا أن الجميع يستمتعون بجو الاستقلالية والاسترخاء، وما فيهما من إحساس بالمسؤولية. وقد عوّدنا أنفسنا على مناورات متنوعة في ميناء سان دييغو، ثم خرجنا إلى عرض البحر قبل القيام برحلات ليلية، حيث شحذنا وجدّدنا مهاراتنا في الملاحة وجدّدناها. وللمرة الأولى، أطلقنا قذائف الهاون ورمينا بالمدافع الرشاشة.

وقبل أن يتمكّن كلّ منّا من الذهاب إلى فييتنام، طُلب إلينا اجتياز اختبار البقاء، والمقاومة، والتدرُّب على الهرب. وكان ذلك مزيجًا من التدريب على البقاء وتجربة أَسْرٍ وهميّة، وإليك التمرين: اجتمعنا كلُّنا مساء يوم أحد في قاعدة كورونادو باللّباس الميداني الكامل، مع سترٍ وخناجر كبيرة، ماركة كابار، تتدلّى من أحزمتنا. تجمّعنا على الشاطئ قرب الفندق، بعد أن نقلتنا الحافلات، وتركتنا قرب محطة نورث آيلاند الجوية التابعة لسلاح البحرية. عند الغسق، ألقى علينا المدرّبون محاضرة في كيفية إيجاد سمكة، أو أصداف كبيرة، أو الإمساك بطائر نورس. ثم سِرنا بحثًا عن الغذاء. بعد الإدراك الصارخ بعدم وجود غذاء نستطيع العثور عليه على هذا الشاطئ الممشّط جيدًا، تمدّدنا بين الصخور متجمّدين من البرد، وحاولنا النوم. حوالى الساعة الرابعة صباحًا، وبعد أن استيقظنا من دون عشاء ولا وجبة فطور، ركبنا الحافلات لتنقلنا إلى مكان في الصحراء سُمِّي وارنر سبرينغز، حيث المركز الرئيس للتدريب. بعد وصولنا، قضينا الأيام الأربعة التالية في الصحراء، لا نفعل إلّا شيئين، شيئين فقط: الاستماع إلى المدرّبين في أثناء التسكّع، والبقاء على قيد الحياة. حتى إنَّ المدربين علّمونا كيفية الإمساك بأرنب وسلخ جلده. وفي إحدى الليالي، جاء أحدهم بأرنب، وأنا أظنُّ أنهم اشتروه وزوّدونا به لضرورات التمرين. ولكن لا يهم، كان هناك أرنب مسلوخ ومفرّغ جيدًا، يغطس في وعاء ممتلىء بالماء، ويغلي على النار. وفّر [9] Bugs Bunny التعيس الحظ، الحساء للمجموعة بأكملها، وكان طعمه لذيذًا.

كوفئت الغالبية العظمى التي صمدت حتى يوم الخميس بتمارين التهرُّب والهرب. وكان في الاختبار فريقان من المدرِّبين: فريق أزرق وفريق أحمر. الفريق الأزرق هم الرجال الطيبون، الذين يقولون لك ما يجب فعله، وكيف تجد الغذاء، وكيف تتمكّن من المقاومة والهرب، والفريق الأحمر أعداء، أقوياء البنية، أصحّاء، لا يعانون سوء التغذية ولا قلّة الراحة. في ساعة مبكّرة

من صباح يوم الخميس، جمعَنا الفريق الأزرق في منطقة محدّدة، بين سرير نهرٍ جاف من جهة، ونباتات مريمية وأشجار من الجهة الأخرى. صَفُّونا في الطَرف الأقصى من تلك المنطقة، وقالوا لنا: إن لديكم عدداً محدَّداً من الدقائق للوصول إلى القاعدة السكنية التي تبعد ثلاثة أميال. فإذا نجحتم في الوصول إليها في الوقت المحدّد، لكم الحق في الاختيار بين الحصول على شطيرة أو برتقالة... خيار واحد فقط، ونصف ساعة استراحة. ولكي يجعلوا الأشياء أكثر إثارةً، أطلقوا في أعقابنا وحدات الفريق الأحمر المعادية بعد عشر دقائق. لذلك، كان عليك أن تسرع في التخفّي بتمويه نفسك، وأن تتحرّك وتسلك طريقًا للهرب من أولئك الرجال الذين يرتدون جميعًا زيًا موحدًا، ويضعون كتفيّات حمراء، ليظهروا بمظهر السوفيات، أو الشيوعيين الصينيين، أو جنود الجيش الفييتنامي الشمالي. كانوا يتقنون أدوارهم جيدًا. كانوا جدّيين، وقساة، أولئك الذين كانوا هناك للقبض علينا. وعندما كنت تقع في الأسر، كانوا ينقلونك إلى معسكر أسرى الحرب القريب في الصحراء. هناك كنت تخضع لاختبار قواعد السلوك: اسمك، رتبتك، رقمك المتسلسل، والتحمّل مدّة الأربع والعشرين ساعة التالية. كانوا يقوّمون كل شيء، من دون كلام معسول، أو رعاية أو دعم.

ولمّا كنت أهوى الصيد ولعبة القبض على العلم في نوشون آيلاند، وأصطاد، فقد شعرت بأنني أملك خبرةً نسبيةً في التمويه، والحركة، والتخفّي. منذ أن بدأنا العمل أفراداً، وليس فريقاً، رأيت أنَّ من المهم هزيمة الحُمر من خلال السيطرة على محيطي الطبيعيّ قدر الإمكان. كان ذلك يعني التحرك بسرعة، بعيدًا عن الآخرين، والذهاب بمفردي. وفي مرحلة ما، سمعتُ القوات المعادية تقترب. تكوّرتُ على نفسي مجدّدًا في أفضل وضعيّة جنينيّة، كما فعلتُ في بامبلونا، واختبأت في أجمة صغيرة كما لو كنت ميتًا. لا أزال أستطيع رؤية حذاء أحدهم وهو يمشي على مسافة أربع أقدام منّي. لم أتحرّك، كنتُ جزءًا من البيئة المحيطة، ولم يروني، أو إنهم أعطوني فرصةً وادّعوا عدم رؤيتي. إنّ ما كان يُرعبني أكثر من أيّ شيء، هو الوقوع على حيَّةٍ صلّالة تزحف عبر الصخور والأجمة.

سمعت من حولي بعض الأشخاص الذين وقعوا في الأسر، لكنني نجحت في الوصول إلى القاعدة. كان هناك أربعة رجال أو خمسة وصلوا قبلي، فراحوا يستمتعون، كلٌّ بمكافأته، واخترتُ أنا البرتقالة. وقد تبيّن أنني كنتُ الضابط الوحيد المسؤول إذن. كنّا نسترخي، ونمزح بشأن التمرين بمجمله، عندما جاءت سيارة جيب في نهاية النصف ساعة. خرجت منها مجموعة من الرجال القساة بلباس الأعداء، وتصرّفوا بفظاظة مع أحد المجنّدين. وكان واجبي يقضي بأن أقف وأحميه، فقلتُ شيئًا غبيًا، وإنْ كنتُ مُجبَرًا: «اسمع يا

هذا، أنا الضابط الأعلى رتبة هنا، ولستَ مخوَّلًا أن تفعل ذلك» . وجدتُ نفسي دائخًا ومطروحًا على الأرض، رأسي نحو الأسفل، ويغوص في الرمل، وتضغط على ظهري قدمٌ تمنعني من الحركة، وعلى عنقي فوّهة بندقية، ثم قال الضابط: «إخرَس وأطبق فمك اللعين هذا» . بعد ذلك، راحوا يعذبون الفتى المسكين لانتزاع المعلومات منه، مستخدمين قطعة من القماش المبلّل، يُغطّون بها رأسه تمنعه من التنفس، فيشعر كما لو أنّه كان يغرق. وسرعان ما وضعونا في سيارات الجيب ونقلونا إلى سجن المعسكر، حيث أمرونا بخلع ملابسنا والتعرّي كليًا. أخذوا ملابسنا وأعطونا زي سجنائهم، ثم وضعونا في كوخ مع مجموعة أخرى من الرجال.

بحلول وقت الغداء، أخرجونا جميعًا وأمرونا بالحفر. حفرنا بعمق ستّ أقدام. وما إن انتهينا من الحفرة، حتى أمرونا بردمها على الفور. في هذه الأثناء، حلّقت فوقنا طائرة، وأطلقت صفارات الإنذار معلنة غارة جوية. اختبأنا جميعًا في الخيمة كالفئران. طوال فترة التمرين، كان المدرّبون قساة: كانوا يضربوننا، ويحقّقون معنا فردًا فردًا. جرى استدعاء الجميع، فانتظرت دوري. أمّا الغريب في الأمر، فهو أنني لاحظت، وعلى الرغم من معرفتي أن ذلك لم يكن سوى تمرين ينتهي بعد أربع وعشرين ساعة، أنَّ بعض الرجال قد انقلبوا وخرجوا بلباس الأعداء، ثم راحوا يوجّهون إلينا الأوامر. كنت متيقّناً أنها كانت عملية مدبَّرة، لكنها كانت تفعل مفعولها. مع ذلك، لم ينجح بعض الأشخاص في الاختبار، فأخفقوا في أثناء التحقيق، أو لم يتحمّلوا العزلة.

عندما جاء دوري، دخلت إلى غرفة مظلمة، فيها رجل يجلس خلف طاولة مكتب. سألني عن اسم وحدتي. أعطيته اسمي، ورتبتي، ورقمي المتسلسل. وفي لحظةٍ ما، ابتسمت، وكان ذلك خطأً عظيمًا. من الواضح أنني لم أؤدِّ دوري بإتقان. فسرعان ما طُرحتُ أرضًا، وأُمرت بتنفيذ تمارين ضغط حتى سقطتُ منهكًا. بعد ذلك، وضعوني في «قفص نمر» وهو عبارة عن صندوق ضيّق. لم أكن أستطيع التحرك يمينًا أو يسارًا، أو إلى الأعلى أو إلى الأسفل، وبقيت هكذا طوال خمس وأربعين دقيقة، كان رأسي ووجهي غارقين في ركبتيّ، وظهري على بعد بوصات من غطاء الصندوق. شعرتُ برهاب الأماكن المغلقة، وكان عليّ الاشتغال عنه بألعاب الذهن الرئيسة. أُصابُ بالرعب لمجرّد تذكّر ذلك الآن. عصرتُ ذهني لتخيُّل مشاهد الإبحار أو التزلّج، أو أشياء لطيفة، لكنني ما لبثت أن تساءلت: «أية أشياء لطيفة هذه؟!» لم يكن هناك أي شيء لطيف. أنا في قفص لعين. لا أستطيع التحرك، وظهري يؤلمني وأنا محنيّ إلى الأمام وأختنق. وإذا استمرّ التعذيب لفترة أطول، فإنني سأُصاب بالجنون، لا ريب في ذلك. بعد كل خمس دقائق، كان

الحراس ينقرون على القفص، ويسألونني إن كنت بخير. وبما لا يزيد على خفخفة قصيرة، كنتُ أُفيد بأنني كنت هناك، وكنتُ صامدًا. بعد ذلك نقلوني إلى صندوق أكبر، حيث كان أشخاص كثيرون يتكدّسون في مساحة ضيّقة، يصلّبون أذرعهم وسيقانهم، ورأس هذا محشور في ظهر ذاك. لم تكن العِشرة أسوأ من الوجود وحيدًا في صندوق. في الواقع، كنتُ أحد المحظوظين، فقد قيل لي إنَّ آخرين وُضعوا في توابيت.

إذن، فقد استمرّت الأمور على هذا المنوال لوقت بدا أنه لانهائي، حيث كان الحراس على الدوام، يحاولون كسرك بعدة وسائل، منها زرع العداوة بيننا، وتحريض بعضنا على بعض. في أثناء الليل حاولت الهرب مرارًا عن طريق السطح، ثم القفز فوق السياج، فقد كان الهرب يُكافأ بشطيرة واستراحة أخرى، لكنني كنت أتردَّد في كل مرَّة وأتراجع. وعندما كنت أدرك أن الطريق لم تكن جيدة، كنت أتراجع وأندسّ في كوخي... هكذا انقضى الليل. كانت هناك بضع محاولات هرب ناجحة. ثم وفي وقتٍ ما، من صباح اليوم التالي، صفُّونا جميعًا في الفناء باتجاه الشمال، وانطلقت صفارة الإنذار. تلقينا أمرًا بالاستدارة إلى الخلف. هناك، كان العلم الأميركي يرفرف تحت الشمس جميلاً ومحرّراً. كنت مأخوذاً بمدى ترحاب تلك اللحظة ووجدانيتها. كنّا نعرفُ أننا نجحنا في البقاء أحياء. انتهى أسبوع المحنة. نقلونا بالحافلات إلى القاعدة في كورونادو. وما إن وصلنا حتى عدت مسرعًا إلى شقة الشاطئ، حيث استمتعت بألذّ وجبة، وأطول استحمام في حياتي.

كشف ليَ التدريب على البقاء شيئًا في نفسي: لم أكن أريد الوقوع في الأسر، خصوصًا في قبضة الفييتكونغ، إذ كنت على يقين من أنهم سيسلخون جلدي حيًّا. وعندما تعلّق الأمر بمقاومة التعذيب، كنت أعرف أنني سأبذل كل ما في وسعي، ولكنني كنت أشعر بطعم الصعوبة في الحفاظ على قواعد السلوك مع مرور الوقت. لقد علّمَت معظمَنا تجربةٌ من أربع وعشرين ساعة فقط، أننا قد نكون في النهاية أمام لحظة تنكسر فيها العزيمة. أبدي أسمى مشاعر التقدير والإعجاب، بما بذل جون ماكين وأسرى الحرب الآخرون من جهود للبقاء أحياء، وهم في تلك العزلة، وذلك الألم. لكنّ أحد أكبر دروس تلك الفترة، كان حدود قواعد السلوك نفسها. ونتيجة لتجربة فييتنام، أصبحت قوانين التحريم الرسمية لاستخدام وسائل التعذيب أقوى. وعندما كنّا على وشك الانتشار في فييتنام، علّمونا أن نفعل ما في وسعنا. إذا كان ذهنك قويًا وجسدك نصف قوي، فإنَّ بإمكانك أن تنجح، لكنّ الذي توطّد داخلي خلال التدريب على البقاء، هو أنني لم أكن أريد أن أقع في الأسر حيًّا. وفي معارك

أنهار خليج ميكونغ، توطّد بي شيء آخر، وهو أنني سأبذل ما في وسعي وكلّ طاقتي، للحفاظ على حياتي وحياة أفراد طاقمي.

في الأسابيع الأخيرة التي سبقت ذهابي إلى فييتنام، جاءت جوليا إلى كاليفورنيا. تمتعنا برحلة لطيفة بالحافلة على ساحل كاليفورنيا، فالطريق السريعة رقم ١، تُعدُّ واحدة من أجمل الطرق في أي مكان من العالم. أحبَبْنا الحميمية الهادئة في فِلم العام ١٩٦٧، Two For The Road، حيث كان أودري هيبورن، وألبرت فيني، يقودان سيارتهما عبر جنوب فرنسا. تجوّلنا في أنحاء ريف كاليفورنيا البديع، أحيانًا بلا هدف، وأحيانًا أخرى لغاية ما. ولكننا كنّا دائماً على عجلة من أمرنا، أحرارًا في تغيير آرائنا، وفعل شيء آخر مختلف. كان ذلك شاعريًّا، فكنّا نتوقّف أينما حلا لنا ذلك. زرنا هيرست كاسل، وكرمل، وأخيرًا سان فرنسيسكو. وفي مكان ما من الطريق، التفتت جوليا نحوي، وراحت تتحدّث عن الزواج. كان ذلك عرَضيًا، ولم يكن اقتراحًا بل استرسالٌ طبيعيٌّ في حديثنا. وقبل أن يتسنّى لنا استيعاب ما كان يحدث، قرّرنا أن نتزوّج. وفي سان فرنسيسكو، نزلنا في جناح بفندق مارك هوبكينز، ورحنا ننفق النقود بإسراف المجانين، وكنّا نعرف أن يوم الرحيل وشيك... عندما أتذكّر تلك الأيام الاستثنائية، يبدو لي على نحوٍ ما، أنّ الزمن كان قد توقّف، لكنه لم يفعل. بدا لي أن الأشياء كلها كانت تسير بحركة بطيئة، ما عدا عقارب الساعة. ودّعت جوليا بعد أن اتصلنا بذوينا لنخبرهم بأننا سنتزوج عند عودتي، بعد أن أبقينا الأمر سراً، بسبب ما حدث لديك برشينغ، الذي كان قد خطب يد امرأة أحبَّها... كنّا نؤمن بتلك الخرافات.

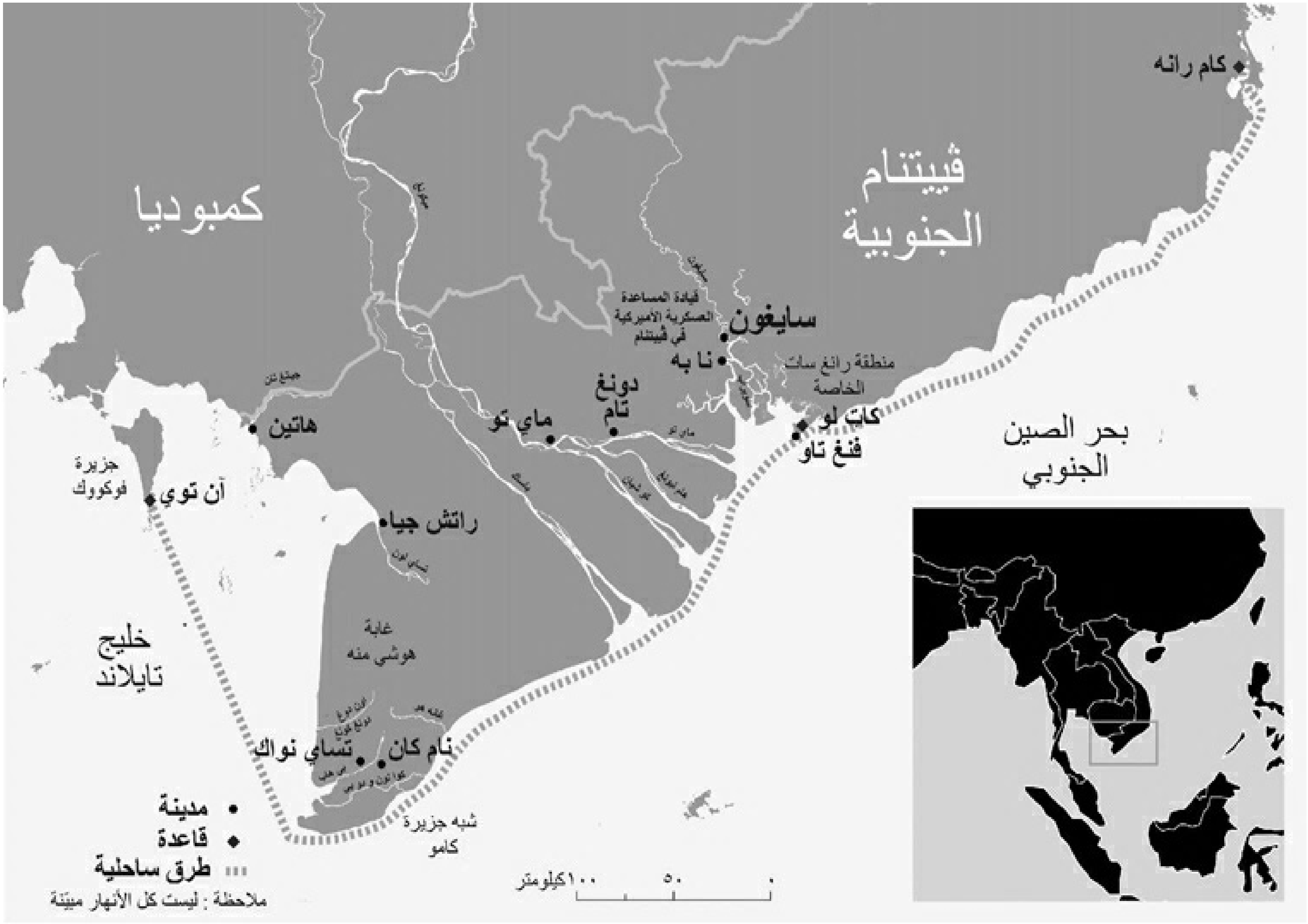
كام رانه
ڤييتنام
الجنوبية
كمبوديا
قيادة المساعدة
العسكرية الأميركية
في ڤييتنام
سايغون
نا به
منطقة رانغ سات
الخاصة
دونغ
تام
ماي تو
كات لو
فنغ تاو
بحر الصين
الجنوبي
هاتين
جزيرة
فوكووك
آن توي
راتش جيا
غابة
هوشي منه
خليج
تايلاند
تساي نواك
نام كان
شبه جزيرة
كامو
مدينة
قاعدة
طرق ساحلية
ملاحظة : ليست كل الأنهار مبيّنة
١٠٠كيلومتر
٥٠
٠

الفصل الرابع: الحرب

«حظًّا سعيدًا، أيها المغفّل» ، صاح جندي لا أعرفه بنبرة متعجرفة.

«ستعيش في جحيمٍ لعينٍ لمدة عام» ، قال آخر، وكأنَّ الأمر ليس بذي شأن.

كانت طائرتنا قد حطَّت لتتزوّد بالوقود في قاعدة جوية خارج طوكيو، بعد رحلة طويلة من تاكوما إلى فييتنام. كان في المحطة أسيجة تفصل بين خط الجنود المتجهين إلى الحرب، والذين يعودون إلى الديار. بدا المغادرون متعبين وخائفين، وقد غارت عيونهم في محاجرها، وتلوّت نفوسهم من الإرهاق.

كانوا يلقون علينا تحيةً فيها تحذير، لكننا عزونا الأمر إلى روح الدعابة السوداء التي تتولّد في مواجهة الموت.

وصلت إلى فييتنام في عيد الشكر. ومن المفارقات أننا حين دنونا من خليج كام رانه، وفيما كانت طائرتنا تنزلق بين الغيوم، امتد قوس قزح ضخم، وغمر المكان بما في ذلك المطار نفسه، فذُهلت، وكأنَّ الطبيعة الأم تتحدّاني بسخرية وازدراء. كنت أدرك تماماً أنني لن أجد ذهباً في فييتنام. وحين فُتِحَ باب الطائرة ونزلنا، هبّت رياح موسمية دافئة ورطبة عبر المدرج، وبدأت السماء تُمطر. كان المطار مسدودًا بطائرات سلاح الجو المموّهة. نزلت كتيبة من الرينجز الفييتناميين من طائرة لوكهيد سي 130 قربنا، بوجوههم السمر وأجسادهم النحيلة المحنية تحت حزمٍ، تكاد تكون أكبر منهم حجمًا.

ظهر من بعيد حقل مرتفع على تلة. فاندفعت فطريًّا إلى التفكير في مدى روعة استكشافه. لقد بدا لي هادئًا، لكنَّ وهم الطمأنينة حطّمته حقيقة واضحة، وهي أننا الآن في منطقة حرب، ويمكن لأيّ فييتنامي أن يكون من

الفيتكونغ المستعدين لقتلك. كنا ندخل عالمًا مجهولًا، وقد تعلّمت بعد حين أنه عالم لا سبيل إلى معرفته من بعض النواحي.

وصلت شاحنة لنقلنا إلى مقر قوارب سويفت. وعندما كنا نسير عبر قاعدة الجيش والقوات الجوية المترامية الأطراف، دُهشتُ إذ أدركت أن الأميركيين وجدهم يستطيعون بناء مرفق كهذا، وقت الحرب. امتدت المباني المختلفة أميالًا على طول شاطئ أبيض واسع، مع صفوف من الثُّكن الخشبية، وإلى جانبها متجر تجزئة تكاد سلسلة متاجر ميسيز الأميركية تخجل منه، وصالون للساونا والتدليك، ونوادٍ للمجندين والضباط، ومعظم الخدمات التي لا تخطر ببال. وقد تساءلت للحظة: «أين هي الحرب؟» .

وصلنا إلى قاعدة قوارب سويفت. أطلقت أوامري لأعلم، لخيبة أملي الأولى، أنني عُيِّنتُ في الفرقة الساحلية 14 في كام رانه نفسها. وفي العادة، كان يشار إلى الفرقة الساحلية 14 باسم «فرقة المرح تحت أشعة الشمس وركوب الأمواج» البعيدة عن حياة فييتنام الحقيقية. وقد توقعت شيئًا أكثر مما وَعَدت به سمعة كام رانه. سألتُ مسؤول السرب الإداري: «هل يمكنني، بدلًا من ذلك، أن أذهب إلى كات لو عند مصب نهر سايغون أو إلى دا نانج؟» .

أجابني: «لقد سحبت الأسماء من قبّعة، وقُضيَ الأمر. ستبقى هنا» .

التقينا قائد السرب، العميد البحري تشارلز هورن. كان شابًّا نشيطًا ومتحمّسًا. ولا يمكن أن تفوتك البندقية المُستَولى عليها والمُعلّقة مثل سمكة «أبو سيف» المحنّطة على الحائط وراءه. سمَّى كل واحد منا «ربَّانًا» ، وهو لقب غير مألوف، لكنه ممتع، خصوصًا لنا، نحن الأطفال الجدد في المجموعة، والذين لم يُخصّص لهم قارب بعد. استمعنا باهتمام إلى العميد يشرح عملية سيلدورز، وهي عملية مشتركة بين الولايات المتحدة وفييتنام الجنوبية لعرقلة خطوط إمدادات العدو من الشمال.

مرَّ أسبوع، وبدأتُ أستقرّ. عشتُ في غرفةٍ لشخص واحد، وكان ذلك تَرَفاً في فييتنام. كانت الحمامات على بعد خمس عشرة ياردة من الثكن. وكانت المياه وافرة، والجعة متاحة في نادي الضباط، وكان الشاطئ جميلًا، والمياه دافئة. والأهم من ذلك كلّه، أن بريدي قد وصل في الوقت المحدد. تسلّمت الشريط الذي أرسلته والدتي عن مباراة كرة القدم التي جرت بين فريقَيْ هارفرد وييل، والتي نشرت مجرياتها بشكل مفصَّل صحيفة «كريمسون» للطلاب، تحت عنوان بارز: «هارفرد تهزم بيل، بنتيجة 29 مقابل 29» [10]. وقد استطاع فريق هارفرد أن يحرز الأهداف المحددة بعد أن كان

متأخراً بفارق كبير، ليحقّق التعادل خلال دقيقة ونصف دقيقة تقريباً. كان الاستماع إلى ذلك الشريط مؤلمًا: بدت الجامعة عالمًا آخر بعيدًا كل البعد عن فييتنام.

كل صباح، كانت تدخل شاحنة محملة بالفييتناميين المكدَّسين مثل الماشية إلى القاعدة: يطلون بوجوههم، ويُنعمون النظر عبر الشرائح في جانبي الشاحنة. ثم تنزل من الخلف نساء يثرثرن بطريقة غير واضحة، برفقة رجال هرمين جاؤوا ليقوموا جميعهم بكل أعمال الخدمة، من تنظيف الثكن إلى صيانة الطرق. كانت النساء يأخذن زيَّنا الرسمي لغسله وكيِّه مقابل أجرٍ. وكثيرًا ما كنت أبحث عن تعبير يخبرني بما يشعر به هؤلاء القوم: ينظفون خلفنا، فيما نحن نخوض الحرب في ريفهم، لكنَّهم لم يُفصحوا يومًا عن أفكارهم.

قيل لي إن نادي الضباط كان الأفضل في فييتنام. وقد فهمنا أن العادات والتقاليد تنصّ على أن تأتي الممرضات من سايغون لإحياء حفلات جامحة. في نهاية المطاف، غضب أحد المجنّدين بشدة لعدم إشراكه، فكتب رسالة إلى والدته يشرح فيها الأمر، فكتبت بدورها رسالة إلى أحد أعضاء الكونغرس، فتوقّفت الحفلات. إلّا أن «منظمات الخدمة المتحدة» لا تزال تقدِّم عروضًا، بما فيها عرض لفتيات صينيات يغنّين ويرقصن بطريقة مبتذلة، وبخطوات غير مدروسة، وبشكل لا يتجانس مع كل ما يدور من حولنا.

كان بعض العسكريين يجلسون مرتاحين في نادي الضباط، ويتبادلون قصصًا عن دورياتهم. وقد أعرب عدد قليل منهم عن شكوكهم في المهمة أو في الحرب نفسها، قائلين بصورة قاطعة: «لا نرى كيف يستحق أي شيء يدور هنا أن نُقتل من أجله» . أما أنا، فلا أعتقد أنني قابلت فردًا لم يكن مسكونًا بهاجس عدِّ الأيام، ليذهب في رحلة استجمام أو يعود إلى الوطن. ولم يكن يتوانى بعض مَنْ دنوا من نهاية خدمتهم العسكرية عن احتساب الأيام بصوت عالٍ: «تسعة وعشرون يومًا آخر، وأنتهي من هذا القرف» . كانت الحانة مكانًا جيدًا لسماع قصص عن نداء دورية ما، أو ليلة قتال حامية، اعتُرضت اعتراض سفينة صيد تنقل كمية كبيرة من الأسلحة المهرّبة. كان ذلك الجزء الأكثر متعة وأهمية من اشتباكات الفرقة.

بعد حوالى عشرة أيام، كنتُ لا أزال أنتظر أن يُعهد إلي بقاربي الخاص. سألني ضابط العمليات، الملازم شاكتي إن كنت أرغب في المشاركة في عملية كانوا يخطّطون لها في تلك الليلة، وتُسمى «عملية المصفاة» . ولم أكن

أعلم بالضبط ما تنطوي عليه، لكنني أدركت أنها عملية صغيرة في قارب وكسر رتابة دوريات التلقين المبكر... أجبتُ نعم.

غادرنا القاعدة على متن قارب سويفت، واتجهنا شمالًا، نقطر خلفنا قاربًا من صنع بوسطن ويلر يبلغ طوله ثلاث عشرة قدمًا. هبط الليل عند وصولنا إلى المنطقة المستهدفة. كان الليفتانت شاكتي قد جنَّد متطوعَيْن هُما، بيل زالادونيس وبات رانيان. لم أقابل رانيان من قبل، لكنه كان هو وبيل قد تعارفا قبل وصولهما إلى كام رانه. كان كل متطوع يأمل في رؤية بعض الأحداث قبل أن يحين وقت جولته.

أنزلْنا محرّكاً خارجيًّا إلى قارب ويلر (Whaler)، ووضعناه على رافدة. ثم وضعنا مدفعًا رشاشًا إم-60 على سطح المركب ويلر الأمامي. أخيرًا، أنزلنا راديو، واستعددنا للتوجُّه نحو البر. أوعز إلينا شاكتي بأن نذهب نحو الشاطئ، ثم نقوم بالمناورة صعودًا عبر مدخل صغير بين شبه الجزيرة والجزيرة، ونطلق النار على أي مخالف لحظر التجول إذا لزم الأمر. كانت القاعدة بسيطة: إذا وُجد أي شخص هناك، فهو عدو في منطقة لا حظر فيها لإطلاق النار.

كان قارب ويلر يتسع لثلاثة رجال بالغين على الأكثر، فحُشرت في الوسط، فيما كان زالادونيس يدير المحرك في مؤخَّر المركب، ورانيان يسدّد المدفع الرشاش إم-60 في المقدَّم.

خصَّ سكاتشي قاربنا برمز النداء اللاسلكي روبن. هو وقارب سويفت سيكونان في الخدمة، وسيبقيان في الخليج لتقديم المساندة النيرانية إذا لزم الأمر. قضينا أنا وزالادونيس ورانيان معظم الليل نجوب ببطء حافة الشاطئ الداخلي لاعتراض الفيتكونغ. مرارًا وتكرارًا، أرعَبَنا بما يفوق الوصف ظهور فييتنامي أو اثنين من رحم الظلام في كلّ مرّة، بعد أن يكونا قد تربّصا بنا هادئَيْن في زورقهما السامبام، فنضطرّ إلى احتجازهما، وقطع المسافة إيابًا من أجل وضعهما على متن القارب سويفت لئلا يتمكّنا من تنبيه أحد لمجيئنا. وكي تتعقد الأمور أكثر، انكسر كابل التوجيه، واحتجنا إلى تشغيل المحرِّك من مؤخَّر المركب.

بعد ساعات، اقتربنا من الشاطئ، فأوقفنا المحرّك. وبدأنا بالتجذيف بهدوء. وصلنا بعد قليل إلى ممر مياه ضيق تمتد على جانبيه غابة، يراوح علو أشجارها بين خمس ياردات وعشر. كل ما كنا نسمعه هو أنفاسنا المتقطّعة. دنونا ببطء من منعطف، فظهر لنا فجأة، وعلى بعد ياردات منا، سامبام مع

رجل في المؤخَّر، وقفز آخر من تحت قماش القنب، ما أرعب رانيون الجالس في المقدَّم. كان رانيان مصدومًا جدًّا إلى حد أنه ضغط بشكلٍ غريزي على زناد مدفعه الرشاش. ولحسن حظ الرجلين، كان زر أمان السلاح مقفلًا. ولو أنه أطلق النار، لسقط الرجلان في الماء وقضيا فورًا، ممزقين بطلقات المدفع الرشاش. كان انطباعنا الأول أنهما صيادان، وأنهما، عن غباءٍ أو ذكاء، يصيدان الأسماك في منطقة لا يحظر فيها إطلاق النار، ويُمنع فيها الصيد بعد حظر التجول. فهمت بُعَيْد ذلك أن الوفيات في منطقة إطلاق النار كانت تُسجِّل دومًا أن الفيتكونغ قتلوا في أثناء الاشتباكات، وذلك ما كان سيحدث للرجلين لو انطلق الرشاش.

كان رانيان مضطربًا جدًّا من الخطأ الذي كاد يرتكبه، إلى حدّ أنه بدَّل مكانه مع زالادونيس، وقاد القارب إلى أن انتهت المهمة. اعتقلنا الصيادَيْن، وعدنا من جديد إلى قارب سويفت. هناك، أكّدا حسن نياتهما، وأنهما صيادان بريئان، لم يعرفا أين تبدأ منطقة وتنتهي أُخرى. كانت أوراقهما قانونيَّة. كان جزءٌ كبير من وقتنا حينها يُهدر على أداء دور سيارة الأجرة لنقل السجناء. أخيرًا، وفي الصباح الباكر، وفيما كان الظلام سائداً، وصلنا إلى النقطة فوق الساحل المعيّنة هدفاً لنا. هناك، تحت ضوء قمر ضخم، شاهدت مسحورًا سمبامين على متنهما أشخاص كثر، ينزلقان نحو الشاطئ. لقد أُطلِعنا على أن تلك النقطة كانت منطقة عبور مفضَّلة للفيتكونغ لتهريب البضائع المحظورة. أطفأت الراديو لئلّا نتلقى أية رسالة يمكن أن يلتقطَها هدفنا الجديد.

جذّفنا لندنو من الساحل، في حين سحب الفييتناميون السمبامَيْن (الزورقين) إلى الشاطئ، وبدأوا بتفريغ شيء ما، لم نعرف ما هو. أطلقتُ قنبلة مضيئة أنارت السماء بضوء يشبه ضوء النهار. وقف الرجال، ثابتين ومستقيمين، وجمدوا للحظة. ثمَّ، وبقفزات مذعورة، ركضوا بحثًا عن تغطية. أطلقنا النار. تعطّلت بندقيتي الإم-16، وعندما انحنيت في الزورق لألتقط بندقية أُخرى، وخزتني قطعة حامية في ذراعي اليسرى فوق المرفق. شعرت بذراعي تحترق، فظننت أنني أصبت بشظية أو نار سلاح صغير، لم يكن لدي فكرة عن مصدرها. في تلك الأثناء، أدار رانيان المحرك الذي قاوم بأفضل ما فيه قوّة. مررنا بالشاطئ الفارغ إلى يميننا، ومشّطناه... ثمَّ ساد الهدوء.

أطلقنا بضع قنابل مضيئة لتحديد أي شيء مرئي على الشاطئ قرب السمبامين، إلّا أننا كنا بذلك نعرِّض أنفسنا للضوء أيضاً، فتوقفنا، ثم اندفعنا بالمركب مسافة قصيرة، وفكّرنا في استعادة ما كان ينقله الفيتكونغ، لكنَّ معظم ذخائرنا كانت قد نفدت، ونبّه اشتباكنا الفيتكونغ على بعد أميال إلى وجودنا. لم نكن في وضع جيد لصد هجوم مضاد. أكّد رانيان أن السمبامين غير

صالحين للاستعمال، بسبب الثقوب التي أحدثها المدفع الرشاش إم-60. ثمَّ، ومع تحذير من قارب التغطية حول كمين محتمل من الفيتكونغ، غادرنا المنطقة، وسلكنا طريقًا أخرى.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

كنتُ محبطًا بعض الشيء. انشغلنا معظم الليل بنقل الصيادين «السجناء» . وتساءلتُ عمّا كان يُمكن أن يتكشَّف لنا لو أعددنا كمينًا منذ البداية عند الطرف العلوي من المدخل. أظنُّ أننا ارتجلنا تصرُّفاتنا بفاعلية. وسيظل مشهد الفيتكونغ وهم يركضون مثل غزلان خائفين يسكنني. لم يتمكن زالادونيس من رؤية الناس بوضوح عندما بدأ بإطلاق النار، فأصابت طلقاته النارية من عيار ثلاثين الطريق الرملية إلى يمينهم عندما كان «يرشّ» الشاطئ، ثم انحرف بخط النار ببطء نحو اليسار، حيث كان الرجال يقفزون بحثًا عن غطاء. كنتُ أصرخ معطيًا الاتجاهات، ومحاولًا تشغيل بندقيتي. وانشغل رانيان بصراع شخصي مع المحرِّك، كي يدور. مرَّت لحظات شعر كل واحد فيها أنَّ قلبه بات في حَلْقه. خطر لي بعد أعوام كثيرة أنَّ قوات البحرية تتدرّب طويلًا، استعدادًا لعمليات مماثلة. اثنان منَّا لم يلقيا حتى التحية قبل تلك الليلة. تصرّفنا تلقائيًّا. وعندما صعدتُ إلى قارب سويفت، انخفض منسوب الأدرينالين، فتقوقعتُ على القسم الخلفي من سطح السفينة، ونمت في طريق عودتنا إلى كام رانه.

أخرج الطبيب في المرفق الطبي قطعة المعدن من ذراعي، وضمّد الجرح. وفي اليوم التالي، أُرسِلت إلى دورية تدريب عادية على قارب سويفت مع ضابط يقترب من نهاية دورته. كان الأمر مملًّا بصورة غير مألوفة. أبحرنا ببطء شمالًا وجنوبًا على طول النطاق المحدَّد لدوريتنا. فلم يطالعنا أي سمبام، ولا أية شحنة للفيتكونغ. ترجّح القارب بشكل غير مريح فوق أمواج الرياح الموسمية. وعند حلول الظلام، ألقينا المرساة في خليج صغير، وتناولنا العشاء بهدوء.

بعد ذلك، وبينما كنا نقوم بدوريات خلال الليل، رأينا أضواء سفن الصيد تتحرك في منطقة حظر التجوّل. قدم لي الضابط المسؤول عن القارب عرضًا حيًّا بكيفيَّة إخبار الصيادين الفييتناميين عن الأمكنة التي يسمح لهم فيها بصيد السمك والأمكنة التي لا يمكن لهم القيام بذلك. اقتربنا من خردة خشبية تُصدر صريرًا، وتفوح منها رائحة السمك العفن. أصدر الضابط أصواتًا مهدّدة بأفضل ما يمكنه باللغة الفييتنامية التي تُعلَّم سريعًا، وغالبًا بشكل غير صحيح، في قاعدة كورونادو البحرية البرمائية. وقد أشار إلى الصياد بالابتعاد: «دي دي ماو»

، أي ابتعد سريعًا. ويبدو أن الصياد لم يتحرك بالسرعة الكافية لسحب شباكه، فأخرج الضابط سكينًا وقطع الشباك من حيث كانت تتدلّى على حافة المركب. غرِقَت مئات الأقدام من الشباك التي كان يجرها المركب إلى قاع البحر. شاهدت وَجْهَ الصياد يمتقع كأنه يغرق معها، وقد رأى بوضوح استثماره يغوص في الأعماق. لقد أصبحت وظيفته ودخله وقدرته على كسب العيش من دون الشباك مهددة بالخطر. رفع فتى صغير كان يراقب المشهد ذلك الوزن الذي استُخدم كمرساة، وتحرّك المركب الخردة وغاب في الظلام. أعرف أن الضابط تصرّف ضمن سلطته في قطع الشباك، لكنني رأيت أنها كانت ممارسة للسلطة أدّت إلى نتيجة عكسية على صياد أعزل، وأنها أداة فاعلة للتجنيد لمصلحة الفيتكونغ.

التفتَ إليَّ الضابط، وهو برتبة ملازم، وقال: «إذا كنتَ تظن أنهم يصطادون في منطقة محظورة عدة مرات، أحدِث فقط ثلمًا صغيرًا من طلق ناريّ في المركب «الخردة» كي تتعرف إليه في المرة التالية التي تراه فيها. وإذا استمروا في القيام بذلك، أطلق النار لإحداث ثقب في المركب تحت خط الماء. هذا ما يحدث فعلًا» . رحت أتساءل، ما الذي سيفكر فيه الفتى الصغير بعد عشر سنوات من ذلك اليوم، وكيف سيتقبَّل سياسة أميركا لكسب القلوب والعقول.

بعد أسبوعين ونصف الأسبوع من وصولي إلى فييتنام، سألني ضابط شعبة العمليات: «هل تُحِبّ أن تذهب إلى آن توي؟» . كانت آن توي موطنًا للكتيبة الساحلية 11، وقاعدة قوارب سويفت في أقصى الجنوب. وكان المقر عبارة عن سفينة عائمة من الثُّكن تقع قبالة جزيرة فو كوك في خليج تايلاند، قرب الحدود مع كمبوديا. أدركت سريعًا أنها مُهِمَّة، وليست مجرّد دعوة. ابتسم الضابط قائلاً: «أردت أن تذهب قبل بضعة أسابيع، لذا خطرتَ لي. وفضلاً عن ذلك، ليس هُناك أجدر منك لتولّي هذه المُهمّة. ستغادر في غضون ساعتين. فقد عُيِّنت على مركب دورية سريع (بي سي إف-44). يمكنك تسلُّم جداولك وأوامرك بعد حزم أمتعتك» .

آن توي... كانت الكلمة تحمل معاني كثيرة.

تصورتُ فورًا جنرالات وضباطًا من الجيش الفييتنامي ينُقلون في رحلات جوية إلى مطار ذي مدرج واحد، آملين أن يسبحوا في مياه الخليج الفيروزية، ويتناولوا «نوك مام» ، وهو طبق محليّ شهيّ، لتجري مقايضتهم بعد ذلك مقابل خدمات مُقدَّمة على البر الرئيس؛ معسكر اعتقال قريب يحتجز

أكثر من خمسة عشر ألفاً من الفيتكونغ؛ قاعدتنا البحرية البعيدة عن الأنظار، النائية عن الحضارة.

والمنذر بالخطر أكثر، أنَّ آن توي أصبحت سريعًا، في نظر طواقم قوارب سويفت، مرادفًا لعملية سي لوردز. وكانت تعني أن تكون في الأنهار أكثر الأحيان. وتعني أيضاً العمل في قلب معاقل الفيتكونغ. وقد حصدت آن توي، في المراحل الأولى من عملية سي لوردز، أكبر قدر من الإصابات.

فضولي المبكر في ما يتعلق بتعييني يُكافأ الآن.

يُظهر فحص سريع للمُصوَّر أن دلتا الميكونغ الضخمة تنتشر عبر شبكة واسعة من الأنهار والقنوات في الجزء الجنوبي من فييتنام. ويُعدُّ الميكونغ أحد أعظم أنهار العالم، وهو ينبع من الصين، ويجري جنوبًا عبر لاوس وتايلاند وكمبوديا، ليتفرَّق أخيراً إلى شبكة عنكبوتية من الأنهار الكبيرة والصغيرة، وكلها تصب، في النهاية، في بحر جنوب الصين. وهناك عدد قليل من المناطق أصبحت، بسبب فقرها وجغرافيتها الصعبة، معقل الفيتكونغ للمرة الأولى ضد الفرنسيين، وضدنا نحن الأميركيين. وما لم يجرِ نشر أعداد كبيرة من القوات للسيطرة على الأراضي، فإن الطريقة الوحيدة لأن تكون في الدلتا، هي القيام بدوريات، ومراقبة الممرات المائية.

أُطلِقت عملية سي لوردز رسميًّا في تشرين الثاني/نوفمبر 1968. لكنها بدأت بصورة غير رسمية عندما شرع رُبّانان من ربابنة سويفت سابقًا، تعبا من بعثات النقل والبحث، في جولات غير مصرَّح بها عبر الأنهار الرئيسة في الجزء الجنوبي من دلتا نهر الميكونغ. وقد أثارت هذه الغارات غير المصرّح بها خيال قائد السرب، الكابتن هوفمان، فانتقلت فجأة قوارب سويفت من بحر الصين الجنوبي إلى أنهار الميكونغ دلتا. وسرعان ما تحوّلت العملية إلى عملية مشتركة بين القوات الأميركية والفييتنامية الجنوبية، لتعطيل خطوط إمدادات العدو في الدلتا وحولها.

في مطلع كانون الأول/ديسمبر، ارتفعت وتيرة غارات عملية سي لوردز في الدلتا كثيرًا، وكذلك كانت الخسائر، لأنَّ القوارب كانت أكثر عرضة للخطر. كانت على الدوام تشنّ غارات في أنهار الدلتا الجنوبية. لذا، صدرت أوامر فورية بتوجّه قاربين إلى الجنوب ليحلّا محلّ القوارب المتضرِّرة والمصابين من الطواقم: قاربي الذي عُيِّنت لتسلُّمه أخيرًا، ويحمل الرقم 44، والقارب الرقم 57، الذي كان الضابط المسؤول عنه تيد بيك، وهو ملازم أول نُقِل حديثًا إلى خليج كام رانه من الكتيبة الساحلية 12 في دا نانغ. وكان تيد متمركزًا في شمال دا نانغ مع فصيلة من طواقم قوارب سويفت في القاعدة

الأمامية الصغيرة لشو لاي، «نمور شو لاي» كما كانوا يُسمَّون، أو كما سمُّوا أنفسهم. كان تيد عمليَّ المنحى، وليس مجرد ضابط مسؤول متخصِّص في العلوم، يجلس في كام رانه مقيِّداً حرية الآخرين بأسلوبه وحسّه بالواجب. وعندما لم يتطوّع شخص آخر للذهاب إلى آن توي، قال تيد إنه سيفعل ذلك.

إذن في مطلع كانون الأول/ديسمبر 1968، وفي ساعة متقدِّمة من ساعات بعد الظهر، وبعد التعبئة والتزويد، ابتعد البي سي إف-44 عن الرصيف بطاقمه الجديد، ومعه ربانه الجديد. ثم انضم إلى البي سي إف-57 واتجها نحو الطرف الجنوبي من فييتنام وصولاً إلى جزيرة فو كوك في خليج تايلاند.

كنتُ مشبعًا بالفضول والتوقُّعات لهذا المنصب الجديد الذي قد يكون خطيرًا. وأول ما أردت القيام به هو أن أتعرَّف إلى أفراد طاقمي، وأن يتعرفوا إليَّ. لقد مرّوا بكثيرين قبل أن يقابلوني. اجتمعنا من بيئات مختلفة، مع خليط من اللهجات التي كانت تربك أفضل المترجمين. أتينا من أركنساس وإلينوي وفلوريدا بانهاندل والمنطقة الشمالية من نيويورك... أن تكون من ماساتشوستس، فإن ذلك يعني أنك من مواطني أكثر المناطق النائية.

كان بحاران من الطاقم على المتن متحمِّسَيْن للمشاركة في بعض المعارك. التقيتهما قبل دقائق من مغادرة القاعدة. كان أحدهما ضابطي المساعد، أي الرجل الثاني في القيادة. وكان عامل رادار من الدرجة الثانية قديرًا جدًّا، لم يتبقَّ له سوى شهر من الخدمة داخل البلاد. كان وجهه مستديرًا مع ابتسامة تُبرِز أسنانه، ويضع نظّارة كبيرة بإطار داكن، وشعر أشقر مفعم بالحيوية. كانت حماسته لكل ما كنا نفعله مُعدية.

تطوَّع للذهاب معي، لأنه عانى مللًا شديدًا في الأشهر الأحد عشر الماضية. وأصبح بارعًا في الفييتنامية، قادرًا على القفز إلى أي مركب صيد صغير والتحدث بسهولة مع السكان المحليين في أثناء عمليات التنقل والبحث. لكن ذلك لم يرضِه. كان الأمر سلبيًّا جدًّا لروحه المغامرة. وقد تمثل حلمه بالوصول إلى النهر، ورؤية بعض الاشتباكات قبل أن يعود إلى المنزل، وكان يقول لي: «أعطني معركة واحدة جيدة، وسأكون سعيدًا» كان اسمه واسر، جيمس واسر.

أما الرجل الآخر درو ويتلو، وهو عريف الملّاحين من الدرجة الثالثة، فكان شخصًا خجولًا، لائقًا حتى الصميم. وكان الرجال يحبّون إغاظته. فكانت لهم معه مسلسلات هزلية طويلة، وكثير منها يتضمن الدعابة، بخاصة عندما كان درو يصل دومًا متأخرًا خمس دقائق عن موعد اجتماع على قارب طوله

خمسون قدمًا، يستغرق قطعه من أوله إلى آخره عشر ثوانٍ... كانت رفقته ممتعة.

كان نائب الضابط المكلّف، المدافع ستيفن م. غاردنر، مساعد ضابط في وقت من الأوقات. ولكنْ، بعد أن حدث شجار، خُفِضَت رتبته إلى بحّار. مذذاك، تمتّع بعلاقة مترجّحة مع الترقيات وخَفْض الرتب. وكان تصرُّفه تصرف شخص دنا من نهاية خدمته العسكرية. أمّا بخصوص الأسلحة، فقد كان قديرًا، ويعمل بجدّ. ومثل واسر، انتظر يومًا يستطيع فيه تجربة تلك الأسلحة في مواجهة عدو.

كان المسؤول عن المحرّكات، بيل زلادونيس، وهو مساعد ضابط من الدرجة الثالثة، هادئًا ومسالمًا. وقد عرفته من دوريتنا السابقة، وأعجبت به. ومع أنه كان قليل الكلام، لا يتفوَّه إلَّا بما هو ضروري، ويعاني نقصًا في التغذية أحياناً، فإنه التزم بدقة أن تعمل المحركات دائمًا بأفضل أداء، وأن يكون مستوى الزيت فيها صحيحًا، وأن يتناول طعامه في الوقت المناسب. لقد كان ماهرًا جدًّا في شؤون المحركات. وإذا كانت هناك طريقة لنستفيد بها إلى أقصى حدٍّ من الطاقة المتوافرة لنا، والتي قد تصل إلى ألف حصان، فقد تمكّن زلا من القيام بذلك. وقد اعتمدنا عليه لإبقاء محرِّكَي الديزل البحريّيَن بقوّة 480 حصانًا من طراز جنرال موتورز «12ف71» يعملان على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن البدء بخوض الحرب، ولن يزعجه الأمر على الإطلاق. وكان يقول لي: «يا رجل، لا يهمّني ذلك» .

كان عضو الطاقم الأخير عرّيف ملاحين، مثل ويتلو. وقد تمتَّع ستيفن هاتش بالكفاية، وكان هادئًا إلى درجة لا تصدّق. وقد ساعد على إعداد طاقم رائع. سُرَّ بإخباري وبإخبار أفراد الطاقم، بأنه لم يكن أمامه سوى ثلاثين يومًا فقط في البلد «قبل أن تقلّه إحدى طائرات الحرية ويعود إلى الولايات المتحدة» .

كان الجميع يحلمون بطائرات الحرية من طراز بان إم ونورث ويست الكبيرة والرائعة، وسواهما من الطائرات المستأجرة التي يمكن أن نشاهدها ترتفع بعيدًا عن فييتنام متجهة إلى الوطن. ظل هاتش وواسر يقولان لي أن لا شيء يدعو إلى القلق ما داما معنا على متن القارب 44. ولو كنت أعرف المزيد عن مدى قدرة الجميع، لاتفقت معهما بحرارة. لكننا كنا فريقًا جديدًا لم يُختبَر بعد. وإذ واصلنا سيرنا أسفل ساحل جنوب فييتنام في اتجاه أنهار الدلتا، وأصبحنا على بعد أميال من أقرب طائرة حرية، تمنيتُ أن يكونا على حق.

صباح اليوم التالي، بعد أن واجهنا أمواجًا عاتية بسبب الرياح الموسمية في بحر جنوب الصين، توقّفنا للتزوّد بالوقود في القسم الساحلي 13 في كات لو. انطلقنا مجدّدًا عبر النهر الضيق، متجاوزين أكواخًا صغيرة مشيّدة على ضفتيه، ومررنا بمراكب قديمة تتكدّس فيها شباك الصيد ويعتليها صيادون فييتناميون هزيلو القوام، وصولًا إلى ما كان في أحد الأيام منتجع فنغ تاو الهانئ، ومنه إلى المياه العميقة التي تبعد ستة أميال عن الشاطئ.

في البحر، في تلك النقطة، من المياه العميقة كان التنقل محفوفًا بالمخاطر ما لم نبقَ نتبع خطّاً على المصوّر يُظهر مقياسًا ثابتًا لعمق المياه لا يزيد على عشر أقدام؛ إلى يميننا، وبينما كنا نتحرّك جنوبًا، تقع دلتا الميكونغ، الممتدّة على طول أميال، والتي لا تتيح للرادار أن يلتقط أيّ شيء خلفها. من حين إلى آخر، كانت تلوح أجمات من أشجار المانغروف الخضراء في الأفق. حتى عندما أبحرنا مسافة أميال خارج الخط الساحلي، كان عمق المياه ينخفض أحيانًا إلى ست بوصات. في أماكن كثيرة، نادرًا ما وصل إلى أكثر من أربع أقدام، إلّا في القنوات المتشعِّبة، حيث يتقطّع المجرى إلى أنماط دائمة التغيُّر. كلّما مررنا بأحد المصبّات الكبيرة لفروع الميكونغ المتعدِّدة التي شكّلت في الواقع الدلتا، مثل كو شيان وباساك وماي ثو، تغدو المياه أصعب قياداً، ويهتزّ القارب بشكل غير مريح وهو يجتاز الأمواج البنية الموحلة. أنجزنا بطريقة غير مباشرة عملاً جيّداً؛ فقد اختبرنا صلاحية قوارب سويفت في الملاحة.

طوال اليوم، كنّا نتّجه جنوبًا إلى نقطة على البر تقع في أقصى الطرف الجنوبي من فييتنام. عند منتصف الليل، وعلى بُعد أربعة أميال من الخط الذي سنعبر منه من بحر الصين الجنوبي إلى خليج تايلاند، صادفنا إحدى السفن المخصَّصة لدعم العمليات البرمائية والمجهَّزة بخزّانات للوقود. كانت المصدّات الضخمة على جانبي السفينة مدلاة للسماح بربط قوارب سويفت. أوينا إلى جانبها باطمئنان تام، وتزوَّدنا بالوقود. تابعنا الإبحار جنوبًا تقطرنا بقوة صديقتنا الكبيرة. نظرت إلى سطح السفينة على علو حوالى عشرين قدمًا، ورأيت سلَّمًا يتدلّى من فوق، مع دعوة للصعود إلى متنها. وقبلنا الدعوة بسرعة.

قاطع القبطان عرضاً لفلم في وقت متأخّر من الليل ليرحِّب بي وبتيد، فتناولنا القهوة، وتبادلنا أطراف الحديث. كان أمر ما في تبديل القوّات ينذر بالخطر: لقد وصف حمّام دم حدث أخيرًا شمل سفينته وقوارب سويفت. قبل أسابيع، في غارة قبل الفجر، وبعد دقائق من دخول قوارب سويفت نهر بو دي، أطبق الفيتكونغ على خمسة قوارب بوابل من النار وقطعوها أجزاء.

تحمّل طاقم السفينة النقد القاسي لتفويتهم الأهداف أثناء محاولتهم توفير غطاء للقوارب. كانت معجزة أنَّ أحدًا لم يُقتل. ولكنْ أصيب سبعة عشر رجلًا واستحقّت العملية اسم مجزرة بو دي.

وفيما اجتهد القبطان لتبرئة سفينته في الدور الذي أدّته قبل الغارة، جلستُ هناك أفكر في القتال الذي كنت على وشك مواجهته. فكرتُ في الضابط الذي فقد ساقه في تلك الغارة بعد ستة أسابيع من وصوله إلى البلاد. لقرون طويلة تَصارع الناس، وتفلسفوا حِيال سيكولوجية القتال وناقشوها. من جيل إلى جيل، كان معظم الناس المتعطّشين إلى القتال هم الأفراد الذين لم يروا ما تبدو عليه الحرب عن قرب. إنهم يريدون اختبار روح المحارب، سواء عن طريق اختبار الذات، أو عن طريق إنهاء واجب، أو كتعبير عن وهم الشباب بأنهم لا يقهرون. من المحتمل أن يستحضر كل شخص تلك الروح بطريقة مختلفة نوعًا ما، حتى عندما يستسلم للغرائز العميقة. عمومًا، لدينا التزام يجب أن نرتقي إلى مستواه.

أيًّا يكن الأساس المنطقي، فإن فهم مدى تفاعل الحظ مع شخصية المرء لتحديد النتيجة قد لا يستغرق وقتاً طويلاً. ولا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى ندرك كم أنَّ التجربة لا معنى لها. نعم، عندما وصلنا إلى آن توي، طلبنا أن نُرسل في مهمة، وذلك دليل إضافي على أن حماسة الشباب للقتال لا يمكن كبحها. فهي تجرُّك إلى لعبة شد الحبل بين العقل والعاطفة، بين الحس السليم وحب الشباب للمغامرة.

بوصولي إلى آن توي، كان الحداد مخيِّمًا على الشعبة. قبل يوم أو أكثر، أودى كمين بحياة أحد أفراد طاقم المجنّدين. كانت عملية سي لوردز حديثة العهد كفايةً، والجنود يستكشفون طريقهم عبر المشاعر الأولية التي تترافق مع القتال والموت. كانوا يتصرفون ظاهريًّا بشجاعة، وتلك هي القاعدة غير المعلنة، لكنَّ توترًا لا مفرّ منه سيطر ضمنًا على كل شيء، حتى على وجبات الطعام والنكات والشراب.

وما جعل الأمر أكثر صعوبة، أننا كنا نعيش على سفينة هي ثكنة عائمة مثبتة على طول مئات الياردات في البحر. تقاسم حوالى ثلاثين ضابطًا أحلامهم وروائحهم في غرفة مبيت واحدة مكتظة، جوّها حارّ. من حين إلى آخر، كان يتردّد صدى انفجار القنابل اليدوية التي تُرمى في المياه عبر هيكل السفينة، لمنع الفيتكونغ من المغامرة سباحةً وتدمير منزلنا.

ومما زاد من صعوبة النوم، وجود قوارب سويفت نفسها. رُبطت إلى جانب الثكن، مقيّدة ببعضها ببعضها الآخر، حتى تبدو شبيهة بالأعشاش، عندما

يهيج البحر، وهو ما كان يحدث أحيانًا في الثالثة فجرًا، كان العش يُطرق بقوة على البارجة المعدنية. وعندما يسيء الطَّرقُ كفاية، يصحو الضباط الذين أرسوا قواربهم خارج العش من النوم لإزاحة قواربهم.

وقد تسارعت وتيرة الأيام الأربعة التالية. كان من المقرر شنُّ غارة أُخرى على نهر بو دي، في تكرار للمهمة التي أُحبِطت قبل أيام. وقد عبّر كل رجل في طاقمي عن رغبته في ألّا يفارق مجموعته. أردنا رؤية الأنهار بأنفسنا.

كان الليفتانت بيل لوك، ضابط العمليات في الكتيبة الساحلية 11، ذكيًّا وقديرًا. وقد وقعت عليه المهمة المزعجة، مهمة تخصيص القوارب للبعثات، ومواكبة الجدول الذي نُقِل إليه في رسائل من مكاتب سايغون. كانت مهمة صعبة أن ترسل رجالاً تعلم أنهم قد لا يعودون أحياء.

استمع بيل إلى طلبنا. لا بد أنه كان يفكِّر بهدوء كم نحن سذَّج لأنّنا نرغب أن نشارك في المهمة على النهر. قال لي إنَّ الأمر لن يطول قبل أن أحظى بمهمات على الأنهار حتى التُخمة. لم أُدرك مدى صحّة تلك الكلمات. بدلًا من بو دي، أُرسِلنا إلى الطرف الشمالي من جزيرة فو كوك، مباشرة على الحدود الكمبودية، للقيام بدوريات في المياه التي تفصل فييتنام عن كمبوديا. تقع حدود المياه الدولية عند أحد أطراف منطقة الدورية. إذا لم يؤدِّ بك خطأ في التنقل إلى حدوث مشكلة، يُثار فضولك وخيالك.

كانت الدورية هادئة، ولم يكن الأمر مستغربًا، لأنها كانت هادئة على الدوام. كان أكثر حدث مثير، هو اصطدام قارب سويفت بالصخرة المخفية. اصطدم أحد الضباط بالصخرة نفسها، مرات عدّة، مؤكِّدًا بالتالي تسميتها باسمه. وباستثناء الاصطدام بالصخرة والبحث عن صخور أُخرى للارتطام بها، كان الحدث الآخر في دورية الراحة والاستجمام هو طلب إطلاق مهمة المضايقة والحظر، والغرض منها فقط جعل الفيتكونغ يعلمون أننا نفكر فيهم، أي حرفيًّا مضايقتهم ووقف حركتهم على طول المجاري المائية. وفي حال وجود شخص ما في المنطقة المستهدفة تعرّض لإطلاق نار، لأن هذه المنطقة يُسمح فيها بإطلاق النار، إذ لا وجود في جوارها لقوات صديقة. فإن أيّ شخص مارٍّ أو متفرج غير محظوظ وبريء، سوف يُعترَض طريقه وتجري مضايقته. إذا أُصيب أو قُتِل، فسيُعدُّ ذلك ضررًا جانبيًّا.

عندما عدنا إلى آن توي، حمَّلنا متن القارب ذخيرة إضافية. طبَّق زالادونيس مهاراته الكبيرة في ضبط المحرّكات، على أمل أن نجتاز نهر بو دي قريباً. وبينما كنا ننتظر هذه المهمة، طرأ على أحد القوارب العاملة في جنوب آن توي عطل في المحرك استلزم عودته إلى القاعدة. فنُقل قارب آخر من

منطقة الدورية الأقرب إليه، وأمرنا، بدورنا، بملء منطقة الدوريات الشاغرة، ليس بعيدًا عن غابة يو مينه، حيث أُسقِط خمسمئة مظلي فرنسي خلال الحرب الفرنسية - الهندو الصينية، ولم يُسمع عنهم مجددًا. كانت يو مينه خليطًا من الأنهار والجداول والقنوات؛ لم تخضع يومًا لسيطرة أي حكومة؛ وهي معقل الفيتكونغ الثابت الأساسي. لم نغامر بدخولها قط، على الأقل عندما كنت في فييتنام. شعرنا بمكيدة معيِّنة، بالنظر إلى أننا قريبون جدًّا من منطقة غامضة إلى هذا الحد، ولكنْ ما عدا الجو الأسطوري الذي نعيشه، المفعم بالإثارة، لم يكن هناك حدث ضخم يمكن التحدُّث عنه. تناثرت مئات من قوارب الصيد على الشاطئ، فقضينا يومنا كاملًا في الصعود إلى متنها وتفتيشها، وتلك مهمة شاقة.

ازدحمت المراكب بالأطفال، وكانت الأُسر تستقبلنا أحيانًا كثيرة بابتسامات تكشف عن أفواه بلا أسنان، وعبارات غير مفهومة. امتدت الشباك خلف المراكب، وتكدَّست على سطحها أنواع مختلفة من الأسماك والقريدس من كل الحجوم. وكم من مرة، علقت شباك أولئك الصيادين بمراوح سفينتنا، فكان علينا أن نتوقّف لينزل رجل إلى الماء ويقطع الشباك ونواصل سيرنا. وعندما كان ذلك يحدث، كنا نعطي الصياد الرئيس ما استطعنا من حصصنا الغذائية المعلَّبة لتعلو البسمة وجهه مجدّدًا. كنت أمطره بوابل ممّا تعلّمته باللغة الفييتنامية، «شين لوي، شين لوي، كيو يون» (أي عفوًا، سيدي)، وهي عبارة ضرورية في أي قاموس للجندي الأجنبي، ونغادر من ثم للعمل في وظيفة تفتيش أُخرى.

على عكس دلتا البر الرئيس، كانت معظم الجزر البحرية حميمة. حين انتهينا من تفتيش كل القوارب والسامبانات المرئية في منطقة دورياتنا، ألقينا المرساة في إحدى الجزر الصغيرة التي ظلت تلوح لنا من بعيد. حدّدنا سريعًا جزيرة مفضّلة. لقد كانت جنة المحيط الهادئ؛ إنها ذلك النوع الذي يحلم به أي شخص.

رسونا في مدخل صغير يفضي إلى الكثير من الشواطئ الوارفة الخضرة، حيث تنتشر صفوف من أشجار النخيل البرية على طولها، وتشكّل حدًّا مثاليًّا من طرفٍ إلى آخر. لا داعيَ لأي دعوة كي يتحوّل الطاقم إلى فريق مستكشفين. ألقى غاردنر، الرفيق المدفعي، طوف النجاة في الماء، قبل أن يتفوَّه أي شخص بكلمة واحدة. طاف هو وواسر، الضابط المساعد الرئيسي لي، نحو الشاطئ، أشبه بغريقين شاهدا البر بعد أسابيع في عرض البحر. أخذا بعض الحلوى وأدوات الإسعافات الأولية للتودد إلى أي شخص قد يلتقيانه. لحقهما هاتش سباحةً، بينما بقيت أنا وويتلو على متن القارب لطهو القريدس

الذي قايضناه بمعلباتنا مع الصيادين أثناء مهمة التفتيش. مرت ساعة. كنت مستلقيًا تحت أشعة الشمس عندما سمعت ضحكات تعلو في الماء. نظرتُ فرأيتُ صيادًا فييتناميًا في سمبان كبير يجر واسر وغاردنر وهاتش نحو القارب: ثلاثة بحارة من البحرية الأميركية، يجلسون على غير استقرار على طوف نجاة صغير، وكأنَّ كلًّا منهم روبنسون كروزو، يُسحبون إلى برّ الأمان. رد الصياد على الحلوى بهدية من جوز الهند. عندما اقتربوا من سويفت، انقلب الطوف عشر مرات على الأقل. لم يكن الصياد يعرف ما الذي يفكر فيه الأميركيون المجانين. ونحن الذين نشاهدهم من القارب أيضاً لم نكن نعرف.

بعدما قضينا ساعة الغداء بهذه الطريقة الفريدة، تلقينا مكالمة لاسلكية أمرتنا بالعودة فورًا إلى آن توي. لقد تحوّلنا من قارب نزهة إلى زورق حربي، وتوجّهنا بسرعة قصوى.

عندما صعدتُ إلى مكتب عمليات الشعبة الساحلية 11، توجَّه نحوي أحد الضباط وقال لي: «هل سمعتَ آخر الأخبار؟ سيُرسلُ قاربان إلى كات لو، وقاربك أحدهما» . لم أستطع تصديق ذلك. هرعتُ إلى غرفة العمليات، وسألتُ بيل لوك. بالتأكيد؛ لقد أمر الكابتن هوفمن، قائد السرب، بمضاعفة قوات الدوريات، أسابيعَ، في كات لو. كان على قاربي أن يذهب لأنَّ بيل لم يستطع تحويل أي من القوارب المكلفة مهمات، وكنا «الأحدث سنًّا» لمباشرة العمل.

كان ذلك درسًا مبكرًا في قوة نظام الأقدمية، وتدريبًا جيدًا للأعوام الثمانية والعشرين المقبلة في مجلس الشيوخ الأميركي. كان زورقنا آخر القوارب التي دخلت آن توي، والأول بالتالي في الخروج منها. كان على أحد ما أن يذهب. كنا نعلم أن بريدنا بالتأكيد سيضيع تمامًا في المراوغة. وبعد أن نجحنا في التغلب على رحلة الرياح الموسمية، عرفنا أيضًا أن رحلة العودة إلى البحر والرياح ستكون أسوأ. توقّعنا أن نخوض صراعًا.

نُقل الضابط المسؤول الذي رافقنا في سويفت، لأنه رأى الكثير من عملية سي لوردز. كلما كان يغادر للمشاركة في هجوم، كان ينتحي بأحد زملائه من الضباط جانبًا، ويشير إلى مكان وجود أمتعته الشخصية في حال عدم عودته حيًّا. في كثير من الأحيان، كان يجلس في غرفة الجلوس، يحدق إلى جدار، وهو يدخن من دون توقف، ويداه ترتجفان. كان من المستحيل إيجاد رجل ألطف منه، لكنَّ مشكلته الوحيدة تمثّلت في التفكير المفرط الممزوج بخيال واسع.

حذّر همنغواي من أن الجمع بين التفكير والخيال في مناطق القتال لا يفضي إلى الهدوء:

لا وجود للخطر إلّا لحظة الخطر. ولكي يعيش المرء في الحرب كما ينبغي، عليه أن يتجاهل ما يُعدُّ خطرًا محتملًا. يعني ذلك أن الأمر لا يكون سيئًا إلّا عندما يكون سيئًا. ليس سيئًا لا قبل ولا بعد. فالجبن، المتميز من الذعر، هو في الغالب مجرّد افتقار إلى القدرة على إيقاف الخيال عن العمل. فأعظم هدية يمكن أن يكتسبها الجندي هي تَعَلُّم كبح خياله وعيش الثانية من الدقيقة الحاضرة بشكل كامل، من دون ما يسبقها وما يليها.

اعتقدتُ أن تحذير همنغواي كان مهمًّا. أردتُ مواصلة التفكير وعدم الانغلاق تمامًا. من المهم أن تكون متوازنًا، أن تكون جنديًّا جيدًا ومراقبًا جيدًا، لتبقى عاقلًا وعلى قيد الحياة.

مما رأيته حتى الآن، كان موقف الولايات المتحدة السيّىء الطالع. بدا الفييتناميون أنفسهم بارعين جدًّا في خوض المباراة الفاصلة في ما بينهم. كانت حرب استنزاف بطيء لتحقيق مكاسب على المدى الطويل ظلت دائمًا موضع شك. في بعض الأحيان، بدا أننا نهتم بالانتصار أكثر من حلفائنا الفييتناميين الجنوبيين. بدا أننا نرى الحرب من وجهة نظر أخرى، وهو أمر منطقي، خصوصاً عندما تفكر في المدة التي تعامل فيها الفييتناميون مع الدول الأخرى التي تقاتل على أراضيهم.

كانت الرحلة من آن توي إلى طرف شبة جزيرة كا مو سلسة إلى حد ما. ولكن ما إن اجتزنا الخليج ودخلنا بحار الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، حتى أصبحت الأمور صعبة. صُمِّمت قوارب سويفت السريعة للمياه الهادئة في خليج المكسيك، وليس لبحر الصين الجنوبي. مع قوس القارب القصير، كنّا نشق موجةً، وقبل أن يرتفع القوس، كان القارب يواجه موجة أخرى مباشرةً، وكل موجة تتحطّم على حُجرة القيادة، وتتكسّر فوق درع المدفع، لتنهمر المياه على طول القارب. كان حوض المدفع مغطى بغطاء من القماش فقط. ولا بُدّ من أن المياه سوف تتسرّب منه، وتدلف إلى الداخل، وتقطر على كل من كان يقود القارب. في نهاية المطاف، كان كل شيء مشبعًا بالماء. فعلنا كل ما في وسعنا لشد الفتحات، ولكن من دون جدوى. كانت درجة الرطوبة مئة في المئة والنوافذ ترشح ماءً.

بدأ قارب سويفت رحلته، وقد أبحرنا فيه مع رادار معطل. ما إن التففنا حول النقطة التي تُدخلنا إلى بحر الصين الجنوبي، حتى اجتاحت موجة ضخمة القوس، وقضت على رادارنا كذلك. كانت ليلة مظلمة إلى حدٍّ استحال معه تعرُّف حجم الأمواج المقبلة. كان الحل باعتماد السرعة المناسبة، ومحاولة البقاء فوق الموجة قدر المستطاع. لكنَّ الأمواج كانت تجري غالبًا على فترات

مختلفة وعلو مختلف. حين كانت تسود لحظة تردَّد حيال ارتفاع الموجة، وتدفعنا إلى أعلى، كنا نعلم أن القارب سيرتطم بشكلٍ مدوٍّ حين يهبط على سطح الماء، لترتجَّ عظامنا وجماجمنا، وتُسمع كل أنواع الكلمات النابية من الرجال المتشبثين بظهر المركب وفي الطبقات التي تقع تحته. كان مقعد قائد الدفة مزوّدًا بحزام أمان، الأمر الذي منعه من «التحليق في الهواء» ، كلما اصطدم القارب بموجة. فإذا كنت واقفًا، فقد تقودك قوة الارتطام إلى الجثو على ركبتيك. كانت الطريقة الوحيدة لتشعر ببعض الراحة هي محاولة الاستلقاء بشكل مسطّح تمامًا، والتقوس قليلًا لحظة الارتطام.

في نهاية المطاف، خفتت أضواء البوصلة. كانت المقصورات الأمامية والخلفية مغمورة تمامًا بالماء. وعجزت مضخاتنا الصغيرة عن مجاراة المياه المتدفقة، الأمر الذي استلزم لقاءً طارئًا مع أحد قواطع خفر السواحل لاقتراض مضخاتهم القوية. تعطّل الضوء الكشاف مع بقية النظام الكهربائي. وكلَّما حدث خطأ أو ارتطم القارب بموجة ذات تأثير استثنائي، علا من أعماق المقصورة التذمُّر مردِّداً «لم يبقَ إلّا عشرون يومًا فقط» . كانت الملابس والكتب والرموز متناثرة على سطح السفينة، مختلطة، مع الطعام الذي تسرّب من خزانة التخزين.

بقينا بعيدين عن الشاطئ ونحن نتّجه شمالًا بثبات إلى فنغ تاو، المقر الرئيس للكتيبة الساحلية 13. حين دنونا من خليج فنغ تاو، كانت المياه ضحلة على امتداد أميال، فاضطررنا أن نبقى ملتصقين بمقياس العمق للتأكد من ألّا نجنح نحو البر. بعد ساعات، وصل قاربنا إلى المياه المحمية من شبه الجزيرة. تمكّنا أخيرًا من تجفيف أنفسنا، ونحن نشاهد سفن الشحن الكبيرة تمخر في اتجاه مصب نهر سايغون.

بدا لنا أن الرحلة إلى كات لو قد طالت دهرًا. في الواقع، استغرقت خمسًا وثلاثين ساعة. عندما أطل زالادونيس، رجل المحرّكات، من باب غرفة القيادة وصاح: «أيها اللعين، أشعر بالجوع» . وعندما سمعناه ارتفعت المعنويات فوراً، وأدركنا، أن الرحلة قد شارفت على نهايتها.

وبينما كنا نمر قرب فنغ تاو، بدأ القارب ينفد من الوقود. التففنا نحو نهر دينه وسرنا فيه ببطء، إلى أن وصلنا إلى كات لو حيث الكتيبة الساحلية 13، والطعام والنوم في انتظارنا. اشترطت اللوائح أن تكون كل القوارب التي ترسو خلال الليل مزوَّدة تمامًا بالوقود، تحسّباً لأي هجوم قد يحدث. على الرغم من توقنا إلى النوم، أنفقنا ساعة أخرى على التزوُّد بالوقود، وقمنا، من ثَمَّ، بتسجيل الدخول في مقر الشعبة. خُصِّص مبيت الرجال في ثكن

المجندين، فيما أرشدتُ إلى مقر الضباط، حيث أعطاني ضابط العمليات فراشًا لليل. انهرت عليه واستيقظت في اليوم التالي، بعد ثلاث عشرة ساعة.

كانت كات لو قاعدة صغيرة لقوارب سويفت مشيّدة على أرضية صلبة، وتقع قرب مدينة فنغ تاو السياحية الفييتنامية. وعلى عكس آن توي، كانت تتعرّض لهجوم الفيتكونغ بقذائف الهاون من حين إلى آخر. كلما شُنّ هجوم، كانت طواقم القوارب تنطلق من الأماكن المحصورة في قاعدة سويفت إلى الخليج الذي يضمن لها أمنًا نسبيًّا.

قُبيل نهاية العام 1968، كان التسلُّل عبر حاجز قوة المراقبة الساحلية (الذي جرى تفعيله من أجل «عملية تشغيل السوق») محصورًا، إلى حدٍّ أن أكبر معركة خاضتها قوارب سويفت أثناء دورياتها كانت في مواجهة المجموعات الصغيرة. وقد توافر لتلك القوارب التي تتمركز على طول ساحل الدلتا، في كل الأحوال، ترفيه طبيعي وفوري، أي غزو سريع لأحد الأنهار الموبوءة بالفيتكونغ بأسلحة رشاشة، وكان يحدث كل ذلك بهدف الإثارة. حتى غدت هذه الرحلات إلى الأنهار لعبة عادية تقوم بها دورياً مجموعة صغيرة من الضباط. وهي طريقة غير تقليدية لجعل الحرب تُحاكي سلوك الفرد العادي في حياته اليومية.

في كات لو، فكّرتُ في راحة الثُّكن العائمة وأمانها النسبي، الأمر الذي ذكّرني برفاقنا في الشعبة الساحلية 11؛ فاسترجعتُ محادثة استمتعتُ بها مع ضابط مسؤول آخر اسمه مايك بيرنيك. عاش مايك في فرنسا ودرس في جامعة السوربون، وكان شجاعًا: كان لديه بعض التحفظ في تحدّي الأنهار. في الواقع، لو تسنَّت له الفرصة، لقاد قاربه وطارد بنفسه هو شي منه. ناقشنا موضوع الحرب تكرارًا، وارتيابي يقارع يقينه. كان يقول: «ألا ترى أننا إذا غادرنا المكان، فسوف تسقط منطقة جنوب شرقي آسيا؟» ، فأُجيب: «لا، لا أفعل، وإنْ حدثَ ذلك، فبمَ يهدّدنا الأمر؟» . تجادلنا خصوصًا في أمر حلفائنا. أشرتُ إلى مدى صعوبة تبيان «أنَّ القادة الفييتناميين الجنوبيين يريدون الانتصار بقدر ما نريدهم أن يفعلوا» .

كانت حجّته الحاسمة دومًا على غرار: «لكننا لسنا في الواقع في صدد مساعدة الفييتناميين الجنوبيين، بل مساعدة أنفسنا. علينا أن نهزم التقدُّم الشيوعي، وهذا هو المكان الذي يجب علينا أن نبدأ منه» .

سأَلَتْهُ، من ثمَّ، مجموعة منا: لمَ ينبغي لنا أن نساند فييتنام الجنوبية؟ وكيف كنا نساعد أنفسنا؟ وما يعني لنا أن نكون في جنوب فييتنام؟ كانت حجة

دائرية. لكنَّ المناقشة لم تكن حادّة قط، بل تناولت مقارعة الشك بالشك، وسادَها روح من الفكاهة والاحترام. أعتقدُ أنَّ الجميع كانوا يبحثون عن إجابات.

كانت لحماسة مايك علاقة قوية بمشاركة قوارب سويفت في حرب الأنهار. من دون إذن، سوف يقطع نهر كوا لون الذي يخرج من الدلتا. فقد حُصِّنت أنهار كثيرة مع الكثير من المخابئ على طول الضفاف، بعضها كان بين أوراق الشجر الغض. وبالنظر إلى المُصوَّر، رأى مايك أنه إذا صعد إلى بو دي، إلى جانبٍ من طرف شبه الجزيرة، يمكنه أن يبلغ نهراً آخر يُفضي به إلى خليج تايلاند على الجانب الآخر. في الواقع، قطع النهر من دون أن يواجه أي حادث، عُزي ذلك إلى أن الفيتكونغ قد اعتقدوا أن طواقم سويفت لن تكون جريئة كفايةً للقيام بهذه المغامرة. من الواضح أن رحلته نبّهتهم للواقع. كان الفيتكونغ جاهزين للجولات اللاحقة.

وفي حين اختلفتُ أنا ومايك في الرأي على بعض جوانب مشروعنا في الجغرافية السياسية، وجدنا أرضية مشتركة لاستراتيجية الأنهار. كان الصعود إلى القوارب وتفتيشها بحثًا عن الفيتكونغ والأسلحة والذخائر منطقيًّا في نظرنا، ولكنْ بدا لنا أن سلوك الأنهر، وإطلاق نار الرشاشات، وإصابة أهداف كانت في كثير من الأحيان مجرد أكواخ من القش، كل ذلك كان يجنبنا خطر الوقوع في كمائن تستهدفنا كقافلة من الأهداف العائمة. فبالنظر إلى ضوضاء محرّكاتنا المزدوجة، كان يمكن للجميع سماعنا، وعلى بعد أميال، مما يمنحهم متسعًا من الوقت للاستعداد لإطلاق النار علينا من المخابئ. إذا كنا متجهين نحو المنبع، كان الفيتكونغ يعلمون أننا لم يكن لدينا خيار سوى سلوك الطريق نفسها للعودة، على الأقل جزئيًّا. كانوا صبورين ومنضبطين. ولم يكن عليهم سوى أن ينتظروا.

مطلع صيف العام 1968، تغيّرت قيادة قوة المراقبة الساحلية، لتتغيّر معها السياسة سريعًا. فالكابتن هوفمان، وهو أحد قدامى المحاربين في الحرب العالمية الثانية، لم ينوِ أن يكون مسؤولًا عن منظمة غير فاعلة. فالزمن زمن حرب، وتعني الحرب أن تأخذ زمام المبادرة. تُصنع السمعة العسكرية بذلك. أراد أن تؤدّي البحرية، وقوارب سويفت خصوصًا، دورًا أكبر في الحرب. إذا هاجم الفيتكونغ منطقة مجاورة لنطاق صلاحيته، فسيلاحقهم. وسيدعم أي شخص يظهرُ سعة حيلة في مطاردتهم. أعجبتُ بتلك الدوافع. فهي مشروعة، شرط أن تكون مدروسة استراتيجيًّا ومزوّدة بالموارد تزويداً صحيحاً، ولم أعتقد أنَّ أيًّا من الشرطين يتحقّق.

في الأشهر القليلة الأولى، تغيَّرت وتيرة العمليات تغيُّراً طفيفاً. وفي منتصف تشرين الأوَّل/أكتوبر، تحوَّلت السباقات السريعة في الأنهار بهدف

الإثارة من لعبة سريَّة إلى سياسة عامة. قام الملازم مايك براون، الذي يعمل في الكتيبة الساحلية 11، بجولةٍ عبر نهر كوا لون في الطرف الجنوبي من دلتا نهر الميكونغ. وبعد دخوله كوا لون على خليج تايلاند من جهة شبه جزيرة كا ماو، انتقل على طول النهر عبر قطر الفيتكونغ، والتفّ نحو نهر بو دي، وخرج إلى بحر الصين الجنوبي، ولكنْ ليس من دون حوادث. فبالقرب من المخرج، تعرَّض القارب لإطلاق نار، وأصيب الملازم براون وبعض رجاله بجروح طفيفة.

لقد بُذلت محاولة في البداية لإبقاء أمر الرحلة سرًّا، لكنَّ الخبر تسرَّب حتمًا. عندما وصل إلى ضابط القيادة في خليج كام رانه، أوصِيَ بحصول الملازم براون على النجمة الفضية. كان واضحًا أن فكرة اختراق النهر لقيت ترحيبًا من الكابتن هوفمان.

بعد عشرة أيام، عبر مايك بيرنيك نهرًا صغيرًا يرسم الحدود بين فييتنام وكمبوديا في الطرف الشمالي لخليج تايلاند، بالقرب من بلدة ها تيين الفييتنامية. وبمساعدة جنود من الجيش كانوا يركبون قارب سويفت، هاجم محطّة ضرائب للفيتكونغ كانت تبتز أموالاً من المواطنين المحليين. فنجح في قتل كثر من الفيتكونغ، واستولى على أسلحتهم.

لسوء الحظ، ولأن هذه العملية قد وقعت قرب الحدود الكمبودية، ولأن الكثيرين من القتلى سقطوا على الجانب الآخر من الخط الفاصل الدولي (الذي كان لا يزال مراقبًا في ذلك الوقت)، لم يمرَّ هذا الحادث مرور الكرام. في اليوم التالي، نُقِل مايك إلى سايغون، حيث جادلت قيادة القوات البحرية الفييتنامية في مسألة محاكمته أو تقليده وسامًا. وأوصت أخيرًا بمنح الملازم بيرنيك النجمة الفضية. فأصبح النهر الصغير الذي نجح في عبوره معروفًا باسم «جدول بيرنيك» .

لم يمضِ وقت طويل حتى شهد طاقم قاربي البي سي إف-44 معركة على نهر سويرآب، جنوب نهر لونغ تاو، وليس بعيدًا عن سايغون. لم تكن غارة، مثل عملية سي لوردز، ما قادنا إلى هناك، بل دورية عادية. كنا سعيدين لأننا غدونا على النهر أخيرًا، نختلط بالسكان، ونرى الدلتا عن قرب. رافقنا شعور بأننا لا نُقهر ونحن نصعد قناة الملاحة للونغ تاو، ربما عُزي ذلك إلى أننا لم نتعرّض لإطلاق نار بعد، ويميل الرجال الذين لم يواجهوا ذلك إلى أن يكونوا مغرورين.

أثناء دوريتنا على أول نهر، انشغلنا في تحميل المدافع الرشاشة ووضع بندقيات الإم - 16 على سطح السفينة، فلم نفكّر كثيرًا في البيئة المحيطة بنا.

علمنا فقط أن ضفاف النهر الغنية بأشجار المنغروف يمكن أن تضاء في أي لحظة باستخدام الذخيرة الخطّاطة من المدافع الرشاشة الثقيلة. تعلّمنا كفايةً لنعرف أن ردّ فعلنا يجب يكون فوريًّا إذا تعرّضنا لكمين. كانت الطريقة الوحيدة لضمان كل ذلك أن نعلم من دون سؤال موقع كل شيء ونحن على متن القارب. شعرنا برهبةٍ لما قد يحدث، على الرغم من ثقتنا بمعرفة طريقتنا في الرد.

امتد نهر سويراب عبر السهول الطينية القاتمة في منطقة رانغ سات الخاصة، المعروفة أيضًا باسم غابة القتلة، وهي منطقة صُمّمت خصّيصًا لدفاع إضافي بالنظر إلى قربها من سايغون وسفن الشحن التي تحمل لوازم الحرب. كانت ضفاف النهر المجرّدة من أوراق الشجر بسبب آلاف الأطنان من المادة الكيميائية «العامل البرتقالي» ، تبدو كأنها أرض قاحلة تعرّضت لقنبلة ذرية، قاتمة وبنّية، مثل فردان وخنادق الحرب العالمية الأولى. ارتأت القيادة الأميركية أن أسهل طريقة للقضاء على أخطار الغابات القريبة من النهر هي القضاء على الغابات نفسها. ومع تجريد الأدغال من مساحاتها الخضراء، فإن فرص ناصبي الكمائن الذين يستخدمون الشجيرات تغطيةً أثناء إطلاق الصواريخ على سفن الشحن ستقل إلى أدنى حد ممكن. على الأقل، هذا ما ظنّوه.

ما إن نفَّذنا محطة دوريتنا في نهر سويراب، على بعد بضعة أميال من مقر القيادة العسكرية في نها بي، حتى قام بعض القَتَلة، على ما يُسمَّون، وهم يستخدمون كغطاء طين رانغ سات، بإطلاق الصواريخ على سفينة شحن، وتمكّنوا من إصابتها مرتين. من الواضح أن آلاف الأطنان من مبيدات الأعشاب لم تزعج الميليشيات. أمَرَ مقرّنا الكثير من قوارب الدوريات المخصّصة للمياه الضحلة بالتوجه إلى المنطقة. وطُلب إلينا التدخل من موقعنا والتنقُّل لتغطيتها أثناء تفتيشها مصبّات الأنهار الصغيرة الكثيرة في لونغ تاو. فأطلقنا محرّكاتنا بأقصى سرعتها وجبنا النهر متوقعين أن نخوض الحرب كاملةً في تلك اللحظات القليلة. كانت الإثارة قصيرة الأمد. لم نتمكّن من العثور على أي شيء مشبوه في أي مكان قريب من منطقة الهجوم المبلغ عنها. استرخينا.

عندما انتهينا من البحث حول ضفَّتي النهر عن آثار للمهاجمين، عدنا إلى منطقة دوريتنا. خَطَرَ لي حين غادرنا أن أسهل أمر يمكن أن يقوم به أي شخص في العالم هو عبور النهر ببضائع مهرّبة إن أراد ذلك. ما عليه إلّا الانتظار على ضفة النهر حتى نختفي خلف المنعطف، فيتسلّل بسمبانه من تحت غطاء شجر المنغروف وينزلق إلى الضفة الأُخرى، ولن يستغرق ذلك أكثر من خمس دقائق. ونحن نتابع سيرنا على المجرى خلال ذلك الوقت. حتى على سرعةٍ

بطيئة، يُمكن سماع محرّكات قاربنا من مسافة بعيدة، فيكون ذلك بمثابة تحذير لأي شخص يود العبور من أنَّ اللحظة غير مؤاتية.

تتالت الأحداث عقب ذلك بثبات. وبعد أن عدنا إلى منطقة الدوريات، بدأت غارة جوية على مسافة مئات الياردات من مكان وجودنا. لم نتلقَّ تحذيرًا، لا شيء. كنا نجلس بهدوء نتناول شطائر الفول السوداني والهلام عندما هدرت طائرة فوقنا على ارتفاع مئتي قدم، مما دفع الجميع إلى البحث عن مخبأ. كان رد فعلنا الأولي الانحناء والانتظار. سمعنا من ثمَّ دويَّ انفجار، وشاهدنا سحابة من اللهب والدخان الأسود في السماء. تتالى زعيق نفاثات أخرى، وهي تنحدر سريعًا على مسار قوس، صامتةً، صامتةً إلى أن تتحوّل البقعة السوداء التي كانت فوقك طائرة، من أي نوع كانت، إلى قاذفة قنابل، وتُرخي حمولتها وتندفع من ثمَّ صعودًا نحو السماء، ترتفع بأقصى سرعة، وتلتف في وضع شبه رأسي عندما تصل إلى أعلى نقطة ارتفاع. من حيث كنا، رأينا البيض الأسود يُلقى من بطن الطائرة. بعد أن يندفع الطيار صعودًا، يُلقي بحمولته، ويفعل الزخم وزاوية الصعود ينطلق النابالم أو المتفجِّرات العالية نحو هدف في مكان ما يبعد بضع مئات من الياردات. حين تضرب القنابل، تكون الطائرة عادةً قد علت واختفت من المشهد.

اتصلتُ برئيسنا في قسم العمليات التكتيكية، وسألته بتهذيب: هل حُدِّد موعد لشنِّ غارةٍ جوية في منطقتي؟ أجاب: «نعم، هناك غارة. تجاهلها» . وعليه، تجاهلنا الأمر وقد غدت الطائرات على بعد مئات من الياردات.

لم أكتشف: هل نجوتُ بحياتي من شيء لم أعرف ما هو، أم سُلِبت منّي جرّاء أمر اقترفته؟ هناك سبب للرغبة في معرفة ما يحدث. قبل أشهر من وصولي، قصفت طائرة تابعة لسلاح الجو الأميركي إحدى سفن سويفت خطأً، ظنًّا أنها قارب طوربيد لدورية فييتنامية شمالية. أطلقت النفاثة صاروخًا واحدًا على القارب، ولم ينجُ سوى ربّان السفينة وأحد أفراد الطاقم. لكنَّ حالة الربّان كانت خطرة آنذاك. كان لدينا أفضل الطيارين في العالم، لكننا لا نزال نشعر بالتوتر، كلَّما مرت نفاثة على علو منخفض لأغراض تحديد هوية القوارب، أو لمجرَّد المتعة.

وجدنا أنفسنا تلك الليلة ندعم وحدة استطلاع شعبية. ووحدات الاستطلاع الشعبية، على ما سُمِيَّت، تتألف إلى حد بعيد من منشقّين من الفيتكونغ يتلقّون المال مقابل عدد القتلى الذين أسقطوهم، أو عدد الأسلحة التي استولوا عليها. في الوحدة التي عملنا معها تلك الليلة، أخبرني القائد أنَّ خمسة من رجاله مُنحوا قبل انشقاقِهم أوسمةً على شجاعتهم، منحهم إيّاها هوشي منه نفسه. أصبحت مهمّتهم الآن قتل رفاقهم السابقين.

فحقيقة أنَّ الرجال يمكنهم، بسهولة، تحويل ولائهم داخل بلدهم قد أثارت بي مزيدًا من الشكوك حيال نجاح سياستنا في النهاية. ما دامت هناك طائرات ونابالم وموارد هائلة من الذخيرة والبندقيات ومستلزمات المستشفيات، فلا بد طبعًا من أن يدعوهم ذلك إلى القتال مع الحكومة. ولكنْ، متى استُنفِدت، ولا بُدَّ أن يحدث ذلك في أحد الأيَّام، فماذا سيحدث؟ هل يعودون إلى الجانب الآخر إذا بدأوا بالاعتقاد أن رجال العصابات يربحون؟ تساءلت عن كل ذلك، وأنا أساعد قائد الوحدة، الفيتكونغ السابق، على النزول إلى أراضٍ يُفترض أنها أرض العدو، حيث سيُطارد هو ورفاقه الفيتكونغ الحاليين.

جلسنا تحت جنح الظلام قرابة الساعة في مكان قريب من المكان الذي أنزل فيه قاربا دورية لمياه الأنهار الضحلة، وحدات الاستطلاع الشعبية. أطفأنا محرّكاتنا، واختبأنا قرب الشاطئ على الضفة المقابلة لنقطة الهبوط. قام رجلان بحراسة مشدَّدة على الشاطئ، لئلَّا يفاجئنا أحد. ظلَّت بقيتُنا في صمت مطبق وبندقياتنا الإم-16 بمتناول أيدينا، في انتظار إما تعرُّضنا لهجوم، وإما عودة الوحدات.

فجأةً، أُطلِقَت شعلةٌ حمراء في السماء من موقعهم، تدعو إلى إخراجهم بصورة طارئة. انطلق الزورقان وبدآ بصعود مصبّ صغير يؤدّي إلى وحدات الاستطلاع الشعبية. كان قائد قاربيِ الدورية يصرخ على الراديو إلى المقرّ: «طلب إخراج طارئ - بدأنا بالتحرك - طلب إخراج طارئ - ننتقل إلى الإحداثيات» .

أدرنا المحرِّك، وابتعدنا عن الضفة بأقصى سرعة ممكنة. لم نعمل يومًا مع قوارب دوريات المياه الضحلة، ولم نعرف شيئًا سوى ما قرأناه في أمر العملية الصادر إلينا ذاك الصباح، عندما كُلِّفنا بمنطقة الدورية. توجّهتُ بعناية في المصبّ ملاحقاً أثر الزورقين. فقوارب سويفت المصمَّمة للإبحار في المحيطات، مع غاطسٍ بطول ثلاث أقدام ونصف القدم، كانت معرَّضة لخطر الارتطام بالأرض، في حين أن قوارب الدوريات المخصّصة للمياه الضحلة يمكنها أن تطفو على إنشات من الماء. كان الظلام شديدًا، فلم نستطع تحديد مكانها. بدأ واسر يصيح: «هناك أيُّها القائد، هناك» ، وأشار إلى مجرى أصغر يتوارى خلف زاوية. لم نسمع هدير القاربين إلّا حين أبطأنا.

«أيُّها القائد، رأيتُ أحدهم يتحرّك في ذلك الكوخ هناك» ، صاح غاردنر أسفل حوض المدفع.

«أين؟» سألتُ، ونظرتُ من ثمَّ من الباب لأرى أننا على بعد عشر أقدام فقط من الضفة، وأن هناك كوخًا خشبيًّا بطول خمسة أمتار مضاءً على بعد عشر ياردات فقط داخل الضفة. في اللحظة تلك، أُطلقت النار من جوار قاربَيِ الدورية. بدأت بعدة رشقات نارية من الإم-16 لتتحوَّل من ثمَّ جديًّا إلى طراز ثقيل من عيار 50. وتطايرت الذخيرة الخطَّاطة فوق رؤوسنا.

سلكتُ المجرى الصغير، الذي امتدَّت فيه أوتاد صيد الأسماك من جانب إلى آخر. للحظةٍ، تردّدتُ، ثم قلتُ: «إلى الجحيم، لا يهُمّ» . سرنا مباشرة فوق الأعمدة الخشبية التي تكسَّرت تحت ثقل مقدَّم القارب، ولم نرَ بعد قاربيِ الدورية. في ذلك الوقت كان إطلاق النار متقطعاً. ضاق المجرى إلى حدٍّ أننا لم يعد أمامنا مجال للالتفاف والعودة إلى الوراء. كنت أتساءل إن كان يجب أن نستمرَّ في التقدُّم ولو أن القرار قد اتُّخذ عني. بدأ القارب يلامس الأرض تحتنا. أُطلِقت رشقات عدّة. ركضت خارج حجرة القيادة، وتولّيتُ إدارة الدفّة في الهواء الطلق، حيثُ تسهل الرؤية. أخرجتُ التروس أوَّلًا في الاتجاه المعاكس، ثم أدرتُ القارب على محوره من خلال تشغيل المحرّكين أحدهما عكس الآخر: الأول يدفع إلى الوراء تمامًا والثاني إلى الأمام، مع ترك العجلة تدور دورة كاملةً، الأمر الذي جَنّبنا كومة الطين. تمكَّنتُ من تحويل وجهة سير المركب، آملًا في ألا يأتي قاربا الدورية بأقصى سرعة من خلف الزاوية، ويصطدما بنا لنتحوَّل إلى هدف سهل لإطلاق النار أصلًا. انتقلنا إلى مصبٍّ أكبر، حيث انتظرنا القاربين. شعرتُ بإحباط للحظة، لأنَّ قوارب سويفت لا يمكنها العمل في المياه الضحلة. قال واسر: «يا للحظ العاثر، كنت آمل في الوصول إلى هناك ورؤية شيئًا ما» .

أخيرًا، بعد لحظات طويلة من عدم اليقين، وبينما كنا ننتظر في الظلام وقد رسونا بالمركب قرب ضفة النهر، أطل قاربا الدورية من الجدول الصغير، حيث علقنا في الوحل. كانا يتحركان ببطء شديد، يجرّان خلفهما سامبانًا، واثقَيْن أن إطلاق النار قد انتهى لهذه الليلة. ضبط هاتش السويفت إلى جانبهما، فقفزتُ إلى متن أحدهما لأتحدث إلى مساعد الضابط المسؤول.

«ماذا حدث؟» ، سألتُ. أخبرني أنَّ وحدات الاستطلاع الشعبي كانت تقوم بدورية في المنطقة، عندما وقعت على كوخ فيه شخصان، رجل وامرأة. دخل أفراد الوحدة إلى الكوخ ووجدوا المرأة تكتب رسالةً إلى صديقها من الفيتكونغ، فاحتجزوهما. في طريق عودتهم، رصدوا سامبانًا فيه أربعة أشخاص، فأطلقوا النار عليه، وانتهى الأمر» .

«هل قُتلوا؟» ، خاطرتُ بالسؤال بخفر.

«حتمًا. فأفراد وحدات الاستطلاع الشعبية لا يخطئون الهدف عندما يُطلقون النار» .

«ولكنْ، مَنِ الذين كانوا في السامبان؟ هل أطلقوا النار، أو قاموا بأي شيء من هذا القبيل؟» .

تدخّل القائد المسؤول آنذاك، قائلًا: «إنها منطقة إطلاق نار حر. ما كان ينبغي لهم أن يكونوا هناك. إضافة إلى ذلك، قال أحد أفراد الوحدات إنهم يمتلكون أسلحة، لكنَّ السامبان انقلب وفُقِدَت الأسلحة في الماء» .

نظرت إلى وجه المرأة التي جلست في الجزء الخلفي من قارب الدورية. كانت جريئة. راقَبَت بهدوء شديد تحرُّكات الرجال الذين هاجموا للتو أربعة من مواطنيها. حدَّقَت إلى وجهي. تساءلتُ في أي مكان كان صديقها يقاتلنا.

استطعتُ أن أرى الرعب، بل الكراهية، في عينيها. أردتُ أن أقول لها إنَّ الأمور ستتحسَّن، لكنني لم أكُنْ واثقًا بذلك. أعلم أنني كرهتُ الشعور بأن ينظُر أحدٌ إلينا بهذه الطريقة.

وإذ خرجنا مجدَّدًا إلى نهر سوي راي، تحرّك أفراد وحدات الاستطلاع الشعبية بحماسة في ما بينهم، يتحدثون عن الاشتباك الذي دار للتو. سخر أحدهم وقلَّد تعابير أحد القتلى ووضعه، وقد افترض في تلك اللحظة أنَّه سيقضي. ضحكوا. ففوجئْتُ، ولكنْ ربما كانت تلك وسيلتهم لتخفيف التوتر. خلاصة القول إنَّ القتلى الأربعة هم مجرد ضحايا حرب. الإحصاءات: ارتفع عدد القتلى حاليًّا.

كان من المفترض أن أكون في رحلة استطلاعية سريعة لمشاهدة بعض مناطق دورياتنا من مروحية، لكنها سرعان ما تحوَّلت إلى عملية إخلاء طبي. وصلنا إلى هيكل قاعدة عند سفح نهر لونغ تاو، حيث أُدخِل جندي فيتنامي صغير وجلس على المقعد المجاور لي. لقد أصيب في وجهه. لفَّ الشاش كلَّ رأسه. بحلول الوقت الذي وصلت فيه المروحية إلى وجهتها، كان الشاش مشبعًا بدم أحمر داكن. لم أعلم أي شيء عما حدث، وكيف أصيب. ظل يتحسس الضماد ويلوح برأسه وقد تعذّر عليه التحكم به. كان بين الفينة والأخرى يُلقي برأسه على كتفي للحظات. شعرتُ بالغثيان. كانت معاناته تؤثر في كل حواسي. وقد سال دمه على زيّي العسكري.

توجّهنا إلى القاعدة، حيث ساعدنا الجندي على ركوب سيارة إسعاف تنتظره. أقلعنا مجددًا، وحلَّقنا فوق منطقة الدلتا التي غالباً ما شاهدتها في

تقارير هنتلي-برينكلي، وفوق منطقة رانغ سات الخاصة، وفوق أميال من الوحول والقنوات التي تتفرّع على طول منطقة رانغ سات الخاصة. كانت الرحلة هادئة. لم يذكّرنا سوى اهتزاز المروحية صعودًا وهبوطًا والهدير الهائل لمحرّك هيوي والطين البني، أننا كنا في الواقع نحلّق فوق دلتا الميكونغ في جنوب فييتنام. عاينَّا الخنادق من الجو، ثم عدنا إلى القاعدة.

في ساعات بعد الظهر، وصل فريق تغطية مؤلَّف من مروحيّتين ليقدِّم إلينا الدعم، فقدْتُ طاقم قارب البي سي إف-44 إلى سويراب، ودخلنا النهر الذي بدا في وقت سابق من ذلك اليوم هادئًا جدًّا من الجو. كان مركز العمليات التكتيكية قد قرأ جدول المد بشكل خاطئ. كان المد والجزر بعلو عشر أقدام في تلك المنطقة. وعندما وصل الجزر إلى أدنى درجاته، تمكَّنا بالكاد من رؤية الضفتين العاليتين على الجانبين، الأمر الذي ولَّد لدينا شعوراً بأننا في وادٍ صغير. كان من المستحيل رؤية الخنادق من حيث كنا. ظللت أفكر كم كان من السهل للفيتكونغ أن يُطبقوا علينا، ويحطّموا القارب أجزاء. وحدها المروحيات أمدتنا بشعورٍ بالأمان. فبالنظر إلى عدم تمكُّننا من رؤية المخابئ، رصدت إحدى المروحيات المواقع، وأمدّتنا بالإحداثيات. أطلقنا عددًا من قذائف الهاون على أمل أن يُصيب بعضُها الهدف.

في خضمّ عملية إطلاق القذائف، واجهت إحدى المروحيات مشكلة ميكانيكية، لذا غادرتنا كلتاهما، وعادتا إلى القاعدة. عدنا على أعقابنا متتبعين خطواتنا السابقة بلا غطاءٍ جوي، وخرجنا لحسن الحظ من دون أن نتعرّض لطلقٍ ناري. لقد فوَّت الفيتكونغ فرصةً ممتازة لتدمير قارب سويفت المكشوف تمامًا، والمعرّض للخطر.

في وقت لاحق من بعد الظهر نفسه، وفي النهر نفسه، تلقّينا نداءً يطلب إلينا نقل بعض القوات الفييتنامية من القاعدة في نها بي إلى قرية صغيرة قرب نهاية نهر سويراب. كان بين الجنود نقيب من البحرية الأميركية يعمل مستشارًا للفييتناميين. كان اسمه تيم، لا أتذكر اسمه الأخير، لكن كانت خدمته في فييتنام قد اقتربت من نهايتها، ومن نهاية ما تبقى من صبره أو طاقته للتعامل معها.

سألته: «كيف كانت الأمور؟» .

أجاب: «متنوعة إلى حدٍّ ما؛ ولا تتوافر طريقة لتلخيص ذلك حقًّا» .

سألته كيف سيصف الحرب عمومًا. كنت أُنقِّب على أمل أن أتعلّم شيئًا عن الحرب التي لم أرها.

قال: «لا أعلم. كان الوضع سيئًا جدًّا... كانت وظيفة علينا القيام بها. نفّذناها بأفضل ما يمكن، على ما أعتقد» .

لم يرغب فعلًا في الكلام، على الأقل مع غريب. وقف في غرفة القيادة، غارقًا في التفكير، مقطَّب الجبين، وأغمض عينيه بسبب أشعة الشمس. خرج من ثم عن صمته وقال: «لا أستطيع القول إن الأمر يستحق العناء. أعني، لا يمكنني رؤية ما أنجز. لقد دمَّرنا قرى كثيرة... قتلنا أعدادًا كبيرة من الناس الذين ربما لم يكن علينا قتلهم. وفقدنا الكثير من الرجال الجيدين كذلك. لا أدري. من الصعب التحدث بالأمر. لكنني متأكد من أننا لن نتمكّن من تحقيق الانتصار هنا... ليس هناك شيء لنفوز به في أي حال. تعبر قرية لعينة، تنظفها من الفيتكونغ، وتعود من ثمَّ بعد أسابيع لتجدهم مجددًا كلهم في المكان نفسه. تمشي فوق الأفخاخ المتفجرة، فخًّا تلو آخر، ولا يمكنك القيام بشيء حيالها. تستمر في التقدُّم وضرب المزيد. لا أعلم. سأكون سعيدًا بالخروج من هنا ونسيان كل ذلك» .

«هل كنت دائمًا في هذه المنطقة؟» .

«لا. كنتُ في دا نانغ لبعض الوقت. ثم نقلوني إلى هنا لتولّي مهمة الاستشارة تلك. يا رجل، كان المشهد مخيفًا هناك. تعوّدنا الجلوس على قمم بعض الجبال في انتظار أن يتحسّن الطقس لرؤية الكتائب الفييتنامية الشمالية تُطبقُ علينا بانتظام. أمرٌ تقشعر له الأبدان. تشعر بالوحدة هناك. تجلس فقط على تلة تنتظر العدو أن يتسلّل ويفجِّر رأسك. كان الموقع أشبه بالجحيم. لكنني خرجت منه حيًّا. كنت محظوظًا، على ما أظُن» .

«ماذا تفعل هنا؟»

«أساعد هؤلاء الأشخاص» ، مشيرًا إلى الفييتناميين الذين يجلسون في القارب، «لإقامة خط دفاع حول محيط قريتهم. لكن الأمر أصعب من الجحيم، لأنَّ أحداً منهم لا يريد حراسة الحدود وحمل مسدس. جميعهم يصرّون على المجيء إلى القرية ليلًا، لأنهم يشعرون بالأمان...» .

أودعنا القرية نقيب البحرية وحاشيته. لم أحسده على البقاء هناك تلك الليلة، ولكنْ بدا واضحًا أنه شهد ما هو أسوأ من ذلك بكثير.

خلال الليل، وجدنا أن من شبه المستحيل القيام بدوريات فعّالة. إذا حاولنا تسليط ضوء على ضفاف الأنهار للكشف عن السمبانات المموّهة التي تنتظر العبور، نكون قد وفّرنا لها هدفًا مثاليًّا.

وعلى الرغم من مخاطرها، كانت الأنهار مصدرًا لا نهاية له من المتعة. كانت شريان حياة للفييتناميين. من خلال تسيير الدوريات فيها كل يوم، أتيحت لنا الفرصة لمشاركتهم في هذه الحياة بطريقة فريدة. كانت الأنهار بمنزلة الطرق السريعة بين ولايات الدلتا، والمراكب بمنزلة شاحنات لسكّانها. كانت بعض المراكب كبيرة جدًّا ومحمّلة بمختلف أنواع السلع، مما جعل إفراغ البضائع وتفتيشها بدقة أمرًا متعذرًا. كنا نمتلك نمطًا خاصًّا مميزًا لتفتيش المراكب تعلّمناه في سان دييغو، لكنَّه لم ينجح في أنهار فييتنام الجنوبية.

كانت المراكب تفيضُ بالجدّات والأجداد والأطفال والحيوانات والدرّاجات. يمكن أن يستغرق تفتيش أوراق الناس الثبوتية وحده نصف نهار. تعلّمنا ببساطة، التفرُّس في وجوه الركاب، واستجواب أي ذكر يبدو في سن القتال.

كنا نسأل الفلاحين عن أوراقهم، فيخرجونها ويسلّمونها طائعين. كنّا ندّعي أنا وواسر أننا نقرأها بعناية بحثًا عن الأخطاء، وعن شرعيتها. لم تكن لغتي الفييتنامية كافيةً لفهم إجاباتهم. تعلّمت تفسير لغتهم الجسدية، بما في ذلك حركات أيديهم، وخطب الاحتجاج الطويلة. كان واسر قادرًا على أداء الدور أفضل مني. بإيماءة قوية من الرأس نتمتم شيئًا ما لإظهار الموافقة أو الرفض، لندَّعي أننا قد فهمنا تمامًا.

كنا نعاين أوراقهم لنعرف إن أدّوا خدمتهم العسكرية، أو كانوا يملكون تصريح صيد، أو يحملون أوراق الهوية التي سمحت بها الحكومة. إذا لم يكن الأمر كذلك، نحتجزهم كفيتكونغ، أو كفارّين من الجندية، لتستجوبهم الاستخبارات.

في أحد الأيَّام، التقينا مركبًا كبيرًا مثيرًا للشك. كان محمَّلًا من أسفله حتى حافته العليا بالرمال. صعدنا، أنا وواسر، على متنه؛ وبدأنا بالحفر في الرمال آملين في إيجاد شحنة بندقيات من طراز إيْ كاي-47 مخبأة تحتها. بعد ساعة من الحفر، وبمساعدة الرجال الودودين على متن المركب، استسلمنا. وبينما كنا نحفر على ذلك المركب، مرَّت بنا خمسة وعشرون أو ثلاثون أخرى. كانت النسب المئوية بالكاد لمصلحتنا.

ولمحاولة تغطية أكبر عدد ممكن من المراكب الشراعية، كنا نرسو في منتصف النهر وننادي الجميع عند مرورهم. إذا حاول أحد أفراد القارب أن ينزلق متظاهرًا بأنه لا يلاحظنا، نطلق رشق إم-16 من مقدِّم السفينة ليتجه نحونا فورًا. لا يسعني إلَّا أن أفكر في رد فعل الناس في حال سلوكهم الطريق السريعة في لوس أنجلس أو كونيتيكت تورنبايك، وقام رجُل

مكسيكي أو كندي يساعد الحكومة الأميركية في تفتيش السيارات، بإطلاق النار على مقدِّم سيارتهم، لجعلهم يتوقفون.

كان يجب علينا في بعض الأوقات أن نفتش ما يصل إلى عشرين مركباً وسابماناً في آن، يقف أحدها إلى جانب الآخر. كان من السهل على الفيتكونغ النَيْل منا لو أرادوا ذلك؛ ما كان عليهم إلَّا أن يطوفوا على زورق عندما نكون محاصرين بعدد من السمبانات، ومهاجمتنا وسط الفوضى.

استمتع واسر وهاتش وغاردنر إلى أقصى حد باقتحام المراكب وتفتيشها. كانوا يقفزون فوق الدجاج ومنتوجات السوق، يُقحمون أيديهم بصورة غير معقولة في كل شيء. كان الفييتناميون يضحكون منهم متى تعثّروا بالركّاب أو الأمتعة، فنضحك بالتالي. أحيانًا، كانت الفتيات يغازلن أفراد الطاقم. في النهاية، كان من المستحيل معرفة هل نفتشهم، أم هم مَنْ يفتشوننا. أتذكَّر أن دجاجة نقرت، ذات مرة، يد واسر، ففوجئ جدًّا وهوى إلى الوراء وسقط وسط الخُضَر. في اليوم الواحد، كنا نفتّش مئات المراكب والسمبانات، بصريًّا ومباشرة باليد. وفي الأسابيع القليلة التي لم نجرِ فيها غارات سي لوردز، وجدنا مرَّة قطعةً من البضائع المهربة، أي مرساة مسروقة للبحرية الأميركية وجدت طريقها، بوسيلة أو بأخرى، إلى أحد الزوارق.

كان الجيش يزوّدنا دوريًّا باللائحة السوداء للفييتناميين، للاحتراز مما يأتي: إذا صادفنا شخصًا كان اسمه متطابقًا مع اسم مذكور في اللائحة، علينا إحضاره إلى المقر لاستجوابه. لسوء الحظ، لم تكن الأسماء في اللوائح التي قدّموها إلينا تحمل دائمًا علامات تمييزية على الحروف الصحيحة، بل لم تحمل علامات تمييز على الإطلاق. يمكن الخلط بين اسم شخص واسم مئة آخرين. ومع ذلك، كانوا يتوقّعون منا أن نجلبهم باعتبارهم مَنْ وردت أسماؤهم في اللائحة السوداء.

وذات يوم، وجدنا على نهر سويراب شابًّا ظننَّا أنَّ اسمه وارد على اللائحة السوداء. لم نتمكن من أخذه من العبَّارة لأنه كان ربَّانها الوحيد. كان واسل مقتنعًا بأنَّ اسم الرجل مُدْرَج على اللائحة السوداء. من أعلى العبَّارة، صرخ واسر، «السيد كاي، علينا أن نأخذ هذا الرجل. أعرف أنه على اللائحة ويبدو ضخم الجثة ولا يمكن الوثوق به إلى حد بعيد» . لذلك أخذنا العبّارة بأكملها إلى الحجز وبقي واسر على متن السفينة لحراسة ربانها، وهو يقود، وحشرنا أنف سويفت مباشرة في مؤخر العبَّارة، وقدنا الجميع إلى القاعدة في نها بي.

من موقعنا خلف العبّارة، أطللنا مباشرة على مطبخها. شاهدنا مسحورين عجوزًا فييتنامية تعدّ الطعام. التفتت نحونا وحدقت إلينا، وفاجأتنا بغتةً حين ناولتنا صحونِ أرُزٍّ من النافذة. لا بدّ من أنَّ مشهد الموكب عن ضفتي النهر كان مضحكًا جدًّا: واسر يقف مع بندقيته وراء قائد الدفة، وحشد من الركاب يحدق إليه، وطاقم قارب سويفت يمرر الطعام ذهابًا وإيابًا من النافذة الخلفية، مما يدفع العبَّارة إلى موعدها مع المحققين في نها بي، حيث وجدنا أن اللائحة، التي تفتقد العلامات التمييزية فوق الأحرف. كانت مسؤولة عن حالة أخرى من حالات الهوية المغلوطة. سُمح للعبَّارة بمواصلة طريقها.

وفي مناسبة أخرى، تقدّم أحد المراكب التي تقترب منا لتفتيشها بسرعة كبيرة، مما أشاع حالة ذعر بين المراكب الراسية قربنا. بدأ الناس يركضون ويفكون الحبال ويصرخون، وكانت النتيجة سقوط ثلاثة أشخاص في الماء وانتشار الدجاج في كل مكان، فيما كان الأطفال الصغار يضحكون والرجال الكبار يتشاجرون. أعتقد أن تلك هي المرة الوحيدة التي أراهم يغضبون من أمر ما.

والمضحك أكثر من طريقتنا في دهم المراكب وتفتيشها، الطريقة التي ينفذ بها الفييتناميون دورياتهم. فقد تسلموا الكثير من قواربنا السريعة الجديدة في كات لو، ولكن نادرًا ما رأيتهم يخرجون في دورية. أمضوا معظم الوقت يَطْلون القوارب ويعدّونها لشيء ما. كانوا جيدين في التلويح لنا، وإلقاء التحية علينا، ونحن نمرّ بهم في طريق الذهاب إلى نهر ما أو العودة منه. ولكنْ، كانت القوارب في أغلب الأحيان راسية والجميع على متنها نائمين. وعندما يكون الأمر على هذه الحال، كنا نتقصّد قيادة القارب بأقصى سرعة، ونمرّ على بعد قدم أو قدمين منهم، ونراقب، مستمتعين، المياه وهي ترشُّهم وتوقظ الطاقم. لطالما مدَّ أحدهم رأسه خارج الفتحة لرؤية ما يحدث، ثم يختفي من المشهد. عندما لا يكونون نائمين، يصطادون في العادة وعلى الرغم من أننا كنا نمزح في شأن أخلاقيات عمل حلفائنا، كان ثمة تباين ينذر بالسوء تجاه الذين يجوبون أنهارهم صعودًا ونزولًا، ويسيّرون دوريات فيها.

جرى تصعيد الوضع إلى أقصى حد في آن توي، عندما اقتنع طواقم قوارب سويفت الفييتناميون أخيرًا بشنِّ غارةٍ في النهر. حَمَلَ كل قارب مستشارًا أميركيًّا. تعرّضت القوارب لكمين، وأُصيب أحد المستشارين وسقط في النهر. رفض ربابنة القوارب التوقف أو الاقتراب من مكان الكمين للبحث عن المستشار. وبدلًا من ذلك، تراجعوا قبل التفكير حتى في إجراء تفتيش. وحين خرجوا من النهر، قرروا أنهم لا يريدون العودة والبحث عن الرجل، لأنهم

لا يريدون التعرض لكمين آخر. رفضوا، على الرغم من أنَّ المستشار قد يكون في مكان ما من الماء، وعلى قيد الحياة.

عندما تلقّينا إخطارًا من قاعدة آن توي، فُصِلَت عدة طواقم أميركية للمغادرة والبدء بالبحث في ساعة مبكرة من الصباح. لم يُعثر على المستشار، على الرغم من إيجاد قطعة من جمجمته على ظهر السفينة الفييتنامية سويفت. مضى زمن قبل أن يرغب أي شخص في العمل مع الفييتناميين مرة أخرى.

في ليلة يومنا الأخير وكنا في دورية بالقرب من نها بي، تلقّينا نداءً لإجلاء امرأة فييتنامية تحتاج إلى نقل طارئ إلى القاعدة البحرية. بأقصى سرعة، أبحرنا، تحت جنح الظلام، نزولًا في نهر سويراب إلى موعد رُتِّب مسبقًا مع سويفت آخر. كان هناك أمر مميز جدًّا في الاستجابة لهذا النداء. كنا نتسابق لإنقاذ حياة بدلًا من فقدان واحدة. لمسنا ذلك. أَنْسانا الأمر الغاية من كل الساعات التي نمضيها في الإبحار ببطء صعودًا ونزولًا في النهر لإجراء عمليات الدهم والتفتيش.

عندما وصلنا إلى نقطة تُعرف باسم «الحصن الفرنسي» ، ظهر السويفت الآخر على الرادار متّخذاً شكل فلاش إلكتروني أصفر. وكلما دنا منا أضاءت المسحة الضوئية مع قوسها المذهل بزاوية 360 درجة. خففنا السرعة، واستدرنا لمواجهة مصب النهر، وانتظرنا السفينة الشقيقة لتصل إلى جانبنا. ما إن دنت منا، حتى أنزلنا النقّالة التي تحمل المرأة إلى قاربنا، وانطلقنا سريعًا في الليل لتسليمها إلى أيدٍ طبية محترفة في نها بي.

كانت المرأة تتألم كثيرًا. قبل الانفصال عن السويفت الآخر، أخبرونا أنها تعاني حملًا خارج الرحم، وأنها على وشك الموت. صَعَدَتْ معها إلى القارب أمُّها أو ربما صديقتها. أمسكت كل منهما بيد الأُخرى، وبدتا مذهولتين من القلق والجهد المبذولين من أجلهما. اتصلنا فورًا بأفراد القاعدة في نها بي، وقالوا إنهم في انتظارنا.

تحلَّق الأطباء حول النقالة حالما أنزلناها إلى الرصيف. ألقيت نظرة أخيرة على المرأة وهي تختفي في الظلام مع مجموعة من الجنود الفضوليين والأطباء يتدافعون حولها. لم أعلم إن كانت قد نَجَت، لكنني شعرت في تلك الليلة أن الدورية كانت ترى أن تلك الحالة استحقّت ذلك الجهد.

كان الليل وقتًا ساحرًا. ونحن على بعد سبعة أميال فقط من سايغون. كان الأفق في ذلك الاتجاه دائمًا مشرقًا وجذابًا. طوال الليل، كانت الطائرات

تحلَق في مختلف أنحاء المدينة وحولها، وتُلقي القنابل المضيئة لمراقبة الحركة في الظلام، مما وفَّر الأمان للدفاعات المحيطة بالمدينة. من المكان الذي نرسو فيه في النهر، كنا نرى «باليه» ثابتًا من الأضواء الوامضة، حيث كانت القنابل المضيئة تنفجر عاليًا منيرة السماء، وتخفت ببطء كلّما اقتربت من الأرض. كنتُ ألعب لعبة، فأراهن بيني وبين نفسي أي قنبلة ستحط على الأرض وهي لا تزال مشتعلة. وأحيانًا، كانت المروحيات التي تحلّق في مهمة دعم للتصدي لكمين ليلي تطلق النار على هدف، فنشاهد تدفقًا مستمرًّا من طلقات النار الخطاطة ذات اللون الأحمر تنحني نحو الأرض. إذا كان الرشق الناري طويلًا كفايةً، نرى خطًّا مستقيمًا من اللون الأحمر يربط المروحية بالهدف الموجود تحتها. يعلم الجميع أن رجال العصابات يتحركون في الليل. وهذا ما كان يثير خيال الدوريات التي تكون في الغالب مسيّرة.

عندما انتهت الدورية، رسونا في رصيف نها بي، لننتظر وصول الدورية البديلة. ذهبت إلى مركز العمليات التكتيكية للتحدث إلى ضابط المراقبة. كنت أشعر بالفضول لأعاين كيفية ترتيب مهماتنا. اتضح أن المركز كان مشتركًا بين الأميركيين والفييتناميين. لم يستطع الأميركيون التحرك من دون مراجعة نظرائهم. وأخبرني الضابط أنَ نظراءهم قلَّما يعرفون ما يحدث. وقال: «كلما أردت أن تضع خطة، عليك أن تشرح لهم الأفكار بالتفصيل. بعد اقتراح خطة بديلة أو خطتين، تنتظر أن يقول الفييتناميون «لمَ لا نقوم بالأمر بهذه الطريقة؟» ، يكون ذلك عادةً أول خطة اقترحتها. وإن لم يقترحوا ذلك، فلن يحدث شيء. حين يفعلون ذلك في النهاية، فإنك تهنئهم على تفكيرهم الصائب، وتنتقل إلى المشكلة التالية» .

سألته: هل هناك قيود على الممر المائي في حركة المرور إلى سايغون؟ أجاب بالنفي. أصبحت الفكرة التي كانت تنمو في رأسي منذ عدة أيام حقيقة. ذلك أننا، عندما تسلّم القارب البديل الدورية، انطلقنا به من الرصيف. وعند دخولنا نهر سايغون، قمنا بجولة استطلاع قصيرة في سايغون بدافع الفضول.

كان النهر من بحر الصين الجنوبي إلى سايغون عبارة عن طريق سريع، حيث تنقل السفن من جميع الجهات البضائع إلى العاصمة. كانت مزيجًا من السفن الحربية الأميركية والفييتنامية، ونواقل البضائع، والقوارب والعبَّارات. وكان النهرَ مفتاحًا لسلسلة التوريد العسكرية الأميركية. كل صباح، كانت كاسحة الألغام الأميركية تمخر طول النهر كي تضمن أنَّ لا ألغامَ وُضعت خلال الليل. ولزيادة حماية حركة المرور، تقوم القوات الجوية الأميركية بإسقاط العامل البرتقالي على طول الضفتين، الأمر الذي يقضي على كل

النباتات مسافة ميل، للتأكد من عدم تمكّن المتمردين من الاختباء بين أوراق الشجر. لكنَّ الفيتكونغ كانوا عاقدي العزم. كانوا يحفرون الخنادق في الوحل، ويقفزون ليطلقوا قذيفة من عيار «بي-40» على سفينة حربية عابرة، ويختفون من ثم قبل أن يُردَّ على إطلاق النار بالمثل. في إحدى المرات، ارتكب الفيتكونغ خطأ بإطلاق النار على سفينة تحمل جنودًا من جمهورية كوريا. فأمر الضابط الكوري الأقدم قائد السفينة بالتوجه إلى الضفة، حيث قُضِي على المئات من الفيتكونغ. عُلِمَ أن أولئك لم يعاودوا إطلاق النار على السفن المارة أشهرًا بعد ذلك.

تقع سايغون على بُعْدِ أميالٍ معدودة من مصب النهر. قطعناها بأقصى سرعة حتى وصلنا إلى ضواحي المدينة. كانت سايغون عالمًا قائماً بذاته، عالمًا من سفن الشحن المربوطة بالأرصفة، والعبّارات التي تستضيف اللاجئين، والإعلانات المبهرجة على لوحات الإعلانات، والسيارات والحافلات التي تجوب الطرق ذهابًا وإيابًا، والمباني الحكومية الكبيرة التي تهيمن على الواجهة البحرية، والأكواخ التي لا تحصى، المبنية فوق ضفاف الطين على أعمدة خشبية، والسفن البحرية المتداعية التابعة للكوريين التي ترسو أمام مقر القيادة البحرية الفييتنامية، وسيارات الأجرة المائية التي تتنقل عبر الميناء. وفي ذلك اليوم، تجرأ أحد زوارق سويفت التابع للبحرية الأميركية على الاستعراض وسط المدينة في جولة سريعة لمشاهدة معالمها. لبضع لحظات، كانت سايغون وفييتنام متصلتين بطريقة لم تعرفاها يومًا. وَعَدنا أنفسنا بأن نعود.

عندما وصلنا إلى قاعدة كات لو، استُقبِلنا بالأنباء التي تُفيد أنَّ أحد القوارب قد تضرر كثيرًا أثناء سيره في دورية نهرية. فقد أُخلِيَ النقيب البحري (من درجة المبتدئين) بوب إيموري طبيًّا، وقُتِلَ أحد رجاله، وسُحب قاربه إلى القاعدة. ذهبتُ لرؤيته، فوجدتُ فجوةً ضخمة في غرفة القيادة، امتدت إلى المقصورة الرئيسية. نُصب الكمين قرابة نهاية مهمة على نهر صغير. كان قارب إيموري يشغِّل أحد أشرطة العمليات السيكولوجية على مكبرات الصوت في القارب. نزل مسؤول المحرّكات لإيقاف الشريط. ولحظة استدار ليعود إلى غرفة القيادة، انطلق صاروخ «بي-40» ، فثقب هيكل السفينة، وأصاب تحديدًا المقصورة الرئيسية مفجرًا رأس الرجل، فيما تشظّت ساقا بوب، وجُرِحَ آخرون.

وصلنا لرؤية قارب بوب يُسحب من الماء، ويسند إلى رصيف عائم لمنع انزلاقه حيث خضع لعملية إصلاح. كان عدد من الرجال الذين على متنه ينظفونه. شاهدت أحدهم يُبدي اشمئزازًا وهو يزيل الشَّعرَ والأسنان عن

السقف. لقد تبددت فورًا المشاعر التي ولّدتها الرحلة السريعة إلى سايغون والجانب الممتع من خوض الأنهار. طَغَت عليها حقيقة الحرب مجددًا.

بعد يومين، كنا نعمل في المناطق القريبة من دونغ تام، وهي القاعدة الرئيسية لفرقة المشاة التاسعة والقوات النهرية. كنتُ أحاول إيجاد وسيلة للوصول إلى عرض «بوب هوب» الترفيهي، ومنسوب الوقود قد انخفض جدًّا في القارب. رأيتُ سفينة إل إس تي ترسو في وسط النهر مع رصيف عائم على جانبها. كانت عدة قوارب دوريات تتزوّد هناك بالوقود. اقتربت من الرصيف، ربطتُ فيه مرساتي، ورحتُ أبحث عمَّن يمكن أن أطلب منه الوقود. علا فجأة ذلك الصوت المتميز بمزيج من اللهجتين البروكلينية والبوسطنية يصرخ بي بصلافة: «يا صاح! لا يمكنك إيقاف قاربك هنا! أبعِد قاربك اللعين عن سفينتي!» . عرفتُ ذلك الصوت من فوري. نظرتُ إلى أعلى وكان بول نايس الذي لم أره مذ غادرنا جزيرة الكنز. مرت سنة ونصف السنة. لم يعرفني بول؛ لم أكن أعلم أن من استقبلني بهذه الطريقة، أنه هو، الضابط بول، المسؤول عن حوض السفن. فجأة، تعرَّف بول إليَّ ورسم ابتسامة كبيرة؛ كانت لحظة لمّ شملٍ رائعة وسط الحرب، وسط دلتا نهر الميكونغ. لن أنسى أبدًا تلك اللحظة، ولا مصادفة اللقاء تلك مع صديق في نهر في فييتنام. ونذرت كذلك ألَّا أدعه ينسى أبدًا أن رد فعله الأول كان في محاولته حرماني الوقود! كان الأمر السلبي الوحيد الذي قاله لي بول يومًا ما.

كُلِّفنا بعد أيَّام المشاركة في هجوم للقوات النهرية في جداول صغيرة كثيرة ليست بعيدة عن دونغ تام. التقينا أسطولًا حربيًّا نهريًّا يضم سفنًا حربية للمراقبة، وحاملات جنود مع تعزيزات حديدية ضخمة على جوانبها، وأكياس رمل في كل مكان على متنها. بَدَوْنا ضئيلين ومعرّضين للخطر إلى جانبها. في لحظة ما، سمعت أحدًا ينادي: «سيِّد كيري، سيِّد كيري، مرحبا!» . رفعتُ نظري وحدقتُ جيدًا لأرى أحد المجندين من غريدلي يلوِّح لي عن إحدى حاملات الجند. أعربت له عن تمنياتي الطيبة، ونحن نبتعد عنهم. كان من المفترض أن نقوم بهجوم استعراضي على مرأى من وزير الدفاع ملفين ليرد، الذي كان من المقرر أن يراقبنا من المروحيات المحلّقة فوقنا. في اللحظة الأخيرة، تغيّرت إحداثياتنا إلى موقع مختلف، لأن منطقة الاعتداء الأولية كانت ساخنة جدًّا. لن أنسى أبدًا هذه المهمة المرحلية التي ملأت حتمًا الوزير برؤية مفتعلة لما يدور على الأرض.

بعد بضعة أيام، كنا نشارك مع مجموعة صغيرة من قوارب الدوريات في هجوم آخر. عندما اقتربنا من نهر جانبي صغير، تعرضنا لإطلاق نار بسيط، وسمعتُ غاردنر يصيح من حوض المدفع: «لقد أُصِبت!» . خرجنا إلى النهر الأكبر. أُصيب غاردنر بجرح طفيف في ذراعه. غادرنا فورًا إلى المرفق الطبي في مقر المشاة التاسع.

عندما أدخلتُ غاردنر إلى المستشفى الميداني في قاعدة دونغ تام، وجدت نفسي أشهد على صراع من أجل الحياة في منطقة الفرز. كان هناك رجل مصاب بجروح شديدة على نقالة. كان فييتناميًّا، عاريًا تمامًا، وجسده النحيل ممدد على حصيرة بلاستيكية بنية تغطي طاولات العمليات. دخل أطباء يرتدون زيهم الأخضر وخرجوا من البابين اللذين يحددان قسم ما قبل العمليات للشعبة الجراحية الثالثة التابعة للجيش الأميركي. سطع ضوء جهاز غريب بديل وهو جهاز تقني على مستوى صدره وهو يتحرك صعودًا ونزولًا مع كل تجربة للتنفس، من دون نبض وبقوة قليلة جدًّا. كان جو الخيمة باردًا جدًّا، فعلِقَت عيناي بأنبوب مكيف الهواء البلاستيكي الذي يلتف فوق رؤوسنا، وقد سيطر على كل الزركشة المعقمة الأخرى لجناح الطوارئ، مذكّرًا إياي بقسوة المكان الذي كنت فيه. ازدحمت ثلاث طاولات عمليات أو أربع، وخزانات زجاجية مزوّدة أدوات جراحية وضمادات ميدانية، وزجاجات أكسجين وأجهزة إنعاش، لتقدم صورة قبيحة إلى العين التي كانت أصلًا مرهقة ومصدومة.

حين أخذوا غاردنر لتضميد جرحه، بقيتُ مركِّزًا في كفاح جندي المشاة الفييتنامي الشاب. كنت أراقب، بينما راح شاب فتي آخر، يظهر القلق والأمل وقلة الخبرة في عينيه العريضتين، يعدُّ نصف لتر من الدم لنقله. سرعان ما سحب كيس الدم البلاستيكي بدقة إلى شبكة نفخ وحاوية مطاطية. وبعد أن كسر الختم، أدخل أنبوبًا في الكيس. ثمَّ ضغط على مضخة يدوية يستخدمها الطبيب لأخذ ضغط الدم، وعصر الدم من الكيس إلى وعاء صغير. ومن هناك تدفق إلى الجسم النحيل الذي رقد تحت رحمة مَنْ يحومون حوله.

مع كل ضغط من يده، يدفعُ الدم ببطء عبر الأنبوب. أردتُ بشدة أن تجري الحياة في جسد الشاب الشجاع الممدَّد هناك عاجزًا. بين حين وآخر، كانت قدما الرجل ترتجفان؛ وتحاول يده لمس رأسه، وهي حركات غريبة غير مترابطة مع بقية جسمه والحالة السوية. سأسميه نغوين، لأنَّ من المحتمل أن يحمل هذا الاسم، وإنْ لا، فهو لا يزال في حاجة إلى تسمية. كان هو تايغر سكاوت، مستكشف الطريق لإحدى فصائل المشاة في دونغ تام. ذَكَرَ البعضُ أنه وقع في شرك. وقال آخرون إنَّه تعرض لطلق ناري. من حيث كُنْت، تمكَّنتُ من رؤية رقبته تنزف، ورأسه المائل إلى الوراء وعينيه نصف المغمضتين

والمذهولتين، كأنهما تبحثان عن أمرٍ ما. لم يكن هناك شيء مألوف هنا لهذا الرجل. فكرتُ في الوحدة القاتلة التي يُشعر بها. لا أحد ليمسك بيده، لا أحد ليكلمه، لأنه لا يعرف التحدث باللغة الإنكليزية، ولا نعرف التحدث باللغة الفييتنامية، وفي أي حال، كيف يمكن للمرء أن يرأب الصدع في لحظةٍ كهذه؟

كانت يده اليسرى ملفوفة بالشاش الذي غدا أحمر تمامًا، مشبعًا بدمه كما شارة الشجاعة الحمراء التي يحملها. تشكّلت بقعة كبيرة حمراء تحت نقالة الجيش الخضراء التي تمدد عليها. أحاطت أنابيب بلاستيكية شفّافة كبيرة بساقيه، وجبائر قابلة للنفخ. وأظهرت تلك كذلك مسحة متزايدة من اللون الأحمر الداكن بينما تدفقت حياته من خلالها. شعرت بالضعف وبدأت معدتي تؤلمني. تصبّب العرق من كل مسامَي، وشعرت بالبرد والحر في آن. جلست على الأرض، وقد أحسست بالإعياء والدوار.

كانت يد نغوين اليمنى، بأصابعها الطويلة والنحيلة، تعلو أحيانًا وتترجّح في الهواء. تساءلت: هل يحاول الإشارة إلى شيء يجب أن نفهمه، أم أنه يحاول لمس شيء يمسّه المرء قبل موته. اغرورقت عيناي بالدموع. أردتُ أن أعانق ذلك الشاب الصغير الذي كان يخوض معركةً شخصية وحيدًا تمامًا. لا يزال صدره يتحرك صعودًا ونزولًا، ومع تلك الحركة يستمر الأمل في نجاته. رغبتُ كثيرًا في نجاته. تحرّكت يده مرة أو مرتين إلى الجهة الأخرى ومال معها رأسه ببطء، مما سمح لي برؤية ملامح وجهه القوية، وجه قسَّته أعوام من الحرب والمعاناة وعدم اليقين.

عَلَت من ثم يده اليُمنى في الهواء؛ فهُرع طبيب لفحص نبضه وضغط دمه. ارتعشت أصابع قدميه وخرجت من الجبائر البلاستيكية. حاول أن يرفع رأسه لإلقاء نظرة، طلبًا لشيء ربما، أو لعله الجهد الأخير المبذول للصراع من أجل البقاء، وهدأ من ثمَّ. حَطَّت يده اليمنى على صدره، فيما تدلّت الأُخرى، المضمّدة والمفقودة، على الجانب الآخر للنقّالة. رَحَلَ نغوين، بلا كلمات أو بكاء. لم يُسمع حسٌّ في الخيمة. صلَّيتُ ألَّا أكون أبدًا وحيدًا كما كان في تلك اللحظات الأخيرة. لم أعرف اسمه، ولا أعتقد أنَّ أحدًا في الخيمة يعرفه.

بدا الأمر منافيًا للعقل، رجل يموت بمفرده في بلده. رغبتُ في البكاء، لكنني لم أسمح لنفسي بذلك، فظلَّ الدمع يتلألأ في عيني.

مرَّ الأسبوعان التاليان بسرعة. نفّذنا دوريات عبر الكثير من الأنهار الرئيسة لدلتا الميكونغ، حيث اختبرنا الحياة الناشطة والرائعة على الأنهار، الطرق السريعة الرئيسة في جنوب فييتنام. اصطدنا البط بالأسلحة الحربية من متن القارب، وقايضنا حصصنا الغذائية المعلَّبة بالقريدس الطازج، ودهمنا

عددًا لا يحصى من المراكب وفتشناها، وتفاعلنا مع العرض الذي لا ينتهي لأطفال صغار يتوسَّلوننا الحصول على نشرة، أي نشرة، ليصرخوا من ثمَّ: «أنتَ الأفضل» . غرقنا في الحياة الريفية، وإنَّما الصاخبة، القادرة على توليد هدوئها الخاص على نهر بنيٍّ سريع الجريان، مع تيارٍ شديد الانحدار نحو البحر. كان الأمر ممتعًا للنظر. في بعض الأحيان، جرى تبادُل لإطلاق النار هنا وهناك، ولكنْ لم يحدث أي اشتباك خطير.

مطلع كانون الثاني/يناير 1969، رجعنا من دورية استمرت أيامًا ليجري إبلاغنا أننا سنعود إلى آن توي، لاستئناف مهمتنا مع الكتيبة الساحلية 11. أبحرنا إيابًا، مستعيدين رحلتنا حول أقصى نقطة في جنوب فييتنام، شبه جزيرة كا مو، ثمَّ صوب الشمال مباشرة إلى جزيرة فو كوك، عبر المياه الفيروزية العميقة لخليج تايلاند. كان ترسيم الحدود بين المياه البنية الموحلة من بحر الصين الجنوبي والخليج صارخًا، كما لو أنَّ رسامًا قد رسم خطًّا واضحًا على قماش، لونًا على جانب، ولونًا مختلفًا على الجانب الآخر.

ظلت آن توي على حالها مثلما غادرناها، باستثناء ازدياد عدد الغارات. مع الخبرة التي اكتسبناها في كات لو، دخلنا مباشرةً في حلقة التناوب. كان معظم أفراد طاقم زورقي الأساسي 44 قد أنهوا عام خدمتهم الأوَّل في فييتنام. مَنْ لم يكن قد أكمل عامه، فقد فُصل لملء الشواغر المتوافرة على قوارب أُخرى.

في 29 كانون الثاني/يناير، كان تيد بيك، بعد أسبوع واحد من نقله مع طاقمه كاملًا إلى القارب 94، جزءًا من عملية تضم ستة قوارب على نهر كوا لون، بقيادة القائد كونولي، وهو موظف مكتبي من كات لو. كان عصبيّاً على الفهم أن يقود رجل مكتبي من كات لو غارةً في آن توي. لكنَّ بيك وأفراد طاقمه الذين لم يُظهروا حماسةً عند إيقاظهم باكرًا من نوم عميق، ذهبوا مع ذلك للعمل. بعد قليل، أَمَرَ القائد كونولي بيك وقارباً آخر بالتوجه إلى قناة جانبية صغيرة لمطاردة جماعةٍ من الفيتكونغ. علِمْتُ لاحقًا أنَّ بيك ساوره حسٌّ بتردّد داخلي، وقد تساءل إنْ كان عليه أن ينفّذ الأمر.

كان الجزْر منخفضًا، ممّا جعل القوارب ترى كل شيء أعلى التل، وأعلى ضفتي القناة الرمليتين الموحلتين. على عكس ذلك، فإن أي شخص قد يطلق النار عليهم، فإنه كمن سيطلق النار على بط في حوض استحمام. ناهيك بأن الطاقم لم تتح له رؤية ما خَلْف حافة التلة. فجأةً، انفجر لغم تحت القارب 94، فرفعه وارتجَّ في الماء. يتذكر ديل سندوسكي، مساعد الربان، رؤية ثقب على الجانب الأيسر. قبل أن يتمكن بيك من إطلاق النار، أصيب

بجروح خطيرة من نيران مدفع رشاش على الضفة. فتمكّن، وهو ينزف ويتألم، من إطلاق بعض الطلقات، في حين استطاع سندوسكي بأعجوبة أن يدير القارب ويخرج من القناة. بالكاد توافرت مساحة لسندوسكي للالتفاف. كان عليه أن يدير القارب بأقصى سرعة، حاشرًا مقدِّم القارب في الوحل على جانبٍ من الضفة في حين أن مؤخره يمهّد الجانب الآخر. حرَّك الدعائم عبر الوحول بينما أَمَرَ ديفيد ألستون، المدفعي على رشاش من عيار 50 أن يبقى على المدفع ويواصل إطلاق النار. أصيب بيك مجددًا برصاصة في كاحله، مسبِّبة كسراً في ساقه. استمر ألتسون في إطلاق النار. خَدَشت رصاصة رأسه، وأصابته أخرى في ذراعه، لكنه واصل بعناد إطلاق النار من مدفعه الرشاش. حين خرجوا إلى النهر الرئيس، بعيدًا من القتال العنيف، وَصَلَت المساعدة ليجد الرجال تيد بيك، على الرغم من الألم وشبه فقدانه وعيه، صلبًا كالفولاذ. نُقِل تيد إلى وحدة طبية طارئة، حيث خضع لجراحة. ثم أُخلِيَ إلى المستشفى في سايغون. قيل لنا إن حال تيد مستقرة وسوف يسافر. فشجاعته، ودفعه لكل رجل كان على القارب أن يقوم بما يجب أن يفعله في لحظة جهنمية مفاجئة وإنما مرعبة، أنقذت حياة الجميع.

ولأن تيد كان سيعاد إلى الولايات المتحدة، فقد وقع عليّ الخيار لأكون الضابط المسؤول المحظوظ الذي سيتولّى القارب 94 وطاقمه الاستثنائي. اتّفقنا سريعًا.

كان نائبي المساعد ديل ساندوسكي، مساعد الربان الذي أنقذ بمهارة القارب من الخطر. لم يساور الشك أي من زملائه في الطاقم أن طريقة ديل الرائعة في تحويل سير القارب تحت وابل النيران هي التي أنقذت حياة الطاقم كاملًا.

كان جين ثورسون، الملقب بـ «ثور» ، المسؤول عن المحرّكات؛ وذلك من حسن حظنا، لأنه الأفضل في هذا المجال. آخر أمر تريد اختباره هو تعطّل المحرك وسط كمين. مع موهبة ثور، لم نواجه ذلك قط.

أما تومي بيلودو، المدفعي الأمامي والمسؤول عن الرادار، كان من ولاية ماساتشوستس. فقد توافقت معه مباشرة على أمور كثيرة، من فريق كرة القدم الأميركية «ريد سوكس» ، إلى اللكنة. شاهد تومي معارك كثيرة قبل الكمين الأخير، ومُنِح وسامًا لإلقائه القبض على سجين عند ضفة النهر بعد مطاردة.

وكان مايك ميديروس، عريف الملاحين، من سان لياندرو، كاليفورنيا، متعدّد المواهب والمهارات. سيتبادل هو وثور مسؤولية المدفع الرشاش ذي

العيار خمسين. كان أقصر من أعضاء الطاقم الآخرين إذ يبلغ طوله 168 سم تقريباً؛ لكنه كان قويًّا وهادئًا وقديرًا جدًّا في كل ما فعله. شغل منصب مشغِّل الراديو في بعض العمليات. يمكنك دائمًا الاعتماد على مايك ليكون في المكان المناسب.

كان آخر عضو في طاقمنا هو رفيق مدفعنا الثابت، ديفيد ألستون. كان ديفيد أكثرنا عرضةً للخطر، يجلس في برج البندقية فوقي وفوق ديل، عندما نكون في حجرة القيادة الرئيسة. كان يحرس مدافع رشاشة ضخمة من عيار خمسين، وهي القوة الثقيلة لقواربنا. في الكمين الذي أصيب فيه بيك، كان البرج الذي جلس فيه مملوءًا بالرصاص. عندما سُحِبَ القارب من المياه لإصلاحه في آن توي، أحصى الكثيرون منا الثقوب. كان هناك أكثر من 160 طلقة، وغالبيتها في برج البندقية. كانت شبه معجزة أنها أخطأت ألستون. ومطلع كانون الثاني/يناير، أصيب بجروح وأُجْلِيَ طبيًّا آنذاك. أخبرني أنَّ ما أنقذه هو نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس، التي كانت في جيبه. لم يكن لدى ديفيد أي شك في أن الله قد أنقذه من جديد.

شاركنا طوال الأسابيع التالية في أكبر عدد ممكن من العمليات. خرجنا إلى الأنهار أكثر من أي وقت مضى، وكان نطاق المهمات التي اضطلعنا بها غير عادي. في إحدى المناسبات، نقلنا بالونات ثقيلة ضخمة من الوقود إلى «النايفي سيلز» التي بدأت العمل بانتظام في المنطقة. أُطلِق على العملية اسم «يو - هاول» . سحبنا البالونات حوالى 18 متراً وراء القوارب، آملين ألَّا تفجّرها الصواريخ من ضفتي النهر. في المهمة نفسها، حمَّلنا قواربنا من أعلى إلى أسفل بالخشب لتسليمها إلى القاعدة العسكرية الفييتنامية في تساي نواك للبناء. عندما وصلنا، ساعدنا الأطفال على تفريغ حمولتنا، وعجبت لمدى اجتهادهم، لألاحظ أنهم حوَّلوا كمية لا بأس بها من الخشب إلى منازلهم.

لم يكن هناك من حدٍّ لتنوع المهمّات التي أدّيناها: فقد نقلنا فصائل أو مجموعات تابعة لقوات الاستطلاع الشعبية لإيداعها على ضفاف الأنهار، من أجل عمليات المسح على طول النهر. نصبنا الكمائن على طول طرق الفيتكونغ المعلن عنها، وانتظرنا الكثير من السمبانات التي تنقل الإمدادات في الليل. ذهبنا في مهمات ليلية متوترة مع وحدات من «النايفي سيلز» التي نوصلها إلى موقع ما؛ لننتظر، من ثمَّ، إشارة لإخراجها، أو نلتقي وفق إحداثيات محددة مسبقًا. سحبنا سجناء من الماء بعد الكمائن، وسلمناهم إلى قوارب خفر السواحل للاستجواب. ومرة تلو أخرى، مررنا عبر الأنهار بأعداد متفاوتة من القوارب، نطلق النار على «أهداف الفرصة» ، وأحيانًا كثيرة لا نفعل. نقلنا

النساء والأطفال والمسنين العزَّل خوفًا من خطر وقوعهم تحت وابل نيران متقاطعة أو استهدافهم أنفسهم من أجل سلامة الزوارق، لنوصلهم إلى مكان آمن.

في الأيام الأولى من توليَّ مهمّاتي على القارب 94، كُلِّفنا نقل فريق من «النايفي سيلز» إلى تساي نواك، مع بوب هيلدريس والقارب 72. عندما اقتربنا من أوتاد السمك عند مدخل نهر باي هاب، طلب مني بوب أن أسلك المجرى الأيسر؛ ففعلتُ. مررنا قاطعين من دون وقوع حوادث، وهيلدريث يتبعنا. فجأةً، دوّى انفجار، وغطّى الماء والدخان القارب 72. ترجّح القارب بينما كانت ضفتا النهر تشتعلان برشقات الرصاص، وأُطلِقت قذائف صاروخية (آر بي جي) في آن. تمكنتُ من رؤية قذيفة مذنّب قذيفة أمام القارب لكنها انفجرت من دون أذى إلى يمينه. عندما طهَّرنا المنطقة، انفجر لغم آخر بعيدًا عن قوس السفينة، ولم يكن له أي تأثير؛ إلّا أن المياه قد رشّتنا. عندما وصلنا إلى تساي نواك وفحصنا قاربينا، كانت النتيجة جادة: أصابت طلقتان حبال النجاة؛ وكان هناك الكثير من الثقوب في هيكل السفينة، أحدها في العلم واثنان فوق رأسي قرب باب حجرة القيادة. كانت سارية العلم في زورق بوب 72، مصابة برصاصة في وسطها. وتعرّض هيكلُ القارب لثقوب بدت أنها لرصاص من العيار الثقيل. إضافة إلى ذلك، كانت محركات قارب بوب عاجزة عن الدوران بسرعة عالية في طريقنا إلى تساي نواك، وتلك نتيجة واضحة للارتجاج العالي الذي حدث تحت القارب. ذكّرنا الحادث بالمقدار الذي يؤديه الحظ يوميًّا في حياتنا. لم نرغب في المراهنة على ذلك الحظ كثيرًا، لذا أمضينا الليل في حوض السفن في تساي نواك.

في يوم آخر، نفّذنا مهمة «سيلوردز» غير عادية على بعد خمسة عشر ميلًا فوق نهر لم تغامر قوارب سويفت بسلوكه ولو لمرّة واحدة، وهو نهر في عمق إقليم الفيتكونغ. حملنا موادَّ لتوزيعها على السكان المحليين بغرض تنفيذ عملية نفسية، وحلوى للأطفال. أثناء عبورنا النهر الضيِّق، شغلنا الشرائط المسماة «شرائط العمليات النفسية» ، مع رسالة إلى المواطنين عن مزايا الانقلاب على الفيتكونغ، ومساندة حكومة فييتنام الجنوبية. أطلعناهم كيف يمكنهم الحفاظ على أمنهم.

التف النهر ودار حول نفسه، متعرّجًا بشدة عبر الدلتا المسطّحة، إلى حد أننا كنا نرى فقط سارية رادار قارب السويفت أمامنا. وقد بدا كأنه يسير في الاتجاه المعاكس حول منعطف لا يمكننا رؤيته. لو أطلق أحدٌ صاروخًا بين القاربين، لكان من المحتمل أنْ يتبادل أفراد طاقمي القاربين إطلاق النار. كنَّا محظوظين في أمرين ذلك النهار. أوَّلًا، لم نتعرض لأي طلق ناري؛ ثانيًا، قايضنا

معلّباتنا بكلبٍ صغير مزعج ليحصل أحدهم على وجبة طعام. سمَّيناه «في سي» ، اختصار «فيتكونغ» ، فأصبح جالب الحظ السعيد على مركبنا، على الرغم من بُعدِه عن دياره.

بعد أيام، كنا في مهمة أخرى للعمليات النفسية، نجتاز ريفًا جميلًا في رتل طويل من قوارب سويفت. من الناحية الفنية، كانت منطقة رمي حر مُعلنة. ولكنْ امتنع كل قائدٍ سفينة وكل فرد من الطواقم عن إطلاق النار، عندما رأوا امرأةً تحملُ طفلًا تركض بحثًا عن مخبأ، أو عن مزارعٍ مسن يبحث عن غطاءٍ خلف شجرة. تعرضت إحدى المروحيتين اللتين توفران لنا غطاءً على الطريق لنيران أسلحة خفيفة. لذا عادتا إلى القاعدة، وتُركنا من دون رادع مهم على الطريق. كنا نطلق النيران من وقت إلى آخر، برشقات عشوائية من عيار 50 لتحذير المتربصين بنا. عندما اجتزنا المسافة الأخيرة من الغطاء الورقي والأشجار الغضة قبل العودة إلى نهر كوا لون، شاهدنا إلى يسارنا رجلًا يركض وينحني في الوقت الذي انفجرت قذيفة آر بي جي قبالة جانب الميناء. كنت واقفًا، رِجْلًا على باب حجرة القيادة ورِجْلًا خارجها، عندما أصابت شظية الجزء الخلفي من ساقي اليسرى. تجاوزنا فورًا منعطفًا لنصل إلى المساحة الواسعة من كوا لون.

عندما عدنا إلى زورق خفر السواحل، أعلموني أن جهاز الأشعة السينية لا يعمل. لذا بعد أن فحص أحد الأطباء أوتار ركبتي لوقت قصير، طلب مني العودة إلى آن توي لتصوير ساقي. بعد الفحص بالأشعة السينية الذي أظهر قطعة معدنية صغيرة في عضلاتي، قرر الطبيب أن يتركها. اعتقدَ أنها ستسبِّب مشكلة أكبر في حال استئصالها. يبدو أن الشظيّة يمكن أن تشق طريقها إلى سطح الجلد مع مرور الوقت، كما قال. وعليه، عُدنا مباشرة إلى دوريتنا على الأنهار.

أثارت بي تلك الرحلة عبر منطقة الرمي الحُرّ للنار أسئلة كثيرة عن استراتيجيتنا. مَنْ الذي حدّد المنطقة التي لا يُحظَّر فيها إطلاق النار؟ مَنْ دعا إلى ذلك؟ ما هي المعايير؟ على أي أساس أعلن شخص ما أن كل مَن يتحرك في منطقة معيّنة هو العدو ويمكن قتله؟ كيف يمكننا أن نثق بذلك بعد أن رأينا النساء والأطفال وكبار السن يتنقلون جميعًا في المنطقة وهم يزاولون حياتهم العادية؟ لا أحد يحدد قواعد حرية التصرف في منطقة إطلاق النار. أنا فخور لأنَّ طواقم قوارب سويفت وضباطها يطبّقون حسهم السليم، لكنني لا أستطيع القول إنَّها عملية خالية من الأخطار الأخلاقية. في هذه المناطق، لم نكن في حاجة إلى تصريح من المقر الرئيس قبل فتح النار، لكنَّ الحقيقة هي أنَّ طواقم سويفت لم تكن قادرة مطلقًا على المبادرة بإطلاق النار أولًا على

الخصم. أحدثت المحركات الكثير من الضوضاء الأمر الذي مكّن من سماع القوارب، عن مسافة أميال. كان المواطنون المحليون دائمًا يختبئون قبل أن نتمكن من لقائهم. وكانت القوارب، منذ دخولها الأنهار، بمنزلة أهداف، طواقمها مجبرة أن تختصر إطلاق النار عليها لترُد، فتتمكّن من معرفة مكان العدو. كانت الخسائر التي تكبّدتها جسيمة. لم يسلم قارب من الأضرار.

كان 28 شباط/فبراير 1969 اليوم الذي قرَّرتُ فيه تغيير ديناميكية عملنا مِنْ مجرد السير في الأنهار جاذبين الكمائن كأننا مغناطيس. رأيت أنَّ لدينا خيارات استراتيجية أفضل.

كنا نمر عبر خليج نهر هاب مع قاربَيْ سويفت آخرَيْن بقيادة صديقيَّ بيل رود ودون دروز. قضت الخطة بأن نتجه شمالًا نحو نقطة إيلاج قناة دونغ كونغ، بعد أن توقفنا في تساي نواك لنقل قوات محلّية. كنتُ ربّان القيادة التكتيكية للقوارب الأخرى. أعلمتُ بيل ودون أنني أنظر في إنزال على البر، إذا كانت الظروف مؤاتية، كي تطارد قواربنا العدو. إذا لم نكن مهاجمين، فسنكون مثل البط في حقل رماية. نعرف جميعًا الاحتمالات. كانت أعصابنا مشدودة. وقد ساورنا شعور مشترك أن الفيتكونج ينتظروننا ليكمنوا لنا.

بعد وقت قصير من مغادرتنا رصيف تساي نواك ودخولنا نهر دونغ كانغ، تعرّضنا لإطلاق نار. تعلَّمت أذني التمييز بين الأسلحة الثقيلة والأسلحة ذات العيار الخفيف، بين المدافع الرشاشة والكلاشينكوف إي كاي-47. لم أسمع أزيز رصاص أسلحة أوتوماتيكية من العيار الثقيل تُطلَق علينا، على الأقل حتى الآن. كل ما سمعتُه بدايةً طلقات ناجمة عن كلاشينكوفات إي كاي-47 وبندقيات شيوعية صينية الصنع. كنا على الأرجح على بعد خمس عشرة ياردة أو عشرين على الأكثر من ضفة النهر التي تُطلق منها النار علينا. أمسكت الراديو وصرخت الأمر: «استدر صفر – تسعة - صفر. فلتستدر كل القوارب صفر – تسعة - صفر. توجهوا إلى الشاطئ. استديروا صفر - تسعة - صفر» . أَدينُ لبيل ودون بهذا الشأن طوال العمر، لم يتردّدا. بدا الأمر وكأننا تدربنا عليه مئات المرات. استدارت القوارب بانسجام تام، مفاجئةً تمامًا المُهاجمين. فتحنا نيران مدافعنا ذات العيار 50 وعددًا لا يُحصى من رشاشات إم-16 على الشاطئ، ونحن نندفع نحوه وأقواس قواربنا ترتفع قليلًا إلى أعلى وهي تَلِجُ الوحول. ولحظة استقرارنا على الضفة، أَمَرْتُ جميع الجنود الموجودين على القوارب بالترجل منها والنزول إلى الشاطئ وملاحقة المهاجمين. قفزوا عن المتن. وخلال عشر دقائق، انتهت العملية. هرب الأعداء الذين لم يُقتلوا إلى الغابة، بينما كان ستة من الفيتكونغ ممددين قتلى

في المكان الذي أطلقوا منه النار علينا. أخذنا أسلحتهم وفتشناهم بحثًا عن وثائق.

وبينما كانت القوات تمسح المكان بعد الهجوم، وتحرس المحيط، سمعت المزيد من الطلقات الصادرة من قرب المنبع. أمرت دون دروز بالبقاء في موقع الكمين الأولي لتوفير الدعم الناري للقوات الموجودة، راهنًا، على الشاطئ، في حين انضم إلي بيل رود صعودًا نحو أعلى النهر للتحقق مما يحدث. ناورنا حول منعطف على يميننا، ربما كان على بعد مئات الأمتار عن المنبع. فجأة، انفجر صاروخ من طراز «بي-40» قبالة جانب القارب الأيسر، مما أدى إلى تدمير النوافذ. أمرت ساندوسكي على الفور بالتوجه مباشرة إلى ضفة النهر حيث كانت هناك فتحة بسيطة، شكّلت أفضل تقدير لدينا عن مكان إطلاق الصاروخ. كان علينا التحرك سريعًا قبل أن تتاح لمطلق النار فرصة لإعادة تحميل صاروخ آخر.

ومع رد فعله الطبيعي والفوري الذي لا جدال فيه، دفع ديل القارب إلى المكان الصحيح. صعد مقاتل من الفيتكونغ، على بعد عشر ياردات، أو نحو ذلك أمامنا، من ثقب ضيِّق ووجَّه قاذفة قنابل يدوية نحونا. عندما رأى قارب سويفت على بعد ياردات منه فقط، ونحن نحدِّق إليه، جمد. فجأةً، ووسط دهشتنا، استدار وركض نحو المسار في اتجاه كوخ إلى اليسار. لم نكن، على ما أحسب، لنسمح له بالوقوف خلف الكوخ حيث يمكنه أن يختبئ ويطلق الصاروخ على القارب. لذلك ركضتُ على الفور عبر القوس، وقفزتُ فوق تومي بيلودو الذي كان يطلق النار من رشاش إم-16 من الحوض الأمامي.

وفَّر لي تومي التغطية، مصيبًا مقاتل الفيتكونغ في ساقه. وقع، لكنه سرعان ما نهض وبدأ يركض مجددًا. قضيتُ عليه من ثمَّ برشاشي الإم-16، مستفيدًا من أفضلية موقعي في المسار. سقط إلى يمين الكوخ، وقاذفة الصواريخ بي-40 إلى جانبه. بعد أن مشطنا المنطقة، أخذتُ قاذفة الصواريخ، واثقًا من أنها غير مفخخة، لأنه كان يستخدمها ضدنا.

لا أحدَ يهيئك لمعنى أنْ تسلُبَ امرأً حياته. ولكنْ في تلك اللحظة، لم يُساورني أدنى شك في ما قُمْتُ به. كان الرجل مسلحًا. حاول أن يقتلنا، وبرحمة الله أخطأنا. كان مستعدًّا وراغبًا في إطلاق النار علينا مرَّةً أُخرى. كجندي، تدربتُ على المشاركة في القتال، وأهم من ذلك، تدربتُ على اتخاذ أي إجراء ضروري للقضاء على العدو. أعلم أنني استجبت بشكلٍ ملائم، وكان برفقتي طاقم العمل المناسب ليدعمني عند الضرورة. أثبت ديل ساندوسكي مجددًا أنه صاحب أعصاب فولاذية، ويمكنه أن يتفاعل من دون تردد.

بعد العملية، من العدل القول إننا كنا جميعًا أكثر من فخورين. استخلصنا المعلومات مع ويل إمبري، وكان المشرف العام على زوارق خفر السواحل. قتلنا عشرة مقاتلين من الفيتكونغ في تلك العملية، وكشفنا عن شبكة أنفاق تحت الأرض كانت تُستخدم لتخزين الإمدادات، بما يشمل الذخيرة وأعلام الفيتكونغ وملصقات لهو شي منه.

أوصى قائدنا في ذلك الوقت، الملازم جورج إليوت، بمنح الجميع أوسمة. وجميعُ مَن في القيادة، من أعلى الهرم إلى أسفله، هنَّأ قادة السفن الثلاث وأطقمها على العملية الرائعة.

وقد أبدى الأميرال إلمو زوموالت اعتراضًا على التوصية بجائزتي، وقرر تقديم عرض «مؤثِّر» فوري لأعلى جائزة يُسمح له بتقديمها، أي النجمة الفضية. انتقل إلى آن توي مع الكابتن هوفمان ليعلّق شخصيًّا الميداليات على كل زي من الرجال الثمانية عشر الذين قاتلوا في ذلك اليوم. وخفَّف الفخر الذي شعرنا به من إدراكنا لحقيقة أننا كنا على وشك لقاء خالقنا في ذلك اليوم، لكنَّ حقيقة أننا بقينا على قيد الحياة زادتنا صلابة خلال الأسابيع التالية.

عملنا في بعثات لاحقة مع مجموعة نونغ، وهي قلَّة إثنية من الشمال والمرتفعات. تشاركنا في إحدى المهمات لحظةً من الفوضى ولحظةً من الكوميديا غير المُحتملة. حلّت الفوضى عندما كانت أربعة قوارب سويفت تعمل بالقرب من قناة ضيقة جدًّا تربط بين نهر كوا لون وخليج هاب. أدخلنا جنود نونغ للقيام بعملية مسح، وكنا ننتظر عودتهم. كان لاري ثورلو، قائد القارب 53 البارع جدًّا، قد نجا بأعجوبة عندما انفجر لغم بالقرب من قوس قاربه. كان بيل رود في القارب 23 على مقربة. وكان دون دروز في القارب 43 عند مصب القناة، حيث أُدخِلت قوات نونغ.

حين دنونا من القارب 53، هزّنا انفجار ضخم. غرق لاري والقارب 53 في الدخان والطين. وارتج القارب 94 بطريقة مماثلة جرّاء الانفجار. ترجّح القارب 53 بشدة واصطدم بنا. كان في وسعنا سماع دوي البندقيات المألوفة من طراز إي كاي-47، ونحن نتعرض لوابل من النيران. فتحت مدفعيتنا النار في اتجاهين لقمع المهاجمين. بدا واضحًا أنَّ الفيتكونغ قاموا بعملٍ مدروس بزرع ألغام تنفجر عن بُعد والتخطيط لكمين. ومن خلال إطلاق النار والدخان، جاء ذلك النداء المروع عبر الراديو: «هنا القارب 23، لقد فقدتُ عيني. لا أستطيع أن أرى» . كان بيل رود. كان يمكنني رؤية قارب بيل يُبحر بعيدًا عنا في القناة. تحرّكنا سريعًا ووقفنا إلى جواره. هناك وجدتُ بيل تلف رأسه وعينه ضمادة كبيرة. تحطّمت النافذة الأمامية من حجرة القيادة في الكمين، وشظّى

الزجاج عينه. اتصلت عبر الراديو بدون دروز للانضمام إلينا من النقطة التي تقع عند مدخل القناة، حيث كان ينتظر خروج قوات نونغ.

انتهى الكمين بالسرعة نفسها التي بدأ بها. خرجنا من القناة إلى النهر الأوسع، حيث يمكننا إعادة تجميع صفوفنا وإيلاء بيل الرعاية الطبية. عندذاك لاحظنا أنَّ «في سي» ، الكلب جالب الحظ الذي تبنّيناه أخيرًا، ليس له أثر في أي مكان. افترضنا أننا فقدناه في الكمين. ثم سمعنا، من أحد القوارب الأخرى، ذلك النباح المألوف؛ كان «في سي» على قارب آخر، ينبح في اتجاهنا. خلال الانفجار الذي وقع تحت قاربنا، طار غطاءا المحرّكين. ومن الواضح أن «في سي» كان يقف على أحدهما وقُذِف إلى القارب الآخر. وقف هناك كأنَّ شيئًا لم يحدث، ينبح من بعيد. ما هي فرص حدوث ذلك؟ أدركنا يومذاك أنه كان فعلًا فأل خير: لم يفقد بيل رود عينه، وبعد تعافيه، سيكون قادرًا على الرؤية مجددًا.

شهِد شباط/فبراير والأسبوعان الأوَّلان من آذار/مارس غزوات شبه يومية في الأنهار. خضنا عمليات بمستوى عملية سيلوردز. بعد يومٍ من إصابة بيل رود، في 13 آذار/مارس، أخذنا جنود نونغ إلى قناة ضيقة أخرى، وأدخلناهم لإجراء عملية مسح. ضمَّت العملية خمسة قوارب.

واجه قارب ريتش ماكان مشكلات في المحركات. لذا حمّلنا قواته على متن القارب 94. مع الجنود الإضافيين على متنه، خضنا عباب نهر صغير، حيث فاضت المياه على الضفتين، وانزلقت القوارب عليها، مما صعَّب علينا قيادتها. وأخيرًا، وصلنا إلى موقع كمين سابق، حيث أردنا البدء بعملية المسح.

بعد لحظات من إنزال جنود نونغ، سمعنا انفجارًا في الاتجاه الذي سلكوه. تلقينا نداء عبر الراديو: «هل يمكنكم إرسال أحد لنقل جثة. قضى أحد رجالي في فخ متفجر» . ذهبنا أنا ومايك ميديريوس إلى الشاطئ مع عدد من رجال القوارب الأخرى؛ أعتقدُ أن لاري ثورلو كان بينهم. سرعان ما وجدنا جثة باك شي دي الممزقة، أحد جنود نونغ الذي لاقى حتفه عندما لمس بحماقة وسام حرب مفخّخ. كان من الصعب الربط بين البقايا التي وجدناها والشخص الحي الذي عرفناه؛ كان باك شي دي عمليًّا المهرج بين جماعة نونغ، ودومًا زعيم طرائفهم. كان بطنه خاليًا تمامًا من الجوف، وجسده شبه مقسوم إلى جزءين منفصلين، يربطهما العمود الفقري وبعض الأضلاع. شقَّ ثقب ضخم فمه وأنفه وصولًا إلى الجانب الآخر من رأسه. كان مجرد كتلة من اللحم والعظام؛ لا شيء. جمع رجلان منا أشلاءه في عباءتين. وبينما كنا ننقلُه، أُطلقت علينا النار. اختبأنا في بعض الخنادق الموجودة إلى أن أُسكتت النيران. اتصلنا بالمقر، وطلبنا من المروحيات الانضمام إلى القتال، ولكنْ لم يكن أيِ

منها متاحًا. اتصلتُ من ثمَّ بساندوسكي وطلبت منه أن يُرجِع القارب 94 قليلًا ليُصبح أقرب إلى مكان وجودنا.

في النهاية، استطعنا نقل باك شي دي إلى متن القارب. حاولنا إثارة القوات الإقليمية والقوى الشعبية، الملقبة براف بافس، لملاحقة الفيتكونغ، فرفضوا أن يكون لهم أي علاقة بالموضوع. أخبرني مايك ميغينز، مستشار الجيش المحلي، باعتقاده أن القوات الإقليمية والقوات الشعبية لا ترغب في القتال إلى جانب قوات نونغ، باعتبارهم مرتزقة عرقيين. خضعنا لدرس عظيم ذلك الصباح. وقفنا بينما انخرط رجال الجيش الفييتنامي في مناظرة. أخيراً، قرر المرتزقة التظاهر بخوض معركة، معتقدين أنَّ ذلك قد يحث القوات الإقليمية والقوات الشعبية على القتال. ولكن من دون نتيجة. في مرحلة ما، قرّر الفييتناميون الذين تعبوا من الكلام أنهم لن يقاتلوا، وعادوا إلى السفن وجلسوا على متنها. كانت لحظة فظيعة للنظرية الكاملة بفييتنمة الحرب. أعرف أن ميغينز، مستشار الجيش المتفاني والشجاع، شعر بالسوء.

أُجبرنا في النهاية على المغادرة. أردنا أن نودّع قواتنا الإقليمية وكذلك القوى الشعبية التي قررت ألّا تقاتل في قريتها، وأن نتوجّه إلى حاملة السفن. كانت رحلة العودة فوق دونغ كانغ متوترة ولكن هادئة. فكرنا بالتأكيد أن ضيق المجرى قد يستدعي كميناً آخر، ولكن لم يحدث شيء من ذلك. وصلنا إلى خليج هاب الأوسع نطاقًا من دون وقوع حوادث، وأنزلنا قوات «راف بافس» ، التي استحقّت اليوم لقبها، ثم توجّهنا إلى خليج هاب للعودة إلى قاطرات حاملات السفن وخفر السواحل. لاحظت أمرًا غريبًا. عندما كنا نصل عادةً إلى تساي نواك، حتى بعد كمين 28 شباط/فبراير الذي وقع قرب القرية، كنا نجد الرصيف مكتظًّا بالأطفال وبسكّان المدينة. هذا اليوم، خلا من الجميع. كان يجب أن أحلِّل ذلك، ولكن ربما ما كان ممكناً تغيير خياراتنا. كان لا يزال ينبغي لنا عبور النهر، كما كنا نفعل كل يوم، من أجل العودة إلى موقعنا.

في المكان نفسه، حيث تعرضنا لهجوم سابق في خليج هاب، وقع انفجار هائل أسفل قارب سويفت السريع 3. علا القارب بضع أقدام في الهواء، يلفه الطين والرذاذ، ليحُط من ثمَّ في النهر ويبدأ بالانزلاق في مسار متعرج غريب، ينجرف في اتجاه مجرى النهر. في الوقت نفسه، تعرّضنا لنيران أسلحة خفيفة من الضفتين. اتجهنا نحو إحداهما بقصد الهجوم على الكمين، لكن ساندوسكي، الذي كان يركّز في القارب الثالث، قال إنه يبدو في حال سيئة جدًّا. عدنا إلى الوراء نحو القارب الثالث عندما انفجر لغم آخر بجوارنا على يمين جانب مقدّم القارب، حيث كنت أقف. دفعني الانفجار إلى الخلف فاصطدمتُ بحافة إطار الباب الحادة، وتحطمت ذراعي حول المعصم. خلال

مناورتنا، سقط الملازم العسكري جيم راسمان، المستشار الرئيس للنونغ، عن المتن. وقال إنه غطس غريزيًّا نحو أسفل النهر لتفادي مراوح محرّكنا ومراوح قارب دروز الذي كان خلفنا، حيث تخلص من حقيبة ظهره الثقيلة وأسلحته.

ناور ساندوسكي واقترب بنا قدر الإمكان من القارب 3. كان أحد أفراد الطاقم، كين تريبنر، في المدخل ينزف، ويطلق النار من رشاشه إم-79. استطعت أن أرى المدافع الرشاشة المزدوجة من عيار 50، وقد خرجت عن قواعدها. كان لاري ثورلو وأفراد طاقمه يُصارعون ببطولة من أجل السيطرة على القارب المعطّل. بدا وكأنّ كل شخص على متن القارب قد أصيب.

ازدادت الفوضى ثمَّ علت الصيحة: «رجل في الماء!» . كان فريد شورت هو الذي يصيح، من موقعه العالي على حوض المدفع. نظر نحو أعلى النهر، وتمكّن من رؤية جيم راسمان في الماء، ربما كان على بعد مئتي ياردة خلفنا، والنار تُطلق عليه من أقرب ضفة. التففنا فورًا وهرعنا إلى الخلف مجددًا في القارب 94، لتوفير غطاء ناري ومحاولة إنقاذ جيم.

كان رذاذ الماء يظهر قرب المكان الذي رأينا فيه جيم. ظل جيم يغطس لتفادي الرصاص، محاولًا ألّا يتحول هدفًا للفيتكونغ، ويطفو من ثمَّ إلى السطح لأخذ نفس عميق، وينزل تحت الماء مجددًا. انتقل ساندوسكي بمهارة من السرعة القصوى إلى توقف شبه تام، مصارعًا القارب لئلّا يصدم راسمان. لحسن الحظ، كانت شبكات الإنزال مدلاة فوق القوس جرّاء عملية إدخال جنود نونغ. لذا كانت الوسيلة جاهزة لإصعاده على المتن. كان جيم منهكًا من السباحة والغوص، إلى حدٍّ أن الطريقة الوحيدة لإخراجه من الماء كانت الانحناء فوق القوس والتقاطه. ركضت وصلّيتُ ألَّا يكون الذي ننقذه هدفاً لرصاصة. بعد أن صار فوق سطح الماء، ثمَّ انحنيت ومددت يدي لسحبه. كان معصمي يؤلمني بما فيه الكفاية ليستحيل عليَّ رفعه. ولكنْ مع مستوى الأدرينالين المرتفع في جسدينا، تمكنت من جذبه إلى متن القارب، وركضنا نختبئ.

نقل مركب سويف الجرحى من القارب 3 إلى حاملة السفن. ربطنا القارب 3 من كل جانب بالقارب 94، وبزورق آخر للمساعدة على حفظ توازنه، في حين كان أفراد طاقمه يجاهدون كالمسعورين لإبقائه طافيًا. بعد وقتٍ بدا طويلاً اقتربنا من حاملة السفن. صعد «فريق السيطرة على الأضرار» متن السفينة لإسعاف البحارة المنهكين. خلال هذه الحلقة بأكملها، كان جسد باك شي دي، الملفوف بالعباءات، راقدًا على متن قاربنا. انزلق رأسه، أو ما

تبقى منه، لجعل المشهد أكثر رعبًا. أخبرني جيم راسمان أنه حين كان يتسلق حبل الشباك للوصول إلى سطح حاملة السفن، كان دم باك شي دي يقطر عليه من العباءة التي تعلوه. عندما صعد جيم على سطح السفينة قال له مُضيف فيليبيني: «سيدي، اخلع زيك العسكري وسأغسله لك» . شعر جيم أنها كانت أكثر لحظة لائقة في يوم غير لائق.

عولِج جميع الجرحى على متن حاملة السفن أو في زوارق خفر السواحل. صوروا يدي بالأشعة السينية؛ لم تكن مكسورة كما خشينا، لكنها تعرّضت لمزق قوي وجروح عندما اصطدمت بحافة الباب الحادة. ضُمِدت ذراعي وغادرنا. مرَّةً جديدة، كنا محظوظين جميعًا. كان المركب متضرّرًا أكثر من أي فردٍ منا. وبالمثل، كان القارب 3 الأوفر حظّاً. ما كان يمكن أن يكون كارثيًّا تبيَّن أنَّه سيِّىء، لكنَّه لم يكن قاتلًا.

بعد أربعة أيَّام عاد القارب 94 الذي كان يخضع لإصلاحات، وعاد طاقمه، إلى آن توي. كان التاريخ 17 آذار/مارس، يوم القديس باتريك. احتفلنا بصخب على الشاطئ في القاعدة الصغيرة. أبلغني القائد إليوت أنني سأعود إلى بلدي بحكم قاعدة «التعرُّض للإصابة ثلاث مرات، يعني عودتك إلى الديار» . وأسدى إليّ كل من دون وسكيب باركر النصح بأنَّ ذلك منطقي، وهو الأمر الصحيح الذي ينبغي القيام به، بخاصة مذ كَفَلتُ أن طاقمي سيُنقل إلى كي نون، بعيدًا من عمليات «سيلوردز» .

لطالما كانت الحرب تضادًّا بين الواقع والعبثية. كانت فييتنام معقدة بسبب الدوافع التي حملت الأميركيين على القتال. ذهب البعض إلى هناك اعتقادًا منه أنه يقاتل لإنقاذ بلد أو شعب. شكّك آخرون في قدرتنا على جعل دولة أخرى «آمنة» من أجل الديمقراطية. ولكنْ حرب فييتنام كانت مدة خدمة عسكرية للجميع. التحقنا بالجيش، وأقسمنا يمينًا. كان لدينا عمل نقوم به، وقمنا به، مما يعني أنَّ كل الحماقات التي تحيط بنا صدمتنا بشكل واضح. في لحظة ما، يسود الجمال والصمت؛ وفي اللحظة التالية يسيطر الرعب والفوضى. اختلطت الأيام بعضها ببعض. تعلّمنا كيف نضع عواطفنا على حدة، فلا نغيِّر المسار مهما تكن المعلومات والمساهمات.

بحلول آذار/مارس 1969، رأيت المزيد من بؤس الحرب: القتل، ووجوه المدنيين المذعورين، وتدمير المنازل والقرى؛ رأيت أكثر مما توقعت، وما يكفي لحياة كاملة. في عدة مناسبات، كنتُ على وشك أن أفقد حياتي في لحظة عشوائية. وبينما كنت أنفّذ الأوامر، من الانطلاق في دوريات، ودهم المراكب وتفتيشها، والرد على النيران حين التعرض لكمين، وجدت نفسي في رفقة جيدة مع كثيرين شكّكوا في تكتيكاتنا. ماذا كنا ننجز على الأنهار؟ كيف كنا

نفوز على المدنيين الذين قابلناهم؟ ماذا كنا نحقق على الأمد الطويل؟ كيف لنا أن نقيس تأثير عملية نفسية اندفعت فيها عشرة زوارق أميالًا فوق منطقة للفيتكونغ مجهولة لتسليم النشرات والحزم الصغيرة للأطفال؟

ما تعلمته، من خلال المترجمين والمستشارين العسكريين الذين كانوا يعيشون مع الفييتناميين في نقاط المراكز والقرى البعيدة، هو أنَّ الصيادين والفلاحين الفييتناميين العاديين، مع أُسَرهم، لم يكونوا مسيَّسين. لم يدعموا الفيتكونغ أو الحكومة. إنهم يريدون أن يُتركوا وشأنهم فحسب. عندما جُبْنا الأنهار والقنوات، وأغرقنا قواربهم، وأحرقنا منازلهم، ودمّرنا محاصيل أرزّهم، خفت أن نكون قد أقنعناهم عن غير قصد بأن الفيتكونغ كانوا على حق. كنا نخسر القلوب والعقول.

كان من الصعب أن نلائم ما كنا نقوم به في استراتيجية شاملة قابلة للتطبيق في فييتنام. فنظرية الدومينو، أو هل كان هوشي منه شيوعيًّا أو قوميًّا، بدا كل ذلك بعيدًا عن الحس السليم الأساسي وكان يُناقَض يوميًّا. فالتكرار الأعمى لإرسال البعثات، والتي لم تكن بتصميمها لتتمكن من تحقيق الكثير، والتي لم يجرِ تصورها ودعمها دعماً كافياً، كانت رمزًا لالتزامنا الفاشل كليّاً بالحرب التي اقتنعتُ بأنها كانت خاطئة. بدأتُ أرى فييتنام بعينَيِ المراقب الناقد بدلًا من المشارك. سألتُ نفسي كيف كان الأمر ليبدو، لو احتلت أرضك قوات أجنبية، ورضختَ بالقوة لرغبات مقاتلين أتوا من طرف آخر من الكرة، وهم لا يعلمون على الأرجح ما يهمّ بلدك؟ كنت في طريق عودتي إلى الديار مع حقائق يشاركني بها كثيرون، وأرويها، لعل أحداً يسمعها، هذا إن كان لأحدٍ ما أذنان تسمعان.

الفصل الخامس: الحرب داخل البلاد

صعدتُ على متن «طائر الحرية» ، طائرة الرحلات العارضة التابعة لشركة الخطوط الجوية العالمية ورلد آيروايز. وانطلقنا من خليج كامران في 26 آذار/مارس 1969. هبّت عاصفة حذرة من التصفيق داخل الطائرة فور ابتعادنا عن الكثبان الرملية، والمياه الفيروزية اللون، وكذلك عن الحرب كما كنت أظن. وصلتُ في اليوم ذاته، بفضل خط التوقيت الدولي. انتقلتُ بعد هبوط الطائرة إلى مطارٍ مدني، ووصلت إلى تاكوما في ولاية واشنطن، وسافرت بعد ذلك إلى سان فرنسيسكو بهدف لقاء شقيقتي الصغرى ديانا، قبل سفري إلى مدينة نيويورك للقاء جوليا.

بدت سان فرنسيسكو لي الجسر الذي يُعيدني إلى أوقاتٍ أكثر هدوءاً، وإلى أيام التدريبات التي سبقت انضمامي إلى سلاح البحرية، والانغماس في سماع الموسيقى بشكلٍ مبالغٍ فيه، وفي كثرة الضحك، وتناول المأكولات، واللقاءات مع أصدقائي في الليل. لكن مع دخولي المدينة من المطار الدولي فيها، شعرت وكأنني غريبٌ عنها، وعن كل شيءٍ فيها، بما في ذلك حركة السير، والناس الذين يعيشون حياتهم العادية. تساءلت عندها كم يفكّرون في الحرب، حيث يُقتل شبانٌ أميركيون ويقتل آخرون باسمهم؟ كنت من الناحية العاطفية بعيداً كل البعد عن ذلك الشاب البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً الذي اندمج حديثاً بسلاح البحرية، وكان متحمّساً عندما أقلّته سيارة الأجرة في رحلة مشابهةٍ إلى جزيرة الكنز، وذلك قبل فترة تزيد قليلاً على العامين.

أقلّتني الطائرة في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، متوجهاً إلى نيويورك. كنتُ أرتدي الزي الرسمي لكوني في الخدمة الفعلية. كانت يدي لا تزال مضمدةً عند الرسغ نتيجة الإصابة التي تلقيتها في آخر كمينٍ تعرّضت له. كان صف المقاعد كلّه بتصرُّفي في الطائرة. وهكذا تمكّنت من الاستلقاء والتمتع بنومٍ مريح. تعرّضت الطائرة بعد قليل لمطباتٍ هوائية. وهكذا استيقظتُ فجأة وانطلقتُ بالصراخ: «انتبهوا! انبطحوا أرضاً... هيا تحركوا!»

لكنني اكتشفت أنني وسط طائرةٍ نصف ممتلئة بالركاب، وأن لا شيء يدعو إلى القلق. أما الدخان والضباب اللذان ملآ الطائرة، فلم يكونا ناجمين عن الرشاشات أو حرائق الغابات، بل عن سجائر المسافرين غير المكترثين لراحة الركاب الآخرين. شعرتُ بحرجٍ شديد بسبب صراخي المذعور. وانتابني حرجٌ أكبر عندما لاحظت أن عدداً من الركاب الذين كانوا قريبين مني قد بدأوا بالابتعاد عني إلى مقاعد أخرى. لكن أحداً لم يقترب مني مربّتاً ساعدي للاطمئنان عني، أو لعرض مساعدته، كأن يقول: «أيمكنني فعل أي شيء؟» . فهمتُ ما يجري، وأن الركاب كانوا يبتعدون عن الشاب الذي يرتدي الزي العسكري الذي قد يفقد صوابه في أي لحظة ليؤذيَهم. فجأةً، سيطر عليّ شعورٌ بأنني غريبٌ عنهم ومذنبٌ بحقّهم. وشعرتُ للحظة أنني أنتمي إلى الأنهار، أو على الأقل إلى مكانٍ آخر. لم أسمح لنفسي بعد ذلك أن أستغرق بالنوم طوال ما تبقى من الرحلة. استقبلتني جوليا عند بوابة الوصول بأطول عناقٍ تلقيته في حياتي.

حفلتِ الأيام التالية التي قضيتها في الساحل الشرقي للبلاد بلقاءاتٍ مع الأصدقاء والأقارب، كان أوّلها مع بيغي في نيويورك. ثم التقيتُ والديَّ وشقيقي كام في ماساتشوستس. كان التباين بين وجودي في فييتنام ووجودي في الوطن صارخاً جدّاً إلى درجة أن كلمة «تكيّف» لم تكن لتفي وصف ما احتجت إليه حينها. لم يكن الأمر انقطاعاً مجرّداً، بل كان ذلك انقطاعاً محسوساً. أعني الانتقال من خيارات الحياة والموت، والتوتر اليومي، والأدرينالين المتواصل، والتغيّرات العاطفية والمعنوية، التي تترافق مع أسبوعٍ من المشاركة في الدوريات التي يحيط بي خلالها رفاق السلاح الذين يفهمون كل شيءٍ نمرّ به حتى من دون النطق بأية كلمة، إلى حالة يختفي فيها كل ذلك فجأةً ليحلّ محلّه ليس فقط محبة الأسرة وإعجابها، بل حرية اختيار الأماكن التي يريد المرء التوجّه إليها في أي ساعةٍ يريدها. يجري كل ذلك بينما يكون المرء محاطاً بالأشخاص الذين يحبّهم من كل قلبه، والذين يفتقدهم عندما يكون راكباً السفن التي يعمل على متنها. كان ذلك تغيّرًاً يُحتمل أنني حلمتُ به، لكنّني لم أكن جاهزاً لتقبّله. ولم أكن جاهزاً لحدوث ذلك التغيّر بهذه السرعة. وكان يستحيل عليَّ نسيان تلك العلاقات المتينة التي كوّنتُها في الأنهار، حتى أنني لم أرغب في ذلك مطلقاً. كنتُ في موطني، لكن أصدقائي ورفاقي البحّارة لم يكونوا في موطنهم، كما أن معارضتي للحرب كانت قد تبلورت بشكلٍ حازم إلى درجة أنني أردت إيصال حقيقة ما كان يحدث في فييتنام.

أردتُ المساعدة على إنهاء الحرب، وإرجاع أصدقائي إلى ديارهم. لم يكن في نيّتي جعل الأمر يبدو سهلاً. لكنّني اعتقدتُ بأن ذلك يجب أن يكون هدفاً. وهكذا حوّلتُ أفكاري إلى الورق على شكل دراسات قانونية طويلة، ودفاتر ملاحظات ممتلئة بالهوامش، والتي كتبتها بالخط المائل الشبيه بذلك الذي يدرّسُ لتلاميذ المرحلة الابتدائية. كتبتُ ليلاً ونهاراً من دون توقّف، وبحماسةٍ بالغة. كانت تلك الكتابات عبارة عن ذكريات غير منقطعة نابعةٍ من الوجدان عن الوقت الذي قضيته في فييتنام، وكانت تلك الذكريات حينها لا تزال حيةٌ في وجداني. لم يكن ما كتبته في تلك الأشهر القليلة الأولى بعد عودتي إلى الوطن فصيحاً ولا منظّماً. لكن الأحداث كانت «أحدث الذكريات» ، وهو تعبيرٌ تعلّمته فيما بعد في كلية القانون، يمثّل الدليل الدامغ الذي تشكّله الذاكرة.

لم تكن خدمتي العسكرية قد انتهت بعد، ذلك أنهم أسندوا إليّ منصب مساعد الأميرال والتر ف. شلِك، الذي كان آمر النقل البحري العسكري في منطقة الساحل الشرقي. كانت تلك وظيفة مكتبية، أي لم يكن أحد يُطلق النار باتجاهي، أو يتسلّل في البساتين، أو يختبئ في الخنادق منتظراً استهدافي بسلاحه. كنتُ محظوظاً لبقائي، وعودتي سليمَ الأطراف، ومحظوظاً بما فيه الكفاية للرجوع إلى جوليا التي كانت تخشى أن أعود إليها في صندوقٍ خشبي مثل بيرش. لكن، في غضون أسبوعين من مواجهتي لواقعٍ تركته خلفي، واجهتُ الواقع مرةً أخرى عندما فتحت رسالة وجدتها في الشقة التي تقاسمتها مع جوليا في نيويورك. ذُهلتُ عندما قرأت أن واحداً من أقرب أصدقائي، كان يعمل في فرقة خفر السواحل 11، هو دون دروز، قد قُتل. كان دونالد «دينكي» دروز، وهو واحد من الرجال الطيبين قضيت برفقته وقتاً طويلاً، وتقاسمت معه الكثير من الأفكار والآمال، قد قُتل. بدا لي أن القدر قد أصبح بشعاً وقاسياً في الوقت ذاته.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

كان دون إنساناً رائعاً، وهو الذي نشأ في ميسوري في بلدةٍ صغيرة مفعمة بالمشاعر الوطنية العميقة. كانت البلدة مسرحاً لاحتفالات «يوم الذكرى» ، وعيد الرابع من تموز/يوليو. تخرّج دون في الأكاديمية البحرية سنة 1966، أي في الوقت الذي أنهيتُ فيه دراستي في نيوهافن. وسرعان ما أصبحنا صديقين نمضي أوقاتاً جميلة في الريف، حيث تجولنا في عددٍ من الأنهر. وعندما حان الوقت لمغادرتي المنطقة، أعددنا خططاً للتواصل بعد انتهاء الحرب. أحسّ دون بأن عمره سوف يكون قصيراً، وأن نهاية رحلته في هذه الحياة تلوح في الأفق، وهكذا امتلك أسباباً تدفعه للعودة إلى الوطن

بسرعة. تلقّى دون بعد ذلك قبولاً للدراسة في دارتموث. وهكذا احتفلنا بهذا النبأ السار معاً قبل أن أتوجّه إلى فييتنام.

تزوج صديقي دون بجودي قُبيل مغادرته إلى فييتنام. وهكذا وُلدت ابنته ترايسي أثناء خدمته هناك. التقى دون زوجته جودي أثناء إجازته العسكرية في هاواي، وكان ذلك بمثابة هدية غير متوقعة تلقّاها قبل أسابيع قليلة من مقتله. التقى هناك ابنته الصغيرة ترايسي للمرة الأولى. وكان ذلك اللقاء الأجمل له معها. كان دون في ذلك اللقاء يضجّ بخطط حياته المستقبلية مع جودي، وقال إنه يخطّط لإنجاب المزيد من الأطفال، ثم قبّل ترايسي قبل مغادرته هاواي، وقال لها: «كوني طيّبة مع أمّك، وابتسمي بحلاوة» . كانت تلك آخر مرة يراهما فيها.

تحوّل ألمي إلى غضب عندما فتحتُ الرسالة التي بعث بها الملازم أول سكيب باركر، والتي شرح فيها العملية التي أودت بحياة دون. شعرتُ عندها بغضبٍ عميق عندما أحسستُ باحتمال أن أكون مكان دون، وأن يكون هو مكاني. وكانت الرسالة على الشكل الآتي:

عزيزي جون،

شكراً لك على الرسالة التي تسلّمتها في هذا اليوم. أحببتُ أن أكتب لك منذ يوم الثاني عشر من نيسان/إبريل، أي في اليوم الذي قُتل فيه دون، لكنني وجدت الكتابة في غاية الصعوبة، لأن ذهني كان يعاني نوعاً من الخدر يتعلّق بالتفكير في أوضاعي الحالية. وربما كان ذلك استجابة دفاعية وطبيعية لهذا الوضع المخيّب للآمال والمثير للغضب، وهو الأمر الذي يجعلني عاجزاً عن تقديم أي عزاء.

أشعر في الوقت الحاضر أنني مجرَّد كائن يطوف في الأجواء، وأن لا شيء يدفعني قُدُماً غير الأوامر الغريبة التي أتلقّاها من رؤسائي الذين بدأتُ أعتبرهم فاقدي الإنسانية. علمتُ أخيراً، أو لعلني أدركتُ، أنني مُجرَّد حجر شطرنج أو أداة في أيدي من يمسكون بالسلطة، والذين لا يعدو همّهم الأساسي أن يكون استخدام الحرب لتعزيز مراكزهم في الجيش. إننا، مثلنا مثل معظم الرجال هنا، مجرد أدواتٍ إحصائية.

لا أعرف بماذا أخبرك بيل روود عن معركة دوانغ كيو. لكنني أود تزويدك بشهادتي لأنني شاهد عيان، ولأنني أودّ تسجيل الأمر مع شخصٍ مهتم، أي تسجيل ما أعتبره نموذجاً مثالياً عن القيادة التي تفتقر إلى الكفاءة، وهي القيادة التي أجبر رجال هذه الفرقة على تحمُّلها.

وصف باركر كيف تمكّنت سريّتان على متن زوارق سريعة الحركة من رجال البحرية الفييتناميين من الرسو في نهر دوانغ كيو بهدف تمشيط ضفتي النهر لتطهيرهما من رجال الفييتكونغ. كان قارب سكيب هو قارب القيادة التكتيكية المعيّن، وكان على متنه ثلاثة من كبار الضباط، بمن فيهم قائد خفر السواحل يوست، وهو الذي قضى فترة أسبوعين في البلاد. كانت هذه العملية تكريساً له، بوصفه ضابطاً في القيادة التكتيكية. وكان الكابتن هوفمان قد عيّنه لهذه المهمة، بالرغم من افتقاده للخبرة في حرب الأنهار، أو عمليات قوارب سويفت. تمكّنت الدفعة الأولى من زوارق سويفت من دخول النهر، وإيصال البحارة إلى الشاطئ تمهيداً لعملية التمشيط.

كان سكيب مع الدفعة الثانية من قوارب سويفت. وقال إنه قد اقترح مراراً على الضباط الثلاثة في غرفة القيادة أن الوقت قد حان لوضع جنودهم على ضفة النهر، والبدء بعملية التمشيط. وكتب سكيب: «ثابرت على التوصية بضرورة الانتقال إلى ضفة النهر للبدء بالتمشيط، وأعلمتُ الضباط الثلاثة... بالتجارب السيئة السابقة التي مررنا بها في نهر دوانغ كيو. كما أشرتُ إلى وجود عددٍ من الخنادق والمخابئ التي تعترض طريقنا» . تابع الكابتن يوست في هذه الأثناء تمرير القرار إلى الجنود التابعين له. لكنّه دخل في جدالٍ مع الملازم الأول الفييتنامي، الذي قال له: «تابع المسير» . وأضاف قائلاً للكابتن يوست إنه سوف يتحقق إن «كان المكان يبدو خطِراً» .

كانت تلك هي اللحظة التي تحوّلت فيها ضفتا النهر إلى جحيم، حيث انفجرت ألغام كلايمور، كما انفجر صاروخٌ إلى جانب قارب سكيب؛ فأصيب الرامي الأمامي في قاربه بقذيفة آي كاي- 47 في المنطقة السفلى من ظهره، الأمر الذي أثّر في معدته. لكنّه استمر في إطلاق النار طوال فترة الكمين. لم يُسرع يوست إلى إصدار أمر الانسحاب للقوارب القادمة. ولهذا تعرَّضت لمجزرة الكمين، أو منطقة المذبحة كما أسميناها، التي بلغ طولها خمسمئة متر. وقد أصدر سكيب بعد انسحاب المجموعتين أمراً أوصى فيه بوجوب الرسو، وإرسال المزيد من رجال البحرية لتعقّب الأعداء. لم يقل

يوست شيئاَ، بينما قال الملازم الأول الفييتنامي بوجوب التقدّم. رست القوارب أخيراً على بُعد أربعة كيلومترات، للتمكُّن من إخلاء الجرحى.

وردت معلومات في تلك اللحظة أن القارب 43، أي قارب دون، قد أصيب بأضرارٍ فادحة، ما عنى أنه كان معطلاً في موقع الكمين! وأنهم مضطرون إلى العودة. طلب سكيب من يوست المزيد من الجنود لتشكيل طوق حماية حول القارب 43، لكن يوست رفض ذلك، وقال إن الملازم الأول الفييتنامي أراد أن يبقوا جميعاً حيث هم، أي في مكان رسوّ القوارب. أسرع قاربان إثر ذلك، القارب 43، وعلى متنه سكيب، والقارب رقم 5، الذي يقلّ بيل شومادين الضابط المسؤول عنه، والذي كان محمّلاً بالقتلى والجرحى، وكان بالكاد قادراً على استخدام البندقيات الرشاشة التي كانت على متن القارب. فقد عاد إلى حيث يرسو القارب 43 المنكوب.

وصف سكيب بعد ذلك الأحداث التي واجهها، قائلاً:

عندما وصلنا إلى الموقع، رأيتُ أكثر المشاهد إثارة للتقزّز على مدى الأعوام الخمسة والعشرين التي مضت من حياتي. رأينا القارب بي. سي. إف – 43 الذي كان غارزاً بقوة على ضفة النهر اليسرى. لاحظنا كذلك أن تسعة أعشار المركب خارج المياه. كان المركب مائلاً على جهته اليمنى بزاوية مقدارها خمسون درجة، كما أن جميع الناجين، الذين بلغ عددهم 14، كانوا يقفون وسط الوحل والماء تحت جهته اليمنى، في محاولةٍ منهم لصدّ هجوم رجال الفييتكونغ وإبعادهم. وصلنا برفقة رصاص الرشاشات، بينما استعاد الفييتكونغ مواقعهم وراء المتاريس، وفتحوا نيرانهم علينا، لكن من دون أن يؤثّر ذلك بنا كثيراً. كان البي. سي. إف -5 راسياً باتجاه مجرى النهر، وخلف الزورق 43، من أجل توفير غطاءٍ ناري. أما القارب 31، فقد تقدّم نحو ضفة النهر بمحاذاة الزورق 43، وبدأ بسحب الجنود على متنه. أما الرامي الأمامي لقاربي فقد كان في مواجهة مستمرة وحامية مع موقعٍ لمدفعٍ رشاش من عيار30 كان يبعد 20 متراً عن ميمنة زورقي. كانت رمايته ممتازة إلى أن بدأ المدفع الرشاش بتوجيه نيرانه نحو السماء.

كان بيتي آبتون أول رجلٍ انتبهتُ لوجوده، ونحن نتقدَّم بمحاذاة الزورق 43، وكان مبتسماً بالرغم من وجوده وسط الوحول والمياه التي غمرته حتى صدره. بدأ بيتي بسحب الجرحى على متن الزورق، ثم سحبنا جثتَي دون وقائد

فرقة الضفادع البحرية. قُتِل دون على الفور بقذيفة بي - 40 أصابت قمرة القيادة. أما المسؤول عن الدفة، فقد أصيب في معدته بقذيفة بي- 40. وكان الكابتن هوفمان [كذا] فوق سي وولف. وما لبث أن اتصل بنا طالباً إيقاف إطلاق النار لكي تتمكّن المروحيات من التقدُّم والبدء بالرماية. وكان هذا الأمر قد وصلني عن طريق يوست. اعتبرت الأمر مجرد هراء، وقلت له: «لن أوقِف إطلاق النار إلا بعد خروجنا من هنا» . وهذا ما فعلته بالضبط. وهكذا طلب الكابتن هوفمان من المروحيات تصويب نيرانها على منطقة ما خلف المخابئ، مع أننا كنا في منطقة نيرانها. كوفئ هوفمان نتيجة لهذا التوجيه بالنجمة الفضية للشجاعة.

انسحبنا بعد فترة بدت لنا وكأنها أبدية، وتوجّهنا إلى أعلى النهر. التهمت النيران في هذا الوقت الزورق 43، كما خيّمت الظلمة علينا. بقينا طوال الليل نسمع الأصوات الصادرة عن احتراق الوقود والذخائر الموجودة فيه، وكذلك أصوات انفجار مواد سي 4 المتفجِّرة التي وصلت أوزانها إلى 800 باوند. وتمكّنا بعد ذلك من سحب جميع الجرحى بصعوبة بالغة قبل حلول الظلام. وهكذا قضى دون ليلته الأخيرة فوق دفة زورقي. وفي صباح اليوم التالي، تقدمت مروحية لإخلاء قتلانا، وكان ثلاثة منهم أميركيين، وأربعة فييتناميين. وهكذا بدأنا بالتقدّم باتجاه التيار في ما يشبه الموكب الجنائزي مع رجال البحرية. وكان هدفنا الوصول إلى سفينة الإنزال. أما منطقة الكمين فقد رأينا فيها جثتَيْ رجلين من الفييتكونغ، بالرغم من أن وكالة يونايتد برس قد أفادت في وقتٍ لاحق أننا قتلنا 24 رجلاً من الأعداء. تمكّنا من سحب زورقين، ووصلنا إلى سفينة الإنزال عند الساعة 16:00 من مساء اليوم الثالث عشر من الشهر. أصيبت في ذلك الكمين خمسة زوارق بقذائف بي - 40، وأصيب اثنان منها بدفعتين من تلك القذائف الصاروخية، بينما أصاب الدمار الكامل الزورق بي. سي. إف - 43. وقد ظهرت أثار زخّاتٍ كبيرة من الرصاص في كل زورق، وكانت من نوع آي كاي- 47، ومن عيار 30. وظهرت أيضاً آثار الدماء على جميع الزوارق.

* * *

إنني أحمد الله كثيراً على ذلك الوقت الذي قضيته مع دون ومع جودي وترايسي في هاواي، بالرغم من أن ترايسي لم تعلم بتلك الأوقات إلا من أمّها في وقتٍ لاحق. وشاءت الأقدار أن يتزامن وعده لأسرته الجديدة بحياة أفضل مع موته الدامي في أحد أنهار فييتنام، وكان ذلك بمثابة الحِمل الثقيل على كل

من عرف دون. قادت جودي فيما بعد مسيرة في واشنطن للتنديد بالحرب. وكان من اللافت أن تتعرض لانتقاد نساء أخريات ترمّلن نتيجة الحرب. كان من الصعب أن تتحمّل جودي تلك الانتقادات، لأن دون كتب لها مراراً عن النقائص التي شابت عملية سادة البحر، وعن معارضته للحرب بحد ذاتها.

سمحت لي الظروف بعد عشرين عاماً بمنح ترايسي فترة تدريب في مكتبي الخاص بمجلس الشيوخ. وكنت سعيداً لمساعدتها على التعرّف أكثر إلى والدها. شعرتُ بسعادةٍ كبيرة لتمكّني من القيام بذلك. واعتبرت عملي هذا نوعاً من الإخلاص والوفاء لدون. مضت ترايسي في إنتاج فِلمٍ وثائقيٍ رائع بعنوان كن طيباً، وابتسم بلطف، يروي قصة اكتشافها لوالدها. أمّا الآن، فهي منتجة أفلام وثائقية وتحظى باحترامٍ كبير.

أثارت الرسالة التي بعث بها سكيب مزيجاً من مشاعر الغضب والتساؤل عن الغاية من الحرب في نفسي. كان غضبي بداية بسبب طريقة موت دون، فتحوّل إلى غضبٍ سببه موته. عكستُ في كل كتاباتي اعتقادي الراسخ بأن كل رجلٍ خدم على متن الزوارق النهرية في دلتا نهر الميكونغ كان شجاعاً مثل كل رجلٍ قفز من زوارق هيغينز بهدف احتلال خليج أوماها في النورماندي. لكن هذه كانت حرباً مختلفةً عن الحرب العالمية الثانية.

كان موت دون بمثابة شرارة لي. وقد تملّكني الغضب والإحباط من سكيب، والأصدقاء الآخرين الذين لم يتمكنوا من الكلام. أما أنا، فتمكّنت من الكلام.

كانت الأشهر التالية التي قضيتها في البلاد، والتي بدأت مع لحظات نزولي من الطائرة في كامران وملاحظتي طريقة تقسيم العمل، هي التي غرست في ذهني شعوراً بسخافة تورُّطنا في تلك الحرب. تحوّلت انطباعاتي بمرور الوقت إلى قناعاتٍ ثابتة، أي مثل الأسمنت الذي يزداد صلابةً عندما تقوم أشعة الشمس بتجفيفه. كان الرجال الذين عملتُ معهم رائعين. وما زلت أكنّ احتراماً كبيراً للتضحيات التي قدّمها أولئك الرجال إلى بلادنا. كانوا شجعاناً ومبتكرين، وهم أفضل ما جنّدته بلادنا للخدمة العسكرية، لكن الحرب بحد ذاتها لم تكن صائبة. لم يتوفّر عندئذٍ معيارٌ يُبرِّر التضحية بأرواح الشبّان الشجعان.

ثبّت موت دون شعوري بضرورة التحرّك، وبشكلٍ طارىء، بل إنه أجبرني على التحرّك. انتقلت بعد ذلك من مرحلة التفكير في امتلاكي الوقت لتأليف كتاب إلى الشعور بأنني مجبرٌ على التحدّث ونقل قصة الحرب إلى العلن. كان ذلك هو الوقت الذي أدركتُ فيه أن عليّ أن أكون ناشطاً، في

محاولة مني لإنهاء الحرب. شعرتُ كذلك بمسؤولية أساسية لفعل شيءٍ ما، لكن ما هو؟ وكيف؟

كانت شقيقتي بيغي ناشطة عظيمة، وهي التي جسّدت روح ستينات القرن العشرين، ولا تزال تجسّدها حتى الآن. إنها شخصية «حركية» . وأنا في الواقع أستطيع القول إنها أكثر التزاماً بالحركة النسائية على مدى الحياة من أي شخصٍ آخر عرفته. لكنها في خريف العام 1969، قضت معظم أوقاتها في مكاتب بحاجة إلى صيانة لمنظمةٍ شعبية تطالب بوقف الحرب، وكان اسمها لجنة وقف حرب فييتنام، ويقع مركزها في 150 الجادة الخامسة في مدينة نيويورك. عرّفتني بيغي بآدم والنسكي، وهو واحدٌ من مجموعة أشقاء كانوا مع رئيسه روبرت كينيدي، لحظة اغتياله في لوس أنجلوس.

استمرّ والنسكي في الدعوة إلى السلام، كما فعل كينيدي من قبله. وكان من المقرر إقامة يومٍ مفعم بالنشاطات، مثل المسيرات، واجتماعات المناقشة والحراسة. وكان مخطّطاً أن تجري تلك الأنشطة في شهر تشرين الأول/أكتوبر. تضمّنت لوحة الإعلان عن تلك الأنشطة أسماء سياسيين، بمن فيهم جين مكارثي، وعضو مجلس الشيوخ عن نيويورك تشارلز غوديل، والقس الناشط في يال وليام سلون كوفن، الذي أظهرت لي فصاحته ضد الحرب كم تغيّرت لهجة الحرس القديم منذ أن تخرجتُ في تلك الجامعة سنة 1966. كان الناشطون الشبان الذين عاصرتهم، وليس والنسكي فقط، أصحاب التأثير الأكبر، وعلى الأخص سام براون، ودافيد ميكسنر، ومارج سكلينكار، وجون كايج، وهم الذين أظهروا مهاراتٍ قيادية، وأسهموا في تغيير مسار التاريخ. قام أولئك الشبان فعلياً بتنظيم مخيمات الاحتجاج ضد الحرب، وقد أصبحوا جميعاً من أصدقائي المقرّبين في مسيرتي الطويلة التي تابعتها بعد ذلك.

احتاج والنسكي إلى طيار لاصطحابه في أرجاء نيويورك لكي يتمكّن من التحدّث في أكبر مناسباتٍ ممكنة. لكن تلك كانت حركة سلام لا تمتلك إلا موازنة ضئيلة. كان بمقدور الجماعة استئجار طائرةٍ صغيرة، لكنها احتاجت إلى طيار. كانت بيغي تعرف الشخص الذي لديه استعداد التطوّع لهذه المهمة. لم أكن أتوقَّع أن أيام فراغي التي قضيتها في تلقّي دروس طيران في مطار تويد نيو هافن عندما كنت في سنتي الأولى سوف تسفر عن تجربة. أخذتُ يوم إجازة. ولم ألبث أن تمكنتُ من اصطحاب والنسكي بالطائرة فوق نيويورك: من وادي هدسون إلى ألباني، صعوداً إلى بافتاو وسيراكيوز، أي إلى الأماكن التي تقوم فيها مخيمات كبيرة للمعارضين للحرب. طرتُ فوق تجمعات كثيفةٍ

من الأشجار، وهبطنا في مطاراتٍ صغيرة، ثم قدنا السيارات قاصدين كل مناسبة من المناسبات، بينما كان والنسكي، الذي وضع ربطة عنق مثبتة بمشبك بي تي- 109 أعطاه إياه روبرت ف. كينيدي، يسجّل ملاحظاته في دفتر ملاحظاتٍ قانونية كبير الحجم. وكان يُدخل تعديلاتٍ على الخطابات التي كان يوشك أن يلقيها. استمتعت خلال تلك المهرجانات بالاستماع إلى آدم، وهو يتحدث عن الطريق التي سلكها.

كان آدم والنسكي، بالإضافة إلى جيف غرينف، من أهم مساعِدِي روبرت ف. كينيدي. كان آدم واحداً من خرّيجي كلية يال للحقوق، وواحداً من الروّاد الناشطين الشبّان الجدّيين الذين التزموا هدف تغيير البلاد. كان دفاعه القوي والحماسي عن العدالة وإنهاء الحرب في فييتنام قد أكسبه لقب «آدم العنيد» ، وهو اللقب الذي كنت سوف أفخر به في تلك الأوقات المضطربة.

لم أتحدث في أيٍ من تلك المناسبات، حتى أنني لم أحاول، لأنني كنت هناك كي أراقب. وكنت أرتدي ثيابي المدنية مستمتعاً بحقيقة أن أحداً لا يعرفني مع وقوفي إلى جانب الجمهور مراقباً المشهد الذي يجري أمامي. شعرتُ وقتها، وللمرة الأولى منذ أن غادرتُ فييتنام، بإحساسٍ أشترك فيه مع الآخرين. كان شعوري بأنني جزء من حركة كبيرة هو الذي أعادني إلى أيامٍ أكثر براءة عشتها في حرم الجامعة، أي عندما كنت أستمع إلى ألارد لوينشتاين متحدثاً عن الحقوق المدنية، ومتحدياً أن تشغلنا قضية تتجاوز حدود الحرم الجامعي المريح. لكن كان كل شيء مختلفاً بطرائق عديدةٍ أخرى. وهكذا تحوّل آل لوينشتاين، الذي قابلته للمرة الأولى وهو يضع أمامنا تحدّياً للتحرّك داخل حرم جامعة يال، إلى عضوٍ شابٍ في مجلس الشيوخ، منشغلاً بالكفاح من أجل إنهاء حربٍ شاركتُ فيها بنفسي. تحوّلنا في تلك الفترة من الحض على محاولة بلوغ الحدود الجديدة إلى ثورةٍ سياسيةٍ قادها مكارثي وكينيدي. لكن ريتشارد نيكسون كان قد انتخب رئيساً بطريقة ما، وهو الذي بدا أنه قد أعاد قسماً من البلاد على الأقل إلى خمسينات القرن العشرين.

تحوّلت قضية الديمقراطية القاعدية، أي الديمقراطية التي تمنح سلطة لعامة الشعب، إلى أيدي أشخاصٍ، مثل آدم والنسكي الذي لا يزال في الثلاثينات من عمره. لكن الزمان تغيّر، وكانت الموسيقى تعكس الأمزجة والتغيّر الذي يطرأ عليها، كما كانت الحال على الدوام. وهكذا تحوّل فريق بيترو، بول، وماري من أغنية «لو كنت أمتلك مطرقة» [11] الممتلئة بالتفاؤل، والتي ظهرت خلال المسيرات الداعية للحقوق المدنية عندما كنتُ في سنتي الجامعية الثانية، إلى أغنية «مسافرٌ على متن طائرة نفاثة» [12] التي ظهرت في

العام 1969، والتي عكست نوعاً من الحزن، وحملت معنىً مختلفاً كُلّياً إلينا، نحن الذين ركبنا الطائرات مغادرين إلى منطقة جنوب آسيا. جلتُ بنظري على الجماهير المحتشدة، ورأيت وجوهاً شابة، ووجوهاً لأشخاصٍ مسنّين، ورأيتُ الدموع، وسمعتُ هتافات مثل «انتهوا من الحرب» ، و«أعيدوهم إلى البلاد» . كنت أشمُّ بين وقتٍ وآخر رائحة الماريجوانا المميزة التي كانت تطوف فوق ذلك البحر من البشر. لاحظتُ كذلك تلك الحماسة الملموسة التي تسود الأجواء. كما ساد شعورٌ قوي بأن الشبان يستطيعون تغيير العالم، إذا كنا منظّمين. كان من المريح جداً أن نشعر بذلك الزخم من المثالية، بعد أن أطاحت فترتي في فييتنام عدداً من افتراضاتي وآمالي. لكن في اليوم التالي حدث تغيّرٌ شعرت بأنه غريبٌ نوعاً ما، وذلك عندما ارتديت الزي الرسمي وعدتُ إلى العمل.

غير أنني تابعتُ الكتابة، عندما أتتني فكرة تحويل كل الخواطر التي دوّنتها إلى رسالةٍ مفتوحةٍ إلى أميركا. وكان الهدف إظهار الحقيقة التي شهدتها في فييتنام، والأكاذيب التي قيلت للناس في البلاد. عرّفتني بيغي في تلك الفترة ببيتي هاميل، وهو رجل مميز، يكتب عمود مقالاتٍ دائمة في صحيفة النيويورك بوست. التقينا في ليونز هيد، المكان المفضّل لدى بيتي في فيلاج (القرية). قرأ بيتي النصوص التي كتبتها، وأبلغني باعتقاده أنها كتابات مهمة، وأن ذكرياتي الشخصية، والتفاصيل الواردة في يومياتي التي كتبتها عندما كنتُ في البلاد، والمعطيات الواقعية الواردة فيها، قد تكون إضافة مهمَّة إلى النقاشات الجارية. لكنه أخبرني بلطف أن ما من كتاب أو مقالة، ومهما يكونا حماسيين، يمكنهما إحداث التغيير الذي أسعى إليه. أضاف أن عدد الكتّاب الذين يمتلكون فعلاً ذلك النوع من التأثير قليلٌ للغاية. أحببتُ ذلك اللقاء، لأن بيتي كان صريحاً وصلباً. لم يكن الرجل يطيق الحرب، أو حتى السياسيين الذين حاروا في ما يفعلونه مع نيكسون الذي تسلّم دفة قيادة البلاد، وهكذا أبقى خطّته للسلام سريةً بالكامل.

دعاني والدي، عندما كنت في ماساتشوستس، لإلقاء كلمة أمام جمعية روتاري غروتون، التي كان عضواً فيها. أعتقد بأنه فوجئ قليلاً مع باقي الحضور بالنقد الذي وجّهته في كلمتي تلك، ومردّ ذلك أنني ربّما تحدثت بعفوية مستنداً إلى تحليلاتي الخاصة. وهكذا أصبحت على الفور ابن ريتشارد كيري الموظف في السلك الخارجي، والشاب الرزين الذي يبلغ من العمر ستةً وعشرين عاماً، والذي لم تتشكّل آراؤه عن الحرب في حي فوغي بوتوم (القريب من البيت الأبيض)، بل في شبه جزيرة تشا ماو. بدا لي أن من الصائب أن أعبّر عن آرائي، وأن من الضروري أن يسمعها شخص ما.

سبقَ أن عمل شقيقي كام سنة 1968 منظّماً لأنشطة واحد من المرشحين كان منافساً لعضو الكونغرس عن ماساتشوستس فيليب فيلبين، وهو من صقور الحرب، وكان محارباً يبلغ الثامنة والعشرين من عمره، وعضواً قوياً في لجنة القوات المسلحة في الكونغرس. بعث إليّ كام برسالة اقترح فيها أن أقوم بالأمر ذاته سنة 1970. بدت الفكرة صعبة المنال؛ غير أن هذا المسعى قد يكون مهمّاً، لأنه قد يغدو طريقة لسرد ما يحدث في فييتنام. لكن لو سار كل شيءٍ على ما يرام لكنتُ هناك في العام 1971 مع النائب لوينشتاين في الكونغرس، ولعملنا على إنهاء الحرب. وبالمقابل إذا عاكستنا الأمور فسوف أعبّر عن وجهة نظري على الأقل. ما هو الأسوأ الذي يمكنهم أن يفعلوه بي؟ هل يعيدونني إلى فييتنام؟

كانت هناك بطبيعة الحال عقبة أمام ترشّحي إلى الكونغرس، وهي عقبةً مريعة. كنت لا أزال في سلاح البحرية. ولذلك رفعتُ الأمر إلى أميرال شليك، وسألته إن كان مستعداً لدعم طلب تسريحي المبكر من سلاح البحرية، وهو الأمر الذي يسمح لي بالعودة إلى موطني تمهيداً لتقديم ترشيحي. اكتشفت بأنه قدّم إليّ أكبر قدرٍ ممكن من الدعم. كان الأميرال رباناً قديماً ومحنّكاً ورائعاً لغواصةٍ في الحرب العالمية الثانية. لكنه تراجع عن الأنظمة المرعية لتسهيل مسألة تسريحي من البحرية. يعني ذلك أنني كنت محظوظاً برئيسٍ كهذا. سارع الأميرال إلى تقديم أوراق التسريح، لكنّني بقيت مسؤولاً عن بعض الالتزامات تجاه سلاح البحرية، والتي قمتُ بها حتى مع اقتراب موعد تسريحي من الخدمة. بدأت على الفور بالتطلع إلى مغامرةٍ مثيرة في ماساتشوستس.

كان مجرد أن أقرّر تقديم ترشيحي، من دون أن أنشغل ببعض الأنشطة السياسية والتأسيسية التي تعدّ من البديهيات في عالم السياسية، أمراً جنونيّاً إلى حدٍّ ما. لكنّني كنت مقتنعاً بأنني قادر على إثارة قضية الحرب، والأهم من كل ذلك هو أنني ملتزم إثارة قضية الحرب. لكن رغم أن التحاقي بسلاح البحرية قد ترافق مع شعورٍ بالواجب تجاه الوطن، فإنني شعرت في هذا الوقت بغضبٍ شديد نتيجة الخداع ولا أخلاقية الحرب. شعرت أنني قد شهدتُ ما يكفي من التغيير السريع. كانت السنة 1965، عندما التحقتُ بسلاح البحرية وكنتُ ابناً من فترة الحرب العالمية الثانية، ومثل عددٍ كبير من أبناء جيلي. وهناك تعلمتُ قيَماً صعبة تتعلق بالخدمة العسكرية والتضحية. لكن، رغم ذلك، حمل العامان 1968 و1969 أثراً تغييريّاً واسعاً لي؛ فقد غيّراني كما غيّرا أبناء جيلي وكذلك البلاد. ومَن بقوا بمنأى عن تأثير هذين العامين كانوا قلّة قليلة من الناس.

فقدتُ في تلك السنوات عدداً من أصدقائي الطيبين، مثل بيتر وايث جونسون، الذي عرفته أثناء دراستي الثانوية، وهو الذي كان محباً لقراءة الشعر وكتابته، كما امتلك خطاً جميلاً تمكّن بوساطته من تدبيج مقالاتٍ رائعة في سان بول؛ ومثل ستيف كيلسي، وهو ابن أسرة خدمت في الجيش، وكانت تنتمي بجذورها إلى باريس، وكنا نتجوّل معاً على دراجاتٍ نارية في أنحاء وادي لوار في فرنسا، وهناك تعرّفنا إلى أكثر مما نحتاج إلى معرفته عن القلاع الموجودة في المنطقة؛ ومثل ديك بيرشينغ وهو صديقي منذ أيام دراستي الابتدائية والجامعية؛ ومثل جون وايت، وهو شريكي في فِرَق النقاشات، وكنت قد أمضيت معه ساعاتٍ في التخطيط للمناقشات التي جرت ضد جامعتَي برنستون وهارفرد؛ ومثل بوب كروسبي، وهو زميل صفي في التدريب على زوارق سويفت في كورونادو، وزميلي من مواطني ماساتشوستس؛ وكذلك دون دروز. هؤلاء جميعاً كنت أراهم أبطالاً. لكن الأسباب الموجبة للحرب، والتطبيق الخاطئ لاستراتيجية خاطئة، وإخفاق القيادة، سواء السياسية منها أم العسكرية، والزخم العنيد في الاتجاه الخاطئ هو الذي دفع بنا إلى الغرق في مستويات تزداد عمقاً، وكل تلك السياسات أخفقت في مشابهة النموذج الذي قدّموه عن التضحيات التي بذلوها.

أدهشتني على الدوام حقيقة أن روبرت مكنمارا، وهو أحد أبرز مهندسي الحرب، لم يتمكن من الوصول إلى مستويات شجاعة الرجال الذين خاطروا بأرواحهم. كان مكنمارا ذكياً بما فيه الكفاية لكي يفهم بأن الحرب كانت خاطئة. لكنه مثل آخرين ترك ميادين المعارك لكي يعمل في البنك الدولي، وهناك بقي صامتاً بينما تابع آلافٌ آخرون من الشبان المخاطرة بأرواحهم والموت في سبيل وطنهم. إلّا أن ابنه شارك في حركة الاحتجاج على الحرب. لكن لمَ لم يتحدث عندما كان حديثه يحمل إمكانية التأثير؟ ترافق إدراكي لهذا الواقع مع مرارة شديدة تتمثل في تجاوز الرهبة شبه الأسطورية التي تصاحب الترحيب في واشنطن بالرجال «الأفضل والألمع» ، وذلك بهدف وضع الأمة على مسارها الجديد في خطة الآفاق الجديدة. وكان من المفارقات أن يكون بيل بوندي، وهو شريكي في السكن والرجل الذي جلست برفقته وتأثرت به لكونه متفوقاً في جامعة يال، مخطئاً بشأن البلاد والحرب التي أزهقت أرواحاً كثيرة، ووضعتنا في مسارٍ كارثي.

بدأت في الخروج وتقديم نفسي إلى النشاط في دائرتي الانتخابية. أما جوليا فقد اعتبرت الأمر انغماساً إلى أبعد حد يمكن أن يصل إليه المرء والذي يبعده عن الحرية في إيطاليا وصولاً إلى مشقّات الحملات الانتخابية في ماساتشوستس. لم تكن آنذاك قد تزوّجت بعد، لكنها كانت منغمسة في حماستي لإنهاء الحرب. تبنّت جوليا القضية قلباً وقالباً لأنها كانت تعرف كم يهم

الأمر شقيقها الأكبر لاني الذي يخدم مع مشاة البحرية قرب المنطقة المنزوعة السلاح على طول حدود فييتنام الشمالية. صمّمنا على الانتظار وتأجيل زواجنا حتى عودة لاني من فييتنام. كانت جوليا تتقبّل، وبكل المقاييس، أن تتحمل تجربة غريبة عنها بالكامل.

تسلّمت في 1 كانون الثاني/يناير 1970، أوراق تسريحي المشرّف، كما تلقيت إعفاءً من الخدمة الفعلية، وكنت عندها برتبة ملازم في احتياط البحرية الأميركية. وسرعان ما علمت في ذلك الوقت بأن الأب بوب درينان، عميد معهد حقوق بوسطن الجامعي، قد شجّعه عدد كبير من أعضاء الحزب الديمقراطي المعادين للحرب على دخول السباق للفوز بالمقعد نفسه في انتخابات مجلس النواب. اكتشفت فيما بعد أنني دخلت في مواجهةٍ تنظيمية شرسة مع بعض المخضرمين المرعبين في الحياة السياسية في ماساتشوستس. كان جيري غروسمان الذي ساند الأب درينان يُعتبر ناشط النشطاء، وكان ناشطاً على الأخص في المجلس وداعياً إلى عالمٍ يمكننا العيش فيه، وكان قوةً كبيرة في مجال السياسات المتحررة. امتلك الرجل موارد هائلة من الأموال والنفوذ. أما نحن فكنا نمتلك الشباب، وحماسة الحرب، والتجاهل الكامل للسلبيات، وتلك هي الأمور الأساسية المحفّزة على الدوام. كان لدينا نحو ستة أسابيع لتسجيل ترشيح أي رجلٍ من الحزب الديمقراطي من المقاطعة، ويمكنه أن يكون على استعداد لحضور اجتماع ثانوية كونكورد- كارليل المقرر عقده في أول يوم سبت من شهر شباط/ فبراير إذا أراد المشاركة في المؤتمر الانتخابي للحزب المخصّص لتسمية المرشحين. كان علينا نشر الخبر، أي توجيه دعوة مفتوحة إلى كل النشطاء، وهو الأمر الذي يُعتبر مهمةً تنظيمية جبارة. كانت الطاقة فياضة، وكان الأمر مسلياً ومثالياً بشكل خيالي ومدهش.

بدأتُ من فوري أندمج في الجو؛ وباشرت حضور اجتماعات لجنة الحزب الديمقراطي في أي مكان أتمكّن من الوصول إليه. وكنا كلما وجدنا حتى بضعة رجالٍ فقط من الحزب الديمقراطي مجتمعين معاً نحاول إقناعهم بمساعدتنا على إنهاء الحرب في فييتنام. تمكّنا كذلك من تجميع مجموعةٍ صغيرة من الأصدقاء الذين انضموا إلينا بحماسة. أثار الأمر ارتياحاً كبيراً في نفسي وعزّز نشاطي، لاسيما وأنني كنت أواجه رجلاً داعماً للحرب بكل أنواع الشعارات القديمة والفارغة. شعرت أخيراً بأنني أفعل شيئاً لدفع الحرب نحو خواتيمها. أما حججي فقد كانت صريحة. كنت عائداً من فييتنام منذ وقتٍ قريب وتجربة الحرب ما تزال ماثلةً أمامي، وقلت إنني أمتلك حظاً يسمح لي بتحميل فيلبين المسؤولية أفضل من أي مرشحٍ آخر. امتلكتُ ما يكفي من الثقة بالنفس لأتمكّن من الرد على فيلبين عندما يقول، «ادعموا الجنود» بالقول،

«أيها النائب، إننا نحن الجنود» . تساءلتُ إن كان الأب درينان، وهو المعروف بمؤهلاته العالية وفصاحته الدقيقة، سوف يستصعب، بصفته قسيساً، إقناع المتشدّدين في عددٍ من مناطق المقاطعة بأنه يجب أن يكون في الكونغرس. لم يكن هناك من اختلافات بيننا في كثير من القضايا، غير أننا عالجناها بطريقةٍ منسقة مع نشطاء ماساتشوستس الذين كانوا يعملون جميعاً على إنهاء الحرب.

لكن السؤال الذي طرحه العديد من الناس كان: من ذاك الدخيل الذي ظهر فجأة، وراح يعمل على تهديد النظام العام؟ وثمة أشخاص دُهشوا جرّاء ظهور رجل كان في فيتنام، وتعمّد تجاهُل مسائل سياسية عدة من أجل التصدي لمسألة شائكة ومزمنة.

ألقيتُ في 22 شباط/فبراير 1970، أول خطابٍ لي أمام مؤتمرٍ حزبي. كان البرد قارساً في الخارج، لكن القاعة دافئة. وقد امتلأت المقاعد بأكثر النشطاء المتحمسين والمعادين للحرب الذين يُمكن إيجادهم في ماساتشوستس. كان نشاط المواطنين في ذروة زخمه. وكنتُ قد حضّرتُ خطابي جيداً، جلستُ وقتها على أرضية شقتنا المؤقتة مع شقيقي، ودافيد ثورن، وجورج بتلر، وتشيستر «تشيت» أتكينز، وهو الذي سيدخل الكونغرس في وقتٍ لاحق. قرأنا مسوّدة الخطاب بإمعان، ونقّحناه، ثم قرأناه مجدداً، ثم حان الآن دور إلقائه.

ألقى الأب درينان خطابه. لكن عند وصوله إلى آخر تعليقاته توقّف بشكلٍ ملحوظ، وارتشف جرعة كبيرة من الماء من الكوب الموضوع أمامه على المنبر، ثم أنهى خطابه. تقدمتُ من المنصة وشعرتُ بالتوتر. كان الحاضرون يتساءلون عن ذلك الدخيل الشاب الذي سوف يهاجم المركز القوي للقاعدة التحررية في المقاطعة. كان ذلك الاجتماع هو الاجتماع الأول الذي يحضرونه. جلتُ بنظري في أرجاء القاعة التي تعجّ بالنشطاء، ثم تناولتُ كأس الماء الموضوعة أمامي، وشربتُ ثم قلتُ: «أرى أن الأمر لن يكون سيئاً إلى هذه الدرجة. إننا نشرب من الكأس ذاتها» .

انفجرت القاعة بالضحك والتصفيق، وهو الأمر الذي أدّى إلى كسر الجليد الذي كان سائداً فيها. أصغى الحضور إلى خطابي وتمكنتُ من التعبير عن رؤيتي للخيارات التي تواجه البلاد، وكيف أن بإمكاننا أن نفوز في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. وقف الجميع في النهاية سواءً أكانوا إلى جانب درينان أم إلى جانبي. وهكذا بدا لي أن نتائج التصويت سوف تكون متقاربة جداً بيننا، ولن يقوم الرجل المفضّل لدى الناخبين بسحق الرجل الدخيل. لكنني أعتقد

بالرغم من ذلك بأن الآلة الانتخابية المتحررة، والتي حُشدت للتصويت لمصلحة درينان، سوف تشعر بفضولٍ كبير إزاء مرشَّحين مختلفين كثيراً.

انقسم المؤتمر إلى تكتلات فرعية، حيث يصبح من الممكن استجواب المرشحين. جرى بعد ذلك التصويت الأولي الذي كان بمثابة غربلة للمرشحين، تبعه تصويت آخر، انقسمت نتائجه بشكلٍ شبه متساوٍ، لكن مع إظهار تفوقٍ ضئيل لدرينان. كان السؤال المطروح بعد ذلك: «وماذا بعد؟» لكن هل يعني هذا الاجتماع شيئاً؟ وهل يشكّل كل ذلك منصة وثبٍ لترشيح كيري، أم سيؤدي ذلك إلى توحيد الجناح التقدمي المعادي للحرب وتأييد فيلبين؟ غير أن النتائج تعتمد على قراري. كذلك يمكنني أن أجادل بأن هذا المؤتمر الحزبي كان تمثيلاً صغيراً وعشوائياً وعفوياً بالكامل للحزب، لكن الناس تستحق أن تختار. كان بإمكاني نقل قضيتي إلى الناس في الانتخابات التمهيدية، وهو الأمر الذي يعني المخاطرة بإعادة انتخاب أحد صقور الحرب، أو دعمَ بوب درينان بهدف المساعدة على إلحاق الهزيمة بالنائب فيلبين.

انسحبتُ مع فريقي الصغير إلى غرفة، بينما انتظر المشاركون الآخرون في المؤتمر. لم يشعرني القرار بالأسف، لأن درينان نال أصواتاً أكثر من تلك التي نلتها أنا. يُضاف إلى ذلك أنني لم أترشح لكي أدخل الكونغرس فقط، بل قدّمت ترشيحي من أجل إنهاء الحرب، وتغيير السياسة التي ينتهجها الكونغرس والبلاد. لكن، بما أننا ترشحنا جميعاً في الانتخابات التمهيدية، فإن ذلك يعني أن الفوز فيها كان مساوياً لنتائج الانتخابات. وكان من الأفضل لهذه الحركة الناشئة من المواطنين المعادين للحرب أن تخرج موحَّدة بدلاً من تقسيم الأصوات بينها، وهو الأمر الذي يؤدّي إلى فوز فيلبين مجدداً. وكان من المؤكد بطبيعة الحال وجود خيار وضع درينان (وكذلك غروسمان) تحت الأمر الواقع، عن طريق التمسّك بالترشُّح بقوة وإجباره على التفكير إن كنتُ أمتلك الخيار الأفضل في نهاية الأمر. بدا ذلك المسار غير أخلاقي تجاه ما كنا نحاول إنجازه. احتل ذلك صدارة القضية، وبدا الأمر بأكمله وكأنه يتعلق بي وليس بالحرب. لكن القضية احتاجت إلى الحزم واستدعت قوة الاتحاد، وذلك للإيحاء بأن مسعى المواطنين هذا قد نجح، وأن هذه الطاقة الصادرة عن القاعدة الشعبية تفرض الاعتراف بها. كان ذلك سبباً دعاني إلى الانسحاب، وتقديم دعمي إلى بوب درينان. وهكذا تمكّنت مجموعة القواعد الشعبية من تحقيق الاتحاد، وتبرير مفهوم مؤتمر المواطنين الحزبي. تمكّن الجميع إثر ذلك من مغادرة ثانوية كونكورد - كارليل بإحساسٍ صادقٍ من حماسة للعمل في سبيل الحملة القادمة.

أصبحتُ جزءاَ من قيادة الحملة، وأسهمت في السباق الذي أسفر عن فوز أول كاهن كاثوليكي يُنتخب لعضوية الكونغرس على الإطلاق. أما الأهم من ذلك كله فهو أن بعض أفضل أصدقائي الذين توطدت علاقتي بهم خلال حياتي السياسية قد تعرفت إليهم أثناء تلك الحملة التي صاغت قواعد الحياة السياسية في ماساتشوستس لسنواتٍ عديدة قادمة. أما بوب درينان، فقد أصبح صوتاً قوياً في الكونغرس، وكان من ضمن اللجنة القضائية في المجلس، وساعد على صياغة بيان عزل الرئيس نيكسون من منصبه. تمكّنا كذلك من أن نصبح صديقين، كما أنني أعود دائماً بذاكرتي إلى تلك الانتخابات وأعتبرها انتصاراً للتطلعات الوطنية على الطموحات الشخصية.

واجهت قبل ذلك تحدياً عملياً، لأنني سعيتُ للحصول على تسريحٍ مبكرٍ من سلاح البحرية بهدف تقديم ترشيحي. لكن لم تكد تمضي ستة أسابيع على التسريح حتى تراجعت عن ترشيحي لمصلحة شخصٍ آخر. تساءلت عند ذلك عمّا يمكنني فعله، لكنني كنت بيئياً متحمساً. لم تفارقني قطٌّ ذكريات نزهاتي في الطبيعة التي قمت بها طفلاً مع والدتي، وتذكرتُ نصحها الصادق، والرزين نوعاً ما، لي للوقوف بين الأشجار بصمت، وإغماض عينيّ والاكتفاء بالإصغاء. كانت والدتي قادرة على تمييز أنواع الطيور من أصواتها.

تمكّنت راكيل كارسون في وقتٍ لاحق من توعيتنا جميعاً، وذلك عندما نشرت كتابها الربيع الصامت. كان عددٌ كبير من أصدقائي منشغلين في ذلك الوقت بتنظيم يوم الأرض لأوّل مرّة في ماساتشوستس. ولذلك قررت الاشتراك في بعض النشاطات معهم محاولاً بذلك الاستفادة من الخبرة التي حصلتُ عليها من الموتمر الانتخابي للحزب. تضمنت نشاطاتي إلقاء كلماتٍ في يوم الأرض في ماساتشوستس. عاودني في ذلك الوقت الشعور بالانتماء، وبوجود احتمالاتٍ كثيرة للمستقبل، وكان من بينها أن يتمكّن عشرون مليون أميركي من هزّ البلاد في يوم 22 من نيسان/إبريل، 1970، أثناء الاحتفال بيوم الأرض. كان مجرد الخروج، وإلقاء كلمةٍ قوية، تعبيراً عن قلقٍ شخصي تجاه البيئة أحسّت به مجموعة من الناس الذين تمكّنوا من تأسيس حركة سياسية، وتمكّنوا من تحويل البيئة إلى قضية انتخابية. أجبرت هذه الحركة الشعبية نيكسون على ملاحظة هذه القوة الناخبة الجديدة والقوية. وصل به الأمر إلى حد التوقيع على قانون وكالة حماية البيئة. كان مسموحاً قبل ذلك التصويت على قوانين ضد البيئة. يعني ذلك أن ما سُمح به في الماضي قد أصبح محظوراً الآن. كان ذلك تغييراً كبيراً، ودرساً لي لا يُنسى، حول ما يمكن أن يحدث عندما تتحول القضايا المهمّة إلى قضايا انتخابية. يستتبع ذلك أن المحاسبة قد تنجح، لكن يتعيّن على المواطنين أن يعملوا في سبيل إنجاحها. إلّا أن الذين يقرّرون التحرك يتمكنون وحدهم من محاسبة المسؤولين.

قررت أنا وجوليا في 23 أيار/مايو 1970، أن نتزوج. أقمنا حفل الزفاف في منزل ذويها الكائن في لونغ آيلند، والذي يطل على الخليج الجنوبي الكبير. كان الحفل تقليدياً وحديثاً في الوقت ذاته. اختارت جوليا فستاناً توارثته الأسرة من جيلٍ إلى جيل على مدى مئتي سنة. لكن، في التفاتة منا إلى التقاليد الحديثة عمدنا إلى اختيار الشهود من أقرب أصدقائنا وأقاربنا، وليس من المدعوين التقليديين. رماني زملائي في الجامعة بعد انتهاء الحفل إلى رميي في المسبح قبل أن تقلع بنا المروحية لنشهد ليلة زفافنا في المدينة. لكن، عند وصولنا إلى شقّتنا، اكتشفتُ أن والد زوجتي قد أرسل إلينا بعض الضيوف غير المتوقعين، كان الضيوف مجموعة من أسماك كبيرة بنية اللون وجدناها تسبح في حوض حمّامنا. لم تبدُ جوليا مسرورةً بفكرة والدها ولا بمزحته العملية. انطلقنا في اليوم التالي إلى جامايكا في رحلة شهر العسل، يصحبنا دافيد ثورن وزوجته روز، وكذلك صديقي جورج بتلر وزوجته. كانت تلك الأوقات أوقاتاً بريئة ورائعة.

بدا الأمر وكأنني قصّرت كثيراً في سباقي الطويل للوصول إلى مجلس النواب. لكنني انشغلت في تلك الفترة بأمور تتعلق بالسياسات اليومية. طال شعري آنذاك قليلاً بعد ابتعادي عن الخدمة الفعلية والزي الرسمي، وتغيّر جيلٌ بأكمله كذلك. تحوّلنا أنا ودافيد ثورن من طلابٍ ذوي شعرٍ قصير في جامعة يال إلى متأثرين بفرقة البيتلز. لكن بعد تسريحنا من الخدمة العسكرية بدا شعر كل منا أشعثَ قليلاً، ولنا بمظهر شبان في السادسة والعشرين من أعمارنا. شعرنا بأننا قد تغيّرنا كثيراً بعد أن عشنا ما يزيد قليلاً على ربع قرن. لكننا لم نكن وحيدين في ذلك، فمنذ أن التقينا أنا ودافيد في أولى سنواتنا الجامعية تحوّل بوب ديلان إلى موسيقى الآلات الموسيقية الكهربائية. أما بيتش بويز والبيتلز فقد انتقلا إلى الموسيقى الكهربائية بأسلوبٍ خاصٍ بهما. وهكذا انتقل البيتلز سريعاً من أغنية «أرغب في الإمساك بيدك» ، إلى «ثورة» . لكن مسيرة هذين الفريقين كانت مرتبطة بالماريجوانا، والكحول، والتأثيرات الشرقية. أما نحن، فقد غيّرتنا الحرب وإحباطاتٍ لا حصر لها، وقد حدث كل ذلك بتضافر عوامل عديدة في العام 1970.

تعيّن عليّ، وسط الفوضى وضجيج الحياة في تلك الفترة، التحضير لمعركتي القادمة. كان كل شيء يعيدني إلى الحرب وأجوائها، حتى بعد مرور أشهرٍ قليلة على تسريحي من سلاح البحرية؛ وذلك بفضل الأنباء التي كانت تردني من أصدقائي الذين بقوا في فييتنام، أو الذين عادوا منها. أما الجهود التي بذلناها لإقناع الناس في الفترة التي سبقت المؤتمر الانتخابي، فقد عزّزت قوة شهادتنا الشخصية بشأن فييتنام. ولا يعرف معظم الأميركيين

حقيقة هذا الوضع، لكنهم سمعوا عن تحوّل والتر كرونكيت ضد الحرب؛ ومع ذلك لم يسمعوا أي شيء من المحاربين أنفسهم.

اعتُبرت المعارضة المبكرة للحرب معارضة هامشيةً في البداية. وهكذا بدت المظاهرات الأولى غير منسّقة، بينما كانت الحرب ذاتها بعيدةً جداً. لكن، مع قرار خليج تونكين، الذي أدّى في النهاية إلى استدعاء ليندون جونسون خمسة آلاف جندي إلى الخدمة العسكرية وإرسالهم إلى فييتنام، بدأ نطاق الاحتجاجات بالتوسّع والتعمّق والتزايد. وشهد العام 1967، المسيرة الأولى نحو البنتاغون التي أدّت إلى إحداث هزّة في البلاد. تكرّرت كذلك حوادث إحراق بطاقات التجنيد الإلزامي. تزايد وعي أميركا في تلك الفترة نتيجة الدماء التي أُهرقت على درج البنتاغون، وتزايدت كذلك قيمة الصدمات الناتجة من الاحتجاجات المبتكرة والمتطرفة التي أدّت إلى استقطاب البلاد إليها، كما أن الحرب قد أدّت إلى تمزيق الأُسَر. أما القرارات الحياتية المتعلقة بالزواج، وربما الدخول إلى السجون، ومغادرة البلاد، فقد وصلت أخبارها إلى قلب البلاد. يعني ذلك أن الحرب قد أدّت إلى تمزيق التزامٍ تقليدي بالمسؤولية استمر من جيلٍ إلى جيل. بدأ ذلك بتغيير الأمة، بينما اعتبرَ آخرون أن الأمة لم تعد كما كانت. كان كل شيءٍ في البلاد، بدءاً باللغة، والموسيقى، والثياب، والناس من جميع مستويات المجتمع، أي ثقافة أميركا بأكملها، في دوامةٍ من الفوضى والاندفاع إلى حالة من الثوران العنيف برغبة ذاتية في بعض الأحيان، وأحياناً من دونها.

يمكنني التحدث عن تلك الثورة لأنني عايشتها. كان قراري بالانضمام إلى سلاح البحرية بعد وقتٍ قصيرٍ من استدعاء الرئيس جونسون المزيد من الجنود قد بدأ بالتغيّر في ذلك الوقت، وكأنه حدث في عالم آخرٍ وزمنٍ آخر. لكن، مع حلول العام 1970، أصبح التغيّر كاسحاً وشاملاً ومتجدّداً، ومتدحرجاً، من دون أن يكون أسير حالة واحدة.

انتشر في ذلك الوقت اعتقاد يقيني يوحي بأننا متجهون نحو شيءٍ تحويلي. اعتقدنا أيضاً أننا نقوم بصياغة عالمٍ جديد، وأننا نفكّر بشكلٍ أشمل ممّا كان الأمر عليه خلال عهد إدارة كينيدي. لكننا أمام كينيدي مختلف، أي بوبي (روبرت)، الذي بدا أن تحدّيه لليندون جونسون كان ثورياً بالكامل، وحتى لو ظل هذا التحدّي أسير كتابه الذي حمل عنواناً جريئاً: السعي نحو عالم أكثر حداثة. كان ذلك تعبيراً مناسباً عن مهمتنا الجديدة.

كانت لدي رغبة ملحّة في الانضمام إلى استعراض الأنشطة هذه. لكن بسبب موقفي الواضح المعادي للحرب، والذي أعلنته خلال المؤتمر الانتخابي، طُلب مني التحدّث في مناسبات متعددةٍ، وعلى الأخص تلك التي تتعلق

بالمحاربين. لاحظت في ذلك الوقت إعلاناً في مجلة لايف عن مقاتلي فييتنام المعادين للحرب. تضمّن الإعلان صورة بندقية مع حربةٍ مثبتة فوقها. كانت البندقية مغروزة في الأرض مع خوذة معلقة فوقها. بدا ذلك رمزاً موحياً بقوة، وقد دلّ على أن عدداً كبيراً قد رأوا في هذه الصورة ما رأيت، وشعروا بما شعرت. وأرجّح أن بيغي هي التي اقترحت عليّ التردد على النشاطات التي يقوم بها قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام يوم عيد العمال، والاشتراك معهم في المسيرة التي سوف يقومون بها إلى وادي فورجٍ، ببنسلفانيا، ذلك الوادي الذي أمضى فيه جورج واشنطن وجنوده شتاءً شهيراً بعد سلسلة من النكسات التي تعرّض لها.

تفحّصتُ المنشورات التي وزّعت لهذه المناسبة، وفكّرت على الفور بالرابط القوي الذي يجمع ما بين الجنود الذين حاربوا في فييتنام والذين يشارك بعضهم في مسيرة العام 1970، والوطنيين الثوريين الديمقراطيين الأوائل الذين كان صمودهم ضرورياً لبقاء التجربة الديمقراطية في أوائل عهدها في البلاد. فوجدت أن ما يربط بين الرجال الذين صمدوا ما بين العامين 1777 و1778، وأولئك الذين صمدوا في العام 1970، من قاتل منهم، ومَن لا يزال يقاتل، أنهم كانوا جميعاً من العسكريين، وأنهم حاولوا ويحاولون وضع بلدهم في مسارها الصحيح.

طلبتُ إلقاء خطابٍ في تلك المناسبة، لكنني لم أكن متحمساً على وجه الخصوص للانضمام إلى الأجزاء الأخرى من الأنشطة، والتي تضمنّت مسيرة تمتد ستة وثمانين ميلاً، وتستمر طوال يوم عطلة نهاية الأسبوع. وتضمّن برنامج عملية الانسحاب الأميركي السريع [من فييتنام] RAW، كما أُطلق عليها، والتي تصوّر حرب العصابات، مسرحاً كان يهدف إلى تصوير قسوة الحرب. اعتقدتُ وقتها بأن ذلك سوف يخيف الناس. عادت بي أفكاري إلى رد فعل ركاب الرحلة التي كنتُ على متنها في طريق عودتي إلى نيويورك. جعلني ذلك أفكّر في الحاجة إلى معرفة الذين سوف يحضرون العرض، وضرورة تعريفهم بنا، وليس تعريفهم بالطبيعة التي قد يخافون أن نكون عليها. وأدركتُ في الوقت ذاته، وحتى في تلك المناسبة، أنَّ عليَّ، إذا كنت أريد أن يكون لي أي تأثير في ما تقوم به هذه المجموعة، أن أكون راغباً في الانضمام إليها، والإسهام في تنظيم نشاطاتها. كانت ثقافة قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام VVAW، ثقافةً عسكرية بطرقٍ عديدة، وذلك يستدعي مني أن أثبت مكانتي بين أولئك الرجال القابعين في الخطوط الأمامية للحركة المناهضة للحرب، وأن أفعل ذلك بالطريقة ذاتها

التي قمت بها عند انضمامي إلى رفاقي العاملين على زوارق سويفت، والذين حاربوا قبل انضمامي إليهم. شعرت بأن أولئك المقاتلين قد أحسّوا بإهانة السياسيين الذين أرسلوهم لخوض تلك الحرب. كان بعضهم في حالة مزرية جسدياً أو عاطفياً. أراد بعضهم، وبحرقة شديدة، أن يروي ما حدث معه أمام الناس. ويمكن لهذه القصص أن يرافقها انهمار الدموع والكثير من صرخات الألم، كما يمكن أن يسمعها الناس بلغة فصيحة تدهش مَن يستمع إليها. فقد افتقد العديد منهم الترحيب الحار الذي كانوا يمنّون أنفسهم به. كما أن بعض أولئك افتقدوا عطف أُسَرهم ومساندتها، وخطيبات لم يكنّ يشعرن أو يعرفن ما مرّ معنا، لكنهن كنّ يعانقننا بأذرع مفتوحة، وخصوصاً أنا. كانت الاحتجاجات لكثير من المقاتلين بمثابة العلاج والعزاء.

عادت إليّ بعض المرارة أثناء استغراقي بتأملاتي هذه، لكنّني كنت محظوظاً بالانغماس من فوري في الجهود المبذولة لمساعدة المقاتلين الآخرين. أعتقد أن رؤية رجال آخرين في حالة مزرية جدّاً قد ساعدتني كثيراً. يُحتمل أنني تأقلمتُ مثلهم، مستعيناً بثقافة الكبرياء وبالأسرة التي علّمتني الحفاظ على بعض هذه الكبرياء. لكن تعيّن عليّ رواية قصّتي. لذلك تكلمت في وادي فورج، وعبّرتُ عن الغضب الذي شعرتُ به بسبب قلة الكفاءة، وقصر النظر العنيد [من جانب القيادات] الذي شهدتُه في الحرب. عبّرت كذلك عن الغضب الذي يشعر به كل المقاتلين إزاء الحرب، التي قال السياسيون إن معارضتها عملٌ يخلو من الوطنية، في حين أن رجالاً أفضل منهم قد أمضوا شتاءً بأكمله في وادي فورج من أجل أن يكسب جميع الأميركيين ذلك الحق بالذات.

استحق الأميركيون الحصول على حق التعبير عن الرأي، وإعادة بلدنا إلى مسارها الصحيح. كان ذلك أمراً مثيراً للارتياح، لأن وادي فورج قد عزّز عندي كم هو مهم إيصال أصواتنا إلى الآخرين. لم أتمكّن في ذلك الوقت من التحدث عن دون دروز، أو بيرش، أو أصدقائي الآخرين الذين صاروا في قبورهم، ورحلوا باكراً جداً في سبيل حربٍ تبيّن أنها خاطئة. لم أتمكّن كذلك من الإفصاح عن أسمائهم، لأنهم رحلوا من وقتٍ قريب جداً. لكنني أحسستُ أن من المفيد القول لكل مَن كان يسمعني إن إرسال الآلاف والآلاف من الرجال ليموتوا بسبب حربٍ خاطئة، هو عمل غير أخلاقي.

بدأتُ بالانغماس شيئاً فشيئاً في حياة النشطاء الدائمين. تزايدت في هذا الوقت الدعوات الموجّهة إليّ لإلقاء كلماتٍ في التجمّعات المحلّية.

أحسستُ بالآتي: كلما تكلمتُ أكثر عن الحرب في تلك التجمعات، اشتدّت قوة تأثيري في تنسيق مزيج الغضب والوقائع، وهو الأمر الذي يُنتج حجةً دامغة. لكن تعيّن عليّ المضيّ في ذلك بحذر. كانت هناك الحرب ذاتها، التي كنا نمتلك إجماعاً بشأنها. وكانت هناك قضايا أخرى، مثل انعدام العدالة، والتمييز في الرُتب الذي يستهدف الأميركيين من أصلٍ أفريقي، والأميركيين من أصلٍ إسباني، ناهيك بالتمييز بينهم في التجنيد؛ وهي كلها قضايا تداخلت مع الحرب التي افتقدت الإجماع بشأنها. شعرنا جميعاً بنوع من الغربة عن حكومتنا. كان ذلك في نظري أمراً مثيراً للسخرية: لأنني قبل ثماني سنوات أبحرتُ مع رئيس الولايات المتحدة، وها أنا الآن أكرّس وقتي للاحتجاج على السياسة التي عزّزها الشخص الذي كان نائبه، وهي السياسة التي توسّعت أكثر فأكثر على يد الرئيس الجديد، والرجل الذي هزمه سنة 1960.

عانينا نحن المحاربين، التجاهل، عن طريق الوعود الكاذبة للسياسيين الذين تحدّثوا عن مساندة الجنود؛ لكنهم نسونا لدى عودتنا إلى البلاد. وأنا شخصياً سمعتُ قصصاً عن قدامى المحاربين في مستشفيات نيويورك، وفي أمكنةٍ أخرى، حيث كانت العناية الطبية مهينة لهم، مثل أوضاع غير نظيفة، وحالات انتحار، وما يشبه استعراض الرعب. لكنني كنتُ محظوظاً. كنت أقول لنفسي على الدوام: إنني نجوت بفضل نعمة ربّي. لكن كان هناك شبانٌ من ضمن قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام مقيّدين بمقاعدهم المدولبة، جرّاء ظهورهم التي أصيبت بالرصاص وأقعدتهم عن الحركة. وثمة مَن فقدوا أعينهم وأطرافهم؛ ومَن يبدون في أوضاعهم البائسة مع شرود ظاهر على وجوههم، بالإضافة إلى جروحهم التي لم تكن مرئيةً بالكامل. لاحظت أن المعاناة قد تتعدّى الشخص ذاته، فإن لم يكن هو نفسه فقد يكون أحد أصدقائه. ومع هذه المعاناة لن يتمكّن من التكيّف مع العيش في الوطن. كان هناك الكثير من حالات المعالجة الذاتية. وقد شعر عددٌ قليلٌ منا بأن الحكومة تقف إلى جانبنا، في ظل هذه الأوضاع التي أخرجتنا من الحرب وأعادتنا إلى الحياة المدنية. وهكذا عجز عددٌ كبير من رفاقي عن التواصل مع جيل آبائهم الذين انضمّوا تحت لواء قدامى محاربي الحروب الخارجية، أو الفيلق الأميركي. دعانا هذا الوضع، ومن دون أي تردّد، إلى اتخاذ القرار؛ بل، ومن دون أي جدال، إلى إنشاء قوة محاربة جديدة مصمّمة على خوض المعركة من أجل قدامى المحاربين من جيلنا، ومن أجل تحقيق برنامجنا الخاص بنا، وليس فقط من أجل الدعوة إلى إنهاء الحرب.

تمكّنا من الاتصال بمعالجٍ بارزٍ ومبتكر، هو الدكتور روبرت ليفتون، الذي يعمل في جامعة يال. وهكذا تمكنا معاً من مساعدة قدامى المحاربين على إنشاء مجموعات المساعدة الخاصة بهم، وابتكرنا «جلسات نقاش» ، يتمكن

قدامى المحاربين فيها من تبادل قصص معاناتهم وآلامهم مع رفاقهم. كانت تلك الجلسات جزءاً من عملية الشفاء، كما كانت جزءاً من العملية التي ربما عجزت الأجيال السابقة «المكابِرة» عن التعايش معها. لكن تلك الجلسات أسهمت في إنقاذ الأرواح. بدأنا على الفور بجمع الأموال لمصلحة هذا النوع من العلاج. وصل الأمر بنا كذلك إلى حد جمع الأموال دعماً لإنشاء مزرعة الشفاء التي يستفيد منها المحاربون الذين كانوا يعانون بالفعل، وبشكلٍ مرعب، من كوابيس المعارك. لكن مرّت عليّ أوقات لم أكن متأكداً فيها من النهج الصحيح الذي يتوجب علينا اتّباعه، إلّا أنني فهمت أخيراً أن لكل واحدٍ منّا طريقته في الشفاء. وهكذا تطلّبت عملية شفائي النشاط والحركة. أما ما كان ضرورياً لي، وكان كذلك على الدوام، فهو الاستيقاظ المبكر في الصباح والمضي قُدُماً. لكن الأشخاص المختلفين يحصلون على حوافزهم بطرقٍ مختلفة. وللإنصاف يمكننا القول إن مختلف القطاعات العسكرية تشهد حروباً مختلفة. وأكثر ما كان يدهشني هو الآتي: بالرغم من اختلاف الوحدات العسكرية المتعددة التي انتمى إليها المحاربون، والذين حاربوا في أجزاء مختلفة من فييتنام، ونفّذوا مهماتٍ مختلفة، وبالرغم من اختلاف مواقعهم، فإن نظرتهم إلى الحرب كانت واحدة.

لكن، بغضّ النظر عن كيفية رؤية المرء للحرب، فقد اعتبرتُ أن من الضروري أن يهتم أحدنا بالآخرين، لأن الحكومة لم تتمكّن من الإيفاء بما التزمته تجاهنا من وعود. يعني ذلك أننا كنا نخسر المحاربين في موطنهم، ولكن بطرقٍ متعددة، عن طريق تعاطي الكحول أو المخدرات، أو بالاكتئاب، أو بالاضطرابات التنفّسية التي تعقب الإصابة، أو البطالة، أو بالإعانات المعيشية غير الكافية، أو بتجاهلهم تجاهلاً تامّاً في جميع أنحاء البلاد، هذا إذا لم يترافق ذلك مع استخدام العنف في بعض الأحيان. كان ذلك يعني في النهاية أننا خسرنا من المحاربين العائدين، بسبب تلك اللعنات، عدداً أكبر من أولئك المذكورة أسماؤهم على حائط المفقودين في فييتنام. لم يسارع قادتنا إلى حلّ تلك القضايا، بل تلاعبوا بتلك الوحدات، ومارسوا معها أكثر الوسائل السياسية خساسة. وها نحن نجد أمامنا اليوم نائب الرئيس سبيرو أغنيو الذي يتحفنا بتصريحات يحاول فيها تحديد من هو الأميركي ومن هو ليس كذلك. كذلك أصبحت تصريحات الإدارة أكثر إثارة للرعب، وأكثر إثارة للانقسام. لكننا نعرف حقيقة أن هناك طرقاً عديدة ليكون المرء وطنياً، ومن أبرزها قول الصدق. لكن أغنيو في نهاية الأمر لم يقل الصدق، ولا التزم تصريحاته التي أطلقها. لذلك قدّم استقالته باعتباره مخادعاً معروفاً بعد أن خان وظيفته وأمّته، وفعل ما فعله مع قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام، أفراد تلك الجماعة التي تتألف من الذين كرهوا الحرب، لكنهم احتفظوا بحبّهم لبلادهم.

دُعيتُ ذات يوم لحضور تجمّع كبير يعقده قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام، وعملية جندي الشتاء، وهو التجمّع الذي كان من المقرر أن يُعقد في شهر كانون الثاني/يناير من العام 1971 في ديترويت ميتشغان. قيل لي إن الغرب الأوسط قد اختير لعقد ذلك التجمّع في محاولة للوصول إلى الناس - الناخبين - في وسط البلاد، وربّما كان الهدف إتاحة الفرصة أمام قدامى المحاربين لتقديم «شهادتهم» حول الحرب التي خاضوها، والتوجّه إلى الذين قد يتقبّلون رسالتهم. توجّهت إلى هناك بصفتي مراقباً. لكن طُلب من الذين يريدون حضور ذلك الاجتماع إحضار أوراق تسريحهم DD-214، لتكون برهاناً على خدمتهم العسكرية. إن ما سمعتُه ورأيته في ديترويت كان مثيراً للقلق، ومرتجلاً، وإنسانياً. رأيت رجالاً كباراً ينهارون من الأسى، وهم يصفون الأشياء المريعة والمرعبة التي رأوها وفعلوها، والأعمال التي قالوا إنها جرّدتهم من شبابهم وبراءتهم. كان الاستماع إلى هذه القصص مؤلماً جداً. لم تكن تلك القصص تشبه ما واجهناه على زوارق البحرية السريعة، بالرغم من أننا نلنا معها نصيبنا من الأسى والذكريات المرعبة.

أذكر على سبيل المثال نيران الرشاشات المصوّبة على الفييتناميين الذي قدِموا بمراكبهم الشراعية للصيد، لكنهم لم يمتثلوا لأوامرنا بالتوقف، لنكتشف لاحقاً أن امرأة أو طفلاً قد ذهبا ضحية تبادل النيران. أذكر كذلك المناطق المحظورة على المدنيين، والمضايقات، والتخريب، وحرق الأكواخ المسقوفة بالقش، وتدمير القرى الواقعة تحت سيطرة الفييتكونغ، رغم معرفتنا أن الفييتكونغ سوف يعيدون بناءها ويجلبون إليها سكاناً يضمرون غضباً أكبر. تلك هي الحرب التي كرهها كثيرون منا، تلك هي الحرب التي رافقتني عند عودتي إلى الوطن، وتلك هي الحرب التي كان بإمكاني التحدث عنها. لكن أولئك الرجال في ديترويت كانوا يتحدثون عن شيء آخر، وحتى أكثر إثارة للهلع، من مثل إلقاء أحد السجناء من طائرة، وذلك على أمل أن يدفع هذا بزملائه إلى الاعتراف، وعن عقدٍ من آذان رجال الفييتكونغ المقطوعة، يوضع زينةً حول رقبة الأسير. أعرف أن الكثير قد كُتب عن مجزرة ماي لاي، وعن برنامج فونيكس، وعن أماكن أخرى اتّبعت الحرب فيها مساراتٍ خاطئة. لم تكن تلك أمثلة على ما واجهه المحاربون على وجه العموم، لكنها كذلك لم تكن نادرةً. إننا نعرف جميعاً تلك الأشياء المريعة التي حدثت. وأنا أشعر بأسى كبير تجاه أولئك المحاربين الشبان الذين أصيبوا في الحرب، وكان عدد كبير منهم قد سافروا خارج البلاد للمرة الأولى إلى بلدٍ لا يعرفون عنه شيئاً لكي يقتلوا عدواً لا يعرفونه، ولأجل قضية بدت مشكوكاً فيها، أو عصيةً على الفهم. كان عددٌ كبير من المحاربين قد تخرّجوا حديثاً في مدارسهم الثانوية، أو أنهم

خرجوا من المزارع، أو من قرى صغيرة في منطقة الغرب الأوسط أو الجنوب.

تساءل عددٌ من الناس: هل كان الجميع صادقين في أقوالهم؟ أنا لا أعرف على وجه التأكيد. ولا يمكنني الجزم إن كان الجميع يروون قصصهم التي حدثت معهم، أم أنها مزيجٌ ممّا حدث معهم، أو سمعوه أو رأوه، أم أنها ناتجة عن اضطرابات ما بعد الإصابة، أو الكوابيس الليلية، أو نتيجة انفصام الشخصية. تساءلنا حتى في ذلك الوقت إن كان ثمة دخلاء وعملاء داخل المجموعة تابعون للرئيس نيكسون، زُرعوا بهدف إفقاد التجمُّع للصدقية وإدخال الفوضى إليه، وهو الأمر الذي اعترف به أمامي تشوك كولسون، أحد مستشاري نيكسون، بأنه صحيح.

فكّرت بالألم العميق الذي نجم عن الأيام الثلاثة تلك. وفكّرتُ كذلك بالشهادات المتتابعة التي كانت جميعها موثّقة بالأوراق الرسمية التي يحملها كل شخص، والتي تؤكد خدمته في فييتنام. كما أن تلك الشهادات قد لقيت مصادقةً في حالاتٍ كثيرة من آخرين خدموا في الوحدات ذاتها، وهي شهادات اجتمعت كلها لتقديم تصديقٍ مدهش لما كانوا يقولونه. لكن، وكما يحدث مع أي شهادة في معرض البرهنة عن شيء ما، يحكم على شهادات الشهود بالإجمال. أعتقد أن أي شخص حاضر هناك بصفة شرعية للاستماع إلى الشهادات والإفادة من مغزاها لا يستطيع أن يرى الشبان الذين يكشفون عمّا في صدورهم وضمائرهم، وبهذه الدرجة من الحزن والشعور بالذنب، من دون أن يتأثر بعمق لما يقولونه.

كان المقاتلون القدامى ينهارون في بعض الأحيان، ويتركون القاعة للتدخين، أو ليعودوا ثملين، أو تحت تأثير المخدرات. لكن لم يظهر أن أيّاً منهم يقوم بالتظاهر بأي شيء. لكنني، تساءلتُ مع ذلك: هل ثمة احتمالٍ أن تتمكّن البلاد من «سماع» ، أو «هضم» عفوية الأمور التي كان يتحدث بها أولئك العائدون من الحرب؟

تعني المشاركة في نشاطٍ معيّنٍ أمراً واحداً، وواحداً فقط، هو الوصول إلى هدف. كان الهدف المعلن في ذلك الوقت إقناع الأميركيين بما يجري في الحرب. لكنّني لم أفهم كيف أن بإمكان هذا الأمر المساعدة على إنهاء الحرب. أكّدت ردود فعل وسائل الإعلام انطباعي هذا، وكان هناك ما يشبه الصمت المطبق من جانبها. أغضبني واقع أن تلقى هذه الشهادات المؤثّرة التجاهل التام. أعتقد بأن وسائل الإعلام لم تعرف ما يمكنها أن تصنع بهذه الشهادات. صحيحٌ أنني لم أصدّق كل ما سمعته، إلّا أن في هذه الشهادات ما يكفي من حيثياتٍ للمصادقة على صحّتها، وفيها من الأمور ما يكفيها لربطها بالحوادث

التي سمعنا عنها، وما هو أكثر من كافٍ من الحقائق المعروضة التي تدفعنا إلى أخذ تلك الشهادات على محمل الجد. لكن ما كان يجب تأكيده هو أن هؤلاء المحاربين العائدين يستأهلون أن يُسمعوا، إلّا أن معظم وسائل الإعلام قد اعتمدت موقفاً مغايراً. قال أحد الصحفيين لأحد أصدقائي ما فحواه: إذا كنت تريد أن تحشد المراسلين «فما عليك إلا إحضار عددٍ أكبر من المشوّهين» . يا لهذا التصريح الذي يثير الذهول، لأن ذلك يعني أن من غير الممكن الاستماع إلى ما يقوله المقاتلون العائدون بسبب مظهرهم، فلا بد من وجود خطأ ما في الأمر.

اقترحتُ على حركة قدامى المحاربين المعادين للحرب في فييتنام تجربة أمر جديد. كان ذلك نوعاً من المخاطرة. ويعود في جزءٍ منه إلى أنه يعاكس حدسَ عديدين من الناس يشعرون بغربةٍ عن واشنطن، وقد عبّروا عن يأسهم العميق من الحكومة، وهم معذورون في ذلك. ناقشنا أمر نقلَ المواجهة إلى واشنطن مباشرة، ودفعَ الكونغرس إلى سماعنا، وطرق أبواب مجلس الشيوخ والمطالبة بعقد اجتماعات، وإقامة مسيرات في مقاطعة كولومبيا [واشنطن العاصمة]، أي كما فعل جيش بونس ذات مرة. وافقني الجميع بعد بعض النقاش، ووافقوا على تجربة الأمر. وبما أن حركة قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام هي كما هي عليه، فقد أُعطيت اسماً هو عملية وادي ديوي، تيمّناً باسم آخر عملية هجومية قام بها مشاة البحرية في فييتنام. وكان من المخطّط لها أن تجري في الأسبوع الثالث من نيسان/ إبريل 1971.

تعيّن علينا الإسراع بأقصى طاقاتنا رصّ صفوفنا. كان من المفترض أن تكون المنظمة ديمقراطيةً بالكامل، إلّا أنها لم تكن كذلك. احتاج كل قرارٍ إلى إخضاعه للتصويت، إلّا أن ذلك لم يحدث. أدركتُ بسرعة أننا واقعون في مصاعب مالية، وقلقت قليلاً عندما اكتشفت أن مبلغاً يقارب المئة ألف دولار قد أُنفق على سلسلةٍ من الإعلانات المطبوعة، من دون المصادقة اللازمة عليها. يعني ذلك أنه كان من الجنون بذل الجهود لجمع المال من أجل جلب المحاربين القدامى إلى واشنطن، بغية إقامة معسكرٍ مؤقتٍ لهم في المتنزه الوطني.

وافق الأعضاء بالإجماع على إقامة مسيرة إلى واشنطن تمرّ من خلال فرجينيا، وأمام مقبرة آرلنغتون الوطنية، على أن تنضمّ إليها زوجات الذين نالوا أوسمة الشرف، مثل جودي دروز. أعتقد أن بعض المواجهات محكومٌ عليها بالإخفاق، أي مثل مسرح حرب العصابات، والوجوه المطلية «وجوه الأشباح»

التي اعتمدها بعض الناشطين، والتي اعتبرتُ بأنها تخيف الناس، وهي التي كان من المقرّر أن تكون جزءاً من أيام واشنطن سواءً أحببتُ ذلك أم لا. يُضاف إلى ذلك أن مظاهرة تهدف إلى كسب قلوب الناس وعقولهم في البلاد وتتضمّن إعادة أوسمتنا التي حصلنا عليها في فييتنام أو التخلّي عنها، كانت موضوعاً مشحوناً بالجدال. وافقتُ على فكرة التخلي عن أوسمتنا وإعادتها، لكنني اعتبرت أن هذه الخطوة تثير قلقنا. لكن ما أثار قلقي أكثر من أي شيء آخر هو أنني لم أتمكّن من النظر إلى ميداليات النجمة الذهبية، أو القلب القرمزي، أو أي وسامٍ آخر، من دون التفكير في بيرش، أو دون دروز، أو حتى في أسر القتلى الآخرين الذين كانت هذه الميداليات آخر رابط لها بأحبتها الذين رحلوا عنها. كان ذلك كل ما تبقى من بعض الأشخاص. وافقتُ على فكرة إعادتها، لكن الطريقة الصحيحة كانت بإعادتها كما يعيد العسكريون علَماً إلى أرملة محارب، أي بشرفٍ وكرامة، ورزانة. اقترحتُ في ذلك الوقت جلبَ طاولة مغطاة بغطاءٍ أبيض اللون، على أن يتقدم كل جندي سابق برزانة لكي يضع ميدالياته فوقها، ثم نقوم بجمعها بعد ذلك، ويجري تسليمها بطريقة رسمية إلى البنتاغون. لكن التصويت على هذا الاقتراح لم يصبّ في مصلحتي، وهكذا أراد الجنود الآخرون ترك الميداليات على درج الكابيتول.

أدركتُ على الدوام أنني فردٌ واحد من مجموعة تضم الآلاف، وأن عليّ أن أتحدث وأتصرف ليس فقط كفرد في هذه المجموعة، وليس لأنّني أمتلك آراءً خاصة بي، بل يجب أن أتكلم باسم المجموعة. مضينا قُدُماً في مشروعنا، وأشرف المشروع بأكمله على الانهيار عندما قالوا لي حتى الآن لم نتمكّن من امتلاك المال لدفع أجور الحافلات، وأن علينا جمع مبلغ 75 ألف دولار بسرعة، وإلا لن تتحرك الحافلات. وهكذا تعيّن عليّ في اللحظة الأخيرة أن أقوم برحلةٍ إلى نيويورك في محاولة مني للحصول على ذلك المبلغ. لم نمتلك فرصة استدانة أي مبلغ في ذلك الوقت، لكن تلقينا مساعدات بفضل أصدقائنا الطيّبين، والمعادين الحازمين للحرب، من أمثال آدم والنسكي، والرئيس التنفيذي لشركة سيغرامز إدغار برونفمان الأب، وجيري غروسمان. وتمكّنّا بفضلهم جميعاً من جمع المبلغ، لتتمكن الحافلات من التحرّك لنقل قدامى المحاربين.

بدا لنا فور وصولنا إلى واشنطن أن كلّ الأشياء التي يُمكن لها أن تجري على غير ما هو متوقع قد سارت كذلك بالفعل. رفضت إدارة المتنزّه الوطني منحنا رُخَصاً للتخييم في المتنزه. وهكذا ساد الجميع شعورٌ بالإهانة، وشعر عدد كبير من المقاتلين بالغضب. يُضاف إلى ذلك أن وزارة العدل في حكومة نيكسون قد وجّهت إلينا إنذاراً يمنعنا من إقامة مخيّم، لكن المحكمة قضت بأننا نستطيع البقاء مع عدم تمضية الليل في المكان. انتظرنا حلول الظلام بقلق،

وهكذا دقّ في منتصف الليل جرس الإنذار بقوة فتعالت الهتافات. تمسّكنا بعد ذلك بمواقعنا، ثم ركّزنا الخيَم ونشرنا الأكياس المخصّصة للنوم. أعطينا رجال الشرطة بعد ذلك خياراً واحداً: إما إلقاء القبض علينا، أو تركنا وشأننا. لم تتحرك الشرطة نحونا بعد ذلك.

التقينا في اليوم التالي النواب أعضاء الكونغرس، وأبلغناهم بأوضاعنا الدقيقة في المتنزّه الوطني. إنني أتذكّر حتى هذا اليوم كيف أن بعض النواب اقتربوا منا، بينما تراجع بعضهم الآخر بعيداً. أعتقدُ جازماً أن بعض أولئك النواب أقلقهم الاختلاط مع ما أطلقوا عليهم لقب المشاغبين ذوي الشعور الطويلة، بينما صدّق بعضهم الآخر الشائعات عما يجري تعاطيه في مخيّمنا من مخدّرات، أو ما هو أسوأ من ذلك. غير أن آخرين اعتقدوا أن احتلال المتنزه الوطني يُمكن أن يتحوّل إلى أعمال عنف. لكنّ ثمّة طرقاً عديدة للحكم على شخصيةٍ ما. رأيتُ عضو مجلس الشيوخ تيد كينيدي هابطاً إلى المتنزه بالرغم من تهديدات الشرطة بإلقاء القبض علينا. تأثرتُ كثيراً من بادرته هذه، لاسيما وأنه أمضى ساعة من الزمن مع المحاربين السابقين مصغياً، ومستعلماً عن شؤوننا ومشجّعاً لنا. أما التزامه قضيّتنا فقد كان أمراً يتعدى السياسة. كنتُ ذات ليلة في إحدى مناسبات جمع المال لصالح قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام، يجمعنا منزل عضو الكونغرس فيل هارت في جورجتاون، ولم يغب عن أذهاننا إبقاء المصابيح مضاءة ودفع فواتيرنا. سمعني شخصٌ لا أعرفه من لجنة العلاقات الخارجية التي يترأسها وليام فولبرايت، وأنا أتحدث. كان فولبرايت جريئاً ومعادياً للحرب، حتى وإن كانت ولاية أركنساس التي ينتمي إليها ولايةً محافظة. طُلب مني بعد وقتٍ قصير الرد على الهاتف. سألني المتحدث على الهاتف إن كنتُ على استعداد للمثول في اليوم التالي أمام اللجنة للإدلاء بشهادتي.

كان ردّي بالإيجاب. تعيّن عليّ في هذا الوقت تحضير شهادةٍ مختصرة تعبّر عن كل ما يشعر به قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام، وليس كل شيء أشعر به شخصياً. انسحبتُ إلى مكتبٍ مؤقتٍ لجمعيتهم، يقع إلى الشمال من واشنطن، ثم تناولت رزمة الأوراق التي أحتفظ بها منذ سنةٍ ونصف، وهي الأوراق التي أعددتها من ضمن برنامج «رسالة إلى أميركا» ، وهو برنامج اشتركتُ فيه مع بيتي هاميل. راجعتُ كذلك ملاحظاتي التي أوردتها في خطاباتي السابقة، ثم شرعت في الكتابة. بدأت الشمس بالارتقاء فوق سماء واشنطن، عندما انتهيت من الكتابة. استحممتُ، وحلقتُ ذقني، ثم قصدتُ المخيّم للتشاور مع الرفاق واستطلاع أجوائهم. توجّهت بعد ذلك نحو مبنى مكاتب ديركسين في مجلس الشيوخ. كنتُ جاهزاً ومشحوناً بالمشاعر عندما مررتُ من أمام المحكمة العليا. رأيتُ هناك بعض أفراد من قدامى

العسكريين المعادين للحرب في فييتنام وهم يتجادلون مع رجال الشرطة. وبدا الأمر لي وكأنهم رهن الاعتقال. كانت تلك من الأمور التي نجحنا في تجنّبها حتى الآن. اقتربتُ منهم لتهدئة الوضع. كان رجال الشرطة طيّبين، لكنهم كانوا يؤدّون واجبهم، إلّا أن آخر ما أرادوا القيام به هو تقييد مجموعة من الجنود السابقين الذين كان من الممكن أن يكونوا أولادهم. تمكّنا في نهاية الأمر من حلّ الإشكال، لكنني تأخرت في هذا الوقت.

رأيت إلى يميني طوم أوليفانت الذي كان مراسلاً متدرباً لصحيفة بوسطن غلوب، وهو شابٌ في مثل سنّي تقريباً، وكان قد تخرّج حديثاً في هارفرد. قلت له: «هيا بنا نسرع» . دخلتُ إلى قاعة الاستماع متعرّقاً، وبالكاد تمكّنتُ من التقاط أنفاسي. كنت جاهزاً كلّيًّا، ووقف أعضاء مجلس الشيوخ يتحدثون خلف المنصة. يبدو أنهم كانوا ينتظرونني، لكن لم أكن أعلم بأنني الشاهد الوحيد. اعتذرتُ عن تأخُّري دقائق قليلة، وجلستُ خلف طاولة الشهود. لم يكن لديّ أي فكرة عن الوضع الذي سوف أواجهه بعد قليل. سيطر هورمون الأدرينالين عليّ. لكنّني تمكّنت من نشر أوراقي أمامي، ثم تحدثت عن السبب الذي جعلنا نأتي إلى واشنطن، وعن الأمور التي نأمل بتحقيقها.

قمتُ في النهاية بتلخيص وجهة نظري، وتوقفتُ عند إحدى النقاط لأطرح أسئلة:

كيف تطلبون من رجلٍ أن يكون آخرَ رجلٍ يموت في فييتنام؟ وكيف تطلبون من رجلٍ أن يكون آخرَ رجلٍ يموت من أجل خطأ؟

إننا هنا لكي نسأل، ونحن هنا لكي نسأل بقوة: أين هم قادة بلدنا؟ أين هي القيادة؟ إننا هنا لكي نسأل أين هو مكنمارا، وروستاو، وبوندي، وكيلباتريك، وكذلك الآخرون. أين هم الآن بعد أن عاد الرجال الذين أرسلوهم إلى الحرب؟ هؤلاء هم القادة الذين تركوا جنودهم، علماً أن ما من جريمة أخطر منها في قوانين الحرب. يقول الجيش إنه لا يترك جرحاه أبداً. ويقول سلاح البحرية إنه لا يترك قتلاه. لكن هؤلاء الرجال تركوا جميع المصابين، وانسحبوا واضعين قناعاً من البراءة والاستقامة على وجوههم. نعم، تركوا القسم الحقيقي من صيتهم، كي تقوم الشمس في هذا البلد بتطهيره.

أقول أخيراً إن هذه الإدارة قد أنزلت بنا أعلى درجات العار، وهي التي حاولت التخلّي عنا، وعن التضحيات التي قدّمناها من أجل هذه البلاد. حاولت الإدارة وسط عماها وخوفها إنكار أننا محاربون قدامى. أو أننا خدمنا في فييتنام. لا نحتاج إلى شهادتهم، لأن جروحنا وألمنا أمام أطرافنا المقطوعة هي شهادة كافية لنا أمام الآخرين وأمامنا. إننا نتمنى بأن يقوم الله الرحيم بمحو

ذكرياتنا عن تلك الفترة من خدمتنا العسكرية بالسهولة ذاتها التي سمحت لهذه الإدارة بمحو ذكرياتها عنا.

لكن كل ما فعلته هذه الإدارة، وكل ما تستطيع أن تفعله، ومن خلال تنكّرها لنا، هو توضيح تصميمنا، وأكثر من أي وقتٍ مضى، على القيام بآخر مهمةٍ لنا، وعلى الخروج لتدمير آخر أثرٍ لهذه الحرب البربرية، ولتهدئة قلوبنا، ومن أجل قهر الكراهية والخوف اللذَين سيّرا هذه البلاد في السنوات العشر الأخيرة. إننا نهدف من وراء ذلك أن يتمكن أشقاؤنا من النزول إلى الشارع بعد ثلاثين سنة من الآن من دون ساق، ومن دون ساعدٍ أو وجه، وعندما يسأل الأولاد الصغار عن سبب ذلك، عندها سنقول لهم «إنها فييتنام» ، وذلك من دون أن نعني أنها صحراء، أو نثير ذكرى قذرة ومريعة، بل يمكن أن نجيب الأولاد ونقول إنها المكان الذي تمكنتْ أميركا أخيراً من تغييره، وحيث أسهم جنودٌ مثلنا في مثل هذا التغيير.

الفصل السادس: تلمُّس طريقي

«هل أنت الشخص الذي قدّم شهادته ضد الحرب؟» .

كان ذلك للوهلة الأولى سؤالاً بريئاً. لكنْ، عندما تحلّق حولي بعض الأشخاص الذين لا أعرفهم بعيونٍ ملتمعة، لم أعد أعرف ما أتوقّعه منهم. لكنّني تعلمت بسرعة كيف أُعِدُّ نفسي لما يُمكن أن يحدث بعد ذلك.

كنت أستغرب أن يعرفني الناس عندما أسير في الشارع، أو عندما أركب طائرة، أو أجلس في مطعم. وكان الناس لطفاء معي بشكلٍ عام، وعاطفيين في بعض الأحيان. وكان من بينهم أحد قدامى المحاربين الذي قال إنه كان يحب أن يكون في واشنطن للمشاركة في الاحتجاجات على الحرب، لأن شقيقه كان من الجنود الذين فقدوا حياتهم. وكان من أولئك الأشخاص الذين التقيتهم واحد من الأميركيين المتحدّرين من أصلٍ أفريقي، صارحني بأن الحرب مستمرة، لأنهم هم مَن يقع الاختيار عليهم للتجنيد، أمّا أبناء «النواب المنتخبين وذوي النفوذ» فكانوا يجدون طريقة لتجنّب التجنيد.

التقيتُ في مراتٍ كثيرة أشخاصاً كانوا يطلقون سيلاً من الإهانات. وقد سألني أحدهم مرة إن كنتُ أعرف رجالاً طيبين يحاربون في فييتنام. أجبته: «حسناً نعم. إنني أعرف بعضهم يا سيدي، وهذا هو سبب مشاركتي في الاحتجاجات، فلعلّهم يتمكنون من العودة إلى بلادهم في وقتٍ سريع، بدلاً من السماح للرئيس نيكسون بالاستمرار في إرسال الشبان ليموتوا من أجل خطة السلام السرية التي يتبنّاها، والتي لم يُفصح عنها بعد. سمعنا الأشخاص الذين كانوا يهتفون في بعض المرات. «ادعموا الجنود» فيما كنا نحن، قدامى المحاربين، نسير غاضبين، لأننا نحن الجنود، وقد قمنا بواجبنا، وحصلنا على حق التعبير عن أفكارنا.

لاحظت، في بعض الأحيان، وعند الانتهاء من إلقاء كلمتي، أن النقاد لا يميّزوننا من حشود الهيبيين المحشورين في حافلات الفولكسفاغن المتجهة

إلى «هايت» . لكنْ، بغضّ النظر عن ردود الفعل، كان من الواضح أن الأسبوع الذي قضيناه في واشنطن في شهر نيسان/إبريل1971 قد ترك أثراً كبيراً في نفسي. فقد نالت شهادتي التي أدليت بها تغطية في وسائل الإعلام، استمرت ثلاث أو أربع دقائق من البثّ الحي خلال نشرات الأخبار المسائية التي بثتها الشبكات التلفزيونية الثلاث. كان ذلك عصراً جديداً في وسائل الإعلام. وقد أجرى مورلي سايفر مقابلة معي بعد وقتٍ قصير من بثّ برنامج «60 دقيقة» . فطرح عليّ سؤالاً، بدا لي أنه تعمَّد أن يكون بعيداً عن سياق نشاطاتي: سألني الرجل إن كنت أعتزم الترشّح لرئاسة الجمهورية في يومٍ من الأيام. ظهرت بعد ذلك ملصقات بالأبيض والأسود، تظهر فيها صورتي. لمْ أعرف مصدر تلك الملصقات، لكنْ، طُلبت مني تواقيع شخصية للذكرى. ولم تكن كلمة أوتوغراف متداولة في ذلك الوقت، لكن ضاع صيت ديوي كانيون وأنا معها. بدا لي، وأنا لا أزال في السابعة والعشرين، أنني تحوّلت فجأةً إلى شخصية عامة تتبنى هدفاً عاماً، لكنّني افتقدتُ مع ذلك المركز الرسمي الذي يسمح لي بالانطلاق قُدُماً.

واظبت، بعد مضي عدة أشهر على احتجاجات واشنطن، على إلقاء خطابات في أنحاء متعدّدة من البلاد. وقد اعتمدتُ في تلك الفترة على مرتّب متواضع، لكنّني كنت أتبرع بجزء من المبالغ التي أجمعها من الخطابات لمنظمة قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام. وقد تضمّن برنامجي في ذلك الوقت إلقاء خطابات في مناسبات بعيدة عن مكان سكني مثل نورمان، أوكلاهوما، وفي أمكنة كانت تكتظ بالناس الذين اضطروا إلى الوقوف. ومع انتهاء خريف العام 1971، وتحوّله إلى شتاء، تراجعت نشاطاتي قليلاً، وهي التي بقيت متواصلة، ومن دون توقف، منذ عودتي إلى موطني من الحرب. وقد تغيّرت حركة قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام قليلاً لتصبح أكثر إصراراً وعناداً. استلهمتُ الكثير من جميع الرجال والنساء الذين انضموا إلى حركتنا بكثافة، وزوّدونا بقصصٍ عن آلامهم. وقد أصبح عدد كبير من هؤلاء أصدقائي مدى الحياة، وكانوا في منزلة شقيقات وأشقاء لي. وإنني على يقين أنهم مستعدّون للحضور إلى منزلي في غضون عشر دقائق إذا دعت الحاجة إليهم يوماً. لكنْ، ظهرت داخل المنظمة، وبشكلٍ مفاجئ، برامج مختلفة تتنافس للحصول على الأفضلية. بدا أن بعضها مثير للجدل، وهو الأمر الذي يعكس العقلية الوطنية في تلك الأوقات. وهكذا انقسمت حركة قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام حول قضايا الطبقات. انقسمت أيضاً بين أولئك الذين يتعاطون المخدرات والذين لا يتعاطونها، وبين المعارضين للحرب في فييتنام والمعارضين لكل الحروب، وبين الذين يؤمنون بإمكانية العودة بأميركا إلى سابق عهدها، والذين يعتقدون بأن النظام بأكمله

متعفنٌ حتى النخاع. أما أنا فكنتُ إلى جانب الذين يريدون إعادة البلاد إلى المسار الصحيح.

أردتُ أنا وجوليا الحصول على قدرٍ من الهدوء والعزلة في منزلنا في والثام. وقرّرنا تمضية عيد ميلاد هادئ في منزلٍ صغير استأجرناه لهذه الغاية. كان المنزل يُشرف على بحيرة سكوام في نيو هامبشاير، وكان برفقتنا دافيد، شقيق جوليا، وزوجته روزي. أما جورج وجوليا بتلر فقد كانا قريبين منا، ويسكنان في منزلٍ تمتلكه أسرة جورج. كان المكان يشبه مزرعة حقيقية، وقد أمضينا فيه أوقاتاً هادئة ومريحة، وقمنا بنزهات تزحلق فوق البحيرة المتجمدة، بعد أن انتعلنا أحذية طويلة مخصصة لهذا الغرض. كان السكون التام الرائع يسود المكان، فيما كانت السماء تتلبّد بالغيوم الرمادية. وقد استمتعنا بالنيران الدافئة والوجبات اللذيذة بعد حلول الظلام. رافقني هذا الشعور بالهدوء الرائع، حتى بعد مرور ما يقرب من نصف قرنٍ من الزمن. وفي أوائل العام 1972، تسرّبت الأنباء التي أفادت أن عضو مجلس الشيوخ براد مورس، والذي يمثّل مدينتي غروتون، وجزءاً كبيراً من محافظة ميدلسيكس، يوشك أن يتخلّى عن مقعده في ذلك المجلس.

كان قد مضى عامان تقريباً على عقد المؤتمر الحزبي لمواطني كونكورد - كارليل. دخل الأب دريئان مجلس النواب، وكانت الحرب لا تزال مستعرة. وكان نيكسون ما زال رئيساً. أردت الذهاب إلى واشنطن للانضمام إلى دريئان لكي أبذل ما أستطيع فعله من أجل إنهاء الحرب. أظنُّ أنني أستطيع أن أفعل، إذا كنت عضواً في الكونغرس، أكثر من كوني ناشطاً محترفاً.

أدركتُ في ذلك الوقت أنني سوف أتعرّض للانتقاد إذا ما ترشّحت للانتخابات، لكن دائرتي الانتخابية اشتملت على مدينتي التي عشت فيها منذ أن عاد والدي من خدمته خارج البلاد سنة 1962.

قررتُ خوض المعركة الانتخابية، وصمّمنا على ذلك بعناد. كان الأمر مثيراً، ومرِحاً، وكان العملُ شاقاً جداً. كان عليّ أولاً خوض الانتخابات الأولية ضدّ تسعة مرشّحين آخرين. وكانت الحكمة التقليدية توحي أن الفائز في هذه الانتخابات ستزداد حظوظه كثيراً في الانتخابات العامة. رأيت في ذلك الحين أنَّ خبرتي في حركة قدامى المحاربين، ونشاطي السياسي، جعلاني أمتلك نقاط قوة ونقاط ضعف في آنٍ.

كانت نقاط قوتي واضحة تماماً، وأنا الذي أمتلك هدفاً واحداً في حياته، هو إنهاء الحرب. امتلكتُ في ذلك الوقت قاعدة على نطاق البلاد تسمح لي

بجمع الأموال، وهي القاعدة التي ميّزتني من باقي المرشحين الذين يمتلكون قاعدة دعم محلية بالكامل. اصطحبتُ إلى منزلي ذات يوم مجموعةً من المنظمين السياسيين الموهوبين، على قدرٍ كبيرٍ من الابتكار، وكانوا ممّن اتّبعوا طرائق جديدة في خوض الحملات الانتخابية أوائل السبعينات من القرن الماضي. وكانوا رجالاً من أمثال الاستراتيجي جون مارتيل، ومدير وكالة الإحصاءات طوم كايلي، وفرانك أوبريان، ودافيد ثورن، الذي بدأ الآن بالعمل مستشاراً سياسياً.

اتّسم سلوكنا بالمثالية على الدوام. وقد نظرنا إلى الحملة على أنها مسألة أُسَرية. وهكذا باشرت بيغي الاتصال بكل صديقٍ التقته، وتعرف أنه ناشط سياسي، وألحّت في طلب مساعدة شقيقها الأصغر منها. أما كام، فقد أخذ إجازة من هارفرد ليلازمني على الدوام. أما والدتي فقد تحولت إلى أكبر، وأفضل، نصيرٍ لي. وهكذا وضعتْ بكل فخر زراً على صدرها كُتب عليه «أنا والدة جون» ، وهو زرٌّ لا أزال أحتفظ به في مكانٍ آمن حتى اليوم. وبالرغم من التنشئة الرسمية التي عرفتها والدتي، فقد اكتشفت جينات نشاطها السياسي، ولم تتراجع. وأنا لا أزال حتى الآن أستغرق في الضحك كلّما تذكرت المدى الذي وصلت إليه عندما أرادت أن تراني متحدثاً في أحد المهرجانات المعادية للحرب في كابيتول هيل بواشنطن العاصمة، وذلك في وادي ديوي. قادت والدتي سيارتها من ماساتشوستس. ولدى وصولها اختارت مكاناً لها في المتنزه الوطني لمشاهدة الخطباء والاستماع إلى خطاباتهم. توافدت الحشود إلى المكان، فلم تعد قادرةً على رؤية منصة الخطابة البعيدة، فتسلّقت شجرة جلست تحتها مجموعة من الهيبيين المتسكعين، فأطلّت على المهرجان من شرفتها التي اختارتها لنفسها. وقد خرجتُ في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء برفقة جوليا ودافيد وبيغي وكام لتناول الطعام. وكان من المفترض أن تلحق بنا إلى المطعم الذي قصدناه، لكنها تأخرت. رأينا سيارتها أخيراً وهي تتحرك، ثم ركنتها وسط الشارع، لكنها تركت مصابيح السيارة مضاءةً، ومحركّها في وضع التشغيل، ثم ترجلت منها بسرعة وهرعت إلى المطعم. سألتُها: «هل أنتِ على ما يُرام يا أمي؟» لاحظتُ أن حَدَقَتي عينيها تتّسعان. وقد تبيّن لنا بعد ذلك أن والدتي جلست لساعات داخل الشجرة لسماع الخطابات، فيما كان الهيبيون في الأسفل يتعاطون سجائر الحشيشة الواحدة تلو الأخرى، لنُدهش بعد ذلك بحضور فوربس كيري إلى المطعم، وهي تحت تأثير المخدرات من دون أن تقصد ذلك.

يمكنني القول بشكلٍ عام إنَّ ولايتنا لم تشهد حملةً انتخابية من هذا النوع. كان ذلك جزءاً من المشكلة، التي لم نتنبّه إلى أنَّها آخذة في التفاقم. وقد رأى كثيرون في منطقتنا أنني ظهرتُ بشكلٍ مفاجئ، وأنني أقطع الطريق

على أبنائهم المفضلين، ما يشير إلى أن اسمي لم يكن معروفاً لدى الناخبين الذين يعيشون هناك، بالرغم من أنني أقنعت نفسي بعكس ذلك. يُضاف إلى ذلك أنني لم أحصل على مرشدٍ ينصحني بالبدء في حملتي بشكلٍ معتدل، أو بالتفكير في الحساسيات المحلية بشكلٍ أعمق. اشتملت منطقتنا على أحياء تُعدُّ محافظةً من الناحية الثقافية. فقد ألِف الناس فيها التصويت للحزب الديمقراطي على مدى عقودٍ من الزمن، لكنهم شعروا بعدم الرضا عن التغيُّرات الثقافية التي رافقت تلك المرحلة، بما في ذلك الحركة المعادية للحرب. يُضاف إلى كل ذلك، أن أقوى مصدرٍ إخباري في المنطقة، وهو صحيفة لويل صن، قد خصّص صفحةً كاملة حرّرها كليم كوستيلو، المتعصّب لجمعية جون بيرش سوسيتي، والكاتب المعروف بقلمه اللاذع والمتلوّن. وقد وصل بسخريته إلى حدّ تحويلي شخصية كاريكاتورية.

وفي ليلة الأحد التي سبقت الانتخابات التمهيدية، وعند الساعة الواحدة صباحاً، كان كام والمدير الميداني لحملتي، طوم فالي، قد وصلا إلى مركزنا الانتخابي، وكانا يخطّطان لتفاصيل عملية الانتخابات التمهيدية الضخمة. أبلغني طوم أنه تلقى تحذيراً يفيد أن بعض الأشخاص قد يعمدون إلى العبث بخطوطنا الهاتفية، لتخريب نشاطاتنا في يوم الانتخابات التمهيدية. أمّا نحن، فقد وضعنا خطة سياسية مبتكرة لتحويل وجهة الأصوات: اعتمدت الخطة على أكثر من مئة خطٍ هاتفي بغية الحصول على أعدادِ ناخبين قياسية. لكنَّ كام وطومي شعرا بالخوف. وكان كل شيء شهدناه في حركة قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام قد علّم كام، وعلّمني، أن الخدع القذرة تحدث بالفعل في عالم السياسة.

نزل الرجلان إلى الطابق السفلي ليتأكدا من سلامة الأسلاك الهاتفية التي تمرّ عبر المبنى الخالي الذي يفصل بين مكتبنا ومكتب خصمنا الانتخابي طوني ديفروسيا. فتح طومي الباب وهبط إلى الطابق السفلي. واجه الرجلان في غضون دقائق قوة من شرطة لويل، ظهرت لإلقاء القبض عليهما بتهمة الكسر والخلع، والدخول غير المشروع. استيقظتُ على أوّل رنينٍ لمكالمةٍ هاتفية سياسية لي عند الساعة الثالثة فجراً، وعلمتُ أن كام ولويل مسجونان. وقد أورد عنوان صحيفة صن في مساء اليوم التالي: «ألقي القبض على شقيق كيري في ووترغيت لويل بتهمة الدخول عنوة إلى مقر خصمه الانتخابي» .

فزت في الانتخابات التمهيدية على أي حال. لكن ما حدث كان مؤشراً خطراً على ما يمكن أن يحدث في وقتٍ لاحق، وذلك يشمل الهجوم المستمر الذي تشنّه صحيفة صن. بدأتُ بمرحلة الانتخابات العامة متقدماً بنقاطٍ كثيرة على خصمي الجمهوري بول كرونين غير المعروف نسبياً، والذي لا يحظى

بالتمويل الكافي لحملته. لكن ما عجز كرونين عن تحقيقه لنفسه تكفّلت به صحيفة لويل صن.

تتابعت الشائعات أن الرئيس نيكسون في البيت الأبيض، والذي كان يستعد لإعادة انتخابه بفوزٍ ساحق، يركّز اهتمامه في حملتي الانتخابية. وقد كشفت أشرطة التسجيل، بعد مرور سنوات، أن الرئيس نفسه قد تحدّث مع أقرب مساعديه بشأني عندما كنتُ أشارك في الاحتجاجات التي جرت في واشنطن. وقد خشينا في العام 1972، وحتى مع غياب الدليل الصوتي، من أن يقوم مع مساعديه بكل ما لديهم من وسائل لحرماني من مقعدي في مجلس الشيوخ. بدأ السباق يأخذ في هذا الوقت منحىً صعباً، لكننا فوجئنا قبل أسبوعٍ من موعد الانتخاب بانسحاب المرشّح الثالث من السباق، وهو مستقلٌ يدعى روجر ديركين، وأعلن دعمه لخصمي، ثم اختفى بصورةٍ غامضة، ولم يردّ على مكالماتنا للإجابة عن أسئلة حول أسباب انسحابه. وقد راودتنا شكوك بأن في الأمر مكيدة سياسية.

شعرتُ بأنني على وشك خسارة هذه الانتخابات، وأن القضية لم تعد «كيري ضد كرونين» ، بل «لويل صن ضد كيري» . أما صحيفة صن، فقد وضعت المنافسة على الشكل الآتي: «كيري ضد كيري» ، أو «أكاذيبهم والحرب التي تبنيتها» . وقد خسرت في ليلة الانتخابات، وكان ذلك أمراً مفهوماً ومقنعاً.

وقفت على المنبر في قاعة أحد الفنادق الهادئة لإعلان التراجع المؤلم، وأوضحت في كلمتي أمراً واحداً، وبتصميم تام، لصحيفة لويل صن، وتحديتها أن تنشره على صفحاتها: سوف أقف إلى جانب قدامى المحاربين في واشنطن العاصمة مجدداً، إذا ما أتيحت لي الفرصة.

وقد علمتُ بعد مرور عقودٍ أن نيكسون، وعلى الرغم من فوزه الساحق، لم يستطع أن يخلد إلى النوم إلّا بعد أن تأكَّد من هزيمتي.

رأيت أن ما جرى كان هزيمةً ساحقةً لي، لأننا كنا متقدمين في استطلاعات الرأي؛ لكننا لم نتنبه للقوى الخفية التي حرمتنا من تأييد الناخبين، ما ترك في نفسي جروحاً عميقة.

انتهى الأمر، واستمرت عجلة الحياة، لكنَّ تكيّفي مع الواقع الجديد استغرق وقتاً أطول ممّا كنت أتوقَّع. لم تكن لديّ وظيفة، أو مهنة أخرى. حرتُ في ما يمكنني أن أفعله، حتى أنني لم أكن متأكداً في ذلك الوقت ممّا أريد فعله. بدت الوظيفة العامة بعيدة المنال، فشعرتُ في ذلك الوقت بما هو

أعمق قليلاً من الأسف تجاه نفسي. صحيح أنَّ حركة قدامى العسكريين المعادين للحرب في فييتنام كانت بلسماً لألمي الذي شعرت به تجاه الحرب، إلا أن هذه الهزيمة الشخصية التي تلقيتها فتحت كل الجروح الأخرى. فقد تمكّن نيكسون من اكتساح تسعٍ وأربعين ولاية، فبدا لي أن أسوأ أنواع العمل السياسي قد تلقّى مكافأة.

كان عيد الشكر، وأعياد أواخر خريف العام 1972، أوقاتاً كئيبة عليّ. لكنني حاولت أن أخفّف من وطأة الكآبة على نفسي، فخصّصت ساعات طويلة في صنع نموذج لسفينة، ومروحية بإمكانها أن تطير فعلاً. بقي نيكسون في هذا الوقت في منصبه، واستمر في الكذب على الشعب الأميركي وفي تخريب فييتنام. وهكذا، أطلق في عيد الميلاد أعنف سلسلةٍ من غارات القصف التي استهدفت فييتنام الشمالية، وذلك بهدف «إجبارها على قبول التنازلات التي قدّمناها» على حد تعبير الدبلوماسي المخضرم جون نيغروبونتي. كان نيكسون يحاول الاستسلام، لكنْ من دون أن يعلن ذلك جهاراً، وأراد إعادة الجنود إلى البلاد، وكان يأمل بفترة انتقالية بين عودتهم وسقوط فييتنام الجنوبية، حيث لا يلاحظ الأميركيون ما يجري ولا يكترثون له. لكن في أوائل شهر كانون الثاني/يناير من العام 1973، جرى استئناف المحادثات بين البلدين، إلى أن وُقّعت «اتفاقية سلام باريس» بعد مرور أسابيع قليلة... وهكذا انتهت الحرب كما عرفنا.

شعرت بقدرٍ صغير من الفخر، لأنني كنت واحداً من الذين وضعوا سمعتهم على المحك، فساعدوا على إجبار نيكسون على إنهاء الحرب. لكن حركتنا دفعت ثمناً غالياً. فقد تمكن نيكسون من إحداث الفُرقة بيننا، وقد فعل ذلك بمهارة، عندما صمّم، هو ونائبه، على تقسيم البلاد، وتشتيت حركة قدامى المحاربين، لعلّه يحصد بذلك المنافع السياسية التي نتجت من ثقافة الحرب التي قاما بتعزيزها.

شعرت في ذلك الوقت أنني انتهيت سياسياً. لكن جرح الآخرين كان أعمق من أن يُقاس. فقد تشتّت الذين شاركوا في هذه الحرب؛ وفيما تلاشى عددٌ كبيرٌ منهم في غياهب النسيان، تشرد آخرون في الشوارع، وأهلكوا أنفسهم بالمخدرات والكحول، أو غابوا كلياً عن ممارسة أي نشاط في الحركة، واختار بعضهم ممارسة مهن مختلفة، فيما حقق آخرون نجاحاً باهراً. إلّا أن الجميع تقريباً امتنعوا عن التحدّث عن الحرب. لقد اختارت الأمة بأجمعها أن تضع فييتنام في غياهب النسيان، أما أنا فقد شعرتُ بالثقل المريع لهذه الحقبة.

ثمة أخبار طيبة كانت تردني، وهي الوحيدة التي استطاعت انتشالي من محنتي. فقد تغيّرت حياتنا الأُسَرية، حيث أبلغتني جوليا أنها حامل. ابتهجنا كثيراً بهذا الخبر، لأن ذلك كان بداية جديدة، وإضافةً أولى أدخلت البهجة على أسرتنا، وجعلت مستقبلنا واضحاً على الفور. لم يعد لدي وقتٌ للشعور بالأسف على نفسي. صمّمت في ذلك الوقت ألّا أقع ضحية التهميش بسبب الأسى على الذات، وأحسست بأنني محظوظٌ أكثر من أي شخصٍ آخر في هذا العالم، وأنني حيٌ بالفعل، لأنني حصلت على نعمة الأبوَّة، وهذا أمرٌ حُرم منه بيرشينغ وعدد كبير آخر من الأشخاص. أما إحساسي بالامتنان، فكان لا يوصف.

تمكّنت هذه الصدمة المستحدثة من استعادة ثقتي إزاء أمورٍ أخرى في الحياة، وكان لي من الوقت ما يكفي لكي أفعل ما أردت فعله. ولكنني نظرت فجأة إلى حملتي الانتخابية بمنظارٍ أكثر إيجابية، وأدركت أننا حاولنا ووضعنا وراءها كل ثقلنا، وحاربنا من أجل الأمور الصحيحة. ومع أننا لم ننجح، إلا أن ذلك لم يكن يعني نهاية العالم في نظرنا. على المرء في بعض الأحيان أن ينهض من الحضيض ليتمكن من المضيّ قُدُماً. لكن الأهم من ذلك كله هو أنني على وشك أن أصبح أباً. ولهذا، صمّمتُ أن أعيش كل دقيقة من أبوّتي المنتظرة بأكملها.

اشتريت أنا وجوليا منزلاً في لويل. أردنا أن نسكن هناك لنؤكد أن المشككين كانوا على خطأ. وأردت العودة إلى كلية الحقوق لكي أمتلك القدرة على توفير مدخول، لا أجد نفسي معه في ضائقة، حتى ولو كنت خارج الوظيفة الحكومية.

زارني بول تسونغاس أواخر فصل الربيع، وهو المستشار السابق لمدينة لويل. وكان قد دعمني في حملتي الانتخابية لعضوية الكونغرس. وهذا موقف له مجرّد من الأنانية. يسكن الرجل بصورة دائمة في لويل، وقد امتلك كل الأسباب لكي يراني دخيلاً ومنافساً له، لكنه لم يأبه لذلك، ومضى يؤكّد لي أنه سوف يدعمني، إذا قررت الترشح ثانية بعد سنتين. لكنني تعلمت درساً من خسارتي، ورأيت أن جولة أخرى مع بول كرونين سوف تكون تكراراً للسباق ذاته، وأنَّ بول تسونغاس يمتلك حظوظاً أكبر للفوز. قد يكون موقفي هذا علامة على نضوجٍ جديدٍ من جانبي، لكنني أبلغتُ بول أن عليه أن يترشح، وحثثتُ كل الذين دعموني على التصويت له.

قرّرتُ الالتحاق جدياً بكلية الحقوق، فيما كانت زوجتي تشعر بحَملِها يوماً بعد آخر، وكنا قد أصبحنا في فصل الصيف. وكان عليّ التحرك بسرعة، إذ لم أكن في ذلك الوقت قد قدّمت طلب التحاقي بكلية الحقوق: زرت العمداء في هارفرد، وجامعة بوسطن وكلية بوسطن لعلّني أستطيع تقديم طلب

التحاق متأخر. أعطتني جامعتا هارفرد وبوسطن الجواب نفسه: «لا يمكننا فتح باب الالتحاق الآن. لمَ لا تنتظر حتى الخريف القادم؟» أما كلية بوسطن، فقد طلبت أن تتفحص سجل علاماتي الدراسية. ولم تمضِ أيام قليلة حتى اتصل بي مكتب التسجيل لكي يبلغني قبول طلبي.

جلست مع جوليا في الليلة السابقة لبدء دراستي في كلية بوسطن، لكي نستمتع بالهدوء الذي يسبق ضجيج الدراسة. لكن سكون المنزل انقطع فجأة. شعرت جوليا بأن «ماء رأس الجنين» قد سال. كان الأمر غامضاً في نظرنا، لأننا قرأنا كل الكتب الرائجة عن عملية الولادة، لكننا لم نجد فيها ما يجعلنا مستعدَّيْنِ لهذه المرحلة الفجائية. بعد تسعة أشهرٍ من الانتظار، أوشك الجنين أن يولد بالفعل: وضَّبت الأغراض في الحقيبة، ثم ساعدتُ جوليا على ركوب السيارة. وتساءلتُ إن كان مولودنا سيرى نور الحياة في المقعد الخلفي. أسرعنا إلى مستشفى إيمرسون في كونكورد، وهناك تلاشت على الفور مخاوفي بشأن الولادة الوشيكة، وبدأت جوليا مرحلة التوليد الطويلة.

سبق لنا أن تابعنا دروس لامايز المتعلقة بالتوليد. ولذلك، تنفست الصعداء مع جوليا عندما بدأت انقباضات التوليد تتزايد قوةً ووتيرةً. فكّرت في كيفية تمكّن الآباء من المساعدة في هذه العملية العجائبية. كنتُ هناك لمد يد المساعدة، وجلب أكواب ديكسي الممتلئة بقطع الثلج، والاتصال بأهلنا هاتفياً لنحمل إليهم خبر وجودنا في المستشفى. لا أظنّ أن ثمَّة ما يعبِّر لأي شخص عن الشعور بالأمومة الذي يصاحب عملية التوليد، وهو ما يتعلّمه مَن يراقب زوجته في أثناء معاناتها آلام المخاض. نُقلت جوليا في نهاية المطاف إلى غرفة التوليد على كرسيّ مدولب. وقفت إلى جانبها مرتدياً المئزر الجراحيّ وأنا على استعداد لتقديم أي خدمةٍ. مضت عشرون دقيقة... وأخيراً ظهر الطبيب حاملاً المولودة بين يديه. بدت طويلة وبشعرٍ داكن اللون، ومبللةً، وضعيفة. ازداد الأدرينالين في جسمي، وظننتُ لبرهة أنها ميتة، لكنها ارتعشت بالحياة فجأة، وبدأت بالصراخ الذي يدل على العافية: «رُزقتما بطفلة» ، قالها الطبيب، فيما انهمرت الدموع من أعيننا، أنا وجوليا. كان من المذهل جداً أن نكون قبل لحظة واحدة أسرةً تتألف من شخصين، ليغمر حياتَنا فجأة هذا النور الجديد: ألكسندرا فوربس كيري. كانت تلك معجزة، لأنني لم أشعر في حياتي بمثل هذا الحبور والذهول العظيم.

ذكّرتني جوليا في وقتٍ لاحقٍ، وبينما كنت أنعَمُ بشعور الأبوة الجديد الرائع، بأنَّ عليّ الذهاب إلى كلية الحقوق. تذكّرت عندها أنني أبٌ جديد، وإذا لم أسرع، فذلك يعني أنني طالب حقوق مستهتر. قدت سيارتي إلى تشستنت هيل... وهكذا أمضيتُ يوماً مشوشاً وسعيداً.

كانت الأشهر التالية شبيهة بما يحدث في فيلم «يوم جرذ الأرض» مع العمل الرتيب نفسه: كنت كل يوم أقوم بتغيير الحِفاضات، وتغذية الطفلة في الليل، ودراسة القانون في أي مكانٍ أتمكّن فيه من القيام بذلك، ومزاحمة السيارات المتوجهة من لويل إلى تستنت هيل، والرجوع إلى المنزل. كنا في ذلك الوقت في ذروة أزمة الحظر النفطي الذي فرضته دول الأوبك سنة 1973، وكنت أقرأ عن العقود، والملكيات العقارية، وأخالف القانون مع الصفوف الطويلة من السيارات التي تنتظر تزويدها بالوقود. وقد أمضيت السنوات الثلاث التالية في مكتبة القانون، وفي مكتب رئيس وكيل نيابة المنطقة، حيث كنت طالباً متدرّباً، وكنت في المنزل أستمتع بمحبتي للطفلة التي دخلت حياتنا، فأراقبها وهي تتحوّل إلى فتاة صغيرة تتمكن من المشي والتكلّم وإدهاش أهلها.

اهتممت بدراستي في كلية الحقوق بطريقةٍ لم أعهدها خلال دراستي ما قبل الجامعية. اشتركتُ في محكمة صورية، مع صديقتي الرائعة رونا شنايدر، وفزنا في المنافسة المدرسيَّة، ومضينا لنكسب المنافسات الإقليمية، ثم ذهبنا إلى مدينة نيويورك للمشاركة في المباريات النهائية على مساحة البلاد بأكملها. ظننّا لوهلة، وبعد انتهاء المباريات، أننا هزمنا فريق معهد حقوق ديوك في النقاشات الشفهية. انتظرنا ساعات لمعرفة القرار وإعلان النتيجة النهائية. أراد القضاة في ذلك الوقت منْحَنا الفوز، لكن فريق ديوك كان أفضل منا قليلاً في المنافسة الخطية، التي تشكّل نسبه تزيد على 50% من النتيجة. انشغل القضاة بمناقشة حامية، في محاولة منهم إيجاد طريقة لإعلان فوزنا، لكنهم لم يتمكنوا من كسر القواعد المتّبعة، فخسرنا المباراة. كانت تلك هي آخر مرة في منافسات المحاكمات الصورية الوطنية التي جعلت المسابقة الخطية أكثر قيمةً من النقاش الشفهي. وهكذا، تغيّرت القواعد أخيراً.

إنني أدين بالفضل لكلية القانون في تعليمي كيفية التفكير. وقد استمتعت كثيراً بالحوارات المتبادلة على الطريقة السقراطية في معهد القانون اليسوعي، حيث كنتُ جزءاً من مجموعة دراسية رائعة تضمّ خمسة من زملائي الطلاب الذين اجتمعوا لتحليل القضايا التي أُعطيت لنا. يُضاف إلى ذلك أن المواجهات الحادة التي كانت تجري حول معنى كلمة واحدة قد علّمتني أن أكون أكثر انتقاداً، وأكثر دقةً في طريقة تفكيري.

سمح لي القانون في ماساتشوستس، بوصفي طالباً، بمحاولة الانتقاص من خطورة القضايا المعروضة. سُمِح لي أيضاً بالمثول أمام هيئة محلفين مؤلفة من ستة أشخاص. دُهشتُ كثيراً للفن الذي ظهر خلال محاكمة تضم محلفين، وأمضيتُ ساعاتٍ وساعات في مشاهدة مساعدي وكلاء النيابة

العامة في أثناء مرافعاتهم في قضايا الاغتصاب، والسلب المسلح، أو القتل. وقد تمنيتُ عند ذلك أن أشارك في قضية جناية حقيقية.

توجهت إلى العمل في أول يومٍ لي بوصفي المدعي العام المتدرب، وسرتُ إلى محكمة الجزاء المحلية في كامبردج، وأعطيت لي قضية قيادة في حالة ثمالة. أعطاني مساعد وكيل النيابة العامة أوراق القضية قبل عشرين دقيقة من بدء المحاكمة، وقال لي: «ليس هناك طريقة أفضل للبدء أكثر من البدء فعلاً» . اختفى من أمامي بعد ذلك، وتركني لمواجهة القاضي بمفردي. سمعت نداء: «ليقف الجميع» . وقفت مع جميع الحاضرين، ثم تفحّصت أوراق القضية كما وردت في تقرير الشرطة، ثم استدعى القاضي الضابط وطلب منه الوقوف على المنصة. طرحتُ بعد ذلك أسئلة أكثر ممّا هو ضروري. لاحظت أنَّ القاضي يبتسم قليلاً، لكنه كان قلِقاً قليلاً في أثناء تحمّله أدائي غير المحترف. عمدتُ في ذلك الوقت إلى وضع زجاجاتٍ فارغة جمَعها رجال الشرطة من السيارة وقدّمتها على أنها دليل ثابت، وكدتُ أسمع قهقهة القاضي. لم أعرف أن الحكم في هذه القضايا تُطلَق بسرعة نارية. ويعود ذلك إلى وجود عدد كبير من القضايا المشابهة، وهو ما يدعو إلى الإسراع في البتّ فيها. لكنني كنت أتعامل مع هذه القضية، وكأنها محاكمة لجريمة قتل، وحصلتُ في النهاية على إدانة، فشعرت، لبساطتي، بأنني أترافع في قضية جنائية.

تخرجتُ في ربيع العام 1976 وأعْدَدْتُ نفسي بأقصى درجة من الحماسة والإلحاح لخوض امتحان نقابة المحامين. يعود ذلك إلى أنني وُعدتُ بوظيفة مساعد وكيل النيابة فور اجتيازي امتحان النقابة. شعرتُ بحماسةٍ كبيرة بشأن هذه الفرصة التي أُتيحت لي لكي أصبح وكيل ادّعاء. لكن حماستي لهذا الوعد بالحصول على وظيفة كان له سبب آخر، وهو حاجتي إلى المرتّب. ذلك أنني عثرتُ مع جوليا على منزلٍ مثالي لأسرتنا، يقع في تشستنت هيل. كنّا قد أمضينا في لويل ثلاث سنوات. لكنْ، مع وجود طفلة في المنزل، ووظيفة في كامبريدج، أصبحت مشكلة النقل لا تُطاق. كانت المسافة التي تفصلنا عن بيوت الأصدقاء، وعن مكان العمل، قد أتعبت جوليا كثيراً. كان يهمّنا أن نعيش حياة طبيعية.

لاءم المنزل الجو الرومانسي الذي نعيشه، كما تلاءمت لمساته الإيطالية مع حنين جوليا لبلدها إيطاليا. قد تكون زخرفة السقف التي تشتمل على الجص والتيراكوتا هي التي جذبتنا إلى المنزل، بالإضافة إلى ذلك الجدار القرميدي الرائع الذي يشكّل سياجاً للحديقة التي أصبحت بعد ذلك حديقتنا السرية الخاصة بنا. أما غرف النوم الفسيحة، فتتسع لأسرة أكبر من أسرتنا. كان انتقالنا إلى هذا المنزل قد أتى في الوقت المناسب تماماً: كانت جوليا

حاملاً بطفلنا الثاني، الذي كنا نتوقّع ولادته في وقتٍ ما من أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر وأوائل شهر كانون الثاني/يناير. منحنا التفكير في منزلٍ جديد شعوراً رائعاً، وازداد هذا الشعور فرحاً بعد معرفتي أنني نلت الوظيفة التي أردتها، بعد أن اجتزت بنجاح امتحان نقابة المحامين. شعرنا بارتياح كبير في أثناء انتقالنا إلى المنزل الجديد. كانت بانتظارنا أكثر المفاجآت روعة. فقد ترك لنا أحد الأصدقاء أمام القاعة «سرطان بحر» وغداءً يشتمل على الشمبانيا، وذلك في أول ليلةٍ لنا في منزلنا الجديد.

كان من دواعي سرورنا أواخر الخريف أنَّ جميع أفراد مجموعتنا الدراسية قد تمكنوا من اجتياز امتحان نقابة المحامين. لكنّني أقسمت في اليوم نفسه يمين الانضمام إلى النقابة، وباشرتُ في تحمّل مسؤولياتي بوصفي مساعد وكيل النيابة. أسند إليّ في أول يوم عملٍ النظرُ في دعوى اغتصاب، والوقوف أمام محامي دفاعٍ شهير، هو بيل هومانز؛ فشعرت، وأنا أضع مغتصباً وراء قضبان السجن، بإحساسٍ حقيقي بفرح الإنجاز. ولم يمضِ وقتٌ طويل من عشية الاحتفال بعيد رأس السنة، وقبل أن تقلب السنة صفحتها إلى العام 1977، حتى عدنا ثانية إلى مستشفى إيمرسون استعداداً لقدوم ابنتنا الثانية، فانيسا برادفورد كيري. كانت بداية السنة طيبة لنا، لأن الله أكرَمنا بمنزلٍ جديد، ووظيفةٍ جديدة، ومولودةٍ بصحة جيدة.

باشرت عملي بكل اهتمام في مكتب وكيل نيابة ميدلسكس جون دروني الذي كان رئيسي، لكنه كان سياسياً محترفاً من الطراز القديم، فتابع أخبار ترشّحي الفاشل للكونغرس، واحترمَ خدمتي العسكرية. أمضينا معاً أوقاتاً كثيرة في الحديث عن السياسة، وأتحفني بقصصه عن بعض مرافعاته العظيمة. قال لي إنه تمكّن من وضع عدد من مشاهير المجرمين وراء قضبان السجن، وكان منهم خانق بوسطن. لكنني شعرت بأسف كبير لوقوع جون فريسة مرضٍ أثّر في أعصاب الحركة عنده، غير أنه حاول إبقاء الأمر بعيداً عن أعين الناس. ولم يكن يسمح لأحد بالسؤال عن صحته، أو القيام بأي عمل يلهيه عن أعمال مكتبه، أو سؤاله عن إعادة انتخابه.

كانت المشكلة بطبيعة الحال هي أن إعادة انتخابه لم تكن مؤكّدة. ظن جون أن بإمكانه القيام بسباقٍ انتخابي على النسَق القديم، حيث يظل بعيداً عن الأنظار، والاعتماد على شهرة اسمه، تاركاً للمدينة والسياسة الأخلاقية أن تقوما بالباقي. لكن السياسة تغيّرت. ذلك أن سكوت هارشبارغر، وهو مساعد وكيل نيابة عامة سابق، كان يخطط للترشّح ضد جون، بوصفه مرشحاً إصلاحياً. وقد مثّل سكوت تحدياً رهيباً في هذه البيئة الجديدة. يُضاف إلى كل ذلك أن المكتب قد تخلّف كثيراً عن اللحاق بركب التحديث. كان روبرت «بوب»

مورغنثاو قد بدأ في نيويورك بوضع معايير جديدة للمدّعين العامين. وفي ماساتشوستس كان بيل ديلاهنت في مقاطعة نورفولك هو الذي يقوم بذلك. أما واشنطن فقد كانت تمنح أموالاً للمدعين العامين لتحديث مكاتبهم، وتطوير أعمالهم. إلّا أنَّ جون دروني لم ينل أي منحة على الإطلاق، ولم يُمنح مالاً يساعده في خطة للتحديث. وقد وُجدت في المكتب أيضاً آلاف القضايا غير المنجزة، والتي كانت تنتظر البتّ فيها، وكانت كل منها موضوعة على بطاقة داخل صندوق ملفات. ولم يتوفّر في ذلك الوقت أي نظام حاسوبي، فيما استمرت معدلات الجريمة في الارتفاع، وتراجعت العدالة بشكل مستمرّ. سألني جون ذات يوم عن اقتراحاتي لتغيير المكتب، فزوّدته ببعض منها، لكنه صدمني في اليوم التالي عندما عيّنني مساعداً أول لوكيل النيابة. وهكذا أصبحت مسؤولاً أمامه فقط، مع تزويدي بسلطةٍ كاملة تساعدني على تنفيذ ما يجب عمله. دعا جون جميع العاملين في المكتب إلى اجتماع، فاكتظّ المكتب بالعاملين لكي يستمعوا إلى ما سوف يقوله، فأعلن على الفور مهمتي الجديدة في المكتب.

شعرت بالصدمة والإثارة في الوقت نفسه، لأنني لم أتخيّل مطلقاً، ولم أتوقع أنني سوف أدير واحداً من أكبر مكاتب المدعين العامين في البلاد بعد مرور أشهرٍ قليلة فقط على تخرّجي في كلية الحقوق. أدركت أنه سيكون في المكتب مَن يريد عرقلة عملي، لكنّني أعلم أن التغيير لا يأتي بسهولة في أي مكان. وأنني أمتلك في الوقت نفسه فرصةً لتغيير المكتب رأساً على عقب، وكنتُ متلهفاً ومتحمساً لإثبات مقدرتي.

استطعنا بمساعدة شبّان إصلاحيين يتمتعون بالكفاءة، وظّفناهم لتنفيذ خطة الإصلاح، إقامة نظام لمحاسبة الموظفين في مسائل إسناد القضايا وتدفقها، وأدخلنا برنامج مساعدة الضحايا والشهود، وأقمنا وحدة استشارية في قضايا الاغتصاب، ووحدة جرائم الوظائف الإدارية، وهي وحدة متخصصة في الجرائم المالية المعقّدة، وتمكنّا من تركيب نظامٍ حاسوبيٍ جديد.

حان وقت إعادة انتخاب جون دروني في العام 1978، فضجَّ المكتب بالحركة؛ لكن جون بقي متحفظاً بشأن الإعلان عن إنجازاتنا على طريقة الحملات الانتخابية الحديثة. تمكّنت في النهاية من إقناعه أن يسمح لنا بوضع إعلان بصفحةٍ كاملة في صحيفة بوسطن غلوب. كان الإعلان على الشكل الآتي: عشرة أسباب تدعو إلى إعادة انتخاب جون دروني - القصة التامة والسريعة لكل جريمة بشعة تمكّن من فكّ ألغازها، الأمر الذي جعل البلد أكثر أماناً... وفاز جون في هذه الانتخابات، وعدتُ أنا إلى جلسات المحكمة.

بقيت قضية واحدة عالقة، هي قضية أوستن غريفين من قدامى المحاربين الذين نالوا أوسمة تقديرية، وعضو في أحد مراكز الفيلق الأميركي المحلية. دخل إلى مكتبي الكائن في الطابق الثاني من مبنى المحكمة، وأبلغني أن هووي هنتر، وهو الرجل الثاني في ترتيب الجريمة المنظمة في نيو إنجلند، يسعى لإدخال أجهزة القمار إلى المركز بالقوة. لم يوافق أوستن على هذا الأمر مطلقاً. وقال لي أيضاً إنه غاضبٌ جداً بسبب أساليب هووي، ولا يريد الخضوع لمطالبه. وقد اشتهر هووي وعصابته المسماة «عصابة ونتر هيل» من وراء إجرامهم الذي لا يرحم، أي إراقة الدماء. كانت الجثث تتناثر في كل مكانٍ يقصدونه، وتنتشر جثث المراهنين الخاسرين فوق ضفاف نهر مايستيك، ويختفي بين وقتٍ وآخر بعض الأشخاص العاديين. تشارك ونتر مع جايمس «وايتي» بلغر، وبعض أشهر القَتَلة في زمانهم. لكنهم جميعاً لم يُدخلوا الرعب في قلب أوستن غريفين.

كانت ملاحقة هووي ونتر تحدياً كبيراً لنا. لكنَّ هذا المواطن، الذي يتمتع بصدقية لا يرقى إليها الشك، كان يتوقع منا أن نتحرك. اتصلتُ بشرطة الولاية، فكانَ أنْ عملَ أوستن معنا يوماً بعد يوم. قدّمنا في ذلك الوقت الحماية للشهود، ولم يتراجع أوستن، وكانت النتيجة كسب إدانة من هيئة المحلفين العليا. بعد ذلك، طلبت من النائب العام اللامع بيل كودينا تخصيص كامل وقته للعمل على هذه القضية. كان الرجل أفضل وكيل نيابة عندنا يترافع في الجلسات، ولم يكن بإمكاني قط أن أترافع في قضية بهذا الطول والأهمية. وقد تمكن بيل بحنكته من التوصّل إلى حكم إدانة بطريقة أحدثت انقلاباً في مجال مرافعات النيابة العامة الرائعة. حدث في تلك المرافعة، وللمرة الأولى، توجيه صدمة قاصمة إلى عصابة ونتر هيل، وإلى الجريمة المنظمة. لقد تمكّنا من تحقيق شيء على مستوى المقاطعة، لم يحدث على مستوى حكومة الولاية أو الحكومة الاتحادية. وحدث كل ذلك بسبب مواطنٍ جسور امتلك القيَم وأعصاباً فولاذية، وكان مستعداً للوقوف دفاعاً عن حقوقه، ويأبى التراجع أمام الشر.

بقيتُ مع ذلك المكتب حتى العام 1980، حين شعرت أن وجودي يقيّد جوني جون دروني بطريقة ما. إلّا أن جون لم يلمح إليّ بشيء، بل بدأ بإثبات وجوده في بعض القرارات التي تتعلق بالموظفين في المكتب. وقد أحسستُ عند ذلك بأن الوقت قد حان لمغادرتي. كان دروني بمثابة المرشد لي، وهو الأمر الذي افتقدته في ماساتشوستس. وقد كان للنموذج الشخصي الذي قدّمه في مكافحته لمرضٍ فظيع، هو التصلّب الجانبي الضموري، والفرصة التي قدّمها إليّ، أثر بالغ في حياتي.

لكنْ حان الوقت كي أبدأ فصلاً جديداَ.

في العام 1980 اكتسح رونالد ريغان البلاد بما فيها ماساتشوستس. بدأتُ في ذلك الوقت بممارسة المحاماة في مكتب محاماة صغير، كنت قد أسّسته مع مساعدة وكيل نيابة آخر من مقاطعة ميدلسكس، تدعى روان سراغو. عملنا في ذلك الوقت على قضايا فساد طبية لافتة للنظر: كان أحد الأطباء المحليين قد تورّط مع شركة مختصة بزرع الشعر تستخدم ألياف السجّاد بدلاً من الشعر، وهي خدعة غبية. كانت الصور التي تُظهر الرؤوس المصابة نتيجة هذه الألياف المسرطنة كافية لإصابة من يراها بالغثيان. وكنت أنا وروان بحاجة إلى العثور على المحلّفين المناسبين الذين يتحملون الغثيان! ولم تكن شركات التأمين على استعداد لتحمّل التكاليف. دفعنا ذلك أن نتوجّه إلى المحاكمة، ونجحنا بعد في إدخال الميزات المسرطنة لألياف السجاد لتكون من الأدلة. وقد أسفر كسب تلك القضية عن اقتناع شركات التأمين بأننا نعرف كيفية إجراء المحاكمات، وتمكّنا في النهاية من انتزاع سلسلة من التسويات.

كانت هذه القضايا أمراً ممتعاً لنا. لكنني رأيت أن هذا النوع من القضايا يمكن توقّعه بسهولة بالغة. ما يعني أنني، ومنذ اللحظة التي يدخل فيها زبون ما إلى المكتب، أتمكّن، وبسرعة معقولة، من توقّع النتيجة. لكن ثمة قضية كانت استثناءً لهذه القاعدة: طلبت روان موعداً من المحكمة لتمثيل سجين فقير الحال، يدعى جورج راسفيدلر، وهو الذي أصر على أنه بريء من الجريمة التي أُدين بها. لم نأخذ أنا وروان، كلام السجين على محمل الصدق، لأننا تعلّمنا في مهنتنا أنهم «كلهم أبرياء» على قول المثل. ويُمكن أن يؤدي العمل في مجال الادعاء أمام المحاكم إلى خلق نوعٍ من التشكيك في مجال القانون الجنائي. لكنّني استنتجت، بعد الدفاع عن أحد المتهمين بارتكاب إحدى الجرائم، أن مجال الدفاع عن المتهمين يؤدي إلى النتيجة ذاتها.

أكدت قضية جورج رايسفيلدر خطأ الاستنتاج الذي توصّلنا إليه. فقد اقتنعت روان أولاً، وأنا بعد ذلك، بأن المتهم بريء بالفعل. وكان الرجل في السجن بسبب جريمة لم يرتكبها. كان الرجل مجرماً بطبيعة الحال، لكنه لم يكن قاتلاً. وقد أمضت روان ساعات استثنائية ومتعبة في حلّ هذه القضية. وعملتُ أنا على أجزاء من تلك القضية نيابةً عنها من أجل تخفيف أعبائها. ظننّا أننا نستطيع إثبات البراءة، إلّا أن عراقيل صعبة اعترضت طريقنا. كان من تلك العراقيل تحرير أحد الكهنة من قسمه باحترام الخصوصية. واحتجنا أيضاً إلى تأمين تجريد من مبدأ حماية المحامي- الموكِّل من أجل قبول المعلومات التي

تؤدي إلى تبرئة جورج من شريك الدفاع عنه، والذي كان قد توفي في هذا الوقت. وكان من الصعب علينا أن نصدّق أن شريك جورج كان قد أبلغ محاميه الخاص بأن جورج لم يقتل أي شخص. لكن المحامي سمح بإدانة جورج لكي يحمي موكّله. إلّا أنَّ الحقيقة يُمكن أن تظهر أخيراً شرط السماح للمحامي أن يدلي بشهادته. لكنَّ القضيَّة، وقبل وقتٍ طويل من ظهور اختبارات الحمض النووي، كانت برهاناً على إمكانية وضع إنسانٍ بريء وراء قضبان السجن. وقد أسفرت هذه القناعة عن تشديد موقفي المعارِض لفرض عقوبة الإعدام.

بحلول العام 1981، يكون قد مضى على وجودي في ماساتشوستس عشر سنوات تقريباً، وعلى خسارتي في الدائرة الانتخابية الخامسة. بدأت أشعر في هذا الوقت بالحنين إلى السياسة مجدداً. وكان مايكل دوكاكيس يتهيأ للترشح لمنصب حاكم الولاية، لكنْ كان عليه قبل ذلك منافسة الحاكم الحالي إد كينغ الذي كان ينتمي إلى الحزب الديمقراطي. بدا لي حينها أن الوقت مناسب لمحاولة إعادة الانخراط في السياسات الانتخابية. رأيت في ذلك الوقت أن شغلَ منصب نائب الحاكم سوف يكون طريقة جيدة للمشاركة، ولتعلّم أساليب الحكم بالطريقة الصحيحة، أي التعرّف إلى الواجبات، وليس الاندفاع بسرعة كما فعلتُ من قبل.

لكنْ، وقبل وقتٍ قصير من بدء عملية البحث والاستقصاء، مستخدماً مكتب المحاماة ليكون قاعدةً عملٍ لي، دخل شاب أشقر الشعر من دورشستر إلى مكتبي، وأبلغني أنه يريد العمل لمصلحتي. كان اسم ذلك الشاب المبتدئ في العمل الذاتي، والذي يعرف ما أريد بالضبط، ومتى، ولأجل مَن، مايكل وولي. لم أعرف في ذلك الوقت أنَّ السياسة سوف تعيدنا لنعمل معاً مدى الحياة، وأن مايكل هذا سيصبح واحداً من أعظم المنظمين السياسيين في جيله.

تبيّن لي أن السباق نحو منصب نائب الحاكم سوف يمرّ عبر انتخابات تمهيدية شاقة، يشترك فيها عدة مرشّحين، لكنَّ العادة أن يجري إغفال وظيفة نائب الحاكم وتجاهلها. وكنتُ في بعض الأحيان أروي قصة كالفين كوليدج، ثالث رئيس للولايات المتحدة، وهو الذي شغل قبل ذلك نائباً لحاكم ماساتشوستس. فقد حضر ذات مرة حفل عشاء، فتقدمت منه امرأة كانت جالسة إلى جواره، وسألته عن عمله، فقال بعبارة مختصرة ميّزت أحاديثه: «أنا نائب حاكم هذه الولاية» . أجابت المرأة: «أوه. هذا رائع! أخبرني كل شيء عن هذه الوظيفة» ، فأجاب بسرعة: «قلتُ لكِ لتويّ» . لكن المركز الثاني في

سلطة ماساتشوستس ما زال مع ذلك مغرياَ، وعلى الأخص في ظل دوكاكيس.

تُعدُّ السياسة في ماساتشوستس ولعاً مشبعاً بالعقيدة والمثالية، لكنها عملٌ جدي، وضخم، وشاق من دون توقف. وقد جرى استبعاد كل مرشّحٍ من المرشحين في هذا السباق نحو منصب نائب الحاكم. أما أنا، فقد تمكنت بصعوبة من الحصول على نسبة 15% من مؤتمر الولاية المطلوبة لوضع اسمي في التصويت، لكنني رأيت ذلك قفزة مهمة نحو يوم الانتخابات الأولية في شهر أيلول/سبتمبر.

كانت سنة 1981 يملأها الانشغال بالسباق الانتخابي، لكنها كانت مفعمة أيضاً بالتوتر المتزايد في زواجي. بقيت علاقتي بجوليا على غير ما يرام لفترة طويلة من الوقت. كانت تجربة الانغماس التام في المجهود الذي بذلته ضد الحرب، ثم السباق نحو الكونغرس بعد ذلك، ثم كلية القانون، ثم الانتقال إلى الوظيفة الجديدة، واتخاذ القرار الذي كانت السياسة دافعه، عوامل اجتمعت كلها لتفريقنا. وكنت أنا من كان يدفع الثمن غالياً. لكنْ، ومهما تكن وجهة النقاشات التي جرت، وهي كثيرة، ومنها ما تضمن تدخلاً مهنياً، فإنَّ الضرر وقع بالفعل. كانت جوليا تعاني الاكتئاب، أمّا أنا فكنتُ غير مكترثٍ في البداية مع الأسف. أبلغتني بذلك، لكن الأمور ساءت قبل أن أفهم ما يجري. تغيّرت جوليا ولم تعد تستسيغ الحياة العامة بكل متطلباتها العملية غير الصادقة، والتي لا تنقطع. لم تكن هناك أي طريقة للتوصّل إلى سعادة تتقاسم فيها السياسة حياتها وأسرتها. وقد انتهت أخيراً هذه العلاقة الرائعة التي بدأت في يال، واستمرت خلال حرب فييتنام، وخلال اثنتي عشرة سنة من الزواج. وهكذا وافقنا في صيف العام 1982 على الانفصال بعد انتهاء الانتخابات.

كان ذلك قراراً مؤلماً. كنت أعرف أن زواجنا يعاني متاعب كثيرة. لكنّني بقيت مع ذلك أكره ألّا أصطحب بعد الآن أولادي إلى السرير، وألّا أبقى معهم في المنزل، بغضّ النظر عن تداخل الحياة العامة مع هذا الوضع النموذجي. كرهتُ أيضاً فكرة عدم الاحتفال بعيد الميلاد أو المشاركة فيه بعد ترتيب برنامج عن طريق محامٍ ما. سيطر عليّ في تلك الفترة إحساسٌ غريب. وكان يستحيل عليّ النهوض من السرير، والتخلّص من ذلك الشعور، والخروج للانشغال بالحملة الانتخابية مع ابتسامة مصطنعة أرسمها على وجهي، وذلك فور الانتهاء من جدالٍ عاطفي عميق وقاس. كانت هناك أوقات شعرت خلالها وكأنني أعود طفلاً ينام نوماً عظيماً مثل المراسل في «جميع رجال الملك» . النوم العظيم. خطر لي في بعض الأوقات أنني قد أستيقظ من هذا الكابوس لأكتشف أن النوم العظيم قد أسفر عن إصلاحٍ عظيم. لكن ذلك لم يحدث.

دخلت نتيجة هذا الوضع في عالم مزدوج: عالم أعيش فيه، وأمضي بالحملة الانتخابية بشكلٍ آلي، وعالمٍ آخر أحيا فيه نصف حياة في المنزل. وقد تطلب الأمر كل التركيز الذي يمكنني استجماعه.

تمكنّت من الفوز في الانتخابات الأولية التي جرت في أيلول/سبتمبر، وانتُخبت في 2 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1982، أنا ودوكاكيس معاً. دخلتُ إلى مكتبه بُعَيْد ذلك، وأخبرته أنني وجوليا على طريق الانفصال. كان ذلك حديثاً لم أكن أتوقع أن يجري مع الحاكم الذي أصبحتُ نائبه الجديد.

أقيم حفل تنصيبنا في شهر كانون الثاني/يناير من العام 1983. لم يطل الوقت للاستنتاج أن مايكل قد يرشّح نفسه لمنصب رئيس البلاد عندما يحين الوقت. إلّا أن الرجل لم يخبرني بهذا الأمر، لكن بعض القرارات التي اتخذها حول من سوف يقوم بمهماتٍ معيّنة، جعلت الأمر في غاية الوضوح، أو هكذا ظننت. كان، من تلك الأفكار التي اقترحتها في أثناء الانتخابات التمهيدية، إنشاء مجلس الجرائم الذي من شأنه توحيد كل وكالات تنفيذ القانون، وعقد اجتماعات دورية من أجل تنسيق كل جهود مكافحة الجريمة. وافق مايكل بعد فوزي في الانتخابات التمهيدية على ترؤُّسي مجلس الجريمة، وهو ما أردته أنا بالفعل. لكنْ، وبعد وقت قصير من حفل التنصيب، اتصل بي لألتقيه في الطابق العلوي. وهناك علمت بأنه قرّر أن يترأس المجلس، لكنني ذكّرته بحديثنا السابق، فأقرَّ بتغيير موقفه، وقال لي بعد ذلك: «كان عليّ أن أفعل ذلك» . لا أدري إن كان قراره مبرراً، لكنني فسّرت قوله أن من الضروري إنشاء هيئة قوية لتطبيق القانون. كان ذلك من حقّه بالكامل، وكان من المفهوم السبب الذي دفعه إلى ذلك. لكنني غادرت الاجتماع بعد أن تعلّمت درساً عظيماً عن طبيعة صلاحيات نائب الحاكم. فمن يشغل هذا المنصب لا يمتلك صلاحية سياسية، إلّا إذا كان يشغل وظيفة أخرى. وهكذا يعيش نائب الرئيس بفضل الحاكم أو فريقه. كنت أعرف مبدئياً أن خوض السباق، له تأثير مختلف كليّاً عن أي تأثير آخر.

يمكنني التأكيد أنَّ مايكل كان حاكماً رائعاً، وإنساناً عظيماً يسهل العمل معه، وهو الذي عاملني طوال فترة عملي معه بكل احترام وصدق. وقد أضفى على المنصب الذي شغله قدراً كبيراً من العقلانية والنزاهة. وقد امتلك إحساساً كبيراً بمسؤولية الخدمة العامة، بالعمق ذاته الذي لمسته عند جميع من قابلتهم في حياتي. أما والدي الذي لم ينشغل قط بالمستويات الشعبية للسياسة، فقد كان واحداً من أوائل المندوبين عن مايكل إلى أول مؤتمراته التي عقدها على صعيد الولاية، لكنه لم يبلغني ذلك بنفسه.

كان مايكل يمارس عمله بكفاءة، إلا أنه كان في بعض الأحيان يخيّب آمال الجميع بإصراره على إنجاز شيءٍ ما، بحسب ما تنص عليه القواعد بكل صرامة. لم يكن يتراجع قط، وكان الجميع يعرفون ذلك. توجّه ذات يوم إلى الكونكورد، نيو هامبشاير، للمشاركة في مأتم الحاكم هوغ غالين. وكانت طموحاته الرئاسية معروفة للجميع في تلك الفترة. وهكذا، طُلب منه إلقاء مرثيّة في مقر حكومة الولاية. وكان من المقرر أن تبث كلمته هذه في المحطات التلفزيونية في كُلّ البلاد. لذلك، كان ما جرى مناسبة مهمّة له على الصعيد الوطني.

ركب مايكل وكيتي، سيدة الولاية الأولى، معي في السيارة إلى نيوهامبشاير، وجلسا في المقعد الخلفي لسيارتي الستايشن. انطلقنا بالسيارة متأخرين قليلاً. لكنْ، في غضون دقائق من انطلاقنا في الطريق بين الولايات الرقم 93 من بوسطن إلى كونكورد، أصدر مايكل أمراً إلى سائقي بوجوب عدم تجاوزه سرعة 60 ميلاً في الساعة... تبادلت النظرات مع كريس، فأدركت أننا لن نتمكن من الوصول مع الحاكم في الوقت المحدد. مرّت الدقائق بسرعة، وكان مايكل يعيد تذكير كريس كلما تجاوز السرعة، فيكرر تحذيره: «لا تتجاوز سرعة 60 ميلاً في الساعة» . وأخيراً، لدى اقترابنا من حدود نيوهامبشاير، وعندما تأكدنا من أننا تأخرنا كثيراً، استدرتُ نحو مايكل، وقلت له إنني سوف أتصل بشرطة ولاية نيو هامبشاير لمواكبتنا، وإن لم نفعل ذلك، فإننا لن نتمكن من حضور المأتم. لم يقل مايكل شيئاً. أمّا كيتي فكانت في هذا الوقت تُشعل سيجارة أخرى، وكانت تقف إلى جانبي. استقبلتنا سيارات شرطة ولاية نيوهامبشاير عند نقطة دفع الرسوم، وانطلقنا خلفها بسرعة كبيرة حتى وصلت سيارتنا المزودة بمحرك ديزل إلى سرعتها القصوى. تطلعت إلى الخلف، فلاحظت أن مايكل منزعج، ولم يعد مهتماً بمؤشّر السرعة. وصلنا متأخرين إلى مقرّ حاكم الولاية والدخان يتصاعد من محرّك السيارة، إلّا أن الوقت كان لا يزال مناسباً لإلقاء الحاكم كلمته.

تكرّم مايكل بأن سأل زملاءه حكام الولايات إن كانوا يوافقون أن يترأس نائبه اللجنة الفرعية في الاتحاد الوطني لحكام الولايات. وافق الحاكم جون سونونو من نيوهامبشاير، وكذلك فعل الحاكم ديك سيليست من أوهايو. قد أكون نائب الحاكم الوحيد الذي ترأس لجنة فرعية. لكنْ، بفضل السلطة التي فوّضها مايكل لي، ترأست لجنة الاتحاد الوطني لحكام الولايات لمشكلة المطر الحمضي. أما جون سونونو وديك سيليست فقد أصبحا شريكين أساسيين في تطوير نهج، يهدف إلى وضع نظام الحد الأقصى للتجارة، بالاستناد إلى وضع السوق، وذلك بهدف معالجة مشكلة الكبريت، أي الانبعاثات الرئيسة عن محطات الطاقة العاملة على إحراق الفحم، وهو الأمر

الذي تسبَّب في تدبير البحيرات وجداول المياه. كان أمامنا هذه الطريقة المستندة إلى السوق، والتي تهدف إلى التحكّم بالانبعاثات الضارة، وهو المشروع الذي كان حلم عددٍ من مراكز البحوث المحافظة. وقد قمنا بتبنّي هذا المشروع الذي تحول فيما بعد إلى قانون اتحادي. وتمكنّا به من القضاء بنجاح على مشكلة المطر الحمضي.

قادني عملي في مشروع المطر الحمضي، وبسرعة، إلى سباقٍ للوصول إلى مجلس الشيوخ الأميركي، وذلك قبل أن أفكر في الأمر. وفي أوائل العام 1983، اشتركت في مهمة تتعلق بجمع الحقائق عن التلوث في الجو. وكانت هذه الدراسة لمصلحة الاتحاد الوطني لحكام الولايات. سافرت أولاً لهذا الغرض إلى النرويج والسويد لأشهد ما يحدث، ولكي أفهم ما يجري لبحيرات إسكندنافيا وأنهارها. شاهدت هناك الدليل على الضرر الاستثنائي الناتج من نسب التركيز العالية للكبريت في مياه الأمطار. كانت تلك البحيرات تعجّ بالأسماك، وقد أصبحت الآن ميتة بالكامل. غادرت البلدان الإسكندنافية قاصداً ألمانيا وغابتها الشهيرة «الغابة السوداء» . كانت الغابة جميلة، لكن حالها كانت صادمة. وقد دلّني الكشاف الذي رافقني إلى داخل الغابة إلى المستويات المرعبة للأمراض التي أصابت الأشجار.

تلك الليلة كنت أخطُّ في نومٍ عميق بغرفتي في الفندق، عندما رنّ جرس الهاتف. فكانت المكالمة الهاتفية الثانية التي تتعلق بأمور السياسة، والتي أتلقاها عند الساعة الثالثة صباحاً. كان الصوت على الطرف الآخر من الخط صوت رون روزنبليث، وهو واحد من أقرب أصدقائي، وأكثر المستشارين السياسيين تقديراً عندي. قال لي: «هل أنت جالس؟» ضحكت وقلت: «كلا، إنني مستلقٍ فقط، وفي نومٍ عميق» . اعتذر الرجل لأنه أيقظني، لكنه أسرع إلى شرح السبب الذي دعاه إلى مكالمتي هاتفياً، وقال لي: «أعلن بول تسونغاس للتوّ أنه لن يرشّح نفسه لإعادة انتخابه في مجلس الشيوخ الأميركي، بسبب إصابته بالسرطان» . ذُهلتُ لسماع الخبر، لأنه يكبرني بسنواتٍ قليلة فقط، وكان لا يزال في ولايته الأولى، وقد اشتركنا في معركتي الانتخابية ومعركته في لويل. مضى رون ليقول لي إنَّ عضوين من الكونغرس، هما إد ماركي وجيمي شانون، ورئيس مجلس ماساتشوستس دافيد بارتلي، قد أعلنوا ترشّحهم. أمهلني رون ثماني وأربعين ساعة لأقرِّر إن كنت سأدخل السباق على هذا المقعد. صُدمت جداً، لكنّني كنت مستيقظاً جداً.

استحال عليّ أن أقرر الأمر في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة. لكنّ فريقي، والذين كانوا يريدون أن أترشّح، شعروا بالإحباط. قلت إنني سوف أُكمل الجولة، ثم نتناقش في الأمر لدى عودتي من أجل اتخاذ قرار عقلاني.

تبيَّن لي أنني وصلت إلى مفترق طرق مع الحاكم. شغلتُ مركز نائب الحاكم لفترة سنة واحدة فقط. وإذا قررت الترشح لمنصب الحاكم، فسوف يكون عليّ البدء بتكريس كل وقتي للحملة الانتخابية، ويجب أولاً السيطرة على مشاعري الشخصية لكي أتمكّن فيما بعد من تقرير مساري السياسي.

أُسدِيَت إليّ فور عودتي إلى بوسطن نصيحة. كان أبرز توتّرٍ في موضوع ترشّحي هو الفترة القصيرة التي شغلت فيها منصب نائب الحاكم، مقابل المجهود الذي بذلته طوال حياتي في موضوعات الحرب والسلم، وفي مسائل البيئة في العالم. لكنني كنت على الدوام أعرف ما أريد، إلا أنني اصطدمتُ بالخيبة الشديدة سنة 1972، وأدركت أنني، إذا ما ترشّحتُ وأخفقت هذه المرة، فإن ذلك سوف يعني نهاية مسيرتي نحو منصبٍ عام منتخَب. كانت تلك فترة منعطف مهم في حياتي وفضلاً عن ذلك، لا يستطيع أحد أن يتخذ هذا القرار بالنيابة عني.

أمضيتُ وقتاً في التفكير وحدي، وأجريت مراجعةً لوضعي، ثم صلّيتُ للحصول على الإرشاد الذي أحتاج إليه، وحاولت تحديد الأمور التي تجعلني مرتاحاً إلى القرار الذي سوف أتّخذه. شعرتُ في نهاية الأمر بأنني جاهزٌ بما فيه الكفاية للمضي قُدُماً. كنا في العام 1983، وكان رونالد ريغان رئيساً، فيما كانت الحرب مستعرة في أميركا الوسطى التي راجت المخدرات فيها كثيراً. وكان الرئيس ريغان قد تسلّم زمام السلطة مصمِّماً على زيادة الموازنة الدفاعية كثيراً، وكانت الولايات المتحدة تمر بأوقات اقتصادية صعبة. وقد امتلكت الولايات المتحدة وروسيا في تلك الفترة أسلحة نووية صوّبتها كل منهما نحو الأخرى.

انتشرت في السنوات الأولى من حكم الإدارة تحليلات كثيرة عن الاستخدام المحتمل للأسلحة النووية. وتحدّث وزير الخارجية ألكسندر هيغ في وقت من الأوقات عن إمكانية إطلاق «طلقة نووية تحذيرية» في أوروبا. يُضاف إلى ذلك أن واحداً من أفراد مجلس الأمن القومي قد أكّد وجود نسبة 40% لنشوب حرب نووية، حتى أنَّ الرئيس نفسه قد قال في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 1981 خلال مؤتمرٍ صحافيّ، إنه يرى إمكانية استخدام الأسلحة النووية التكتيكية في ميادين معاركَ محددة، ومن دون أن يؤدي ذلك إلى حرب نووية شاملة. وراجت أحاديث مقلقة حول اتجاهات الإدارة في ذلك الوقت. أما معارك الحرب الباردة بالوكالة، والتي نشبت في السلفادور، ونيكاراغوا المجاورة التي عانت انقلاباتٍ يسارية، فقد أطلقت إشارات تحذيرية على أن إدارة ريغان قد تُغرقنا في مستنقعٍ جديد.

عادت قضايا الحرب والسلم إلى الواجهة من جديد، وهي القضايا التي وضعتني في عالم السياسة قبل ما يزيد على عقدٍ مضى من الزمن. لم أتقبّل أن أظلّ على هامش سباق انتخابي، قد يضعني في مركزٍ يساعدني على اتخاذ القرارات في هذه الموضوعات المهمة. أدركت أيضاً أنَّ هذه قد تكون فرصة عمري الوحيدة للترشح لسباق الفوز بمقعد في مجلس الشيوخ؛ فقد كان من المؤكد أن تيد كينيدي لم يكن مستعداً للتخلي عن مقعده. وقد ألهمني شيءٌ ما لتقديم ترشيحي. لكنْ، هل كنتُ مفعماً بالثقة بأنني سوف أفوز في أي حال؟ قطعاً لا. وهل كنت مفعماً بالثقة بمقدرتي على إنجاح الأمر، لأنه الشيء الصائب الذي يمكنني فعله؟ بالتأكيد نعم. كان عليّ خوض هذه المخاطرة، إذا أردت الانشغال بالقضايا التي حفّزتني أكثر من سواها. وهكذا، انتقلت فجأة إلى مرحلة الطلب من الناخبين في ماساتشوستس المساعدة على إرسالي إلى واشنطن.

كان الكفاح للحصول على تسميتي مرشحاً في غاية الصعوبة. كان إد ماركي وجيم شانون على وجه الخصوص منافسيَن قويين. لكن ماركي الذي يتمتع بذكاءٍ حاد، لم يُكمل في هذا الاتجاه، بل قرر الترشّح لإعادة انتخابه في مجلس النواب. أما شانون وأنا فقد ناضلنا من أجل تمييز أنفسنا أحدنا من الآخر. كان من الصعب جداً التمييز بين السياسات التي نتَّبعها، لكن جيم تمكّن، ومن دون أن يتعمّد ذلك، من الإضاءة على الفرق الحقيقي بيننا، وذلك خلال نقاش جرى في أواخر مراحل الحملة الانتخابية، وقبل أيامٍ من موعد الانتخابات التمهيدية. أما أنا، فقد أثرتُ خلال النقاش موضوع تغيّرٍ موقف جيم من اقتراح ريغان القاضي بزيادة الموازنة العسكرية. وقد استغربتُ ردّ جيم أن بمقدور الناس أن يغيروا آراءهم، وقال إن أكبر مثالٍ على ذلك هو النموذج الذي وضعته بنفسي، ولو كنتُ معارضاً للحرب في فييتنام بالفعل، ما كنت لأذهب وأشارك فيها. كان ذلك موقفاً غريباً لأنني لم أفكر في الموضوع كثيراً ذلك الوقت. وقد انهالت المكالمات الهاتفية عليّ من جانب قدامى المحاربين من كل أنحاء الولاية، وعبّروا لي عن غضبهم، لأنهم سمعوا شانون يصفهم بالأغبياء، وقالوا إنهم شعروا بأن الرجل قد شكّك في أخلاقياتهم عندما طعن في حق قدامى المحاربين في التعبير عن ضمائرهم، أكان ذلك صحيحاً أم لا. قمت بعد ذلك بالرد على شانون حول هذا الموضوع في حلقة النقاش التالية، وطلبت منه أن يعتذر. أما جوابه، فقد أتى على الشكل الآتي: «جون، وسيلتك هذه لن تجديك نفعاً» . استهجن قدامى المحاربين جوابه هذا بالصفير، وبدأت مجموعة منهم بملاحقته في كل مكانٍ قصده في الأيام القليلة التالية، وأفشلوا خططه. ثم أطلق هؤلاء على أنفسهم لقب «مطاردو الكلاب» . وقد تمكنتُ من الفوز في الانتخابات التمهيدية، بفضل الجهود الشاقة التي بذلتها، وبفضل

جهود كل من أولئك. وهكذا، انفتحت الطريق أمامي للمشاركة في الانتخابات العامة.

كان خصمي في الانتخابات العامة رجل أعمالٍ عصامياً اسمه راي شامي، وهو عضو سابق في جمعية جون بيرش المحافظة، وكان قد خسر أمام تيد كينيدي في العام 1982، لكنه فاز في المؤتمر الانتخابي الجمهوري أمام منافسه الجمهوري، جناح روكفلر، الأكثر اعتدالاً إليوت ريتشاردسون. لم يكن شامي على صلة كبيرة بولاية ماساتشوستس، لكنني لم أنم على حرير، متذكّراً الدرس الذي تعلّمته في لويل سنة 1972. أدركت حينها أن بعض المحافظين الاجتماعيين [أو الاشتراكيين] يمكنهم المراهنة على القضايا الحساسة، وتحريك قواعدهم لدعم مرشّحهم. كان ريغان يقوم في هذا الوقت بجولاتٍ انتخابية لإعادة انتخابه بأكثرية ساحقة، وكان يدفع ماساتشوستس إلى جهة الجمهوريين مجدداً. لم أكن مستعداً لتكرار ما حدث في آخر مرة، وأكون ضمن لائحة المرشحين الرئاسيين المتنافسين. وقد تدخل في هذا الوقت أحد أعضاء الكونغرس الجدد ويدعى جون س. ماكين، وراح لمدة يوم واحد يشجع قدماء المحاربين على التصويت لمصلحة شامي. ركّز ماكين حملته في بوسطن الجنوبية. لم يسبق لي أن التقيته أو عرفته، لكنَّ كل ما عرفته هو أن أسير الحرب السابق هذا بإمكانه جذب الحشود لسماعه. بذلت من جهتي جهداً أكبر لتنظيم قدماء المحاربين وحشدهم إلى جانبنا، وذلك للتأكد من أن الولاية تعرفني، وتعرف أنني لست دخيلاً عليها. ونجحت الخطة، وتمكّنتُ في ليلة الانتخاب من إلحاق الهزيمة بتيار ريغان الذي اكتسح ماساتشوستس. نجحت في دخول مجلس الشيوخ الأميركي بوصفي «محارباً من أجل السلام» .

الفصل السابع: مجلس الشيوخ القديم

«لا يستطيع جورج بوش بيع فتاة هوى واحدة في قطار ممتلىء بالجنود!» .

كانت هذه أولى كلمات محادثة جرت بين أعضاء في مجلس الشيوخ، سمعتها داخل أعظم هيئة تشاورية في العالم، وذلك في 3 كانون الثاني/يناير 1985. ولا أظنُّ أنَّ هذه الجملة هي اقتباس من أوراق اتحادية.

كان ذلك عندما اصطحبني تيد كينيدي إلى القاعة للمرة الأولى، وقدّمني إلى ثلاثة زملاء، أو أربعة، كانوا منهمكين في مناقشة أمرٍ، كانت إدارة ريغان تحاول تمريره من خلال الكونغرس.

إن انضمام المرء إلى مجلس الشيوخ لهو أمرٌ يتّسم بشيء من الغموض. دخلتُ هذا المجلس وأنا في الحادية والأربعين من عمري، أما ترتيبي من حيث السن، فكان التاسع والتسعين، وكان يمكن أن يكون المئة (الأخير)، لو لم يتكرم بول تسونغاس بتقديم استقالته قبل يومٍ واحد، حيث أتمكّن من قسمِ اليمين أمام الحاكم دوكاكيس قبل مغادرتي بوسطن. وبهذا، يكون قد منحني امتيازاً دقيقاً في مؤسسةٍ تستند إلى طول العمر. إلّا أنني وجدتُ نفسي أمام مسؤولياتٍ كبيرة. وقد تمكّن مرض السرطان من تقصير خدمة بول في مجلس الشيوخ، لكنه تمكّن أيضاً، وفي ست سنوات فقط، من ترسيخ سمعةٍ طيّبة بسببٍ استعداده للابتعاد عن كل ما هو تقليدي في بعض الأحيان، ولكونه دارساً ذكياً ومبدعاً في قضايا تتراوح بين المستحقات والعجز المالي.

قبل خدمة بول تسونغاس من لويل، كان هناك إد بروك، وهو واحد ممَّن تبقّوا من الجمهوريين الأميركيين ذوي الأصول الأفريقية. وهو رجل تحرّري يمثل نيو إنغلند، وكان أول عضوٍ في حزبه يطالب نيكسون بالاستقالة سنة 1973. وإذا عدنا إلى فترة ما قبل بول وإد (والآن أنا)، فإننا سنجد قائمة بأسماء مهمّة، يبدو أنَّها انتُزعت من دليل أعضاء أبناء الثورة الأميركية، أو

جمعية ماي فلور. هذه القائمة تتضمَّن أسماء الاتحاديين، واليمينيين، ثم الجمهوريين، والديمقراطيين المعتدلين، مع أسماء مثل سترونغ، وسيدجويك، وبيكرينغ، وروكويل، وهور، وكراين، وكووليدج، وسالتونستال. وعلى هذا، فإنني أستطيع أن أدّعي أنني أضع قدميَّ في العالمَين، ولستُ نتاج أيٍ منهما، وذلك كلّه يعود إلى ما ورثته من أسلافي.

إنني مسرورٌ جداً، لأنني أحمل قدراً صغيراً من ثقل التاريخ الذي سبقني، بالنظر إلى أنه يعكس القصة الحقيقية لأميركا. كنت فخوراً لتمكُّني من المشاركة فيه. قرأت في الماضي قصة عظيمة عن السيناتور هاري س. ترومان، الذي كان قد دخل المجلس حديثاً آنذاك، وكان يجلس في الصف الخلفي من مقاعد المجلس، وكان ترتيبه آنذاك التاسع والتسعين من حيث الأقدمية، كترتيب. وكان هاري قد كتب رسالة إلى والدته التي كانت في ميسوري، وصف لها فيها كيف أنه جلس هناك ذات ليلة مصغياً إلى المناقشات العظيمة التي جرت في ذلك اليوم. كتب عندها أنه كاد يسمع أصوات العظماء مثل دانيال وبستر. تطلع هاري بعد ذلك إلى زملائه، وقرص نفسه وتساءل: «كيف وصلتُ إلى هنا بحق السماء؟!» . مرّت أشهر، فكتب إلى والدته:«الوقت ليل الآن في مجلس الشيوخ، وقد تمكنت مجدّداً من سماع أصوات عمالقة المجلس الذين كانوا فيه قبل سنوات طويلة. تطلعت إلى زملائي وقرصت نفسي وتساءلت: «كيف وصلت إلى هنا بحق السماء؟!» . إنني أضحك في كل مرة أتذكر فيها تلك القصة، لأنها تخفي في طياتها مغزًى مؤثّراً، ولأنها تجمع بين التوقعات الافتراضية والتناقضات الواقعية في مجلس الشيوخ، وتُلقي الضوء على الدروس التي يمكن للمرء أن يتعلمها. أما تيد كينيدي، الذي هو الآن عضو مجلس الشيوخ الأكبر مني سناً، والذي كان منذ زمنٍ طويل المرشح الذي يبلغ الثلاثين من العمر، والذي كنت مندوباً عنه سنة 1962، وأمضيت معه بعض الوقت في المتنزَّه الوطني في واشنطن سنة 1971 مع قدماء المحاربين، فقد اصطحبني ممسكاً بيدي في أثناء دخولنا قاعة مجلس الشيوخ. بدا المشهد آنذاك، وكأن والداً يمسك بيد ابنته العروس. أقسمت اليمين القانونية في قاعة مجلس الشيوخ بطريقة احتفالية، بوصفي العضو الثامن والعشرين الذي يحتل مقعده، والعضو الخامس والستين الذي يحمل لقب «السيناتور الأميركي عن ماساتشوستس» .

كان الشخص الذي يُشرف على مراسم قسم اليمين الذي كنتُ أؤديه هو نائب الرئيس الأميركي جورج. دبليو. بوش، وكان طالباً في جامعة يال في

صيف 1948. أما والده برسكوت بوش، فقد خدم بوصفه السيناتور الجمهوري من كونكتيكت، وكان ذلك في اليوم الذي دخلتُ فيه الحرم الجامعي في نيو هافن. صافحتُ نائب الرئيس باليد، وذكّرته باللطف الذي أظهره تجاه ابنتي فانيسا التي كانت في الثامنة من عمرها، في شهر تموز/يوليو الماضي، وتناول معها الفُشار الذي قدّمه إليها في مدرّج هارفرد، عندما لعبَ فريق تشيلي ضد النرويج في التصفيات الأولمبية. لم يسمح بوش، نائب الرئيس آنذاك، للحملات الانتخابية في ماساتشوستس، والمتنافسة على مقعد مجلس الشيوخ، بعرقلة التواصل مع الأسرة. لكننا لم نعرف في ذلك الوقت أن الصدام السياسي ينتظرنا في المستقبل.

أحببتُ بوش كثيراً، بغضّ النظر عن الطبيعة البشعة لحملته الانتخابية ضد دوكاكيس سنة 1988. ورأيت فيه إنساناً محترماً ورزيناً وصادقاً في تعامله مع الآخرين. لم يسبق لي أن شككتُ في أنه دخل عالم السياسة للأسباب المنطقية. فقد أحب سلاح البحرية كما أحببته أنا، وهذا ما دفعنا إلى التحدث عن البحرية لدى حضورنا مباراة كرة القدم ببعض التفصيل.

اصطحبني تيدي بعد انتهائي من أداء القسم بدقائق قليلة في جولة داخل مجلس الشيوخ، لكي ألتقي زملائي الجدد. اقتربنا من مجموعة تضم أعضاء مجلس الشيوخ المخضرمين، فسمعت هويل هيفلين، وهو عضو قديم في مجلس الشيوخ عن آلاباما، يتحدَّث عن نائب الرئيس الجمهوري بكلامٍ مفعمٍ بالحيوية. أهذه هي أدبيات مجلس الشيوخ؟ إنني لا أزال أسمع نبرةً هيفلين اللطيفة التي تُبرز كل كلمة قالها قبل أن تنفجر المجموعة بالضحك، وهكذا كان لقائي مع زملائي الجدد. كان السيناتور هيفلين في ذلك الوقت رئيس لجنة الأخلاقيات، وكان واحداً من رجال سلاح البحرية نال وسام النجمة الذهبية عن خدمته في أوج المعارك التي نشبت في المحيط الهادئ، خلال الحرب العالمية الثانية. وكان رئيس القضاة في محكمة آلاباما العليا لمرةٍ واحدة. كان مجلس الشيوخ يعجّ في ذلك الوقت بشخصياتٍ لا تُنسى. وكان المسؤول عن الانضباط للأغلبية، آلان سيمبسون من وايومينغ، من قدامى العسكريين في الجيش، وكان سريع البديهة، ومناقشاً عظيماً يسهل عليه تبديد حجج الخصم، هذا إذا لم يَعِد «بتسوية الأمر باللغة القديمة» . أما راسل لونغ من لويزيانا، وهو الخبير الأبرز في مجلس الشيوخ في قوانين الضرائب، فقد كان يشبه إلى حدّ مدهش والده الشهير والأسطوري، كينغ فيش هووي لونغ، وهو الذي ألهم روبرت بِن وارن كتابة روايته الرائعة «رجال كل الملوك» . كنت قد قرأت ذلك الكتاب على ضوء مصباحٍ يدوي تحت الأغطية في سانت بول. وكنتُ في ذلك الوقت لا أعرف الكثير عن الأيقونة التي استند عليها الكتاب، أي الرجل الحيّ هووي لونغ بلحمه ودمه، والذي تعرّض للاغتيال عندما كان

راسل في السادسة عشرة من عمره. لكنْ، ما عرفته عن هووي لونغ، جاء من شريط إخباري بالأبيض والأسود، كنت أعرضه أحياناً على شاشة التلفزيون في منزلي. والتقيت راسل عندما كان عضواً في مجلس الشيوخ الذي أمضى فيه ثماني وثلاثين سنة. كانت وظيفته هذه هي الوحيدة التي شغلها على الإطلاق منذ أن انتُخب عضواً في المجلس، وكان في التاسعة والعشرين من عمره، أي قبل شهرين ويومين من بلوغه سنّ الثلاثين التي تؤهله للترشح بحسب الدستور. وقد استمرت خدمته وقتاً أطول مما قضاه ليندون جونسون وهيوبرت همفري، وكلاهما انتُخبا في مجلس الشيوخ في السنة ذاتها، أي في سنة 1948. أما الآن، فهو يستمتع بسنواته الأخيرة، ويستعد للعودة إلى موطنه في لويزيانا.

تعرّفت إلى عضو عظيمٍ آخر في مجلس الشيوخ، هو فريتز هولينغز، حاكم كارولاينا الجنوبية السابق، وهو الذي ترأس بجسارة جهود توحيد جامعة كارولاينا الجنوبية. وقد استمرت عضويته في مجلس الشيوخ منذ العام 1966، وهو أكبر أعضاء المجلس سناً في التاريخ، والذي ارتبط اسمه بستروم ثورموند التسعينيّ.

أحب فريتز السخرية، وتعوّد أن يقول: «لا أريد أن أصدأ، بل أفضّل أن اهترئ» . وقد امتلك الرجل في قاموسه إحدى أعظم مجموعات العبارات المفعمة بالحيوية. كان يُطلق على الدبلوماسيين مثلاً لقب «سراويل مخططة وكوكي بوشر» . لم أعرف عنه أنه تراجع مرة، حتى وإن كان يتحدث بعباراتٍ ساخرة مثل: «إن السماح لكم بوضع القوانين لأنفسكم يشبه إعطاء الخس على أنه أرنب» . كان فريتز صديقاً مقرباً لفترة طويلة لآل كينيدي؛ وهي فترة تعود إلى أيام حملات الرئيس كينيدي الانتخابية. سمعت تيدي ذات مرة يصف فريتز على أنه أول مرشح رئاسي لا يتحدث الإنجليزية» . لكن حين تمكنت من فهم لهجة هولينغز التشارلستون العميقة والغنية، أصبحنا صديقين مقرّبَين. أصبح الرجل مرشداً عظيماً لي في اللجنة التجارية وفي مجلس الشيوخ؛ وقد أعطاني نصيحةً قيّمة ذات مرة، وكانت نصيحة شخصية مفاجئة. أفادتني هذه النصيحة في الأيام المبكرة تلك: كنت أسعى للحصول على بعض الأموال لمصلحة ماساتشوستس، واحتجتُ إلى عرض مطلبي شخصياً؛ بمعنى آخر إلى تقبيل بعض الأيادي. كان فريتز واضحاً جداً معي، عندما قال: لا ينبغي لك مقابلة بعض أعضاء مجلس الشيوخ بعد الساعة 4:30 من بعد الظهر. احتجتُ إلى بعض التفسير لرأيه هذا، فأضاف بابتسامة ساخرة:«إما أن يخفق الاجتماع، وإما أن ينسى في اليوم التالي. وفي أي حال، فإنني أتوجّه بدلاً من

ذلك لمقابلة أورين هاتش في تلك الساعة. كان أورين قسيساً في كنيسة مورمونية» ولا يتعاطى الكحول.

وصلتُ إلى مجلس الشيوخ في مرحلة انتقالية، وهو ما يشبه وضعي قبل ثلاث وعشرين سنة، عندما دخلت الحرم الجامعي في مرحلة انتقالية.

لم تكن لغة هويل هيفلين الجافة مع زملائه غير مألوفة سنة 1985. كان مجلس الشيوخ في ذلك الوقت مؤسسة تبدو أشبه بحانةٍ أو غرفة لتغيير الملابس. وكان هناك عدد كبير من شاربي الكحول ورائحة سجائرهم تتسلّل من مكاتب عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ الكبار السن في الكابيتول.

ليس على المرء التفكير كثيراً لكي يعلّل ذلك المشهد: كان عدد أعضاء مجلس الشيوخ من النساء يساوي عدد بناتي، أي إنَّ زميلاتي في المجلس اثنتان فحسب: نانسي لاندون كايسبوم، العضوة الشابة في المجلس المتحدّرة من كانساس، وبولا هوكينز، المتحدّرة من فلوريدا والمنتمية إلى الحزب الجمهوري، والتي لم يمضِ وقت طويل حتى هزمها صديقي بوب غراهام سنة 1986. عملنا في ذلك الوقت وسط ما بدا أنه قبو محكم الإقفال، أو ما يشبه كبسولة زمنٍ لم تعرف طريقاً إلى التطور الاجتماعي.

أخبرتني تيريزا بعد مرور سنوات على تجربتها كزوجة لعضو مجلس شيوخ ينتمي إلى الحزب الجمهوري، عندما كانت تستضيف اجتماعاً للجنة الحملة الوطنية للحزب الجمهوري في مجلس الشيوخ، وهي اللجنة التي كان زوجها جاك هاينز يترأسها، وكان عضو المجلس من بنسلفانيا. قالت إنها، مع تقدّم الوقت، رأت ستروم ثيرموند، وهو يستمتع بتعبئة جيوبه بقطع من أجنحة الدجاج والبسكوت بهدف أخذها إلى منزله. ضحكت تيريزا كثيراً، وأعطته طبقاً صغيراً ليأخذه معه. كان ستروم وقتها في الثالثة والثمانين من عمره، وكان أنيقاً وحيوياً بطريقته الفريدة والرزينة: شعره البرتقالي اللون الذي ليس له مثيل في الطبيعة، وعطره المفضّل ذو الرائحة الزكية، والذي جمع منه أعداداً كبيرة عندما علم أن الشركة سوف تقفل أبوابها. شكر ستروم تيريزا على الكيس الذي أعطته إياه وعانقها، وما لبثت أن شعرت بيديه تعبثان بجانبَي جسدها، وهو يقول: «لا يزال جسمك مشدوداً يا عزيزتي، مشدوداً جداً!» أصدر الرجل حينها صوتاً يشبه العواء. أظنُّ أن بعض الكلاب المسنّة لا تتغيّر مع الزمن. تسبّب هذا السيناتور بعد سنوات قليلة ببعض الذعر عندما رحّب بالطريقة ذاتها بعضوة مجلس الشيوخ عن واشنطن باتي موراي، وكان ذلك

داخل المصعد، ثمّ حاول الاعتذار عن سلوكه، بالقول إنه حسبها متدربة في المجلس.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

كان ذلك المجلس الذي أتحدّث عنه يتألَّف من المسنّين والبيض والرجال في غالبية أعضائه، وهو أمرٌ ذكّرني بعضو مجلس الشيوخ المتحدّر من المسيسيبي، الذي كان في الرابعة والثمانين من عمره، وهو جون سي. ستينس. لن أنساه وهو يمرُّ أمامي على مقعده المدولب وقد قُطعت ساقه جرّاء إصابته بالسرطان في السنة الماضية. ها هو الرجل الذي دخل مجلس الشيوخ سنة 1947، أي عندما لم يكن عمري يتجاوز السنوات الأربع. لكنني، عندما كنت أجمع الأموال في يال للمساعدة على دعم مشروع تسجيل الناخبين في المسيسيبي، رأيت ستينس ينضم بساقين قويتين إلى اجتماعٍ حزبي عُقد سنة 1964، عقده الجنوبيون الذين وقفوا ضد قوانين الحقوق المدنية. لكن المرء يعرف أن لكل صوت في مجلس الشيوخ أهميته، بغض النظر عن تاريخ صاحبه. ومادام الناس في ولاية ما قد أرسلوا الرجل الذي اختاروه إلى مجلس الشيوخ، فإن المرء يضطر إلى العمل مع الآخرين إذا أراد إنجاز أمر ما.

لكن ستينيس تغيّر مع الوقت، وبدأ بدعم تشريع حقوق التصويت قبل سنوات قليلة من انضمامي إلى مجلس الشيوخ، وهو الأمر الذي أبلغ عنه جو بايدن بأنه«طهّر روحه» . وكان قبل سنة واحدة قد دعم ترشيح مايك إسبي، المنتمي إلى الحزب الديمقراطي عن المسيسيبي، والذي أصبح بعد ذلك أول أميركي يتحدّر من أصل أفريقي يمثِّل ولاية الماغنوليا في مجلس الشيوخ منذ إعادة البناء. كان ستينس مع ذلك صوتاً من حقبةٍ بعيدة، والاسم الذي سمعتُ به سنة 1971، أي عندما كان رئيس لجنة القوات المسلحة. كان مناصراً جنوبياً صُلباً للحرب في فييتنام، وهو الذي جعل منه الناشطون المعادون للحرب هدفاً لغضبهم. أما الآن، فقد أصبح زميلي، وكبير السن الذي عاصر قدراً لا يكاد يحدّ من التاريخ الأميركي، بعد أن كان الرجل الذي وُصف شعاره الانتخابي بأنه «الإبقاء على المرونة» ، ليدرك الآن أن «الظلام لم يخيّم بعد، لكنه يقترب» على حد قول بوب ديلان (الفنان الذي لم يُصغِ إليه ستينس قطّ). كان الرجل يتمسك حرفياً بالحياة العزيزة على قلبه.

لكن ستينس لم يكن نسيج وحده. فقد كان عضو مجلس الشيوخ الأسطورة عن أريزونا باري غولووتر يمضي آخر فترةٍ له في مجلس الشيوخ، وهو الذي يوصف بأنه «أبو الاتجاه المحافظ الحديث» ، والذي كانت

أساليبه التحررية تشق طريقها ضد الاتجاه الاشتراكي المحافظ الصاعد للحزب الجمهوري الجديد، لتمسي بحراً جارفاً من التغيير الذي غيّر حركته بسرعة. أما طوم إيغلتون المتحدّر من ميسوري، فقد كان هو الآخر في آخر ولاية له، لكنه كان إنساناً طيباً، تمكّنت من التعرّف إليه خلال تلك الأيام العصيبة المفعمة بالحركة المعادية للحرب، وكان زميلاً يتفاخر بليبراليته. كان يهتم بي على الدوام بوصفي عضواً جديداً في المجلس، ومنحني الرعاية. وكان كريماً جداً عندما تنازل عن أقدميته لي في لجنة العلاقات الخارجية، وهو الأمر الذي مكّنني من ترؤس لجنةً فرعية، والتقدم خطوة إضافية في عملي. وهذا كلّه يجسّد الزمالة بأبهى صورها.

كان المجلس الذي دخلته متجانساً إلى حدّ بعيد، وإن اشتمل على بعض المظاهر المتنافرة والرائعة، والتي أقول مع الأسف البالغ، إنَّها ضاعت في العقود الماضية من السنين، وهو الأمر الذي جعل من الحكم في الولايات المتحدة صعباً بشكلٍ لا يوصف. وكان هناك تنوّعٌ عقائدي داخل الأحزاب، بالإضافة إلى وجود جمهوريين متحررين يهتمون كثيراً بشأن البيئة شأنهم في ذلك شأن عددٍ كبير آخر من الحزب الآخر، وهو أمر لا يزال قائماً، ويتمتع بثقلٍ كبير. ولعلَّ أبرز مثال على هؤلاء هم جاك هاينز من بنسلفانيا، وجون تشايف من رود آيلاند، ولويل وايكر من كونكتيكت.

وكان في المجلس تنوّعٌ جغرافي بين الأحزاب: ديمقراطيان من آلاباما، وواحدٌ من المسيسيبي، وواحد من كارولاينا الجنوبية، وواحد من أريزونا، واثنان من جورجيا. أما من الجهة الأخرى، فكان هناك اثنان من الجمهوريين المعتدلين من بنسلفانيا، وواحد من كاليفورنيا، وعدة أعضاء من مناطق الشمال الغربي الباسيفيكي (المحيط الهادئ). وكان هناك بعض الجمهوريين المتحرّرين الذين يميلون أكثر نحو يسار الديمقراطيين المحافظين، والعكس صحيح.

إن التحوّل نحو اليمين الذي شهده الحزب الجمهوري، والطريقة التي تغيّرت فيها ولايات الجنوب الشرقي من البلاد، سوف يشكّلان جداراً من مقاعد أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين، حيث يولِّد ذلك ضغطاً على الديمقراطيين كي نفعل كل ما نستطيع فعله، للتأكد من أن الولايات الزرقاء الموثوقة [التي تصوّت للحزب الديمقراطي عادةً] سوف تنتخب أعضاء ديمقراطيين لمجلس الشيوخ. ولم يكن معروف، في معركة السيطرة على مجلس الشيوخ، تراجُع الديمقراطيين في مسألة وجوب الفوز بمقاعد المجلس في ولايات، مثل كونكتيكت ورود آيلند. وهكذا، اختفى الجمهوريون

الليبراليون إلى الأبد من تلك الولايات، واختفت معهم أصواتهم التي كانت بنّاءة في اجتماعاتهم.

عايشتُ كثيراً تلك اللحظات الأولى التي تحدث عنها هاري ترومان: «كيف وصلتُ إلى هنا بحق السماء؟» وشعرت في بعض الأحيان أنني أريد أن أقرص نفسي عندما أتطلع إلى يميني، وأدرك أن الرجل المتواضع والمتكلّم الليّن الجالس إلى جانبي، خلال اجتماع الغداء الأسبوعي للديمقراطيين، لم يكن سوى جون غلين من أوهايو، وهو رائد الفضاء الأسطوري نفسه الذي شاهدته يوماً على شاشة التلفزيون الصغيرة بالأبيض والأسود، والتي كانت في سانت بول، وذلك عندما رحّبت أميركا بعودته، وأقامت له موكباً استعراضياً ضخماً في مدينة نيويورك، بعد أن دار حول الأرض ثلاث مرات. كانت كلمات الله مع جون غلين لا تزال تثير القشعريرة في جسدي، والذكرى ما تزال حية، لا تُمحى من ذاكرتي. لكنه ها هو الآن إلى جانبي، إلّا أنني لا أعرف إلا القليل عنه، عدا البطولة والتصميم الواضح الذي أظهره للعالم في وكالة الفضاء الوطنية الأميركية (النازا). كانت آني زوجة جون هي حُب حياته، وكانت من أطيب الأشخاص الذين التقيتهم. كانت هادئة، وتكاد تكون خجولة، وهو أمرٌ لا بد من أنه قد نتج من صراعها مع مشكلة التلعثم طوال حياتها، لكنها لم تكن مستعدة للابتعاد عن جون، وكانت تشعر بالسعادة إذا ما وُجّه إليها سؤال. وقد ألفنا الجلوس معاً في مناسبات مجلس الشيوخ. وكانت لطيفة بشكلٍ خاص، ومن دون أن تكون مضطرة إلى النطق بأية كلمة، وعلى الأخص عندما تريد أن تحادثني، فقد كانت تعلم أنني في وضعٍ مربك: أي إنني كنت منفصلاً عن جوليا، ولا زوجة تجلس بقربي، على عكس معظم أعضاء مجلس الشيوخ. تعمّقت علاقتي بالسيناتور جون غلين في هذا الوقت، وكان زميلي في لجنة العلاقات الخارجية. وكنا، عندما نبدأ بحديثٍ صريح، نتكلم على كل شيء، بدءاً من صداقته الدائمة والمتينة مع مساعده الكوري، ولاعب كرة القاعدة الأسطوري، تيد وليامز، إلى الأسرة والأولاد وحبّنا المشترك للطيران. أيمكننا أن نتصوّر هذا، وأنا الطيار الخاص الذي يتكلم على الطيران مع جون غلين؟

أفشى لي جون بسرٍّ صغير كان يعتمد عليه لحسن الطالع: أخبرني أنه قبل كل مهمة، في سلاح البحرية أو النازا، وقبل أن يتعرّض للأذى والأخطار، كان يعتمد على تعويذة لحسن الطالع استلّها من كوريا، وكانت عبارةً عن تمثالٍ خشبي«سمين» يمثّل بوذا. كان يمسح بطنَ التمثال المستدير بهدف الحصول على حسن الطالع قبل أن يبدأ بالطيران، ولم تخذله هذه التعويذة قطّ. وذات يوم كنتُ في مكتبي بعد قيامنا برحلةٍ معاً إلى فييتنام ضمن لجنة المفقودين وأسرى الحرب، ففوجئت بهدية تصلني منه، وكانت عبارةً عن بوذا

خاصٍ بي، وكانت هذه هدية من أحد الطيارين، وأحد قدامى المحاربين، إلى طيارٍ آخر. لم أكن على وشك المشاركة في رحلةٍ إلى الفضاء، لكنّني كنت أمسح بطن بوذا قبل المشاركة في اتخاذ أي قرارٍ خطير في مجلس الشيوخ.

كنتُ محاطاً بهؤلاء الرجال الذين كانوا أشبه بالعمالقة، وكان عدد منهم آخر مَن بَقَوا من جيلٍ عظيم. استمرّ سؤالٌ ملحٌ يتردّد على ذهني، وعلى أذهان أبناء جيلي من أعضاء مجلس الشيوخ: كيف يمكننا أن نترك أثراً خاصاً بنا في مجلس الشيوخ؟ لكن أين نقف من كل هذا؟

كانت الأقدمية هي المتّبعة في مجلس الشيوخ، وكان ترتيبي فيها الخامس والتسعين. لم يتطلب الأمر مني أن أكون ماهراً في الحساب لكي أعرف أنني لن أصبح رئيس لجنة في وقتٍ قريب. لكني طلبتُ من رئيس الأقلية روبرت بايرد هذا المنصب في لجنة العلاقات الخارجية، فلم يتردّد ليقول إن هناك عشرين عضواً أقدم مني. انطبق الأمر نفسه على لجنة الاقتصاد. فقد كانت اللجنة الوحيدة التي حالفني الحظ في ترؤّسها خلال عقدٍ من الزمن هي لجنة الشركات الصغيرة في مجلس الشيوخ، الأمر الذي بدا لي معقولاً أكثر ممّا هو في الواقع. لكن صلاحيات تلك اللجنة كانت محدودة بالإشراف على إدارة الشركات الصغيرة، وكانت ممنوعة بشكلٍ خاص من المساس بموضوعٍ يقلق بشأنه أصحاب الشركات الصغيرة، أي الضرائب.

وكان في ذلك الوقت حفنة من أعضاء مجلس الشيوخ الشبان الذين نعِموا بميزات الأقدمية. انتُخب جو بايدن عندما كان في التاسعة والعشرين. وكان في أوائل الأربعينات من عمره عندما ترأس لجنة العدل القوية في المجلس، وكان خلفَ كلايبورن بيل المسنّ في لجنة العلاقات الخارجية. أما تيد كينيدي فقد كان في الثالثة والخمسين من عمره فقط، وكان أكبر الأعضاء الديمقراطيين سنّاً في لجان القوات المسلحة، والعدل، والعمل، والصحة.

حذّرني اثنان من أسلافي، هما تسونغاس وإد بروك، من تيدي تحذيراً اتّسم باللطف بطبيعة الحال. كان تيدي موضوعاً يقتضي أن يُعالج بحذر. كان الرجل مرحاً، وجذاباً، ومتحدثاً لبقاً، وإنْ كان ضخماً سميناً. لكنني لم أقلق فعلاً بشأن ذلك، لأنني نشأتُ على إعجابٍ كبير بآل كينيدي، بدءاً بحديثي في سانت بول نيابة عن جون ف. كينيدي، مروراً بمشاركتي في حملة تيدي الانتخابية لعضوية مجلس الشيوخ، وصولاً إلى نهاية ذلك الأسبوع الحزينة والمشؤومة والصادمة التي شهدت في لونغ بيتش، فقدان روبرت كينيدي برصاصة قاتل آخر. لكن تيد كان واحداً من أبناء كينيدي عرفته بصورة مختلفة، عرفته شخصيةً صريحة، وودّية. كان هو عضو مجلس الشيوخ الذي شارك في حملتي الانتخابية سنة 1972 في لويل ولورنس. وكان يحاول جذب الناخبين

الديمقراطيين من ذوي الياقات الزُرْق (العمال وصغار الموظفين) الذين لم يعرفوني في المقاطعة التي اخترتها. أحببتُ تيد، وكان لي أخاً أكبر ومرشداً مخلصاً، سينتظرني في مجلس الشيوخ. وبعد وقتٍ قليل من انتهائي من أداء القسم، أرسل إليّ تيد صورة لنا نحن الاثنان بالأبيض والأسود في تقاطع جادتي الدستور وديلاواير، التُقطت في أول يومٍ شهدني عضواً في مجلس الشيوخ. وعندما كنتُ في طريقي إلى أول جلسة تصويتٍ لي، كتب على الصورة: «كما قال همفري بوغارت نخب بداية صداقةٍ جميلة» .

كان تيد أستاذ اللفتات الشخصية، وهي مبادرات يقوم بها عفويًّا. كان يعرف أنني أتردد أيام العُطل الأسبوعية على بوسطن لكي أتمكّن من حضور مباريات كرة القدم، وقضاء وقتٍ مع ابنتيّ؛ وأنني أبذل ما في وسعي لكي أكون في الأماكن التي أردت أن أكون فيها، وتلك التي يتعين عليّ أن أكون فيها. كان يدرك أن كل هذا يتطلب بذلاً وجهداً. وقد لاحظ ذات يوم من أيام الخريف أن السعال المتقطع والعميق قد سيطر عليّ. كانت ابنتاي مع والدتهما استعداداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. قال لي بلهجة آمرة: «جون، يجب أن تذهب إلى بالم بيتش في عطلة نهاية الأسبوع من أجل أن تتعافى» . لم تكن تلك مجرد دعوة، بل كانت أمراً. وهكذا وجدت نفسي أمضي هناك فترة امتدت من يوم الجمعة حتى يوم الأحد، بدلاً من الشعور بالتجمّد وحدي في بوسطن. شعرتُ بالدفء والشمس في فلوريدا، وكنتُ في المكان الذي اختاره الرئيس كينيدي ليكون البيت الأبيض الشتائي، والذي كان منزلاً خاصاً لأسرة كينيدي. كانت تلك الدعوة لفتةً شخصية كريمة من تيد.

وكان تيد أيضاً شخصاً مرحاً ولطيف المعشر: ففي حجرة المعاطف، كانت تُسمع في بعض الأحيان الضحكات الصاخبة، وكذلك الأمر في قاعة مجلس الشيوخ. كان تيد في إحدى الليالي يتكلم بصوتٍ عالٍ، فيما كان رئيس الجلسة يضرب بمطرقته قائلاً: «أريد الهدوء في المجلس وفي حجرة المعاطف» . كانت مزحات تيد ممزوجةً بالفن، ودقيقة بشكلٍ رائع. وحدث ذات مرة، أن طالت سلسلة من جولات التصويت الليلية إلى درجة تأخّر أعضاء مجلس الشيوخ عن رحلات عودتهم إلى الشمال الشرقي بالطيران التجاري. فتمكّن زميلنا من نيوجيرسي فرانك لاوتنبيرغ، وهو واحد من قدماء محاربي الحرب العالمية الثانية، الذين تمكّنوا من جمع الملايين بمجهودهم الشخصي، من الحصول على طائرة خاصة للذهاب إلى ماساتشوستس. وقد تبيّن أن عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ أرادوا الذهاب في الاتجاه نفسه. وعندما علم فرانك بذلك عرض نقلي، أنا وتيد، وكلايبورن بيل بالسيارة. لم يكن هناك من حاجةٍ إلى مناقشة تقاسم الكلفة. ظنَّ الجميع أن فرانك هو الذي كان كريماً جداً. كنا مجتمعين في الأسبوع التالي في قاعة المجلس للتصويت، عندما

وَصَلنا مغلّف بدا رسمياً، وكان يحمل توقيع لاوتنبيرغ، واشتملَ على بعض الفواتير الباهظة المتعلقة بالرحلة. كان كلايبورن، وهو من نيو إنغلند رجلاً لطيف الكلام، وأنيقاً، ورزيناً، ومثقفاً يتكلّم بلهجة نيوبورت، ومتميزاً ببذلاته القديمة التي لا يستغني عنها أبداً. أما في هذه الأمسية فقد سار بيل كلايبورن بصخبٍ في ردهة المجلس ملوحاً بالفواتير. كانت صورته وهو يصرخ لافتة لكل من كان في المكان. لكن في رود آيلاند، أي عندما ترشّح للمنصب للمرة الأولى، أطلقت عليه الصحافة لقب «بيل الفاشل» . بيد أن شيئاً ما كان يجري في الخفاء، فاحمرَّ وجه السيناتور لاوتنبيرغ، وأعلن رفضه، لأنه لا يعرف أي شيء عن الأمر. رأيتُ في هذا الوقت بطرف عيني تيد جالساً في مكتبه، وقد بدت على وجهه تكشيرة قطة تشيشاير، وبدا أنه مرتاح وراضٍ عمّا يجري. كان ذلك حلاً لهذه الأحجية: طلب تيد بعض الأوراق التي يستخدمها لاوتنبيرغ، ثمّ أرسل فواتيرَ مزيّفة إلى كل واحدٍ منا. إنني أعترف أنه يعرف كيف يحوّل ليلة تصويتٍ مملةٍ في مجلس الشيوخ إلى ليلة مفعمة بالمرح.

كان مأزقي على الشكل الآتي: لا أستطيع أن أتصوّر خصومةً، أو علاقة متوترة مع الآخرين. لكنني في الوقت ذاته لا أستطيع أن أتصور الانتظار بهدوء إلى أمدٍ طويلٍ وطويل، إلى أن أصبح في الستينات من عمري قبل أن أمتلك صوتاً مؤثراً في مجلس الشيوخ الأميركي. وصلتُ إلى هذا المجلس ضمن مجموعة متميّزة، وعلى الأقل كما ظننّا، ونظرنا إلى أنفسنا على أننا وكلاء التغيير في المجلس. حسبنا أيضاً أننا سنتمكن من تغيير العالم، لاسيَّما وأن في مجموعتنا طوم هاركن، وآل غور، وجاي روكفلر، وبول سايمون، وعضواً جمهورياً وحيداً من كنتكي يدعى ميتش ماكونيل، وهو الذي كان أول شخص في حزبه يُنتخب لمجلس الشيوخ من تلك الولاية، منذ إعادة البناء. وسبق أن كان طوم هاركن في المجلس، وكان قبل ذلك أحد موظفي هيل. وكان آل غور ابن أحد رجال السياسة الجنوبيين المحترمين. أما جاي روكفلر، وهو واحد من أصغر حكام الولايات سنّاً في البلاد، أي قبل بلوغه سن الأربعين، فقد أتى إلى فرجينيا الغربية بوصفه أحد متطوعي الخدمة العامة في أميركا VISTA، وما لبث أن أحبّ أبلاشيا. حمل الرجل كل الأعباء منذ ولادته مع اسمه «جون د. روكفلر الرابع» . لم يرغب أحد في مجموعتنا أن يُرى أو يُسمع. يُضاف إلى ذلك أن عصر السباقات نحو مجلس الشيوخ التي تزداد تكلفةً وتنافسية مع الوقت، وما تميَّز به من تكتلات المصالح الخاصة، التي تصدر التقارير عن إنجازاتها في جلسات التصويت والتشريعات، ومع مشروع كاميرات الشبكة السلكية التي تقرّر تركيبها لتغطّي قاعة المجلس بعد سنة من وصولنا، سوف يدفع كل ذلك ناخبينا إلى الإحجام عن منحنا فترة انتظار وكأننا مبتدئون ثانويّون في

المجلس، وهو الأمر الذي يؤجّل بذلنا أيّ جهدٍ لترك أثرٍ يدل على وجودنا في المجلس. شعرنا بضغط في ذلك الوقت لكي نُظهر إنتاجيتنا على الفور. كان عليّ، وبطريقةٍ ما، أن أبدأ بتحركاتي، وأن أنفخ روحاً جديدة في أفكاري، حتى في مجلسٍ يعطي تقديراً كبيراً لطول العمر، وليس للأفكار الجديدة. وبالرغم من وجود تيد كينيدي كشريكٍ لي، وليس كمنافس، فقد كان عليّ شقّ طريقي الخاصة بي.

واحدة من خرائط الطريق إلى مجلس الشيوخ جاءت من أحد طقوس تقديم الأعضاء الجدد في المجلس وهو اجتماعٍ مع زعيم الديمقراطيين، الذي كان زعيم الأقلية في المجلس روبرت س. بيرد الأسطوري. لم أكن أعلم الكثير في ذلك الوقت عن هذه الشخصية التي أصبحت مرموقة بعد مجيئها من فرجينيا الغربية. لكنها ظهرت فجأة سنة 1971، أي قبل أشهر قليلة من تقديم شهادتي ضد الحرب، لإزاحة تيد كينيدي بوصفه المسؤول عن انضباط الديمقراطيين، وهو المركز الثاني في الزعامة بعد مايك مانسفيلد من مونتانا، الذي كان زعيم الأغلبية في ذلك الحين. كان بايرد إلى يمين كينيدي، وهو الذي أنشأ سجلاً، مختلفاً من غير شك في قضايا مثل الحقوق المدنية، وهي القضايا التي نفخت الحياة في جيلي. لكن وظيفة المسؤول عن الانضباط كانت مركزاً عملياً مهماً، ويتطلب ساعاتٍ كثيرة من تأمين الحضور في حجرة المعاطف، وفهمَ كل ما يتعلق بخفايا إجراءات مجلس الشيوخ وزواياه الخفية، ووسائل تهدئة الأمور المطلوبة لكسب ما يكفي من الأصوات، لتحويل مشروعات القوانين والقرارات إلى قوانين نافذة.

تمكّن روبرت بيرد من إتقان كل الدقائق المؤسساتية لمجلس الشيوخ، ولا شكّ في أنه تعلّم معظمها على أيدي اثنين من ناصحيه المخلصين. كان أولهما رئيس المجلس سام رايبورن، وتلميذه الذي دعم ترشيحه للرئاسة سنة 1960، والذي كان رئيس الغالبية في المجلس، ليندون جونسون. استخدم السيناتور بيرد، وبمهارة، ما تعلّمه من الرجلين في خطوته التالية لصعود السلم. وهكذا كان أبرز الأعضاء الديمقراطيين في المجلس سنة 1984، وفي السابعة والستين من عمره، وهو الذي كان الندّ القدير لرئيس الغالبية الجمهوري بوب دول.

اجتمعنا في المكتب المزخرف لرئيس الأغلبية في مبنى الكونغرس. إنني أتذكّر بيرد جيداً حتى اليوم، وأتذكّر رأسه المغطّى بشعره المسرّح جيداً، والذي لم يكن قد أصبح أبيض اللون تماماً، أي كما سوف يصبح في الربع التالي من القرن. كان متألقاً في بذلته الزرقاء، وربطة عنقه التي كانت أوسع

قليلاً من القصة الأضيق التي شاعت في ذلك الوقت. بدا وكأنه لا يهتم، بل لا ينوي التغيير مسايرةً للموضة السائدة. كان مبتسماً على الدوام ولطيفاً كما توقعته، لكنني عرفت أنه يُخفي وراءه دهلقةً ودهاءً كانا شائعَين وأسطوريين في أوساط زملائي.

جلسنا وجهاً لوجه في مقعدين وثيرين وغير بعيدين عن نسخةٍ مؤطرة من ألبوم الأغاني الذي سجّله قبل سنواتٍ عديدة، وكان بعنوان عابث الجبال. كان الألبوم مجموعة من أغانيه المفضّلة التي عزفها على آلة الكمان، حتى أنه أدّاها بصوته. قرّب بيرد رأسه مني، ولفظ كل كلمة من حديثه معي بنبرته الجهوريّة المميزة. كان بيرد صبوراً ووديّاً حيالي، لأنني كنت عضواً جديداً في مجلس الشيوخ. أخبرني عن صداقته مع تيد كينيدي وعن علاقته الوثيقة برئيس مجلس النواب تيب أونيل، وهو النائب البارز عن ماساتشوستس، والذي كان يستعد لتحضير مفاجأة أخرى في الكونغرس.

من اللحظة الأولى التي جلسنا فيها معاً، أحسست بأن بيرد يمتلك برنامجاً يخفيه وراء كل هذه المجاملات. كان الرجل معروفاً بوصفه مدافعاً عن أنظمة مجلس الشيوخ وتقاليده، لكنه بالتأكيد كان يدرك أن هذه المجموعة من الأعضاء الجدد كانت مصممةً على ترك بصمتها، وأعتقد أنه كان يريد ملاقاتنا من أجل تشجيعنا على توسيع صلاحياتنا قليلاً، لكنه أرادنا أن نفعل ذلك ضمن حدود الأنظمة التي يضعها. يُحتمل أنه أراد كذلك ضمان دعمنا له في غضون سنتين من الزمن، عندما يعلن ترشيحه لإعادة انتخابه كرئيس، ولربما في المرة القادمة كزعيم للغالبية وليس للأقلية.

لكن عندما قررنا، أنا وطوم هاركين وآل غور، مقارنة الملاحظات التي سجّلناها عند اجتماعاتنا المنفصلة الأولى مع بيرد، لاحظنا جميعاً أنه عبّر عن الحكمة التي لا بد من أنه نقلها إلى كل الأعضاء الجدد في مجلس الشيوخ على مدى فترةٍ طويلة من الزمن: «يمكن للرجل العظيم أن يولي المهمات الصغيرة أهمية قصوى» . لكننا لم نتعاقد مع ناخبينا لتأدية مهماتٍ صغيرة، إلّا أن بيرد عمد إلى نثر حكمةٍ من تأليفه، أي إن كلماته كانت تعني شيئاً أكثر من إثارة الاهتمام، وهي أكثر قوة بقليل، ولهذا أثارت انتباهي. شرح لي بيرد كذلك قائلاً: إنك إذا ما عملتَ بإصرار على قضيةٍ ما مع زملائك الذين يعرفون أنها مصيرية لك، وعلى الأخص إذا كانت مهمّة في منطقتك، أو إذا كانت تعكسُ خبرتك، وإذا ما استنفدت كل الحلول المتوفرة لديك، وإذا ما تمكّنتَ من إتقان إجراءات مجلس الشيوخ، ومن أخذ وقتك بالفعل من أجل فهم إيقاعات المجلس، فسوف يصبح بإمكانك إنجاز شيء يتجاوز أقدميتك. تحوّلت عبارة إيقاعات المجلس إلى عبارة سحرية لي وللآخرين. كان ما يعنيه هو المنطق

السليم بطبيعة الحال فإذا ما تحوّلت، مثلاً، جلسة خميس في أواخر فترة ما بعد الظهر إلى جلسة خميس مسائية، وبدأ الزملاء في الإسراع لكي يلحقوا بطائراتهم، حيث يتمكّنون من متابعة حملاتهم الانتخابية أو التقاء الناخبين، وحدث أن كان على روزنامة المجلس تشريع يجب أن يمرّر، يصبح في هذه الحالة من الصائب، ومن ضمن النظام، استخدام القدر الصحيح من الضغط في الوقت المناسب، وهو الأمر الذي يفتح الباب أمام إنجازاتٍ تتجاوز السلطة التي توفّرها الأقدمية وحدها.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها كيف أن الأساليب التي تتبع وتستخدم النهج المناسب، بإمكانها أن تكون أداةً حاسمةً بأيدي أعضاء مجلس الشيوخ. يُمكن لعضو المجلس في هذه الحالة أن يلفت انتباه الرئيس من أجل عرض تعديلٍ ما، أو أن يطلب إجراء تصويتٍ مسجّل، وذلك من أجل ممارسة الحق الممنوح لعضو المجلس، وليكون ذلك مصدراً لنفوذه. يُحتمل ألّا يحوز العضو الموافقة على التعديل الذي طالبَ به على الفور، لكنه قد يحوز ضمان استماعٍ لم يكن ملحوظاً في السابق، أو تصويتاً في جلسة نقاشٍ قادمة، أو تنازلاً مهمّاً. لكن بيرد قدّم إلينا تحذيراً مع ذلك: قد يكون ذلك الخيار هو الأخير المتاح، والذي من الأفضل أن يبقى في خانة الاحتياط بعد استنفاد كل الأقنية العادية. يعني ذلك أن هذا الإجراء هو بمثابة رصيد يجب استخدامه بحذر واعتدال.

تتيح قواعد المجلس لكل أعضائه فرصة السعي للحصول على أكبر قدرٍ ممكنٍ من التأثير. لكن مجلس الشيوخ يحرص على العلاقات، وعلى قاعدة غير معلنة من السلوك لا تستسيغ الاستعراضات ولا الطرق المختصرة. يعني ذلك أن على العضو ألّا يفاجئ زملاءه، وعلى الأقل الذين هم في مجموعته الحزبية، في الساعة الحادية عشرة.

قمتُ بتخزين هذه الدروس في ذاكرتي. كان رجلُ مجلس الشيوخ هذا، الذي علّم نفسه القراءة على ضوء الشموع، ونشأ في منطقة تعتمد على الفحم، وكان يحمل نسخةً من الدستور معه في كل الأوقات، يخبرني عن القواعد التي لم تكن مكتوبة، لكنها ضروريةٌ لتحقيق تقدّمٍ في مجلس الشيوخ.

أعطاني بيرد كذلك درسين آخرين جاءا، لأسبابٍ أخرى، في وقتهما. بقيت منفصلاً عن جوليا من دون طلاق، وربما لم يكن بيرد يعلم هذه الحقيقة، لكنه أخبرني بأن أحد المكوّنات الأساسية لعضو مجلس الشيوخ الناجح هو الحفاظ على أُسرة سعيدة. كانت هذه نصيحةً شخصيةً من الرئيس بيرد، وهو الذي أصبح يتيم الأم عندما بلغ عاماً واحداً من عمره، وكان قد تزوج من إيرما بيرد سنة 1937، أي قبل ست سنواتٍ من مجيئي إلى هذا العالم. كان بإمكان

بيرد عدّ الليالي التي أمضاها بعيداً عن أسرته في ضواحي فرجينيا (ليست فرجينيا الغربية) على أصابعه، وحتى عندما أصبح زعيماً في الحزب الديمقراطي، مع ما يتطلّبه هذا من جهود جمع الأموال وممارسة السياسة. لكن الحقيقة غير المعلنة هي أنه شهد زملاءً له يأتون ويذهبون، وبعضهم وقع ضحية الساعات الطويلة في المجلس وحُرم من أيام عطلة نهاية الأسبوع. كما أن عدداً كبيراً منهم قد أتوا إلى مجلس الشيوخ متزوجين وبرفقة أسرة، لكنهم فقدوا الروابط مع زوجاتهم وأولادهم، ثم انتهوا تعساء في الحياة، أو حتى فاشلين في أعمالهم كأعضاء في مجلس الشيوخ.

لم يكن بإمكان بيرد أن يتصور طبيعة الحياة التي أعيشها، من الإسراع للعودة إلى ماساتشوستس لقضاء أيام إجازة نهاية الأسبوع، وتبادلي أنا وجوليا قضاء الوقت مع الأولاد عندما توقفنا عن قضاء الإجازات كأسرة تحت سقفٍ واحد، وشعوري بالوحدة لدى عودتي إلى منزلي المتصل مع منازل أخرى والفارغ في كابيتول هيل.

لكن، بالرغم من عدم استعدادي لمصارحة السيناتور بيرد بتحديات حياتي وتعقيداتها في ذلك الوقت، فإنني حفظت كلماته في ذهني، مع علمي بأنها كانت صادقة، حتى ولو كانت لاذعة قليلاً، وحتى لو أنني لم أمتلك أجوبة مناسبة، أو حلولاً، للصعوبات التي أمرّ بها في الوقت الحاضر.

أما الدرس الثاني الذي استفدت منه نتيجة لقائنا، فقد أتى بعد وقتٍ قصيرٍ من سماعي صوت الجرس الذي أصبح مألوفاً لدي، والذي يُعلن الدعوة لإكمال النصاب. كنت أصافح الزعيم بيرد لكي يتمكن من العودة إلى عمله الضاغط بوصفه زعيماً للأقلية. قال لي متشدقاً بلهجة فرجينيا الغربية: «انتظر قليلاً. أريد أن أقدِّم إليك مساعدة انتخابية» . سار نحو طاولة مكتبه المحفورة بدقة، ثم أمسك بوعاءٍ مزخرف.

لم أفهم في البداية الكلمة التي استخدمها، وفكرت في ما عسى أن تكون وما علاقتها بالمال.

ناولني بيرد مغلّفاً وقال بلطف وحرارة، وهو يضع المغلف في يدي: تعرف كم أصبحت الحملات الانتخابية مكلفة في هذه الأيام، وأنا أعرف أن حملة إعادة انتخابك تبدأ بعد خمس دقائق من أدائك اليمين القانونية» .

خطر في ذهني على الفور أنه كان يقول «مساعدة انتخابية» . أعطاني بيرد شيكاً من لجنة النشاط السياسي PAC لمساعدتي في حملة إعادة انتخابي. ولم يكن لديه أي وسيلةٍ ليعرف أنني ترشحت لمجلس الشيوخ بعد

رفضي كل أنواع أموال التبرعات، وأنني أحاول إثارة قضية إدخال بعض الإصلاحات على تمويل الحملات الانتخابية. تبع هذا الحديث لحظة ذهول، على الأقل من جانبي، وأنا أحاول التفكير في الخيارات المطروحة أمامي. هل يتوجّب عليّ وضعَ الشيك في جيبي، أم من الأفضل إعادته إلى أحد مساعدي الزعيم في وقتٍ لاحق؟ قدّم الكاتب في لجنة العلاقات السياسية في مجلس الشيوخ نصائح إلى الأعضاء الجدد في اللجنة، عن الطريقة الفضلى للتصرّف في الأوضاع المحرجة عند السفر إلى الخارج، وعندما يقدّم إلينا الزعماء الأجانب هدايا تقليدية. قال إن بإمكاننا قبول الهدايا بكل امتنان، ثم إحضارها لدى عودتنا إلى لجنة العلاقات الخارجية، ويترافق هذا مع ورقة رسمية يرد فيها ما يأتي: «هدية مقبولة من أجل تجنّب إهانة دبلوماسية» . تؤخذ الهدايا بعد ذلك إلى قاعة الأرشيف التابعة لمجلس الشيوخ الممتلئة بالغبار، ومن دون أن يراها أحد بعد ذلك، وكل هذا من أجل عدم إهانة أحد وزراء الخارجية الأجانب الذين يريدون إظهار كرمهم.

لا أذكر أن ثمة بروتوكولاً في المجلس يشرح كيفية التعامل مع لحظاتٍ محرجةٍ كهذه مع الزملاء. قلت: «سيدي الزعيم. إن هذا لطفٌ كبير من جانبك، لكنك تعرف كيف تعاملت مع حملتي الانتخابية لمجلس الشيوخ من دون أن أقبل أي أموال تبرعات أو مساعدات، و...» ، بدأ صوتي بالخفوت قليلاً عند بحثي عن طريقةٍ سهلة للخلاص من هذا الوضع المحرج بينما كنت لا أزال أشكر للزعيم هديته. حاولتُ أن أبتسم وقلت: «حسناً، لا أعتقد بأن أول شيء يجب أن أقوم به بعد أن انتُخبت هو، آه...» بدت لي هذه اللحظة وكأنها سوف تدوم إلى الأبد.

أتاح لي السيناتور بيرد فرصة للخروج من المأزق، وذلك بعد أن رمقني بنظرةٍ فاحصة، وربّت كتفي ثمّ تقدّم نحو الباب. أصرّ على القول إنه كان يأمل في الكونغرس التالي وضع إصلاحات حقيقية لتمويل الحملات الانتخابية، وأضاف أنه متأكد من أنه، بعد ثلاث سنوات عندما يصبح زعيم الأغلبية، سوف يسمح لمجلس الشيوخ بعدم الإقفال استثنائياً، وهو الأمر الذي يكشف تصميم الجمهوريين على عدم تحقيق أي شيء يشبه الإصلاح.

ترافق درسي ذاك مع المدى الذي يُمكن أن تصل إليه جهود المرء في الدفاع عن موقفه في أي حملة يُمكن أن تكون مختلفة جداً، أو حتى تبدو كذلك عندما يُجابه بالإدارة الفعلية للعلاقات وحقيقتها. كنت صادقاً في رفض المال الانتخابي من اللجنة، كما كنت فخوراً بالسباق الانتخابي الذي خضته وفزت فيه من دونه. لكن ها أنا الآن وجهاً لوجه مع زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ، وهو

الذي اتفقت معه على 90% تقريباً من الموضوعات، لكن لا يمكنني قبول هذا الشيك الصادر عن اللجنة، والذي يساعدني على إعادة انتخابي. لكن على بعد خمس عشرة قدماً خارج مكتبه، كان هناك مندوبون مأجورون يروحون ويجيئون بين القاعات، وبإمكانهم كتابة شيك لمصلحتي بصفتهم الشخصية. تساءلتُ في هذا الوقت: أين هو الخط الفاصل الذي يمكنه جعل أي شيء أكثر من نقطة بلاغية؟

صُدمت لهذه السخافة وسط صدقيتي في محاولة اتخاذ موقف محدد، وهو أنني وضعتُ بالفعل مسافةً مصطنعة تفصلني عن زملائي الجدد بشأن تفصيلٍ ضئيل. أدركتُ أن مجلس الشيوخ لن يتخلص أبداً من تأثير المال، وعلى الأخص ذلك النوع المدمّر بالفعل، والذي منع التواصل بين الناس وحكومتهم، وسوف يستمر ذلك إلى أن نضغط بإصرار للتوصّل إلى نظامٍ عام لتمويل الحملات الانتخابية، وجعل النظام بأكمله أكثر إنصافاً. لكن العقبة التي تحول دون تحقيق ذلك لم تكن المساعدات التي يقدّمها إلى الحملات الانتخابية زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ.

كنا عالقين في نظامٍ فاسد. كان رونالد ريغان رئيساً في ذلك الوقت، وكنا نحن في الحزب الديمقراطي أقليّة. يعني ذلك أن الوقت قد حان كي يُسمح لزعيم الأقلية بالعودة إلى وظيفته الحقيقية، وهي الوظيفة التي لا تتضمن وعظاً حول المساعدات الانتخابية. أعاد بيرد المغلّف إلى الوعاء.

قال لي: «انتظر عندي شيء آخر لك» . ولأنني وجدتُ طريقة لإفشال بادرة حسن النية الأولى بيني وبين زعيم الأقلية، تساءلت عمّا يُمكن أن يكون هذا الشيء. تقدّم من دُرجٍ في طاولة مكتبه وتناول منه كتاباً. وتساءلت: هل يتضمن ذلك الكتاب تحليله المفصّل للدستور؟ أم أنه بحث حول مجلس الشيوخ. لكن الاحتمالين يبدوان واردين من الرجل الذي كان المؤرخ المقيم للمجلس. وضع بيرد الكتاب في يدي وقال مبتسماً: «إنها هدية صغيرة للسيدة كيري» . كان الكتاب نسخة عن كتاب روبرت س. بيرد «كتاب طبخ فرجينيا الغربية» .

كان يحتمل أن تصل كلفة إعادة انتخابي إلى عشرة ملايين دولار، لكنّني على الأقل امتلكت كتاب طبخٍ، ودورة لا تُقدّر بثمن حول آداب عضو مجلس الشيوخ والمجلس ذاته.

لا أنكر بأن كينيدي وبيرد قد ساعداني على فهم بيئةٍ جديدة، إلّا أن شيئاً آخر كان يعيدني إلى المكان الذي أتيت منه، والذي ربما شعرتُ أنه أكثر ما يريحني: التحركات حول قضايا الحرب والسلم.

وفي يوم الخميس 18 نيسان/إبريل 1985، أي بعد ثلاثة أشهر من تأديتنا لقسم اليمين بوصفنا أعضاءً جدداً في مجلس الشيوخ، أقلّتنا أنا وطوم هاركين، عضو مجلس الشيوخ عن آيوا، الطائرة إلى ماناغوا، عاصمة نيكاراغوا.

كنا على متن إحدى طائرات خطوط TACA الجوية. تبادلنا المزاح حول هذه الشركة، التي رغم سجل السلامة الذي عندها، فإن الحروف الأولى من اسمها يُحتمل أن يعني طيران ركوب المخاطر، لكن من الناحية السياسية هذا ما كنا نفعله بالفعل. كنت أنا وطوم أصغر الأعضاء الجدد سنّاً، وكلانا جاء إلى مجلس الشيوخ بحافزٍ من القلق الذي يساورنا بسبب تدخّلنا في الحروب الجارية في دول أميركا الوسطى. أردنا أن نرى ونفهم بأنفسنا المعركة الدائرة بالوكالة في نصف الكرة الغربي الذي نعيش فيه، وهي صراعات تردّد أصداء الحرب التي صاغت السنوات التأسيسية لبلادنا. كان الرئيس ريغان يسعى إلى نيل موافقة الكونغرس على تقديم المساعدة العسكرية إلى المتمرّدين الذين يقاتلون حكومة نيكاراغوا الماركسية. أما وزير خارجيته جورج شولتز، فقد كتب رسالة إلى الكونغرس يدعو فيها جميع الأعضاء للذهاب إلى نيكاراغوا لكي يروا ما يجري هناك بأنفسهم. كانت هذه دعوة كافيةً لنا، أنا وطوم، للذهاب إلى هناك.

أتينا أنا وطوم من خلفيات متنوعة، فهو نشأ في مدينة صغيرة في ولاية أيوا، شيّدها مهاجرون كاثوليك. بعد مرور سنوات عديدة سافرتُ إلى هناك بوصفي مرشحاً رئاسياً، ورأيت بنفسي أن فخر المدينة بطوم ما زال عميقاً. كان الأمر مشابهاً في ماساتشوستس حيث بقيت أحياءٌ بأكملها مترابطة إلى الأبد، ذلك النوع من التواصل الذي افتقدتُه شخصياً بسبب عمله بالسلك الدبلوماسي، الذي كان يفرض عليه التنقل بشكل دائم. عانى طوم صعوباتٍ بدوره، وهو الذي فَقدَ والدته عندما كان في العاشرة، وعاش معاناة شقيقه الأكبر الذي كان أصمَّ، قبل أن تتفهم أميركا بالكامل مسؤولياتها التي تقضي بتوفير فرص وصول متساوية لذوي الصعوبات مع أولئك الذين يمتلكون قدرات متنوعة. حصل طوم على منحة من جمعية ضباط الاحتياط لتدريب الشبان ROTC، وهي المنحة التي مكّنته من الانتساب إلى جامعة ولاية أيوا، ثم أصبح طياراً ماهراً في سلاح البحرية.

في العام 1969، وفي الوقت الذي عدتُ فيه إلى البلاد وانتهيت من معارك فييتنام، بدأ طوم خوض معاركه. كان طوم يعمل في ذلك الوقت مع

واحد من نواب أيوا، هو تيل سميث. وقد سافر إلى جنوب شرق آسيا مع مساعدين آخرين في الكونغرس، إلى جزيرة كون سون، في مهمة لتقصّي الحقائق. شعر طوم بالرعب عندما شاهد كيفية معاملة حليفنا للأسرى من الأعداء، وكيف يضعهم في أقفاص مخصصةٍ للنمور. كانت تلك اللحظة صحوةً لضميره. لمس طوم وحشيةً عند الجيش الفييتنامي الجنوبي لا تختلف كثيراً عن وحشية الفييتكونغ. التقط طوم بعد ذلك سلسلة من الصور التي سرّبها إلى مجلة لايف، وأراد أن يتمكّن الأميركيون من رؤية ما يحدث. كان من الممكن أن يخسر طوم وظيفته نتيجة لتصرّفه هذا. لكنه عمد إلى تأسيس تيارٍ سياسي قوي ساعده على كسب مقعدٍ في الكونغرس بعد سنوات قليلة، أي سنة 1974، وأصبح عضواً في مجلس الشيوخ بعد عشر سنوات من الزمن.

وإذا نظرنا إلى المسارات المتوازية التي اتخذناها، نجد أن الرحلات المختلفة التي قمنا بها قد أوصلتنا إلى استنتاجاتٍ متشابهة، جعلت من تقاطع مساراتنا أمراً منطقياً. أدركنا من خلال تجاربنا أهمية عدم تقبّل رواية واشنطن عن الأحداث بصورةٍ آلية، بل أردنا أن نرى بأنفسنا ما الذي يحدث، في الواقع، في النزاع الذي يمزّق نيكاراغوا. احتجنا كذلك إلى أن نفهم، وبصورة أفضل، الطرق التي قد تؤدي إلى توريط الولايات المتحدة في هذه الحرب.

لاحظنا بوضوح بعض نقاط التشابه مع فييتنام. فقد قامت الولايات المتحدة بدعم حكومة سوموزا على مدى عقودٍ من الزمن في حربها ضد الشيوعية في البلدان المجاورة لبلادنا. لكننا نظرنا إلى الأمر من زاويةٍ أخرى، لأن ميليشيات سوموزا كانت تخرق حقوق الإنسان ولم تكن لتخاف من العقاب. كانت تلك القوات فاسدة وغير محبوبة في أجزاء كثيرة من البلاد، لكن الأمر نفسه ينطبق على المتمردين الذين نهضوا وطردوا قواته من مناطق كثيرة. عُرف المتمردون باسم الساندينيين، وكانوا بإمرة دانيال أورتيغا، وكان من الواضح أنهم اتّبعوا، في تنظيم أنفسهم، نموذج كاسترو، وعدد آخر من قادة الماركسيين في تلك الحقبة. ومع توسّع الساندينيين في فرض سطوتهم على شعب نيكاراغوا، تزايدت الحركة المناهضة للثورة في ردّها. أما المعارضة، والتي عُرفت باسم كونترا، فقد ضمّت عدداً كبيراً من رموز نظام سوموزا السابقين، وشنّت حرب عصابات في محاولة منها لاستعادة السيطرة على البلاد. وابتهج السوفيت بطبيعة الحال لاحتمال تمكُّنهم من كسب دولة تكون تابعة لهم، أو صداقة دولة أخرى، في نصف الكرة الغربي.

لم يكن الأمر من جهتي ببساطة خيار بين الأسود والأبيض، أو بين الخير والشر، وحتى لو بدا الأمر أقرب ما يكون إلى المقارنة بين تدرُّجات اللون

الرمادي. هل كان الكونترا يحاربون الشيوعيين؟ الجواب نعم. ومن الجهة الأخرى أفاد عدد من التقارير الموثوقة أن الكونترا يرتكبون خروقاً عنيفة لحقوق الإنسان. قلقت كثيراً لأنهم كانوا من نوع الحلفاء الذين يتحولون فيما بعد عبئاً حقيقياً على المدى الطويل. عالج الرئيس ريغان هذه المسألة بطريقة بعيدة عن الصواب كثيراً، عندما تحدث عن نظرية الدومينو في نصف الكرة الغربي. وكان هذا المنطق هو ذاته الذي قادنا إلى الكارثة من قبل. كنا نعرف، أنا وطوم، عدداً كبيراً من الأصدقاء المقرّبين الذين وُضعت أسماؤهم على الجدار الغرانيتي في واشنطن بسبب هذا النوع من التفكير. لكن، بالنظر إلى الطريق التي سرنا عليها نحن الاثنان، فقد كان من الصعب، إذا لم يكن من المستحيل، أن نتقبل رواية أي شخصٍ آخر عما يحدث بالفعل. وهكذا شعرنا بأننا مجبران على البدء بعمليات استقصاءٍ خاصة بنا، وأن نكون حذرَيْن في ذلك.

لم يكن هدفنا وضع ناخبينا في الصورة فحسب، بل استكشاف سياسة أفضل يمكننا تطبيقها. وبدلاً من الخيار الخاطئ بين دعم الكونترا بشكلٍ قوي، أو عدم القيام بشيء، يكون هناك نهج مختلف بإمكانه مساعدة نيكاراغوا ونصف الكرة التي نعيش فوقها. أما محادثات السلام، فقد كانت متوقفة منذ أشهر، وتساءلنا إن كان يمكن استئنافها؟

حضرنا في ليلتنا الأولى بماناغوا، عشاءَ عملٍ في منزل وزير الخارجية ميغويل ديسكوتو، وشككنا تلك الليلة أنه يشن علينا هجوماً براقاً. أثناء مناقشتنا الخطوات التي يُمكن اتخاذها لتكون أساساً للمفاوضات المقبلة، لاحظت الفخامة التي يحيط بها الوزير نفسه. وأتذكر أنني تساءلت في ذلك الوقت ألا يُفترض أن يقود هذا الرجل ثورة شعبية؟

طلبنا ذاك اليوم الاجتماع بأكبر عددٍ ممكن من الناس من كلا جانبَي النزاع. تبادلنا بعد ذلك عشرات الأحاديث، فبدا لنا أن عدداً كبيراً منها يؤكد شكوكنا بأن الكونترا قد ارتكبت مذابح فظيعة. لن أنسى أبداً ذلك اللقاء الذي جرى مع امرأةٍ تدعى زويلا روزا دومينيغيز إسبينوزا. كانت المرأة في أوائل الخمسينات من عمرها، وخمّنتُ عندها أنها أكبر مني بعشر سنوات. أخبرتني وسط دموعها المنهمرة كيف أن عصابات الكونترا نصبت قبل ثلاثة أشهر من الزمن كميناً لسيارة جيب مدنية، وأقدمت على قتل ابنتها وثلاثة من الأساتذة الشبان. كانت المرأة تحمل صورة تخرّج ابنتها بيدها، وتوسّلتنا أن نفعل كل ما في وسعنا لإيقاف الحرب. قوّى هذا من إحساسنا بأن واشنطن وموسكو تنظران إلى هذه الحرب الأهلية من خلال عدسة عقائدية فقط، أي إنها كانت مجرد حربٍ بالوكالة لمصلحتهما. كانت العاصمتان تشعران بارتياح لاستمرار

هذه الحرب بالوكالة، بدلاً من الإصغاء إلى الناس على الأرض، والذين يريدون أولاً وقبل كل شيء أن يعيشوا حياتهم من دون عنف.

في الليلة التي سبقت عودتنا إلى واشنطن، التقينا على عشاءٍ عمل، استمر خمس ساعات، كبار المسؤولين من حركة الساندينيين، ثم التقينا أخيراً الرئيس دانيال أورتيغا الذي لخّص لنا نظريته للسلام المحتمل في بلاده. تابعنا على مدى ساعات تبادل الأفكار التي أصغينا إليها بتركيز أنا وطوم، على أمل أن نجد فيها بصيص أمل يُمكن أن يُقنع الولايات المتحدة. لكن، في وقتٍ متأخر من تلك الليلة، صمّم أورتيغا على أنه يريدنا إيصال فكرة إلى الرئيس ريغان.

تسلّمنا في صباح اليوم التالي، وقبل صعودنا إلى الطائرة في المطار، وثيقة تمثّل اقتراحه الرسمي لمسار المفاوضات. شعرت بارتياح عند أخذ هذه الوثيقة إلى الإدارة. كانت الوثيقة مؤلفة من صفحتين ونصف الصفحة، ويمكننا اختصارها بهذه الأسطر: أورتيغا جاهز لوقف إطلاق النار مع الكونترا، وكبح جماح دولته البوليسية، وطرد المستشارين العسكريين السوفيت والكوبيين العاملين مع جيشه، وإجراء انتخابات وتبنّي اتفاقية سلام، وذلك في مقابل امتناع الولايات المتحدة عن إمداد الثوار بالعتاد.

لم أكن واثقاً جداً باستعداد الساندينيين للإيفاء بوعودهم. لكن انزلاق المنطقة السريع إلى أعمال عنفٍ متزايدة دفعني إلى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة تمتلك مسؤولية اختبار ما إذا كانوا جادين أم لا. اعتقدتُ في ذلك الوقت أنّ المرء لا يخسر من اختبار إمكانية السلام إلا إذا كان يريد الذهاب إلى الحرب. وإذا كان ممكناً تحقيق تقدّم فإن الأمر سوف يكون رائعاً. لكن إذا لم يتحقق هذا التقدم فإنه يكسب صدقية لدى الحلفاء والدول المجاورة. اعتقدتُ أن إدارة ريغان يجب أن تتعامل مع هذا الاقتراح كأولوية، ويمكنها على الأقل تقديم اقتراح معاكس. لم نكن أنا وطوم من المفاوضِين، وكان كل ما نستطيع فعله هو نقل رسالة أورتيغا. لم نكن نعرف في ذلك الوقت أن البيت الأبيض لا يكترث لهذا النوع من الدبلوماسية. قبل عودتي أنا وطوم إلى واشنطن، عمد مساعد وزير الخارجية لشؤون المنطقة، إليوت آبرامز، إلى الاتصال بكابتول هيل لتجاهل الفكرة بأكملها.

عقد البيت الأبيض، بعد يوم من عودتنا، اجتماعاً مع زعماء مجلس الشيوخ لمناقشة المسألة. قيل لنا إن واحداً منا، أي أنا وطوم، سيتمكن من حضور ذلك الاجتماع. وهكذا لجأنا إلى طريقة «الطرة والنقشة في عملةٍ معدنية، (أو الصورة والملك)» . كسبت أنا بهذه الطريقة، أو لعلني خسرت، ويعتمد ذلك على ما حدث لاحقاً.

كان جلوسي في البيت الأبيض بوصفي عضواً جديداً في مجلس الشيوخ أمراً قد يتصوّر المرء أنه على جانبٍ من الأهمية. بحثت إمكانية استئناف محادثات السلام، فأصرّ مسؤولو إدارة ريغان على مواقفهم، التي يُمكن اختصارها على هذا الشكل: إنّ تصديق أي شيء يقوله أورتيغا، لهو أمر سخيف. وهكذا لم يروا أي سبب يدعوهم إلى التحدّث مع النظام. كانت تلك بداية تعرّفي إلى بعض المحافظين الجدد الذين سوف يقودون بلادنا إلى الحرب في العراق. رفض هؤلاء تقبّل الموقف الذي أؤمن به، وهو أن المفاوضات لا تستند إلى الثقة، بل هي وسيلة لمعرفة إن كان بالإمكان تحقيق تقدّم. لم يرغبوا في إيقاف الحرب، بل أرادوا توسيعها. وكان ذلك الاجتماع مجرد استعراض لأن القرار قد اتّخذ سلفاً. كان ذلك قبل عدة سنوات من جعل الرئيس ريغان مقولة، «ثِقْ ولكن تحقّقْ» شعاراً له في التعامل مع السوفيت، لكنني تساءلتُ بدهشة عن السبب الذي يجعل الولايات المتحدة تتفاوض مع الاتحاد السوفيتي، لاسيما وأنها القوة نفسها التي اجتاحت أفغانستان، والتي وجّهت رؤوسها النووية نحونا، في الوقت الذي تمتنع فيه حكومتنا حتى عن إجراء محادثات تجريبية مع بلدٍ صغير مجاورٍ لنا.

تمكّن تيب أونيل، رئيس مجلس النواب، وبعد مرور أيام قليلة، من منع تمرير اقتراح بعدم تقديم المساعدة إلى الكونترا. كنت آمل أن يعني ذلك التصويت في المجلس أن الإدارة سوف تعود به إلى مجلس الشيوخ مع نهجٍ جديد بخصوص محادثات السلام، وحيث تكون اختباراً لأورتيغا.

تعلّمت بعد ذلك درساً جديداً من واشنطن لكنه مختلفٌ كلياً. وهو درسٌ حول سياسة القبضة الحديدية في عاصمة بلدنا. كان ذلك الدرس كذلك بمثابة مؤشرٍ على نوعٍ آخر من السياسة التي أدّت إلى انقسام المدينة نفسها بمرور السنين.

بدأ الأمر مع السيناتور باري غولدووتر، وهو شخصٌ تعرّفت إليه من سمعته التاريخية عندما تمكن سنة 1964، من السيطرة الشرسة على الحزب الجمهوري، وهو الأمر الذي بدأ مع استبعاد جمهوريي روكفلر المعتدلين. كان غولدووتر زميلاً لأشهرٍ عدةٍ فقط، وكنت أتبادل المجاملات معه، لكننا لم نتبادل معاً أي حديثٍ حقيقي. يعني ذلك أنه لم يعرفني ولم أعرفه.

عرّفني تيد كينيدي بمراسيم مجلس الشيوخ، أي الطريقة التي يتحدث بها الزملاء معاً على حدة، أي قبل أن يعمدوا إلى تبادل الانتقاد في وسائل الإعلام. وسمعت عبارة من الزعيم بيرد كان يردّدها كثيراً: «اللطافة في مجلس الشيوخ» .

كان من الواضح أن ثمة قاعدةٍ لم تكن مألوفةً لديّ؛ لكنني عرفتها الآن. فقد شنّ السيناتور غولدووتر هجوماً مباغتاً على طوم هاركين وعليّ أنا في وسائل الإعلام، اتّهمنا فيه بمخالفة قانون لوغان، وهو قانون اتحادي غامض من بقايا أواخر القرن الثامن عشر، يجعل التفاوض مع حكومة أجنبية من دون إذنٍ مسبق، جريمة.

لم يكن غولدووتر يعرفنا. لكن ذلك لم يمنعه من استخدام تكتيكٍ يستخدمه اليمين المتطرف، عندما اتّهمنا بالخيانة. كنا اثنين من أعضاء مجلس الشيوخ. سافرنا إلى الخارج برعاية لجنة العلاقات الخارجية. وقد التزمنا كل البروتوكولات والقواعد المعتادة. وفعلنا ما هو متوقّعٌ من أعضاء مجلس الشيوخ القيام به قبل التصويت على قضايا الأمن القومي: كنا نقوم بجمع الحقائق. يُعتبر الفرع التشريعي من السلطة فرعاً مساوياً للتنفيذي منها. وهو أمرٌ افترضتُ أن عضواً في مجلس الشيوخ الأميركي، مثل غولدووتر، يريد حمايته بوصف ذلك حاجة دستورية.

كان ذلك الاتهام سخيفاً، لأننا لم ندخل في أي مفاوضةٍ، وغولدووتر يعرف ذلك. نصحني الزعيم بيرد بعدم أخذ الاتهام على محمل الجد، لأن القصد من ورائه لم يكن اللجوء إلى القضاء، بل إسكاتنا. كان ذلك هو المكافئ السياسي للإلغاء. وقد تسبّب ذلك بهبوب عاصفةٍ إعلامية وتحرُّك النقاد المحافظين. في واشنطن صحيفتان: الواشنطن بوست، التي كانت جدّية ومنصفة، والواشنطن تايمز، بوق اليمين التي لا تعرف لا الإنصاف ولا التوازن. لم تكن التايمز صحيفة تدوين الوقائع، بل كان بإمكانها إثارة التغطية التلفزيونية بعناوين مبالغٍ فيها، وقد فعلت ذلك بالتأكيد هذه المرة.

وقفنا أنا وطوم إزاء هذه المسألة في جهة الدفاع. واجتمعنا مع تيد كينيدي وكريس دود في قاعة مجلس الشيوخ. ربّت كريس دود على ظهري، وابتسم عندما قال: «يبدو أنك أخفتَ شخصاً ما» . أما تيد فكان متفائلاً كعادته، لكنه حذّرنا بالقول: «لا تعمدا إلى الشرح» ، مكرِّراً شعاره بأن الشرح في السياسة يعني الخسارة. لم يؤمن تيد باللجوء إلى الدفاع، كما أن صلابة عوده التي تكوّنت بمرّ السنين، ومن كونه هدفاً لسهام اليمين، هي التي أدت إلى عدم اكتراثه لمسرحياته. وهكذا لم يكن هناك مناشير، أو رسائل بالبريد المباشر، للحزب الجمهوري لجمع التبرعات، إلا وورد فيها اسم تيد، وهو الذي كان يفتخر أنه الرجل الذي يتجنبونه. لكنني في ذلك الوقت لم أكن قد وصلتُ إلى هناك بعد.

تأثرت جداً في واقع الأمر، وشعرت أن الحقائق غير مهمة. كنت أعرف أن أعضاء مجلس الشيوخ قد قاموا برحلات إلى الخارِج تُعدّ بالعشرات، تشبه

تلك التي قمتُ بها. لم يقولوا كلمة واحدة دفاعاً عن صلاحيات أعضاء المجلس، دعك من الدفاع عن اثنين من زملائهم. أما رد فعل وسائل الإعلام، فقد كان مطابقاً لما سبق أن توقّعه تيد: بدلاً من التركيز في سخافة الهجوم الذي قام به غولدووتر، وبدلاً من ملاحظة خلو ذلك الهجوم من محتوى جوهري، ركّزت التقارير في العملية السياسية، وفي الضجيج الذي رافقها. كانت المقالة الرئيسية هي: «كيري في موقف الدفاع» .

واظبتُ على طرح هذا السؤال على نفسي: إذا كان كل ما تحتاج إليه واشنطن لإفشال النقاش حول مسألةٍ صغيرة، فكيف سنتمكن من إنجاز أي شيء؟ كان لدى الجناح اليميني في هذا الوقت بيان ورؤية مسبقة، وكان فاعلاً في كل هذا. أما نحن فلدينا الحقائق والمنطق، لكنهما أخفقا في إشباع نهم الوحش السياسي.

تلقّى الجناح اليميني بعد عدة أيام هدية تصلح للكلام عليها، جاءته من أورتيغا ذاته، عندما سافر إلى موسكو للحصول على مبلغ 200 مليون دولار من داعميه السوفيت. لم يفاجئني هذا الود تجاه موسكو كثيراً. كان الرجل ماركسياً، ولذلك لم تكن إدارة ريغان مهتمة بالتحدث معه. كانت هذه الزيارة بمثابة صدمةٍ جديدة تلقيناها أنا وطوم هاركين. وهكذا تمكّن اليمين في هذا الوقت من الجدال بأن أورتيغا قد برهن بأننا كنا ساذجَين.

كان واضحاً لديّ أن مجلس الشيوخ لم يكن مستعداً لتغيير طريقة استجابته للحرب في نيكاراغوا. وكان معظم الديمقراطيين مرتاحين في معارضتهم الدور الأميركي المتزايد في الحرب، في حين لم يكن الجمهوريون مرتاحين للقيام بالدور المعاكس. لم تكن واشنطن مستعدة لتبنّي طريقة دبلوماسية ثالثة. أما الدول الأخرى في نصف الكرة الغربي، فقد استمرت في التطلع إلى حلٍ دبلوماسي. لذلك أرسلتُ مساعِدي للشؤون الخارجية، ديك ماكال، للاجتماع مع رئيس كوستاريكا أوسكار آرياس سانشيز، وإطلاعه على المحادثات التي أجريناها أنا وطوم هاركين أثناء جولتنا إلى المنطقة. قررت أخيراً إعارة ديك للرئيس آرياس، كي يعمل معه بغية التوصل إلى عملية سلمية. وتوقعت أن خطة سلامٍ تكون بين أيادٍ أمينة، ليست أميركية ولا روسية، وتضع المفاوضات الجاريةً في النصف الغربي من الكرة الأرضية على المستوى المحلي، سوف تمتلك حظوظاً حقيقية للنجاح. كان آرياس هو الشخص المناسب لهذه المهمة، وكان ناجحاً فيها إلى درجة حصوله على جائزة نوبل في العام 1987، لأنه كان القوة الدافعة الرئيسة وراء خطة السلام الإقليمية، التي وقّعتها خمس دول في بلدان أميركا الوسطى. اتّجهت واشنطن في هذا الوقت إلى منحى مختلفٍ تماماً بخصوص الكونترا.

إذا كانت تجربتي في خوض موقفٍ دفاعي إزاء الهجوم المتعصب الآتي من واشنطن قد زادتني معرفةً لحدود الزمالة القائمة في مجلس الشيوخ، فإنّ تجربةً غير متوقعة قد أدّت إلى تجديد إيماني بأن تلك المؤسّسة كانت متميزة بالفعل. يتعلّم الأعضاء الجدد في مجلس الشيوخ الأمور الأساسية، أي كيفية توظيف المساعدين، وكيفية إدارة موازنة المكتب، والأساسيات البرلمانية، لكن روبرت بيرد وتيد كينيدي أظهرا لي، في بعض الدروس والتأملات التي قدّماها إليّ، أن القواعد المهمّة حقاً ليست هي المكتوبة، وأن الأماكن المهمة فعلاً ليست هي تلك المواقع التي تظهر على خريطة ما.

تبيّن لي كذلك أن هناك مكانين في المجلس تُطرح فيهما السياسة جانباً بالفعل، هما: النادي الرياضي التابع للمجلس، وغرفة فطور الصلاة الأسبوعي الخاصة بأعضاء مجلس الشيوخ.

كان النادي الرياضي مكاناً لأعضاء المجلس للابتعاد عن الهواتف، والمناقشات السياسية الحادة التي كانت تجري في المجلس، وذلك الطوفان المتواصل من الاجتماعات ولقاءات جمع التبرعات. يتمتع أعضاء المجلس السابقون بامتيازات الدخول إلى النادي مدى الحياة. كما أن بعضهم، من الذين بقوا في واشنطن بعد خسارتهم في الانتخابات أو تقاعدهم، يستمرون في المجيء، وهم يفعلون ذلك للعمل في الظاهر. لكنهم يأتون غالباً لأنهم اشتاقوا إلى رفقة زملائهم، والإحساس بالسعي إلى تحقيق هدفٍ ما. أما الرجل الذي شغل مقعدي في مجلس الشيوخ قبل بول تسونغاس، أي إد بررووك، فقد كان واحداً منهم. وكان يسألني عندما نلتقي معاً في النادي إن كنت مرتاحاً في مجلس الشيوخ. لكنه كان متشائماً بشأن عمله الذي انقطع بعد خسارته الانتخابات في العام 1978. لكن بحلول العام 1985 أصبح رجلاً من دون حزب، وعضو مجلسٍ من دون مقعد.

كان النادي ملاذه المفضّل، كما هو للأعضاء الحاليين. وكان بعض الأعضاء يستغرقون في الأحاديث لمدة ساعة كل يوم. وهكذا يسترجعون مرونة في عضلات سيقانهم المتعبة في الجاكوزي. وكان آخرون يقصدون غرفة التدليك من أجل إراحة عضلاتهم المتعبة بعد رحلاتهم الطويلة في الطائرة، والأيام الطويلة التي يقضونها في المجلس. وثمة أعضاء، مثل تيد كينيدي الذي كان قلقاً على الدوام من كسرٍ في ظهره أصيب به نتيجة تحطم طائرة، فقد كانوا يعتمدون على جلسات التدليك لكي يتمكنوا من الوقوف منتصبِي القامة، لكن تيد لم يتململ قط. كان عددٌ قليل منهم يستحمّون للتخلص من تعب الليلة السابقة، بينما كان بعضهم الآخر يمارس بعض التمارين.

كان فطور الصلاة الأسبوعي، في المقابل، فرصةً لتمرين مختلف العضلات. يطرح الأعضاء السياسة والحزب جانباً عند الساعة السابعة من صباح كل يوم أربعاء ليجتمعوا في الغرفة س- 15 في الكابيتول، بإشراف قسيس مجلس الشيوخ، بغية التأمل في مسارات إيمانهم.

نشأتُ مع القدّاس اللاتيني ورسميات الكنيسة الكاثوليكية في أيام ما قبل الفاتيكان II. وهو قداس يهدف إلى خلق علاقة شخصية أعمق بين الكاثوليك وربّهم. وقضيت وقتاً طويلاً في التمرّن على نصوصي اللاتينية كي أصبح المؤدي الأسرع في أبانا (باترنوستر) في صفّي، لكن لم يشجعنا أحد على تحليل الإنجيل، ولم تكن هناك معاناة مع النصوص الدينية.

يعني كل ذلك أن فطور الصلاة كان جديداً ومختلفاً عليّ. وهكذا بدأت به مع بعض التحفظ. لم تكن هذه المناسبة تشبه أي شيء آخر عرفته في مدينتي. ولم تكن والدتي البروتستانتية ولا والدي الكاثوليكي، يتظاهران بشأن الإيمان. كانا مؤمنَين، لكنهما تشاركا في كثير من التحفظ الذي يميّز نيو إنغلند، أي إنهما كانا يحتفظان بآرائهما الدينية لأنفسهما. تقبلت والدتي، برحابة صدر، أن ينشأ أولادها نشأةً كاثوليكية، كما أصرّت على ضرورة حضورنا صف خلاصة العقيدة الدينية بشكلٍ منتظم، حتى مع تنقّلنا بين المدارس الداخلية. لكننا لم نشارك في أحاديث العشاء حول الإنجيل، كما أن الكنائس التي خدمتُ فيها بوصفي مساعد القسيس، كانت رسمية. ولم تكن هناك ساعات إضافية لدراسة الإنجيل مخصّصة للبالغين، بل كنا مجرد طلاب «يتلقون» دروس الأحد في مدارسهم. وأنا أقصد المعنى الحرفي لكلمة «يتلقون» . كان هذا التعليم ذا اتجاهٍ واحد على الدوام، أي من دون تبادل أفكار، ولا امتحان لآمالنا ومخاوفنا ومعتقداتنا.

لكن فطور الصلاة في مجلس الشيوخ تحدّى بلطف تلك التقاليد. ركّزت في الكتاب المقدس ذاته من أجل استخلاص المعاني منه. كان قسيس مجلس الشيوخ حاضراً على الدوام، لكن المنشدين كانوا بقيادة اثنين من مجلس الشيوخ، أحدهما من الحزب الديمقراطي والآخر من الحزب الجمهوري، وكانا يؤديان دور دعوة المشاركين. كنا نسمع في كل أسبوع من أعضاء مجلس الشيوخ الحاليين، أو الأعضاء السابقين، كيف ساعدتهم علاقتهم مع الله على مواجهة المصاعب التي تلقيها الحياة في طريقهم. كانت تلك وجهة نظر زملائي الجدد التي تتحدى المعتقدات السائدة، والمبالغات، والقيود الضيقة للقواعد التي يفرضها الحزب. سمعت هناك الزعيم الجمهوري بوب دول وهو يصف الطرق المتّبعة في كنيسة أسرته الكائنة في راسل، كنساس،

عندما احتضنته بعد عودته إلى الوطن في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وكان عندها محاطاً بقالبٍ يلفّ كامل جسمه، وبذراع ذاوية، وهو الأمر الذي يُبرز أعمال الخير المسيحية. سمعتُ كذلك زميل الدراسة ميتش ماكونيل، العضو الجديد الوحيد في مجلس الشيوخ عن الحزب الجمهوري في انتخابات العام 1984، يتحدث عن المساعدة التي تلقّاها من كنيسته المعمدانية من أجل التغلّب على مرض شلل الأطفال، وكيف أنه آمن بأن الله قد أعدّ خطةً له. سمعت هناك أيضاً، وللمرة الأولى من أعضاء مجلس الشيوخ، عن الإرساليات التي شاركوا فيها إلى أفريقيا وأميركا الوسطى لنشر إيمانهم وخدمة الفقراء.

أدركت الآن أن ذلك كان المكان الأول والوحيد حيث سمعت تيد كينيدي يتحدث لأول مرة عن إيمانه الذي أسهم في تغلّبه على رحيل أفراد أسرته الذين يحبّهم. كان العالم كله يعرف أن تيد حارس كاميلوت، وبطل المثاليات التحررية. تعرفتُ إليه أكثر كزميلٍ وناصحٍ لي. وحتى تلك اللحظة لم أكن أعرف قط أنه الملتزم الهادئ كنيسته الكاثوليكية، والذي وجد العزاء في ديننا في أصعب لحظات حياته.

يتذكّر أبناء جيلي أين كنا في اليوم الذي قُتل فيه الرئيس كينيدي. ونتذكر جميعاً الكلمة التي ألقاها تيد في رثاء بوبي في كاتدرائية سانت باتريك سنة 1968. مثّلت كل تلك الذكريات التفاتة تقدير لا تمحى نحو أيقونات رحلت عن هذا العالم، أكثر من التعاطف مع الشقيق الذي بقي على قيد الحياة. لم يسبق لي أن سمعت تيدي يتحدّث بعباراتٍ شخصية عن الشقيقين اللذين اختطفتهما رصاصات القَتَلة، أو حتى عن أخيه الأكبر جو الذي راح ضحية الحرب، أو عن شقيقته كاثلين التي أحبّها كثيراً والتي توفيت نتيجة حادث تحطّم طائرة، عندما كانت في العشرين من عمرها.

أما هنا، وفي الغرفة الهادئة والتي تؤمّن الخصوصية في الكابيتول، وبينما كانت الشمس ترتفع ببطءٍ فوق سماء واشنطن، فقد سمعتُ تيد وهو يتحدّث عن طرقة على الباب من يد قسيس البحرية حاملاً أخبار طائرة تفجّرت فوق المحيط الأطلسي، وكيف أن والدته حوّلت آلامها إلى تلاوة الصلاة.

تحدث كذلك عن حصوله على النعمة باتباع تعاليم الكنيسة. وقد تغيّرت نظرتي بعد ذلك اليوم إلى الألم الذي عانى منه تيدي، وإلى المعاناة التي يخبّئها خلف وميض عينيه.

شعرتُ على مدى زمن طويل بضرورة عدم التحدث كثيراً خلال مناسبة فطور الصلاة، وأنا الذي جاء إلى مجلس الشيوخ «مستعجلاً» بطرقٍ عديدة. أما

تيد كينيدي فقد انتظر أكثر من سنة لإلقاء أول خطابٍ له في قاعة المجلس، وكان ذلك قبل أشهرٍ قليلة من بدء ولايتي. استخدمتُ أول خطابٍ لي في المجلس لمعالجة موضوع الإنفاق العسكري وقذائف أم إكس الموجّهة. لكنني قاربتُ فطور الصلاة بطريقة معاكسة. تعلقت من فوري بدروس الكتاب المقدس، وهي التي أعجبتني من الناحية الفكرية، لكنني لم أكن مستعداً لاستخدام الإنجيل منصةً للحديث عن مساري الخاص في العمل السياسي. الواقع أنني، في غرفةٍ يبدو فيها عددٌ من زملائي واثقين بإيمانهم وقناعاتهم ثقة وطيدة، كنت أواجه شكوكاً مقلقة، ظلت تلاحقني منذ أيام خدمتي في سلاح البحرية.

شهد إيماني الديني نقاط ذروة وانخفاض، وأوقاتاً كنت ملتزماً فيها، وأوقاتاً أخرى كنت أقل انشغالاً بها، وأوقاتاً سمحت لها أن تسير بي من دون تدخلٍ مني. شعرت أنني متعلقٌ بالكنيسة تعلّقاً عميقاً بصفتي مساعداً للقدّاس، وحتى خلال دراستي الثانوية في سانت بول، حيث شعرت من خلال علاقتي مع الموقّر والكر برابطة مع الجانب القيَمي من الدّين، ومع دروس عيش القاعدة الذهبية.

حين ذهبت إلى فييتنام كنت متديّناً دون تزمّت، وكنت أحضر المناسبات الضرورية، وثابرت على ارتياد الكنيسة كلما استطعت إلى ذلك سبيلا. لكن في الفترة الفاصلة، وعلى الأخص خلال دراستي الجامعية، كانت هناك أيام آحاد كثيرة أنام فيها بعد ليلة سبت أمضيها في نوع آخر من البحث عن الخلاص. كانت الصلاة الأكثر إلحاحاً عادةً عندما أتوجّه إلى الله ليساعدني على إيقاف الألم الذي أشعر به في رأسي.

كانت حماستي تقوى وتخف بين حينٍ وآخر. يعني ذلك أنني كنت مؤمناً، لكن ليس «الإيمان الكامل» . أما ميادين المعركة فقد تعوّدت فيها وضع ميدالية القديس كريستوفر حول عنقي، والطلب من الله أن يحميني. لكن بعض هذا الطلب كان إجرائياً وسطحياً. وكثيراً ما كان يتحول الدعاء إلى توسّلٍ مثل، «أرجوك يا الله، أن تساعدني على الخلاص، وأنا أعدك بأن أكون إنساناً طيّباً» . لكن لم يطل الأمر قبل أن يتسلل الشك إلى قلبي، وحينها كنت أشعر بالغضب جرّاء ما أراه وما أفعله.

خطرت في ذهني الأسئلة التي طرحها ملايين الناس ملايين المرات من قبل. لم تكن تلك الأسئلة لامعة أو أصلية، لكنها كانت مخلصة، وصادرة من القلب، وحقيقية. اعتبرت أن بعض الكلمات التي ينطق بها الكهنة والقساوسة تبدو فارغة، وعلى الأخص عندما تتعلق بفقدان أصدقائي المقربين. تساءلت حينها، كيف يكون هناك إلهٌ رحيم ويسمح بحدوث هذه المذبحة؟ وكيف يختار

الله بين طفلٍ وآخر ليعيش أحدهما ويموت الآخر، أو يتعرض طفلٌ غيره للتشويه؟ ألم يصلِّ هؤلاء الأطفال بما فيه الكفاية؟ هل الطيّبون فقط هم الذين يموتون في عمرٍ مبكر؟ هل كان هؤلاء وثنيين؟ هل كانوا شيوعيين ملحدين؟ هل يستأهلون الموت بطريقةٍ ما؟ كانت كل هذه الأسئلة موجهة وشخصية. رفضت تصديق أن إرادة الله قضت بألّا يتمكّن ديك بيرشينغ من العودة من الحرب إلى وطنه حياً لكي يتزوج، أو أن أرادة الله قضت بألّا يتمكن دون دروز من رؤية طفلته الرضيعة وهي تكبر.

عادت بي الذاكرة إلى غضب والدي، وإلى شلل الأطفال الذي أصيبت به شقيقته، قبل أن تُصاب بالسرطان. لم أرغب في ذلك الوقت أن أسمح لمرارتي بالسيطرة عليّ بالطريقة التي سيطرت عليه. لكن مشاهد القتل التي رأيتها، والخسائر التي شهدتها، كانت تلاحقني على الدوام. لكنني عندما عدت من فييتنام إلى الوطن، داومتُ على حمد الله لأن كل يومٍ أعيشه هو يوم مضافٌ إلى حياتي. حمدت الله لأنني نجوت، لكن كل الكلمات حول إرادة الله التي تعمل بطرقٍ غريبة لم تلقَ استجابةً عندي. حوّلت طاقتي، بدلاً من ذلك، إلى الخدمة العامة ومختلف النشاطات. لكن ذلك أخفق في ترسيخ أسس معتقداتي. أردت تربية بناتي تربيةً كاثوليكية لأنني كاثوليكي، وكنت سأقول لهم أكثر من ذلك كثيراً لو تلقيت سؤالاً منهن. لم أتمكن شخصياً من العثور على أجوبة مرضية عن أكبر الأسئلة التي تدور حول ما يعنيه معتقدي الديني في ما يتجاوز قوة السر المقدّس، والراحة التي تأتي من ممارسة الطقوس الدينية.

دفعتني مناسبات فطور الصلاة، وإن بطريقة غير مباشرة، إلى العمل على ايجاد أجوبة عن تلك الأسئلة التي لم تجد أجوبة بعد. لم يطلب مني أحد عمل أي شيء، لكن هذه المناسبات الأسبوعية بقيت في برنامج عملي، ولم أكن بحاجة إلى مَن يذكّرني بها. بدأت بقراءة، أو إعادة قراءة، بول تاليك، ورا ينولد نيبور، وبيلي غراهام، والقديس أغسطين، وتوما الأكويني، حول الحرب العادلة وتلك غير العادلة، وكذلك رسالتَي السلام في الأرض، وأم ومعلمة، اللتين أصدرهما البابا يوحنا الثالث والعشرون. فعلتُ ذلك بناءً على اقتراح القسيس هالفرسون، وما أتذكّره من أيام الدراسات المقدسة في سانت بول. بدأتُ كذلك بالإصغاء، بعنايةٍ أكبر، إلى أخبار الرحلات الشخصية التي قام بها مختلف أعضاء الكونغرس، وكيف بإمكانها أن تفيدني في رحلاتي.

حدث ذلك عندما التقيت القسيس غير المتفرغ دوغ كوو. كان دوغ مسيحياً إنجيلياً، أي إنه لم يكن كاثوليكياً، وارتكز عمله على حياة يسوع. كان الرجل مستشاراً لعددٍ من قساوسة مجلس الشيوخ، وكانت هذه هي وسيلة تعرّفي إليه. كما أنه ترأس مناسبة فطور الصلاة القومي. كان دوغ يناهز

الستين من عمره، قاد جماعة الزمالة، وكان من المعتاد أن تشمل هذه المجموعة صانعي القرار والرؤساء الدينيين في واشنطن. ولمّا كان دوغ لا يكترث للشهرة، فإن بعض معتنقي نظرية المؤامرة قد ربطوا أنشطتهم برعيته وكذلك بسيدرز، وهو مبنى قديم في آرلنغتون، والمكان الذي خصّصته الزمالة لمجموعات الصلاة، وفي بعض الأحيان لممارسة الدبلوماسية غير المعلنة.

أدهشني حضور دوغ الهادئ والرزين. وهكذا تقاسمنا معتقداً مشتركاً، تقضي أديان منظّمة عدّة أوقاتاً أكثر، وتستهلك طاقة أكبر في دراسة تفسيرات الأديان، كي تتوصّل في وقتٍ تُعتبر فيه حياة يسوع وتعاليمه جوهر الإيمان. فهم دوغ أن بشارة يسوع استغرقت ثلاث سنوات فقط، وهي التي بلغت ذروتها في موته على الصليب، وتُعتبر جوهر تعاليم المسيحية ومعناها. وهكذا بدأ بإرسال مقالاتٍ ومقتطفات من الكتاب المقدّس إليّ، من أجل إكمال قراءاتي التي بدأتُ بها.

بقيت قضية المعاناة الإنسانية العقبة الأكثر قسوة وصعوبة علي في مسعى مقابلة إيماني مع تجاربي الخاصة. أما عبارة خطة الله فلم تتوافق كلياً معي. حين كنت أشاهد مباراة لكرة القدم في الجامعة، وأستمع إلى مقابلات ما بعد المباراة، كنت أسمع مراراً أن الله يمتلك «خطة» لمساعدة لاعبي الهجوم على تحقيق انتصارات. لكن عند حلول موعد الأخبار المسائية، هل كان من المفترض بي أن أصدّق أن الله لا يمتلك خطة للأطفال الذي يجوعون في أثيوبيا، والأولاد الذين يعانون من بطون خاوية ومغطاة بالذباب؟ والأسوأ من ذلك، أن تكون هذه إرادة الله؟ إننا نستعجل أحياناً الاعتقاد بأن الله يقف إلى جانبنا في أمورٍ تافهة. وهكذا نجهل تماماً الأماكن التي يُمكن أن يُشاهَد فيها بالفعل، أو نتجاهل الأسباب التي قد تمنعنا من معرفة وجوده كلياً. كان ذهني يعيدني مرةً بعد مرّة إلى وجهَي بيرش ودون دروز. وهكذا كنتُ أرفض الاقتناع بأن لله يداً في موتهما.

لكن الأمر الذي أعاد إليّ بعض الراحة أخيراً بشأن معتقدي الديني جاء بعد قراءة، وإعادة قراءة، المقاطع التي وضعتُ خطوطاً تحتها، ودوّنتُ ملاحظات بشأنها على هوامش الرسالة البابوية التي كتبها البابا يوحنا بولس الثاني، وهي الرسالة التي تساعد المؤمنين على فهم «معاناة الخلاص» . توجّهت الرسالة إليّ عندما ذكّرتني بكلمات سانت بول، وهو ما سمعته مرات عدة في التعليم المسيحي (الشفهي على شكل أسئلة وأجوبة): «إنني أتمم في جسدي ما ينقص آلام المسيح من أجل جسده، أي الكنيسة» . كان يوحنا الثاني مذهلاً: وقف البابا مواجِهاً الاتحاد السوفياتي، وعانق الأطفال في كل

مكان، ونجا من رصاصاتٍ أطلقها عليه شخص كان يعاني من اضطرابات نفسية، ما تسبب بمعاناة شديدة للبابا الذي سامح فيما بعد. كتب البابا في رسالة إلى المؤمنين بعنوان المعاناة المخلصية (المعاناة المسيحية)؛ كتبها بعد ثلاث سنوات فقط من إطلاق النار عليه أربع مرات، كما أن كلماته قد سلّطت الضوء على قضايا تسبّبت لي بتشوشٍ كبير. الشر في العالم هو سبب المعاناة، وليس إرادة الله؛ والشر هو سبب معاناة الأبرياء، وسبب يأس الأشخاص الذين أرادوا إنجاب الأولاد ولم يتمكنوا من ذلك، وسبب وجود الأمراض والمجاعة على الأرض. أشار قداسته إلى العهد القديم حيث كانت معاناة أيوب هي عقوبة من الله، ثم قابلها مع العهد الجديد حيث لم يقم الله بحماية ابنه الوحيد من المعاناة، لكنه أعطاه الحياة الأبدية من أجل إنهاء المعاناة، وكل هذا في مقابل تغلّب يسوع على شكوكه ووضعِ إيمانه في الآب.

توصّلت إلى قناعة بعد قراءات عدة. وفجأة توضح لي أمر بطريقة لم تحدث من قبل. لم يجعلنا الله نعاني، وكان الشر هو الذي خطف روحَيْ ديك ودون. لم يكن الله هو الذي أطلق راجمات الصواريخ نحو حجرات الطيارين في دلتا الميكونغ، ولم يكن هو الذي يدير عمل تيت عندما منعت القذائف الصاروخية الملازم الأول ديك بيرشينغ من البحث عن أحد رفاقه الذين سقطوا في المعركة. لكن الله كان هناك لإعادة ديك ودون إلى البلاد، وذلك من أجل وضع حدٍ لمعاناتهما، أي كما فعل مع ابنه الوحيد الذي أعطى جسده.

توقفت قليلاً لكي أسأل نفسي هل أتمكن من فهم ما يجري إذا كانت ابنتاي تتعذبان؟ هل يمكنني أن أتخيّل أن المعاناة تتخلّلها مكافأة التقرب من المسيح الذي عانى على ذلك الصليب؟ أتمنى بالفعل لو أنني لا أتعرّض إلى اختبارٍ بتلك الطريقة.

امتلكت على الأقل تصحيحاً فكرياً وروحياً لمساري: تؤدي المعاناة إلى تقريبنا من فهم ما عاناه المسيح نفسه على الصليب، وكيف أن من الغرابة أن يقوم بالصلاة من أجل الذين عذّبوه حتى عندما كانوا يعذبونه ببطء حتى الموت. ينتشر الشر من حولنا، وهو الذي يتسبب بالمعاناة. لكن الله خلّصنا من خلال الحياة الأبدية، أي إنه لم يُنزل بنا هذه المعاناة، وهذا هو السر الذي يُعتبر أساس الإيمان ذاته.

كنتُ مستعداً في هذا الوقت للتكلّم خلال لقاء فطور الصلاة في مجلس الشيوخ. أحضرت ملاحظاتي المكتوبة وتأملاتي، لكنّني لم أتكلم على تلك الأمور بل على شكوكي، وكذلك على كيفية انجذابي إلى فهم شيء غير

معروف، وبشكلٍ لم أعتقد من قبل بأنه ممكن.. تحدثت عن مسيرتي، وهي مسيرة اكتسبت معنى أكبر في نظري، لأن مسارها لم يكن مستقيماً.

وبعد انتهاء حديثي، اقترب مني في الرواق عضو مجلس الشيوخ الجمهوري من آلاسكا تيد ستيفنز الذي يبدو فظاً في بعض الأحيان، كما تعوّد وضع ربطات عنق كبيرة على سبيل المزاح إشارة إلى مزاجه المتفجّر. بقي الرجل عضواً في مجلس الشيوخ منذ العام 1968، وكان داعماً للتنقيب عن النفط في ألاسكا، وهو الأمر الذي عارضته أنا وبول تسونغاس بشدة. كنت أنا وستيفنز على طرفَـيْ نقيض في مقياس الطيف العقائدي. لمسَ ستيفنز مرفقي وأخبرني عن مسيرته. قال لي إنه وزوجته آن لديهما خمسة أولاد، وأن حياتهم الأسرية كانت ممتلئة بالبهجة. لكن بعد عشر سنوات من مجيئه إلى مجلس الشيوخ، انقلبت حياته رأساً على عقب، وذلك عندما تحطّمت الطائرة التي كانت تقلّه هو وزوجته آن التي عانت كثيراً وماتت بالقرب منه. لم يكن هناك شيء يمكنه فعله. أمضى الرجل سنوات وهو يسأل: لمَ فعل الله هذا؟ أو لماذا سمح له أن يحدث؟ أخبرني أنه تمنى لو أن شخصاً ما حدّثه في ذلك الوقت بما تحدثتُ عنه للتو خلال الفطور.

ذُهلتُ تماماً وعجزت عن قول أي شيء للحظات.

رأيت أمامي تيد ستيفنز، ذلك الرجل الكتوم، والرجل المسن والمحافظ، والذي يجسد رواقية الجيل الأعظم، والذي صارحني للتو بطرقٍ لم يكن باستطاعتي تصوّرها من رجلٍ غريب. قال لي: «أشكرك جداً» . ربّت الرجل كتفي مرة أخرى، لكن ذلك كان درساً أبدياً لي عن الحياة: العثور على الحقيقة في الناس. وأحياناً يتعيّن على المرء أن يتصارح بالحقيقة مع ذاته. تغيّرت نظرتي إلى تيد ستيفنز منذ ذلك اليوم. لكن بغضّ النظر عن موقفنا عند حدوث النقاش في ذلك الصباح ، فقد غيّرنا موقفنا بسبب القواسم المشتركة التي وجدناها. لم يعد تيد في نظري مجرد عضوٍ جمهوري في مجلس الشيوخ، بل أصبح صديقاً. رأت عيناي فيه إنساناً أحبّ وعانى، وبحث عن معنى حياته، وكان مستعداً للحديث عنه. كان ذلك بمثابة الهدية التي جعلها المجلس ممكنة، وأنا أعني الهدية الآتية من لحظة غير متوقعة من صديق غير متوقّع.

بدأت في هذا الوقت أشعر بأنني أكثر ارتياحاً مع اكتشافي الشخصي للإيمان. لكنني بقيتُ أعاني. بقيت أبحث عن أجوبة عقلانية ومقنعة عن أسئلتي، والأسئلة التي طُرحت منذ قرون. كنتُ أعتبر أعمال الناس صراعاً بين الخير والشر. لكن أين كانت يد الله في التسونامي الذي أصاب اليابان، أو الثوران البركاني في هاواي؟ وكيف يمكن أن تحدث هذه الكوارث المرعبة إذا كان الله الكريم جباراً، وكلّي القدرة؟ كان ذلك جدالاً بين عقلي وقلبي، وكل

شيء آخر يقع بينهما. تابعت البحث عن كشفٍ عقلاني للحقيقة، في وقتٍ لم تكن فيه هذه الحقيقة عقلانية على الإطلاق. هذا هو السبب الذي يجعلنا نطلق عليها اسم «القفزة الإيمانية» .

استيقظت بعد سنوات قليلة مع حلمٍ مفعمٍ بالحيوية. لم يشبه ذلك الحلم الكوابيس التي كانت تنتابني في ذلك الوقت، عندما كانت تتزايد ضربات قلبي بشكلٍ كبير، بينما يأخذ الأدرينالين مساره في أنحاء جسدي، وأعود إلى أنهار دلتا الميكونغ. كان الأمر عكس ذلك تماماً، لأنني استيقظت مع شعور عاطفي عميق وهادئ.

سرت في حلمي ذاك مصغياً إلى أحد الكهنة. كنت أعرفه جيداً، لكنني لم أتمكن من تمييزه تماماً. أخبرني الكاهن أنه سوف يموت، وقال إنه يعاني من سرطانٍ مميت وليس أمامه في هذه الحياة سوى أشهرٍ قليلة، ولذلك يقوم بتسوية أموره.

لم أكن مستعداً تماماً لهذا الحلم، ولم أستطع تحمّل فكرة توديع هذا الصديق، ولم أتمكّن من ملاحظة الإنصاف مع هذا الشاب المؤمن بالله وهو يموت في وقتٍ لا يزال يمتلك فيه الكثير ليقوله لنا جميعاً، وذلك بعد أن أعطى حياته كلها لله. أين هو الحق أو المنطق في كل هذا؟ قلت له: «كيف يمكن لله أن يفعل هذا وأنت لا تزال تمتلك الكثير لتعطينا إياه، ولتقوله، ولتعلّمنا إياه؟ هذا غير عادل على الإطلاق» .

التفت إليّ، وقال بصوتٍ هادئ ومفعمٍ بنعمة الإيمان، وبكل ثقة: «كلا، ليست هذه هي الطريقة الصحيحة لفهم الأمر. وأنا بتقبّلي خطة الله التي رسمها لي، وباستغلال هذه اللحظة لأشاركك وأصدقائي الإيمان بالله، فإنني أعلّمك الآن، وسوف أغادرك بأفضل طريقة على الإطلاق. إنني أتقبّل هذا، لأنني أؤمن، والإيمان هو قوتي» .

قلت له: «يصعب كثيراً امتلاك الإيمان في وقتٍ يأخذك الله منا» .

«لا. هذا هو بالضبط السبب الذي يجعلك تؤمن. إن معاناتي تفتح الطريق أمامي لكي أفهم إرادة الله وأتقاسمها في معاناة الآخرين، وهو أعظم تجسيد للحب على الإطلاق. إن هذه اللحظة التي نعيشها الآن لا يمكن أن تحدث من دون موتي. هذه هي نعمته، ومن خلالي، سوف تكون هديتي إليك. إنها الإيمان!»

اتضحت الأمور لديّ منذ تلك اللحظة: يعني الإيمان أن يضع المرء نفسه بين يدي الله كلياً، ومن دون أن ينتظر الدليل الكافي لإقناعه. الإيمان هو التصديق من دون أن يكون ذلك بسبب خط تفكير عقلاني بالكامل، أو افتراض معرفة إرادة الله في هذه الحياة، بل بسبب ما يوحيه قلبك وذاتك بالكامل، أي كيانك، وهو ما يجلب لك الرضا والتصديق المريح.

ظهرت كتب عديدة حول السبب الذي يجعل الله يسمح بوجود هذا القدر من الشر في عالم يمتلك السيطرة الكلية عليه. لكن أي كتاب منها لم يتمكن من توفير جوابٍ مقنعٍ بالكامل. أما الجواب الوحيد في النهاية، فهو الإيمان.

بدأتُ في هذا الوقت بترسيخ وجودي في مجلس الشيوخ، وعملت في مجالات كان وجود تيد كينيدي فيها ملحوظاً بدرجةٍ أقل، وفي أماكن تتمكن الفكرة الجيدة والصبر فيها من إحداث فرقٍ. كانت السياسة الخارجية نقطة انطلاقٍ جيدة ومنطقية، كما أنها كانت مهمة لي. كان والدي هو الذي أثار اهتمامي بالسياسة الخارجية، وكانت حياته في الخدمة الخارجية نافذتي الأولى على عالمٍ أسهمت الولايات المتحدة في تشكيله إسهاماً كبيراً. لكن الآن وقد أصبحتُ في مجلس الشيوخ، فإن صورة والدي لم تغب عني، وتضمن ذلك إرساله رسائل بالفاكس بين حين وآخر إلى مكتبي، يحذّرني فيها من ميل بعض صانعي السياسات في البلاد إلى النظر باتجاه العالم من خلال عدسة سياساتنا ومصالحنا فقط، ومتجاهلين، نتيجةً لهذا، تاريخ الشعوب الأخرى. تأثرت كثيراً بما وجّهه إليّ والدي من تعليمات تفيد بأن على المرء أن يدرس الجهة الأخرى إذا أراد التوصل إلى سياسة خارجية جيدة.

أتيت إلى مجلس الشيوخ من جيل يحب السرعة في كل شيء، ومن جيلٍ يكره انتظار البروتوكول والتقاليد قبل أن يبدأ بالكلام. لكنني في الخارج أردت أن أصغي وأتعلم قبل المضي إلى الاستنتاجات. ثمة فرع في تاريخ أسرتي يتقاطع مع الحاضر، وهو أمر ينطبق على فصول أخرى من حياتي. كان أحد أقرباء جدّي وليام كاميرون فوربس قد قام بجولة من ضمن وظيفته كدبلوماسي. وكان الرئيس تيدي روزفلت قد أرسله في مهمة إلى الفليبين قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر. وعيّنه الرئيس تافت حاكماً عاماً للمستعمرة. وبعد سنوات عدة أخرى، أرسله رئيس جمهوري آخر، وهو هاردينغ، إلى الفليبين لمساعدة الولايات المتحدة على تقرير إن كان الوقت قد حان لمنحها الاستقلال. قرّر قريبنا كام، كما كنا نسمّيه، أن يركب سفينة بخارية للمرة الأولى متجهاً إلى آسيا، وذلك قبل وقتٍ قصير من تسليم

الولايات المتحدة الفليبين التي كانت بين غنائم الحرب الإسبانية - الأميركية، لكنني متأكد من أنه عجز عن تصوُّر مصير أكثر إثارة لمانيلا.

التقيتُ قريبنا كام عندما كنت ولداً، ولاحظتُ أثر السنين عليه. واعتبرَ حينها ذلك الولد الصغير جدّياً ورسمياً قليلاً. تأثرت كذلك لأنه سافر إلى أنحاء العالم، وعاش في الفليبين. لكن أكثر ما أتذكّره عنه هو صورته التي التُقطت له عندما كان أصغر سناً ولم يكن الصلع قد نال منه تماماً؛ وكان إلى جانب تيدي روزفلت الذي كان كثيف الشاربين والذي اشتُهر أكثر كثيراً من قريبي. ذُهلت لكثرة التذكارات التي جمعها قريبي من خدمته في مكانٍ بعيد، وهو العائد من الفليبين إلى البلاد، مصطحباً ما بدا أنه عدد لا ينتهي من سلال الخشب الجميلة، والخزائن المبرقشة بلون الموغانو. وجدت بعض هذه الأغراض طريقها إلى منازل الأقرباء. كبرنا مع هذه القطع والتحف التذكارية الفخمة، وكنت أقول لنفسي: «واو، لا بد أن يكون ذلك المكان مدهشاً. أريد أن أذهب إلى هناك في يوم ما» .

مات قريبي كام بعد أن ناهز التسعين من عمره، وبعد أسابيع قليلة من بلوغي السادسة عشرة من عمري. تحوّل كام إلى ذكرى ذاوية في الوقت الذي جاء فيه دوري للذهاب إلى آسيا بعد ثماني سنوات.

كنت أتمنى لو أنني كنت كبيراً بما يكفي، لكي أسأل قريبي كام عن ذلك التاريخ عندما كانت الفرصة متاحة لي. لكن، بالرغم من أن آراءه لم تكن رجعية كآراء أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك الوقت الذين يحملون العقلية الاستعمارية، وكانوا رجالاً، من أمثال ألبرت بيفريدج الذي كان يعتبر الفلبينيين متخلفين وعاجزين إلى الأبد عن إدارة شؤون بلادهم، أو وزير خارجية الرئيس روزفلت إليهو رووت، الذي وصفهم بالأولاد أما قريبي كام فقد ساعد على تعزيز هذه المواقف المتعالية. وقد عيّنته لجنة وارن هاردينغ سنة 1921، لتقرير أن شعب الفلبين ليس مستعداً لما حارب الإسبان من أجله، وما طالب به تحت حكم الولايات المتحدة، وهو الديمقراطية الخاصة به.

لم يتغيّر الكثير بعد مرور ستين عاماً، علماً أن الرئيس ترومان كان قد منح الجزيرة أخيراً استقلالها بدءاً من 4 تموز/يوليو 1946. لكن الفلبينيين لم يتمتعوا بمنافع الديمقراطية أو الحرية. كان الرئيس فرديناند ماركوس حليفاً موثوقاً به في الحرب الباردة، لكنه كان قاسياً (أو وحشياً). وكان الرجل القوي الذي حكم البلاد تحت قانون الطوارئ لفترة عشرين عاماً قبل دخولي إلى مجلس الشيوخ. حكم ماركوس البلاد تحت قانون الطوارئ لمعظم فترته الرئاسية. وعانينا قدراً كبيراً من الإهانات التي خرقت مبادئنا، وألحقت ضرراً بصدقيتنا كما كانت الحال مع سوهارتو في إندونيسيا والحكومات المتقلبة في

فييتنام الجنوبية. كان ماركوس رجلاً قوياً وأنانياً. يُضاف إلى ذلك أن مبالغ ضخمة من الأموال قد وجدت طريقها إلى جيوبه، وكانت بمعظمها من المساعدات الأميركية، بينما كانت البلاد تعاني من الفقر. كانت منظمات حقوق الإنسان تدينه على الدوام بصفته سفاحاً مثالياً تلقى دعماً بالخطأ تحت عنوان سياسة الأمر الواقع التي سادت خلال الحرب الباردة.

إنني أشك كثيراً في أن يكون ناشطو حقوق الإنسان في ماساتشوستس قد سمعوا باسم قريبي كاميرون، لكنهم يعرفونني بصفتي عضو مجلس الشيوخ الجديد في لجنة العلاقات الخارجية. لذلك أعتقد بأنني قد أكون متعاطفاً مع خيانة المثل العليا الأميركية في ظل حكم ماركوس. أما كوري آكينو، زعيمة المعارضة في الفلبين والتي تعرّض زوجها بينينو «نينوي» آكينو إلى الاغتيال على يد ماركوس بسبب جهره بالمعارضة، فقد أمضى سنواتٍ عديدة في منفاه في نيوتن، ماساتشوستس. لذلك ترك اغتياله أصداءً كبيرة وأثار نشاطاً معارضاً لحكم ماركوس في البلاد. ذهلت كثيراً عندما رأيت الصور التي أرسلها إليّ الناشطون، والتي أظهرت أجساد الموتى مكدسةً بعضها فوق بعض، وكانت تلك صور ضحايا التعذيب في دولة ماركوس البوليسية. قرأتُ كذلك مقالات عن الصحافة الحرة التي مُنعت من نشر مقالات حول الثروات التي يحوّلها النظام لنفسه، بينما يعاني الأطفال من سوء التغذية. ذكّرتني هذه الصور وبكل وضوح بما كانت تفعله حكومة فييتنام الجنوبية. وبدا ماركوس في أفضل حال نسخة أكثر ذكاءً ودهاءً من نغو دين دييم. لكن كيف يمكننا تصدير الديمقراطية وتشجيعها في مختلف أنحاء العالم، وأن نروّج على أنها بديل للشيوعية، بينما نظهر على غير هذه الحال في بلدٍ مثل الفلبين؟

قررت أن تكون رحلتي الأولى إلى آسيا بصفتي عضواً في لجنة العلاقات الخارجية إلى الفلبين، لكي أقرّر إن كان ماركوس سوف يغيّر سلوكه متى عرف أن الكونغرس يراقب ما يجري في بلاده.

صمّمت أن أحضّر للرحلة مسلحاً بالحقائق، وبذهنية منفتحة إذا لم تكن متشككة. لم أرغب في الاعتماد على التقارير الواردة من منظمات حقوق الإنسان، بل أردت الحصول على تقارير من وزارة الخارجية، وكذلك من الوكالات الاستخبارية. وبالرغم من انتقادي لسياسة ريغان أثناء حملتي الانتخابية، فإن وزير الخارجية ألكسندر هيغ كان متجاوباً مع مجلس الشيوخ على الدوام. رتّب هيغ مكالمة هاتفية طويلة لي مع سفيرنا في مانيلا ستيف بوسورث. كان بوسورث رائعاً في ملاحظاته وطرحت عليه أسئلة سريعة، ولم يُخفِ عني شيئاً. سألته إن كان ماركوس قاسياً وصارماً كما تصفه منظمات

حقوق الإنسان، فكان الجواب نعم إلى حد ما. سألته كذلك إن كان ماركوس فاسداً كما تقول عنه الشائعات، فكان الجواب أنه بالتأكيد يعيش حياةً لا يُمكن وصفها، لكن إدارته تخلو من الذين يكشفون الفضائح، كما أن وكالة الاستخبارات المركزية قد أقامت ترتيبات معه لتلميع صورته. حذّرني ستيف لكي أكون حذِراً عند اقترابي من مركز سلطته. سألته كيف سيقوم ماركوس بالدفاع عن تأخير إجراء انتخابات، فأجابني بأن الرجل كان يصف كل معارضيه بأنهم ثوريون شيوعيون يحاولون تنفيذ مخطّطات الاتحاد السوفيتي. سألته: هل كانوا شيوعيين؟ فأجابني لا، لم يكونوا غالباً كذلك. سألته هل كانوا مناصرين للأميركيين؟ فأجابني، نعم كانوا كذلك غالباً.

كانت الرحلة تستغرق نحو عشرين ساعة للسفر من مطار دوليس الدولي إلى مانيلا. لم يسعني إلا أن أفكر بالمفارقة التي تتمثّل في مغادرة مطارٍ سُمّي على اسم جون فوستر دالاس، وهو الأب المؤسس لمنظمة اتفاقية جنوب شرق آسيا التي عزّزت تحالفات الحرب الباردة في المنطقة، وحتى إذا كان يعني ذلك النظر إلى الديمقراطية من زاويةٍ أخرى. قام دالاس مع شقيقه ألين، الذي كان مديراً لوكالة الاستخبارات الأميركية في الفترة نفسها، بإفشال الثورة في إيران، وأعاد الشاه إلى السلطة، وقلبَ حكومةً منتخبة ديمقراطياً في غواتيمالا. وها أنا الآن في الثانية والأربعين أصبحتُ رأس حربةٍ في التمديد الفاشل لفلسفة فييتنام، وأصبحت عضواً منتخباً في مجلس الشيوخ في طريقي إلى الفلبين وعازماً على التورط بذلك النوع من الحكام الاستبداديين، وهو الأمر الذي كان دالاس سيجده نافعاً تماماً لسياسة البلاد. يبدو التاريخ مضحكاً بهذه الطريقة: إنني أسافر جواً، لكن قريبي كام سافر على متن باخرة، وكان، على ما يبدو قد وجد توأم روحه في دالاس، بالرغم من أنني أعرف أنه لم يكن ليتحمّل ماركوس.

هبطت طائرتي في مطار مانيلا الدولي، أي المكان الذي اغتيل فيه نينوي آكينو قبل أقل من ثلاث سنوات، فور عودته من المنفى. يحب الديكتاتوريون تمييز مناطق سيطرتهم بعلامة فارقة. أما الآن فإن كل زائر رفيعٍ إلى البلاد، يكون في طريقه إلى قصر مالاكانانغ، سوف يبدأ جولته بالنزول من المكان الذي قضى فيه ماركوس على أبرز خصم سياسيٍ له إلى الأبد.

رحّب بي السفير بوسورث على البوابة. وركبنا إحدى سيارات السفارة لمقابلة ماركوس معاً. سبق أن أبلغ مكتب الرئيس السفارة بأنه سوف يتأخر ساعة من الوقت. أدركت أن هذا أسلوبٌ مضحك يتبعه الأوتوقراطيون في كل أنحاء العالم لتكوين دينامية السلطة. يحب الأوتوقراطيون أن يُفهموا الآخرين

هذا الأسلوب بمواقف صغيرة، كإبقائهم في حالة انتظار، لتذكيرهم بمن يُمسك بالأوراق في علاقته معهم. عبرنا جادة لاكسون بينما كان بوسورث يخبرني عن تاريخها. قال لي إنّ تلك الطريق كانت تسمى في الماضي شارع الحاكم فوربس.

لو لم يكن اسم الطريق كما كان في الماضي كافياً لتذكيري بتاريخ الأسرة، فإن موقع اجتماعي مع الرئيس ماركوس سوف يتكفل بذلك، حيث أحجار الطوب في الخارج، والأرضية المغطاة بالأخشاب في كل مكان داخل المنزل، وأخشاب الماهوغاني التي تغطّي الجدران. أحسست بأن شبح قريبي كاميرون كان من الممكن أن يجول داخل قاعات القصر الرئاسي.

كنت متحضراً جداً لهذا اللقاء. لكنّني أعرف أن ماركوس قد استضاف ما يكفي من الوفود الأميركية على مدى سنوات لكي يعرف أي الموضوعات هي الأكثر إثارة للجدال. أشاد ماركوس بتاريخ أسرتي في الفلبين، وكذلك بصداقتنا لبلاده التي تعود إلى ما يقرب من قرنٍ من الزمن. وشرح لي أهمية العلاقة مع الولايات المتحدة، وكذلك تعاوننا في الحرب ضد الشيوعية. نظرت إلى ساعتي، وأدركت أن ماركوس قد انطلق بمحاضرة يقارب طولها الأربعين دقيقة حول التقدم الذي تحرزه البلاد، وأهمية قاعدة خليج سوبيك البحرية، وهي التي قال إنها رمز يدل على أن جنوب شرق آسيا بقي منارة الأمل ضد الشيوعية. أثار ماركوس كذلك موضوع خدمته في الحرب العالمية الثانية عندما حارب إلى جانب الأميركيين، وهو الأمر الذي أخبرني السفير بوسورث فيما بعد أنه غير صحيح. تساءلت عن جدوى إثارة سلسلة من الشكاوى التي سيعمد ماركوس إلى نفيها، وذلك في وقتٍ أتمكن فيه من مخاطبة إحساسه المزيّف بالقوة.

جادل ماركوس أنه يعكس إرادة الشعب الفلبيني لوحده. وقال إن بعض سكان البلاد أشبه ما يكون بالأطفال، وهم غير متعلمين، ولذلك يسهل تحويلهم إلى متعاطفين مع الشيوعيين، أي مثل أسرة آكينو؛ وإنه في النهاية كان الأب الحقيقي للبلاد. شدّدت بدوري على أنه إذا أظهر تقدُّماً بخصوص الديمقراطية، فإن ذلك قد يساعد الولايات المتحدة في الحرب الباردة. سألته: مادمت كنتَ محبوباً جداً، ألا يمكنك إجراء الانتخابات في تاريخ محدد؟ كان ماركوس يتنازل، وقال إنه لا يخشى أي شيء في الانتخابات، وأنه أكثر مَن يعرف بلاده. قال إنه لن يحاضر أمامي حول ماساتشوستس. لذلك يسأل: لمَ أقترح عليه أنني أعرف ما هو الأفضل لمانيلا؟ شككتُ في اعتقاده أنه إذا تفوّق عليّ في الحديث، فسوف أستسلم.

لكنه كان مخطئاً. فبعد خمس ساعات أمضيتها لوحدي مع فرديناند ماركوس في قصر مالكانانغ، اقتنعتُ بأن الولايات المتحدة تحتاج إلى تغيير سياستها تجاه الفلبين. وهكذا غابت عن ذهني في رحلة عودتي إلى واشنطن صورة قريبي كام لتحل محلها صورة السيناتور روبرت س. بيرد الذي تذكّرت أول حديثٍ لي معه قبل ما يزيد على سنةٍ من الزمن، عندما قال لي: كوّن فكرة، وكن خبيراً، واستفِد من زملائك، وضعْ خطة، ثم ابحث عن مخرج. وهذا هو ما اعتزمت فعله بالضبط.

توجّهت لمقابلة كلايبورن بيل الذي كان رئيس لجنة العلاقات الخارجية، وكذلك العضو الجمهوري عن إنديانا والأكبر سناً فيها ريتشارد لوغار. التقيت بعد ذلك مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى. تحدثت كذلك مع بعض زملائي المهتمين والذين كانوا أعضاء في لجنة الاعتمادات، ولا أعني روبرت بيرد فحسب، بل بات ليهي من فيرمونت، التي اعتبرت أننا، تحت اسم واقعية الحرب الباردة، تجاهلنا كثيراً القيَم الأميركية. أبلغتهم أن سفير الرئيس ريغان لم ينتقد فساد ماركوس، لكن أخبار نشاطاتي وصلت بسرعة إلى وكلاء ماركوس في البلاد، أولئك الذين كانوا يتسلّمون مبالغ كبيرة من الأرصدة المسروقة. أما بول مانافورت وروجر ستون، فقد كانا على الدوام يحاضران بخصوص قواعد اللعبة المزخرفة في مجلس النواب. وقالا إن ماركوس كان حليفنا الحازم الذي لا ينبغي لنا التخلي عنه في صراعنا مع الشيوعية. لكن، في هذا الوقت، تأخّر وكلاء ماركوس. أعتقد بأنني قمتُ بواجبي ووضعتُ خطتي. كانت النتيجة نصراً باهراً، وكان التعديل الأول الذي مرّرته بصفتي عضواً جديداً في مجلس الشيوخ، كما استطعت تعديل برنامج المساعدات الخارجية الأميركية إلى الفلبين، والمخصصة للانتخابات النزيهة.

وفي مانيلا اعتقد ماركوس بأنه سوف يتمكّن من إفهام هذا المدّعي مَن الذي يتحكّم في زمام الأمور. فدعا إلى إجراء انتخابات عاجلة من أجل إعادة شرعنة نفسه، وكان من الواضح أنه سوف يُعاد انتخابه. لم يجد الرئيس ريغان بداً من تعييني في الوفد الرسمي الأميركي لمراقبة الانتخابات، جرّاء النشاط الذي قمتُ به على صعيد هذه القضية، كما عيّن معي ديك لوغار الذي تلطّف بأن كان شريكي في موضوع تعديل المساعدات. لن أنسى ما حييت المشهد الذي رأيته لدى وصولي إلى مانيلا، وهو عبارة عن أعداد لا تُحصى من الناس الذين ملأوا الشوارع، والذين ارتدوا جميعاً قمصانهم الصفراء، وحملوا لافتات احتجاجية تدعو إلى الديمقراطية. كان بعضنا يعرف في ذلك الوقت وجود اتهامات بالتزوير. أُرسلتُ في البداية إلى جزيرة ميندناو الواقعة في أقصى جنوب البلاد من أجل الإشراف على عملية التصويت الصباحية ثم العودة إلى مانيلا. كنت جالساً في الفندق عندما تقدمت مني امرأة باكية

وقالت لي: «سيناتور، يجب أن تأتي معي إلى الكاتدرائية حيث تقبع نسوة خائفات على حياتهن، لذلك طلبن مجيئك» . علمت منها أن ثلاث عشرة امرأة شجاعة قد خرجن من مركز الحاسوب حيث تجري عملية الاقتراع، واحتمينَ في الكنيسة. التقيت النسوة هناك، قلن لي إنهن يضعن أصواتاً صحيحة في أجهزة الحاسوب، تمنح كوري أكينو الفوز. لكن عند خروجهن من غرفة الاقتراع رأينَ أعداداً مزيّفة بالكامل، تُظهر أن الأصوات كانت لمصلحة ماركوس. تمكّنت النسوة من كشف عملية التزوير التي يقوم بها الديكتاتور.

كنت أعرف أن أفضل طريقة لحماية النساء ونتائج الانتخابات هي إعلان قصتهن على الملأ بأسرع وقتٍ ممكن. وقفت النسوة إلى جانب المذبح، بينما كانت أنوار المصابيح تعكس هالة من وميضٍ ناعم. وهكذا بدأن الواحدة تلو الأخرى بإبلاغ العالم أن ماركوس يقوم بالتزوير. أدّت شجاعة النسوة وشجاعة الشعب الفلبيني إلى إشعال شرارة وصلت إلى العالم. وكان من الصعب التصديق أن أشهراً قليلة فقط مضت على إجراء المقابلة المهينة مع ماركوس المغرور بنفسه، حتى قام شعب بلاده، وأولئك الذين أهانهم واعتبرهم مجرد أولاد، بكشف تلك الانتخابات المزوَّرة.

لم يعترف ماركوس بالهزيمة إلا أن الكتابات ظهرت على الجدران. اجتمعت مع السيناتور لوغار وباقي وفد مراقبة الانتخابات، وعقدنا اجتماعاً في البيت الأبيض في واشنطن. ترأس الوزير شولتز هذا الاجتماع، ثم دخل كبير موظفي البيت الأبيض جايمس بايكر إلى الغرفة ليعلن أن الرئيس ريغان سوف ينضم إلينا. كانت تلك لحظة لا تكاد تصدّق، وتستأهل أن يقرص المرء نفسه ليتأكد منها. دخل ريغان بشعره البني الداكن على الدوام، بالرغم من كونه في السبعينات، ثم جلس معنا. أصرّ الرئيس أن تقف إدارته في جهة الحرية، وحتى إذا لم تكن تلك الجهة واضحة تماماً. وقال إن إدارته قلقة بعمق من الأمور التي شابت الانتخابات. لم تمضِ دقائق قليلة حتى سلّم ريغان جايمس بايكر ورقة صغيرة بخط يده الجميل، والتي كتب فيها، «أيمكنني المغادرة الآن؟» .

كان ريغان قارئاً ذكياً للمواقف الدولية، وهو الذي امتلك ميلاً إلى التمثيل، بينما كان بايكر ديبلوماسياً ماكراً بطبيعته. لم تكن الإدارة على استعداد للتورط مع ماركوس في هذا الوقت، وعلى الأخص بعد انكشاف خداعه والتزوير الذي قام به. سارع ريغان إلى إرسال صديقه السيناتور بول لاكسال إلى مانيلا لتسليم رسالة إلى ماركوس الذي سارع إلى الفرار للعيش في منفاه في هاواي. لكن الله وحده يعلم كميات الذهب والأموال النقدية التي جمعها استعداداً للعيش في المنفى.

شعرت بالامتنان، وبمزيد من الحيوية. ربما كانت المرة الأولى، منذ دخولي إلى مجلس الشيوخ، التي أشعر فيها بأنني أحدثتُ فرقاً، لأنني عملت في الحقل الذي أعرفه (السياسة الخارجية)، واستخدمت أفضل ما تعلمته (الخطة، والناس، والبروتوكول) لتحريك شيءٍ ما. شعرت كذلك بأنني استخدمتُ فكرة التعاضد أكثر من أي عضوٍ آخر في مجلس الشيوخ: عندما يكون بإمكانك استخدام مجلس الشيوخ لإرسال رسالة، وعندما يمكنك توجيه الولايات المتحدة نحو جهة الشمال الحقيقية، وعندما تتوافق القيَم التي تؤمن بها مع الأشخاص الذين يؤمنون بها بالفعل في جميع أنحاء العالم، عند ذلك يصبح بإمكانك تحقيق شيء ما. تحدّت كوري آكينو كل العقبات، وارتقت سدة الرئاسة على رأس موجةٍ من البشر. أما وليام كاميرون فوربس فلم يكن بإمكانه إلا أن يتمنى حدوث تطورٍ كهذا، كما لم يخطر ببال روبرت س. بيرد هذا التطور، عندما أعطاني وصفته لكيفية التحرك، وشيكاً من لجنة العمل السياسي، وبعض الدروس العظيمة حول مجلس الشيوخ، لكنني تمكّنت أخيراً من شق طريقي.

الفصل الثامن: مسؤولية واشنطن

«يقول أخي إن الحكومة تقوم بإرسال السلاح إلى الكونترا بطريقة غير شرعية» .

تلقى مديري القانوني مكالمة من إحدى المواطنات في منطقتنا، نصحته فيها بالتحدث إلى شقيقها جاك مايتس، وهو محامي دفاع عام في فلوريدا. ادّعى موكّله بأنه يمتلك معلومات مباشرة عن شبكة سرية تمتلك روابط مع الحكومة الأميركية التي تقوم، وبصورة شرعية، بتزويد منظمة الكونترا بمساعداتٍ عسكرية. وإذا صحّ كلام مايتس، فإن ذلك يعني أن الإدارة تشنّ حرباً غير شرعية. يُحتمل أن يكون هذا هو السبب الذي دعا بعض المسؤولين في إدارة ريغان إلى الإصرار على وقف اهتمامي المبكر بالحرب في نيكاراغوا.

وجدت أنه صار لزاماً عليّ البحث للوصول إلى الحقيقة، بخاصةٍ بعد اصطدامي مع السيناتور غولدووتر. وصمّمُت ألّا أدع أي شخص، في موقعي، يقف موقف الدفاع مرة جديدة. لم أغفل المفارقة هنا: لقد اتّبعت ما يمليه القانون، لكن في ممارستي لأصدق أنواع السياسة تعرّضت لضغوط من الجمهوريين بسبب شيء لم أفعله. كنت أبحث في هذا الوقت عن دليلٍ يوحي بأن إدارة ريغان قد خرقت القانون بشكلٍ فاضح، وذلك عن طريق الإقدام على شيءٍ منعها الكونغرس من الإقدام عليه تحديداً، وهو تقديم المساعدة إلى الكونترا.

بدأنا بالبحث، وبهدوء، في هذه الاتهامات. راجعتُ كل شيء تعلمته عندما كنت نائباً عاماً، وأردنا التأكد من أن البحث قد أجري بكل دقة، وأنه يشبه ما كنا نقوم به أمام المحاكم.

أجرى كل أعضاء فريقنا الصغير والحيوي ما يزيد على خمسين مقابلة على مدى العام 1986، حتى أن بعض أعضاء الفريق قد سافروا إلى كوستاريكا

للتحدث مع الناس الذين يُزعم بأنهم عملوا مع شبكة الإمدادات العسكرية التي تموّلها الولايات المتحدة. لكن كان من الصعب علينا فهم الأمور التي كشفناها: المرتزقة، وتهريب المخدرات، وحتى خطة عجيبة لاغتيال السفير الأميركي، وإلقاء تبعة الاغتيال على الساندينيين.

شجعتُ لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ على فتح تحقيقٍ رسمي بصورة أكبر. كذلك مارستُ ضغطاً على وزارة العدل لفتح تحقيقٍ يستند إلى دليلٍ يُثبت أن وكالة الاستخبارات المركزية وآخرين يتحايلون على الحظر الذي فرضه الكونغرس على تقديم المساعدات إلى الكونترا.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

لم تقم أي جهة بأي تحرّك إزاء اقتراحي. لكن بالرغم من ذلك، فإن فريقنا تابع العمل بكل جُرأة. علمنا من خلال مجموعة مدهشة من العلاقات - والتي تتضمن مجموعة من المغامرين المعاصرين، والمتعاونين مع المتآمرين الذين يرشحون بعدم الثقة، أن تهريب الكوكايين إلى داخل الولايات المتحدة كان المصدر الأساس لتمويل الكونترا. كان الرياء هنا مستفزاً. لكنني كنائب عام رأيت المخدرات التي تمزّق المجتمعات. كانت نانسي ريغان تروّج عبارتها «قل لا ببساطة» . لكن الخيط الذي كنا نكشفه قد أوحى بأن الحكومة الاتحادية كانت تدعم المتمردين بالمخدرات ذاتها التي كانت تقتل الأولاد في شوارع نيو بدفورد. لا يمكن للمرء أن يقول لا للمخدرات؛ لكن يجب أن يقول نعم للكونترا، وأن يغض الطرفْ بعد ذلك. كنت أعرف أن جيسي هيلمز، المحافظ المتشدد من كارولاينا الشمالية، وهو السيناتور الذي كنت متوجهاً للقائه، كان العضو الجمهوري في لجنة الشؤون الخارجية. شكّل الأمر صدمةً لمساعديَّ. كانت تفصلني عن جيسي مسافاتٍ بعيدة من الناحية العقائدية. تعوّد جيسي الإشارة إلى الرجال المثليين على أنهم «منحرفون» و«لوطيون» ، في وقت تابعتُ فيه العمل الذي تركه بول تسونغاس، والذي كان يهدف إلى إقرار مشروع قانون لحظر التمييز في أماكن العمل ضد المثليين والسحاقيات. جادل العاملون معي بأن جيسي كان متطرفاً، وهو يستطيع أن ينتقم من إهانات السيناتور غولدووتر التي ساقها ضدي. لكنهم كانوا على خطأ. لذلك ذهبتُ لمقابلة جيسي وجهاً لوجه. أصغى السيناتور إليّ بينما كنت أشرح الدليل جزءاً فجزءاً. كان جيسي يكره المخدرات بالحماسة نفسها التي يكره بها الشيوعيين. أوضح لي جيسي أن بعض زملائه الجمهوريين في اللجنة الفرعية المعنية، مثل هانك براون من كولورادو، يمكن أن ينضم إليّ للمضي في جمع الحقائق في أي اتجاهٍ تقودنا إليه. كان جيسي هيلمز صادقاً وثابتاً في معتقداته. تعلّمت من تيد كينيدي وآخرين أن عضوِ مجلس الشيوخ يتعيّن عليه في بعضِ

الأحيان التراجع من أجل أن يمضي قُدُماَ. كان رأيي في حقوق الإنسان مختلفاَ عن ذاك الذي يتبناه جيسي. لكن بخصوص المخدرات جمعتنا قواسم مشتركة.

وخلال استمرار فريقي في إجراء المقابلات مع الأشخاص الذين عملوا مع الكونترا، سمعنا عن شبكة من الحسابات المصرفية السرية، وعن استخدام المدارج النائية، والطائرات التي لا تحمل العلامات؛ وربّما كان الأهم من كل ذلك، الكلام الذي سمعناه عن تورط مسؤولي الحكومة، بمن فيهم المقدم أوليفر نورث، وهو أحد الأعضاء البارزين في مجلس الأمن القومي التابع للرئيس ريغان، في هذه العملية.

كنت أعرف أوليفر نورث، وكنا ننتمي إلى الجيل نفسه. حاربنا في فييتنام، وعاد منها حاملاً وسام بطل المعارك، والنجمة الذهبية، والنجمة البرونزية، وقلبين قرمزيين. لم أعرف في ذلك الوقت ما هي سياسته، لكنّني احترمتُ خدمته وشجاعته. تساءلت كيف أن لشخصٍ يحمل كل هذه المؤهلات أن ينزلق إلى هذا المسار غير القانوني. أعرف أنّ مشاة البحرية يلتزمون مبادئ خاصة بهم. لكن إذا كان ما سمعناه صحيحاً، فإن هذا الجندي من مشاة البحرية ينبغي أن يكون قلقاً.

كان من الواضح أن تحقيقنا لن يكون نهاية القصة، ولذلك اعتبرت أن تحقيقاً شاملاً يجريه مجلس الشيوخ كان ضرورياً، وهو التحقيق الذي يسمح بإعطاء شهاداتٍ رسمية ووثائق بحسب استدعاء المحكمة، لكن توصياتي لقيت أذناً صماء.

تغيّر كل شيء فجأةً في 5 تشرين الأول/أكتوبر 1986. أُسقطت طائرة فوق جنوب نيكارغوا. قُتل أميركيان في هذا الحادث، بينما أُسر أميركي آخر. كانت هذه الطائرة ممتلئة بأسلحةٍ عسكرية شملت سبعين من أسلحة AK-47، ونحو مئة ألف مخزنٍ من الذخيرة.

لكن، عندما نفى الرئيس ريغان بسرعة وجود أي علاقة بين الطائرة والحكومة الأميركية، أسرعنا، أنا وفريقي، إلى إصدار تقرير كامل عن نتائج تحقيقاتنا. وتمكّنا في هذا الوقت من جمع أدلّة ذات صدقية تُبيّن أن أوليفر نورث، وبعض الضباط الأميركيين السابقين، قد أقاموا شبكة تهدف إلى شحن الأسلحة والأعتدة العسكرية القديمة إلى الكونترا. وهكذا لا يمكن أبداً أن نقول إن حادث الطائرة كان عن طريق المصادفة.

أعلن مجلس الشيوخ ووزارة العدل في وقتٍ لاحق من ذلك الشهر بدء التحقيقات الهادفة إلى معرفة إن كان هناك أميركيون يساعدون الكونترا

بالمعدات العسكرية.

علمنا في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وبفضل تقرير إخباري لبناني، أن فضيحة الكونترا كانت أكثر تعقيداً بكثير. وتبيّن أن الولايات المتحدة كانت متورطة في مبيعات الأسلحة إلى إيران التي كانت منشغلة بالحرب مع العراق. اعترف مسؤولو الإدارة بعد وقتٍ قصير بأن بعض الأموال الناتجة من مبيعات الأسلحة إلى إيران يجري تحويلها لدعم الكونترا، وأن كل هذا يحدث بتوجيه العقيد نورث.

أرادت سبع لجانٍ مختلفة من الكونغرس أو ثمانٍ، وعلى حين غرة، البدء بالتحقيقات. بدا الأمر وكأن عدة آباء يدّعون أبوة ولد يتيم. ولاحت في الأفق أزمة دستورية محتملة. وهكذا اتفقت قيادات الكونغرس على ضرورة تأليف لجنة خاصة.

تعلمتُ درساً لا يُنسى حول الأقدمية في مجلس الشيوخ. سبق لي أن قمت ببعض البحث، وأرسيتُ الأسس اللازمة للتحقيق، كما تعرضتُ لكثيرٍ من النقد من الجمهوريين لهذا السبب. لكنني أُبقيتُ على الهامش، بينما سُلّمت التحقيقات إلى المزيد من الديمقراطيين الكبار. وكان بينهم أعضاء محترمون في مجلس الشيوخ: الرئيس دانيال إينوي، وهو من قدامى محاربي الحرب العالمية الثانية، الذي فَقَدَ ذراعه أثناء المعارك؛ وكذلك جورج ميتشل، وهو في المرتبة الثانية لمركز زعيم الأغلبية؛ وكذلك سام نون، وهو الديمقراطي الوسطي من جورجيا الذي يحظى بعلاقة وثيقة مع البنتاغون؛ وبول ساربانز، وهو تحرري سبق أن خدم في مجلس الشيوخ لفترة عشرين عاماً، وهو أحد أكثر الأعضاء المحترمين في لجنة الشؤون الخارجية؛ وكذلك دافيد بورين، وهو وسطي من أوكلاهوما؛ وهويل هيفلين، القاضي المحترم من آلاباما.

لم آخذ الأمر بصورة شخصية، لعدم وجود أي عضوٍ ديمقراطي جديد في مجلس الشيوخ في اللجنة المختارة. خطر لي كذلك الأمر الآتي: مع اقتراب طرح اسم دوكاكيس للانتخابات الرئاسية، أي بعد سنة فقط، قد لا يرغب أحد بتعيين شخصٍ كان يشغل منصب نائب الحاكم في مركز يُحتمل أن يكون فيه المرشح الجمهوري المحتمل بوش، وهو نائب الرئيس، تحت المجهر. لكن القرار تركني مع شعور بأنني قد استثمرتُ طاقةً كبيرة في معركةٍ لأكتشف أنني أُبقيت خارج الجولة النهائية.

تعلمت في هذه الفترة درساً آخر. عندما يكون المرء أول من يسلّط الضوء على قضية فسادٍ ما، فإنه يصبح هدفاً على الفور. وهكذا أصبحتُ على رأس قضية إيران- كونترا. أمضى الجمهوريون سنةً كاملة في الجدال بأن

تحقيقاتي كانت من نوع نظرية المؤامرة. لكنهم عجزوا الآن عن تفسير سبب عقد مجلس النواب، ومجلس الشيوخ، جلسات استماع مشتركة لأشخاصٍ مرموقين، إذا ما كانت مهمتي لا فائدة منها. لكنّني أعتقد بأنهم كانوا يفضلونَ استخدامي كبشَ فداء. أما بيرد فلم يعطِهم تلك الفرصة، لأنه استبعدني من لجنة مجلس الشيوخ.

كانت هناك، مع ذلك، حقيقة أكبر بدأت بفرض نفسها. وشكّ أعضاء مجلس الشيوخ من الحزبيين أنه لم يكن محتملاً أن تنتهي التحقيقات بتنحية الرئيس ريغان من منصبه. يعود ذلك إلى أن الدستوريين هم في مواقع المسؤولية.

أوضح لي الرئيس دان إنوي في مكالمة خاصة أنه عاش حياة مفعمة بالشجاعة، وكان ذلك النوع من الوطنيين الذين يجب أن نتمنى أن نكون مثلهم. وقد تعهد أن يخدم بلاده بالرغم من حجز حرية مواطنيه الأميركيين المتحدِّرين من أصلٍ ياباني. عانى دان من إصابة خطيرة في ميدان المعارك، حين أمسك بقنبلة حيّة بيده اليمنى التي كانت شبه مقطوعة، ثم قذفها إلى داخل موقعٍ ألماني محصّن، وهكذا تمكن من حماية أرواح رفاقه في السلاح، لكنه أصيبَ مرة أخرى في ساقه، وسقط على الأرض. رأى عند استعادته الوعي جنوده وهم يحومون فوقه، فصاح بهم آمراً: «لم تنتهِ الحرب بعد. عودوا إلى مواقعكم» .

التقى دان، لدى عودته إلى الولايات المتحدة لتمضية فترة نقاهته، محارباً شاباً آخر يدعى بوب دول. جرى اللقاء في مستشفى بيرسي جونز العسكري الذي يقع في باتل كريك، ميتشيغان، وما لبثا أن أصبحا صديقين. وهكذا كان بالإمكان ملاحظة الود بين الرجلين في مجلس الشيوخ.

أمضى دان عقوداً طويلة في مجلس الشيوخ، وهو الرجل الذي عاش الكثير من الأحداث التاريخية، وشارك في صنعها. أسّر لي ذات مرة بمشاعره عندما عاش ملحمة تنحية نيكسون من منصبه، واستقالة رئيس. شاهد دان، بصفته عضواً في لجنة مجلس الشيوخ التي حقّقت في قضية ووترغيت، كيف أن هذه الفضيحة قد هزّت البلاد ومزقت نسيجها الوطني. قد لا نوافق على أن السبب الحقيقي لتلك الانقسامات يكمن في عدم شرعية نيكسون، وأكاذيبه، أو حتى طريقة معالجة هذين الأمرين، لكن كل ذلك كان مجرد نقاط للجدال. أما المهم هنا، فهو أن إينوي قد عايش فضيحة ووترغيت، لذلك لم يكن مستعداً لتكرار السيناريو مرةً أخرى.

انطبق الأمر نفسه على السيناتور بيرد، لأنه كان مع دان من الدستوريين الذين لم يكونوا على استعداد لإشغال الكونغرس بأكمله، والانتخابات المقبلة، بمسألة تنحية رئيسٍ يُمضي أواخر أعوام فترته الرئاسية الثانية. لم أفكر ذلك الوقت في مسألة التنحية، ناهيك بالتهليل لها، إلا أن حدسي كنائب عام، وناشط، دفعني إلى كشف الحقائق بأكملها. لكن جيل الحرب العالمية الثانية كان ضد هذا التوجّه. أما جيلي أنا، فقد تأثر بحربٍ من نوعٍ آخر، وهي حربٌ علّمتنا أن الحكومات قد تكذب وتخرق القوانين، وهي عندما تفعل ذلك، يصبح كشف الحقائق والمحاسبة العلاج المطلوب.

شعرت بأن الأفكار تمزقني، لأنني أنفقت الكثير للدفاع عن مبادئي. ولو أنني لم أقدم على ذلك لما كان الكونغرس مضطراً إلى معالجة الأمر بالجدية الكافية. لكنني رأيت أن الأنشطة التي أقوم بها قد تزعزع الدستور والقائمين عليه، وهو درسٌ قيّم في مكان تدير أعماله العلاقات القائمة بين أعضائه. اضطررت في نهاية الأمر إلى إيجاد طرقٍ جديدة لملاحقة القضايا المطروحة، لمعالجتها في الكونغرس، والحرص على مبادئي في الوقت نفسه.

أتاح لي عدم البقاء في المركز الأقل أهمية، في لجنة الاختيار، فرصة غير متوقعة لفتح تحقيق خاص بي. وأخبرني دان إنوي بشكلٍ خاص أن لجنة الاختيار المتعلقة بقضية إيران – كونترا لن تبحث في الشائعات القائلة بأن الكونترا غارقة في أموال المخدرات غير الشرعية. كان بإمكاني متابعة تلك القضية لكي أعرف إلى أين سوف تؤدي. لكن بعض المراقبين اتّهموا وكالة الاستخبارات المركزية بأنها تُحضر الكوكايين عمداً إلى المدن الداخلية للولايات المتحدة من أجل تمويل الكونترا في نيكاراغوا. لم أصدّق الأمر في البداية، لأنني كنت أعتقد بأن الولايات المتحدة كانت تغضّ الطرف عن العلاقة الواضحة بين الكونترا والمخدرات. لم أكن معجباً كثيراً بالميليشيات العسكرية العاملة في تهريب المخدرات، ولا بالمتمردين اليساريين، مثل الفارك في كولومبيا التي تقوم بالأمر ذاته.

ألّفت فريقاً من الموظفين الملتزمين في كشف الحقائق مهما تكن، وهم مجموعة رائعة من المثاليين الباحثين عن الحقيقة. لكن ذلك لم يمنعني من التفكير أحياناً في ما إذا كنا متحمّسين بشكلٍ مبالغٍ فيه. كان رئيس المحقّقين في فريقي محافظاً مقداماً ومثالياً تحررياً يدعى جاك بلوم. وكان ينظر إلى العالم بمنظار الأبيض والأسود. ناضل جاك بكل قوة أواخر حملة مجلس الشيوخ، ثم انضم إليه ديفيد ماكين، وهو محامٍ شاب ولامع تلقى علومه في جامعات هارفرد، وديوك، وفلتشر، وكان كاتباً موهوباً ومحباً لنشر

المرح في مجالسه، والذي أصبح موضع تقديرٍ كبير. أما جوناثان وينر فقد كان عنيداً، ومحققاً سريع البديهة، وقد التقيته لأول مرة خلال حملتي الانتخابية سنة 1972، وذلك عندما كان محرراً رزيناً في السابعة عشرة من عمره لصحيفة مدرسته الثانوية، وقد ضايقني بكتاباته. مازحته عندما التقينا بقولي إنني لم أتمكّن من الرد عليه منذ ذلك الوقت. كان الرجل ذكياً وقديراً جداً. ولاحظتُ ذات يوم أن عاملة الهاتف في مكتبي تقف بتوتر في الرواق، وهي تتحدث مع مساعدي التنفيذي. سألتها: ما الأمر؟ فأجابتني، «يا سيناتور، لمَ لا تتقدّم نحو غرفة الاستقبال؟ هناك شخص، آه. أحد المحققين من اجتماعك التالي، وهو يثير التوتر في المجموعة السياحية الزائرة من ليومينستر» .

تقدمت من الباب المفتوح لمكتبي، وتطلعت إلى الداخل. فهمت عند ذلك السبب الذي جعل سيّدات أوكزيلياري يشعرن بالانزعاج. رأيت على الأريكة إلى جانب المجموعة السياحية أحد مسؤولي دائرة السجون بزيّه الرسمي، بينما وقف إلى جانبه أحد السجناء الاتحاديين بزيّه البرتقالي اللون، وعلى ما يبدو كان الرجل شاهداً محتملاً، كان فريقي يريد مقابلته. عزمتُ عند ذلك الطلب من فريقي نقل بعض هذه الاجتماعات في أسرع وقت إلى مبنى آخر من مباني مجلس الشيوخ.

لكن، بالرغم من مواقف كهذه، كانت تحقيقاتنا جديةً جداً. قادتنا محاكمة قضايا المخدرات إلى أمرٍ يستحق الانتباه. لكنّني لم أفاجأ كثيراً بأن تكون الكونترا غارقة في تجارة المخدرات، بل فوجئت بمدى سهولة تبييض أرباحهم غير الشرعية من خلال مؤسّسات يُفترض أنها مؤسسات مالية شرعية. اكتشفنا بعد ذلك وجود مصرفٍ مشبوه وغير معروف، يحمل أحرفاً أولى غير مفهومة، بي. سي.سي. آي. تعني هذه الأحرف الأولى مصرف التجارة والاعتماد الدولي. كان بي. سي. سي. آي بمثابة الملاذ الآمن للمجرمين ولمبيّضي الأموال، وكان المصرف مختبئاً عن الأعين. اكتشفنا أن الديكتاتور البانامي مانويل نورييغا، وهو حليف قديم زرعته الولايات المتحدة في أيام الحرب الباردة، كان متورطاً شخصياً هو الآخر في تهريب المخدرات. كما أنه استخدم مصرف التجارة والاعتماد الدولي لتهريب أمواله التي كسبها بطريقة غير شرعية إلى خارج البلاد، وهكذا ذُهل المحقّق من وجودي.

أعادتني الأشهر التالية إلى الأيام التي كنتُ فيها نائباً عاماً في مكتبي: مراجعة الأدلة، واستدعاء الشهود، وتفحّص الشهادات. كان مصرف التجارة والاعتماد الدولي إمبراطورية مصرفية تبلغ أصولها 20 مليار دولار. وكان المصرف، عندما كنّا نحقّق، يمتلك فروعاً في ما يزيد على سبعين دولة، بينما بلغ عدد زبائنه المودعين ما يقارب المليون. أصدرتُ في ذلك الوقت مذكّرات

جلب إلى المحكمة، لكن وزارة العدل عمدت إلى تأخير طلباتي. بدا أن شخصاً ما كان يحمي شيئاً ما، أو أحداً ما.

لكن، مع قدوم ربيع العام 1989، كان من الواضح أن تحقيقاتي قد أثارت سخط أكثر مسؤولي وزارة العدل، ودفعتهم إلى الاتجاه الخاطئ. اكتشفتُ فيما بعد أن مصرف التجارة والاعتماد الدولي يمتلك أصدقاء له في مراكز عليا. علِم رئيس لجنة الشؤون الخارجية، صديقي كلايبورن بيل، أن تحقيقاتنا كانت تؤذي جهاتٍ عديدة أخرى إن لم تحطّمها في طريقها. لم يطلب مني كلايبورن إيقاف التحقيقات، بل شجّعني على إتمامها. كانت رسالته واضحةً بما يكفي: كانت التحقيقات غير مريحة.

كان من المستحيل، إن لم يكن من الخطأ، إخفاء ما اكتشفناه وراء الستار. أما وزارة العدل فلم تكترث للتحقيق. لذلك نقلنا الأدلة التي حصلنا عليها إلى النائب العام في نيويورك روبرت مورغنثاو. شاركنا مورغنثاو قلقنا، ونجح في إقناع هيئة المحلفين العليا بإدانة المصرف بتهم الاحتيال والرشوة. علمنا بعد ذلك بأن وكالة الاستخبارات المركزية قد قامت بتحضير مئات التقارير التي توجز الروابط الجرمية لمصرف التجارة والاعتماد الدولي. لكن كان من حسن حظنا أن تعيّن وزارة العدل مديراً جديداً لقسمها الجرمي، هو بوب مويلر، زميلي في جامعة سانت بول، ومحارباً في فييتنام، ومحترفاً نشِطاً في مجال تطبيق القانون. وتمكّن موظفان في فريقي من كشف أعمال الاحتيال التي قام بها مصرف التجارة والاعتماد الدولي. لذلك شعرتُ بالارتياح التام عندما عيّن مويلر سبعة وثلاثين مدعياً عاماً في هذه القضية. لكن العام 1991، شهد وضع أوصياء أيديهم على المصرف. كانت هذه هي نهاية مصرف التجارة والاعتماد الدولي.

ظهر سبب كبير جعل هيئات تطبيق القانون، وهيئة الاستخبارات، تسمّي مصرف التجارة والاعتماد الدولي بـ «مصرف المحتالين والمجرمين» . يُضاف إلى ذلك أن إحدى لوائح الاتهام الأميركية وصفت عملية تبييض الأموال بأنها «استراتيجية الشركة الأولى» . يعني ذلك الأمر الآتي: إذا احتاج زبون إلى نقل أموالٍ من دون ضجيج، فإن مصرف التجارة والاعتماد الدولي هو الجهة المناسبة لتحريكها. كانت لائحة مصرف التجارة والاعتماد الدولي تضم كبار الأشرار في العالم: نورييغا، وصدّام حسين، وأبو نضال، فضلاً عمّا اكتشفناه مؤخراً، أي أول قيادة للقاعدة، وهي التي أصيبت بصدمةٍ كبيرة نتيجة للتحقيقات، واضطرتْ جرّاء ذلك إلى تركِ مركز عملياتها في السودان عند إقفال المصرف.

لكن لماذا كان من المهم جداً لي متابعة التحقيق حتى النهاية؟ يعود ذلك إلى أنّني، إذا بدأتُ بالتراجع وتجاهل حكم القانون، فسوف أسهم في التدهور السريع للديمقراطية، لأن الفساد يمتاز بصفة تصاعدية، وأنا أؤمن بأن حكم القانون يعني شيئاً أساسياً في الولايات المتحدة. لكن، إذا غضضنا الطرف عمداً أمام الأغنياء والأقوياء، ومكّنّاهم من تجنّب المساءلة، وقمنا، في المقابل، بإرسال صغار المجرمين إلى السجون لسنوات عديدة، فإننا بذلك نسهم في إنشاء نظام عدالةٍ مزدوج. لكن هذا ليس بعدالةٍ على الإطلاق. تؤدي أموال المخدرات إلى مبيعات سلاح غير شرعية، والمتاجرة بالبشر، وتبييض الأموال. لكن الإرهابيين يحبّون المصارف التي تعمل في الظل. وهكذا نجح مصرف بي. سي. سي. إي، ولزمنٍ طويل، في إخفاء أعماله القذرة عن الناس. وساعدت تحقيقاتنا في كشف عددٍ مذهل من الشخصيات البارزة، بدا أنهم قد احتفظوا بعلاقاتٍ مع عمليات المصرف على درجاتٍ مختلفة. لكن وزير الدفاع السابق كلارك كليفورد أثار ارتباطه بمصرف التجارة والاعتماد الدولي أكبر قدرٍ من دهشتي. كان الرجل أسطورياً، وتسلّم مراكز في السلطة منذ أيام هاري ترومان. سألني عددٌ من زملائي الديمقراطيين عن السبب الذي دفعني إلى ملاحقة أحد أصدقائهم. وتلقيت كذلك مكالماتٍ هاتفية من السيدة الأولى السابقة جاكلين كينيدي أوناسيس، ومن باميلا هاريمان، وهي جامعة تبرُّعات بارزة من الحزب الديمقراطي، وأرملة حاكم نيويورك آفيريل هاريمان، وقد سألتني السيدتان عمّا أستطيع فعله لمساعدة صديقهما العزيز كلارك كليفورد.

بذلت أقصى جهدي لشرح السبب الذي يمنعنا من استهدافه، أو استهداف أي شخصٍ آخر. لكن فوجئنا بالأمور التي اكتشفناها، ولم يكن بإمكاننا التراجع. أما كلارك كليفورد فقد استخدم كل الموانع لعرقلة التحقيق، إذا لم نقل لإيقافه تماماً. لكن معظم زملائي اختاروا عدم الضغط عليّ، كما أدركت أنني عدت مرةً أخرى غريباً في مدينة ذات نفوذ.

قدّم كلارك كليفورد في خريف العام 1991 شهادته أمام لجنتنا الفرعية. كان الرجل قد وصل في هذا الوقت إلى عامه الرابع والثمانين، وكان ضعيف البنية، وضعيف السمع. زعم كليفورد بأنه لم يدرك قط أن مالكي المصرف الذي يتعامل معه لم يكونوا مثل ما زعموه. وأضاف بأنه خُدِع. لكن عندما سألته عن التفاصيل، كرّر أمامي عدة رواياتٍ عن النقطة ذاتها: لم يستطِع أن يتذكر.

دخل الموظفون الذين يعملون معي خلال فترة الاستراحة من جلسة الاستماع، وقالوا إنني أضغط على الرجل بقسوة. قلتُ لهم: «إنه رجلٌ عجوز،

وأنا لا أنوي إذلال رجلٍ عجوز» .

كنت أبحث عن الحقيقة، وليس عن كسبٍ باهر. وهكذا حصلنا على كل الشهادات التي نحتاج إليها. وسوف يتمكن الحاضرون من الحصول على استنتاجاتهم بشأن كليفورد، الذي تجرأ واعترف في جلسة الاستماع بأن الحقائق التي سمعها قد، «تركت له الخيار بين أن يبدو مستعداً لقبول الرشوة، أو أن يكون غبياً» . بدأتُ في هذا الوقت بالحصول على استنتاجاتي الخاصة بي بشأن كيفية عملي في مجلس الشيوخ. لكنني لم أكن مستعداً أن أدع أي شخص، مهما يكن نافذاً، أن يمنعني من القيام بما أراه صائباً، ومن السعي نحو الحقيقة. لكنّني صمّمتُ، بالرغم من ذلك، على عدم خسارة الإحساس باحترام ذاتي. هناك طُرقٌ صحيحة وطرقٌ خاطئة للعمل، وهكذا، بتُّ لا أكترث إذا ما نعتني الناس بالمهاجم، لكنني لن أمنح أي شخص سبباً لاعتباري متنمِّراً.

تعلّمت الكثير من عملي كمحقّق، سواء في قضية إيران- كونترا، أو في قضية مصرف التجارة والاعتماد الدولي. تعلمت كذلك أن المرء عندما يسعى بقوة نحو الحقيقة فإن الناس الذين انغمسوا في الأكاذيب، أو في أساليب التهرب منها، سوف يقاومون ثم ينتقمون. لكن الحقيقة تستأهل النضال من أجلها، لأنها غاية أميركية بحد ذاتها. وبخصوص قضية إيران- كونترا، فإن العدالة قد أخذت مجراها، لدى انتهاء ولاية الرئيس ريغان، وتولّي جورج بوش الأب الرئاسة سنة 1989، برغم كل التساؤلات عمّا يعرفه. أُدين في هذا الوقت أشخاصٌ، مثل أوليفر نورث الذي خرق القانون والجهاز القضائي. وتلقّت المحكمة طلبات للمسامحة وتخفيض العقوبات لعدد من الأشخاص، لكن المحاكم تمسكّت بالحقائق. أما مصرف التجارة والاعتماد الدولي، فقد أُغلق في النهاية، بالرغم من كثيرين كنّوا العداء لي. وهكذا سُلّط الضوء على شبكةٍ من الأعمال غير القانونية وغير الشرعية التي تقوم بتمويل المخدرات، والإرهاب، والجريمة. وتمكّنت من القيام ببعض الأشياء، كعضو في مجلس الشيوخ. دفعتُ الثمن، لكن ذلك كان سبب وصولي إلى واشنطن.

الفصل التاسع: صنع السلام

جلستُ قبالة جون ماكين من دون حراك داخل طائرة البوينغ 757، التي تحمل على جانبها شعار الولايات المتحدة الأميركية. كان ذلك في مساء يوم من أواخر شباط/فبراير 1991، وبعد انتهائنا من يوم طويل في مجلس الشيوخ. كنا في ذلك الوقت جزءاً من وفدٍ كبيرٍ نسبياً يرأسه عضوا مجلس الشيوخ ستروم ثيرموند ودانيال باتريك موينهان. كنا في طريقنا إلى مدينة الكويت بعد تحريرها في عملية عاصفة الصحراء. كانت الأقدمية معيار توزيع المقاعد. وهكذا وجدنا أنفسنا في رحلةٍ طويلة وجهاً لوجه. ومع أننا من قدامى العسكريين الذين حاربوا في فييتنام، فإننا قد اختلفنا في ما نحفظه من قصص عن الحرب نفسها. كنا بين أربعة أشخاص تجمعهم طاولة واحدة، وكان جون مقابلاً للجهة الخلفية للطائرة، بينما قابلتُ الجهة الأمامية منها. وهكذا تبادلنا المجاملات لفترة من الوقت عن مجلس الشيوخ والسياسة العامة في البلاد.

لم نستسلم للنوم مع تقدّم الليل. بدأت بسؤال جون عن الطيران عموماً، وعن تجربته في سلاح البحرية والأكاديمية في آنابوليس، وكذلك عن تاريخ أسرته العسكري والمشرّف. وسألته أخيراً عن فييتنام ذاتها، وعن الفترة التي أمضاها عندما كان أسيرَ حرب. امتلك جون أسئلته الخاصة به كذلك. أصغى واحدنا إلى الآخر، وروينا ملاحظاتٍ صادقة عن مسيرتينا المختلفتَين.

يُحتمل أننا تجاهلنا هذا النوع من الأحاديث وفرادتها، وتجاهلنا أهمية تلك الذكريات. لم يكن هناك أي نوعٍ من الخصومة بيننا، إلّا بعض الشكوك وعدم الثقة من جانب كل واحد منا تجاه الآخر. لكن عندما كان جون يعاني من إهاناتٍ غير مفهومة ومسٍّ بكرامته على أيدي آسريه الفييتناميين الشماليين، كنتُ أقطع أنهار دلتا الميكونغ بمياهها البنية اللون، والتي شكّلت نوعاً مختلفاً كلياً من الصعوبات والأخطار. وبعد ذلك تجوّلت في أنحاء أميركا، وتكلمت ضد الحرب. هبط جون بالمظلة فوق هانوي في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1967، ولم يُطلق سراحه إلّا في أواخر العام 1973. تجمّد لديه كل شيء

يختص بالحرب والسياسة داخل البلاد يومَ أسِر. وفي المقابل كان شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 1967، موعد التظاهرة الأولى نحو البنتاغون. كان ذلك قبل رأس السنة الفييتنامية الجديدة، وقبل اغتيال مارتن لوثر كينغ الابن، وبوبي كينيدي، وقبل وعد نيكسون بخطة سرية للسلام. اعتبر جون أن هنري كسينجر هو الدبلوماسي الذي ساعده، وقال إن الرجلَ «حافظ على شرفه» ، وذلك عندما رفض عرض فييتنام الشمالية إطلاق سراح ابن الأميرال ماكين قبل أسرى الحرب الآخرين الذين وقعوا في الأسر قبله. وهكذا أصبح كسينجر في نظر الحركة المعادية للحرب رمزاً لاستمرار الحرب.

تصورت أن الشرط الضروري لبقاء جون على قيد الحياة أثناء أسْره هو تمسّكه بجوهر القيَم التي حملها معه إلى هيلتون هانوي، أي الكفاح من أجل الحرية، وإيقاف مدّ الشيوعية، و«الإخلاص لآبائنا [المؤسّسين]» . أدركت في ذلك الوقت أننا نحن الذين عارضوا الحرب لا يمكن أن يُستقبَلوا أو يُفهموا من قِبَل هؤلاء الوطنيين. وأنا لم أتوقع ذلك لأن الذي يختار التصريح بمعارضته للحرب يجب أن يدفع الثمن، وهو أن يصبح هدفاً لأنصار استمرار الحرب. كان ذلك ثمناً سأدفعه كل يوم من أيام حياتي في بعض الأماكن والأوساط.

لكن جون لم يعرف، ولم يكن بإمكانه أن يعرف، مدى صعوبة خيار أن يكون عددٌ كبير منا ضد الحرب. انتسبتُ إلى الجيش للأسباب ذاتها التي دفعتْه إلى الانضمام إليه، وهي: نموذج الوالد، والإحساس بواجب خدمة البلاد، والاعتقاد المتأصل والقوي بأن الذين أخذوا الكثير، متوقّعٌ منهم الكثير، وإدراك اللامساواة غير المقبولة، لأن أعداداً كبيرة من أولئك الذين تحملوا عبء التجنيد هم الملوّنون وذوو الدخل المحدود. أدركت أنني لم أكن مستعداً للانضمام إلى جموع مدرسة المتخرجين. ومن المؤكد أنني لن أنضم إليها كوسيلةٍ لتجنّب الخدمة العسكرية. لكنني أدركتُ كذلك أن الخدمة في الجيش، بإشراف قيادةٍ مسؤولة، سوف تكون مدرسة متخرجين من نوعٍ آخر تماماً. كانت هناك عوامل كثيرة تدفعني إلى محبة سلاح البحرية. وكان غضبي الناجم عمّا فعلته الحرب بالشبان، الذين انضموا إلى صفوف الجيش، يقف وراء انتقالي من مجندٍ وطني وشاب إلى سياسيٍ محنكٍ ومعارضٍ للحرب ووطني بالدرجة نفسها. وكان وراء هذا الانتقال أيضاً الإهمال الذي وصل إلى حد الرفض تجاه المحاربين العائدين إلى الوطن، والخداع، والأكاذيب المفضوحة التي تعوّد مسؤولو الحكومة وكبار ضباط الجيش إطلاقها عن الحرب ذاتها، وعن التكتيكات والاستراتيجية، إذا جازت هذه التسمية. وكل ذلك عوامل أدت إلى سقوط ضحايا، وأعمال قتلٍ كنا بغنى عنها، واستمرت لسنواتٍ أكثر مما توقعه أي شخص. لكن ما الهدف من وراء كل ذلك؟

تملّكنا، نحن الذين مررنا بهذا التحوّل الصعب، إحساس مرير بالخسارة والخيانة. أعتقد بأن جون، وأولئك الذين دعموا الحرب، قد شعروا بخيانتنا. أما نحن فقد شعرنا، في المقابل، بخيانة قادتنا، وغالبيتهم من العسكريين وعدد قليل من المدنيين.

ها نحن الآن، وبعد مرور ثماني عشرة سنة، عضوان في مجلس الشيوخ، وكلانا كنا نؤمن إيماناً راسخاً بقوة دستورنا وأهمية الخدمة العامة وقيمتها، ونتقاسم مشاعر قوية ومعيشة من الوطنية. وكلانا تعلّمنا أهمية احترام آراء الأشخاص الآخرين بغض النظر عن عمق اختلافنا في الآراء. وتعلّمنا ما يكفي عن الحياة لكي نفهم، كعضوين في مجلس الشيوخ، أن لا فائدة من هدم الجسور. وكان هناك على الدوام تصويتٌ آخر ويوم آخر. وحتى إذا لم يتمكن المرء من دعم أحدهم في يومٍ ما، فإن يوماً آخر قد يجلب قضيةً تتشارك فيها مع ذلك الآخر بالحماسة والأهمية.

درس جون ما يكفي من الأحداث التاريخية وواجهها، وتحدث إلى عددٍ كبير من الخبراء العسكريين. وعالج وحلّل ما رآه وسمعه على مدى سنواتٍ طويلة. لذلك تمكّن من فهم الأخطاء، ومن كُرهِ الخداع. حتى أنه أنشأ صداقاتٍ سريعة مع الأشخاص الذين عارضوا الحرب. وبالرغم من أنه سافر إلى ماساتشوستس لكي يدعم منافسي في أول سباقٍ لي نحو مجلس الشيوخ، فإنه لم يهاجمني شخصياً. كنتُ أفضّل لو أنه لم يأتِ، لكنني فهمت اللعبة. لم نكن قد تعارفنا بعد، ولم يكن بوسعي أن أتوقّع غير ذلك. جالت كل هذه الفِكَر في رأسي وأنا جالس على بُعد ثلاث أقدامٍ منه، أثناء تبادُلِنا قصص تجاربنا.

لكن ما أصبح واضحاً لكلينا خلال هذه المحادثة الرائعة والتي لا تُنسى، هو ذلك الإحساس إزاء الانقسام الذي سبّبته الحرب، والذي ما زال يرافقنا كما هي الحال مع البلاد، والذي يجب أن ينتهي. اتفقنا كذلك على أن أميركا كانت، ولوقتٍ طويل جداً، في حربٍ مع نفسها. لكن الحرب داخل البلاد لا يمكن أن تنتهي مادام شبح الأشخاص المحتجزين في سجون الأسر، أو المفقودين، يخيّم على سماء البلاد. لكن جون شعر في أعماقه بأن هذه القضية تتعرّض للاستغلال بكل استخفاف على أيدي السياسيين الذين ينشرون الأحاديث عن مؤامرة. أدركنا أن البلاد لا يمكن لها تجاوز الحرب والتصالح مع نفسها من دون القضاء على الشكوك ورؤية الحقائق. لكن لا يمكننا تحقيق السلام الحقيقي مع الفييتناميين ما دام الناس يشكّكون في تطبيقهم لبنود الاتفاقية التي تقضي بإعادة كل الأسرى. ولا يمكن تحقيق السلام ما دامت صورة رامبو، الذي يُنقذ الشبان الأميركيين المسجونين في أقفاص النمور في جنوب شرق آسيا، تجذب الملايين إلى دور السينما.

اعتبر جون أن قضية الأشخاص الذين تُركوا لوحدهم وهم على قيد الحياة، ليست قضيةً شخصيةً فقط. أما تجربته الرهيبة، التي صدمني تشكيكُ بعض المتعصّبين فيها، وتكذيبُهم لها، فقد قال بخصوصها إنه مقتنعٌ بأن ما يسمى الدليل على وجود أميركيين أحياء كان خاطئاً، لأنه طوّر مع زملائه الأسرى شيفرة سرية للتواصل. وهكذا تمكّنوا من حفظ اسم كل شخصٍ وقع في الأسر. اعتقد كذلك أن أولئك الذين يروجون لأسطورة أسرى الحربٍ إنما يستغلون أُسَر المفقودين بطريقة قاسية، ويلحقون الضرر بأميركا.

تابعت الطائرة تحليقها شرقاً، وخيّمت الظلمة علينا. لكن معظم أعضاء مجلس الشيوخ كانوا نائمين. أما نحن، فقد كنا بحاجة إلى فترة نغمض فيها أعيننا. انتهينا أخيراً من حديث المصارحة، كما اتفقنا على عدم نسيان لحظات المصارحة هذه. اتفقنا هناك، وفي تلك اللحظة، على إيجاد طرقٍ للعمل معاً من أجل جلب السلام إلى فييتنام وأميركا. كانت تلك اللحظة هي بداية صداقةٍ جديدة وفرصةٍ جديدة، كما كانت أكثر اللحظات أهميةً وتقديراً في نظري طوال مدة عملي كعضو في مجلس الشيوخ الأميركي.

عندما عدتُ إلى مكتبي وأخبرت الموظفين بأنني وجون على استعداد لمعالجة موضوع فييتنام، ظنوا أننا فقدنا صوابنا، وعلى الأخص أنا. لكنهم اعتبروا قضية أسرى الحرب والمفقودين موضوع المتعصبين والمحتالين والعقائديين. واعتبر الجميع أن الأمر سوف يكون مضيعةً كبيرةً للوقت. لكن عندما عرض غلاف مجلة نيوزويك صورة لأسرى الحرب الأميركيين مع عنوان «ألا يزالون أحياء؟» اتضح لي أن أميركا لن تتمكّن من صنع السلام، وسوف تكون عاجزةً إلى الأبد عن التصالح مع ذاتها، من دون حلّ هذه القضية. كان أهالي الأسرى والمفقودين يريدون إجابات. وكان على البلاد كذلك أن تكون وفيةً لقوانينها التي تنص على عدم التخلي عن جنودها. هل يصح، والحالة هذه، أن يتحدث أحدنا عن الشرف والواجب إذا أخفقنا في إنجاز هذه المهمة؟

لكن مع الضغط المتزايد من عائلات أسرى الحرب والمفقودين والذين لا يُعرف عنهم شيء، وإزاء المقالات المشابهة لتلك التي ظهرت في مجلة نيوزويك، فقد استحوذ هذا الموضوع على قدر متزايد من الاهتمام. وبغضّ النظر عن ضآلة فرص وجود أسرى حربٍ متروكين في فييتنام، فسوف يكون من المستحيل متابعة أي حديثٍ عن فييتنام في المستقبل من دون أن يواجه المرء اتهام الخيانة، والتخلي عن الأسرى والمفقودين. لكن الحقيقة تُقال إننا لم نفتّش بعد كل الأماكن التي يُحتمل وجودهم فيها، ولم نتبّع كل خيط قد يؤدي إلى الكشف عن مصيرهم، كما أن فعل ذلك هو أمرٌ ندين به لأنفسنا وللأجيال القادمة.

أرسل عضو مجلس الشيوخ عن نيوهامبشير، الجمهوري بوب سميث رسالة إلى زعيم الأغلبية جورج ميتشيل طالبه فيها بتشكيل لجنة لإيجاد أجوبة عن هذه القضية، بعد أن جمع تواقيع عدد من الأعضاء الجمهوريين في مجلس الشيوخ. تحدثتُ إلى جون ماكين لأستطلع إن كان مستعداً للانضمام إليّ في محاولة الحصول على تلك الأجوبة، والبدء (بحسب ما آمل) برسم نهاية لقضيته فييتنام. أجابني بالموافقة، وهكذا توجهت إلى جورج، وشغلتُ مركز رئيس لجنة أسرى الحرب والمفقودين في مجلس الشيوخ، بالرغم من معارضة جميع الموظفين العاملين معي. ارتحتُ كثيراً لأن جورج عيّن من الجانب الديمقراطي مجموعةً رائعةً من أعضاء مجلس الشيوخ: بوب كيري، وتشوك روب وطوم داشيل، وهم من قدامى محاربي فييتنام، بالإضافة إلى هاري ريد وهيرب كول، الأمر الذي أعطى اللجنة زخماً مكّنها من معالجة تلك القضية الشائكة. ومن الجانب الجمهوري فإن بوب دول قد انتقى بوب سميث ليكون نائب الرئيس، وهو المركز الذي رفضه جون ماكين. لكن ماكين انضم إلى اللجنة فضلاً عن هانك براون، وهو من قدامى محاربي فييتنام، ونانسي كايسباوم، وجيسي هيلمز، وتشوك غراسلي. تمنيت في ذلك الوقت أن نحظى بالصلاحية اللازمة للسير بين الألغام التي تنتظرنا في عملنا، سواء في الداخل أو في الخارج.

تمكّنت جميع وكالات الاستخبارات، وعلى الأخص وكالة الاستخبارات الدفاعية، ووكالة الاستخبارات المركزية، خلال عملها على مرّ السنين، من جمع شذراتٍ من المعلومات التي تحدثت عن مشاهداتٍ مزعومة لأميركيين لا يزالون أسرى. وهكذا لم يعد من المستغرب أن نرى على سواري الأعلام المنتشرة في كل أنحاء أميركا علم أسرى الحرب والمفقودين الأسْوَد، والذي لا يزال يرفرف تحت علم المجد القديم، ليكون تذكاراً لكل الأميركيين الذين خدموا البلاد، والذين يجب ألّا تُغفل ذكراهم.

كان الجناح اليميني في السياسة الأميركية غارقاً في الشك بالمعلومات الاستخبارية التي جُمعت لهذه القضية. واعتبر عدد من أقوى المؤيدين لي أن وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة الاستخبارات الدفاعية على الأقل، قد عمدتا إلى إخفاء معلومات منذ توقيع اتفاقية العام 1973، وهدفهما حماية القرارات التي اتخذها ريتشارد نيكسون وهنري كسينجر، والتي تسعى إلى الإسراع في إغلاق ملف فييتنام. لم يفاوض وزير الخارجية هنري كسينجر من أجل الذين هم آخر ما يُعرف بأنهم على قيد الحياة، أو فُقدوا في أراضي لاوس وكمبوديا.

كان سبب قلق الموظفين العاملين لديّ، عندما أخذتُ هذه القضية على عاتقي، هو صعوبة نقض معلومةٍ سلبية. وكان من شبه المستحيل بعد مرور زمن يراوح بين عشرين سنة وخمس وعشرين، أن ننقض صحة تقرير «آخر مرةٍ شوهد حياً» بعد مضي كل هذا الأعوام، وبشكلٍ مرضٍ. لكننا أنا وجون اعتبرنا أن البحث الدقيق يجب أن يخوض في التاريخ الشفهيّ التقليدي الذي يوجد في «المنازل التاريخية» الإقليمية في فييتنام، وهو البحث الذي يتضمن إجراء مقابلاتٍ مع قدامى الجنود، ويتابع أحدث التقارير، وينقّب في مواقع مدافن مفترضة. لكن إذا قمنا بكل ما هو في متناول البشر، فقد نتمكّن من إقناع غالبية الناس باستنتاجاتنا، كما سنتمكن من توفير الأسس اللازمة كي نبرهن لعائلات المفقودين أن حكومتهم قد بذلت الجهود المخلصة المطلوبة منها. وكان واضحاً أن هذه هي الطريقة الوحيدة لمحاولة بذل قدرٍ من الجهود يهدف إلى إقفال القضية أمام عائلات المفقودين وأمام الرأي العام الأميركي أيضاً.

بدأنا بعقد سلسلة من جلسات الاستماع، كان بعضها في منتهى الصراحة، وبعضها الآخر مثيراً للجدل. وكان من الضروري تغطية كل زوايا القضية. ومن أجل إقناع المؤمنين بنظرية المؤامرة والتستر عمداً على التخلي عن الأسرى الأحياء، توجّب علينا أيضاً إحضار جميع اللاعبين الذين اتخذوا القرارات الرئيسية خلال تلك الفترة من الزمن. كان من الصعب مجرد الحصول على موافقة لإحضار الشهود، وكان كل قرار تصدره اللجنة يتعرّض للتشويه على أيدي مجموعات مناصرة لقضايا الأسرى، كانت مستعدة لوصف اللجنة بأنها استمرار لعملية التستّر. كانت بعض هذه اللجان المخلصة برئاسة عائلات المفقودين، وهي عائلات تجمّدت حياتها تماماً منذ الحرب. لكن كانت هناك مجموعات أخرى من المتآمرين والمحتالين الذين يكسبون من فرضية وجود أميركيين على قيد الحياة في أماكن الأسر. وكان كل هؤلاء من جامعي الأموال عن طريق البريد المباشر، أي إنهم كانوا يملأون جيوبهم على حساب عائلات أسرى الحرب والمفقودين.

كان تيد سامبلي ناشطاً نصّب نفسه مدافعاً عن قضية أسرى الحرب، وكان يبيع القمصان، والأعلام، والنشرات في المتنزّه الوطني الذي يبعُدُ رمية حجر عن نُصُب قدامى محاربي فييتنام. كسبَ الرجل كثيراً من أسطورة الأسرى الذين لا يزالون محتجزين في الأقفاص المخصّصة للنمور في فييتنام. وبينما كنا نعمل أنا وماكين بجهد لإظهار الحقيقة والوقائع للعائلات التي انتظرت عشرين عاماً لسماع أي كلمة، كان سامبلي يعمل بجهدٍ متجاهلاً الأدلة وناشراً الأكاذيب عمداً. لكن كان لا بد أن تتدخل الحقائق في عمله أخيراً. أطلق الرجل حملةً لتوصيف ماكين على أنه «المرشّح المنشوري» ، واتهم

الرجل جون علناً بأنه قد تعرّض لغسل دماغ لكي يخون رفاقه من أسرى الحرب. كنتُ ألاحظ الأوردة في عنق سامبلي وهي تتضخم كل مرة كان يقوم فيها بمقاطعة إحدى جلسات الاستماع التي كنا نعقدها. فكنت أتقدّم منه، وأربّتُ ساعده قبل أن أهوي بمطرقتي لأطلب الحفاظ على الهدوء في غرفة الاستماع. وحدث مرة أن تعارك كبير موظفي مكتب جون، مارك سالتر، مع سامبلي، وانهال عليه باللكمات والضرب بشدة، ودخل سامبلي السجن بسبب ذلك الحادث. أحببت مارك قبل هذا الحادث، لكني أحببته أكثر بعده.

بذلنا أنا وماكين جهوداً مضنية من أجل التدقيق في الشهود، ومن أجل تقييم ملفات الأوراق العائدة إلى الحرب. وكان من الضروري في عملنا نزع السرية عن آلاف الوثائق من وكالة الاستخبارات الدفاعية ووكالة الاستخبارات المركزية. وتمكّنا في يوم واحد من الحصول على أكبر قدرٍ من الوثائق السرية في هذه الفترة الزمنية الضئيلة. شعرنا ذلك الوقت بالحاجة إلى إدهاش الناس بالشفافية، وهذا ما فعلناه بالضبط. وكان من الصعب على أي شخص التأكيد أننا نخفي شيئاً ما، وهو الأمر الذي أردناه بالضبط.

كان مركزي في اللجنة هو الذي دفعني إلى القيام بأول زيارة لي إلى موسكو. كان ذلك في الفترة التي تلت سقوط جدار برلين وتفكّك الاتحاد السوفياتي ذاته، ولم تكن الأمور قد توضّحت بعد. وصلتُ في ذروة البرد القارس إلى موسكو التي كانت تعيش في حالةٍ من الفوضى، وكانت مهمتي ملاحقة الأدلة المتعلقة بالشائعات القائلة بأن الطيارين الأميركيين قد نُقلوا من فييتنام إلى موسكو، وذلك بهدف التحقيق معهم خلال حرب فييتنام. ومن حسن طالعنا أن سياسة البيروسترويكا [الانفتاح] قد عملت لمصلحتنا، وهو الأمر الذي ساعدنا على تجاوز عقبات تبادُل المعلومات، وكنت أتابع تقارير محددة لدينا عن تلك التحقيقات.

قمت بزيارة ما يماثل وزارة الخارجية في روسيا، وطُلب مني الدخول إلى مكتبٍ خالٍ للانتظار قبل بدء الاجتماع. رأيت في المكتب سبعة أجهزة هاتفية فوق طاولةٍ واحدة، ففكّرت في نفسي، قائلاً إن أي شخصٍ يشغل هذه الطاولة لا بد من أن يكون شخصاً في غاية الأهمية. سألتُ سفيرنا عن سبب وجود هذه الهواتف العديدة، وأدهشني جوابه عندما قال إن التكنولوجيا السوفياتية عاجزة عن ربط كل الخطوط في هاتفٍ واحد. تساءلت عندها إن كان هؤلاء هم الذين أرادوا يوماً اكتساح أوروبا.

رافقني بعد ذلك حارس وأحد الموظفين من المكتب. وسرنا نزولاً إلى عمق مقر وكالة الكي. جي. بي التي تقع تحت ساحة لوبياناكا، وهي الموقع

السابق لتمثال فيلكس دزيرزنسكي الشهير مؤسّس الكي. جي. بي. يُذكر أنه في شهر آب/أغسطس من العام 1991، أي عندما صدّ مواطنو موسكو الثورة المضادة، تجمّع ما يقرب من عشرين ألف شخص للاحتفال بحريتهم، وعبّروا عن فرحتهم عن طريق إزالة تمثال دزيرزنسكي. قال أحد قادة العمال في تلك المناسبة: «إننا نقوم بتنظيف النفايات من حياتنا» . كان من الرائع أن نقوم بزيارة هذا الموقع، حيث وقف الناس بكل جُرأة ضد قوة جبارة لتأكيد تعطشهم للحرية.

ربما كنت أول أميركي على الإطلاق يدخل إلى مقر الكي. جي. بي، حيث تقبع السجلات السرية لهذه الوكالة. وجدت ممراتٍ لا نهاية لها، حيث أقيمت شبكات معدنية لحماية الملفات المكدسة على الرفوف والطاولات، وقد علاها الغبار. تساءلت عن كل ملفٍ وعن الشخص الذي يمثله أو الأشخاص الذين يمثلهم. وفكّرت في المعلومات المرعبة، التي تشتمل عليها تلك الملفات. تمنيت في تلك اللحظة لو كنت أستطيع جمع مئة باحث، والحصول على إذنٍ للتفتيش فيها كلها. دُهشتُ كذلك لمنظر الملّفات المكدسة دون أي ترتيب أو نظام، والتي تمثّل بعض أسوأ مظاهر السلوك البشري المخبأة في صندوق قمامة التاريخ.

علمتُ في اليوم التالي بأن سيارة سوف تقلّني لألتقي يفجيني بريماكوف. كان الرجل في السابق مستشاراً للمجلس الرئاسي الذي رأسه ميخائيل غورباتشوف، كما كان مسؤولاً عن تحويل الكي. جي. بي إلى وكالةٍ استخبارية جديدة تسمّى الوكالة الاستخبارية الخارجية SVR، وهي الوكالة التي لا تزال باقية حتى الآن، لكن الواقع هو أن بريماكوف حافظ على معظم أجهزة الكي. جي. بي العاملة. كانت تلك الرحلة مريعة، فقد أطبق علينا ليل موسكو باكراً، وتقدمت بنا السيارة عبر الطرقات الضيقة خارج موسكو إلى أن بلغنا أحد المجمّعات الريفية. كان الثلج يتساقط بغزارة، فخفت أن تنزلق السيارة بنا إلى خارج الطريق، لتصطدم بالأشجار، أو تسقط في أحد الأنهار.

وصلنا أخيراً إلى بوابة المجمّع المنعزل، ولم يكن لديّ أي فكرة عن الاتجاه الذي سرنا فيه، أو المكان الذي انتهينا إليه. فُتحت البوابات ودخلنا، ثم مررنا أمام بعض الأكواخ المتناثرة قبل أن نصل أخيراً إلى أحدها، حيث توقفت السيارة أمام باب. خرجتُ من السيارة، وتقدمت نحوه، فانفتح سريعاً، ورأيت بريماكوف واقفاً للترحيب بي. ألقيتُ التحية ودخلتُ ثم سألته بسرعة: «هل سبق لأي أميركي أن جاء إلى هنا؟» فلم يستغرق وقتاً ليجيب: «ليس بملء إرادته!» .

كان ذلك هو ما جئت للتحدث عنه بالضبط، لكن إجابته كانت مرحة فحسب. تحدثنا مطولاً عن دعم الاتحاد السوفياتي للفييتناميين واستخباراتهم التي يجمعونها في هذا الوقت. وكان واضحاً أن هذه المقابلة لم تكن لتجري قبل أشهرٍ قليلةٍ فقط. لم يكن لدي أي سبب لتوقّع الحصول على أي كشفٍ أو اعترافات، لكنّني أردت أن أعرف إن كان بمقدوري إيجاد طريقة أتمكّن بواسطتها من التدقيق في بعض الملفات التي سبق لي أن رأيتها بسرعة في المقر. كان لدى لجنتنا وثائق من تلك الفترة التي أردنا التحدث عنها معهم لحل بعض القضايا. وافقني بريماكوف على ذلك، وعملنا معاً بشكلٍ بنّاء. كانت تلك رحلة طويلة وغريبة على شابٍ عاصر فترة الحرب الباردة.

بدأت لجنتنا كذلك بسلسلة زيارات إلى فييتنام، كانت ضرورية لتحقيق هدفنا. لكن عدداً من كبار المسؤولين في فييتنام ظنوا أننا إما فقدنا صوابنا، وإما أننا نقوم بإثارة قضية أسرى الحرب والمفقودين بهدف تأخير رفع الحظر، وتجنّب قضية التطبيع الشائكة. وكان الفييتناميون يبحثون عما يزيد على مليون رجل وامرأة من الذين لا يُعرف عنهم شيئاً، أو من المفقودين. بدت هواجسنا بشأن الأسرى الأميركيين الذين يُحتمل أن يكونوا على قيد الحياة، أو المفقودين، مفتعلةً، وعلى الأخص إذا ما قورنت مع خسائر الفييتناميين. وكانت مهمتي هي بناء الثقة وإقناعهم بأن هذه القضية ليست مفتعلة. تمكّنتُ من بناء سمعة طيبة، بوصفي وسيطاً نزيهاً، مع عددٍ من وزراء الخارجية، ورؤساء الحزب، ورؤساء الوزارة الفييتناميين، خلال ما يزيد على عشرين رحلة قمتُ بها إلى فييتنام. وأعتقد بأنني تمكنتُ من إقناع المسؤولين الفييتناميين بصدقية البحث الذي نقوم به، وبأهمية هذا البحث لتغيير صورة فييتنام عندنا، وهو الأمر الذي كان ضرورياً بطبيعة الحال لتغيير سياساتنا تجاه فييتنام.

اعتبر نِغوين كو ثاك، وهو أول وزير خارجية تعاملت معه، ووالد وزير خارجية فييتنام الحالي، أن مبادرتنا صادقة، وقدّم إلينا مساعدةً كبيرة في تعزيز صدقية مهمتنا. كان الرجل يفهم أميركا جيّداً. يُضاف إلى ذلك أنه كان حسّاساً إزاء القلق العميق الذي يسيطر على العائلات الأميركية. أما تدخّله المبكر، فقد كان خطوةً أساسية في مهمتنا هذه، وكذلك كان تدخّل الرئيس، ورئيس الوزراء ورئيس الحزب الشيوعي. ووضع هؤلاء القادة سمعتهم على المحكّ من أجل إقناع الجنود المتردّدين، والسجّانين، والمسؤولين الحكوميين، والمؤرخين، والمواطنين، بتبنّي هذه القضية. عندما يوماً كنت أتحدث مع رئيس الحزب دوي موي، وهو من قدامى المحاربين بدوره، وكان يتحدث عن أهمية إنهاء هذه القضية، وكأنه يريد إقناعي بصدق التزامه، وقف ثم رفع قميصه، وأراني عدة جروحٍ بليغةٍ نتيجة إصاباته في الحرب. قال لي: «تحمّل كلانا خسائر كبيرة، وتحمّلنا معاناة كبيرة. إننا نعتزم إنهاء هذه القضية، ونحن

ملتزمون إنهاءها» . دُهشت بما سمعته، وصُدمتُ في الوقت ذاته. لم أتوقّع قط أن أقف في قاعة الاستقلال التابعة للقصر الرئاسي مع رئيس الحزب القوي الذي كشف عن بطنه وظهره لكي يريَني الثمن الذي دفعه في الحرب. كان ذلك مشهداً مؤثراً ودراماتيكياً وعفوياً.

سافرتُ وحيداً بصفتي كرئيس للّجنة الخاصة إلى فييتنام عدة مرات من أجل المضي قُدُماً بالتحقيقات، ورافقني في عدة رحلات بعض زملائي. كانت هذه الرحلات معقّدة على الدوام، لكنها كانت مدهشة. وكان من الصعب علينا، وبطرقٍ عدة، وصف طبيعة المشاعر التي انتابتني. كان من الطبيعي أثناء زياراتي الأولى أن أستعيد روائح الانفجارات، وأصوات الدرّاجات النارية، وضجيج الأسواق، وبهجة الأطفال وحماستهم، ومنظر الزوارق التي تشق طريقها في الأنهر الموحلة بمياهها البنّية، والتشققات التي تظهر على ميادين المعارك. أما الأبنية فلا تزال تحمل آثار الأضرار الكبيرة للحرب، وكذلك الفجوات الناجمة عن القنابل، والتي نمت الأعشاب الخضراء الجديدة فوقها، والتي حافظت على شكل القنابل ذاتها بصورة واضحة. لكن كان من الصعب التعبير عن مدى غرابة الوجود في هانوي، والجلوس في قاعة الاستقبال التابعة للقصر الرئاسي، وتحت التمثال النصفي الضخم الذي يُبرز القائد هو شي منه، وكذلك الجلوس مع رئيس فييتنام، أو رئيس الحزب الشيوعي، ومحاولة إقناعه بضرورة التحدث مع كبار جنرالاته، والدخول إلى متاحف البلاد التاريخية، والطيران فوق القرى الصغيرة بالمروحيات، وربما من دون إشعارٍ مسبق، والهبوط من الجو لتحديد إن كان الأميركيون محتجزين سراً في قريةٍ من القرى. لكن ذلك هو ما فعلناه بالضبط.

يستأهل الفييتناميون منّا التنويه الشديد، لأنهم سمحوا لنا أن نقوم بكل الأمور التي أردنا القيام بها. كانت المروحيات تحدث هديراً مميزاً بمحرّكاتها الدوارة، وكانت أصوات الطائرات تعني لنا الغطاء الجوي، والإخلاءات الجوية الطارئة، والبريد، والنقل إلى ميدان المعركة، والانسحاب منه. كان ذلك هو صوت الحرب، لكن ليس بالنسبة إلينا فقط، بل كذلك بالنسبة إلى الفييتناميين، وكان الناقوس الذي يذكّرهم بالحرب التي لم يمضِ على انتهائها سوى سنواتٍ قليلة فقط. وكان ذلك الصوت يعني عادة صوت الموت الوشيك والدمار. ويشير في أحوالٍ كثيرة إلى وصول فرقة البحث والتدمير، ونشر الجنود الذين سرعان ما يهبطون إلى قرية ما للبحث عن الأعداء. وفي بعض الأحيان كان ذلك الصوت يجلب لهم المساعدة أو الأمان. وفي أي حال كان ذلك هو الصوت المميز لحرب فييتنام. أما الآن، فها نحن هنا نطلب من حكومة فييتنام السماح لنا بأن نهبط بالمروحيات، ومن دون إخطارٍ مسبق، إلى قرى حيث لا تزال ذكرى تلك الطائرات حيّة وتثير المشاعر لدى الناس. لم يكن ذلك

بالشيء القليل لنطلبه منهم، لكن تلك كانت الطريقة الوحيدة لإقناع المشكّكين في البلاد بأن البحث الذي نقوم به كان حقيقياً، وأننا كنا نتتبع تقريراً يتحدث عن مشاهدةٍ حقيقية، ومن دون أن نعطي الفييتناميين علماً مسبقاً بالمكان الذي نقصده لكي لا يتمكّنوا من «نقل الأسرى» .

قصدت في إحدى المرات سجناً كان موقعاً لإحدى المشاهدات المفترضة. رافقنا في تلك الجولة فريق من محطة الآي. بي. سي ومراسل لصحيفة نيويورك تايمز، بهدف مراقبة الموقع بصورةٍ عفوية. حدث ذلك في أواخر أيام عمل لجنتنا. كانت قدرتنا على إجراء كشفٍ فجائي لعددٍ من السجون ذات أهمية كبرى. لكن ذلك الموقع كان أكثرها شهرة. وصلنا إلى البوابة، غير أن الحراس رفضوا السماح لنا بالدخول. صُدمت في ذلك الوقت لأنه قيل لنا إننا نستطيع الذهاب إلى أي سجن، شرط إعلام القيادة بأننا موجودون هناك. يبدو أن القائد الإقليمي لم يكن قد تسلّم بعد أوامر السماح لنا بالدخول. أمكنني أن أتصوّر العناوين في صحيفة التايمز، والأخبار على شاشات التلفزيون: «الفييتناميون يرفضون السماح للجنة أسرى الحرب والمفقودين بالدخول إلى أحد السجون المشتبه فيها» . كان من شأن ذلك تأكيد أسوأ شكوكنا، ويُمكن لهذا الأمر تضييع أشهرٍ عديدة من عملنا المضني. ابتعدتُ قليلاً عن المجموعة لمهاتفة وزير الخارجية، وقلت له بكل ثقة: إذا لم نُمنح الإذن بالدخول الفوري إلى هذا السجن، فإنه بذلك يخاطر، هو والحكومة، بتضييع أشهرٍ عدة من العمل الشاق. مرّت خمس دقائق قبل أن يسمح لنا آمر السجن، وبكلّ تهذيب، بالدخول، ثمّ اعتذر قائلاً إنه لم يكن قد تسلّم الأوامر بعد.

سارت الأمور في ذلك اليوم على أحسن ما يرام، رغم مرور لحظة خشيت فيها من توقّف مهمتنا. برهنتْ هذه الحادثة أن الزيارات لم تكن معلنة مسبقاً وفجائية. يُضاف إلى ذلك أن القائد الإقليمي لم يعلم بأننا سوف نأتي، وكان ذلك دليلاً إيجابياً على عدم وجود تواطؤ من جانب أي شخص. قمنا بجولةٍ في أنحاء السجن، وكشفنا على الجدران بحثاً عن خربشات تكون بمثابة رسائل، وأجرينا كذلك مقابلاتٍ مع السجناء، لكننا لم نجد شيئاً يدل على احتجاز أجانب هناك.

تكرّر هذا المشهد عدة مرات. لكن أكثر المناسبات غرابة جرت في آخر فترة من عمل اللجنة، أي عندما أصرّ السيناتور بوب سميث على ضرورة أن نتتبع الافتراضات القائلة بوجود أنفاقٍ يُحتجز في داخلها الأميركيون تحت مدفن هو شي منه. هل لكَ أن تتصور غرابة الموقف لو أبلغت الولايات المتحدة القادة الفييتناميين بأننا مضطرون إلى تفتيش مدفن هو شي منه، لأن لدينا

معلومات تقول باحتمال وجود أسرى حرب هناك. لكن صيغة الجمع هنا تعود إليّ أنا، فقد كنت مضطراً إلى إبلاغهم كل هذا. ظلّت هذا الشائعة منتشرةً في الولايات المتحدة. لكنها شاعت بين أكثر المتحمسين المؤمنين بها. وهكذا تعيّن علينا معالجتها بهدف تأمين مصادقة كل أعضاء مجلس الشيوخ على تقرير إنهاء مهمتنا.

كنت أعلم أن هذا الهدف يتطلب مني استجماع أكبر قدر ممكن من الصدقية والإقناع. وهكذا رتّبتُ اجتماعاً مع رئيس فييتنام، ورئيس الحزب، وكانا الشخصين الوحيدين اللذَين يستطيعان إجراء أي تفتيش تحت مدفن هو شي منه تحت أنظار الأميركيين المدقّقة. غادرتُ مجلس الشيوخ ليلة الخميس، ثم سافرتُ على متن رحلة تجارية إلى بانكوك، وانتقلتُ إلى طائرة عسكرية أقلّتني إلى هانوي. التقيتُ هناك الرئيس، ورئيس الحزب كلاً على انفراد، وشرحتُ لكل منهما كيف أن هذه المهمة كانت العقبة الأخيرة في رحلتنا الطويلة الهادفة إلى حل قضية أسرى الحرب والمفقودين، وكيف أننا سوف نتمكّن بعدها من الانتقال إلى بحث تغيير العلاقة بين البلدين. قلتُ لهما إننا لن نقول أي شيءٍ علناً عن هذه الزيارة إلا بعد مرور سنواتٍ عدة في المستقبل، لكنهما بالتأكيد لن يشعرا، بأي حرجٍ إذا ما تسرّب أي شيء عنها إلى العلن. أبلغتهما كذلك أنّهما، رغم صعوبة هذا القرار عليهما سوف يتعرّضان من دونه للاتهام بأنهما يخفيان أمراً ما. شعرتُ شخصياً بإحراجٍ شديد لاضطراري إلى تقديم هذا الطلب إليهما، لكنّني أدركت أن ذلك أمرٌ شديد الأهمية لإنهاء مهمتنا.

أمضيت في هانوي أقلّ من اثنتي عشرة ساعة قبل أن أركب الطائرة عائداً إلى واشنطن. عدتُ في نهاية الأسبوع إلى مجلس الشيوخ، وهناك أبلغتُ بوب بأننا سوف نتوجّه معاً إلى مدفن هو شي منه، لإتمام مهمتنا تحته. عدنا إلى فييتنام من أجل إنجاز عملية التفتيش، وعند الساعة الرابعة صباحاً أو نحو ذلك الوقت، ومع أقصى قدرٍ ممكن من الخشية من الانكشاف، وبعيداً عن أعين المتطفلين والفضوليين، التقينا حارسَين يرتديان بزّتيهما الرسميّتين. نزلنا الدرج برفقتهما إلى طرف الباحة المخصّصة للمدفن. مشينا عبر ممرٍ طويل ثم وصلنا إلى قاعاتٍ تحت الباحة، حيث ترقد بقايا هو شي منه في صندوق زجاجي يسمح لنا بمشاهدة التابوت. وقفنا هناك، نحن العضوَين في مجلس الشيوخ الأميركي واللذَين يتجولان وسط مجموعة من الدهاليز، وأجهزة رفع الضغط، والمضخّات، وكذلك الأصوات الغريبة والمتذبذبة، والتي تتردد في أرجاء المدفن. قام بوب بفتح أبواب عدة للنظر ما تخفي وراءها، وللتأكّد من عدم وجود ممراتٍ، أو غرفٍ سرية. وصعُب عليّ تصديق ما أراه أمامي بالفعل. التزمتُ أنا وبوب وعودنا، ولم نتحدث بالكثير عن رحلتنا تحت

الأرض التي قمنا بها في هانوي. وضع ذلك نقطة تعجّب حول المدى الذي ذهب إليه الفييتناميون من أجل مساعدتنا على طرد الشائعات ونظريات المؤامرة. كان ذلك تأكيداً عميقاً لصدقية لجنتنا، وتعهّدها بإنهاء المهمة، وكذلك بالنسبة إلى بوب سميث لأنه تمسّك بمعتقده، وكان مخلصاً للّذين اعتمدوا عليه. قامت لجنتنا في النهاية بما اعتبره كثيرون من المستحيلات: توصّلنا إلى استنتاجٍ بإجماع آرائنا، وهو الاستنتاج الذي دعمه جميع أعضاء مجلس الشيوخ الاثني عشر، وكان يمثّل لعدد كبيرٍ من العائلات؛ التي عاشت لعقود من دون الحصول على أي إجاباتٍ للأسئلة التي تدور في أذهانهم، نهاية لمأساتهم.

تعاون عددٌ من الذين عملوا في لجنتنا طوال سنوات، سواء من الديمقراطيين أو الجمهوريين، وموظفي البنتاغون، والوكالات الاستخباراتية، وخبراء الطب الشرعي، والموظفين العسكريين الأميركيين والفييتناميين الذين عملوا في ميادين المعارك، على التنسيق فيما بينهم. وقد جازفوا بحياتهم في بعض الأحيان، بهدف الحصول على أجوبة لأسئلة طال انتظار الإجابة عنها. لم يسبق لأي بلد في التاريخ، وفي كل الحروب، أن بذل هذا القدر من الجهد لمعرفة مصير كل المفقودين والأسرى خلال الحرب. ويُمكن للشعب الأميركي أن يفخر بما أنجزته فِرَقنا، وبما تستمر في إنجازه لإتمام هذه المهمة. لكن معظم الأميركيين لا يعرفون أن ثمة عسكريين أميركيين لا يزالون يتابعون البحث في فييتنام حتى في هذه الأيام. إننا لا نزال ننقب في مواقع سقوط طائرة سي- 130، أو طائرة فانتوم نفاثة، ومستمرّون في تسلّق قمم الجبال النائية، والبحث في الحفر ضمن حقول زراعة الأرّز. توجّهت في إحدى زياراتي لفييتنام إلى حقلٍ يموج بالخضرة قرب مزرعةٍ صغيرة. رأينا هناك سقالة خشبية، تؤدي نزولاً إلى منطقة محفورة حول طائرة سي- 130 كانت قد تحطمت ولم يُرفع حطامها بعد. نزلتُ إلى تلك الحفرة، وتملّكني إحساسٌ غريب بأنني أنزل إلى المقرّ الأخير لطاقم الطائرة، أي إلى مدفنهم. دفنهم الله في المكان عينه الذي ماتوا فيه، لكننا صمّمنا على إعادة رفاتهم إلى البلاد. تساءلت بيني وبين نفسي عن ظروف فقدانهم، وعما إذا كانوا قد ماتوا قبل اصطدامهم بالأرض، أو كان لديهم وقتٌ للإحساس بالرعب والهلع أثناء سقوطهم السريع نحو الأرض. وهل بقي أحدهم على قيد الحياة لفترة من الوقت؟ وهل اصطدمت الطائرة بالأرض بزخمٍ مكّنها أن تنغرز عشرين قدماً تحت سطح الأرض التي نمشي فوقها؟ كان الجنود يعملون بجهدٍ داخل الحفرة، ويغربلون التراب، ويمضون أوقاتاً طويلة في العمل، ويشرحون لي كيف أنهم سيطروا على عواطفهم وقاموا

بعملٍ شاقٍ في استعادة الرفات الذي كان ذات يوم فريقاً من الشبان الأميركيين عاقدي العزم يضحّون بالحياة في ساحة القتال.

دُهشت كثيراً لطريقة العمل الشاقة للتنقيب التي اتّبعها الجنود في العثور على بقايا القماش، أو الأسنان، وشظايا العظام، قبل قيام الطب الشرعي في مختبراتنا في هاواي، بإجراء تحقيقات من أجل التحديد القاطع لهوية صاحب الأشلاء. كانت نتيجة هذا الالتزام الضخم بالابقاء على الإيمان بالقيَم العسكرية الأميركية، سجلاً مذهلاً، تمثّل في إحضار بقايا ما يزيد على سبعمئة جندي، وإعادتها إلى البلاد، حيث كان الأهالي لا يزالون في حالة حداد، وهم الذين يستحقون الحصول على الأجوبة.

كان هذا العمل من الفرص النادرة التي تتاح للمرء في مجال الخدمة العامة، وهي إعادة شيء انتظره الناس طويلاً، وعلى فترة تزيد على العقدين من الزمن، أي راحة البال. أعني راحة البال التي تأتي نتيجة إقفال ملفٍ ما. لكن لم يكن ذلك هو المكافأة الوحيدة التي حصلنا عليها أنا وجون ماكين؛ فقد تمكّنا من خلال صداقتنا الجديدة، ومن خلال العمل الذي قمنا به، من إنهاء الحرب التي قامت على الحرب. لكن، إذا تمكّن أحد المحتجين، أو أحد أسرى الحرب السابقين من إيجاد أرضيةٍ مشتركة حول أصعب القضايا التي تثير الانقسام في البلاد، فإن إيجاد أرضية مشتركة لأي شيءٍ آخر لن يبدو صعباً على الإطلاق.

الفصل العاشر: زمن التحوّل

«سيناتور، لم يقل لي أي شخص أنا أحبك قبل مجيئي إلى هنا. ولم يكترث أي شخص لمعرفة المكان الذي أمضيت فيه الليلة السابقة» . كان محدّثي شاباً كبيراً وقوياً، طغى حجمه على وجهه الطفولي الذي تعلوه قبعةٌ صلبة. أخبرني الشاب بأنه ترك المدرسة قبل وصوله إلى المرحلة المتوسطة، كما وقع في مشكلات مع القانون غير مرة. لكن أحد القضاة عرض عليه اتفاقاً رأى فيه حلاً أفضل من تحويله إلى السجن مجدداً لتمضية محكومية أطول. قال له القاضي إن بإمكانه العودة إلى المدرسة لكي يحصل على شهادة الثقافة العامة عن طريق الدراسة الليلية. وهكذا يستطيع الحضور إلى مكان عمله هذا يومياً وفي الوقت المحدد، وأن يتعلّم في الوقت نفسه مهنة في غضون ثمانية عشر شهراً، وهكذا يفخر بأن يكون مالكاً لبطاقة عمل، وهو الأمر الذي يمكّنه من الانتساب إلى نقابة مهن الكهرباء، بالإضافة إلى نيله شهادة معادلة للدراسة الثانوية.

أذهلتني كلماته. كان الشاب في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، لكن لم يسبق لأحد أن تطلع في عينيه مباشرة ليقول له «أنا أحبك» . نشأ هذا الشاب وحيداً، أو بالأصح كانت الشوارع هي التي أشرفت على تربيته، وكان يسير على طريقٍ ذات اتجاهٍ واحدٍ تؤدي به إلى السجن. واستمرّ ذلك إلى أن تدخّل شخصٌ ما ليحدث كل الفرق في حياته. كانت دوروثي ستونمان هي ذلك الشخص، كما كانت مبشّرة إنجيلية تعمل لمصلحة برنامج أسمته بناء الشبيبة. حثّني صديقٌ مشترك على زيارة برنامج دوروثي في هارلم الشرقية في المرة التالية التي أذهب فيها إلى نيويورك، وقد اخترتُ هذا اليوم القائظ من تموز/يوليو لأقوم بالزيارة. رأيت وسط حيٍ فقير، وبين المنازل الفارغة المتناثرة على جانبَي الشارع، فريق بناء يعمل على ترميم بيتٍ حجري قديم. سبق أن قدّمت المدينة هذا المبنى غير الصالح للسكن، وتبرّعت بعض المؤسسات الخيرية بالمال، ثم جاء بعض المهنيين المنتسبين إلى النقابة لتعليم المراهقين، وأولئك الذين هم في العشرينات، المهن المختلفة. وكان

كل تلميذٍ من تلامذتهم قد جاء من مؤسساتٍ إصلاحية خاصةٍ بالأحداث، أو من برامج التحويل من المحاكم. وكان عدد غير قليل منهم يرغبون في الانضمام إلى هذا المشروع مودّعين العيش في الشوارع. كان جميع هؤلاء الشبان يقومون بتحويل منطقة متأزمة من المدينة إلى حيٍ سكني صالحٍ للسكن. يُضاف إلى ذلك أنهم كانوا يقومون، وللمرة الأولى، بتحويل أنفسهم إلى مواطنين بكل معنى الكلمة، ويستطيعون بذلك المشاركة في المستقبل، وأن يفعلوا ذلك مع قدرٍ كبيرٍ من المهابة واحترام الذات في حياتهم.

أشرق وجه دوروثي بابتسامة عريضة، بينما كان جيشها المؤلف من الشبان يروي قصصه. سألتُ دوروثي: كيف ابتكرتِ هذا المشروع؟ أجابت أنها سألت مجموعة من الشبان عن رأيهم في تحسين الحي الذي يسكنون فيه إذا ما حصلوا على بعض الدعم. جاء ردّهم سريعاً وواضحاً: «نريد إعادة ترميم البيوت في أحيائنا. سنستعيد الأبنية الفارغة من تجار المخدرات لترميمها والقضاء على الجريمة» . وهذا هو ما يقوم به هؤلاء الشباب بالضبط.

ذُهل ذهني السياسي على الفور: لمَ لا يكون هذا برنامجاً على صعيد البلاد بأكملها؟

أدركتُ على الفور العقبات التي سوف تعترضي. انتُخب رونالد ريغان رئيساً سنة 1980 وأعيد انتخابه مجدداً سنة 1984 بأغلبية كبيرة، وذلك تحت شعار «الحكومة ليست حلاً لمشكلتنا؛ الحكومة هي المشكلة» . لكن بعد مرور ثماني سنواتٍ عملَ خلالها ريغان على استصغار عمل الحكومة، عانت البلاد كثيراً نتيجة لذلك. استخدم الجمهوريون سياسة التفرقة بقدرٍ كبيرٍ من الذكاء والشدة، وسياسة الرسائل العنصرية الضمنية، وسواها من الوسائل. لكن المدن كانت تعاني لأسبابٍ حقيقية، وليس لأسبابٍ سياسية مصطنعة. يُضاف إلى ذلك أن الناس سئموا من عددٍ كبيرٍ من مشروعات المجتمع العظيم، وهي مشروعات الإنفاق الاجتماعي. وسمعت شخصياً، من رجال الشرطة ورجال الإطفاء في ماساتشوستس، الذين انتقلوا للسكن خارج الأحياء التي نشأوا فيها لأن المدارس العامة غير آمنة، ولأن نسبة الجرائم إلى ازدياد، ولأن المخدرات قد انتشرت في كل مكان، أنهم جميعاً كانوا يدفعون ضرائبهم بإخلاص، لكنهم أدركوا مع مرور الوقت أن النظام يعمل ضدّهم.

كان هناك ثمة خطأ ما، والواقع أن هناك عدداً كبيراً من الأمور الفاشلة. كانت وعود الحملة الانتخابية المستمرة بالضرب بيدٍ من حديد على أدوات الجريمة، مثل فرض الحد الأدنى من المحاكمات الإجبارية، وخصوصاً جرائم المخدرات، قد أسفرت عن حلقةٍ مفرغة في الجهاز القضائي. كان الشبان يدخلون السجون ويخرجون منها عاطلين عن العمل. تُرك الأولاد من دون آباء

ليكبروا في الشوارع. شاعت كذلك عقوبة الإعدام بشكلٍ هستيري. انتخبت ماساتشوستس سنة 1990 الحاكم الجمهوري بيل ويلد، النائب العام السابق، والذي تعهّد بتشديد الخناق على المجرمين، وقال إنه سوف يعيد عقوبة الإعدام، وسوف يضع المحكومين مقيّدين في مجموعات «تكسير الصخور» .

كرهتُ كنائب عام النقطة التي انتهى إليها الحوار. عارضتُ عقوبة الإعدام. ويعود ذلك غالباً إلى أنني رأيت عندما كنت نائباً عاماً كيف أن القانون كان ينفّذ من دون مساواة. كنت أشاهد في إحدى محاكم مقاطعة ميدلسكس كيف أن هناك جرائم يرتكبها الأغنياء ثم يخرجون من دون عقوبة بسبب محامٍ محنّك ضمنَ لهم فرصةً ثانية وثالثة، في حين أن الفقراء يعلقون في حلقة مفرغةٍ من المخدرات، والجريمة، والعنف. كانت حياة أولئك الفقراء تحت رحمة محامٍ متخمٍ بالقضايا ويتلقى مرتّبه من الدولة. أتذكّر في هذا المجال المجهود الذي بذله جورج رايسفيلدر لتخفيف حكم السجن المؤبد الذي ناله بسبب جريمةٍ لم يرتكبها. استنتجت عندها بأنه لو أُدين عن طريق الخطأ بجريمة لم يرتكبها في ولاية أخرى، لغادر السجن جثةً هامدة، وليس رجلاً حراً. التقيتُ كذلك مجموعة من الشبان الذين هم في أواخر سنوات مراهقتهم في روكسبيري. كانت الوظائف نادرةً في ذلك الوقت، وسألتهم كيف بإمكانهم إيجاد بندقية بسرعة إذا ما أرادوا الحصول على واحدة. لم يتردد الشبان، وأجابوا بسرعة: «[يمكننا الحصول عليها في] خمس ثوانٍ» . لكن، عندما أفتح المذياع في سيارتي على محطات الإذاعة، أسمع متصلّين وهم يصفون الشبان الأميركيين المتحدّرين من أصل أفريقي بأنهم متوحشون، ويردّدون الدعوات المألوفة للضرب بيد من حديد على الجريمة والرعاية الاجتماعية. كان كل ذلك مجرد اتصالات وردود عن الأمور المقززة والرفض. انتشرت في نشرات الأخبار تفاصيل المحاكمة في نيويورك التي أُطلق عليها اسم الخمسة في سنترال بارك. تعلقت القضية بخمسة شبانٍ من الملوّنين الذين أُدينوا باغتصاب مسؤولة في مصرف استثماري عندما كانت تمشي في المتنزه المركزي (سنترال بارك). ونشر أحد أبرز مطوّري العقارات من أصحاب الملايين في نيويورك صفحات إعلانية كاملة في جميع الصحف داعياً نيويورك إلى إعادة عقوبة الإعدام. كان اسم ذلك المليونير دونالد ترامب. استغرقَنا الأمر وقتاً طويلاً قبل أن نعرف أن الشبان الخمسة كانوا أبرياء.

تحوّل الخوف إلى وضعٍ سيطر على النقاشات السياسية، لكن آمالي تركّزت في احتمال أن يكون مشروع يوث بيلد (بناء الشباب) بديلاً جديداً من

نقاشٍ أشاع عدم الرضا في أوساطنا.

عدت إلى واشنطن، وبدأت العمل على مشروع قانون يسمح لمؤسسة يوث بيلد بتلقي تمويلٍ اتحادي. أُقرّ مشروع القرار هذا سنة 1991 مع دعمٍ من الحزبين، لكن التمويل الفعلي علق في عملية توزيع الحصص. كان ً من المحتمل ألّا تتحرك الأموال من خلال المسار التشريعي. وحتى إن تحركت، فمن المؤكد أنها لن تصل بالسرعة التي نأملها.

كان الوعد الرسمي بالتمويل الصادر عن الكونغرس وعداً غير قابلٍ للتحقّق بخصوص هؤلاء الشبان. لذلك نقلتُ القرار إلى لجنةٍ أخرى، وهي اللجنة الفرعية التي من مهماتها تخصيص الأموال لمشروعات الإسكان.

أخبرتني دوروثي ستونمان عن محادثة أجرتها مع شخصٍ يُدعى بروس كاتز، وهو المستشار العام للجنة الفرعية التي توجّهنا إليها. أخبرها المستشار العام أنه يحب يوث بيلد، لكن الأموال الاتحادية المخصصة للإسكان لن تذهب إلى برامج اتحادية جديدة. ختم المستشار بالقول: «ليس أمامكم أي فرصة للحصول على الأموال إلا إذا اهتم جون كيري بشأن هذا القانون، وهو عضو مجلس الشيوخ الذي يهتم بالمشروعات التي تهم الفقراء أكثر من أي عضوٍ آخر» .

تبيّن للمستشار أنني أهتم فعلاً بتلك المشروعات. اتصلت به، وحثثته على اهتمامه بالقرار. أدرك المستشار عندها أنني أنا ودوروثي لن نتراجع بسهولة.

فرض القانون تمويل مشروع يوث بيلد القومي. وتوسّع المشروع ليشمل جميع الولايات الخمسين تقريباً. تعوّدت خلال فترة تخصيص الأموال التجوال في قاعة مجلس الشيوخ لجمع التواقيع على رسالة تحثّ اللجان على زيادة الأموال المخصّصة للبرنامج. شارك الديمقراطيون والجمهوريون في هذا المسعى، وهكذا تزايد دعم المشروع في كل ولاية.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

كان الشبان أنفسهم أكبر المناصرين لمشروعهم. وهكذا التقيتُ شابةً أمضت ما يزيد على سنةٍ واحدة في السجن بسبب بيعها المخدرات، وكانت تعيش على الرعاية الاجتماعية عندما أسّستْ يوث بيلد. أما الآن، فهي تشغل وظيفة مشرف بناء مع شركة مقاولات مهمة. يعني ذلك أن الخسارة في البداية قد حدّدت حياة الشبان حتى الآن، وهم الذين تاقوا إلى العيش في

مجتمع الحي الذي نشأوا فيه، وهم يحققون ما أرادوا. لكنهم كانوا هم من يقوم بالعمل الصعب في إعادة بناء الحياة، حياتهم، وكذلك حياة أشخاصٍ عديدين آخرين. أما أكثر اللحظات التي شعرت فيها بالرضا بوصفي صانع سياسات، فقد كانت عندما أطلقت عليّ دوروثي ستونمان لقب «عضو مجلس الشيوخ عن يوث بيلد» .

تمكّنّا من إنجاز شيء بالطريقة التقليدية، أي صوتاً بصوت، وشخصاً بشخص. لكنني لا أزال أتساءل حتى هذا اليوم: كم من الأشخاص الطيّبين، من أمثال دوروثي ستونمان، الذين يمتلكون أفكاراً جيّدة لإنقاذ حياة الشبّان، تراهم عالقين في الخارج، وظلّوا يطّلعون على ما يجري في الداخل، في ظل سياسات واشنطن المتحيِّزة وجمودها، وسياسات الاستقطاب الحالية؟

كان لقائي تيريزا للمرة الأولى سنة 1990، ودام فترة وجيزة، عندما عرّفني بها زوجها جاك هاينز ونحن ننتظر دورنا لإلقاء كلماتٍ بمناسبة الذكرى العشرين ليوم الأرض، التي أقيمت أمام مبنى الكابيتول. سمعت من زملائي أن زوجة جاك متحدثة لبقة وذكية ومرحة. لكننا في ذلك اليوم بالذات لم نحصل على فرصةٍ لإجراء أي حديث، غير تبادل التحيات وسط هرج ومرج حشود الناس المحتفلين بهذه المناسبة.

التقيت تيريزا في المرة التالية في مأتم زوجها جاك سنة 1991. سافر في ذلك الوقت ما يزيد على نصف أعضاء مجلس الشيوخ في طائراتٍ تابعة للقوات المسلحة إلى بيتسبورغ، للمشاركة في مراسم الجنازة التي أُقيمت في كنيسة هاينز الصغيرة الواقعة قرب حرم كارنيجي ميلون. مرّت الحافلات من أمام الحديقة العامة التي تقع في ملتقى نهر مونغاليا مع نهر أليغاني اللذين يختلطان، من ثم، في نهر أوهايو الذي كان نقطة البدء الشهيرة لرحلة لويس وكلارك الاستكشافية. جلست داخل الكنيسة الصغيرة المزدحمة في المقصورة المخصصة لأعضاء مجلس الشيوخ. كانت المقصورة مكاناً يتميز بخصوصية مدهشة وبالفخامة والجمال. وكانت الموسيقى قوية وسرحتُ بتفكيري إلى اليوم الذي مات فيه جاك، أي في الرابع من نيسان/إبريل. كان مجلس الشيوخ في فترة عطلة الربيع، وكنتُ ذلك الوقت في ماساتشوستس أقوم بجولة في أنحاء الولاية بهدف الاتصال مع الناخبين من خلال جولات استماع، وزيارة القاعات العامة ومختلف الاجتماعات. كنت في سيارتي متوجهاً إلى اجتماعٍ آخر في وادي ميريماك الذي لا يبعد كثيراً عن حدود نيوهامبشير. وفجأةً قطعت محطة الإذاعة التي كنت أستمع إليها برنامجها المعتاد لتعلن أن جاك هاينز، عضو مجلس الشيوخ عن بنسلفانيا، قُتل في حادث تحطّم طائرة صغيرة قرب فيلادلفيا. كان الخبر صادماً لأسبابٍ عدة،

ومنها أن جاك كان عضواً لامعاً وموهوباً في مجلس الشيوخ، وهو الشخص الذي اعتبر الجميع أنه قد يرشّح نفسه لرئاسة الجمهورية. كان رب أسرة استثنائية في بنسلفانيا، مؤلفة من ثلاثة أولاد وجدوا أنفسهم فجأة من دون والد. أما الولاية، فقد فقدت ابنها المفضّل. شعرت بثقل الخسارة على الأخص لأن جاك جلس قبل عطلة عيد الفصح في مكتبي لمدة ساعة تبادلنا خلالها الآراء حول كيفية التعاون في مسألة إصلاح القطاع المصرفي. لكنه رحل الآن.

عزّز موته، الذي اعتبرته غير منصف، من قوة صدمتي، أما الأعضاء الآخرون في الكونغرس فقد عاشوا لحظة «إنني أرحل لأدخل في نعمة الرب» ، فنحن جميعاً نسافر بطائرات صغيرة، لأننا «مضطرون أن نصل إلى هناك بأي ثمن» .

عندما سمعت الأخبار في محطات الإذاعة كان أول رد فعلٍ عندي هو التوجّه مباشرة إلى كلية سانت بول، التي لم تكن بعيدة جداً عن المكان الذي كنا فيه. قمت بذلك لأنني كنت أعرف أن كريس، وهو الابن الأصغر لجاك، كان هناك. واعتبرت أنني، كعضو في مجلس الشيوخ، وبوصفي صديقاً شخصيًّا لجاك، أملك فرصة تقديم بعض العزاء إلى الأسرة. لكنني، من ناحية أخرى قلت في نفسي: بما أنني لا أعرف كريس، فإن وجودي، أو وجود أي شخصٍ آخر، قد يزيد من حزنه. اعتقدت كذلك أنه ليس مضطراً إلى تحمّل وجود أيّ عضو لا يعرفه في مجلس الشيوخ. لكنني تذكّرتُ والدي والصدمة القوية التي تلقاها بسبب خسارته لوالده وتأثيرها به مدى الحياة.

بدأت مراسم الجنازة وفكّرت بما حدث. رأيت تيريزا عند دخولها إلى الكنيسة، لكنّني لم أرها في الواقع، بل رأيتُ مجموعة من أربعة أشخاص يمسك بعضهم أيدي بعض، ويشبكون أذرعهم، ويتحركون ككتلةٍ متزحلقة واحدة، وبوتيرة بطيئة. كان كل منهم غارقاً في حزنه، وكأنه يلتمس حياته من رفيقه الذي يكاد يلتصق به، لكي يستعين به على اجتياز الساعة المرتقبة التالية. تأثرتُ تأثراً عميقاً بهذه الحميمية التي أظهروها، والتي تكاد تخفي الوعي بالذات عندهم. كانوا هناك مندمجين بعضهم ببعض، وهو ما يجب أن يكون الأمر عليه.

التقيتُ تيريزا لبرهةٍ قصيرة، وهي تقف في صف تقبّل التعازي في منزلها بواشنطن، بعد الانتهاء من الحفل التأبيني الذي أُقيم في الكاتدرائية الوطنية. لم أرها إلا بعد مرور سنة على ذلك، حين التقينا في ريو دي جانيرو، خلال قمة الأرض التي انعقدت في نيسان/إبريل 1992. لم نتبادل أي محادثة حقيقية قبل لقائنا في ريو دي جانيرو. وحينها بدأتُ بمعرفة المرأة التي تزوّجتها بعد مرور ثلاث سنوات.

جلسنا متحاذيين في حفل عشاء أقيم لوفدنا في قمة الأرض. وكان أعضاء مجلس الشيوخ فرانك لاوتنبيرغ وكريس دود وجون وارنر ولاري بريسلر من ضمن ذلك الوفد. التقينا جميعاً في مطعم يقع وسط ريو. وهناك تبادلنا الآراء والمزاح طوال ذلك العشاء الترحيبي. كانت تيريزا مرحةً، وأنيقة، ومفعمة بالحيوية. يُضاف إلى ذلك امتلاكها طريقة مدهشة للتواصل من خلال عينيها. كانت تتكلم ببريقٍ عكسَ مجموعةً من المشاعر ومستويات مزاجٍ مختلفة. تبادلنا في ذلك اللقاء الملاحظات الهادئة حول مرافقينا باللغة الفرنسية. اعتبرتُ ذلك اللقاء بمثابة انفتاح بابٍ لكلينا، لكنه كان باباً على رحلةٍ معقدة في الجانب الآخر. لم يرَ أحدنا الآخر لفترةٍ من الزمن بعد ذلك. وأعتقدُ أننا كلينا كنا خجلين بعض الشيء، كما كان لكلٍ منا أسبابه الخاصة للتحرك ببطء.

كان موت زوج تيريزا يعني أنها أصبحت مسؤولةً عن أسرتها، بل أكثر من ذلك قليلاً. كان ولداها الأكبر سناً، جون وأندريه، في الجامعة، بينما كان كريس على وشك الالتحاق بجامعة يال، وهي الجامعة التي تخرّج فيها جاك. وهكذا شعرتُ بالحاجة أن تكون قرب أولادها الذين حافظوا على استقلالية معينة. يُضاف إلى ذلك أنها تسلّمت مسؤولية إدارة مؤسسة هاينز الخيرية، وهي مسؤولية كبيرة ورهيبة. وهكذا لبّت الطلبات التي وُجّهت إليها للمشاركة في عددٍ لا حصر له من المؤتمرات والمناسبات. كذلك مثّلت الأسرة في تولي العديد من المسؤوليات العامة. يُضاف إلى ذلك أنها تلقّت اقتراحاً يقضي بقبول تعيينها في مجلس الشيوخ، ثم ترشيح نفسها بعد ذلك في الانتخابات الخاصة التالية. كان المقعد بتصرّفها إذا أرادت، وهو الأمر الذي حدث مراتٍ عديدة في تاريخ البلاد، أي عندما تتقدم أرملة عضو مجلس الشيوخ لتشغل مقعد زوجها. لكن تيريزا أدركت أن بإمكانها أن تنجز أموراً خارج المجلس أكثر مما تستطيع إنجازه داخله. أسهم إدراكها ذاك مع مسؤولياتها داخل المنزل في تحديد خياراتها التالية.

وأنا من جهتي، الوالد المطلّق، كنت أقوم بتربية ابنتَيَّ بمفردي، وكانت إحداهن في المدرسة الثانوية في ذلك الوقت، والثانية على وشك الالتحاق بها. تابعتُ في تلك الفترة التنقّل بين واشنطن وبوسطن. ويمكنني القول إنني، طوال الأعوام الثمانية عشر التي كنت فيها عضواً في مجلس الشيوخ، لم أمضِ عطلة نهاية أسبوع واحدة في واشنطن، إلّا في بعض الحالات النادرة التي يكون فيها مجلس الشيوخ منعقداً. كنتُ أعود إلى الولاية على الدوام، إلا إذا كنت أقوم بجمع التبرعات في مكانٍ ما، أو إذا كنتُ في رحلة عمل، وكنت أعود حتى ليوم واحد أو بضع ساعاتٍ. والواقع هو أنني، طوال الأعوام الثمانية والعشرين التي تشرفت فيها بالخدمة في

مجلس الشيوخ، وهي الفترة التي لم أكن أتردد فيها كثيراَ على ماساتشوستس، لم أبقَ إلا نادراً في واشنطن لتمضية عطلة نهاية الأسبوع.

عثرتُ عندما انتُخبتُ سنة 1984، على منزلٍ يحتاج إلى بعض الإصلاح يقع في الشارع الثالث NE، وعلى بُعد بلوكٍ واحدٍ من مكتبي، الأمر الذي أراحني كثيراً، لعدم اضطراري إلى استخدام السيارة للوصول إلى المكتب. تسلّيتُ كثيراً، لأنني أدّيت دور المهندس المحبَط، لكنّني أعدتُ تصميم المنزل بأكمله. وهكذا أنشأتُ ما اعتبرته الغرفة الكاملة للفتيات، وتصوّرت أنني سوف أتمكّن من أن أكون في واشنطن معهما، في الوقت الذي أتقاسم فيه مع جوليا مسؤوليات تربيتهما. لكن ذلك كان خطأً سخيفاً في الحسابات إزاء ابنتيَّ. أعتقد أن الفتاتين رفضَتا عرضي بالمجيء مرتين! يبدو أنني أسأت فهم برنامج المراهقات الاجتماعي. كانت فكرة انتقالهما بالسيارة للبقاء مع والدهما من دون أصدقائهما أمراً غير مسبوق. دفعني الأمر إلى بيع المنزل لزميلي في مجلس الشيوخ عن فلوريدا بوب غراهام، وشراء شقة في بوسطن.

كنت نتيجةً لذلك أتردّد باستمرار على بوسطن، وأزاول واجباتي كعضوٍ في مجلس الشيوخ. اعتبرت تيريزا ذلك شيئاً جديداً، لأن بيتسبيرغ كانت أقرب، ولأن أسرة جاك كانت تعيش معه في واشنطن، أي إنه يستطيع تحقيق برنامج عمله بصورةٍ أكثر فاعلية. تسبّب هذا الوضع ببعض التوتر في بداية علاقتنا الناشئة، لأن من الصعب جداً التنسيق بين التنقلات المستمرة، وتحقيق توقعات الجميع، أعني توقعات تيريزا، وابنتيّ، وأسرتينا. يُضاف إلى كل ذلك متطلباتي السياسية ورغباتي الشخصية. أما الشيء الأهم الذي تفعله السياسة، فهو وضع ضغوطٍ كبيرة على الوقت، وبالتالي على الأسرة. لكنّني لا أستطيع القول إن ذلك يجري من دون ثمنٍ يدفعه الجميع تقريباً بسبب تلك الضغوط. بيد أنني لم أستطع أن أفعل ما استطعتُ فعله في الحياة العامة من دون الدعم الاستثنائي والتفهّم اللذين حظيت بهما من كل فردٍ من أفراد أسرتي. لم يقتصر الأمر على مَنْحي التعاطف مع كل مسعى قمتُ به، بل بتضحيتهم جميعاً بجزءٍ ما من ذواتهم.

كان ذلك شيئاً لا أعتقد بأن الجمهور يعرف عنه بما فيه الكفاية، أقصد الأعباء التي تتحمّلها أُسَر الذين يختارون العمل في الخدمة العامة. تبدأ هذه الأعباء بالانتقادات غير المنصفة وغير المطلوبة التي يلاقونها في طريقهم، وهي الانتقادات التي تكون أحياناً قاسية ومخيفة، وكذلك الوقت الضائع. يعني ذلك أن أحداً من العاملين في القطاع العام لا يستطيع الاستمرار إذا لم تكن أسرته مستعدة لتحمّل المصاعب التي ترافق متطلبات الحياة العامة. أما

أولئك الذين يشغلون منا مراكز رفيعة، فإنهم لا يشعرون بذلك العبء بذلك القدر الذي تشعر به أُسَرنا، لأن هذا هو ما اخترنا أن نقوم به.

تسلّمت قبل أربع سنوات فقط، أي في سنة 1988، مرسوم طلاقي النهائي، بعد رحلة مضنية بدأتْ مع الانفصال عن زوجتي، والعودة الجزئية عن الانفصال، ثم الانفصال شبه النهائي. أطبقت المقصلة في النهاية على زواجٍ بدا ذات يوم زواجاً طبيعياً جداً ومثمراً.

لكن الطلاق مريعٌ، بغضّ النظر عمّا إذا كان ضرورياً، أو إذا جاء من جهةٍ أخرى أكثر إشراقاً في يوم من الأيام. إنني أعرف أشخاصاً لا يستطيعون الانتظار للحصول على الطلاق لأنهم توصّلوا إلى استنتاج أنهم اقترفوا أخطاءً فظيعة. يتحرّك بعض هؤلاء بسرعة وكأنهم يقومون بنزع معطفٍ ليستبدلوا به معطفاً آخر. لكن، بالرغم من أنني كنت أعرف جوليا قبل الزواج الذي كان مضطرباً، وكنا في مسارَين منفصلين فإنني لا أزال أعتبر أن الطلاق هو أكثر المواقف العاطفية قسوةً، وإثارةً للألم الذي مررت به. وعند وجود أولادٍ صغار فإن الأمر يصبح أسوأ كثيراً. وهكذا، عندما علمتُ بأن زواجنا قد انتهى، كنت كسير الجناح في ذلك الوقت، ويعود ذلك جزئياً إلى خسارة بعض الإحساس القوي من معنى الزواج عندي. وهكذا لم أتمكّن من التخلّص من الإحساس القوي أن الأمر كله مجرد إخفاق.

برز كذلك سببٌ آخر جعل الأمور أكثر صعوبة مع بداية تطور العلاقة بيننا. عاشت تيريزا قصة حبٍ استمرت ما يزيد على سبعٍ وعشرين سنة، انتهت قبل وقتها بسبب حادثٍ لا معنى له. لكنّني أعتبر أن كل حادث هو بلا معنى، إلّا أن بعض الحوادث تفتقر إلى المعنى أكثر من سواها. لكن عندما يأتي الحادث من دون إنذار، فلا يُمكن تجنّبه كلياً مع أن ذلك لا يبدو وارداً كما أن من الصعب أن يتعايش المرء مع الفترة التي تليه. وهكذا، بعد مرور عامين، شعرتُ بثقل الخسارة التي أصابت تيريزا. كان عليّ انتظار بضع سنوات قبل حصولي على قرار الطلاق؛ لكنني كنتُ أواعد امرأة أخرى بين وقتٍ وآخر، وهكذا لم أكن متأكداً بشأن علاقة جديدة وجدية معها.

وبغضّ النظر عن الجروح أو الأثقال التي نحملها، فإن الزمن لا بُدّ أن يفرض إرادته؛ جمعتنا رغبة أن نكون معاً وقتاً أطول، وحرصنا على تحقيق ذلك. وغدونا نتشارك في أوقاتنا بانتظام. وطراً تغيُّر على وجهات نظرنا راح يطّرد، كانت هي أوّلاً؛ غير أننا كلينا كنا نشعر بالرضى. وهكذا انفتحت علاقتنا على جملة من الاحتمالات الجديدة.

غدونا نتقارب أكثر فأكثر، من خلال تقاسم مختلف جوانب حياتنا. كانت تيريزا مهتمة بأولادها الشبان، بينما كنت مهتماً بابنتيّ. لكننا شعرنا بالسرور عند استكشافنا اختلافاتنا غير الواضحة. اكتشفنا رابطة قوية في هواياتنا، مثل حبّنا للسفر من أجل استكشاف المجتمعات الأخرى وعاداتها مثل الطبخ، والاستمتاع بالوجبات اللذيذة مع النبيذ الفاخر؛ وكذلك استكشاف فن العمارة والموسيقى؛ ومن أجل قضايا السياسة والبيئة. أما تيريزا التي وُلدت في موزامبيق من أبوين يتحدّران من أصلٍ برتغالي، فكانت تجمع المزايا الإفريقية والمتوسطية في الوقت نفسه، أي أنها مفعمة بالفضول، والحيوية، والاهتمام بالآخرين.

سافرنا في أيلول/سبتمبر إحدى السنوات إلى أوروبا، وتوقفنا في لندن قبل أن نكمل رحلتنا إلى باريس. استأجرنا سيارة، وقدناها إلى بريتاني لكي أتمكن من تعريفها بليزارتس. كنا في أوائل فصل الخريف، حيث بدأت أوراق الأشجار بتغيير ألوانها، لكن الطقس كان لا يزال دافئاً، وكانت الأمسيات طويلة. انحرفتُ في طريقنا بالسيارة لكي أصطحبها إلى شواطئ النورماندي. لم يسبق أن زارت تيريزا هذه المنطقة من قبل. لذلك أردتها أن ترى ذلك الجمال الساحر، وأردتها أن تشعر بالدهشة ذاتها التي أشعر بها في كل مرة أزور فيها تلك المنطقة.

لم تكن تلك المنطقة مكتظة بأعدادٍ كبيرةٍ من الناس لأننا كنا في أيلول/ سبتمبر. وكان المنظر مدهشاً كالعادة. سرنا وحيدين تقريباً بين لوحات نُقشت بالنجمات السداسية، كما نُقشت فيها أسماء الموتى وتواريخ وفاتهم، فغمرتنا رهبة المكان العاطفية والتاريخية. مضينا في طريقنا إلى قسمٍ شبه مهجور من الشاطئ الذي نزل فيه الجنود في دي- داي [غزو النورماندي في الحرب العالمية الثانية] جلسنا فوق صخور من حافة الشاطئ. كان المدّ آخذاً بالارتفاع، وصرنا نقيس كل موجة أثناء اقترابها من الصخور أكثر فأكثر.

جلسنا مسحورين بسكون المكان وجماله. وجلس قربنا رجلٌ أكبر مني سناً وإلى جانبه امرأة افترضنا أنها زوجته. كانا متعانقين وأنظارهما موجهة نحو المياه من دون أي حراك. وكانا غارقَين بأفكارهما. راودني شعور مؤكد أنه واحد من قدامى المحاربين، وأنه شخص نجا من ذلك الهبوط غير العادي بالطائرات، ولا بد من أنه قد عاد طلباً للسكينة. وربما عاد يتذكر أصدقاءه الذين فقدهم في هذا المكان بالذات. وقف الرجل بهدوءٍ ولكن بإصرار، وبدأ بنزعِ ثيابه قطعةً قطعة. رأيناه عارياً تماماً. مشى متوجهاً نحو المياه مباشرةً بعد أن ضغط على يد زوجته. لم يشعر الرجل بالخجل، أو بالحرج، وكان غارقاً في ذكرياته ومركّزاً في ما أراد أن يقوم به من دون أن ينتبه لوجود أي شخص

آخر يقوم بمراقبته. بدا لنا أنه يقوم بطقوس تطهير الذات، وذلك حين سمح للأمواج بحمله وبإبعاده تارة وتقريبه تارة أخرى، أي كما فعلت هذه الأمواج بجثث الجنود قبل أن تعود في النهاية، وبعد انتهاء المعركة، إلى الشاطئ.

جلست أنا وتيريزا بأيدٍ متشابكة، وراقبنا المشهد بصمت، وكنا جامدَين في تلك البقعة من الشاطئ، وكأننا سوف نبقى هكذا إلى الأبد. بقيتْ هذه اللحظة في ذاكرتي، وحتى هذا اليوم، واحدة من أكثر اللحظات تأثيراً وجمالاً من تلك التي شهدناها معاً. كانت تلك اللحظة روحانية ونعمة لنا.

مرّ وقتٌ ليس بطويل قبل أن نبدأ، أنا وتيريزا، محادثةً حول حياتنا معاً. بدا الأمر واضحاً لكلينا من دون طلبٍ رسمي: كانت هذه هي حياتنا، أي إننا سوف نكون معاً. لم تكن هناك كلمة «إذا» . تزوجنا يوم التذكار [موتى القوات المسلحة] الذي صادف يوم 26 أيار/مايو من العام 1995، بحضور أفراد أسرتينا وأصدقائنا. جرى الاحتفال في منزل تيريزا في نانتوكيت. كان الجو بارداً مع هبوب بعض الرياح. وقع اختيارنا على نانتوكيت لأن المكان كان يحمل معنىً خاصاً لكلينا. أحضرت تيريزا وجاك أولادهما إلى الجزيرة منذ الأيام الأولى لحياتهما معاً. استأجرا منزلاً في البداية، ثم بذلا جهوداً كبيرة لإعادة بناء منزلهما الخاص الذي نشأ أولادهما فيه، واستمتعا بجزيرة نانتوكيت قبل أن تصبح معروفة ومكتظة بوقتٍ طويل. وأنا شخصياً زرتها مع والدي مراتٍ عديدة. واستمتعتُ فيها بقضاء أيام إجازة نهاية الأسبوع مراتٍ عديدة مع أصدقائي. جرى حب الكايب [رأس الجزيرة] والجزر في دمي منذ نعومة أظفاري. اختزنا ذلك اليوم، وسيطرت علينا مشاعر جاوزت بهجة الزواج. وهكذا صهرَ ذلك اليوم الماضي، والحاضر، والمستقبل.

غنّى جوني، وأندريه، وكريس، خلال الحفل أغنيةً ألمانية رائعة على شرف تاريخ أسرة هاينز. أما ألكسندرا وفانيسا فقد قرأتا بعض القصائد، وبعض الصفحات من الكتاب المقدس. وتبادلت أنا وتيريزا عهود زواجنا بعد كتابتها، ثم استمتعنا بوليمة رائعة في سياسكونسيت. سافرنا في اليوم التالي إلى وادي نابا لقضاء خمسة أيام في عزلة قبل العودة إلى واشنطن.

عمدنا إلى الاستقرار أنا وتيريزا كشريكين تزوجا حديثاً، ودمجنا أسرتينا. وتعلمنا كيفية تقسيم حياتنا بين بوسطن وواشنطن وبيتسبورغ.

عملنا معاً على تشييد منزلنا الجديد في ماساتشوستس. أردتها أن تشعر مع أولادها بأنهم في منزلهم بمدينتي. وكنت أدرك جيداً أن بوسطن

يُمكن أن تكون مكاناً قاسياً للساكنين الجدد فيها. وكان تغيير تصميم المنزل الحجري الريفي الذي اشتريناه معاً قد ركّز طاقاتنا في شيء استمتعنا به معاً. أسهم ذلك العمل في إظهار موهبتي الدفينة كمهندس. كانت تلك الأوقات مميزة، لكنها كانت بالمقابل فترةً للتكيّف. وبطبيعة الحال امتلكت تيريزا إحساساً أفضل بالأولويات ممّا كان لديّ في حياتي التي عشتها كعازب. اشتملت أولى الأيام التي عشناها معاً على توازنٍ جديدٍ من التوقعات بشأن العمل، والأسرة، والاستراحة من السياسة.

حرصتُ أنا وتيريزا خلال هذه الفترة على تخصيص الوقت لنا كلينا. ودرجنا على قضاء عطلة نهاية الأسبوع في مزرعتها في بيتسبورغ. وكنا أحياناً نتناول طعام العشاء في مطعمٍ هادئ قرب مجلس الشيوخ. لكن في مساءات الصيف الدافئة، وعندما أكون منشغلاً في جلسة تصويتٍ متأخرة في كابيتول هيل، كانت تيريزا تنضمّ إليّ، ثم ننتهز فرصة الاستراحة لنتسلّل خارجاً. درجت في تلك الأوقات على إنزال سقف سيارتي الدودج ذات السقف القابل للطي، وذات اللون البني، ثم كنا نتوجه إلى باراكس رو لتناول عشاءٍ سريع في مطعمٍ سلفادوري صغير، اكتشفته عندما كنت عضواً جديداً في مجلس الشيوخ. استمتعنا كثيراً بتلك النزهات البسيطة، وخصوصاً أنا، لأنني كنت منفصلاً عن زوجتي، ثم عشتُ عازباً مع ابنتيّ وأقرب أصدقائي وأقربائي في بوسطن، وهكذا شعرتُ على الدوام بأن واشنطن كانت مكاناً مؤقتاً لي. كانت هي المدينة المركز، ومكان العمل الذي يكون فيه المرء على الدوام، والذي يستعرض فيه أمكنته عندما يريد الخروج لتناول العشاء أو لحضور عرضٍ ما. اكتشفتُ أيضاً أن واشنطن ليس فيها وقتٍ للراحة. لكن تيريزا تمكّنت من تسهيل الأمور. وهكذا أصبحت المدينة مكاناً يجاوز مقر العمل. كذلك شعرتُ أنني أصبحت أكثر استقراراً فيها، بوجود تيريزا.

لكن تلك الفترة لم تستمر طويلاً جرّاء حدث يشبه الصدمة. بدأ الأمر بانتشار شائعة مفادها أن الحاكم بيل ويلد يستعد لمنافستي في الانتخابات القادمة لمجلس الشيوخ، والتي من المقرر إجراؤها سنة 1996.

بدا لي فجأةً أن الهدف الذي وضعته، وهو «توازن العمل والحياة» أشبه ما يكون برغبةٍ بعيدة المنال.

يعني ذلك أنني، إذا أردتُ الاستمرار في مهمّتي بخدمة ماساتشوستس، فسوف أضطر إلى الانقطاع عن عملي؛ وسوف يكون تحقيق التوازن الدائم، على مدى أربعٍ وعشرين ساعة وطوال أيام الأسبوع، أمراً مختلفاً كلّيًّا. ويتضمّن ذلك التحايل لجمع التبرعات، والقيام بالجولات الانتخابية،

والعمل في واشنطن، بالإضافة إلى ضرورة الحضور في ماساتشوستس في كل الأوقات الممكنة لترجمة ذلك العمل في الولاية التي أمثّلها.

يُعتبر العمل في السياسة تقليداً مجيداً في ماساتشوستس. وقد تمكّن آل كينيدي من كتابة فصولٍ عديدة من ذلك التقليد، لكنهم ليسوا الوحيدين. ولا يمكننا القول أن يكون من قبيل المصادفة اعتبار الولاية من أكثر الولايات التي أنجبت مرشحين رئاسيين، ورؤساء مجلس نواب، ووزراء في الحكومة، من كلا الحزبين. يمكننا القول، والحالة هذه، إن ماساتشوستس تختبر أولئك الذين يريدون خوض الحياة العامة وتعلّمهم.

تُعدّ ماساتشوستس من أشد الولايات دعماً للحزب الديمقراطي، التي يُعتمد عليها، وهو أمرٌ معروفٌ في كل أنحاء البلاد. ويرى كثيرون أن الولاية التي أعطت أميركا آل كينيدي، والتي انتخبت مايكل دوكاكيس، يجب أن تكون داعمةً للحزب الديمقراطي بشكلٍ لا يُمكن اختراقه. لكن سبعة من أصل آخر عشرة حكامٍ للولاية كانوا من الحزب الجمهوري. كانت ولايتنا ثاني ولاية في البلاد تصمد خلال الثورة التي استهدفت الضريبة المفروضة على العقارات، أي اقتراح فرض نسبة اثنين ونصف بالمئة. كما أن رونالد ريغان قد حقّق النصر للولاية مرتين.

واليوم دخل الحاكم بيل ويلد مجال المنافسة على أرفع منصبٍ في الولاية التي تُعدّ المركز الأساسي لاختيار مرشحي الحزب الجمهوري لمنصب الحاكم.

دخل وليام فلويد ويلد هذا المعترك مسبوقاً بتاريخ أسرته. وهناك مبنيان في هارفرد يحملان اسم آل ويلد. انضمّ بيل إلى إدارة ريغان ليشغل مركز النائب العام الاتحادي، الذي يريد أن يضرب المجرمين بيدٍ من حديد، ويقضي على الفساد في القطاع العام، بعد أن خاض سباقاً محموماً على منصب المدعي العام في ماساتشوستس. أقدم ريغان بعد ذلك على ترقيته إلى وظيفة في وزارة العدل. وهكذا تقاطعت واجباتنا المهنية، إن لم تكن مساراتنا.

عندما كنتُ عضواً جديداً في مجلس الشيوخ، وضغطتُ بشدة لكي تقوم الولايات المتحدة بقطع روابطها مع حاكم باناما، مانويل نورييغا، الذي كان متورطاً بتهريب المخدرات، كان ويلد هو الذي تسلّم في النهاية مسؤولية تطبيق القانون في محاكمة نورييغا. انضمّ ويلد في وقتٍ لاحق إلى مسؤولين كبار في وزارة العدل في عملية الانسحاب من المحاكمة احتجاجاً على المخالفات المالية للنائب العام إدوين ميسي، وكان ذلك عملاً يدل على الجرأة

السياسية. وضمنت عناوين وسائل الإعلام المثيرة عودة بطولية لمصلحة ويلد عند ترشّحه مجدداً بوصفه شخصاً من خارج الولاية وضع منصب الحاكم نُصبَ عينيه.

أما المفارقة بشأن ويلد، فقد كانت أن سمعته اللامعة وميزته المتألقة تمثّلتا في سلوكه اللامبالي والجذّاب. كان الرجل مراوغاً بطرقٍ اعتبرتها وسائل الإعلام، والسياسيّون المحليون، في غاية الوقاحة. بدا الأمر وكأننا أمام «وليام ف. ويلد، النائب العام للولايات المتحدة» ، وذاته الأخرى، والذي أطلق عليه أحد كتّاب المقالات، وعن جدارة، لقب بينك فلويد. أما بيل ويلد الآخر فقد أصغى إلى الموتى الشاكرين، وكتب الرواية، ولعبَ البوكر حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، كما أدمن تدخين الحشيشة خلال سنوات دراسته الجامعية. كان شعره الأشعث أحمر اللون، ويُحتمل أن يرجع ذلك إلى أصله الإيرلندي. ولم يكن يمتعض إذا ما امتلك أي مراسل سبباً ليتساءل إن كان يعاني من تأثير ليلةٍ ويلدية قضاها في الاستمتاع بتناول المشروبات الخمرية اللون. بدا ويلد وكأن هالةً عجيبة ترافقه أينما ذهب. في العام 1990 الذي بدا عاماً غريباً، كنت مرشحاً لإعادة انتخابي، بينما كان ويلد المرشّح الجمهوري لمنصب الحاكم. كان منضبطاً وملتزماً شعاراتٍ تقليدية، مثل تخفيض الضرائب، والمسؤولية المالية، وإصلاح التقديمات الاجتماعية، ومحاربة الجريمة. انقسمت أصوات الناخبين في ليلة الانتخاب إلى قسمين: فزتُ أنا بنسبة مقبولة تقارب 55% من الأصوات، بينما تمكّن ويلد من تجاوز المرشح الديمقراطي بفارق بسيط.

ظهر التوافق على الفور بيني وبين ويلد، وكنّا من الجيل ذاته، وكلانا كان نائباً عاماً سابقاً، وكنا نستمع إلى نوع الموسيقى ذاته، ونتكلم اللغة ذاتها. يُضاف إلى ذلك أن بناتنا كنّ في الصفوف الجامعية ذاتها. وهكذا طلبتُ من ويلد الانضمام إليّ في الدعوة إلى قمة اقتصادية تجمع الحزبين، يكون موضوعها الأزمة المالية في الولاية. وضعْنا السياسة جانباً، وبحثنا في عُمق القضايا المهمة. وقد ساهمت القمة في تدعيم سمعة بيل عند النواب الديمقراطيين.

لاحظتُ أنا وبيل بعد مرور أربع سنوات أن مساراتنا السياسية تتقاطع مجدداً. لكنني كنتُ في هذه المرة هدفاً سياسياً له. أُعيد انتخابه لمنصب الحاكم وسط المدّ الجمهوري الذي ساد سنة 1994، وفاز بنسبة 71% من الأصوات، بالرغم من توزّع الأصوات في ماساتشوستس. وهكذا تمكّن تيد كينيدي من إلحاق الهزيمة بمرشّحٍ يُدعى ميت رومني في تلك السنة بالذات، بفارقٍ 20 نقطة تقريباً. كان الفوز الكاسح الذي حقّقه بيل قد جعل منه نجماً لامعاً في كوكبة الجمهوريين. وأسفرَت سيطرة الجمهوريين على مجلسَي

الشيوخ والنواب تلك السنة عن وضع القضايا التي تبنّاها بيل في واجهة برنامج الكونغرس وصميمه. وهكذا شرع في إبلاغ الناس أنه يريد الذهاب إلى واشنطن والانضمام إلى ثورة الجمهوريين.

كان ذلك يعني وقوفنا في مسارٍ تصادمي.

أدركتُ منذ البداية أن السباق نحو مجلس الشيوخ سوف يكون سباقاً يراقبه المواطنون بأكبر قدرٍ من الدقة. لكن يوم من أيام تشرين الثاني/نوفمبر 1995، أعلن فيه بيل عن برنامجه، اختفى كل مظهرٍ من مظاهر التعاون السابق الذي حدث بيننا. قال بيل: «ليس هناك شخص يمتلك سجلاً انتخابياً أسوأ مني» ، كما أثار المزاعم القائلة إن الأصوات التي نلتها قد أظهرت أنني «أختلف مع مواطني ماساتشوستس» على بعض أهمّ المسائل الراهنة. لكن مجرد استماعي إلى مزاعمه أثار عندي غريزة التنافس الانتخابي.

سبق لي أن شاركتُ مراراً وتكراراً في القضايا التي أدركتُ أنها تهمّ ماساتشوستس. كنت أعبّر عن وجهة نظري في أوقاتٍ لم تكن فيه هذه الآراء سهلةً أو شعبيةً، وذلك منذ أول خطابٍ ألقيته سنة 1970 في ثانوية كونكورد-كارليل، وكان في إطار الحملة المعارضة لحربِ فييتنام. شعرتُ أنني الصوت الوحيد عندما كنت أدافع عن قناعاتي كعضو في مجلس الشيوخ مدة إحدى عشرة سنة. وكنت أرحّب بالنقاش حول هوية الأشخاص الذين يتماشون مع ضمير ماساتشوستس.

تطلّب ذلك مني بذل جهودٍ مضنية، بينما استفاد ويلد من ميزة وجوده في الولاية يومياً. كان ويلد حاضراً في ماساتشوستس كل يوم، بينما اضطررت أنا إلى قضاء معظم وقتي خلال أيام الأسبوع في واشنطن العاصمة، أي إنني كنتُ مقيّداً ببرنامج التصويت في المجلس، وهو برنامجٌ لا أستطيع التحكّم به؛ ومقيّداً أيضاً ببرامج اللجان النيابية التي تهدف إلى وضع اللمسات النهائية لمشروعات القوانين، وهو ما يُعتبر عملاً في غاية الأهمية. لكن ذلك كان يجري بطرقٍ تمنعني من التواصل مع الناخبين. تعيّن عليّ في ذلك الوقت أن أذكّر نفسي بأن اللغة المعتمدة في مجلس الشيوخ، أي لغة التشريع لا تعني الكثير للذين أوصلونا إلى المجلس. لكنّني أعتقد أن الحملات الانتخابية هي بالتحديد جهدٌ لعرض القضايا المطروحة في حياة الناس.

يبيّن ما ذكرته أعلاه السبب الذي يجعل الترشّح ضد حاكمِ ولاية بمثابة صعودٍ شديد الانحدار لنائب في المجلس التشريعي. يتمكن الحاكم من توقيع قانون أمام كاميرات المحطات التلفزيونية في الصباح، وإلقاء خطابٍ، أو الدعوة إلى حفل غداء لجمع التبرعات، وعقد اجتماعات مع رؤساء البلديات

والمسؤولين المحليين المنتخبين في فترة ما بعد الظهر، ويجد له وقتاً لتغطية كاملة في نشرة أخبار الساعة السادسة مساءً. في المقابل قد أكون منشغلاً في جلسة استماعٍ تعقدها لجنة التجارة في المجلس، وفي تقديم اقتراحٍ لتعديلاتٍ تسمح بالحصول على مزيدٍ من الأموال الاتحادية المخصّصة لتنظيف مجاري المياه الملوثة في الولاية. يجري كل ذلك، وهو يتنقّل أمام كاميرات التلفزة إلى نهر تشارلز لحضور عرضٍ يبرهن أن المياه أصبحت نظيفة الآن. يُمكن للقارئ، والحالة هذه، أن يخمّن كم هي النشاطات الأخرى التي أغفلتها وسائل الإعلام.

سيطرت عليّ في هذه الفترة غريزة التنافس. فكنت أعمد بعد آخر جلسة تصويت تجري في وسط الأسبوع إلى الإسراع كي ألحق بآخر رحلةٍ مكوكية لشركة طيران خطوط يو. إس الجوية والمتجهة إلى مطار لوغان. كنت أصل أحياناً في آخر لحظاتٍ تسمح لي بالتوجّه إلى قاعة أحد الاتحادات النقابية، أو إلى غرفة أخبار القناة الخامسة للتحدث عن العمل الذي قمتُ به أثناء وجودي في واشنطن، وعن أهمية ذلك العمل. وكان أول ما أقوم به في صباح اليوم التالي زيارة موقع عمل، أو مركز توظيف، أو أحد مراكز الأحياء، أو إحدى المدارس، قبل أن أُهرع مجدداً للّحاق بأول رحلة مكوكية عائداً إلى واشنطن. ناقشت اللجنة الوطنية لأعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين، بعد فترة من الزمن، قضية التنقلات التي تحصل في أيام وسط الأسبوع بين بوسطن وواشنطن، كما تزايد الضغط على زعيم الأغلبية ترنت لود، لوضع برنامج للمزيد من جلسات التصويت الفجائية. كان القصد من وراء هذا التحرّك جعل التنقل بين واشنطن العاصمة وولايات الأعضاء أكثر صعوبة على الأعضاء الديمقراطيين المشاركين في جلسات التصويت.

كان من المفاجئ لي أن يكون الترشّح ضد حاكم ولاية مثل بيل ويلد بمثابة نعمة، وأن يحدث ذلك بطرقٍ غير متوقعة. ساعدني هذا الأمر على تذكّر بعض الدروس عن السياسة التي سبق أن اعتبرتها مفروغاً منها، وهي الدروس التي لا تأتيني بصورةٍ تلقائية كما تأتي الذين خبروا السياسات المحلية لفترةٍ طويلة، قبل أن يُنتخبوا أعضاءً في مجلس الشيوخ.

اعتقدتُ في فترة ما قبل العام 1996 أن العمل يُعلن عن نفسه. كان ذلك أمراً بديهياً للناشطين، أي إن كل ما يهم هو القضية بحد ذاتها. يُضاف إلى ذلك أنني تمكنتُ، على مدى أعوامٍ طويلة، من إجراء تعديلاتٍ على القوانين، ونجحتُ في تأمين اعتماداتٍ كثيرة، وكان موظفو المجلس يصدرون بياناتٍ صحفية. افترضتُ طوال هذه المدة أن الناس يعرفون ما أفعله لأجلهم. لكنّني تعلّمت درساً مريراً هو بمثابة نتيجةٍ طبيعية للقول المأثور الذي كان يردّده تيب

أونيل: «كل السياسة محلية» . لقد تعلّمت أن كل السياسة في ماساتشوستس شخصية.

كان لدى بيل ويلد موهبة في كل ما هو شخصي. وكان بإمكانه اقتطاع جزءٍ من الأموال المخصّصة للمدن والبلدات. لكنه كان يحرص على حضور حفلة عيد ميلاد أحد أعضاء مجلس الشيوخ، أو القيام بزيارة أحد مباني جمعية إلكس الخيرية للمشاركة في إطلاق الحملة الانتخابية لرئاسة البلدية. أما أنا فقد أمضيت أعواماً طوالاً في الإسراع للّحاق بأول رحلةٍ تعيدني إلى الولاية لكي أكون هناك في يوم الجمعة، بصفتي والداً عازباً، ومن أجل حضور مباريات كرة القدم المدرسية التي تشارك فيها فانيسا وأليكس. أما السنوات التي أمضيتها في مختلف الأنشطة السياسية والتي اعتمدت فيها طريقة الانتهاء من مشروع قبل الانتقال إلى التحدي التالي، فقد تركتْ أثرها عندما ساند رؤساء البلديات الديمقراطيون من كوينسي وشمال آدامز ترشيح ويلد. لكن لماذا؟ يعود السبب إلى أنهم كانوا يرونه، وكان حاضراً بينهم. وذكّرني هذا الوضع بأن الخطط ذات النقاط العشر، والتشريعات توصلني إلى هذه النقطة فقط. ويعني ذلك أيضاً أن الناس إذا لم يشعروا بوجود رابطٍ مع السياسي الذي يعمل في مكانٍ بعيد، فإنهم ينسونه بسهولة. عزمتُ في ذلك الوقت على عدم التقليل من قيمة العلاقات الشخصية.

لكنّني لم أتعلّم جميع الدروس التي تشتمل عليها الحملة الانتخابية بطريقةٍ صعبة. وفي واقع الأمر عادت بعض مظاهر العلاقات الشخصية إلى الظهور بطريقةٍ صارخة لتذكيري بفوائد الحياة التي تُخاض في خنادق الأنشطة السياسية المختلفة. بدأ الأصدقاء يظهرون بالعشرات للوقوف معي: أصدقاء من الجامعة، ومن الحركات البيئية، ومن أيام المظاهرات المعادية للحرب، وكذلك من الأيام التي قضيتها في سلاح البحرية.

بقي كريس غريلي معي، منذ أن اصطحبني في جولةٍ حول الولاية سنة 1982، أثناء الحملة التي خضتها لمنصب نائب الحاكم. حدّثني على مدى ساعاتٍ طويلة عن السياسة ولعبة الهوكي، وكان مرحاً وموهوباً في التعاطي مع المواقف الصعبة. أما جون مارتيلا فقد عاد كما كان سنة 1972، وفي كل الحملات الانتخابية التي جرت قبل ذلك العام، وكان بإمكاني دائماً الاعتماد عليه بالنظر إلى إخلاصه. جاء كذلك راي دولي، وهو ناشط سياسي يعرف كيفية إطلاق الوعود الخلاّبة، وكذلك كان كتلةَ تصميم، ويتعامل مع الحملات الانتخابية وكأنه ماريشال في ميدان المعارك. ترك راي كل شيء وهرع للدفاع عني.

وقف رون روزنبليث إلى جانبي، وذكّرني بالمعنى الحقيقي للمواجهة، وذلك من خلال الرموز التي استخدمناها خلال الحملات العديدة التي خضناها معاً. قال لي: «لا يتعلق الأمر بالسياسات فقط. يريد الناس شخصاً يتمكّن من الوقوف لكي يناضل من أجل إحداث فرق في نظرهم. يعني ذلك أن الحملة هي اختبار الرجل الذي يتمكن من الوقوف بصلابة؛ «إنه أنت» . كان رون الرجل الصلب المطلوب، وهو الرجل ذاته الذي يمتلك البوصلة الأخلاقية ذاتها التي عرفتها فيه قبل وقتٍ طويل من تفكيري بإمكانية الوصول إلى مجلس الشيوخ.

أما طومي فاليلي، والذي وُلد في نيوتن، ورجل البحرية الصادق الذي أمضى ساعاتٍ طويلة في قيادة السيارة برفقتي سنة 1972، فقد ظهر مجدداً. إنه توماس جاي فاليلي رجل سلاح المشاة، الذي كان ممثّل الولاية قبل أن يترك السياسة لكي يُطلق في هارفرد برنامج فييتنام، وهو برنامج ساهم كثيراً في المجهود الذي كان هدفه تغيير العلاقة القائمة بين البلدين، وصنع السلام الفعلي. لكن طوم طرح كل ذلك الحديث جانباً إلى أن يحين وقت هذه الحملة، وسبب ذلك أن رجال البحرية يتميزون بالإخلاص إلى الأبد.

أرسل لي تيد كينيدي تعزيزاته بدوره، وهو الذي كان على صداقة مع بوب شروم منذ أن شغلَ مركز مساعده لشؤون الصحافة في مجلس الشيوخ. كان تيد يكنّ احتراماً شديداً لبوب بوصفه كاتباً ومناقشاً بارعاً. يعني ذلك أن نجم النقاشات الجامعي السابق من جورجتاون قد انضم إلى الفريق.

امتلك هذا الفريق القدرة على غربلة العمل السياسي بهدف الحصول على خياراتٍ كبيرة، وساعدني على الكف عن بعض العادات التي رافقتني في مجلس الشيوخ، وإن كان ذلك مؤقتاً. يتمكّن المرء في مجلس الشيوخ من النجاح عندما يتقن التفاصيل. لكن إذا راقبنا نقاشاً جيداً في قاعة مجلس الشيوخ، فإننا سوف نشاهد مشرّعين محنّكين أثناء مناقشتهم التفاصيل الدقيقة لقضيةٍ ما. ويتضّح لدينا عند ذلك كيفية إنجاز الأمور في مؤسسةٍ لا يُمكنها إنجاز أعمالها إلا عن طريق الإجماع. أما التوصّل إلى الإجماع فيستلزم القدرة على استنزاف قدرة الطرف الآخر في طرح الأسئلة. مارستُ عملي في التشريع على مدى فترة تزيد على عقدٍ من الزمن. وهكذا كنت أكثر ابتعاداً عن مهنة النيابة العامة من ويلد، وهو المعروف بهجومه المتقطع والسريع، والذي يُجهد الطرف الآخر، حيث لا يدع له متسعاً من الوقت للرد نقطةً نقطة. وذكّرني الأصدقاء بأن الناخبين يحتاجون إلى فهم السبب الذي يجعلني عضواً يمثّلهم في مجلس الشيوخ بشكلٍ أفضل من بيل ويلد. يعني ذلك أن من الأفضل التصويب على الأمور الكبيرة بدلاً من الصغيرة.

قرّرنا في ذلك الوقت جعل هذه المعركة الانتخابية تدور حول ما يمكن لعضو في مجلس الشيوخ أن يفعله لأجل ماساتشوستس. كان ذلك يعني أنني في ذروة ثورة الجمهوريين سوف أناضل مع تيد كينيدي لرفع الحد الأدنى للأجور؛ بينما يقوم بيل ويلد، الذي وصف ذات يوم نيوت جينغريتش بأنه «رفيق روحه العقائدي» ؛ بمواجهة تيد. تكررت القصة ذاتها في منح قروض الطلاب لأبناء الطبقة الوسطى، لتمكينهم من الالتحاق بالجامعات، وفي ميدي كير لكبار السن، وكذلك في المواجهات المتعلقة بالبيئة، وهي القضية التي أعتبرها الأهم عندي. كان ويلد رجل بيئةٍ حقيقياً في ماساتشوستس، لكن الواقع هو أن تصويته الأول بعد انتخابه في مجلس الشيوخ كان انتخاب زعيمَ أغلبية حريص على الوقوف بوجه قانون المياه النظيفة، وقانون الهواء النظيف.

لاحظتُ صبيحة يوم من الأيام أحد مراسلي الصحف المدرسية وكان في العاشرة من عمره، ينتظرني وأنا أغادر حفلاً انتخابياً. كنت مسرعاً لكي ألحق بطائرتي. توقفت وانحنيت نحوه للترحيب به.

سألني المراسل الصغير بصراحة: «لمَ يتوجّب على والديَّ التصويت لك، وليس لويلد؟» رأيته يحمل دفتر ملاحظات صغير الحجم، وقلمَ رصاص، وكان جاهزاً لتدوين إجابتي. قلتُ له: «حسناً، إنني أناضل في واشنطن لكي نسدِّد للمدارس، بينما يريد بيل ويلد تقليص المدارس في ماساتشوستس وأنا أناضل أيضاً من أجل رفع الحد الأدنى للأجور، وهكذا تتمكن، عندما تصبح في المرحلة الثانوية، من العمل لكي تدّخر ما يكفي من المال للالتحاق بالجامعة. أما منافسي فقد كان يناضل ضد كل هذه الأمور، بالإضافة إلى أنني أكافح من أجل زيادة القروض للطلاب، حيث لا تتخرّج في الجامعة مع ديونٍ كبيرة. هذه هي حقيقة الموقف» .

انشغلتُ بمحادثةٍ مع الولد وكأننا كنا لوحدنا هناك. لم ألاحظ في ذلك الوقت الحشد الكبير من حاملي كاميرات التصوير الذين تجمّعوا من حولنا. ولا يتعيّن أن يكون المرء روبرت بيرد لكي يفهم ماهية وظيفة عضو مجلس الشيوخ، بل يكفي أن يذكّر المرء نفسه بأن القاسم المشترك هو الناس. كان لدينا، أنا وويلد، نقاط تشابه، وكذلك بعض التباين، لكن في نهاية المطاف كان لدينا فلسفات مختلفة كلياً بشأن الطريقة التي ينبغي للمرء أن يناضل بموجبها لأجل ولدٍ مثل الذي طرح عليّ ذلك السؤال الأساسي. يعني ذلك أنني اكتشفتُ نقطة انطلاقٍ في موقفي السياسي.

أمرٌ غريبٌ في السياسة أن يشعر المرء بتدفق الأدرينالين. وعندما يكتسب أمرٌ ما معنىً محدداً يتمكن المرء من رؤية الأمور أمامه مباشرة. ويرى المناسبة التالية، والمعركة التالية، واللحظة التالية، ويلمس وضوحاً في الرؤية.

اكتشفت وضوح الرؤية في الوقت المناسب. كان ذلك أثناء حفل الفطور الذي أقامه بيلي بلغر بمناسبة عيد القديس باتريك في منطقة بوسطن الجنوبية، وهي المنطقة التي تُعتبر المسرح السياسي، وبمثابة حديقة لباحة ماديسون في ماساتشوستس. وسبق لي أن اتفقت مع بيل ويلد أن نلتقي في 14 شباط/فبراير 1996. كان حفل الفطور في ذروته يتضمّن القليل من الشواء فوق نارٍ متقدة في الهواء الطلق، والكثير النار التي اتقدت فوقها قضايا سياسية متعدَّدة على مدى السنوات الماضية. كانت قاعة فلوريان في دورشستر موقع الحدث والقيادة، للناخب خصوصاً إذا لم يكن يرغب أن يرد اسمه في قائمة المرشحين.

كان ويلد يمتلك نقطة تفوّق. فكونه جمهورياً يشق طريقه إلى دورشستر بين الديمقراطيين يعني أن لديه نقاطاً يريد الاكتفاء بعرضها. أما أنا فكان أمري أشمل كثيراً.

لم تكن ممارسة السياسة في بوسطن لضعاف القلوب كان لديّ زملاء من ولاياتٍ عديدة لا تشغل السياسة جزءاً من تقاليدها، بل تشتمل معظم الحملات الانتخابية فيها على الإعلانات التلفزيونية، وعلى بضعة أسابيع من المناورات السياسية بعد يوم عيد العمال.

لكن الأمر ليس كذلك في ماساتشوستس.

ما من مناسبة أكثر رمزيةً من حفل الفطور الذي يقيمه بيلي بلغر في عيد القديس باتريك. فرض بلغر تقاليد سياسية على مكان عقد حفل الفطور، وكان مدهشاً في ذلك. كان الرجل باحثاً كوّن نفسه، وهو أيضاً «النسر الثلاثي» ، الذي تخرّج في ثانوية بوسطن، وجامعة بوسطن، ومعهد القانون العالي في بوسطن. نشأ بلغر في بوسطن الجنوبية خلال فترة الركود الاقتصادي، وحكم كرئيس لمجلس الشيوخ في الولاية لفترة عشرين سنة، وهو رقم قياسي لن يحطّمه أحد على الإطلاق.

كانت سرعة البديهة عند بلغر سلاحاً قوياً في يده. وكان يملك من القوة ما يمكّنه من تحطيم خصمه بجملةٍ واحدة. كما امتلك أيضاً موهبة تأليف الأبيات الخماسية لكل مناسبة، وهكذا بقي عددٌ منها في الذاكرة مثل:

«جون ف. كيري؛ ج. ف. ك؛ JFK تعني من أجل كيري فقط» .

«السيناتور الجديد وصل متأخراً. لكنه ليس مسؤولاً عن التأخير، لأنه علق في طريقه.. أمام مرآة» .

«كان جون كيري منهمكاً في حملته الانتخابية في الجزء الآخر من مقاطعته.. الفليبين» .

أعجب الحاضرون بتعليقاته هذه، لأن السخرية أداة عظيمة في عالم السياسة الأميركية، وكان أكثر مكانٍ تُستخدم فيه هذه الأداة بمهارة قاعة فلوريان.

لكنها كانت مناسبةً غير اعتيادية، ومرحة، ومتطرفة حزبياً. يشتمل فيلم الراحل The Departed على مشهدٍ عظيم، يُعلن فيه أحد رجال فرانك كاستيلو، قائلاً: «أنا هو الرجل الذي يُخبرك بأن هناك رجالاً يمكنك استهدافهم، ورجالاً لا يمكنك استهدافهم» . جرت الأمور بهذه الطريقة كذلك في حفل فطور بيلي بلغر. وكانت هناك قواعد غير مكتوبة: هناك أمورٌ يمكنك المزاح فيها، وأمور تجاوز حدود المسموح.

كان الحديث عن شقيق بيلي بلغر واحداً من الموضوعات الممنوعة. كان جيمس «وايتي» بلغر أحد العمالقة غير المرئيين في حياة بيلي الشخصية والسياسية على السواء. قضى ردحاً من الزمن في سجن ألكاتراز، وعاد إلى موطنه في الجنوب ليتابع من حيث غادر المنطقة. وسبق لي أن اشتركت في محاكمة أعضاء من عصابة ونتر هيل، كما وضعتُ أحد أعضاء عصابة وايتي، هوي ونتر، وراء القضبان. وفي سنة 1994، أي بعد أن علم وايتي من إخبارٍ بقرب إلقاء القبض عليه، هرب من بوسطن، وبقي فاراً من وجه العدالة ستة عشر عاماً.

كان المزاح بشأن أخطر المطلوبين في منطقة بوسطن الجنوبية أمراً ممنوعاً مادام بيلي يقيم مآدب الفطور.

لكن، حتى في نطاق وجود شخصياتٍ كبيرة تتميز بالكبرياء، فإن المرء يتمكن من كسب ضيوف بيلي، هذا إذا كان مستعداً للتعبير عن أكبر قدرٍ من الضحك على شخصٍ واحد أكثر من الآخرين: الضحك على الذات.

لكنني احتجتُ هذه المرة إلى شريك.

كان وهج الحملة لمجلس الشيوخ صعباً على تيريزا. ويعود ذلك جزئياً إلى أن الحملة كانت مختلفة كثيراً عن الحملات التي عرفَتها في بيتسبورغ. لكن في بنسلفانيا كان اسم هاينز مرادفاً للأعمال الخيرية والخدمات.

خلال أول جولة إعادة انتخاب خاضها جاك هاينز، وكان يعاني وقتها من ساقٍ مكسورة، الأمر الذي أبعده عن متابعة جولاته الانتخابية، استطاعت تيريزا أن تنوب عنه، واكتشفت أن الناس قد تعاطفوا معه، وشاركوا في حملته. حازت تيريزا لأجل ذلك قدراً كبيراً من الاحترام والتقدير في بيتسبورغ. يُضاف إلى ذلك أنها لم تتعرّض من قبل لسخرية الصحافة أو نقدها.

لكن الأمر لم يكن كذلك في بوسطن، حيث ركّزت أعمدة الشائعات في كل شيء: ثروتها، ولهجتها، وميولها الحزبية، وحتى على علاقتنا العاطفية.

تعوّدت ألّا أكترث عندما يتعلق الأمر بالانتقادات السخيفة، لأن أحداً لم يجبرني على العمل في السياسة. لكنني كنت أستاء كثيراً عندما تتعرض تيريزا للشائعات التي تطلقها الصحافة الصفراء، لا لشيء إلا لأنها وقعت في غرام واحد من أعضاء مجلس الشيوخ عن ماساتشوستس.

كانت بعض هذه الشائعات مذهلة. ويُعزى ذلك إلى أن بوسطن مدينة شيّدها المهاجرون، لكن الصحف الصفراء كانت تحب السخرية من لهجة تيريزا البرتغالية. كانت هذه الولاية تحترم حقوق المرأة، لكن كتّاب أعمدة الشائعات كانوا مغرمين بالتعليق على قرار تيريزا عدم تغيير اسمها الأخير، وهو الاسم الذي استخدمته طويلاً لفترة ربع قرن، أي منذ أن كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، وكان كذلك الاسم الأخير لأولادها الثلاثة. كانت أنساب الأثرياء والمشاهير، بدءاً بلودجز، وصولاً إلى كينيدي، مقبولةً من دون التطرق إلى حساباتهم المصرفية. لكن نادراً ما غاب اسم تيريزا عن أعمدة الشائعات التي كانت تصفها، وبكل وقاحة، بأنها «وريثة الكاتشب» ، بدلاً من إظهار جانب الشخص، والزوجة العطوفة، والوالدة الحنونة فيها. تعوّدت تيريزا الذهاب إلى مخبزٍ برتغالي في تاونتون لإلقاء التحية على الطاهي من وراء منضدته، وكانت تتحادث معه بلغتهما المشتركة. كذلك كانت تتحدث بكل حماسة وتفصيل مع الناشطين البيئيين، ودعاة الرعاية الصحية. لكن الصحافة لم تكترث لأنشطتها هذه.

يعني ذلك أن السباق الشائك نحو عضوية مجلس الشيوخ لم يكن الطريقة الصائبة لتعريف شخصٍ ما بولايةٍ جديدة.

تتحوّل الأمور الصغيرة إلى أمورٍ كبيرة خلال الحملات الانتخابية، أو هكذا قيل لي. وسبق أن قررت أنا وتيريزا تغيير مكان سكننا والانتقال إلى حيٍ جديد في بيكون هيل. لم يمضِ وقت طويل قبل أن ندرك أن شاحنات محطات الأخبار الصغيرة دأبت على التوقف أمام منزلنا. تسبّب الأمر بانزعاجٍ شديدٍ لجيراننا، لانعدام المواقف في شارعنا المرصوف بالحجارة. يُضاف إلى ذلك

وجود عمود مياه مخصص لإطفاء النار أمام منزلنا؛ الأمر الذي كان يعرقل وقوف السيارات. لذلك قرَّرنا التوجه إلى سلطات المدينة من أجل إبعاد موقع العمود بضع أقدام نحو المنعطف. كان أمامنا خيار إزعاج جيراننا، أو تحمّل الطريقة البيروقراطية لإنجاز العمل، وهكذا لجأنا إلى الخيار الثاني. لكن شخصاً ما أقدم من فوره على إبلاغ الصحف الصفراء. شغل هذا الخبر الصفحة الأولى من الصحيفة، وما لبثت التغطية التلفزيونية أن ظهرت مع لقطاتٍ حيّة تُظهر الجهة الأمامية من منزلنا. كان ذلك يعني القضاء على الهدوء في الحي.

كان حفل فطور عيد القديس باتريك فرصتنا الذهبية لقلب الطاولة.

لم أكن بمفردي عندما حان دوري للكلام. ظهرت تيريزا فجأة، وكانت ضيفاً غير متوقّع دخوله على عرين بيلي بلغر. حملت تيريزا تحت ذراعها نموذجاً بلاستيكياً كبيراً لعمود إطفاء الحرائق.

انفجر الحاضرون بالضحك والتصفيق بصورة عفوية.

التفتّ نحو تيريزا عند انتهاء الحضور من الضحك، وكنا أفضل تقليد يمثّل جورج بيرنز وغراسي ألين. سألتها إن كانت سعيدة لأنها تعيش في ماساتشوستس.

صُدم الحاضرون عند سماع جوابها: «أجل. أنا أحب ماساتشوستس. لكن كم تكلّف؟» .

انفجر الحاضرون بالضحك مجدداً.

كان ذلك هو الصباح الذي كسبتْ فيه تيريزا الجولة ضد كل المشكّكين. يعني ذلك أن المزاح يمكنه تحقيق أشياء كثيرة.

لكن بقيت أمامي مسافة طويلة في سباق الوصول إلى مجلس الشيوخ.

ساورتنا أنا وبيل ويلد موجةٌ من القلق حول التأثير المحتمل للمال في هذا السباق. وأدركت أن تنافسنا على هذا المقعد في مجلس الشيوخ سوف يكون الأكثر مشاهدة على صعيد البلاد. وتوقعنا أن تحسم النتيجة تُحسم في الأسابيع الأخيرة. أدركت كذلك أن هذا الواقع يجذب المتبرعين ومجموعات المصالح الخارجية إلى إنفاق الأموال. وشعرت كذلك بالقلق من أن تجد جماعات الجمهوريين خارج الولاية في هذا الأمر فرصة نادرة لإلحاق الهزيمة

بالمرشح الديمقراطي القوي في ماساتشوستس. أما بيل ويلد فقد ساوره القلق بدوره من أن تؤدي حملتي إلى إنفاق أموال تيريزا.

امتلكنا أنا وويلد تفكيراً مستقلاً يسمح لنا بالتساؤل عن إمكانية وجود طريقة لحماية مصالحنا، والتأكد من أن المال لن يقلب الدفة في هذا السباق المهم والمثير للخلاف. كان بإمكاننا المناورة بحذر شديد، وكان بيل يتحداني بإبقاء أموال أسرة هاينز ضمن الحدود، بينما كنت أتحدى بيل بأن يتجنّب استخدام إعلانات طرفٍ ثالث. تساءلت كذلك إن كان ممكناً أن نقوم بشيءٍ حاسم فعلاً، وأن نفكّر معاً بعقلانية.

كان ذلك ما قمنا به بالفعل. ولست أذكر من اتصل بالآخر أولاً؛ لكن سرعان ما بدأنا الكلام. دعوته لزيارتي في منزلي الكائن في بايكون هيل، وذلك بعد أن تبادلنا بضعة أحاديث. توصّلنا بعد جلوسنا في غرفة الجلوس في منزلي، إلى اتفاق حول كيفية الإنفاق على الحملة الانتخابية. اتفقنا على وضع سقفٍ أقصى للإنفاق يصل إلى 9 , 6 ملايين دولار لكل منا؛ وعلى وجوب ألّا يتعدى سقف الإنفاق على الإعلانات التلفزيونية، وفي الصحف، مبلغ خمسة ملايين دولار. أما الأهم من كل ذلك، فهو اتفاقنا على تجنّب استخدام أموال طرفٍ ثالث. طلبنا من الصحافة عدم وضع إعلانات تصب في مصلحتنا من جماعاتٍ خارجية. واتفقنا، وبالرغم من هذا الطلب، في حال قيام مؤسسة خارجية بوضع إعلانٍ سلبي، أن يقوم الشخص الذي دعمه الإعلان بخصم الكلفة من موازنتنا التي اتفقنا عليها. كان ذلك بمثابة تشجيع لنا كي نبذل كل الجهود لمنع الأطراف الخارجية من التدخل في معركتنا الانتخابية.

كان هذا الاتفاق الذي عقدناه هو الأول من نوعه في التاريخ السياسي الحديث الذي يتوصل إليه مرشّحان لمنصب على صعيد الولاية؛ ونجح هذا الاتفاق في معظم أجزائه. صحيحٌ أننا تبادلنا إطلاق البيانات الصحفية في مراحل متعددة، وتنافسنا على تفسير النقاط الدقيقة في اتفاقنا، لكن الاتفاق جعل السباق مختلفاً في نهاية المطاف.

لم يتطرق اتفاقنا بطبيعة الحال إلى تحديد نوعية الإعلانات الانتخابية أو محتواها. وقد توصّلنا إلى اتفاقية الإنفاق على الحملة الانتخابية في وقتٍ مبكرٍ من شهر آب/أغسطس. وبدأ بيل بزيادة إعلاناته التلفزيونية بُعَيْد ذلك ملأً موجات الإذاعة بالهجمات التي تستهدفني. أتذكر الآن أن تلك الهجمات أظهرتني بلحية خفيفة، وبشكلٍ رديء بعض الشيء. تمكّن بيل من التقدّم عني في استطلاعات الرأي، وذلك للمرة الأولى في سباقنا.

لم تشهد البلاد في تلك السنة سباقاً نحو مقعد مجلس الشيوخ يتنافس فيه مرشّحان معروفان بقدراتهما السياسية وبقواهما المتساوية، وخلفياتهما غير العادية.

اعتبر مديرا حملتينا الانتخابيتين أن من مصلحتنا الظهور أمام أكبر عددٍ ممكن من المشاهدين، وأن يبذل كل واحدٍ منّا جهده للتفوق على الآخر. وقد تعارض هذا الوضع كثيراً مع عددٍ من الحملات الانتخابية التي نشهدها في هذه الأيام، حيث تتكلم الإعلانات عن نفسها.

لكن هذا لم ينطبق علينا.

احتجتُ إلى إحداث فجوةٍ في الهالة التي تحيط بشخصية بيل، وهي الهالة التي عزلته عن مجموعات نيوت جينغريتش، والحزب الديمقراطي، على صعيد البلاد بأكملها.

بدا واضحاً أن ويلد كان واثقاً بقدرته على حشري في الزاوية على الدوام في عددٍ من القضايا، مثل عقوبة الإعدام، وإصلاح أنظمة الرفاه الاجتماعي والضرائب. اعتقد كذلك بأنه، إذا فعل ذلك، فإن جاذبيته سوف تعطي الناخبين حق الاستمرار في نسيان انتمائه إلى الحزب الجمهوري.

ستُثبت ساحة المعركة التي اتفقنا عليها، أنها مختلفة عن كل المعارك الانتخابية الأربع والثلاثين في مجلس الشيوخ ذلك العام. تقابلنا في سلسلة من ثماني مناظرات بُثت على التلفاز في جميع أنحاء الولاية، على أسلوب لينكولن-دوغلاس؛ وكان المشرفون على المناظرة يقومون بتشجيعنا فعلياً على مخاطبة أحدنا الآخر مباشرةً.

حاولت أن أُخصص بعض الوقت لأن أكون حاضر الذهن في المناظرات. لكن الأمر كان صراعاً يومياً بين إدارة الحملة الانتخابية في أرجاء الولاية، والعمل في واشنطن، والسفر لجمع التبرعات. فقد تحوّل تحضيري للحملة الانتخابية إلى مجموعة من المكالمات الهاتفية، وغرقي في النوم مُرهقاً، مع ملخّص يجثم على صدري. وجدنا أنا وبوب شروم أننا كُنّا غالباً ما ننجز الكثير من العمل بعيداً عن الضجة، بما في ذلك رحلة في القارب ذات أحد لا يُنسى، بعد أن أمضيت صبيحته في إدارة الحملة الانتخابية بمنطقة كيب كود.

لكن في النهاية، وبغض النظر عن كل التحضيرات التي تقوم بها سيتوجّب عليك في لحظة ما أن تكون مستعداً للمواجهة مع منافسك، ولا يبقى لك عندها من معين إلّا ثقتك بنفسك، وبما يمليه عليك قلبك وعقلك.

قد تصعد بك المناظرات المتلفزة أو وتهبط، بناءً على اللحظات المثيرة في المقابلة. فهذه اللحظات غير المتوقعة هي التي تصنع الفرق، وهي الفرصة المتاحة أمام المشرف على المناظرة لأن يكون له حيّز في محور الحدث.

في واحدة من تلك المناظرات، طُرح سؤال غير متوقع فاجأنا أنا وويلد. لم يكن السؤال عن قضيةٍ سياسيةٍ. كان سؤالاً لطالما راود كل الذين يتابعون المناظرات على التلفاز باستمرار وهم في منازلهم؛ السؤال كان: كيف يمكن لهذين الشخصين أن يشعرا بي؟ مشرفُ المناظرة اختصر سيرة حياة كل منّا؛ وهما سيرتان متشابهتان إلى حد بعيد بشكلٍ غريب: المدارس الداخلية، الدراسة في جامعات رابطة اللبلاب (Ivy League)، كلية الحقوق، كوننا مدعيين عامّين، المناصب التي انتُخبنا لشغلها. وأضاف حبكة لسؤاله: ما الذي تعتبره إخفاقك الأكبر؟

اختار بيل أن يجيب عن هذا السؤال بدعابة، ثم عاد ليدير الحديث نحو رفض مجلس نواب الولاية أن يُقر مجموعة من القوانين.

رأيت ألكسندرا وفانيسا تجلسان في الصف الأول، إلى جانب تيريزا. كنت فخوراً بما أصبحتا عليه بعد أن كبرتا: فانيسا وولعها بالعلوم والطب، أليكس المنجذبة دائماً نحو الفنون والدراما. شعرت بأنني محظوظ لكونهما ذكيّتين وطيّبتين وصاحبتي عزيمة قوية. عملنا أنا وجوليا بجد كبير لمنحهما الطفولة التي فاتتنا بشكل أو بآخر. أرادت جوليا أن تربّي طفلتيها لتصبحا امرأتين قويّتين ومستقلّتين لهما حياتهما الخاصة، على عكس ما كان مُتوقعاً من النسوة في جيل أبويها، الذي كان يرى هوية النساء متمحورةً حول الزواج وأزواجهنّ فقط. تكلّلت مهمتنا بالنجاح. فقد غدت لكل منهما أحلامها وأهدافها الخاصة بها. أردت لهما أن يشعرا بالانتماء، مع الأمان الذي يأتي من الانتماء إلى الوطن، والنشأة مع مجموعة من الأصدقاء، من المدرسة الابتدائية إلى المدرسة الثانوية. كنت مصمماً أن أكون أباً قريباً منهما، من دون الرسميات أو المسافة التي كنت أعاني منها أحياناً في علاقتي مع أبي أثناء طفولتي. عندما كنتُ أقضي الوقت مع ابنتيّ، كنا نستغل الوقت على أفضل ما يمكن. كنا متقاربين وصريحين إلى درجة لا يمكن معها لأهلي أن يتخيلوها أبداً.

ولكن ضميري لا يزال يؤنبني جرّاء الطريقة التي كبرتا فيها، مُتنقّلتين بين منازل مختلفة، مع أبٍ يريانه في عطلات نهاية الأسبوع عندما يعود من واشنطن، وأمٍ وجدت مكانها آخرِ المطافِ في «الغرب» ، بعيداً عن السياسة

في بوسطن. كان ذلك شيئاً بعيداً جداً من الحياة التي تخيّلها أيٌ منا، عندما حملناهما على أيدينا للمرة الأولى سنتَيْ 1973 و1976.

حتى بعد طلاقنا، كنّا دائماً نضع تربية ابنتينا أولاً. ومع ذلك، فإن أكثر ما كنت أراه بغيضاً في مسألة الطلاق، هو أن الأطفال هم الذين يدفعون الثمن الحقيقي لإخفاقات البالغين.

تلك الفكرة أعادتني إلى سؤال مشرف المناظرة. تحدثت من القلب مُباشرةً. قلت: لقد أخفقت في مؤسسة الزواج، أخفق زواجنا، وكان ذلك بمثابة نكسة شخصية لم أعش مثلها قط؛ خسارة علاقة أصعب من خسارة أي حملة انتخابية. قلت إنّ الأمر كان صعباً، لأن ابنتيّ قد دفعتا الثمن، وإنني و«جوليا» حرصنا دائماً على أن تعرف ابنتانا، على الرغم من تفكُّك زواجنا، أن أباهما وأمهما سيكونان دائماً داعمَيْن لهما.

بعد أن قلت تلك الكلمات، تمنّيت للحظة ألّا يبدو ذلك وكأنني مستضافٌ في برنامج «أوبرا» التلفزيوني. ولكن فجأة طغى صوت التصفيق المتصاعد ببطء. شيءٌ ما قلته أصاب وتراً حساساً. في طريق العودة من المناظرة إلى المنزل، اختصرت تيريزا الأمر بقولها: «بصراحة، ما قلته كان صادقاً، وقد لمس الناس صدقك. وهم يستطيعون أيضاً التمييز بين الصحيح والمزيّف من الكلام» . كانت محقة. جئتُ إلى المناظرة لأناقش آرائي مع بيل، ولكنني في نهاية الأمر بُحتُ بشيء لم يكن وارداً في الملخصات.

لكن السباق الانتخابي لم يكن مجرد صدام بين شخصيتين. كانت هناك قضايا في قلب مناظراتنا الثماني. وقد أسهمت الاختلافات التي ظهرت في إزاحة ستار التشابه بيننا، لتكشف عن معتقدات مختلفة حول القضايا والقيم.

كان التوتر عالياً في قاعة فانويل أثناء تواجهنا أمام الجمهور الذي احتشد ليملأ مقاعد القاعة بكاملها. وعلى الرغم من تأكيد مشرف المناظرة على امتناع مناصري أيٍّ منا عن التصفيق، إلا أن الجدال قد أثار موجات متنافسة من الهتافات وهمهمات الاستنكار.

قام بيل ويلد بالتخطيط للحظة درامية مُصمَّمة لجعلي عاجزاً عن الإتيان بأي رد فعل، والفصل بيني وبين المصوتين الذين كنت أعتمد عليهم لإعادة انتخابي.

كانت عقوبة الإعدام مسألة حساسةً جداً. كانت نسبة التأييد لها حوالي 80% فيما كانت نسبة المعارضة لها 20% على الأرجح في ذلك الوقت. تحدث ويلد عنِ الموضوع مراراً وتكراراً، محاولاً بذلك الحصول علىِ الدعم الانتخابي.

أمّا قناعاتي في عقوبة الإعدام فقد كانت راسخة جداَ، وهي ممتدة من «جورج ريسلفردر» ومرتبطة بإيماني وحس قديم بالصواب والخطأ. كنت قد درست الموضوع أيضاً من وجهة نظر السياسة العامة. لم تكن عقوبة الإعدام رادعاً للجريمة، كما أنها جعلت الولايات المتحدة تواجه صعوبات كثيرة لجهة تسلّم المجرمين والقتلة من البلدان الأخرى.

لكن ويلد كان يعلم أن المسألة ذات بعد عاطفي، وكان فريقه يعتقد أن لديهم قضيةً رابحةً وكميناً معدّاً لكسب المناظرة مُعتمدين على ألاعيب مألوفة.

أي ديمقراطي شاهد مناظرة الانتخابات الرئاسية لسنة 1988، بين نائب الرئيس «جورج بوش» والحاكم «مايكل دوكاكيس» ، كان يعلم أننا سوف نخسر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. كانت تلك اللحظة التاريخية عندما سأل مذيع قناة السي إن إن بيرنارد شو دوكاكيس، الذي يعارض عقوبة الإعدام: أكان ليبقى معارضاً لعقوبة الإعدام لو أن زوجته، كيتي تعرضت للاغتصاب والقتل؟ مايك دوكاكيس واحد من أكثر الرجال المحترمين الذين عرفتهم في حياتي كلها. وهو يحب «كيتي» من أعماق قلبه. وبعد خمسة وخمسين عاماً من الزواج، كان مايكل لا يزال ينادي كيتي بعروسي. معاً، خاضا معاركهما الرابحة والخاسرة، وازداد حبهما عبر كل ذلك. يفترض المرء أن مايكل كان سيتصرف بطريقة عاطفية كرد فعل على سؤال شو. لكنه، بدلاً من ذلك، أعطى رداً عقلانياً وسياسياً، جاء أشبه بجواب بارد عن مسألة عاطفية متأججة. ليس لدي أي شك في أن معاوني ويلد ظنوا أنني سأقوم بالمثل لدى وضع خطّتهم، لكي يغدو موقفي من عقوبة الإعدام أسير ضوء عاطفة العامة.

تَكشفت اللحظة في برهة من الزمن. تطرّق ويلد إلى تصويتي عدّة مرات ضد توسيع عقوبة الإعدام الفيدرالية. ثم أشار إلى امرأة تقف ضمن الحضور، كان ابنها ضابط شرطة قُتل أثناء أدائه لعمله. قال بيل إن عليَّ الدفاع عن موقفي ليس أمامه وليس أمام الناخبين، بل أمامها هي. قال لي: «أخبرها لمَ قيمة حياة الشخص الذي قتل ابنها أكثر قيمة من حياة ضابط شرطة؟» .

ازدرت ريقي بصعوبة. نظرتُ إليها. كانت حيلة «ويلد» في المناظرة واضحة، ولكن ألم الأم كان حقيقياً. لقد عانت الأمرّين. فكرتُ في «أليكس» و«فانيسا» . تذكّرتُ المكالمات الهاتفية التي قمت بها مع أُسَر ضباط الشرطة القتلى ورجال الإطفاء الذين سقطوا أثناء أدائهم لواجبهم، الألم الذي سمعته في الكثير من الأصوات، الأطفال الذين تركوهم وراءهم، الجنازات التي حضرتها، نحيب مزامير القربة.

ثم أجبت بالطريقة الوحيدة التي أعرفها. لم يكن هذا شيئاً تعلمته لا في جامعة يال خلال ساعات من مسابقات المناظرة، ولا في مجلس الشيوخ. كان بيل ويلد على بعد بضعة أقدام مني، ولكن وللحظة، كنتُ وحيداً مع أم فقدت ابنها بطريقة عنيفة وغير مبررة. توقها إلى القصاص كان مبرراً. كان الصمت يخيم على الغرفة. حياة قاتل ابنها لم تكن أكثر قيمة، لم يكن لها أي قيمة، قلت لها: كان القاتل حثالةً وكان يجب إرساله إلى السجن لما تبقّى من حياته. ولكنني مع ذلك لم أكن سأكذب عليها، ولم أكن سأتملّص من القضية المطروحة. ويلد كان محقاً في شيء واحد: هي كانت تستحق جواباً صريحاً. تابعت قائلاً: «في الحقيقة، نعم، عارضت عقوبة الإعدام. أنا أعرف شيئاً عن القتل. أنا لا أحب القتل. لا أظن أن الدولة تحترم الحياة عن طريق المصادقة على القتل» .

لم أخطط للأمر بهذه الطريقة. لم تكن أي من الدراسات الأكاديمية التي رأيتها عن نجاعة عقوبة الإعدام كرادع للجريمة قريبة حتى من ألم أمّ ضابط شرطة متوفى. كل ما كان يمكنني قوله لها كان ما شعرت به في أعماقي: رأيت القتل عن قرب بطرق لا يمكنني أن أنساها أبداً، وكل شيء في تلك التجربة الحارقة كشف أنّ هذا ليس ما نريد أن نكون عليه كمجتمع.

لم يكرِّر ويلد أي سؤال مثل هذا مرة أخرى؛ لكنّه وضع سجل التصويت الخاص بي في دائرة الضوء، إلّا أن قيامه بذلك، هو ما أجبرني أيضاً على كشف عن جزء من نفسي لم أكن لأكشف عنه بيُسر أو بسهولة.

في النهاية، لعبت خبرتي في الحرب دوراً في الحملة الانتخابية أكثر أهمية مما توقعت بكثير. وهذه المرة لا أظن أن هذا كان بسبب ما فعله ويلد، بل بسبب التدخل الغريب وغير المتوقع لمحرِّر عمود في جريدة بوسطن غلوب، الصحيفة الرسمية في ولاية ماساتشوستس.

قبل تسعة أيام من يوم الانتخابات، ظهر عمود في جريدة غلوب كتبه محرر عمود أعمال، هو «ديفيد وارش» ، مخمّناً أن من غير المفترض منحي وسام النجمة الفضية سنة 1969، لأنني كنت في الواقع مجرم حرب أطلق النار على فرد أعزل ومُصاب من الفيتكونغ وقتله، بعيداً عن أعين الجميع الذين تعرّضوا لكمين في ذلك اليوم.

أذكر أنني أحضرت رزمة جرائدي الصباحية من الشرفة الأمامية إلى منضدة المطبخ، حيث كنت أجلس وأسجّل ملاحظات على كرّاسة قانونية طويلة، وأجري مكالمات هاتفية وأستعد لليوم. كنت قد انتهيت من جريدة

غلوب وأتحامل على نفسي لطقسي اليومي في قراءة صحيفة بوسطن هيرالد المحافظة، لأعرف نسخة اليوم من حملة ويلد الانتخابية. ثم رن الهاتف.

«سيناتور، ألم تطلع بعد على ما ورد في جريدة غلوب؟» . كان المتحدث مايكل ميهان، مدير الاتصالات الخاص بي. يرافقني مايكل منذ أن كان متدرباً في الجامعة، وهو شاب إيرلندي ضخم الجثة، وذلك يتّضح أكثر عند قيامه بمصافحتك، وحبّه لرياضة الهوكي ينافس حبي لها.

أجبته: «نعم، مايكي، قرأت جريدة غلوب» .

كانت هناك وقفة طويلة على الجانب الآخر من الهاتف.

قال لي: «إن عمود وارش» مشكلة.

وارش؟ أنا أقرأ ما يكتبه محرِّرو الأعمدة. كان توم أوليفانت كان قد كتب مقالة جيدة عن الحملة الانتخابية. فتحت صفحة مقالات الرأي. لم يكن هناك شيء كتبه وارش.

قال مايكل: «في قسم الأعمال» .

قلبت صفحات الجريدة. تساءلت: لمَ قد يشكِّل محرر عمود الأعمال والأمور المالية في الجزء الأخير من الجريدة مشكلة لنا؟ لابد من أن مايكل يبالغ في ردّ فعله، ولكن شيئاً في نبرة صوته بدا مضطرباً.

وجدت العمود، وبدأ ضغط دمي بالارتفاع.

كان وارش قد أخذ بعض التعليقات التي أجراها تومي بيلودو خارج سياقها. وتومي يتحدّر من تشيلمسفورد، وهو رامي الرشاش الأمامي في قارب PCF-94، الذي كان الأقرب إليّ خلال العقود التي تلت فييتنام. ذكر تومي أنه قد أصاب مقاتلي «الفيتكونغ» الذين نصبوا كميناً لنا، قبل أن ألاحق الرجل الذي كان مختبئاً خلف كوخ، وأقتله.

لا أزال حتى يومنا هذا غير متأكدٍ إن كان وارش، الذي غطّى الحرب بعد تخرُّجه في هارفرد، يحاول أن يفتعل نزاعاً سياسياً، أو أنه كان يريد فقط أن يتكهّن في ضبابية الحرب.

عرفتُ من سمعته في جريدة غلوب أنه من المحافظين، وأنه تخرَّج في دفعة بيل ويلد نفسها بهارفرد. ولكن الاتهام، الذي نشره في الجريدة لم

يكن شيئاً يمكنني تقبّله، بغض النظر عن خلفيته أو عن دوافعه؛ فقد تكهّن، وهذا منشور، أنني خارج مرأى زملائي في طاقم القارب - أقدمت في الواقع على ارتكاب جريمة حرب، تمثلت في إطلاق رصاصة الرحمة. تجرّأ أن يسأل إن كنتُ قد أطلقت النار على ظهر فرد أعزل ومصاب إصابة بليغة من الفيتكونغ، وليس جندياً خطراً يحمل قاذف صواريخ (B-40) يركض ليعيد تنظيم نفسه مع مجموعته، وكان بإمكانه قتلنا جميعاً بضغطة واحدة منه على الزناد.

«ما الذي حدث خلف الكوخ؟» سأل وارش قرّاءَهُ.

كنت على وشك الإصابة بالسكتة القلبية وكاد تومي بيلودو يفقد صوابه. كان تومي حاضراً لدعمي في كل ما مرَّ بي. كان صديقاً صامتاً ووفياً وفخوراً وقد عمل بجد ليضع الحرب خلفه. كان تومي خجولاً، خصوصاً ما يتعلق بأيامه في فييتنام. لم يسعه أن يصدق أن إحدى المرات القليلة التي تحدث فيها إلى مراسل صحفي قد تسببت في تحوُّل كلماته إلى سلاح سياسي.

«بدأت أتلقّى مكالمات هاتفية كثيرة عن ذلك» ، قالها مايكل ميهان.

كان أمراً صاعقاً، كيف يجري، في اللحظات الأخيرة من الحملة الانتخابية، يتم تحريف حدث مضت عليه سبعة وعشرون عاماً بهذه البساطة، كان ذلك حدثاً مباغتاً حقاً.

كنت في حالة ارتباك. ذلك أن طاقم عمل جريدة «غلوب» قد أمضى ساعات وساعات في كتابة ملفات شخصية عني وعن ويلد بعناية وبعد بحث دقيق. طلبوا منا سجلاتنا العسكرية، فقدّمناها بتجاوب. ومع ذلك، سُمح فجأة لمحرر عمود الأعمال الذي لم يكن منشغلاً بالحملة الانتخابية بأن يتكهن حول كوني مجرم حرب. كان ذلك شيئاً يتجاوز انعدام المسؤولية، ناهيك بكونه تحريضياً.

لم أعطِ بالاً لبرنامج الحملة الانتخابية. أردت عقد مؤتمر صحفي فوري، للرد على هذا الادعاء الكاذب، وكنت أستدعي التعزيزات. أدرك تومي فاليلي أن هذا كان اختبار شخصية. اتصلت بالأميرال إلمو زوموالت وأرسلت إليه العمود المنشور في الجريدة بالفاكس. الأمر الذي جعله يستشيط غضباً.

الأميرال زوموالت كان وفياً للرجال الذين خدموا بإمرته، ولكنه كان أيضاً وفياً لمؤسسة أكبر: كان مؤمناً بالبحرية. كان يؤمن أن قرارات البحرية يجب أن تكون ذات قيمة، وأن تسمو فوق الانتماءات السياسية أو الحزبية.

كان يؤمن أن الحقيقة عن خدمة كل من خدم في البحرية يجب أن تكون معروفة للجميع.

كان زوموالت يجلب ما لدى قيادته العسكرية من قوة نارية إلى ماساتشوستس.

في اليوم التالي تماماً، كانوا حاضرين جميعاً، مجتمعين معاً في قاعدة تشارلستون البحرية، المكان الذي ترسو فيه سفينة USS Constitution كتذكير بأصول بلادنا البحرية. أحضر زوموالت معه الكابتن جورج إليوت، قائدي المباشر في البحرية، والآمر المتقاعد «أدريان لونسديل» ، الذي كان مشرفاً على العمليات الساحلية.

تحدث تومي بيلودو، وشارك زملائي في طاقم القارب PCF-94، من جميع أنحاء البلاد، شخصياً أو عبر الهاتف. كانت شهادتهم واضحة لا يرقى إليها الشك. عبّر تومي بيلودو عنها بأفضل شكل مُصرّحاً: «ذلك الرجل لم يكن مرميّاً على الأرض، كان قادراً على تدمير القارب وكل من كان على متنه» . أخذ الكابتن إليوت الميكروفون ودافع عن مبادرتي في المعركة. لقد كان يفهم ما يعنيه الأمر، فقال، «إنه، حقيقة الأمر، قد طارد أعداءً مسلحين، وهذا ليس أمراً غير مُشّرف.» كلماته أعادت إلى ذاكرتي قرارات الحياة أو الموت، الهرب أو القتال الغريزي الذي يمكنك فهمه فقط إذا كنت هناك. كان الأميرال زوموالت واضحاً جداً إذ قال: «إن الإشارة إلى كون العملية ليست نزيهة بالكامل، إنما هي إهانة لبحرية الولايات المتحدة» . حتى أنه فاجئنا جميعاً عندما أعلن في ذلك اليوم أنه كان يريد منحي وسام صليب البحرية لأفعالي، ولكنه منحني وسام النجمة الفضية، لأن منحه أسرع.

شعرتُ أن ساحتي قد بُرِّئت. يمكن للحقيقة أن تكون الضحية الأولى في الحملات الانتخابية السياسية. لكن الحقيقة انتصرت في نهاية اليوم، وكان أولئك الرجال الذين خدمت بإمرتهم والذين خدمت إلى جانبهم هم الذين وضحوا أن الحقائق هي الحقائق، قبل سبعة وعشرين عاماً وفي العام 1996. ليست السياسة لم تقف في الطريق. ليت الأميرال زوموالت كان حياً سنة 2004.

خلال أسبوع، عبّر وارش عن ندمه تجاه اللغة التي استخدمها.

كنت غاضباً لأن العمود كان قد وجد طريقه إلى النور على صفحات جريدة غلوب. ولكن، وللوقت الحالي، كانت الكذبة القذرة قد فُضحت بنجاح.

بعد أسبوع تخلّلته مناظرة صاخبة، حل أخيراً يوم الانتخابات. كانت النتائج واضحةً بحلول الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم: لقد فزتُ بإعادة انتخابي وبفارق ثماني نقاط مئوية.

كانت الانتخابات جهداً طويلاً ومضنياً. وكان ويلد سياسياً بارعاً بشكل مميز. في تلك العملية، تعلمتُ الكثير عن نفسي كشخصية عامة.

جرى تذكيري بأن السياسية أمر شخصي، وأنّ عليَّ أن أنازع لكي أوصل عملي إلى الأشخاص الذين أعمل لأجلهم. ولكن لقيامي بذلك، كانت السياسة هي الطريقة الوحيدة الباقية التي يتمكن عبرها الأشخاص العاديون من أن يكون لهم فيها الكلمة الفصل.

بيد أنني تعلمت أيضاً أن بوصلتي الأخلاقية كانت جيدة جداً. كان بيل ويلد من أذكى الأشخاص الذين نافستهم. كنت سعيداً لأنني، وإن تعرضت للاختبار على مستوى إنساني في الحملة الانتخابية، قد أبليت بلاءً حسناً. في ماساتشوستس، وحتى بين أساطير من أمثال تيد كينيدي وبيلي بولجر، كنت أزاول السياسية بأسلوبي الخاص، وكنت مرتاحاً بالطريقة التي كنت عليها.

في ليلة الانتخابات، بعد خطاب النصر الذي ألقيته، دعوتُ الرجال الذين خدمت معهم في فييتنام إلى منزلي. سهرنا حتى الساعة الثالثة صباحاً، وقضينا الوقت نتذكر لحظات من أيّامنا معاً في الدوريات الساحلية والعقود التي تلت تلك الأيام. ضحكنا في ذلك اليوم، واغرورقت عيوننا بالدموع، فيما كنا نتذكر دون دروز والآخرين الذين لم يعودوا معنا إلى الوطن.

واجه بعض أفراد الطاقم صعوبات بعد عودتهم إلى الوطن، منها المخدرات، الكحول، صعوبة إيجاد عمل، زوجات أو صديقات غير قادرات على فهم ما رآه الرجال في فييتنام. كل التجاعيد في وجوههم كانت نتيجة معاناة وتعب. وعاد آخرون بصمت إلى حقولهم أو إلى مصانعهم وبدأوا حياتهم من جديد، ممتنين لكونهم على قيد الحياة. أما أنا فكان لديّ رحلتي الخاصة. ويا للروعة، كم كانت لحظة نادرة، تمكنت فيها السياسة، التي لطالما فَرّقت أميركا، من أن تجمعنا كلّنا مرة أخرى بعد سبعة وعشرين عاماً. كنت محظوظاً جداً لأنني حظيت بفرصة أن أقول لكلٍّ منهم، «شكراً لك» . حمداً لله أننا حافظ بعضنا على حياة بعض، في حين كان من الممكن أن تذهب الأمور في الاتجاه المعاكس.

تلك الحملة الانتخابية جعلت تفكيري ينهج طريقة جديدة لم أكن لأشعر بها لشهور عدّة، إن لم يكن لسنوات.

في الصباح، عندما استيقظت، حمل لي مايكل ميهان جريدة نيويورك تايمز وبعض الجرائد الأخرى من كل أنحاء البلاد. كانت التغطية الإعلامية تشير وبشكل واضح إلى أمر واحد، هو أن الفائز بيني وبين بيل ويلد سيكون مرشحاً قوياً في انتخابات سنة 2000. قلت: «لا أريد أن أسمع أي شيء عن هذا الموضوع» ، «اليوم سوف نذهب إلى ورسستر وسبرينغفيلد لنشكر الأشخاص الذين قاموا للتو بإعادة انتخابي» .

بعد أيام، التقيت بيل ويلد لاحتساء كأس من الجعة في حانة مغان بحيّ نورث إيند، لنعلن نهاية معركة انتخابية صعبة ومرهقة.

فيما كنت أرفع نخباً على شرف خصمي، تذكرت ما حدث عندما بات واضحاً أنه هو منافسي ذلك العام، من إثارة للضجة حول خلفياتنا المتشابهة: المدارس الإعدادية، شهاداتنا الجامعية من جامعات رابطة اللباب، الخبرة التي لدى كل منا من العمل كمدعييْن عامّيْن. لقد أظهرت الحملة الانتخابية الاختلافات بيننا ولكن بأفضل طريقة ممكنة. لم يكن الأمر شخصياً بيننا على الإطلاق. كنت مديناً له، فوجود منافس لي مثل ويلد علّمني الكثير عن السياسة، كما لم يعلّمني أحد من قبل.

تعانقنا، وقفل كل منا عائداً إلى منزله.

بعد أشهر، وبعد نصيحة حكيمة من السيدة الأولى للولايات المتحدة الأميركية (هي وويلد عملا معاً في اللجنة القضائية لمجلس النواب الأميركي خلال فضيحة ووترغيت) ومع ضمانات قوية مني ومن تيدي، قام الرئيس كلينتون بتعيين ويلد سفيراً في المكسيك. وعمد حزب ويلد (الحزب الجمهوري) إلى تعطيل ترشيحه في مجلس النواب، وأرسل مسيرته المهنية الواعدة في اتجاه غير متوقع. كان ويلد قد استقال من منصبه كحاكم لولاية ماساتشوستس ليحارب من أجل ترشيحه كسفير، ثم غادر ماساتشوستس إلى نيويورك وحاول أن يترشح لمنصب الحاكم هناك. كان ذلك انعطافاً غريباً في مسيرة واعدة جداً لشخصية مميزة ومؤهلة لم أرَ نظيراً لها منذ ذلك الحين. أمّا أنا، فكانت هناك وعود عليّ الإيفاء بها، وعمل يجب القيام به في مجلس الشيوخ. فقريباً سوف تمر السياسة هناك بتحوّل غير متوقع نحو عالم غريب.

الأعوام التي تلت إعادة انتخابي إلى مجلس الشيوخ سنة 1996 كانت ممتلئة بالمؤشرات الصارخة على تفكّك السياسة الأميركية. لم يبدُ أن هناك أي قطاع من قطّاعات الحياة العامة بمنأى عن ذلك.

عدت إلى مجلس الشيوخ من حملة انتخابات سنة 1996 مفعماً بالحيوية. فقد جعلني السباق الانتخابي مع ويلد أركّز في كثير من الأشياء. رتّبت أفكاري. جعلت عملي التشريعي في حده الأدنى. كنت مركّزاً بشدة في الصراع. عدت وأنا مصمم على تطبيق الدروس المهمة التي تعلمتها خلال التجربة الانتخابية في عملي بمجلس الشيوخ.

خلال الحملة الانتخابية، قضيت الكثير من الوقت في الولاية مع رؤساء بلديات وأطفال في مراكز رعاية الشباب وفي المدارس. وأمضيت أيضاً الكثير من الوقت مع خريجي برنامج يوثبيلد. هذه الزيارات ذكرتني بالعمل الرائع الذي تقوم به برامج محلية كثيرة، لإعطاء الأطفال المعرَّضين للخطر الفرصة في حياة واعدة. كانت الكنائس تديرُ بعضها وتدير بعضها الآخر شراكات بين القطاعين العام والخاص. وكان رؤساء البلديات يعتمدون عليهم. كانوا في أمس الحاجة إلى دعم لكي يتمكّنوا من تكرار ذلك النجاح وتلبية الطلب المتزايد.

لطالما كانت تيريزا ركناً رئيسياً للتدخل المبكر لدعم الأطفال الذي كانت تقوم به مثل تلك البرامج، عبر مقاطعة أليني وبيتسبرغ. غالباً ما تحدثنا عن الأشياء الرائعة الواعدة التي كانت تراها في تلك الجهود. كنّا نتبادل المقالات المنشورة في الجرائد، وتيريزا تحديداً، التي طالما كانت ابنة طبيب ومهتمة في مجال العلم والطب، جعلتني متعلقاً بتعلم المزيد عن علم تطوّر الدماغ. وصعقني ما قرأته في دراسة تلو الأخرى. فقد وثّقت تلك الدراسات الاختلاف في نمو أدمغة الأطفال الذين تغذّوا بشكل سليم، وتمت القراءة على مسامعهم وجرت رعايتهم، مقارنةً بنتائج مَن لم يحصلوا على ذلك قطّ. إن أضرار الإهمال كانت صاعقة ومثيرة للاكتئاب. لم أكن متهماً بالأمر: أيوصم أنه محافظ أم أنه ليبراليّ. عرفت فقط أننا بهذا الإهمال كنا نفقد المزيد من الأطفال، بل فقد جيل كامل.

بدأت تتبلور في رأسي الفكرة الآتية: لمَ، ومن دون أن نخلق أي بيروقراطية فيدرالية جديدة، لا نستخدم أموالاً فيدرالية في مِنَحٍ لمنظمات محلية ذات سمعة حسنة وسجلات حافلة بالإنجازات؟ كان بوسعي تخيل صفقة كبيرة، يمكن للديمقراطيين فيها الحصول على الأموال المطلوبة لتعزيز جهود دعم الطفولة المبكرة، بالإضافة إلى المبادرات بعد-المدرسية. ولكن في الوقت نفسه يفوز الجمهوريون بالسيطرة المحلية التي يقدِّرونها كثيراً، ويصبح

من الممكن أن يتدفّق التمويل إلى منظمات يثق بها الجانبان، لتقوم بالعمل على أكمل وجه.

كان هناك ما يمكن للجميع أن يدعمه: كان من الممكن أن يتدفق التمويل إلى مجموعات علمانية مثل «يوثبيلد» أو إلى الكنائس المحلية، والتي غالباً ما كانت توفِّر التعليم ورعاية الأطفال، لكي يتمكنوا من متابعة عملهم في المدى المنظور. في حالات متعدِّدة، كانت المجموعات ذات الصفة الدينية، والتي لم يكن لها أي ارتباط وثيق بالعمل التبشيري، بل بالمبادرات الإنسانية، هي المجموعات الأكثر فاعلية في تقديم الخدمات. كنا بحاجة إلى حصاد تلك الجهود المبذولة من أجل أطفالنا، ومن أجل بلدنا.

بدأت العمل مع زميلي الجمهوري كيت بوند من ولاية ميزوري على قانونٍ تشريعي. كان مجلس الشيوخ، بحسب ما أعتقد، قد تأسس من أجل الشراكات التي تكسر القوالب الحزبية. كان يبدو أن عملَ جمهوريٍ وديموقراطيٍ معاً على شيء من أجل الأطفال يمكنه أن يجد طريقه لكي يصبح قانوناً.

ولكن سرعان ما راودني شعور أنني أنا وكيت كنا في المكان الصحيح، لكن في الوقت الخطأ تماماً. كان الديمقراطيون لا يزالون يشكّلون الأقلية، وكان مركز ثقل السياسة لا يزال البيت الأبيض برئاسة كلينتون. كنت أظن بعد شراكة الأعوام الأخيرة، أن تُفتح نافذة جديدة للقيام بالأعمال المتوجّبة من أجل البلاد. ولكن منذ اللحظة التي أُعيد فيها انتخاب كلينتون كرئيس، كان الجمهوريون يريدون نزع شرعية رئاسته. كانوا قد أمضوا أغلب فترته الرئاسية الأولى يحاولون ذلك. وكان كلينتون آنذاك أول ديمقراطي ينجح في الفوز بإعادة انتخابه لمنصب الرئاسة منذ فرانكلين روزفلت. كنت آمل أن تزول العراقيل وحملات المعارضة ليحل محلها التعاون والنظام المعتاد.

ولكن ذلك لم يكن مقدَّراً له أن يحدث. كان الكونغرس الأخير لأشخاص مثل جون جلين، الذي جسّد روح إمكانيات الجيل الأعظم. كنت قلقاً وبنسبة كبيرة، من مغادرة الأشخاص الكبار، وحلول قامات قصيرة كانت محلهم. تقاعد السيناتور هول هفلين وحل محله السيناتور جيف سيشنز، وهو جمهوري متطرف يحمل ضغينة لأنه لم يمنح منصب قاضٍ في الثمانينات بسبب سجله في الحقوق المدنية. وكان سيشنز يرفض العمل مع الديمقراطيين.

تقاعد ديفيد بورن من أوكلاهوما، وهو شخص رصين ووسطي وخبير في الأمن الوطني، ليحل محله جيم إينهوف، وهو شخص ينكر حدوث التغيّر المناخي.

كان أساتذتي، هو فريتز هولينجز من « كارولاينا الجنوبية» ، قد صرح بأنه إذا أعيد انتخابه سنة 1998، فسوف تكون دورته الأخيرة أيضاً. كذلك كان يندل فورد من كنتاكي سيتقاعد أيضاً.

كنّا نخسر أشخاصاً مستعدين لاستخدام قواعد مجلس الشيوخ لتبادل الآراء وتشريع القوانين، ليحل محلّهم أشخاص يريدون أن يتباهوا بأنفسهم، وأن يلقوا المواعظ. كان مجلس الشيوخ يبدو أكثر فأكثر أشبه بمجلس النواب: فهو مسرح مباراة يومية في الصراخ، وبات مسرحاً، لا مكاناً للتعاون. وبالتأكيد لم يكن آنذاك «أعظم هيئة تداولية في العالم» .

كانت الشراكات الثنائية بين الحزبين لا تزال ممكنة. فإلى جانب عملي مع كيت بوند، كنت أعمل أيضاً مع سيناتور جمهوري جديد، وهو جوردون سميث من ولاية أوريغون. ولكن المؤسسة لم تستجب بالطريقة التي كانت تستجيب بها فيما مضى.

بدلاً من ذلك، أصبحت البيانات الصاخبة والفظّة والتي تُلقى عبر قنوات الأخبار، هي الحالة السائدة الجديدة في واشنطن. ولكن ما هو أسوأ، بل أسوأ بكثير، هو الذي لم يكن قد حدث.

السابع عشر من كانون الثاني/يناير 1998.

كنت بمنزلي في بوسطن أعمل على خطاب سوف ألقيه في كنيسة روكسبري في يوم مارتن لوثر كينغ. كنت أخطط للتحدث عن أن الأطفال والتعليم هما المعركة الجديدة في حركة الحقوق المدنية. رنّ الهاتف. كان على الطرف الآخر مدير الاتصالات الخاص بي، جيم جونز.

«عليك أن تكون على دراية بهذا لأن المراسلين الصحفيين قد يسألونك عن الموضوع: موقع دردج ريبورت يقول إن كين ستار يحقق في موضوع علاقة غرامية بين كلينتون ومتدرِّبة» .

«دردج ريبورت؟ ما هذا بحق الجحيم؟» .

«إن شخصاً يقوم بنشر أشياء ومقالات إخبارية ونمائم» .

إذا بدا من صوتي في تلك اللحظة أنني حائر، فذلك لأنني فعلاً كنت كذلك. «أهو مراسل صحفي؟» سألته.

«ليس تماماً. لا. إنه مجرد شخص ينشر أشياء على الإنترنت» .

كيف يُتاح لشخص ليس له إلّا موقع خاص على الإنترنت أن يعلم أن كين ستار يحقق أم لا، قبل أن يعلم الكونغرس؟

أدرت التلفاز على محطة السي إن إن. الموضوع منتشر في كل مكان. كان المذيعون كمساعديّ، يحاولون يائسين أن يشرحوا ما هو «دردج ريبورت» .؟ وما كان يعنيه هذا السبق المزعوم.

لم يكن تحويل الحياة العامة إلى فضائح أمراً جديداً عليّ. ففي مجلس الشيوخ، وعلى مدى سنواتي الاثنتي عشرة الأولى، رأيت تغيُّراً في وسائل الإعلام. فالمكاتب الخارجية أُغلقت أولاً بسبب التكاليف، ثم بدأ عدد المكاتب الإخبارية في واشنطن بالتقلص. وكانت قنوات الأخبار تحوّل النشرات الإخبارية من نشرات يومية إلى نشرات تُبَثُ كل ساعة، مغيّرة بذلك تعريف المهلة النهائية للمراسلين الصحفيين دافعة إياهم ليكون كل منهم أول من ينشر القصة. ثم بدأت مؤسسات القنوات الإخبارية في ملء النهار ببرامج الرأي، التي تنطوي مشاحنات حزبية متلفزة، بدءاً ببرنامج «كروسفاير» على محطة السي إن إن، البعيدة كل البعد عن أسلوب المناظرات الطويلة الذي واجهْتُه للمرة الأولى عندما تقابلت مع وليام ف. باكلي في برنامج فايرنغ لاين سنة 1970. لقد شكّلت تلك البرامج دوامة من الضجة تصارعت فيها الأخبار والآراء.

والآن أصبح الإنترنت الوافد الجديد الذي يحفّز هذا الوعاء المضطرب.

خلاصة الأمر: كائناً من كان مات دردج، وبغض النظر عن المكان الذي أتى منه، فهو لن يكون أبداً مجرد شخص على الإنترنت بعد السابع عشر من كانون الثاني/يناير 1998.

كنّا على وشك الدخول في مرحلة غريبة من الحياة السياسية الأميركية.

كانت خبراتي في السياسة ومعرفتي المدعين العامّين تقولان لي إننا متجهون نحو مكان خطير جداً. بالتأكيد، بدا الأمر كما لو أنه كتاب إثارة رخيص: رئيس الولايات المتحدة، متدربة، مرحلة جديدة من تحقيق المدعي الخاص كين ستار الجاري. لكن ومهما بدا الأمر سوريالياً، فإن الأمر حقيقي، ولم يكن بالكامل ملفقاً. كنت أعلم، ولكوني مدعياً عاماً سابقاً، أن ستار لم يكن ليذهب في ذلك الطريق لو لم يكن لديه دليل موثوق على وجود علاقة، دليل يعتقد بأنه سوف يمنحه أفضلية في تحقيقه.

في حين بدا للكثيرين أن الموضوع مجرّد هوس غريب من الجمهوريين، كان تحقيق ستار مرتبطاً ارتباطاً عميقاً بعمق باستراتيجية نزع الشرعية الشاملة.

بدأ الموضوع سنة 1994، تقريباً قبل أربعة أعوام من نشر دردج ريبورت لعنوانها الخُلاعي. كان في الأساس تحقيقاً بسيطاً في صفقة أرض بولاية أركنساس معروفة باسم «وايتواتر» ، تعود إلى سنة 1979. بناء على طلب عائلة كلينتون، وبعد أن عقدت السيدة الأولى مؤتمراً صحفياً صرحت فيه بأنه لم يكن لديهم ما يخفونه فيما يتعلق بوايتواتر، قامت المدعية العامة جانيت رينو بتعيين مدّعٍ خاص للتحقيق بالأمر. بعد مرور عدّة أشهر، اختُصِر عمله بعد أن سمح قانون الإنابة المستقلة بتعيين مدعٍ خاصٍ جديدٍ، مدعٍ لم يختره مدعي كلينتون العام. هيئة من ثلاثة قضاة اختارت القاضي كينيث ستار ليؤدّي ذلك الدور، وكان يحقق، ويحقّق، ويحقق منذ صيف العام 1994.

الآن، مع اقتراب أربع سنوات على ذكرى بدء تحقيق ستار، كانت واشنطن تشتعل بالفضيحة.

شعرتُ بالراحة عندما قام الرئيس كلينتون بعد تسعة أيام، بالنظر غاضباً إلى مجموعة كاميرات التلفزة، وأنكر بشدة تلك الادعاءات.

لا تزال كلماته تلك محفورة في ذاكرة الجميع: «لم أخض علاقة جنسية مع تلك المرأة، الآنسة «لوينسكي» » .

ما يذكره القليل من الناس، هو ما أنهى الرئيس تصريحه به. فقد قال إن عليه أن «يعود إلى العمل من أجل الشعب الأميركي» .

لكن ذلك لم يكن بالأمر السهل. فقد كانت هناك بالفعل حالة من الجنون المتنامي على جهتنا من جادة «بنسلفانيا» .

كان المراسلون الصحفيون يلاحقوننا جميعاً حول موضوع واحد فقط. وكان الشعور السائد في اجتماع المؤتمر الحزبي واضحاً: شبه إجماع على أن تحقيق ستار دام أربع سنوات تقريباً من دون أن يصل إلى نتائج تشير إلى أي تعدٍّ على القانون، وأنه قد أصبح متعسفاً.

ولكن كان هناك، وعلى الدرجة نفسها، خوفٌ أن يكون من الأفضل للرئيس أن يقول الحقيقة بخصوص المتدربة.

نظرت حولي في مؤتمرنا الحزبي، رأيت وجوهاً محبطةً: زملاء يعرفون جيّداً أن الجمهوريين كانوا يسعون إلى إسقاط الرئيس منذ اللحظة الأولى، إضافةً إلى زملاء يدركون أيضاً أنه مهما كانت القضية، فليس من الواجب أن نقع في فخ فرط الحزبية. لم يأتِ أي أحد منا إلى واشنطن لهذا الغرض.

لطالما كان هناك توتر بين الرئيس وزملائه على الجهة الأخرى في الكونغرس، حتى أولئك الذين كانوا ينتمون إلى الحزب نفسه.

كانت لدي علاقة جيدة وبنّاءة مع البيت الأبيض بإدارة كلينتون. لم تكن معرفتي الرئيس قوية إلى تلك الدرجة على المستوى الشخصي. لم أكن أُعَدّ ضمن أصدقائه من موطنه الذين انضموا إليه في البيت الأبيض ليتبادلوا قصص ولاية أركنساس. ولكنني كنت أحبه. عندما أتى إلى جزيرة مارثا فينيارد لقضاء الإجازة، هدف أن يمضي مع عائلته في جزيرة «ناوشن» يوماً هادئاً. ذهبت مع الرئيس في رحلة طويلة وممتعة على متن الأحصنة، كنًا بمفردنا ومعنا عميل واحد من الخدمة السريّة يسير خلفنا على مسافة مئتي ياردة. كانت لحظة نادرة من الخصوصية الحقيقية. كان الرئيس يتمتع بمَلَكَة رائعة في رواية القصص وغريزة وموهبة نادرتين في التواصل. وقد أحدثتْ مساهمته هو والسيدة الأولى في حملتي الانتخابية سنة 1996 فارقاً لصالحي. كنت محظوظاً في نيل مساعدتهما.

ولكنني كنت أيضاً متفهماً شعور الإحباط الذي ناب زملائي. فقد شعر تيد كينيدي بأن إصلاح الرعاية الصحية قد تأذّى جدًّا، وما أثار رثاءه هو أن البيت الأبيض قد أصرّ على مقاربته الخاصة، بدلاً من دمج الجهود مع بوب دول سنة 1993 للوصول إلى شيء كان سيبدو شبيهاً جداً ببرنامج أوباما للرعاية الصحية.

ولكن الشعور بالإحباط لم يكن مقتصراً على تيدي. فالعديد منا، نحن الذين كنا من جيل الرئيس، شعر بالأذية عندما أصغى الرئيس في ولايته الأولى إلى المطّلعين و«الثيران القدماء» (الحرس القديم)، مؤجّلاً القيام بإصلاح جدي لنظام الحملات الانتخابية المالي. كنا أنا وجو بايدين وبيل برادلي قادة جهود لحملة الإصلاح المالي في مجلس الشيوخ. وقد صمّمنا مقاربة مدروسة مبنية على إسهامات عامة وخاصة تضع حدوداً كان من شأنها الحد بشكل كبير من قدرة المال على وضع أجندة العمل في السياسة الأميركية. طلبنا، نحن الثلاثة، لقاءً خاصاً مع الرئيس في المكتب البيضاوي وحصلنا عليه. قدم كل منّا أقوى طرح ممكن لديه. أصغى إلينا باهتمام. وأخبرنا أن بإمكاننا تجديد ديمقراطيتنا وتنشيطها بحمايتنا لقدرة الأشخاص العاديين على إيصال صوتهم. فلو كانت القاعدة الشعبية أكثر قدرة على وضع أجندة العمل في واشنطن، لكنا جميعاً سنؤدي عملنا بشكلٍ أفضل.

عبّرنا أيضاً عن آرائنا في مراكز القوة المالية التي ستقف في طريقه لتحقيق إصلاح الرعاية الصحية، بالإضافة إلى الأجزاء الأخرى من أجندته الإصلاحية. وعبّر الرئيس عن امتنانه ودعمه لجهودنا. وقال إنه سوف يفكر في الموضوع. غادرنا المكان متشجعين ومؤمنين بامتلاكنا فرصة حقيقة للفوز.

في الأيام التالية، تعرّض الرئيس لإلحاح شديد من أعضاء أقوياء في مجلس النواب، بالإضافة إلى بعض أعضاء مجلس الشيوخ وبعض أعضاء القيادة الذين يشكّل لهم النظام الحالي قاعدة قوية لجمع التبرُّعات.

كان يعجبهم جمْع مبالغ كبيرة من التبرعات من دون أن يبذلوا جهداً كبيراً في التنظيم والسفر. كانت تلك طريقة بسيطة مكّنتهم من أن يكونوا «مفيدين» ؛ الأمر الذي كان على الأرجح يعني أنّ جميلاً سوف يردّ في يوم ما. كان النظام يتمتّع بهيكلية عمودية قوية جداً؛ ولم يكن تحويله ليكون أمراً سهلاً، كما أن القيادة لم تكن لديها رغبة شديدة في الإخلال به. للأسف شعر الرئيس أنه بحاجة إلى هؤلاء الثيران القدماء لكي يساندوه في تحقيق إصلاحاته لنظام الرعاية الصحية. أخبره الكثيرون أنه لن يحقق الإصلاحات التي يريدها في نظام الرعاية الصحية إذا قام بإصلاح النظام المالي للحملات الانتخابية. في نهاية المطاف، لم يتمكّن الرئيس من القيام لا بهذا ولا بذاك.

كان ذلك سبباً من الأسباب التي حدت بيل برادلي وديفيد بورن وآخرين عملتُ معهم إلى الابتعاد والتقاعد. لقد أصابهم السعي المحموم وراء المال بالاشمئزاز. لسخرية القدر، انتهى الأمر بعدد من رؤساء اللجان الرئيسيّة وأعضاء القيادة الذين نصحوا كلينتون بعدم إجراء الإصلاح المالي إلى خسارة مقاعدهم في انتخابات العام 1994، في الوقت نفسه الذي خسر فيه الرئيس الأغلبية في مجلسي الكونغرس. والأهم من ذلك، أننا خسرنا لحظة نادرة كنا فيها قادرين على إخراج المال من السياسة، الأمر الذي كان من شأنه، باعتقاد الكثيرين، أن يغيّر السياسة في بلدنا، وأن ينقذ الكونغرس من نفسه.

لكننا كنا هناك وما باليد حيلة. كان الرئيس كلينتون، في رأيي، قد أقدم على عمل جيد جدًّا في الظروف الصعبة التي واجهته. فالناس لا يقدّرون بما فيه الكفاية كم كان صعباً أن تكون رئيساً ديمقراطياً في التسعينات أو، وبصراحة أكبر، ديمقراطياً في الكونغرس.

ومع ذلك، لم يكن من المثير لي أن أعلم أنني قد مررت بمعركة إعادة انتخاب مضنية أمام ويلد، وأن ديوناً للحملة الانتخابية قد تراكمت عليّ تبلغ تقريباً ثلاثة ملايين دولار، فقط لكي أجد أن واشنطن التي حاربتُ للعودة إليها ستغرق في فضيحة جنسية.

لذا، شأني شأن باقي زملائي، ألحت عليّ فكرة وحيدة: من الأفضل له لو أنه كان يقول الحقيقة. وهذا ما كان يؤثّر في قدرتنا على القيام بعملنا.

استمرّت التسريبات قطرةً قطرةً ولمدة أشهر: أشرطة تسجيل، فستان، دليل الحمض النووي (DNA).

في منتصف آب/أغسطس، وبينما كان الكونغرس في عطلة برلمانية، وكنت حينها أعمل في ولاية ماساتشوستس، انفجر السد. جرى استدعاء بوب شروم إلى البيت الأبيض ليساعد الرئيس في مخاطبة الأمة. أخبرني بوب أنه كان ينحاز إلى خطاب بأسلوب اعتذاري يشي بالندم، لكنّ الخطاب الذي اعتمده الرئيس كان أكثر سخونة ومواجهة بعد اعتذار أولي. فقد أوضح كلينتون أن إجاباته السابقة كانت «دقيقة قانونياً» ، لكنّه أقرَّ في نهاية الأمر أنه كان على علاقة غرامية بمونيكا لوينسكي. لكنه أظهر غضباً ملموساً، مهاجماً جهوداً حزبية تهدف إلى تقويض رئاسته، ومحاولاً أن يستعيد حياته الخاصة لنفسه ولعائلته.

كانت تلك إحدى اللحظات السياسيّة التي تجعلك غاضباً من الجميع. ما فعله الرئيس كان خطأً. فإن مجرد سماعك لمثل هذا الأمر كان كفيلاً بجعلك تتساءل عمّا كان يفكر به بحق الجحيم. كنت أستشيط غضباً، لأن رئيساً يعرف كم كان يسعى الجمهوريون إلى تدميره منحهم سلاحاً ليستخدموه ضده. كنت غاضباً لأنه كذب على الأشخاص الذين دافعوا عنه في وقتها. كان توم داشل ينفجر غضباً بسبب القضية؛ إذ شعر أنه قد جازف بمؤتمره الحزبي من أجل كذبة. كنت مستاءً جداً لما حلّ بآل غور، الذي كَفِلَ الرئيس شخصياً، وبات عليه أن يتحمل المسألة إذا كان هو المرشح الديمقراطي التالي للرئاسة.

لكنني كنت أيضاً غاضباً جداً من الجمهوريين الذين قضوا كل تلك السنوات يطاردون نظريات المؤامرة حول كل شيء، بدءاً بوايتواتر مروراً بانتحار فينس فوستر حتى وصلوا في النهاية إلى شيء من الحقيقة لكي يستخدموها بقوة في مهاجمة الرئيس. لو أنهم اكتشفوا أي عمل تجاري غير قانوني أو رشى فساد غير مرتبطة بوايتواتر ولكن في الإطار نفسه، لكان الأمر مقبولاً. كانت خلفيتي كمدّعٍ عام ستجعلني أتقبّل هذا النوع من الصلة في التحقيق. ولكن هذا الأمر برمّته كان يبدو رحلة دنيئة لم يكن يرغب أحد في المشاركة بها.

بيد أن القضية لم تكن لتذهب بعيداً وتختفي. فبعد بضعة أيام، أمر الرئيس كلينتون بشنّ هجمات باستخدام صواريخ كروز في أفغانستان

والسودان، ردّاً على هجمات قام بها تنظيم القاعدة على سفاراتنا في كينيا وتنزانيا في فترةٍ سابقة من ذلك الصيف. كانت عناوين الصحف تتحدث عن عضو من الكونغرس عن ولاية نيفادا، قارن بين الهجمات وفيلم Wag the Dog، الذي يقوم فيه رئيس بشنّ حربٍ للفت انتباه الناس بعيداً من فضيحة جنسية. كان هذا النوع من الهجوم المُحَفَّز بدوافع حزبية إهانة للجنود الأميركيين الذين نفذوا تلك المهمات.

ومع ذلك، كنّا عالقين في انتظار أن يكمل ستار تحقيقه.

كان الرئيس كلينتون يقضي إجازته في جزيرة مارثا فينيارد، محاولاً أن يتوارى عن الأنظار. لا يمكنني أن أتخيل كم كانت تلك الرحلة مؤلمة لعائلته. ولكن في السابع والعشرين من شهر آب/أغسطس، قطع الرئيس إجازته وتوجه نحو ورسستر ليشارك في حدث عام عن وَقْفِ الجريمة والعنف لدى الشباب.

كانت هذه القضايا أموراً عملْتُ عليها عن كثب مع الإدارة. وعلى الرغم من غضبي وإحباطي، إلا أنني كنت أعلم أنه يتوجب عليّ الانضمام إليه في ذلك الحدث. لو أنني لم أحضر لكانت تلك إشارة علنية على أنني لا أريد أن أكون بالقرب من الرئيس أبداً. وقد ينتهي الأمر إلى الإشارة بأنني في المعسكر الذي يطالب باستقالته. لم أكن لأسمح للخطأ الذي ارتكبه الرئيس، وجهود الجمهوريين لجعله القضية السياسية الوحيدة، أن يمنعاني من حضوري حدثاً في ولايتي حول قضية تهمني. ظننت أن حضوري أمر مهم.

ركبنا أنا وتيد كينيدي وعضو الكونغرس جيم ماكغفرن مع الرئيس في سيارته الليموزين مسافة تلك الأميال الستة التي كانت تفصلنا عن الحدث. والتي بدت وكأنها ستون ميلاً.

لم يكن الرئيس لينام قط. تولَّد لدي انطباع أنه صريح جدًّا؛ وواضح جدًّا في حديثه عن المكان الذي وجد نفسه فيه. كانت تلك أكثر اللحظات التي رأيته فيها ضعيفاً. كان يتساءل: هل يجدر به الاعتذار مرة أخرى؟ كان يعلم أنه قد سبّب هذه الفوضى لنفسه ولأصدقائه ولحزبه. ولكن إحساسي الأقوى هو أنه يعيش عذاباً حقيقيّاً مردُّه أثر القضية في هيلاري وتشيلسي. تساءلت عن ماهيّة شعوره أثناء التحديق إلى خارج شباك الليموزين ورؤية اللافتات المؤيدة والمعارضة الملوحة، ومن ضمنها تلك اللافتات المهينة شخصياً حول إخفاقه الأكثر خصوصية وشخصية.

كنت سعيداً لأنني ذهبت، ولكنني جفلت من السيرك الإعلامي القائم هناك. كانوا يقيسون المسافة التي تفصلنا عن الرئيس عندما وقفنا إلى جانبه، وكم عدد المؤيدين الذي اجتمعوا خارجاً مقارنة بعدد المنتقدين. وفي تلك الأثناء، كان المربّون الذين أملوا في أن يكون هذا الحدث فرصة لمخاطبة العامة عن العنف المدرسي وإنقاذ الأطفال قبل خروج حياتهم عن السيطرة، لا يسعهم إلا أن يشعروا بخيبة أمل مريرة لهذا الجنون المستعر الذي طغى على همومهم.

بعد أسابيع، رفع ستار تقريره المؤلف من أكثر من ثلاثة آلاف صفحة إلى الكونغرس. كان بائساً. قلبت عبر صفحاته، وبقدر ما كنت منزعجاً من الرئيس، وجدت أن التفصيل الجنائي الذي سُجلت فيه الفضيحة أمر مثيرٌ للقلق. وخطر لي أنّ العديد من الأشخاص في واشنطن وفي الحكومة لم يكونوا يرغبون في أن توضع حياتهم تحت المجهر. كانت تسري في جسدي قشعريرة من مظهر الحزبيين وهم يتحدثون بملء أفواههم على قنوات التلفاز عن كل تفصيل بذيء. وتزايدت المطالبات باستقالة الرئيس ومحاكمته برلمانيّاً.

تساءلت حول وجود فرصة لوضع حدّ لهذا الأمر. فكلّما طال أمد الحديث في هذه الفضيحة، بقيت كابيتول هيل مشلولة. لم يسعني تصوُّر أن أغلب الجمهوريين يريدون فعلاً أن تستنزف هذه القضية واشنطن إلى ما لا نهاية. كنت أدرك أيضاً أنه كلما أبقى الزعماء الحزبيون هذه المسألة في مركز الأمور، فإن حياتهم الشخصية تصبح مباحة للصحافة. وبالفعل دارت شائعات حول رئيس مجلس النواب الجمهوري.

هل كانوا حقاً يريدون أن تكون هذه هي القضية الرئيسية؟ ركبت مع فريتز هولينجز في مترو الأنفاق المخصص لمجلس الشيوخ في طريقنا إلى تصويت هناك. قال لي: «وو-وي، إذا حاكمت رئيساً برلمانيّاً من أجل علاقة غرامية، فسيصبح لديك العديد من الرؤساء المحكوم عليهم.» ثم ضحك.

كنت أعلم أيضاً أنَّ في أي قضية سياسية، بمسألة أخلاقية، ومسألة رياضية. كان الحزب الجمهوري يتحكم بمجلسَيِ الكونغرس. كان يستطيع أن يفوز في التصويت على محاكمة الرئيس في مجلس النواب بأغلبية بسيطة، ولكن هذا الفوز نفسه كان سيهدد بعض الجمهوريين المعتدلين في الدوائر الانتخابية الصعبة.

ولكن محاكمة الرئيس برلمانيّاً سوف تحدث في مجلس الشيوخ، وستتطلب إدانته «بجناية أو جنحة» تصويت ثلثي الأعضاء بالموافقة، ذلك كان

أمراَ صعباَ. فسيحتاج الأمر إلى كل الجمهوريين، بمن فيهم الجمهوريون الليبراليون من ولايات مين وفيرمونت وبنسيلفانيا، بالإضافة إلى اثني عشر ديمقراطياً، لكي يُعزَل الرئيس من منصبه. من الناحية الحسابية العددية، كان الأمر غير محتمل في أفضل حالاته. تذكرت شيئاً كان يقوله هاري ريد على سبيل النكتة عندما كان المنسّق العام للكتلة النيابية للديمقراطيين: «هم لم ينتخبوني لكي أتحدث، بل انتخبوني لكي أقوم بالعد» . أي شخص يمكنه العد كان يدرك أنه لن يكون هناك أبداً أصوات كافية لعزل الرئيس من منصبه في مجلس الشيوخ.

أتيتُ بفكرة من شأنها أن تضع نهاية لهذه المسألة، نهاية كانت سترضي الجميع. كانت استراتيجيتي مواجهة الحقائق المؤلمة مباشرة وبسرعة. في عطلة نهاية الأسبوع التي تلت صدور تقرير ستار، ظهرتُ في بعض البرامج الإخبارية التي تُبث يوم الأحد، واقترحت أن يدلي الرئيس بشهادته أمام اللجنة القضائية لمجلس النواب، وأن يجيب عن جميع الأسئلة التي ستُطرح عليه، وأن يفسر لماذا قام بتضليل الأمة. وفي المقابل، سيلتزم الكونغرس تصويتاً مُعجّلاً على تأنيب الرئيس رسمياً. أعتقد أن هذا الاقتراح كان سيحظى بموافقة جميع أعضاء مجلس الشيوخ، كان سيبدو تأنيباً قوي اللهجة. وللمرة الأولى منذ سنة 1834 سيتعرض الرئيس لتأنيب رسمي. بدا لي أن عقوبةً تستخدم مرةً كل 150 سنة هي عقوبةٌ كافية. دعم اقتراحي ديان فاينشتاين وآخرون معه. كان ذلك الاقتراح سيمثل عدالة سريعة تتحقق في غضون أسابيع، بدلاً من أزمة سياسية ستستمر على مدار العام.

لم يرفض البيت الأبيض الاقتراح، لكنَّ الحزب الجمهوري فعل. لم يكونوا على عجلة من أمرهم. كانوا يرون في الأمر ورقة رابحة.

بعد شهر من ذلك، قام ناشر مجلة هسلر الإباحية لاري فلينت بنشر تحدٍّ في مجلته، فحواه: المال مقابل الفضائح. كان مستعداً لدفع المال مقابل قصص عن الجمهوريين الذين كانوا يدعمون محاكمة الرئيس، ولكنهم في الوقت نفسه يخونون زوجاتهم في علاقات غرامية. كانت واشنطن قد وصلت إلى الحضيض فعلاً.

في انتخابات التجديد النصفية، لم تتحقق الموجة الجمهورية الكبيرة التي وعد بها نيوت غينغريتش كنتيجة لفضيحة كلينتون: بقي التوازن القائم على حاله في مجلس الشيوخ، وحقق وافد جديد موهوب يدعى جون إدوارد فوزاً مزعجاً للجمهوريين في ولاية نورث كارولاينا؛ وفي مجلس النواب، تمكنّا من زيادة مقاعدنا، خمسة مقاعد في الواقع. كانت تلك نهاية نيوت غينغريتش. فقد كان حزبه واضحاً أنه لن يقبله رئيساً لمجلس النواب بعد الآن.

ومع ذلك، بدا أن أعضاء مجلس النواب الجمهوريين كانوا مصممين على المضي قدماً بخطة غينغريتش لمحاكمة الرئيس برلمانيّاً.

في منتصف شهر كانون الأول/ديسمبر، أمر الرئيس كلينتون بشن غارات جوية تستهدف العراق لإجبار صدام حسين على السماح بعودة مفتشي الأسلحة إلى العراق. كان العديد منّا في الكونغرس يطالب الرئيس بالمزيد من الضغط على صدام حسين. كان يجب أن يُسمع صوت تصفيق أعضاء الكونغرس للغارات الجوية في بغداد. ولكن بدلاً من ذلك كانت لحظة خلاف جديدة: إذ صرح زعيم الأغلبية الجمهورية في مجلس الشيوخ ترينت لوت الدمث عادةً أن توقيت الغارات مثير للشبهات.

بعد ثلاثة أيام فقط، صوَّت مجلس النواب على محاكمة الرئيس برلمانيّاً بتهمتي الحنث باليمين وعرقلة سير العدالة. كانت المحاكمة ستبدأ الشهر التالي في مجلس الشيوخ. وكم كانت عطلة عيد الميلاد تلك مريرةً.

عندما عدنا، ولمدة خمسة أسابيع، انعقد مجلس الشيوخ كمحكمة، حيث كان جميع أعضائه البالغ عددهم مئة عضو يخدمون كهيئة محلفين.

لا يسعني أن أخبركم كم كان غريباً أن أرى رئيس المحكمة العليا، القاضي وليام رينكويست هذا، ينحدر نازلاً على الدرجات الرخامية لأعلى هيئة قضائية في البلاد ويعبر شارعاً ليصعد بصعوبة درجات مبنى الكابيتول (مبنى البرلمان الأميركي) المئتين، لكي يترأس المحكمة المؤقتة التي عُقدت في مجلس الشيوخ. كان رينكويست غريب الأطوار كعادة أولئك الذين يعيّنون لمناصب مدى حياتهم: فقبل بضع سنوات أضاف أربع شرائط ذهبية إلى أكمام ثوبه الأسود تماماً، كتحية صامتة منه لشخصيته المفضلة: رئيس مجلس اللوردات، والتي ظهرت في مسرحية غنائية كتبها جيلبرت وسوليفان.

كان سريالياً جلوسي في مقعدي، وإصغائي إلى نقاشات حول عزل رئيس الولايات المتحدة، وليس حول القوانين والتشريعات.

كما هي العادة في أي هيئة محلفين، كان علينا أن نتداول آراءنا بشكل سري.

خطر لي، على ما أذكر، كم كان سيكون مفيداً للشعب الأميركي ذلك الوقت لو أنه امتلك فكرة عن تلك المداولات السرية. فقد كانت على النقيض تماماً من الجدالات المتبادلة التي ملأت الأجواء لشهور.

كان أعضاء مجلس الشيوخ يأخذون تلك المداولات على محمل الجد. في الليلة السابقة، سهرت طوال الليل في مكتبي لكي أُحضِّر حجتي المنطقية، والتي كنت سأتلوها عندما يحين دوري في الكلام في مجلس الشيوخ. عادت بي الذاكرة إلى بداية دراستي الكاثوليكية. أخرجت القاموس، وتأكدت من الفرق بين كلمتي «الخطيئة» و «المعصية» ؛ الفرق بين خطيئة لا تغتفر وخطيئة يمكن غفرانها بحسب الظروف التي أحاطت بها. بدا لي ذلك كمقارنة مقبولة.

كانت لهجة الحوار في الغرفة بعد رحيل الكاميرات محترمة وبناءةً، بغضّ النظر عن الحزب الذي ينتمي إليه كل فرد من أعضاء مجلس الشيوخ. ربما كنّا قد أدركنا أن السياسة المتحزبة قد ذهبت أبعد من اللازم. ربما كنّا ببساطة مرهقين. ولكنني أعتقد أن الموضوع كان مختلفاً. لم يكن الرئيس بمفرده تحت المحاكمة، بل مجلس الشيوخ أيضاً، وأغلب الأعضاء كانوا على دراية بذلك.

في النهاية، صوّت أربعة وخمسون عضواً فقط على إدانة الرئيس بتهمة الحنث باليمين، وخمسون عضواً على إدانته بتهمة عرقلة سير العدالة. لم يكن الرئيس قريباً حتى من تعرضه للعزل، ولكن، وبجميع الأحوال، كانت تلك سنة قد أضعناها.

تساءلت إن كان الجمهوريون الذين أصرّوا على المضي قدماً بهذا الصراع، سيقبلون اقتراحي بتأنيب رسمي للرئيس يشارك فيه الأعضاء من الحزبين. ازدادت رغبتي في التساؤل عندما اضطر رئيس مجلس النواب الجمهوري الذي تولّى المنصب بعد غينغريتش إلى الاستقالة، بعد أن فضح لاري فلينت علاقته الغرامية في ذلك الشهر. تخبّط الجمهوريون في مجلس النواب للعثور على بديل مناسب. في النهاية استقر رأيهم على عضو غير معروف نسبياً، وهو «ديني هاسترت» ، الذي كان مدرباً رياضياً سابقاً في مدرسة ثانوية، والذي كان سينتهي به الأمر في السجن بعد أن كُشِفَ عن حقيقته كمتحرش بالأطفال بعد ثمانية عشر عاماً. كم كانت رحلة غريبةً تمر بها واشنطن.

لاحقاً، وفي ذلك العام، إذ كنت في طريقي إلى ميانمار للقاء أونغ سان سو كي. التي أصبحت رمزاً عالمياً للديمقراطية: صراع امرأة مع القمع والوحشية. كانت ترتدي ملابس بيضاء بالكامل كما كان يفعل مؤيدوها أيضاً، في إشارة منهم إلى المطالبة بحق المرأة في التصويت في الانتخابات. شهدت اغتيال والدها، وخضعت للإقامة الجبرية سنوات عدّة، فيما كانت تكافح لإجبار المجلس العسكري الحاكم في بلادها على السماح بانتخابات حرة.

رأيت كم كان يصارع الكثيرون بقوة ليحصلوا على ما كان يعتبره البعض في الولايات المتحدة من المُسلّمات، وهو الديمقراطية. تساءلت إن كانت ثمة طريقة لإعادة بعض المنطق إلى المؤسسات التي كانت تعمل في بلادنا لمئات السنين، إذا كان هناك من طريقة لجعل النظام يعمل قبل أن نصل إلى تصويت على محاكمة الرئيس برلمانيّاً. كنت سأستمر في طرح هذه الأسئلة لفترة طويلة جداً.

كنت في بانكوك أنتظر الطائرة التي ستقلّني إلى ميانمار، عندما رن هاتفي. لقد شبّ حريق مأساوي في مدينة ورسستر بولاية ماساتشوستس، حيث قُتل ستة رجال إطفاء في الحريق الذي شبّ في بناء قديم ومهجور لشركة تخزين Cold Storage and Warehouse، يقع في شارع فرانكلين. تحوّل المبنى بسبب العزل الموجود في جدرانه إلى فرن مشتعل. فسقط جرّاء ذلك الرجال الشجعان، الذين دخلوا إلى المبنى لإطفاء الحريق، ضحايا.

قمت من فوري بإلغاء رحلتي إلى ميانمار. وحجزت مقعداً على الرحلة التالية الذاهبة إلى بوسطن. كان عليّ أن أطير سبعاً وعشرين ساعة لأعود إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية، لأنني أردت أن أقف متضامناً مع عائلات الضحايا. في عمل يسيطر عليه المسرح السياسي. فقد صُدمنا بمأساة واقعية، وأذهلتنا شجاعة أبطال حقيقيين غير مشهورين.

فيما علا نحيب مزامير القربة في الحفل التأبيني، وفيما وقف الديمقراطيون والجمهوريون جنباً إلى جنب ليصلوا لأرواح الضحايا، لم أفكر كم هي الحياة عابرة فحسب، بل كيف أن هؤلاء، الذين كانوا أول المستجيبين، قد استيقظوا في ذلك الصباح، وقبّلوا زوجاتهم وأطفالهم. وبعد بضع ساعات دخلوا مبنىً مشتعلاً للمرة الأخيرة في حياتهم. لقد قاموا غريزياً بالعمل الصحيح، من دون أي جلبة، وضحّوا بحياتهم مقابل ذلك.

كم كان يبدو قضاؤنا، كل تلك الأيام في آلة الضجيج العبثي التي تحوّلت إليها واشنطن، مضيعةً للوقت. كان ذلك إهانة لرجال الإطفاء أولئك، ولكل شخص كان يعوّل على أن يتصرف قادته كأشخاص ناضجين.

في واشنطن، كانت الحملة الانتخابية لخلافة الرئيس كلينتون في ذروتها. كنت آمل أن تُتاح، بعد الانقسام الذي عشناه في السنوات الماضية، فرصة مجرّد فرصة لفتح صفحة جديدة. كانت البلاد في أمسّ الحاجة إلى نوع مختلف من السياسة، وقد تجلت تلك الروح بعدّة طرق. وعلى الرغم من أن آل غور لم يكن يتمتع بمواهب الرئيس السياسية الطبيعيّة، إلا أنه كان قادراً

على أن يقدم نفسه على أنه بيل كلينتون، لكن من دون الفضائح الشخصية. كان ذكياً ومقتدراً، وكنت مؤمناً بأنه سيكون أول جندي سابق خدم في فييتنام يتولى منصب الرئاسة، إذا لم يسبقه إلى ذلك واحد من أصدقائي الجمهوريين هو: جون ماكين، الذي كان يستعد للقيام بتمرد داخل الحزب الجمهوري مُحرزاً فوزاً مهماً في الانتخابات الأولية في ولاية نيوهامبشير، التي تكون على الدوام أولى الانتخابات الأولية على مستوى البلاد.

كنت أتفق مع آراء آل غور في أغلب المسائل، وكنت أحترمه تحديداً للعمل الذي قمنا به معاً من أجل مواجهة الاحتباس الحراري، قبل أن يصبح أمراً يتداوله الجميع. ولكن حملة جون على الجانب الجمهوري كانت أكثر جاذبية بكثير. كان يستفيد من الحماسة العالية في البلاد للتغيير. وكان إيثاره للوطن وعزمه على إعادة تنظيم واشنطن أمرين منعشين. لكن حاكم ولاية تكساس جورج دبليو بوش المُموَّل جيداً لم يكن ليستسلم بسهولة. كان بوش قد بنى حملته الانتخابية على ادعائه أنّه من خارج اللعبة السياسية في واشنطن، ليصوّر نفسه أنه قادم ليغيّر الأمور هناك، الأمر الذي رأيته ادّعاءً غريباً بالنظر إلى أن والده كان رئيساً سابقاً للولايات المتحدة، وأن جده كان سيناتوراً سابقاً أيضاً. بعد أن انتصر ماكين على «بوش» انتصاراً ساحقاً في نيوهامبشير، كانت مواجهتهما التالية في ولاية كارولاينا الجنوبية. كنت أشاهد قناة السي إن إن عندما لمحت وجهاً مألوفاً من الماضي البعيد، كان يقف خلف بوش في تجمُّع للمحاربين القدماء في مقاطعة سومتر من ولاية كارولاينا الجنوبية: لقد كان جي. توماس بورش. رفعت صوت جهاز التلفاز. كان بورش يتهم جون ماكين بالتخلي عن المحاربين القدماء. يرى المشاهد العادي أن بورش يُقدَّم على أنه رئيس منظمة تعنى بشؤون المحاربين القدماء، ولكنني تذكرت شيئاً آخر: كان بورش من أولئك الذين اتّهموني أنا وجون ماكين بخيانة محاربي فييتنام القدماء. كان جمهوره الجمهور نفسه الذي وصم جون ماكين بأنه المرشح الخائن؛ وعارض كل خطوة اتخذناها في تحقيق «سجناء الحرب المفقودين في العمليات الحربية» (POW/MIA). كان محتالاً. فقد هاجم الرئيسين ريغان وبوش الأب، بالإضافة إلى مهاجمته لي ولجون، لعثورنا على الحقيقة. ومع ذلك فإن بوش كان يستفيد من تأييده في انتخابات أولية، حيث يمكن لأصوات المحاربين القدماء أن تصنع الفرق.

اتصلت بأصدقائي من محاربي فييتنام القدماء في مجلس الشيوخ: بوب كيري وتشاك هاجل وتشاك روب وماكس كليلاند. كان علينا أن ندافع عن جون. كان علينا أن نُظهِر الحقيقة على الملأ. خلال نصف ساعة، أنجزنا رسالة

إلى الحاكم بوش دفاعاً عن شرف جون. تبادلناها بالفاكس لكي يقوم كل منا بتوقيعها، ثم أرسلناها إليه. كانت لحظة نادرة من التعاون الحقيقي بين الحزبين: صحيح أن مجلس الشيوخ المفكك ذلك لم يكن قادراً على سن التشريعات والقوانين، ولكننا نحن الخمسة لم نكن لندع الانتماءات الحزبية تمنعنا من الدفاع عن صديقنا الجمهوري. رفاق السلاح كانوا أهم من الحزب. لن أنسى أبداً ردّ فعل جون عندما علم بما قامت به مجموعة من إخوته في مجلس الشيوخ دفاعاً عنه، فقد قال إنّ الرابطة التي تجمعنا هي «كل الشرف الذي يحتاج إليه العالم» . كان ذلك شعورنا جميعاً. ما أدركناه بشكل متأخر هو أن الهجوم على جون بصفته من المحاربين القدماء كان مجرد مقدمة لما كانت حملة بوش الانتخابية تخبئه له. كانت هناك اتصالات هاتفية آلية واتصالات هاتفية مجهولة المصدر تدَّعي أن لدى جون بنتاً غير شرعية من مومس ذات أصول أفريقية، في الوقت نفسه الذي كان يجري فيه تداول صور ابنة جون التي تبناها من بنغلادش في «كارولاينا» الجنوبية على أنها هي تلك البنت غير الشرعية. كان ذلك أمراً خسيساً. ولكن، وللأسف، فإن الهجمات التي قامت بها حملة بوش الانتخابية صنعت الفارق في انتخابات «كارولاينا» الجنوبية، وانتهت حملة جون ماكين الانتخابية الساحرة بسرعة. كان السباق الرئاسي سيجري بين فرد من عائلة بوش وفرد من عائلة آل غور، وهو صراع بين سلالتين سياسيتين، ولم أكن بحاجة إلى أن أفكر مرتين، حتى يتبيّن لي على أي جانب سأقف.

في بداية الصيف، اتصل بي وزير الخارجية السابق وارن كريستوفر ليطلب ترتيب لقاءٍ بيننا. كان يترأس فريق البحث عن نائب رئيس لحملة غور الانتخابية. وقد أرادوا أن يأخذوا اسمي في الاعتبار. وافقت على أن يجري تقييمي. لم أفكر بنفسي قط بوصفي الشخص الثاني في القيادة في الحلبة السياسية. لكن مايكل هولي حاججني بأن تراكم صفاتي السياسية ومعرفتي، كوني من المحاربين القدماء ومدّعياً عاماً سابقاً، وكاثوليكياً، ومراقباً متابعاً، سيشكّل أرجحية للحملة الانتخابية في سباق انتخابي متقارب.

جاءت عملية التقييم في وقت صعب على عائلتي. فقد عاد السرطان إلى جسم أبي، وفي هذه المرة أصاب عظامه. قرر أبي ألا يحارب المرض بعد الآن. لذلك كان لدي سبب جديد لكي أعود إلى منزلي في بوسطن خلال عُطل نهاية الأسبوع، كلما سنحت لي الفرصة. وكنت كلما زرته أفكّر هل زيارتي له ستكون الزيارة الأخيرة؟

كانت حملة آل غور الانتخابية تسرِّب الكثير من المعلومات للصحافة حول عملية اختيار المرشح لنائب الرئاسة. وفيما أكّدت عناوين الصحف

الشائعات التي تقول إنّني أحد المرشحين النهائيين الثلاثة، مع زميلَيَّ من مجلس الشيوخ جو ليبرمان وجون إدواردز لآل غور فقد أصبح من الأصعب عليّ زيارة أبي والتمتع بالخصوصية التي يستحقها ويتوقّعها. في كل مرة أُشاهَد ذاهباً إلى أي مكان، بما في ذلك المستشفى، كانت جريدة بوسطن غلوب تحاول أن تستشف معنىً مخفياً من ذلك. فقد عيّنت الجريدة مراسلاً ليراقب باب منزلي في واشنطن وبوسطن لرصد كلّ تحركاتي. من ناحية كانت عملية التقييم تجعلني مشغولاً؛ وفي بعض الأحيان كانت تُسهم في إبعادي عن التفكير بمرض أبي. ولكن على المقلب الآخر، كان هناك الكثير من الأوقات التي أردت فيها فقط أن أزور أبي على سرير مرضه بشكل سري، أو أن أركب دراجتي الهوائية في رحلة طويلة لكي أُبعِد تفكيري عن الأمر المحتوم ولو لمدة ساعة. لا يمكن للمرء أبداً أن يكون مستعداً لوداع أحد والديه، مهما بلغت مدة المرض الذي يعاني منه، ومهما كانت النتيجة متوقعة. وفي حين أن والدي كان دائماً شخصاً رزيناً وغير انفعالي، ورثت عنه خياراته والأشياء التي شُغِف بها في حياته، بما في ذلك السياسة الخارجية والطيران والإبحار، أنا ابنه الأكبر. لم تكن وفاته لتكون نقطة تحوُّل سهل في حياتي.

توفي والدي في التاسع والعشرين من شهر تموز/يوليو في بوسطن، وكنت خططت أنا وكام وأخواتي لجنازة هادئة وخاصة بالعائلة تليق برجل لم يكن ليسترعي انتباه العامّة من الناس. كان اهتمامنا آنذاك منصباً على أمّنا، التي، وعلى الرغم من أنها حضّرت نفسها جيداً لهذا اليوم، إلا أنها فقدت شريك حياتها لمدة ستين عاماً. قضيت أنا وتيريزا عطلة نهاية أسبوع في نانتوكيت، حيث وزّعتْ وقتها بين محاولة تشجيعي على الحديث عن وفاة والدي، والقيام بأي شيء لتلطيف الجو.

في صباح يوم أحد مشرق، قُرع باب منزلي. فتحت الباب لأجد تيد كينيدي. كان قد أبحر قادماً من هاينازبورت ليزورني. تساءلت في سري كم مرة قام تيدي بمثل هذه المبادرة المراعية، وبمثل هذه العفوية المطلقة. كان ذلك يتعدّى كونه أيرلنديّاً حتى في أفضل الأحوال؛ كان تصرفاً نابعاً من شخص عانى خسارة مشابهة في حياته، وهو يدرك قيمة الراحة التي يشيعها وجود الأصدقاء حول الشخص الواقع تحت تأثير تلك اللحظات الصعبة.

بعد ثمانية أيام من وفاة والدي، كنت قد عدت إلى واشنطن، وكانت عطلة مجلس الشيوخ ستبدأ قريباً لكي تبدأ المؤتمرات الحزبية. في الثامن من آب/أغسطس استيقظت على أخبار التلفاز التي تقول إنّ آل غور قد اختار جو ليبرمان مرشّحاً معه لمنصب نائب الرئيس. كانت حملة آل غور الانتخابية قد سرّبت الخبر، ولكنها لم تصدر بعد الإعلان الرسمي. كان المسرح مُعدّاً

لتجمُّع انتخابي في ساحة المحاربين القدماء في ناشفيل. يومها أحاطت الكاميرات بمنزلي، ووقف المراسلون الصحفيون تحت شمس آب الحارقة لكي يحصلوا على تعليق مني على الأمر. لم تكن الصحف التي يعملون لديها لتسمح لهم بالعودة إلى المكاتب المكيّفة من دون ذلك. المشكلة الوحيدة كانت أنّني لم أتحدث مع نائب الرئيس. فبسبب الانشغال الكبير في الحملة الانتخابية، لم يتسنَّ لهم أن يعلنوا الخبر رسمياً، أو أن يبلغوني رسمياً بالأمر، مما كان سيسمح لي للتعليق على الأمر علناً، وبالتالي الهروب من الإقامة الجبرية التي فرضتها عليّ وسائل الإعلام. كان الأمر فكاهياً إلى درجة ما. أخيراً اتصل بي رئيس حملة آل غور الانتخابية بيل دايلي ليشكرني على كل شيء، ولينقل إليّ الخبر المعروف. خرجت إلى الصحافيين الواقفين خارجاً، وهنأت صديقي القديم جو ليبرمان، وأصبحت حراً لأعود إلى حياتي الطبيعية.

قمت بأفضل ما لدي لمساعدة حملة آل الانتخابية: حضرت المناظرة الأولى في بوسطن، وسافرت عبر البلاد كلها كممثل عن الرئيس في الأسبوع الأخير من السباق الانتخابي بناءً على تعليمات مايكل هولي. جعلني مايكل أتنقّل من ولاية إلى ولاية في كل مكان كانت فيه نتيجة السباق الانتخابي متقاربة وغير محسومة: من ولاية ويسكنسن إلى بنسلفانيا ونيفادا وأوريغون، مروراً بكاليفورنيا، لوقفة صغيرة هناك. كان ديك تشيني قد زار مقاطعة أورانج كاونتي المحافظة فجأة، ليحاول أن يغيّر نتائج ولاية معروفة بولائها للديمقراطيين، وأراد هولي أن ترد الحملة الانتخابية بممثل للرئيس رفيع المستوى. عقدت مؤتمراً صحفياً في مدينة ملاهي أورانج كاونتي، على بعد مئات الأقدام فقط من المكان الذي كان تشيني سوف يلقي كلمته فيه. قدّمت سجل تصويت تشيني اليميني المتطرّف كعضو في مجلس النواب، لأفضح كذب ادعاء حملتهم بأنهم محافظون معتدلون. فيما كنّا نغادر المكان، لاحق حافلتنا حشد يحمل لافتات بوش-تشيني. كانت وجوههم غاضبة، فيما كانوا يكيلون لنا الشتائم والإشارات البذيئة. رفعت لهم إبهامي وضحكت كثيراً. لقد كان أمراً ممتعاً بحق.

عشية اليوم الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر 2000، كنت في بوسطن. وكان تيدي قد فاز بإعادة انتخابه للدورة السابعة ذلك المساء، حيث جمع 73% من الأصوات. كان فوز تيد متوقعاً. ولكنني كنت أتوقّع أن يكون السباق الانتخابي لمنصب الرئاسة شديد التنافس. كنت مع تيدي خلف الكواليس في حفلة انتصاره، عندما سمعنا صيحة من رواد الحفلة المتجمّعين في القاعة على الجهة الأخرى من الستارة. صاح من الجهة الأخرى ابن أخي تيد، الذي كان يدير حملته الانتخابية: «أعلنت قناة الإن بي سي للتو أن ولاية فلوريدا قد صوتت لصالح آل غور. لم تكن الساعة قد أشارت إلى الثامنة. ملأني التفاؤل

فيما كنت أفكر في احتمال ألّا تكون هذه الليلة، هذه الليلة فقط ليلة طويلة جداً. فقد أثمر رهان آل غور على الفوز بولاية فلوريدا التي كان حاكمها الأخ الأصغر لبوش. ظننت أن «آل» سوف يفوز بالانتخابات. بعد حوالى ساعة من ذلك، صوّتت ولاية أوهايو لمصلحة بوش، وكذلك صوتت له ولاية تينيسي، وهي الولاية التي ينحدر منها آل. لابد من أن ذلك قد سبب ألماً له، فقد خسر الولاية التي مثّلها والولاية التي خدم فيها والده كعضو في مجلس الشيوخ. ولكن تيد مزح قائلاً: «سيكون الألم أخف كثيراً عندما يكون في المكتب البيضاوي» .

أراد تيدي بحكمة مخاطبة جمهوره، فيما كانت الأمور تبدو واعدة لمصلحة آل. قدم خطابه وصافح المتطوعين في حملته. كان بعضهم من المخضرمين في العمل على حملات «كينيدي» الانتخابية منذ حملة «تيد» الأولى، عام 1962، بمن فيهم أنا.

فيما كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً، سرت في قاعة الاستقبال همهمة مختلفة تتخلّلها بعض صيحات الاستهجان: أعلن مذيع الإن بي سي، تيم روسرت أنهم سيعيدون ولاية فلوريدا إلى ولاية «غير محسومة التصويت» .

دعوت بعض الأصدقاء والعاملين لديّ إلى منزلي لنشاهد نتائج الانتخابات. مع مرور الوقت كانت الخريطة الانتخابية تتحول تدريجاً إلى اللون الأحمر، ثم بدأ اللون الأزرق يطغى قليلاً، فيما صوّتت ولايات الساحل الغربي لآل غور.

في الساعة 2:17 صباحاً، أعلنت وكالة أسوشييتد بريس أن ولاية فلوريدا قد صوتت لمصلحة بوش. صرفْتُ الجميع إلى منازلهم، وذهبت إلى السرير، وحاولت يائساً أن أنام. ولكن محاولاتي ذهبت سدى، فقد بقيت أتقلّب في فراشي لبضع ساعات قبل أن أستسلم وأنزل إلى الطابق السفلي وأشغل التلفاز، لأكتشف أن شبكات الأخبار قد أعادت ولاية فلوريدا إلى ولاية غير محسومة النتيجة. بعثت برسالة إلى مايكل هولي في ناشفيل، ورد علي بـ «إعادة فرز الأصوات» .

بعد بضعة أسابيع، وبعد أن وصلت قضية إعادة فرز الأصوات إلى المحكمة العليا، جلست هناك لأشاهد المرافعات الافتتاحية في قضية بوش ضد آل غور. كمواطن كان انتباهي مشدوداً إلى الأحداث التي تدور أمامي. كنت أرى لحظات تاريخية. كنت غاضباً جداً لحرمان الكثير من الأميركيين من

ذلك، وكنت غاضباَ أكثر من تعامل وسائل الإعلام مع القضية على أنها امتداد للسباق الانتخابي للرئاسة، لا اختبار لديمقراطيتنا.

خسر آل غور القضية في المحكمة العليا. كنت واثقاً كلّيًّا أن آل قد فاز بالانتخابات، ولكنه حُرِم من الرئاسة بسبب خطأ تقني. ومرة أخرى كنت سأخدم في مجلس الشيوخ ضمن الأقلية الديمقراطية بإدارة رئيس جمهوري.

كنت أظن أن الرئيس بوش الذي أدّى يمين الرئاسة حديثاً سيضطلع بمسؤولية توحيد الأمة المنقسمة، ولكنه تصرف بأجندة متحزّبة. فالعديد من الأشخاص الذين رشَّحهم لتولّي المناصب كانوا من الجناح اليميني المتطرّف، مثل السيناتور السابق جون أشكروفت الذي رشّحه لمنصب المدعي العام الفيدرالي.

أعلن الرئيس عن تخفيض ضريبي ضخم يستفيد منه بشكل كبير أغنى الأميركيين. كنت معارضاً لذلك باعتبار المسألة مسألة عدالة أساسية. لم أكن أرى أنني وتيريزا كنّا بحاجة إلى تخفيض ضريبي أكثر من حاجة الأطفال إلى مدارس جيدة أو من حاجة المدن إلى إصلاح بناها التحتية المتآكلة.

أعلن بوش أنه يريد السماح بالتنقيب عن النفط في محمية ألاسكا القطبية للحياة البرية، والذي كان قراراً سياسياً لا طائل منه لتدمير أخر البراري العذراء في بلادنا من أجل نفط صعب الاستخراج. كانت عقود التنقيب عن النفط بمفردها ستخلّف فوضى من الحفر الاستكشافي، الأمر الذي من شأنه أن يشوّه، وإلى الأبد، حقول التندرا العذراء. مارست كل الألاعيب السياسية للمماطلة في تمرير القرار، فيما كنت أجمع الأصوات وأتابع عن كثب الديمقراطيين من الولايات المنتجة للنفط. بضعة جمهوريين من جناح تيدي روزفلت المتضائل بسرعة في الحزب الجمهوري، بمن فيهم جون ماكين انضموا إليّ. وفي النهاية فزنا. وقد ولَّد ذلك شعوراً جيداً.

لكنني كنت أيضاً محبطاً. فقد كنت أبلغ الثامنة والخمسين من العمر، وأشعر أن أفضل ما يمكنني القيام به كعضو في مجلس الشيوخ، هو منع حدوث الأشياء السيئة.

كنت أتقبل فكرة ترشحي للرئاسة سنة 2004 أكثر فأكثر. بدأت أقضي عطل نهاية الأسبوع مسافراً من مكان إلى آخر لأساند انتخاب الديمقراطيين في كل مكان. حظيت بفرصة التعرف إلى أشخاص وأماكن لم أمضِ فيها الكثير من الوقت سابقاً. كانت عملية ممتعة، وكان التعرف إلى إيقاع كل ولاية، من اختلاف في اللهجات والطعام والأشخاص، أمراً ممتعاً أيضاً. لم أسافر عبر

البلاد بهذه الطريقة منذ أن كنت أعمل على الدوام لدعم المحاربين القدماء في مطلع السبعينات. أعجبني التعرُّف إلى المراسلين المحليين الذين كانت لديهم معرفة موسوعية للسياسة في ولاياتهم. وكنت محظوظاً لوجود فريقي السياسي الخاص، بقيادة جنوبي ذكي قاسي اللهجة يدعى «جيم جوردان» ، كان يبني عملية سياسية على مستوى البلاد بأكملها.

في ذلك الصيف، دُعيَ بعض المرشحين الديمقراطيين المحتملين لانتخابات الرئاسة عام 2004 إلى كولومبيا في ولاية كارولاينا الجنوبية، لحضور مؤتمر الولاية الحزبي. دعانا حاكم الولاية الديمقراطي جيم هودجز بلطف لقضاء الليلة في قصر الحاكم. وفي وقت متأخر من ليلة السبت، وبعد حضوري حفل عضو مجلس النواب جيم كليبورن السنوية للسمك المقلي، كنت عائداً إلى القصر محاطاً بأشجار البلوط والدردار والمنغوليا الكبيرة. هناك، وعلى كرسيَّين هزّازين، وتحت الضوء المنبعث من المصابيح المعلّقة على الشرفة كان يجلس كل من الحاكم وصديقي القديم، السيناتور جون إدواردز، الذي ولِد في سينيكا بولاية كارولاينا الجنوبية. جلسنا نتبادل القصص ونشرب الشاي المحلّى مع النعناع. وهكذا بدأ تنافس ودود سريٌّ بيننا.

في العاشر من أيلول/سبتمبر، كرّمَنا، أنا وجون ماكين، مجلس بوسطن للشؤون العالمية، لجهودنا المشتركة في صنع السلام مع فييتنام. كانت مناسبة خاصة. وما جعلها أكثر خصوصية هو أن جون كان سيخضع لعملية جراحيّة بعد بضعة أسابيع. لم أكن متأكداً من أنه سوف يتمكن من القدوم أساساً. ولكن، وبمساعدة رحلة طيران مستأجرة، تمكنّا من الوصول إلى بوسطن. تحدث كلانا تلك الليلة عن أهمية البحث المستمر للوصول إلى أرضية مشتركة. كان جون يتألم في رحلة العودة. هبطنا حوالى الساعة الواحدة فجراً وودَّع أحدنا الآخر، وذهب إلى منزله.

كنت في مكتبي في مبنى راسل بعد سبع ساعات. كانت السماء صافية وخاليةً تماماً من الغيوم. كان يوماً مشمساً وجميلاً، سماء أيلول/سبتمبر الزرقاء، كان يوماً تَوَدّ منه أن يستمر إلى الأبد؛ فالصيف متواصل ومن دون رطوبة. كان عليّ أن أذهب إلى الكابيتول بعد قليل لحضور اجتماع الثلاثاء الصباحي لفريق القيادة مع زعيم الأقلية الديمقراطية داشل. كان التلفاز المثبت بجانب مكتبي يعرض برنامج إيميس في الصباح الشهير، والذي كنت من ضيوفه المعتادين. في الثامنة والدقيقة الخمسين، لفت انتباهي قول مقدِّم الأخبار في البرنامج أنهم سوف ينتقلون إلى بث مباشر من نيويورك، حيث حلّقت طائرة مخترقةً مركز التجارة العالمي. بصفتي طيّاراً، امتلأ رأسي بالأسئلة. هل كانت الظروف الجوية في نيويورك سيئة؟ نظرة واحدة إلى

التلفاز كانت كفيلة بأن تُتيح لي أن أرى الطقس في «نيويورك» صافياَ، كالطقس في واشنطن. هل أصيب الطيار بنوبة قلبية؟ هل كان انتحاراً؟ هرعت مساعدتي «تريشا» نيويوركية الأصل إلى مكتبي لتتأكد أنني أرى الأخبار. شعر كل منا أن هناك شيئاً ما غريباً، لم يبدُ الأمر على أنه حادث عادي.

توجّهت إلى الكابيتول لحضور اجتماع القيادة. كنا أنا والسيناتور باربرا بوكسر من ولاية كاليفورنيا نتحدث عن الأخبار التي كانت تبث الآن على جميع القنوات. كنت أتحدث عن الأمر من وجهة نظر طيار، عندما رأينا مباشرة على التلفاز طائرة يونايتد أيرلاينز 175 تصطدم مباشرة بالبرج الجنوبي. لم يكن هذا حادثاً. تجمّدنا أنا وباربرا وجاي روكفلر وديك دوربين مساعد زعيم الأقلية الديمقراطية في مكاننا. صرخت: «هذا إرهاب» . كان جاي روكفلر رئيس لجنة مجلس الشيوخ لشؤون الاستخبارات. أدرك على الفور أن هذا هجوم. كنا نتساءل إن كان حزب الله أو حماس مَن قام بهذا الهجوم.

كان توم داشل يدخل ويخرج من القاعة، ويجري مكالمات هاتفية، ليحاول الحصول على آخر مستجدات الأخبار. ذهب جاي ليتصل بمكتبه. وفجأة تذكّرت أن ابنتي أليكس الممثلة والمخرجة السينمائية الشابة كانت تسكن في شقة بنيويورك في شارع وست 22 تقع بين الجادتين السابعة والثامنة، على بعد أميال من مركز التجارة العالمي. كان كثير من أصدقائها يعملون في وول ستريت. أين كانت هي هذا الصباح؟ اتصلت بمكتبي ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إليها. أخيراً اتصلت هي بي من هاتف عمومي. ارتحت كثيراً لسماع صوتها. لم يكن هاتفها المحمول يعمل، ولكنها تمكّنت من العثور على هاتف عمومي، وعثرت على عامل هاتف تمكَّن من وصلها بمجلس الشيوخ. كانت الشائعات القائلة بأن واشنطن تتعرّض للهجوم، تنتشر في حيّها. كانت خائفةً من أن أكون قد مُتُّ. أكدتُ لها أنني بخير، وأن عليها الذهاب إلى منزل صديقتها بعيداً عن الفوضى. كنا جميعنا سنبدو على ما يرام. ولكن في تلك اللحظة كنت أعلم أن لديها كل الحق في أن تكون مذعورة. فالمدينة التي تقطنها كانت تتعرّض للهجوم، ووالدها في مدينة أخرى، تخشى أن تكون هي أيضاً عرضة للهجوم. ثم سمعت الصوت الذي لن أنساه أبداً: صوت انفجار، تتبعه أعمدة الدخان فوق «واشنطن مول» . كانت الساعة تشير إلى التاسعة والدقيقة الأربعين. قال أحدهم: «لقد تعرض البنتاغون للهجوم.» أنهيت المحادثة مع أليكس وتجمعنا نحن الذين كنا في الاجتماع في مكتب توم داشل، نشاهد المنظر من النافذة.

في الليلة السابقة، كُرّمتُ لقيامي بصنع السلام. وهذا الصباح غدونا في حالة حرب. كان يجري إخلاء مبنى «الكابيتول» . وكنت أستشيط غضباً. أردت

أن أحارب شخصاً ما. وبالطبع لم أكن أريد أن يطردني إرهابيون خارج مكان عملي. كنت أكره أنهم يقاطعون عمل أميركا.

عدت مسرعاً إلى مبنى راسل، لأتأكد من أنّ الجميع قد غادروا المكتب كما طلبْتُ إليهم أن يفعلوا. كانت شرطة الكابيتول قد أمرتنا بأن نخرج على الفور حتّى من دون أن نطفئ أجهزة الكمبيوتر. وقفت هائجاً في مكتبي الفارغ فيما كان البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمية ينهار في مانهاتن. لم أصدق ما كان يحدث. كنت قلقاً جداً على الأشخاص العالقين في الداخل، والأشخاص الذين كانوا عالقين على متن تلك الطائرات.

وسط اندفاع مئات الموظفين وأعضاء مجلس الشيوخ، هبطتُ السلم المؤدي إلى جادة ديلاوير حيث كانت سيارتي مركونة. التقيت جو بايدن في الطابق الثاني. تبادلنا الحديث لثوانٍ. قال لي جو: «يظنون أن هناك طائرة متّجهة نحو مبنى الكابيتول. كان رئيس لجنة العلاقات الخارجية. ولذلك كان يتلقى الأخبار متتابعةً ومباشرة من المباحث الفيدرالية. قال لي: «لا بد أن هذا مرتبط بإحدى مجموعات الجهاد الإسلامي» . كان كلانا غاضباً.

توجّب عليّ أن أعود إلى المنزل. كانت شبكة الاتصالات الخليوية مضغوطة حول المدينة. استغرقت عودتي إلى جورج تاون تسعين دقيقة. عندما وصلت، كانت تيريزا جالسة أمام التلفاز غاضبة. ذلك أن حوادث تحطم الطائرات، وبغضّ النظر عن نوعها، تُعيد على الدوام أسوأ الذكريات؛ لكن أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أثارت نوعاً جديداً من الرعب. قالت لي: «جون، الطائرات أتت من بوسطن» ، اتصلت بمدير مكتبي في بوسطن. وفي حين أن واشنطن كانت في حالة فوضى عارمة، فإن بوسطن كانت في حالة خدر. قال لي: «كانت سونيا بوبولو على متن الرحلة 11» . وسونيا محسنة محبوبة وديمقراطية متشددة. غالباً ما كنا نراها مع زوجها في نانتوكيت. كانت مسافرة إلى «لوس أنجلوس» لزيارة ابنها عندما تدخّل الإرهاب والفاجعة. لاحقاً، تمكّن عمال الإنقاذ من العثور على يدها وسط الركام، وأعادوا خاتم زفافها إلى عائلتها المفجوعة.

أردت أن أكون في نيويورك لكي أساعد بأي طريقة ممكنة. تقاطر إلى نيويورك مئات رجال الإطفاء والشرطة وعمال الإنقاذ لكي يساعدوا. لكن مجلس الشعب كان واقفاً عن العمل. كانت الرحلات الجوية متوقّفة، لذا لم أتمكن حتى من العودة إلى بوسطن لأواسي عائلات الضحايا. كانت البلاد بأكملها قد توقّفت. كرهت شعور العجز ذاك، ومنعي من مكتبي، والجلوس في المنزل وما بيدي سوى مشاهدة الأخبار وإجراء المكالمات الهاتفية. اجتمع عدد من أعضاء الكونغرس على درجات مبنى الكابيتول الفارغ ليغنوا «بارك الرب

بأميركا» . كانت لحظة وحدة حقيقية؛ ولكنني أملت أن نكون على استعداد للقيام بأيّ عمل يُطلَب منا.

في الأيام والأسابيع التالية، حدث انفجار في النشاط التشريعي المتأخر. كانت أحداث 11/9 قد أحدثت تعجيلاً في قرارات لكم وجد الكونغرس أسباباً ليؤجّلها أو يؤخّرها فيما سبق. مرّرنا أدوات جديدة للمباحث الفيدرالية وللجنة الاستخبارات وأجهزة تطبيق القانون لملاحقة تنظيم القاعدة ومحاربته. في «قانون مكافحة الإرهاب» ، وأخيراً وافق الكونغرس على تشريعات لمنع عمليات غسل الأموال التي كنت أكتب عنها وأناقشها منذ قيامي بالتحقيق في بنك التجارة والاعتماد الدولي (BCCI). في الماضي، وقفت المصالح المصرفية في وجه تلك التشريعات، ولكن لم يعد بإمكانهم الوقوف في وجهها بعد ذلك الوقت. كنت أعلم جدياً أن بإمكان الإرهابيين والمجرمين الدوليين، وبكل سهولة، تحريك الأموال غير الشرعية عبر الوسائل القانونية. وبتنا الآن وأخيراً نهاجم هذا القدرة. عندما تسبّب تحقيقي والملاحقة القضائية التي قام بها روبرت مولر بإغلاق بنك التجارة والاعتماد الدولي، قمنا بتدمير موطئ قدم أسامة بن لادن في السودان؛ الآن كان علينا أن نلاحق كل الشبكة المالية الإجرامية التي كانت تعمل في الخفاء.

كان علينا أيضاً أن نأخذ الحرب إلى تنظيم القاعدة مباشرة، إلى ميدان المعركة. دعمت العمليات العسكرية الهادفة لإسقاط حكومة طالبان في أفغانستان، تلك الحكومة التي أوت بن لادن، وأمّنت له مسرح عمليات. وقد انضم إلينا تحالف واسع من أعضاء حلف الناتو. كانت تلك هي الطريقة الصحيحة للذهاب إلى الحرب.

لكن سرعان ما تغيَّر شيء ما في الطريقة التي قدّمت بها إدارة بوش سياستها الخارجية. كانت حملة بوش الانتخابية ضد نائب الرئيس آل غور قد ركَّزت بشكل شبه كامل على المسائل الداخلية. وهو أمر متوقّع في سنوات السلام والازدهار. لا أظن أن بوش قد تولّى منصبه وفي جعبته فلسفة واضحة لسياسته الخارجية. لم يكن لديه تركيزٌ على الإرهاب. في الأسابيع التي سبقت 11/9 في الصيف، حللتُ ضيفاً على برنامج «ميت ذا بريس» مع وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، لنتناقش حول أولوية الإدارة بخصوص الأمن الوطني: مليارات الدولارات لتوسيع قواعد الدفاع الصاروخي في أوروبا. بعد أحداث 11/9، كان العالم متحداً معنا في مواجهة التطرف. حتى أن شوارع إيران كانت مكتظة بالشباب الذين خرجوا في مسيرات متضامنة مع الولايات

المتحدة؛ كانت رؤية الإيرانيين يلوِّحون بالعلم الأميركي بدلاً من حرقه أمراً مؤثراً. كنت أظن أن بوش سوف يستغل هذه اللحظة لكي يدعم تحالفاتنا ويؤسس تحالفات جديدة. في الخطاب الوحيد الذي خاطب فيه بوش السياسة الخارجية بشكل رئيسي في حملة انتخابات العام 2000، وعد بسياسة خارجية «متواضعة» . كان بذلك يعكس حساسية والده. كان ذلك الوقت المناسب لهذا النوع من المقاربات الدبلوماسية.

لكن، في الأشهر التي تلت 11/9، كانت مقاربة البيت الأبيض للعالم مناقضةً تماماً للمقاربة المتواضعة. ففي التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/يناير 2002، استخدم الرئيس خطاب «حالة الاتحاد» الأول له لكي ينتقد ما أسماه «محور الشر» ، حيث قام بالربط بين ثلاثة أنظمة خطرة لم تكن تتصرف كمحور واحد قط: العراق وإيران وكوريا الشمالية. كان أمراً غريباً. فتلك البلدان كانت متباينة جدّاً. كانت لهجة الرئيس تلمح إلى تغيير نظام الحكم في البلدان الثلاثة. وبدا أن أولوية أفغانستان والحرب على القاعدة قد تراجعت.

في الشهر التالي، وفيما كنت خارجاً من مبنى راسل، التقيت مصادفة جنرالاً رفيع المستوى أحترم خبرته كثيراً. كنت أعرفه من جلسات الإحاطة الخاصة التي كان يقدِّمها في الكونغرس. وكان قد عُيِّن في البنتاغون. تبادلنا حديثاً قصيراً. كانت هناك بعض التقارير الصحفية التي زعمت أن أجهزة الاستخبارات الأميركية، قبل بضعة أشهر، وخلال معركة «تورا بورا» في أفغانستان كانت قد اعترضت اتصالات تؤكد أن أسامة بن لادن كان محاصراً، وكان من الممكن القبض عليه. ولكن وبطريقة ما، تمكّن من الهرب. سألت الجنرال عما حدث. فأجابني: «أيها السيناتور، نحن ننفذ عملية محدودة المخاطر في أفغانستان.» لقد تمكّن الإرهابي المطلوب أولاً في العالم من الهرب، لأننا كنا نعتمد على أمراء الحرب الأفغان، الذين كانوا يقاتلون على الطرف الآخر قبل بضعة أشهر فقط، بدلاً من أن نعتمد على القوات الخاصة الأميركية. كنا نخرِّب الحرب التي يتوجب علينا الفوز بها، فيما كانت أنظار واشنطن تجنح نحو مكان آخر.

في وقت لاحق من ذلك العام، بدأت الإدارة بجمع حججها ضد صدام حسين والعراق. كان هناك الكثير من الأسباب الشرعية لنفكر في صدام حسين. الأمر الذي كان يحجب الواقع في بعض الأحيان. فمنذ حرب الخليج، كان صدام يشكِّل تحدياً. فقد عرقل عمل مفتشي الأسلحة الدوليين، الذين كان عملهم الشرط الذي فرضه التحالف مقابل بقائه في السلطة عقب

اجتياحه للكويت. كان قد وعد بوصول غير مقيد للمفتشين، ولكنه منعهم من الدخول منذ أواخر التسعينات. كان لديه تاريخ في استخدام الأسلحة الكيميائية ضد شعبه، وتاريخ موثق لسعيه وراء الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل الأخرى. كان سيد الحسابات الخاطئة، خصوصاً خطأ حساباته الذي انتهى بسبع سنوات من الحرب العراقية - الإيرانية، والتي كادت تتسبّب في إفلاس بلاده، بالإضافة إلى سوء تقديره لآثار اجتياحه للكويت، ورد الفعل الدولي الذي أعقب ذلك. كانت أجهزة الاستخبارات تعتقد أن صدام حسين قد طرد مفتشي الأسلحة الدوليين لكي يطلق برنامج أسلحة. فكل تاريخه السابق كان يشير إلى أن الأمر كذلك.

ظننت أن صدام يراهن على أن الأمم المتحدة لن تحرك ساكناً لتفرض أي عقوبات على نظامه. كنا قد قضينا سنوات في لجنة العلاقات الخارجية أنا وجو بادين وكريس دود وديك لوغار، نبحث عميقاً في مسألة العراق. وتوصّلنا إلى أن إدارة كلينتون لم تكن تملك قدرة الضغط على الأمم المتحدة لإعادة المفتشين إلى العراق. قمنا بتمرير قرارات اللجنة، وصعّدنا الضغط فيما كانت إدارة كلينتون تقترب من نهايتها.

آنذاك كان لدينا رئيس جديد، وأحداث 11/9 التي غيرت طريقة مناقشة الأمن الوطني في الولايات المتحدة. ومع ذلك كان صدام حسين ما يزال يرفض التعاون مع المفتشين الدوليين. بدا أن إدارة بوش مصممة على التعامل مع صدام حسين من جانب واحد. كنت خائفاً من أن يكون ذلك سوء تقدير خطيراً. كانت الطريقة الخاطئة في التعامل مع السؤال الصحيح.

لم يكن لدي أدنى شك بأن صدام حسين كان يحاول تطوير أسلحة دمار شامل. فهذا كان تاريخه. ذهبت إلى البنتاغون ورأيت صوراً وخرائط توضح جهود النظام الأخيرة. لو أنني كنت أعلم أن مصدر هذه «الدلائل» الجديدة كان مصدراً مريباً مثل أحمد شلبي، لكنت سأنظر إلى ما كان يقدّمه إلينا من منظور مختلف تماماً. لكنني كنت أوجّه جل جهودي نحو الطريقة التي يجب أن نتعامل بها مع التهديد الذي يشكّله صدّام حسين، وليس ما إذا كان يشكل خطراً من أساسه.

تبعت ذلك لعبة في كواليس واشنطن، لعبة تعلّمت منها في النهاية درساً مهماً. أصدقائي داخل الإدارة، مثل «كولن باول» ، كانوا يعتقدون أن التصرف من جانب واحد سيكون كارثة. عمّت واشنطن شائعات تقول إنّ أصواتاً حكيمة من إدارة الرئيس السابق جورج بوش الأب تسعى أن تعيد السياسة إلى مجراها الصحيح. كتب برنت سكوكروفت وجيمس بيكر أعمدة

تحليل رائعة موجهة إلى جمهور من شخص واحد هو الرئيس الثالث والأربعون للولايات المتحدة. وكتبتُ مقال رأي في جريدة نيويورك تايمز مجادلاً في الأمر الآتي: إذا اضطررنا للذهاب إلى الحل العسكري، فإن من المهم استنفاد علمية الأمم المتحدة، وبناء شرعية وتحالف وعزل صدام حسين بدلاً من جعله يعزلنا. بحلول خريف العام 2002، بدا أن الأفكار الأكثر اعتدالاً وتأنياً سوف تنتصر. ألقى الرئيس بوش خطاباً في سينسيناتي واضعاً فيه خطة متعددة الأطراف لنزع أسلحة صدام حسين بشكل متعدد الأطراف، مع وجود حلفاء إلى جانبنا، والذهاب إلى الحرب فقط كحل أخير.

ولكن، بقيت الأمم المتحدة مشككة. تصاعد الضغط في الكونغرس للوصول إلى آلية ما لنظهر أن أميركا متحدة وأن الأمم المتحدة لا تستطيع أن تتجاهل القضية بعد الآن. أراد البيت الأبيض من الكونغرس أن يصوّت على منح الإذن لاستخدام القوة العسكرية لدعم سياستنا.

ذهبت إلى نيويورك، وقابلت سراً الممثلين الدائمين لمجلس الأمن الدولي. أردت أن أسمع منهم إن كانت هناك إمكانية لبناء إجماع حول المفتشين الدوليين، أو إن كانت الولايات المتحدة وحيدة في هذه المسألة. ما سمعته منهم أكّد أننا، إذا استخدمنا العملية المتعددة الأطراف، واستنفدناها لبناء الشرعية، سوف نكون قادرين إما على توحيد مجلس الأمن لفرض عودة مفتشي الأسلحة الدوليين إلى العراق وتجنُّب الحرب، وإما على بناء تحالف واسع لنزع أسلحة صدام حسين كملجأ أخير. كلا الخيارين كان يتطلب وقتاً، وكان السفراء يشكّون في جدية الولايات المتحدة. توصّلت لاعتقاد أننا بحاجة إلى تهديد جدي باستخدام القوة لجعل حلفائنا يتحركون.

كان هناك العديد من أعضاء مجلس الشيوخ، بمن فيهم أنا وبوب كيري وبايدن ودود، غير متأكدين من إمكانية الاعتماد على الرئيس بوش ليتعامل مع الأمر بالطريقة التي تعهَّد أن يتعامل بها في سينسيناتي. أكد لنا كولن باول أن بإمكاننا الاعتماد على الرئيس. كان كولن قد عاش حرب فييتنام من وجهة نظر جندي مشاة. لم يكن مثل ديك تشيني الذي تمكّن من تأجيل تجنيده خمس مرات. كان كولن يعلم ما يحدث للبلاد عندما يُقتل جنودها بسبب سياسة خاطئة.

اقتنعت أن جمهور السياسة الخارجية المنطقية يفوز في الصراع الداخلي في البيت الأبيض حول سياسة التعامل مع العراق. ربما كنت أقنع نفسي بما كنت أودّه أن يكون حقيقياً.

كان جو بادين وديك لوغار يناقشان قراراً مشتركاً بين الحزبين، من شأنه توحيد مجلس الشيوخ. كان ذلك سيعطي الرئيس بوش صلاحية استخدام القوة العسكرية، وهي مفتاح الضغط على الأمم المتحدة، لكن في الوقت نفسه يتطلّب تصويتاً ثانياً قبل أن يتّخذ بوش أي قرارٍ ببدء العمليات العسكرية. كان ذلك سيمنح بوش الأدوات التي يحتاج إليها لممارسة ديبلوماسية فعّالة تاركاً في الوقت نفسه مجالاً للكونغرس لمحاسبته إذا سار خارج تلك الخطة.

لم يرق ذلك لمسؤولي الإدارة. ربما كنا سنغدو قادرين على فرض الأمر على البيت الأبيض. لكن زعيم الأقلية الديمقراطية في المجلس أعلن أنه يدعم طلب البيت الأبيض لصلاحيات واسعة في استخدام القوة العسكرية. فوجئت بهذا الإعلان من جانب واحد. فإنه بذلك يكون قد نزع الأفضلية التي لدينا في المفاوضات مع البيت الأبيض.

لم يعد هناك ما نتفاوض عليه. في مجلس الشيوخ، كان أمامنا إما التصويت بنعم والأمل في أن يكون بوش صادقاً في كيفية متابعتنا، وإمّا أن نصوّت بلا.

فكرت في الأمر باعتباره أول قرار رئاسي سوف أتخذه كمرشح محتمل للرئاسة. لو كنتُ الرئيس، لوددت أن أحصل على الصلاحيات. ولو أصبحت يوماً القائد العام للقوات المسلحة، كيف لي أن أطلب من الكونغرس منحي الصلاحية نفسها التي رفضت منحها لرئيس كان يعد بالتصرُّف بشكل مسؤول.

في الثاني من شهر تشرين الأول/أكتوبر، ذهبت إلى مجلس الشيوخ، وأعلنت أنني سوف أصوِّت بنعم، بناءً على الخطوات التي وعد الرئيس باتخاذها قبل الذهاب إلى الحرب. عندما أقرأ خطابي ذلك اليوم، أتمنى لو أنني أستطيع العودة بالزمن وأن أقول لنفسي، «غيّرْ صوتك، الإدارة لن تفي بوعودها» . استخدمت خطابي ذلك اليوم لأوضح الطريقة الصحيحة في التعامل مع العراق: بالنظر إلى الخلف، نحن نعلم الآن أن الإدارة كانت مصممة على الذهاب إلى الحرب في العراق في أسوأ طريقة ممكنة: وحيدة، وبناءً على كذبة. لقد قلتها في العديد من المرات: تصويتي بنعم كان أكبر خطأ ارتكبته في السنوات الثماني والعشرين التي قضيتها كعضو في مجلس الشيوخ. لم يكن قراراً اتخذ على عجل، لم يكن قراراً سياسياً. لم يكن ناجماً عن سوء دراستي للأمر. ولكنّه كان خطأً بغض النظر عن كل ذلك.

في ذلك اليوم من شهر تشرين الأول/أكتوبر، وقبل أن يأخذ التاريخ مجراه، وبعد خطابي الطويل في مجلس الشيوخ، ركبت قطار مجلس الشيوخ

عائداً إلى مبنى راسل مع السيناتورة الأحدث عهداً من ولاية نيويورك، هيلاري كلينتون. كانت تشعر بالتعاطف مع الصعوبات التي تواجه المشرّع عندما يضطر إلى التصويت بناءً على توقع الطريقة التي ستتصرف بها السلطة التنفيذية. كانت قد رأت طرفَي المعادلة. مازحتني حول خطابي قائلةً إنّه قد ذكرها بالمثل القديم الشائع: «لو كان لدي المزيد من الوقت، لكتبت رسالة أقصر.» لم تعطِ العراق مجالاً للتفسيرات القصيرة والبسيطة.

قضينا الأشهر التالية نأمل في أن يكون الرئيس قد عنى ما قاله، ونصلّي لكي يكون «كولن باول» محقاً. ولكنه كان مخطئاً كما كنت أنا كذلك.

على المدى القصير، كان تأثير تصويتنا تماماً كما رغبْتُ: فبعد أقل من شهر، صوّت مجلس الأمن الدولي بالإجماع على القرار رقم 1441 لإعطاء صدام حسين فرصة أخيرة لنزع الأسلحة. حتى دول مثل سورية صوتت نعم على القرار. كانت النتيجة التي أملنا بها تماماً. ولكن لحظات الاتحاد التي عشناها كانت قصيرة الأمد.

كان رهاني على من سيظفر بقلب الرئيس بوش وعقله رهاناً خاسراً. وقد تبيّن أنه كان قد عقد العزم مسبقاً على الحل العسكري. لم يكن الفائزون أصدقائي بايكر وباول وسكوكروفت، بل كان المحافظون الجدد هم الفائزون. بدا الرئيس بوش مصمماً على المضي قدماً بالحل العسكري، وبأي وسيلة ممكنة. لم أفكر إلى هذه الدرجة قط بتأثيرات التصويت والضغط الذي كان يمثله، لأصل في النهاية إلى استنتاج خاطئ، لأنني لم أحسب حساب المتغيّر الأكثر أهمية: رئيس الولايات المتحدة. كان بوش سيفعل ما يريد فعله. وكان قد تخلّى عن سياسته الخارجية «المتواضعة» . كان درساً أليماً لي، وكان سيصبح قضية رئيسية في صلب حملة العام 2004 للرئاسة.

الفصل الحادي عشر: السرطان والنهوض من الكبوات

كنت أنهي تسوّقي لعيد الميلاد، عندما شعرت بالهاتف يهتزّ في جيبي. وما إن رأيت جهة الاتصال تومض «مستشفى ماساتشوستس العام» حتّى سارعت إلى الإجابة. افترضت أنها الممرضة تتصل لإبلاغي نتائج عادية. لكنني، بمجرّد سماعي صوت الدكتور دويل، أدركتُ أن خطباً قد وقع.

«جاءت النتائج إيجابية» .

إنه سرطان البروستات، من النوع الذي قضى على والدي. حيث كانت ستٌّ من الخزعات الاثنتي عشرة، التي استُخرجت للفحص المجهري، إيجابية.

لم يكن الأمر أنني أصبت بالسرطان في فترة عيد الميلاد، بل في أنني أُصبت بعد ستة عشر يوماً من إعلان ترشيحي لرئاسة الولايات المتحدة.

كان رأسي يدور. فقد بدأ الأمر بفحص الدم السنوي الروتيني الذي لا يحمل في العادة أي جديد. ولاحظت تيريزا ارتفاعاً في مستويات المستضد البروستاتي النوعي PSA، الأمر الذي لم يكن يستدعي التفكير به مرتين. كان كل شيء في حدوده الطبيعية؛ لكن، مع ذلك، كان ثمة ارتفاع. ودفعتني لإجراء الفحوصات.

وتبيّن وجود مبرّر لما ساورها من قلق.

وأخذ كل شعور يمكن تصوّره يتسابق في داخلي، من صدمة وعدم تصديق وخدر وشعور بالهول، وأنا أدرك أن لا مفرّ لي من إطلاع تيريزا وفانيسا وألكس والعائلة على التشخيص في فترة الميلاد.

كنت في حاجة إلى وقت لاستيعاب النبأ. وقد تمكّنت من كتمانه يومين، وخطّطت لإبقائه سرّاً حتى ما بعد الميلاد. لكن تيريزا شعرت بوجود خطب ما.

فأخبرتها لوحدها في البداية. وكتبت لي ملاحظة جميلة وضعتها في جورب الميلاد الخاص بي. كان دعمها إيثارياً وأكثر من مطمْئن. وفي ذلك تذكير بأنني، بعد أن خضت عدداً من معارك الحياة بمفردي، لن أكون وحيداً بعد الآن. واتفقنا على تجاوز الأمر معاً.

لكن كان عليّ، بداية، أن أجتاز فترة الأعياد. كان الاحتفال المفتوح الذي أقمناه في منزلنا ليلة رأس السنة يفوق الخيال. كانت ليلةً يُفترض أن تكون إيجابية ومفرحة. وقد هرع إليّ الأصدقاء لمشاطرتي حماستهم في شأن الحملة التي بدأتها. تنحّوا بي وبتيريزا جانباً، كي يتحدّثوا عن أشخاص يعرفونهم في كاليفورنيا ونيويورك يريدون إقامة حفل لجمع التبرُّعات، أو لإدخالي مُكرهاً في أحاديث محمومة عن قضايا أملوا أن أثيرها في الحملة. في سياق ذلك كله، وبينما حاولت أن أبقي تركيزي في الحديث، كنت أعرف أن لديّ ذلك السرّ الدفين في عمق ذاتي، المتربص دائماً في الخلفية.

استيقظت بعد يومين غاضباً، ليس على الظلم أو على التوقيت المشؤوم، بل على السرطان نفسه. كنت مصمّماً على مواصلة مسار الحملة ومحاربة هذا الغازي ودحره من جسمي. أردت العثور على ما يُشبه الضمانة أنني شفيت، ومعرفة أن المرض قد زال. وعرفتُ أيضاً أن الصحافة والناس ومسيرتي لن يَدَعوا لي مجالاً للتنفُّس إذا كنت أريد أن ينتخبوني رئيساً. وإذا كنت، كما اعتقد الأطباء، في أبكر مرحلة من الإصابة، فسوف أتمكّن من المضي قدماً في حياتي. فأنا لن يردعني شيء.

كنت، كل يوم، أُجري البحث المتعلّق بالأطباء والإحصاءات. وقد دلّني أصدقاء على أفضل جرّاح في هذا المضمار، هو الدكتور باتريك والش من مستشفى جونز هوبكنز. وبعد حديث طويل مع الطبيب، والتخطيط للقائه فور عودتي إلى واشنطن، حدّد موعداً للعملية الجراحية. كانت هذه المرحلة التالية التي أخذت تمسي حقيقة. طلب إليّ التحدّث مع سكرتيرته لتزويدها ببعض المعلومات، كي تجري المعاملات الروتينية المتعلّقة بالتأمين. وقد استوقفني أن هذا الجزء من المعاملات، هو لكثير من المرضى الآخرين الجزء الأقلّ روتينية، ذلك أن أفراد الكونغرس يتمتعون بأفضل رعاية صحية. وكنت، بالإضافة إلى ذلك، محظوظاً لأنني لن أواجه مشكلة في تسديد مبلغ إضافي للعناية الاستثنائية في جونز هوبكنز. وبالرغم من كل لحظات الإحباط التي مرّت بي، انتفى كلّيًّا أي سبب للإشفاق على الذات. ألا يقدّرون بالآلاف أولئك الرجال الذين يتلقّون كل عام التشخيص نفسه، ولا يتوفر لهم خيار البحث عن أمهر جرّاح في واحد من أفضل مستشفيات العالم؟ وكم من الأشخاص فارقوا

الحياة، لأنهم لم يحظوا بتشخيص مبكر، أو لم يتمكنوا على الإطلاق من تحمُّل نفقات معاينة طبيب؟

الأيام الأولى من السنة التقويمية الجديدة، تلك الأيام التي يواصل فيها الجميع قول: «سنة سعيدة» ، جعلتني برماً وجزعاً. أردت الانتهاء من الأمر فحسب. لكن كان عليّ العودة إلى واشنطن، لأشارك في الخبر فريق الحملة الذي وظّفته حديثاً، والذي لم يكن قد تصوّر قط حملة تتخلّلها كلمة لم يكن أي يكن مستعدّاً لسماعها، إنها كلمة: «السرطان» .

ترتَّب عليّ أيضاً أن أبلغ الصحافة. فمضينا إلى بهو الإذاعة والتلفزيون في مجلس الشيوخ، لتكون لي إطلالة دُبّرت على عجل. وكان مدير الاتصالات في حملتي قد حذّر، بما يتناسب والحالة، أنها ستكون تجربة من طريق الشرج، وهي ما كانته بالفعل. قدّمت الإعلان، وشجّعت الرجال على إجراء الفحوص، لأن ذلك قد أنقذ حياتي. وقلت ممازحاً إنني سأخضع قريباً لعملية إزالة غدّتي «المتوحّدة» . كان ذلك أمراً صعباً، وانتهيت منه.

في نهاية أسبوع «يوم الرؤساء» ، من العام 2003، توجّهت عند بزوغ الفجر، مرتدياً أيقونة القديس كريستوفر التعويذية، إلى جونز هوبكنز كي أخضع للمبضع. شدّت تيريزا على يدي وودعتني، ثم سُحبت على النقّالة إلى غرفة العمليات، حيث جرى تخديري.

لم أشعر بالكثير عندما أفقتُ من البنج، مترنحاً ومشوّشاً. ومع اتضاح الصورة في الغرفة، شاهدت الدكتور والش وتيريزا معاً. وفسّرت ابتسامتاهما الحنونتان كلَّ شيء؛ لقد أطلعاني على أفضل خبر يمكن توقّعه: بدا كل شيء عظيماً، فنحن «بحواف نظيفة» ، ولا أحتاج إلى المزيد من العلاج. أخذت أشعر وكأنني تعرّضت لصدمة قطار. لكن ذلك، على الأقل، لم يكن قد أخرجني عن السكّة. فالحملة ستستمر، والأهم من ذلك أنني سأكون بصحة جيّدة. كانت الدموع قد ترقرقت في عيني تيريزا، التي سبق لها أن خسرت زوجاً في لحظة، لكنها عرفت في هذه المرة على الأقل أن حُسن الطالع قد حلّ.

حثّني الدكتور والش على التمهُّل وعدم الاستعجال. واشتغلت كل غرائز تيريزا بوصفها ابنة طبيب، وقد لقّبها بعضهم بالدكتورة تي. لكنني لم أمتلك الصبر على ذلك. فالحملة الرئاسية لا تنتظر أحداً. وقد أخبرني أحدهم، ربما علم بالأمر مصادفة، ما حدث خلال رقادي في المستشفى، من أن حاكم فيرمونت، هوارد دين، أقام حفل جمع تبرّعات لحملته الرئاسية في بوسطن، مدينتي. ورأى مساعديّ في الحملة أن في ذلك إهانة. وكان ديك غيبهارد قد أرسل البيتزا إلى فريقنا؛ واتصل مرشحون آخرون ناقلين أطيب التمنيات،

لكن ها هو مرشح في عقر داري يجمع التبرُّعات حتى قبل أن يزول مفعول البنج عني. وحملتني وقاحة الحياة، وبالتأكيد وقاحة الحملة الرئاسية، على الابتسام. فالسياسة ليست لعبة نبيلة للواهنين وضعفاء القلوب. عليك أن تنحّي الجانب الشخصي، وتركّز في هدفك بإصرار؛ أن تهتم بما يمكنك السيطرة عليه، وتتعلم كيف تسيطر على ما تهتم به. وما أمكنني السيطرة عليه في تلك اللحظة بالذات كان الخروج من المستشفى، والعودة إلى المنزل، واستعادة القوى.

بعد يومين، عمد اثنان من مساعديَّ المقرَّبَيْن في مجال الاتصالات، لم يكونا ذلك اليوم مفعمين بالنشاط، إلى الوقوف خارج غرفتي في المستشفى، وأنا أستعد للعودة إلى المنزل. كان لون وجهيهما قد خُطف كلّياً. وكادا يفقدان الوعي، وهما يشاهدان المرضى يسيرون في الردهات حاملين أكياس القسطرة. قال أحدهما: «لا يمكنني إطباق قبضتي» . وقال الآخر، وهو يتعرّق في قميصه: «أرى نجوماً وبقعاً» . لم أستطع كبت ضحكتي، بالرغم من أن الضحك كان موجعاً كالجحيم. شعرت وكأنهما لجنة إنقاذ أتت من أجلي.

قلت لكليهما: «لنخرج بحق الجحيم من هذا المكان» . كان هواء بالتيمور عليلاً وبارداً، وهما يواكبانني إلى «فان» ينتظر، أملتُ أن يكون قد حجب كل الكاميرات التلفزيونية المنتصبة في مواجهة المنطقة المنبسطة المخصَّصة لتسريح المرضى. كان الهواء البارد قد أفرغ الهواء من البالونات التي بعثت بها الحملةُ إليَّ هدية تمنٍّ بالشفاء. وفاضت روح الدعابة السوداء. «لا تذهبا بعيداً في التفكير أيها الفَتَيان» ، قلتها مبتسماً وممازحاً، بفعل الدواء المضاد للألم، والتحرُّر من المستشفى.

كنت، وأنا أقضي نقاهتي في المنزل، محبطاً، لأنني بعيد عن الحملة الانتخابية. كانت جُمَلي العصبية كلها في حالة اضطرام. كان حدسي يلحّ عليّ بضرورة أن أكون في الخارج أحارب من أجل الأصوات، وأتحدث مع الناشطين الذين سيصوّتون، بعد أقل من عام، في أيوا ونيو همشاير، ويحدّدون مسار السباق الديمقراطي. في السياسة، يعتقد كثير من الناس أن المورد الأساسي هو المال. وهو ليس كذلك. ذلك أن الإصرار يمكّن من الحصول على المال سريعاً. لكن الوقت هو المورد الوحيد غير القابل أبداً للتجدد. فكل دقيقة وكل ساعة وكل يوم، هي وحدها التي لا تستطيع استعادتها. وكنت أخسر الأيام مستلقياً على ظهري، لأن الجلوس مؤلمٌ جدّاً.

كانت تيريزا لا تتوانى عن الاهتمام بي، وتقاوم تصميمي على تسريع وتيرة تعافيَّ، وتطلب إليّ بدلاً من ذلك أن أركّز في استجماع قوّتي من جديد. وكان الطبيب قد لفتني إلى أهمية منح نفسي الوقتِ الكافي للتعافي بحيث

أشعر عند عودتي بأنني نفسي. كنتُ قد شفيت تماماً، لكنني تعرّضت لعملية جراحية قاسية. حتى البنج نفسه استغرق وقتاً ليخرج من جسمي.

بعد نحو أسبوع من مغادرتي المستشفى، كان ما افتُرض أن يكون عرضاً كبيراً في واشنطن، حديث المدينة وجاذباً للإعلام السياسي: الاجتماع العام للجنة الوطنية الديمقراطية، وهو تجمُّع كبير يُمنح فيه كل مرشّح للرئاسة سبع دقائق لتقديم نفسه. وانتشرت شائعات بأنني سأعمد إلى ظهور مفاجئ. وأعتقد أن بعضاً من فريق حملتي قد غذوّا تلك الشائعات عن غير قصد. وسرعان ما أخذتُ أتلقّى رسائل نصية وإلكترونية من أصدقاء سمعوا أنني سأكون «ويليس ريد الديمقراطي» ، في تلميح إلى المباراة السابعة في نهائيات بطولة الدوري الأميركي لمحترفي كرة السلة NBA سنة 1970، عندما قام لاعب فريق النيكس، العاصف والصلب، الذي مرّ بوقت عصيب إثر إصابته بتمزق عضلي في المباراة السادسة، بمفاجأة الجميع، عندما سار إلى أرض ملعب ماديسون سكوير غاردن، عارجاً ولكن فتّاكاً. وتوصّل فريق النيكس إلى هزيمة فريق لوس أنجلس ليكرز، والفوز بالبطولة. لكنَّ أطبائي الفعليين والأطباء بالنيابة، أمثال تيريزا، كانوا مصرّين على أنني لا أستطيع الذهاب. فالخروج من السرير لإلقاء خطاب حماسي لن يفيدني في التعافي. لا يمكنني هذه المرة، بالرغم مما تدفعني إليه كل غريزة أخرى، التوجُّه إلى الردهة للانضمام إلى فريقي. ولم تتأخر الأخبار عن اجتماع اللجنة الوطنية الديمقراطية في شقّ طريقها إليّ. فقد تخلّى الحاكم دين عن الشكليّات المعهودة وألهب الجمهور بخطاب ناري افتتحه بالقول: «ما أريد معرفته هو جواب السؤال الآتي: لماذا بحق السماء تدعم قيادة الحزب الديمقراطي الهجوم من طرف واحد الذي يشنّه الرئيس على العراق» . وأخبرتني جيل ألبر، نائبة مدير حملتي، أن الحشد الجماهيري كان قد استمتع بذلك كثيراً.

لا يمكنني القول إنني لم أتوقّع الأمر. لقد توقّعته لاسيما أنني كنت ناشطاً متفرّغاً قبل أن أصبح سياسياً متفرّغاً؛ وبناءً عليه، كنت قادراً على التقاط السرعة الكبيرة التي تنتشر فيها النار بالهشيم في قضايا، مثل قضية العراق.

أعرف، في نظرة إلى الوراء، أنني لم أوازن كما ينبغي بين تفكيري كسيناتور وتفكيري كناشط. كنت لا أزال أنظر إلى العراق بوصفه قضية سياسية، قضية فكرية، وليس بوصفه قضية مشاعر، الأمر الذي تطلّب رد فعل غريزيّاً. وأذكر أنني قرأت خطاب دين، وفكّرت في انتفاء هجوم من

طرف واحد على العراق، وفي أن قيادة الحزب الديمقراطي لا تدعو إلى شنّ هجوم. وبالفعل، كنا في 21 شباط/فبراير 2003، ولم تكن أي قنبلة قد ألقيت على العراق بعد. لم تكن هناك حرب. ولم يرد على الإطلاق أي شخص أعرفه في المجمع الديمقراطي، باستثناء جو ليبرمان ربّما، أن يُشنّ هجوم من طرف واحد، هذا إذا كانت الحرب ستقع ولا بدّ. وتساءلت: عمَّ كان دين يتحدث؟

تلك، طبعاً، كانت المشكلة بالضبط. مكانك هو حيث تجلس. وأنا كنت أجلس في مجلس الشيوخ، وليس في أيوا. ولم أكن أنظر إلى العراق عبر العدسة ذاتها التي ينظر عبرها دين، أو الناشطون في واشنطن.

كان هذا من دواعي السخرية، بالنظر إلى الطريق التي كنت قد سلكتها. ففي الثاني من كانون الأول/ديسمبر 2002، كان استوديو «واجه الصحافة» Meet the Press بارداً كمخزن اللحم: لا تلويح بالأعلام الصغيرة، ولا فرقة موسيقية، ولا حشود. كنت هناك للإعلان عن حملتي لرئاسة الولايات المتحدة. وكنت، عندما ظهرت للمرة الأولى في البرنامج، أرتدي الزي العسكري، لا بدلةً رسمية. كنت في السابعة والعشرين، قائداً أشعث الشعر لقدماء محاربي فييتنام المناهضين للحرب. لم يكن أحدٌ يتصوّر أن أعود إلى ذاك الاستديو، كما أنني كنت لأضحك لمجرّد فكرة العودة، فالحياة السياسية الأميركية لم تكن لطيفة قط مع معارضي الحرب. لكن ها أنا ذا. جرى إسكات الجميع في الاستوديو، وأذيع اللحن المألوف للبرنامج، وتحوّل ضوء الكاميرا إلى الأحمر، وبتنا على الهواء مباشرة. وردّاً على السؤال الأول بالذات الذي طرحه تيم روسّرت، انحنيت إلى الأمام، وأذعت النبأ الذي كان ينتظر سماعه: أعلنتُ أنني أنوي الترشّح إلى الرئاسة.

لم تسنح لي الفرصة قط لالتقاط أنفاسي. والآن، بعد شهرين وبعد عملية جراحية كبيرة، باتت حملتي في موقع دفاعي، لأن الحياة كانت قد دارت دورة كاملة: كنت قد دخلت الحياة العامة لإنهاء حرب، وها أنا متهم بمساعدة جورج. دبليو. بوش على الشروع بحرب جديدة. والأسوأ هو أنني كنت طريح الفراش في المنزل، غير قادر على فعل أي شيء في ذلك الصدد. عرفت أن هناك فسحة أمام دين للقفز مهاجماً غيره من الديمقراطيين على حرب لم تكن قد بدأت بعد، حرب لم نفكّر فيها إلا بوصفها الملاذ الأخير، وليس الأول. وقال لي صديقي كاتب الافتتاحية جو كلاين أن دين «مصيب في شأن العراق» ، لأنه المرشّح الوحيد الذي لم يتلقَّ قط أي إحاطة استخبارية. قد يكون ذلك صحيحاً، وربما قضى بعضنا وقتاً طويلاً غارقاً،

على مدى أعوام عدّة، في كثير من التفاصيل المتعلقة بالقضية. وربما توصّلنا إلى استنتاجات مختلفة لو لم يكن علينا نحن أيضاً أن ندلي بأصواتنا، أو نجيب عن كل الأسئلة اللاحقة التي تترافق مع كون المرء من أصحاب القرار السياسي. كان ذلك بمثابة تذكير بعبء كون المرء سيناتوراً، يتوجّب عليه أن يصوّت بنعم أو بلا على مسائل معقّدة، عندما لا يمتلك أي سيطرة على النتيجة. وأطلق شقيقي، كام، على ذلك تسمية التصويت بـ «نعم-ولكن» و«لا-ولكن» . وكان هذا أحد الأسباب الأخرى وراء الرغبة في أن أصير القائد الأعلى: عدم الاكتفاء بالتصويت بالاستناد إلى توقّع سلوك الرئيس فحسب، بل التمكُّن من صياغة القرار من غرفة الأوضاع، وتحويل التقدير السليم إلى فعل مناسب. لكن أمثولة الحياة بسيطة: عندما تصوّت، تتحمّل مسؤولية تصويتك. فلا وجود للإيضاحات في سجل الكونغرس.

في آذار/مارس، انقلب الرئيس بوش على الوعود التي قدّمها، هو وإدارته، بإفساح المجال أمام الدبلوماسية وبناء ائتلاف واسع. فقد أخذت القنابل تتساقط على العراق. وسرعان ما ألحقت الهزيمة بصدام حسين، وهذا ما عرفنا جميعاً أنه سيحدث في حال وصول الأمور إلى الحرب. كانت القاعدة التقدمية في حال من الغضب الشديد. وكنت ساذجاً ومبالغاً بالتفاؤل عندما اعتقدت أن الناشطين سيحكمون على سجلّي منذ العام 1971، بما في ذلك حركة السلام، والتجميد النووي، والعمل على محاولة وقف حرب ريغان غير الشرعية في أميركا الوسطى. ويتمسكون بي بدلاً من الوقوف وراء شخص لم يناضل معهم قط. وكان العراق فجأة هو القضية التي تقوم عليها كل القضايا الأخرى. وكان هو الاختبار الحقيقي لك، الذي يوضّح إن كنتَ ستتصدّى للرئيس بوش، وقد أصبح الحاكم الوسطي السابق لفيرمونت في الواجهة. كان لا بُدّ من عودتي إلى سياق الحملة، بألم أو من دون ألم.

كان ربيع العام 2003 وصَيْفه شاقين. كانت هناك جولات تصويت في مجلس الشيوخ تجبرني على البقاء في واشنطن، في حين كان مرشّحون آخرون يعيشون فعليّاً في أيوا ونيو همشاير. فاجأتني صحيفة مدينتي، البوسطن غلوب، مفاجأة شديدة بخبرين أُطلعتُ عليهما في سياق مقابلة. فلم يكتف المراسلون باكتشاف الرواية الشنيعة (التي لم أسمع بها قط) عن ظروف انتحار جدّي في «كوبلي بلازا» ، وهو فندق حضرتُ فيه عدداً من المناسبات، بل اعتنوا أيضاً بالبحث عن شجرة العائلة الضائعة منذ زمن طويل، واكتشفوا أن جدّي فريدريك وأيدا كيري كانا يهوديين، وأن جدّي قد غيّر اسم العائلة من كوهن إلى كيري، وهاجر مبتدئاً حياة جديدة في أميركا. كان شعوراً غريباً أن تُعرَف مثل هذه المعلومات الحميمة من مراسل يحمل

بيده آلة تسجيل تعمل. وكانت معالجتي لتلك المعلومة، في حمأة الحملة الرئاسية، تنطوي على إزعاج مضاعف. لكن في عهد سبق بكثير ظهور موقع البحث عن شجرة العائلة Ancestry.com، بدت عائلتي كملايين العائلات الأخرى، حيث عانت الهجرة، وكانت لها سقطات، وعاشت أحداثاً أُلمح إليها، وأحداثاً ظلَّت طي الكتمان، الحملة لن تدع وقتاً للتطرّق إلى كل ذلك. وربّما فسِّرَ الحديث عنه استغلالاً لظرف ما.

من المؤكد أن الأمر كان، بالنسبة إلى متحاذقي واشنطن، مقصفاً من المواد الجديدة، جاء في الوقت المتوافق تماماً مع طقس العبور السياسي السنوي الذي يحييه جنوب بوسطن في عيد القدّيس باتريك.

وسأكون، في هذه السنة، على لائحة الطعام، ليس كيري المسلوق بل المحمّر.

رن هاتفي.

كان الصوت، بما لا لبس فيه، بوسطنياً وإيرلندياً: إنه تشاك كامبيون، السياسي النافذ والصديق المحبوب القديم. «مرحى، يا صديقي، كيف تشعر؟ هل ستذهب إلى جنوب بوسطن للمشاركة في فطور عيد القديس باتريك؟» .

«تشاك، لقد خضعت من فوري لعملية استئصال البروستات. وأنا طريح الفراش. أعتقد أنهم سيتفهّمون غيابي» .

وبالفعل، كان الكثيرون من موظفي حملتي الوطنية، من غير الغارقين في التقاليد السياسية لماساتشوستس، قد ردّوا الدعوة بعد إعلاننا عن جراحتي. فقد كانوا يضعون أوامر الطبيب قبل أمر الفرع المحلّي للجالية الإيرلندية.

لكن تشاك كان أكثر معرفة. حلّ صمت طويل في الطرف الآخر من الخط. «صديقي، سيقضون عليك هناك. ستشعر، إذا لم تحضر، كما لو أن أحدهم أعاد وضع بروستاتك في مكانها السابق» .

كانت لتشاك، شأنه دائماً، وجهة نظر. لكنه، ولحسن الحظ، امتلك خطة. وفاوض على ظهوري السرّي والمفاجئ. ففي صباح الفطور، جلست خفية في موقف السيارات خارج «قاعة فلوريان» التي أطلق عليها كاتب الافتتاحية في صحيفة بوسطن هيرالد اليمينية، هوي كار، اسم «قاعة رائحة الفم» ؛ وكنت أستمع إلى برنامج الفطور من راديو السيارة. وسرعان ما انقض

الحاكم الجمهوري الجديد للولاية، ميت رومني، على غيابي. وقال: «لو إنه كان موجوداً لَتَناول اللحم المعلّب مع خبز البيغل» .

وقهقه مقدّم الحفل قائلاً: «الجميع إيرلنديون في عيد القديس باتريك ... باستثناء جون كيري» .

دفعني تشاك دفعة خفيفة من الوراء. ودخلت عبر الستائر الخضراء. فوجئ الحشد. أخذت الميكروفون ووجهت ضربة قاضية: «من قال إنني لا أملك الجرأة لأكون هنا؟» .

كنا قد قلبنا الطاولة على رومني والجمهوريين.

ووجّهت لكمة مضادة أخرى: «لا بد من أنكم قد سمعتم بأن ،هراوتي، خضعت أخيراً لعملية ما» .

إصابة أخرى. وذلك ما كان. فقد عاودت تأكيد أمثولتين لا يتعلّمهما المرء في السياسة إلا من خلال الخبرة: فأنت لن تتقدّم كثيراً ما لم تكن قادراً على السخرية من نفسك. وفضلاً عن ذلك، فإن جزءاً من الفوز يعني أن تتعلم كيف تتلقى اللكمة وتستمر في الضرب.

وسيتوفّر لنا الكثير من الأسباب للاثنتين في المرحلة الآتية.

ذهبنا في أواخر آذار/مارس إلى كاليفورنيا للمشاركة في مؤتمر الحزب في الولاية. وهذه تجربة أداء مهمة لجميع المرشحين الديمقراطيين. كانت الرحلة بالطائرة إلى سان فرانسيسكو طويلة وموجعة. كان كل جزء مني لا يزال يؤلمني جرّاء العملية الجراحية. وصادفتُ المراسل السياسي المخضرم للواشنطن بوست ديفيد برودر بعد وقت قليل من نزولي إلى الأرض. أمكنه أن يرى أنني أجرّ نفسي بعض الشيء. شدّني إلى قربه، وسألني إن كنت أضغط على نفسي أكثر من اللازم. وأسرّ إليَّ أنه خضع قبل سنوات للعملية الجراحية ذاتها، ولم يشعر بأنه هو نفسه على مدى سنة. كانت لحظة تواصلٍ صادقةً وطيّبة، إذ لم يكن مراسلاً يتحدّث إلى مرشح يقوم بتغطية أخباره، بل كائنٌ يتحدّث إلى كائن بشري آخر يهتم به. طمأنته إلى أنني بخير. وفي غضون ذلك كنت محطّماً بعد جرجرة نفسي عبر الاستقبالات والوقوف لالتقاط الصور في المناسبة، والساعات الخمس في رحلة الطيران التجارية. ألقيت خطابي، وعدت إلى الغرفة المحجوزة، وتمدَّدت على طاولة اجتماعات طويلة ويداي مشبوكتان على صدري، وعيناي مغمضتان. بدوت كما لو أنني مسجّى. كان موقفاً غريباً ومزعجاً. كنت في التاسعة والخمسين، أتمتع باللياقة البدنية،

ولدي شهادة صحية سليمة من أطبائي، وقوي من رأسي إلى أخمص قدمي، أتمتع ببنية سليمة أفضل من معظم فريق حملتي. وبقيت مع ذلك أشعر بالوهن يشدّني. لم يكن أخذ قسط من الراحة خياراً. كنت متوجّهاً لقضاء عيد الفصح مع زوجتي، وكان لدي الكثير لأكون شاكراً له. كنت خالياً من السرطان. وامتلكت رعاية صحية عظيمة. وأنا مرشح إلى الرئاسة وفي قلب المعمعة، لكنني، ويا للعنة، كنت متعباً. لن يكون الأمر سهلاً، لكنني كنت حيّاً يُرزق على الأقل.

كنت، مع أواخر الصيف، أشعر بأنني نفسي من جديد. لكن الحملة لم تبد كالحملة التي كنت قد تصوّرتها. لقد تخلّلها كثير من التفاوتات. فالصيف كان ملكاً لهوارد دين. كان يجمع التبرعات عبر الإنترنت بطرائق مثيرة، وهو ما حفّز جامعي التبرّعات التقليديين على الرغبة في أن يكونوا جزءاً من حركته. ولا أزال أذكر أنني قرأت مقالاً عن تجمّع لدين في متنزّه براينت في نيويورك، حضره آلاف الأشخاص. جلب المنظمون الواي-فاي Wi-Fi (وذلك في حد ذاته شيء مبتكر سنة 2003) ليتمكَّن الناس من المساهمة في عشرة دولارات أو 15، أو 25 دولاراً عبر الإنترنت، فوراً ومن المكان نفسه بالذات. أبدى بعض من أعضاء فريقي نوعاً من السخرية حيال الأمر. بل إن أحدهم تعوّد أن يقلّد موظفي دين بوصفهم محتجزين ينقرون لوحة مفاتيح على نغم مشهد الحانة في فِلم حرب النجوم الشهير. لكن ذلك لفتني على أنه نوع الحملة التي تصوّرت القيام بها؛ حملة كبيرة لحركةٍ سياسية شعبية، من النوع الذي كان يستحوذ عليّ وأنا فتى في السابعة والعشرين. كان متنزّه براينت، المكان الذي عرّفت فيه جون لينون سنة 1971 بحشد من آلاف الناس المناهضين للحرب، والمكان الذي شهد أشخاصاً من عمري أو أصغر يجمعون التبرُّعات، ويساهمون في تمويل حركة المطالبة بوقف الحرب في فييتنام. وقد أزعجني كم فقدت السيطرة على عملية سرد الوقائع، وكم كان تصحيح الوضع صعباً.

كنا محور أحاديث الأمس. لكنني شعرت بأن الناس طووا صفحتنا بسرعة فائقة.

كان ثمة حملتان في الحقيقة. الحملة الوطنية، وكانت فاعليتي فيها تتلاشى يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع. فقد كان التأييد الكبير كله ينهال على حملة دين، من النقابات إلى المسؤولين المنتخَبين إلى الناشطين. كان ذلك حدثاً مكتفياً بذاته، مولّداً للزخم، ويتوالى فصولاً.

تلك كانت الحملة الوطنية. لكن (إذا لم أكن أوهم نفسي) جرى تجاهل واقع أن أمراً مختلفاً جدّاً يحدث على الساحة في أيوا ونيو هامشاير، الولايتين اللتين ستشارك فيهما جمهرة من 280 ألف مواطن في عملية الاقتراع الأولى التي ستجري يومي 19 و27 كانون الثاني/يناير على التوالي من العام 2004.

لكن لا تخطئوا، فقد كان هوارد دين المتصدّر السائد في كل من أيوا ونيو همشاير. كان يمتص الكثير من الأكسجين. وما بين آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر، كانت حملته تحلّق في الاستطلاعات في كلتا الولايتين؛ فقد سبقني في نيو همشاير وتخطّى ديك غيبهارد في أيوا (كان المرشّح البعيد المنال الأول سابقاً قد فاز في المجالس الانتخابية سنة 1988).

لكن الناس في أيوا ونيو همشاير كانوا يتودّدون ولا يلتزمون. فقد بقيت هناك معابر كثيرة لتقرّر الولايتان مَن سترسل من المرشحين بالطائرة إلى ولايات تالية، وهو ممتلىء حماسة. كان سكان أيوا يأخذون وقتهم في التعرّف إليَّ، وليس إلى صورة كاريكاتيرية عني. وكان جون نوريس، مدير حملتي في أيوا دارساً عظيماً للمجالس الانتخابية. فقد تعرّف إلى واحد من رفاق طاقمي في فييتنام، جين ثورسون، الذي أقام في إيمس. وتراءى لجون من فوره أن جين، الخجول والجاد والمتواضع، يمكن استخدامه سلاحاً سرّياً. فإذا عُقدت الأواصر بيني وبينه، فقد أتمكن، في النهاية، من كسب تعاطف أبناء أيوا، أنا ابن ماساتشوستس. كان جون سريعاً في إدراكه بالفعل أن تنظيم قدماء القوات المسلحة قد يشكّل أفضل سلاح سرّي يمكن لحملتنا أن تتصوره. لم يسبق قط لقدماء العسكريين أن شكّلوا قوة في الكتل الانتخابية في الجانب الديمقراطي. لكن الفارق الكبير الوحيد الذي يمكن لحملة أن تحدثه، كل أربع سنين، كان في تغيير ملامح إقبال الكتلة الانتخابية على التصويت. ففي مدن صغيرة من الأجزاء الريفية للولاية، يمكن لجلب عدد من الناخبين الجدد يراوح بين خمسة وعشرة إلى الهيئة الناخبة، أن يحوّل كامل تلك الدائرة الانتخابية. وقبل وقت طويل من بدء حملتنا بالانزلاق، كان جون نوريس قد قام باستثمار رائع، حيث اشترى سجل اللائحة الكاملة التي تتضمّن أسماء جميع الناخبين من قدماء القوات المسلحة في أيوا. ولو أمكننا حتى أن نصل إلى واحد من كل عشرة من هؤلاء التسعين ألفاً، والمجيء بهم إلى الكتل الانتخابية، لأمكننا تغيير معالم الهيئة الناخبة. بدا أنه كان يوجد في كل مكان محارب قديم رحب بنا في منزله أو في صالة قدماء الحروب الخارجية. وبدا أن الحياة تدور دورتها الكاملة: فها أنا بعد ثلاثة وثلاثين عاماً على تركي سلاح البحرية، أعود إلى صحبة أولئك الذين خدموا.

كانت نيو همشاير بمثابة مغامرة نشطة، بغض النظر عما أظهرته الاستطلاعات. بدأت بنظرة رومانسية إلى الانتخابات التمهيدية. ويعود حنيني إليها يوم جرت في نيو همشاير سنة 1968. كنت، وأنا في الرابعة والعشرين، متمركزاً في الطرف الآخر من الأرض، حيث كان البث الإذاعي والصحف التي تصل متأخرة أسبوعاً في كيس البريد، قد زوّداني بهذا المدخل المثالي لظاهرة تلك الانتخابات التمهيدية. فبعد أربعين يوماً بالتمام من شن الفييتناميين الشماليين «هجوم تيت» ، وبعد ثلاثة أسابيع بالتمام من مقتل بيرش في المعركة، لم تعد نيو همشاير مجرّد المكان الذي ارتدتُ فيه الثانوية، ذلك المكان المثالي والمنزوي في نيو إنغلند، حيث أصبت بأولى جروحي وأنا ألعب كرة القدم على الجليد الأسود لحوض توركي. وها هي نيو همشاير أصبحت فجأة مكاناً مختلفاً كلّياً، المكان الذي كانت فيه جحافل الفتية من أبناء جيلي، أَكَلَة زبدة الفستق والهلام، تحمل المناشير (فيما أنا، على بعد آلاف الأميال، أحمل السلاح) وتقرع الأبواب، مثبتة أنها على ما يكفي من القوة للبعث برسالة إلى شتى أنحاء العالم بأنه لم يعد في وسع ليندون جونسون أن يبقى رئيساً بعد الآن. كانت تلك هزّة أرضية، صحوة ملموسة، أشبه بحريق في البريّة على مستوى القواعد الشعبية، وأمثولة دائمة لي في السياسة التي تعمل بالطاقة الشعبية.

بعد ستّ وثلاثين سنة، علّمتني نيو همشاير أمثولة أخرى أو اثنتين. أحياناً تكون أفضل الأمثولات تلك التي يجري تعلّمها وتحصيلها بالطريقة الصعبة، على طرقات جليدية ناتئة، وفي قاعات الاجتماعات في المدن، حيث يعبق الجو بالارتياب. هذه المرّة كانت نيو همشاير تؤدّي دور البوتقة. وفي خريف العام 2003، جرى إسقاطي من الحساب بوصفي منتهياً سياسياً. وكتب أحد المراسلين أنني بدوت أشبه بأسطورة «العجوز والجبل» في «ولاية الغرانيت[13]» ؛ غير أن ذلك الصرح الصخري قد انهار بعد أيام. وضحك المتذاكون على ذلك التعبير المجازي.

في يوم كئيب وضبابي، عقدنا لقاء على ضفاف نهر ميريماك، على مسافة سير قصيرة جنوباً عبر الأشجار المقابلة للطريق. وأمكنني أن أسمع على بعد لا يزيد على العشرين قدماً مدّعي معرفة من تلفزيون بوسطن، يسجّل إعلانه الترويجي لما سيكون آخر نعي سياسي: «بث مباشر من مانشستر: اندفاعة مفاجئة لهوارد دين في الاستطلاعات ونحن تائهون في الأحراج مع جون كيري» . وهكذا كان أن تعلّمني نيو همشاير الآتي: إنني، بغض النظر عما تقوله الاستطلاعات والنقّاد، ومهما يكن عدد المرات التي يجري فيها شطبي، لطالما آمنت بما أقوم به، ويكفي أنني احتفظت برأسي العظيم

عالياً. وسوف أستطيع الاندفاع عبر الضجيج، وشق طريقي عبر ما كان في مواجهتي تماماً، والخروج من التجربة أكثر قوة.

كان هناك أمر مميّز بخصوص عملية الانتخابات التمهيدية لم أدركه تماماً سنة 1968، عندما اجتذبت نيو همشاير قلبي الناشط. يومها، رسخ ذلك الأمر في داخلي وهو أن بمقدور الأشخاص الذين يؤمنون بقضية، أو مسألة، مسألة أخلاقية واحدة بنوع خاص، ويعزّزون ذلك الإيمان، أن يحرّكوا بالفعل بلداً بأكمله. ففييتنام كانت على ذلك النحو تماماً. كان هناك صواب وخطأ، بغض النظر عن الجانب الذي ينحاز المرء إليه. إنها القضية في ذلك الحراك، القضيّة أولاً والقضية آخراً. ومن السهل تجاهل الأشخاص المميزين الذين يمدّون القضية بالطاقة. وبوصفي مرشحاً، أدركت بعد عقود أن الأمر يرتدي طابعاً شخصيًّا ضارياً، ولا يتعلّق كلّه بالمسائل، والقضايا المطروحة.

الحق يقال إنني لا أتذكّر أدق الفروق السياسية بيني وبين معظم المنافسين الديمقراطيين (وهم خصوم، وليسوا أعداء) الذين تعرّفت إليهم في تلك السنة. كنا جميعنا، في الأساس، ديمقراطيين محطّ ثقة. وأتذكَّر، كما لو بالأمس، الأشخاص الذين تعرَّفت إليهم، الأصدقاء الذين اعتمدت عليهم، لأنني لم أكن أستطيع الوصول إلى أي مكان أقصده لوحدي. إنهم رجال الإطفاء الذين فتحوا مراكزهم لمسابقات متتالية يتمارى فيها أكلة أكبر كم من الفلفل الحار. لأن رجال الإطفاء كانوا مخلصين، مهما هبطت أسهمي في الاستطلاعات. فقد كانوا يعزفون على مزامير القربة في الخارج عند كل نقاش، ويقفون في العراء على الثلج، حاملين تلك اللافتات، وليذهب النقاد إلى الجحيم. وليس للولاء مكان في خطة ناشط مؤلفة من عشر نقاط، لكن تبيّن أنه يساوي أكثر كثيراً من كتاب الغد الأبيض.

كان رئيس بلدية مانشستر، بوب باينز، قد وعدني، سرّاً، بتأييدي قبل أشهر من إعادة انتخابه. ووفى بوعده كل الأشهر التالية، عندما كانت حملتي تتعثّر. «الوعد، وعد» ، قال بوب، وقد حافظ على وعده.

كان المتطوعون يثيرون الإعجاب، من فتية قابعين على كراسي ذوي الحاجات الخاصة، إلى نسوة تغلَّبن للتو على سرطان الثدي، إلى قدماء محاربي فييتنام، ولم يسبق لبعضهم أن تطوّع في أي حملة من قبل. كانوا في تلك المقارّ ليلة بعد ليلة، لأن بعض الروابط أقوى من العناوين الرئيسية أو الأحداث المهمة.

تلك كانت نيو همشاير. فقد تحدّث جين ماكارثي سنة 1968 كيف كان يشعر بالوحدة في تلك الأشهر التي سبقت الانتخابات التمهيدية في نيو

همشاير. ذلك هو الحراك. أن تؤمن بالقضية وتعمل لها. كان هذا القتال، في نظري، حراكاً. من المؤكد أنه تعلّق بقضايا، لكنَّ الأمثولة الكبرى التي خرجتُ بها من نيو همشاير كانت أن الغرباء الذين التقيتهم وصاروا أصدقاء ومن الأسرة، كانوا أولئك الذين أضفوا معنى على حراكنا. فأنا، في نيو همشاير، لم أكن لوحدي قط.

لكن ذلك لا يعني أن الأمر كان سهلاً.

أواخر صيف العام 2003 والخريف، كانا يطفحان بالخيارات الصعبة وباصطدامين وشيكين استطاعا أن يغيّرا مسار الحملة.

أمكنني، أولاً، القول إن جو بايدن كان يفكّر في الترشح إلى الرئاسة. أمكنني قول ذلك لأنه أخبرني. فهو مفرط في الصراحة، هذا إذا اعتبرتَ أن الصدق عيب. فقد امتلك جو ميزة عظيمة، هي سهولة التواصل مع الناس. وكنت قد تعرّفت إلى ولديه، بو وهانتر، اللذين غالباً ما يكونان بصحبته في مجلس الشيوخ خلال العطلة الصيفية وعطلة الربيع. كنا قد جلسنا بضع مرات وتحادثنا في السياسة وفي الحظوظ الرئاسية. أذكر بنوع خاص أحد الأحاديث في جزيرة نانتوكت عند طرف أحد الأرصفة، حيث خلصنا، نحن الاثنان، إلى النتيجة الآتية: إذا أصبح واحدٌ منا رئيساً فلا بُدّ من أن يدعوَ الثاني ليكون في فريقه.

وها هو قد يصبح منافسي. وأنا، بصفة خاصة، لا أستسيغ الترشح ضد شخص، هو صديق حقيقي لي، وزميل منذ عشرين عاماً، ومن أبناء الجيل نفسه ويحمل ما أحمِل من قيم. وخشيت، إن قفز جو إلى السباق في مثل هذا الوقت المتأخر، أن يخسر المزيد من الوقت، وهو يرزح تحت عبء موضوع إخباري كبير في الإعلام. وكان كل أسبوع يمر من دون تطوّر إيجابي في حملتي، أسبوعاً عظيماً لهوارد دين. طلبت من جو المجيء إلى بوسطن لنلتقي ونتحدّث، نحن الاثنان فقط، من دون موظفين. وافق. لكن برزت مشكلة واحدة: كان أحد متطوعي مجلس الشيوخ ينقل جو سرّاً إلى منزلي، وكنت أنا متأخّراً ساعة في نيو همشاير، أتلقّى السؤال تلو السؤال من ناخبين جاؤوا لاختباري، ولا شك في أن بعضهم كان حاضراً من باب إسداء المعروف لحملتنا الشاقة. ولم يكن في وسعي الاستعجال في الخروج من هناك. كذلك لم يكن باستطاعتي التأخّر على جو.

ما إن انتهى الاجتماع في دار البلدية، حتى عدت إلى الميني فان، ولم يمتلك السائق ولا فريقي أي فكرة عن اللقاء الذي أعددت له سرّاً. بعد رحلة مثيرة للأعصاب بسرعة 90 ميلاً في الساعة جنوباً عبر «ماس بايك» إلى

بوسطن، صعدت الدرج مسرعاً إلى منزلي. وهناك في غرفة الجلوس، كان يجلس صديقي كبير الديمقراطيين في لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ.

شرعنا بسهولة في الحديث، عن أوضاع حياتنا. شاطرته ما كنت أواصل القيام به في الحملة الانتخابية، وانتقلنا إلى مناقشة وضع حملتي. أحسست أنه كان مترجِّحاً في شأن فكرة الانضمام إلى المعمعة. فالترشح كمشترك متأخّر سيكون بلا شك معقداً. إلّا أن احتمال التخلي عما يمكن أن يكون المحاولة الأخيرة للفوز بالتسمية، سيبدو صعباً أيضاً. وليس ثمة من يعرف إن كان الحوار قد أحدث أي فارق. لكنني ارتحت عندما أعلن جو، بعد ذلك بنحو أسبوعين، أنه لن يترشح في هذه المرّة. وبقراره هذا تفاديت اصطداماً مع صديق.

أما الاصطدام الوشيك الثاني، الذي لم يكن قاتلاً، فحدث عندما قفز الجنرال (المتقاعد) وس كلارك إلى الحملة الرئاسية في أواخر أيلول/سبتمبر بعد أشهر من الشائعات المتفشية. ومن الواضح أن كفاحاتي وبزوغ دين قد فتحا نافذة أمام حلم مستشار سياسي: فسيرةُ قائد عسكري حائز أوسمة، تتباين بصورة جليّة مع معارضة هوارد دين للحرب. لم يكن ثمة مَن يعرف موقف وس من مسائل كثيرة، أو حتى إذا كان ديمقراطياً فعلاً، إذ عُرف عنه أنه كان قد صوّت لنيكسون وريغان، وتحدّث في بضعة لقاءات جمهورية محلية. لم يكن لأي من ذلك أهمية. فقد أجّت النيران سريعاً بدخوله السباق؛ وكانت الاستطلاعات الفورية قد وضعته، بين ليلة وضحاها، في رأس القائمة.

انتابتنا مخاوف كثيرة في شأن كلارك. فقد كانت الآمال في حملتنا اللاهثة تعتمد، عند هذا الحد، على خلق إثارة كبيرة في أيوا، لتغيير ديناميات السباق. كنا نحتاج إلى وثبة كبيرة هناك. وفجأة يصبح لدينا مرشح آخر من قدماء محاربي فييتنام يمتلك أوراق اعتماد في الأمن القومي، وجه جديد ودخيل لا يثقل كاهله أي سجل تصويت. ففي وسع كلارك أن يمتص كل الزخم هناك، في وقت لم نستطع فيه أن نتحمَّل شخصاً آخر ينافسنا في أيوا على الشريحة الفريدة من الناخبين الذين كنا نراهن على تحويلهم. ومن حسن الحظ أن كلارك قد أعلن انسحابه من أيوا ليجرّب حظه في نيو همشاير كمنصة انطلاق توصله قويّاً إلى كارولاينا الجنوبية، حيث يُفترض أنه يخطّط للإجهاز على هوارد دين.

كانت تلك المرة الأولى التي ترتد فيها الكرة نحونا، منذ أشهر. وأخذنا نعمل، بخروج كلارك من التركيبة، على نظرية مختلفة، وهي أننا، إذا استطعنا النفاذ في أيوا، فسنكون البديل من دين في نيو همشاير.

أخيراً حان وقت القرار الصعب. كنا المستضعَف الكبير، وكانت طبول الأخبار تقرع في كل يوم، لتؤكّد مُجدّداً أن هوارد دين كان على وشك أن يختطف التسمية. ذلك أن أكبر نقابتين كانتا تؤيّدان دين في الوقت نفسه الذي كنت أبلغ فيه الحضيض. ويبرز إعلان هاتين النقابتين الخصمين التأييد معاً كم أن الآراء قد تبدّلت: كان الناس يتسابقون للصعود إلى حافلة دين. وبعد ذلك بنحو أسبوعين، وفيما كنت في موقف السيارات التابع لأحد المطاعم المكسيكية على مقربة من ستانفورد، أخذ هاتفي، وكل الهواتف المحيطة بنا في فان الحملة المكتظ، في الاهتزاز بالشائعات: نائب الرئيس آل غور يستعدّ لتأييد دين. كان ذلك صادماً. فقد كنّا رفاق صفّ في مجلس الشيوخ، وكان قد فكَّر في ترشيحي إلى منصب نائب الرئيس. وكنت قد جرَّدت حملة قوية لمصلحته في مختلف أنحاء البلاد. فهل يفعل ذلك من دون الحديث معي في هذا الشأن من باب اللياقة؟ اتصلت بآل على الفور وسألته عن صحة الأمر. سألته إن كان قد اتخذ قراراً نهائياً، إن كان بالإمكان أن نلتقي. ثم انقطع الخط. تفحّصت البطارية، كانت مشحونة. كما كانت قوة الإشارة تُبدي أربعة خطوط، والاستقبال حسناً. عاودت الاتصال، لكن المكالمة ذهبت مباشرة إلى البريد الصوتي. اتّصلت أربع مرات متتالية. كان الأوان قد فات.

توجّب أن أخرج هذا الخبر من ذهني. فلا ينفع الانشغال بهذه الانتكاسات. لكن، في كل أسبوع من الفترة الممتدة بين تشرين الأول/أكتوبر ومنتصف كانون الأول/ديسمبر، بدا أن هناك إعلاناً ما. فالزخم أمر يصعب وقفه عندما يشرع في التعاظم.

جلست مع فريقي المسافر، الذي كان عند ذاك الحد قد تقلّص كعادته إلى فرقة من ثلاثة متحمسين إضافة إلى متطوع من الحملة المحلّية يتولى نقلنا عندما نهبط في مكان ما، وحاولت توضيح الصورة. وكانت محاولتي في الحقيقة توجيه الرسالة إلى نفسي. أذكر تشديدي على أننا لا نستطيع أن نضيع أنفسنا في أمور لا يمكننا أن نقرّرها. وكان لدينا، فضلاً عن ذلك، ما يكفي من القرارات الصعبة التي تتعلَّق بأفعال لا يمكننا التحكُّم بها.

توجّب عليّ أن أتخذ قراراً صعباً جدًّا، قراراً أشبه بمقامرة كبيرة. فهوارد دين كان قد اختار أن يتخطّى التمويل العام لحملته الرئاسية، وأن يرفض التمويل المضاهي العام؛ ويعمد بدلاً من ذلك إلى رفع منسوب صناديق الحملة من التبرُّعات التقليدية. وذلك ما كان جورج دبليو بوش قد فعله سنة 2000، وشكّل ذلك في حينها ضربة موفقة. وها هو بوش يتربّع على 85 مليون دولار لمهاجمة الديمقراطيين خلال موسم الانتخابات التمهيدية. لكن لم يسبق

قط لأي مرشح ديمقراطي أن راح في ذلك الاتجاه. إلا أن دين كان قد بنى شبكة على الإنترنت لجمع التبرُّعات على مستوى القاعدة، وكان ذلك مذهلاً.

كنا نجد صعوبة في الحصول على مالنا، فيما كان دين يندفع باطراد. ولن تتاح لنا أي فرصة لقلب أي من الأمور، إذا كنا سنتخلّى عن سلاحنا من طرف واحد، ونختار على عجل أن نضع قيوداً على ما يمكننا أن ننفقه في أيوا ونيو همشاير، حيث يفرض التمويل الفدرالي قيوداً صارمة على الإنفاق التلفزيوني. وإذا لم يكن بمقدورنا أن نكون على الهواء عندما يستحق الأمر ذلك، متنافسين مع دين دولاراً في مقابل دولار، فعلينا أن ننسى أمر السباق، ونحزم أمتعتنا على الفور. وأعلنت على مضض أن دين قد كسر القاعدة، وسوف أجاريه في السعي إلى التمويل الخاص للانتخابات التمهيدية. كنت قضيت عقوداً عدّة مدافعاً عن نظام التمويل العام، لكنني لم أكن أؤمن بنزع السلاح من طرف واحد. وعند هذا الحد، كان بوش ودين قد ضربا المنظومة.

كان لا يزال عليّ، حتى وأنا أعلن رفضي التمويل الفدرالي، أن أعض على الجرح. كان المال ينفد منا، وكنا قلقين بشأن تسريح موظفين في فترة الأعياد. عرفت أننا لا نستطيع جمع ما يكفي من المال للمنافسة، من دون أن يطرأ نوع من التغيُّر الرئيسي على الدينامية. كان لدي خيار واحد لا غير: أن أرهن منزلي لإقراض الحملة من المال بما يمكّنها من اجتياز أيوا. وقّعت على الأوراق من دون تردّد، لكنني تساءلت في داخلي، إن كان ما أقوم به صائباً بخصوص ابنتيّ. فإذا خسرت فسوف يكون الدين ضخماً. ومن الجدير بالذكر أن بعض الحملات الرئاسية كانت قد أمضت عقوداً من دون أن تتمكن أبداً من تسديد دينها. أضف إلى ذلك أن جمع المال لحملة كانت خاسرة بالفعل مشقة تعيسة. فلو أنني عدت إلى مجلس الشيوخ، لكان عليّ تسديد الدين بأقساط صغيرة من ألف دولار، مفتقداً الأسرة في نهايات الأسبوع محاولاً جمع المال. كان هذا ميراث ابنتيّ، لكن ترشُّحي للرئاسة كان يتعلّق أيضاً بمستقبلهما. شجّعتني فانيسا على القيام بذلك. كانت مؤمنة بما نحارب من أجله. وهكذا كان؛ إذ إننا، ليلة عيد الميلاد سنة 2003، نشرنا أخيراً على الملأ الخبر الذي كنت أحتفظ به لنفسي: كانت المخاطر كبيرة، وكنت أراهن بمنزلي، على أننا لا نزال نملك وقتاً لتغيير مسار الحملة والفوز بأيوا.

أملت في أن يكون رهاني صائباً.

كان هناك ما يُشعرك بالحرية هو أنك خارج دائرة الضوء الوطنية. ومع حلول الشتاء محل الخريف، ومع تحوّل أوراق شجر الخريف الغنية والملونة إلى أغصان رمادية وبنّية، أخذنا نقلّص أوقات وجودنا في نيو همشاير. لكن كان عليّ إبقاء النيران مشتعلة هناك. كان علينا أن نترك منظمينا وفريقنا،

آملين أن نعود فعلاً، بعد أيوا، بحملة متجددة الحيوية؛ أن نعود، إذا أمكنهم مواصلة المعركة فيها، ليس كما قال دوغلاس ماك أرثور: «سوف أعود» ، بل لأننا سنعود قريباً جدًّا.

كانت رخصتي لقيادة الطائرة لا تزال صالحة؛ ما يعني أنني سأجلس على مقعد الأيسر في طائرة السيسنا المستأجرة ذات المحركين، يساعدني أحد الأصدقاء في قيادتها، وكنا نهبط ليلاً في مطارات نيو همشاير الصغيرة، التي تكون في بعض الأحيان مجرّد مدرج وحظائر صغيرة مسقوفة تُستخدم مَرافق للطيران. وأذكر ما حدث في وقت متأخر من إحدى الليالي، ونحن متوجهون إلى نورث كانتري، عندما كان مديرنا السياسي الجديد في نيو همشاير، ثيو يدينسكي، جالساً في الخلف بعصبية، وهو غير مقتنع كلّياً بمهاراتي في قيادة الطائرة. كان محشوراً في الخلف في تلك الطائرة الصغيرة مع عدد من طوال القامة. ظهر ضوء تحذير وانطلق صوت تحذير، لا يتطلبان إلا تعديلاً بسيطاً. لكن لا بُدّ أن يكون ذلك لثيو كما لو أننا نتجه إلى هبوط حاد. وصار أبيض كالورقة. وقال مازحاً: «يمكنني رؤية العنوان: رحيل ثيو يدينسكي في مقتبل العمر عن 32 عاماً» . وكان حس الفكاهة السوداوي معدياً. «قد تظهر في العنوان الفرعي، يا ثيو» ، أجبته. «مزيد من الاضطراب في حملة كيري؛ مساعدون مجهولون فُقدوا في ثلوج نيو همشاير» .

هبطتُ بالطائرة الصغيرة على المدرج، وقفزنا لنواجه ريحاً شتائية عاتية تعصف عبر المدرج المعتم. لم نعثر في أي مكان على موظفي الخدمة الجوية، باستثناء فتى الطليعة الخاص بي من بوسطن، واقفاً عند باب مبنى منفرد عند حافة المدرج. شرح أن مدير خدمة الطيران أراد الذهاب إلى المنزل، وكلّفه واثقاً أن يوصد الباب بعد هبوطنا. هذا يحدث فقط في نيو هامشاير.

تابعنا سيرنا.

أحببت خصوصية العملية. لم تكن سهلة، بل كانت في الواقع متطلّبة للغاية، لكنها حقيقية. بعض الناس ينتقدون في نظامنا السياسي، الدور الأكبر ممّا ينبغي الذي تؤدّيه المجالس الانتخابية والانتخابات التمهيدية في الولايات. إلا أنني أعتقد، في داخلي، أن لا بديل للاختبار الذي توفّره، والتدقيق عن قرب في كل مرشّح، والطريقة التي تدفعك بها. فهي تستطيع تبيان المزيّف على بعد ميل.

كانت العملية تجعل منّي مرشحاً أفضل. أخذت خطاباتي تصبح أكثر دقة وأجوبتي أكثر إيجازاً. زد على ذلك أن المسائل التي كنت أتحدّث عنها، أخذت

بعد سنة من مسيرة الحملة الانتخابية، تقفز على ما يبدو من صفحات الخطاب وتغدو أكثر واقعية.

باتت الحياة أكثر واقعية هي الأخرى، تتدخّل عن بعد. فقد تلقّيت اتصالاً من جوليا التي أخبرتني أن التشخيص قد أفاد أنها مصابة بسرطان الخلايا الانتقالية. يا للهول! فخلال أشهر كانت ابنتانا تواجهان صراع كل من والديهما مع السرطان، وأحدهما مرشح للرئاسة. وكلما فكّرت بما تحمّلتاه من أمر لم يكن من اختيارهما دهشت لصمودهما وقوة شخصيتيهما. شرعت جوليا في تلقّي العلاج في بوسطن. أبقتني الفتاتان على اطلاع. وكنت أزورها أنا والفتاتان عندما أكون في المدينة في فترات التوقُّف بين مسارات الحملة. وكان ذلك، من نواح كثيرة، وقتاً حلواً ولطيفاً. وبدا أن التوتر الذي يسبّبه الطلاق، وكل المشكلات التي يفرزها، أخذا يذوبان في مواجهة مواطن ضعفنا. أضف إلى ذلك الأمر الملح، غير المعلن في البداية لكن جرت مناقشته بالتفصيل لاحقاً، وهو التأكد من أن ابنتينا بخير. كنت أنا وجوليا قد جهدنا قدر المستطاع لئلا تتأثر الابنتان بمشكلاتنا، مهما تكن، وألّا تُستخدما كبيادق في العملية. وأنا على قناعة بأننا نجحنا. أرادتني جوليا أن أبقى مركّزاً في الحملة حتى وهي تخوض معركتها.

كان عشاء ذكرى جيفرسون-جاكسون في أيوا المناسبة الجوهرية للموسم السياسي، والانطلاقة الرسمية للسباق الحاسم عند خط النهاية، ممثّلاً بالأسابيع الأصعب المقبلة الممتدّة من عيد الشكر وحتى ذكرى مارتن لوثر كينغ عشية انعقاد المؤتمر العام للحزب. كانت حملتنا تتحرّك بقوة. دخلنا الردهة بفيلق من الفتية يستعرضون ويقرعون الطبول، الإيزيسرتز the Isiserettes، وجيش من رجال الإطفاء يرتدون لونيهما الرمزيين الأسود والذهبي. عجّ الملعب التذكاري لقدماء المحاربين في دي موين بالنشاط الموسيقي، بالأبواق، وبالأدرينالين المتدفق فينا جميعاً. وترافق الحدث أيضاً مع تنبيه مدمج: سوف يجري فصل الميكروفون بعد انقضاء ست دقائق من حديث المرشح، فالاختصار مطلوب ومطبّق. كانت القيود المشدَّدة على مدة الخطابات هدية فرضت الانضباط، ودفعتني إلى محاولة بلورة أفكاري المتعلقة بالسبب الذي يدفعني إلى الترشُّح، وهدف السباق، ونوع الزعامة التي اعتقدت أن البلاد تستحقها، إضافة إلى المعركة التي يحتاج الديمقراطيون إلى خوضها، لاستعادة البيت الأبيض.

وعندما حانت فرصتي، وجّهت تسديدة مباشرة إلى الرئيس بوش أبرزت ضمناً أوراق اعتماد الأمن القومي التي ميّزتني من بعض المرشحين الآخرين في المضمار: «لدي، في الحقيقة، علمٌ بحاملات الطائرات، وأعرف ثلاث كلمات لجورج دبليو بوش، أعرف أنه يفهمها: هات ما عندك» .

كانت استجابة الجمهور في تلك الليلة مدوية، ليس فقط لأن حملتنا ملأت الجزء المخصَّص لنا من الملعب حتى العوارض الخشبية، بل لأن أمراً ما كان يحدث. ومع كل الحديث عن السباق، وحتى عن هوس المعلّقين السياسيين بفكرة فارس أبيض ينقضّ منقذاً الحزب الديمقراطي من هوارد دين، بدا الأمر أشبه بسباق الخيل. وأظهر استطلاع أجرته دي موين ريجيستر الأرقام. غيبهارد: 27%؛ دين: 20%؛ أنا 15%؛ جون إدوارد: ليس بعيداً جدّاً، فهو يقترب من 10%.

صادفت في الصباح التالي صديقي ورفيق السفر في حملتي منذ زمن بعيد، كاتب المقال في مجلة التايم جو كلاين. قال لي: «كان خطابك رائعاً، لكن فات الأوان. فات الأوان فحسب» . لكنني مضيتُ قدماً.

كانت الأسابيع التي سبقت المؤتمر التحضيري هي أسابيع الاستعداد والجهوزية. وكانت أيضاً وقت إظهار الإخلاص. كان سكرتيري في السفر قد احتفظ في ذهنه بلائحة تضم جميع الذين كانوا حاضرين عندما دعت الحاجة إليهم، والذين غابوا. كان، في هذا الشأن، إيرلندياً بشكل مرعب. وهناك بالتأكيد بضعة أشخاص كانوا قد برزوا على لائحة «المتغيّبين» ، من أمثال عضو الكونغرس الذي يجري التودُّد إليه كثيراً، والذي شارك كضيف شرف، عندما افتُرض أنني كنت المرشح الأوفر حظاً في كانون الثاني/يناير 2003. ثم جاهر بإصابته بنزلة برد رهيبة في كانون الثاني/يناير 2004، عندما احتجنا إليه في أيوا. ثم شُفي بمعجزة قبل أن يجف حبر عناوين الأخبار عن عودتنا. مضحكة الأمور وكيف تجري. لكنني كنت أنظر دوماً إلى المدى البعيد: فأنا لا أهدم الجسور أبداً، فالغد هو دوماً يوم جديد.

وتعلّق كثير مما جرى في أيوا بأصدقاء جدد وأصدقاء قدماء حقّقوا نجاحات استثنائية.

بات ماكس كليلاند القديس الشفيع لحملتنا، وهو محارب قديم فقد ثلاثة من أطرافه في فييتنام، والسيناتور السابق من جورجيا الذي طُرد من مجلس الشيوخ عندما شكَّك الجمهوريون بالتزامه الحرب على الإرهاب، وأظهروه في الإطار نفسه الذي وضعوا فيه بن لادن وصدام حسين. وكان ماكس، البطل الذي يتحمّل ساعات من الروتين الشاق كل صباح لمجرّد

الاستعداد للخروج من المنزل، قد جارى جورجيا في التصويت لبوش. غير أنَّه وجد في الحملة فرصة جديدة للحياة. مضى إلى كل مكان للتحدّث مع كل من أمكنه التحدث معه. وكان، في كل مرّة أراه، يقول الأمر نفسه: «عانقني يا أخي» . ولا أزال حتى اليوم أشعر بالغصة لمدى العمل الشاق الذي قام به من أجلنا، وكم أنني أردت بشدة الفوز كرمى لماكس.

كان تيد كينيدي حاضراً دائماً. وكان، بالرغم مما يشعر به من ألم في الظهر، يجوب الولاية معي من تجمّع إلى تجمّع، صعوداً ونزولاً على امتداد نهر المسيسيبي. حشد الناس. وقبل أسبوعين فقط من المؤتمر التحضيري، رعد صوته في الحشد الغامر في دافنبورت: «صوتّم لشقيقي! صوتّم لشقيقي الآخر! ولم تصوّتوا لي!» . وفيما انفجر الجمهور ضاحكاً، صاح تيد: «لكنكم عدتم إلى هنا من أجل جون كيري. وإذا صوّتّم لجون كيري، فسوف أسامحكم! يمكنكم الحصول على ثلاثة من أربعة ... وسأحب أيوا. سأحبّكم» . وأحبّوه!

ولطالما كان ظرف تيدي حاداً. فيفتتح مناسبة بالقول: «لن أنسى العام 1971 أبداً، وتوجّهي لمقابلة قدماء فييتنام المناهضين للحرب، المخيّمين في «المول» [14]. وهناك وقف قائد جريء، وسيم وذكي، رجل يجب ألّا يكون رئيساً فحسب، بل يجب أن ينتهي به المطاف على جبل راشمور، طويلاً نحيلاً وسيماً. لكن يكفي حديثاً عني. ولنتحدث عن جون» . وأولعت الحشود، وأنا أيضاً، بذلك. فعندما كان تيدي يضحك، كانت المشكلات تحلّ مهما تكن صعوبتها. وكان باص حملتنا، الذي أطلق عليه اسم ريل ديل إكسبرس، أشبه بطبق بتري - petri dish متحرّك يحتوي على كل نوع من الجراثيم التي يمكن تخيّلها. لكنه جاء مع «عازف مزمار» Pied Piper يُدعى بيتر يارّو. كانت الحياة تدور دورتها الكاملة. كنت قد استمعت للمرة الأولى إلى بيتر وبول وماري يغنّون في قاعة وولسي في ييل - Yale، ثم التقيتهم بالفعل، ونشأت بيننا صداقة كبيرة في تلك الأيام الغابرة لحركة السلام. بات بيتر أكبر سنّاً وأكثر شيباً الآن، بعد أكثر من ثلاثة عقود مرّت على العام 1971، وقد زال شعره الداكن الذي أخذ يتساقط عن قمة رأسه، لكنه لا يزال طويلاً بطريقة صبيانية عند الطرفين وفي الخلف، ولا يزال ليبرالياً حتى العظم. ظهر مع حقيبة غيتاره وعرضٍ أن يجعل غُرَف الجلوس في أيوا مكتظّة، باستهلاله المشهد الافتتاحي قبل إطلالتي. وفي إحدى ليالي كانون الثاني/يناير، ونحن في وقت متأخر، نسير عبر طرق سريعة معتمة مقابل حقول جليدية جرداء كانت قبل أشهر خضراء وحيّة بصفوف من الذرة، أقنعتْ مراسلة الواشنطن بوست، سيسي كونوللي، بيتر بالتوجُّه إلى

أقصى الطرف الخلفي من الباص السياحي القديم، وعزف أغنية أو اثنتين للمراسلين. عدت معه. وبعد أن غنّى بعضاً من الأغنيات المفضلة لدى الجميع، بما في ذلك أغنية Leaving on a Jet Plane (مغادراً على متن طائرة نفاثة)، التي تستحضر دوماً ذكريات الوصول والمغادرة والشبان الذين لم يتمكنوا من العودة إلى الديار، أهداني بيتر أغنية Sweet Survivor (الناجي اللطيف). وكان للكلمات، التي أنشدها بهدوء واهتمام صديق قديم مرّ بالكفاحات نفسها، تأثيرها بي:

تابع أيها الناجي اللطيف، تابع يا صديقي الوحيد

لا تتخلّ عن الحلم، ولا تدعْه ينتهي.

وجدت صوتي من جديد في الأشخاص الذين كنت قد التقيتهم، وفي المحن التي كنّا قد واجهناها، وفي بساطة شطبي، ثم إعادة وضع اسمي، لأنني آمنت بأنني أحارب من أجل شيء أكبر منّي بكثير. لم أرد لأيوا أن تنتهي، وكنت مصمماً ألا أدع حملتي تنتهي فيها أيضاً. وتزايدت غصّتي وأنا أتعلّق بآخر بيت من اللازمة: «استمر، من أجل كل ما يهم» .

إذا كان بيتر يارو قد جلب معه الإلهام القديم العهد، فإن مايكل وولي كان رعشة القهوة السادة عند الصباح. وكان يصيح: «أين يمكنني العثور على ‘هليكوبتا’ (هليكوبتر) لعينة؟» . غير أن لكنة دورشستر الجلية، بدت أشبه بنوطة نشاز في سيمفونية من المجاملات الوسط-غربية الخفيضة. كان وولي يدخل دوماً في صلب الموضوع مباشرة. وكانت أسهمنا ترتفع في أيوا، وبخاصة في المجتمعات الكاثوليكية على امتداد نهر المسيسيبي. لكن لم تكن هناك ساعات كافية في اليوم للحاق بهوارد دين إلا إذا أضفنا المزيد من المناسبات على الأجندة. لكن كيف؟ كانت لمايكل فكرة ابتكرها للمرة الأولى في الأيام الأخيرة من مواجهتي الحاسمة في الانتخابات التمهيدية لمجلس الشيوخ سنة 1984، وهي استئجار مروحية تنقلني بطريقة أسرع في أرجاء أيوا، وتغطّي مساحة أكبر. وكانت هناك علاوة إضافية تمثّلت في أن هبوط المروحية في كل من البلدات الصغيرة كان بحد ذاته حدثاً إعلامياً لفت اهتمام الناس، وأبرز كم أننا كنا نقاتل في سبيل كل صوت. وأنا، كطيّار، أحببت الأمر، وكمرشّح عشقته. فقد التقطت مرح الأيام الأخيرة وطاقتها وإثارتها من الحملة، حيث الصوت المذهل للشفرات الدوّارة للمروحية، والنظر من الفضاء أثناء هبوطنا في حقل صغير، أو في أرض ملعب؛ والريح المتولّدة من

الشفرات تنفخ العشب والركام في كل مكان؛ ثم إننا ما إن نحط، حتى نقفز إلى الفان ونتوجّه إلى المناسبة المبهجة.

قبل يومين من المؤتمر التحضيري في أيوا، بدا أن القدر يتدخل بطريقة لم أتوقعها. فقد وردت رسالة صوتية إلى مقرّنا في واشنطن العاصمة، كان الصوت بعيداً جدّاً لرجل في كاليفورنيا، يقول إنني أنقذت حياته في دلتا الميكونغ.

سجّل أحد المتطوعين الرسالة، وربط الرجل بمنسِّقنا لشؤون المحاربين القدماء، جون هورلي، الذي عمد فوراً إلى الاتصال به في كاليفورنيا للتحقق من روايته.

كان اسمه جيم راسّمان Rassmann.

قبل خمسة وثلاثين عاماً، لم أكن أعرف حتى كيف أهجِّئ اسم عائلته، كذلك لم أعرف اسمه قط، عندما بحث عنه أحد المؤرخين، أفترض أن اسمه يُكتب راسّمن - Rassman؛ لكن الرواية كانت معقولة.

وجيم هو الآن نائب متقاعد لشريف لوس أنجلس، ومقيم في فلورنس، أوريغون. كان جدّياً، ومتزناً ومصمّماً، وينتسب إلى الحزب الجمهوري. أراد فقط أن يؤدّي دوره. وأوحى بأنه قد يتطوع في أوريغون. لكن كانت لجون هورلي أفكار أخرى، وسأله: متى يمكنك أن تكون في أيوا؟

وجاء جيم على متن الرحلة الجوية المغادرة التالية.

جرى على عجل، ومن دون معرفتي، تنظيم مؤتمر صحافي في دي موين، حيث كانت كل الشخصيات الإعلامية الكبيرة المعنية بالسياسة الأميركية تخيِّم لتغطية المؤتمر العام.

كانت هناك مشكلة وحيدة: فقد افتُرض بي أن أكون حاضراً في تجمّع بدبيوك.

جرى تأجيل الموعد، بعد سلسلة من الاتصالات الهاتفية. انتهيت من التجمُّع في دبيوك، وركبت الباص، وشرعنا، بُعيد ذلك، في السير. وقد جلس أحد الموظفين القرفصاء بمحاذاة مقعدي، وشرح لي أن ثمة تغييراً قد طرأ: كنّا نتوجّه إلى دي موين. من الواضح أن أمراً كان يحدث.

سألني سؤالاً لاختبار صحة رواية راسّمنّ، عما أذكره عن الرجل الذي سحبته من «باي هاب ريفر» سنة 1969. وأخبرته عن عنصر من القبعات الخضر، طويل القامة، نحيف كالقضيب، وذي شعر ضارب إلى الحمرة. ازدرد ريقه بصعوبة، ونظر إليّ وقال: «حسناً، إنه في طريقه إلى أيوا، ويريد تأييدك. نحن على وشك لمّ الشمل» .

ثمة لحظات عفوية حقيقية قليلة لا تزال تنبض في الحياة السياسة الأميركية، ناهيك بما يحدث أمام حشد من الكاميرات التلفزيونية، ويُبث حيًّا إلى غرف الجلوس في مختلف أنحاء البلاد.

كانت هذه واحدة منها.

سرت إلى مكان الحدث، وكان جيم راسّمن يقف بالفعل قرب المنصة. لم يتمكن أي منّا من الكلام. اكتفيت بالتوجّه إليه وتعانقنا. ولم تكن الكلمات، في أي حال، لتفي ذلك حقّه. كان ذلك أفضل ما في أخوة ورابطة استمرّتا، من دون تنويه، ثلاثين عاماً.

قال جيم إنني أنقذت حياته مرّة. وها هو يعود، ويا للهول، لينقذ حياتي السياسية. ويمكن للسياسة، على غرار الرياضة أو الحياة أو المعركة، أن تكون سلسلة من أحداث تبدو تافهة لحظة وقوعها، لكن ينتهي بها المطاف لتكون تاريخية.

ماذا لو كان المتطوّع في واشنطن قد محا رسالة جيم راسّمن الصوتية؟ لكنه أدّى واجبه، وقدّم إليّ جيم راسّمن هدية استثنائية. توجّهنا إلى الساعات الثماني والأربعين الأخيرة من الحملة برواية عن الحياة الحقيقية، وليس عن السياسة.

أنهيت، في يوم المؤتمر العام، سباق الأمتار الأخيرة بثماني مناسبات، زائراً مواقع المؤتمرات الحزبية لمصافحة الأيدي، والدخول والقيام برميتي الأخيرة أمام الجمهور قبل بدء التصويت. وكنت، عندما أُوصدت الأبواب، قد خرجت ووقفت على الأسفلت، وأدركت أن كل شيء بات الآن كلّياً خارجاً عن سيطرتي. ثلاثة عشر شهراً من العمل الشامل، تضمّنت جمع 20 مليون دولار، وزيارة خمسين مقاطعة، واجتياز آلاف الأميال بالباص، إضافة إلى العملية الجراحية لإزالة السرطان، ونوبات من التهاب الحنجرة، وثقوب في حذائي، ورهن متضخّم لمنزلي، لكن لم تعد هناك أيد لمصافحتها، ولا مزيد من الأسئلة للإجابة عنها، ولا مزيد من طلب الثقة من سكان أيوا. جلّ ما أمكنني فعله هو الانتظار.

وتماماً فيما أنت تنطلق بكل طاقتك، وتمضي بسرعة مليون ميل في الساعة، بكل قوتك وأقصى سرعتك، بكل الأدرينالين والطموح، تتوقّف فجأة هكذا ببساطة.

توجّه باص «ذي ريل ديل» إلى دي موين. وكان الناطق باسمي يتحدث إلى الصحافة في مؤخّر الباص، المنطقة التي أطلق عليها الملحقون بالحملة تسمية «ردهة الشمبانيا» . ومع ظهور أضواء دي موين في الأفق، وكان قد تبقى نحو عشرين دقيقة من رحلتنا، أمكنني سماع بعض الدمدمة في الخلف. أعطى السكرتير الصحافي لبوب شروم هاتف أحدهم البلاك بيري. وحتى شروم، المتطيّر مثلي، والمعزَّز بذكرى ليالي الانتخابات التي لا يمكن توقّعها (بما في ذلك فلوريدا سنة 2000)، انفجر في زمجرة وهو يعلن: «تبدو نتائج التصويت جيّدة!» . وكوني متطيّراً وأدرك تمام الإدراك أهمية المثل القديم القائل بعدم سلخ جلد الدب قبل اصطياده، لم أشأ سماع ذلك.

في الجناح الرئاسي بفندق «فورت دي موين» التاريخي، الذي كان جون نوريس الدائم التنافس قد حجزه قبل أشهر، ليس من قبيل التفاؤل بقدر ما هو من باب التصميم على عدم السماح لحملة أخرى بتأمين الحجز، تحوّل المشهد سريعاً إلى اجتماع أُسَري، ونحن ننتظر النتائج الرسمية. وانضمت تريزا وابنتاي، ألكس وفانيسا، وبعد ذلك كريس وأندريه هاينز، إلى أسرتنا السياسية في الجناح الكبير. وكان هناك زرعُ الغرفة المعهود جيئة وذهاباً، والحوم حول أجهزة التلفاز، وأخبار الكابل تزعق في كل مكان. قررت أن أستحمّ. ووسط البخار، وفيما كنت أحلق ذقني، سمعت تيريزا تعلن الكلمات التي كان قد سبق للمتكهّنين أن قالوا إنها أضغاث أحلام: «جون، أسرع، فالسي. إن. إن تقول إنك فزت!» .

إلا أن المفاجئ، حتى لنا، كان في أن الفارق لم يكن ضئيلاً هو الآخر. فقد فزت في أيوا بـ 38% من الأصوات، متقدِّماً نحو 20 نقطة على هوارد دين. وكان جون إدواردز نفسه قد حقّق تقدماً مفاجئاً، وحل بعدي بسبع نقاط فقط. كان رد فعل الإعلام هستيريًّا، إذ أخذ الجميع في التنقيب لمحاولة شرح ما حدث لمتصدّر السباق الذي كان قد احتل كل غلاف في كل مجلة، وكان قد ضمن الكثير جدّاً من التأييد القوي. ولا يمكنني، حتى هذا اليوم، إلا أن أقول لكم إننا كنا قد آمنّا بأنفسنا. كنت قد وضعت حملتي المؤلفة من الموظفين المخلصين، وقدماء المحاربين ورجال الإطفاء، والأصدقاء الأوفياء من ماساتشوستس في مواجهة أي يكن في أي مكان. وفزنا بعد أسبوع في نيو

همشاير بفارق كبير بلغ 12 نقطة. كان السباق قد انتهى عملياً. وبات كل ما بعده سباق الأمتار الأخيرة إلى خط نهايةِ عمليةِ التسمية، من خلال المتعة والتعب، ومن خلال الإرهاق والوعد. كانت حيوية وتوقعات ما بعد أيوا قد أعادت تصفير الحملة بأسرها: كنا قد جمعنا في باقي الانتخابات التمهيدية رقماً قياسياً من الربح والخسارة بلغ 46 في مقابل 4.

كنت، في الثاني من آذار/مارس، قد حزت تسع ولايات من عشر في يوم الثلاثاء الكبير Super Tuesday، واتصل بي الرئيس بوش مهنئاً: فأنا كنتُ المرشّح الديمقراطي المفترض.

كانت مكالمتي مع الرئيس في تلك الليلة وجيزة وودّية، لكنها تعارضت مع العمل الطويل الشاق المقبل الذي سيكون كل شيء إلا نبيلاً. فرئيس زمن الحرب الذي يشغل المنصب حالياً ينام على 85 مليون دولار ينفقها ذلك الربيع وفي خلال الصيف. كانت المعركة تبدأ، حتى قبل أن نتمكن من التقاط أنفاسنا .

كان عليّ أن أتابع الطريق، وأجمع المال لتمويل حربنا الإعلانية التلفزيونية الخاطفة. كانت الحاجة تستدعي أن يتعرَّف إليّ لفيف من الناس الذين لم يستمعوا إلينا خلال الانتخابات التمهيدية. لكننا احتجنا أيضاً، حتى ونحن نجول لجمع المال، إلى صُنع الأخبار وتذكير الناخبين بما يتعلّق به السباق. وفي التاسع من نيسان/إبريل، أي في اليوم التالي للانتخابات التمهيدية في إيلينوي، حملني هذان الهدفان إلى شيكاغو للمشاركة في حدث اقتصادي هو: «الشراكة في مجال التدريب في وست تاون الكبرى» . وكان ذلك فرصة للحديث عن الاستثمار في القوى العاملة، وخفض الضرائب على الطبقة المتوسطة، واستعادة السلامة المالية. وكان قد تقرّر أن ينضم إليّ الشخص الذي سُمّي حديثاً مرشحاً لمجلس الشيوخ الأميركي عن إيلينوي، وهو سيناتور في الولاية، شاب نحيف، طويل القامة، تكلّم عنه بحماسة شديدة مدير ماليتي، لو سوسمان. كان اسمه باراك حسين أوباما.

التقيت باراك خارج المسرح في قاعة انتظار صغيرة، فيما كان يجري تجهيزنا بالميكروفونات من أجل الحدث. والأمر الأول الذي لاحظته كان الابتسامات التي لم أرَ على الإطلاق أعذب منها في الحياة السياسية. فقد أضاء وجهه كلّه وهو يمازح فريقه. وتألّقت عيناه؛ بل إنه كان ينضح بالثقة أيضاً. وعندما تكون المرشح للرئاسة، يأتيك، في بعض الأحيان، مرشحون لمناصب أقل شأناً مع أُسَرهم طالبين التقاط الصور. أو أنهم يأتون، وهم على أهبة الاستعداد مزوّدين ببعض الجمل التي تمرنوا عليها جيداً، في محاولة لسرقة

الأضواء. لكن أوباما ليس من أولئك. لم يبذل أي جهد للتأثير بظرافته، أو بشأن سياسي، أو بأمر آسر. وقف جانباً، ونحن على المسرح معاً، واعتمد على أن «القليل يعني الكثير» ، وهو تكتيك أفضّل أن يتبنّاه الكثير من الأشخاص في الحياة العامة. من الواضح أنه كان يحاول أن يستوعبني، أن يقرِّر أي نوع من الأشخاص أنا، وأي نوع من المرشحين المعتمَدين سأكون. لم نكن قد تحدّثنا عن تلك اللحظة. لكنني أحببته من فوري. أمامه مستقبل، أمكنني الشعور بذلك. وكان كما لو أنه قال الأمر نفسه، وتساءل إن كان سينجز أمراً ما على المستوى الوطني في عشر سنين. اقترحت أن نجد له مكاناً يتألّق به في الحملة. ولم أخمّن قط السرعة التي ستأتي فيها تلك اللحظة.

بعد نحو أسبوعين، أعطتني ماري بيث كاهيل ومدير مؤتمري، جاك كوريغان، لائحة بالمتحدثين الأساسيين المحتملين في المؤتمر. كان أحد الأسماء باراك أوباما. ووقع اختيارنا عليه سريعاً. كان قراراً سهلاً؛ فهو شخص جديد، صفحته بيضاء، وكان شخصاً غير متوقَّع. ولن أراه مجدّداً حتى الليلة التي سيجري فيها ترشيحي رسمياً في بوسطن.

قبل أن يصبح المرشح الرسمي، يكون اختيار نائب للرئيس هو القرار الرئاسي الكبير الأول، والمشحون دائماً، الذي تتّخذه. وهو قرار ذاتي في الأصل، يتأثّر بعدد لا يُحصى من الأمور غير الملموسة. فمن الذي سيكون شريكاً جيّداً في الحملة؟ وفي الجناح الغربي؟ من الذي سيكون متمّماً لنقاط قوّتك، ويسهم في تعبئة مواصفات لائحة الترشيح؟ والأكثر من ذلك كلّه، من سيكون رئيساً جيّداً للولايات المتحدة إذا لم تتمكن من إكمال المدة، التي كان الناخبون قد منحوك إياها؟

طلبت إلى صديقي جيم جونسون أن يتدبّر العملية، وأنا أقوم بالحملة. كان جيم قد عمل لنائب الرئيس والتر مونديل. وكان ذا خبرة وفطنة. جمع فريقاً من المحامين المؤهّلين للغاية، بهدف مساعدته في التدقيق بالأسماء، بمن فيهم جيف ليسّ، الذي دقّق بي قبل أربعة أعوام. كان جيم كتوماً وحذراً، ويفضّل العمل بعيداً عن الأضواء. وبلغ درجة كبيرة من الكتمان، عندما تمكّنا مرّتين من إدخاله خلسة إلى طائرة الحملة من دون معرفة الصحافة، لنتمكّن نحن الاثنان من التشاور في الرحلات الجوية الطويلة. لكن جيم كان يخفي تحت نهجه العملي مواطناً تقدميّاً، شغوفاً وملتزماً؛ وكنا قد بلغنا، نحن الاثنان، نضوجاً في النشاط المرافق للحركة السلمية. وعرفت أن جيم سيبحث، في سياق العملية، عن الأفضل لي.

بعد العام 2000، وعندما تأمّل صديقي مايكل وولي في اختيار غور لنائب الرئيس، قال لي: «انتهى بنا الأمر بالسيّد آب/أغسطس، وليس بالسيد

تشرين الأول/أكتوبر» . وتمثّلت وجهة نظر مايكل في أن غور قد اختار الشخص الممتاز ليُسهم في خطاب الحملة في المؤتمر، وفي الأسابيع التي تلت. لكنه اعتقد أن ليبرمان، في الخريف، وفي سياق النقاشات والمناوشات النهائية التعريفية بين الحملتين، لم يكن على هذا القدر من الفاعلية في ملاحقة قضية غور، والدفاع عن المرشح.

فكّرت مليًّا في صيغة مايكل النابضة بالحياة: السيد آب/أغسطس، السيد تشرين الأول/أكتوبر. يُحتمل ألّا يكون هناك مرشح مثالي لنيابة الرئيس. وعليك أن تراهن على أفضل مَن يمكنه تأدية مختلف الأدوار. لكنني حاولت العثور على شخص يكون «السيد» أو «السيدة» ليس لفصلين فحسب بل لثلاثة: آب/أغسطس وتشرين الأول/أكتوبر وكانون الثاني/يناير، عندما يمسي الحكم هو القضية الأولى.

تتقلّص اللائحة سريعاً، عندما تمعن التفكير في نيابة الرئيس. قد تفكّر أن عليك النظر في المعمورة بأسرها. لكنك تدرك ماهية الفراغ المميز الذي تحاول تعبئته. من الذي يلبّي شروط عتبة التأهيل؟ من الذي سينجو من عملية التدقيق؟ من الذي يستطيع الاضطلاع بمهماته منذ اليوم الأول؟ من الذي يكون مرتاحاً فعلاً في التعامل مع وهج الإعلام؟ من الذي يسد الفراغات، ويأتي بصفات مضافة إلى اللائحة الانتخابية؟ من هو المستعد فعلاً لأداء الدور الثاني، ليس لأربعة أشهر فقط، بل لثماني سنوات؟ هناك مرشحون يتمتعون بمواصفات رائعة، لكنهم لا ينجحون في عملية التدقيق. وهناك أشخاص تُعجب بهم وتحبّهم لا يحظون بقدر من الراحة في الحملات وفي السياسة التي تختلف اختلافاً كبيراً عن النجاح في عالم الأعمال أو الجيش، على سبيل المثال. وهناك أشخاص قد يصيرون رؤساء جيدين، لكنهم لن يشعروا بالراحة قط، وهم يرتدون عباءة نائب الرئيس. إنها صيغة فريدة.

حاولت توسيع آفاق تفكيري، والقيام ببحث واسع. فكّرت في كبار من عالم الأعمال، وفي قادة عسكريين سابقين. لكنني عدت إلى أشخاص فكّرت في أنهم قادرون على المساعدة في الحكم منذ اليوم الأول، أشخاص يمتلكون فهماً كبيراً للحكم والسياسة والقضايا.

لمعت في رأسي فكرة، لكنني عرفت أنها ستستحيل، إذا ما سُرّبت إلى الإعلام، فأبقيتها طي الكتمان. كان أحد الأشخاص الأكثر قرباً من جون ماكين قد سعى إلى تقاربنا في عزّ حملتنا. وأوحى بأن جون قد يكون مستعدّاً للانضمام إليّ. كان ذلك في أقل الأحوال مثيراً للاهتمام. صحيح أنه معقّد للغاية، لكنه مثير للاهتمام. وفكّرت في وجوب ألا يصرف النظر عنه في الحال. وسبق لنا أن نجحنا، أنا وجون كطيارين زميلين، في الملاحة، عبر فترات

مضطربة. كان التمحيص الذي واجهناه ونحن نحقّق بأمر سجناء الحرب أو المفقودين في القتال في فييتنام، مشحوناً سياسياً. وتطلّبت الانفعالات التي كانت تدور كالدوامة حول القضية مستوى معيّناً من الحكم على الأمور والنضج.

وجدت، في تلك التجربة، أنني، أنا وجون، قد ألّفنا فريقاً رائعاً عندما كان لدينا شعورٌ مشترك بالهدف. فكّرت في أنَّ قدرته على التمرُّد، واستقلاليته، ربّما شكّلتا مكوّناً حاسماً لبلد يزداد ارتياباً بالسلطة. وكان قد ساهم في تحديد التأثير الخبيث للمال في السياسة. وتشاركنا في الشغف بالإصلاح.

عرفت أن جون قد شعر بعمق أن بوش قد بدّد الوحدة التي نشأت في 11/9، وكان يقسم البلاد بطرائق خاطئة فحسب. وكان جون ماكين قد اختلف علانية مع البيت الأبيض في عدد من المسائل: من إصلاح تمويل الحملة الانتخابية، إلى التغيير المناخي، إلى التصدي لصندوق العلاج الصحي نيابة عن المرضى. وكانت هناك فترة كانت فيها استقلالية جون وانزعاجه ملموسين جدّاً إلى حد اعتقد معه توم داشلي أن جون قد يغادر الحزب الجمهوري، وينضم إلى لجنتنا السياسية بوصفه مستقلاً.

يبدو، من الناحية السياسية، وكأن دهراً قد مضى على العام 2004. وعلى مر السنين، ومنذ سباقي مع الرئيس بوش، ذهب جون في اتجاهات سياسية مختلفة جدّاً. لكن، يومها، كانت تلك الحملة تنطوي على أسباب مقنعة تبرّر أنّ لائحة كيري-ماكين كانت قوية، أو تستحق النظر فيها، على أقل تقدير. وكانت تبرز، من دون شك، الوحدة التي احتاجت البلاد إليها. من الواضح أننا كنا نختلف على بعض القضايا الاجتماعية، بما في ذلك حق الخيار. لكن عرفت أننا كنا سنتوصّل إلى تفاهم في ذلك المجال. غير أنني عرفت أن جون كان ملتزماً تحريك مجلس الشيوخ، وجعل مؤسسات الحكم تعمل، وإعادة الثقة إلى الناس بأن الحكومة ستضع مصلحة الشخص العادي قبل مصلحة أصحاب الأموال الطائلة. وعرفت أنه لا يحتمل الأكاذيب المتعلّقة بخدمتي العسكرية. وسبق له أن دافع عني بالفعل في مواجهة الهجمات الأولى أواخر الربيع، قبل أن يعتمد الحزب الجمهوري استراتيجية «الهجوم السياسي الجائر وغير الصحيح» Swift Boating، ويخصِّص لها الأموال الطائلة. وأعتقد أن جون، ربما استطاع تغيير الخارطة الانتخابية وجعل أريزونا وكولورادو تؤدّيان دوراً. كان

مجرّباً وكان صلباَ. وقد التفّ حوله أشخاص اعتقدوا أنه سيريد المنصب، وحثّوني على النظر في الأمر بطريقة جعلتني أعتقد أن جون مهتم جدّاً بذلك.

لكن، في النهاية، وبالرغم من جلوسنا معاً على انفراد بضع مرات «متحدثين عن الأمر من دون أن نتحدّث عنه» ، لم يتمكّن جون من تخطّي عائق ارتباطه الممتلىء بالمطبات، ولكنه ارتباط عمر بالحزب الجمهوري. ونحن، في الجوهر، تغازلنا، لكننا لم نخرج قط في موعد.

وفي النهاية، فإن كل عبارات «ماذا لو» في الدنيا و«ماذا كان يمكن أن يحدث» ، ليست إلّا مضيعة للوقت، عندما تكون في خضم الحملة، وعليك أن تتَّخذ قراراً.

كان أمامي ثلاثة خيارات رئيسية، أو أربعة، أنظر فيها، وهي خيارات جيدة اتفق جميع كبار فريق حملتي والشخصيات الرئيسية في الحزب على أنها تبدو معقولة بخصوص آب/أغسطس، وتشرين الأول/أكتوبر، وكانون الثاني/يناير أيضاً. وبغض النظر عن بحثي خارج الإطار التقليدي عن مختلف الإمكانات غير المألوفة، فإن القائمة تقلّصت إلى ديك غيبهارد وبوب غراهام وجون إدواردز.

جاء ديك غيبهارد بتجربة غنية. كان يتمتع بعلاقة وطيدة مع النقابات العمالية وبالشعبية في أوساطها. وأوحى الكثيرون بأنه يستطيع إحداث الفارق في أوهايو، وربما كانوا على حق.

وكان بوب غراهام حاكم فلوريدا. وكان قد ترأّس لجنة الاستخبارات (في مجلس الشيوخ)، وجلب إلى الطاولة أوراق الاعتماد الجنوبية، إضافة إلى مقاربة الحس العام للحياة العامة. وكان، هو وزوجته أديل، قد أصبحا صديقين عزيزين لي ولتيريزا.

وكان جون إدواردز خياراً محتملاً، وهو الذي قام بالحملة الأقوى للحصول على المنصب، والذي استحوذ على حماسة الحزب. كان لجون أنصار ومنتقدون في مجلس الشيوخ. وكان تيد كينيدي قد عمل معه في موضوع العناية الصحية واعتقد أنه موهوب. فهناك شيء في إدواردز يذكّره بشقيقه بوبي. إلا أن سيناتورات آخرين حذّروني بأن هناك خَطْباً ما في جون. اعتقدوا أنه مبالغ في الطموح، وعلى عجلة كبيرة من أمره. وأعرب عدد منهم عن مخاوفهم، لأنَّ من غير الممكن الاعتماد عليه ليكون لاعباً في الفريق في حمأة الحكم.

عرفت جون جيّداً في الفترة المؤدّية إلى الانتخابات الأولية، وأحببته. ورأيته يقوم بحملته بفاعلية وانضباط. وراقبته وهو يكتسب بعض الزخم في الأسابيع النهائية التي سبقت المؤتمر العام في أيوا، في الفترة نفسها تقريباً التي كانت فيها حملتي تقلع. ولم يتمكّن جون من وقف زخمي في أي مكان، إلا في الولاية التي كان قد وُلد فيها، أي كارولاينا الجنوبية. لكنني خرجت وأنا معجب بقدرته. كان قد خاض سباقاً جيداً، ولم نتصادم قط حول القضايا الكبرى.

لطالما كنا، أنا وتيريزا، معجبَيْن بزوجة جون. كانت إليزابيث إدواردز ذكية وظريفة، وقد عانت الأمرَّين لترزق بولدين جميلين في وقت متأخر من الحياة، بعد أن قُتل ابنها «ويد» في حادث مأسوي.

اجتمعنا، أنا وجون وتيريزا، للمرة الأولى على العشاء سنة 2000، بعد أن كنّا، أنا وجون، قد اجتزنا الامتحان العسير لعملية التدقيق في غور لمنصب نائب الرئيس. وبعد الحديث عن مجلس الشيوخ والسياسة وتربية الأولاد ومسيراتنا الجماعية، تحدَّث جون وإليزابيث عن سبب انخراطهما في الخدمة العامة. كانت خسارة ابنهما قد غيّرت حياتيهما. وتحدّث جون بطريقة مؤثرة عن تلقّيه تلك المكالمة الهاتفية التي يتوجس منها جميع الأهل، وإبلاغه أن ابنهما الحبيب قد قُتل. ووصف شيئاً قال إنهما لم يكونا قد تحدّثا عنه من قبل، وهو هول رؤية جثة ابنه بلا حياة وضمّه بذراعيه. كانا قد عانيا الكثير وخرجا منه، بطريقة ما، أكثر قوّة كأسرة، مع شعور بالمصلحة العامة، ومع إحساس أنهما معاً، يعيشان من أجل ابنهما ويد. وأصاب ذلك وتراً حساساً. سمعت جون بعد ذلك يخبر تلك القصة خلال صلاة الفطور في مجلس الشيوخ. واستطعت أن أرى كم أنه، هو وإليزابيت، قد تصارعا مع خسارتهما، وما فعلته في حياتيهما.

تساءلتُ، وأنا أنظر في اختيار جون نائباً لي، عن طموحه. تساءلت إن كان يمكنه البقاء ملتزماً المشروع المشترك إذا صعبت كل الأمور، كما يحدث بشكل محتوم في السياسة والحكم. عدت بالتفكير إلى السنتين الأوليين من رئاسة بيل كلينتون. فبعد خسارته الكونغرس في انتخابات العام 1994 النصفية، كان قد بلغ أدنى مستوياته على الإطلاق. كان إخلاص غور في تلك اللحظة حاسماً. فهل يمكنني التعويل على جون إدورادز للقيام بالأمر نفسه؟ هناك أمر جعلني غير متيقن من إمكانية الاعتماد عليه في شراكة تستمر ثماني سنوات تُعدّه، بدورها، لأن يسعى إلى الرئاسة.

أعاد جون، بهدف طمأنتي على ما أعتقد، إخباري قصة قال لي إنه لم يخبرها لأحد. كانت قصة وفاة ويد وتلك اللحظة التي قضاها وحيداً مع جثته.

هناك ما أثار اضطرابي. بدا مألوفاً جدّاً. إنها الذكرى نفسها بالضبط التي كان قد شاركنا بها قبل أربعة أعوام على العشاء.

نمتُ على القرار. وفكّرت كيف أن الناس يجدون كل أنواع السبل للتعامل مع الحزن. ربما أعاد جون إخبار القصة نفسها بالطريقة نفسها، لأنها كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنه فيها تجاوز ألم الذكرى. وأنا لن أحكم عليه، أو أضع نفسي مكانه. وأنا، ولله الحمد، لم أفقد ولداً من أولادي.

طلبت الاجتماع به من جديد. وتحادثنا عن نوعية الشراكة التي أتطلع إليها في نائبي. وأكّد لي جون أنه لن يترشَّح أبداً ضدي. وسيكون لاعباً في الفريق على المدى البعيد. واستخدم مفردة «أسرة» .

عرضت عليه مكاناً على اللائحة. وشاركت أُسرتانا في حفلة شواء رائعة في المزرعة ببيتسبرغ، وسهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل نتحدَّث عن المستقبل. وسرعان ما تآلفنا، أنا وتيريزا، مع ولديهما الصغيرين، جاك وإيما كلير، ومع ابنتهما الأكبر سنّاً: كايت. كانت كايت من عمر ابنتيّ وسرعان ما اتفقّن هن الثلاث. أشعرني ذلك بالارتياح. وفي صباح اليوم التالي، في تجمّع كبير وسط بيتسبرغ، قدّمت جون إدواردز بوصفه مرشَّحي لمنصب نائب الرئيس.

ما إن انتهيت من اختيار نائب الرئيس، حتى كان عليّ أن أتصارع مع قرار جوهري آخر، قرار له تداعيات بعيدة المدى سينتهي به المطاف، وقد لاح بظلّ أكبر حتى من ظل اختيار إدواردز.

ثمة قرارات تكتيكية كبرى تتعلّق بالمال والموارد تتّخذ في الحملة الرئاسية، تؤدّي إلى تعديل الاستراتيجية كلّياً، لأن بمقدورها أن تحدّ بسهولة من حرية التصرّف للمرشح.

بعد ووترغيت، قام الكونغرس، تحدوه في ذلك أفضل نيّات تخليص الحملات الرئاسية من المانحين الأقوياء الذين يمكنهم تقرير نتيجة الانتخابات، بإصدار قانون أُنشئ بموجبه برنامج التمويل العام. كانت الفكرة بسيطة: يختار كل حزب سياسي مرشحه في مؤتمره العام، ويحصل المرشحون على حوالة من الحكومة الفيدرالية يجب أن تكفي حتى يوم الانتخاب. وكان الهدف هو التكافؤ بين الحملات. حيث تقرر القضايا والسياسات والمهارة السياسية نتيجة الانتخابات، وليس المال.

ولما أصبحت الحملات أكثر تكلفة، ووجد الناس أساليب مبتكرة لضخ المزيد من المال في البرنامج، أخذت الخروقات تظهر في بنية التمويل العام.

وبات في وسع اللجنتين الوطنيتين للحزبين السياسيين: اللجنة الوطنية الديمقراطية واللجنة الوطنية الجمهورية، قبول مساهمات كبيرة بالدولار لإنفاقها على ما افتُرض أنها «أنشطة بناء الحزب» . كانت روح القانون تهدف إلى حماية أنشطة القاعدة، أي التشجيع على التصويت. واجتهد محامو الحملة المهرة، من الطرفين، في تفسير ذلك البند لتضمينه الدعاية للقضايا. وتطوّر ذلك إلى ثغرة ضخمة. كانت الدعاية مسموحة ما دامت لم تقل عبر الإذاعة والتلفزيون: «صوتوا للرئيس» ، ومادام الإنفاق عليها لم يأتِ بأمر من المرشحين. وفي النهاية، صدّقنا على تشريع ماكين-فينغولد لتمويل الحملة من أجل إغلاق «ثغرة التبرُّع المالي السياسي» . ومن سوء الحظ أن القانون لم يفعل شيئاً لوقف مجموعات وهميّة يموّلها أفراد مجهولون عن تمويل الإعلانات.

وكان لا يزال عليّ، ونحن نخطِّط لحملتنا، أن أخلص إلى أن التمويل العام للانتخابات العامة هو في المجمل أفضل من البديل، رغم العثرات التي وقعت هنا وهناك. فمنذ العام 1976، أنفق المرشحون الديمقراطيون والجمهوريون في الأساس مجموع الموارد نفسها في الانتخابات العامة. وكانت القرارات الكبرى تركّز في كيفية إنفاق تلك الموارد، التي تكاد تكون متساوية، في خلال الأشهر الثلاثة الشاقة الممتدة من المؤتمر العام إلى يوم الانتخاب.

كان الكثيرون من أعضاء فريقي قد شاركوا في حملة غور. وتذكّروا بمرارة كيف أن غور واجه في تشرين الأول/أكتوبر، أي قبل شهر تماماً من الانتخابات، قراراً بغيضاً في شأن الموارد: هل يُنفق كل ما عنده في أوهايو أم في فلوريدا؟ لم يستطع القيام بالإنفاقين. فما من جمهوري انتُخب رئيساً من دون الفوز بأوهايو. وما من ديمقراطي خسر الرئاسة بعد فوزه في فلوريدا. لم يكن ما تبقّى لغور من المال ما يكفي للنضال في كلتا الولايتين. وبالتالي راهن بكل شيء على فلوريدا. وأنا مقتنع بأنه كان سيُعلن منتصراً لو كانت كل الأصوات قد أُحصيت.

إن اتخاذ قرار كهذا هو بمثابة موقف رديء تَعْلَقُ فيه عندما تتحدث عن إيجاد سبل للفوز بالرئاسة. لم تكن الخارطة الانتخابية في العامين 2000 و2004 سمحة بنوع خاص مع ديمقراطي. ولم يكن هناك الكثير من المتسع للخطأ. فإذا كان لديك مسلك واحد للنصر ولخصمك الكثير، فتلك ورقة صعبة تلعبها.

عرفت، منذ بداية حملتي بالذات، أننا لا نريد أن نجد أنفسنا، بحلول تشرين الأول/أكتوبر، في الوضع الذي كان غور قد وجد نفسه فيه. أردنا أن

نتمكّن من المنافسة في كل من أوهايو وفلوريدا. وربما استطعنا، بوجود جون إدواردز على اللائحة، أن ننجز شيئاً في كارولاينا الشمالية. وقد وعد إدواردز بتسليمنا ولايته.

عرفت أنني ما إن أتلفّظ بعبارات «أقبل الترشيح» ، حتى يجري تحويل 75 مليون دولار للانتخابات العامة، وهي أموال لا بُدّ أن تكفي حتى يوم الانتخاب.

لكن، قبل ذلك بسنوات، تصوّر كارل روف أمراً مبتكراً، وكأنه رمانة يدوية تُرمى في انتخابات العام 2004. وروف حاذق. فالحزب المسيطر على البيت الأبيض يختار موعد مؤتمره للترشيح بعد إعلان الحزب الآخر عن خياره. وكانت المؤتمرات العامة، على مدى خمسين عاماً، تُعقد بفارق أسبوع تقريباً، وأحياناً أسبوعين. ورأى روف فرصة للقيام بأمر لم يحدث من قبل. لقد حوّل جدول مواعيد المؤتمر إلى لغم سياسي. فبعد أن أعلن رئيس اللجنة الوطنية الديمقراطية تيري ماك أوليف أن مؤتمرنا سيُعقد من 26 إلى 29 تموز/يوليو، أعلنت اللجنة الوطنية الجمهورية أن مؤتمرها سيُعقد بعد ذلك بخمسة أسابيع، في سياق الأسبوع الذي يسبق عطلة نهاية أسبوع عيد العمل.

لا يمكنني أن ألوم روف. ففي النهاية، إذا فُتح باب الحصول على المال في اللحظة التي يمسي فيها الساعي إلى الترشيح مرشّحاً، وأنت جمهوري تشغل منصب الرئاسة، وغارق في التبرُّعات الخاصة للحملة، فلمَ لا تحدِّد موعد مؤتمرك في وقت متأخر من الصيف؟ ولمَ لا تجبر خصمك الديمقراطي على صرف كل قرش على انتخابات عامة تمتد على مدى 13 أسبوعاً، وأنت تستطيع صرف المبلغ نفسه على امتداد خمسة أسابيع فحسب؟

ذلك بالضبط ما فعله روف والجمهوريون.

كان الاستنتاج الطاغي داخل حملتنا هو أننا لا نستطيع فعل الكثير حيال ذلك. ودافع معظمنا عن الاحتفاظ بمواردنا في آب/أغسطس، حيث نكون بعد عيد العمل، ونحن ندخل في الفصل التالي، في موقع جيّد للتنافس مع حملة بوش حتى اللحظة الأخيرة.

أوحى بعض من أقرب أصدقائي إليّ بفكرة جريئة. اعتقدوا أننا نملك بالفعل الرد المناسب على ما كان الجمهوريون قد فعلوه بغية تجيير الروزنامة السياسية لمصلحتهم. وجادل ديفيد ثورن ورون روزنبليث حول أننا نستطيع،

مع كمّ المال الذي كنا نجمعه على الإنترنت، الانسحاب من برنامج التمويل العام، والسيطرة على قدرنا في الانتخابات العامة.

كنت، بعد أيوا، قد جمعت ما يقارب 180 مليون دولار. وكان لدي نحو مليوني أميركي قد سُجلوا في موقع JohnKerry.com. كان ذلك، في حينه، أكبر لائحة بريد إلكتروني في الميدان السياسي التقدُّمي. حلّقت حملتنا لجمع الدولار الصغير بما هو أبعد من أي شيء، أبعد حتى مما حققته حملة هوارد دين على مستوى القاعدة. وباتت الآن ملايين أخرى من الأميركيين على وشك متابعة الحملة. ماذا لو طُلب منهم تمويل حملة على مستوى القاعدة؟

إذا نظرنا الآن إلى ذلك اليوم، فسيبدو الجواب بسيطاً. لكن، في صيف العام 2004، كان ذلك فكرة ممتلئة بالمخاطر والمجهول. ماذا لو واجهنا فترة عصيبة وصار جمع المال أكثر صعوبة؟ ماذا لو تباطأت تبرّعات القاعدة، كما فعلت منذ زمن مع هوارد دين عندما هدأت حملته؟ ماذا لو انتهى بنا الأمر في تشرين الأول/أكتوبر ونحن مفلسون تماماً؟ ماذا لو أن مأساة وطنية، كهزة أرضية، أو إعصار، أو، لا سمح الله، حدث إرهابي، جعلت عملية جمع التبرعات غير لائقة، أو يتعذّر استمرارها في أسبوع أو شهر نكون فيه معتمدين عليها؟ ماذا لو كان ذلك يعني أن عليّ الابتعاد لبعض الوقت عن أماكن مثل أوهايو، وسكنسن، أو ميشيغان، للذهاب وجمع التبرعات في المعاقل الزرقاء (الديمقراطية)، كنيويورك وكاليفورنيا؟

وفي السياسة، كما في العلوم، يكون لكل فعل، ردُّ فعل مساوٍ ومعاكس. فماذا لو بقيت ضمن برنامج التمويل العام، وانسحب منه بوش؟ كانت تلك هي المعضلة نفسها التي واجهتها مع دين، ولكنها أكثر سوءاً: فدين كان هو المبادر إلى القفز، منسحباً من التمويل العام، وهو ما جعل قراري أكثر سهولة. وفي المقلب الثاني، ماذا لو انسحبتُ وحذا بوش حذوي، ومن شبه المؤكد أنه سيفعل ذلك؟

فبعد انقضاء أربع سنوات في البيت الأبيض، كانت حملة بوش قد أتقنت التنقيب في البيانات وجمع المال المباشر من المتبرّعين الصغار. كان لبوش نحو ستة ملايين بريد إلكتروني. اعتقدنا أن زخم القاعدة معنا، ذلك أن عامل التغيير يعمل ضد الرئيس الجالس. لكن ذلك كان رهاناً كبيراً فظيعاً نقوم به. فإذا كان في إمكان بوش مضاهاتنا في جمع المال من المتبرعين الصغار بالدولارات القليلة، فمن الأفضل لنا البقاء ضمن البرنامج.

إلا أن عائقي الأكبر تمثّل في أن إصلاح مالية الحملة كان جزءاً من حامضي النووي DNA، وكنت قد قضيت عقوداً منتصراً للتمويل العام للحملات. عرفتُ أن كل ما كان يفعله روف وبوش لترجيح كفة الروزنامة لمصلحتهما قد انتهك روح إصلاح تمويل الحملة. لكنني عرفتُ أيضاً أن كل ما حاربت من أجله في المسألة سيجري تحريفه، إذا كنت المرشح الأول الذي يرفض التمويل العام للانتخابات العامة. واجهت خياراً رديئاً بين الاستمرار في برنامج تمويل الحملة المنتَهَك كمسألة مبدأ، أو الانفصال عن هذا البرنامج، والتعرّض للهجوم بوصفي متقلّباً. كان احتمال قيام روف والجمهوريين بمهاجمتي في شأن إصلاح تمويل الحملة، غنيّاً بالمفارقات. كان ذلك سيشكّل المثال الصارخ على مفتعل الحرائق الراكب على عربة الإطفاء إلى ساحة المنزل نفسه الذي أشعل فيه النار. كانوا قد انتهكوا البرنامج، لكنهم في الوقت نفسه، على أهبة الاستعداد للومي. تلك هي السياسة. أضف إلى ذلك، أنني كنت قد هوجمت أيضاً لتقلّبي، حيث لم أكن قد تقلّبت، وهو ما منعني من التقلّب حيث توجّب عليّ ذلك؛ لأنني وقتذاك، كنت أستطيع الرد بفاعلية على الاتهامات. ملعون أنت إذا فعلت، وملعون إذا لم تفعل.

قرّرت أن ذلك لم يكن البيئة الصالحة للقيام برهان كبير معقّد، كهذا. لم نكن نحتاج إلى عملية إلهاء أخرى. كنت سيّد القرار. وسأوافق في بوسطن على ترشيحي، وأسير في برنامج تمويل الحملة، وأقتصد بالمال في آب/ أغسطس.

كنت في فيلادلفيا في الليلة الأولى للمؤتمر الديمقراطي العام المنعقد في بوسطن. ومن سخرية الأمور، أنك عندما تكون مرشّحاً، بالكاد تكون حاضراً في مؤتمرك العام: أنت في قلب الحملة الانتخابية، تقوم بالدعاية في الولايات المترجّحة، تستفيد من الناخب الإضافي، ومن اهتمام وسائل الإعلام اللذين تجتذبهما الحملة. جريت مسرعاً عبر تجمّع رائع، متحدّثاً عن «الأدراج الصخرية» الشهيرة خارج متحف الفن في فيلادلفيا. كان تجمّعاً سحريّاً، بلغ فيه مدى الحشود حدود الشمس الغاربة في الخلف. وأذكر رؤيتي سراجات الليل في الهواء. لكن كان علينا أن نستعجل: أردت العودة إلى الفندق على الوقت، لأشاهد تيريزا على التلفاز وهي تخطب في المؤتمر. اتصلت بها هاتفياً من موكبي السيّار، لأدعوَ لها بالتوفيق. كان من الغريب أن أسمع في الخلفية ضجيج المؤتمر في بلدتي، وأنا بعيد عنها مئات الآلاف من الأميال.

بعودتي إلى فندق «حياة» ، انحنيت إلى الأمام، في حين أن برنامج المؤتمر مستمر. وقف سيناتور الولاية النحيل الذي كنت قد التقيته في نيسان/

إبريل أمام المنصة. إنه المتحدث الرئيسي باراك أوباما. حلّق الخطاب بشكل مطلق. كنت أشعر باللحظة. وفي منتصف الخطاب، سرت مسرعاً عبر الممشى إلى غرفة مارفين نيكولسون لأتشارك معه في اللحظة. دفعت الباب، وخطوت إلى ضباب: كان مارفين قد حجب جهاز إنذار الدخان، وراح يدخّن في الفندق. لم أستطع الامتناع عن السخرية منه. لكنني بقيت هناك، بالرغم من الدخان، وشاهدنا معاً بروز نجم سياسي جديد: كان باراك أوباما قد أزال سقف البوسطن غاردن.

وسرعان ما جاء دوري للعودة إلى حفلتي.

«كير-ري!»

«كير-ري!»

«كير-ري!»

تردّدت الأصوات في غرفة انتظاري، وفكّرت أنها كانت مختلفة عن هتافات «د-فاع! د-فاع !» المعهودة في بوسطن غاردن. وكان قد جرى تهريبي إلى مكان حُوِّل إلى مكتب تنفيذي يعج في العادة بحاملي بطاقات الموسم لفريق السلتيك أو البروين، وهم يلتهمون الهوت دوغ بين الأشواط. وكان بوسطن غاردن الجديد، الذي سُمّي في الأساس فليت سنتر ويُسمّى اليوم تي دي غاردن، يعج حتى السياج بالمبعوثين والمانحين والمنظّمين والوجهاء الأجانب المتشوقين إلى مشاهدة العملية السياسية الأميركية. وكان كل منهم ينتظر للمشاركة في موكب من المواكب الفخمة للحياة الأميركية. كم هي المرات التي كنت فيها هناك لمشاهدة مباراة لفريق بورين أو دورة بين بوت في الهوكي؟ ولم أكن قد تصوّرت أنني سأكون هنا لهذه المناسبة: لا يحصل الكثيرون من المرشحين للرئاسة على فرصة أن يوافقوا على ترشيحهم في مدينتهم.

كان بين يديّ خطاب القبول الذي كنت على وشك إلقائه، بعد أن جرى تلقيمه في جهاز التلقين عن بعد. لم يعد هناك وقت لعمليات التحرير. حاولت أن أبقى مركّزاً في المهمة التي تنتظرني. لكنني لم أستطع إلا أن أفكّر في الطريق الطويلة الممتدة من جراحة السرطان في جونز هوبكينز إلى قبول ترشيح حزبي لي للرئاسة. وفجأة لم تعد رحلة الحملة الطويلة تستهلك تركيزي كله في التلفاز المثبَّت على الجدار، بل رحلة الحياة نفسها: ظهرت

فانيسا وألكس على المسرح للشروع في التقديم. كنت فخوراً بما لا يوصف. كانتا شابتين فصيحتين، بارعتين بشكل لا يُعقل، تتحدثان عن والدهما. امتلأت عيناي بالدموع. والأمر الوحيد الذي منعها من الانهمار كان الزينة التي طُلي بها وجهي من أجل كاميرات التلفزيون. حان وقت الخروج. سرت عبر بحرٍ من الناس على المسرح، موجّهاً التحية إلى الكثيرين الكثيرين ممّن كانوا جزءاً من حياتي. كانت العواطف جياشة إلى أن بلغتُ المنصة، وحان وقت الكلام.

لكن، وللحظة، كان كل ما أمكنني التفكير فيه هو كم كان بعيد الاحتمال لولد، وقف ذات يوم خارج ملعب «بوسطن غاردن» القديم آملاً في أن يلقي نظرة خاطفة على من سيصير قريباً الرئيس كينيدي، أن يكون، بعد ذلك بأربعين عاماً، في الملعب الجديد متابعاً طريقه الخاص إلى الهدف نفسه.

كم كان بعيد الاحتمال. كم أنني محظوظ. كم أنه نادر.

كانت لحظة بهيجة، شعور لا تختبره إلا القلّة. وبوقوفي على المسرح بعد الخطاب، وهبوط البالونات ببطء، كانت ذراعاي تحتضنان أفراد أسرتي: تيريزا، فانيسا، ألكس، وفتيان هاينز وأفراد الأسرة السياسية: آل كينيدي وآل إدواردز، وميشيل وباراك أوباما. ولليلة واحدة من تموز/يوليو، بدا أن كل شيء يسير على السكة الصحيحة.

لم أكن أعرف أن أسلحة آب/أغسطس ستُصوّب عليَّ، وعلى الرجال الذين غامرت بحياتي معهم قبل ذلك بخمسةٍ وثلاثين عاماً.

الفصل الثاني عشر: بفارق همسة

«WAREIUHSS» .

استعنت بأفضل مَن ترجم حجر رشيد في داخلي لترجمة ما كان جايمس كارفيل الملقّب برايجن كاجون - Ragin’ Cajun قد أدلى به للتو، لكنني أخفقت. ولا بد من أن تفرّسي المرتبك كان بوحاً، فكرّر القول بنبرة مختلفة بعض الشيء هذه المرة.

«Weshissuhs» .

المقصود: قضايا مثيرة للانقسام - wedge issues، قالها بول بيغالا مترجماً. عندها فقط اتضح لي الأمر. كنت أتناول العشاء في بالم مع اثنين من الاستراتيجيين السياسيين المخضرمين. كانا يشرحان الثالوث الأقدس الذين يضمن كسب الجمهوريين للرئاسة في العادة، وهو: الأسلحة، ومثليّو الجنس، والله.

اعتقدتُ أنني كنت أملك المؤهِّلات التي تعزلني عن القضايا الاجتماعية التي استخدمها الجمهوريون لدق الإسفين بين الديمقراطيين والناخبين ممن كانت اهتماماتهم الاقتصادية، التي تنصبّ في الوظائف، والعناية الصحية الرخيصة، وقانون ضرائب عادل، وصفقات تجارية معقولة، هي بالضبط ما كنت قد قاتلت دائماً من أجله في الحياة العامة. أردت التأكد من أن الناخبين يرونني على حقيقتي.

ماذا عن الأسلحة؟ لقد أطلقت من النيران في حياتي، يوم كنت في البحرية، ويوم كنت صياداً فتيًّا في مزرعة العم فريد، أكثر كثيراً مما فعله جورج و. بوش. بل إنني كنت، وأنا فتى، عضواً صغيراً في الاتحاد الوطني للأسلحة قبل وقت طويل من تحوّله إلى طائفة يمينية. كنت أمتلك سلاحاً.

لكنني لا أعتقد أن أسلحة الحرب تنتسب إلى الشوارع الأميركية، وكنت بالتالي قد صوّتت على حظر الأسلحة الهجومية. فليس للمواطنين الذين يحترمون القانون ما يخشونه من التحقيق في خلفياتهم. ولم يشكّل أي منهما (الأسلحة الهجومية والتحقيق في الخلفية) تهديداً للتعديل الثاني، وهو ما وافقت عليه الشرطة.

وماذا عن حقوق المثليين؟ إنني أمقت مختلف أشكال التمييز. حتى في القضايا التي كانت مثيرة للانقسام مثل زواج المثليين، أعتقد أن الزعامة تعني إيجاد أرضية مشتركة، وأن زعامة الرئاسة تعني تذكير الناس بأننا جميعنا أميركيون، ولا تعني محاولة التفريق بيننا. ولا ينبغي أن تُجبر كنيسة ما، ولن تُجبر، على انتهاك معتقداتها وإجراء زواج مثليّ. لكن يمكننا بالتأكيد إيجاد حمايات شرعية مدنية ليتمكّن كل اثنين متحابين أن يكونا معاً. حتى ديك تشيني، يبدو أنه يوافق على الارتباطات المدنية التي اقترحتُها.

وبخصوص الله؟ كنتُ صبي مذبح. وكنت قد تحدثت في الكنائس، وجلست بتواضع خلال فطور الصلاة في مجلس الشيوخ. وفي العام 1993، بعد أن دعيت للتحدث في صلاة الفطور الوطني، كتب لي شارلز كولسون، الذي كان قد حاول تدميري نيابة عن نيكسون سنة 1971، رسالة مؤثرة. كان قد وجد الله بعد ذهابه إلى السجن في جرائم تتعلق بووترغيت، وأنشأ رعية في السجن تُعرِّف بالخدمة الحقيقية للمسيح. وكتب في الرسالة: «منذ بضعة أعوام، كنّا، أنا وأنت، على طرفي نقيض ... لكن يجب أن أقول لك بالتأكيد أننا، اليوم، لسنا كذلك. ففي الأعوام العشرين التي كنت أشارك فيها بصلاة الفطور الوطني، لم أسمع قط عرضاً أكثر وضوحاً وجلاء للإنجيل من قراءتك للنصوص المقدسة.... أفترض أن علينا جميعاً العيش مع قوالبنا النمطية؛ وأنا بالتأكيد فعلت. لكن مهما تكن الصورة النمطية التي كوّنتُها عنك فإنها قد تبدّلت كلّياً. أكتب لك هذه الرسالة طالباً منك الصفح عن الطريقة التي أذيتك فيها في الماضي» .

شعرت بتأثّر عميق. لكنني لم أكن مستعداً بعد لغفران كل ما حدث سنة 1971، عندما كنت محارباً قديماً في السابعة والعشرين، تتجسّس عليّ الحكومة نفسها التي أرسلتني إلى الحرب. لكنني شكرت كولسون، وفكّرت مليّاً بما كتبه. وقد ولّدت السياسة بالفعل قوالب نمطية مدمّرة، لكن يمكنها أيضاً أن تكسرها. اعتقدت أنني تعلّمت أمثولة مهمة: فأنا بمنحي الناس، حتى أولئك الذين في الجانب الآخر، فرصة التعرف إلى شخصيتي الحقيقية، قد أتمكن من التصدّي للصورة الكاريكاتيرية التي كان خصومي قد لفقوها عنّي. واعتبرتُ مسيرتي الشخصية خصوصية، لكنني لم أكن لأسمح لأي سياسي

بالانتقاص من ولائي. لم أكن أعتقد أن ذلك كان المضمار الذي يجب أن تخاض فيه، أو ستخاض، الحملة الرئاسية الأولى بعد 11/9.

حذّرني بول وجايمس من أن قواعد اللعبة الجمهورية ليست لها أي علاقة بالواقع، وذكّراني بأن جذور كارل روف السياسية التسويقيّة تعتمد البريد المباشر، مخيفةً الناس بالأفكار النمطية.

وأنا، بوصفي مرشحاً رئاسياً، سأشهد مباشرة أن الأفكار النمطية، التي كان الطرف الآخر يستخدمها لتقسيم أميركا، لا تزال فاعلة. وقد دعمها بعض أصحاب المصالح الأقوياء الحريصين على الترويج لخياراتهم الخاطئة. وسيكون علينا أن نقاوم.

عرفت، متى تعلّق الأمر بالسلاح، أن الحزب الجمهوري يعتقد أنه يملك ورقة رابحة مؤكَّدة. ففي العام 2000، قال جورج و. بوش إنه قد أيّد قوانين الرقابة على الأسلحة التي كانت واردة في النصوص، وكان يصعب بالتالي على الجمهوريين الوقوف ضد ما كانت إدارة كلينتون قد فعلته.

في المقابل، أعلن الاتحاد الوطني للأسلحة أن آل غور في حال انتخابه رئيساً، سوف يقود «حرباً على الأسلحة» . صوّروه على أنه صفوي لا يؤمن بالتعديل الدستوري الثاني. وقد لعبت قضية الأسلحة بقوة ضد غور في انتخابات لم تظهر نتائجها إلا في اللحظة الأخيرة. وقد اتصل بي مايكل وولي، وسألني إن كان يمكنني الذهاب إلى وسكنسن للتحدث عن الأسلحة في أوساط الناخبين النقابيين، نيابة عن آل. وتوجّهت مباشرة إلى صالة النقابة في أو كلير.

كان هؤلاء الناخبون، الذين ربّما أرادوا الاسترخاء فحسب، وهم يحتسون الجعة في نهاية الدوام، قد تعرّضوا لسيل من الدعايات التلفزيونية والمناشير التي طعنَتْ بإخلاص غور للتعديل الثاني. كانت تلك بلاد صيد الغزلان. تحدّثتُ عن الصيد، لكنّني سألت أيضاً كم رجُلاً بينهم قتل غزالاً ببندقية أك-47؟ فضحكوا. يمكن لصيّاد قديم أن يفضح زيف نداءات الاتحاد الوطني للأسلحة. وسيفوز آل بشق النفس في وسكنسن. لكن بوش سحب بعضاً من ولايات الصيد إلى الطابور الجمهوري، بما في ذلك نيو همشاير. وقد طبقتُ هذه الأمثولات على حملتي. كنت مصمماً على الظهور كثيراً وأكون نفسي فحسب.

لم أعتقد أن بإمكان أي مرشح أن يفوز بتجاهله قضية، مثل قضية الأسلحة، أو بمحاولة أن يكون جمهورياً مخفَّفاً ويتملّق الاتحاد الوطني

للأسلحة. وثمة مَن جادل في أن على الديمقراطيين سحب هذه القضية من التداول. كانت لوجهة النظر هذه جذورها في الندوب المتبقية ليس من خسارة غور فحسب، بل أيضاً من ذكرى عشرات الديمقراطيين شاغلي الوظائف الذين خسروا مقاعدهم عام 1994 بسبب قضية الأسلحة. وأنا لم أقتنع بذلك. كنت قد تواجهت مع هوارد دين بخصوص الأسلحة في الانتخابات التمهيدية، عندما أطال الكلام على التصنيف الممتاز الذي تلقّاه من الاتحاد الوطني للأسلحة بوصفه حاكماً لفيرمونت. لم أردْ يومها أن أكون مرشح الاتحاد الوطني للأسلحة، ولم أعتقد أن الاتحاد سيتنحّى عن دورة الانتخابات إذا تخلّينا عن مبادئنا.

لم تفعل الجمعية الوطنية للسلاح ما من شأنه تحريري من ظنوني. وقد تلقت مساعدات كثيرة من زعامة الحزب الجمهوري في الكونغرس المستعدة لاستخدام قاعة الكونغرس منصة لمسرح سنة الانتخابات. ففي الوقت الذي كنت أصفّي فيه الحسابات مع بوش، رتّب الجمهوريون فجأة سلسلة عمليات على مراقبة الأسلحة في نص تشريعي كان، بخلاف ذلك، غير ذي صلة بالموضوع. كان زعيم الغالبية الجمهورية في مجلس الشيوخ، بيل فريست من تنيسي، صديقاً لي وشريكاً في التشريع. كان بيل طبيب صحة عامة، دمثاً، ترشّح لمجلس الشيوخ، وهو سليل أسرة محترمة من ناشفيل، وإنساني. كان قد سافر إلى أفريقيا في عُطَل مجلس الشيوخ للعناية بأولئك الذين يعيشون في فقر مدقع. كنت، أنا وبيل، قد ضافرنا جهودنا سنة 1999 في كتابة نص تشريعي بارز لتوفير الدواء لمحاربة الإيدز والملاريا في أفريقيا. وكان ذلك في أساس جهود الولايات المتحدة المتعلّقة بالإيدز، ووُضع في النهاية ضمن برنامج كان قد أسهم في دحر وباء الإيدز الذي اجتاح أفريقيا شبه الصحراوية. أحببت بيل. كان مستعدّاً للعمل على قضية كانت لا تزال، يومها، مثيرة للجدل في حزبه.

إلا أنّه تجاوز، بوصفه زعيم الغالبية، بعض الخطوط التي لم تكن قد اجتيزت من قبل. وقد فاجأني ذلك. فقبل ذلك بأعوام، وفي عودة إلى مجلس شيوخ بيرد ودول، رفض زعيم الغالبية وزعيم الأقلية الترشّح أحدهما ضدّ الآخر. لكن بيل كان يعمل تلك السنة بالفعل على هزيمة نظيره الديمقراطي، توم داشلي. ولن يكون جلب سباق الرئاسة إلى قاعة مجلس الشيوخ سنة 2004 مختلفاً: بدا بيل، بحسب افتراضي، مضطرّاً إلى السير بإيقاع موحّد مع البيت الأبيض في عهد بوش.

كان الحظر، الذي فُرض سنة 1994 على الأسلحة الحربية الهجومية، سينتهي في أيلول/سبتمبر، ما لم يحرّك بوش والكونغرس الجمهوري التابع له

ساكناً، في أربع سنوات، لإعادة العمل به. وها نحن فجأة سنقوم بالتصويت. لم تتوافر هناك أي فرصة ليوافق عليه مجلس النواب، حتى لو فعل مجلس الشيوخ ذلك. كانت خدعة واضحة لوضع الأسلحة في قلب الحملة الرئاسية، وفي واجهتها.

ارتأى بعض مَن في حملتي أن أتغيّب عن التصويت. وقال أحدهم محاججاً: «إن في الأمر مسرحية، بل سياسة. ستقدّم إليهم ما يريدونه بعودتك إلى واشنطن للتصويت. لكن قد نقدِّم إليهم المزيد في عدم العودة. كان في وسع أيّ يكن مهاجمة إخفاق مرشّحٍ في اتخاذ موقف. كان عدد من رفاقي في الحملة تسكنهم ذكريات عن تصويت مجلس الشيوخ لمصلحة التحقيق في خلفية مَن يريد اقتناء الأسلحة، وكيف أن تمكّن نائب الرئيس غور من إحراز التعادل قد استُخدم سلاحاً ضدّه في السباق الرئاسي. «فز بالسباق تستطعْ عندها القيام بشيء في شأن الأسلحة» ، قالها واحد من الذين سافروا مئات آلاف الأميال مع غور، وهو يعرف الثمن الذي دفعه في مسألة الأسلحة.

لم يكن ذلك تحليلاً سياسياً جنونياً. لكنني كنت مقتنعاً بأنك تدفع ثمناً أكبر لإخفائك موقفك من القضية.

أعلنتُ قائلاً: «سوف نعود إلى واشنطن. إذا لم تستطع الدفاع عن إبقاء الأسلحة الحربية خارج شوارع أميركا، فأنت لا تستحق أن تكون رئيساً» .

كنت قد صوّتُّ آلاف المرات في مجلس الشيوخ. لكنها كانت المرّة الأولى لي هناك بوصفي مرشَّحاً للرئاسة. توقّف الموكب السيّار تحت المنطقة المسقوفة أمام الكابيتول. اندفع سرب من عشرات المراسلين صوبنا والكاميرات تومض. كان ذلك فوضوياً. وفتح باب المصعد على صياح بالأسئلة من زمرة من المراسلين ملأوا خمسة صفوف. كنت سعيداً بتمكّني من بلوغ غرفة الانتظار فقاعة مجلس الشيوخ، بعيداً من الحشد المزدحم. بقي حراسي المفصولون من الجهاز الأمني السري في غرفة الانتظار: فالهجمات الوحيدة التي ستشن في قاعة المجلس ستكون حزبية.

نظرت إلى الأعلى، فوجدت الشرفة مكتظة بكل من المراسلين والناشطين، وهو مظهر غير معهود مخصَّص في العادة لمراسم القَسَم أو العزل. «نعم» ، قلتها للكاتب عند المكتب، رافعاً إبهامي علامة الموافقة. أدليت بصوتي لتمديد الحظر على الأسلحة الهجومية. وبعد احتساب الأصوات، طلبتُ الحديث في قاعة مجلس الشيوخ، وذلك حقّ لي. وقلت إن التعديل الثاني يحمي الحقوق؛ لكن «لا حقّ في وضع أسلحة حربية هجومية في أيدي إرهابيين أو مجرمين يريدون إلحاق الأذى بأَسَر أميركية. لا حق في إمكان الحصول على

الأسلحة الحربية في شوارع أميركا. ولدينا مكان لمن يريدون حمل تلك الأسلحة. إنه الجيش الأميركي. ونحن نرحّب بهم» .

أشرتُ إلى ما أنجزه الحظر على الأسلحة الهجومية طوال عشرة أعوام. وكرَّرت رواية سمعتها، وأنا أتصيّد في الخريف الماضي في أيوا مع الشريف المحلي ونوابه: «بينما كنا نسير والكلاب في حقل، نصطاد طيور الدرّج، أشار الشريف إلى منزل خلفي، كانوا قد داهموه منذ بضعة أسابيع فقط، كانت تباع فيه مخدرات الميث والكراك. وفي الصباح الذي ذهبوا فيه لتوقيف ذاك المجرم المزعوم، كانت هناك بندقية هجومية ملقاة على الأرض إلى جانب المجرم. ولا يعتقد ذلك الشريف وغيره في مختلف أنحاء البلاد أنه يجب بيع هذه الأسلحة لمجرمين في بلادنا، أو السماح لهم بأن يحصلوا عليها بسهولة» .

شعرت أيضاً بأنني مضطر إلى لفت الانتباه نحو الحيلة الجمهورية في تنظيم التصويت في المقام الأول. وتابعت: «لنكن صادقين حيال ما نواجهه اليوم. فمعارضة قانون سلامة الأسلحة المنطقي هذا تُحرّكها زعامة المصلحة الخاصة في الجمعية الوطنية للسلاح، والقائمون باللوبي في واشنطن. لا أعتقد أن هذا هو صوت مالكي الأسلحة المسؤولين في مختلف أنحاء أميركا. يريد مالكو الأسلحة في أميركا الدفاع عن أُسَرهم، بينما تدافع الجمعية الوطنية للسلاح عمّا لا يمكن الدفاع عنه. فهناك فجوة بين مالكي السلاح من فيلد أند ستريم - Field & Stream [15]، وقادة سولدجر أوف فورتون - Soldier of Fortune [16]» .

فكّرت، وأنا أسير عائداً إلى غرفة الانتظار الديمقراطية، في أن هذه معركة تستحق خوضها. التقيت ديك دوربن، المسؤول الديمقراطي عن الانضباط. وقال بحذر. «سوف تكون حملة طويلة، يا جون. لا أدري أين تنتهي حملة بوش، وأين يبدأ مجلس الشيوخ» .

كانت لدِيكْ حاسة شم جيّدة في السياسة.

سرتُ، بعد التصويت، مغادراً برفقة تيد كينيدي وديان فينستين السيناتورة الكبيرة من كاليفورنيا. كانت ديان أول سيناتورة، إلى جانب تيدي، تؤيّد حملتي. كانت رائدة ساهمت في تحطيم السقف الزجاجي للسياسة الديمقراطية في كاليفورنيا.

كادت تكتكات الكاميرات المتكررة تطغى على ما كانت ديان تقوله لنا ونحن نسير معاً. عدت إلى الموكب السيّار للتوجه إلى المطار، كي نتمكن من العودة إلى الحملة.

استدرت نحو رئيس موظفي أسفاري، ديفيد مورهاوس، الذي كان جالساً قربي في السيارة، وسألته عما كان يسمعه. أجاب: «يقول رون فورنييه [من الأسوشيتدبرس] إن الجمهوريين يطيرون من الفرح. لقد حصلوا على الصورة التي أرادوها» .

«الصورة؟» .

«نعم» ، أجاب مورهاوس، وتابع قائلاً: «إن الليبرالي جون كيري، والكاليفورنية ديان فينستين العاطفية بإفراط، وفزّاعتهما تيد كينيدي، يتشاورون في شأن الأسلحة. إنها هدية إلى الجمعية الوطنية للسلاح» .

حدّقت أمامي بينما كانت السيارات تدخل مطار دالس. فكّرت في ما تعنيه صورة وحيدة، وفي السياسة الجبانة التي تدور في الهيئة التشريعية العظمى في العالم. وبقيت على اعتقادي بأنها معركة لا بُدّ من خوضها.

كان تيد كينيدي عمًّا لثلاثة عشر من الذكور والإناث لا أب لهم، لأن الأسلحة كانت قد استُخدمت مرّتين لاغتيال شقيقيه. كان حاضراً في قاعدة أندروز الجوية سنة 1963 لمعانقة جاكي، عندما كانت لا تزال مغطّاة بدماء الرئيس كينيدي. وهرع، بعد ذلك بخمس سنوات، إلى لوس أنجلس، حيث كان شقيقه المتبقّي الوحيد يلفظ أنفاسه الأخيرة، بعد أن أُطلقت عليه النار من مسافة قريبة جدّاً. وفي العام 1978، كانت ديان فينستين رئيسة مجلس المشرفين في لوس أنجلس عندما اغتال زميل مختل رئيس البلدية جورج موسكون وهارفي ميلك، زعيمي حقوق المثليين اللذين انتخبا عضوين في المجلس. سمعتْ ديان الطلقات النارية، ووجدتْ جثة ميلك ممدَّدة بلا حراك في مكتبه. وكان على ديان، ودماء ميلك تغطي ثيابها، أن تعلن لمدينتها من مقر البلدية أن زميليها قُتلا بالرصاص.

كنت أرى في إحساس الجمهوريين بالفرح الغامر إشارة إلى الدرك المهين الذي كانت قد بلغته حياتنا السياسية، وإلى أي مدى أخذ الحزب الجمهوري يصبح فارغاً. فالسلطة حلّت محلّ الحوكمة الجيّدة، في استسلام للحدود الدنيا. وفكّرت، أنني سعيد لاحتسابي مع تيد وديان في تلك المسألة. وسأناقش هذا التصويت في أي مكان من أميركا.

نشرت اللجنة الوطنية للسلاح والحزب الجمهوري تلك الصورة في مناشير وكتيبات وإعلانات تلفزيونية. ولم يبد أن وسائل الإعلام، التي تغطي سباق الخيل السياسي وليس الجوهر، قد أشارت إلى أن تيد وديان كانا قد شهدا عن كثب ثمن عنف السلاح بطرق لم يسبق أن شهدها المدير التنفيذي للجمعية الوطنية للسلاح، واين لابيار. والأكثر بوحاً هو أن أحداً لم يذكر، على ما يبدو، كيف أن هجمات الجمعية الوطنية للسلاح كانت دعائية كلّها. وما من شخص جدّي في أي من الحزبين سيتحدّث عن نزع أسلحة الناس. إنهم يتحدثون عن الملكية المسؤولة وإبقاء الأسلحة الحربية في أيدي المقاتلين المنضوين في الجيش، أو أجهزة فرض القانون.

طرحت الجمعية الوطنية للسلاح في حملتها العامة، مبلغاً إجمالياً قدره 20 مليون دولار، صراحة خلف ترشيح جورج بوش. شاهدتُ الإعلانات السخيفة في الصحف عبر الغرب الأوسط: «إذا فاز جون كيري، يخسر الصيادون» . وقد حصلوا على بعض المتعة أيضاً. حتى أن الرئيس بوش قد سخر من صيدي، متحدّثاً عن تقييمي كرجل مُخفِق في ترتيب الجمعية الوطنية للسلاح: «يمكنه أن يركض، بل يمكنه حتى أن يركض باللباس المرقّط؛ لكنه لا يستطيع أن يختبئ» . وأنا لم أحتجْ إلى دروس في الصيد من رئيس كان شريكه في الترشيح قد أطلق النار خطأً على رفيق صيده، وتاريخي في اللباس المرقّط يعود إلى ما هو أبعد من حملتي في الزمن.

كان البطل الأميركي الحقيقي، جون غلين، هو الذي ذكّرني بالانفصام بين رمزية سياسة الجمعية الوطنية للسلاح، والواقع. فقد انضممنا في أحد الأيام إلى تيد ستريكلاند، ومضينا للرماية على الأطباق في أوهايو، في منطقة غير بعيدة عن المكان الذي ترعرع فيه جون. وكانت الصورة هذه لتشكّل نقيضاً جيّداً للميثولوجيا الجمهورية بأننا نسعى إلى انتزاع الأسلحة من الجميع. فجّر جون أطباق الطين في الجو. وسألته بعد ذلك، ونحن في الباص عن آخر مرّة أطلق النار من سلاح فيها؟ أجاب: «ليس منذ كوريا» .

عندما تتوقّف وتفكّر في شأن الأولويات في المجتمعات الأميركية: من التعامل مع أزمة الأفيون ومشتقّاته، مروراً بتوفير السلامة للمدارس، وصولاً إلى تشييد البنى التحتية، فإن من المثير للقلق البالغ أن خياراتنا تحدّدها الصور لوحدها. وكنت، في معركة بالأسلحة النارية من أي نوع، السياسية منها والحقيقية، أريد من جون غلين أن يحمي ظهري، حتى وهو في الثالثة والثمانين، وليس من أي شخص ذي وجه طفولي يحرّك لوبي الجمعية الوطنية للسلاح. تابعت الحملة وأنا منسجم مع نفسي: صيّاد يعرف أن ما من أحد يحتاج إلى الأكا-47 لصيد الغزلان، يؤمن بالتعديل الثاني، وهو يعرف أن أسلحة

الحرب هي لصيد الناس. ويمكنني، وأنا معزّز بأحداث السنوات الأخيرة، أن أنظر إلى الوراء، وأعرف أنني كنت محقّاً في تحميل الجمعية الوطنية للسلاح تبعات سياساتها البشعة، المدمّرة. تولّينا أمر وسكنسن وميشيغان ومينيسوتا، وأعدنا نيو همشاير إلى الصفّ الديمقراطي، بالرغم من أكاذيب الجمعية الوطنية للسلاح. والأهم من ذلك أنني لم أعرف النوم وأنا مستلقٍ متسائلاً كيف سأبرّر سجل تصويتي لوالدة قُتل ابنها بسلاح أوتوماتيكي.

السياسة قاسية، ولا بأس عندي بالسياسة القاسية. لكن قضية السلاح كانت البداية فحسب، مجرّد عرض تمهيدي للسلاح السياسي الذي سيبتدعه الجمهوريون في مسألة زواج المثليين. كان التباين مذهلاً بين ما كنت أراه وأسمعه من الناس وأنا أقوم بالحملة، والجدال الذي كان الجمهوريون يحاولون تأجيجه.

كان الجمهوريون صريحين في شأن تفكيرهم. وكان أحدهم قد قال لي منذ زمن بعيد إن الهفوة هي اللحظة التي يقول فيها السياسي الحقيقة. وقد ارتكب رئيس المؤتمر الجمهوري في مجلس الشيوخ، ريك سنتوروم، واحدة من تلك الهفوات. شرح للصحافة لماذا قرّروا فجأة جدْوَلة هذا العدد الكبير من التصويتات في مجلس الشيوخ على مسائل مثل الأسلحة وحقوق المثليين. قال إن حملتي «تحب أن تتحدث عن التربية والعناية الصحية» ، وكان تصريحه يعني ضمناً أن حزبه السياسي قد أراد في موازاة ذلك اختلاق حديث مختلف تماماً.

لم أكن في حاجة إلى مستطلع آراء يخبرني أن مناورة سانتوروم السياسية بعيدة كل البعد عن القضايا التي تشغل بال معظم الأميركيين. كانت لديّ أفضل مجموعة تركيز - focus group في أميركا، تلتئم ثلاث مرات في اليوم على الأقل، دون أي كلفة، وتضمّ الناس الذين لم تكن أقدام معظمهم قد وطأت واشنطن العاصمة من قبل، وهم يقفون على امتداد حواجز الحبال في التجمُّعات.

لو أنك سمحت لسي. سبان (شبكة تلفزيون أميركية متخصصة بالتغطية المستمرة لاجتماعات الحكومة) أن تأخذك وراء كواليس تجمّع حملة ما، ستعرف أن حاجز الحبال اليوم هو المكان الذي يجري فيه استقبال المرشح بكتيبة من الهواتف الذكية، تضمّ أشخاصاً يحاولون الاقتراب لالتقاط سيلفي، أو تسجيل فيديو محموم من ثلاث ثوانٍ.

كانت حملة العام 2004 آخر حملة رئاسية في حقبة أكثر شخصية. يومها كان لا يزال يمكنك إجراء محادثة مع شخص عند حاجز الحبال، حتى وسط بحر من الأذرع الممتدة للحصول على توقيع.

نصب الجهاز السرّي حواجز جرسي من الفولاذ المتين للحماية. حذّروني من سيناريوهات كثيرة ممكنة، حيث إن ما يبدو بريئاً قد يكون غير حميد إلى هذا الحد. ففكرة القاعدة التي يسلّمك إياها أحدهم مع قلم للتوقيع قد تكون عبوة محلية الصنع تقطع يديك. والهاتف الخلوي، الذي يحاول أحدهم تمريره إليك لتلقي التحية على والدته العجوز، حذّروني من أنه قد يكون قنبلة أيضاً.

لكنني شعرت أن المعلومات التي أحصل عليها من التحدّث مع الناس مهمّة. وكان ذلك، من نواح عدة، اتصالي الحقيقي الوحيد بأشخاص سيتخذون قرارهم يوم الانتخاب. وما من شيء شاهدته عن كثب، على امتداد حواجز الحبال تلك، أوحى بأي شيء غير المودّة. وسأتبيّن أحياناً الومضة في عين واحد منهم، أو التجاعيد على جبهة قلقة، ما يشير إلى أن هناك ما يريدون إزاحته عن صدورهم.

كان الكفاح هو الموضوع المشترك عندما يشاركونني في قصصهم. أحدهم مريض في المنزل، والتأمين لا يواكب الفواتير الطبية، أمّ ترفع ابنها الصغير المصاب بمتلازمة «داون» ، وتخبرني أن تعليم ذوي الاحتياجات الخاصة لا يتلقّى المال الكافي للعناية التي يستحقها ابنها؛ قلق على ابنه المتوجِّه إلى العراق بعد الخدمة في أفغانستان، ويمرّر لي لقطة فوتوغرافية مطوية الحواف، ويقول: «فتاي، هذا هو فتاي» . وكنت أعود بالذاكرة إلى تلك اللحظة قبل ستة وثلاثين عاماً يوم ودّعت والدي عند محطة الخدمة، وأنا أمضي إلى الحرب. ولن أنسى أبداً تلك النظرة في عينيه، وها هي النظرة نفسها تعود الآن على وجه والد شخص آخر.

كانت روايات كثيرة تتعلّق بالوظائف؛ ولم تتعلّق فقط باختفاء مليون وظيفة في عهد بوش، أو بأننا كنا قد خسرنا 2 , 7 ملايين وظيفة صناعية في أماكن مثل بنسلفانيا وأوهايو وميشيغان. إن ما سمعته كان جوهرياً أكثر: رجل يصغرني ببضع سنوات لكن بهت لونه جرّاء عمله طوال حياته في الخارج؛ شخص مفتول الساعدين ذو شاربين مثل شاربي الفقمة، وسماعتي أذن ظاهرتين، وهما الأثر الرجعي لسنوات من العمل على آلة صاخبة في أحد المعامل. كانوا ينحنون من فوق الحاجز ويقرّبون وجوههم من أذني ليتأكدوا من سماعي ما يقولون: كانوا يشقون في العمل أكثر، يعملون في وظيفتين،

أو أنهم عاطلون عن العمل تماماَ، أو أن مُرتَّباتهم التقاعدية قد تلاشت، أو أن أولادهم ينتقلون، لأنه لم يعد من وجود للوظائف في الديار. كانوا يفرجون عن همومهم. أشخاص فخورون اعتمدوا دوماً على الكرامة التي تأتي مع العمل الشاق، يربّون أولادهم عارفين أنهم سيتقاعدون في أحد الأيام وأحفادهم على مقربة منهم، ليتمتعوا بمكافأة المرتَّب التقاعدي، الذي تعبوا في كسبه، وبالضمان الاجتماعي. ولم يكن ذلك بالطلب الكبير بعد سنوات من العمل الذي يكسر الظهر. لكن طريقة الحياة تلك كانت آخذة في الاختفاء.

بقي الأشخاص الذين التقيتهم عالقين في ذهني: الوجوه، الحدّة، الانفعال. ولم يأت إلي، ولو مرّة، أحدهم ليقول، «أرجوك، يا جون، عليك، مهما فعلت، أن تمنع المثليين من الزواج في ماساتشوستس» ، مع أن ذلك كان بالضبط ما بدا أن الحزب الجمهوري مصمِّم على الحديث عنه. ربما كان ريك سانتوروم، وهو مؤمن حقيقي عندما يتعلّق الأمر بهذه المسألة، الأكثر صدقاً في شأن وجهات نظره. فمع ريك، لم يكن الأمر تمثيلاً. كان قد منح مقابلة للأسوشيتدبرس، وأفلت العنان لمخاوفه، متكهّناً بأن زواج المثليين إذا قُدِّر له أن يُطبّق في أي مكان من أميركا، فسوف ينتهي الأمر برجال يتزوجون بأطفال، بل بكلاب أيضاً. وكان يعني كل كلمة قالها.

في أحد أيام الحملة في ميلووكي، عندما كان الفريق على درجة كبيرة من الجُرأة لتركي أحصل على بعض المتعة وكسر رتابة ثلاثة تجمّعات في اليوم، ذهبتُ في رحلة بالدراجة النارية مع مجموعة من الإطفائيين ورجال الشرطة. وكان معظمهم من الناشطين في نقاباتهم المحلّية. جلسنا بعد ذلك لتناول الجعة. وكانوا صريحين في شأن الحملة.

قالوا: «افتح البريد الوارد من الجمهوريين، أجب على الهاتف ليلاً، إنها مكالمة مسجلة أخرى. ذلك كل ما نسمع به. إن لم يكن الأسلحة، فالمثليين» .

وأطلق أحد الحذقين في المجموعة نهفة سريعة تقول: «مضى على زواجي خمسة وثلاثون عاماً. إذا أراد هؤلاء المثليون أن يكونوا تعساء أيضاً، فمن أنا لأمنعهم؟» .

ابتسمت. «أيها الرجال، أتعرفون شخصاً قلق بالفعل من أن زواجه سينهار لأن رجلين أو امرأتين، في مكان ما، يريدان قضاء حياتهما معاً؟» .

كان ذلك، في ذهني، الجزء الأكثر جنوناً في هستيريا الحزب الجمهوري، وهو الإيحاء بأن زيجاتنا المتباينة الجنس ستتقوّض فجأة إذا اختارت

ولاية ما السماح بالارتباط المدني، أو بالزواج المثلي. كان ذلك كلّه مبنياً على مزاعم بأن الشخص يختار أن يكون مثليّاً، مع أكثر من إيحاء بأنه مرض معدٍ.

سبق أن سمعت ذلك كلّه من قبل، وليس من الجمهوريين وحدهم. كنت في تسعينات القرن العشرين قد أدليت أمام لجنة القوات المسلحة برئاسة ستروم ثورموند، بشهادتي التي تؤيّد السماح لمثليي الجنس بالخدمة صراحة في الجيش الأميركي. كان لكليّة وست بوينت العسكرية ميثاق شرف يمنع الكذب. لكن إذا كان المثليّون الأميركيون الوطنيون على استعداد لبذل حياتهم من أجل بلادهم، فقد كان عليهم أن يحنثوا بذلك القسم كل يوم. فمن نخدع؟ هل هناك من يعتقد فعلاً أن بين القتلى الأميركيين البالغ عددهم 800 416 في الحرب العالمية الثانية، لم يكن يوجد أي مثليّ؟ ألا يعود أي اسم من الأسماء التسعة وخمسين ألفاً على الجدار التذكاري لفييتنام إلى مثليّ أميركي؟

في إحدى الليالي التي تلت عودتي إلى مجلس الشيوخ، ذهبت في نزهة طويلة على مقربة من مقبرة الكونغرس. ويا للعجب، فقد مررت إلى جانب بلاطة ضريح تحمل نقشاً يتسم بتحدّ مدهش: «محارب مثليّ قديم: منحوني ميدالية لقتلي رجلاً وطردوني لحبّي واحداً» .

كان ذلك كله معركة كبيرة خلال المداولات التي كانت تدور في لجنة القوات المسلحة. ولا أزال أذكر أمثولة تاريخية من السيناتور بيرد تبيّن كيف أن الإمبراطورية الرومانية هلكت، حيث أمكن للعلاقات الجنسية المثلية أن تزدهر. وأذكر نوعاً غريباً من الأسئلة المتشعبة طرحها السيناتور ثورموند أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ عن اللواط.

للناس كل الحق في الاعتقاد بما يريدون الاعتقاد به. وأنا تربّيت على الإيمان بأن الزواج سرّ مقدّس، اتحاد بين رجل وامرأة. لكن ليس مفروضاً على كل شخص أن يؤمن بذلك. فما من حكومة تأمر كنيستي بعقد زواج مثليّ. فأين، بحق السماء، هي المشكلة في محاولة خفض الحرارة وإيجاد طريقة شرعية لحماية المثليين ليتمكّن الشركاء من نقل الملكية أو حضانة الأولاد، أو اتخاذ قرارات بعضهم عن بعض تتعلّق بالعناية الصحية؟ شعرت بأنني في كونٍ موازٍ، عندما أعلن سانتوروم واليمين الحرب الثقافية.

كان السؤال الكبير هو الآتي: إلى أي مدى ستذهب حملة بوش-تشيني في وضع المسألة في مقدّمة حملة العام 2004. هل يتركونها للائتلاف المسيحي وجيري فولويل، أم يستخدمونها هم أنفسهم كسلاح؟

كان للرئيس وللسيدة الأولى أصدقاء مثليّون. وكان ثمَّة أشخاص رفيعو المقام في البيت الأبيض، وفي حملتهم الانتخابية، من المثليين، بمن فيهم ابنة نائب الرئيس. ولا أعتقد أن في جسم الرئيس بوش، أو جسم لورا بوش، عظمة متزمّتة واحدة. وقد أسفا لأن إعادة ترشيح الرئيس بوش الأب سنة 1992 في هيوستن، لم تكن حفلة عودة تكساسية، بل كانت استعراضاً لمستنسَخين عن بات بوكانان، يتطرّقون إلى القضايا الاجتماعية وكأنهم يعزفون على كمان سيّىء الدوزان. وفي ذلك المؤتمر البشع، أعلن رئيس اللجنة الوطنية الجمهورية، ريتشارد بوند قائلاً: «نحن أميركا، وهم ليسوا أميركا» .

كنّا نسمع أحياناً من أحد موظفي حملتي المثليين أن نظيراً جمهورياً في حملة بوش، لم يجاهر بمثليته، كان يحارب لإبقاء المسألة في مؤخِّر الاهتمامات. كان الرئيس بوش شخصاً تنافسياً، لكنه لم يكن مرتاحاً لأن تحدد القضايا الاجتماعية حملته. ولو تُرك الأمر له، لكان سيسعد كثيراً بإعادة انتخابه على أساس شغله المنصب في الحرب، وما تحقَّق من وحدة بعد 11/9. لكن ليس في ذلك ما يكفي من الأصوات. كنت قد جعلت السباق متقارباً. ومع انقلاب الحسابات ضدّهم، أدخل كارل روف، بنجاح، الحملة في مسار الانقسام.

عرف روف القدرة التي تتمتع بها القضايا الاجتماعية المثيرة للانقسام. كانت ثمانٍ وثلاثون ولاية قد طبّقت بالفعل بعض الإجراءات لتحديد الزواج على أنه بين رجل وامرأة. وهو ما رفع نسبة المقترعين الجمهوريين، وأسعَرَ ذلك النوع من الناخبين الإنجيليين الذين تلكأوا في الإقبال على صناديق الانتخاب في المعركة التي خاضها بوش حتى النهاية مع آل غور.

ضاعفت حملة بوش من إعلاء مستوى الزواج المثلي في الحملة، منحازة في ذلك إلى كارل روف ضد مدير الحملة، كن ملمان، الذي لم يكن قد جاهر بعد بأنه مثليّ.

كرّس الرئيس بوش خطاباً كاملاً في الإذاعة لقضية تعديل الدستور الأميركي لحظر الزواج المثليّ. وأذكر أنني أصغيتُ إلى كلام بوش في صباح ذلك الأحد. بدا بوش أشبه برهينة يقرأ بياناً أعدّه خاطفوه، تبدو كلماته أجنبية، لكن كلاً منها مُحتسَب لتحفيز ناخبيهم، ودقّ إسفين بيننا وبينهم.

كان الخطاب الإذاعي سياسياً بوضوح. فحتى لو اعتقد أحدهم أن الزواج المثليّ قضية فيدرالية، فسوف يتطلب تعديل الدستور سبعة وستين

صوتاَ في مجلس الشيوخ وثلثي أصوات مجلس النواب. وليس ثمة مكان فيه ما يقارب هاتين الأغلبيتين. ولم يكن أي تصويت مُجَدْوَلاً في الكونغرس. كان رئيس الولايات المتحدة يستخدم الخطاب الإذاعي الموجَّه إلى الأمة للتركيز في هذه المسألة الوحيدة وسط حربين، من دون وجود جدول عمل في الكونغرس نتيجته الافتراضية محدَّدة مسبقاً. لقد قطعنا شوطاً كبيراً منذ استخدام فرانكلين روزفلت الخطاب الإذاعي لإبلاغنا بالآتي: «ليس لدينا ما نخاف منه إلا الخوف نفسه» .

والجملة التي لا أزال أذكرها من رسالة الرئيس كانت بمثابة إيماءة لطيفة إلى السلوك المتحضّر، فيما كان يفتح أبواب جهنّم: «علينا أيضاً أن نجري هذا النقاش الصعب بطريقة جديرة ببلادنا، من دون مرارة أو غضب» .

فكرّت أن السلوك المتحضّر لن يكون السمة المميزة لقضية يغذّيها الانقسام.

في العام 2004، كانت إحدى عشرة ولاية قد طرحت بالفعل حظر الزواج المثليّ خلال عملية الاقتراع في تشرين الثاني/نوفمبر، بدفع من الحركة المحافظة. وكان من الإجراءات ما يُسمّى القضية رقم واحد، وعُرِف أيضاً بالتعديل الأول، وهو ينصّ على أن الزواج الوحيد الذي سيكون صحيحاً ومعترفاً به في الولايات كان ذلك الذي يجري بين رجل وامرأة. كانت تلك مبادرة الاقتراع الوحيدة التي طُلب من ناخبي ولاية البندق - Buckeye State[17] أن يقرروا بشأنها في الولاية التي يمكن أن تقرّر أياً من الحزبين سوف يسيطر على الرئاسة. لم يرد لها حاكم أوهايو الجمهوري، بوب تافت، أن تكون على ورقة الاقتراع، لخشيته من أن تؤدي إلى توقُّف الاستثمارات في ولايته. ينسحب الأمر نفسه على مدّعيه العام الجمهوري. فأتتهم المذكّرة التي تفيد بأن كل الغاية من ذلك كانت استثارة الاقتراع المُحافظ، وإفقاد الديمقراطيين أصواتاً.

حملتِ القضية رقم واحد في كل جوانبها بصمات حملة بوش. فأمين الشؤون الخارجية لولاية أوهايو، كن بلاكوِيلْ، المسؤول عن المبادرات الانتخابية، من التصديق على التواقيع إلى التصديق على الصياغة، كان الرئيس المشارك لحملة بوش، ومتعصّباً لأقصى اليمين، وللقضايا الاجتماعية.

جاب بلاكويل الولاية مجرِّداً حملة من أجل القضية رقم واحد بلغة فجّة مناهضة، بما لا يقبل الشك، للمثلية. من الواضح أنه فوّت كلام الرئيس عن إجراء النقاش بطريقة متحضِّرة. وقال إن العلاقات المثلية «تتحدّى حتى

منطق الحظيرة... فالحظيرة أذكى من ذلك» . ولم تكن هذه بالطريقة البارعة لوصف بعض من أبناء وطنه الأميركيين بأنهم تحت مستوى البشر، بل حتى تحت مستوى الحيوانات.

لم تغب عن ذهني المفارقة الآتية: مع كل الهجمات الجمهورية التي شُنَّت عليّ بوصفي متقلّباً، أو الطريقة التي سخروا فيها من كلمة «الفارق الدقيق» ، كان استخدام بوش لقضية زواج المثليين تحفة في تناول الأمر من كل الاتجاهات. كان قد ترشح سنة 2000 بوصفه محافظاً عطوفاً، لكن رَجُله في أهايو كان يحقّر الأميركيين بسبب ما جعلهم عليه الله. وكان بوش قد قال سنة 2000 إنه يؤيد الارتباطات المدنية للمثليين، لكن حملته ساندت هذه المبادرة الانتخابية التي ستجعل من غير القانوني لأوهايو أن تعترف حتى بالارتباطات المدنية. ظل لنا الموقف نفسه إلى أن قفز بوش إلى قطار التعديل الدستوري الفيدرالي: كنا نؤمن بأن الزواج يعقد بين رجل وامرأة، لكننا نؤيّد الارتباطات المدنية. وها هي حملته تقول إننا على طرفَيْ نقيضٍ من هوّة أرادوا لها أن تتَّسع. ويا للوعود التي أطلقها بوش سنة 2000 بأن يكون «موحِّداً، لا مقسِّماً» . وذلك ما أزعجني أكثر ما يكون. فالحملات الرئاسية سريعة الاشتعال، ونادراً ما تجري مناقشة القضايا الاجتماعية بإمعان في بيئة يجري فيها إنفاق مئات الملايين من الدولارات على الإعلانات، وتحاول فيها مجموعات المصالح باستمرار تحويل حتى الخلافات الصغيرة إلى خلافات كبيرة.

لم يكن هناك ما يردعني عن معارضة تعديل دستور الولايات المتحدة حول هذه القضية. ولا أؤمن بالعبث بالدستور إلا إذا كان ذلك الوسيلة الوحيدة لتصحيح الأخطاء أو لحماية الحرّيات. وذلك ما أسمّيه أن تكون محافظاً فعلياً.

كان تأكيد إنسانية العبيد المحررين ومواطنتهم سبباً في تعديل الدستور. وكان منْح المرأة حق التصويت سبباً في تعديل الدستور. وقد عارضتُ دوماً في مجلس الشيوخ جهود تغيير الدستور للقيام بأمر لم يكن علينا القيام به، أو كان يمكن للكونغرس القيام به من تلقاء نفسه. تعوّدت الذهاب إلى قاعة مجلس الشيوخ والمجاهرة برفض الجهد المتوقَّع الذي بذله كل كونغرس لإقرار تعديل دستوري يحظِّر حرق العلم. وكنت قد ذكّرت زملائي أن ألمانيا النازية وعراق صدام حسين كانا من البلدان التي حظّرت حرق العلم. لم يكن هناك ما يردعني عن تذكير أي شخص بأنني في الوقت الذي كرهت فيه قيام أي شخص بإحراق علم أميركي، خضت حرباً من أجل الحرّية، بما في ذلك حق شخص ما في أن يكون غبيّاً، أو حتى غير وطني.

وها نحن كنا، مع ذلك، نناقش تعديلاً دستورياً مختلقاً آخر، معركة أخرى جرى التلاعب بها سياسياً. لكن الخلاف والنزاعات كانا هذه المرة يطلقان العنان للبشاعة والسوقية والخبث والنقد اللاذع في أميركا؛ وهي أمور يجب على السياسة وزعماء بلادنا السعي إلى تفاديها مهما كلّف الأمر.

كان الأشخاص، الذين قلّل كن بلاكويل من شأنهم، أبناء أو بناتاً لمواطنين. ولم أنس قط لقائي والدة ماثيو شيبارد سنة 1999 على درج مجلس الشيوخ، عندما جاءت لتحريك اللوبي من أجل قانون وطني لجرائم الحقد. كان ابنها قد ضُرب، وعُذّب، وتُرك يموت على سياج من الشريط الشائك في السنة السابقة في وايومينغ لارتكابه «جريمة» أنه مثليّ. كانت عيناها مجوفتين وتحتهما دوائر عميقة. ولم أستطع البدء بتخيُّل الحزن ورعب التساؤل عمّا كان يدور في ذهن ابنها، وهو معلّق هناك يلفظ أنفاسه. من أين يأتي الحقد الذي يسمح بحدوث أمر كهذا؟

كان علينا، في وطيس الحملة، أن نتدارك قوة المفعول السياسي للقضية. كانت القضايا الاجتماعية تعمل ضدّنا في بعض الأماكن، حيث كانت حملة بوش تقرع ذلك الطبل بأعلى صوت. فأركنساس وكنتاكي، اللتان كان احتمال الفوز فيهما بعيداً، باتتا خارج المنال. وظهر منشور في مختلف أنحاء وست فرجينيا يظهر رجلين يداً بيد يطلقان الوعد الآتي: إذا جرى انتخابنا، أنا وجون إدواردز، فسوف يكون الرجال أحراراً في التزاوج. أخذت أرقام استطلاعاتنا تتراجع في الغرب الأوسط، في مناطق كان الناخبون فيها محافظين اجتماعياً، وفي مقاطعات كانت خسارة الوظائف فيها، القضية التي أردنا مناقشتها، هي القضية الكبرى في عهد رئاسة بوش.

ما كان بالإمكان فعله؟ لقد بات الأمر يتعلّق بخيارين: إما الشروع في إغراءاتنا المتعلقة بالقضايا الاقتصادية، وإما محاولة إضعاف جاذب أجندة بوش-تشيني المتعلقة بالقضايا الاجتماعية. أردتُ إعادة جرّ السباق إلى القضايا الاقتصادية. لكن كانت هناك أمكنة في السياسة الأميركية لم أشعر بالراحة في الذهاب إليها. وليس من السيّىء، لدى مواجهتك مشكلة سياسية، أن تعود إلى الماضي وتراجع الكتب القديمة لقواعد اللعبة، التي تعثر فيها عادة على بعض الحكمة. كان الرئيس كلينتون أول ديمقراطي يُنتخب منذ الرئيس روزفلت. وقد احترمت مهارته السياسية، ولا أزال أعتقد حتى اليوم أن الكثيرين من منتقديه ينسون بسهولة كم كان صعباً على ديمقراطي الفوز في العامين 1992 و1996. لكنني أجفلت، عندما شرع بعض قدماء تلك الحملات في حثّي على وضع قضية حقوق المثليين «خارج النقاش» بظهوري في مناسبة مؤيّدة للقضية رقم واحد في أوهايو، أو بتصويتي مؤيداً التعديل الدستوري.

فهمتُ وجهة نظرهم. كان كلينتون سنة 1996 قد وقّع ما يُسمى قانون الدفاع عن الزواج ليصير قانوناً فيدرالياً، حائلاً دون الزواج المثليّ. واحتفى بالأمر عبر نشر إعلانات إذاعية في الريف الأميركي. وحرم بذلك بوب دول من قضية مثيرة للانقسام.

صار مشروع القانون قانوناً، لكن بلا صوتي. كنت، في الواقع، السيناتور الوحيد المرشح لإعادة انتخابه الذي صوّت ضده. ولا يمكنني الآن، وأنا مرتاح الضمير، أن أصادق على مبادرة انتخابية في أوهايو ستجعل من المستحيل على الإطلاق أن تجري ارتباطات مدنية في الولاية. كان ذلك خاطئاً تماماً.

كان علينا أن نفوز بهذا السباق بالطريقة الأصعب، أي من خلال إعادة تحديد السباق حول القضايا الحقيقية.

كان اصطدام الدين والسياسة في الحملة الرئاسية صاعقة من الجو، لكنها ليست بالتأكيد من السماوات. كانت تذكيراً محزناً بأن الموسم السياسي المعاصر الذي يجري القتال فيه بالقبضات العارية لا يلقي الضوء على مسائل الحياة الأكثر خصوصية وصعوبة وشوكاً، بل يكتفي بتحريفها. وعندما كنت أقاتل لشق طريقي إلى الترشيح، فائزاً في الانتخابات الأولية ومعزّزا التأييد، أدرج أسقف سانت لويس، رايموند ليو بورك (الذي سيعمد البابا فرانسيس بعد ذلك بسنوات إلى خفض رتبته ثم تنحيته جانباً)، سياسته الخاصة في الحملة، بإعلانه، من جانب واحد، بأنني لن أستطيع التقدم من المناولة في أبرشيته بسبب تأييدي حق النساء في الخيار (بخصوص الإجهاض أو عدمه-المترجم). وسينضم إليه اثنان من المطارنة المحافظين الآخرين. كان بورك، ولفترة طويلة، شخصية مثيرة للجدل في الكنيسة، مُصدراً فتاوى مماثلة عندما كان يرعى المؤمنين في وسكنسن.

كان ردّ الفعل الشخصي بين الكثيرين في كنيسته، بمن فيهم كثيرون من زملائه المطارنة، أن بروك قد تخطّى حدوده، مشجّعاً على التسييس الخطير للمعبد. وأصدر مؤتمر الأساقفة الكاثوليك في الولايات المتحدة بيانات تشير إلى أن بإمكان المطارنة كأفراد أن يرعوا قطعانهم، وفي ذلك رسالة دقيقة ولكن واضحة. فهي تعني أن بورك تحدّث بالأصالة عن نفسه، وليس بالنيابة عن الكنيسة أو عن الفاتيكان. ومن المؤسف، على غرار معظم التصويبات في الصحف، ألّا يحظى موقف المطارنة بتعميم واسع.

للكنيسة طريقتها الخاصة في بعث الرسائل المتعلقة بالسياسة، إذ يُصدر الأساقفة، سنة الانتخابات، دليلاً انتخابياً للمؤمنين. وفي العام 2004، استند الدليل الانتخابي إلى عشرة أسئلة على كل كاثوليكي أن يتواجه معها.

وهي تراوح بين سؤال: كيف يمكننا، بعد 11 أيلول/سبتمبر، أن نبني «ليس عالماً أكثر أمناً فحسب، بل عالماً أفضل أيضاً» ، وسؤال: كيف يمكننا «أن نحمي بأفضل طريقة الأضعف بيننا، أي الأجنّة البريئة» ؟ وصولاً إلى سؤال: «كيف يمكننا الحيلولة دون لجوء وطننا إلى العنف لحل بعض من أصعب مشكلاتنا، وهي الإجهاض، للتعامل مع حالات الحمل الصعبة؛ عقوبة الإعدام لمكافحة الجريمة؛ الموت الرحيم والمساعدة على الانتحار للتعامل مع أعباء العمر، والمرض، والإعاقة؛ الحرب لمعالجة النزاعات الدولية» ؟ ومضت اللائحة في التعريف بالتحديات التي تواجه بقوة قناعات الإيمان الكاثوليكي: أطفال يموتون من الجوع، عدم المساواة في أميركا، الوصول إلى العناية الصحية، البيئة، عدم انتشار الأسلحة النووية، السلام.

أعرف أن موقفي من بعض هذه القضايا يختلف عن موقف الكنيسة. كنت قد تصارعت طويلاً مع قضية الإجهاض. ولم أكن لوحدي. فزملائي السيناتورات الكاثوليك: ديك دربن، جو بايدن، بربارة ميكولسكي، كريس دود، تصدّوا لهذه القضايا في محاولة للتوفيق بين وجهات نظرهم حول الحياة ومبادئ إيماننا، وبين واقع أننا لا نمثّل رفاقنا الكاثوليك فحسب. ولم تكن تلك بالمسائل السهلة. وسأعود بالذاكرة إلى حديث أجريته مرّة مع أحد الأساقفة حول الإجهاض. أطلعته على صعوبة التشريع في مجلس شيوخ مؤلف من مئة وجهة نظر مختلفة، يمثّل عدداً لا يُحصى من المعتقدات والقناعات، واضعين في الاعتبار دور المحاكم، وواقع أن السيناتورات الأفراد لا يسيطرون على ما يُطرح في القاعة، أو التعديلات التي يتوجّب أن يصوّتوا عليها، وقدرة مجموعات المصالح الخاصة، من الجانبين، على إبقائنا في حالة تناقض كامل. وأشرت كذلك إلى أنني، في الوقت الذي يُسمح لي في الحياة العامة بأن تكون لي معتقداتي الشخصية بخصوص الإيمان، وأستطيع الانتصار لها، لا أستطيع أن أفرض مبدأ إيمانياً على شخص لا يؤمن بما أؤمن به، ولا يشاركني المبدأ الإيماني نفسه.

وأذكر قولي للأسقف إن «بإمكان الكنيسة أن تتخذ موقفاً. لكن علينا نحن أن نصوّت على سياسة. وذلك أمر مختلف تماماً» . لم يخالفني الرأي. وأعتقد أن دليل مؤتمر الأساقفة، لهذا السبب، قد اعترف ضمناً بالتحديات؛ وطلب بدلاً من ذلك إلى كل ابن رعية أن يتصارع مع التحديات الأخلاقية، بدلاً من أن يصدر تعليماته إليه بأن يكون ناخباً لقضية وحيدة ساخنة.

بعد ظهر أحد الأيام، وفيما كنت أنا وفريق حملتي نسافر جوّاً عبر البلاد في رحلة طويلة إلى كاليفورنيا، حاولت أن أشرح لهم هذا كلّه، ونحن نناقش

كيف نرد، ما الذي سنفعله. وضعت على الطاولة أمامنا لائحة مطبوعة بالقضايا التي كان الأساقفة قد حدّدوها للتأمل النقدي.

واتخذ حديثنا طابع الحدّة: «مهلاً، أيها الشباب. هل سأل صحفيٌّ الأسقف بورك عن القضايا؟ الكنيسة تعارض عقوبة الإعدام، وأنا ضد عقوبة الإعدام، بينما أعدم جورج بوش بالكهرباء عدداً من الأشخاص عندما كان حاكماً لتكساس. الكنيسة تعارض الحرب، وأنا حاربتُ لإنهاء إحدى الحروب، وشنّ بوش حرباً اختيارية. الكنيسة ضد عدم المساواة المتزايد في المجتمع، وأنا أعارض خفض الضرائب على الأغنياء، ومنافسي يقود حملته على أساسها. تدعونا الكنيسة، جميعاً، إلى حماية خلْق الله، أي الأرض. وأنا واحد من أشد أنصار البيئة في مجلس الشيوخ، وهو يدمّر أشكال الحماية البيئية. ولم لا يكون في موقع دفاعي؟ لمَ لا يشعر بورك بالقلق حيال موقف خصمي من قضايا الحياة والموت، الإنصاف والعدالة، التي تعني في الغالب حياةً وموتاً؟» .

«يقول بورك إن هذا ينطبق فقط على الكاثوليك» ، هكذا شرح مدير السياسة في الحملة. وبعبارات أخرى، لو أن والدتي المؤمنة التابعة للكنيسة الأسقفية قالت لوالدي اللاأدري إنها لن تربي أولاد كيري كاثوليكيّاً كما رغب، فلم أكن لأخوض هذه المعركة.

كنّا عالقين في ديناميّة لا تعد بشيء إلا بحرب سياسية تشبه التراشُق بالطعام على القضايا الأصعب والأكثر إثارة للانقسام في البلاد، ناهيك بمعنى الكثلكة وكون المرء مؤمناً. كان يُفترض بما أسميناه، نحن الكاثوليك: «كامل رداء التعليم الكاثوليكي» أن يكون أساس النقاشات حول السياسة والحياة العامة. لكنَّ أُسقفاً واحداً من أبرشية واحدة أخذ الحوار كلّه رهينة بتشجيع ودعم من أشخاص يمارسون سياسة غريبة تماماً على التعاليم الكاثوليكية.

كان الكاثوليك من أبناء جيلي قد ترعرعوا في كنيسة لم تكن لتريد قط هذا القتال، وهذه السياسة الفاسدة. كانت لدينا توقّعات مختلفة جدّاً عن دور الكنيسة في السياسة، ودور السياسة في الكنيسة. كان الكاثوليك قد شعروا بالفخر عندما انتخبت أميركا رئيسها الكاثوليكي الأول سنة 1960، لكنهم يتذكّرون ما قاله الرئيس كينيدي قبل انتخابه: «لست المرشح الكاثوليكي للرئاسة. أنا مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة، وقد صدف أيضاً أنني كاثوليكي. أنا لا أنطق باسم كنيستي في الشؤون العامة، والكنيسة لا تتحدث باسمي....» .

كم كان مدعاة للسخرية أن يكون على كينيدي أن يُثبت أنه ليس «كاثوليكيّاً جدّاً» ليكون رئيساً، فيما كان أسقف واحد يبتدع الآن اختباراً مختلفاً

تماماَ: هل أعدُّ كاثوليكيّاَ كفاية؟

يبدو أنني أتذكّر، وأنا أترعرع، كيف علّمني الكهنة في الكنيسة أن الإيمان الحقيقي خاص وشخصي. كانت الكنيسة التي نشأنا فيها تنظر إلى عمق الداخل. وقد سعدتْ بصدقية انفصالها عن العالم المعاصر، من القداس اللاتيني إلى الطقوس. والأكثر من ذلك أننا كنّا نتعلّم أن نكون ورعين، لكن أن نكون متحفّظين. وأذكر ذهابي إلى القداس في زمن الصوم وسماع كاهننا في كنيسة سيدة الأسرار المقدّسة يقرأ من متى 6: 5: «وَمَتَى صَلَّيْتَ فَلاَ تَكُنْ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي... زَوَايَا الشَّوَارِعِ، لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ» . كنتُ قد تعلّمتُ ألا أتفاخر في شأن التقوى.

لو كنت مؤمناً فعلاً وإيمانك يرشد حياتك، لصعُبَ التوفيق بين العالمين المنفصلين للأيديولوجية السياسية واللاهوت الديني. وأعتقد أن أهم تعليم في الأناجيل، للمسيحيين على الأقلّ، هو أن المرء لا يكفيه أن يقول إنه يؤمن بيسوع. فالإيمان بيسوع يتطلّب عملاً، جهداً صادقاً، التزاماً العيش على مثال يسوع. ويسوع نفسه يوصي، كما جاء في مرقس 8: 34-35: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي. فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا» .

وهكذا، على ما يحب قسيس مجلس الشيوخ باري بلاك أن يقول، يمكنك «فصل الدين عن الدولة، لكن ليس الإيمان عن الدولة» . والسؤال هو: كيف يُحكم على الأفعال التي تجعل الإيمان حقيقياً؟ فالإيمان بيسوع يتطلّب العمل «لحفظ وصاياه» . ولا يمكن لكلمات يسوع أن تكون أوضح من ذلك.

وسائل الإعلام لم تساعد. فكل رئيس أو مرشح رئاسي، منذ رونالد ريغان، كان يتبعه ما يُسمى «فرقة حماية» من المراسلين. ففي كل مرّة كنت فيها أنا، المرشّح، في مكان عام، كانت تتبعني أينما ذهبت حفنة من المراسلين الذين وثّقوا كلّ شيء، بشكل مدهش، وبأدق التفاصيل: ماذا لبست. ماذا أكلت. مَن كان معي.

كانوا يتبعونني إلى الكنيسة كلّ أحد، ويشرعون في ما تغذّت عليه وسائل الإعلام سنة 2004، بفضل هجمات الأسقف بورك، وهو «الحرمان من المناولة» .

حوّلت الصحافة الأمر إلى استعراض من يوم أحد إلى يوم أحد: هل كنت لأتناول لو أنني حضرت القداس الكاثوليكي في مدينة ما؟ ولو أنني كنت بدلاً من ذلك ضيفاً في كنيسة أفريقية أميركية بروتستانتية، فهل مردّ ذلك أنني كنت أخشى من أن تردّني الأبرشية الكاثوليكية عندما أتقدم من المذبح لتناول القربان المقدس؟ كانت حمأة الجنون السخيف للحصول على الخبر قد ألهت عن خصوصية الإيمان الفعلي.

سنة 2004، كنت في منزلي ببوسطن للاحتفاء بواحد من أكثر الأيام تميّزاً في الروزنامة المسيحية، وهو أحد الفصح، وهو يوم مخصص للأسرة، ويوم للتأمل في قيامة يسوع من بين الأموات بعد حزن يوم الجمعة العظيمة. وتطلّعت لحضور القداس آخر الشارع من منزلنا في كنيستنا بشارع بارك، المركز البولسي. كانت العدالة الاجتماعية، والعدالة الاقتصادية، والقتال من أجل المستضعفين، والعناية بالمرضى والفقراء، كلّها في مقدّمة عمل المركز. وكان يُرحّب بمثليّي الجنس والمستقيمين. وكانوا جميعهم في قلب هذه الجماعة الكاثوليكية الجامعة. وغالباً ما يُقام القداس بلغات متعددة على شاشات العرض خلف المذبح.

وبالقدر الذي كنت قد ترعرعت فيه خاضعاً لشكليات الكنيسة الكاثوليكية القديمة، التي كنت أفتقد فيها أحياناً القدّاس الإلهي وجمال اللغة اللاتينية، فإنني قدّرت لتلك الأبرشية تصميمها على كسر الحواجز. كان قداس هذا الفصح جميلاً، وكان لصلاة كنيستي من أجلي، قبل أن أعود على طريق الحملة، مغزى خاصٌّ. فكم من الناس يمكنهم اختبار هذا النوع من الاحتضان الروحي؟

خرجت، بعد القداس، وأنا ممسك بيد تيريزا. استطعت أن أسمع في الخلفية مذيعاً تلفزيونياً في بث حيّ عبر الشارع يقول: «وفي أحد الفصح، في بث مباشر من بوسطن، يقول لنا مراسلونا في الداخل إن المرشح الديمقراطي جون كيري تقدّم اليوم بنجاح من المناولة» ، واستطاع بالسهولة نفسها أن يغطّي حدثاً رياضياً. لقد فوّت المعنى الكامل لأحد الفصح، أو مغزى ما نؤمن به وسببه.

لم يحدث، ولو مرّة واحدة، أن مُنعت من المناولة. لكن فليسامح الله أولئك الذين يشاهدون من منازلهم إذا فكّروا بالعكس. وفي النهاية لم يعرب إلا ثلاثة أساقفة من أصل 180 عن تأييدهم موقف بورك. لكن تلك الأقلية الصغيرة شغلت العناوين الرئيسية.

كانت مأساتي الحقيقية أن النقاش لم يَدُر قط، أقصد النقاش المتعلّق بما يعنيه فعلاً عيش تعاليم يسوع. ولا يتسع ذلك النقاش في مقطع صوتي من ثلاثين ثانية، ولا يكون على الإطلاق ربحه أو خسارته من خلال «الحرمان من المناولة» .

عرفت من تجربتي سنة 1972 أن معارضتي حرب فييتنام كانت هدفاً كبيراً لليمين السياسي. ولم أشك قط في أن الحملة الرئاسية سترفع الرهانات أكثر.

عندما قمت بالاحتجاج سنة 1971، خسرت بضعة أصدقاء إلى الأبد. كانت فييتنام حرباً مثيرة للانقسام، يخوضها في دولة مقسّمة رجال من بلاد تزداد انقساماً. أراد الكثيرون من السياسيين إبقاءنا منقسمين، فهاجموا مَن كانوا يقولون الحقيقة. وكان حراكي قد شُوّه لأذيتي سنة 1972، في الحملة الانتخابية الوحيدة التي كنت قد خسرتها.

كنت يومها أعرف ما لا أزال أعرفه اليوم، وهو أنني فعلت الصواب بمجاهرتي بأنني ضد الحرب. وقد أنقذ ذلك أرواحاً. وعندما سأمضي للقاء خالقي، سأفعل ذلك مرتاح الضمير في شأن كل ما قلته يومها أو فعلته. خلقتُ أعداء لي بقولي الحقيقة لإنقاذ الأرواح. وأخفى غيري الحقيقة لحماية حظوظهم في السياسة، على حساب عشرات آلاف الأسماء المحفورة على «الجدار» في واشنطن.

كان القائد الأعلى هو الذي سيستفيد من قرينة الشكّ سنة 2004، في أتون بلاد خارجة حديثاً من أحداث 11/9، وبعد عام تماماً من الحرب في العراق وعامين من الحرب في أفغانستان. كان كتاب قواعد اللعبة الجمهوري في الانتخابات الرئاسية الأولى بعد أحداث 11/9، يقضي بوضع موقفي سنة 1971 في مواجهة ورقة القائد الأعلى.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

كان الجمهوريون قد قدّموا عرضاً أولياً من كتاب القواعد ذاك في دورة انتخابات العام 2002، عندما شنّوا حملة تشويه سمعة وتخويف في جورجيا ضد صديقي ماكس كليلاند، وهو من قدماء محاربي فييتنام وحائز أوسمة وفاقد لثلاثة من أطرافه، ليجري انتخاب سيناتور لم يذهب إلى الحرب بعد أن حصل على خمسة تأجيلات بذريعة أنه طالب.

السياسة لعبة قاسية. وقد أثبت فريق بوش أنه بارع كآل كينيدي، وصلب كليندون ب. جونسون. ويجب ألّا ينخدع أحد بتعبير اللامبالاة الذي يبدو على وجه جورج ووكر بوش.

عرفت أنهم سيرمونني بأبشع التهم. وكان من المنطقي أنهم، في زمن الحرب، عندما تكون أوراق اعتماد القائد الأعلى على المحكّ، سيحاولون تلطيخ مشروعيتي. وبالفعل، عندما اتضح أكثر أنني سأكون المرشَّح الديمقراطي، أخذ شكل الهجوم في التكشّف. شوّهت حملة بوش والمجلس الوطني الجمهوري سجل تصويتي، فيما شرعتْ، بالتزامن مع ذلك، العناصر الأكثر بغضاء في الآلة اليمينية، التي تبعد نفسها كفاية عن الجهاز الرسمي لبوش-تشيني، في الضرب بعنف على وطنيتي.

وهنا يدخل تيد سامبلي من يمين المسرح. كان تيد واحداً من أكثر الكائنات البشرية التي صادفتها خداعاً. فقد تخطّى حدود إيماني المسيحي بإمكانية التكفير عن كل شيء.

شاهدته للمرة الأولى في العمل عندما كنّا، أنا وجون ماكين، نحقق في مصير الأميركيين المفقودين في فييتنام.

أخرجتْ حملتي سامبلي من وكره مجدَّداً، بائعاً جوّالاً لبلوزات تعلن أنني هانوي جون. كان سامبلي قد عاد إلى العمل متسلِّحاً بموقع على الإنترنت بعنوان: «قدماء محاربي فييتنام ضد جون كيري» . وعرض هو وأمثاله ما وصفوه بأنني مادة جديدة: صورة قديمة تظهرني أقف إلى جانب جين فوندا في أحد التجمُّعات المناهضة للحرب. الأمر الذي بدا ذنباً بالارتباط. لكنها كانت صورة مزيفة. وفي الوقت الذي أخذت فيه الصورة تنتشر كالفيروس عبر الإنترنت والصحف على مستوى الوطن، تقدّم مصوِّران فوتوغرافيان لتبيان الحقيقة. كان أوين فرانكن، ولعقود، مصوراً فوتوغرافياً وكاتباً. وتعرّف إلى صورة جين فوندا. وتعرّف مصوّر فوتوغرافي آخر، هو كنيث لايت، إلى صورتي وأنا في الخدمة وكان قد التقطها سنة 1971 خلال تغطيته لقدماء محاربي فييتنام المناهضين للحرب. أكّد المصوّران ما جرى في الصورتين من تلاعب بالفوتوشوب، ودمجهما في صورة واحدة. كان الأمر، بالحرف الواحد، خبراً ملفّقاً.

كان أمر سامبلي قد انكشف، وتبيّن أنه كاذب استغلاليّ. وكسبنا المعركة الأولى في الإعلام عن طريق ردّ الصاع صاعين. وتأكّدنا من أن وسائل الإعلام، قد عرفت في الوقت المناسب، من هو تيد سامبلي، وحوّلنا سجله الدنيء إلى قضية.

لكن هذه الواقعة كانت ككنار في منجم فحم، إنذاراً مبكراً لما ينتظرنا. واعتقدت أن ترياق الأكاذيب الحتمية سيكون بالتأكيد الرواية الكاملة لمن أكون. واعتقدت أيضاً أن بمقدورنا إخبار هذه القصة في سياق الحملة.

عرفتُ أن الشهادة الأكثر إقناعاً ستأتي من رجال عرفوني أفضل معرفة، وكانوا قد أدلوا بدلوهم بالفعل، وأرادوا الانتشار في كل مكان وأي مكان من مختلف أنحاء البلاد: إنهم رفاقي في فييتنام. لم يكونوا سياسيين. ولم يكن الكثير منهم من الديمقراطيين حتى. كانوا فخورين بخدمتنا معاً. وقد تصالحوا منذ وقت طويل مع أي خلافات نشبت بيننا بشأن الحرب. عندما كانوا يتحدّثون، كان الجمهور يهدأ. كانوا فاعلين لأنهم كانوا صادقين. تحدّوا أي كاريكاتير كان الجمهوريون أو أشباه تيد سامبلي يحاولون رسمه. وصداقتهم هي السجل الذي يبقى.

بقيت أعتقد أن الحقيقة هي التي ستنتصر، حتى اليوم الذي بدأت فيه أسمع أن الأميرال روي هوفمان يوجِّه النداءات إلى المحاربين القدماء، محرّكاً المعارضة ضدي. كان هوفمان، الذي عرفته يوم كان العقيد هوفمان، محتّكاً قديماً. وقد لامه سكيب باركر على مقتل دون دروز في كمين. وكما سبق أن ذكرت، كانت رسالة سكيب البليغة والمعاصرة التي تصف قرارات هوفمان في ذلك اليوم، هي التي دفعتني إلى الحراك المُناهِض للحرب. ومن سخرية الأمور، أنني تمتعت، على مر السنين، بتواصل إيجابي مع الأميرال هوفمان. التقيته في اجتماعات قدماء محاربي زوارق سويفت - Swift boats. والتقيته سنة 1995 في الترسانة البحرية بواشنطن، عندما أُخرجت زوارق سويفت رسمياً من الخدمة واجتمع شمل العشرات منّا. وقد دهشت لاستدارته الكاملة المفاجئة في هذه الحملة، فأخذت الهاتف واتصلت به. قلتُ إنني قد سمعت بأنه يشغّل الهواتف ضدّي.

قال إنه لم يحب الطريقة التي صوّره فيها المؤرخ دوغلاس برينكلي في كتابه فترة الخدمة - Tour of Duty، الذي غطّى خدمتي في البحرية، وسنوات احتجاجي وعملي مع جون ماكين للمصالحة، والوصول إلى كلمة سواء في العذاب والمتاعب المتعلّقة بالمفقودين في الحرب والأسرى. أشرت في البداية إلى أن شكواه هي مع برينكلي، وليست معي. لكن إذا كان هناك ما هو غير دقيق في الكتاب، فسوف أكون سعيداً بوضعه على اتصال مع المؤلف والناشر، أو أتصل بهما بنفسي لتصحيح أي خطأ. لكن بات من الواضح جدّاً أن المسألة ليست مسألة أمور غير دقيقة. لقد كشف لي عن كل ما قلتُه لدى

عودتي إلى الديار من فييتنام. قال: كان عليّ دوماً مساندة الجنود. وقلتُ له إنني ساندت الجنود عندما تحدّثت بصراحة. قال إنه سيصوّت لبوش، وما من مفاجأة في ذلك. كان من الواضح أنه لا يريد إجراء الحديث.

لو أن الأميرال هوفمان أراد استفتاءً حول حرب فييتنام: هل هي صواب أم خطأ؟ أو حول معارضتي لها: هل كنتُ محقًّا في ذلك أم لا؟ فلا بأس بذلك عندي. فله الحق في رأيه.

في 4 أيار/مايو 2004، عقد الأميرال هوفمان ومجموعة من ضباط زوارق سويفت السابقين مؤتمراً صحافياً في واشنطن للإعلان عن معارضتهم لحملتي جرّاء موقفي من الحرب.

الشخص الوحيد الذي كان هناك وخدم على زورقي الأول البي سي إف 44 - PCF-44، كان ستيف غاردنر، الذي عاود الظهور على صفحات مجلة التايم، معلناً أنه يميني من المستمعين إلى راش ليمبو، ومحذّراً من أنني سأكون بمثابة بيل كلينتون آخر في البيت الأبيض. كان ستيف الوحيد، بين أفراد طاقمي على أي من الزوارق، الذي بدا أنه حزبي. وقد فاجأت مشاعره باقي طاقم البي سي إف 44. ولم يكن ستيف معي أو مع طاقمي في أي من العمليات اللاحقة التي نلت عليها الأوسمة. ولم يعرف شيئاً مباشراً عن أي من تلك المهمّات.

طالبتني الفئة المتجمعة بنشر سجلّاتي العسكرية، وهو ما لم يكن له أي معنى، لأنني كنت قد رفعتها بالفعل على الإنترنت قبل ذلك بأسابيع، وقد عرفت الصحافة ذلك معرفة جيّدة. عقد أفراد طاقمي مؤتمراً صحافياً للرد على هوفمان وجماعته. ردّوا الضربة بقوة وبسرعة. وبالكاد غطى الإعلام كلًّا من هذين الحدثين.

صباح 30 تموز/يوليو، عند شق الفجر، انطلقنا، بعد المؤتمر، في جولة عبر البلاد بالباص والمركب والقطار، للاستفادة من زخم المؤتمر في بوسطن. كنا نأخذ الحملة عبر الولايات المترجِّحة. وكان بيل كلينتون هو الذي بدأ سنة 1992 باتباع تقاليد رحلة ما بعد المؤتمر، مسافراً بالباص، ومستغلاً الفرصة لبلوغ البلدات الصغيرة التي غالباً جدّاً ما يجري تجاوزها؛ ويحظى الناس بفرصة سماع المرشح ورؤيته. كنت متشوقاً للحظة السياسة بالمفرّق هذه. وفي اليوم الأول من جولة باصنا من بوسطن إلى سكرانتون في بنسلفانيا، مع عدّة توقّفات على طول الطريق انتهاء بتجمع مسائي كبير في هاريسبرغ، دخلتِ على الخط سياسات الأمن القومي. أعلنت الحكومة الفيدرالية رفعاً

مفاجئاً في مستوى درجة الإنذار، المرمّز بالألوان، من تهديد إرهابي. دار هناك كثير من الجدل حول الدافع الحقيقي لهذه الإنذارات وتوقيتها. وجرّ ذلك على الفور الحملة بعيداً عن مؤتمرنا الإيجابي والقضايا التي أردنا طرحها على البلاد. وبعد ذلك بخمس سنوات، سيقول وزير الأمن الداخلي، توم ريدج، إنه شعر بتعرُّضه للضغط بهدف رفع مستوى درجات الإنذار، لأسباب جعلته يتساءل إن كان للأمر علاقة بالأمن أو بالسياسة. وظنّت حملتنا بقوّة أننا كنا نعرف الجواب، لكننا لم نستطع قول ذلك في حينه.

كان في انتظارنا المزيد من المفاجآت. فبعد ذلك ببضعة أيام، أي في الخامس من آب/أغسطس، وفيما كانت قافلتنا تسير عبر البلاد، مع إشارة متقطعة في الهواتف الخلوية واتصال محدود بالإنترنت، عاد «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» بإعلان تلفزيوني يتّهمني بالكذب بخصوص كل ما عشته في الحرب.

كانت عبارات الإعلان صارخة. «لم يكن جون كيري صادقاً بخصوص ما حدث «إنه يكذب بشأن سجلّه» . «أعرف أن جون كيري يكذب بشأن وسام القلب الأرجواني الأول، لأنني عالجته من تلك الإصابة» . «جون كيري كذب للحصول على النجمة البرونزية.... أعرف، لقد كنت هناك وشاهدت ما حدث» . «جون كيري لم يكن صادقاً» . «جون كيري ليس بطل حرب» . «جون كيري خان الرجال والنساء الذين خدموا معه في فييتنام» .

كان يصعب سماع ذلك كلّه ودحضه. لكن بوّابات السيل انفتحت عندما ظهر بالتزامن مع الإعلان، كتاب، ليس إلا من تأليف جون أونيل، العميل من العام 1971 الذي جنّده تشاك كولسون والبيت الأبيض في عهد نيكسون لمجادلة «قدماء المحاربين في فييتنام ضد الحرب» ، وجيروم كورسي، وهو من أصحاب نظرية المؤامرة الذي سيمضي لاحقاً لاتهام هيلاري كلينتون بأنها سحاقية، وباراك أوباما بأنه مسلم متخفٍّ. وسمعنا أن الكتاب، وهو من منشورات دار محافظة بدعم من الشبكة اليمينية، سيحتل في إطلالته الأولى رأس قائمة النيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعاً.

ما المال، والأكاذيب، والتلفزيون، والمزيد من المال، إلّا تركيبة سامة.

أحسسنا، فيما كان باصُنا يهدر عبر المناطق الريفية، بخطر جديد يتربّص. كان خصومنا قد ابتدعوا أداة جديدة بالكامل: عشرات الأكاذيب السافرة تُضاف إلى الكذبة الكبرى، وكلّها مذيّلة بهوامش ومدعومة بشهادات موقّعة لتظهر كأنها جاءت نتيجة بحث دقيق.

أذكر وقوفي مع سكرتيري الصحافي خلف مكتب الاستقبال في موتيل صغير. وكانت تردنا عبر الفاكس، صفحة فصفحة، نسخة من الكتاب، وهو بعنوان غير صالح للقيادة Unfit for Command.

كنت أسحب كلّ صفحة من جهاز الفاكس قبل أن تتكدّس في دُرج الورق. كان الكتاب ممتلئاً بالأكاذيب. وأوحى الكاتب الرئيسي جون أونيل، أنه كان يعرفني من زمن زوارق سويفت؛ وهو، في الواقع، لم يظهر على الساحة إلا بعد رحيلي بزمن طويل. ولم تكن عودته إلى الظهور مصادفة بأي شكل من الأشكال.

كان الأشخاص الذين لم يكونوا حاضرين هناك يلوّثون موجات الأثير بالأكاذيب، محاولين تقويض خدمة كلّ مَن كان منّا هناك. كنت أغلي من الغضب. اتصلت بمديرة حملتي. اعتقدتْ أن شراء الإعلان كان في حدّه الأدنى، لكننا كنا نتعقّبه. وقال جون إدواردز إن الجمهوريين يحاولون فقط «تشتيت مسارنا» .

لم يطمئنّي أي من ذلك. كنت قد عانيت الكثير في عهد نيكسون لأنسى ما قاله مارك توين: «تدور الكذبة نصف دورتها حول العالم، قبل أن تتمكّن الحقيقة من انتعال حذائها» . لكن الحملة تأكدت من أن الحقيقة سوف تشرع في ردّ الركلة. وأخذت الشهادات المزعومة من «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» تتبدَّد، عندما تحقَّقت الصحافة منها. والأمر الذي لا يصدّق أن العضو الوحيد في «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» الذي كان حاضراً هناك في 28 شباط/فبراير 1969، قد شهد بشكل معاكس تماماً لما كانوا قد زعموه. وقال لاري لي، أحد أفراد طاقم البي بي إف 23: لأحد المراسلين: «ليست لدي مشكلة في حصول [كيري] على النجمة الفضية» .

ومع ذلك، بقيت الإعلانات تذاع عبر الأثير.

كان بيل رود، وهو جمهوري ومراسل على مدى عقود لصحيفة شيكاغو تريبيون، ربّان البي سي إف 23. وقد مُنح ميدالية النجمة البرونزية مع أداة على شكل حرف V يرتديها مع الميدالية، كاعتراف بشجاعته في المعركة، وبحسن قيادته في ذلك اليوم. وحاز كل فرد من أفراد طاقمه ميدالية التنويه من البحرية. بقي بيل لسنوات خارج السياسة، لكنه شعر بضرورة كتابة ما حدث في ذلك اليوم، ودحض حملات التشهير. وشغل موضوعه الصفحة الأولى.

لكن الإعلانات بقيت تُذاع عبر الأثير.

زعم كتاب التشهير الجمهوري بأن المقاتل الوحيد من الأعداء في ذلك اليوم كان صبيّاً يرتدي مئزراً. لكن، عندما نظر مراسلو التحقيقات في تقرير البحرية الرسمي لما بعد الحادثة، بالاستناد إلى التحقيق الذي أُجري مع جميع الذين كانوا حاضرين، والذي وضعه ضابط كبير في زورق سريع لخفر السواحل، اكتشفوا، عبر البرهان أنه كان هناك، «إطلاق نار كثيف من أسلحة خفيفة» ؛ وتأكّدوا من مقتل ثلاثة من الأعداء حتى قبل نزول الجنود إلى البر، ومن أن العدو قد جرى اكتساحه.

لكن الأكاذيب استمرّت.

وتغيّرت رواية «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» بعد مواجهة الإعلام لها. ولو أن سجلات البحرية ناقضت أكاذيب كتابهم، فسوف يقولون إنني، بلا شك، قد كتبت محتوى تلك السجلات. ولدى مواجهتهم بتوقيع ضابطنا الأعلى رتبة منّا على السجلات، سيقولون أنه قد زوّر بلا شك. وعندما واجه المراسلون عناصر من «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» كانوا أنفسهم قد نالوا أوسمة على حوادث يزعمون الآن أنها لم تقع قط، فإنهم كانوا يختفون ويتوقّفون عن الردّ على الاتصالات الهاتفية. وقد ندّد بهم جون ماكين، لكنهم استمرّوا.

ومع ذلك بقيت الإعلانات تُذاع عبر الأثير.

كان الأميرال زوموالت، قائد كل القوات البحرية في فييتنام، قد أعلن أن ما حدث في ذلك اليوم سنة 1969 «برز بين الأبطال بوصفه من الأعمال البطولية الصرف» . لكن الأميرال زوموالت، الذي دافع عنّي سنة 1969، قد فارق الحياة. وها هم هؤلاء الرجال يسيئون سمعة كلامه وإرثه. وكان صحافيو التحقيقات قد قاموا بعمل رائع في دفع الحقيقة إلى الظهور.

لكن الإعلانات استمرّت.

بعد ذلك افتضح أمر الزيف افتضاحاً مطلقاً. فقد اكتشف الإعلام أن رسالة النقيب هوفمان سنة 1969، التي تنقّلت بين أعلى مستويات سلسلة القيادة وأدناها، مشيدة بي وبطاقمي، قد أعلنت:

1. أن الغارة الناجحة للغاية التي تضمنت عملية تمشيط الأرض، والتي شُنّت على امتداد «راخ دونغ كونغ» قد برهنت على تنسيق رائع وتكتيكات هجومية بوصفها مثالاً رائعاً على الاكتساح المطلق للعدو. 2. أن تكتيك الهجوم

والإغارة قد فاجأ العدو تماماً في جحوره، وبرهن على أنه فعال للغاية في استدراجه إلى الأرض المكشوفة. هذا التطبيق الساحق للقوة النارية لزوارق سويفت قد يكون الأسلوب الأكثر فاعلية في التعامل مع أعداد صغيرة من ناصبي الكمين.... 3. أن هذه العملية قد أوقعت أضراراً غير قابلة للإصلاح [كذا] بالعدو في هذه المنطقة. لقد أحسنتم صنعاً.

تخيّلوا هذه التهنئة المعاصرة من رجل يتآمر الآن مع الجمهوريين للقضاء عليّ وعلى سُمعتي.

كان ذلك استثنائياً. كانوا يكذبون في شأني، يكذبون في شأن أنفسهم، يكذبون في شأن التاريخ الذي عرفوا أنه موثّق، وقد وثّقوه في بعض الحالات بأنفسهم. بيد أنّ البحرية التي زعموا أنهم يحبونها ويحترمونها، هي التي وثّقته في كل الحالات.

لكن، ومع ذلك، استمرّت الأكاذيب.

واصلنا ردّ الضربات بالوقائع في الصحف الوطنية. وكتبت نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، وشيكاغو تريبيون، وبوسطن غلوب، ولوس أنجلس تايمز، وميامي هيرالد، وول ستريت جورنال، وسواها، موضوعات على صفحاتها الأولى نشرت فيها وثائق البحرية، وسجلات الخدمة، والسجلات الطبية وما إلى ذلك. وناقض كل عنصر في طاقمي، انخرط في أي من الاشتباكات، التقارير المتعلقة بالهجمات.

وفيما أخبر صحافيو التحقيقات الحقيقة على الصفحات الأولى، مرّر المعلقون السياسيون على الكابل كلّ شيء عبر الموشور السياسي. جادلوا في شأن تصوُّر حملتي لخدمتي العسكرية أنها من مؤهلات الرئاسة: أهو خطأ واضح أم لا؟ هل جلبنا ذلك على أنفسنا؟ كان ذلك منافياً للمنطق. كان الأمر إلى حدٍّ ما أشبه بالقول الآتي: بسبب احترام الناخبين عام 2000 للسنوات التي قضاها جون ماكين أسير حرب، فلا بأس باستخدام تكتيكات تلطيخ السمعة في كارولاينا الجنوبية من خلال التلميح أنه كان المرشح المنشوري - the Manchurian Candidate [18]. ألم تعد الحقيقة مهمّة؟

كان الناخبون في آب/أغسطس يشاهدون الأخبار، وينظرون إلى الإعلانات، ويرون ذلك الكتاب بعنوانه المخيف: «غير صالح للقيادة» على رفوف المكتبات، وكان استنتاجهم: «أنا متخوّف من هذا الشخص» .

لم يكن كسب الجدال يهمُّ كثيراً. كانت هذه معركة كسب قلوب الجماهير وعقولها، ومعركة جرأة. أنزل «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» العار بأنفسهم، وانكشف كذبهم. لكنهم كانوا يخلقون علامات الاستفهام لدى الناخبين. فالرئاسة تتعلق بالشخصية. وكانت هذه الأكاذيب قد أثارت تساؤلاً حول شخصيتي.

كنت توّاقاً إلى الرد على الأكاذيب عبر التلفزيون. فكل ما في داخلي أبلغني بالآتي: عندما يجري الاستغلال المتكرِّر لكذبة على التلفزيون، فيجب أن تُدحض على التلفزيون. لكن الواقع الجليّ والبسيط هو في محدودية ما لدينا من مال، لأننا كنا نعمل ضمن الحدود الإصلاحية لتمويل الحملة. فلو أننا أنفقنا المال في آب/أغسطس، لما تبقّى لنا ما يكفي لتجريد حملة وطنية للرئاسة في تشرين الأول/أكتوبر؛ هذا إذا تمكّنّا من بلوغ ذلك الحد. لو أنفقناه الآن لاضطررنا إلى الانسحاب من أوهايو أو من فلوريدا.

ما إن قررت البقاء ضمن برنامج التمويل العام، حتى ترتَّب عليّ أن أقاتل على الدوام وإحدى ذراعيّ مقيّدة خلف ظهري، خصوصاً لدى مواجهة آلة الهجوم المدروسة للجهازين الجمهوري واليميني مجتمعَيْن.

كانت هناك، ضمن قيادة الحملة، وجهة نظر قوية تقول بأن فضح الأكاذيب قد حدث. وجادل بعضهم في أننا لم نعد في حاجة إلى هدر المال على إعلانات تتعلّق بأمر لم تعد الجماهير قلقة حياله. وكانت الجملة التي سمعتها مرّات عدة عندما اتصلت للسؤال عن سبب ابتعادنا عن الأثير هي: «ذلك لا يظهر في بيانات الاستطلاع» .

في إحدى الليالي، وكنا في فترة متأخرة من الحملة، جافاني النوم، وأنا نزيل أحد الفنادق. كنّا في أوهايو، وكنت متململاً. شغّلت التلفاز، وها هو إعلان زورق سويفت يكذب بشكل سافر في شأني. ولو أنني كنت مواطناً يشاهد ذلك الإعلان، وكان ذلك إطاري المرجعي الأساسي، لما صوّتت لنفسي.

اتّصلت بمقرّنا، وعاودت من جديد طرح حجّتي. وقيل لي، مرّة أخرى، إننا نحتاج إلى ذلك المال. وكان الشعور السائد هو أن «هدره الآن سيشكّل خطراً على الحملة وسيكون غير مسؤول» . ومن بعض الأمور التي كانت تدور في ذهني تنبيهات كنت قد تلقّيتها في فترة الاستعداد للحملة: «لا تكن مديراً لحملتك» ، حذّرني الناس، «عليك أن تثق بالمحترفين» .

«عليك أن تفكّر في هذا الشأن بطريقة باردة» ، قالها لي موظف في الحملة صافي النيّة جدّاً. لم يعجبه أنني كنت أرفع صوتي حيال ذلك.

وصحت مجيباً: «لقد عشت هذا. وإذا لم أنفعل بخصوصه، فحيال أي أمر بحق الجحيم يمكنني أن أغضب؟» .

وقال لي مساعدي الصحافي: «إن الصحافة لا تصدّق الأكاذيب، تعرف أن ذلك متعلّق بالعام 1971» .

تنهّدت. عرفت، بالطبع، أن الكثيرين من الأشخاص عادوا إلى الديار من فييتنام، وكرهوا الحركة المناهضة للحرب. فلا استعراضات، ولا شكر على خدمتهم. كان الأمر كلّه قد بات شعوراً عارماً واحداً بأنهم تعرّضوا لإساءة معاملتهم. ومن سخرية الأمور أنني فهمت ذلك الشعور العميق بالاستياء. فأكثر ما جمع قدماء محاربي فييتنام ضد الحرب هو ذلك الشعور بالاغتراب. إلا أننا اكتفينا فقط بلوم السياسيين والحرب، وليس رفاقنا قدماء المحاربين. لكن ما من استياء من الاحتجاجات شرّع لأي شخص الكذب في شأني، بل حتى الكذب في شؤونهم.

كنت متأكّداً، مهما يكن ما تظهره استطلاعات الحملة، أن الأكاذيب كانت تُحدث تأثيراً. كنت أتوجّه إلى تجمّع للحملة، وأشاهد لافتات «هانوي جون» مصطفّة على جانبَيْ طريق موكبي السيّار. كان قد جرى إطلاق العنان لأمر بشع. وتحدّثنا عن إرسال جون إدواردز للدفاع عني. لكن بدا في شكل من الأشكال أن المرشح لنائب الرئيس سيخفّف من الخطاب، ويلقيه من دون شغف أو اقتناع. وأخذ فريقي يتساءل إن كان إدواردز قادراً على نقل رسالة إيجابية. أرادت مديرة الاتصالات لديّ ستيفاني كاتر، وكذلك الفريق الحاضر هناك والذي يعرفني أفضل معرفة، أن أرد الضربة بنفسي.

في النهاية، عندما أنظر إلى الوراء، لا أجد لديّ من أغضب منه إلا نفسي. وكنت قد لعنت نفسي مرّات عدّة. تلك كانت حملتي. مدّني هؤلاء الخبراء بأفضل حكمهم بخصوص ما ينبغي لي إنجازه على ما يعتقدون. وفي تحليل نهائي، كان القرار يعود إليَّ، وليس إلى أحد سواي، في الأخذ بحكمهم أو لا.

ما توجّب عليّ فعله كان أن أوقف الحملة، وأقف مع فريقي للرد بالتفصيل على كل كذبة، وإنتاج إعلانات وبثها في كل سوق تُبث فيها إعلاناتهم.

كان عليّ أن ألقي خطاباً مدروساً، شخصياً عن الحرب، معيداً الناس إلى تلك الحقبة، ووضع الحرب في إطارها كما كان باراك أوباما قد فعل في خطابه عن الجدال الذي أثاره القسيس رايت سنة 2008.

لكن، حتى وأنا أكتب هذه الكلمات، يتساءل جزء مني إن كان الخطاب سيكون أي شيء سوى مليّن للمعدة. كانت سنة 2004 زمن انقسام والتباس. وأتساءل إذا كان قد أمكن هضم الخطاب في ذلك الوقت الذي أعقب أحداث 11/9، مع جنود في الميدان يخوضون حربين، تبدو إحداهما أحياناً أشبه بشكل مخيف بحرب فييتنام.

لا يزال بإمكاني سماع مَثَل تيد كينيدي القديم الآتي: «إذا كنت تشرح، فأنت تخسر» . لكن الجزء الأكبر مني لا يزال يشعر أن واجبي كان يحتّم أن ألقي ذلك الخطاب. كان يجب أن أضع كل شيء في سياقه، ليس فقط للفوز بالحملة، بل أيضاً لمحاولة إنهاء الحرب في شأن الحرب.

الزمن هو المورد الوحيد الذي لا يمكنك أبداً استعادته. إنه متناهٍ فعلاً. ما من أحد يأخذ إجازة مرضية في السباقات الرئاسية. ولا يُسمح بالنوم إلا بعد الانتخاب، والأكثر من ذلك أنك لن تنام قرير العين إلّا إذا فزت من فورك. ومن الصحيح أيضاً أنك إذا لم تكن تشدّد على رسالتك، وإذا كنت تهدر وقتك وأنت تشرح لماذا تفتقر رسالة الطرف الآخر إلى الدقّة، فأنت في موقع دفاعي، والدفاع ليس الطريقة التي تفوز فيها بالسباق. وهناك سبب لكون هاتين البديهيتين تنطبقان نحو 99% من الوقت. وكان هذا هو 1% من الوقت الذي لم تنطبقا فيه.

تبيّن أنك أحياناً قد تخسر بعدم الشرح. وعليك أحياناً، شئت أم أبيت، أن تتصدّى لأمر أكبر وأهم من أن يصير مجرّد معركة نارية أخرى بين حملتين.

قال لي بيل كلينتون: لا أحد يريد أن يسمع عن حرب جرت منذ ثلاثين عاماً. أدركتُ ما كان يقوله. كان ينظر إلى الاستطلاع نفسه الذي كنّا ننظر إليه، وهو أن الناخبين قد أرادوا معرفة المزيد عن الاقتصاد، ومشاحنات أقل بين الحملات. لكن كان يسهل على كلينتون قول ذلك. فهذه القضية لم تكن جوهرية بالنظر إلى أيٍّ يكن، لكنها كانت قضيتي الشخصية، ومسّت كل الأعصاب الحساسة في جسمي.

كانت القضية، في جوهرها، مسألة شرف. فصداقة الرجال الذين خدمت معهم على البي سي إف-44 والبي سي إف-94 أخبرت الحقيقة. لكنني لم أرد لأحد في أي مكان أن يشكّ في أن الحقيقة كانت بالفعل هي الحقيقة. وعدت إلى ما كانت والدتي قد قالته لي قبل أن أبدأ رحلة الحملة، وقبل أن تفارق الحياة: النزاهة.

لم أستطع أن أعلّل كيف يمكن لرجال طيبين أن يختلقوا أموراَ عن محارب قديم آخر عندما يعرفون الحقيقة. وقُبَيْل حلول أيلول/سبتمبر محل آب/أغسطس اتصلت بواحد منهم، هو بوب براندت. كنت قد قرأت اسمه على لائحة «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» . كان بوب شخصية مثيرة للاهتمام، رجلاً ضخماً قوي البنية، رمز ندائه في فييتنام «الراهب تاك» . أحببته. وقد خدم طوال الوقت في البحرية، إلى أن تقاعد ملازماً أوّلاً. كنت قد رأيته سنة 2003 في اجتماع قدماء زوارق سويفت في نورفولك بفرجينيا، بُعَيْد عمليتي الجراحية لاستئصال السرطان. وقد تعانقنا وتضاحكنا. كان الدفء يعم الغرفة، بعد أن كنّا جميعنا قد شاهدنا الفِلم الذي أنتجته ابنة دون دروز، ترايسي، والذي يتناول بحثها عن قصة أبيها، الذي لم تعرفه إلا وهي طفلة. كانت فتاة صغيرة يوم قال دون لها: «كوني جيّدة، ولتكن ابتسامتك جميلة» . وبالتالي، كانت رؤية اسم بوب براندت على لائحة قدماء المحاربين الذين يشوّهون سمعة خدمتي بمثابة لكمة على المعدة. فاتصلت به من غرفة جلوسي في بوسطن في وقت متأخر من إحدى الليالي.

سرعان ما ألفت الصوت الهادر في الطرف الآخر من الخط. قلت: «أأنت الراهب تاك؟» . أدرك على الفور مَن أكون. قلت له إنني سمعت عن تورّطه مع «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» ، وبأنني أردت الاتصال به والحديث معه، لأنه يعرف أن ما كانوا يقولونه ليس صحيحاً. دخل بوب في صلب الموضوع، وقال لي إنه كان غاضباً مني لثلاثين عاماً بسبب ما قلته عن الحرب. لم تكن محادثة طويلة. طلبتُ منه أن يفصل بين ما شعرنا به حيال الحرب، وما نشعر به أحدُنا حيال الآخر، وحيال زوارق سويفت، وحيال خدمتنا. عرضت عليه أن نلتقي رجُلاً لرجُلٍ على انفراد. أقول بضمير مرتاح إنه أراد إنهاء المكالمة. وبعد نحو ساعة، اتصلت بي حملتي لأن درادج ريبورت بثت واحداً من عناوينها المثيرة، فحواه أنني أعمد إلى الاتصال بقدماء المحاربين، ممارساً الضغط عليهم لتغيير رواياتهم بشأن «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» . ونشرت صفحتها على الإنترنت وصفاً مثيراً خاطئاً لمحادثتنا. يا للسرعة التي شق بها خبر محادثتنا الخاصة طريقه إلى درادج، البوق الإعلامي الجمهوري الكبير. كانت آلة تشويه السمعة تعمل بأقصى طاقتها، ولن تتوقّف.

هناك الكثير مما أثار اشمئزازي وغضبي في شأن حملات تشويه السمعة التي قام بها «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» وتأثيرها على حملتي. والأمر الذي لا يزال يجعلني أستشيط غضباً هو الطريقة التي كان هؤلاء الرجال، الذين هم أنفسهم خدموا على زوارق سويفت قد حوّلوا فيها

كلمتَي «زوارق سويفت» إلى كلمتين تحقيريتين. إنها إهانة لثلاثة آلاف وستمئة رجل، ثلاثة آلاف مجنّد وستمئة ضابط، خدموا في تلك الزوارق.

غدوت، بعد الحملة، أسمع بعض العاملين في السياسة يستخدمون عبارة «زورق سويفت» كاختصار لعمليات تشويه السمعة والأكاذيب في شأن جوهر طبيعة شخص ما. أغضبني ذلك، لأنه كان من المريع، لجميع الذين خدموا بتميّز على تلك الأنهر معرّضين حياتهم للخطر كل يوم، ولأُسَر رجال، مثل دون دروز، قُتلوا في تلك الأنهر، أن يفكّروا في أن وحداتهم وفرقهم تمسيان مرادفاً للكذب.

وكان الواقع المحتّم أن آب/أغسطس قد أوقعنا على مؤخراتنا. بدأ الأمر بهجوم زوارق سويفت، وانتهى بالمؤتمر الجمهوري. احتجتُ إلى النهوض عن البساط والعودة إلى المعركة.

«يمكنك أن تسأل مجموعة تركيز إذا كان أفرادها سينتخبون مرشّحاً يطلق ريحاً في العلن، وسيجيبون بالنفي. قد ينتج عن ذلك رائحة نتنة، تعمل بفاعلية على إخلاء الغرفة. فما يقول الناخبون لمجموعة تركيز إنهم يريدونه، وما ينجح، ليسا الأمر نفسه دائماً» .

كانت تلك ملاحظة من الرئيس السابق كلينتون، وهو في أفضل حالاته. كان قد سأل عمّا تظهره استطلاعات الحملة حول أفضل خياراتنا في التصدّي للرئيس بوش. وأظهر البحث أن الناخبين قالوا إنهم ينفرون من تنظيم الحملات الانتخابية السلبية وإنها تأتي بنتائج عكسية. وحده الرئيس كلينتون كان يمكنه اختصار ذلك الهراء بتعبير حيوي واحد؛ هويل هفلين، متْ بغيظك.

كان الرئيس كلينتون ممدّداً على الفراش في غرفة مستشفى في نيويورك بانتظار إجراء عملية جراحية لفتح انسداد في أحد شرايينه، وأنا كنت مستلقياً على سرير فندق على بعد آلاف الأميال باحثاً عن طرق لفتح انسداد في طريقي إلى الرئاسة.

كنت قد اتصلت بكلينتون في وقت سابق من النهار لأتمنى له الخير وهو يدخل المستشفى، وانتهى بنا الأمر سريعاً ونحن نتحدث عن الحملة. كان عشق السياسة عنده غريزياً، وعرض بسخاء أن نعاود الاتصال في وقت لاحق من تلك الليلة. بل إنه دعا أيضاً بعضاً من فريق حملتي للاتصال به ومقارنة الملاحظات.

أكدت الاستطلاعات ما كان كلينتون قد قاله؛ عند هذا الحد، لسنا جميعاً في حاجة إلى الكثير من التذكير. كنّا كلّنا نحمل ندوب شهر آب/أغسطس الذي كانت فيه موجات الأثير والكابل تمتلئ إلى حد الاكتظاظ بالأكاذيب عن سجلّي العسكري، وهو شهر اعتقدتْ فيه حشود المؤتمر الجمهوري أن من الحذاقة وضع ضمادات لاصقة أرجوانية مموهة على خدودهم للسخرية من خطورة الجروح التي أُصبت بها في فييتنام. إن الدرْك الذي انحدر إليه حزبهم أصبح عجيباً. كنت قد تطوّعت للذهاب إلى فييتنام. ولم يتطوّع بوش ولا تشيني. لم تكن لي سيطرة على من يطلق النار ومتى وأين ونوع الجرح الذي أصبتُ به. كان يمكن للشظية ذاتها التي دخلت ذراع أو قدم أي فرد من طاقمنا أن تخترق بسهولة النخاع أو العين. كان من المذهل رؤية حزب الحرب الاختيارية في العراق يسخر من آثار المعركة، وكان من الواضح أن الحياة السياسية دخلت صفحة سوداء جديدة.

كان الحظ يتعثر باستمرار في ولايات عدّة كان التنافس فيها على أشدّه لدى الخروج من المؤتمر الديمقراطي. لحق ضرر كبير بحملتنا في آب/أغسطس، وكانت الأرقام كلّها إلى تراجع. كانت ولايات، مثل ميسوري وفرجينيا، قاتلنا لننافس فيها من جديد، تتساقط سريعاً، وربّما بشكل لا يُعوَّض. لكن الأكثر إثارة للقلق هو أننا كنّا ننزف في أوهايو وفلوريدا وأماكن أخرى كنا نحتاج إليها للفوز بالرئاسة.

كانت الصحافة والمعلّقون السياسيون والديمقراطيون القلقون يطالبون بحملة تطهير في الحملة، وكان أعضاء فريقي مخلصين وملتزمين. ولم يكن جزع المعلّقين السياسيين وقلقهم البالغ عادلين حيالهم.

كنت أحتدم غيظاً كأي شخص، بل وحتى أكثر من أي شخص، مما أُلحق بنا من ضرر، ولم يكن ممكناً إصلاحه من خلال نسف حملتي. فالدعوات إلى الاستقالات والطرد كانت صبيانية. ألم يكن الأشخاص الذين يُطلب مني الآن طردهم هم الأشخاص أنفسهم الذين استُقبلوا استقبال الأبطال عندما كنّا نفوز في أيوا ونيو همشاير بعكس كل التوقعات؟ ألم يكن العباقرة الجدد في عملية بوش هم أنفسهم الذين كانوا قد أشرفوا على الهبوط في شعبية مَن يتولى منصب الرئاسة بعد الارتفاعات التاريخية في أعقاب 11/9، ليتخلّف عنّي بعد مؤتمري في تموز/يوليو؟ يا لها من رحلة شاقة، عقيمة وعديمة الرحمة، للفريق الذي يعمل ساعات طويلة من دون مكافأة تُذكر؟

كنّا في الطريق إلى عيد العمل. وعرف الرئيس كلينتون، كما عرف الجميع، أن الناس شرعوا في تجاهل حملتنا. وبعد 45 دقيقة أو ما يقاربها،

انتهت المكالمة مع الرئيس كلينتون. كانت نصيحته حرّة وصريحة. لقي بعضها صداه، دون بعضها الآخر. وقد تأثّرتُ لأنه اهتم بما فيه الكفاية لمجرّد التحدث ليلة خضوعه لعملية خطيرة في القلب.

عرفتُ أن عليّ الرجوع إلى موقع الهجوم في هذا السباق وإلا قضي عليّ. اتصلتُ بصديق سياسي قديم، هو رون روزنبليث. كان رون حاضراً دوماً في الأوقات الصعبة، وكان قد آمن بإمكان عودتي السياسية بعد خسارتي سنة 1972. أدرك أن باستطاعتي الفوز سنة 1982 وسنة 1984، وجهّز نفسه من جديد سنة 1996، وقد عاد الآن إلى حملة كانت تواجه اضطرابات.

كان رون عملياً في تحليله للسباق. قال: «عليك أن تغيّر الدينامية، ولديك 54 يوماً لتغييرها. عليك أن تدير المركب إلى الشاطئ» . وعكست طريقة رون المختزلة في الحديث كلامَ شخصٍ يعرفني حقّ المعرفة ويعرف تاريخي.

ولن تكون هناك فرصة للقيام بذلك أكبر أو أكثر شأناً من المواجهات بين المرشحين للرئاسة ونيابة الرئاسة بعد أقل من شهر على ذلك، وهي من الفرص القليلة التي يمكن لبلد أن يحظى بها، في غياب فلتر الإعلام، لقياس المرشحين جنباً إلى جنب.

بات 30 أيلول/سبتمبر في جامعة ميامي فرصة حملتنا للخلاص: كان عليّ الفوز في المناظرة الأولى، وبسهولة.

كنت متلهفاً لتلك اللحظة التي أقف فيها على المسرح في بث تلفزيوني حيّ أمام عشرات الملايين من الأميركيين، وأتحدّث مباشرة إلى البلاد بالأصالة عن نفسي.

لكن كان عليّ أن أستعد أوّلاً.

في أثناء الحملات تخوض حرباً دائمة مع الانسحاب التدريجي لضوء النهار، ولا تستعيد أبداً الوقت الذي تضيّعه. ويمسي الضغط لجدولة كل دقيقة حاداً في الأسابيع الأخيرة على السباق. لكن يمكنك بهذه الطريقة أيضاً أن تفقد بسهولة أثَرَ الصورة الكبيرة. كنا نحتاج ببساطة إلى استثمار الوقت تحضيراً للمواجهات، حتى ونحن، في أيلول/سبتمبر، نجاري وتيرتنا القاسية. كان الوقت باهظ الكلفة، لكنني لن أستطيع أبداً استعادة الدقائق التسعين من كل مناظرة: كان ذلك مسألة حياة أو موت. ولم أكن لأضحّي بالتحضير من أجل محطة توقف إضافية أو اثنتين على الطريق.

عقدت، على متن طائرة الحملة طوال أسبوعين، جلسات نقاش تحضيرية، وكان هدير المحرّكات يدفعنا إلى إصاخة السمع. أدار رون كلاين عملية التحضير. وقدّم بوب شروم، جيئة وذهاباً، نصيحة الخبير. لكنني عرفت أن العمل الحقيقي سيأتي عندما نوقف مسار الحملة بعد خمسة أيام من التحضير التام.

توجّهنا، قبل أسبوع على المناظرة في فلوريدا، إلى سبرينغ غرين في وسكنسن، وإلى موقع خلوة مخفي كالكنز وسط التلال الخضراء يبعد أربعين ميلاً خارج ماديسون: منتجع «هاوس أون ذي روك» ، وهو مقصد للإجازات كان شاغراً إلى حد بعيد بعد عطلة عيد العمل.

كان الهواء يميل إلى البرودة، لكن أوراق الأشجار لم تتغيّر ألوانها بعد. بدا ذلك أشبه بما كنت قد عرفته في الديار في ماساتشوستس: مناخ السياسة هو مناخ الحملة.

كان مقرّ الحملة قد اختار بذكاء أن يجدول معسكر المناظرة العائد إلينا في ولاية مترجِّحة، فنستفيد من التغطية الإعلامية اليومية في سوق إعلامية مناسبة. وكان التعامل مع أي شيء أقوم به، من مثل مؤتمر صحافي سريع، أو حتى التوجه إلى البلدة لشراء المثلجات، يجري على أنه حدث إخباري.

لكن الحدث الحقيقي كان يقع بعيداً عن أي آلة تصوير. قبل بضع سنين على الحملة، كان براد بيت قد أدّى دور البطولة في فيلم نادي القتال Fight Club، اشتهرت فيه جملة غالباً ما استشهد بها فريق حملتي الشاب: «القاعدة الأولى لنادي القتال هي في عدم الحديث مطلقاً عن نادي القتال» . وشعرت بالأمر نفسه عند التحضير للمناظرة. ولم أكن لأتسامح قط مع الإغراء الذي يتعرض له بعض العاملين في السياسة لتسريب استراتيجية المناظرة. فالكشف عن ورقتك لخصمك ليس خروجاً على الانضباط فحسب، بل إنه أيضاً طريقة عظيمة للخسارة حتى قبل أن تحضر؛ كما أنه ينفّر الناخبين. لو أن كل شيء لعبة، لو أن كل شيء مسرح، فلا عجب في أن يعتقد الناس أن السياسيين يقدّمون القليل جدّاً من الأمور التي لها علاقة بحياتهم.

وهكذا كنا نتمرّن كل يوم، باكراً وفي قمة نشاطنا، تحت سقف الصفيح والعوارض الفولاذية لحظيرة مبرّدة في زاوية معزولة من العقار، حيث جرى تجميع نسخة طبق الأصل عن موقع المناظرة الرئاسية الفعلي، وكان زاخراً بالشعار المطابق وبنموذجين دقيقين للمنصتين اللتين سنستخدمهما، أنا والرئيس بوش، في فلوريدا.

وإذا كان قد اعتُني باستنساخ مسرح التمرين، فقد جرى التفاوض بشكل متقن على صيغة المناظرة. ذلك أن مفاوضات المناظرة تستقي معلوماتها من ميزات كل مرشح، ولكن أيضاً من التاريخ المباشر. وتقول رواية خرافية إن آل غور، قبل ذلك بأربعة أعوام، عندما كان مرشّحاً، جاء فريقه بلائحة طويلة من المطالب، تضمّنت كل شيء: من حرارة الاستوديو (كانوا يخشون لحظة التعرّق المتفاوت كما حدث في مناظرة نيكسون-كينيدي سنة 1960) إلى طول الوقت المخصّص لكل مرشح، وتقسيم الموضوعات. كان لفريق بوش، الممثّل بوزير الخارجية السابق جيمس بيكر، ثلاثة مطالب فقط لكنه كان مصمّماً على القتال من أجلها. وانتهى الأمر بمقايضة سهلة: سُعِد بيكر بمنح غور مطالبه الاثني عشر بل أكثر، في مقابل المطالب الثلاثة التي كانت تهم بوش فعلاً.

عرفنا، بحلول العام 2004، أن الصيغة مهمّة، لكن المسألة التي تهمّنا كانت أكثر جوهرية: أردنا ثلاث مناظرات. وأراد فريق الرئيس بوش واحدة فقط. كان يشغل منصب رئيس في زمن الحرب، وأرادوه أن يعود إلى وهج منصبه لا أن يبدو بمظهر المرشح. وعرفوا أيضاً أنه كلّما كان بوش عرضة للأسئلة اتسع المجال للخطأ. لم يكونوا يريدون لي العودة إلى السباق: وسيكون عليّ الاستفادة إلى الحد الأقصى من فرصتي.

كانت الآية قد انقلبت عما كانت عليه سنة 2000. فقد جاء البيت الأبيض بلائحة طويلة من المطالب. وطالب فريق بوش، وقد تذكّر كيف أن آل غور قد انتهك الركن الخاص لبوش، الحاكم يومها في مناظرة العام 2000 في بوسطن، بعدم خروج أي منا من وراء المنبر. كما أنهم تذكّروا تاريخي في المناظرات الثماني بيني وبين ويلد بأسلوب لينكولن-دوغلاس، فكان طلبهم إمكانية طرح أسئلة بلاغية فقط، لا أسئلة موجّهة صراحة إلى المرشّح الآخر. وكانت لديهم مطالب محددة حول المسافة الفاصلة بين المنبر والآخر. كما حدّدوا زوايا آلات التصوير التي يرونها مقبولة وغير مقبولة. والأكثر من ذلك، وفي تكتيك مصمم للإفادة من أي نزوع سيناتوري إلى التطويل، طالبوا بقيود زمنية صارمة: دقيقة للإجابات، ثلاثون ثانية للمتابعات. وإذا تحدّثنا لفترة أطول مما يجب يومض ضوء ويقرع جرس تحذير ليسمعه الجميع.

مثّلني في مفاوضات المناظرة محامٍ من واشنطن هو فرنون جوردان، وهو شخصية أسطورية في الحزب الديمقراطي. حدّق فرنون عبر الطاولة إلى فريق بوش، ونظر إلى لائحة مطالبهم الطويلة. واقترح ممثلو لجنة المناظرة الرئاسية أن يأخذ الطرفان مهلة أسبوع ليراجع كل طرف عروض الطرف الآخر، ويقدِّم اقتراحات مضادة. وأخذ فرنون بزمام المبادرة قائلاً: «لا

حاجة إلى اقتراحات مضادة، يمكننا عقد صفقة الآن.. لا نمانع مطالب حملة بوش الكثيرة مادمنا نجري ثلاث مناظرات» . صُعق فريق البيت الأبيض، ولم يكن لديهم من خيار سوى قبول الشروط.

لم أستطع التوقّف عن القهقهة وأنا أسمع التفاصيل. لم تكن لدي أي نية في انتهاك الركن الخاص لبوش. وبالكاد شكّل ذلك تنازلاً. ولم أبالِ بالمسافة التي تفصل بين منبرينا. ولم أعتقد أن طرح الأسئلة على رئيس حالي قد يجعلني أبدو بمظهر جيّد. وأعتقد في الواقع أنه قد يظهر وقحاً أو متعجرفاً، وبالتالي لم يكن ذلك تنازلاً أيضاً.

أما الأضواء الحمر الوامضة وأجراس التحذير، فيمكن القول بخصوصها إنها جيدة؛ أليس من أجل ذلك أوجد الله عملية الإعداد للمناظرة؟

بدا معسكر المناظرة في ريف وسكنسن مشابهاً بشكلٍ كوميدي: كنا بعيدين عن بريق الإعلام والحشود. وكان السير المضني صعوداً إلى الحظيرة يجعل دمي يتدفّق، وأتوجه بعدها مباشرة إلى العمل من خلال تمرين بعد تمرين: دورات خاطفة، جلسات تمرين، وإتقان مسألة الأضواء وأجراس التحذير، بحيث تبقى أجوبتي قصيرة.

أشرف رون كلاين وبوب شروم على عملية الإعداد. جلس شروم في الصف الأمامي مدوّناً الملاحظات، يقضم بصوت مرتفع علكة نيكوتين سيلصقها على أعلى كوب قهوته عندما ينتهي منها، وتضرب قدمه بعصبية على الأرض. أما رون، فكان هادئاً ومنتظماً. دوّن ملاحظات دقيقة، وطالب ببحوث آنية من كوكبة من الموظفين، بدا أنهم يهرعون باستمرار خارجين من مكتبه وداخلين إليه، واستبق أي كرات منحنية، وحافظ، بوصفه مدير المناظرة المزعوم، على سير العملية.

كنا، في كل ليلة، في الساعة نفسها التي ستحصل فيها المناظرة الحقيقية، نخفّف أنوار الحظيرة، ونتمرّن على مناظرة وهمية، من البداية إلى النهاية، كما لو أنها المناظرة الحقيقية.

شريكي في السجال على المسرح كان غريغ كريغ، صديقي، وعضو الفريق القديم مع كينيدي، والمحامي في واشنطن. وقد أدّى على أكمل وجه دور الرئيس بوش. كان غريغ قد حفظ غيباً أي «بوشية» [19] أمكنه إيجادها في نصوص تجمُّعات الرئيس ومقابلاته.

مع انتهاء اليوم الأخير من الإعداد وجلوسنا على حافة المسرح نشرب بيرة «لييننكوغل» شبه المثلجة، نظر إليّ غريغ بشكل متعب، وسألني كيف أبلى بأدائه دور بوش.

قلت: «لا أحبّك كثيراً الآن بالذات. وأعتقد بالتالي أنك قمت بعمل رائع» .

كانت الرحلة من ماديسون إلى ميامي قد استغرقت أربع ساعات ونصف الساعة. ووصلنا في الوقت المناسب لننعم بليلة نوم هادئة.

تُعدّ أيام المناظرة من الأيام الأكثر هدوءاً، التي يمكن للمرشح أن يختبرها. يكاد الفريق كلّه يختفي في الصباح الباكر لإجراء مقابلات مع محطات الراديو والتلفزيون طوال النهار في مقر المناظرة، وملء فراغات التغطية بالكابل. وهناك موقع سريالي أقامته وسائل الإعلام يسمّى غرفة التلفيق Spin Alley، حيث يجول العاملون في السياسة من كلا الحزبين أشبه بالمشاهير ويقدّمون توقّعاتهم المعلّبة، ويخبرون القصة من وجهة نظرهم. إنها، إلى حد بعيد، لعبة إدارة التوقعات، تنفخ فيها مهارة الطرف الآخر في المناظرة، فيما تخفض التوقعات من جانبك. وكان جماعة بوش قد اشتُهروا بإجراء ذلك، بل كانوا عديمي الحياء. كانوا، سنة 2000، قد أقنعوا وسائل الإعلام بالأمر الآتي: إذا تمكّن الحاكم بوش من التلفظ بجملة متماسكة في مواجهة نائب الرئيس غور، سيّد المناظرات، فسوف يشكّل ذلك انتصاراً كبيراً. إنها صفة البائع المتجوّل في أفضل حالاتها، وما عليك سوى الاكتفاء بالضحك. وهذا يحظى، طبعاً، بالتغطية اللاهثة من أخبار الكابل، كما لو أن هناك أمراً غير متوقّع ستقوله أي من الحملتين في يوم كهذا.

أما أنا، وبعد صباحية عذبة مع تيريزا، واتصالات سخيّة من شقيقي وشقيقتيّ الذين تمنّوا لي الحظ الطيب، فقد ارتكبت هفوة تشغيل التلفاز. أعلن شريط أخبار السي إن إن أسفل الشاشة، أن «حملة بوش ستطلق الرصاصة القاتلة في المناظرة الأولى» .

لم تكن غرائزي التنافسية تحتاج إلى صدمة، لكن هذه ستفعل فعلها بالتأكيد. كانت حملة بوش قد طالبت بأن يتصدّر النقاش في شأن الأمن القومي المناظرات الثلاث. كان ذلك هو الموضوع الذي اعتبروا أنه نقطة قوّة الرئيس. ويبدو الآن، مع تراجع الرئيس الحالي في الاستطلاعات، أن شخصاً من فريقه قد أخذ به الغرور وتحدّى لعبة التوقعات المعهودة. «سنرى، أيها

السادة» ، قلتُ بينما كنت أجلس في الفندق للعب بضع جولات من «الأربعمئة» مع مارفن ونيكولسون وسِتّي وارن.

تحرّك موكب السيّارات سريعاً إلى حرم جامعة ميامي في كورال غيبلز، واجتزنا مؤيّدي كيري-إدواردز الذين كانوا يهتفون ويلوّحون باللافتات ويطلقون صيحات الاستهجان لمؤيدي بوش-تشيني الذين كانوا يحيّونهم برفع إصبعهم الوسطى. اصطحبني الجهاز السرّي مع تيريزا وألكسندرا إلى غرفة الانتظار الخاصة بي. كنّا معاً كعائلة في لحظة لا تختبرها إلا القلّة، لحظة بعيدة الاحتمال. انضمت إلينا فانيسا عبر الهاتف: «اركل مؤخرته يا بابا» قالت «نيسي» مشجّعة. لكنني سرعان ما بتّ أقف في الغرفة الخضراء وحيداً بعد أن جلس أفراد العائلة بين الحضور. وفي وحدتي، تمتمت صلاة، ليس للانتصار، بل للأمل في أن أحافظ على إيماني بمن أنا وبما جاء بي إلى هذه اللحظة البعيدة الاحتمال في حياتي.

بينما كنت ألعب بربطة عنقي، ظهر كام كيري وديفيد ثورن في الغرفة. بدا الأمر مناسباً فحسب. كنا قد قطعنا الكثير من الأميال معاً، وكان كام معي في كل حملة منذ العام 1970. قال: «استمتع بوقتك هناك» . أما ديفيد فقد رافقني في كل محطات حياتي: المعهد، فييتنام، الحركة المناهضة للحرب، سنواتي في التيه السياسي قبل أن يغويني المنصب على مستوى الولاية، خسارة أصدقاء وأهل. كان ديفيد من أندر أنواع الأصدقاء على هذا الكوكب: كم من الأشخاص يبقون قريبين كالإخوة مع شقيق زوجة سابقة؟

«كيف تشعر، يا جوني؟» .

«ستعرف قريباً، يا ديفي» . وابتسمت.

«ستنال منه. أنت تعرف هؤلاء الأشخاص. تعرف كيف تفعل ذلك، يا رجل» .

قُرع الباب. لقد حان وقت الذهاب.

قادني أحد الموظفين عبر سلسلة من الأروقة إلى أحد أجنحة مسرح محاط بالستائر. قبالتي، في الجناح المقابل من المسرح، كان الرئيس جورج. دبليو بوش ينظر أمامه مباشرة. كنّا نقوم بالتمرين ذاته بالضبط في الوقت ذاته بالضبط. كنا أشبه بثورين ينتظران أن يسحب رعاة الماشية المزلقة.

اتضح لي، باستثناء بضعة اجتماعات في مجلس الشيوخ، هنا وهناك، ومصافحة عرضية عابرة عند إلقاء خطاب عن «حالة الأمة» ، أن الدقائق

التسعين التالية ستكون، ومن بعيد، أطول مدّة أقضيها على مسافة قريبة من بوش.

يا للظاهرة الغريبة في ديمقراطيتنا، أن شخصين التحقا بالمعهد نفسه بفارق نحو سنتين، يمكن أن ينتهي بهما المطاف مرشحين، أحدهما ضد الآخر على أعلى منصب في البلاد، ويخوضان حملة على مدى نحو سنة كاملة، دون أن يعرف أحدهما الآخر حق المعرفة. وأصرّ أصدقاء على أنني كنت قد أجريت حديثاً محموماً مع بوش حول الحقوق المدنية في قاعة الطعام في سنة تخرّجي، لكنني لا أذكر ذلك، ولا أعتقد أن بوش يذكره أيضاً.

لكن الوقت الآن هو لعيش هذه اللحظة بدلاً من محاولة تذكّر لحظة أخرى بعيدة المنال.

أومضت الأنوار. حان وقت المناظرة.

وانقضت الدقائق التسعون سريعاً وكأنها تسعون ثانية.

اتفقنا، أنا والرئيس، على قضية كبيرة واحدة لأقوى قوة على وجه الأرض: أن الخطر الأكبر الذي نواجهه هو إمكان وقوع أسلحة نووية في أيدي إرهابيين. كانت لحظة نادرة ولكن مهمّة من الأرضية المشتركة حيال مسألة يجب أن توحّد الأشخاص الجديين في كل الطيف الإيديولوجي.

لكن الأمسية حدّدتها الاختلافات والخلافات. وإذا كانت حملة بوش قد اعتقدت أن الأمن القومي سيكون النصل الذي سيقطعونني فيه إرباً في تلك الليلة، فإنهم كانوا مخطئين خطأً جسيماً.

لا أعتقد أن الرئيس كان مستعداً لمناظرة شخص تصدّى له في مسائل كان قد تعوّد أن يسمع فيها التصفيق فقط والموافقة. تحوّلت ابتسامته إلى ابتسامة متصنّعة وسريعاً إلى تجهّم عندما هاجمتُ مباشرة لبّ حجته لإعادة انتخابه وهي: أنه كان صارماً في شنه الحرب على الإرهاب.

«هذا خطأ» ، جادلته: كان الرئيس قد فرّط بالعطف الذي جاءنا بعد 11/9، ودفع حلفائنا بعيداً، وأفسد في الواقع الحرب على الإرهاب. كان أسامة بن لادن قد قتل آلاف الأميركيين كما قتل أصدقاء لي من بوسطن. وكان عليه أن يتعفّن في قبر أو في زنزانة سجن إفرادية. نقلتُ المعركة مباشرة إلى الرئيس.

«من سوء الحظ أنه هرب إلى جبال تورا بورا بعد أن طوّقناه. لكننا لم نستخدم قوات أميركية، هي الأفضل تدريباً في العالم، للوصول إليه وقتله. اعتمد الرئيس على سادة الحرب الأفغان، وقد تعاقد مع مصادر خارجية أيضاً، وهذا خطأ» . عبس بوش. كان الرئيس فاعلاً جدّاً في اعتماد الهجوم. وكان لديه أسلوب سهل مقرون بطريقة تقديم خفيفة الروح تسمح له بتقطيعك من دون أن يبدو دنيئاً. هاجم بوش موقفي من العراق بقوة، هازئاً بتعليقي الجيّد التوثيق الآن عن تصويتي على قانون التمويل الإضافي بقيمة 87 مليار دولار. لكنني كنت مستعدّاً.

قلتُ: «لقد ارتكبتُ خطأ بطريقة كلامي عن الحرب. لكن الرئيس ارتكب خطأ بغزو العراق» . توقّفت لبرهة ثم سألت: «أيهما أسوأ؟» . عرفتُ أنني نلت منه عندما شاهدت التكشيرة الواضحة على وجهه، وهو يتناول قلمه ويدوّن الملاحظات بشكل مسعور.

بدا الرئيس بوش مصعوقاً ومضطرباً، وناشد مدير المناظرة، جيم لهرر، بحنق. «لكن العدو هاجمنا، يا جيم» ، قال، وواصل الدفاع عن قراره المضي إلى الحرب في العراق لوحده تقريباً قبل إنهاء العمل في أفغانستان. وتساءلت إذا كنت قد سمعته بشكل صحيح: هل خلط بين أسامة بن لادن وصدّام حسين؟

انقضضت عليه: «قال الرئيس للتو شيئاً ذا دلالة غير عادية، وهو، بصراحة، مهم جدّاً في هذه المناظرة... لقد قال للتو إن العدو هاجمنا. صدّام حسين لم يهاجمنا. أسامة بن لادن هاجمنا. القاعدة هاجمتنا» .

كان مدهشاً أن كثيراً مما كان غريغ قد تمرّن عليه، قد خرج بالفعل من فم الرئيس بوش، وأن كثيراً من أجوبته كان إما قصيرة جدّاً وإما تجاوزت جرس الإنذار الذي كان فريقه قد أصرّ على وضعه.

سرتُ خارجاً من المسرح واثقاً، لكنني لم أعرف إن كان في إمكان أدائي إنجاح حملتنا. أوضحت الاستطلاعات الفورية في تلك الليلة وفي الصباح التالي أننا قد ربحنا فرصتنا الثانية في هذا السباق. كنت قد حققتُ فوزاً مقنعاً في المناظرة. وفي غضون ذلك، أخذت الثرثرات تركّز في انتفاخة غريبة ظهرت في سترة بزّة الرئيس، فيما تكهّن المعلّقون بأنه كان قد خبّأ فيها جهاز إرسال يوصل إليه النصائح والجمل ليستخدمها في المناظرة. وقال بوب شروم مازحاً: «إذا كانت تلك هي الحال، نأمل أن يحمل راديو في المرة المقبلة!» .

كنا، في اليوم التالي للمناظرة، مغبشي النظر، لكن شعوراً بالراحة كان يخيم بظلاله علينا. قلت لشروم وكلاين إن علينا أن نكون في المناظرتين التاليتين على القدر نفسه من الحدّة التي كنا عليها في الليلة الماضية. وأكّدت لهم أن بوش سيرفع أيضاً من مستوى لعبته. كانت تيريزا قد رحلت لتقوم بالحملة من أجلي في بنسلفانيا. وأخذ كل واحد يمضي في سبيله، عائداً إلى الحملة: كنت ذاهباً إلى محطة أخرى في فلوريدا قبل التوجه إلى الغرب الأوسط، وكان من المهم جدّاً الاستفادة من زخم الليلة السابقة. كان ديفيد ثورن سينضم إليّ في الرحلة الجوية.

حين كنا نخرج من الفندق، لمحت بطرف عيني شخصاً يلوّح بيده بقلق واضح من خارج النطاق الأمني. لكنه ليس مجرّد «شخص ما» : إنها ابنتي ألكس. كان هناك خطب ما. فأنت لا تنسى أبداً تلك النظرة على وجه طفلتك، سواء كانت في الثالثة أو في الثلاثين من العمر. بعد أن تحدّثت مع المكلفين بأمني، تمكّنت ألكس من الركض إليّ وإلى خالها ديفيد. كانت تستعجل الحديث فصعدت معنا إلى الليموزين وباحت بسرّ رهيب: كانت فانيسا قد اتصلت بها للتو لتخبرها أن السرطان قد عاود جوليا بكل قوّة واستشرى في كل أنحاء جسمها. امّحى الشعور المبكر بفرح الانتصار على هذه اللعنة، نتيجة الجولة الأولى من العلاج، وحل محلّه شعور بالارتياع. يا إلهي. إن ألكس تشبه أمها كثيراً. وتشاركنا ثلاثتنا، داخل سيارة الليموزين، المتجهة بسرعة نحو المطار، في ألمنا وصدمتنا.

اتصلتُ بفانيسا التي كانت، كما تبيّن، قد عرفت الخبر بنفسها في اليوم السابق، قبل عشر دقائق من موعد صعودها إلى المسرح لتمثّل الحملة في تجمُّع لطلاب المعهد النشطين. واحتفظت بهذا الخبر الحزين لنفسها حتى ما بعد المناظرة. تأثرت وتألّمت في آن لأن فانيسا وجوليا كانتا تحميانني في تلك اللحظة الرهيبة. حتى أنهما لم تخبرا ألكس خوفاً من أن تفضح لغة جسدها وجود خطب ما. أرادتاني أن أتمكّن من التركيز كلّياً في المناظرة، وذلك خيار غير أناني. فكّرت في طريق المستقبل قياساً على مناظرة الليلة السابقة ورهانات الأسابيع القليلة التالية.

بدا كل ذلك صغيراً وبعيداً في مقابل مشهد جوليا وهي تقاتل من أجل حياتها، وإمكان أن تخسر ابنتاي والدتهما في وقت قريب. حين وصلنا إلى المطار لم أشأ، ترك ألكس تذهب. طلبتُ منها الانضمام إلينا، فأجابت أنها لا تستطيع، وأن عليها العودة إلى المنزل. وقفنا عند المدرج وتعانقنا لوقت طويل جداً وهي تحاول أن تتظاهر بالشجاعة. انسحبتْ مرّتين، وكنت أعاود شدّها، وفي النهاية رافقتها إلى الصالة، حيث وافق أحد أعضاء الفريق في ميامي

على ترتيب نقلها في رحلة تجارية. سرتُ عائداً إلى طائرة الحملة وأنا مخدّر تماماً. كان صباح يوم رائع في فلوريدا، وكانت الشمس مشرقة. لكنني شعرت بقشعريرة برد في كل أنحاء جسدي.

فيما تسلّقت سلّم الطائرة وخطوت إلى الداخل، سلّمتني ستيفاني كاتر نسخة مطبوعة عن موضوع وغلاف مجلّة ستُوزع في اليوم التالي على أكشاك البيع. جاء في الموضوع: «المناظرات لا تهزّ الحملة الرئاسية، لكن هذه المناظرة هزّتها» . وحمل الغلاف صورة لي من المناظرة وأنا أبتسم، كُتب عليها: «عاد إلى وسط الحلبة» . انتابتني كل أنواع المشاعر. كان تشرين الأول/أكتوبر قد حل، وبينما تكافح جوليا من أجل حياتها، كنا في مرحلة السباق الأخيرة من حياتنا السياسية. فالحياة تواجهك دوماً بطرق لا تتوقعها كثيراً؛ ويبقى التحدي في أن تواصل المضي قدماً.

بعد العودة إلى الحملة، هبطتُ بالمظلة في دنفر في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر في معسكر التحضير للمناظرات بصورته المقتضبة. توجهنا إلى مجمّع فندق آخر في إنغلوود، خارج دنفر، كان نصف شاغر بسبب انتهاء الموسم. كانت الوحدة وهواء الجبل قد أوحيا إلينا بفندق أوفرلوك في فيلم الإشراق The Shining (الذي صُوّر في فندق حقيقي هو فندق ستانلي في كولورادو)، ما عدا بالطبع أي تاريخ مرتبط بجرائم القتل الجماعي. اتصلت بجون إدواردز متمنّياً له الحظ الطيب: كان في تلك الليلة سيتناظر مع نائب الرئيس تشيني، وكنّا نأمل في أن يستمر الزخم من المناظرة الأولى بعد أن توقّعت منه أداء قويّاً. كان جون على مدى عقود محامياً في المحاكم، وواحداً من الأكثر مهارة أمام المحلفين. لكنه بدا غير مرتاح عندما رفع السماعة.

سألني: «جون، ما الذي تفعله لأعصابك في أيام كهذه؟» .

ذُهلت. كان إدواردز، من بين كل الأشخاص، هو الذي بدا مستعداً لهذه المواجهة عن قرب. اتصلت بكل من بوب شروم وبو بارنيت، اللذين جيء بهما لأداء دور تشيني في عملية التحضير لمناظرة إدواردز: قالا إنه سيكون بخير، لكنهما اعترفا أنه كان من الصعب جداً حمله على التركيز في المواد التحضيرية. كانت لديهما مخاوف، لكنهما لم يفصحا عنها. وتساءلتُ إن كان إدواردز يتمتّع بأداء فطريّ أكثر من أي شيء، لكنني شرعت في القلق: كنتُ أعرف أن تشيني يعتمد مبدأ ألّا يأمل في الكثير، ثم يأتي بأداء ودي ولكن قوي. وكان قد هزم جو ليبرمان عام 2000.

جلستُ مع الفريق الذي رافقني في السفر لمشاهدة مناظرة إدواردز- تشيني. وأعدت التفكير في كل الوعود التي كان جون قد قطعها في حملته القوية ليكون المرشح لمنصب نائب الرئيس. كان قد أكّد لي أنه سيكون صارماً، مخلصاً، ومجتهداً. لكنه كان قد أضعف فاعلية موضوعات النقاش دفاعاً عني ضد «قدماء زوارق سويفت من أجل الحقيقة» . وكنتُ قد وُعدتُ بأنه سيكون لاعباً في الفريق. لكن ثمة أقاويل متزايدة عن أنه كان يرفض أفكار الخطابات من المقر الرئيسي، ويعود إلى خطابه السياسي في الانتخابات التمهيدية عندما كان يسوّق نفسه كمرشّح. وُعدت بأن يكون صارماً، لكنه كان متردّداً في مجابهة بوش، وها أنا أسمع أنه لم يأخذ التحضير للمناظرة بما يكفي من الجد، فأصابني ذلك بالقلق. لم يكن سيئاً في مواجهة تشيني تلك الليلة، لكنه لم يقم بعمل رائع. وثمة مَن يقول إن تشيني فاز بشق الأنفس؛ واعتبره آخرون تعادلاً. لكن ما عرفته هو أنني لم أشاهد السيّد تشرين الأول/ أكتوبر الذي كنت قد وُعدت به.

كان عليّ، بعد ذلك بأيام، أن التقي الرئيس من جديد على مسرح في سانت لويس في مناظرة أخرى، وفرصة أخرى لتحديد الفوارق بيننا. وكانت الصيغة مناظرة في دار للبلدية، افترض كثيرون أنها كانت في مصلحة الرئيس الودّي الحالي. كادت الصيغة تكون متوقَّعة جدّاً منذ مناظرة سنة 1992، عندما تفقّد والد بوش ساعته كما لو أنه يعدّ الدقائق قبل أن يتوقّف عن تلقي أسئلة الحضور والعودة إلى المنزل. لم أضع ساعة لضمان عدم النظر إلى الأسفل ومنح المعلقين مثل هذه الفرصة السهلة لكتابة مقالة تكاد تكتب نفسها بنفسها.

كان معظم الفعل تلك الليلة بين المرشحين أكثر منه مع الحضور.

هاجمني بوش، وتصدّيت له. «هذا الرئيس لم يعثر على أسلحة دمار شامل في العراق، فحوّل حملته إلى سلاح خداع شامل» .

لكنني وجدت نفسي أيضاً أريد تفاعلاً أكثر صدقاً. ومع انتهاء الليلة، عزف على وتري سؤال من امرأة وسط الجمهور عن تمويل الإجهاض من أموال المكلفين. أخبرتها عن رأيي وعن رحلتي في قضية ضمير، وعن واقع قراري منذ زمن بعيد أنني لا أستطيع «أخذ ما هو فعل إيمان، وتشريعه لشخص لا يشاركني فعل الإيمان ذاك، سواء كان لاأدريّاً أو ملحداً أو يهودياً أو بروتستانتياً» ، لكنني أردت كرئيسٍ المساعدة في الوصول إلى أرضية مشتركة: حول الوقاية، وحول التبنّي، وحول تنظيم الأسرة. كانت تلك تركيبة صادقة من القلب والعقل.

كان الرئيس بوش مستعدّاً للرد على ذلك، علماً بأن جدّه كان أمين صندوق جمعية تنظيم الأسرة. ردّ الضربة ببسمة متكلّفة: «أحاول فكّ رموز ذلك. وجوابي هو، لن ننفق أموال المكلفين على الإجهاض» . تبيّن لي أنه كان ردّاً مدروساً جدّاً على قضية تستأهل صدقاً أكبر، لكنه كان مع ذلك بمثابة تذكير جيّد بالطرق التي يمكن فيها للحملات أن تكون في أحيان كثيرة مجرّد جهود لتعبئة القاعدة الحزبية.

أظهرت الاستطلاعات من جديد أنني تغلّبت على بوش في المناظرة الثانية، وانطلقنا في الأيام الخمسة والعشرين الأخيرة ونحن متقاربان؛ لكن الزخم كان إلى جانبي. وستكون هناك مناظرة أخيرة في 13 تشرين الأول/ أكتوبر في تمبي، أريزونا. شاهدتُ في سانتا فيه، نيو مكسيكو، التي خصصت فيها نحو يومين للتحضير للمناظرة، فريق ريد سوكس يخسر المباراة الأولى في الدوري الوطني لبطولة أميركا أمام فريق يانكيز المكروه. وكانت المباراة الثانية ستجرى في ليلة المناظرة، الأمر الذي جعلني أتأكد من أن المناظرة لن تحدث فارقاً في ولاية نيو همشاير المترجّحة سواء ربحت أم خسرت: فكل جهاز تلفاز سيكون مضبوطاً على التصفيات. قد تكون السياسة رياضة تنافسية في نيو همشاير، لكن الرياضة الحقيقية تأتي في المقام الأول.

كان التركيز في المناظرة الأخيرة على القضايا المحلّية. لكن ما اتضح على الفور أن لا وجود لشيء اسمه السياسة «الخارجية» ؛ فما يحدث «هناك» له أهميته هنا، سواء كان حرباً رئاسية من جانب واحد في العراق تزيد من حجم ديوننا، أو الطريقة التي تؤدي فيها الانتشارات المتعددة في الخارج إلى تكسُّر جيشنا.

ألتفتُ إلى تلك المناظرة، وأجد أن ما يبرز فيها هو أننا تحاربنا على قضايا حقيقية وخيارات جدّية. جادل الرئيس بأن عمّال الغد يجب أن يتمتعوا بحق استثمار ضمانهم الاجتماعي في البورصة. وجادلتُ بأن ذلك سيكون كارثة، لأنه يعني أن انكماشاً اقتصادياً واحداً يدمّر مستقبل ملايين المتقاعدين. كنت قد ترعرعت حول أشخاص تذكّروا الكساد الكبير. وعرفت أن الركود الكبير كان احتمالاً دائماً، وأنني لن أعود إلى أيام عاش فيها الكثيرون جدّاً من المواطنين المتقدمين في السن في الفقر. كان ذلك خلافاً صادقاً.

كذلك كان خلافنا على المسألة التي ستحرّك، في الأيام التالية، معظم الحديث عن المناظرة في الأخبار. سألنا مدير المناظرة، بوب شيفر، إن كنّا نعتقد أن المثليين يختارون ميلهم الجنسي. ودُهشت لجواب الرئيس بوش: «تعرف، يا بوب، أنني لا أعرف» . عرفت أنه لم يصدّق ذلك. ثم تحوّل الرئيس إلى إعلان متشدد عن زواج المثليين. بدا مصمّماً على إقحام رسالة إلى

قاعدته السياسية، «أعتقد أن من المهم جدّاً أن نحمي الزواج كمؤسسة... والطريقة الأضمن لحماية الزواج بين رجل وامرأة هي في تعديل الدستور» .

أردتُ، عندما سنحت لي فرصة تناول السؤال، أن أعيد بعض الحس الإنساني إلى الحديث. لم يكن الزواج عرضة للهجوم، كان ذلك كلاماً فارغاً. لكن أشخاصاً حقيقيين، أبناء شخص معروف وبناته، كانوا عرضة للهجوم نتيجة التحريض الذي أثاره بعض السياسيين في البلاد. تكلّمت بصدق: «جميعنا أبناء الله، يا بوب، وأعتقد أنك لو تحدّثت مع ابنة ديك تشيني، وهي سحاقية، لقالت لك إنها ما هي عليه، إنها ما وُلدت لتكونه، ذلك ليس خياراً» .

على أثر ذلك، جاء الرد من اليمين غاضباً. قالت لين تشيني إنني «لست رجلاً صالحاً» . كان ذلك يفوق الواقع. كنت قد دافعتُ عن شخصيةِ وإنسانيةِ ابنتها التي كانت قد جاهرت بفخر وصراحة بما قد جعلها الله عليه. ومع ذلك كنت بحسب ما وصمتني السيدة تشيني المشكلة، وليس حملة زوجها أو سياسة العام 2004 التي حوّلت، في المقام الأول، مثليّي أميركا إلى ملعب كرة قدم سياسي. كانت تلك بمثابة علامة تعجّب على سياسة التفرقة.

لكن ها هي المناظرات باتت وراءنا. كنا متعادلين، وأظهرت استطلاعات حملتنا أن الزخم في مصلحتنا، والطريقة التي سنعبر فيها شريط خط الوصول هي التي ستقرر نتيجة السباق.

في 29 تشرين الأول/أكتوبر، أطلقت الأخبار جرس كل جهاز نداء وهاتف خلوي على الطائرة، وكنا قد هبطنا للتو في فلوريدا. سرت شائعات أن أول شريط فيديو يظهر فيه أسامة بن لادن منذ 11/9 سيهزّ الحملة التي لم يتبقَّ عليها سوى أربعة أيام.

سمعنا أن الاستخبارات الأميركية منكبّة على الشريط. وكانت قد طلبت مهلة من الوقت لتحليله، لكن الجزيرة رفضت. سيملأ شريطٌ دعائيٌّ، لإرهابي هو أكثر شخص مطلوب في العالم، الأخبار في الساعات الست والثمانين السابقة لانتخابات رئاسية هي الأكثر تقارباً منذ مبارزة غور وبوش في فلوريدا. وأدت الأخبار إلى انطلاق الإعلام اليميني بأقصى طاقته.

قال ضيف جمهوري على قناة فوكس: «يبدو الأمر وكأنه تأييد من أسامة بن لادن لجون كيري» .

أجاب المذيع نيل كافوتو: «إنه لا يفعل إلا ذلك. اعتقدت أنني شاهدته يضع زرّ حملته» .

انتابني شعور بالغرق؛ كنا نرتقي ونصعد في الاستطلاعات، وكنا ندكّ بوش في موضوع سوء إدارة الحرب في العراق والخطط المسرّبة لتخصيص الضمان الاجتماعي، وكانا كلاهما، وللأسف، شديدي الوضوح. لكن ها هو بوش قد عاد إلى قاعدته المفضّلة: 11/9.

يُعرَف مارك ميلمان، المسؤول عن الاستطلاعات عندي، أنه يهودي شديد التديّن وممارس. فلا يقود سيارة أو يعمل أو يستخدم الأدوات الإلكترونية يوم السبت. وقد قام مساعده، صباح يوم السبت، بتسليمه الاستطلاعات التي أُجريت خلال الليل، وكنا قد تراجعنا نقطة في كل ولاية نتقاتل عليها. استبد الرعب بمارك كثيراً إلى درجة أنه سار أميال الطريق الثلاثة من منزله في جورجتاون إلى مقر الحملة ليشاركنا في البيانات شخصياً.

بعد ظهر ذلك اليوم قال الرئيس بوش في أشووبينون، وسكنسن: «سيبدأ الشعب الأميركي بالتصويت بعد أقل من اثنتين وسبعين ساعة، وبات القرار هو: بمن تثقون؟ أنا أقدم القيادة والنتائج في زمن التهديد وزمن التحدي» .

كنت أواجه تحدّياً أكثر صعوبة. كان عليّ الدعوة إلى الوحدة، ولكن أيضاً تذكير الناس بأن مقاربة الرئيس بوش للحرب على الإرهاب كانت السبب في كون بن لادن لا يزال حيّاً.

لكن الزخم كان قد تحوّل. صلّيت ألا يكون قد تحوّل بشكل لا يُعوَّض.

كان ليوم الانتخاب هزّته الخاصة من الأدرينالين؛ دفعة من الطاقة القلقة. كنا قد وصلنا إلى وسكنسن حوالى الثالثة والنصف فجراً، بعد ساعات على مهرجاننا النهائي الكبير في أوهايو، والذي تضمّن حفلاً موسيقياً صاخباً، مفعماً بالأمل في كليفلاند حيث قدّم بروس سبرينغستين مرّة أخرى شِعره وغناءه هديّة للحملة، وكان برفقة بروس زوجته باتي وأولاده. فشكرته على خوضه نيران السياسة من أجلي، وفي ذلك دوماً مخاطرة يقدم عليها صاحب شهرة. أعطاني تذكاراً أحفظه معي: ريشة الغيتار التي كان قد استخدمها في كل محطاتنا معاً، وهي شيء عزيز وتعويذة أخرى لجيب سترتي البحرية، ترافق البرسيم ذا البتلات الأربع، «باقية أوهايو» ، وميدالية القديس كريستوفر التي أحتفظ بها في كل الأوقات. كان شيئاً وجدانياً أن نسمع بروس، بالهارمونيكا وغيتاره وصوته الفريد، يعزف مرّة أخيرة القصيدة الروائية التي تبنتها حملتنا، أغنيته التي باتت تعني الكثير لي: «لا استسلام» .

اعتقدتُ أننا سنفوز.

أمكنني، على امتداد الأسابيع الأخيرة، الشعور بتزايد الزخم. وكان شريط بن لادن، قبل أربعة أيام على الانتخابات، قد أوقف تقدمنا، وأصاب مستطلعي الرأي لدينا بالرعب، وأعطى دفعة لبوش. لكن شعوري الداخلي أخبرني أننا سنجتاز خط النهاية في يوم الانتخاب.

كان أمامنا حدث واحد آخر: وقفة قصيرة عند مقر اقتراع محلّي وفرصة هتاف تشجيع للمتطوعين معنا في ولاية علينا أن نفوز فيها. وستعيد الشبكات المحلية كلّها بث كلماتي الأخيرة في وسكنسن مراراً وتكراراً خلال النهار، وفي ذلك تذكير للجميع بالفارق الذي يمكن لصوت كل منهم أن يحدثه في ما سيكون السباق الأكثر ضراوة حتى النهاية، والذي لم يسبق لوسكنسن أن عرفته على الإطلاق.

وبعدها كانت العودة إلى الطائرة وإلى المنزل في بوسطن.

كان الانفعال في الرحلة الجوية ملموساً، من الطاقم والمضيفين الذين طلبوا التقاط الصور، إلى رفاق الطريق الذين اجتازوا آلاف الأميال المؤلمة سعياً وراء هذه اللحظة. عرفوا جميعهم، مهما يحدث، أن هذه ستكون آخر رحلة جوية من هذا النوع: فكل شيء بعد ذلك سيكون مختلفاً.

جمعت الفريق لآخر مرّة في المقصورة قبل أن نتفرّق لأداء أدوارنا المختلفة في بوسطن وقلت: «أردت أن أتوجه إليكم بكلمة شكر على كل ما مررنا به معاً» . كان البعض، أمثال جون ساسّو ومايك ماكوري، قد تركوا أعمالاً مربحة ليقفوا إلى جانبي مرّة أخرى في هذه المعركة، مكرّسين لفريقنا خبرتهم الواسعة . وكان آخرون، أمثال كاتب خطاباتي الشاب جوش غوتهايمر، قد بدأوا مع مرشح آخر، لكنهم غطسوا في حملتي بحماسة (لما كان جوش المشجّع الوحيد لليانكيز على متن الطائرة، بدا مستعداً بتذمر لاعتمار قبعة الرد سوكس، فيما كان السوكس يحلّقون متجاوزين خسارة ثلاث مباريات وفائزين على اليانكيز، ليسحقوا من ثم الكاردينالز، ويفوزوا بكأس العالم للمرة الأولى في 68 عاماً، وهو ما اعتقدتُ أنه فأل حسن يمكّننا في النهاية من كسر واحدة من الخسائر المتتالية في ماساتشوستس). كانت ستيفاني كاتر دؤوبة ومصممة، وفي غاية الذكاء. وكانت قد نقلت ولاءها من تيدي كينيدي إليّ عندما التحقت بنا في حقبة تشرين الثاني/نوفمبر 2003 السيئة. وكان ديفيد مورهاوس، وهو صانع مراجل بخارية من بيتسبرغ، قد أمسى واحداً من أخلص جنود آل غور، وهو الذي كان قد حال دون تنازل غور في ناشفيل قبل ذلك بأربعة أعوام، وكان على الدرجة نفسها من الصلابة والإخلاص في حملتي. ثم كان هناك الأصدقاء الثلاثة: المرافق ومدير السفر والسكرتير الصحافي المسافر، الذين كانوا معي منذ البداية بالذات،

وأصبحوا عند ذاك الحد قريبين مني كالإخوة، ورفاق سفري الدائمين في الأيام الجيدة والسيئة.

أردت أن يبقى المزاج جيّداً، وليس جيّاش العاطفة كما يمكن أن يحدث أحياناً عندما تلقي اللحظة بثقلها عليك. وأنا ألتفتُ إلى الوراء وأتمنى لو أنني كنت قد قلت المزيد، تذكّرت أكثر وانفتحت أكثر، لكن لا يزال أمامنا المزيد من المعارك، ثم إننا كنا سنفوز.

وزّعت على الفريق تذكارات فضية منقوشة، وسِتَراً صوفية للصحافيين المرافقين.

حطّت طائرتنا 757 المستأجرة في قاعدة هانسكوم الجوية في بدفورد، الواقعة خارج بوسطن تماماً، مستكينة بين كونكورد ولكسينغتون. وللحظة، وفيما كان موكبنا السيار يشق طريقه صوب المدينة في يوم ملبّد بالغيوم التي توشك أن تمطر، انغمست في الحنين.

كنت، قبل ذلك بأربعة وثلاثين عاماً، قد ألقيت خطابي السياسي الأول في مؤتمر المواطنين في ثانوية كونكورد-تشارلايز، متحدّثاً من قلبي وحدسي، معارضاً الحرب التي كنت قد قاتلت فيها؛ وبعد عام من ذلك، وأنا لا أزال في مجموعة «قدماء المحاربين المناهضين للحرب في فييتنام» ، كنت قد تعرّضت للتوقيف على الطريق عند نجيل بلدة لكسينغتون، في عملية عصيان مدني، عملية اعتراض.

وها أنا في موكب سيّار، يشق طريقه مسرعاً على امتداد تلك الطرق نفسها، مُتّجهاً إلى التصويت لنفسي لرئاسة الولايات المتحدة.

خطر لي أنني أحدّد نهاية واحدة من أعظم المسيرات التي يمكن لأي كان أن يسلكها في أي مكان من العالم: السباق إلى رئاسة الولايات المتحدة.

كل أمة في الأرض تراقب ما نقوم به عن كثب. فآمالها ومخاوفها مرتبطة ارتباطاً تاماً بآمالنا ومخاوفنا. يقول لي الكثيرون من الأجانب: «نتمنى لو أننا نستطيع التصويت لرئيسكم، فما يحدث يهمنا بالقدر نفسه» .

شعرت بوطأة ذلك اليوم وإثارته، ونحن نصعد تلة شارع ماونت فرنون إلى مبنى برلمان الولاية القديم، حيث سأتمكّن أخيراً، وبشكل لا يُصدّق، أن أرى اسمي على اللائحة، وأدلي بصوتي.

كان مركز اقتراعي الردهة 5، المركز 3، وهو يقع في الطابق السفلي من المبنى، حيث كنت قد أقسمت اليمين كنائب للحاكم قبل ذلك بعشرين عاماً. إنه مبنى برلمان الولاية القديم ذو القبّة المذهَّبة الذي كان قبل ذلك بأكثر من مئتي عام النجعة التي كانت ترعى فيها أبقار جون هانكوك.

كانت تيريزا تصوّت في بيتسبرغ، على غرار ما كانت تفعل على مدى خمسة وثلاثين عاماً. وستسافر جوّاً إلى المنزل في بوسطن، لكن ألكسندرا وفانيسا كانتا إلى جانبي للتصويت معي. رأيت، بمجرّد النظر إليهما، أمي وأبي على وجهيهما وفي عيونهما وفي تعابيرهما. وللحظة عدت بالذاكرة إلى زيارتي لأمي عام 2002، قبل أسابيع فقط من وفاتها، لأخبرها عن مسيرة الحملة التي كنت على وشك بدئها. كانت كلماتها الأربع التي تذكّرني بالمصدر الوحيد الذي لا يتجدّد في الحياة العامة، لا تزال عالقة في ذهني: «النزاهة. جون، تذكّر النزاهة» .

وضعتُ نظّارة القراءة وانحنيت للتأكد من تعبئة كل دائرة في ورقة اقتراعي.

قاطعتْ ومضات الكاميرات لحظة التأمل الداخلي، ومعها السؤال المحتّم: «لمن أدليت بصوتك؟» ، الذي صاحت به مجموعة من المراسلين المنتظرين سماع الجواب الذكي أو الغبي الذي قد أعطيه.

ومن هناك انطلقت إلى مطعم يونيون أويستر هاوس لمواصلة تقليدي الخرافي ليوم الانتخاب المتمثل بتناول الطعام عند المنضدة القديمة، حيث كان دانيال وبستر ومنذ زمن بعيد، يلتهم الأطباق الممتلئة بالمحار، ويحتسي أكواباً لا تُحصى من الجعة. كان أبي هو أوّل من عرّفني بأويستر هاوس، وكان يجلس عند المنضدة ذاتها وهو لا يزال محامياً شاباً. وكنت كفتى صغير يدهشني مصعد الطلبات الميكانيكي الصغير الذي لا يزال ينقل أطباقاً من القدّ المخبوز أو السمك المقلي من المطبخ، ويصعد طابقين إلى غرفة الطعام. كان أبي قد أخذني مرات عدة إلى هناك، وكان يطلب الطعام نفسه: دزينة من المحار الكرزي، وحساء السمك، وبيرة سوداء. وكان ذلك، في كل مرة، يفي بالغرض.

جلست إلى البار مع صديقي القديم كريس غريلي، الذي كان سائقي ومرافقي عندما ترشحت لمنصب نائب الحاكم، وأصبح رئيس موظّفيّ في ماساتشوستس، وهو دائماً سريع البديهة وهاوٍ متعصب للعبة الهوكي. بات كريس على صداقة جيدة مع أبي، وتمكّن من اختراق تحفُّظه. تحدّثت معه عن البدايات الأولى لمسيرتنا السياسية، وكيف كانت لتجري الأمور لو أن حفنة من

الأصوات في مؤتمر الحزب في الولاية عام 1982 ذهبت في اتجاه مختلف؛ لكنا نجلس إلى هذا البار كمتفرجين على الانتخابات الرئاسية، وليس كمنافسين. استمتعنا بلحظة كئيبة.

في مقصورة ليست بعيدة جدّاً، لم أكن أعرف أن مايك ماكوري ورفاقه لا يستمتعون بجعتهم التي استحقوها عن جدارة، بل كانت أنظارهم مسمّرة على هواتفهم البلاك بيري. كانت الموجة الأولى من استطلاعات النتائج آخذة في التدفق، والأخبار مبهجة: كنت في الطليعة وبشكل مريح في ولايات المعركة الكبرى، بما في ذلك ميشيغان، وسكنسن، وبنسلفانيا، ونيو همشاير، مع دعامة من ثلاث نقاط تقدّمت بها على بوش في أوهايو وفلوريدا اللتين ستقرران لمن تكون الرئاسة. وقيل لي لاحقاً إن جدالاً قد دار حول تمرير منديل ورقي لي بالنتائج، وأنا مسرور أنهم لم يفعلوا. قارن ماكوري، وهو متعصب قديم لفريق سان فرانسيسكو جاينتس، ذلك الأمر بتقليد قديم لكرة القاعدة: لا تتكلّم مع الرامي قبل تسجيل إصابة.

ثم إنه كان لدينا عمل نقوم به.

كان جمهور كبير قد احتشد خارج المطعم، فخرجت لأستمع إلى هتافات التشجيع وصيحات أشخاص تساءلوا مثلي عن التاريخ الذي سينتج من هذا اليوم.

ثم توجّهت إلى مُجمّع فندق وستن القريب من ميدان كوبلي الذي كان قد تحوّل إلى مدينة الخيم السياسية: مسرح ضخم مع شاشات تلفزة عملاقة، أميال من حواجز جرسي لفصل المواطنين عن وسائل الإعلام التي كانت في بث حيّ. مثّل المجمّع مدينة رئاسية خيالية، وموقعاً مذهلاً سيستمر يوماً، ثم يجري تفكيكه في غضون ست وثلاثين ساعة، فيغدو كأنه لم يكن.

قبعت في الساعات الخمس التالية في فندق وستن، حبيس كرسي، أفرغُ ما تبقّى لي من طاقتي وصوتي التعب في نشاط مفيد واحد، وواحد فقط، لمرشح في يوم الانتخاب: قفزت من مقابلة تلفزيونية فضائية إلى أخرى، مجتازاً البلاد بالطول والعرض بمقابلات حيّة كانت تستغرق من ثلاث دقائق إلى أربع، وأنا أتملّق الناخبين الذين لهم تأثير حاسم وأحثّهم على الذهاب إلى مراكز الاقتراع.

كان ذلك عدْواً سريعاً في نهاية سباق الماراثون: جولة عبر الولايات التي تشكّل ساحة المعركة في سبع وثلاثين مقابلة مختلفة، وكل منها كناية

عن رسالة قصيرة، مشذّبة تتناول قضايا أساسية: الوظائف، العناية الصحية، الحرب على الإرهاب، الطريقة التي يجري فيها عصر الطبقة الوسطى.

كنا كالثملين عند انتهاء ذلك. أردت الذهاب إلى المنزل والاستحمام والحلاقة والصعود إلى مكتبي في الطابق العلوي للعمل على خطاب ليلة الانتخاب.

بحلول الساعة السادسة، لم تعد هناك فائدة من إخفاء المعلومات عنّي: كانت الاستطلاعات الانتخابية النهائية قد وصلت، وكانت كلّها على القدر نفسه من التشجيع: تعادل في أيوا، وتقدّم من نيو مكسيكو إلى فلوريدا وأوهايو.

وجّهت تحية عاجلة وغمزة إلى ستيفاني كاتر، وأشرت إلى مارفين بالتوجه إلى الطابق الأسفل. كنت على وشك الدخول إلى المصعد عندما تلفّظ بوب شروم بالكلمات التي أعرف أنه تمنّى على الفور لو أمكنه التراجع عنها: «هل يمكنني أن أكون أوّل من يناديك السيّد الرئيس» .

أجبت على الفور: «لا» ؛ ليس لأنني متطيّر فحسب، بل لأنني أعرف أن الكثير قد يحدث بين استطلاع الناخبين وفرز الأصوات. أبيت على نفسي أي احتفال سابق لأوانه، مع أن الإحصاءات قد رفعت من آمالي.

كان شروم قد سمع من أحد معارفه في الصحافة في البيت الأبيض أن الرئيس جورج هـ. و. بوش كان في البيت الأبيض، وحضّر ابنه لاحتمال خسارته. وترافق ذلك مع حديث للجهاز السرّي بأنه تمّ تسجيل حركة رئاسية إلى مبنى ريغان بعد وقت قليل من إقفال مراكز الاقتراع.

لم أكن، ولن أكون، لأستثمر أياً من ذلك؛ لكنه أضاف المزيد من الإلحاح للعمل على وضع اللمسات الأخيرة على خطاب للأمسية.

وصلت إلى المنزل، واختفيت في الطابق العلوي لإنهاء بعض العمل على بيان فوزي المحتمل. كان ذلك، عند هذا الحد، الخطاب الوحيد الذي كنت أعمل عليه. أُقفلتْ صناديق الاقتراع عند الثامنة مساء في معظم المراكز. وبالطبع، فإنها حتى مع إقفالها في الشاطئ الشرقي وشروعها في إصدار التقارير، كان الوسط الأميركي والغرب مستمرين في التصويت لساعة واثنتين وثلاث. وفي خلال ذلك كانت إحصاءات الأصوات في الولايات قد بدأت تظهر إلى حد بعيد وفق توقعاتنا. فزت في ولايات أساسية كان عليّ الفوز فيها: وسكنسن، ميشيغان، بنسلفانيا، نيو همشاير. وخسرت اثنتين كنت قد أملت الفوز بهما. لكن، بعد وقت قصير على إقفال مراكز الاقتراع، لمّح فريق

غرفة اتصالاتي إلى بروز مشكلات. فإما أن استطلاعات ما بعد الانتخابات كانت تعاني من خلل جنوني، وإما أن أمراً غريباً يحدث.

لست متأكداً متى أدركت أن الأمور لا تسير كالمتوقّع. لكن اتّضح، عند حدٍّ ما، أننا كنا نحتاج إلى مزيد من الأصوات لإقفال أوهايو والفوز بالرئاسة.

سيستمر الأمر حتى اللحظة الأخيرة.

فكّرت في بعض المسائل التي كنا نسمعها والتي خشيت من أن تصبح خلفيّة ليلة طويلة.

تتسم أيام الانتخاب بالفوضى على الدوام. لكننا، في الحملة الرئاسية الأولى التي أعقبت تلك التي جرت فيها إعادة فرز الأوراق في فلوريدا، كنا حسّاسين حيال حماية الأصوات.

كان مقر حملتنا قد تلقّى اتصالات مذعورة من مراقبي الانتخابات التابعين لنا في أوهايو بأن بعض الناس قالوا إنهم يدفعون الآلات الإلكترونية لمصلحة كيري، لكن الأصوات كانت تأتي لبوش، فشرع محامونا على الفور في العمل. كان ثمة آلات قد أُخرجت من المراكز التي جرى الإبلاغ عنها.

والأكثر من ذلك، أن فريقنا، الموجود على الأرض في بعض الولايات، كان يبلغ عن طوابير هائلة خارج مراكز الديمقراطيين، جرّاء تخصيص عدد قليل جدّاً من الآلات لمناطق الاقتراع هذه، بينما لم يكن ثمة طوابير أمام أبواب مراكز الجمهوريين. كان الجمهوريون يعبرون سريعاً، بينما كان الديمقراطيون ينتظرون لساعات.

وزاد الأمر سوءاً أن أوهايو عانت من عاصفة رعدية مصحوبة بأمطار غزيرة. وسمعنا في معاقل كيري الأمر الآتي: إذا لم تتمكّن الصفوف الطويلة من إعادة الناس إلى منازلهم، فإن المطر قد يتكفّل بذلك.

وانزعج بعض أعضاء الفريق من واقع أن الكثير من آلات التصويت جاءت من شركة خاصة، «دايبولد» ، يملكها شقيقان من نبراسكا كانا يترأسان حملة بوش للرئاسة.

تساءلتُ كم من البلدان تُجري انتخابات تمتلك فيها شركات خاصة الآلات وتراقبها، ولا يمكن التدقيق أو التحقق من برنامج فرز النتائج لأنه «معلومات مشمولة بحق الملكية» .

عُدَّ ذلك مشكلة كبيرة انتابت التصويت في الولايات المتحدة الأميركية؛ مشكلة نادراً ما تحظى بالانتباه إلا عندما تكون الانتخابات متقاربة للغاية. كنا قد استبقنا المشكلات، فبنينا جيشاً من المحامين؛ أربعة آلاف على الأرض يوم الانتخاب في شيكاغو، في عملية لم يسبق لها مثيل.

لم يكن سرّاً أن الجمهوريين قد عملوا جاهدين في كثير من الولايات على منع التصويت. كانوا يصوّتون دائماً على تشريع في الولايات يحملون فيه الناس، الذين لا يُتوقّع أن يصوّتوا مع الجمهوريين، على عدم التصويت نهائيّاً. لم يعد في الإمكان التعرّف إلى حزب أبراهام لينكولن.

أملتُ أن يكون علينا التفكير في هذه المتغيّرات ليلة الانتخاب. وقد أملت بنتيجة واضحة.

لكننا كنا نسمع في أنحاء كثيرة من أوهايو عن صعوبات تواجه الناس في التصويت. في أميركا، يدير أمين شؤون كل ولاية العملية الانتخابية فيها. وحتى انتخاب رئيس الولايات المتحدة يديره النظام الانتخابي في الولاية. وهكذا كان أن شرعنا، في وقت مبكر من السنة، في وضع أسس انتخابات نزيهة. وقد قُرعت أجراس الإنذار على مدى أشهر، لأننا كنا نتعامل مع وزير خارجية جمهوري متحزّب للغاية.

كنت، بمرور الساعات مساءً، أتلقى المزيد من الاتصالات من ماري بيث كاهيل والفريق العامل في غرفة الاتصالات. وفي الثالثة فجراً تشاورت مع الفريق في أوهايو. وكانت المشكلات في أوهايو، بل وفي أمكنة أخرى، قد أوضحت أننا لن ندرك الوضع حقّاً، وبخاصة الاقتراعات المؤقتة في أوهايو، إلى أن ينقشع بعض الغبار. عنى ذلك أن أميركا ستأوي مرة أخرى إلى الفراش، دون أن تعرف بشكل مؤكد، من هو الرئيس. كنت أتصارع مع تقارير عن تلاعب في عدة ولايات، لكن بصفة خاصة في أوهايو. كانت الولاية الوحيدة التي لا تزال على المحك، الولاية التي ستقرّر الرئاسة. أوفدنا جون إدواردز إلى جمهور كوبلاي بلازا لتسليم رسالة بإيقاف أي تحرُّك. وقررتُ الحصول على بضع ساعات من النوم قبل التعامل مع مسألة الخيارات.

بدا الأمر، عندما أفقت باكراً، وكأنه حلم سيىء. كأن مساء البارحة لم يكن قد حلّ حقّاً. كان عليّ أن أهزّ رأسي وأسجل بوعي أن الأصوات قد فُرزت. باتت الانتخابات على حدّ الموسى، وكنا لا نزال ننتظر خبراً من أوهايو. تحوّلت كل الطاقة وكل العمل إلى ثقل يكاد يكون بطيء الحركة وضبابياً. وها أنا الآن أتصارع مع واقع الخسارة. وفي آخر خبر من أوهايو أن الاقتراعات

المؤقتة لم تكن بأعداد وتمثيل كافيين بحيث تردم فارق العدد بيني وبين بوش. وكانت المشكلة هي في أننا لم نعرف إن كان بالإمكان الوثوق بالفرز نفسه.

كان لي تقدير جديد لما مرّ به آل غور عام 2000. ونظرنا طوال الصباح في الخيارات.

حشدتُ مجموعة صغيرة في مطبخي. كان تيد وفيكي كينيدي حاضرين عندما دعوت إلى مكالمة جماعية مع المحامين التابعين لنا والموجودين في الساحة في أوهايو، فجلسنا إلى طاولة المطبخ واستمعنا إلى تحليلهم. كنت أستشيط غضباً من نظام الانتخابات، والتفاوت الفائق بين سهولة اقتراع الجمهوريين والعراقيل المقصودة التي وضعها أمين شؤون الولاية الحزبي أمام الديمقراطيين. وتساءلت إن كان الطعن الدستوري سيكون مشروعاً بموجب الأصول والحماية المتساوية في إطار القانون.

ومن شأن الطعن أن يقيّد البلاد في نزاع قضائي لمدة ثلاثة أشهر.

تشاورت مع الفريق الموجود في الساحة في أوهايو، ومن بينهم شقيقي. وناقشت الوضع مع جون إدواردز الذي قال إن علينا أن نقدِّم طعناً. لكن، بصرف النظر عن الانفعال والغضب حيال الطريقة التي عومل بها ناخبونا، كان عليّ أن آخذ في الاعتبار كيفية تأثير قراري في البلاد. كنت، والعالم ينظر إلينا، قلقاً جدّاً على بلد في حالة حرب، يخرج من انتخابات ثانية متتالية نعيش فيها في مطهر، متسائلين على مدى الأسابيع الستة أو أكثر من الذي سيكون رئيساً؟

كانت هواجس الآخرين في الغرفة وعلى الهاتف هي نفسها. قد نربح في محكمة محليّة، قد نربح في استئناف سيأتي لا محالة، لكن ذلك سيتقرّر بالطريقة نفسها التي كانت قد تقررت فيها دعوى بوش وغور. سيكون قراراً من خمسة مقابل أربعة في المحكمة العليا.

سنخسر وسنقيّد البلاد في مشهد العالم الذي ينتظر أن تخلّص الولايات المتحدة نفسها من انتخابات فاسدة أخرى. ولم يعتقد أي شخص من حول الطاولة أو عبر الهاتف أن بإمكاننا الفوز.

كان القرار لي. ولم أشأ أن أجعل البلاد تمر بذلك من جديد. سيكون ذلك أنانياً وغير مسؤول. عرفت أن ثمّة من سيغضب، فمن حق الناس أن يعرفوا أن أصواتهم ستُحصى كما يجب، وكانوا محقين في أن يكونوا ساخطين. لكنني قررت بأنني سأواصل تلك المعركة بطريقة لا تضع أمتنا في مرتبة جمهورية الموز. لم نكن لنردم فارق الاقتراعات المؤقتة، ولن نتمكن،

مع هذه المحكمة، من عكس نتيجة الانتخابات على أسس دستورية بغض النظر عن مقدار الانتهاك القانوني للحقوق.

وهكذا، وفيما نحن الستة نجلس في المطبخ في وقت مبكر من بعد ظهر الأربعاء، قررت أن الأمر الصائب هو في الإقرار بالهزيمة، بغض النظر عمّا أثاره ذلك من استياء.

أعطيت التعليمات للحملة لإجراء اتصال بالرئيس بوش الذي قيل لي إنه ينتظر مع عائلته في المكتب البيضاوي. ردّ بعد دقائق قليلة على الاتصال. قلت: «تهانينا سيدي الرئيس. كان سباقاً متقارباً؛ لكن علينا الآن أن نضع ذلك وراءنا» . فقال: «أنت منافس قوي. كان سباقاً رائعاً وأقدّر لك تعليقاتك» . عندها قلت شيئاً بمعنى «سيدي الرئيس، كانت تلك حقبة مثيرة جدّاً للانقسام. تحتاج البلاد إلى التعافي وآمل أن نتمكّن، أنا وأنت، من إيجاد طريقة للعمل معاً بالفعل لقلب مسار الأمور، وأن نظهر للعالم الوجه الأفضل لبلادنا» . لم تكن مكالمة طويلة.

كنت مستسلماً ومستاء. لقد بذلت كل ما في وسعي لكن هناك أموراً كانت قد حدثت وأموراً لم تحدث، وأمكن لأي واحد منها أن يغيّر نتيجة انتخابات متقاربة كهذه الانتخابات.

سيكون هناك المتسع من الوقت للتشريح.

كنت بحاجة، في ذلك الوقت بالذات، إلى الخروج والتحدّث مع مؤيدينا ومع الأمة. كان عليّ أن أؤدي دوري في إعادة لم شمل البلاد المنقسمة. جمعنا أمتعتنا وفطنتنا فيما اصطف الموكب السيّار استعداداً للرحلة إلى فانيُوِل هول.

وفيما كنّا نهبط الدرج من المطبخ، انزلقت تيريزا على إحدى الدرجات وتدحرجت بشكل قاسٍ ولوت كاحلها. انتظرنا بضع دقائق ليخف الألم، وجئنا ببعض الثلج ثم ساعدناها على السير وهي تعرج إلى السيارة. كانت معنا منذ البداية بالذات وفي كل الأوقات، ولن تكون غائبة عند النهاية. ركب تيدي وفيكي معنا في السيارة. والتقينا في فانويل هول مع جون وإليزابيث إدواردز. عناق ومصافحات ومواساة من حولنا، ثم صعود الدرج الخلفي للبهو، حيث كنت قد تحدّثت في تجمّع للإعلان عن الترشيح، ولأتحدث الآن في خاتمة مختلفة تماماً.

كُلّف جون إدواردز مهمّة تقديمي. وألقى ما فسّره معظمنا بأنه الخطاب الأول لحملته سنة 2008 من أجل الرئاسة. كانت تلك خاتمة مرّة لأدائه المضطرب كمرشح لنيابة الرئيس.

صدمني الأمر عندما خطوت إلى المسرح وسط ترحيب حار من أصدقاء كانوا معي في السراء والضراء، أشخاص ساروا كل خطوة في هذه الرحلة الصعبة والعظيمة. كانت الوجوه حزينة والعيون حمراء أو منتفخة، وغابت الابتسامات. كان المزاج الثقيل الكالح قد استوطن الجميع لأننا كنا، في الساعات الأربع والعشرين الماضية، قد جلنا صعوداً ونزولاً على كامل نطاق سلّم الانفعالات. كانت الرهانات كبيرة جدّاً. وكان وقع الخسارة يُلقي بثقله عليهم.

وبأفضل ما في روحية حملتي، الحملة التي قُصد بها انتشال الأميركيين وتوحيدهم، الحملة التي هدفت إلى إظهار احترام جديد وخلق فرصة جديدة لِمَن أُغفلوا وأُهملوا، الحملة التي حاولت التحدث إلى العالم عن اللياقة والزعامة، بالاستناد إلى القيم العالمية، حاولتُ التحدّث إلى جميع الأميركيين.

تحدّثتُ عن «خطر الانقسام في بلادنا والحاجة اليائسة إلى الوحدة لإيجاد أرضية مشتركة، والتلاقي» ، وقلت: «آمل أن نتمكن اليوم من البدء بعملية المصالحة» .

فكّرت في كل العمل الذي لا يزال يتوجّب القيام به، وفي التسعة وخمسين مليون أميركي الذين صوّتوا لي، وقلت: «لا تفقدوا الإيمان؛ فما قمتم به قد أحدث فارقاً. وبناء عليه، سنمضي قدماً لإحداث فارق في يوم آخر. أعدكم: أن ذلك الوقت سيحين؛ سيأتي الوقت؛ وستأتي الانتخابات عندما سيغيّر عملكم وتصويتكم العالم. ويستحق ذلك القتال من أجله» .

انتهيت من حيث بدأت حملتي، حرفياً ومجازياً. ذكّرت جميع الموجودين في بوسطن، وجميع الذين يشاهدون من منازلهم، بأنه «لا يوجد في الانتخابات الأميركية خاسرون. لأننا، سواء نجح مرشحونا أو لم ينجحوا، فسوف نستيقظ جميعاً في اليوم التالي بوصفنا أميركيين. وذلك هو الامتياز والحظ الجيّد اللذين يمكن أن نحصل عليهما على الأرض. ومع هذه الهدية يأتي أيضاً الواجب. مطلوب منا الآن العمل معاً لمصلحة بلادنا. وعلينا، في الأيام التالية، إيجاد قضية مشتركة. علينا الانضمام إلى جهد مشترك من دون ندم أو تجريم، من دون غضب أو حقد.... وهكذا فإنني ههنا، وبقلب ملؤه الامتنان، أترك هذه الحملة بصلاة تحمل مغزى أكبر بالنسبة إليّ الآن، وقد تسنّى لي أن أعرف بلادنا الشاسعة بشكل أفضل بكثير بفضلكم جميعاً. والقيام بذلك كان بمثابة امتياز كبير. وتلك الصلاة بسيطة جدّاً: بارك الله أميركا» .

ولما انتهى الخطاب، هبطنا الدرج في خلفية البهو.

كانت مأساة أخرى قد أخذت تتكشف على مدى الأسبوع الأخير من الحملة. كانت إليزابيث إدواردز قد اكتشفت ورماً في صدرها. وضعتها تيريزا على اتصال بأفضل المشخّصين الذين عرفناهم في بوسطن. وكانت إليزابيث قد زارتهم، لكنها الآن، وفور تسليمي بالهزيمة، كانت تحتاج إلى الدخول لإجراء الفحوصات والتقييمات. كان ذلك بمثابة انتقال صعب وشخصي من ذروة الحملة الرئاسية إلى أقصى الهشاشة الجذرية للإنسان في مواجهة المرض. تمنينا لهما الخير وودعناهما في فانويل هول.

أنزلنا الموكب السيّار عند المنزل. كان الأمر قد انتهى بتلك البساطة.

الفصل الثالث عشر: نفض الغبار عنّي

خطوتُ إلى مدخل بيتي في بوسطن صباح يوم بارد كئيب من أواخر أيام تشرين الثاني/نوفمبر، لالتقاط صحيفة الصباح. لاح أمامي مغلّف دُسّ بين يقطينتين برتقاليتين متوهجتين موضوعتين احتفالاً بعيد هالوين. التقطته، فإذا هو موجّه إليّ وإلى تيريزا، ولم يكن يحمل عنوان المرسل. كان أحدهم قد مرّ بالمكان خلال الليل، ومن دون أن يقرع الباب، ومن دون أن يزعجنا، ترك رسالةً مخطوطة باليد مفادها أنه يفكّر بي وبتيريزا، وبهدوء تام ترك رسالة بخط اليد فحواها أن آماله كانت معقودة عليّ وعلى تيريزا، وأنه لا يزال يصلّي من أجل حصول ابنه على الرعاية الصحية.

تكرّر المشهد غير مرّة في ذلك الخريف. إذ وردتني رسالة من شابة قالت إنها لا تزال تكافح من أجل بيئة نظيفة، ورسالة أخرى من محارب قديم قال إنه لا يزال يصلّي من أجل سياسة خارجية سليمة.

لم يسبق لي منذ العام 1972 أن خسرت في أي انتخابات. وهذه لم تكن انتخابات عادية. فأحياناً، وسط كل التهكم على السياسة، ومعظم هذا التهكّم مبرّر اليوم، ينسى الناس والمعلقون أن معظم الذين يترشحون من بيننا لمنصب رسمي، يفعلون ذلك لإيمانهم بما يحاربون من أجله. وليس ذلك تمثيلاً. هناك استثناءات؛ فلطالما لطّخ الغشاشون والدجّالون المشهد السياسي. لكن معظمنا، نحن الذين نضع سمعتنا على المحك ونعرّض عائلاتنا لبشاعة الحملات المعاصرة، نفعل ذلك لأننا نؤمن بقدرتنا على إحداث فارق؛ ونؤمن بأن القضايا المطروحة ضخمة.

وعندما تؤمن بعمق وتخسر، فإن خسارتك تغدو مؤلمة، وكأنك سقطت إلى قاع الجحيم.

قال مو أودال، وهو أوّل مرشح للرئاسة كنت قد عملت له، إنه «نام كالطفل» بعد انتهاء حملته، وإنه كان يفيق كل ثلاث ساعات ويبكي. أنا لم أبكِ.

لكن شعوري كان يتقلّب بشكلٍ متسارع ما بين الكبت والخيبة والغضب والحزن، وغالباً ما كانت تنتابني هذه المشاعر مجتمعة.

كانت ذكريات الحملة تعود إليّ بسرعة فائقة في أوقات لم أكن أتوّقعها فيها: فتقع عيني، في وعاء جلدي بخزانتي، على تميمة «بندق أوهايو» الجالبة للحظ، أو البرسيمة ذات الأربع بتلات، أو أي من الأغراض التعويذية التي كنت قد حملتها معي وكدّستها طوال مسار حملتي وحتى نهايتها المريرة. وحتى المحتويات، التي أفرغتها من جيوبي، أعادت ربطي بالمؤيدين الرائعين الذي استثمروا آمالهم في هذه الحملة. وكنت أنظر إلى معصمي وأرى سوار ليفسترونغ Livestrong الأصفر الذي مدّه إليّ ذات مرة رجل يحارب السرطان. وتساءلت إن كان قد انتقل بمعركته إلى الجانب الآخر من الحياة. وجاءني بروس سبرينغستين بالرِيَش التي استخدمها في العزف على الغيتار لدى ظهوري في الحملات، وقد أبقيتها إلى جواري كتذكير بإخلاصه حتى في أسوأ الأوقات، وبالأغنية التي كانت قد صارت نشيد حملتنا: «لا استسلام» [20].

واستقيت بنوع خاص الخيبة والتصميم من الشبان الذين جاؤوا إليّ وقالوا إنهم يقترعون للمرة الأولى في الانتخابات الرئاسية وسيصوّتون لي. اعتراني شعور كما لو أنني قد خذلتهم. كانوا يصيحون، «تابع القتال!» وكل ما أمكنني قوله كان: «نحتاج جميعاً إلى مواصلة القتال» .

كانت النهاية الفجائية للحملة قد تعارضت مع ما كنت أتوقّع في داخلي. كان عليّ أن أتصوّر كيفية مواصلة العمل وفق قناعاتي، محاولاً أن أتبيّن أسباب الخسارة من أجل معالجتها.

كان الأصدقاء يتظاهرون بالشجاعة. فبعد التعبير عن حزنهم أو صدمتهم من نتيجة كهذه، عندما كانوا يحارون في ما يقولون، كانوا في الغالب يسارعون إلى القول ومن دون تفكير: «لكنك تبدو في حالة جيّدة!» ، فقد ظهروا، وقد بالغوا في هذه المشاعر كما لو أنهم يقفون على بعد خطوات من النعش المسجّى فيه ميت إيرلندي.

لم أرد لأحد أن يشعر بالأسف عليّ، أو يمتنع عن التعبير عن حقيقة ما يشعر به. عملتُ جاهداً كي لا أشعر بالأسف على نفسي. وكنت أجمع الأصدقاء على عشاء أو على مباراة لفريق باتريوتز نيو إنغلند، ثم أدفعهم آخر الأمر إلى الحديث صراحة عن الحملة الانتخابية. ما الأخطاء التي ارتكبتها؟ كيف أمكن أن

تنجح الحملة لو أنها خيضت في شكل مختلف؟ وما الذي علينا أن نقوم به في المستقبل، من هنا؟

اعتمدت على مجموعة قريبة من الأصدقاء ممن لا يخشون التحدّث بصراحة: كان تومي وتوري فاليلي صريحين بنوع خاص، وكان ديفيد ثورن صادقاً من دون تردد، لكنه كان دفاعيّاً. وتابع ديفيد ماكين عمله كرئيس للموظفين، وكان قد حضّر فريقاً لانتقال محتمل إلى إدارة كيري.

وفي المقابل، كان يصعب تجاهل التعليقات الإعلامية لأولئك الذين طرحوا أنفسهم كأصحاب رأي وازن، بل وكعالمين بالغيب، وهم يتطلعون إلى مشهد سياسي مستقبلي لا يكون لي وجود فيه. كانت عيّنات التصويت الأولى قد عزت النتيجة إلى قضايا ثقافية مثل الأسلحة وزواج المثليين، التي افتُرض أنني كنت فيها في الجانب الخاطئ. وليس من قبيل المصادفة أن يُنشر موضوع صحافي يكشف عن أسف جون إدواردز لأن الحملة لم تسمح له بالحديث أكثر عن قيمه الشخصية. هذا مضحك، لأنني لم أسمع جون مطلقاً يقول ذلك في الحملة. وأوحى تحليل آخر بأنني لم أبالِ بنصيحة الرئيس كلينتون، وهي سحب موضوع الزواج المثلي من التداول من خلال تأييد المبادرات الانتخابية[21] التي كانت تتصف بروح التمييزية. واقترح من كانوا يتسابقون بالفعل للترشح سنة 2008، أن عليّ الرحيل. تلك هي السياسة: عليك، بعد خسارة قاسية، أن تمضي قدماً، وعليك أن تثق ببوصلتك الخاصة، وتفرّق بين النصيحة البنّاءة والموقف النفعي.

ذهبت وتيريزا إلى لندن في فترة عيد الشكر، لمجرّد أن نكون معاً ونهرب من الفضائيات، ونتمكّن، للمرّة الأولى منذ نحو سنة، من السير معاً من جديد في الشارع من دون أن ترافقنا حشود صحافية أو أجهزة سريّة. كانت هذه عطلتنا الأولى التي لم تفرض فيها علينا الحملة وجهتها. وتذكّرنا بحنين عشية رأس السنة سنة 2003، التي أمضيناها معاً في مدينة سيو، بأيوا، والتي تخلّلها عشاء مع عائلتنا بالتبني المؤلفة من مراسلين صحافيين وموظفين في الحملة؛ كذلك تخلّلتها زجاجة ضخمة من النبيذ الأحمر كانت تيريزا قد جلبتها مفاجأة لهم. وأعقب العشاء رقص في مركز اجتماعي مع مئات المتطوعين والضيوف. وأعترفُ لتيريزا بالفضل الكبير: فهي على حسّ فطري حذرٍ من السياسة ومن طبيعة الحملات الرئاسية القاسية، لكنها كانت قد التزمت مجرى الحملة، فكانت حاضرة بكل جوارحها على طول الخط. وها نحن نعود بالذكريات إلى تلك الفترات التي عرفنا فيها أفضل الأصدقاء وقد غمرتنا جميعاً روح الدعابة العالية.

تناولنا، في إحدى الليالي، العشاء في لندن، ثم خرجنا إلى ممر المشاة المرصوف الحجارة، وكانت ندف الثلج تتساقط على خلفية مظلمة. ولاحظْنا حشداً من الناس الذين انفجروا بالتصفيق. لم نكن قد تخلّصنا من بقايا حملة كان العالم قد تابعها عن كثب، لكن ذلك رفع من معنوياتنا، حتى ونحن نفكر في ما كانت لتؤول إليه الأمور لو كانت النتيجة مختلفة.

استدعى التصويت في الكونغرس عودتي إلى واشنطن قبل فترة وجيزة من الأعياد. كانت محطّة «هادئة» ، مجرّد جلسة انتقالية ليست بذات أهمية. كان واضحاً أن الجمهوريين ستكون لهم أغلبية كبيرة في الكونغرس المقبل، وكان التصويت بالتالي متوقّعاً وروتينياً.

وبالرغم من ذلك، لم أفكّر قط في التغيب عن التصويت. فذلك، ببساطة، ليس من طبيعتي. كنت مصمّماً على عدم التواري، أو الانسحاب من مجلس الشيوخ لمجرّد الجلوس على الشاطئ في مكان ما. كانت روح القتال لا تزال تحرّكني، وهي التي كانت قد حددت هويّتي منذ أن غادرت البحرية. كانت ماساتشوستس قد انتدبتني لعمل أقوم به في مجلس الشيوخ، حتى ولو أخفقت في الحصول على الترقية التي كانت ستنقلني إلى الطرف الآخر من جادة بنسلفانيا.

عدت سريعاً، صوّت؛ لكنني سرعان ما اكتشفت وجود نوع من الميلودراما الطقسية المتمثلة بعبارتَيْ: الويل لك إن فعلت والويل لك إن لم تفعلْ، في السنة التي تعقب خسارتك الانتخابات الرئاسية. لو شاركتُ في مؤتمر ديمقراطي عام، كُتِبَ عنّي بشكل مغْفل أنني أشكّل «إلهاء» لأولئك الذين يتطلعون صوب المستقبل. وإذا لم أحضر، كان ذلك سيبدو بمثابة برهان على أنني لا أزال أعتقد نفسي المرشح للرئاسة، وليس مجرّد واحد من مئة من المرشحين.

كنت لا أزال، وقت الغداء، أنزل من مكتبي في مبنى راسل، وأتوجّه إلى كافتيريا ديركسن، كما تعوّدت طوال 19 عاماً كعضو في مجلس الشيوخ. وكتب المعلّقون أن مشاهدتي وأنا أملأ طبقي سلَطَة، أو ألتزم الوقوف بالصف مثل الجميع، كانت أمراً غريباً لهم. فما الذي كانوا يفضّلون أن أفعل؟ أن أقفل على نفسي في مكتبي مرتدياً سترة سموكينغ ووشاحاً من حرير، وأنا أنتظر أن يضع خادمٌ غدائي على سماط أبيض مع مناديل قماشية؟ ومازحني مارفن نيكولسون، الذي تكرّم وعاد إلى عداد موظفي مجلس الشيوخ، وقال: «كان يجب أن نأتي بالصحافة إلى هنا عندما كنت تعمل، إذا كان ذلك كل ما يتطلّبه الأمر لإظهار أنك رجل من الشعب» . كان مارفن يمتلك موهبة تلطيف الجو.

لم يكن هناك ما يمكنني فعله حيال التغطية الإخبارية الثرثارة سوى المضي قدماً. كان آل غور قد استُهدف بعد انتخابات العام 2000 لرحيله، وكنتُ قد استهدفتُ لبقائي، لكن كان لكلينا أمر مشترك. فقد كنّا لا نزال ننبض بالسياسة، وكان لدي عمل أقوم به لولايتي.

توجهتُ، يوم الخميس في 2 كانون الأول/ديسمبر، إلى مقبرة أرلينغتون الوطنية للمشاركة في مراسم دفن شاب من المارينز من هافرهيل، ماساتشوستس، هو الجندي الأول ديميتريوس غفرائيل.

صادف ذلك التاريخ بعد شهر واحد بالتمام من الانتخابات الرئاسية، وبعد عامين من اليوم الذي أعلنت فيه ترشحي للرئاسة في برنامج واجه الصحافة. لكن لم يكن بإمكاني، وسط شواهد القبور، إلا أن أشعر بأنني على مسافة زمنية بعيدةٍ للغاية من هاتين المحطتين المهمتين.

كان ذلك اليوم قارساً وبارداً، والسماء ذات لون رمادي داكن ممزوج بالأزرق، مع هبوب رياح قوية. غفرائيل هو عنصرٌ في المارينز، فالمرء يبقى إلى الأبد، حتى بعد مماته، عنصراً في المارينز. كان قد تخرّج في جامعة براون في السنة نفسها التي تخرّجتْ فيها ألكس. كان غفرائيل مصارعاً في المدرسة الثانوية، وغادر بعد 11/9 وول ستريت وتطوّع في المارينز. وقبل عيد ميلاده الثلاثين، وضعت قنبلة رماها أحد المتمردين في محافظة الأنبار حدّاً لحياته. كان والداه صابرَيْن، يتمسّك أحدهما بالآخر بكل ما أوتيا من قوة، صامدَيْن كعائلة يونانية متماسكة تبذل كل ما في وسعها كي لا يلتهمها الحزن على الشاب الذي أحبته للغاية.

مرّر لي أحدهم بطاقة دعاء. وعليها كلمات لم تؤخذ من الكتاب المقدس، بل من قصيدة كتبها جندي المارينز القتيل نفسه:

الأمل يعيش بين القلائل

لكنه قوي كما أعرفه

فأنا ما زلت حالماً

أمضي على طول الطريق

إن التصالح مع وفاة الأشخاص الطيبين وهم لا يزالون شباناً، فهم سبب حدوث ذلك يبقى أمراً لا يستطيع الإجابة عنه إلا الله، وهو الشعور نفسه الذي

كان قد تملّكني منذ هزّت فييتنام إيماني. وها هو الشعور المألوف بالخسارة السابقة لأوانها يحيط بي من جديد بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاماً. لم يسبق لي أن التقيت الشاب غفرائيل، لكنني شعرت بأنني أعرفه، لأنني عرفت الكثيرين من الشبان المثاليين الطيبين الذين رحلوا جميعهم باكراً جدّاً.

قُرعت الطبول حزناً وخرقت تحيّة من ثلاث دفعات من الرصاص هواء نهاية الخريف الجاف. وكنت قد عرفت مثل هذه الشعائر تمام المعرفة.

توجّهت، بعد انتهاء الدفن، إلى قبر بِرْش. كانت قد مرّت ستة وثلاثون عاماً على غيابه عنّا، ولمّا يتجاوز الخامسة والعشرين. لم يستطع قط الزواج بخطيبته، أو أن يرزق بأولاد، ناهيك بالأحفاد، أو أن يشاهد شعره وهو يشيب. كنت قد عشتُ كل تلك العطايا التي قد حُرم منها الآن عنصر المارينز الشاب الذي دفنته أميركا للتو. كنت حيّاً وبصحة جيّدة مع صوت يمكنني استخدامه كيفما شئت. لم يكن لدي ما أتحسّر عليه. فهناك معركة عليّ العودة إليها. ومن شأن التحسّر الآن أن يكون إهانة لذكرى جميع أولئك الذين أحاطت قبورهم بي.

نعم، خسرت انتخابات كان عليّ أن أربحها. ويخسر آخرون ما هو أكثر بكثير، لكنهم يستجمعون وقاراً لا يُصدَّق. لم أكن في حاجة إلى إجراء استطلاع، أو إلى استخدام مجموعة من المستشارين لإعادة تقييم حياتي أو خطواتي التالية. كنتُ مَن كنت. واحتجت إلى استخدام كل أيامي الإضافية بطريقة تعطيها قيمتها الفعلية.

ولدهشتي، فإن مجلس شيوخ بدا أحياناً غريباً عليّ إذ كان ودوداً بطرق كنت أكثر تحفّظاً حيالها من قبل، لاسيما أنه كان تنافسياً يوم أردته جماعياً، لكنّه اليوم ذكّرني بأن هناك أصدقاء استثنائيين يمكنك الاعتماد عليهم عندما تحتاج إليهم، حتى عندما لا تتوقّع ذلك.

طلب السيناتور توم هاركين أن نلتقي منفردين. وكان بعض الموظفين متشكّكين. فقد توقّعوا أن يكون توم قد خطط ليطلب مني التبرّع بما تبقى من مال في حساب حملتي لتمويل الحزب الديمقراطي في أيوا. كانوا لا يزالون يشعرون بالمرارة من أن توم كان قد أيّد هوارد دين قبل أسبوع من المؤتمر العام في أيوا. لكنني أنا وتوم كنا نجلس في الصف نفسه في مجلس شيوخ العام 1984. وقد سافرنا معاً إلى أميركا الوسطى كمبتدئين. كنا نتبادل الاحترام والمودة. لذلك لم أتردَّد بلقائه.

قصد توم مباشرة مكتبي الشخصي. تمدّدنا على مقعدين كبيرين بمسندين للرأس. وبعد تبادل المزاح، دخل توم مباشرة في صلب الموضوع. قال: «جون، سيستغرق هذا دقيقة واحدة فقط» . وانحنى لينظر مباشرة في عيني. «أريدك أن تعرف فحسب كم أنني فخور بأنك كنت مرشحنا، وبأنك قمت بعمل رائع» . شعرتُ بالغصّة. وتحدّثنا قليلاً. وفي ومضة عين مضى للمشاركة في إحدى الجلسات. لن أنسى ذلك أبداً. كان ألطف اجتماع اختبرته طوال تسعة عشر عاماً في مجلس الشيوخ. كان مجرّد خروج توم عاداته هكذا، خفية، وبهدوء، ومن دون طبل وزمر، قد عنى لي كل شيء.

أطلّ واحد من مساعديّ برأسه إلى داخل مكتبي.

سألني: «بكم التزمت للحزب الديمقراطي في أيوا؟» .

«ارحل» ، قلتُ، وابتسمت.

كانت لتيد كينيدي، بالطبع، حاسة سادسة في أوقات مثل هذه. وأخبرني جو بايدن عن قول مأثور في عائلته: «إذا كان عليك أن تسأل، فسيكون قد فات الأوان» ، لم يكن على تيدي أن يسأل أبداً إذا كنت تحتاج إلى صحبة، بل يحضر فحسب. لم أكن أتطلّع بنوع خاص إلى حفل تنصيب الرئيس بوش واحتمال جلوسي هناك متسائلاً (وعارفاً أنني لست وحدي الغارق في التساؤل) كيف كان سيكون الأمر لو أن 65 ألف صوت انتقلت إلى الطرف الآخر في أوهايو. وعدم حضوري لم يكن خياراً لائقاً. وتمكّنت من رسم ابتسامة عريضة عندما أظهرتني الشاشة العملاقة أمام حشد من الجمهوريين يمتد عبر المتنزّه الوطني، وقد أطلقوا في انسجام تام صيحات الاستهجان والاستهزاء. فللمنتصرين تؤول الغنائم.

بُعَيد الاحتفال، جاءني تيد معلناً أنه سيأتي وفيكي إلى منزلنا للعشاء. آه، وكريس دود سيأتي أيضاً بصحبة زوجته جاكي. كانت تلك مؤامرة شفافة ولكن محبّبة ربّما دبّرها تيدي وفيكي مسبقاً. وكان قد أبقى مخططه طي الكتمان لأنه عرف أننا لم نكن نرغب، أنا وتيريزا، في حفلة شفقة في ليلة أمكن أن تكون مختلفة جدّاً، جدّاً. وربّما ظنّ أننا قد نحاول التملّص إذا أخطرنا بمخطّطه مسبقاً.

طبخنا في تلك الليلة وليمة من المعكرونة وكرات اللحم، وشربنا الكثير جدّاً من النبيذ الأحمر، واستمعنا إلى تيدي يخبر روايات فاحشة عن زملاء ماضين وحاضرين. كان ذلك ممتعاً جداً بفضل موهبة تيد في التقليد، إذ كان

يتقمّص الشخصية، ويصبح تقليد لستروم ثورموند مطعّماً بتلك اللكنة البوسطنية الواضحة.

مع انقضاء الليلة، وقبيل أن نودّع، أنا وتيريزا، الجميع عند الباب، تذكّرنا زمناً مختلفاً من تاريخنا المشترك.

في العام 1995، وبعد أن كلّفتنا «الثورة الجمهورية» سنة 1994 سيطرتنا على مجلس الشيوخ، كنت مرميّاً في خضم خيار لم أكن قد توقعته. عرفنا قبل ذلك بسنة كاملة أنه سيكون هناك سباق على الزعامة الديمقراطية في مجلس الشيوخ. وكان من المرجّح فوز جيم ساسّر، من تنيسي. لكن توم داشلي، وهو سيناتور مبتدئ، كان على أهبة الاستعداد لمواجهته في منافسة شديدة. وكان توم يجتذب سيناتورات مثلي لم يكونوا رؤساء لجان لكنهم كانوا يأملون أن يكون لهم صوتٌ أقوى في المؤتمر الحزبي. كان الحرس القديم في جانب والأغرار في جانب آخر. وتعهّدت مساعدة توم. وكان تيدي قد تعهّد مساعدة ساسّر ذي الحظوة القوية.

لكن، وفي ليلة الانتخاب، كان ساسّر قد خسر في شكل غير متوقّع. وبات باب السباق إلى الزعامة الديمقراطية مفتوحاً على مصراعيه. فقفز إلى المعمعة صديق تيد المفضّل، كريس دود من كونيتيكت. وكان كريس صديقي أيضاً، لكنه كان لتيدي بمثابة الشقيق الأصغر الذي لم تلده أمه. كنتُ، وفي شكل غير مريح، ملتزماً مع خصم كريس. ولا يمكنني الانتقال من طرف إلى آخر. لأنني لو فعلت، لما كانت كلمتي تعني أي شيء. كان الوضع مربكاً في قاعة مجلس الشيوخ وفي غرفة الانتظار، بل وحتى في ملاذي، عندما شرحت لكل من كريس وتيد أنني لا أستطيع التخلّي عن توم. حتى أن الأمر بات أكثر إرباكاً، عندما هَزم توم كريس بصوت واحد. أعقبت ذلك حقبة تحفّظ. كنت أرى تيد وكريس يجلسان معاً إلى طاولتيهما في قاعة مجلس الشيوخ، يضحكان، وعرفت أن من الأفضل عدم التوجه صوبهما والتطفّل. وها هو توم داشلي، على عكسي، لم يعد لديه عمل يعود إليه في مجلس الشيوخ. كان في ليلة الانتخاب قد خسر في ساوث داكوتا، وانتقل فجأة من كونه زعيم الديمقراطيين إلى كونه يحتاج إلى بداية جديدة بعد عمر أمضاه في تلة الكابيتول. وكان خليفته الجمهوري قد أقسم اليمين في وقت سابق من ذلك النهار.

بعد ذلك بعشر سنين، كنّا معاً في ليلة قاسية، كما لو أن التصويت الذي فرّقنا سنة 1995 لم يحدث قط. وها نحن الآن ثلاثة أصدقاء فحسب، ثلاثة شيوخ، ثلاثة أشخاص يتّكىءُ أحدهم على الآخر في ليلة لم تنتهِ إلى ما كنّا قد أملنا به. كان تيدي تلك القوة المحرّكة التي تحتّم ألا يقضي أحد الأمسية وحده.

كانت تلك صفة عظيمة من صفات تيد، ولكنها تذكير كبير أيضاً بأن مجلس الشيوخ يعمل على العلاقات التي من دونها لا يستطيع العمل على الإطلاق. بعثتُ برسالة إلكترونية إلى توم داشلي للاجتماع معاً على العشاء، وذكّرني ذلك بأنني محظوظ في أن لدي دوراً أعود إليه، فيما كان على توم أن يعيد بناء حياته من جديد.

عدت ورميت بنفسي بالعمل في مجلس الشيوخ. ولم يكن ذلك الأمر سهلاً بشكل دائم. كنت في صفوف الأقلية، وحتى اللجنة الوحيدة التي كنت فيها الديمقراطي الأرفع مستوى كانت لجنة الأعمال الصغيرة. إنها بمثابة صدمة ثقافية أن تنتقل من واقع تقديمك في كل مكان بوصفك «الرئيس المقبل للولايات المتحدة» ، إلى التحدث في غرف جلسات شبه فارغة حول تشريعات لخفض الأعمال الورقية في إدارة الأعمال الصغيرة.

شعرت بأنني أكثر تمكّناً، وأكثر حضوراً في مجالي في لجنة العلاقات الخارجية. كنت أنا وجو بايدن وكريس دود والجمهوري من نبراسكا والرفيق المحارب القديم تشاك هاغل، أصدقاء جيدين يكترثون لدور أميركا في العالم. وانضم إلينا عضو جديد، جرّ وصوله قافلة من الكاميرات التلفزيونية، هو السيناتور المبتدئ من إلينوي، باراك أوباما. حاز باراك منبراً تلقائيّاً في مجلس الشيوخ بفضل أدائه في المؤتمر في بوسطن، وهو شخصية شهيرة لم يسبق أن شهدنا مثلها منذ مجيء هيلاري كلينتون إلى مجلس الشيوخ بعد ثمانية أعوام على كونها السيّدة الأولى.

كان ما أخذنا نشاهده يتكشّف في العراق قد استنفد كل واحد منّا. وكنت قد وصفتُ العراق بأنه «الحرب الخاطئة، في المكان الخطأ، في الزمان الخطأ» . كان ذلك يومها بياناً مثيراً للجدل. فالحرب، في عيون الكثيرين، كانت تسير على أحسن ما يرام، بالرغم من أن كل المكوّنات كانت جاهزة لكارثة تامة: تمرّد ينمو ببطء، انقسام طائفي، وحكومة ضعيفة في بغداد. الآن، وقد بدأ الرئيس بوش ولايته الثانية، كان ذلك أشبه بصب الزيت على نيران تلك الجمرات المشتعلة. أمسى التمرد حرباً أهلية شاملة. وكانت محافظة الأنبار تنفجر عنفاً.

كان قد امتلكني، وأنا أقرأ تعليقات إدارة بوش وأستمع إلى شهودها يدلون بأقوالهم أمام لجنة الشؤون الخارجية، إحساس بأنني قد شهدت ذلك من قبل. أمكن ذلك أن يكون سنة 1971. فغرفة الاستماع لم تتغيّر منذ أربعة وثلاثين عاماً، وكذلك لم تتغيّر الحجج. وها هي إدارة أخرى تكون في حالة إنكار. وسيقول شهودها إننا على مسافة ثلاثة إلى ستة أشهر من تسوية بين العراقيين، من شأنها أن تخفف التوتّرات الطائفية. طلبتُ من موظّفيّ

التحقق. وبكل تأكيد كان أولئك الشهود أنفسهم قد أدلوا بتلك التوقعات نفسها قبل ذلك بثلاثة أشهر أو ستة. ومرّة أخرى، كان هناك «ضوء في آخر النفق» . ومرّة أخرى، كان يقال لنا إن أميركا على وشك طيّ الصفحة.

كانت سياسات إدارة بوش قد حوّلت العراق إلى ما لم يكنه قبل الحرب: أرض خصبة للجهاديين تضم منهم ستة عشر ألفاً أو عشرين ألفاً، وهم على ازدياد. كان على شخص أن يطلع الشعب الأميركي على الحقيقة. فالحديث المفرح عن كون التمرّد «يلفظ أنفاسه الأخيرة» أدى إلى توقّعات محبطة في الديار. وكانت قواتنا، في كل يوم يمر علينا، عرضة لخطر أكبر، فالإصابات إلى ازدياد، والكلفة تتصاعد، وصبر الشعب الأميركي أخذ ينفد، وراح شبح المأزق يُحدِق بنا مباشرة.

وجدت نفسي مضطرّاً إلى التحدّث بصراحة. لا يمكننا إدارة عقارب الساعة إلى الوراء ونقض القرارات التي أوصلتنا إلى هذا الحد في العراق. كما أننا لا نستطيع أيضاً تحقيق الانتصار الواضح والبسيط الذي وعدتنا به الإدارة مراراً وتكراراً حتى وفيما الأوضاع في العراق تزداد سوءاً باطراد.

أردت من الكونغرس، أن يجبر، على الأقل، إدارة بوش على التوقف عن إنكار الواقع، وأن نجد معاً استراتيجية خروج تحفظ مصالحنا الأساسية في العراق والمنطقة وفي مختلف أنحاء العالم.

اعتقدتُ أن لديّ مسؤولية خاصة في دفع السياسة باتجاه واقعي. وشعرت كذلك، بوصفي شخصاً ارتكب غلطة التصويت على القرار الذي منح الرئيس سلطة شن الحرب، بمسؤولية شخصية للعمل والمساهمة في إيجاد غطاء سياسي لآخرين كانوا قد ارتكبوا الغلطة نفسها. لا بأس بالاعتراف بأنك ارتكبت خطأ. فلو أن فييتنام علّمتنا شيئاً، فهو أن الكثيرين ظلّوا صامتين لفترة طويلة جدّاً خوفاً من الاعتراف بأنهم كانوا على خطأ. فنصف الأسماء على الجدار التذكاري لقدماء حرب فييتنام هي لشبان قُتلوا بعد أن أدرك قادتنا أن السياسة محكومة بالفشل.

شرعت في الجلوس مع واحد تلو الآخر من الزملاء وفي الحديث عن العراق.

كان البعض، من أمثال تشاك هاغل، منزعجين بالقدر نفسه الذي كنت منزعجاً به. وكان آخرون، أمثال جون ماكين، غاضبين بشدة من سياسة بوش، لكنهم اعتقدوا أن الجواب يتمثل في إرسال المزيد من الجنود الأميركيين وفي بقاء لهم غير محدود في العراق.

لكن كان هناك أيضاً مزاج في أوساط الكثيرين في المؤتمر الديمقراطي يقضي بالانتظار، وترك الرئيس بوش يتحمّل مسؤولية الفوضى التي تسبّب بها في الشرق الأوسط، وبالاستمرار في توجيه الدعوات إلى إدارة بوش لإيجاد استراتيجية خروج، ولكن من دون أن نطرح أبداً دعوة واحدة من عندنا. وكان يمكن لهذا الأمر أن يكون مستساغاً سياسياً لولا أنه خاطئ أخلاقيّاً.

كان هناك أميركيون يموتون. وكانت هذه، في الأساس، مشكلة أميركية، بغض النظر عمّن كان قد تسبب بها.

توجهت في أواخر الصيف إلى الشرق الأوسط مع عدد من السيناتورات. كنت بحاجة إلى الذهاب من جديد إلى العراق وتقييم الوضع على الأرض بنفسي. وبعد أن أمضيت يوماً ونصف اليوم في الميدان في جولة بعد جولة من الاجتماعات والإيجازات، غادرت من الموصل.

كان ثلاثة سيناتورات وموظفوهم مجتمعين في الجزء الأمامي من طائرة «سي-130» ، وفي وسط عنبر الشحن الأشبه بالكهف، كان نعش بسيط من الألومنيوم مغطّى بعلم أميركي صغير. كنا نعيد جنديّاً أميركياً آخر، قُتل للتو، إلى أهله في الديار، وإلى مثواه الأخير. كانت قسوة نعشه في وسط العنبر، والصمت السائد باستثناء ضوضاء المحركين، بمثابة تذكير بارد، في الزمن الحقيقي، بعواقب القرارات التي كنا نحن السيناتورات نشارك في تحمّل مسؤوليتها. ومع وصولنا إلى الكويت، نُقل إلى الطائرة علم أكبر للف النعش كلّياً، وانضممنا إلى موظفي تسجيل القبور في منحه التحية العسكرية فيما كان يُنقل بمراسم رسمية من الطائرة إلى شاحنة كانت في الانتظار. وعندما قعقعت الأبواب مغلقة، تساءلت لماذا لا يُسمح لكل أميركا برؤيته وهو يصل إلى قاعدة دوفر الجوية. لمَ يجري إخفاؤه عن أمة تستحق أن تحزن كلّها في الحقيقة وفي ضوء النهار؟ كانت رحلته وحيداً تكفي لإجبارنا كلّنا أن نتصدّى لخياراتنا في العراق.

كان أكثر من ألفي أميركي شجاع قد وهبوا حياتهم، في حين أن العراق قد بات مرتعاً للإرهابيين المحليّين وجاذباً للأجانب منهم.

فكّرت أن من واجبنا الحديث عن ذلك وتقديم إجابات. فالبلاد والكونغرس كانا قد ضُلّلا ليندفعا إلى الحرب. كان هناك، على ما قاله مرّة روبرت كينيدي: «ما يكفي من اللوم للجميع» ، وأنا قبلت نصيبي من المسؤولية. لكن أخطاء الماضي، بغضّ النظر عمّن ارتكبها، ليست مبرّراً للسير قدماً في مستقبل من الحسابات الخاطئة وسوء الأحكام وخسارة

الأرواح الأميركية، من دون أن تلوح أي نهاية في الأفق. كان لدى كل منّا مسؤولية تجاه بلدنا وضميرنا في أن نكون صادقين حيال الوجهة التي يجب أن نأخذها من هنا.

ذلك ما حاولت فعله. وضعت خطّة لتحديد موعد نهائي للعراق لترتيب بيته السياسي، وموعد نهائي لإعادة القوات الأميركية المقاتلة إلى البلاد. اعتقدت أن القول للعراقيين «سنبقى ما دام الأمر يتطلّب ذلك» كان حجة لهم لأخذ ما يريدون من الوقت. وذلك لم يكن مقبولاً في وقت يعود فيه أميركيون في النعوش. ومع نهاية السنة سيمسي موقفي هو الموقف الديمقراطي والحجة السياسية السائدة. كنت مسروراً لأنني رفعت الصوت.

كنت مسروراً أيضاً لأنني فعلت أمراً طال انتظاره. فقد سجّل الثاني والعشرون من نيسان/إبريل 2006، الذكرى الخامسة والثلاثين للشهادة التي كنت قد أدليت بها ضد الحرب في فيتنام. وكان الكثيرون جدّاً ممن لم يخدموا قط، قد شوّهوا تلك الشهادة من أجل مكسب سياسي. كنت مصمماً على رفع الصوت عالياً في شأن المعنى الحقيقي للوطنية. وفكّرت في أن البلاد تحتاج إلى سماع ذلك. فأميركا كانت متورّطة في حرب بخصوص الحرب في العراق، وغالباً جدّاً ما جرى التذرّع بالعَلَم لإسكات الناس بدلاً من تشجيعهم على رفع الصوت. بدا ذلك كلّه مألوفاً جدّاً؛ وكان الكثيرون قد جعلوا من الدعوات الكاذبة إلى الوطنية شكلاً فنيًّا يستخدمونه وسيلة لتحويل جنودنا وعلمنا إلى ملكيّة لحزب سياسي. كان ذلك خطأ وأمراً لم يكن يعهده الأميركيون. ألقيت خطاباً في فانويل هول في بوسطن قبل خمس وثلاثين سنة من اليوم الذي مثلتُ فيه أمام لجنة الشؤون الخارجية. بيد أن القاعة القديمة، وهي مكان اللقاء الأصلي للوطنيين ولـ «مهد الحرّية» ، تحمل معنى كبيراً.

كانت القاعة في ذلك الصباح المشرق من نيسان/إبريل، تكتظ حتى آخرها بالأصدقاء القدماء والحراكيين الجدد الذي جاؤوا لا ليسمعوا عن حربٍ من ماضٍ بعيد، بل عن القيم التي هي على المحك اليوم، ليسمعوا كيف أن «القتال من أجل بلادك في الخارج، والقتال من أجل المثل العليا لبلادك في الداخل، لا يتناقضان أو ليسا حتى مهمّتين مختلفتين، بل هما في الواقع وجهان للعملة الوطنية الواحدة» . وختمت بكلمات لا أزال ثابتاً عليها حتى هذا اليوم، تماماً كما أثبت على ما كنت قد قلته وفعلته سنة 1971: «إن أهم طريقة لدعم الجنود هي في قول الحقيقة، وفي ضمان ألا نطلب من شبان أميركيين الموت من أجل قضية لا ترقى إلى المثل العليا لهذه البلاد. عندما احتججنا على الحرب في فييتنام، كان ثمة مَن ينحاز ضدنا قائلاً: ‹بلادي، سواء كانت على

صواب أو خطأ’. وكان جوابنا بسيطاً: ‘نعم، بلادي سواء كانت على صواب أو خطأ. عندما تكون على صواب أبقها على صواب، وعندما تكون على خطأ، اجعلها ترى الصواب’. وذلك ما يجب أن نفعله اليوم أيضاً» .

كنت أنهي العمل غير المنجز سنة 2004. غرقت في العمل على انتخاب كونغرس يصنع فارقاً في البلاد. ساهمت في تجنيد محاربين قدماء للترشح للانتخابات. وقد دافعت عنهم عندما هوجموا وعندما شُوّهَت سجلاتهم العسكرية. طبّقت أمثولة تعلّمتها بالطريقة الصعبة سنة 2004: استمر في ردّ الضربات إلى أن تُدرَك الحقيقة.

لكن ثمة أمثولة عن هشاشة الحياة، أمثولة لم أحتج فيها إلى دورة تنشيطية، هي تلك التي تخلّلت ربيع 2006. اقترحت فانيسا في نيسان/إبريل أن أتصل بوالدتها على الفور. انتابني إحساس بالوجل حيال سبب هذا الإلحاح. كانت جوليا في مركز إم. دي. أندرسون للسرطان في تكساس، حيث كان الأطباء يجرّبون بجرأة آخر المقاربات كلّها لإنقاذ حياتها. مرّت سنة ونصف سنة طويلة في مواجهة عدو رهيب. كانت جوليا هزيلة جدّاً بعد كل العلاجات. وعرفتْ أنها في أيامها الأخيرة، وأرادت العودة والموت في ماساتشوستس.

قمنا على الفور بالترتيبات لإعادتها إلى بوسطن بطائرة خاصة. وبوصولها ذهبتْ إلى مستشفى «برينغهام أند وِمنز هوسبيتال» وأمضت فيها أسبوعاً. وعندما قصدتُ المستشفى لزيارتها، كانت ألكسندرا وفانيسا وحدهما إلى جانبها. رشقتني جوليا بابتسامتها المستسلمة. سرت إلى السرير، وانحنيت، وتعانقنا عناقاً صامتاً وقوياً بدا أنه استغرق إلى الأبد. تشبّث كلٌّ منا بالآخر فيما تلاشت كل الخلافات على مر السنين. ورأيت من طرف عيني الابنتين تنسحبان من الغرفة وهما تنشجان.

لم تشأ جوليا أن تفارق الحياة في المستشفى. أرادت مكاناً شخصيّاً أكثر، وأشد ارتباطاً بحياتها. واستقر رأيها على بيت ضيافة يخص صديق كبير في كونكورد، في مزرعة يمكنها فيها أن تفتح نافذة وترى الربيع وتستنشقه في آخر أيامها، وتقضي الوقت مع أقرب الناس إليها.

وعلى مدى الأيام التالية، تشبّثنا أنا، زوجها السابق، وزوجها وأولادها بالوقت الثمين وهي تذوي. وفي صباح 27 نيسان/إبريل توفيت جوليا. العلاقات تتغيّر، وبعض أفضل تلك العلاقات تلتوي، بل تنكسر، في حين أن الأشخاص يمضون في اتجاهات مختلفة. فالأسى الذي تسبّب به طلاقنا، والشعور بالإخفاق، شابا علاقتنا على مدى سنوات كثيرة. وكنت محظوظاً لأننا كلينا وجدنا الحب من جديد، وأننا تصالحنا؛ وسنحت لنا الفرصة، بالرغم من فوات

الأوان، أن أودِّعها بالطريقة التي قمنا بها بذلك، بتذكّر عذوبة الأيام الأولى، وبالتشارك في النعمة التي دامت: ابنتينا. سأبقى على الدوام أستعيد جوليا في ذاكرتي وفي ضحك ألكس وفانيسا.

في خريف 2006، كانت الأمور قد أخذت تنقلب في البلاد. استعدنا مجلسي النواب والشيوخ. وكان الرئيس بوش قد بات رسميّاً «بطّة عرجاء» (أي في آخر عهده-المترجم).

كان عليّ أن أتخذ قراراً. كنت قد سعيت إلى الرئاسة سنة 2004 لنمضي في مسار مختلف. وها هي البلاد تقترع لنوع التغيير الذي كنت قد اقترحته في حقبة صعبة ومنقسمة.

كانت هناك أسباب قوية تحملني على مواصلة ذلك القتال الآن. كان الكثيرون من أوفى أصدقائي يحثونني على الترشّح من جديد. شعروا بأن سباقي سنة 2004 كان متقارباً جدّاً، وقد تأثّر كثيراً بعوامل غير قانونية، حيث إنني في سنة مفتوحة من دون شاغل، كنت قد نضجت بما يكفي كمرشّح يمكن أن يعيد الكرّة. ففي النهاية، قالوا: إن كلّاً من نيكسون وريغان قد أقدما على ذلك بنجاح، حتى بعد أن ترشح نيكسون لمنصب حاكم كاليفورنيا وخسر.

لكنني شعرت في قرارة نفسي أن البلاد تحتاج إلى خطاب مختلف. كانت سنة 2004، فحسب، قريبة جدّاً في الزمن، وفي رأيي أن الطلب الراهن على شخص جديد سيكون، في رأيي، أكبر مما يمكن تجاوزه.

قررت أن الوقت قد حان لوضع طاقتي في العمل كجزء من الغالبية في مجلس الشيوخ والقيام بكل ما أمكنني لإنهاء الحرب، وتعزيز أمننا وقدرتنا على خوض الحرب الحقيقية على الإرهاب. وفي كانون الثاني/يناير 2007، أوضحت تماماً وأنا ألقي خطاباً حول العراق في قاعة مجلس الشيوخ: أنني لن أترشّح للرئاسة. أردت الناس أن يثقوا بأن ما أتكلّم عنه هو الهدف الذي أسعى إلى تحقيقه.

كان تيد كينيدي يجلس على بعد خطوات. نهض وتحدّث كيف أننا كنا قاب قوسين سنة 2004، وكم بقي لنا من الأمور الصالحة التي يجب القيام بها. وحمل بعد ذلك زجاجة «شيفاس» إلى مكتبي الملاذ في الكابيتول. وذكّرني بأن مهنته التشريعية لم تزدهر فعلاً إلا بعد أن رفض فرصة الترشح من جديد للرئاسة سنة 1984.

كان لديّ عمل أنجزه. لم أرد أن أنهي الحرب فحسب، بل المساهمة أيضاً في إعادة بناء الزخم في الكونغرس بخصوص البيئة والتغيير المناخي، بحيث يتمكن الرئيس المقبل فعلاً من القيام بشيء في هذا الخصوص.

وربما أردت أن يكون لي دور في اختيار ذلك الشخص. بدأت النظر في هدوء إن كان ثمّة من يترشح سنة 2008 لأساعده أن يكون رئيساً من ذلك النوع، أي من النوع التغييري الموحّد الذي أرى أن البلاد بحاجة ماسّة إليه.

كان لديّ صديقان في مجلس الشيوخ مرشّحان، هما كريس دود وجو بايدن. لكن الحملة الأقوى كان يقوم بها اثنان آخران، هما هيلاري كلينتون وباراك أوباما.

لم نرَ باراك أوباما كثيراً بعد بدء الحملة. وكنت أجري محادثة وجيزة معه عندما كان يأتي إلى مجلس الشيوخ ليصوّت. لكن معظم اتصالاتي كانت مع الحملة عبر أصدقاء فيها، وبخاصة في أيوا ونيو همشاير.

في البداية، تملّكتني فكرة تأييد هيلاري بقوّة، كنا زميلين في مجلس الشيوخ لفترة أطول مما كنت فيها مع باراك. جلست معها للاستماع إلى أفكارها عن الحملة وطرح بعض ملاحظاتي. ولطالما كانت هيلاري محبّة ومرحّبة بابنتيّ وبي. وأنا احترمتها وأحببتها. كانت ذكيّة وشغوفة بصدق. شعرتُ بأنها قد تعرّضت للظلم من الكثيرين في الإعلام. وإذا كنت تجري معها حديثاً عادياً في غرفة الانتظار، أو تمزحان في أحد لقاءات المؤتمر العام، أو تكتفي بالجلوس معها لمحادثة شخصية، تجد أنها صادقة، حاضرة، ظريفة ومهتمّة. لكنني شعرت بقوّة، كوني ترشحت ضد بوش وخسرت، وكوني أمتلك عند هذا الحد إحساساً جيّداً بالسياسة الوطنية، وكوني قد درست ووجدت أنني أريد ما يشكّل تكراراً لعملية ترشيحي، أن البلاد قد تريد سياسة توحيدية. وشعرت، للأسباب ذاتها ولبعض الأسباب المختلفة الأخرى النابعة من اعتقادي بأنني يجب ألّا أترشّح، بأن حملتها ستواجه أوقاتاً عصيبة.

شعرت بقوة، من باب الحس السياسي الداخلي، أن باراك أوباما يمكن أن يوفّر تلك الرؤية. كنت، أنا وباراك، قد تناولنا العشاء على انفراد في الخريف في واشنطن. تحدّثنا عن الازدهار في الخارج. تحدثنا وضحكنا على مفارقات ومذلاّت الحملة الانتخابية في تلك الأيام الأولى منها. أحببته. أحببت أنه لا يحتاج أن يروّج لك حملته أو ترشيحه. وكانت هناك، بعودتي إلى الديار، فجوة بين الأجيال: فشقيقتي بيغي، الحراكية منذ زمن بعيد، كانت بقوة مع هيلاري؛ وكان باراك المرشّح الذي تحمّست له ابنتاي تحمُّساً شديداً.

طرت، بعد عيد الشكر، إلى بالي للمشاركة في مؤتمر الأمم المتحدة حول التغيير المناخي. ودهشتُ عندما وجدت أن البلدان المختلفة كانت متحمّسة جدّاً لأنها كانت ترى أن الأمل بات على الطريق في الولايات المتحدة، وبغض النظر عمّن يفوز. لكن باراك كان هو المرشّح الذي كنت أُسْأل عنه في أغلب الأحيان.

كان عليّ أن أقرّر إن كنت سأتدخّل في السباق. اعتقدتْ تيريزا أنني اكتسبت الحق في التعبير عن رأيي بصراحة. طلبَ مني قلبي وحدسي أن أؤيّد باراك. حثّني تيدي على عدم التأييد باكراً. اعتقدَ أن في ذلك مخاطرة كبيرة لي، وألحّ عليّ بالانتظار إلى أن تستقرّ عملية التسمية إلى حد بعيد، وبالمساهمة في إعادة لم شمل الحزب. كان الكثيرون من موظفيّ متوترين، وليس من دون سبب. كان آل غور قد أيّد هوارد دين قبل ذلك بأربعة أعوام، وتعرّض للسخرية عندما انهار ترشيح دين. ولم أرد، كمرشّح سابق، أن أوجّه ضربة لصدقيّتي في تأييدٍ باهظ الثمن.

كما أنني كنت على صداقة مع جو بايدن وكريس دود، اللذين كانت حملتاهما على كثير من ضعف. لكنهما سيبقيان صديقين لي بعد عودتهما إلى مجلس الشيوخ.

كان جون إدواردز في السباق، وكان يراهن بكل شيء على أيوا. لم نكن قد تحادثنا لأشهر، ولم يتوقع أحد مني أن أكون مع إدواردز، إلا أنني لم أرد أن يُنظر إلى تاريخي المتقلّب مع جون على أنه السبب في تأييد مرشح غيره. أردت أن أعلن عن المستقبل، لا عن الماضي.

تكثّفت، في كانون الأول/ديسمبر، المحادثات مع حملة أوباما حول الإعلان عن التأييد في أيوا مباشرة قبل بدء المؤتمر العام.

جئنا ورحنا. كان هناك مستوى من الراحة يتعزّز في الحملة بأنهم سيربحون أيوا، وأن من الأفضل ترك تأييدي للحظة أكثر استراتيجية.

كان فوزهم الكبير في 3 كانون الثاني/يناير في أيوا بمثابة صاعقة سياسية. كانوا على الطريق.

ثم أعقبت ذلك، بعد أسبوع، خسارة كبرى في نيو همشاير.

وفجأة كانت عودة كلينتون هي القصة الكبيرة.

حوالى منتصف تلك الليلة، تلقيت اتصالاً في منزلي من بوسطن: «ألا تزال معي؟» كان ذلك باراك. كان قد ألقى خطاب الإقرار بالهزيمة في مانشستر.

ضحكتُ وقلت، «نعم، بالتأكيد. قلت لك إنني معك، وأنا معك. متى تريد القيام بذلك؟» .

«فلنفعله هذه الأسبوع في ساوث كارولينا» ، قال، وكان ذلك كل شيء.

توجّهت بعد ذلك بيومين إلى شارلستون، حيث كنت قد بدأت، سنة 2003 في باتريوتس بوينت، جولة الإعلان عن ترشحي للرئاسة، لكنني كنت فيها هذه المرّة للمساعدة في اختيار حامل جديد للبيرق.

كان أصعب اتصال هاتفي سياسي أجريه على الإطلاق، هو ذلك الذي أجريته مع هيلاري كلينتون في ذلك الصباح. أرادت أن تعرف منّي شخصياً أنني أمضي في اتجاه مختلف. إنها مهنية. كان الاتصال ودّياً. لكن أمكنني القول إن هذه كانت لحظة في التقليد الحزبي، على غرار كارتر ضد كينيدي سنة 1980: حيث سيتذكّر الجميع مَن أيّد مَن في السباق بين كلينتون وأوباما.

هبطنا في طقس شارلستون المعتدل، الجميل. كانت طائرة حملة باراك مقابل المدرج. صعدت إلى سيارته الشيفروليه سوبوربان، وتوجهنا معاً إلى معهد شارلستون. بدا نحيلاً وقد أرهقته الأميال التي قطعها على الطريق والوتيرة المحمومة. لكنه كان هادئاً، شأنه دائماً. لا يبدو أبداً أنه يشعر بالإثارة الكثيرة أو بالإحباط الكبير. كان صورة عن التناقضات. مضى عليه أكثر من سنتين بقليل في مجلس الشيوخ، وها هو يترشح للرئاسة، ولفتني أنه بالرغم من امتلاكه موهبة سياسية استثنائية، كان أيضاً شخصاً خجولاً بعض الشيء. بدا على درجة من الثقافة، حيث أن بعضاً من متطلّبات القيام بالحملة، بل وربما الحياة العامة، لم تكن بالضرورة تروق له كثيراً. أمكنه أن يكون اجتماعياً في شكل طبيعي، ينضح بتلك الابتسامة الكبيرة، الدافئة، المضيئة، لكنه لا يبدو أنه يغتبط بالمساومة أو يحب هذا الأمر. بات الأمر مضجراً وآليّاً بأسرع مما أمكن أن يكون لمرشحين آخرين. لكنه كان منضبطاً؛ ومن الواضح أنه يمخر عباب الكثير جدّاً من المناسبات بمهارة كبيرة، حتى عندما كان جسمه أو ذهنه يريد القيام بأمر آخر.

كنت أول من تحدّث في المعهد. تكلّمت عن اختيار رئيس يمكن أن يقدّم التغيير إلى أميركا. وكنت سعيداً لكوني طرفاً في المسيرة. قفز أوباما

نازلاً الدرج، حصد تصفيق الحشود، أعرب عن تقديره الضروري للعالم السياسي المجتمع، ألقى خطابه وانصرف.

طرت عائداً إلى واشنطن لاستئناف عملي في مجلس الشيوخ. وعندما هبطت، كان هاتفي الخلوي يطن: ثماني رسائل صوتية. كانت هناك واحدة من تيدي يهنئني فيها على قراري. لكن كانت هناك سبع رسائل واردة من أصدقاء كانوا يجمعون التبرعات لهيلاري، رسائل خيبة أمل عميقة. وكانت إحداها صريحة: «لا تقترب، هذا الصيف، من مركبي في نانتاكت، أيها الوغد» .

السياسة عمل قاس، ولا شيء يحك المشاعر في شكل أكثر فجاجة من كونك في الحفرة الصغيرة لحملة رئاسية.;

قمت، على امتداد الربيع والصيف، بحملة قوية لباراك. كان ذلك مثيراً للبهجة. فأنا، بدايةً، تنافسيٌّ، لكن جرى تذكيري كم أن من الممتع الدخول إلى اجتماع في دار بلدية، في مركز اجتماعي، كنيسة، أو قاعة قدماء الحروب الخارجية، وتكون مدافعاً عن قضية تتحمّس لها. وفي المؤتمر العام في دنفر، هاجمتُ صديقي جون ماكين، المرشح الجمهوري، في السياسة الخارجية وطرحت بأقوى ما أمكنني قضية أن باراك أوباما كان الشخص الأفضل لقيادة أميركا في هذه الأزمنة الصعبة. وكان من الصعب انتقاد ماكين. كنا قد عشنا الكثير من التاريخ معاً. قاتلنا وأحب أحدنا الآخر كأخوَين. لكنني، في حزب يطلب النقاء الإيديولوجي لكسب التسمية كمرشح، كنت خائب الأمل، لأن جون ماكين لم يكن قادراً على التحدّث عما يعنيه جون ماكين الحقيقي لأميركا.

كنت في بوسطن يوم الانتخاب من أجل احتفالي الخاص: فبالرغم من أنني واجهت في وقت سابق خصماً مخرّباً في الانتخابات التمهيدية في جزء من ذلك لمعاقبتي على تأييدي باراك أوباما، أعيد انتخابي لفترة خامسة في مجلس الشيوخ، بستة وستين في المئة من الأصوات. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، جلست وتيريزا معاً وشاهدنا واحداً من المشاهد العظيمة في حياتي السياسية؛ اللحظة الاستثنائية التي سار فيها الرئيس المنتخب باراك حسين أوباما إلى المسرح العملاق في غراند بارك، شيكاغو، يداً بيد مع عائلته. كان الرئيس المنتخب الشاب، وهو أول رئيس إفريقي أميركي في تاريخنا، يصنع الآن من نفسه تاريخاً. كنا نذرف دموع الفرح.

الفصل الرابع عشر: رئيس جديد، مجلس شيوخ معطَّل

في 5 كانون الثاني/يناير 2009، سار بي تيد كينيدي مجدَّداً على ممر مجلس الشيوخ كي أؤدّي اليمين لولاية خامسة. إنه لتقليد رائع. ولكن هذه المرة تمتزج حلاوته بالمرارة، لأنني، أنا وهو، نعلم بأنها ستكون المرة الأخيرة. عدتُ بالذاكرة إلى العام 1985، عندما أدّيْت اليمين لأول مرة. في ذاك اليوم الأول، جال بي تيد في أرجاء الطابق من مبنى مجلس الشيوخ، واقتادني ناحية حشد من زملائه المحنّكين وكأننا في حفلة أخوية، أشبه بحفلة لتجمُّعات من طلاب الجامعات. بالطبع بات مجلس الشيوخ مختلفاً اليوم. وغدا كلٌّ منا يعيش فصلاً مختلفاً من حياته. ذلك أن كل واحد أضاف إلى عدّاد رحلته أميالاً لا تُحصى منذ ذلك اليوم. وقد أخذ الشيب يزداد على رأس كل منا. والأهمُّ من ذلك أن علاقتنا قد تطوّرت لتمسي علاقة صداقة عميقة صادقة على مر السنوات، اختبرَتْها الحملات الانتخابية والسرطان، ورسّختها المشكلات المشتركة التي ينبغي مواجهتها والإيديولوجيات التي ينبغي الاستناد إليها، وعززها الإيمان والمرح. كانت رحلة لافتة جمعتنا معاً.

لقد شكّلنا الثنائي الأطول خدمةً، والمؤلف من سيناتور كبير وسيناتور أصغر، منذ الثنائي ستروم ثورموند وفريتز هولينغز. يا إلهي كيف حدث هذا؟ أين ذهبت كل تلك السنوات؟ كيف مرّت بهذه السرعة؟ اليوم، بدا تيد في حالة جيدة، بالرغم من إصابته بالسرطان الذي غدا في مرحلة متقدمة. ها هو يسير متّكئاً على عصا، وموفّراً طاقته للأوقات التي يكون بأمسّ الحاجة إليها. لعله كان يتكئ أكثر عليّ، خلال توجُّهنا إلى وسط مجلس الشيوخ. ولكنه لا يزال تيدي نفسه، حاضراً تماماً. إنها واحدة من اللحظات التي ما كان تيد ليفوِّت المشاركة فيها.

صاح تيدي بشكل استعراضي، وقد تحوَّلت تلك الابتسامة العريضة إلى ضحكة من الأعماق واضحة تماماً، قائلاً: «يا نائب الرئيس تشيني هل أنت جاهز لتُحَلِّف السيناتور الأصغر عن ولاية ماساتشوستس لولاية خامسة؟» . ثم ربّت

ظهر نائب الرئيس بوش المعروف بصرامته. لستُ واثقاً بأنني رأيت تشيني من قبل يرسم ابتسامة على شفتيه، ولكنه ابتسم من أجل تيد.

أن يقوم نائب الرئيس تشيني بتحليفي، وهو الذي مثّل جزءاً كبيراً من كل ما عارضته على مدى السنوات الثماني الماضية، كان أمراً سريالياً في نظري؛ وكان يقف على مسافة قصيرة نائب الرئيس المُنتخب، جو بايدن، الذي عمد تشيني إلى تحليفه قبل لحظات، كي يمثِّل ديلاوير لولاية سابعة، وذلك قبل أسابيع فقط من استقالته من مجلس الشيوخ كي يخلِف تشيني.

هنالك فصول تُغلق وأخرى تبدأ في الوقت عينه. لم يعرف أي منا إلى أين ستؤول القصص. وفي الوقت الذي هممتُ فيه للبدء بولاية أخرى في عضوية مجلس الشيوخ الأميركي، امتزجت حلاوة تلك البدايات والنهايات بطعم المرارة. فثمة تغييرات كبيرة تطرأ على واشنطن، بعضها يبعث على الأمل وبعضها أقل تشجيعاً. شعرت مرة أخرى في حياتي وكأنني أعيش لحظة مفعمة بالتغييرات الكثيرة، كان بعضها تغييراً بالمعنى الحرفي والآخر مجازيًّا.

ولكن اليوم ليس اليوم المناسب للتفكّر بالتغييرات. فلدينا عمل لنقوم به، وسيزورني بضع مئات من الأصدقاء من ماساتشوستس وأماكن أخرى للاحتفاء بأدائي القسم. اتّسمت الحشود التي تجمَّعت في مبنى ديركسن بالمرح والصخب. حيث اجتمع المؤيدون الأشاوس والأصدقاء من الحملات الانتخابية في ماساتشوستس منذ العام 1972 فصاعداً، والأشخاص الذين صمدوا في آيوا ونيو هامبشاير عندما لم تكن الأمور واعدة جدّاً، وخريجون جامعيون، وأصدقاء، وأفراد من الأسرة. وشغل موقع الصدارة بين الجميع ماكس كليلاند، المحارب السعيد، مبدياً تفانيه التام. كان ماكس يواجه بشكل يومي مجموعة كبيرة من المشكلات الصحية. ونادراً ما يفلح شخص بُترت ثلاثة من أطرافه خلال حرب فييتنام بالعيش ليصل إلى الستينات من العمر كما فعل ماكس بكل شجاعة. لم يفصح لأحد قط بأنه يواجه تلك المصاعب بشكل يومي. فذلك ليس من شيمه. كبت كل شيء بداخله. وقد حضر ليكون بين إخوته. طلبتُ من ماكس وتيد أن يتحدَّثا، فشكّلا ثنائياً رائعاً على المنصة. ساد الصمت والهدوء في الغرفة، حيث اعتدل الجميع في جلستهم، ومالوا إلى الأمام للاستماع إلى ما سيقوله هذان الرجلان اللذان مثّلا حجر الأساس في كثير من المعارك السياسية التي خضناها معاً على مدى السنوات الماضية.

تحمّس ماكس فصاح قائلاً: «ولا يزال جون كيري قائدي الأعلى!» ، فصفق له الجميع.

ثم ازدادت حدّة التصفيق أكثر فأكثر عندما صاح تيدي، قائلاً: «وهو وزير خارجيتي!» .

قلت: «تيد» ، فيما لمست ذراعه محاولاً إيقافه.

«لا لا لا» ، صاح تيد مطلقاً ضحكته الشهيرة، ومردِّداً جملة استعراضية: «بوسعي قولها!» .

أعقب ترداده الثاني المزيد من التصفيق. هذان هما ماكس وتيدي اللذان يتصرفان بعفويتهما، ويعكسان تضامناً خفياً كسر الجليد في غرفة يُمنع فيها ذكر هذا الموضوع، الموضوع الذي لا شك في أن بعض الأشخاص يتداولونه سراً في أحاديثهم الدائمة، ويتناول مَن سيترقّى ومن سيسقط، ومن سيأتي ومن سيذهب، في اللعبة السياسية بواشنطن.

الموضوع الكبير الذي لم يجرؤ أحد على طرحه في الغرفة، والذي لم يتحلَّ سوى تيد بالجرأة والشجاعة لذكره، كان محط تخمينات إعلامية بشأن الشخص الذي سيختاره الرئيس المنتخَب ليتسلّم وزارة الخارجية. وهذا الموضوع برز بقوة، قُبَيل عيد الشكر.

لم يكن أي شخص في الغرفة يعرف أن الرئيس المنتخب، طلب، بعد أيام من الانتخابات إحضاري جوّاً إلى شيكاغو، لألتقيه وجهاً لوجه، ونتحدّث حول احتمال تسلّمي لمنصب في وزارته. تيد وفيكي كانا الوحيدين اللذين يعلمان. أليسا ماستروموناكو، التي ترأّست عملية الجدولة في حملتي سنة 2004، باتت اليوم مساعدة شاملة موثوقة لباراك أوباما. وقد نسَّقتْ مع فريقي لتحرص على إبقاء الاجتماع سرّيّاً، حمايةً لفرص كل الأطراف المنخرطين.

عندما هبطت الطائرة الخاصة في شيكاغو، تذكَّرت كم يقصر النهار بسرعة في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وقد كان الهواء في منطقة الغرب الأوسط عليلاً، لكنه لم يبرد بعد. مع حلول الظلمة في السماء، دخلنا بالسيارة «مدينة الأكتاف العريضة» التي كتب عنها كارل ساندبرغ. واقترب خط الأفق الهائل مع غياب الشمس بسرعة وهدوء.

لطالما كانت شيكاغو واحدة من المدن التي تركت أثراً لا ينسى في رحلتي: من حفل زفاف هارفي باندي عشية الالتحاق بمدرسة التدريب العسكري، إلى الصور التي ظهرت في النشرات الإخبارية عن العنف في الشوارع إبان المؤتمر الدموي سنة 1968، إلى كل الزيارات التي قمت بها على مر العقود التالية بهدف حضور مناسبة سياسية أو أخرى. لم أتوقَّع أن

يتقاطع مستقبلي مع المرشح لمنصب السيناتور الذي التقيته في الناحية الجنوبية من شيكاغو في ربيع العام 2004، وهو الرجل الذي أيّدت حملته خلال فترة الانتخابات الأولية الصعبة، والذي بات اليوم الرئيس المنتخب للولايات المتحدة.

بين ليلة وضحاها، جرى تحويل مبنى في شيكاغو مؤلَّف من مكاتب إلى مقر انتقالي مؤقت إلى أن يرتّب الرئيس المنتخب وفريقه أمورهم، وينقلوا العملية كلها إلى العاصمة واشنطن. علت الضجة في الشوارع المحيطة بالمبنى الذي يُعمل بشكل حثيث على تجهيزه من أجل الإدارة الجديدة التي علّق عليها كثيرون آمال كبيرة على تجديدها. مع اقترابنا من ذلك المبنى، رأينا العوائق المعدنية الكبيرة التي زُرعت لإبعاد الوسائل الإعلامية. أنزلت جسمي إلى أسفل، واستلقيت على المقعد لئلّا يراني أي صحفي خلال دخولي المرأب. أردت تفادي تخمينات الصحافة. فبعد تجربتي الخاصة في الحيطة لإحداث نقلة في حياتي، أيقنت الأذى التي قد يترتّب عن التسريبات والمسرّبين، ولم أشأ المخاطرة في إثارة أية زوبعة إعلامية.

وكما ينبغي، كان مارفن نيكولسون أول شخص يستقبلني في الطابق العلوي، وهو الذي يتسم بحضور مألوف وودود، وبالتواضع، كحاله دوماً. وهو الذي قطع حتى الآن مئات الآلاف من الأميال ليشارك في الحملات الانتخابية الرئاسية المتعاقبة، التي انتهى بعضها بخيبة أمل، وبعضها الآخر بفوز ملحوظ. وقد شكّلت، في الوقت الراهن على الأقل، حسّاً من الوحدة والتصميم في البلد، على عكس كل ما رأيته في رحلتي السياسية. تعانقنا. كنت قد ظللت على تواصل مع مارفن عبر الرسائل النصية والإلكترونية خلال هذه الحملة الأخيرة، وبقينا صديقين مقرَّبين. كان واثقاً بنفسه ومرحاً ومشاغباً بشكل استثنائي خلال كل تقلّبات السباق الانتخابي في العام 2004. وفرحت جدّاً لأجله ذلك أنّه، بعد أن قضى أسابيع وشهوراً في العمل المضني وإقحام جسمه الضخم البالغ طوله مترين في الحافلات والطائرات الصغيرة، وصل أخيراً إلى المكان الذي يستحقه، قرب رئيس منتخب.

خرج باراك أوباما من مكتبه، ورحّب بي، ودعاني إلى الداخل. فقد جرى تحويل جناح مكاتب عادي مخصَّص لإدارة الخدمات العامة إلى مقرّ عمل انتقالي. أما المكتب المخصَّص للرئيس المنتخب، ففيه أريكة صغيرة، وبضعة كراسي، وعلى أحد جدرانه عُلّق تلفاز تعرض شاشته مباراة كرة قدم. لقد عكس شكل المكتب وجوّه طابعاً عملياً ومؤقتاً وفاعلاً.

يعدّ هدوء أوباما من سماته المميّزة، ذلك أنه يحافظ دوماً على ضبط النفس بإتقان. جلسنا وبدأنا نتكلّم بشكل غير رسمي. عندما ناديته «بالسيد

الرئيس المنتخب» ، أوقفني، وقال إن علي أن أناديه بباراك، عندما نكون منفردين. سألني عن تيريزا، وذكّرني بأن أفراداً كُثراً من أسرتي السياسية قد شكلوا أوائل مساعديه؛ من كاتب الخطابات جون فافرو إلى أليسا ومارفن ومساعديه الأساسيين في السياسة الداخلية. كان يمضغ علكة عرفت الآن أنها علكة (نيكوريت)، في جهد حثيث يبذله كي يلجم عادة التدخين لديه، ولكنه بدا مسترخياً ومرتاحاً بالنظر، إلى أنه رجل بات يحمل عبء العالم على كتفيه. شكرني على مساهماتي في الحملة. وبدأ يتكلم عن كل العمل الذي ينتظره، بدءاً بالاقتصاد. كان قد تسلّم أولى التقارير الموجزة حول الاقتصاد. وقد أكدت له كلها أن الأمور ليست سيئة بالقدر الذي طرحه خلال الحملة. هي، في الواقع سيّئة كثيراً؛ لكنه كان يتحرك بسرعة وفاعلية باتجاه تشكيل الحكومة. أعلن من فوره تعيين رام إيمانويل ككبير موظفي البيت الأبيض، وأقحم رام رأسه من الباب ليلقي علينا التحية. كنت أعرف رام مذ كان يعمل على اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية: نافتا، في عهد الرئيس كلينتون. حتماً كان تعيينه خياراً صائباً.

اتسم اجتماعنا بالود والاحترام. سألني أوباما إن كان يهمني أن أشغل منصب وزير الخارجية. فأجبته بأنني أعرف جرّاء ترشحي للرئاسة سنة 2004 أن هذه قرارات شخصية لا يمكن إلا للرئيس اتخاذها؛ لكنّني أؤمن بتعهدات إدارته، وأريد أن أسهم بأي طريقة ممكنة. كان قد أُعيد انتخابي توّاً، ولم أكن أتوق إلى وضع استراتيجية خروج من مجلس الشيوخ. تكلّمنا بعض الشيء عن الوظيفة نفسها، عن حفنة من التحديات الصعبة: من إيران إلى أفغانستان، وركّز في أن السنوات القادمة ستضج بالتحديات المحلية التي ستكون لمعالجتها الأولوية القصوى. قال إنه سيرد علي، وإن لديه بعض المسائل السياسية ليحلها، وبعض الكراسي ليرتّبها، وإن من الجدير بنا الاستفاضة أكثر في الحديث عما قريب.

خرجت من مكتبه، ينتابني شعور واضح أن في ذهنه شخصاً معيّناً ليشغل منصب وزير الخارجية. وهذا الشخص ليس أنا. وسرعان ما علمنا أنها زميلتي السيناتورة كلينتون. كان قراراً جريئاً عندما عيّن في إدارته أكبر منافِسة سياسية له. تساءل الكثيرون: هل ستنجح هذه الخطوة؟ علماً أن السياسة الخارجية قد شكّلت لهما نقطة خلاف محتدم خلال مرحلة الانتخابات الأولية، ولطالما تصادما. لا شك في أن بعض مشاعر الضغينة بين فريقَي أوباما وكلينتون قد هدأت. وهذا أمر أعرفه جراء تجربتي الخاصة في العام 2008، عندما واجهت مشاعر الألم التي انتابت مؤيدي كلينتون في ماساتشوستس الذين غضبوا جرّاء دعمي لأوباما. أما النشطاء والمطّلعون على بواطن الأمور، فإنهم يرون أن أي طرف ينحاز إليه المرء في هذه الحملة

يمسي خطاً فاصلاً. هذا الخط ليس ثابتاً، ويتعذر محوه كما حدث في انتخابات كارتر/كينيدي عام 1980، ولكن أحياناً يضارعه نوعاً ما.

ولكن بعد الانتقال خطوة إلى الوراء، والنظر إلى الصورة الشاملة للأمور، أيقنت أن النجاح سيُكتب لهذين المسؤولين الكبيرين إن رغبا في المحاولة. من ناحية أوباما، وجدتُ أنها خطوة جريئة، خطوة تعزِّز ما قاله خلال حملته بخصوص جمع الناس معاً، خطوة تكفل له بشكل يلائمه تماماً، في حال إخفاق إدارته خلال السنتين الأوليين من عملها، ألا يكون بانتظاره في مجلس الشيوخ منافِسة ديمقراطية بارزة. عندما التقيت فريق الانتقال الخاص بي سنة 2004، تكلّمنا بشكل خاص عن توحيد الحزب بتلك الطريقة، وإيجاد طرق كي نستقطب إلى الإدارة حلفاء، وخصوماً سابقين أيضاً. اعتقدتُ بأن هيلاري وباراك سينجحان. وارتأيت أن هذه الخطوة ستلاقي الاستحسان العالمي، حيث ستعطي رسالة عن حسن الإدارة والوحدة.

صحيح أنه سيكون رائعاً أن أبدأ كأول وزير خارجية للرئيس أوباما، إلا أن سرعة مجريات الأمور بخصوص بقائي داخل مجلس الشيوخ أو انتقالي للمشاركة في إدارة الرئيس، منحتني اليقين حيال دوري في مجلس الشيوخ وما سأركّز به. لا شكَّ في أن أمر تفرُّغي لشغل منصب وزير الخارجية داخل إدارة أؤمن بها تماماً وأكون فيها محاطاً بالأصدقاء، عندما طرحه الأصدقاء، وجدته لافتاً. لطالما قلت، حتى لدى ترشُّحي لمنصب الرئيس، إن منصب وزير الخارجية يبدو أفضل وظيفة في العالم؛ فهو لا يحتاج إلى جمع التبرعات، ولا إلى وضع سياسات، بل إلى مجرد التركيز يومياً في جعل العالم مكاناً أفضل. كان ذلك ليمثّل فرصة استثنائية. ولكنني شعرت أيضاً بالارتياح لأنني لا أواجه هذا الخيار. كان قد أُعيد انتخابي مؤخراً بنسبة 66% من الأصوات في ماساتشوستس. وقد عملت سنوات طويلة كي أكتسب تلك الثقة. خضت حملات صعبة جداً لأصل إلى مجلس الشيوخ ولأبقى فيه، بما في ذلك الترشُّح أمام الحاكم الأكثر شعبية في أميركا سنة 1996، ويليام ويلد. بت الآن أحمل تفويضاً كبيراً من ماساتشوستس، وتيدي مريض، مما يعني أن ماساتشوستس ستواجه في النهاية خسارة عملاق كان دافعاً أساسياً للحكومة كي تستجيب لمطالبها منذ العام 1962. لذلك لا يُعدّ هذا الوقت الأمثل لي كي أترك ماساتشوستس أو المؤسسة.

بعد الانتقال خطوة إلى الوراء، شعرت أنني في مكان وزمان جديدين يختلفان عما عايشته طوال مسيرتي في مجلس الشيوخ، حيث بت أتمتَّع بأقدمية، لم أكن لأحلم بها في العام 1985، عندما كنت أقبع في آخر القائمة. بت الآن أشغل مقعداً في لجنة المال التابعة لمجلس الشيوخ، حيث مرَّر

سيناتورات، مثل راسل لونغ ودانيال باتريك موينيهان، بعض أهم التشريعات منذ أجيال؛ فشكّلوا بذلك السياسة الاجتماعية من خلال قانون الضرائب. وأيقنت أننا سنعمل لتمرير قانون إصلاح الرعاية الصحية، الذي طالما أملت بأن يصبح واقعاً ملموساً. منحتني مشاركتي في ثلاث لجان مختلفة، هي المال والتجارة والعلاقات الخارجية، فرصة للإسهام في رسم السياسات ضمن مروحة واسعة من المجالات التي تهمني: من التكنولوجيا إلى التجارة والعولمة إلى التغيُّر المناخي. كان ينتظرنا الكثير من العمل لنقوم به. وتحمَّستُ تحديداً لها قد نتمكّن من فعله خلال السنوات الأولى من هذه الإدارة، بوجود أغلبية ساحقة في مجلس النواب، وبوجود 59 مقعداً ديمقراطيًّا ستصبح 60، في مجلس الشيوخ. لم أختبر من قبل لحظة كهذه (مع تمتُّعي بالأقدمية). وكذلك حال أي من زملائي. أما أنا، ذلك الشخص الذي، سمع عن «الصفقة الجديدة» ، وعضو مجلس الشيوخ في حقبة ليندون - جونسون، وحقبة تشريعات «المجتمع العظيم» ، لكن لم يشهد حقبة تزدهر بالتشريع التقدمي الاستثنائي، فقد توسّمتُ الخير في منصبي كسيناتور أميركي.

عمدتْ كل مجريات يوم التنصيب عام 2009 إلى تعزيز ذاك الإحساس بوجود إمكانية وذاك الفيض من المثالية. بدا أن التاريخ يسلِّط أسطع أنواره على واشنطن ذاك اليوم، حيث صودف أن يجيء يوم تنصيب أول رئيس أميركي من أصل إفريقي بعد يوم واحد من ذكرى مارتن لوثر كينغ. كان البرد قارساً، ولكن الشمس مشرقة. تجمّع أولادنا وأسَرهم في المنزل في الصباح المبكر من ذاك اليوم، ووقفوا متدثرين بعضهم ببعض، إلى جانب أخواتي وكام، إيذاناً بالانطلاق إلى الكابيتول، عابرين زحمة سير خانقة جداً وحشوداً غفيرة لم يسبق لي أن رأيت مثيلاً لها في واشنطن (نعم، كانت الحشود أضخم كثيراً من تلك التي حضرت يوم تنصيب ترامب). تيريزا تحديداً أسَرَتْها الحملة الرئاسية. حتى أنها توجّهت إلى الديار كي تشارك في حملة بيتسبورغ مع ميشيل أوباما، فقدمتْ السيدة الأولى المستقبلية وسط تجمُّع جماهيري انتخابي في كارنيغي ميلون. وبالطبع كانت تيريزا وميشيل مفعمتين بمثالية مُعدية.

يصعب وصف حماسة تلك اللحظة وصفاً مناسباً. سبق لي حضور الكثير من مناسبات التنصيب، من حفل تنصيب آيزنهاور، حيث كنت أجلس على كتفيّ والدي محاولاً اختلاس النظر إلى المشهد البعيد الذي تتبدّى فصوله على الدرج الشرقي لمبنى الكابيتول، إلى تلك التي حضرتها عن مسافة أقرب بصفتي سيناتوراً، وكانت لتنصيب 4 رؤساء آخرين، 3 منهم جمهوريون وواحد ديموقراطي. أما حفل التنصيب هذا، فهو مختلف. لا بد من أن هذا الشعور كان

يسود يوم تنصيب الرئيس كينيدي، حيث ملأ الأجواء حس بالحيوية ووضوح الهدف.

احتشدت الجماهير الغفيرة على طول جادة مول. وعبّرت اللافتات ووجوه الحشود عن الترابط القوي الذي يتشاطره عدد كبير جداً من الأميركيين المتحدّرين من أصول إفريقية في تلك اللحظة. أما أنا الذي ألهمتني خلال دراستي الجامعية دعوة ألارد لوينشتاين للمشاركة في مسيرة من أجل الحقوق المدنية، ثم روّعتني في الربيع المقبل اللافتات التي كُتب عليها «لذوي البشرة البيضاء فقط» و«لأصحاب البشرة الملونة» ، والتي رأيتها أنا وديفيد ثورن في الاستراحات لدى مرورنا بالسيارة في منطقة الجنوب، فقد بدت لي هذه اللحظة منتظرة منذ أمد بعيد في أميركا. لقد أثبت تنصيب الرئيس أوباما إثباتاً قويّاً، وأكثر مما يمكن لأي خطاب أو نص تشريعي إثباته، أننا بالفعل نستطيع أن نكون البلد الذي نطمح أن نكون عليه.

أثّر بي حفل التنصيب على المستوى الشخصي أيضاً. ذلك أن زميلين لي سوف يؤدّيان قسم الرئيس وقسم نائب الرئيس. حيث إنني شاركت في لجنة العلاقات الخارجية لمدة 24 سنة مع جو، ولمدة 4 سنوات مع باراك. وقد تقاطعت فرق عملنا ومستشارينا وأُسَرنا السياسية في نواح عديدة. وعمدت أنا وتيدي إلى رمي أنفسنا في الحملة بكل حماسة. والآن من هنا، من أعلى السلالم الواقعة على الواجهة الغربية لمبنى الكابيتول، شعرت بأن الأمل قد وجد موطناً له وسط هذا البحر من القلوب البشرية.

للتنصيب قوة تحويل ملحوظة. رحت أراقب اللحظة التي تحوّل فيها جو بايدن إلى نائب الرئيس بايدن، والسيناتور باراك أوباما إلى الرئيس، بكل بساطة. وانتقلا معاً برفقة أُسرتَيْهما من وسط الهواء البارد على درج الكابيتول إلى المبنى المقبَّب. تقبّلا التهنئة والتمنيات الحارة من كل المتجمعين في الداخل. حينما وقفتُ هناك إلى جانب الرئيس الجديد وقدّمت إليه تحياتي، وقلت له: «أيها السيد الرئيس» ، عقد حاجبيه بعض الشيء، وكأنه يقول: «يا له من عالم مجنون!» . دوّن الرئيس ملاحظة على ورقة البرنامج التي اعتزمت الاحتفاظ بها كتذكار: «لقد وصلتُ إلى هنا بفضلكم» . بالطبع لم أؤمن بصحة هذا الكلام. فباراك أوباما أصبح رئيساً بفضل مهارته وعزيمته، ولأنه عمد بثقة عالية بالنفس، إلى الحكم بشكل صحيح على اللحظة السياسية، ورسم مساراً يتكامل مع الآخر. ولكن، مع ذلك، اعتبرتُ ملاحظته نوعاً من التذكار الذي يذكّرني بالطريقة الغريبة التي تقاطعت فيها حياتنا ومسيرتنا المهنية. ماذا لو...؟ لابدّ لي من التساؤل؛ فالحياة ممتلئة

بالتساؤلات. ماذا لو لم نشارك في تلك المناسبة التي تتناول الوظائف، والتي أقيمت في الناحية الجنوبية من شيكاغو سنة 2004، ولم ألتقِه مجدَّداً في الحملة؟ ماذا لو ارتقى اسم مختلف إلى رأس القائمة عندما كنت أنا وماري بيث كاهيل وجاك كوريغان نقلّب الخيارات بحثاً عن خطيب رئيسي في المؤتمر الديمقراطي في وقت لاحق من ذاك الصيف؟ ماذا لو؟ التاريخ يمسي تاريخاً عندما يحدث. ولكن على امتداده تمر الكثير من اللحظات الصغيرة التي استطاعت أن تغيّر مساره. ولكن ها نحن في وسط هذه اللحظة الراهنة التي ستنغرس في كتب التاريخ المستقبلية، وقد بدت حقيقية وصائبة تماماً.

أما أنا، فلم يُكتب لي الاستمتاع مطوّلاً بحماسة تلك اللحظة وتطلعاتها. فخلال الغداء الاحتفالي التقليدي الذي يجمع الحزبين ويعقب حفل التنصيب، المقام في غرف الكابيتول الجميلة، وفيما راح الرئيس الجديد يختلط بالحاضرين، سُمعت همهمة وشهيق وسط الحشود: انهار تيد كينيدي. من دون شك ادخر تيد طاقة كبيرة من أجل هذا اليوم الذي عمل جاهداً ليراه، ولكن كان الجو حاراً في الغرفة، وكان قد قضى وقتاً طويلاً وسط البرد في الخارج. أصيب هذا الرجل، البالغ من العمر 76 سنة، والذي يحظى بودّ أشخاص كثر في تلك الغرفة، بنوبة قطعت عليه الاستمتاع بهذا اليوم البالغ الأهمية في نظره. رحت أصلّي وأقول: «يا إلهي لا تسمح بحدوث هذه الأزمة اليوم» ، وقد تدفق كمّ كبير من الأدرينالين في أنحاء جسمي. وقفت إلى جانب تيدي، محاولاً حجب المنظر عن الكاميرات حيث رحنا نساعده في أولى لحظات النوبة. تساعَدْنا، أنا وكريس دود وأورين هاتش، على إخراج تيد من غرفة الغداء إلى غرفة مجاورة. وهناك قمنا بتمديده على السجادة، فيما تواصلت النوبة. حضر طبيب إلى المكان، ولكن ما أذهلني أنا وفيكي أن الطبيب لم يفعل الكثير لوضع حد للأزمة. ثم وصل المسعفون الطبيون التابعون لمبنى الكابيتول. وبعد أن جعلوا حالته تستقر بعض الشيء، رافقناه إلى سيارة إسعاف كانت بانتظاره. لم يرد لنا أن نفوّت هذا اليوم الاحتفالي، لذا حثّنا على العودة إلى الداخل. ولدى عودتي إلى الداخل، علمتُ بالأمر الآتي: بُعيد النوبة الصحية التي ألمَّت بتيد، تعرَّض روبرت بيرد، أول قائد ديمقراطي في مجلس الشيوخ، البالغ من العمر 91 سنة والذي بات شائب الشعر ومقعداً على كرسي مدولب، لحالة إعياء واختلال في التوازن، على أثر انزعاجه من رؤية ما حل بالرجل الذي كان قد أنزل به شر هزيمة سنة 1979.

في وقت لاحق من ذاك اليوم، توجّهت إلى المستشفى كي أرى تيدي. وجدته يضحك، وفي حالة أفضل كثيراً، وغاضباً جداً جرّاء ما حدث. وحافظت

فيكي على صلابتها خلال كل ما حدث. وظلت المرأة الحامية والمواسية. لكن اللحظة، كانت لحظة يقظة ذكّرتنا جميعاً بأن الحياة، حتى تلك التي تُعاش في قلب التاريخ، لا تدوم إلى الأبد. فالعمر يمر.

حاولت أن أطبّق ذاك الدرس بكل هدوء خلال عملي في مجلس الشيوخ. مطلع السنة، جلست مع فريق عملي الرفيع في مجلس الشيوخ. أردتُ أن أتكلم عن السنتين القادمتين، وأردت أن أحدِّد المسار الصحيح من البداية. «قد يتوقع منا الجميع أن نركّز في السياسة الخارجية. لكنني أود أن يسمح كل منكم ويعرف منّي الآتي: ثمة أمور كثيرة أخرى تهمّني جداً، وقد انتظرت حلول مثل هذه اللحظة منذ أمد بعيد، لحظة أصبح فيها لدينا رئيس ديمقراطي وكونغرس ديمقراطي وفرصة لإنجاز الكثير وسوف نتولى ما هو أكثر من مجرد السياسة الخارجية» .

طار فرحاً الأشخاص المعنيون بالسياسة المحلية ضمن فريق العمل. سبق لي أن رأيت في مجلس الشيوخ أن الافتراضات في كثير من الأحيان يمكن أن تتحول إلى حقيقة إذا سمحنا لها بذلك. السياسة الخارجية تهمني جداً، ولكنها ليست الوحيدة التي تهمني، على الإطلاق، وهي ليست المجال الوحيد الذي يخوّلني منصبي الرفيع الحالي أن أعيد صياغته. سبق لي أن رأيت تيد يخرج من عباب قضاياه المهمة التي يعالجها لكي يمثل صوتاً قويّاً في قضية مثل العراق. كذلك رأيت رجل المخصّصات العظيم روبرت بيرد يقوم بالأمر عينه. صحيح أن السياسة الخارجية مهمة لنا؛ لكنني أردت أن أكون سيناتوراً يُحدث فارقاً في أكثر من مجال. وأيقنت أن بمقدورنا القيام بذلك. سنحظى بأجندة ممتلئة جداً بالأعمال. تتربع على قمة القائمة ثلاث قضايا ما فتئت تؤثر بي منذ وقت طويل: توفير نظام رعاية صحية بتكلفة يقدر عليها الجميع، حماية البيئة، منع الحرب.

مثَّلت الرعاية الصحية القضية الرئيسية في مسيرة تيدي كينيدي السياسية. ولكنها تمثل لي أنا أيضاً شغفاً شخصياً. حيث ظللتُ لعقود أولي الرعاية الصحية كقضية مبدئية. وعندما ترشَّحت للرئاسة، كانت الرعاية الصحية واحداً من أولى المقترحات التي عرضت العمل عليها لأجل البلد. وأنا أرى فيها خطوة صائبة لأسباب أخلاقية، ولأنها مفيدة للاقتصاد. ذلك أن التكاليف المرتفعة جداً للرعاية الصحية تضرُّ بتنافسية مؤسساتنا. ولكنها أمست مسألة شخصية لي ولأسرتي. فابنتي فانيسا تعمل في مجال الطب في بوسطن. وقد رأت أن النظام متفكِّك وغير متساو من كل النواحي. مر بي، خلال مرحلة تشخيص إصابتي بالسرطان وخضوعي للعملية أوقات كثيرة ذكّرت فيها نفسي كم أنا محظوظ لامتلاكي أفضل بوليصة تأمين صحي في

العالم، ولما في جيبي من مال، في حال منح نفسي خيارات جديدة. لقد تسنّى لي أن أضع الأولوية لرعايتي الصحية وليس للفواتير. لكن هناك 44 مليون أميركي ليسوا محظوظين إلى هذا الحد، لأنهم يفتقرون إلى تأمين صحي. والملايين غيرهم لديهم تأمين صحي متواضع، أو يعانون مخاطر صحية تضاعف تكاليف بوليصات تأمينهم إلى درجة أنهم يسقطون في مغبة الاختيار بين تأمينهم وبين دفع الأقساط الجامعية لأولادهم. لا ينبغي أن يحدث هذا في أغنى بلد على وجه الأرض.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

كان أحد الأسباب التي دفعتني إلى دعمي حملة باراك أوباما وإلى العمل بجهد للمساعدة في انتخاب أغلبية ساحقة في الكونغرس، اعتقادي أنني سأحظى أخيراً بفرصة تمرير قانون إصلاح الرعاية الصحية في الولاية الأولى للرئيس الجديد.

وضعني مقعدي في لجنة المال داخل مجلس الشيوخ في قلب المعمعة. كان تيد كينيدي وكريس دود وطوم هاركين الأبطال الليبيراليين الأشاوس في لجنة الصحة والتعليم والعمل ومرتّبات التقاعد - HELP. لكنَّ لجنة المال لها صلاحية على العائدات الضريبية وبرنامجَي ميديكير وميديك آيد. وكان لدورنا أهميته في تمرير القانون. فقد وقعت على عاتقنا مهمة تأمين المال والمدخرات لدفع تكاليف الإصلاح، الذي بوسعنا أن نرسم معالمه.

في البداية، شعرت بالتفاؤل حيال هذه العملية. أبدى رئيس اللجنة ماكس بوكس ممثل ولاية مونتانا ذكاءً لعقده أولى جلسات الاستماع بشأن نظام الرعاية الصحية سنة 2008، أي قبل سنة من عملية التشريع. إذ أراد للسيناتورات أن يبدأوا بعرض اقتراحاتهم ليجري حفظها. أراد تشكيل سجل محفوظات عام. أراد للجميع من الجهتين الحزبيتين أن يشعروا بأنهم مُنحوا الوقت لتقديم ما لديهم.

تكون لجنة المكان في العادة مكاناً جامعاً. في السنوات الماضية، عمل جمهوريون، مثل أورين هاتش، إلى جانب الديمقراطيين على موضوع الرعاية الصحية. هنالك ما يكفي من الأسباب التي تدعو للاعتقاد بأن السياسات يمكن أن يتوافق عليها الحزبان. في النهاية، ظل الجمهوريون لسنوات يأيّدون تدابير مثل التغطية الفردية، وهي فكرة أن كل أميركي تقع على عاتقه مسؤولية شراء تأمين صحي تماماً، كما يتعيّن على كل سائق أن يشتري تأميناً لسيارته.

شكّل ذلك أساس الإصلاح الذي أيّده ميت رومني كحاكم لولاية ماساتشوستس. كنا على استعداد للتقدُّم باتجاه هذا المقترح. وفجأة، تنكّر له رومني نفسه، تنكّر لمشروع قانونه! كان يعد عدّة الترشُّح للرئاسة في العام 2012، ولن تتاح له فرصة للفوز، إذا بدا أنه يقف مع الحزبين.

رُفعتْ لافتات تحذير داخل مجلس الشيوخ منذ البداية. تواصل ماكس بوكس مع السيناتور الجمهوري مايك إنزي، ممثل ولاية وايومينغ، والتقاه عدة مرات، وهو الذي يُعتبر صوتاً أساسياً في اللجنة. أراد ماكس أن يتشارك معه للحصول على موافقة الحزبين. التزم إنزي العمل معه؛ ولكنه أراد أن تبقى اجتماعاتهما سرية. ليس ثمة ضير في ذلك ما دام المرء يعمل بنية حسنة. ولكن العمل راح يتباطأ جداً. وليس هذا فحسب، بل بدأ الجمهوريون يهاجمون إصلاح الرعاية الصحية متمسكين بحجة أن العمل يجري «خلف الأبواب المغلقة» . قالوا إنها «صفقة تجري في الغرف الخلفية» . كنا قد عمدنا في البداية إلى التعتيم على الأخبار، نزولاً عند رغبتهم. أما الآن، فقد راحوا يملأون الفراغ بأكاذيب حول العملية. والأسوأ من ذلك استغلوا فراغ عدم توفر مشروع قانون، وبدأوا ينشرون ادعاءات مغرضة حيال ما يمكن أن يحتوي عليه نظام إصلاح الرعاية الصحية الديمقراطي. الجمهوريون أنفسهم الذين ظلوا لسنوات يحاولون أن يقتطعوا المال من برنامج ميديكير، بدأوا يملأون الأجواء باتهامات موجهة إلينا، بأننا نقتطع من ميديكير، لنسدِّد تكاليف التأمين الصحي العام. والمثير للسخرية بالطبع أننا كنا نقضي الوقت في محاولة حث الجمهوريين على الانضمام إلينا، للعمل على الإصلاحات الصحية التي كانوا في السابق يؤيدونها. فما كان منهم إلا أن انتقدونا على دفعنا باتجاه القيام بشيء ما حيال هذه السياسات. راحوا يهاجموننا من كل اتجاه.

أيقنّا أن تيدي لم يعد لديه الكثير من الوقت. فحضوره في مجلس الشيوخ قد تضاءل. لكن عندما يكون هناك تصويت حساس في موضوع الرعاية الصحية، كان تيد يبذل جهداً خارقاً للحضور. أتذكر أنني نسّقت مع فيكي للحرص على إحضاره إلى مجلس الشيوخ، وإخراجه منه بأسهل طريقة ممكنة. فرحلة القدوم من هيانيس وحدها تشكّل خطراً عليه، بسبب ضعف جهازه المناعي وخطر إصابته بالتهاب ما، فضلاً عن الإصابة بالإنهاك.

لن أنسى أبداً ذاك اليوم من نيسان/إبريل 2009، عندما ركنتِ الحافلة المألوفة قرب الرصيف في الناحية الشرقية من مبنى مجلس الشيوخ. فُتح الباب وألقى علي كينيدي التحية بابتسامته الدافئة الرائعة. وبرغم صعوبة الرحلة، بدا جلياً أن تيد متحمس للعودة إلى مجلس الشيوخ. سحبته بالكرسي المدولب إلى الرصيف برفقة فيكي ومجموعة من عناصر شرطة مجلس

الشيوخ. دخلنا من الباب الخلفي، واستخدمنا المصعد للارتقاء إلى الرواق الخلفي لقاعة مجلس الشيوخ. ثم سحبت كرسيه المدولب إلى الباب. بمجرد أن وصل تيد إلى الباب، أراد النهوض عن كرسيه والسير على أرض مجلس الشيوخ بنفسه. لدى ظهوره ضج مجلس الشيوخ بالتصفيق بشكل انفعالي ومطوّل. اغرورقت عيون الكثيرين منا بالدموع، باستثناء حفنة قليلة. ولم يتوقع أي شخص أن يحضر تيد للتصويت في ذاك اليوم. في الواقع، لحظة رآه الجمهوريون يدخل القاعة، أيقنوا أنهم سيخسرون في التصويت. أولئك السيناتورات، الذين لم يريدوا تصويتاً مسجلاً ضد برنامج ميديكير، غيّروا فوراً أصواتكم، بعد أن بات الفوز محسوماً. ونحن المنتمين إلى جهة الديمقراطيين، أيقنا أن رحلة تيد الصعبة تستأهل الجهد. وقد تجمّع السيناتورات حوله لمصافحته والترحيب بعودته.

جلست أنا وكريس دود في الصف الخلفي قرب طاولته. ورحنا نصغي إلى تيدي وهو يمتعنا، وهو يقلّد لنا كيف راح يرمي الكرة في افتتاح موسم ريد سوكس في السابع من نيسان/إبريل، بعد 97 سنة من قيام جدّه عمدة بوسطن جون فيتزجيرالد الذي يحمل لقب هوني فيتز بفعل ذلك سنة 1912، في المباراة الأولى من الدوري الممتاز التي لُعبت على أرض فينواي. ضحك تيد، وراح يهزأ إزاء مدى تردّد يده وعضلاته في إطاعة أوامره. دُهشت أمام هذه اللحظة من التواضع والهزء المنتقص من الذات في وجه واقع محبط. وقد دأب تيدي أن يقول على مر السنوات، يجب أن نأخذ الأمور بجدية، لكن من دون أن نأخذ أنفسنا بجدية. إنه سيد من طبّق هذا الكلام أيضاً.

ولما كنت على تواصل دائم مع فيكي طوال الأسابيع والشهور تلت تفاقم حالة تيد، فقد علمت أنه لم يعد لديه الكثير من الوقت. في نهاية تموز/يوليو أو بداية آب/أغسطس، رتّبت معها زيارة إلى منزلهما في هيانيس. خلال مرور السيارة برصيف الميناء الشهير، حيث التُقطت بلا شكّ مئات من الصور لتيدي وهو يسير باتجاه البحر لكي يبحر عصراً، محاطاً بأحفاده وأبناء إخوته وبناتهم، على متن مركبه الشراعي العزيز مايا فوق مياه نانتاكيت ساوند، اجتاحني دفق من الذكريات خلال اقترابي من منزله. تقدَّمت باتجاه الشرفة الأمامية للمنزل الذي ترعرع فيه، منزل والديه الشهير، جو وروز، وهو المكان الذي مرّت به الكثير من اللحظات التاريخية الاستثنائية. أيقنت أنها ستكون على الأرجح زيارة وداع. ولما كنت أكره الوداع، فلم أعرف كيف عساي أقوم بتلك الزيارة. جلسنا على الشرفة نتفرَّج على منظر البحر الرائع، وعلى المياه التي أبحر فيها تيدي وجاك وبوبي طوال حياتهم. تكلّمنا على الأوقات السعيدة، وعلى الإبحار ومجلس الشيوخ، وما يجري في مجال السياسة. بدا تيد هادئاً مطمئناً جداً. تساءلت إن كان ينتابه الغضب كما قال ديلان توماس في

قصيدته، «يصبّون جام غضبهم على احتضار النور» . ولكنه لم يعط أي إشارة تدل على شعوره بالغضب أو التمرد على قدَرِه. لمستُ مدى متانة علاقته بفيكي، التي أدارت شؤون حياته بكل بطولة، منذ لحظة تشخيص مرضه، وما قبلها.

عندما شعرت بأنني جلست لمدة كافية قد تفوق قدرته على التحمل، قلت إن عليّ العودة إلى بوسطن. فنهضنا واقتربت من تيدي وعانقته. طوال السنوات التي عرفتُ فيها تيد كينيدي لم أعانقه، ولا حتى عقب انتصاراتي في الانتخابات أو انتصاراته هو. لطالما ختمنا لقاءاتنا باحتفاء صاخب أو بمصافحة من القلب، أو تربيت قوي على الظهر. ولكن هذه المرة عانقته بقوة، وبقيت أحتضنه للحظات، وكذلك فعل هو.

ومع أنني أعرف كم أن تيد قد عاش الحياة بطولها وعرضها، تساءلت آنفاً: هل عاش مرحلة غضب، أو خبر شعوراً بالمرارة حيال وضعه؟ أخبرتني فيكي أنه لم يشعر قط بالمرارة، ليس فقط لأنه اختبر خسارة إخوته وأختيه وتجاوز ذلك، بل لأن اثنين من أولاده حاربا مرض السرطان. وكان، عندما ينظر إلى حياته الماضية، يشعر بأنه محظوظ.

اعتقد تيد أن علاجه ورحلته قد يساعدان أشخاصاً آخرين، وربّما أنقذا بعض الأرواح. لقد وصل بشكل واع إلى مرحلة من السلام الروحي، حيث بات يعتقد أن من المهم الإظهار للناس كيف يموتون. وقد فعل ذلك من خلال العيش حتى النهاية. ظل يبحر حتى أسبوعين فقط من وفاته، عندما لم يعد قادراً على الاستمتاع بشغفه هذا. حتى الليلة الفائتة، ظل يجلس عند طاولة العشاء بصفته رب الأسرة. قالت فيكي لاحقاً إنه لم يرحل بهدوء، بل على العكس؛ فهو منذ اليوم الأول لتشخيص مرضه، تشاطر تيدي وفيكي أوقاتاً هادفة، وصفاها كلاهما بالممتعة. حتماً كانت ممتلئة بالتحديات؛ فقد شهدت إلقاء خطابه في مؤتمر أوباما في دنفر، واستعداده لتلقّي درجة فخرية من جامعة هارفرد، وإتمام مذكّراته الملهمة، التي تُعدّ بوصلة حقيقية (رغم أنه لم يعش حتى يرى النسخة التي نُشرت بعد شهر من وفاته)، ومواصلة قتاله لأجل إصلاح الرعاية الصحية، وحضوره جلسات في مجلس الشيوخ حتى أيار/مايو 2009. وخلال كل هذا، كان يُعالج من إصابته بالورم السرطاني الذي يتآكل حياته. وافته المنية مساء السادس والعشرين من آب/أغسطس. نظرت إلى المحيط، حيث التقت المياه الرمادية السماء الرمادية، وحيث اختفى الأفق. كادت السماء تبدو في حالة حداد. لم يكن وقت إبحار. ولكن عصر اليوم التالي، خلال جلوسي في منزله، نظرت إلى مياه، نانتاكيت ساوند الرائعة، وخُيل إليَّ أنه حتماً على متن مركب شراعي يبتسم ويبحر. خلال جنازة تيد في

بوسطن، عندما دعاني لإلقاء كلمة بول كيرك، الرجل الذي عُيّن ليملأ المقعد في مجلس الشيوخ مؤقتاً، تركتني مقدّمته التي قالها بول عاجزاً عن الكلام لوهلة: «السيناتور صاحب الأقدمية عن ولاية ماساتشوستس، جون كيري» . لم يخطر لي قط أن ترمز هذه الكلمات إليّ، لأنني لم أتخيل مجلس الشيوخ أو ماساتشوستس من دون تيد. لكنني عندما سمعتها، شعرت بثقل يختلف عن السابق. شعرت بمدى وجوب الاستعجال بأداء مهماتي كسيناتور في هذه اللحظة: علينا أن ننجز العمل على مسألة الرعاية الصحية.

عندما رجعت إلى مجلس الشيوخ بعد مراسم دفن تيد، تذكّرت أحد الأحاديث التي تبادلناها عند بداية فصل الصيف. أخبرت تيد بأنني أخشى أن نعلق في موضوع الرعاية الصحية، وأن يؤدّي الجمهوريون دور الضعيف الذي ينهك خصمه بهدف الفوز. كان تيد يتابع المسألة عن كثب من خلال فريق عمله في واشنطن ومن خلال فيكي، وهي نفسها خبيرة في الرعاية الصحية. قلت له إن زعيم الأغلبية هاري رايد يعتقد أننا في النهاية قد نحتاج إلى تمرير مشروع قانون بأصوات الديمقراطيين حصراً. فأضاءت عينا تيدي. فقد سبق له أن سلك هذه الطريق مرات عدة. إنه يعرف أن هذه الفرص التاريخية لا تتاح كثيراً.

في اجتماع الحزب الديمقراطي، قلت إننا نحتاج إلى تمرير مشروع قانون، نقطة على السطر. ما كنا نحاول فعله ليس سهلاً. لم يكن سهلاً على فرانكلين روزفيلت عندما جرب القيام به، كذلك لم يكن سهلاً على هاري ترومان ولا على بيل كلينتون. لكن لا يبدو أنكم ممن يتراجعون، ولستم ممن يتخطّون قدراتهم فسيخفقون. وسردت القصة التي اعتقدتُ أن تيد كان ليسردها لو كان موجوداً. لطالما قال تيد كينيدي إن أكبر خطأ اقترفه في السياسة كان عندما رفض صفقة في الرعاية الصحية مع ريتشارد نيكسون سنة 1971؛ واقتضى أن تقوم كل الشركات بتوفير خطة تأمين صحي لموظفيها، مع إعانات فيدرالية للعمال ذوي الدخل المتدنّي. تراجع تيدي عنها تحت ضغط كبير من الديمقراطيين الذين أرادوا انتظار تبنّي نظام أحادي الدفع بمجرد أن يستعيد الحزب السيطرة على البيت الأبيض. مرت 38 سنة، ولا يزال النظام الأحادي الدفع من دون تحقّق. وها نحن في العام 2009، نقاتل كي نحصل على أقل مما أمكننا الحصول عليه في العام 1971! الدرس الذي علّمني إياه تيدي، ونقلته إلى الحاضرين في الاجتماع الحزبي، مفاده الآتي: حينما يتعلق الأمر بالإنجازات التاريخية في أميركا، عليك أن تقدِّم أفضل صفقة ممكنة، ثم عليك البدء فوراً بالضغط نحو إيجاد طرائق لتحسينها. لن نحظى

بستين عضواً ديمقراطيّاً إلى الأبد. لن نحظى برئيس ديمقراطي إلى الأبد. هذا هو الوقت المناسب. لا يسعنا أن نسمح لأنفسنا بأن نُجرّ إلى معارك طاحنة. أولئك الذين يريدون ما يُسمّى بـ«الخيار العام» محقّون. يجب أن يكون قانوناً. وأنا أؤيده. ويستحق صوتاً. وأنا مستعد لتأييده كما فعلت على الدوام. ولكنني لن أخسر الفرصة لتمرير قانون الإصلاح، لمجرد أنني لم أستطع الحصول على كل ما أردته.

عقدنا جلسة عامة في لجنة المال لنقل التشريع إلى قاعة مجلس الشيوخ. لم نعد ننتظر الجمهوريين. قمتُ بوضع خطة لجمع عائدات كبيرة من أجل دفع تكلفة الإصلاح، من طريق ضريبة غير مباشرة على ما يُسمّى خطط كاديلاك الصحية التي تقدِّمها بعض الشركات. هذه الضريبة لا تُفرض على الأفراد، بل على المؤسسات الكبيرة القادرة على دفعها. تبنّاها زملائي. كذلك أقنعتُ اللجنة بتبنّي بند رئيسي من الخطة الصحية التي اقترحتها، عندما ترشّحت للرئاسة، وهو: خفض تكاليف الرعاية الصحية للأشخاص الذين يتكبّدون تكاليف طبية كارثية، من خلال تشكيل مجمع نقدي لتسديد تلك التكاليف. وهو ما يُسمّى إعادة التأمين. فكّرت بالناس الذين التقيتهم من وراء الحبال في العام 2004، من أشخاص يعانون أمراضاً سرطانية نادرة، وأطفال يعانون أمراضاً مزمنة تتطلّب رعاية مدى الحياة. يجب أن يتمكنوا من الحصول على تأمين صحي بتكلفة معقولة. كذلك أفلحت في وضع مجموعة من الاقتطاعات الضريبية ضمن التشريع الصادر عن لجنتنا، لجعل التأمين الصحي ميسور التكلفة للشركات الصغيرة. لم تكن هذه أموراً صغيرة، بل هي أمور بقينا نكافح لأجلها عقوداً، وحتماً على امتداد السنوات الخمس والعشرين التي قضيتها في مجلس الشيوخ.

في ذلك الخريف، عادت مسألة الرعاية الصحية لتمسي من جديد، وعلى نحو غير متوقع، مسألتي الشخصية. كنّا، في أسرتنا، نطلق على تيريزا بصورة محببة لقب د. تي. فوالدها كان يعمل طبيباً في موزامبيق. وخلال طفولتها كانت تتبعه وسط الأحراج لتشاهده وهو يعتني بالسكان الأصليين. لطالما أسرها عالم الطب. وفي وقت لاحق من حياتها، باتت حتماً تعرف عن الطب أكثر من أغلب السيناتورات وحتى بعض الأطباء. غالباً ما كنت أسمعها تسدي عبر الهاتف نصائح لأصدقائها الذين يتصلون بها لأخذ رأي طبي ثانٍ حول مشكلة يعانون منها. كانت تتمتع بقدرة فائقة على معرفة الأعراض وتفسيرها. ذاك الخريف أجرت فحصاً أفضى إلى تشخيص إصابتها بسرطان الثدي. فخضعت لعملية جراحية لإزالة الورم السرطاني، ثم خضعت للعلاج بالأشعة لكي تتمتع بصحة جيدة. شعرت بالإنهاك وببعض الخوف، ولكنها كانت بين أيدي

أعظم الأطباء والممرضات. وفيما كانت تخوض كل هذا، سقط الكونغرس في معمعة الارتباك والتأجيل. فقد كانت مسألة «كتائب الإعدام» التي اخترعتها سارة بالين تأخذ حيزاً من النقاش على شاشات التلفزة أوسع من موضوع نظام الرعاية الطبي الحقيقي الذي ينقذ الأرواح، والذي حُرمت منه ملايين النسوة. ففي الوقت الذي يقوم فيه الكونغرس بالتأجيل، كم من امرأة حُرمت صور الثدي الشعاعية التي أنقذت حياة تيريزا؟

خلّفت وفاة تيدي فراغاً في مجلس الشيوخ لا تزال تُلمس آثاره من نواحٍ عدّة حتى يومنا هذا. ولكنها تركت أيضاً نقصاً في الأصوات اللازمة لتمرير قانون الإصلاح. كان تيد ليتمنّى الوقوف في وسط مجلس الشيوخ لمرة أخيرة، والإدلاء بالصوت الستين المؤيّد لقانون الإصلاح الذي كافح لأجله وهو لم يزل في الثلاثينات من عمره. ولكن وفاته دفعت إلى إجراء انتخاب خاص في ماساتشوستس هدّد إمكانية تمرير هذا القانون. ذلك أن ماساتشوستس ليست صامدة أمام المزاج الوطني. فقد أمضى الجمهوريون سنة يعرقلون خلالها التقدم، ثم أنحوا باللائمة على الرئيس أوباما في عدم إحراز أي تقدم. وهذا معيب. لكنه كان فاعلاً. فحركة حزب الشاي في ذروتها. وفي كانون الثاني/يناير 2010، جرى انتخاب سيناتور جمهوري غير معروف كثيراً من رينثام، يدعى سكوت براون، ليحلّ محل تيد. كان سكوت ماهراً في الحملات، يركب موجة الجمهوريين الكبيرة. بات قانون إصلاح الرعاية الصحية في خطر.

وجدتُ أننا بحاجة إلى إخضاع قانون الرعاية الصحية للتصويت وبسرعة. كنت فخوراً بما كنا نقوم به. ولكن الأهم من ذلك أننا كنا نسجِّل مواقف الجمهوريين. فقد أتيحت لهم فرصة اقتراح التعديلات. وسنحت لهم الفرصة كي يكونوا بنّائين. ولو أرادوا أن يعبِّروا عن رفضهم، لشاهدتهم البلاد كُلُّها يفعلون ذلك.

لم يقوَ أحد على الادعاء بشكل موثوق أنه لم يحصل على فرصة ليدلي بدلوه بخصوص مشروع القانون هذا. فقد قضت لجنتا المال والصحة في مجلس الشيوخ شهوراً في التفاوض. ومررت مشروعات قوانين تتضمن أكثر من مئة تعديل بوساطة الأقلية. وظل الجمهوريون يرفضون التصويت بالموافقة عليها.

السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل سنتراجع أم سنقاتل؟ كان ثمة أشخاص في البيت الأبيض يحثون الرئيس أوباما على التراجُع. فقد أدركوا مدى الخطر الذي سيترتب على رئاسته في حال خسارته معركة تشريعية بعد الانتخابات النصفية الصعبة. فاتخذ القرار الشجاع بالمطالبة بالتصويت. عمدنا إلى التصويت: فقد استخدمنا عملية تسوية الميزانية لتمرير قانون إصلاح

الرعاية الصحية، من دون أي صوت جمهوري داعم للأفكار التي اضطر الجمهوريون إلى إسناد حملاتهم الانتخابية عليها طوال عقود. هيمنت حركة حزب الشاي على الحزب الجمهوري. ولكن بات مزيد من الأميركيين يتمتعون بالرعاية الصحية.

أردت فيما مضى تسمية القانون باسم تيدي، ولكنه اتخذ اسماً خاصاً به: أوباماكير. أيقنت أن تيد كينيدي كان ليروقه هذا الاسم بالقدر نفسه. فتيد في مكانه الآن يرسم على وجهه تلك الابتسامة الإيرلندية العريضة.

شكل موضوع البيئة شغفاً وهوساً لي في آن مذ كنت طفلاً، وتحديداً عندما انخرطت في يوم الأرض الذي عُقد لأول مرة سنة 1970، بعد عودتي إلى الديار من الخدمة العسكرية.

لعل السبب في ذلك يعود إلى الدروس التي لقّنتني إياها أمي، الرائدة في مجتمعها بخصوص التدوير، أو يعود إلى النزهات في الطبيعة التي كانت تصطحبنا فيها عندما كنا صغاراً، فتجرُّنا وراءها وسط الغابات. ولعل السبب يعود أيضاً إلى الحماسة التي انتابتني لدى متابعتي يوم الأرض لأول مرة، وهو يوم ضخ طاقة شعبية في حركة سياسية قادرة على هزيمة أعضاء في الكونغرس صوّتوا ضد قانون البيئة. ففي الوقت الذي كانت تُرتكب فيه أخطاء كثيرة في أميركا خلال عهد ريتشارد نيكسون، أقدم المواطنون العاديون على فعل أمر صائب جداً بجعلهم مسألة البيئة موضوع تصويت.

ولكن أيّاً يكن السبب، باستثناء مسألتَي الحرب والسلم، فقد ركّزتُ في قضية البيئة، ورحتُ أكدُّ في العمل عليها أكثر من أية قضية أخرى، طوال مسيرتي المهنية، كمواطن وكقائممقام، وخلال سنوات عضويتي في مجلس الشيوخ، بما في ذلك ترشُّحي للرئاسة عام 2004.

ولا شك في أن التزامي هذه القضية قد خضع للاختبار. حيث حاول البعض، حتى من ضمن فريق عملي السياسي، إقناعي بأنها ليست قضية رابحة، بل هي أشبه بأرض مزروعة بالألغام السياسية، وفق قولهم. استشاطوا غضباً عندما تعاونت، خلال الاستعداد للحملة الرئاسية مع جون ماكين، في محاولة لتمرير قانون لرفع المعايير بشأن الانبعاثات الصادرة عن الآليات: «لا يمكن تمرير هذا القانون، لمَ عساك تقدِّم مشروع قانون وتخرّب علاقتك بكل ديمقراطي يصوِّت في انتخابات ميشيغان الأولية؟» . تفهمت قلقهم على مسيرتي السياسية، ولكنني لم أعتزم التخلي عن شخصيتي وعما أؤمن به. لا أعتقد أن المرء يفوز بتلك الطريقة. يفوز المرء من خلال القتال في سبيل

قضية ما، ومواجهة الاختبار الذي كان رون روزنبليث يسميه «اختبار الرجل المتحدّي» . أحياناً تعمد المقارّ الرئيسية الوطنية إلى اقتطاع ملاحظات حول التغير المناخي من خطاباتي؛ فأعاود إضافتها. أنا أرى كثيراً من الديمقراطيين في ميشيغان، بينهم محاربون قدماء، ومناصرون للبيئة، وعمال منتمون إلى النقابات، يجدونها فكرة ممتازة أن نصنع سيارات توفّر البنزين حتى لا يضطر ابن واحد منهم إلى ارتياد الشرق الأوسط، الموت هناك من أجل النفط. بهذه الطريقة بالضبط ترشَّحنا وفزنا في ولاية ميشيغان مرتين: في الانتخابات التمهيدية، ثم في الانتخابات العامة. فقد شرحت القضية للناخبين وجهاً لوجه، وأقنعت حوالى 5 , 2 مليون شخص من ميشيغان بأنّ أمر وظائفهم وهوائهم النظيف يهمّنا، وحرمت كارل روف من أمله بتحويل ميشيغان إلى ولاية جمهورية حمراء.

بحلول العام 2009، فكّرت أن بمقدورنا تحويل كل سنوات العمل على موضوع التغيُّر المناخي إلى جهد قد يكسر أخيراً جمود الكونغرس حول واحدة من أهم القضايا الوجودية لكوكب الأرض.

قضيت سنوات كثيرة في منع حدوث أشياء مضرّة بالبيئة، منها: تعطيل جهود بوب دول الرامية إلى الإضرار بقانونَي الهواء النظيف والمياه النظيفة في تسعينات القرن العشرين، ودفع المعطّلين مراراً وتكراراً لإيقاف الحفر في محمية الحياة البرية القطبية الوطنية. راقت لي تلك المعارك. ولكن عندما بدأت ولايتي الخامسة، بوجود الرئيس أوباما في البيت الأبيض، وبوجود 60 ديمقراطياً في مجلس الشيوخ، ارتأيت أننا أخيراً حظينا بفرصة لنقوم بأكثر من منع وقوع ما هو سيّىء. ارتأيت أن بوسعنا جعل موضوع التغيُّر المناخي موضوعاً للنقاش. ارتأيت أن البيئة التشريعية مناسبة.

وعد الرئيس أوباما، أثناء حملته الانتخابية، بمعالجة موضوع التغيُّر المناخي. ولديه الآن الأغلبيات الفاعلة الكبيرة التي تلزمه لكي يقدِّم أجندة عمل. لقد صوَّت كثير من الجمهوريين في الماضي دعماً لقانون يقر بأن التغيُّر المناخي أمر حقيقي. لقد تبنّوا حلولاً مستندة إلى السوق لمعالجته. والآن بعد توفّر خيار تمرير قانون يتضمن حوافز تساعد الشركات على دفع تكاليف التخفيف من التلوث الكربوني، أو مجرد دفع القسم التنفيذي إلى سن تنظيمات، وجدتُ أن السيناتورات سيشعرونَ بأن لديهم القدرة على التشريع.

علينا أن نضع سعراً على الكربون، أي أن نجعل من مصلحة السوق أن تفتِّش عن حلول لاستخدام طاقة منخفضة الكربون، وخلق ملايين الوظائف في خضم فعل ذلك.

ولكن مجلس الشيوخ مكان قاس لإصدار تشريعات في موضوع التغير المناخي. إذ لا يمكن لك مجرد النظر إلى قائمة من الديمقراطيين والجمهوريين. فثمة سيناتورات كُثُر من منطقة الغرب الأوسط يمثّلون مقاطعات تُعنى بالصناعات الثقيلة. يجب مساعدتهم على إقناع ولاياتهم بأن هذا القانون لن يقضي على الوظائف، وأن التوربينات والدوارات اللازمة للطاقة المنخفضة الكربون يمكن تصنيعها في أوهايو وميزوري أيضاً. ويجدر التمكُّن من مخاطبة جمهور لم يغيّر رأيه أصلاً في موضوع التلوث.

قبل بضع سنوات، وبعد أن رأينا الحركة البيئية تتعرَّض للتوهين والاستهزاء من خلال نعتها بالنخبوية، ألّفت أنا وتيريزا كتاباً بعنوان «هذه اللحظة على الأرض» . تكلّمنا مع أصحاب مزارع ومع فلاحين وعمال اتحاديين لا يعتبرون أنفسهم مناصرين للبيئة، بل يعتمدون على الهواء والماء النظيفين لتحصيل معيشتهم. هؤلاء الأشخاص يتكبّدون الخسائر، لأن التغيُّر المناخي يسبِّب الجفاف في منطقة الغرب. حتى أن بعض الفلاحين حصّلوا المال من خلال تحويل حقولهم إلى منشآت ألواح شمسية لتوليد الكهرباء. كنت مقتنعاً بأن التغيُّر المناخي كان يجب أن يُسوّق كمسألة مركزية تهمّ الطبقة الوسطى وعموم المواطنين. كنت أرى أن هذه هي الفكرة التي يجدر طرحها في مجلس الشيوخ، ووجدت أن بوسعي فعل ذلك.

عمد مجلس النواب إلى تمرير مشروع قانون التغيُّر المناخي؛ لكن مجلس الشيوخ كان قصة مختلفة. ففيه نحتاج إلى 60 صوتاً. هذا يعني أن علينا التفكير بكل ما قد يُعدّ مشكلة للسيناتورات الذين يمثّلون ولايات، مثل فيرجينيا الغربية وأوهايو وبنسلفانيا، وأيضاً ميشيغان.

وجب علينا أن نعالج مقدَّماً مروحة المشكلات المتعلقة بالتكلفة التي سيتحمل عبئها دافعو الضرائب في تلك الولايات، وكيف ستتأثر كل صناعاتهم. كان لزاماً علينا أن نفعل كل ما بوسعنا لنحصل على موافقة الديمقراطيين، وكذلك الجمهوريين.

احتجت إلى جمهوريٍّ ليكون شريكاً لي.

فدخل على الصورة ليندزي أولين غراهام، وهو جمهوري من كارولاينا الجنوبية. يشبه ليندزي جدّاً مجلس الشيوخ القديم. وأنا أعرفه منذ العام 1985: إنه ذكي جداً، ومرح، ومتحدّث لبق على الدوام، قوي العزيمة وعنيد، لكنّه يصمّم دوماً على إيجاد طريقة لتحقيق هدف ما. بيد أن رصيدَي التصويت لكلٍّ منا لا يتطابقان. فليندزي محافظ فخور جداً. ولكن تسنّى لنا التعارف جيداً خلال انتخابات العام 2008، عندما كان يجري تحديد موعد لنا معاً كبديلين لجون

ماكين وباراك أوباما، على التوالي. قال ليندزي ممازحاً: إننا تواجهنا معاً على كل محطات التلفزة باستثناء محطات الطعام. بعد ظهورنا التلفزيوني المتكرّر، ولدى قيامنا بمسح طبقة مساحيق التبرُّج عن وجوهنا، كان ليندزي يلومني، مبتسماً دائماً، على دفاعي الشرس عن المرشح الديمقراطي، وهو يفتح الزجاجة الثانية أو الثالثة من مشروب كوك زيرو. لقد غدا مقرّباً جداً من جون ماكين، وجمعت بيننا محبتنا لجون، حتى لو كنا على طرفَيْ نقيض من الحملة الانتخابية تلك السنة.

استضفت ليندزي بضع مرات إلى جانب زملاء وضيوف آخرين على حفلات عشاء تمحورت حول موضوعات معيّنة. ذات ليلة، وجد ليندزي كلب تيريزا، من نوع شناوتسر ويحمل اسم كلوسو، تحت كرسيه. لحسن الحظ، كان ليندزي محبّاً للكلاب ومعجباً جداً ببيتر سيليرز، في الوقت عينه. فتوافق هو وتيريزا بسرعة. كذلك زارني ليندزي أيضاً على العشاء الذي تمحور حول التغيُّر المُناخي والأمن الوطني، فبدأ عقل كل منا ينشغل بالأمر. تبادلنا بضعة أحاديث حول خطة مُناخية أساسها السوق، قد تحفِّز الجمهوريين أن يوقِّعوا على القانون.

في تشرين الأول/أكتوبر 2009، أتى ليندزي إلى مكتبي، وأخبرني أنه فكر في الأمر وأنه يوافق على الانضمام. فطرت فرحاً. بعد 15 دقيقة، كنا جالسين أمام حاسوبي نطبع صفحة افتتاحية مشتركة للصحف التي ستصدر في عطلة الأسبوع، نرسم فيها إطار حل جديد لمشكلة قديمة.

شعرت بأن مجلس الشيوخ يعمل كما ينبغي له أن يعمل. حيث يدرس المرء مشكلة معيّنة، ويجري البحوث حولها، ويأخذ وقته باستثمار العلاقات الشخصية والإصغاء إلى وجهات نظر الآخرين، ويتعلّم أن يرى المشكلة عبر عيون الآخرين. هذا ما قمنا به أنا وليندزي، واعتقدنا أن لدينا تركيبة قد تجتذب من الحزبين أشخاصاً يرغبون أن يعالج الكونغرس مشكلة التغيُّر المُناخي، ويشرع في تحويل الطاقة.

تحوّل جهدنا الثنائي إلى ثلاثي، عندما انضم إلينا المستقلّ جو ليبرمان، وهو المناصر المخضرم لسياسة التغيُّر المُناخي منذ أمد طويل، كحالي.

جمعتني بجو صداقة منذ مدة طويلة. كان سيناتوراً شاباً وتقدُّمياً يمثِّل ولاية نيو هايفن. وقد تطوع طالب يدرس الحقوق في جامعة يال يدعى بيل كلينتون في السباق الأول لجو سنة 1970. عمل جو بعد ذلك كنائب عام للولاية. وفي العام 1987، أسهمتُ في إيصال جو لكي ينافس لويل ويكر على عضوية مجلس الشيوخ الأميركي. وفي وقت لاحق، اختلف جو في الرأي مع حزبنا

على مسألة الحرب العراقية. وترشَّح لإعادة انتخابه كمستقلّ في العام 2006. كان وقتاً عصيباً جداً عليه، ووقتاً صعباً على كثيرين منا لم يعجبهم موقف جو من الحرب، لكن يروق لهم شخصه. كنت أتطلع إلى العمل معه مجدداً، لإعادة إحياء صداقتنا في سياق قضية لطالما وقفنا فيها أنا وهو جنباً إلى جنب.

أملتُ أنا وليندزي وهو أن نضيف جون ماكين إلى فريقنا المجيد. كان جون قد أظهر بعض النيات الحسنة المستقلة بخصوص موضوع التغيُّر المناخي قبل سنوات، لدى عمله مع جو على مشروع القانون. عندما لحظ فرصة متاحة ليكون المرشح الجمهوري في العام 2008، كفّ عن التركيز في تلك القضية البيئية المهمة. لكن حتى خلال حملته، واصل الاعتراف بأن التغيُّر المناخي أمر واقع.

عندما سافرت إلى بالي لحضور مؤتمر الأمم المتحدة حول التغيُّر المناخي في كانون الأول/ديسمبر 2007، قلت للحضور هناك إننا، بوجود ماكين أو أوباما أو كلينتون في قمة قائمة مناصرينا سنة 2008، سوف نحصل على الإجماع في أي خطوة نتَّخذها في موضوع التغيُّر المناخي.

ولكن زميلة جون في الترشح للرئاسة عام 2008، الحاكمة سارة بالين، كانت سبّاقة لزمانها: فحركة حزب الشاي في طور التشكّل. وفي العام 2009، أمسى جون ماكين رجلاً موسوماً، محط تحدٍّ انتخابي كبير. فتفادى التعامل مع الديمقراطيين، حتى معي ومع جو ليبرمان، صديقَيْه القديمَيْن. وتفهّمنا الأمر. ولكن بقينا نأمل أن يتهرّب جون من هذا التحدي الانتخابي، ويأتي للانضمام إلى جهودنا. كنا نحدثه عن الأمر في قاعة مجلس الشيوخ. لم يكن وقتاً ساراً له، ولكن لطالما أفلح ليندزي في دفعه إلى الابتسام. بدأ جو يُسمّي حملة الاستقطاب التي نقوم بها العملية سيدني، في لفتة احترام لاسم جون الأوسط. حتى أنني طبعت الاسم على قمصان قطنية. للأسف، لا تزال القمصان مخزنة داخل صندوق في مكان ما. فالضغط على جون، وهو الرجل صاحب الكبرياء والمبادئ، خلال الدورة الانتخابية كلّها للعام 2010، كان هائلاً.

لم يكن التحدي الانتخابي التمهيدي الذي فُرض على جون ماكين المشكلة الوحيدة التي تعرقلنا.

فقد كنا غارقين تماماً في الجدال حول الرعاية الصحية. ولم يكن ذلك الأمر ينهك الكابيتول فحسب، بل إن عدداً من الديمقراطيين المعتدلين قد أوضحوا أنهم لا يحتملون الكثير من عمليات التصويت الصعبة. عندما سمعت خبر أن ديمقراطيّاً من منطقة الغرب الوسطى لن يترشّح مجدداً لإعادة

انتخابه، اعتقدت أننا نملك فرصة جيدة لنجعله ينخرط أكثر في مشروع القانون المناخي. فاحتمال عدم وجود اسمه في الاقتراع قد يكون مريحاً.

طلبت إلى فريقي التوجُّه للقائه مع فريقه. أتى الرد صاعقاً: «يرغب السيناتور في إجراء استفتاء، كي يحدِّد إن كان يرغب في أداء دور» . أصبح عضواً في مجموعة ضغط وناقداً تلفزيونيّاً بعد أن ترك مجلس الشيوخ؛ وهما خياران لافتان لشخص قال إنه سيترك الحكومة، لأن مجال السياسة معطَّل.

كذلك وجدنا أنفسنا بعيدين جداً في سلّم أولويات البيت الأبيض، وأيقن ليندزي غراهام ذلك. إذ يركّز البيت الأبيض في قضية الرعاية الصحية، وبدا غير مستعد لمساعدتنا على حشد الأصوات. فقد اعتمد على ليندزي لمساعدته في مسألة أخرى، هي الهجرة. بدأ ليندزي يعتقد أنه ملتزم أكثر من البيت الأبيض التشريع في قضية التغيُّر المناخي، فشعر بالإحباط.

ولكننا اعتقدنا أن لدينا حجَّة رابحة أمام أعضاء الكابيتول: سوف يضيّع مجلس النواب صوتاً حساساً سدًى، ما لم ننظّم أنفسنا.

تحالفت طوال سنوات مع باربارا بوكسر، التي تسلّمت رئاسة لجنة الأعمال العامة والبيئة، حول مسائل متعلقة بالمناخ. بدأنا نحشد مجموعة من السيناتورات على الغداء أيام الثلاثاء في قاعة مؤتمرات لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ ضمن مبنى الكابيتول لوضع استراتيجية حول التغير المناخي. سماه فريقا عملنا بـ«نادي المناخ» . في كل أسبوع، نستقدم ضيفاً خطيباً يحدِّثنا عن كيفية تأثير التغيُّر المناخي في خط عمله، وعن الحلول التي قد تُغيِّر الوضع. لم نحصر الدعوة بالمناصرين التقليديين لموضوع التغيُّر المناخي، بل كنا نستدعي أيضاً مديرين تنفيذيين، مثل جيف إيميلت من شركة جي إي، الذي انتابه قلق شديد حيال تأثير التغير المناخي في مجال عمله، كنّا نستدعي شخصيات عسكرية، مثل الأميرال مايكل مولن، الذي انتابه القلق حيال ارتدادات التغير المناخي على الأمن القومي. اعتقدنا أنا وباربارا بأن الطريقة الوحيدة لتمرير قانون فرض سقف للانبعاثات وتنظيم تجاري ضمن مجلس الشيوخ، ستكون بدعم كبير من كل القطاعات والمساهمين الذين كنا نتكلّم معهم، فضلاً عن أشخاص غيرهم.

رغم أن قضية الرعاية الصحية كانت تتصدَّر الواجهة، ورغم أن قضية الهجرة راحت تستقطب الاهتمام أيضاً، فإنني أنا وليندزي وجو، رحنا نلتقي الأشخاص وجهاً لوجه في محاولة لإقناعهم بأن لدينا خطة تستأهل المساندة.

كذلك قضينا وقتاً طويلاً في محاولة الحصول على دعم من المجالات الصناعية. التقينا مديرين تنفيذيين لشركات نفطية كبرى، منهم الرجل الذي خَلَفني لاحقاً في وزارة الخارجية، المدير التنفيذي لشركة إكزون، ريكس تلرسون.

في مرحلة معيّنة، ذكر فريق عمل جو ليبرمان مدى أهمية الحصول على دعم بارون النفط في تكساس، تي بون بيكينز. وبمجرد أن قالوا ذلك، حتى تذكّروا بأن بيكينز قد موّل من جيبه الخاص مجموعة «محاربو قوارب سويفت القدماء المدافعون عن الحقيقة» ضدي بملايين الدولارات.

فقمت بكسر الجليد. ذلك أن المسألة تستأهل التواصل مع خصم قديم.

قلت: «اتصلوا به» . وفي غضون دقائق، كنت أتكلَّم مع الرجل الذي أسهم في نشر تلك الدعايات الكاذبة على التلفاز. في الأسبوع التالي، حضر بيكينز جواً من أوكلاهوما. تكلّمنا على ما سيتطلّبه منه أن يتبنّى مشروع القانون علانية. تصافحنا وتوافقنا على مواصلة العمل معاً. سوف يتبنّى مقاربتنا.

كنا على بعد أسابيع من تقديم إعلان تاريخي: لأول مرة على الإطلاق، حشدنا كبريات شركات النفط لتأييد مشروع قانون فرض سقف للانبعاثات، وتنظيم تجاري. تربّعت شركة شِل في الصدارة. ولكن الشركة الأكثر حماسة كانت شركة بريتش بيتروليوم، التي حدّدت تاريخ الانضمام إلينا في مؤتمر صحفي لتأييد مشروع القانون. قبل 3 أيام من الإعلان، الذي ستحضره كل الشركات النفطية الكبيرة، انفجرت بئر نفطية تابعة لشركة بريتش بيتروليوم في خليج المكسيك، فأسفر الانفجار عن مقتل 10 أشخاص، وتسبّب في تسرّب ملايين البراميل من النفط في المياه قبالة لويزيانا وميسيسيبي. وجرّاء كارثة شركة بريتش بيتروليوم، وجب تأجيل موعد المؤتمر الصحفي. فالتوقيت هو الأهم في مجال السياسة، وفي الحياة.

ولكن الضربة الكبرى لم تكن قد أتت بعد.

تجلّى تماماً أن مجلس الشيوخ سوف يصوّت على قضية الهجرة قبل قضية التغيُّر المناخي. الأمر الذي جعل ليندزي غراهام، وهو المعتدل في موضوع الهجرة، عرضة لانتقادات اليمين. ظهرت حركة حزب الشاي كتهديد حقيقي للجمهوريين «المعتدلين» أمثاله، وهو يواجه احتمال خوض تحدٍّ تمهيدي صعب. كان الضغط هائلاً. أتذكّر أن كبير مستشاري ليندزي قال ذات مرة حول رب عمله: «أحياناً يتجاوز ليندزي خطوط إمداده» .

أيقنت أن ليندزي يودّ العمل على قضيتَي الهجرة والتغيُّر المناخي، وعلى قضايا أخرى، كقضية المعتقلين في غوانتانامو، التي تهمّه، كمحام عسكري. ولكن كل تلك القضايا تستحق العمل عليها فوراً. عصر يوم جمعة، ورد اتصال. طلب ليندزي التكلُّم معي ومع جو. كنا قد حدّدنا موعداً لإقامة مؤتمر صحفي نهار الاثنين القادم للكشف عن تشريعنا المزعوم، بحضور كل المساهمين.

طوال سنوات انضمامي إلى مجلس الشيوخ الثلاثين، لم أسمع قط أحد زملائي مضطرباً بقدر ما بدا عليه ليندزي ذاك اليوم على الهاتف. كان قد عاد إلى كارولاينا الجنوبية، وأدرك مدى سوء رد الفعل السياسي. حيث راح أعضاء في حركة حزب الشاي المحلية يتصلون بالبرامج الإذاعية الحوارية ويهاجمونه. وراحت شركات الفحم تنفق أموالاً طائلة لتشويه صيت ليندزي في دياره.

أذكر أنه راح يصيح على مسامعنا بنفَس مقطوع قائلاً: «إنهم يسمّونه (عفواً غراهاميّاً) عن المقيمين غير الشرعيين» . هذا كثير. لا يسعني أن أتورَّط في هذا أيضاً. هذا كثير» .

حاولنا أنا وجو التدخل، وطمأنته بخصوص مقدار دعمنا له.

«أنتما لا تفهمانني. لقد انتهى الأمر» .

وانقطع الخط.

أفضل ما استطعنا فعله هو إقناع ليندزي بعدم تسميم الجهود بإعلانه الانسحاب على الملأ، حتى يتسنّى لنا، نحن الاثنان، أن نمرِّر القانون من دونه. وإذا عادت الأجواء إلى الهدوء في دياره، يعاود الانضمام إلينا إذا شاء.

ولكن، في اليوم التالي، قدَّم ليندزي بياناً علنياً يتَّهم فيه الساعين في قضية الهجرة بمنع تمرير التشريع في قضيتَي المناخ والطاقة. كان في موضع صعب. كان نهار سبت، واضطررت أن أتّصل بجو في يوم عيده لأنقل إليه الخبر، قاطعاً عليه اليوم الذي يعتبره يوماً دينياً له.

حافظنا أنا وهو على موعد المؤتمر، حتى من دون مشاركة ليندزي. جرّبنا أن نواصل العمل على ما نعتبره أنا وهو تشريعاً ضرورياً ومبتكراً، ولكن راح الجهد يخف حتى تلاشى.

عندما خسر الديمقراطيون الأغلبية في مجلس النواب خلال الانتخابات النصفية سنة 2010، وجرى تبديل حوالى 24 عضواً صوّتوا لمشروع قانون واكسمان-ماركي المتعلق بالمناخ والذي يفرض سقفاً للانبعاثات وتنظيماً تجارياً، بجمهوريين؛ أدركنا أننا لن نتمكّن في القريب العاجل من تمرير أي قانون مشابه.

كان ذلك بداية التنكُّر العام لمسألة التغيُّر المُناخي. فالانتخابات الأولية كانت تُستغل لتعذيب الأشخاص الأخيار واعتقالهم كرهائن للإيديولوجيات والمصالح الخاصة.

فأمسى العمل الثنائي الحزبي بين مجلسي النواب والشيوخ ضرباً من الردة.

وقد اشتُهر عن ميتش ماكونيل قوله آنذاك: إن الأولوية القصوى التي أجمع عليها الجمهوريون كانت «الحرص على تولّي أوباما الرئاسة لولاية واحدة» .

لم يعد مجلس الشيوخ كحالته السابقة. وكانت تلك حقيقة محزنة لأشخاص قادرين مثل ليندزي غراهام. يبدو أن مجلس الشيوخ بات مشلولاً بفعل السياسات المعرقلة وسياسات الانقسام الفارغ. وبات حلّ المشكلات أمراً مؤجّلاً. بدأت أعتقد أن أهمّ ما بمقدور أيٍّ منا فعله للقضايا التي تعنيني جدّاً، هو المساعدة في إعادة انتخاب باراك أوباما. وإلا فواشنطن ستدمِّر نفسها، وستقضي معها على كوكب الأرض.

إذا كان مجلس الشيوخ مفكّكاً، فإن ثمة نواحيَ أخرى من الحياة على الأقل، نستطيع تصحيحها. لحسن الحظ، التقتْ جوليا قبل أشهر من وفاتها سنة 2006 صديق فانيسا الحميم، براين. قالت لي إنها متأكدة من أنهما سيتزوجان، وقد أفرحها كثيراً واقع أنها التقت الزوج المستقبلي لإحدى بناتها، مع العلم أنها لن تحضر حفل الزفاف. بدا لافتاً علمها بذلك وقدرتها على تناول الموضوع، رغم الألم الجلي الذي يُصيبها.

بالفعل اتصل بي براين بعد سنة، ليحدد موعداً للقائي في منزلي ببوسطن. عندما يتلقّى المرء اتصالاً من صديق ابنته الحميم يطلب فيه موعداً للقاء، يكون ذلك بمثابة إشارة إلى ما سيجري تالياً. كان براين يروق لي، ومع علمي بأن جوليا قد وافقت عليه، سارت الزيارة بكل سلاسة. تحمّست لسماعي عبارة «أود الزواج بفانيسا» . وبعد أن اغرورقت عيناي بالدموع عانقت براين.

حدّد براين وفانيسا أخيراَ موعد الزفاف في 9 تشرين الأول/أكتوبر 2009. كان التخطيط لإقامة حفل الزفاف أحد أمتع تجارب الأبوة. كنت المخطّط لحفل الزفاف. ولما كنت قد اكتسبت على مر السنوات خبرة كبيرة في كثير من الحملات الانتخابية والكثير من الحفلات الموسيقية المخصَّصة لجمع التبرعات، فقد كنت واثقاً أن بوسعي تنظيم الحفل بشكل جيد، وخصوصاً إذا استرشدتُ بنموذج ستيف مارتن في فِلم «والد العروس» .

قمنا أنا وبراين وفانيسا معاً بإنجاز كل التحضيرات إلى حين وصول اليوم المنشود. حتى أنني حجزت الفرقة الموسيقية، وفكرت في قرارات حساسة مثل ضرورة رصف الأرضية بطبقة من الخشب لمنع تضرر كعوب أحذية النساء بفعل العشب، عند إقامة حفل الزفاف في العراء. قمت بانتقاء الأزهار ووفرت الحماية الأمنية، وخضت تجربة جديدة تماماً، حيث أسهمت في تصميم الإضاءة. في اللحظة الأخيرة، رتّبت لاستقدام أجهزة تدفئة للتخفيف من قساوة النسيم التشريني البارد الذي لم نكن نتوقّعه. لدى انتظارنا بداية الحفل، راحت الشمس تغيب ببطء خلف الأشجار، وحل ليل خريفي بارد فوق رؤوس الضيوف. باستثناء ابنتي التي ترتدي ثوباً خالياً من الأكمام وعريسها، اللذين كانا تائهين في غمرات اللحظة، كان الجميع يرتجفون وسط الجو الذي تدنّت درجات حرارته بسرعة. فسارعوا إلى الخيمة لحظة انتهاء مراسيم الزواج.

كانت مناسبة لا تنسى، اعتبرها الكثير من أصدقاء فانيسا بأنها أفضل مناسبة حضروها. وهذا إطراء كبير، سواء أكان صادقاً أم لم يكن، يوجّه إلى مخطط الأعراس الذي كرّس جزءاً من وقته والذي بذل كل ما في وسعه لتعويض ابنته عن عدم وجود أمها إلى جانبها. ذكّرنا ذلك بمدى النعمة التي أُسبغت علينا بوجود أفراد الأسرة، من حاضرين حقّاً وحاضرين في قلوبنا فقط.

الفصل الخامس عشر: السيد رئيس اللجنة

في العام 2009، تجسد أخيراً تناغمٌ في عملي في مجلس الشيوخ بشكلٍ لم أختبره من قبل: شراكةٌ مع الرئيس ونائبه اللذين أعرفهما جيداً، علماً أنني عملت مع جو بايدن طوال سنوات؛ رئاسةٌ للجنة العلاقات الخارجية، وهي لجنة مهمة لها تأثيرها الفاعل؛ ودورٌ وعلاقات ضمن الحزب الذي أمثّله ومع الحزب الآخر، ما سمح لي بالانخراط بشكل فاعل في مروحة واسعة من المسائل التي طالما أثارت اهتمامي.

كان لديّ مبرّر يدعوني إلى الشك في إمكانية أن أختبر تناغماً مماثلاً في مجلس الشيوخ. فالحسابات البسيطة تنبّأت بالعكس. راقت لي لجنة العلاقات الخارجية، لكنْ كان ثمة صديقان يسبقانني في الأقدمية، هما كريس دود، وهو يصغرني بسنة، انتُخب سنة 1980 ليشغل مقعد إيب ريبيكوف؛ وجو بايدن البالغ من العمر 67 سنة، والذي انتُخب سنة 1972 وهو في التاسعة والعشرين من العمر (لم يجرِ تحليفه إلا بعد بلوغه الثلاثين، عملاً بالمقتضى الدستوري) وسيسبقنا دوماً من ناحية الأقدمية. نحن الثلاثة تروقنا هذه اللجنة ونحترمها، بتاريخها وقدرتها على التأثير. وأنا لم أتخيل قط مجلس الشيوخ من دون جو أو كريس، وحتماً لم أتخيل قط أن يتخلى أي منهما عن رئاسة اللجنة طوعاً. في غضون ذلك، كنت خلف ماكس بوكس، الذي أشاطره تاريخ الميلاد نفسه، وجاي روكفيلر في لجنة المال التابعة لمجلس الشيوخ، وهو يسبقني في لجنة التجارة أيضاً. بمعنًى آخر، كنت أعلم أن ثمة مهام لجانية استثنائية تنتظرني، أنا وماساتشوستس، ولكنّني لم أتوقع مطلقاً أن أترأس أي لجنة ما عدا لجنة الأعمال التجارية الصغيرة، فذاك يتطلب معجزة إلهية.

لعل القدرة الإلهية تدخّلت فعلياً. إذ أمسى جو فجأة نائباً للرئيس باراك أوباما. أمّا كريس، المرشح التالي لرئاسة لجنة العلاقات الخارجية، فقد شعر أن عليه أن يتولّى رئاسة لجنة المصارف في دورة مجلس الشيوخ 111، كي

يشرف على إصلاح التنظيمات المالية، ويركّز اهتمامه في تحسين حال الاقتصاد، بعد تراجع اقتصاد كونيتيكيت جراء الانهيار المالي.

وها أنا ذا أتخطّى الكثير من العقبات: أمسيتُ رئيساً للجنة نفسها التي أدليت فيها بإفادتي بدعوة من رئيس اللجنة ويليام فولبرايت سنة 1971. إنها لجنة غنية بالتاريخ، لجنة شارك فيها مَن أصبحوا رؤساء فيما بعد، من جاك كينيدي إلى باراك أوباما؛ ومَن أصبحوا نواب رؤساء؛ من هيوبرت هامفري إلى جو بايدن؛ كذلك شارك فيها أساطين من مجلس الشيوخ، من هنري كلاي إلى آرثر فاندنبيرغ.

رئاستي للجنة عنت لي الكثير. فقد استثمرت سنوات وسنوات للوصول إلى هناك. والأهم من كل شيء أنني تحمّست للإنجازات التي قد نتمكن من تحقيقها. وقد أدركت بعد تجربتي الخاصة سنة 1971، وأعترف أنها كانت خبرة في مجال مختلف جداً، أن اللجنة يمكن أن تصنع فارقاً، وتقع على رئيسها المسؤولية كي يحاول صنع الفارق.

أيقنت أن الإدارة الجديدة ستركز، بحكم الضرورة أولاً، في إنقاذ الاقتصاد الأميركي. وهذا يعني أن للجنتنا فرصة كبيرة كي تتولّى بعض التحديات الجانبية. بدأت العمل بتأسيس علاقة متينة مع الرئيس، الذي كان عضواً في اللجنة، ومع نائب مستشار الأمن القومي للرئيس آنذاك، طوم دونيلون، الذي كان مدركاً التحديات بقدر كفاءته في ضبط العملية البيروقراطية وإدارتها.

علمتُ أن ثمة فرصاً ستتاح لنا، إن لم يكن للتعاون، فعلى الأقل للتنسيق مع الإدارة الجديدة، ولكنني، مع ذلك، صمَّمت على حماية اللجنة لتكون كياناً مستقلاً بحد ذاته، ولديها صلاحيات منفصلة عن أية إدارة، وهو أمر حاول كريس لوغار فعله خلال الإدارات الجمهورية. وقد أردت تعزيز القدرة التنفيذية للجنة، التي ضمرت على مر السنوات. وبعد أن أدركت أهمية ذاك العمل في الثمانينات والتسعينات، طلبت من دوغ فرانتز، الصحفي الاستقصائي البارز في صحيفة لوس أنجلوس تايمز، القدوم إلى اللجنة، وتشكيل خلية الاستقصائيين الخاصة به. وهكذا، أصبح لدينا الكثير من العمل لنقوم به. وكنت أتوق إلى البدء بالعمل الجاد.

إنَّ نظرة سريعة نلقيها على العالم خارج حدود بلدنا، تؤكّد لنا أن أفغانستان تمثل حساسية خاصة لعدة أسباب. فخلال قيام الإدارة الجديدة بالتأقلم مع الوضع الجديد، بدا جلياً أن فصلاً جديداً مع العراق يلوح في الأفق؛ إذ كانت الإدارة تتعرض للضغط جراء عدم استعداد الحكومة العراقية لعقد

اتفاقية قابلة للتطبيق حول وضع القوات، بغية إبقاء عدد كبير من الجنود الأميركيين في العراق. لذا كان على القوات الأميركية أن تغادر هذا البلد.

وبالنتيجة، بدأت كل العيون تتحول من بغداد إلى كابول، لتعود إلى الحرب في أفغانستان التي رأى كثير منا أننا خسرناها في اللحظة التي اندفعت فيها الولايات المتحدة، بشكل طوعي وأحادي، إلى حرب العراق التي أسميتُها «الانحراف الكبير للمسار» . فقد كانت تكلفة الحرب العراقية باهظة من ناحية مصالحنا ونفوذنا، ودفعت أفغانستان تحديداً ثمناً كبيراً جراء هذه المغامرة الخاطئة في الشرق الأوسط.

عندما توليتُ رئاسة اللجنة، ظللت قلقاً بشكل خاص حيال أفغانستان، لعدة أسباب: تاريخها «كمقبرة للأباطرة» كان تنويريًّا؛ فهي الدولة التي تكبَّدت فيها بريطانيا العظمى وروسيا خسائر فادحة. وعلى الرغم من علمي بتلك الخلفية التاريخية، فقد بقيت على يقين بأن التاريخ ليس قدَراً. إلّا أن هنالك بضعة أشخاص (إن لم نقل الكثيرين)، بمن فيهم أشخاص من فريق عملي في اللجنة، قد رأوا أن أفغانستان مقدّر لها أن تكون مستنقعاً، لأنها كانت مستنقعاً للدول الأخرى. وقد ارتأيت أننا ندين لأنفسنا باختبار ذهني أشد دقة: أردت أن أعرف إن كانت لدينا أهداف واضحة، ورؤية واضحة للقيود، وفهم واضح لسببب وجودنا هناك. أردت للأفغانيين أن يفهموا أننا لم ندخل إلى بلادهم كي نبقى فيها أو نغزوها، على أمل أن نتمكّن من تفادي الأفخاخ التي سقط فيها الآخرون. هل يمكن للانضباط ووضوح الهدف أن يشكّلا فارقاً بالنسبة إلينا؟ لطالما تنبّهت إلى أننا، على عكس البريطانيين والروس، لم ندخل إلى أفغانستان بأهداف إمبريالية.

إلّا أن هناك الكثير من الأسئلة المهمة: هل لدينا خطة واضحة واستراتيجية متماسكة؟ هل نعلم سبب وجودنا هناك؟ ومتى سيتمتع ذاك البلد بالاستقرار الكافي كي نغادره؟

عندما ترأست جلسة الاستماع الخاصة بتثبيت هيلاري كلينتون في منصب وزيرة الخارجية، حاولت التطرق إلى هذه الأسئلة، ليس من أجل المرشّحة التي تتمتع بالذكاء والمقدرة ولا تحتاج إلى موعظة، بل من أجل كل أعضاء اللجنة، ومن أجلنا جميعاً، نحن الذين انخرطنا في صناعة السياسة الخارجية: إلى أين نتجه في مسألة أفغانستان؟

الأساس المنطقي وراء الذهاب إلى أفغانستان والذي اكتسب مئة صوت، هو أن ذهابنا إلى هناك أتى كرد فعل مباشر على عمل حربي، هو الهجوم الأكثر شناعة وتهوراً بحق الولايات المتحدة منذ اعتداء بيرل هاربور.

دخلنا إلى أفغانستان لننال من أسامة بن لادن، وطردنا طالبان من أفغانستان، لأنهم قاموا بإيواء تنظيم القاعدة، وقدّموا إليه منصة ليمارس أعماله الإرهابية. والأخطر من ذلك أنهم رفضوا إيقاف دعمهم حتى بعد إعطائهم عدة فرص للقيام بذلك.

في العام 2009، أي بعد مرور حوالى 8 سنوات على أحداث 11 أيلول/ سبتمبر، أضحت الحصانة التي يعمل في ظلها تجار المخدرات، مقرونة بقصص عن الفساد المستشري الذي يزعزع إيمان الأفغان بحكومتهم الجديدة وبحكومتنا أيضاً، تمثّل مشكلات بارزة. بدا أننا نحمّل أنفسنا المسؤولية الكاملة لحلِّها. ذكّرت اللجنة بأننا لم نعزم على جعل أفغانستان ولايتنا الحادية والخمسين. وقد ألهب هذا التصريح بعض الوسائل الإعلامية التابعة للمحافظين الجدد، والتي رأت أنني أتخلّى عن أهدافنا في أفغانستان. ولكنّني كنت ببساطة أعبِّر عما خلته بديهياً ومهمّاً في هذه الحالة: هدفنا هناك هو بسط الاستقرار، وجعل أفغانستان دولة متماسكة بذاتها، حتى وإن كانت بعيدة عن أن تصبح نموذجاً للنظام الديمقراطي الجيفرسوني. وبعد إعادة التفكير في الأمر، رأيت أن ما قلته آنذاك لم يكن تصريحاً يثير الجدل. بل على العكس من ذلك، فقد بدا تصريحي بعد عقد من الزمن تفاؤلياً.

كانت الإدارة تكافح في هذه المسألة أيضاً. إذ ليس هنالك إجماع حولها. وقد واجه صديقي ريتشارد هولبروك، الذي استقدمته الوزيرة كلينتون ليقود الجهود الدبلوماسية في وزارة الخارجية، مشكلة مزدوجة: المشكلة الأولى هي أنه لم ينسجم مع الرئيس أوباما، والمشكلة الكبرى التي واجهها أن حامد كرزاي رأى أن هولبورك يتآمر ضده. وهذا ما حجّم أمامه المجال كي يناور دبلوماسياً. ولقد سمعتُ من نائب الرئيس بايدن أن البنتاغون، ممثّلاً بالجنرالين ديفيد بتريوس[22] وستانلي ماك كريستال كليهما، يحشر الرئيس في الزاوية بشأن إرسال قوات إضافية، بعد أن استهل ولايته بزيادة 30 ألف جندي على عديد القوات التي وعد بإرسالها في البداية. وقد خشي الرئيس ألّا يتوقف الجيش عند حد معين في طلبه لمزيد من الجنود، مهما تكن الظروف الفعلية على الأرض.

قلقت إزاء تركُّز الحديث في الكونغرس وبين عداد الناس في الأرقام فقط: عدد الجنود الأميركيين وجنود التحالف المطلوب، عدد الجنود وعناصر الشرطة الأفغان الذين يجب أن ندرّبهم، عدد المليارات الإضافية التي يجدر بنا استثمارها، والتي كانت الحاجة ماسة إليها في الوطن.

لم نكن نناقش بالقدر الكافي إن كان أي مبلغ مالي، أو أي زيادة لعديد القوات، أو أي تدبير ذكي، ستصنع فارقاً إذا لم تكن المهمة الأساسية مدروسة جيداً. وقد احتجنا إلى توسيع النقاش لكي نتناول الأسئلة الأساسية، وندقِّق في الافتراضات الجوهرية. وجب علينا أن نتوافق على تعريف واضح للمهمة، وأن نحدّد الهدف الذي سيكون مقبولاً وقابلاً للتحقيق حيال أفغانستان والولايات المتحدة. واحتجنا أيضاً إلى تحديد حجم القوات العسكرية التي يتطلبها هذا الهدف، والتفكّر في كل احتمالات وتكاليف وجودنا هناك.

في الوقت عينه، وجب علينا تقويم بعض المسائل المعنوية، بما فيها نظرتنا إلى أفغانستان، وإلى وجودنا فيها، هل هي من منظور الأفغان نفسه، أم لا؟ في أول رحلة لي إلى أفغانستان رئيساً للجنة، نظرت من نافذة آلية الهامفي العسكرية المصفحة خلال مرورنا في شوارع كابول الترابية، رأيتُ طفلة تلعب ببعض الدمى على جانب الطريق، فعدت بالذاكرة فوراً إلى فييتنام، وإلى الأطفال الذين كانوا يصطفون على الأقنية أو وسط الشوارع، ويحدقون إلينا بنظرة تسألنا: «ما الذي تفعلونه هنا؟» وعلى الفور، تساءلتُ: «كيف نبدو بنظر هذه الطفلة؟» . قد أبدو كائناً من كوكب آخر. كنت أتجول في أرجاء المكان على متن آلية ضخمة مصفحة برفقة الجنرال بتريوس، وهو قائد عسكري لامع قام بتأليف كتاب حول استراتيجية مكافحة التمرد في العراق وأفغانستان. كلانا أدرك أن كسب القلوب والعقول هو الأساس في أي جهد أو عملية لمكافحة التمرد. ولكن نظرة واحدة من عينيّ تلك الطفلة أنبأتني بأننا نواجه معركة قاسية. انتابتني هواجس قوية بأننا، وإنْ بذلنا أقصى جهودنا، فلن نتمكن من إقناع الكثير من المواطنين الأفغان العاديين بأن أي وجود عسكري أجنبي على أرضهم يمثل قوة يمكن أن تكون حليفة لهم. كان لدينا مصالح مهمة على المحك، تتعلق بالأمن القومي، ولا يسعنا الانسحاب بسرعة. ولكنّني أردت أن أحرص على عدم إطالة البقاء، فيصبح غير مرغوب فينا مطلقاً.

لم تترك الانتخابات الكارثية التي جرت في أفغانستان في آب/ أغسطس 2009 أي خيار للولايات المتحدة إلا إعادة التفكير في بقائها هناك. وقد دفعتني باتجاه سياسات البلاد وسياسييها العنيدين بصور ما كنت لأتوقعها.

خططت منذ أمد بعيد للتوجّه إلى أفغانستان وباكستان خلال إجازتي من مجلس الشيوخ في «يوم كولومبوس» . بدا لي منطقياً أن أُجاز لخمسة أيام أو ستة، كي أسافر وأعاين بنفسي ما يحدث في ذاك البلد. وقد أفلحت في الوصول إلى مقاطعة هيلمند، وهي منطقة في أفغانستان يسمونها «رأس الأفعى» ، حيث تنمو النباتات بكثرة، وحيث تسهم وحدة جديدة من القوات الأميركية في إعادة المنطقة التي كانت تسيطر عليها قوات طالبان إلى أيدي

الحكومة المركزية وقوات التحالف. وقد تبين أن المعركة الحقيقية التي شهدتها هي سياسية وتتمركز في كابول.

بدا التوتر جلياً. وقد أوجز لي السفير كارل آيكنبيري، وهو جنرال متقاعد، وقائد عسكري سابق لقواتنا في أفغانستان، الوضع ثم أخبرني بصراحة عن مستوى القلق الذي ينتابه. كثرٌ استنكروا أول جولة من الانتخابات التي جرت في 20 آب/أغسطس، بخاصة الطريقة التي أعلن فيها كرزاي الموعد في الربيع (فلم يدع متسعاً من الوقت للمعارضة كي تنظم أمورها)، وعدم توافر الأمن وتراجع إقبال الناس على الاقتراع، بالإضافة إلى اتهامات واسعة بالاحتيال. وبعد إلغاء بعض الأصوات بحجة أنها مغشوشة، لم يتخطَّ كرزاي ولا خصمه البارز عبد الله عبد الله عتبة الخمسين في المئة اللازمة لتفادي جولة ثانية. ولم يتقبّل كرزاي عدم انتخابه بشكل فوري، ورفض الموافقة على جولة ثانية للترجيح بين المرشحَين، فعلق الحُكم في حالة جمود مع احتمال انهيار الحكومة بكاملها.

من الخارج، وعقب الانتخاب الذي جرى أواخر الصيف، وكان مثار خلاف، سادت حالة تعطيل جلية في كل أنحاء البلاد. أمّا من الداخل، فقد أخبرني آيكنبيري بأن الوضع أكثر سوءاً. إذ إن كرزاي يتصادم مع الأميركيين، ويرى أن الولايات المتحدة قد تآمرت ضده، وأن المراقبين الدوليين للانتخابات حرموا ناخبيه البشتون من حقهم في التصويت. وأكَّد أن قيام المراقبين التابعين للأمم المتحدة بإبطال حوالى 250 ألف صوت من مناطق البشتون كان مؤامرة دولية.

بدا وارداً جداً احتمال وقوع أزمة دستورية، وإن لم يجرِ ابتداع طريقة للمضي قدماً. وكان كرزاي حينئذٍ يخاطر بدفع التحالف مع الناتو إلى الانهيار. ومن الجلي أن الدول الأوروبية التي أنهكتها أفغانستان، لن تواصل وجودها على الأرض في حال كون حكومة البلاد على وشك الانفجار. وقد انتابني حدس قوي بأن الولايات المتحدة لن تطيل البقاء أيضاً في هذه المعركة، إنْ حوّل كرزاي نفسه إلى حاكم مستبد، يتجاهل الإرادة السياسية لنصف شعبه.

أمل السفير آيكنبيري أن أتمكّن على الأقل من محاورة كرزاي أكثر، كي أرى إن كان مستعدّاً للإصغاء إلى وجهة النظر الأميركية. وقد سرَّني أن أجرّب ذلك؛ بوسعي حتماً أن أنقل إليه أن الكونغرس يراقب باهتمام، ويصغي بإمعان إلى الأزمة في بلاده. ارتأيت بأن أي منفعة قد أجنيها من هذا الحوار لن تكون من خلال ما أقوله، بل من خلال ما أسمعه. فالإصغاء مهمّ جداً في المجال الدبلوماسي، وغالباً ما يجري تجاهله وبخس قيمته. أعجبني الرئيس كرزاي، وكانت لي علاقة طيبة معه. وإنّني أحترم وطنيتِه وشجاعته في خوض

رحلته والوصول إلى حيث وصل. وبدا أنه يشعر ضمنياً بذلك. كان يوقن أنني أصغي إليه، وأواجه فورات غضبه بصبر وأناة، وهي مهارة تعلمتها في مجلس الشيوخ جراء تعاملي مع بعض الزملاء الذين غالباً ما يحتاجون إلى التنفيس عن غضبهم، قبل أن يتسنّى لي تبادل حديث مثمر معهم.

تحاورت مع كرزاي وتمكّنت من التواصل معه على صعيد مهم هو الصعيد السياسي. كانت أغلب التحديات الدبلوماسية التي تواجهها الولايات المتحدة تشكّل مشكلة سياسية محلية بالنسبة إلى طرف آخر. دوماً يفاجئني أننا في مجلس الشيوخ أو في الإعلام نعزو في الغالب تصرفات زميل معيّن إلى سياسات قاعدته، أو وضعه المعقد مع الناخبين، ولكننا ننسى أن القادة السياسيين في الدول الأخرى ينصاعون أيضاً لإرادة ناخبيهم. كنت أدرك أن بوسعي التعامل مع كرزاي، من سياسيّ إلى سياسيّ آخر. وأملت في أن تساعد هذه الأرضية المشتركة على فتح آفاق لحل المشكلات. ولكنْ بدا جلياً أن الأمر لن يكون سهلاً.

آنذاك، كان قد صدر كتاب شهير حول أفغانستان وباكستان يحمل عنوان «3 أكواب شاي» ، ويشير العنوان إلى فكرة قديمة تفيد بأنك، إذا شاطرت إنساناً كوب شاي تكون غريباً، فإذا شربت الشاي مرة ثانية تكون ضيفاً كريماً، لكن في المرة الثالثة تمسي فرداً من العائلة. وسرعان ما قلت ممازحاً إن اجتماعاتي الماراثونية مع كرزاي توازي شرب 3 آلاف كوب من الشاي. كنّا نجلس لساعات، وأحياناً تمر 4 ساعات أو 5 أو 6 في الاجتماع الواحد. وكنت أحاول الإصغاء إلى كل مخاوفه حيال بلده، وليس فقط تلك المندرجة في أجندتي. ولكن حينما كنّا نتطرّق إلى تفاصيل الانتخاب، كانت حدة التوتر تتصاعد بقوة.

كنا نجلس في قصر يضم غرفاً واسعة وأرضية مغطاة بخشب السنديان، وكأنها خارجة من فيلم «ذا أدامز فاميلي» . نظر كرزاي يوماً في عينيّ مباشرة وقال: «يا جون لا يسعني أن أحرم 250 ألف ناخب بشتوني من أصواتهم. لن أنجو من ذلك» . غادر الغرفة كي يتلقى اتصالاً هاتفياً، ولكنّني أعتقد أنه تعمَّد تركي كي أستوعب كلماته، وكي يستجمع شتات نفسه من أجل حملته الكلامية التالية.

التفتُّ إلى نائب سفيرنا في أفغانستان آنذاك، فرانك ريكياردون، وهو موظف رائع في السلك الدبلوماسي الخارجي من ميدفورد، ماساتشوستس، وكان يتسم بالصراحة، فسألته: «يا فرانك، هل جرى حقاً حرمان 250 ألف ناخب بشتوني من حقهم في التصويت؟» ، فابتسم فرانك وأجاب: «لا، إنهم 25 ناخباً بشتونياً، اقترع كل منهم بـ10 آلاف ورقة اقتراع» .

أخذنا استراحة لمدة يومين كي ندع الأمور تهدأ بعض الشيء. تمحور كلامنا حول عائلتينا وتاريخ أفغانستان، وحول اغتيال والده، ورحلته إلى الوطن من باكستان، وما يطمح به لبلده، وهواجسه بشأن العلاقة بين الولايات المتحدة وأفغانستان. وقد عبّر عن قلقه إزاء معاملة البشتون بشكل غير منصف، واشتكى من أن أحداً لا يقدّر مدى ثقل القرارات التي تُفرض عليه. قلت لكرزاي إنني أملك فكرة عما يمر به، وأعدته بالذاكرة إلى انتخابات العام 2004، إلى السنوات التي أمضيتها في محاولة الاستعداد لحملة ترشح للرئاسة، والجدالات مع الرئيس بوش، وحملة تشويه سمعتي من قبل مجموعة (محاربي قوارب سويفت القدماء المدافعين عن الحقيقة)، وشعوري بالابتهاج ليلة الانتخاب حينما أدركت أنني فزت. وتحدثت معه عن السجال الذي خضته، وترددي بين الإذعان للنتيجة أو رفع دعوى قضائية على بوش بسبب الاقتراعات المؤقتة في أوهايو، والادعاءات بقمع الناخبين، والتجاوزات في ماكينات التصويت. وقد ختمتُ هذا الاستطراد بالقول إنني في أولى ساعات الصباح خلصتُ إلى الاستنتاج بأنه لن يكون مفيداً لبلدي أن يشهد تقاضي حملتَي انتخاب رئاسيتين متتاليتين أمام المحكمة العليا، في حين أن شرعية ديمقراطيتنا تُعدُّ في غاية الأهمية. فانفتح كرزاي على الحديث كما لم يفعل من قبل، وأظنُّ أنه أوشك أن يتقبّل فكرة خوض جولة انتخابية ثانية للترجيح بين المرشحَين.

بدأت عندها أشعر ببعض الضغط من ناحية الوقت. إذ كان علي الذهاب إلى باكستان من أجل زيارة محددة مسبقاً لا أستطيع إلغاءها. شعرت بالثقة إلى حد معقول بأن الرئيس كرزاي سيمضي إلى اتخاذ موقف أكثر عقلانية. لكن، ولسوء الحظّ، وخلال اختتامي لزيارتي في إسلام آباد، والسعي للعودة إلى واشنطن للتصويت، تلقيت اتصالاً من السفير آيكنبيري يفيد بأن الوضع قد تدهور تماماً. كان كرزاي قد أخبره بأنه لن تُجرى جولة انتخابية ثانية، فسألني آيكنبيري إن كان يمكنني العودة.

اتصلت بواشنطن لأتبيّن موعد التصويت. سألت القائد هاري رايد إن كان ثمة مجال لتأجيل التصويت يوماً واحداً. لنقل إن هاري ليس ممن يواربون في الحديث أو يهدرون الوقت بالأحاديث التافهة، وفي أفضل أيامه لم يكن يختم أي مكالمة هاتفية حتى بقول عبارة «إلى اللقاء» . وأقلّ ما يقال إنَّ هاري لم يكن مسروراً. وقبل أن يتسنى لي شرح التفاصيل حيال مدى دقة الوضع في كابول، قال: «قطعاً لا» ، وأغلق الهاتف، وانتهى الاتصال. قلت لآيكنبيري إنني لم أجد طريقة تتيح لي القدوم، فطلب من وزيرة الخارجية كلينتون الاتصال بي. كانت رائعة خلال الرحلة، إنْ لناحية ترحيبها بي عضواً إضافياً خاصاً في الفريق، أو لناحية عدم دفعي للشعور بأنني أتجاوز منطقة صلاحيات

ريتشارد هولبورك. وقد اعتمدتْ علي لأحاول مرة أخرى مع كابول، فوافقت بشرط واحد: هو أن تتصل بهاري رايد، فضحكتْ.

عدتُ إلى كابول وقت العشاء تقريباً، وبنهاية ليلتي الثالثة مع كرزاي، خلت أننا توصلنا إلى اتفاق. حينما وصلنا إلى القصر صباح اليوم التالي، بدا جلياً أنَّ أمراً ما قد تغير، وهذا التغير ليس بالاتجاه الصحيح. هذه طبيعة الدبلوماسية، ونحن نتعامل مع بشر. أحياناً يتفكّرون ليلاً في قرار ما، ويتكلمون مع أشخاص مختلفين، فيصحون بآراء مختلفة. في هذه الحالة، شعرت أن الاعتبارات السياسية التي أمضينا وقتاً طويلاً في مناقشتها وإيجاد حلول لها مع كرزاي قد أعادت فرض نفسها. لقد نفد مني الوقت بحق. إذ علي العودة إلى واشنطن، ولم يكن واضحاً إن كنت سأتمكن من العودة إلى كابول في القريب العاجل، بسبب جدول أعمال مجلس الشيوخ.

قررتُ أن أحاول فصل كرزاي عن مستشاريه، لأجعله حديثاً مباشراً معه وجهاً لوجه وفي اللحظة الأخيرة. وفق خبرتي على مدى السنوات، تعلمت أن المهم هو عزل صانع القرار عن أي مؤثر خارجي، حتى يتسنى لك في النهاية أن تكون صاحب الكلمة الأخيرة. مع انتهاء ساعات النهار، ظللت عاجزاً عن إقناع كرزاي. في النهاية، لم يتبق سوى ساعتين أو ثلاث على موعد سفري، فقررت أننا بحاجة إلى تنشق الهواء العليل. فالأحوال الجوية لها تأثيرها. وقد أردت أن أغيِّر تركيزه. كانت طبيعة المكان حول القصر تمكّنني من الانفراد به. مشينا على مسار طويل. ثم وضعت ذراعي حوله، وقلت: «أيها السيد الرئيس، سنجد حلاً للمشكلة يناسب بلدينا» .

خلال سيرنا عاودنا التطرق إلى الموضوع الذي تناقشنا فيه على مدى الأيام الأربعة الماضية. يروق لأغلب القادة التفكير في أنفسهم ضمن سياق تاريخي. تكلمت مع الرئيس كرزاي حول السياق التاريخي لهذه اللحظة. بوسعه أن يجعل التاريخ يذكره كالأب المؤسس لأفغانستان الجديدة، وبوسعه أن يكون في الوقت نفسه سياسياً فاشلاً مثيراً للشفقة. رسمتُ له صورة لمسارين مختلفين: مسار سيلقى فيه الاحترام لكونه رجل دولة وأول قائد ديمقراطي لأفغانستان، ومسار ثانٍ سيعمد فيه إلى تقويض العملية الديمقراطية، ويسهم في سوق بلده على مسار مظلم باتجاه الحرب والديكتاتورية. عبَّرت له عن أملي في أن يختار المسار الصحيح، وكنت بحاجة إلى معرفة جوابه. قال كرزاي بكل بساطة: «حسناً سأفعل ذلك، ولكن لا يسعني قبول إبطال أصوات 250 ألف ناخب بشتوني» . فقلت له إن موافقته على الجولة الانتخابية الثانية، تجعلنا نمضي في الاتجاه الصحيح.

عندما اعتلينا أنا وكرزاي المنصة لإعلان موافقته على الجولة الانتخابية الثانية، مرَّر أحد مساعديه ملاحظةً لفريقي: مجموع الأصوات النهائي الذي حصل عليه كرزاي. فتحت الملاحظة وقرأتها: «الرقم النهائي- 49.7 في المئة» . فبسطت راحتَي يديّ نحو السماء بروية، ورمقت فريقي بنظرة. أحياناً لا تكون الدبلوماسية جميلة، ولكن في النهاية، حققنا النتيجة الصحيحة.

الوزيرة كلينتون إنسانة تفي بوعدها. فقد اتصلت فعلاً برايد وشكرتْه على السماح لي بإفساد أحسن المشروعات المقدّمة للتصويت في مجلس الشيوخ. قدم هاري، وهو صديق يروقني لعدة أسباب أهمها أنه صريح جداً رغم أنك لن تتمنى أبداً أن يغضب منك واحدة من ألطف المبادرات التي شهدتها طوال سنوات عملي الخمس والعشرين كسيناتور، ولكن لم يكن ثمة داع لها البتة: ففي خطاب له في قاعة مجلس الشيوخ، وصف حديثنا المزعج عبر الهاتف، واعترف بأنه كان غاضباً، ولكنه قال إنه فخور لرؤية عضو في مجلس الشيوخ، رئيس لإحدى لجانه، يُحدِث فارقاً في حل أزمة دولية. إنه هاري رايد العائد إلى الزمن الجميل العتيق، صاحب التصرُّف المتوقع تماماً. وقد ذكّرت هذه اللحظة بمجلس الشيوخ القديم، مجلس عام 1985 الذي عرفته وبجّلته، وللأسف رأيته يختفي. إنه حتماً مكان قد تسوده العصبية، ولكن الحسّ العالي بالمسؤولية المشتركة يسود في النهاية.

شعرت أنني عدت إلى عملي الدبلوماسي في الوطن. وشعرت بالرضا لعلمي بأن كابول، ذاك النظام الديمقرطي الذي ساعدت تضحيات الجنود الأميركيين ودبلوماسيينا في تأسيسه، قد تفادت رصاصة أخرى. فقرار الرئيس كرزاي ود. عبد الله بالموافقة على انتخابات ترجيح بين المرشحَين أظهر أن الرجلين كليهما مستعدان لإعطاء الأولوية للبلد على السياسة. ليست مهمتنا أن نحدّد الحقائق السياسية لأفغانستان، ولا ينبغي أن تكون. فتلك المهمة تقع على عاتق الأفغان أنفسهم. على الأقل نعرف الآن أنه لا يزال لديهم ديمقراطية ليتمسكوا بها، وأنهم سيظلون صامدين رغم صعوبة التجربة.

إن أياً من الأعمال التي كنا نقوم بها في أفغانستان خلال عهد أوباما، لديه فرصة في النجاح على المدى الطويل، إن لم نتمكّن من تحسين التعاون مع باكستان. فالعراقيل التي تواجهنا معقدة وكبيرة. ففي العام 2008، جلست أنا وجون بايدن وتشاك هايجل في مكتب الرئيس الباكستاني برويز مشرف صبيحة اليوم التالي لظهور نتائج الانتخابات التي أظهرت خسارته. كنا قد زرنا بعض مراكز الاقتراع برفقة مراقبي الانتخابات في اليوم السابق، وهي مسألة لافتة في باكستان. أظنُّ أن عدد المرافقين الباكستانيين المسلحين الذين رافقونا نحن الثلاثة فاقوا عدد الناخبين الفعليين بنسبة مئة إلى واحد تقريباً.

كان الوضع الأمني صعباَ، ولكنْ تبيّن أن الانتخابات كانت حرّة ونزيهة. وخلال جلوسنا في مكتب مُشرِّف في صباح اليوم التالي، كان السؤال الوحيد هو: هل سيقبل النتيجة، أم لا؟ فهو رجل عسكري في بلد لديه تاريخ طويل حافل بالانقلابات العسكرية، ومن المعروف أنه وصل إلى الحكم بهذه الطريقة. كنا نخشى أن يجد حجة كي يبطل نتيجة الانتخابات، ويظل في منصبه حاكماً عسكرياً.

لم يكن أي منا يعلم ما سيحدث. ساد المكان جو من الغموض العارم. ولحظة دخول مُشرِّف إلى الغرفة، حاولتُ أن أقرأ تعابير وجهه. تباطأ في مشيته لبعض الوقت، ثم جلس، وتفوّه بصعوبة بالمجاملات الدبلوماسية المعتادة، ثم دخل في صلب الموضوع مباشرة: «أعرف سبب وجودكم جميعاً هنا. سأحترم نتيجة الانتخابات لأن هذا هو الفعل الصواب لأجل بلدي، ولكنّني لن أفعل الأمور الأخرى التي تريدونها» . كان قد سجن قاضياً من المحكمة العليا، وكنا قد أوضحنا تماماً رغبتنا في إطلاق سراحه. التفت إلينا مُشرّف ثانية وقال: «دعوني أوضح لكم شيئاً، اختاروا رغباتكم بحذر. باكستان دولة حكمها صعب جداً. إن لم نلزم الحذر الشديد، فقد يسيطر عليها المتطرفون» . أتى كلامه ليذكّرنا بأنَّ تخطّينا لعائق واحد في باكستان لن يلغي عوائق كثيرة ستأتي بعد حين؛ وأن الاتجاه الذي تسلكه باكستان مهم جداً لأفغانستان.

والآن، وبعد مرور أكثر من سنة على تلك الرحلة، بتَّ رئيس لجنة العلاقات الخارجية في الأمر، وبدأت الإدارة الجديدة التفكير في الاستراتجية التي ستتبعها مع أفغانستان ضمن سياق أوسع يشمل باكستان. أردنا القيام بخطوة كبيرة تكفل توافر قدر أكبر من التنسيق والتعاون من جهة باكستان. لقد فهم الجميع، الإدارة والكونغرس، أن علاقتنا مع باكستان مضطربة. في باكستان والمنطقة، تملك الحكومات تاريخاً حافلاً عمدت فيه إلى حماية نفسها بشتى الطرق. كنا نخشى أن يلعبوا معنا على الحبلين، حيث يؤيدون الولايات المتحدة من جهة، ومن جهة أخرى يؤيدون طالبان وشبكة حقاني، وهي جماعة جهادية أفغانية. تذكّرت دانيال باتريك موينيهان عندما وصف لي الفرق بين باكستان وأفغانستان، فقال: «باكستان حكومة من دون دولة، وأفغانستان دولة من دون حكومة» . كانت جملة محزنة، ولكنَّها تدل على حسن التبصّر: فالجهاز الأمني في باكستان تحمّل وصمد وسط محيط قاس جداً، ولمدة طويلة جداً، وتحديداً وسط تحالفات متغيِّرة. صموده هو ما أربكنا. وبالنتيجة، لم نعرف قط مدى ثقتنا بالحكومة الباكستانية. ولكنَّ ثمة أمراً واحداً كنا متأكدين منه، وهو أننا بحاجة إلى تغيير علاقتنا بالشعب الباكستاني. إذا قمنا بتحسين نظرة الشعب الباكستاني، ورأى في الولايات المتحدة حليفة له، فإنَّ بإمكاننا إنجاز المصالحة، والتعاون الإقليميين بشكل أسهل.

سعت الولايات المتحدة طوال عقود للحصول على تعاون صنّاع القرار الباكستانيين معها، من خلال المساعدات العسكرية، فيما لم تتنبه كثيراً لتطلُّعات الشعب الأعم. راح هذا الترتيب يتدهور سريعاً: كنا ندفع الكثير ونحصل على القليل، رغم أن الباكستانيين في غالبيتهم قد اعتقدوا أن العكس هو الصحيح. وبالتالي، باتت نسبة مخيفة من الشعب الباكستاني ترى أن أميركا تشكّل تهديداً أكبر من القاعدة. وإلى أن يتغير هذا الوضع، أيقنت أن هنالك فرصة ضئيلة لوضع حد للتسامح مع الجماعات الإرهابية، أو لإقناع الحكومة الباكستانية بتكريس الرأسمال السياسي اللازم لحرمان هذه الجماعات من الملاذ الآمن والدعم المادي السرّي.

خلال رحلتنا لمراقبة الانتخابات، تعاونّا أنا ورئيس اللجنة بايدن، والسيناتور هايغل، على الترويج لبرنامج مساعدات كبير للباكستانيين في محاولة لتغيير العلاقة نحو الأحسن. أمّا الآن، وبوصفي رئيس اللجنة الجديد، فقد واصلت العمل بالاستناد إلى هذا المبدأ، والنظرية بسيطة: التزام كبير بتقديم مساعدات مدنية قد يغيّر طبيعة علاقتنا. وقد أردنا تمكين أولئك الباكستانيين الذين يحاولون توجيه ثاني أكبر بلد مسلم في العالم إلى مسار الاعتدال والاستقرار والتعاون الإقليمي. وهذا هو الهدف من مشروع القانون الذي اقترحتُه بمشاركة ودعم كبيرين من السيناتور ديك لوغار.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

آنذاك أمست جهود ديك التي بُذلت في وضع برنامج نان-لوغار لنزع الأسلحة النووية والكيماوية نموذجاً للشراكة بين الحزبين في مجال السياسة الخارجية. كنا قد عملنا معاً في الثمانينات للمساهمة في تحقيق انتخابات حرة ونزيهة في الفلبين. لقد كان الشريك المناسب للقيام بهذا المجهود الرامي إلى جمع مساعدات مالية كبيرة لدولة أجنبية عبر مجلس شيوخ لا يزال يعاني، جراء الطريقة التي جرى فيها، التحريض الشديد على مسائل، مثل المساعدة الخارجية وتحويلها إلى موضوعات تستميل الناس بشكل سلبي جداً. وبسبب اقتصادنا، ولأن عدداً كبيراً من الناس لا يزالون يعانون الركود الاقتصادي الكبير، فإن الوقت لم يكن مثالياً للطلب من الأميركيين إرسال المال إلى بلد لا مناصرين لنا فيه.

آمنت بهذه المقاربة الجديدة تجاه باكستان، لأنني شهدت من قبل نجاعتها بأم العين؛ فعقب زلزال كشمير الذي وقع في العام 2005، أنفقت الولايات المتحدة حوالى مليار دولار على جهود الإغاثة. وبعد أن زرت أماكن، مثل مانسيرا ومظفر أباد، عقب وقوع الزلزال، أدركت مدى القوة الهائلة

لعملية المساعدة التي أطلقناها. ولن أنسى أبداً يوماً حلقت فيه بواسطة الطوافة إلى الناحية الشمالية الغربية من باكستان، قاصداً مكاناً غير بعيد عن سلسلة جبال هيميلايا الشاهقة، وهبطت في نقطة صغيرة قرب النهر. التقيت هناك أطفالاً في مدينة تنتشر فيها الخيم. كانت هي المرة الأولى التي يغادر فيها هؤلاء الأطفال فيها الجبال، والمرة الأولى التي يدخلون فيها المدارس. فرحتُ جداً برؤية الجنود الأميركيين، رجالاً ونساءً، ينقذون أرواح المواطنين الباكستانيين. وبصراحة، فقد أسهم ذلك بقوّة في تغيير رأي الباكستانيين بأميركا.

بعد وقوع كارثة طبيعية، لم نكن الوحيدين الذين أدركوا مدى الحاجة إلى وجود دبلوماسية عامة مستندة إلى الأفعال، وليس إلى الأقوال. فقد عمدت الجماعة التي تُعدُّ الواجهة لمنظمة «عسكر طيبة الإرهابية» (جيش الأخيار) إلى نصب مجموعة من خيم الإغاثة باحتراف في أرجاء المنطقة. إلّا أنَّ جهودنا كانت فاعلة بصورة أكبر. فالهديَّة التي قدّمها الجيش الأميركي، وهي عبارة عن مستشفى جراحي عسكري متنقل، قد أثبتت مدى فاعلية مساعداتنا. وما لبثت أميركا أنْ واجهت بشكل مباشر المتطرفين في معركة قلوب وعقول حقيقية، وسرعان ما حقّقت الفوز.

أيقنت أن الأمر يعود إلينا كي نعيد تحقيق هذا النجاح على نطاق أوسع، من دون انتظار كارثة سبَّبتها الطبيعة، أو كانت من صنيع البشر. لكنَّ السؤال هو: ما أنجع طريقة نُظهر بها الصداقة الحقيقية بين الشعب الأميركي والشعب الباكستاني؟

كان مشروع قانون المساعدة الخطوة المهمة الأولى. فقد كان نموذجاً أولياً «للقوة الذكية» ، لأنه استخدم كلاً من المساعدة الاقتصادية والعسكرية لتحقيق نتيجة إجمالية أقوى من تلك الجزئية. وقد أُقرَّت مضاعفة المساعدات غير العسكرية، فزيدت المساعدة المالية النقدية، وجرى دفعها ضمن إطار زمني أطول أيضاً. وستُستخدم هذه الأموال في بناء المدارس والطرقات والمستوصفات. بمعنى آخر، فإنَّها ستحقق بشكل منتظم ما حققناه بشكل سريع، من خلال جهودنا الإغاثية. ولكن هذا المال سيحقق ما هو أكثر من مجرد أفعال الخير: سوف يمكّن الحكومة المدنية الغرّة من إظهار قدرتها على منح المواطنين الباكستانيين حياة أفضل. وقد يشجع المعتدلين ويمنحهم شيئاً ملموساً ليقدِّموه دليلاً على أن الصداقة مع أميركا لها منافعها بقدر ما فيها من مخاطر. وقد يغيّر من نظرة الأغلبية العظمى من الباكستانيين الذين ينبذون صورة القاعدة وطالبان المروّعة، بقدر ما يغضبهم ويحبطهم استهتار قياداتهم والقادة الأميركيين بمعاناتهم اليومية.

ولإجراء ذلك بالشكل الصحيح، أيقنت أن علينا تقديم التزام على المدى الطويل: يشعر أغلب الباكستانيين بأن أميركا قد استغلت بلدهم وتخلّت عنه في الماضي، وتحديداً عقب الجهاد ضد السوفييت في أفغانستان. وهم يخشون الآن أن نتخلّى عنهم ثانية بمجرد أن ينحسر تهديد القاعدة. هذا التاريخ وهذا الخوف هما اللذان دفعا الباكستانيين إلى أن يكونوا حذرين. وإذا أردنا لذاك البلد أن يتخلى بشكل حاسم عن طالبان وغيرها من الجماعات المتطرفة، فإنَّ علينا أن نقدّم ضمانات مؤكدة تثبت أننا لسنا مجرد صديق نحتاج إليهم في وقت الضيق... وقد جاء مشروع قانون المساعدة ليُقدّم هذا التطمين.

ومن الناحية الأمنية، فرض مشروع القانون شروطاً على المساعدة العسكرية تكفل أن يستخدم المال للأهداف المرجوة. وهكذا، فإنَّ أية مساعدة عسكرية، يجب أن تكون مقرونة بتعهد سنوي بأنَّ جيش باكستان وأجهزة مخابراته هما شريكان أصيلان. وتُعدّ الناحيتان العسكرية والاقتصادية لمشروع القانون هامّتين بقدر أهمية تواءم كل تلك العناصر وتفاعلها معاً. وقد مكَّننا هذا الالتزام التام للشعب الباكستاني من ضبط مساعدتنا العسكرية بشكل أكثر فاعلية. ويكون بوسعنا في أي سنة أن نختارها زيادة هذه المساعدة أو تخفيضها، أو تركها من دون أي تغيير. لمدة طويلة جداً، شعر الجيش الباكستاني بأننا غير صادقين عندما كنّا نهددهم بقطع التمويل لمنظومة أسلحة معيّنة أو لقطعة مكلفة من العتاد. فإذا جرت مضاعفة مساعدتنا الاقتصادية ثلاث مرات لتصل إلى مليار ونصف المليار دولار، فإنَّ بوسعنا وضع حد لهذه اللعبة، وسنتمكَّن أخيراً من اتخاذ هذا الخيار على أساس مصالحنا القومية، عوضاً عن المصالح المؤسساتية للقوى الأمنية الباكستانية.

عندما جرى تمرير مشروع القانون في 16 تشرين الأول/أكتوبر 2009، كنا واثقين بأن الباكستانيين سيقدّرونه. إلّا أنني أدركت كُلَّ الإدراك مدى الخطر الذي قد يقع بشكل غير مقصود، كلّما كان علينا القيام بتسويات معيّنة من أجل تمرير مشروع قانون. قمت أنا وديك لوغار بتمرير مشروع قانون صريح عبر مجلس الشيوخ. وفي المقابل، أعدَّ مجلس النواب مشروع قانون يكاد يكون مشابهاً، وضمَّنه كثيراً من التعابير التي أوصى بها مجتمع الناشطين، وهي تعابير مألوفة تتناول السيطرة المدنية على الجيش، وإنفاق المال على الإصلاح في الداخل الباكستاني، والإصرار على وجود عملية مرهقة تكشف كيفية إنفاق المال. وقد عبَّر هذا الكلام عن تفكير منطقي جداً من منظور السياسة الأميركية. ولكنّني شعرت بالقلق حيال كيفية انعكاس ذلك على باكستان. أمّا أنا فقد تمثّلت أولويتي في تحويل مشروع القانون إلى قانون. وبغير ذلك، لن يغيّر مشروع القانون هذا أي شيء على أرض الواقع.

تقبلنا اللغة التي تكلم فيها مجلس النواب؛ وجرى دمج مشروعَي القانون؛ وسُمي القانون النهائي «قانون تعزيز الشراكة مع باكستان» ، ليُعرف بعد ذلك بقانون كيري-لوغار-بيرمان.

ولسوء الحظ، لم يُروَّج لمشروع القانون في باكستان على أنه فاتحة ليوم جديد في العلاقة بين شعبينا، بل عدَّه الباكستانيون انتهاكاً لسيادتهم، وخطوة لاستعمار جديد. وهذا ما دفعني إلى العودة سريعاً إلى باكستان. كنت أظنُّ أن رحلتي ستنجح في شرح مشروع القانون في أرجاء البلد، أي إنها ستمنحني فرصة للتكلم على منافعه، وتوضيح أن الولايات المتحدة تهتم بأمر الشعب الباكستاني. ولكنْ، عوضاً عن ذلك، انتهى بي المطاف إلى تمضية أغلب وقتي في محاولة إقناع الباكستانيين بأننا نحترم سيادتهم. وقد لمست خلال رحلتي هذه أن الخير قد ارتد سلباً علينا. إن أي سياسي، يحسب أن المناظرات العامة لا تحتدم فيها النقاشات إلّا في الولايات المتحدة، عليه أن يجرب القيام بمناظرة منها في باكستان. لقد عملنا جاهدين للاستحصال على دعمٍ للشعب الباكستاني، على الرغم من الشكوك الحقيقية التي ساورت الكونغرس والشعب الأميركي. وها أنا ذا الآن في باكستان، أحاول إقناع القادة والشعب بأن الولايات المتحدة لا تنتهك سيادتهما. لمَ لا أحزم أمتعتي وأقول: «سحقاً لكم جميعاً؟» ، فسواء أعجبنا الأمر أم لم يعجبنا، فإنَّ من مصلحة الولايات المتحدة أن تُسهم في إحراز النجاح في أفغانستان، وأن تسهم في استتباب الأمن الأقليمي. إلّا أن ذلك لن يتحقَّق ما لم يكن هنالك استعداد لتحمل مشقات الدبلوماسية العامة في باكستان.

إن هذه الرحلة وتلك الفترة برمّتها ذكّرتاني إلى حدٍّ بعيد بأن الكثير مما نحاول القيام به هنا في الوطن يعتمد على كيفية تأطير رسالته وإيصالها إلى الخارج. أياً يكن ما نفعله، فإنَّ على عاتقنا تقع مسؤولية شرحه بالشكل المناسب، آخذين في الحسبان تماماً كيف سينظر إلى جهدنا هذا شعبٌ لا يُتوقع منه أن يتفهّم، ولا تهمه كثيراً سياساتنا المحلية. وفي الوقت عينه، فإنَّ لدينا الحق في محاسبة البلد الذي يعمد سياسيوه إلى التلاعب بالسياسات، مستخدمين كرم دافعي الضرائب الأميركيين. أمّا أنا فقد ترسخ في ذهني درس مفيد: عندما نقرر القيام بفعل ما تكون فيه فائدة لبلدنا، علينا أن نتجاوز ميل الكونغرس إلى التصرف بطريقة تسجيل النقاط وإرضاء الناس، في الوقت الذي قد تُسهم فيه هذه الطريقة في تقويض أهدافنا على الدوام. وعلى هذا، فإن كل الكلام الإضافي المسهب الذي أُضيف إلى مشروع القانون ذاك، لم يسهم في تحقيق أهدافنا الفعلية، بل حال حتماً دون إيصال نياتنا إلى الشعب الذي نهدف إلى مساعدته.

في صيف العام 2010، وبعد أسابيع من توقيع مشروع القانون وتحوُّله إلى قانون وانحسار الزوبعة الإعلامية الأولية، حدث فيضان هائل أودى بحياة أكثر من 1600 شخص، ودمّر حياة عدد هائل من الباكستانيين. عندها، كان عليّ أن أغيّر مسار رحلتي، وأعود إلى هناك، لمراقبة جهود المساعدات الأميركية. فاضطررت إلى استخدام الطوافة للخروج من المناطق المنكوبة. كان من المهم الاطلاع على كيفية إنفاق الأموال، تطبيقاً للقانون الذي سنّه الكونغرس مؤخراً، لتلبية الحاجات الإنسانية الملحّة. فيما كنا نبحث عن مكان لهبوط الطوافة، خطر لي أن أبيّن أن الولايات المتحدة تقف إلى جانب الشعب الباكستاني، ولكن ماذا عن الرئيس الباكستاني؟ اتصلت بالرئيس آصف زرداري، وطلبت منه أن يرافقني في الجولة. كان خارج البلاد آنذاك، فاقترحت عليه أن يعود إلى باكستان على الفور وينضم إليّ، فوافق على الفور. إلّا أن انضمامه إليّ قلّص كثيراً عدد الأماكن التي نستطيع زيارتها: هنالك عدد قليل من المناطق ترحّب بزيارة الرئيس زرداري. وعندما قارنّا بين هذه الأماكن والأماكن التي نستطيع الهبوط فيها بسلام، تقلّص عددها إلى مكانين أو ثلاثة.

هبطنا أخيراً في أول موقع، ثُمّ أُخذنا إلى زاوية في ملعب كرة قدم، حيث أخبرونا بإيجاز عن جهود الإغاثة التي يقوم بها عساكر الرئيس زرداري. كان آلاف من الباكستانيين قد تجمّعوا حول ملعب كرة القدم، ولكن أحداً منهم لم يسعه رؤية ما نقوم به، فسقط الهدف من الزيارة: كنّا نريد أن ننشر مشهد الرئيس الذي يعمل فعلياً لمساعدة شعبه المنكوب، مقروناً بكلامي المباشر للباكستانيين حول جهود أميركا لتلبية حاجاتهم الإنسانية. إلّا أن ما حدث كان عكس ما نشتهيه، فقد تحوّلت هذه الزيارة إلى عملية إحاطة موجزة بما كان عليه الوضع في ملعب كرة قدم، ضمن محيط جرت حمايته عسكرياً على مسافة 100 ياردة. مُنِع الشعب الباكستاني من رؤية ما كنا نقوم به. وقد زادني هذا الإخفاق واحداً آخر من الإحباطات التي واجهتُها لدى تمرير مشروع القانون في المقام الأول، لأجد نفسي بعد ذلك مجبراً على إقناع الباكستانيين بأننا لا ننتهك سيادتهم. خشيت أن تثير مسألة السيادة من جديد نفور الباكستانيين من الولايات المتحدة. فمشاهدة طوافة على بعد مئات الياردات وهي تهبط على أرض ملعب كرة قدم ستفاقم حدة المشكلات عوضاً عن تخفيفها. فرأيت نفسي أتساءل عن أفضل طريقة نوصل بها نيتنا الحسنة إلى بلد خيم فيه الشك والريبة على علاقتنا منذ أمد بعيد.

على المستوى الشخصي، جعلتني جهودي غير الروتينية أتحوّل إلى متحدث موثوق به لدى الحكومة الباكستانية. وقد عُرف عني أنني منصف ومهتم جداً بشأن العلاقات بين الولايات المتحدة وباكستان. ولكن سرعان ما اندلعت أزمة أخرى تطلبت بعض التدخل السري، أزمة وقعت بلا ريب ضمن

خانة «افعل خيراَ، تلقَ شراَ» تجلّت معالمها خلال كل الجهود التي بذلناها. إلّا أن هذه الأزمة عُرفت بعد ذلك بعبارة واحدة جعلتها تبدو غامضة أكثر مما هي عليه فعلياً: «مسألة راي دايفيس» .

في نهاية كانون الثاني/يناير 2011، وفي شوارع لاهور، وهي منطقة قاسية جداً وأكبر مدينة بنجابية في العالم، وقع تبادل لإطلاق النار قُتل على إثره شخصين مدنيين باكستانيين: مطلق النار هو مواطن أميركي يعمل لحساب شركة أمنية خاصة، وهو عسكري سابق يدعى راي دايفيس يعمل متعاقداً فيدرالياً. وسرعان ما تحوّلت المشكلة إلى ما يسمونه باللغة الدبلوماسية «المأزق المقيت» . وقد أفاد دايفيس بأنه وقع ضحية لمحاولة سرقة، إلّا أن مقتل شخصين باكستانيين وتنامي شعور الغضب لدى الشعب، دفعا الشرطة إلى سجن الأميركيّ واتهمته بالقتل، ولم تفلح جهود قنصليتنا لإطلاقه بالرغم من الحصانة الدبلوماسية.

شدّت هذه القضية انتباه عامة الناس كثيراً في باكستان، وشاعت بينهم «نظرية المؤامرة» . وانتشرت شائعات حول وكالة الاستخبارات المركزية، أثارت الشكوك حيال العدد الكبير من الأميركيين المسلحين، في بلد يتحسس من وجودنا فيه، فاشتعلت شوارع لاهور غضباً. تصاعد منسوب القلق من الجانبين، لاسيّما وأننا، نحن الأميركيين، طالما توجسنا شرّ الوضع في باكستان وأدركنا صعوبة الإمساك به. وقد عدنا لنتوجس هذا الأمر على نحو مبرر في وقت لاحق من فصل الربيع، بعد أن جرى إيجاد أسامة بن لادن وقتله في أبوت أباد. وكنا جميعاً نعي أن شرارة واحدة يمكن أن تشعل فتيل الوضع بسرعة. وقد كان أعضاء الحكومة الباكستانية يستعرضون أحياناً هذه الدينامية تبريراً لعدم قيامهم بما طلبناه منهم، وإنْ كان هذا التبرير منطقياً في أحيان كثيرة. إنها واحدة من الفترات التي واجهنا فيها تعقيدات حقيقية: الحكومة المحلية في لاهور تقودها معارضة سياسية مناهضة للحكومة المركزية، وقد رأت فرصة لها كي تُظهر ازدراءها لإسلام آباد. وقد تفاقمت الأزمة حينما أقرت محكمة محلية بأن دايفس لا يتمتع بحصانة دبلوماسية. وقد دخلت جماعة طالبان إلى هذه المعمعة مهدّدة بالانتقام من أي محام أو قاض يطلق سراح دايفس.

بات لدينا الآن مشكلة معقدة. فقد ارتأى طوم دونيلون، مستشار الأمن القومي آنذاك، أنَّ من المفيد إدخال وسيط يمثل طرفاً ثالثاً، شخص ليس من ضمن الإدارة، ويعرف الباكستانيين. وعلى عكس سفيرنا الكفوء، يجب ألّا يكون ذاك الشخص متعاملاً مع الحكومة الباكستانية بشكل يومي.

في واشنطن، طلبتُ من السفير الباكستاني القدوم إلى منزلي كي نتداول في طريقة لحلحلة الوضع. وقد احتجنا إلى إيجاد ما يشبه صمام التنفيس عن الضغط في باكستان وسيلة للتعبير عن الندم. حاول الناس في الشارع الباكستاني أن يعرفوا هوية راي دايفس، وما كان يقوم به فعلياً وسببه، وعدد أمثاله في بلادهم. وفي هذه الحالة، لا ينحصر كلام عامة الشعب في هذه المسألة، بل يتعداها إلى مسائل أخرى. وسرعان ما تحوّلت هذه الأزمة إلى جدال حول وجود الأميركيين المسلحين في شوارع دولة إسلامية، ودور وكالة الاستخبارات المركزية، وهجمات الطائرات الخالية من الطيارين التي أشارت إليها الصفحات الأولى للجرائد العالمية.

ظنَّ السفير حسين حقاني أنني أستطيع المساعدة، فتساءلنا إن كان علي لقاء أهالي الرجلين اللذين قُتلا. إلّا أننا رأينا أنَّ هذا قد يؤجج الوضع. ثمَّ تناقشنا في ما يمكن القيام به للتخفيف من ضغط الشارع عبر إصدار بيان للتعبير عن الندم في باكستان، فأُلطفّ بعض الشيء من حدّة توتر الناس. قدّم حقاني اقتراحاً لافتاً، رغم أنه غير تقليدي، وهو استخدام تقليد إسلامي يتيح دفع «دِيْة القتيل» مقابل روح زُهقت، وهي طريقة لتسوية نزاع ينجم عنه موت. ولكن يجدر بأحدهم أولاً أن يهدئ الوضع.

لم يكن فريق عملي مسروراً، ولكنّني عدت إلى باكستان كي أؤدي دور الشرطي الصالح في وضع سيئ. جرى ضبط التصريحات العامة لإدارة أوباما كي تركز في أهمية الحصانة الدبلوماسية الدولية التي يكفلها القانون، وفي المخاطر الموجودة على المحك، بما في ذلك الدعم الأميركي لباكستان؛ إذا تُرك دبلوماسي أميركي قابعاً في زنزانة في لاهور. وقد أدركنا ضمنيّاً أن هذه المسألة لن تجري تسويتها من خلال تأويلات القانون الدولي، بل عبر السياسة.

التقيتُ أولاً بعض المسؤولين في الحكومة المركزية في إسلام آباد. قدمنا، أنا ورئيس الوزراء جيلاني، بياناً عاماً مشتركاً يتطرق إلى أهمية المسائل التي تربط بلدينا، بما في ذلك المساعدة الاقتصادية والتعاون في مكافحة الإرهاب. ثم، ومن دون أي إعلان مسبق بغية الحد من المخاطر الأمنية، سافرتُ إلى الناحية الشرقية من البلاد، إلى لاهور، إلى قلب المعمعة، وحاولت أن أُدليّ ببيان عام أَمَلْت في أن يسمعه الشعب بشكل مختلف: أن يفهموا من خلاله أنني صديق لباكستان، وأنني واضعُ التشريع الذي يهدف إلى البدء بعهد جديد من التعاون مع شعب باكستان، وأنني أريد أن أسعى لحل هذا الوضع المأساويّ. وقد شددتُ في البيان على أن الولايات المتحدة ستطلب من وزارة العدل فيها التحقيق بما حدث، تماماً كما قد تفعل وزارة العدل

الباكستانية مع أي من مواطنيها الباكستانيين. كانت زيارة مأزومة وشديدة التوتر. ولكنني عدت إلى دياري ولديّ ملء الثقة بأن الأزمة في طريق سريع نحو الحل. فقد جرى التنفيس بعض الشيء من ضغط الأزمة، ونأمل في أن يفسح ذلك المجال أمام الحكومة الباكستانية كي تعمل مع العائلتين على اتفاق حول الدِيَّة، فتمسي المشكلة كلها وراء ظهورنا.

عندما رجعت إلى واشنطن، كنت مرهقاً من السفر، ولكنني كنت مسروراً لانتهائي من هذه الرحلة. وقد عمد واحد من فريق عملي إلى طباعة صورة نُشرت في الصحافة في باكستان: صورة جميلة لمحتجين في شوارع لاهور، حشود تحيط بدمية محشوة معلقة، وتحمل لافتة كُتب عليها «جون كيري وأوباما» . كم هذا بديع! قال مدير الاتصالات لدي، ثم أردف ممازحاً: «سنحتفظ بهذه الصورة» .

علمتُ بأن الاحتجاج والصورة يشكلان جزءاً من التمثيلية اللازمة للسياسة المحلّية. بعد بضعة أسابيع، أينعت ثمار المناورة لقد جرت الموافقة على الدِيَّة، وأطلعت العائلتان المحاكم المحلية على قرارها، أُطلِق سراح راي دايفيس، وأُرسل إلى دياره بكل هدوء وإتقان. يا له من إنجاز!!...

بعد 6 أسابيع، اتصلت بي هيلاري كلينتون لتطلعني على أن القوات الأميركية الخاصة تمكّنت من قتل أسامة بن لادن، ليس داخل كهف في أفغانستان أو في مخبأ وسط الجبال في الأماكن القبلية غير الخاضعة للسيطرة في باكستان، بل حيث كان يعيش براحة تامة في مجمع سكني مغلق في مكان ليس بعيداً عن الأكاديمية العسكرية في أبوت آباد الخلابة. هنأتها هي والإدارة... وسرعان ما أُعلِن هذا الخبر.

يجب أن نقدّر عالياً جُرأة الرئيس، عندما اتخذ القرار بالتوجه إلى الأراضي الباكستانية من دون إنذار مسبق لقتل أسامة بن لادن، ومن دون أن يكون واثقاً تماماً أن المهمة ستلاقي النجاح، وإن كان الأميركيون سيُقتلون، ومن دون التيقُّن بأن بن لادن موجود هناك. كانت الاحتمالات غير الأكيدة أكثر من أن تُعدّ: ماذا لو قام الباكستانيون بإسقاط طوافة أميركية؟ ماذا لو لم يكن بن لادن هناك؟ ماذا لو تعرّض عناصر قواتنا الخاصة للقتل؟ وماذا لو تبيّن أننا دخلنا إلى مجمع يضم مدنيين أبرياء خائفين، فنُضطر وسط ضبابية اللحظة إلى إطلاق النار؟ استعَدْت في تلك اللحظة مشهد طوافات الرئيس كارتر التي جرى إسقاطها في الصحراء سنة 1980، في أثناء مهمة فاشلة لتحرير رهائن أميركيين في إيران، كادت تكلّفه الرئاسة. وضع الرئيس أوباما رئاسته على المحك عندما اتخذ القرار بالاقتصاص من أسامة بن لادن.

وقد حمدت الله على نجاح هذه العملية، وعلى التدريب الفائق والقدرة الاستثنائية التي يتمتع بها جنودنا، وتحديداً قواتنا الخاصة.

بعد أن أقفلنا الخط وتفكّرت في المسألة كلها، خطرت لي فكرة أخرى، أو لنقل احتمال آخر. ماذا لو كان راي دايفيس لا يزال في السجن؟ عندما كنت متجهاً في رحلتي المتعبة إلى إسلام آباد ولاهور، لم أكن أدري تماماً أن الاستخبارات والجيش يعملان على رسم خطة لقتل بن لادن. لا عجب أن الإلحاح كان شديداً لإعادة دايفيس إلى الديار. كانت كل نقاشاتنا حول الحصانة الدبلوماسية والسيادة والعلاقة بين البلدين ستذهب هباء لو أن الولايات المتحدة اضطرت إلى تنفيذ الغارة عند وجود دايفيس في السجن. خطر لي ما واجهه طوم دونيلون وهيلاري، ناهيك بالرئيس، من ضغوط تكدست فوق طاولات مكاتبهم دفعة واحدة. وكم كانت كثيرة تلك العوامل المترابطة والمعقدة التي تؤثّر في قرار واحد معيّن، وفي تاريخ معين وفي مسألة معينة، وكم كان المجال ضيقاً لشرح هذه المشكلات أو مناقشتها.

في وقت لاحق من ذاك الشهر، طلبت مني الإدارة أن أقوم برحلة أخيرة إلى باكستان. وقد أتى ذلك في توقيت يشوبه التوتر البالغ، وإنْ كان مفهوماً من الطرفين. فالباكستانيون غاضبون جداً من انتهاك سيادتهم من دون سابق إنذار من الولايات المتحدة. وتضاعف شعور الغضب لديهم بعد التبريرات التي قدّمها المسؤولون الأميركيون، إذ ادَّعوا أنهم خشوا أن ينسقوا مع الباكستانيين لئلا يصل الخبر إلى بن لادن فتخفق المهمة. في ظل ذاك الوضع، كان كل كلام في ذلك الحين غير ذي جدوى دبلوماسية بتاتاً.

تصاعدت في الكونغرس أصوات تطالب بوضع حد للمساعدة الأميركية لباكستان. وكُشف عن تفصيل مهم يتعلق بالجيش الأميركي فحواه أن إحدى طوافات بلاك هوك المستخدمة في الغارة التي شُنت على بن لادن قد تعطّلت على أرض المجمّع؛ فعمدت قواتنا إلى تفجيرها عند انسحابها، ولكن حطامها، بما فيه الذيل الذي بقي سليماً، ظل في المجمّع في أبوت أباد. وهدّد الباكستانيون بتقاسمه مع الصين. كان ذلك تشتيتاً لا يصب في مصلحة أحد، ولكن الباكستانيين لم يكونوا آنذاك على دراية بما يعود عليهم بالمنفعة على المدى البعيد. وقد أملت في أن أتمكّن، في ظل مشكلات كثيرة لم تُحل مع أفغانستان، ناهيك بالمشكلات مع جارة أخرى هي الهند، من أخذ وعد من باكستان بإعادة بقايا الطوافة. وتعهّدت بأن أجد من جديد طريقة لجعل هذا الحوار الثنائي يصب مجدداً في المصالح الاستراتيجية الحقيقية.

بعد التوقف في أفغانستان، عدت إلى إسلام آباد. كان يرافقني في السفر اثنان من فريق العمل في لجنة العلاقات الخارجية، هما دوغ فرانتز

وفاطمة سومر. رافقني دوغ بصفته مراسلاً، سبق له أن غطى جزءاً كبيراً من حرب أفغانستان. تحدثنا في أثناء الرحلة عن احتمال كبير أذهلنا كلينا: ماذا لو أن الولايات المتحدة قتلت بن لادن في معركة طورا بورا عند اندلاع الحرب؟

كان علينا أن نفعل ذلك، وقد نجحنا فيه. رأيت منذ العام 2002 أننا ارتكبنا خطأً فادحاً باعتمادنا على سادة الحرب الأفغان في طورا بورا، وهم أشخاص حاربوا سابقاً على الجبهة الأخرى، عوضاً عن إرسال القوات الخاصة للصعود إلى الجبل، وقتل بن لادن.

واليوم، وبعد 10 سنوات تقريباً من أحداث 11 أيلول/سبتمبر وجدنا أنفسنا متورطين بعمق في مجموعة علاقات معقدة وضرورية في آن مع باكستان وأجهزتها الأمنية، ومع قادة متقلّبين خلف الحدود، أي في أفغانستان، ومع الحكومة الشيعية في العراق. وقد تساءل دوغ: «ليكون الوضع مختلفاً الآن لو أن الولايات المتحدة قضت على بن لادن في أولى أيام الحرب في أفغانستان؟

ثم أردف دوغ قائلاً: «لو جرى الإمساك ببن لادن في طورا بورا، لما ظهر شريط تسجيلي له عشية الانتخابات الرئاسية سنة 2004، ولما ارتفع في اللحظة الأخيرة عدد الأصوات لمصلحة بوش-تشيني، ثم تساءل مرَّة أخرى: لو حدث ذلك، فهل كنت اليوم رئيساً؟ وجوابي: «لو كنت رئيساً يا دوغ، فثق بأننا كنا الآن نركب طائرة أجمل» . كان سؤالاً تاريخياً مثيراً للاهتمام. ولكنْ، بعد خسارتي في السباق الرئاسي، لم أسمح لنفسي قط بأن أتوه في متاهة الفرضيات. فهذا هدر للوقت والطاقة، لاسيَّما وأن لدي الكثير لأقوم به كي أبقى ماضياً إلى الأمام. في الساعة الثانية فجراً، وعلى مدرج المطار في إسلام آباد، رحنا نجدّ السير، فلدينا اجتماعات ماراتونية سيستنفد إتمامها من دون أدنى شك صبرنا جميعاً.

توجّهنا مباشرة إلى المقرّ العسكري في روالبندي، حيث التقينا داخل غرفة ممتلئة بالدخان رئيس أركان الجيش الجنرال أشرف كياني، ورئيس وكالة الاستخبارات الباكستانية ذات النفوذ القوي، الجنرال أحمد باشا.

يتمتع القادة العسكريون في باكستان بنفوذ، يكاد يكون أكبر كثيراً من نفوذ أمثالهم في الولايات المتحدة. أما عندنا، فالسيطرة المدنية على الجيش مقدّسة. لذلك كنت دائماً أولي هذا الأمر وانعكاساته اهتمامي. لكنَّ الواقع فرض عليَّ أن أتكلم مع الأشخاص الذين يتمتعون بالسلطة لإعطائنا ما نريده، وهؤلاء لن يكونوا أصحاب القيادة المنتَخَبين في باكستان، ليقرّروا في هذه المسألة. عندما يحين الوقت لإقامة مؤتمر صحافيّ عام، كنت أصر على

تقديمه إلى جانب قيادي مدني باكستاني، لئلّا نعطي انطباعاً عاماً إشكالياً، وإنْ كان الحديث الأصعب يجدر تبادله مع كياني وباشا.

كان اجتماعاً شاقاً لم يفاجئني، ولكنه اختبر بالتأكيد قدرتي على الصبر. لقد وجدنا بن لادن يعيش خلف الأكاديمية العسكرية الباكستانية؛ ورغم ذلك، وُضعنا نحن موضع الدفاع عن أنفسنا. ومع هذا، كان الجنرالان يستشيطان غضباً. فقد وقعت الغارة ولم يكونا يعلمان شيئاً عنها مسبقاً؛ فكان ذلك في نظرهما انتهاكاً لسيادة أراضيهما، وكان عليَّ أن أبذل مجهوداً كبيراً كي أقنعهما بأننا كنّا ملزمين أن نتّبع السرية التامة. أكَّدت لهما أن السبب لم يكن عدم ثقتنا بهما، بل في أن تنفيذ الغارة يجب أن يجري بسرية تامة، فحتى أنا لم تُكشف لي أنا إلّا بعد تنفيذها. أظنُّ أن هذا الأمر أقنعهما إلى حدّ بعيد. ثم سألتهما عما كانا سيفعلانه لو أنهما كانا مكاننا. ماذا لو أنهما وجدا في أفغانستان عدوهم الإرهابي الذي يتربع على قمة قائمة المطلوبين؟ هل كانا سيتصلان بكرزاي مقدماً؟ فابتسما. تركتهما ينفسان عن غضبهما، ولكنّني ظللت أعود إلى المصالح الأساسية التي تربط بيننا، فالجانبان لديهما الكثير على المحك.

في نهاية الاجتماع، وضعنا بياناً. طلبت من دوغ أن يطّلع عليه، فقال: «إن كنت تعتزم عدم قول أي شيء، فالبيان ممتاز» . وهذا ما أردناه بالضبط. فما أقوله في العلن أقل أهمية بكثير مما يجري التزامه سراً، ذلك أنَّ أي بيان رسمي من شأنه أن يضر بالتقدم الذي أنجزناه سراً.

في اليوم التالي، التقيت الرئيس آصف زرداري ورئيس الوزراء يوسف جيلاني وسفير باكستان في الولايات المتحدة، حسين حقاني. أرادوا منّا بياناً خطّياً نؤكد فيه للشعب الباكستاني أن الولايات المتحدة لن تغزو بلدهم، ولن تضع يدها على أسلحته النووية. وقد بدا ذلك هاجساً غريباً في مثل تلك اللحظة. ناقشنا البيان حرفياً. وفي مرحلة معيّنة حاول شخص من جهة الباكستانيين أن يضيف جملة تقول: «أنا جون كيري أقسم بالدم» . إلّا أن هذه الجملة لم تكن لتمر، ولكنها كشفت عن أمرين: الأوّل هو أن هذه المسألة ملحة عليهم، والأمر الثاني أن علاقاتي مع القادة الباكستانيين أمست شخصية. فهمت من اللغة التي اقترحوها أنهم يظنون أن لدي مخزوناً من الموثوقية يسهم في وضع العلاقة على أرضية أمتن.

أعلن الباكستانيون أنهم سيعيدون إلينا ذيل الطوافة، وسيجدّدون انخراطهم في مساحات أخرى من التعاون. إن التحديات الداخلية في باكستان، مقرونة بظروفهم السياسية المحلّية المعقّدة، الأمر الذي يؤشّر على أنَّ هذه العلاقة لن تكون سهلة أبداً. وكما كانت طوال عقود، فإنَّها ستظل علاقة مشوبة بعدم الثقة وبالتقلبات الشديدةِ، وبلحظات المواجهة والمنافذ

التي تتحقّق عبرها بعض الاختراقات أحياناً. ولدى سماع كل عضو في الكونغرس في ديارنا يطالب بفسخ تلك العلاقة، كنت أتساءل: «ما هو بديلكم؟» «أنبتعد عن أفغانستان؟ لقد فعلنا ذلك سنة 1979، ونعرف جميعاً أي نفع عاد علينا ذلك. أنترك العلاقة مع باكستان للصين أو للسعودية؟ أنتخلى عن إمكانيتنا للتدخل وسيطاً بين طرفين، في الوقت الذي تتصاعد فيه حدة التوتر في العلاقة بين الهند وباكستان؟ أنغلق قنوات اتصالنا مع قوة نووية في أخطر منطقة في العالم، محاطة بجيوب من المتطرفين؟ حظاً موفقاً إن فعلتم كل هذا» .

خلال رحلة العودة إلى الديار، مازحني دوغ قائلاً: «أيها السيناتور، هل تقسم لي بالدم أننا لن نضطر أبداً للعودة إلى باكستان؟»

بالرغم من الاهتمام الأولي لإدارة أوباما بتحويل محور الاهتمام نحو آسيا، ومع أن ذلك كان في نظر جهات كثيرة في الشرق الأوسط مؤشراً على تراجع في الاهتمام بمنطقتهم، فإن هنالك مروحة واسعة من المسائل ستعاود حتماً جر الإدارة مجدّداً إلى ما يسمّى على سبيل السخرية صندوق الرمل، أي العراق وإيران ولبنان وسواها من دول الشرق الوسط، حيث مجموعة كبيرة من المشكلات التي يجب معالجتها، وكلها تتشاطر قاسماً مشتركاً واحداً، هو سورية. في هذا الوقت، كان الموفد الخاص للرئيس، جورج ميتشيل، قد بدأ جولة جديدة من مفاوضات السلام.

في السنوات السابقة لعهد أوباما، انخرطت سورية في محادثات سلام مع إسرائيل بوساطة تركية. وقد شكّلت سورية نقطة عبور أساسية للسلاح والمقاتلين إلى العراق، وكانت آخر حليف لإيران في المنطقة، وأدَّت دوراً مزعزعاً في لبنان، وكانت الداعم الرئيس لإيران وحزب الله، الأمر الذي جعلها في قائمة الدول الراعية للإرهاب.

اعتمدت إدارة بوش سياسة عدم الانخراط. إذ رأت في هذه الاجتماعات والدبلوماسية نوعاً من المكافأة. أما الرئيس أوباما فأكّد أن الدبلوماسية هي وسيلة تفضي إلى غاية، وأن اللقاء هو وسيلة وليس هدية. كان هذا من البديهيات ومن أساسيات الدبلوماسية، ما يدعو إلى توخّي الحذر حيال طريقة الانخراط. قد يكون من الذكاء أحياناً البدء بقنوات خلفية هادئة لا تثير التوقعات لدى العامة، أو تعقّد العلاقات القائمة، ولا ينبغي تالياً بَسْط السجادة الحمراء وإغداق المديح علناً على لاعبٍ سيئ. أما أنا فأقول إنَّ اللقاء والتكلم والإصغاء وإثارة الجدل وتبادل الأفكار، هي الطرق الوحيدة لمعرفة إن كان هناك سبيل محتمل للتقدم.

يجب ألّا يخشى المرء تبادل الحديث. وقد وجدت بعد خبرة طويلة، أن الحديث، وإن لم يصل إلى ما نشتهي، يظلّ إشارة أو دليلاً على أنك حاولت. وهذا من شأنه أن يساعد على جذب الحلفاء والشركاء إلى جانبك عندما تحاول أن تحشد الدعم لفرض عقوبات، أو لتنفيذ ضربة عسكرية. ولهذا، فقد، بدا منطقياً أن نحاول اللجوء إلى الدبلوماسية لتغيير السلوك السوري في عدة مسائل، لأن البدائل كانت دائماً غير مثالية. فذاك البلد، الذي يضم 75% من السنة و12% من الشيعة، إنما هو برميل بارود ديموغرافي سيصعب جداً إعادة تجميع أجزائه إذا انفجر، وسيكون ذاك الوضع في غاية البشاعة لسورية وجيرانها والعالم.

من المجدي أن نجرّب الحوار معهم، لنرى إن كان ذلك سيوصلنا إلى مكان ما. فقد مرَّت المنطقة بمشكلات إقليمية كثيرة، كما أسلفنا الذكر، وكانت لدينا نقطة علينا إيضاحها، وهي أن المصالح الفعلية لسورية لا تتحقق من خلال الانحياز التام لإيران. خضع الرئيس السوري الجديد نسبياً بشار الأسد لضغط شعبي يحتم عليه تقديم ما يشبه الفرصة الاقتصادية لشعبه. ظاهرياً، لم يبدُ مستحيلاً أن يقوم النظام بتليين موقفه في بعض المجالات مقابل رفع العقوبات عن بلده، وإقامة علاقة جديدة مع الغرب ومع إسرائيل. وقد شهد الشرق الأوسط هذا النوع من المصالحات بين فترة وأخرى. فقد كان الأردن ومصر فيما مضى أبرز عدوّين لإسرائيل؛ ثم، وبدعم من الأميركيين، عقدا اتفاقيتَي سلام لا تزالان قائمتين حتى الآن. وهكذا، فإن كل أحداث المنطقة ترسمها الولاءات المتغيرة، أي التحالفات المتبدلة دوماً، والتقييمات المتواصلة للمصالح. أمّا سورية، فقد مرت بخصوصها لحظات مضيئة عابرة. فبعد غزو العراق للكويت سنة 1991، حقق الرئيس جورج بوش الأب أمراً كان مستبعداً، فأقنع الرئيس السوري آنذاك حافظ الأسد بالانضمام إلى التحالف الذي تقوده أميركا لمواجهة نظام بعثي زميل له. قام وزير الخارجية جايمس بايكر بأكثر من 12 زيارة إلى سورية قبل عملية عاصفة الصحراء، والثمن الأول للرئيس كان بسيطاً: الدعم الأميركي للحوار بين سورية وإسرائيل. أما التحدي النهائي، وهو إخراج سورية من زواج المصلحة الذي يربطها بإيران وأخذها إلى علاقة مختلفة مع إسرائيل، فلن يكون سهلاً. ولكنْ، لمَ لا نجرب على الأقل؟

جذبتني إمكانية تحقيق ذلك، وأيقنت أن إدارة إوباما يهمها استكشاف الاحتمالات. لذا رأيت أن تجرب اللجنة خوض غمار هذه المسألة. شجّعني الرئيس على التواصل مع النظام السوري. وقد فعلت ذلك من دون أن أعرف بشار الأسد تمام المعرفة. كنت قد التقيت والده، الذي بدا لي قاسياً ومحنّكاً، ولكن لم يجمعني أي حدث أو علاقة مع ابنه بشّار، باستثناء وقفة قصيرة لي في دمشق عام 2005. لم يثق به أحد في البيت الأبيض، وحتماً أنا كذلك، ولكني

ظننت أنه، في حال كان يفكر جدياً في مصالح بلده، فسيرى أن تبادل حديث صريح معنا، سيكون مفيداً.

في العام 2009، أجريت أول اجتماعاتي المطولة مع الأسد، فتكوَّنت لدي حقيقتان مهمّتان: خطورة المأزق الذي يواجهه في إدارة بلاده، وعدم تصديقي أيّا من الكلام الذي قال لي، فكان عليَّ أن أمحّص كل كلامه.

في لقائنا الأول، واجهتُه بمسألة محطة الطاقة النووية السورية التي قامت إسرائيل بقصفها، والتي باتت الوكالة الدولية للطاقة الذرية تود تفقّدها. والقولُ إنَّ هذه المحطة هي منشأة نووية أصبح حقيقة راسخة وعلنية، لا يدانيها شكّ. قلت له: «إذا أردتم أن تُظهروا للعالم استعدادكم للمضي في اتجاه جديد، فاسمحوا بدخول الوكالة الدولية للطاقة الذرية» . حدَّق الأسد إلى عينيّ، وقال لي بنبرة حادّة اعتمدها في كُل كلامه: إنها ليست منشأة نووية. كانت تلك كذبة تافهة، ألقاها مفنّدة من دون أي تردد. في زيارتي الثانية، كان البيت الأبيض قد أطلعني على مسألة تهريب السلاح عبر الحدود إلى حزب الله. ومجدداً، كان الدليل لا يقبل الجدال فيه، ومجدداً أنكر الأسد ذلك. طلبت من الجميع مغادرة الغرفة كي نبقى وحدنا. قلت، ثم لزمتُ الصمت هنيهة كي أراقب رد فعله: «أيها السيد الرئيس، هذا ليس جدالاً. لقد رأيت الأدلة. الأمر يحدث ونعلم أنه يحدث» . فأجاب: «كل شيء قابل للتفاوض» ، أشاح بوجهه عنّي. كانت حركة التناقض في الكلام تصدر عن حاكم مستبد يفتقر إلى النضج، وهو يتفوه بكذبة واضحة. كانت لحظة كاشفة أفادتني بعد عدة سنوات، حينما بت وزير خارجية واضطررت إلى مواجهة المعضلة السورية من موقع مختلف. فالرجل الذي يكذب في وجهك مباشرة وهو على بعد أقدام منك، لن يصعب عليه أن يكذب على العالم بعد أن قتل شعبه بالغاز السام.

أبدى الأسد اهتماماً بالتقدم في موضوع مفاوضات السلام الثلاثية الأطراف مع إسرائيل وأميركا. تبادلت إسرائيل وسورية عدة جولات مفاوضات على مر السنوات، منذ عهد كلينتون. ثم توسط الأتراك أخيراً برئاسة رجب طيب أردوغان بين الأسد ورئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت آنذاك ليروا إن أمكن الاتفاق على خط أساسي لاستئناف المفاوضات. تلك الجهود قاطعتْها حرب غزة سنة 2009، التي شكّلت بداية تدهور علاقة إسرائيل بتركيا. لقد أبدت إدارة أوباما اهتماماً بتجديد المفاوضات بين إسرائيل وسورية.

سألني الأسد عما سيتطلبه الأمر للدخول في مفاوضات سلام جادة، على أمل استعادة مرتفعات الجولان، التي انتزعتها إسرائيل من سورية سنة 1967. قلت له إنه في حال كان جاداً، فيجدر به أن يقدم اقتراحاً خاصاً. سألني

عن شكل هذا الاقتراح فأعطيته رأيي. أمر كبير مساعديه أن يصوغ رسالة من الأسد إلى الرئيس أوباما يطلب فيها الدعم الأميركي لمحادثات السلام مع إسرائيل، معبّراً عن استعداد سورية للقيام بعدة خطوات مقابل استعادة مرتفعات الجولان من إسرائيل. لقد حاول والده استعادة مرتفعات الجولان ولكنه أخفق، لذا كان هو مستعداً للقيام بالكثير مقابل استعادتها. في اليوم التالي، سافرت إلى إسرائيل، وجلست مع رئيس الوزراء بيبي نتنياهو (بنيامين نتنياهو) وأريته رسالة الأسد. فتفاجأ من استعداد الأسد للذهاب إلى ذاك الحد، إلى حد أبعد بكثير مما كان مستعداً للذهاب إليه مع الأتراك. أخذت الرسالة إلى واشنطن وسلّمتها إلى وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون وكذلك إلى دينيس روس في مجلس الأمن القومي. وبالتالي أمست تلك الرسالة تشكل جزءاً من جهود وزارة الخارجية المبذولة في سبيل إحياء المفاوضات بين سورية وإسرائيل.

واصلتُ العمل مع الأسد لأختبره في مسائل تُعتبر تدابير صغيرة لبناء الثقة، وهي مجالات بوسعه أن يبدي فيها حسن النية. وأوضحتُ أن أي شيء ستفكر الولايات المتحدة في القيام به لأجله سيكون مشروطاً بإظهار التعاون من جهته. بالتنسيق مع البيت الأبيض، قدمتُ عدة طلبات، تراوح بين طلبات سهلة، مثل العمل على نقل الأرض للسفارة الأميركية في دمشق وفتح مركز ثقافي أميركي، إلى طلبات صعبة وأكثر تعقيداً مثل المساعدة على الحدود في ما يخص العراق، وزيارة لوزير الخارجية إلى العراق، والمصالحة مع البحرين، وتعيين سفير في لبنان لبعث رسالة قبل الانتخابات تفيد أن سورية ستبقى بعيدة عن العملية الانتخابية في لبنان. كل هذه المطالب نُفّذت إلى حد بعيد.

كان كل ما يقوم به الأسد بحاجة إلى تأكيد. كان يمتنع عن القيام ببعض الأفعال الخاطئة لبضعة أسابيع أو ما شابه، كأن يحدّ من نقل الأسلحة أو يقول أموراً صائبة بخصوص الانخراط في المفاوضات مع إسرائيل. ولكن الكلام سهل، في حين أن الأفعال على الأرض تحكي قصة مختلفة. بعد بضعة أسابيع، سمعتُ، على ما أذكر، أن الأسد يواصل اعتماد النهج ذاته مع حزب الله، بعد أن قلنا له إن عليه الكفّ عن ذلك. كان ذلك مخيباً للآمال ولكن غير مفاجئ. سألت، مرة قائد دولة حليفة لنا في الشرق الأوسط عن سبب اختيار الأسد لإيران مفضّلاً إياها على مستقبل مختلف لبلاده، فأجابني: «عندما يذهب الأسد إلى إيران، يدعونه إلى وليمة فاخرة حيث تمتد مائدة الطعام إلى ما لا يبلغ النظر منتهاه. وعندما تقابلونه أنتم، تقدمون إليه بعض الزبيب والتمر» . فأجبته بصراحة ومن دون مراعاة: «لن نقدم إليه أي شيء إن واصل التصرف على هذا النحو» .

وسط كل أكاذيبه، حلّ وقت اعترف فيه الأسد بمأزقه، وعرض أفكاراً منطقية صريحة للتحرك باتجاه مختلف. أوضح أن أكثر ما يهمه هو توفير الوظائف للشبان المقبلين على الدخول إلى سوق العمل. وقال لي إن لديه مئات الآلاف من الناس الذي ينضمون إلى سوق العمل كل سنة، وإنه بحاجة إلى التخفيف من القيود الاقتصادية وتعزيز الاستثمار في القطاع الخاص. أوضحت له تماماً إنه، إذا أراد أن يتحقق له ذلك فإن بانتظاره قائمة طويلة بالواجبات التي عليه القيام بها، ولن يكون أي منها سهلاً. قال الأسد إنه مهتم بتبادل الآراء لأن الضغط يتزايد كل سنة: فالوعد بدولة مدنية، وحتى الدولة البوليسية الاستبدادية التي بناها والده، يتطلب شعباً يعتقد بأن نوعية حياته هي أفضل مما ستكون عليه في ظل توفر البديل. ويخشى أن يكون هذا البديل هو الحركات الإسلامية التي سحقها والده قبل عقود من الزمن.

مع نفاد النفط من البلاد، وتحوُّل سورية إلى دولة مستوردة للنفط، ومع ارتفاع نسبة الشباب في البلاد، تجلى أكثر من ذي قبل، وسط دولة ذات أغلبية سنية، أن الأسد قائد من طائفة علوية، أي من أقلية ضمن أقلية. تكلم بحنين عن زمن مختلف وأكثر علمانية في سورية. وأراني ذات مرة صورة لوالدته في زيارة لها إلى المسجد الأموي مرتدية تنورة متوسطة الطول وشعرها من دون غطاء. في مرحلة معيّنة قال وزير خارجيته: «إن لم نجد سبيلاً لتأمين المزيد من الوظائف لشعبنا، فسوف تعود بعد عشر سنوات وتجده الملّا أسد» . فضحك الأسد وقال: «سأكون بشار الملتحي» . بدت رسالته واضحة تماماً: بطريقة أو بأخرى، هو مصمم على إبقاء نظامه، حتى لو كان هذا يعني أن يظهر بمظهر الحاكم الديني، ولكن المسار الأسهل هو نقل بلده باتجاه جديد.

الأسد ليس الوحيد الذي واجه هذا التحدي. فالملك عبد الله الثاني واجه تحديات ديموغرافية مماثلة في الأردن. ولكن عبد الله تحلى بالقوة والذكاء، فهو ابن رجل عسكري أيقوني مبجّل وذكي تحوّل إلى صانع سلام. وبالمقابل كان يُستهان بالأسد على الدوام. فوالده عديم الرحمة لم يتخيله قط قائداً للبلاد، لذا رماه خلف عمه وأخيه في خط خلافته، ولكن القدر والموت وضعاه في أعلى هذا الخط. إنه رجل طويل القامة وهزيل، رأسه يتربع فوق رقبة طويلة جداً غير متناسقة مع جسده. يتسم بصفة تجعلك تتساءل أحياناً: هل يتمنى لو أنه ظل يعمل طبيب عيون ويعيش بعيداً عن الأضواء السياسية في لندن، مستمتعاً بالثروة التي اكتسبها النظام بطريقة غير مشروعة، ومطارداً زوجته الساحرة المتحررة في كل أنحاء أوروبا. تساءلت كيف سيكون رد فعله إن واجه أزمة حقيقية في بلاده. هل سيعمد هذا الرئيس اليافع غير المناسب إلى شق مسار مستقل حديث، أم سيحاول

التفوق على أبيه والتحول إلى شخص أكثر وحشية كي يحاول التمسك بالسلطة؟

كنا قد وصلنا إلى حائط مسدود عندما حل الربيع العربي في سورية وأتى على شكل احتجاجات اندلعت في دير الزور، ثم انتشرت في كل أرجاء البلاد. أوضحت تماماً للسفير السوري أن قتل الأسد لمدنيين أبرياء، سيمثل نهاية الحوار المباشر معي. نقطة انتهى. فقال لي إن الأسد يعتزم توجيه خطاب إلى الشعب قريباً والانخراط في عملية مصالحة لوضع أجندة إصلاحية. قلت له إن الولايات المتحدة ستصغي بإمعان إلى الخطاب. نهار الجمعة التالي وعقب الصلاة، تعرّض المزيد من المحتجين للقتل. ولم أعاود بعدها التكلم، لا مع السفير ولا مع الأسد.

بعد فترة غير بعيدة، قدم الأسد أول خطاب ضمن سلسلة متواصلة من الخطابات التي ازدادت سريالية على محطات التلفزة التابعة للدولة السورية. أعلن، بأن المعارضة هي مجموعة إرهابيين يحاولون تدمير البلاد وإيقاف تجربته الإصلاحية التي ستفيد الشعب السوري. توقع البعض أن يترك الأسد الحكم لعائلة والدته، فيما اعتبر آخرون أنه قد ارتد بكل بساطة إلى أساليب والده القديمة. تجلّى بشكل متزايد بأنه لدى تضييقه الخناق على المعارضة أكثر فأكثر، كان يحول نفسه مغناطيساً يجتذب التطرف الديني والتدخلات الجهادية التي أعلن آنفاً خشيته الشديدة منها. راحت تصرفاته تجعل من سورية بؤرة للاحتدام الإقليمي؛ فسارعت إلى القول إنه لن يتمكن أبداً من قيادة سورية موحدة، وكالعديد غيره من الحكام المستبدين في بلاد الصحوة العربية، عليه الرحيل. بعدها بفترة غير بعيدة، أي في آب/أغسطس 2011، قال الرئيس أوباما أيضاً إن عليه التنازل عن السلطة. بعد ذلك، رسم الرئيس خطاً أحمر شهيراً حول احتمال استخدام الأسلحة الكيمياوية.

بعد حوالى سنتين، واجهت كل هذه المسائل مجدداً كوزير خارجية، ولا تزال تطاردنا جميعاً إلى يومنا هذا. لن نعرف أبداً ما كان ليحدث لو أن الربيع العربي لم يأتِ وما إذا أمكن لنا أن نضع كلام الأسد حول ما كان مستعداً لفعله من أجل تغيير اقتصاد بلاده رهن الاختبار. تستحيل العودة إلى الوراء، وإعادة التفكير بالاتجاهات العديدة التي كان التاريخ ليسلكها. في النهاية، جل ما يسع المرء فعله هو اتخاذ القرار الأفضل في الوقت المناسب. لقد جلبت سلسلة القرارات المريعة والسادية التي اتخذها الأسد الدمار لبلاده والسوء لسمعته.

إذا كانت المباحثات الدبلوماسية في الخارج تمثل دراسة للشخصيات المتقلبة والسياسات المعطّلة والبيزنطية والديمقراطيات غير الفاعلة التي تتخللها اختراِقات ناجحة بين الفينة والأخرى، فهي تبيّن أنني لست مضطراً إلى

السفر بعيداَ كي أجد تحديات مماثلة. جل ما أحتاج إليه هو الركوب على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الأميركية (يو إس إيرشاتل) من بوسطن إلى واشنطن.

يمكن للسياسة الخارجية في مجلس الشيوخ أن تكون مشوّقة جداً، ولكن محبطة للغاية في بعض الأحيان. عندما أتكلم عنها، آمل ألا أبدو نظير إيفيريت ديركسن أو مايك مانسفيلد، الوصيين على فترة زمنية منصرمة. فمجلس الشيوخ الذي أعرفه لم يكن قط فاعلاً بشكل مثالي أو مؤدياً لوظيفته على أكمل وجه. نادراً ما عمل بالشكل الذي جرى تخيله في سلسلة مقالات (ذا فيديراليست بايبرز). في العام 1985، وصلت إلى واشنطن في مستهل تغيُّر كاسح مدمّر. شهدت على التغيُّر الكبير في السنوات العشر الأولى التي عملت فيها في المكتب القومي، ثم تزامنت حملة ترشحي للرئاسة مع فجر تغيير أكبر طرأ على طريقة التواصل في أميركا. ولم يزدد الوضع إلا تعقيداً مذّاك الحين.

أشير إلى هذا الأمر، لأنني عندما أصبحت رئيساً للجنة العلاقات الخارجية سنة 2009، لم أكن ذاك الذي يحن تماماً إلى الزمن الغابر. لم أتوقع قط من الجميع أن يهللوا. ولم أتوقع كذلك أن ينفلق البحر نصفين في الكونغرس، الأمر الذي ما يسمح بالموافقة التامة على السياسات الخارجية لأوباما دون أي اعتراض أو عائق. ولكنّني لم أقوَ على توقع مدى تدهور الجو ومدى تعطّل مجلس الشيوخ. وهذا كله يقف عائقاً أمام إنجاز الأعمال التي كانت لتُنجز آلياً في مجالس الشيوخ السابقة. داخل مجلس الشيوخ، وخلال السنوات الأربع الأولى لإدارة أوباما، وحتى في مسائل السياسة الخارجية التي كانت في وقت غير بعيد الأقل عرضة للتحيز الحزبي، أمسى مستوى التعطيل والخشية الكبيرة من الانتخابات الأولية، والسياسات الأساسية، وافتعال المشاحنات وتقديم الأعذار لتعطيل العمل، أسلوب حياة.

للأسف، يشكّل مصير ثلاث معاهدات، كغيره، مثالاً على مدى الضعف الذي أصبح عليه مجلس الشيوخ. بحلول العام 2009، كنت قد ناقشت ما يكفي من المعاهدات، فبت أعرف أساليب مجلس الشيوخ وتقاليده وكذلك متاعبه. حتى على امتداد الولايات الخمس التي شغلتها هناك، حافظ مجلس الشيوخ، إلى حد بعيد، على أسلوب إجماع الحزبين في ما يتعلق بمعاهدات منع انتشار الأسلحة النووية. من جون كينيدي إلى جورج بوش الابن، مرت المعاهدات النووية من مجلس الشيوخ، وعادة بهوامش لافتة للنظر تؤكد التزام مجتمع الأمن القومي الحد من التهديد النووي. والتصويتات التي تأتي بنتيجة 99-0 أو 93-1 كانت شائعة جداً.

مع ذلك، أيقنت أن كلمة «معاهدة» أمست كلمة قذرة ينتقدها رجالات الفكر المحافظون في كل عملية تصويت أو استفتاء للمصادقة على قانون. كان هنالك زملاء لي من الجمهوريين قدموا إليّ نماذج عن الرسائل الموجّهة إلى البريد المباشر أُرسلت إلى ناخبيهم، وتوزِّع عليهم مساهمات بقيمة 10 دولارات و15 دولاراً و20 لإيقاف «الحكومة العالمية الواحدة» ، منددين بالمعاهدات التي زعموا أنها صُمّمت لتجريد أميركا من سيادتها، ووضع المواطنين العاديين تحت خطر التعرض لإملاءات الأمم المتحدة بشأن ما يمكن لهم فعله وما لا يمكن لهم فعله. كانت هذه تكتيكات خالية من الحقائق ترمي إلى إثارة الرعب، ولكنها جرّت نفعاً.

جلب لي أحد الجمهوريين نموذجاً عن كيفية اختراق لغة هذه النداءات للرسائل التي يتلقّاها مكتبه من دائرته الانتخابية، والتي تعكس نظريات المؤامرة حرفياً. الوقائع لا تهم. كان الضغط الممارس على زملائي الجمهوريين حقيقياً، رغم أن ذلك لم يمنعهم من القيام بالصواب، ولكنه أرخى بثقله وعبئه عليّ كرئيس للجنة، كي أحاول أن أتنبه لسياساتهم الداخلية. كان من المهم أن أدير عملية أملتُ أن تساعدهم على دحض الادعاءات الكاذبة نقطة بنقطة حتى يتسنى لهم أن يعودوا إلى الديار ويظهروا بشكل موثوق أنهم أخذوا هواجس قاعدتهم الشعبية على محمل الجد، ولم يصوتوا بالإيجاب إلا بعد الحصول على الأجوبة المرجوة. أحد أول الدروس التي تعلمتها في مجلس الشيوخ ألا أقول للسيناتورات الآخرين إنني أعرف سياساتهم أكثر مما يعرفونها. وعوضاً عن ذلك عليّ أن أساعدهم، حيث يمكن المساعدة، ليروا كيف يمكن لهم أن يتخطوا هذه التحديات.

خلت أن من السهل تخطّي هذا العائق في معاهدة بسيطة لمنع انتشار الأسلحة النووية. وليت بمقدوري القول إنني كنت محقاً. انتهت مدة العمل بمعاهدتنا النووية مع روسيا في كانون الأول/ديسمبر 2009. وهذا يعني أن الولايات المتحدة ستخسر القدرة على المتابعة اليومية للترسانة النووية الروسية. وفي ظل الظروف العادية، كان هذا الأمر يولّد إلحاحاً لوضع اتفاقية جديدة بسرعة. أرسلت الإدارة معاهدة إلى (كابيتول هيل)، معاهدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية، وتسمى معاهدة ستارت الجديدة، التي خففت بحوالى الثلث عدد الرؤوس الحربية الاستراتيجية المستخدمة، وشكّلت نظام فحص ومصادقة، وأبقتنا على مسار تخفيف اعتمادنا على الأسلحة النووية. حاجج آنذاك عدد من وزراء الدفاع والخارجية السابقين بأن الولايات المتحدة يجدر بها التقدم نحو تحقيق هدف كبير ألا وهو المنع التام للأسلحة النووية. بهذا المقياس أمست مقاربة أوباما المتواضعة هذه تكاد تبدو تصعيدية.

دخلت سارة بالين إلى الصورة.

الحاكمة لمدة نصف ولاية، والتي يبدو أنها لا تعرف عن روسيا سوى قربها الجغرافي من آلاسكا، أصبحت بطلة في حزب حركة الشاي، حتى قبل أن يتسنى لكثير من الأشخاص معرفة ما هي هذه الحركة. ظهرت على الفيسبوك وشبكة فوكس نيوز الإخبارية وراحت تهاجم المعاهدة بشراسة من دون الاستناد إلى أي حقيقة. أيقنت أن اللجنة ستسمع تفاوتاً في الآراء حول تفاصيل المعاهدة، من الدفاع الصاروخي إلى تقنية الاستشعار عن بعد، ولكنني لم أعتقد أن أحداً كان ليتوقع أن نجلس في قاعة الاجتماعات المنمقة للجنة داخل مجلس الشيوخ ونحلل الرسالة المفتوحة التي بعثتها بالين إلى الأعضاء الجمهوريين الجدد على موقع فوكس نيوز الإلكتروني.

من غير السابق لأوانه رسم السياسات الرئاسية. لذا انضم إليها حاكم ماساتشوستس السابق ميت رومني وتبنّى موقفها المتطرف؛ فهاجم المعاهدة على أنها قد تكون «أسوأ غلطة يقترفها أوباما في السياسة الخارجية» . وفي مطلع العام 2012 انضم إلى هذا الموقف المرشحون للرئاسة، من جينغريتش ونزولاً.

في لجنة العلاقات الخارجية، كان لدينا مَن يشبه أعضاء حركة حزب الشاي، إنه السيناتور جيم ديمينت عن ولاية كارولاينا الجنوبية، أو «بالميتو بالين» ، كما كان ديفيد ماكين يسميه. كان جيم سيناتوراً جديداً ذا نفوذ كبير. وكان قد فاز بمقعد صديقي فريتز هولينغ في العام 2004، وهذا نموذج عن التغيير الذي طرأ على مجلس الشيوخ من عدة نواحٍ، والقادم من الجنوب تحديداً. كان فريتز حاكماً فذّاً قبل قدومه إلى مجلس الشيوخ. هو ليبرالي يفتخر بالعمل ما بين الحزبين والشراكة مع السيناتور الذي يتقدمه في السن ستروم ثورموند في مسائل تتعلق بكارولاينا الجنوبية. بالمقابل، كان ديمينت إيديولوجياً، يؤيد فرض قيود على مدة الخدمة في الكونغرس، جرى انتخابه رئيساً لمجموعة الأعضاء الجدد في مجلس النواب قبل انتقاله إلى مجلس الشيوخ بعد بضع سنوات.

عزم جيم على إحداث الكثير من الصخب وقد فعل. فبينما راح السيناتورات الجدد يتعلمون بإخلاص كل شيء عن المؤسسة، ألّف جيم كتاباً بعنوان «إنقاذ الحرية: بوسعنا منع أميركا من الانزلاق إلى الاشتراكية» . الأكثر غرابة كان أسلوبه مع زملائه الجمهوريين، اتّخذ أخذ خطوة استثنائية بتأسيس لجنة عمل سياسي خاصة به مكرسة لانتخاب مرشحين على غرار أعضاء حركة حزب الشاي، بمن فيهم أولئك المرشحون ضد زملائه السيناتورات الجمهوريين. على سبيل المثال، دعم الخصم الأساسي لليسا موركوسكي،

وساعد مرشحة وصفت نفسها بأنها ساحرة سابقة على الفوز بالأصوات الجمهورية لشغل مقعد في مجلس الشيوخ كان يشغله آنفاً جو بايدن، وتحدّى قائده ميتش ماكونيل، من خلال المصادقة على ترشح راند بول في الانتخابات التمهيدية في كنتاكي للدخول إلى مجلس الشيوخ بعد أن كان ميتش قد أقنع وزير الخارجية الجمهوري ذا الشعبية تراي غرايسون بالدخول في السباق. (خسر ترايسون في الانتخابات التمهيدية).

كانت معرفة، جيم صعبة، لأنه لا يبدي اهتماماً كبيراً بالتعرف إلى أي شخص في الحزب المقابل. فهو يدخل سريعاً إلى جلسة الاستماع، ويطرح سؤالاً مثيراً للجدل ومقنعاً بشكل استقصاء، ثم يغادر. تخلّل قدوم جيم إلى لجنتنا قيامه بالتصويت، وصوته واحد من صوتين معارضين فقط في كل مجلس الشيوخ، ضد ترشيح هيلاري كلينتون لمنصب وزيرة الخارجية.

على نحو غير مفاجئ، أبدى جيم ديمينت إصراراً تاماً على مناهضة أي شيء يحمل كلمة «معاهدة» . وبالفعل شرع يصف المعاهدات من أي نوع تكن بأنها انتهاك للسيادة الأميركية، وهو شعار ارتفع عندما عمد المرشح الأساسي في يوتاه، الذي يؤيده ديمينت، الجمهوري روبرت بينيت، إلى إحداث صدمة للبلاد في العام 2010، بعد أن حصد فوزاً في المؤتمر أمام مرشح محافظ كان يشكّل رمزاً للمؤسسة السياسية المرمونية في يوتاه.

انتصب أمامنا عائق أكبر كي نتخطاه وهو أكبر مما يتوقعه أي منطق. كانت استراتيجية الجناح الأيمن واضحة: أولئك المنضوون تحت خيمة ديمينت يعارضون كل المعاهدات ويناهضون كل ما يرتبط به اسم أوباما- أوباما، أوباما، أوباما!

فوق كل شيء، وجب علينا أن نسحب هذا الخطاب من السجال إذا أردنا أن نملك فرصة للفوز، واحتجت أنا تحديداً إلى المساعدة على تغيير الحوار حول المعاهدة النووية. لا يجدر أن يدور السجال حول الرئيس، وإلا فلن نفوز بما يكفي من أصوات الجمهوريين إلى جانبنا. عملتُ مع الوزيرة كلينتون عن كثب على استراتيجية مصادقة: أن نركز جهدنا في إيجاد أكبر عدد ممكن من الجمهوريين الموثوقين الذي يؤيدون المعاهدة. كانت هيلاري رائعة، حيث بذلت جهداً كبيراً للمساعدة. تواصلتْ مع أسلافها في وزارة الخارجية وساعدتْ على دفع كل جمهوري إلى التفكر بمعاهدة افترض البعض أن طرحها سيكون سهلاً. لقد شكّل فارقاً قيام وزراء الخارجية الجمهوريين السابقين وهم كيسنجر ورايس وبايكر وشولتز وباول، بمجابهة بالين ورومني على العلن لإحداث توازن معهما؛ ولكنّني تساءلتُ: لمَ هي أصلاً معركة

متقاربة؟ كان يقف إلى جهة واحدة أشخاص قدّموا استشارات إلى القادة العامين: من نيكسون إلى ريغان إلى بوش الأب وبوش الابن. ومع ذلك، كان صوت سارة بالين هو الأوضح (والأعلى) في قاعة المحافظين.

أيقنت أن السير بهذه المعاهدة قدماً سيتطلب الوقت والصلابة. فتعمدتُ أن ألتقي الجمهوريين رغم أنهم قد لا يدلون بأصواتهم لصالح المعاهدة، لأن تواصلي مع حزبهم قد يبيّن للجنتهم الحزبية أن حزبنا يأخذ هذه العملية على محمل الجد.

عندما يطلبون المزيد من الوقت لمراجعة المعاهدة، كنت أحاول أن أمنحهم إياه، حتى لو لم يقدّموا إليّ أي شيء في المقابل. إن طلبوا جلسة استماع أخرى أو تضمين شاهد معين، حاولت أن أوفر لهم ذلك، لأنه سيعكس حسن نية في العملية.

كل هذا الجهد المبذول كان شاقاً، ولكنّني أردتُ أن أحرص في نهاية المسار ألّا يقول أحد إن سؤالاً واحداً لم يُطرح، أو إنهم لم يُمنحوا الوقت للتفكير بموقفهم. بعد أشهر من جلسات الاستماع المفتوحة والمغلقة ومئات الأسئلة التي جرى تسجيلها، حان الوقت للتصويت في اللجنة.

كان ديك لوغار معنا منذ البداية، ولكن لجنة الحزب الجمهوري قد تطرّفت جداً وكادت تهمّشه بطريقة آلمتني رؤيتها. مثّل السيناتور بوب كوركر من تينيسي صوتنا الأساسي. فإذا فزنا على كوركر، أصبح معنا جمهوري محافظ، ما قد يمنحنا فرصة لكسب محافظ آخر، هو جوني إيساكسون من جورجيا، وهو رجل لطيف ونبيل، خاض مجال تدريس الثقافة الدينية، وشارك في مجلسَيِ النواب والشيوخ في الهيئة التشريعية في جورجيا قبل قدومه إلى واشنطن.

كنت أتفق تماماً مع بوب كوركر، عندما كنا زميلين في اللجنة، لأن بوب كان يتوق إلى تقديم مساهمة، وخصوصاً عامي 2009 و2010، ولم يكن يخشى أن يكون وسط المعمعة. دفعُ بوب إلى إبداء اهتمام بالمعاهدة استأهل مني الوقت، حتى لو أدى ذلك إلى تأجيل إيصال المعاهدة إلى قاعة مجلس الشيوخ.

أراد بوب أن يوافق البيت الأبيض على التزام دفع المليارات على التحديث النووي، الذي يُعدُّ مهماً لتينيسي، حيث مقر «مختبر أوك ريدج الوطني» . اعتقد، على ما توقّعت، أن هذا سيساعده على إظهار نفسه بأنه أقنع الإدارة للمضي قدماً بهذه المسألة. كان بوب، في رأيي، مهماً لهذا التصويت؛ لذلك دعمتُه. ولكن بوب وجوني طلبا مني شيئاً صعباً أيضاً. فقد

أشارا إلى أن الجمهوريين يشعرون بأنهم استُعجلوا وهم يعارضون عقد التصويت في اللجنة خلال الصيف، قبل توجّههم إلى ديارهم لإقامة الحملات الانتخابية. قالا إن بإمكاني عقد تصويت أنجح في اللجنة إن انتظرت إلى ما بعد العطلة.

بصراحة، وجدتُ أن التوقيت يمكن المجادلة فيه من الناحيتين. فإذا صوّتنا في تموز/يوليو، فقد يتعرّض السيناتورات الجمهوريون إلى الهزيمة في ديارهم في آب/أغسطس خلال العطلة. في المقابل، فإن التأجيل لا يتفادى بالضرورة تلك النتيجة؛ وقد يجعلهم أقل رغبة في التصويت بالإيجاب في أيلول/سبتمبر. فخلصتُ إلى تصديق كلام بوب بالرغم من شكي فيه، وفي ذهني أردت أن أعزّز مخزون النية السياسية الحسنة مع حليف جمهوري أساسي. فأجّلت التصويت في اللجنة. ولم يكن البيت الأبيض واثقاً تماماً أنني أتخذ القرار الصائب.

في أيلول/سبتمبر، عندما عقدنا جلسة التصويت، أتت هذه المخاطرة ثمارها. حيث وافقت لجنتنا على المعاهدة بنسبة 14 -4، مع 3 مؤيدين من الجمهوريين. كان مجلس الشيوخ يتّجه إلى العطلة قبل انتخابات شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وعلينا أن نتمِّم العمل لدى عودتنا في تشرين الثاني/نوفمبر. فتح موظف في اللجنة زجاجة شامبانيا في قاعة المؤتمرات، من باب تمنّي الخير، أو من باب التفاؤل الشبابي.

تبيّن أن ذاك التصويت لم يكن إلا فوزاً آنياً. فعندما هزم الجمهوريون منافسيهم الديمقراطيين في انتخابات منتصف المدة، عمدت سارة بالين والجناح الأيمن المتطرف في الحزب إلى زيادة الوضع سوءاً. كانت رسالتهم واضحة وبسيطة: التصويت في فترة الحكم الأخيرة على المعاهدات ممنوع.

وبالرغم من أننا قد استهلكنا فترة الدورة ال111 للكونغرس بكاملها لنتمِّم المداولات بالطريقة الصحيحة تحت مراقبة شعبيَّة دقيقة، فقد عقدنا 20 جلسة استماع، ومع أن هيئة الأركان المشتركة قد أحاطت مجلس الشيوخ بالأمر، فإننا لم نرفع المعاهدة ليجري التصويت عليها في مجلس الشيوخ، لأن السيناتورات طلبوا المزيد من الوقت ليقوموا ببحوثهم.

ترى بالين، والسفير السابق في الأمم المتحدة المنتمي إلى المحافظين الجدد جون بولتون، ومجموعة المحافظين، وأصحاب الآراء المتطرفة، أن مناقشة معاهدة كهذه هي من مهمّات الكونغرس الجديد، بما فيه الأعضاء الجدد الذين لم تجرِ إحاطتهم، حتى مرة واحدة، بالتفاصيل.

تخيّلت أننا سنعيش ما يشبه أحداث فيلم غراوندهوغ داي، حيث ستكرر الأحداث نفسها، إذا انصعنا إلى طلباتهم. في كانون الثاني/يناير، سنكون قد عدنا إلى النقطة التي بدأنا منها، حيث سيطلب السيناتورات سنة ونصف سنة جديدة من أجل عمليات الإحاطة وجلسات الاستماع، لكي يمضوا قدماً في الأمر. فتدخلت وأبديت رفضي. وقد بدأ الجمهوريون، الذين كانوا يبدون ميلاً إلى التصويت بالإيجاب، يأتون إلي ويقولون: «لا يسعنا الوقوف إلى جانبك بسبب قرب انتهاء العهد» . وبالمقابل، وردتني الكثير من التعليقات من قبيل: «يا جون، سمعت أن أوباما سيجبرنا قُبيل نهاية العهد على إبطال سياسة «لا تسل، لا تقل» (أي السياسة التي تمنع انضمام المثليين إلى الجيش)؛ لذا لا يسعنا تأييد معاهدة ستارت الجديدة» . تكدست الإفادات المتضاربة، واحدة فوق الأخرى. وقد وجدتني أتساءل عن رابط بين التصويت على السماح للمثليين الجنسيين بأن يخدموا علناً في الجيش وإمكانية تصويتنا في الشهر نفسه على تخفيف عدد الأسلحة النووية الموجّهة إلى الولايات المتحدة. وكانت الأعذار صاعقة.

تذكّرتُ الدرس الذي تعلمته في كلية الحقوق: إن لم يكن القانون إلى جانبك فجادل بالحقائق؛ إن لم تقف الحقائق إلى جانبك، فجادل بالقانون؛ فإذا لم يقف أي منهما إلى جانبك، فاكتفِ بالمجادلة. في هذه الحالة، ومع طرح الحيثيات جانباً، راح الجمهوريون يجادلون ويخترعون كل أنواع التبريرات التي تدفعهم إلى عدم التمكن من فعل أي شيء الآن، حتى بعد أن طلبوا مني وقتاً إضافياً لكي يتمكنوا من فعل شيء ما.

أقل ما يمكن أن يقال إن هذا الوضع برمّته كان مُحبِطاً جداً. جلست في الغرفة الخاصة بالديمقراطيين مع فريقي، ورحنا نستعرض الخيارات: بوسعنا المضي قدماً وإنْ خسرنا، ما يعني أننا سنكون أمام أول انهزام لمعاهدة في مجلس الشيوخ منذ انهزام معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية سنة 1999 (وهي نفسها أول معاهدة متعلقة بالأمن تسقط منذ معاهدة فرساي). وقد كانت لحظة بشعة دفعت الولايات المتحدة ثمنها غالياً على مستوى العالم كلّه. بقيت بعد ذلك سنوات أسمع في أثناء أسفاري شكاوى من وزراء خارجية أجانب. وبدأت آنذاك الدول الأخرى تتساءل إن كانت الولايات المتحدة مستعدّة لتكون شريكاً يمكن الاعتماد عليه طوال المفاوضات، إذا استطاع مجلس الشيوخ أن يسحق محصلة العمل في عدة إدارات. لم أرغب في تكرار هذه المسألة المؤسفة الحزينة.

في الوقت عينه، لم أرغب في خسارتي جهدي المبذول على مدى عدة أشهر، وتحليلاتي الحذرة التي قمت بها لإيصال المعاهدة إلى هذا الحد. إنها

تستحق التصويت. لم يكن ديك لوغار وفريقه واثقين أن فكرة المضي قدماً كانت جيدة. وقد رأى ديك أن التصويت الضعيف «سيضر» بالمعاهدة على نحو يتعذّر إصلاحه. لم أعارضه في ذلك التوجّس، ولكنني سألته: أليست المعاهدة متضرّرة أصلاً بعد أن عجزنا، بعد سنة ونصف السنة من العمل عليها، حتى عن طرحها للتصويت؟ أليس هذا ضعفاً؟

أمورٌ كثيرة كانت على المحك. لكنَّ أشدَّ ما أقلقني الدينامية السياسية الخفية، وهي أن الأعضاء الجادّين والمتفكّرين في اللجنة الحزبية الجمهورية داخل مجلس الشيوخ كانوا جميعاً يخشون حركة حفلة الشاي، حيث يتوقون إلى تفادي «التصويتات الصعبة» . وهنالك آخرون لا يسعهم إلا تحيُّن الفرص لدس إصبعهم في عين الرئيس أوباما. لذا، لم يكن الجو ملائماً لتدبير شؤون الدولة.

في النهاية، وجدتُ أن الحساب هو الأكثر إقناعاً، أي الأرقام الباردة والقاسية. لدينا 59 صوتاً ديمقراطياً مؤيداً للمعاهدة، وأيقنت أنني أستطيع الاعتماد على لوغار. كان كوركر ملتزماً؛ أمّا العضوان الجمهوريان المعتدلان من ماين، فإنهما سيصوِّتان لمصلحة المعاهدة. كنت أرى بوضوح أنني سأحصل على 65 من أصل الأصوات إلى 67 التي نحتاج إليها للفوز. ورأيت أن انتظار الكونغرس التالي سيعني أننا لن نفعل شيئاً. وهذا لا يعني فقط أننا سنضطر إلى البدء من جديد في كونغرس جديد، بل إنَّ الهامش الديمقراطي سيكون قد تقلّص إلى سبعة في مجلس الشيوخ. وستؤشّر سنة 2011 على بداية دورة انتخابية، سيكون لدى الديمقراطيين فيها بعض المقاعد الصعبة ليدافعوا عنها. وكلما حدث ذلك، يطالب أولئك السيناتورات قيادة مجلس الشيوخ بمزيد من الوقت لإقامة الحملات، وجمع الأموال في ولاياتهم، وبطرح الكثير من المسائل المعيشية داخل مجلس الشيوخ، وتحديداً تلك المسائل التي تهم جداً دوائرهم الانتخابية.

ضمن لجنتي الحزبية الشهية لا تكون مفتوحة جداً للتشريع في مجال السياسة الخارجية، إلا إذا جرى ذلك بسرعة وبسهولة، وبفوز مضمون. في المقابل، وإلى جانب الوعد بمشاركة حزب حركة الشاي في المزيد من المواجهات الانتخابية الأولية الهادفة إلى إخافة الأعضاء الجمهوريين، سنكون أيضاً قد دخلنا في دورة الانتخابات الرئاسية. وإذا كان العام 2010 عاماً أراد فيه الكثير من الأشخاص حرمان الرئيس الديمقراطي من الانتصارات، فإنَّ مستهل العام 2012 سيشهد إجماعاً على هذه الإرادة. وبالاستناد إلى ذلك، فإنني لم أشعر بالتفاؤل حيال فرص نجاحنا في الكونغرس التالي. في الحقيقة كنت أكره هذه الفرص غير المؤكَّدة.

اتصلت ببيت راوس، الساعد الأيمن للرئيس أوباما، وهو الذي كان كبير مستشاري طوم داسكل، وكان مطلعاً ذكياً على شؤون مجلس الشيوخ بقدر يفوق اطلاع أي شخص في واشنطن. كانت تواجه الرئيس مخاطر متعددة: فالخسارة فحسب خلال جلسة منعقدة في آخر ولاية المجلس بعد شهر من «الهزيمة» وفق ما أسماها الرئيس نفسه في انتخابات منتصف المدة، لن تكون مجرد قصة سيئة فحسب فقد تضرّ به من ناحية وضع السياسات الخارجية. وقد اشتهر عن بيت ثباته، كحال أوباما الذي لا يبدي أبداً أي تقلُّب حادّ: لم تعجبه الفرص التي كنا نملكها آنذاك، لكنها تظلّ أفضل مما ستكون عليه في كانون الثاني/يناير. وقد وافقته الرأي الوزيرة كلينتون، وأكدت استعدادها لفعل كل ما يلزم من أجل تحقيق الفوز. كانت شخصاً لا يكل ولا يمل. وقد كان بيننا إجماع، فقرّرنا المضي قدماً.

إذا كان جيم ديمينت يمثل المحرِّض الاستثنائي الرامي للقنابل، والمعارض لكل المعاهدات، فإنَّ السيناتور جون كيل من أريزونا هو توأمه ونقيضه في آن. كان جون، ابن عضو في الكونغرس، وهو بمثابة السياسي المؤثِّر لدى الجمهوريين. إنه تنافسي وذكي وإيديولوجي في مسائل كهذه. وقد أجرى بحوثه حول تفصيلات معاهدة ستارت الجديدة، ما جعله من المنظرين الأقوياء. كثيراً ما تواجهنا على شاشات التلفزة. إنه خصم مراوغ، له رهبته واحترامه حتى في لجنته الحزبية. تماماً كالحال لدينا، حيث عمد أشخاص مثل بوب بيرد وهاري رايد إلى تأدية دور السياسيين المؤثرين، حتى وصلا إلى قيادة الأغلبية. وقد امتلك جون نفوذاً هائلاً في لجنته الحزبية؛ إذ اتخذ موقف المعارض للمعاهدة، لكنَّه تمنى أن تبدي الإدارة استعدادها للانتظار والعمل معه للإجابة عن أسئلته ومعالجة مخاوفه. رأى البيت الأبيض وفريق عملي هذا الموقف عبارة عن حيلة مثيرة للسخرية. ذلك أن أية مخاوف مشروعة حيال هذه المعاهدة قد جرت معالجتها على امتداد السنة الفائتة.

فكان ردي أن رأينا غير مهم. وما دام لجون له أهميته في لجنته الحزبية، فإنَّ طريقة ردنا عليه سيكون لها أهميتها أيضاً. كان علينا أن نبيّن أننا نحاول جاهدين إقناع جون بالموافقة، حتى لو كان ذلك مستحيلاً. سيرى الجمهوريون الآخرون حينها أننا نعمل بنية حسنة، وسيشعرون أنهم يستطيعون التصويت بحرية ضميرهم. بدأت أذهب إلى الغرفة الخاصة بالجمهوريين لكي ألتقي جون وجهاً لوجه. وكان من محاسن اللقاء بتلك الطريقة أن كل الزملاء الجمهوريين رأونا نتكلم باحترام.

بعد وقتٍ، اتضح أن استراتيجية جون كيل هي شراء الوقت وتغيير قواعد اللعبة من دون أي نية لتأييد المعاهدة على الإطلاق. أكره الاعتراف

بهذه الحقيقة، إلّا أن تصرف جون هذا عكس مدى إتقانه وإلمامه بمجلس الشيوخ ومدى معرفته السر الذي شاطرني إياه بوب بيرد وتيد كينيدي سنة 1985: الوقت له أهميته. كان جون يستخدم الوقت بسرية وعناية شديدين لتحقيق هدفه. ليس ثمة ما يدفع السيناتورات إلى الرغبة في مغادرة واشنطن بقدر عطلة الميلاد المجيد. وقد أيقن أنه، في شهر كانون الأول/ديمسبر، وحينما يكون السيناتورات قد تعبوا من الجلسة التشريعية الضاغطة، وبعد أن يكون كثرٌ منهم قد خضعوا لانتخابات مثبطة، وعندما يكون هنالك الكثير من الأعمال على جدول العمل، سيتمكن من الممطالة بمشروع القانون حتى يحلّ الكونغرس التالي.

يمكن القول إن جون ظنّ أننا نحن الديمقراطيين قد نُهزم عندما يوضح حزبه أنهم سيستخدمون الأيام العشرة بكاملها التي منحهم إياها القانون للتداول في مجلس الشيوخ من أجل التباحث في معاهدة ستارت الجديدة. إذا كانوا يحاولون إنهاكنا، فسوف أجاريهم. كنت أجلس وراء طاولتي في قاعة مجلس الشيوخ في كثير من تلك الأيام التي لم يحدث فيها ما يستحقّ الذكر. في بعض المرات، وعندما كان مجلس الشيوخ يبدو كبلدة مهجورة، كنت ألتفت إلى الكاميرات وأقول: «أعلم أن بعضاً من زملائنا كرروا مراراً أن لديهم أسئلة حول هذه المعاهدة، وأريد أن أجيب عنها، وأحثهم على طرحها» . وبعد ساعات، أقول من جديد: «أيها الزملاء، نحن هنا، وسنبقى هنا، ونحن مستعدون للتداول في أي وقت» . ثم نعيد الجدالات مراراً وتكراراً. وفي بعض الأحيان، كان يتقدم عضو جمهوري ويقرأ بياناً قصيراً، ونتبادل الكلام بشكل وجيز. ثم يغادر وأمضي الساعة التالية في الإجابة عن الأسئلة التي يقدمها هو وغيره.

إن خسرنا، فهذا سيعني أنني أخطأت في قراءة مجلس الشيوخ. ولكن في تلك المرحلة، كنت مستعداً للمجازفة، أما البديل فهو أن أسير مبتعداً عن الموت الأكيد للمعاهدة. لقد تبنيتُ من كل قلبي القول المفضّل لدى جون ماكين: «المعركة التي لم تنخرط فيها، لم تستمتع بها» .

حان وقت التصويت.

صوَّت الديمقراطيون الـ 59 جميعاً بالموافقة بمن فيهم رون وايدن من أوريغون، وهو الذي نهض عن فراش المرض بعد أيام فقط من خضوعه لعملية جراحية جراء إصابته بسرطان البروستات، وأتى للمشاركة في هذا التصويت. أدركتُ أن هذه الأيام التالية للعملية الجراحية ليست مريحة؛ فالصعود بحد ذاته على سلالم مجلس الشيوخ مؤلم جداً. ولكن هذا رون وايدن، رجل المواقف. رحت أراقب نتيجة التصويت في قاعة مجلس الشيوخ، وكأنني أراقب لوحة

نتائج في مباراة، حيث رحت أعد اللحظات الأخيرة لمباراة حساسة: كوركر، لوغار، كولينز، سنو...

سكوت براون، زميلي الجديد من ماساتشوستس الذي أشار انتخابه المفاجئ إلى بروز حركة حفلة الشاي، صوّت بما ينسجم مع ماساتشوستس. وصلنا إلى 64 صوتاً وبتنا في حاجة إلى 3 أصوات أخرى.

عندها انهار السد: الجمهوريون الذين التقيتهم لساعات طويلة نزلوا إلى أرض قاعة مجلس الشيوخ وصوتوا بالموافقة، بمن فيهم حاكم سابق لنبراسكا، هو مايك جوهانز، الذي دخل إلى مجلس الشيوخ سنة 2009. بدا أن الحكام السابقين هم الأقل تقبلاً لحركات الإيديولوجيين، لأنهم يدركون أنهم لم يستطيعوا قطّ إدارة ولاياتهم بتلك الطريقة. لم يكن جود غريغ من نيو هامبشاير ولا جورج فيونوفيتش من أوهايو مستعدَّيْن لممارسة لعبة سياسية قُبَيل مغادرتهم المجلس (كلاهما سيتقاعدان تلك السنة). أمّا لامار ألكسندر، الذي أمضيت ساعات في مناقشته في بنود المعاهدة، فهو إنسان جاد حقّق النجاح عندما كان حاكماً. كان سيصوِّت بحرية ضميره، وفي الوقت نفسه سيقف في صف بوب كوركر، زميله من تينيسي.

وصلنا إلى الرقم السحري، ثم حدث شيء عجائبي: روبرت بينيت وليسا موركوسكي اللذان خسرا في المواجهات الأولية الانتخابية لحركة حزب الشاي أمام الإيديولوجيين التابعين لجيم ديمينت، رفعا إبهاميهما وصوتا بالموافقة، ولكنهما كانا يوجِّهان بذلك رسالة إلى ديمينت وشركاه.

قبل 3 أيام من عيد الميلاد، حقّقنا الفوز.

في طريقي إلى المنزل، تكلمت مع نائب الرئيس بايدن. كانت مدة من سنة ونصف السنة صعبة على الإدارة. ومن الناحية الشخصية، عاد ابن جو الذي يحمل اسم بو، وهو النائب العام في ديلاوير، إلى بلده سالماً من الخدمة العسكرية لمدة سنة في العراق، واتخذ قراراً بألا يترشح للمقعد الذي شغله جو لمدة 37 سنة. جمعني بجو تاريخ طويل في مجلس الشيوخ. وقد أشارت النتيجة في هذه الليلة إلى أنه لا يزال لدينا ما نقدِّمه إلى المؤسسة التي نبجّلها.

ولكنّ كلينا رأينا الغيوم الملبدة التي تلوح في الأفق: كانت المعاهدات تُقرّ بنتيجة تصويت 99-صفر وإذا كانت نسبة 77 ستحل محل نسبة 99، فما هو إذن مصير مشروعات القوانين التي كانت تقترب من 51 صوتاً؟ ثمة انسداد الأفق وجمود محتومان.

فكرت في ما يفعله بالمؤسسة كل من حركة حفلة الشاي والتحيُّز الحزبي المفرط. كان من بين السيناتورات الاثني عشر الجمهوريين الذي أيدوا المعاهدة، ثلاثة يوشكون على التقاعد، إما طوعاً وإما جراء التعب أو الهزيمة. وسوف تعود السيناتورة موركوسكي محاولة تجاوز هزيمتها في الانتخابات الأولية وكسب مقعد لولاية أخرى، وإنْ لم يدرج اسمها على قوائم الاقتراح، بل كان المقترعون يكتبونه باليد. وقد خشي سكوت براون أن يعض يد حركة حفلة الشاي التي أطعمته في البداية، فلم يعاود الإدلاء بمزيد من الأصوات المتوازية مع ماساتشوستس. والآخرون؟ أغلبهم سيواجهون قريباً، إما التقاعد نتيجة الإحباط وإما انتخابات أولية شرسة. لن يكون العامان 2011 و2012 سهلين. وسرعان ما سيعمد أبرز عضو جمهوري في لجنة العلاقات الخارجية، ديك لوغار، إلى الاستسلام لموقف حركة حفلة الشاي.

لم أرد الاستسلام فوراً للتشاؤم وللعبارة التي تقول: «لا تجرب، فهذا غير وارد الحدوث» . بدا من السابق لأوانه الاعتقاد بأن مجلس الشيوخ قد أغلق أبوابه في وجه أي مداولة أخرى متعلقة بالسياسة الخارجية. وقد أملت أن تكون موجة حركة حفلة الشاي قد وصلت إلى ذورتها، ثم سيعود الوضع طبيعياً إلى حدّ ما.

لطالما قال تيد كينيدي إنَّ المسائل الجيدة والأفكار الجيدة تجد لحظتها، وعليك أن تجهز الأرضية لتتمكن من انتهاز تلك اللحظة. كانت تمثُل أمامنا فكرتان جيدتان، وقع على عاتق لجنة العلاقات الخارجية مهمة العمل بهما. ولسوء الحظ، فإنهما كلتيهما ترتبطان بعبارة «الأمم المتحدة» : اتفاقية الأمم المتحدة حول قانون البحار، واتفاقية الأمم المتحدة حول حقوق الأشخاص ذوي الإعاقة. وقد وجب علينا أن نبيّن أن الاتفاقيتين قابلتان للتحقيق إلى حد معقول. ألحَّتْ علينا البحرية الأميركية لإقرار اتفاقية البحار، لأن حرية الملاحة أساسية لهم. لقد أرادوا أن تُمثِّل الولايات المتحدة طرفاً في هذه الاتفاقية، لأننا في أي حال نتبع قوانينها؛ والانضمام إليها يعطينا مقعداً حول الطاولة.

أنا وهيلاري كلينتون نؤمن إيماناً قويّاً بهذه الاتفاقية لأسباب جغرافية استراتيجية. ذلك أن روسيا، ونحن جالسون على المقاعد الجانبية، تقوم هي وسواها من الدول بالحفر في المنطقة القطبية الشمالية، ووضع اليد على ثروتَي النفط والغاز في تلك المنطقة. وإذا بقينا خارج هذه الاتفاقية التي توفِّر شرعية دولية لوضع اليد على ثروات القطب الشمالي، فإننا لا نستطيع محاسبتهم. لقد سيطرت الصين على إنتاج المعادن الأرضية النادرة، البالغ 90% من إنتاج العالم. ويعتمد العالم على هذا الإنتاج لصناعة الهواتف الخلوية

والحواسيب ومنظومات السلاح. مع ذلك لم نكن طرفاً في الاتفاقية التي يجري بواسطتها تحديد قواعد العمل لاستخراج هذه المعادن من قاع المحيط.

أردت أن أبذل جهداً في سبيل طرح المشاركة في هذه الاتفاقية. وقد أيّد ديك لوغار الاتفاقية. ولكنه كان يواجه انتخابات أولية أمام مرشح متطرِّف جعل من إقامة ديك في إنديانا موضوعاً متفجراً. طلب مني ديك الانتظار إلى حين انتهاء المواجهة الأولية التي سيخوضها من أجل الاندفاع بقوة، وعدم الاحتياج للحصول على صوت بالقوة، فوافقت. لقد اكتسب ديك ثقتي هذه به على مدى السنوات الست والثلاثين التي قضاها في مجلس الشيوخ، ولم أنس قط زمالته اللطيفة لي حينما كنت سيناتوراً جديداً تشاركت معه في مسألة الفلبين.

شكلت أنا وهيلاري فريقاً، ورحنا نضغط بروية باتجاه هذه الاتفاقية. وقد ساعدتني في عقد جلسة استماع عامة في اللجنة، تجمع أبرز الدبلوماسيين في أميركا وأبرز مسؤولي الدفاع، بالإضافة إلى أبرز المسؤولين العسكريين. عمد كلٌّ من الوزيرة كلينتون ووزير الدفاع روبرت غايتس ورئيس هيئة الأركان المشتركة مايكل مولن إلى تأييد قانون البحار. إلّا أنني أخذتُ الحملة باتجاه آخر، لأحاول إقناع الجمهوريين بإلقاء نظرة على الاتفاقية. فقد رأيت أن كثيراً من الجمهوريين قد لا يرغبون في تصديق جون كيري وهيلاري كلينتون، ولكنهم لا يستطيعون تجاهل مجال صناعة النفط أو إنكار أقوى وأكبر مجموعة مصالح في حركة المحافظين، فاستقدمتُ رئيس معهد البترول الأميركي ورئيس غرفة التجارة ليقدما تأييدهما للاتفاقية.

لكن الجمهوريين عمدوا إلى إسقاط هذه الاتفاقية: جمَّدتْ حركة حفلة الشاي مجلس الشيوخ. وخسر ديك لوغار في مواجهته الانتخابية الأولية. وكانت الرسالة الموجّهة إلى الجمهوريين واضحة: اعملوا مع الديمقراطيين، وسيجري القضاء عليكم. بعد جولة مكثفة من المداولة وجلسات الاستماع، عمد سيناتوران من أصحاب التصويت المتقلب، هما كيلي أيوت وروب بورتمان، ومن دون سبب جلي، إلى التوقيع على رسالة كُتبت بصيغة خطاب «مؤسسة التراث» أي (هيريتاج فاوندايشن): ليس ثمة منظمة دولية تمتلك البحار» .

ماتت الاتفاقية غرقاً في الماء قبل أن يتسنّى لها حتى الإبحار.

أعلن 34 سيناتوراً أنهم سيصوتون بالرفض، لذا لم نطرح الاتفاقية للتصويت. راق لي روب بورتمان كثيراً: إنه رجل قوي، ولكنه رأى علامات الإخفاق. إنه معتدل بما يكفي، فلم يتحوّل إلى هدف لحركة حفلة الشاي. وفي

أوهايو لم يكن ليخاطر بوظيفته من أجل اتفاقية تغطي المحيطات. أرسل هو والسيناتور أيوت رسالة إلى زعيم الأغلبية هاري رايد، وكتبا فيها ما سمّيانه «هواجس كبيرة» تسبّبها هذه الاتفاقية، وعبّرا عن معارضتهما لها. أما تصريح بورتمان المتعلّق بالرسالة والذي أدلى به للصحافة، فقد حمل بكل فخر عنوان: «السيناتوران بورتمان وأيوت يُغرقان قانون اتفاقية البحار» . كان روب أعقل من أن يفعل ذلك. لقد مثّل كل هذا جزءاً من المسرحية، والسيرك اللذين تحوّل إليهما مجلس الشيوخ.

سألت جون ماكين عما حدث. لم يكن مسروراً، وربّما كان هذا ما دفعه إلى تقديم أجوبة صريحة. كان جيم ديمينت يعذّب يوميًّا ليندسي غراهام وهو يمثل جناحاً لجون. أخبرني جون عن النقاش الذي دار في لجنته الحزبية حول قانون اتفاقية البحار. قال لي إنَّ ديمينت وزّع رسالة لجمع تواقيع الأشخاص المعارضين للقانون. وكان جون قد حذّر من فن الفوز بالخداع، وقال لي، وهو يقلّب عينيه امتعاضاً، إنَّ ديمينت أكد بالصوت العالي قائلاً: «إن علينا أن نكون حزباً محارباً، وهذه حرب» . ثم دمدم جون قائلاً: «حزب محارب» ، وأضاف بما معناه أن «أغلب هؤلاء الأشخاص الذين يريدون أن يكونوا محاربين لم يتعرضوا في حياتهم لطلقة» .

لم تعد لجنة جون الحزبية، وتلك مأساة. قد يكون جون ماكين عنيداً وإيديولوجياً ومشاكساً جداً، ولم يكن معتدلاً. ولكنْ، خلافاً لوجهة نظره، ومن أجل محاولة كسب ترشيح حزبه، ملأ تلك الاستبيانات السخيفة لمجموعة المصالح الخاصة؛ ولكنه عدّها محض هراء، وقد أخبرني بذلك. لقد خاض غمار الحياة العامة لكي يحقق الإنجازات، وليس للانحناء أمام الشعبوية المزيّفة لحركة حفلة الشاي، فكأنه خُلق لأجل مجلس الشيوخ، ولكن لمجلس شيوخ فاعل. والآن ها هو يرى لجنة حزبية جمهورية لا يكاد يعرفها. صمّمنا أنا وهو على خوض معركة أخيرة في الكونغرس معاً، كشريكين من جديد. كنا سنحاول إجبار مجلس الشيوخ على تمرير الاتفاقية المتعلقة بذوي الاحتياجات الخاصة.

كانت المسألة في نظر جون شخصية جداً. فبوب دول واحد من أبطال جون. وكان بوب زعيم أقلية، عندما كنا أنا وجون سيناتورين جديدين. وكان بوب يبذل بشكل يومي مجهوداً كي يقف ويمشي ويحرّك ذراعيه، وذلك بسبب إصابات تعرض لها في الحرب العالمية الثانية. في السبعينات، وفي ذروة اندلاع حرب فييتنام، وضع السيناتور دول سواراً حول معصمه، حُفر عليه اسم «أسير الحرب جون ماكين» . وعندما دخل جون إلى مجلس الشيوخ سنة 1986، أمست علاقته ببوب دول غير قابلة للكسر. وعندما كان بوب المرشح

الجمهوري للرئاسة في العام 1996، سافر معه جون في كل أنحاء البلاد. والآن بات بوب مقعداً على كرسي متحرك، يواصل الدخول إلى مستشفى والتر ريد والخروج منه، وهو في أواخر الثمانينات من عمره. على أن أكبر إنجاز تشريعي يفتخر به كان تمرير قانون الأميركيين ذوي الاحتياجات الخاصة. والآن يطلب بوب من تلميذه جون ماكين أن يمرر اتفاقية حقوق الأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصة، وجعل الإرث الأميركي حول حقوق المعوقين عالمياً... من جديد شكّلنا أنا وجون فريقاً، في محاولة لتحقيق ذلك.

في نظري، لم يكن ثمة ما يثير الجدل بشأن اتفاقية ذوي الاحتياجات الخاصة. فهي تعني عدم التمييز ضد المعوقين، وتطلب من الدول الأخرى أن تفعل ما فعلناه قبل 22 سنة، عندما قدّمنا نموذجاً إلى العالم، ومررنا قانون الأميركيين المعوّقين. وبكلمتين بسيطتين، تقول هذه الاتفاقية للدول الأخرى التي لا تحترم حقوق ذوي الاحتياجات الخاصة: «كونوا مثلنا» . لم تتطلب أي تغيير في القانون الأميركي، ولكنها تتطلب من الدول الأخرى أن تحسِّن سجلها في ما يخص حقوق ذوي الاحتياجات الخاصة؛ وبالتالي، فقد أخذ القانون معيارنا الذهبي هنا في البلاد ونُشر في بقية العالم.

ولكن حركة حفلة الشاي قدَّمت مروحة من الأعذار ونظريات المؤامرة. ففي العام 2006، هُزم ريك سانتروم وأُخرج من مجلس الشيوخ بفارق 18 صوتاً. ولسوء الحظ، فقد انتمى ريك إلى الجماعة الضاغطة، وراح يعمل ضد اتفاقية ذوي الاحتياجات الخاصة، مؤلِّباً القاعدة الشعبية بقوله إن الاتفاقية ستستبدل بأهالي الأطفال المعوقين بيروقراطيين من الأمم المتحدة. وكان هذا سخيفاً، وإنْ كان أجدى نفعاً.

احتجنا إلى 67 صوتاً. كان يقف إلى جانبنا مرشحان سابقان للرئاسة من الحزب الجمهوري، هما دول وماكين. وأيدت مجموعات المحاربين القدماء الأميركية الاتفاقية، وظل العشرات من المحاربين القدماء المُقعَدين يأتون إلى مجلس الشيوخ، ويزرون المكاتب واحداً تلو الآخر لأسابيع، ملتمسين من السيناتورات القيام بالفعل الصواب.

قدم المحاربون القدماء رسالة قوية، ولكن ليس ثمة رسالة أقوى من تلك التي رأيتها يوم التصويت. طوال السنوات الثلاثين التي قضيتها في مجلس الشيوخ، لم أر زعيم أغلبية سابق يأتي إلى قاعة مجلس الشيوخ من أجل التصويت. ولكنّني رأيت بوب دول البالغ 89 سنة من العمر تجرّه على كرسيه المدولب زوجته، السيناتورة السابقة إليزابيث دول من كارولاينا الشمالية. لم يكن بوب دول في قاعة مجلس الشيوخ ذاك اليوم ليدعم الأمم

المتحدة، التي كُتبت تحت رعايتها ومواثيقها اتفاقية حقوق الإنسان هذه، ولم يأتِ إلى تلك القاعة لتقويض السيادة التي كاد يموت من أجلها في الحرب العالمية الثانية. لقد جاء لأنه أراد للدول الأخرى أن تعامل الأشخاص ذوي الاحتياجات الخاصة كما نعاملهم، ولأنه أراد أن يضمن أنه، عندما يسافر المحاربون القدماء الأميركيون ذوو الاحتياجات الخاصة، أي جنودنا المصابون إلى خارج البلاد، فإنهم سيُعاملون بالاحترام والكرامة التي يتلقونهما في بلدهم.

في النهاية، لم يتحلَّ سوى 61 سيناتوراً بالجُرأة لموافقته الرأي في أن بقية العالم يجب أن يرقى إلى مستوى الاحترام الذي فرضته الولايات المتحدة سنة 1990 بواسطة قانون الأميركيين ذوي الاحتياجات الخاصة.

ولكن، في العام 2012، كان هذا أحد التصويتات التي تركت أثراً لا يمحّي: السيناتورات الذين قالوا لي ولماكين سرّاً إنهم يريدون التصويت على المعاهدة، تراجعوا في اللحظة الحساسة. كان الخوف يخيِّم على مجلس الشيوخ؛ فكثير من السيناتورات يصافحون يد بوب دول، ثم يقتلون حلمه. كان هذا مشيناً.

عندما يعجز مجلس الشيوخ عن القيام بالواجبات التي جرى تأسيسه من أجلها، فإن ذلك يؤكّد أن سوءاً قد أصاب بسهامه السياسة الأميركية. تساءلت عن سبب رغبة بعض زملائي في أن يكونوا في مجلس الشيوخ ما داموا يعجزون عن التصويت بما تمليه عليهم قلوبهم وعقولهم. عدت إلى مكتبي. كان فريق عملي قد فتح زجاجة الويسكي التي كان تيدي قد قدّمها إلى سنة 2007، قبل سنتين من وفاته وكتب عليها: «اشربها بعد التصويتات الجيدة، وبعد السيئة أيضاً» . وفي هذا اليوم حدث الأمران. فقد خضنا معركة قوية وقد أتت النتيجة سيئة جداً.

بعد أيام من القضاء على اتفاقية ذوي الإعاقات في قاعة مجلس الشيوخ، اتصل بي البيت الأبيض ليبلغني بأن الرئيس أوباما يود التكلم معي. جلست خلف طاولة مكتبي في مبنى راسل، أنظر إلى الخارج، إلى جادة كونستيتيوشن، التي خيّم الظلام عليها، ولا تنيرها سوى أضواء السيارات العابرة بين الفينة والأخرى، وأعمدة الإنارة، وأنوار قبّة مبنى الكابيتول التي لاحت عن بعد. يا إلهي! الأيام تقصر، ووقتي في مجلس الشيوخ يقصر أيضاً. ازداد شعوري بالإحباط من عجز مجلس الشيوخ الذي بدا وكأنه قشرة لما كان عليه آنفاً، مؤسسة عاجزة عن الإتيان بأي شيء، حتى لو جرى استخدام

التكتيكات المجربة والفاعلة التي أجدت نفعاً في الأجيال السابقة. وقد ضايقني ذلك جداً. كنت قد تعلمت الدروس حول كيفية حلحلة الأمور في مجلس الشيوخ، ولكن هذه المؤسسة قد تغيّرت. تقبع فوق طاولة مكتبي ثلاثة رموز تعود إلى تاريخ مجلس الشيوخ الشهير ذاك: الصورة المؤطرة من تيدي في أول يوم لنا كزميلين في العام 1985، وهي التي وعدتْ بأن «علاقة جميلة» ستجمعنا؛ وتمثال بوذا الخشبي المنحوت الذي أعطاني إياه جون غلين، وقد تقشّرت طبقة الطلاء اللامع عن منطقة بطنه جراء التماساتي المتكررة للحصول على الحظ الجيد؛ وبوصلة الملاحة التي تركها لي جون وارنر يوم انتقلت إلى مكتبه القديم.

لم تترك لي بوصلتي الداخلية أدنى شك بأن عليّ إيجاد طرق جديدة للعمل والدفاع عن المسائل التي شكّلت محور حياتي، مذ عدت إلى الوطن من فييتنام، وإيجاد مكان جديد لتلك المعارك، إذا لم يعد مجلس الشيوخ إلى سابق عهده. توقعت أن يوضح لي اتصال الرئيس الوجهة التي ستشير إليها بوصلتي الذاتية قريباً. جلست على الكرسي، وانحنيت إلى الأمام منتظراً تحويل اتصال الرئيس أوباما إلي. انتظرت وانتظرت، إلى أن تلفظ باسمي الصوت الذي بات مألوفاً لدي: «جون!» باراك أوباما لا يتجنّب الخوض مباشرة في الموضوعات. لا يروقه اللغو، ويدخل في صلب الموضوع بسرعة. سيتعيّن على البيت الأبيض أن يتمم تدقيقه المكثف حولي، ولكنه طلب منّي أن أكون وزير خارجيته.

بعد شهرين، انضم جون ماكين وهيلاري كلينتون إلى إليزابيث وارين لتقديمي على ناحية غير مألوفة من المنصة في لجنة العلاقات الخارجية من أجل جلسة لإقرار تعييني، وهو مكان لم أجلس فيه منذ العام 1971. بعد يومين، أقر مجلس الشيوخ تعييني بنتيجة تصويت بلغت 94-3. عمدت قاضية المحكمة العليا إيلينا كاغان، صديقتي منذ أيام عملها في البيت الأبيض في التسعينات، إلى عبور الشارع إلى مبنى الكابيتول، كي تقوم بتحليفي في المكان الذي شغلتُ فيه معظم سنوات خدمتي العامة، في الغرفة التاريخية للجنة العلاقات الخارجية في مبنى الكابيتول الأميركي.

تقبلتُ أن أترك مجلس الشيوخ ببعض السرور والمرارة في آن، وبدأت فصلاً جديداً في حياتي.

الفصل السادس عشر: الدبلوماسية في عالم محفوف بالمخاطر

«أنا فخور بتولّي هذا المنصب، لأنّني أريد أن أعمل من أجل السلام» .

حضر نائب الرئيس جو بايدن مشكوراً إلى مقر وزارة الخارجية كي أؤدي أمامه بصورة علنية اليمين الدستورية لتولّي منصب وزير الخارجية الثامن والستين؛ وذلك بعد مرور خمسة أيام من أدائي اليمين الدستوية بصورة خاصة وتولّي مهمّات عملي. كانت غرفة بنجامين فرانكلين المزخرفة في الطابق الثامن من وزارة الخارجية مكتظة بالمئات من أصدقائي وأفراد عائلتي الكبرى، التي تكوّنت على مدار حياتي، والتي تشمل عدداً من أقراني في فريق كرة القدم أيام المدرسة الثانوية، ومن بينهم جندي سابق في سلاح البحرية يدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، بالإضافة إلى فريق المناظرات في الكلية، وإخوتي في البحرية الأميركية، وأصدقائي الذين تعرفت إليهم أثناء العمل في ولاية ماساتشوستس، وخلال حملاتي الانتخابية بدءاً بالعام 1972 مروراً بالعام 2004 وصولاً إلى العام 2008، وزملائي في مجلس الشيوخ، وأعضاء فريقي السابقين الذين عملت معهم على مدار ثمانية وعشرين عاماً. كانت تلك اللحظات بمثابة «لحظات العمر» . ولكنها كانت أيضاً من لحظات الوضوح الشديد. بدا جليّاً لي أن فترة عملي وزيراً للخارجية ستمر سريعاً، بيد أنني قررت، رغم قناعتي تلك، أن يكون لكل يوم قيمة خلالها.

قبل ذلك بيومين، وقفت في ردهة مبنى هاري إس ترومان، وتحدثت إلى مجموعة كبيرة من زملائي الجدد، وهو تقليد يقوم به أي وزير جديد يتولّى هذه الوزارة؛ فصارحتهم بأن مجلس الشيوخ يسري في دمي، إلّا أن السلك الدبلوماسي هو الذي يسيطر على جيناتي؛ فجواز سفري الدبلوماسي الأول حصلت عليه في عمر الحادية عشرة، وحمل الرقم 2927، وعليه صورة باهتة بالأبيض والأسود، ومدوّن عليه: «الطول: 4 أقدام و3 إنشات، الشعر: بني» . وخُتم لأول مرة عام 1954 في لوهافر.

مرت تسعة وخمسون عاماً، استحال خلالها لون شعري إلى غير اللون البني. ولكن في أفضل الأحوال، كان عمل وزارة الخارجية سنة 2013 لا يزال كما كان عليه خلال تلك الحقبة المختلفة للغاية. فالأخيار، الذين لم تظهر أسماء الكثيرين منهم إطلاقاً في الصحف، يستيقظون كل صباح ويبذلون قصاراهم من أجل تعزيز مصالح بلدنا وإعلاء قيمنا.

في واقع الأمر، أردت أن أنقل إلى الوزارة صورة ذلك الوزير الذي طالما رغبت أن أكونه. تواصلت مع جميع من تمكّنت من التواصل معهم من الوزراء السابقين للتحدث بشأن الوظيفة الجديدة. وفي الحقيقة فإنّ أيّاً منهم لم يبخل عليّ بالتضحية، وفي أي وقت. فهؤلاء الوزراء الذين طالما عملوا بجد، ورغبوا بصدق في مساعدة خلفائهم، بغض النظر عن الحزب السياسي الذي ينتمون إليه، اتّسموا بالود والتقارب. وكانت نصائحهم قيِّمة على قدر اختلافها. فجيمس بيكر قال لي: يتوجب عليك أن تدير الوزارة وألا تدعها تديرك، واعلم دائماً أن قيمتك تتأتى من السفر والقيام بالشؤون الدبلوماسية بصورة عملية. كولن باول كان له رأي مغاير إذ قال لي: لا تسافر، ابقَ في واشنطن، مهمتك الأكثر إلحاحاً هي إدارة الوزارة. جورج شولتز كان رأيه بين هذا وذاك، شأنه شأن هيلاري كلينتون ومادلين أولبرايت. هنري كيسنجر شدَّد على أهمية البقاء على مقربة من مستشار الأمن القومي؛ وهي نصيحة غالية من رجل تقلّد كلا هذين المنصبين، وألّف كتاباً (فعلياً) عن الدبلوماسية من كلا المنظورين.

امتد أيضاً التنوع في الآراء إلى التفاصيل الصغيرة. كوندي رايس شدَّدت على الأهداف الكبيرة، من قبيل أهمية تحسين برامج المساعدات والتنمية الدولية من أجل بناء عالم عصري، في الوقت الذي أشار فيه كولن باول بطريقة حكيمة إلى أهمية تحقيق إنجازات ملموسة، مثل إصلاح منظومة البريد الإلكتروني للوزارة والخروج بها من تلك الحقبة التكنولوجية السحيقة. البعض قال إن من الأهمية بمكان الاعتماد على مبعوثين خاصين، بينما قال آخرون إن كثرة المبعوثين قد «أفسدت» الهيكل الدبلوماسي. ومع ذلك، اتفق الجميع على أن هناك بعض الجهود الدبلوماسية لا يمكن أن يحققها سوى الوزير نفسه، كما اتفق الجميع أيضاً على أن الوقت المحدد لإنجاز العمل يكون دائماً أقصر كثيراً مما يبدو عليه في المفكرة.

كل ما قالوه كان صحيحاً. غير أنني، شأني شأن أي وزير سبقني، كان عليّ أن أقوم بعملي على طريقتي. أرسلت بريداً إلكترونياً إلى الوزارة بأكملها، في واشنطن وفي الخارج، سردت فيه فصلاً سابقاً من فصول حياتي. عندما تولَّيت قيادة PCF-94، كُلفت قيادة فريق أمضى في الأنهار، في قتال مرهق، فترة أطول كثيراً مما أمضيت. لذلك كان عليّ أن أحظى بالصدقية

لديهم وليس العكس. والآن، تقلّدت وزارة الخارجية وأصبحت على رأس ذلك الكيان الذي يرتكز على بوتقة من عشرات المناصب المرموقة بداية من «نائب الوزير» إلى «نائب الوزير للإدارة والموارد» إلى «المبعوثين الخاصّين» وأكثر من ذلك. ورغم أنني أصبحت على رأس هذه المؤسسة، فإنني كنت أحدث فيها إضافة ما. لذلك كان أمامي الكثير لتعلمه من أولئك الذين عملوا في الوزارة بالفعل؛ وهو ما ولّد لدي رغبة في الاستماع عن كثب إلى وُجهات نظرهم.

جئت إلى هذه المؤسسة ببعض الأفكار التي اكتسبتها قبل عدة سنوات. كان والدي يرى، في بعض الأحيان، أن البيروقراطية، تلك الثقافة التي يمكن أن تحول دون الإبداع في حل المشكلات، تهدر الحياة في السلك الدبلوماسي وتضيعها. المسؤولون الشباب الذين التقيتهم كانت لهم وجهة نظر مغايرة حول هذه التجربة؛ إذ يرون أن الثقافة السائدة كانت في بعض الأحيان تفضل «تجنُّب المجازفة» ، وأن التدابير التحفيزية كانت على الدوام تقيِّد عنان أولئك الذين كانوا يحاولون تحقيق إنجازات عظيمة، مما كان يتسبَّب أحياناً في فشلهم فشلاً ذريعاً. عميد السلك الدبلوماسي السفير توم شانون، المسؤول عن جميع شؤون أميركا اللاتينية، قال إن أفضل طريقة يمكن من خلالها إقرار مبدأ المجازفة الذكية، هي أن يقوم الوزير بصياغته بنفسه. وقد أخذت هذا على محمل الجد. كنت أريد أن يعرف الجميع أن «الانشغال بالمحاولة» أفضل من مجرد «التأمل بالمشكلة» على حد تعبير بيل بيرنز.

كنت محظوظاً أيضاً بتلك المجموعة المتنوعة التي تحيطني من قدماء قادة وزارة الخارجية وعائلتي التي ترعرعت في كنف مجلس الشيوخ، والذين كانوا إلى جواري من أجل مساعدتي في المهمة القادمة. عاد ديفيد ماكين ليعمل مرة أخرى مديراً لشؤون السياسة والتخطيط، وهو المنصب الذي نال ما نال من الشهرة بسبب ما أضفاه عليه جورج كينان. وكان ديفيد يتسم بنفاذ البصيرة، ولم يكن يتردد قط في إبداء وجهة نظر مختلفة عندما احتاج إلى وجهة نظر مغايرة. وتركت هيذر هيغينبوتوم، مديرة الشؤون التشريعية، منصباً مؤكداً في مجلس الشيوخ في مكتب الإدارة والميزانية، لتعمل نائبة للوزير، وتبذل جهداً في تحديث وزارة الخارجية والوكالة الأميركية للتنمية الدولية. انضم إليّ أيضاً في واشنطن سفير الولايات المتحدة في فرنسا تشارلي ريفكين، وهو أحد الأصدقاء القدماء، وسفير الولايات المتحدة في إيطاليا ديفيد ثورن، أقدم أصدقائي، وكذلك درو أوبراين، مدير الخارجية عن ولاية ماساتشوستس. تصيّدت أيضاً مراسل صحيفة بوسطن غلوب، جلين جونسنون، الذي سوف يرافقني في كل خطوة أخطوها في تلك المسافة

البالغة 1417576 ميلاً، والتي قد أقطعها في واحد وتسعين بلداً. كان هذا الفريق فريقاً جيداً تضمن القدماء والجدد والمهنيين والسياسيين، مما جعلني أشعر بالثقة بقدرتنا على إنجاز المهمة التي توليتُها.

ليست الدبلوماسية في الواقع علماً جامداً أو غافلاً عن مدى صعوبة التخطيط المسبق لما تريد أن تفعله بصفتك كوزير للخارجية، بغض النظر عن الكم الكبير من الاجتماعات المشتركة مع الهيئات الأخرى في غرف لا نوافذ لها من أجل محاولة التكهُّن بجميع الاحتمالات، وصياغة السياسات الوقائية المناسبة، ووضع المقاييس التي يمكن من خلالها تحديد إن كانت الوزارة تقوم بما كانت تنوي القيام به أم لا، علماً بأننا عقدنا عدداً لا يحصى من الاجتماعات. فالدبلوماسية تنطوي أيضاً على قرارات إنسانية، وتضمّ إليها في جميع أنحاء العالم ممثلين يفتقرون بالتأكيد إلى الكمال، وأزمات يستحيل التكهُّن بها.

في أي وقت، قد تأتيك مكالمة من إحدى السفارات، أو برقية على مكتبك أو تنبيه طارىء في منتصف الليل يتطلّب منك اتخاذ قرار سريع بشأن إمكانية التدخل أو عدمه وكيفيته. عادةً، لا يكون عدم القيام بأي شيء خياراً متاحاً. وعلاج المشكلة بالتمنّي أو بقول «حسناً، هذا ليس ما كنا نخطط للقيام به» لا يجدي نفعاً. فالولايات المتحدة الأميركية يجب أن تكون في الصدارة.

وعلى المنوال نفسه، وحتى عندما تركّز في الأولويات الاستراتيجية الرئيسية، وحتى عندما تواجه أزمات مقبلة من أماكن غير محتملة، تواجهك أحياناً مصاعب لا يمكن حلها، ولكن يمكن منع تفاقمها، أو الحيلولة في بعض الحالات دون فقدان السيطرة عليها أو تفجّرها. تعلمت أن بمجرد تدخلنا، يمكن أن يحدث أشياء جيدة؛ وإذا لم نتحرّك نحن، فقد تعوّدنا ألا نلحظَ من يبادر ويتحرّك.

وقد تعلمت أمرين في غاية الأهمية على يد اثنين من ذوي الحنكة، هما زعيم الأغلبية السابق جورج ميتشل والرئيس بيل كلينتون؛ وذلك أثناء عملهما على قضية السلام في أيرلندا الشمالية التي قال ميتشل بشأن مفاوضاتها ما يأتي: «استغرقت سبعمئة يوم ويوماً، منها سبعمئة يوم بلا نجاح» . كلينتون طرح كذلك الفكرة نفسها؛ إذ قال: «عندما أعمل على قضية معينة، أعلم على الأقل أنها لن تزداد سوءاً» . في الواقع، أرى في هاتين النصيحتين غاية الحكمة. فإذا كان بمقدوري تقديم شيء أفضل من الوقوف مكتوف اليدين، فالأمر يستحق حينها مشقّة السفر.

في الوقت الراهن، أصبحت الخيارات المتاحة في ذلك العالم الذي نحيا فيه محدودة؛ ذلك أنه أصبح أكثر تعقيداً بسبب وتيرة التغيير التي باتت أسرع

ممّا كانت عليه في أي وقت مضى. فالعالم غدا أكثر ازدحاماً وترابطاً وأقل اعتماداً على التسلسلات الهرمية المعروفة. وأصبح كذلك أكثر تأثراً بالأعمال التي تقوم بها الجهات الفاعلة غير الحكومية، وباتت فيه القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والشواغل الأمنية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً. فالتكنولوجيا جعلت العالم صغيراً، حتى بات بإمكان أي شخص بث رسائل الكراهية في شتى أنحاء العالم بنقرة زر واحدة.

أصبحت الصراعات مجالاً لاستخدام مجموعة متنوِّعة من الأسلحة، وبات يخوضها مقاتلون، في الغالب، لا يرتدون زياً بعينه أو يسكنون في عنوان بذاته. أصبح العالم أكثر ازدهاراً عما كان عليه في السابق. غير أن الصورة الكلية لا تعني الكثير لأولئك الذين لم تشملهم دائرة الازدهار. عجّل ذلك من أوان النقاش بشأن عدم المساواة في الدخل حتى احتدم في جميع البلاد تقريباً. أضحى عدد سكان العالم يزداد في كل يوم عن سابقه، مما رفع وتيرة الضغط على الموارد الطبيعية المحدودة. أصبحت أجزاءَ كبيرة من الشرق الأوسط وأميركا الوسطى وأفريقيا تعاني من ويلات العنف، الأمر الذي أدى إلى زيادة أعداد اللاجئين بصورة لم يسبق لها مثيل. الأطماع القومية والتطرفات الدينية القديمة، قدم الأزل، تختبر مدى مرونة سيادة القانون. لذلك فإن الارتباط الشيطاني بين التكنولوجيا والإرهاب قد يؤدّي إلى نشوب حروب ترجع دوافعها إلى القرن الثالث عشر، ولكنها بالتأكيد ستعتمد على أسلحة يعود ابتكارها إلى القرن الحادي والعشرين.

كان صندوق بريدي يعج دائماً بالرسائل التي تردني باستمرار. ولم يعد بوسع العالم الانتظار بسبب انشغالنا بإحدى المفاوضات هنا أو هناك. لذلك كانت إدارة الأجندة تتطلب فريقاً مختصاً يتمتع بالمهارة والسرعة في اتخاذ القرارات. فالجهود الدبلوماسية، أكانت مدفوعة بدوافع استراتيجية أم تحرِّكها أزمات معينة، تتطلّب في البداية حتى نتمكن من إنجازها بصورة صحيحة، بعض الأعمال التحضيرية، كإجراء البحوث، وعقد اجتماعات الاحاطة، وتحديد نقاط الحوار السليمة، والتنسيق المناسب للرسائل والإجراءات: من تدخل السفراء، مروراً برحلات وكلاء وزارة الخارجية، واتصالات وزير الخارجية أو أسفاره.

وفي الواقع، قدّمت الإدارة مساعدات متعدّدة من أجل معالجة عدد هائل من القضايا في وقت واحد، أذكر منها الإسهام في التصدي لوباء الإيبولا الذي كان يجتاح أفريقيا، ومكافحة الإرهاب في القرن الأفريقي، والضغط بين الفينة والأخرى على نيجيريا وسريلانكا من أجل القيام بانتخابات حرة ونزيهة، والتحدث مع أحد رؤساء بلدان أفريقيا بشأن مخاطر مناشداته الداعية

للتعصُّب الأعمى ضد المثليين. الحاجة، على الدوام، هي التي تستدعي منّا التدخل. وعندما يرى أحد البلدان عدم تدخُّل وزير الخارجية بشأن إحدى القضايا، تُعدّ هذه القضية أقلّ أولوية، أو مسألة عادية تتعلق بشخص ما أو مكان ما، وليست أمراً يخص حكومة الولايات المتحدة الأميركية. لذلك، قد أجد نفسي أتحدث على الهاتف من أوروبا في الساعة الثانية صباحاً، لأطلب من وزير الخارجية الصيني التفكير في أن يسهم على نحو أكبر في محاربة الإيبولا. وعلى حد قول زميلي، وزير الخارجية الكندي، المحافظ جون بيرد: «إن لم تتصدّ الولايات المتحدة للأمر، فلن يفعل أحد» .

كان من المفترض أن تكون إجازة رأس السنة عام 2013 فترة للاستجمام بعد عام من السفر المتكرر والجهود الدبلوماسية المضنية. أجّلت التحاقي بعائلتي غير مرة؛ لكنني التقيتهم في نهاية المطاف صباح ليلة رأس السنة، وشرعت في قضاء الأيام السبعة اللاحقة في العمل من المظلة الواقعة في الحديقة خلف المنزل، والتي كان جهاز الأمن الدبلوماسي قد جهّزها بأحدث تقنيات الفيديو الآمنة. في الواقع، أتت تقنية الاتصالات المتنقلة الخاصة بوزارة الخارجية الأميركية ثمارها. فالأزمة الأمنية في جنوب السودان كانت قد اشتدت للغاية، وكان علينا أن نحدِّد خلال الإجازة إن كان من الأسلم إبقاء سفارتنا مفتوحة أم يجب علينا أن نخليها لحماية رعايانا.

أضحى الوضع في جنوب السودان مخيباً جدًّا للآمال. فقد بذلتُ مئات الساعات عندما كنت رئيساً للجنة العلاقات الخارجية، في محاولةٍ لمساعدة البلاد أن تصبح مستقلة وآمنة. حتى أن حفل زفاف مدير مكتبي فاتني بسبب رحلة طارئة قمت بها في تشرين الثاني/نوفمبر 2010، بغية تقديم رسالة خاصة من الرئيس أوباما إلى الأطراف الفاعلة آنذاك. ورغم كل ما فعلته الولايات المتحدة لتمهيد الطريق لإجراء استفتاء سلمي وناجح بشأن الاستقلال، وبعد كل ما فعله العالم والآمال العريضة التي علّقها على هذه الديمقراطية الجديدة، ظلت تصارع من أجل البقاء على مدار عامين. بعد الاستفتاء الذي جرى عام 2011، تلقّيت رسالة من جورج كلوني، الذي كان مهتماً للغاية بجنوب السودان، يقول فيها: «إذن، الجزء الصعب بدأ للتو» . كان محقاً. فجنوب السودان ظل يثبت للعالم خلال هذه الفترة أن صوتاً واحداً لا يمكن أن يصنع بلداً.

انشغل الرئيس سلفا كير، الذي كنت قد تعرفت إليه جيداً، عن أداء واجباته. وباتت سياسات جنوب السودان قبلية أكثر فأكثر، والقبلية نوع مختلف من أنواع الطائفية. استبعد كير نائبه رياك مشار. وفي الواقع، لم يُظهِر أي منهما أي نوع من الحنكة السياسية؛ فمع اقتراب عيد الميلاد عام 2013، اندلع

العنف في جنوب السودان، وقد نجم عن مشاحنات بسيطة بين السياسيين. عملنا، في وزارة الخارجية، على محاولة الوصول إلى بعض الاتفاقات المؤقتة. وبذلنا جهوداً مضنية من أجل تقديم إطار أوّليّ للمصالحة السياسية؛ لكن ليس لدى كل ديمقراطية شابة من يشبه توماس جيفرسون أو ألكسندر هاملتون، أو من هم على شاكلة أولئك الذين قد يختلفون فيما بينهم بشدة؛ ولكنهم يُبقون وطنيتهم فوق كل اختلاف.

كنا في إجازة رأس السنة. وكنت كل ساعتين أتحدث إلى سفارتنا في جوبا وإلى البيت الأبيض، بينما نتتبع الميليشيات والمقاتلين الذين كنا قلقين من تقدُّمهم إلى العاصمة؛ فإذا وصلت الميليشيات إلى جوبا، وأفضى القتال إلى فوضى، فسوف نضطر أن نخلي السفارة؛ وقد يكون لذلك عواقب مأساوية. فالولايات المتحدة الأميركية عندما تنسحب من أحد البلدان، يتبعها الآخرون. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن أن ينزلق البلد إلى حرب أهلية. وفي الواقع، لم نكن نرغب في مغادرة جنوب السودان ما لم نضطر إلى ذلك، ولكننا لن نعرض كذلك حياة الأميركيين للخطر، ما لم يرغب السياسيون في جنوب السودان في حماية عاصمة بلدهم. كانت الأوضاع في غاية الخطورة. لذلك أخذت في الضغط على كل من كير ومشار في المكالمة تلو الأخرى، حتى يفهما أننا سوف نحمِّلهما المسؤولية إذا سارت الأمور إلى غير ما يحمد عقباه، بسبب ما يدور بينهما. وفي صباح يوم رأس السنة، هاتفت كير، فأخبروني أنه غير موجود، لانشغاله بالاحتفال بالعيد. لم أستطع تصديق الأمر وقلت لهم: «إذا كنت أنا أعمل في عيد الميلاد بسبب الوضع الأمني في بلاده، فمن الأفضل أن يعمل هو أيضاً» . وطلبت منهم تمرير هذه الرسالة له. عاود الاتصال بي مرة أخرى، على مضض، مؤكداً عدم وجود ما يمكن أن نخشاه. ازدادت المخاوف بعض الشيء في جوبا خلال أسبوع العيد؛ ولكننا تجاوزناها في أي حال. فحالات التمرد لا تتوقف في أعياد الميلاد، والمتمردون لا ينشغلون بزجاجات الشمبانيا في ليلة رأس السنة. غير أن استيقظنا عام 2014 وقد علمنا أن أزمة كبيرة قد جرى تفاديها. والآن، ليس من المفترض أن نتخلى عن هذه الدولة التي لا تزال في المهد، والتي أسهمنا في إظهارها إلى الوجود. وقد انتابتني بعض اللحظات في ذلك الأسبوع شعرت خلالها برغبة في الاتصال ببعض أعضاء الكونغرس الذين هاجمونا جرّاء موقفنا في بنغازي، لكي أسألهم عما فعلوه بشأن جنوب السودان. وبالمقابل، فإن وزارة الخارجية بأكملها قد استغنت عن إجازات رأس السنة، من أجل حماية أسرة الولايات المتحدة الأميركية الدبلوماسية.

لم يكن هناك وقت كي نضيعه في التشكي. وكانت وظائفنا تستدعي الاعتزاز. فعملنا يهم ملايين الأشخاص. وفي الواقع، عندما أنظر إلى تلك

البلدان التي لا تشغل فيها الجهود الدبلوماسية دائماً مركز الصدارة، بداية من بوغوتا إلى كييف، أدرك كيف أن أعمالنا أنقذت الكثير من الأرواح في عالم معقّد ومزعزع ومضطرب، وأعلم أننا استثمرنا كل دقيقة كانت لدينا، واستنفدنا كل خيار أُتيح أمامنا.

سبق أن قلت إن مهمات العمل تأتي دوماً على حساب الواجبات العائلية؛ ذلك أن من الصعوبة بمكان فصل الحياة الأسرية عن الأزمات العالمية. ولكن عطلة الرابع من تموز/يوليو عام 2013 لم تشهد فقط ما يستدعي التدخُّل السريع في أزمة على الجانب الآخر من العالم، بل تشهد أيضاً ما يستدعي التدخل في أزمة شخصية وعائلية للغاية في تلك الظهيرة الهادئة.

بعد أشهر من السفر بلا توقف، كانت عائلتنا ترغب في الاحتفال بيوم الاستقلال متمتِّعة بفترة من الهدوء النادر في نانتوكيت، وهو المكان الذي تزوّجت فيه أنا وتريزا، ويعد مكاناً رائعاً لقضاء عطلة عيد الاستقلال، عندما تضيء الألعاب النارية المرفأ. وسوف ينضم إلينا حفيدنا ألكسندر للإبحار للمرة الأولى في طقس تسمح التوقُّعات لنا بالقيام به، على أن ذلك سيكون استثنائيًّا، بسبب الفترة الطويلة التي قضيتها بعيداً عن المنزل.

ولكن، بدلاً من ذلك، قضيت جل وقتي على الهاتف. بدأت مصر تحت حكم الرئيس محمد مرسي بالانهيار. امتلأ ميدان التحرير مرة أخرى بآلاف المصريين المحبطين، وبالحشود الغفيرة تماماً، كما كان قبل عامين، أي قبل الإطاحة بحسني مبارك. كنت أضغط عبر الهاتف على وزراء خارجية الخليج، وأتعاون مع سفارة الولايات المتحدة في القاهرة للقيام بكل ما في وسعنا للتخفيف من كارثة وشيكة الحدوث من أجل تجنُّب أي إراقة للدماء على أقل تقدير. خشيت أن يُقتل مرسي، أو أن تنزلق العاصمة إلى الفوضى. كنا نحاول التحكم بالموقف، بينما بدأت تلك البلدان التي كانت تعارض مرسي، وتلك التي كانت تؤيّده، باستخدام أجنداتها الخاصة من أجل فرض نفوذها. كنا نسعى سعياً حثيثاً للسيطرة على الموقف. وبحلول الثالث من تموز/يوليو، كان مرسي محتجزاً لدى الجيش.

سرعان ما عادت فانيسا وعائلتها إلى بوسطن. كان الوقت يمر بسرعة البرق. وكانت تيريزا في الطابق العلوي. وبينما كنت أتحدث عبر الهاتف مرة أخرى، سمعت صوتاً يغلب عليه الذعر.

«سيدي الوزير، هلا صعدت سريعاً. زوجتك في غاية المرض» .

صعدت مسرعاً إلى حجرة نومنا. كانت تيريزا تتلوى من ويلات النوبة المرضية الشديدة. اتصل مساعدنا بالأمن الدبلوماسي وبالرقم 911. قفزت على السرير ممسكاً بذراعي تيريزا كي أمنعها من إيذاء نفسها؛ إذ كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة. للحظة، تملّكني الخوف من أن تتوقف عن التنفس تماماً.

كنت أهمس إليها: «تمالكي، ابقي معنا» ، في ذلك الوقت الذي بدأت فيه حالتها تسوء أكثر فأكثر. لم يستغرق الأمر عدة دقائق حتى زالت عنها حالة التشنج؛ غير أنها مرت وكأنها ساعات. ومع ذلك، ظلّت طريحة الفراش في غير وعيها تقريباً. وصل الطاقم الطبي، وسرعان ما توجّهنا إلى المستشفى بسيارة الإسعاف، يرافقنا موكب من سيارات شرطة الولاية والشرطة المحلية والأمن الدبلوماسي والإسعاف، محاولين الوصول إلى المستشفى بأسرع وقت ممكن، عبر شوارع نانتوكيت الضيقة.

بذل القائمون على المستشفى جهوداً رائعة، حتى استقرت حالة تيريزا. وقد أشرف على الحالة الطبيب تيموثي ليبور، الذي كان يعرف معظم أفراد عائلتنا، والذي طالما عالج أفرادها في السابق، بدءاً بلدغة القرادة وصولاً إلى الحمى وإلى أمور أدنى أو أعلى. قرَّر الطبيب تيموثي ليبور تحويلها إلى مستشفى ماساتشوستس العام في بوسطن. ممّا جعلنا نقوم بالترتيبات اللازمة لتأمين طائرة تنقلها على الفور.

عندما وصلنا أخيراً في إحدى سيارات الإسعاف إلى مستشفى ماساتشوستس العام التي تعمل بها فانيسا طبيبة ممارسة وكذلك زوجها، وجدنا فريقاً من الخبراء على أهبة الاستعداد لتقييم حالة تيريزا، بدأنا بعدها بتنفيذ قائمة طويلة من الاختبارات إضافة إلى النقاهة، ثم التشخيص، ثم المزيد من الاختبارات المزيد من التقييمات والأدوية المتنوعة.

بدت أجواء هذه الظهيرة مخيفة للغاية تنذر بالشؤم تماماً كما كانت عليه قبل خمسة أعوام. هُرعت عائداً مرة أخرى من ماساتشوستس الغربية، لمقابلة فيكي كينيدي بعد أن تلقّت أسوأ تشخيص ممكن عن تيدي. وحمداً لله، سرعان ما استبعد الأطباء احتمال إصابة تيريزا بورم أو سكتة دماغية، وهما ما كنا نخشى إصابتها بهما. في ذلك اليوم، رأيت كيف كنا محظوظين، وكيف أن الحياة غير منصفة للكثيرين.

أخبرنا الأطباء أن من السابق لأوانه استخلاص الكثير من الاستنتاجات بشأن حالة تيريزا المرتقبة على المدى الطويل. ورغم عدم وجود أي علامة على حدوث أي تلف في الدماغ، فإن مرضها قد أثّر بصورة ما في توازنها وفي

سرعتها لدى معالجة الأشياء. قد يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يتأكد المرء من الكيفية التي سوف تُعالج بها جميع الأمور.

لم يكن هناك أي تفسير لسبب هذه النوبة التي تمكّنت منها، لكن الحياة لم تعد كما كانت. بينما كنت أمسك بيد تيريزا، عدت بذاكرتي إلى غدائنا مع وزير الخارجية الأسبق جورج شولتز قبل شهرين. وكنت في ذلك الوقت أنتظر تأكيد مجلس الشيوخ. كانت تيريزا تعرف جورج جيداً منذ فترة ريغان. بعد أن انتهينا من الغداء، كانت تيريزا متحمِّسة بشأن إمكانات سفرها معي خلال سنوات عملي كوزير للخارجية، كما فعلت زوجة جورج الراحلة، أوبي، في كثير من بعثات جورج الدبلوماسية. وما تزال أوبي إلى هذا اليوم محل توقير من الجميع داخل وزارة الخارجية؛ وذلك لتفانيها ليس في سبيل زوجها فحسب، بل سبيل المؤسسة ذاتها. وكانت تيريزا، التي تتحدّث خمس لغات ودرست لتكون مترجمة في الأمم المتحدة، مفعمة بالأمل في ذلك الوقت؛ ذلك أنها كانت سوف تستثمر جهودها في العمل خلال الفترة المستقبلية. آنذاك، تأجلت هذه الطموحات.

ونحن في المستشفى، أطلعني أحد المساعدين على مقالة منشورة على الإنترنت، يتكهن فيها غلين بيك أن «مرض» تيريزا ما هو إلا محض ادعاء من أجل عكس الوضع تماماً وصرف الانتباه عما يحدث في مصر. أردت آنذاك أن يحضر ويجلس هناك حتى يشاهد هذه الأسرة القلقة التي تحاول الحصول على أي إجابات. حتى في أكثر اللحظات صعوبة وخصوصية في الحياة، غالباً ما يجد بعض الأشخاص مجالاً للقذارة السياسية. لكن لم يكن لدينا وقت للانشغال بما يقوله غلين بيك. فتعاطف الأطباء والممرضات والرسائل والمكالمات الداعمة التي تلقيتها من أفراد أسرة الإدارة، كالرئيس أوباما وميشيل، وجو وجيل بايدن، وتشاك وليليبيت هاغل، هو ما كان يستحق الاهتمام فعلاً، وهو ما رفع من معنوياتنا. كان هذا النوع من التفاعل البشري على النقيض تماماً من القذارة المتداولة في مستنقعات الحمى في عالم التدوين اليميني.

في ذلك الوقت، غيّرت النوبة حياة تيريزا؛ ذلك أنها أصبحت، طوال مدة عملي كوزير للخارجية، غير قادرة على السفر معي. في البداية، كان يلازمها شخص أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، لمساعدتها حتى لا تسقط. وعلى مدى السنوات الأربع التي تلت ذلك، خضعت تيريزا بنفسها للتمرينات البدنية وجهود إعادة التأهيل. تعاطت أحد الأدوية المضادة للنوبات، رغم آثاره الجانبية التي من شأنها أن تُبطئ من سرعة أي شخص. ظلت تيريزا على هذه حال، حتى تعافت في نهاية الأمر تاركةً الحبوب المضادة للنوبات كلية؛ وذلك بحلول الخريف الماضي، الأمر الذي أحدث فارقاً كبيراً. ولا تزال أسرتنا

بأكملها منبهرة من إرادتها، وشجاعتها، وتصميمها على المقاومة وعدم الاستسلام. وخلال تلك الفترة بأكملها، كانت تيريزا تتمتع بروح الفكاهة والشجاعة، بل كانت تشجّعني على المواصلة، وتدعمني دائماً من بعيد بطريقة رقيقة ومؤثرة. لم تكن تلك الحياة هي الحياة التي كانت تخطّط لها، غير أن تصميمها على تجاوزها ناهيك بروحها القوية، قد ساعداها على المضي قدماً في طريقها، رغم ما به من منعطفات حزينة ومفاجئة.

عندما أصبحت على رأس وزارة الخارجية، كان من المنطقي أن تنتهي بي الحال محاوراً رئيسياً في أفغانستان، وأن أستخدم بعض الكلمات الصعبة التي تمتلئ بها جنبات اللغة الاصطلاحية الدبلوماسية. ويمكنني أيضاً القول إن أحداً لم يكن يشعر بالغيرة بصورة خاصة بسبب إدارتي للمهمة على طريقتي!

وكنت على علاقة قوية بحامد كرزاي، لا سيما بعد الدور الذي أديته من أجل حل الأزمة الانتخابية عام 2009، عندما كنت رئيساً للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ. ولدي أيضاً علاقات قوية في باكستان على الجانب الآخر من الحدود.

لقد مثّلت أفغانستان خيارات صعبة خلال فترة ولاية الرئيس أوباما الثانية؛ ذلك أن تحويل إدارة بوش بؤرة اهتمامها إلى العراق تمخض عنه استبعاد تنفيذ أو حتى تطوير استراتيجية للنجاح في أفغانستان. في العام 2008، تعهد المرشح أوباما بإعادة أفغانستان إلى مسارها، وتحقيق الفوز، فيما أطلق عليه الكثيرون فيما بعد «الحرب الجيدة» ، على النقيض من حرب الاختيار المأساوية التي شنّتها الولايات المتحدة في العراق. خلال الفترة الأولى، زادت الإدارة من عدد القوات، وكذلك من الجهود الدبلوماسية من أجل دفع عجلة التقدم؛ بعضها كان ناجحاً بينما كان بعضها الآخر أقل نجاحاً بكثير. صديقي ريتشارد هولبروك مات وهو يحاول كسر الجمود السياسي، وتحقيق شيء بطريقة أو بأخرى، حتى توقّف قلبه الكبير حرفياً.

بحلول العام 2013، كان كثير من الأميركيين يرون أن الحرب في أفغانستان ببساطة هي حرب «أزلية» . لكن كلما ابتعدنا عاماً بعد عام من ذكريات 11 أيلول/سبتمبر التي كانت لا تزال عالقة بالأذهان، بات المواطنون، بل وأعضاء الكونغرس أنفسهم، يتساءلون بأريحية عما إذا كان البقاء في أفغانستان مجدياً حقاً. وتملي عليَّ الصراحة الإقرار بأن العديد من أعضاء فريق الأمن القومي للرئيس، والذين نالت منهم الحرب، كانوا يشعرون بالأمر ذاته تجاه البقاء في أفغانستان؛ ذلك أن صخب الحياة مع كرزاي بات ينهكهم يوماً بعد يوم. وعلاوة على ذلك، كنا ما نزال، بعد مرور اثنتي عشرة سنة على

النيل من حركة طالبان والإطاحة بها، ننفق مبالغ طائلة من الأموال ناهيك بما نتكبّده من خسائر في الأرواح. كنا نقوم بذلك في هذه البلد من أجل تحقيق مصلحتنا الاستراتيجية المتمثلة بصورة أساسية في القضاء على أحد منابر الإرهاب، وليس بناء ديمقراطية تشبه ديمقراطية جيفرسون. كنا ننفق في ذلك البلد واقع الأمر أكثر مما كنا في البلدان التي كانت مصالحنا فيها أكثر إلحاحاً.

كل ذلك كان صحيحاً، لكنه لم يغيّر حقيقة أن حضورنا الدبلوماسي والعسكري في أفغانستان كان كبيراً، وأن آخر مرة قلصنا فيها التزاماتنا تجاه أفغانستان بصورة سريعة ومتعجلة للغاية، قد أدّت إلى إنشاء طالبان والقاعدة معسكرات تدريبية وملاجىء لأكثر الإرهابيين وحشية في العالم. الرأي الذي طرحته على الإدارة هو أن علينا بالفعل أن ننقل أفغانستان من حالة الحرب والاتكالية الدائمة على سواها إلى بلد وحكومة بمقدورهما الاعتماد على أنفسهما. على أن ذلك يستلزم تكثيف العمل في وزارة الخارجية لا تقليصه، خصوصاً في ظل تراجع دعم العالم للقضية عما كان عليه في تلك الأيام التي كانت فيه هذه القضية شغل العالم الشاغل.

انغمست في العمل على قضية أفغانستان على الفور. أولى مكالماتي كانت للرئيس كرزاي في شباط/فبراير 2013. وقد علّمتني تجربتي معه أن من الأهمية بمكان الاتصال والاستماع حتى وإن لم يكن لديك ما تسأل عنه. في السابق، أوضح حامد كرزاي، الذي كان تارة محبّباً وتارة متقلباً وأخرى عاطفياً، أن الكثير من الأميركيين يكثرون من إملاء الشروط والمواعظ. في بعض الأحيان، كان التعامل معه يثير الجنون، إلّا أنني أقرّ بأنه كان وطنياً أولاً وأخيراً. كان يريد أن يوحّد بلاده تحت راية واحدة، وهو شيء تغلغل في وجدانه بسبب اغتيال والده ورحلة نفيه وعودته إلى وطنه مرة أخرى من باكستان، وكذلك عمله مع التحالف الشمالي الأفغاني. بدأنا التحدث على الفور عن العمل الشاق الذي يتطلبه الأمر من أجل رؤية تحول ديمقراطي ناجح آخر في أفغانستان. وجدت أن صلتي الوثيقة به كانت تساعدني على تعديل التعليقات العامة التي كان يقدّمها، والتي كانت في بعض الأحيان غير مفيدة. الأهم من ذلك، كنت أعرف أن كرزاي، حتى مع قبوله ما قد تشهده انتخابات العام 2014 في أفغانستان وهو رحيله عن الرئاسة، سوف يظل طرفاً فاعلاً في البلاد بسبب تأثيره من وراء الكواليس، وحتى من أمامها.

وقد حذّرني كرزاي قائلاً: لن تكون سنة 2013 سنة سهلة. فالمفاوضات الدائرة بشأن اتفاق مركز القوات المشتركة للسماح للولايات المتحدة بإبقاء قوات على الأراضي الأفغانية، كانت متعثرة؛ وذلك بعد أن تفجّرت الأوضاع بسبب بعض الحوادث التي قُتل فيها مدنيون. كان كرزاي مقتنعاً دائماً بأن

باكستان وأجهزتها الاستخبارية تقفان وراء أي مشكلة يواجهها (وبصراحة، كان هناك ما يبرّر ذلك).

قرّرت القيام برحلة مفاجئة إلى كابول بعد أقل من شهر من أدائي اليمين الدستورية كوزير للخارجية. أردت محاولة التغلُّب على بعض هذه القضايا بصورة فردية مع كرزاي، وإرساء أساس لعلاقة تعاونية أكبر تمهيداً للانتخابات الرئاسية الأفغانية التي كان مقرراً انعقادها عام 2014.

هبطت في كابول على متن طائرة من طراز C-130 قادماً من الأردن مباشرة؛ وكنت قد سبقتها بزيارة إلى بغداد. استقبلني السفير جيم كننغهام وتلك الدبلوماسية الشابة التي تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، والتي أسند إليها جيم مسؤولية متابعتي أثناء هذه الزيارة، أو بمعنى آخر مسؤولية تنسيق جميع المسائل الجوهرية والروتينية خلال الزيارة بأكملها. كانت هذه الدبلوماسية التي تدعى آن سميدينغهوف مثالية واجتماعية ونشيطة. نشأت آن في ضواحي شيكاغو. وبعد إتمام دراستها في جامعة جونز هوبكنز، انضمت للعمل في السلك الدبلوماسي. ولم يكن على موعد بعثتها التالية سوى أربعة أشهر. لذلك كانت تعمل بجد على تحسين لغتها العربية. ذكَّرتني آن بابنتيّ. لقد أدهشني فضولها لمعرفة البلد الذي تعمل فيه. ويمكنني أن أقول إن آن، رغم عملها في بلد كان يشكِّل فيه الأمن تحدياً دائماً، كانت منهمكة في الحياة والثقافة الأفغانية، وهي علامة يتميز بها دائماً الدبلوماسي الواعد. بعد ذلك بأسبوعين، قُتلت آن أثناء تسليمها كتباً لأطفال في مدارس مقاطعة كابول، وأصبحت ضحية من ضحايا ذلك الانفجار الانتحاري الذي نفّذه إرهابي من حركة طالبان. وقد راح ضحية هذه الانفجار، بالإضافة إلى آن، ثلاثة جنود ومترجمهم، بينما أُصيب دبلوماسي آخر في وزارة الخارجية بجروح بالغة، ونُقل خارج أفغانستان. جاءتني الأخبار في وقت مبكر من صباح ذلك السبت، وأنا أستعد للمغادرة إلى آسيا. ضاق صدري لمفارقة شخص، كنت قد تعرفت إليه وأُعجبت به، للحياة فجأة. واسترجعت بذاكرتي تلك المكالمات التي كنت أجريها مع العائلات في ماساتشوستس، عندما كنت عضواً في مجلس الشيوخ، في كل مرة يفقدون فيها ابناً أو ابنة في العراق أو أفغانستان. ها نحن في قاعدة أندروز الجوية على استعداد للسفر إلى اليابان، لكن قلوبنا تتوق إلى أفغانستان. طلبت رقم هاتف عائلة آن للتواصل معها. باشر مركز عمليات وزارة الخارجية، وهو مركز تبادل المعلومات المركزي المعني بتوفير جميع

أنواع المعلومات، العمل؛ وظهر على الفور تنبيه على هاتف كبير الموظفين من نوع بلاك بيري: «الوزير الآن يجري مكالمة هاتفية مع أقرب الأقارب» .

التقطت الهاتف لأخبر أبوَيْ آن بتلك الأخبار السيئة والفظيعة التي لا يحب أن يسمعها أي أب على الإطلاق. وقد تفقد الكلمات التي يمكن قولها في مثل هذه اللحظة المروعة. في الواقع، ظللت أتذكَّر آن ومعنى فقدانها في كل مرة أسمع فيها سياسياً أفغانياً ينكر التضحيات التي قدّمتها الولايات المتحدة إلى بلاده، وفي كل مرة يبادر ويعلن فيها أميركيون، أغلبهم محللون ومن أعضاء الكونجرس، ضرورة مغادرتنا أفغانستان وترك هذا البلد يصارع ويلات الانهيار. ما كان يهمّني هو كيفية تحقُّق الانتقال، وما كان يهم الولايات المتحدة الأميركية، هو ما إذا كنا سوف نغادر أفغانستان وهي دولة أم في حالة فوضى. واعتقدت أننا يمكن أن نختار نتيجة تستحق التضحيات التي قُدِّمت.

لكن تحقيق هذه النتيجة ليس هيناً؛ ذلك أن كرزاي كان فطناً ماكراً. وكان سيترك مصير اتفاقية وضع قوات حلف شمال الأطلسي والقوات الأميركية على عاتق الحكومة الأفغانية التالية، رغم انخراطه معي بالفعل في مفاوضات من أجل التوصل إلى إطار من شأنه أن يعطينا ما نحتاج إليه للبقاء في أفغانستان شريكاً أمنياً. لكن ترك كرزاي الأمر للحكومة التالية جعل نتائج انتخابات عام 2014 أكثر أهمية.

كانت المخاطر كبيرة؛ إذ كانت هناك مخاوف حقيقية من أن تشهد الدولة الأفغانية انقسامات داخلية إن لم يتمخض عن الانتخابات حكومة قادرة على تحقيق الترابط. ولم نكن بحاجةٍ إلى الكثير من سعة الخيال حتى ندرك أن الحرب الأهلية كانت على الأبواب.

سارت الأمور خلال الجولة الأولى من الانتخابات في حزيران/يونيو بصورة سلسة للغاية. فقد تقدّم إلى الانتخابات مجموعة كبيرة من المرشحين. نُسِّقت المشاركة الدولية واستمرت. وكان الدكتور أشرف غني والدكتور عبد الله عبد الله خلال هذه الجولة، هما المرشّحان الأوفر حظاً. وكانا مثالاً حيّاً على التناقض.

كان المرشح أشرف غني قومياً مؤيداً للغرب، وصاحب نزعة تكنوقراطية، وهو ينتمي إلى قبيلة البشتون. وقد واجه صعوبة في التواصل مع بعض السياسيين الأفغان؛ ذلك أنه قضى جل مسيرته المهنية في البنك الدولي في الولايات المتحدة الأميركية. وكان غني يتمتع بعقلية عبقرية، غير أنه لم يكن سياسياً محنكاً؛ إذ كان يميل، في بعض الأحيان، إلى المبالغة في ردود

الفعل. وكان أيضاً رجلاً يتسم بالخصوصية الشديدة، ويميل إلى الإدارة التفصيلية التي لمْ تكن في كثير من الأوقات في صالحه.

وعلى النقيض من ذلك، كان عبد الله رزيناً هادئاً مثابراً معسول الكلام. لم تكن لديه رؤية غني أو خبرته التكنوقراطية؛ غير أنه كان دائم الإحساس بالوقت. وقد تمكّن من تشكيل ائتلاف بصورة فعّالة، وعرف كيف يعمل خلف الكواليس. لقد كان عبد الله سياسياً جيداً.

وكان أولئك الذين يعملون على القضية الأفغانية يرون أن غني أو عبد الله سوف يكونان أفضل كثيراً من كرزاي، إذا تمكّن أي منهما من الفوز في الانتخابات؛ ذلك أنهما ينظران، على حد سواء، إلى الغرب الذي رغبا في أن يجدا فيه شريكاً، كما أنهما يريدان بناء علاقة مع الولايات المتحدة الأميركية. وعلاوة على ذلك، نحن نعرفهما جيداً كما أنهما زعيمان يتمتعان بقدر كبير من الكفاءة؛ كلٌ على طريقته: فعبد الله سياسي بالفطرة، وغني خبير مثقف في السياسات العامة، وهو يكثر من الظهور ويقدّم الكثير من العروض في مختلف المناسبات.

المشكلة أن الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية في أفغانستان والتي عقدت في حزيران/يونيو كانت كارثية. كنا نظن أن غني سوف يفوز، بغضّ النظر عن الطريقة التي سوف تُفحص فيها النتائج. لكن تهم التزوير وسواها من المخالفات، ألقت بظلالها على ما كان ينبغي أن يكون لحظة انتصار للشعب الأفغاني.

لم يكن من شأن الولايات المتحدة الأميركية تحديد مَن سوف يقود أفغانستان، ولا ينبغي أن يكون لها دخل بذلك. ولم ندعم خلال العملية الانتخابية أي مرشح مستقل. ولكن سرعان ما اتضح أن تجاوز هذا المأزق واستعادة شرعية العملية الانتخابية وصدقيتها يتطلّبان من المؤسسات الانتخابية الأفغانية معالجة ادعاءات خطيرة وموسّعة، من بينها حدوث تجاوزات انتخابية في مقاطعات كبكتيكا وخوست.

ونتيجة الجدل الكبير الذي أُثير حول هذه الانتخابات الرئاسية، ظن كل مرشح فعلياً أنه هو الفائز، وأصرّ على موقفه. كان عبد الله يظن أن ذلك قد حدث من قبل؛ لأنه يعتقد أنه فاز في الانتخابات الرئاسية عام 2009، وأنه غلّب مصلحة البلاد على مطامحه آنذاك. لذلك لن يقدم على القيام بذلك مرة أخرى من دون مقاومة. في الواقع، حاول عبد الله السيطرة على جمهوره من الناخبين، لكن كان من الواضح أن السيل قد بلغ الزبى عند جمهوره، حتى أن أحد مؤيديه الرئيسيين قد هدّد، في تموز/يوليو، بتشكيل حكومة موازية في

عدد من المقاطعات يتراوح بين اثنتي عشرة مقاطعة وأربع عشرة مقاطعة والانفصال بها. وقد حذَّرني أحد نوابي من إمكانية حدوث انفصال فعلي، وحتى نشوب حرب أهلية. كان سفيرنا في كابول يرى أن إمكانية حدوث الانقلاب قائمة. سألت فريقي عن الآثار المترتبة على قطع جميع المساعدات. وكان الجواب الذي تلقّيته مفزعاً للغاية: الجيش الأفغاني قد يتفكّك، وقد تتوقّف رواتب الشرطة، ويؤدي التناقص الطبيعي في أعدادها إلى تضييع معظم المكاسب التي حقّقناها. كما أن العيادات والمدارس يمكن أن تُغلق تاركةً ملايين الفتيان والفتيات من دون مستقبل. باختصار، سوف تعود البلاد إلى الاضطرابات التي شهدتها في التسعينات عندما اندلعت الحرب الأهلية.

كان علينا أن نسيطر على الوضع قبل أن ينفجر، لأننا كنا نواجه مخاطر خسارة كل شيء بصورة فعلية، ولأن تكاليف تجاهل هذه المشكلة كانت تتزايد يوماً بعد يوم. كنت أعرف أيضاً أن الكونغرس على أشده. فقد أفسد كرزاي العلاقة الثنائية بين البلدين، فضلاً عن تزايد الخسائر الأميركية. وإذا لم نتمكن من إقناع المرشحَيْن المؤهَّلَيْن المواليّين للغرب بتشكيل حكومة، ومنع حدوث حرب أهلية أخرى بعد كل هذه التضحيات بالأرواح والأموال، فمن أجل ماذا كنا نحارب؟ في الواقع، كان العديد من أعضاء الكونغرس على وشك نفض أيديهم من أفغانستان.

كان الوضع ينذر بكارثة، حتى أن البعض كان ينصحني بألّا أزج بنفسي في ذلك. ولطالما حذّرني كثيرون قائلين: «لا تقلل من قيمتك. لا تورط نفسك في أفغانستان. لقد أنقذتها من قبل، لكن الجميع يعرفون أن أوضاعها الآن بمنتهى الفوضى، فلا تقترب منها» .

رأيت أن القلق لا طائل من ورائه. فالولايات المتحدة الأميركية لن تجلس مكبَّلة اليدين في الوقت الذي تكون فيه أفغانستان تشتعل. وفي العالم الدبلوماسي، يمثل دائماً الظهور على الساحة نصف المعركة. وما يزال بإمكاننا تجنُّب نتيجة مريعة. آنذاك، أعتقدت أن زيارتي يمكن أن تفسح المجال أمام الجهود الدبلوماسية، وهو ما يعني، في ذلك الوقت، إعطاء عبد الله فرصة على الأقل كي يتمكّن من تهدئة أتباعه.

أخبرت غني وعبد الله أنني في طريقي إلى كابول، وناشدتهما أن يمنحاني الفرصة من أجل حل المشكلة، وأن بمقدور عبد الله الآن إثناء ناخبيه عن القيام بأي أعمال متهورة بذريعة أنه بحاجة إلى رؤية ما سوف ننجزه خلال زيارتي التي سوف تستغرق اثنتين وسبعين ساعة.

الطريقة التي اتّبعتها تمثّلت في الإنصات والاستكشاف. طلبت من فريقي جمع قائمة بأسماء الشخصيات المؤثرة الرئيسية، وبالمقترحات. كان هدفنا هو معالجة التجاوزات الانتخابية، والمضي قدماً في المسار السياسي. ولا بُدّ، في أي مفاوضات، أن تعرف ما تريده وأن تفهم مضمون الخلافات وفحوى الآراء السياسية. أراد عبد الله أن يعيد احتساب الأصوات في أربع مقاطعات أو خمس، تعد من معاقل البشتون، زاعماً أنه حصل فيها، في انتخابات سابقة، على عدد أصوات يفوق ما حصل عليه في هذه الانتخابات بخمسة أمثال؛ وأن نسبة أصواته إلى نسبة أصوات غني كانت مئة صوت إلى صوت واحد. كان فريق عبد الله يرغب في التخلّص من أصوات تلك المقاطعات تماماً. وكنت أعلم جيداً أن هذا النهج لن يجدي نفعاً؛ ذلك أن مؤيّدي غني كانوا متمسّكين بموقفهم، زاعمين أنهم كانوا يملكون خطة تعبئة رائعة استهدفت جذب ناخبي البشتون الذين كانت سوف تجذبهم طالبان. وقالوا إن الطعن في حقيقة مشاركتهم يهدِّد استقرار البلاد. وفي نظرهم، إنّ أي تشكيك بالنتائج ينبغي أن يكون على أساس متكافىء. لذلك أمضينا الكثير من الوقت في التداول ومناقشة الدور الذي سوف تؤديه الأمم المتحدة، وكيفية ضمان نزاهة العملية.

في الثاني من تموز/يوليو، بدا الوضع قاتماً. وكنت أرى أن ليس أمامنا سوى خيارين: إما إنجاح العملية ومحاولة استرضاء عبد الله، أو دعم ترتيبٍ من ترتيبات تقاسم السلطة.

كنا نقترب من لحظة حرجة في المفاوضات، عندما عاد غني إلى الحديث عن فكرة تشكيل حكومة وحدة وطنية. ولطالما ظننت أنه كان على علم برواج هذه الفكرة بين بعض فصائل التحالف الشمالي. ربما قال غني فقط ما أراد أن يسمعه عبد الله، وربما كان يبحث عن حل وسط معقول بين خيارين متناقضين. في كلتا الحالتين، وفّر لنا اقتراح تقاسم السلطة متنفساً لالتقاط الأنفاس. عملت عن كثب مع مبعوثنا الخاص إلى أفغانستان وباكستان، دان فيلدمان، الذي عرفته وأعجبت به منذ أن كان يعمل في فريق السياسة الخارجية في حملتي الانتخابية عام 2004، وقمنا معاً ببناء استراتيجية المشاركة. كان دان يعمل نائباً للدبلوماسي ريتشارد هولبروك. وأثبت، في الواقع، مدى مثابرته، شأنه شأن معلمه. ظللت أنا ودان على اتصال دائم مع كلا الجانبين، والتقيناهما من دون انقطاع على مدار الاثنتين والسبعين ساعة.

وذلك ما دار عندما حدث الانفراج.

كنا نناقش النقاط الدقيقة في مسألة إعادة الفرز في المقاطعات الأربع أو الخمس المتنازع عليها، عندما نظر إليّ غني مباشرة، وقال: «دعونا

نراجع كل شيء» . وافقت على الفكرة من فوري. كان غني يعرف أنها خطوة ذكية؛ ذلك أنها تزيد من سلطته الأخلاقية من دون الاعتراف بوقوع أي تجاوزات أثناء الانتخابات. لم يكن غني يعتقد أن حملته قد فعلت أي شيء يشجِّع على التزوير؛ غير أنها استفادت بالفعل من أصوات مزوّرة.

لم تكن المراجعة بمثابة الحل السحري. لكنني أدركت أننا بحاجة إلى عملية واضحة ممكنة التنفيذ من شأنها أن تضمن الانتهاء من المراجعة بصورة صحيحة.

تطلب إقناع كلا الجانبين بالمضي قدماً بعض الجهود. وبعد مناقشة فردية طويلة، دعوت المرشحين وفريقيهما إلى مقر إقامة السفير في سفارتنا. التقيت مع كل منهما على حدة؛ لكنني أبلغتهما بالرسالة نفسها.

أخبرتهما أن الولايات المتحدة الأميركية والعشرات من البلدان الأخرى قد استثمرت لأكثر من عقد في أفغانستان. مات الآلاف من جنودنا، وسالت دماؤهم نيابة عنهم. ويجب أن أتمكن، خلال ما تبقى من حياتي، من النظر في عيون أبوَيْ آن سميدنغهوف لأخبرهما أن مَن يديرون أفغانستان يستحقون بالفعل التضحية التي قدّمتها آن. لقد قدمت البلدان التزامات طويلة الأجل من أجل مستقبل أفغانستان. ولكن إذا سُرق هذا المستقبل لعدم قدرة رجُلين يريد كل منهما أن يصبح رئيساً لأفغانستان على حل خلافاتهما، فإنهما سوف يتحمّلان مسؤولية ما سوف يحدث. يجب على الزعماء أن يكونوا زعماء بحق وينحّوا المشاعر الشخصية جانباً. أخبرتهما أيضاً أنهما يعرّضان البلاد لمخاطر حدوث حرب أهلية من شأنها أن تؤدي إلى تفجُّر الأوضاع الداخلية بصورة كاملة.

التفتُّ، بعد ذلك، إلى غني، ووضعت يدي على كتفه، وقلت موجِّهاً حديثي إليه: «أشرف، سوف تكون أنت الرئيس وسوف يساعدك عبد الله في تنفيذ جدول أعمال مشترك. لكن عليك أن تكون على استعداد لمنحه سلطة حقيقية، وإعطائه الفرصة للمشاركة في الحكم؛ لأن ذلك يصب في مصلحة البلاد» .

بعد مرور حوالى خمس وأربعين دقيقة، ذهب المرشحان وفريقاهما إلى الفناء من أجل أداء صلاة المغرب، تحت تلك السماء التي تغشاها الحمرة والشمس في طريقها إلى الغروب. عند عودتهما، أعربا عن موافقتهما على المراجعة، والحاجة إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية. قال لي عبد الله فيما بعد إن ذلك كان بمثابة نقطة تحوُّل. وأخبرني أشرف أن كلا الجانبين كانا على

حافة العودة إلى الحرب الأهلية، وأنهما باتفاقهما هذا قد أنقذا «ملايين الأرواح» التي كان مقدّراً لها أن تزهق، فيما لو نشبت الحرب من جديد.

في المؤتمر الصحفي الذي عقدته في مقر بعثة الأمم المتحدة في كابول، وضعت الخطوات والالتزامات العملية التي سوف تقربنا، إذا ما نُفِّذت، من رؤية أفغانستان بلداً ديمقراطياً ذا سيادة يتمتّع بالاستقرار والوحدة.

بعد المؤتمر الصحفي، قال غني إنه بحاجة إلى بعض الوقت من أجل إحاطة مؤيديه بالأمر قبل أن يوقِّع على الاتفاق. وبعد عودتي إلى واشنطن، لم تكن التقارير التي تلقيتها جيدة. فعملية المراقبة والمراجعة لم تكن لتسير على ما يرام. وظهرت خلافات بين فريقي كلا المرشحين بشأن الطريقة التي سوف يسير بها منصب الرئيس التنفيذي الجديد الذي أُسند إلى عبد الله، وبشأن ما إذا كان الرئيس التنفيذي سوف يرأس مجلس الوزراء من عدمه؛ ومَن منهما سوف يكون مسؤولاً عن تكليف الوزراء.

كنا نعلم أن غني سوف يواجه صعوبة في اجتياز هذه المرحلة الانتقالية من انتخابات يسيطر فيها الفائز على كل شيء، إلى اتفاق يتقاسم فيه الطرفان السلطة. لم يكن حبر الاتفاق قد جف بعدِ ومع ذلك، فإن الاتفاق كان ينازع الموت. حتى عندما كنا نعمل على إعادة المفاوضات السياسية إلى مسارها الصحيح، كان علينا أن نواجه المشكلة تلو الأخرى أثناء عملية تقييم للانتخابات. قمت برحلة أخرى إلى كابول في آب/أغسطس. حدّدنا العديد من القضايا العالقة، وحاولنا إقناع غني وعبد الله بحلها. وفي الثالث من أيلول/سبتمبر، تحدثت مع كلا الرجلين عبر الهاتف. وتمحور حديثي حول أهمية إعداد وصف متفق عليه للمحصلة من شأنه أن يضفي على النتيجة الشرعية ويمنحها للرئيس المنتخب. وتطرّق الحديث أيضاً إلى ضرورة اعتراف البيان بالمشكلات الحقيقية التي وقعت خلال العملية الانتخابية. وقد ركّز غني بصورة كبيرة للغاية في ضرورة تبرير النتيجة، وتبرير مسألة تولّيه الرئاسة. لكنه أقر بأن مراجعةً للانتخابات قد أظهرت بالفعل حدوث تزوير، وهو ما ذكرت أنه يجب أن يكون جزءاً من الرواية التي سوف تصف العملية الانتخابية. وشجّعت غني أثناء حديثي معه على حضور قمة الناتو في كارديف مع عبد الله؛ من أجل تسوية اتفاقهما السياسي.

وتركّزت محادثاتي مع عبد الله بشكل أكبر في الأمور المختلف عليها في مسودة الاتفاق السياسي، وبصورة خاصة وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، مسألة ترأس الرئيس التنفيذي اجتماعات مجلس الوزراء الأسبوعية. وكنت قد أشرت في مناسبات عدة إلى اتساع نطاق الاقتراحات التي قدّمها غني في المسودة بشأن الصلاحيات المفوضة إلى الرئيس التنفيذي. وقلت إن الاتفاق

يجب أن يُنجز، وإن عبد الله لا يمكن أن يتركنا هكذا حتى يجبرنا ويجبر الأمم المتحدة على اتخاذ موقف الدفاع عن المراجعة، من دون اتفاق سياسي أو رواية متفق عليها بشأن الانتخابات.

في السابع عشر من أيلول/سبتمبر، عقد عبد الله مجلس شورى قَبَلي من أجل حشد الدعم لحكومة الوحدة الوطنية. وكان من بين الحاضرين المبعوث الخاص دان فيلدمان، والسفير جيم كننغهام، والمبعوث الخاص للأمم المتحدة يان كوبيس، ونحو سبعين فرداً من عشيرة عبد الله. في الإجمال، دام الاجتماع مدة ست ساعات حتى حوالى الساعة الثانية صباحاً بتوقيت كابول. بدأ اجتماع مجلس الشورى بداية لا تبشِّر بالخير؛ إذ تطرّقت إلى الكثيرين الشكوك بشأن الجدوى التي تعود عليهم جراء ذلك الاتفاق الذي توصّل إليه عبد الله. مد فريق عبد الله يده إليَّ وطلب مني التحدث مع هذه الجموع عبر مكبِّر الصوت. لذلك ها أنا ذا، في النصف الآخر من العالم، أحاول إقناع مجموعة من شيوخ القبائل بأن مصالحهم تكمن في الموافقة على حكومة وحدة وطنية وليس رفضها. تحدّثت معهم عن تعريف «الدولة» باعتبارها أمة ذات هدف مشترك، وليس مؤسسة طائفية أو منظومة قائمة على الغنائم. أخبرتهم أن عبد الله مثّلهم بصورة رائعة، وطالب بصورة مقنعة بتقاسم السلطة. ذكّرتهم بأن أي انتخابات تحدث فيها على الدوام اختلافات وتحديات. ولكن يجب المضي قدماً وعدم الوقوف عند ذلك. قلت إن «التسوية» هي كلمة السر، وإن الولايات المتحدة لا تزال داعمة؛ غير أن كلا الطرفين يخاطران بفقدان هذا الدعم.

وختمت حديثي قائلاً: «إذا أخفقتم في التوصل إلى اتفاق، فسوف يتساءل الكثيرون عن سبب استحقاق أفغانستان لكل هذا التمويل الدولي وسواه من أشكال الدعم. لا يمكن أن نرغب، نحن الغرباء، في تحقيق الاستقرار السياسي في أفغانستان أكثر مما ترغبون، ولا يمكن أن نسعى إلى خلق فرصة لمستقبل أفضل أكثر مما تسعون. قد لا تتضمن مسوّدة الاتفاق كل ما تريدونه؛ ولا يمكن لأي اتفاق في ظروف كهذه أن يتضمن ذلك. لكنها اتفاقية جيدة، بل دعونا نقُلْ إنها اتفاقية عادلة، وسوف تمنح هذ الفريق سلطة ونفوذاً حقيقيين في الحكومة المقبلة» .

انقلب الوضع. أيدت الأغلبية عبد الله؛ وعدنا إلى المسار الصحيح. وفي وقت لاحق من ذلك الأسبوع، تحدّثت إلى عبد الله مرة أخرى عبر الهاتف. وشكرني على مداخلتي، وقال إن المفاوضات ما كانت لتصل إلى هذه المرحلة من دون تدخل الولايات المتحدة الأميركية. وقال إنها كانت عملية مرهقة. وأخبرني أنه لم ير بديلاً من حكومة الوحدة الوطنية. كان على كلا

الطرفين الارتقاء إلى مستوى المسؤولية. وقبل أن ننتهي من المكالمة، قال عبد الله ببساطة: «الوقت الذي قضيناه في المفاوضات مع غني هو وقت قضيناه في الاستثمار في حكومة الوحدة الوطنية» . آنذاك، رأيت أننا كنا على الطريق الصحيح.

في الثامن عشر من أيلول/سبتمبر، أمضى فريقي ساعات من المحادثات من أجل تقريب وجهات النظر، لأن كلا المرشحين لم يرغبا في أن يكونا في الغرفة نفسها حتى يجري التوصل إلى اتفاق نهائي بشأن الصياغة. كان عملاً شاقاً، لكننا أحرزنا في النهاية تقدماً. أثناء المناقشات، كان علينا في الواقع أن نبتكر كلمة درية جديدة تعني «منصف» ؛ لعدم وجود كلمة تكافئها في تلك اللغة. الآن، أتعلمون ما هو سر نجاح الدبلوماسية في عالم محفوف بالمخاطر؟ أن تتحدث بهدوء وأنت تحمل قاموساً للغة الدرية.

في الحادي والعشرين من أيلول/سبتمبر، وقّع غني وعبد الله اتفاقاً رسمياً يقضي بتشكيل حكومة وحدة وطنية. كانت هذه اللحظة من اللحظات المبهجة. اليوم، من السهولة الاستخفاف بمدى الشجاعة والقيادة اللتين تطلبهما ذلك الاتفاق، واللتين أظهرهما هذان الرجلان. نعم، كانت هناك الكثير من اللحظات الصعبة التي بدا المستقبل السياسي الأفغاني فيها على وشك الانحدار إلى اتجاهات خطيرة. لكن في النهاية، انتصرت الحنكة السياسية والحلول الوسطية.

لا تزال تنتظرنا قرارات صعبة. فأفغانستان تواجه اليوم تحديات اقتصادية وأمنية هائلة، ولكن لديها فرصة بأن تُعرف كدولة ليست ميداناً لحرب لا تنتهي. لقد كان الأمر يستحق الجهود الدبلوماسية التي بُذلت للوصول إلى هذه النتيجة. وأشعر بالتفاؤل بشأن أفغانستان، لأنني أعرف أن هناك جيلاً قادماً لا يريد أن يعود إلى الإرهاب وإلى المآسي التي كابدها آباؤهم وأجدادهم. في إحدى المرات، سلّمني موظفو مكتبي رسالة من فتاة أفغانية شابة حصلت على منحة من وزارة الخارجية للدراسة في الجامعة الأميركية في أفغانستان لفت انتباهي فيها سطر واحد. تحدثت هذه الشابة في الرسالة عن أهمية التعليم والنماذج التي يحتذى بها من السيدات، وكيف أن هدفها لا يتمثل فقط في مساعدة نفسها بل في الارتقاء بعشيرتها ومجتمعها وبلدها. قالت هذه الشابة بكل بساطة: «أريد أن أصبح واحدة من هؤلاء» . لك أن تفكر في ذلك. تشعر هذه الفتاة بأنها تمتلك زمام المستقبل الذي تصنعه في أفغانستان. وهذا أمر لم يكن ممكناً أن تقوله أخواتها أو والدتها قبل عقد من الزمن. لكن الفتيات في جميع أنحاء أفغانستان يقولون ذلك اليوم. هؤلاء الفتيات اللواتي يمكن أن ينشأن ليصبحن آن سميدينغهوف الأفغانية. هذا سبب يدعو إلى

التفاؤل بشأن قدرة أفغانستان على كسر دائرة الفوضى والمأساة التي ألصقت باسمها لعقود من الزمان. لقد أعطينا الأفغان فرصة لتحقيق النجاح بمفردهم وليس مجرد ضمان لذلك، وهذا سبب كافٍ ليجعلنا سعداء بقدرتنا على تحقيقه.

تحدّث سكوت غيلبرت بصراحة متناهية بلا مواربة: كان ذلك في حزيران/يونيو 2014، وبينما كان آلان غروس يقضي عامه الخامس عالقاً في إحدى زنزانات سجن هافانا، كانت أمه إيفلين، البالغة من العمر اثنين وتسعين عاماً، تكابد الموت بسبب إصابتها بالسرطان على بعد 1100 ميل في بلانو بتكساس. ولم يكن سكوت يظن أن بإمكان آلان الصمود لفترة أطول.

سُجن آلان غروس نتيجة تهم ملفّقة، واحتجز ليكون بمثابة ورقة مساومة يستخدمها النظام الكوبي، الذي كان مصمِّماً على إطلاق سراح ما يطلق عليهم سجناء ميامي الخمسة، وهم خمسة جواسيس كوبيين معتقلين في الولايات المتحدة الأميركية. باتت حالة آلان متدهورة في السجن بعيداً عن فلذة كبده جودي.

لكن سكوت شعر بالقلق آنذاك: إذا لم يتمكن آلان من توديع والدته، فهل سيكون بمقدوره الصمود وهو لا يرى نهاية لما هو فيه؟

لم يكن سكوت محامياً عادياً من محامي واشنطن؛ إذ ترك العمل في إحدى شركات المحاماة المرموقة لكي يفتح شركته الخاصة. لم يكن سكوت يرتدي بذلات، لكنه كان يضع قرطاً مرصّعاً بالألماس، ويركب دراجة نارية من نوع هارلي ديفيدسون، ويعشق النبيذ الجيد. كان يهتم لأمر موكليه على أساس إنساني. لم يكن يبتغي من وراء ذلك شهرة أو مالاً. وفوق كل ذلك، كان مناصراً حقيقياً للإفراج عن آلان غروس، لا يخشى الحواجز. والآن بات يشعر بالقلق من أن يتمكن اليأس من موكله.

لم يكن بمقدوري إخبار سكوت أن الرئيس أوباما قد كوَّن بالفعل قناة تواصل سرية من أجل محاولة إيجاد سبيل جديد للمضي قدماً مع كوبا، أو انتهاز فرصة لكسر الجمود واستكشاف مسار يفضي إلى تكوين علاقة بنّاءة بصورة أكبر، تشبه تلك العلاقة التي أقامتها الولايات المتحدة الأميركية مع سواها من الأعداء منذ فترة طويلة. هذه القناة كانت تتقدم ببطء وبحذر. وقد أخبرني الرئيس، في أول اجتماع لي معه بصفتي كوزير للخارجية سنة 2013، أنه عهد إلى مساعده المقرّب بن رودس بهذه المهمة الدقيقة، وكنت سعيداً لسماع ذلك. لكن كان يجب أن تظل هذه القناة سرية تماماً، كما هو واقع قناتنا

مع إيران عبر سلطنة عُمان، إذ يجب أن تظل كذلك؛ وإلا فإنّ أولئك الذين يقفون في وجه أي تغيير قد يطرأ سوف يحاولون نسف الحوار برمته.

كان من السهولة للغاية في واشنطن أن تُفشى الأسرار عن غير قصد، يفشيها حتى أصحاب النيّات الحسنة. تعلمت هذا الدرس بطريقة قاسية على مر السنين. أعرف بالضبط كيف يحدث ذلك: تستحلف شخصًا أن يُبقي الأمر سراً، وتخبره أنه هو الشخص الوحيد الذي يعرفه، وتثق به؛ وسرعان ما يفعل ذلك مع شخص آخر. وقبل أن تعلم بذلك، يكون العشرات من الأشخاص قد فعلوا الشيء نفسه. وجود للأسرار في واشنطن إذن. لذلك إذا لم تكن ترغب في تسريب أي معلومة، فلا تخبر بها أحداً أكثر من أولئك الذين يجب أن يعرفوها. وعندما تجرِّب هذه القاعدة، فسوف تجد عادة أن عدد من يجب أن يعرفوا شيئاً ما، هو عدد قليل للغاية في الواقع! وفي هذه الحالة، كانت المخاطر عالية، شأنها شأن الرهانات تقريباً، وكذلك كان مستوى السرية.

كانت كوبا بمثابة الإسفين الثالث للسياسة الخارجية الأميركية طوال عقود؛ هكذا كانت بكل حماقة، وكان الجميع تقريباً يعرفون ذلك. على بعد تسعين ميلاً من أميركا، تجاوزت ولاية نظام كاسترو ولاية الرؤساء الأميركيين واحداً بعد الآخر. كان كل منهم يتعهد بتضييق الخناق على ذلك النظام بصورة أكبر بعض الشيء، من أجل تحقيق الحرية والديمقراطية في ذلك المكان الذي، ما أزال أذكر، أن الرئيس كينيدي كان يطلق عليه لقب «الجزيرة المسجونة» . ولم يفلح قط أيّ من أولئك الرؤساء. كل ما نجحوا فيه هو انتقاد عائلة كاسترو بعبارات بلاغية ملائمة في الولايات المتحدة، من أجل صرف الانتباه عن حقيقة إخفاق تجربتهم في بلد تسيطر فيه الدولة على الاقتصاد شأنها في ذلك شأن الاتحاد السوفيتي. ولكن إذا كانت الثورة قد جمّدت الشعب الكوبي في الوقت المناسب، فإن رد فعلنا تجاهها جمّد حريتنا في العمل على نصف كرتنا الأرضية: فبين بلدان أميركا اللاتينية، كان هناك دائماً شعور بأن سياسة الولايات المتحدة تجاه كوبا جعلت من الصعب على بلدان أميركا اللاتينية أن تعمل معنا، خصوصاً أن تلك البلدان كانت تكنّ إعجاباً شديداً لهذه الجزيرة الصغيرة التي استطاعت أن تتصدّى للولايات المتحدة الأميركية.

لم أكن قط من المعجبين بالأخوين كاسترو. لم أتقبل يوماً المثالية التي ربطها البعض بهما أو الثورة التي قاما بها. كان فيدل حاكماً وحشياً، رغم أنني أُقر بفضل شقيقه راؤول في إجراء بعض الإصلاحات المتعلقة بالسوق، ولو كانت لا لشيء، إلا للحفاظ على تجربته الشيوعية. لم تساورني في الواقع أي أوهام بشأن هذه العائلة.

رأيت كوبا بالطريقة نفسها التي رأيت بها فييتنام تقريباً قبل عشرين عاماً: ورطة إيديولوجية لم تخدم أي غرض حقيقي. وقد كانت الفرصة التي يمكن أن تؤدي إلى وضع حد لهذه المسألة الحيوية للأبد، والمتمثلة في محاولة بدء فصل جديد تماماً كما فعل الرؤساء مع فييتنام بمساعدتي ومساعدة جون ماكين، فرصة واعدة ومتأخرة.

ولكن، كما لم يكن بمقدورنا المضي قدماً في قضية فييتنام من دون بحث مسألة الأسرى والمفقودين أولاً وإغلاقها، لم يكن كذلك ثمة حل للقضية الكوبية من دون إعادة آلان غروس إلى وطنه حراً آمناً. أحياناً، كان يأتي أعضاء الكونغرس، الذين كنت متعاطفاً معهم بشأن سياسة كوبا، لزيارتي بصفتي وزيراً للخارجية ويسألون عن سبب عدم تغيير إدارة أوباما، ولو من جانب واحد، سياستها مع كوبا وتطبيع العلاقات كنوع من أنواع إبداء حسن النية؛ كنت عندها أذكرهم بالدروس التي تعلّمناها من القضية الفييتنامية. «فكّروا فقط يا رفاق، إننا لم نتمكن من تطبيع العلاقات مع فييتنام إلا بعد أن قمنا بأكثر عملية بحث موسعة عن أسرى الحرب في تاريخ الحروب، رغم أن الحكومة كانت تعتقد من اليوم الأول أن لا وجود لأيّ منهم على قيد الحياة. فهل تعتقدون أن الحكومة الآن سوف تغيّر سياستها عند التعامل مع القضية الكوبية، وهي تعرف أن ألان غروس لا يزال ينبض بالحياة ولن يعيدوه؟» .

هذه هي النقطة التي علقنا عندها في صيف العام 2014، عندما كنت أفكِّر في قدرتنا على فعل شيء لمساعدة آلان غروس، في هذه اللحظات المظلمة من حياته التي يشعر فيها بالوحدة.

رتّبت مكالمة هاتفية سرية مع وزير الخارجية الكوبي، برونو رودريغيز. وقد كان في البرازيل آنذاك، وكنت أنا أيضاً خارج البلاد؛ لكننا تواصلنا عبر الهاتف، ووجهت إليه نداءً إنسانياً آخر لإطلاق سراح آلان، بالنظر إلى التدهور السريع الذي تشهده حالة والدته الصحية ومصدر أمله الوحيد الذي بات قاب قوسين أو أدنى من الضياع. عمل برونو في السابق سفيراً لكوبا لدى الأمم المتحدة طوال سنوات. لذلك لم أكن غريباً عليه. تذكّر برونو زيارتي للبعثة الكوبية في الأمم المتحدة، عندما كنت سيناتوراً من أجل الدعوة إلى إطلاق سراح آلان غروس بعد فترة وجيزة من اعتقاله. وتذكَّر أيضاً مدى دفاعي عن قضية إعادة العلاقات بين بلدينا على مر السنين. أخبرته بصورة واضحة أن آلان غروس، إذا فقد الأمل ومات في السجن، فإن العلاقة بين بلدينا لن تتقدّم قيد أنملة؛ وأضفتُ قائلاً: بالنظر إلى الحساسية الشديدة للمسألة، فإن المناشدة بالإفراج عن آلان ليرى والدته قبل أن تموت من شأنها أن تُحدث فارقاً ضخماً. لم أكن أعرف إن كان برونو على علم بقناة التواصل السرية أم

لا، ولم أكن أجرؤ على ذكر ذلك. لكن رسالتي كانت واضحة: لا تدعوا هذا الرجل يموت.

في اليوم التالي، هاتفني برونو ليخبرني أنه لا يستطيع حل موقف آلان في غضون فترة وجيزة. وبعد أربع وعشرين ساعة، فارقت والدة آلان الحياة. وقد ضاق صدري عند سماعي ذلك الخبر.

كتبت رسالة وجيزة إلى آلان بخط اليد، ورتّبت مع رئيس قسم المصالح الأميركية في هافانا، وهو دبلوماسي محنّك يدعى جيف ديلورنتيس، لتسليمها إليه في زنزانته مغلقة من دون أن يفتحها. لم يكن هناك الكثير من الكلمات التي يمكن كتابتها في لحظة كهذه. طلبت منه فقط أن يتماسك، وأن يعرف أن ثمة جهوداً تُبذل من أجل إطلاق سراحه، وأن يثق بأننا سوف نصل إلى هناك في الوقت المناسب لإعادته إلى أرض الوطن، مع جودي، حتى وإن كان قد فات الأوان على إعادته إلى أمه.

ودعوت الله ألا يتأخر ذلك اليوم.

وبعد ستة أشهر، أي قبل ثمانية أيام من عيد الميلاد، كنت في طريق عودتي من روما إلى الولايات المتحدة الأميركية، عندما أُعلمتُ بأن آلان غروس سوف يخرج قريباً من السجن، ويعود حراً طليقاً إلى وطنه.

اتصلت، وأنا على متن الطائرة، بوزراء خارجية البلدان المجاورة، وكذلك بالأطراف الفاعلة الرئيسية في أوروبا، من أجل إعلامهم بالأنباء قبل أن تُعلن رسمياً. أردت إعلامهم بأن الرئيس لن يعلن فقط عن إطلاق سراح آلان وعودة أحد العناصر الفعليين الوازنين في الاستخبارات الأميركية، في مقابل الكوبيين المدانين في الولايات المتحدة الأميركية، بل سوف يعلن كذلك عن تطبيع العلاقات مع كوبا وبداية سياسة جديدة. قهقه وزير الخارجية الألماني وكان كل ما قاله هو: «لمَ تأخرت كل هذا الوقت؟» . أما حليفنا المقرَّب في كولومبيا فكان منتشياً. ذلك أن المفاوضات مع القوات المسلحة الثورية الكولومبية بشأن عملية السلام باتت في لحظة حرجة. وكانت كوبا طرفاً محورياً في تلك العملية، والآن قد تلقى مشاركتنا بترحيب أكبر. إن مجرد الإحساس بأننا استعدنا حريتنا في العمل على نصف كرتنا الأرضية كان نصراً بحد ذاته.

لكن لا شيء يضاهي ذلك الإحساس الذي غمرني بالرضا، عندما هبطت طائرتنا في قاعدة أندروز الجوية، وأنا أنظر إلى الطائرة، وهي تقترب من المدرج حاملة آلان غروس إلى أرض الوطن بعد كل هذه السنوات. الآن

بإمكان غروس الاحتفال بعيد الأنوار مع جودي وطفليهما. ترجّلت داخل ساحة الانتظار؛ وإذا بآلان أمامي. تعانقنا، ثم قلت له: «مرحباً بك في وطنك» ؛ ولم أشعر قط بفخر كهذا وأنا أحتفي بشخص من قبل، كشعوري باحتفائي به. لاحظت شعوره بالسلام، وعدم إحساسه بالغل، وعدم غضبه بشأن تلك السنوات التي كابد خلالها الإهانات، وتلك التي ضاعت من عمره. كان حدثاً رائعاً أن أكون إلى جانبه لحظة خروجه من الطائرة.

لطالما كان هناك شيء يثير دهشتي حول أولئك الذين يمرّون بمعاناة من هذا القبيل، ويخرجون بعد انقضائها، بذلك النوع من السكون النفسي حول الحياة. لقد رأيت ذلك في نيلسون مانديلا وقدرته المذهلة على العفو عن آسريه. رأيت ذلك في شانانا غوسماو، ذلك السجين السياسي التيموري، وواحد من مقاتلي المقاومة الذين سجنتهم إندونيسيا خلال فترة احتلال تيمور الشرقية، رأيت ذلك عن كثب بالطبع في جون ماكين: رغم الشدة والألم اللذين كابدهما بسبب حرمانه ظلماً من الحرية طوال هذه الفترة. خرج كل واحد منهم بهدف أسمى وتصميم أكبر على التخلص من غضبه.

كان آلان غروس كذلك. لقد شهدنا معًا إحدى تلك اللحظات السريالية التي لا يمكن أن تحدث إلا في أميركا فقط: شاهدنا، ونحن نجلس على أحد مقاعد المطار البالية، تلك اللحظات على شاشة تلفزيونية كبيرة بعد أن قطعت المحطات التلفزيونية جدول برامجها المعتاد، كي يعلن الرئيس أوباما للأميركيين عن السياسة الجديدة في الوقت الذي كان فيه الرئيس راؤول كاسترو يعلن الأمر نفسه في كوبا. رأيت الكثير من الأميركيين المحتجزين في بلدان أخرى يقتلون. لكن 17 كانون الأول/ديسمبر 2014 كان يوماً رائعاً لآلان غروس، ولكل أميركا.

وبعد مرور ثمانية أشهر، ذهبت إلى هافانا لأرفع العلم فوق سفارتنا هناك، وهي المرة الأولى التي ترف فيها النجوم والأشرطة في ذلك المكان منذ العام 1961. انضمّ إليَّ أثناء مراسم رفع العلم ثلاثة رجال، وهم: لاري موريس، وفرانسيس «مايك» إيست، وجيم تريسي الذين كانوا من قوات المارينز التي خدمت في سفارتنا بهافانا، عندما أغلقناها في كانون الثاني/يناير 1961. أنزل هؤلاء الجنود الثلاثة المجد القديم لكنهم تعهدوا أيضاً تعهداً جريئاً بأن يعودوا في يوم من الأيام إلى هافانا ويرفعوه مرة أخرى. وهاهم عادوا وفعلوا. لقد ذهبنا بلاري ومايك وجيم إلى هافانا لحضور إعادة افتتاح السفارة. وكان وجودهم يمثل تذكيراً قوياً بتلك المسافة التي قطعناها. دعوت هؤلاء الجنود الثلاثة للوفاء بعهدهم من خلال تقديم النجوم والأشرطة إلى ملحقنا

العسكري الحالي. اكتملت بذلك الدائرة التي ما كان لهم أن يتخّيلوها عندما كان هؤلاء الجنود آخر ثلاثة غادروا أرض هذه الجزيرة.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، التقيت مرة أخرى وزير الخارجية الكوبي برونو رودريغيز. وتذكّرنا محادثاتنا حول آلان غروس في الصيف السابق، وتحدّثنا عن مدى التغيير الذي حدث في غضون عام واحد. كان برونو منضبطاً للغاية، ومخلصاً للمتشددين الكوبيين. بذلْتُ الكثير من الوقت عبر الهاتف مع برونو بين كانون الأول/ديسمبر 2014 وخلال رحلتي الأولى إلى هافانا بصفتي كوزير للخارجية في آب/أغسطس 2015. وخلال تلك الأشهر الثمانية، أجرينا مفاوضات شاقة حول الكيفية التي سوف تعمل بها السفارة، وحرية حركة دبلوماسيينا ونوع الحماية التي سوف تُوفَّر لهم، وغير ذلك من التفاصيل. من الواضح أن برونو لم يكن مستعداً لتجاوز البيروقراطية بشأن هذه القضايا. كان رجلاً من رجال النظام، ولا بدّ أنه نقل كل ما دار بيننا إلى زملائه الذين كانوا أقل حذراً. وذلك يذكّرنا بالمغزى من وراء ضرورة عمل قنوات التواصل السرية على مستوى رؤساء السلطات التنفيذية وليس من خلال البيروقراطية الكوبية المعقَّدة التي لا تصل إلى خط النهاية إلّا متأخّرة.

ومع ذلك، كنت مصمّماً على وضع المساعي الدبلوماسية موضع الاختبار. لذلك قدّمت إلى برونو والحكومة الكوبية خارطة طريق ذات مراحل أربع في محاولة لتطبيق الدروس المستفادة من الجهود السابقة المبذولة لتطبيع العلاقات بين الخصوم في العمل الجاد والشاق الذي نحتاج إليه للتعامل مع الكوبيين. وقد تطرّقت خارطة الطريق إلى مجالات اعتقدت أن التعاون فيها كان ممكناً، مثل تطبيق القانون والكوارث البيئية والطبيعية. تناولت أيضاً قضايا أكثر حساسية، كحقوق الإنسان، والمطالبات المتعلقة بالممتلكات، والمجرمين الهاربين. لم تكن إقامة العلاقات الدبلوماسية تعني أننا اتفقنا فجأة على كل هذه القضايا، بل العكس تماماً. لكنها خلقت قنوات رسمية للتواصل وتحقيق تقدم حتى وإن كان بطيئاً. هذا العمل جعل من الأسهل - وليس الأصعب - على الولايات المتحدة الأميركية تعزيز مصالحها، وحشد دعم لسياساتها في جميع أنحاء المنطقة.

الطريقة التي سوف يجري بها التحوُّل في السياسات الكوبية تختلف عن الطريقة التي جرى بها التحوُّل نفسه في فييتنام. وسوف يتخذ هذا التحوُّل مسارات مختلفة؛ ذلك أننا بدأنا تغيير المسار في فييتنام من خلال رفع الحظر التجاري، الذي سرعان ما أغرق فييتنام بالشركات الأميركية، الأمر الذي أدى في النهاية إلى الضغط على النظام لإقرار المزيد من الانفتاح. ولكن الكونغرس لم يكن على وشك رفع الحظر عن كوبا؛ ذلك أن سياسات

مؤسساتنا كانت تمنع ذلك، وهذا يعني أننا لن نتمكّن من إغراق كوبا بالابتكارات الأميركية والروح الرأسمالية. ولم يكن المتشدِّدون الكوبيون يتعجّلون حدوث تغيير كبير. قد يبدأ هذا التغيير، بحسب شروطهم، مع حكومات ما بعد كاسترو. التغيير سوف يكون أكثر تدرجاً. إلّا أنّ التغيير سوف يحدث. وقد تعلمت شيئاً واحداً خلال عملي كل هذه السنوات في الشؤون الدولية، ما يزال صحيحاً، هو أن جميع أشكال التغيير تصبح أسهل عندما يتمكَّن الدبلوماسيون من التقاط سماعة الهاتف للاتصال بعضهم ببعض، أو الجلوس وجهاً لوجه، والتحدث بصورة علنية بالنيابة عن بلدانهم.

كولومبيا مثال آخر، يثبت أن التغيير ممكن عندما يخاطر الزعماء من أجل تحقيقه. إنه درس يجب أن يُعلّم للدبلوماسيين الطموحين، ويمكن أن يُدرّس في الشرق الأوسط عندما يقول الزعماء إن التغيير هناك مستحيل، لأنهم يفتقرون إلى شريك للسلام على الجانب المقابل من الطاولة. كما أنه، وقبل كل شيء، يعكس قرار الكولومبيين بما يريدونه لأنفسهم ومستقبلهم. عدّة أشهر كانت قد مرّت على تسلّمي لمنصب وزير الخارجية عندما سافرت إلى بوغوتا في آب/أغسطس 2013. كانت لقاءاتي الرئيس خوان مانويل سانتوس ووزير الخارجية ماريا أنخيلا هولجين لقاءات ودودة وبناءة. كنت منذ مدة طويلة صديقاً لكولومبيا ومدافعاً عن العلاقات التجارية الثنائية بينها وبين الولايات المتحدة. بل أكثر من ذلك، كنت مشاركاً قديماً في كفاح كولومبيا خلال الأيام الماضية السيئة، عندما كانت البلاد على حافة أن تصبح دولة مخدرات. ففي أواخر تسعينات القرن الماضي، وكعضو في لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ، انضممت إلى جو بايدن وكريس دود كي نعمل مع إدارة كلينتون للمساعدة على وضع ما عُرِف فيما بعد بـ «خطة كولومبيا» . لا أزال أتذكر رد فعلي أحد الأيام في مجلس الشيوخ، عند سماعي خبر أن أغلب قضاة المحكمة الدستورية العليا، إن لم يكن كامل هيئتها، قد اغتيلوا. لو أن سقوط النظم الديمقراطية كان يجري بهذه الطريقة، لكان ذلك مؤشِّراً خطراً على مستقبل الديمقراطية في نصف الكرة الشمالي. كانت حركة التمرد المشتعلة هناك واحدة من أطول الحركات التي اشتعلت في العالم. وأدت اتحادات منتجي المخدرات والفساد والطلب المتزايد على الكوكايين في الولايات المتحدة إلى جعل الأمر، ليس فقط تحدّياً للسياسة الخارجية، بل تحدٍّ محلي من الدرجة الأولى. لكن «خطة كولومبيا» نقلت المعركة إلى ميدان منتجي المخدرات. وبمرور الوقت، أبعدت كولومبيا عن حافة هاوية النسيان.

لكن سنة 2013، كان متمردو «فارك» لا يزالون في أجزاء من كولومبيا. تعهدت أنا بدعم أميركي لعملية التوصل إلى سلام معهم، وأخبرني سانتوس

بشكل خاص الأمر الآتي: أنه مراعاة لسياسة بلاده في ذلك الوقت، لم يحن حتى الآن وقت أن تؤدّي الولايات المتحدة هذا الدور. لكنه قال إنه سوف يعود إلي في المستقبل.

قبل أن أغادر كولومبيا ذلك اليوم، نظّمت سفارتنا مباراة مفتوحة في الكرة الطائرة مع الكولومبيين. وقد ظلّت هذه المباراة حية في ذاكرتي مدّة طويلة جداً. كانت مباراة للكرة الطائرة؛ لكن، وللأسف، على الكراسي المتحرّكة؛ وقد اشترك فيها بعض أقوى الرجال الذين التقيتهم. كان معظمهم ممن بُترت أطرافهم نتيجة للشراك الخداعية التي نصبتها لهم «فارك» ؛ وآخرون أصيبوا بطلقات نارية أدت إلى إصابة النصف السفلي من أجسادهم بالشلل. كانوا قدماء المحاربين الذي خاضوا حروب كولومبيا الوحشية لمكافحة المخدرات، وكانوا في مهمة، ليس فقط للشفاء من جروحهم، بل لشفاء بلدهم أيضاً. لقد أعطوني قميصاً أصفر اللون يحمل الرقم واحد لأرتديه، فارتديته بسرعة ولعبنا بضع جولات. لكنهم في ذلك اليوم، لقّنوني درساً أو درسين في القوة والتصميم، ليس في الملعب فقط، بل في الحياة أيضاً. فكل فرد منهم كان يواصل حياته من دون النظر إلى الوراء. أرادوا العيش بإحساس أن هناك هدفاً ودافعاً لحياتهم، وأرادوا السلام. كانت تذكِرة قوية للمخاطر التي شابت بحث كولومبيا عن السلام على مدى عقود. لكنها كانت أيضاً تذكِرة لكيفيّة تمكُّن الناس الأكثر معاناة من أن يبينوا، وبشكل جليّ، أن التقارب بين الشعوب هو واحد من أهم أسباب الشفاء من آلام الماضي.

في كانون الأول/ديسمبر 2014، عدت ثانية إلى بوغوتا، واجتمعت بالرئيس سانتوس مرة أخرى. كانت أربع محاولات سابقة للتفاوض على السلام مع «فارك» قد أخفقت؛ الأمر الذي جعله قلقاً من أن تتوقف العملية كلها ثانية، وأن تظل بعض القضايا الكبيرة المتعلقة بالأمن والعدالة والمشاركة السياسية عالقة بلا حل. لذلك أشار إلى أن الوقت مناسب لتفعِّل الولايات المتحدة مشاركتها في عملية السلام، فسألته إن كان يرحب بمبعوث خاص من جانبنا لمساعدته. كان ذلك فكرة ناقشتها في محادثاتي مع مساعد وزير الخارجية لشؤون نصف الكرة الغربي، روبيرتا جيكوبسون، ومستشار وزارة الخارجية الأميركية، توم شانون، والذي شغل لسنوات من قبل منصب روبيرتا. لكن هذا الإجراء كان ليفيد فقط إذا أراد سانتوس اتخاذه. قال هو إنه يميل بشكل إيجابي إلى الفكرة؛ لكنه بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير في الأمر. ظننتني أعرف لماذا لم يرحب بالفرصة: لقد كان يوم 12 كانون الأول/ديسمبر، يسبق بخمسة أيام اليوم الذي سيعلن فيه للعالم أننا سنبدأ صفحة جديدة مع كوبا. لم يكن سانتوس على علم بذلك. كل ما كان يعرفه هو أن كوبا جاءت بـ«فارك» إلى طاولة التفاوض، ولا شك في أنه تساءل إن كانت كوبا ترفض

هيمنة الولايات المتحدة، خصمها اللدود، فجأة على هذه العملية. لكن، بعد خمسة أيام، لم يكن هذا الأمر يشكّل أي عقبة.

عندما عدت إلى واشنطن قبل عيد الميلاد المجيد، وبعد أن هدأ قليلاً الهرج والمرج الخاص بكوبا، وجّه الرئيس سانتوس رسالة رسمية يرحب فيها بوجود مبعوث أميركي. كان بيرني أرونسون، على الرغم من انتمائه إلى الحزب الديمقراطي، قد شغل منصب مساعد وزير خارجية الرئيس جورج إتش. دبليو. بوش لشؤون نصف الكرة الغربي، وكان يحظى باحترام كلا الحزبين، وباحترام المنطقة. كذلك كان لديه الوقت ليسهم مرة أخرى في الخدمة العامة. شعر بعض العاملين في البيت الأبيض بالقلق. فهل يعني وجود كوبا وإيران والعديد من القضايا الأخرى في العالم، أن الولايات المتحدة ستحمل على عاتقها أزمة أخرى؟ لكنني قلت لمَ لا ننتهز الفرصة التي جاء بها انفتاحنا على كوبا، ونستغلها في منطقتنا؟ ووافق الرئيس على المحاولة.

لم تكن المفاوضات سهلة، لكن بيرني تولّاها بصبر ويقظة. كنّا نتفهم قلق الرئيس سانتوس على إمكانية توصُّلِنا إلى اتفاق مع «فارك» في ظل معارضة شديدة لذلك في الوطن. مئتا ألف كولومبي، في بلد تعداده ثمانية وأربعون مليون نسمة، قتلوا خلال النزاع، أي إن لم تكن قد فقدتَ أحد أفراد عائلتك بسبب أعمال العنف، فأنت لا بد تعرف عائلة فقدت أحد أفرادها. لذلك لم يكن تحقيق السلام إنجازاً سهلاً.

استمر الرئيس سانتوس في مسعاه، وتابع التنسيق عن قرب مع بيرني وفريقنا في وزارة الخارجية. وعد سانتوس ألا يطلب مني التدخل ما لم يكن لديه خيار آخر؛ وبالمثل، وعدته إن طلب مني ذلك، فسوف أبذل أقصى ما بوسعي لألبّي طلبه. وجاء الطلب في آذار/مارس 2016. كنت في طريقي إلى هافانا أرافق الرئيس أوباما في رحلته التاريخية إلى كوبا، لكنني تسلّلتُ بشكل هادئ من الوفد الرئاسي، لأن الرئيس سانتوس طلب مني الاجتماع بمفاوضي «فارك» . كان ذلك أول اجتماع يجري بين وزير خارجية أميركي و«فارك» . وكنت أنوي وضع الثقل الكامل للدبلوماسية الأميركية وراء الدفع لتحقيق تسوية. لعقود، عدَّت الولايات المتحدة «فارك» منظمة إرهابية، فقد اختطفت عدة مقاولين أميركيين واحتجزتهم في ظروف وحشية. من جهتها، عدت «فارك» الولايات المتحدة عدواً قدم معدات وتجهيزات عسكرية وتدريباً ومعلومات استخباراتية لدعم أنشطة مكافحة التمرد التي تقوم بها الحكومة الكولومبية ضد «فارك» . كان من الواضح أن هناك الكثير من سوء الظن لدى الجانبين. لم يكن التابعون لفارك رجالاً طيبين. لقد صوّتُ لتوفير التمويل في ظل إدارات متعددة ساعدت على تدمير قيادتهم، وقضت على حقول الكوكا

التي كانت تأتي بالأموال لتمويل تمردهم القائم على الكوكايين. بدا في وقت ما أن من غير المحتمل أن نجلس أبداً إلى الطاولة نفسها.

كانت مهمتي في ذلك اليوم أن أقنع «فارك» بأن هناك حياة بعد الثورة والعنف المسلح. لكن قبل أن أتمكّن من ذلك، كان عليّ أنا وبيرني، حرفياً، أن نعيد ترتيب المقاعد. فعندما دخلنا الغرفة، لاحظنا أنها كانت رسمية جداً، فالكراسي كبيرة ويواجه بعضها بعضاً على جانبي طاولة طويلة. كان الإعداد خاطئاً جداً؛ وربما كان هدفه الحفاظ على الشعور بالتباعد بين الطرفين. إنه عائق آخر في محادثات معقدة بالفعل. فبدأنا بتحريك المقاعد. عندما وصل مفاوضو «فارك» ، كان بإمكاني أن أرى كم أنهم عصبيون. بداية، قرأوا هم بياناً أعدوه سلفاً. وبعد ذلك أدليت بموقفنا: إن وضعوا أسلحتهم جانباً وامتثلوا لاتفاق السلام، فإن الولايات المتحدة ستنظر إليهم على أنهم عنصر فاعل شرعي، وسوف يكون هناك سبيل لدخولهم معترك السياسة. حدثتهم أيضاً عن شين فين وأيرلندا الشمالية. بعث الاجتماع بعض الثقة في العملية في لحظة حرجة. لقد أخبروني أنهم قلقون جداً بشأن الأمن، وتحدثوا كيف أنهم في ثمانينات القرن الماضي وضعوا أسلحتهم جانباً، وانضموا إلى الحزب السياسي، الاتحاد الوطني، وتعرّضوا لهجمات منظّمة شنّتها من قبل مجموعات شبه عسكرية. أتذكر أن أحدهم التفت إلي في نهاية الاجتماع وقال: «إن الأمن ليس حارساً شخصياً أو سيارة مدرعة؛ إن ما نريده هو ضمان التزام الجماعات شبه العسكرية» .

كما هي حال مفاوضات السلام في الشرق الأوسط، كنت أعرف أن الأمن عامل مركزي في هذا المجهود. اقترح بيرني أن يعيّن سانتوس لجنة فرعية خاصة لمعاينة هذا الأمر من كل زاوية. في لحظة ما، كان هناك خلاف كبير على اسم اللجنة الفرعية؛ فقد أرادت «فارك» تسميتها «اللجنة الفرعية الخاصة بأشباه العسكريين» ؛ بينما أرادت الحكومة الكولومبية أن تركّز في «العنف ما بعد فض النزاع» . كالمعتاد، ساعد بيرني على تهدئة الوضع ببصيرة ذكية من التاريخ. فقد أخبر زعماء «فارك» كيف أن الرئيس كينيدي تلقّى برقيتين من الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف أثناء أزمة الصواريخ الكوبية: إحداهما عدوانية والأخرى تصالحية، وكيف أن الرئيس كينيدي اختار أن يرد على الأخيرة، وهكذا أصبح العالم أكثر أماناً. وحثّ بيرني «فارك» على التركيز في التطورات الإيجابية، وهي تكوين اللجنة الفرعية وحقيقة أن سانتوس يريد تعيين رئيس شرطة سابق يحظى بالاحترام لترؤُّسها؛ وتجنُّب التشاجر على التفاصيل البسيطة. في النهاية، وافقت «فارك» .

بدأت إذن فترة من المكالمات الهاتفية الدبلوماسية الثابتة بين سانتوس وبيرني. أعلن سانتوس اتفاق السلام في آب/أغسطس، وذهبت أنا إلى قرطاجنة [الهندية] الشهر التالي لحضور مراسم التوقيع. كانت لحظة واعدة. عقدت لقاءات طيبة مع سانتوس وأعضاء «فارك» . شعرنا جميعاً خلالها أنها كانت علامة دبلوماسية رئيسية على الطريق. لكن قبل أن أتمكّن من قياس أهميتها، كان لا بد لي من لقاء الرئيس الفنزويلي نيكولاس مادورو، الذي كان مدعوّاً أيضاً لحضور توقيع اتفاق السلام. وهكذا انتقلنا من اجتماع عمل على إنهاء أطول حرب أهلية شهدتها أميركا اللاتينية، بفضل رئيس وضع مصلحة بلاده أولاً، إلى الغرفة المجاورة للتحدث إلى مادورو زعيم بلد تلوح فيه بوادر حرب أهلية، وحيث تدفع قيادة فاشلة البلاد بالكامل إلى دوامة القتال، ووضع الأمور بالتأكيد في نصابها الحقيقي. كان من المهم لنا أن نبقى منتبهين إلى أن الدبلوماسية تتطلب عناية مستمرة، وأن القيادة لها أهميتها. كذلك فإن العمل الدبلوماسي هو استكشاف وتوقع ما يمكن أن يأتي لاحقاً. دام اللقاء مع مادورو مدة طويلة، وعلقنا خلال مرورنا المفزع في المدينة القديمة في قرطاجنة [الهندية]. تخيّلوا ثلاثين رئيس دولة يغادرون مكاناً في الوقت نفسه. عندما وصلنا أخيراً إلى المطار، اكتشفنا أن طائرتنا كان عليها الانتظار في بارانكيلا، وهي مدينة تبعد حوالى ثمانين ميلاً إلى الشمال الشرقي.

كان أمامنا عائق آخر لنتغلب عليه، وهو استفتاء عام. طبقاً للقانون الكولومبي، لم يكن لزاماً على سانتوس طرح اتفاق السلام للاستفتاء العام، أو عرضه على الكونجرس. لكن مما يُحسب له، أنه أراد إجراء استفتاء عام للحصول على دعم شعبي للسلام. وفي 2 تشرين الأول/أكتوبر، وبفارق ضئيل، صوّت الكولومبيون ضد اتفاق السلام، الأمر الذي دفعنا إلى الدخول في جولة أخرى من الرحلات الدبلوماسية المكوكية المركزة، في محاولة لإنقاذ الجهد الذي بُذل. كنت على الهاتف بشكل مستمر مع سانتوس والرئيس الكولومبي السابق ألفارو يوريبا، الذي كان يعارض الاتفاق بقوة، والذي سنحت لي فرصة التعرف إليه. لقد جمعني ويوريبا سجلٌ إيجابي، وكان هو يعرف أنني أهتم ببلاده، حتى وإن أصبحت صديق سانتوس المخلص خلال عملية السلام. وعمل سانتوس مع المعارضة على تحديث الاتفاق.

بعد مرور خمسة أيام على الاستفتاء العام الفاشل، أرسل العالم إشارة إلى كولومبيا أنه مهتم بإبقاء عملية السلام حية: وذلك بمنح الرئيس سانتوس جائزة نوبل.

وفي 24 تشرين الثاني/نوفمبر، أقر الكونجرس الكولومبي الاتفاق المعدَّل. لقد تعلمت الكثير من مشاركتي في هذا المسعى.

تعلمت مدى ضرورة وجود زعماء راغبين في المخاطرة بسمعتهم؛ فقليل هو ما يمكن تحقيقه من دون إضافة بعض المخاطرة إلى المعادلة. لكنني ذُكِّرت أيضاً بأن الهزيمة لا تحدث ما لم تقرر أنت الاستسلام. كان بإمكان سانتوس أن يقبل نتيجة الاستفتاء العام وأن يستسلم، كما أن كثيرين في مواقف أخرى - مثل عملية بركست - كانوا لينصحوه بالتوقف وقبول حكم الشعب. لكنه كان أقوى من ذلك. لم يستسلم. وكذلك نحن. كانت تلك اللحظة مناسبة لنلقي فيها بمزيد من ثقلنا. في الوقت نفسه، تذكّرت كل الدروس التي علّمني إياها أبي عن الدبلوماسية، بدءاً بأكبرها جميعها وهو الإنصات. إذا أبديت احتراماً لكل الأطراف وأنصتَّ إليهم بعناية، حتى عندما تخالفهم الرأي على وجه الخصوص، فسوف يكون بإمكانك تحقيق الكثير. كان هذا صحيحاً جداً في مناقشاتي مع أعضاء «فارك» الذين قضوا عقوداً يقاتلون من أجل قضية آمنوا بها إيماناً عميقاً، أدى إلى موت الآلاف. كان بإمكاني عدم الالتفات إليهم. وكان بإمكاني مناقشة مخاوف «فارك» . لكن أيًّا من هذا ما كان ليفيد. كانت مهمتي أن أساعد الطرفين على التركيز في ما يمكن إنجازه، وليس في الماضي. وقد أحسّا كلاهما بالتقدير لقوة الدبلوماسية على إنهاء الحرب، وفتح بعض المسالك الحقيقية للسلام.

«هنا كان القنّاصة يتمركزون» ، قالها لي جيف بيات، سفيرنا في أوكرانيا، وهو يشير إلى البنايات التي كان يغلّفها الضباب، والتي جاءت منها الطلقات.

كان شارع إنستتيوتسكايا في كييف، أوكرانيا، لا يزال ممتلئاً بباقات الورود التذكارية من أجل الضحايا، بصور محاطة بإطارات لأولئك الذين قُتِلوا وسط أكوام من إطارات السيارات والخشب، شكّلت حواجز مؤقتة خلال شهور الاحتجاجات العامة. كذلك كانت الأسلاك الشائكة في كل مكان، والثقوب التي أحدثها الرصاص تغطّي أعمدة الإنارة. وكان الناس يحومون حول برميل أشعلوا بداخله ناراً طلباً للدفء.

كان الزمان آذار/مارس 2014، وكنت أنا في كييف لإظهار التضامن مع الناس الشجعان الذين عرّضوا حياتهم للخطر بغية تحديد مستقبل بلدهم. وأعلنت مساعدة أولية قدرها 4 , 16 مليون دولار لمساعدة الأوكرانيين في لحظة انتقالية صعبة.

قبل ثلاثة أشهر من ذلك، كان المتظاهرون السلميون قد استولوا على ساحة الميدان في كييف. آلاف الرجال والنساء واجهوا الليالي الطويلة، والبرد القارس، وعمليات القمع العنيفة التي نفّذتها حكومتهم. كانوا قد ضاقوا ذرعاً بفساد رئيسهم، فيكتور يانكوفيتش، الذي كان بقاؤه متربعاً على رأس أوكرانيا إنما يعود بشكل خاص إلى موسكو. كانت أوكرانيا جزءاً من الاتحاد السوفيتي. لكن بالرجوع مئات السنوات، كانت حدود أوكرانيا الشرقية لفترة طويلة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بروسيا. فجزء كبير من شرق أوكرانيا يتحدث الروسية، في مختلف أنحاء منطقة الدونباس. والزعيم خروتشوف ولد في القرم. لكن على الرغم من هذا، كانت معظم البلاد تميل أكثر إلى أوروبا. لقد كانت أمة إحدى قدميها في الغرب والقدم الأخرى في الشرق. وكان الرعاة السياسيون ليانكوفيتش في الكرملين يعتمدون عليه لإبقاء أوكرانيا في فلك روسيا. لكن الأوكرانيين كانوا يطالبون أن يزيد يانكوفيتش من ارتباط البلد بأوروبا. لقد حثوه على الانضمام إلى الاتفاقيات التجارية مع بقية القارة، لكنه تقاعس وأقر علاقة اقتصادية حصرية مع روسيا، فكان الانفجار الشعبي فورياً. وكذلك جاء رد فعل يانكوفيتش. لقد فتح قنّاصوه النار على المتظاهرين من فوق أسطح البنايات، ليقتلوا أكثر من مئة شخص. لكن الناس رفضوا العودة إلى بيوتهم. كانت لحظة مماثلة للحظات ميدان التحرير [المصري] تتجلى في أوروبا. وخوفاً على حياته، غادر يانكوفيتش البلاد في شباط/فبراير هرباً، طالباً الأمان في روسيا، لتشتعل الثورة الشعبية في أوكرانيا.

في شهر آذار/مارس، انضممت إلى مجموعة من الأوكرانيين تجمّعوا تلقائياً في ساحة الميدان. استمعت إلى التماساتهم العاطفية للحق في ألا تعود الحياة إلى ما كانت عليه تحت رئاسة فيكتور يانكوفيتش. وقال لي أحد الرجال إنه، بعد سفره إلى الخارج للمرة الأولى في حياته، رجع إلى كييف مصمِّماً على العيش فيها، كما رأى أشخاص آخرون أنهم يريدون أن يتمكنوا من تدبّر أمر عيشهم في بلادهم، بينما أوضحت امرأة مدى فقرهم في ظل يانكوفيش، وكيف كان الأثرياء يعيشون رغد الحياة، وكيف استولى مَن كانوا في الحكم على الأموال، ونسوا العمال المياومين. كان تلك هي الشعبوية الحقيقية، وليس النوع المدبر سياسياً الذي رأيته في الإعلانات التجارية للحملات الأميركية: لقد كان نبض الناس الذين أرادوا وضعاً تكون فيه فرص الجميع في الحياة متكافئة، وانتظروا أن تكافح الحكومة من أجلهم.

كان الناس في الميدان يتحركون، وكنت معجباً بشجاعتهم. كانوا مثل كثيرين في العديد من أماكن العالم، يتوقون إلى احترام حقوقهم، وإلى أن تكون حكومتهم خاضعة للمساءلة. وفي طريقنا إلى المطار، أشار سفيرنا إلى نصب تذكاري مؤقت على جانب الطريق، حيث أوقفت صحفيّة تجاسرت على انتقاد يانكوفيتش، وأُخرجت من سيارتها عنوة، وضُربت ضرباً مبرحاً حتى شارفت على الموت. عندما فتّش المواطنون بيوت يانكوفيتش وكاتبه المترفة بعد هروبه، اكتشفوا أدلة تشير على أنه هو من أصدر الأمر شخصياً بالقضاء على تلك الصحفية. ذكرتني تلك القصة بكم المخاطر التي يواجهها الصحفيون لمجرد أداء عملهم، وتسجيل الحقيقة.

ذُكِّرت أيضاً بمدى تعقُّد الصراع الذي سيواجهه الأوكرانيون الشباب خلال الشهور التالية. ما كنا نراه إلهاماً، كان إهانة لفلاديمير بوتن. لقد كان يانكوفيتش الرجل الذي «صنعه» بوتن. لقد صعد إلى السلطة على درجات «الثورة البرتقالية» لأوكرانيا، وهي الانتفاضة التي هبت سنة 2004 لمناصرة الديمقراطية. لقد سانده بوتن في مواجهة منافس مؤيد للغرب، هو فيكتور يوتشنكو، الذي تعرّض للتسمّم بطريقة ليست غامضة، كما تعرّض لتشويه وجهه بوحشية، خسر يانكوفيتش ذلك السباق، لكنه عاد كرئيس وزراء سنة 2006 وكرئيس سنة 2010، بمساعدة مستشار أميركي لحملته الانتخابية هو بول مانافورت. نشأ يانكوفيتش في الشرق القاحل لأوكرانيا. وهو يبدو كواحد من ملاكمي الوزن الثقيل؛ ذلك أنه ضخم الهيئة وقوي، ويتّصف بالعنف. وقد سُجن مرتين بتهمة الاعتداء وهو صبي صغير، وبلغ سن الرشد في جو العنف والاضطرابات الخاص بالمنطقة الصناعية وسط البلاد. كان يتحدث اللغة الروسية خلال نشأته، وقضى فترة في صناعة التنقيب عن الفحم الروسية في شرق أوكرانيا. أما مانافورت، فقد كانت قصة حياته قصة شخص ارتفع من الفقر إلى الثراء: يانكوفيتش - السياسي العصامي، الذي عمل بجد حتى خرج من مناجم الفحم، من دون ذكر لراعيه في الكرملين. أبرز مانافورت صورة يانكوفيتش كرجل قوي بارع يمكنه أن يعيد الاستقرار إلى البلاد، ويضع أوكرانيا على خريطة العالم. كما أخفى سجل فساد يانكوفيتش، وسوء إدارته، ومزاعم وجود روابط بينه وبين جهاز الكي جي بي الروسي. كانت تكتيكات الحملة من واشنطن، والتمويل من موسكو.

كان رد بوتن على الثورة في أوكرانيا رداً متوقعاً. فقد ضخ أخباراً مزيّفة في وسائل التواصل الاجتماعي تبرز المُصلحين الديمقراطيين كنازيين جدد. ونشر الدعاية في روسيا لمحاولة تقسيم البلاد. وفي شباط/فبراير 2014، أمر القوات الروسية بغزو القرم، وهي شبه جزيرة في جنوب أوكرانيا، وتُعد أكبر مدنها، سيفاستوبول، مقر الأسطول الروسي في البحر الأسود، إضافة إلى

كثافة حضور الكثيرين ممن هم من أصول روسية هناك، الأمر الذي أعطى بوتن ذريعة جاهزة للتدخل؛ ناهيك بالمصالح العسكرية الحيوية الأخرى. بمجرد أن أصدر بوتن الأمر، اتّخذت الأمور منحاً قبيحاً بسرعة. فقد سيطرت الميليشيات المسلحة على البنايات الحكومية، وقد حمل عناصرها أسلحة روسية، بعد أن أزالوا الشارات الروسية من على ملابسهم الرسمية في محاولة للتخفّي أمام الأعين. وبحلول شهر نيسان/إبريل، كانت روسيا ووكلاؤها يشنون الهجمات على عدد من مدن شرق أوكرانيا.

في هذه الأثناء، كان الزعماء الروس يدلون بادعاءات فاضحة لتبرير أعمالهم. كان شبه مستحيل التصديق أن روسيا يمكن أن تجادل بخصوص تلك القوات التي تحتل البنايات، والمدججة بالسلاح وترتدي الملابس العسكرية الجديدة والمتماثلة، وتتحرك في تشكيلات عسكرية منضبطة، أنها تمثِّل مجرد نشطاء محليين يسعون إلى ممارسة حقوقهم الشرعية. كان العالم يعرف أن المتظاهرين السلميين لا يأتون مسلحين بقاذفات القنابل والأسلحة الآلية، وبآخر ما أنتجته الترسانة الروسية، ويتحدثون بلهجات يعرف كل سكان المنطقة المحليون أنها تأتي من آلاف الأميال.

أطلق بوتن أيضاً العنان لأمر قبيح ومُدمِّر في دونباس. فقد دُمّرت آلاف البنايات السكنية بالكامل، وقام الانفصاليون بقصف عشوائي أصاب المستشفيات والمدارس والمناطق العامة، حيث كان المدنيون يصطفون بانتظار الطعام والإمدادات، الأمر الذي أجبر مئات الآلاف على الهرب، وقد تركوا كل شيء وراءهم؛ هذا إذا تمكنوا من مغادرة المنطقة. كانت الحافلات المتجهة إلى المناطق الآمنة قليلة وتمرّ في أوقات متباعدة، مخلّفة العائلات محتشدة في سراديب محطات القطار من دون طعام أو تدفئة أو كهرباء، لا يعرفون متى ستأتي الحافلة التالية، أو إن كانوا سيتمكنون من ركوبها. لقد كانت شهادة على مدى إصرار بوتن ألا يتنازل عن أوكرانيا لأهلها الأصليين.

كان الإنكار والتعتيم الروسي سخيفين، وكان الجميع يدركون ذلك. كان السؤال: هل ستقف الولايات المتحدة والغرب في وجه عدوان بوتن؟ هل نقف إلى جانب الأوكرانيين ليساعدوا أنفسهم؟ وهل يمكننا تحقيق توازن مناسب يجذب أوروبا المترددة إلى مساعدة أوكرانيا، مع تفادي مجابهة حرب باردة جديدة؟ كيف يمكننا إظهار عرض للقوة وقوة دبلوماسية لنتمكن بهما من إيقاف تصعيد المشكلة في أوكرانيا وتتمكّن كييف من الوقوف على قدميها؟

قدنا رد فعل دوليّاً تضمّن تعزيز دفاعات منظمة حلف شمال الأطلسي، وطمأنة الحلفاء وفرض عقوبات على روسيا استهدفت قطاعها المالي وقطاع الطاقة. أسمينا ذلك «عقوبات قاطعة» ، لأنها كانت أكثر دقةً من أي وقت

مضى. لو أننا لم نطبقها ونزيدها، لانتهى الأمر بدخول الروس كييف. كان للعقوبات أثر كبير في اقتصاد روسيا. فقد تضاءلت ثقة المستثمرين في الاقتصاد، وهرب ما قيمته حوالى 70 مليار دولار من رؤوس الأموال من النظام المالي الروسي في الربع الأول من العام 2014، أكثر مما هرب خلال كل السنوات السابقة. كذلك انخفضت مراجعات تقديرات النمو لسنة 2014 بمقدار نقطتين إلى ثلاث نقاط مئوية. في هذه الأثناء، كان على المصرف المركزي الروسي إنفاق أكثر من 20 مليار دولار لمساندة الروبل، الأمر الذي أدى إلى تآكل المخزون الاحتياطي لروسيا لمواجهة الصدمات الخارجية.

في الوقت نفسه، كان علينا تحسين الظروف الأمنية وإيجاد حل سياسي للنزاع. كنا بحاجة إلى تحقيق إنجاز على الجبهة الدبلوماسية. كانت مقاربتنا الأولية هي ترك الألمان والفرنسيين والأوكرانيين والروس يتقدّمون الطريق. كانت لهذه المقاربة جوانبها الإيجابية؛ فقد أُلقيت المسؤولية على أوروبا حتى تظل متحدة فيما يتصل بأوكرانيا، وواجهت الخطر الناجم عن نظر بوتن إلى أوكرانيا بشكل تآمري أكبر من خلال منظار معركة روسية - أميركية بالوكالة. لكن تلك المحادثات امتدت لشهور من دون أن تحقق نتيجة تُذكر، وهو ما يعود جزئياً إلى اتباع الروس سياسة فرِّق تسد. عندها حاولنا إقحام أنفسنا في العملية، لكن المشاركين حالوا دون ذلك مراراً وتكراراً. كان الوضع مصدراً للإحباط الخالص.

تعرّضت الديمقراطية الأوكرانية للاختبار مراراً وتكراراً خلال تلك الفترة من النشاط الدبلوماسي الحاد. لكن ما لم يُذكر أغلب الأحيان في العناوين البارزة للصحف هو أن أوكرانيا قد صمدت في مواجهة تلك الاختبارات. والحقيقة أنها حقّقت بعض النجاحات الديمقراطية الرائعة، من المظاهرات الشجاعة في الميدان، إلى الانتخابات النزيهة، إلى إقرار البرلمان لميزانية قوية وخطة إصلاح واعدة.

ركّزت إدارة أوباما في إيقاف العنف في شرق أوكرانيا. فشاركت أنا في عدة جولات للمحادثات المكثفة مع وزير الخارجية الروسي سيرجيه لافروف. كنت أعمل عن قرب مع مساعدة وزير خارجيتنا لأوروبا، فيكتوريا نولاند، التي كان الروس يعرفونها كخصم جدير بالاحترام. كان كل من يلتقي فيكتوريا يصير حالاً في عداد المعجبين بها. في أول رحلة لي كوزير للخارجية، بعد أن تركت «توريا» موقعها كمتحدثة باسم الوزارة، من أجل أن يرشحها الرئيس لشغل أعلى منصب خاص بأوروبا، نظر سيرجيه لافروف إلى طاقمي وقال لي: «جون، أرى أنك أخيراً تخلّصت من تلك التوريا نولاند» .

فقلت، «لا، لقد رقّيتها!» فضحك. قبل التحاقها بالسلك السياسي، عملت توريا لعدة شهور، وهي في أوائل العشرينات من العمر، على ظهر سفينة صيد سوفيتية في المحيط الهادي، الأمر الذي ساعدها على صقْلِ لغتها الروسية، وتعلّمِ كيفية إذابة الجليد عند الالتقاء بالروس. لكن أثناء محاورتها لهم بشأن أوكرانيا، كانت هناك أيام يحتمل أنها كانت شاقّةً عليها إلى درجة فضّلت معها العودة للعمل على ظهر تلك السفينة.

عملنا مع سوزان رايس ومجلس الأمن القومي على إعداد مخرج دبلوماسي مفصّل لنقدِّمه إلى الروس لتقليل الضغط على أوكرانيا، وتفاوضنا على التفاصيل في لندن وباريس. لكن سرعان ما أصبح واضحاً أن لافروف لم تكن لديه مساحة كافية للحركة تمكّنه من عقد اتفاق؛ فقد كان بوتن يمسك بورقة أوكرانيا بقوة، لأنه كان يعدها أمراً شخصياً عميقاً. توقفت المحادثات، لكن الجهد الذي بذلناه بخصوص اللامركزية شكّل جسراً حيوياً بين اتفاق منسك 1 الذي أُبرم في أيلول/سبتمبر، وما أصبح يعرف باتفاق منسك 2 في شباط/فبراير التالي. وحتى يومنا هذا، تبقى مقاربة منسك أفضل طريقة ممكنة لمنع تصاعد العنف، والبحث عن اتفاق سياسي دائم.

في النهاية، كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها وضع حد مستدام للمواجهة القائمة بين روسيا وأوكرانيا. روسيا أمامها خيار بسيط: تنفيذ منسك بالكامل أو مواصلة مواجهة العقوبات الضارة اقتصادياً. يعرف زعماء روسيا بالضبط ما هو المطلوب: سحب الأسلحة والقوات من دونباس؛ ضمان عودة كل الرهائن الأوكرانيين؛ السماح الكامل لكل المنظمات الإنسانية بالوصول إلى المناطق المحتلة، وهو ما يقرّه القانون الدولي وتطالب به عدة قرارات صادرة عن الأمم المتحدة؛ دعم تنظيم انتخابات حرة وعادلة في دونباس طبقاً للقانون الأوكراني وتحت مراقبة دولية؛ إعادة سيطرة أوكرانيا على جانبها من الحدود الدولية.

باتت احتمالات الديمقراطية في أوكرانيا اليوم أكثر إشراقاً مما كانت عليه قبل بضع سنوات، وأكثر إشراقاً بكثير مما كانت عليه قبل المظاهرات الشجاعة في الميدان. وفي وجود الدعم عبر الأطلسي، فإن السنوات التالية ستدفع بكل الإمكانيات الممكنة أوكرانيا لتثبت أن الإصلاح يمكن أن ينتصر على الفساد، وحتى على أكثر الجهود الروسية إصراراً على إحباط تصميم أوكرانيا على اعتناق الحداثة. لكن الصراع الذي تسبّب في مقتل أكثر من ستة آلاف لن تنتهي مفاعيله قبل وقت طويل.

وهناك حاجة إلى الالتزام الأميركي بقيادة الغرب في التضامن مع الأوكرانيين أكثر من أي وقت مضى.

ذكَّرتني الفترة التي قضيتها في التعامل مع بوتن ولافروف بشأن أوكرانيا بمدى التغيُّر الذي شهدته العلاقة بين أميركا وروسيا، خلافاً لما كانت عليه عندما كنت صبياً أركب دراجتي إلى برلين الشرقية السوفيتية. ولفتني أنها، إلى حد ما، لم تتغير. فلاديمير بوتن شخصية معقدة. تجدُهُ متحدثاً ساحراً في اجتماع، يفتح زجاجات النبيذ ويقدم أطباق الكافيار؛ وتجده في لحظات أخرى، يستخدم أساليب ضيقة الأفق، كإبقائنا في الانتظار ساعات لمجرد إثبات أننا في منطقة نفوذه. تراه غير متحفظ في اجتماع، وقليل الكلام في الاجتماع التالي. وهو يتذكَّر الاتحاد السوفيتي بولع وعاطفة شديدة، ويعتقد أن العالم بحاجة إلى مَن يوازن الولايات المتحدة. ورغم ذلك يترأس بلداً بلا اقتصاد عصري، ويستثمر المليارات في مغامرات خاطئة فيما وراء البحار، في سورية وأوكرانيا بدلاً من الاستثمار في اقتصاد عصري. إنه تناقض. كان بوتن وروسيا شريكين بنّاءين في المفاوضات النووية مع إيران، وفي قضية أفغانستان، من بين العديد من القضايا. ومع ذلك كانا متحفظين وعديمي الرحمة في قضايا أخرى، من مساندة الأسد في سورية، إلى مهاجمة ديمقراطيتنا في وطننا سنة 2016. من الخطأ النظر إلى روسيا إما من خلال منظار وردي وإما من خلال منظار الحرب الباردة. فلسنوات، تفاوض الرؤساء الجمهوريون والديمقراطيون على حد سواء مع الاتحاد السوفيتي، ووجدوا سبلاً لإحراز تقدم. لقد دعاه ريغان إمبراطورية الشر، حتى مع إيجاده طرق لإزالة آلاف الأسلحة النووية فيما بيننا. بطريقة ما، حتى عندما تكون صعبة، يجب أن نتيح دائماً المجال للجلوس وجهاً إلى وجه، والفصل بين القضايا بحسب الحاجة، وإحراز تقدُّم حيثما أمكننا، حتى ونحن نختلف حيث يجب أن نختلف. لكن يمكننا فقط أن نفعل ذلك ونحن مستعدون لقول الحقيقة، ومواجهة روسيا بأنشطتها الخبيثة، من الاعتداء على انتخاباتنا، إلى انتهاك القانون الدولي في أوكرانيا. يجب على الولايات المتحدة أن تقود دائماً الجهد اللازم لإبقاء الروس عرضة للمساءلة.

هناك من يتمنّى أن تقف الولايات المتحدة بعيدة عن مشكلات العالم، وتهتم بشؤونها الداخلية. لكن لا نستطيع تبنّي هذه السياسة. نحن نعرف نتيجة سياسة مثل هذه. إن القيادة ليست زراً نضغط عليه في أوقات الطوارئ، بل هي الدور الذي يجب علينا أن نضطلع به طوال الوقت. وهو ليس بالأمر السهل، كما أنه لا يعود علينا دائماً بالفائدة. لكنَّ شيئاً واحداً ظلّ يتخلل محادثاتي كوزير للخارجية في كل منطقة، وفي كل ركن من أركان العالم، هو

أن زعماء العالم لا يظلون مستيقظين وقلقين بشأن ما سوف يحدث في حال حضور أميركا، بل هم يقلقون مما سيحدث في حال غياب أميركا.

الفصل السابع عشر: شرف المحاولة

«جون كيري يمثّلني في هذا الموضوع»

في آذار/مارس 2013. سافر الرئيس أوباما إلى إسرائيل. فاستقبله هناك حشد كبير داعم. كنا نجتمع مع رئيس الوزراء بنيامين «بيبي» نتنياهو في القدس. وبعد ذلك الاستقبال الحار، تمنى البيت الأبيض لو أن الرئيس سافر إلى هناك مبكراً، أي خلال فترة ولايته الأولى. تحدث الرئيس ورئيس الوزراء عن مجموعة من القضايا، هي إيران، التطرف الإسلامي، الوضع في المنطقة بعد عامين من بزوغ الربيع العربي. وجدّد الاثنان رغبتهما في استكشاف سبل المفاوضات مع الفلسطينيين مرة أخرى بشأن حل الدولتين. عندئذ، منحني الرئيس الفرصة التي أحتاج إليها لمعرفة مصير عملية السلام التي بُعثتْ إلى الحياة من جديد مؤخراً: حيث أسرّ إلى نتنياهو أنه يثق بي، وأنه يوكل إليّ تلك المهمة.

بقي السلام عصياً في الشرق الأوسط، على الرغم ممّا بذله الرؤساء ورؤساء الوزراء والوسطاء الدوليون من جهود على مدار عقود، وبرغم تعاقب وزراء الخارجية الأميركيين على هذا الملف الذي يتحملون فيه مهمة الوسيط أو المفاوض الرئيسي. انشغلت بعملية السلام تلك منذ التحاقي بمجلس الشيوخ سنة 1985. وأدركت بوضوح تلك العوائق التي تقف في طريقنا. وأحطت بجميع الحجج المؤيدة لعدم التدخل في ملف السلام. لكن في السياسة الخارجية، وفي حين يسهل عليك جداً التكهن بمخاطر الفعل، يندر أن يكون هناك تركيز كافٍ في مخاطر اللافعل.

ذلك هو أنسب توصيف لملف السلام في الشرق الأوسط. إنه عملية سلام في تحدٍ دائم مع الزمن. ومع كل إخفاق مُني به مشروع السلام في الماضي كانت الآمال به تتضاءل. وتنمو كرة الشكوك والتشاؤم من دون توقف. كنت قلقاً على أمن صديقتنا إسرائيل على المدى الطويل. فما يسمّيه الدبلوماسيون «الحقائق على الأرض» ، متضمّناً وأفعال الإسرائيليين

والفلسطينيين على حد سواء، يبعدنا بشكل مطرد عن حل الدولتين، أي دولتين منفصلتين إسرائيلية وفلسطينية تعيشان جنباً إلى جنب في أمن وسلام، وهو حلم يعمل البعض - ومن الجانبين - بكل جهده لئلّا يتحقق.

لا ينفك عدد السكان الفلسطينيين ينمو. ومنصات التواصل الاجتماعي الفلسطينية مفعمة بخطاب كراهية ومشاعر معادية لإسرائيل، تبلغ حدوداً عنيفة في بعض الأحيان. ولم تتدخل القيادة الفلسطينية لوقفها، بل تشجعها من حين إلى آخر. وحماس المتشددة، المدانة بأفدح أشكال التحريض والعنف، كانت تكتسب قوة فوق قوة. وتشهد غزة حرباً بين الجانبين كل عامين. ولكن عدد السكان الفلسطينيين في تزايد. فإذا بقيت إسرائيل تسيطر على السكان الفلسطينيين من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط، فإنها ستفقد في غضون بضع سنوات الأغلبية اليهودية في شرائح سكانها. ومع هذه الظروف، كيف تحافظ إسرائيل على كيانها، دولةً يهودية ديمقراطية، على المدى البعيد؟

وعلى الجانب الآخر، كانت المستوطنات في توسع متسارع من دون ضوابط تذكر، الأمر الذي دفع المزيد من الإسرائيليين إلى سكنى مناطق في الضفة الغربية وافق كان الخبراء من قبل قد وافقوا على ضرورة إدراجها في الدولة الفلسطينية المنتظرة. وعندما أخرج أرييل شارون المستوطنين من غزة خلال الانسحاب الأحادي الإسرائيلي عام 2005، كانت الصور التي وثقت ذلك مخيفة. كنا حينذاك نتحدث عن ثمانية آلاف مستوطن فحسب. ولكن مع كل عام يمر، يسكن الآلاف منهم الضفة الغربية.

في الوقت الذي توصلوا فيه إلى اتفاقات أوسلو سنة 1993، كان هناك حوالى 110 آلاف مستوطن في الضفة الغربية. ولكن هذا العدد أضحى بحلول الوقت الذي أصبحتُ فيه وزير الخارجية قرابة 375 ألف نسمة. ولا يجادل منصف في أن معدل النمو هذا والعدد الحالي الذي وصلنا إليه لا يمثّلان عقبة رئيسية أمام قيام دولة فلسطينية جارة. وزعم العديد من المراقبين أن سياسة الاستيطان كانت استراتيجية حقّقت غرض أولئك الإسرائيليين الذين يعارضون قيام دولة فلسطينية، ويخطّطون لـ «إسرائيل الكبرى» التي تشمل الضفة الغربية ضمن حدودها.

ظل، بطبيعة الحال، خيار ألا تتدخل الولايات المتحدة قائماً. ولكن بالنظر إلى السرعة التي تتغير بها الديناميكيات على الأرض، كان ذلك الخيار سوء تصرف دبلوماسي. وبقي حل الدولتين بعيد المنال. وبالنظر إلى منافع السلام الاقتصادية والأمنية لعموم المنطقة، وبالنظر إلى التهديد المتزايد لحلم قيام دولة إسرائيل اليهودية الديمقراطية، فقد كنت أعتقد أننا نتحمل مسؤولية

بذل أقصى جهودنا من أجل السلام. وبخلاف ذلك، فسوف نتيح الفرصة فعلياً لأولئك الذين لا يريدون دولة يهودية أو دولة فلسطينية.

بيد أنني لم أنظر إليها على أنها قضية خاسرة. لقد أعرب كلٌّ من رئيس الوزراء نتنياهو، في خطابه التاريخي في جامعة بار إيلان، والرئيس محمود عباس بوضوح، عن دعمهما لحل الدولتين. واعتقدت أن هناك أسباباً قوية تساعدنا في النهاية للتوصل إلى اتفاق إن صمم القادة على التوصل إليه. بمقدورنا أن نفعلها. وهناك سببان لهذا الأمل والوعد.

أولهما، أن أعوام المحادثات مع رئيس الوزراء نتنياهو والرئيس عباس أقنعتني بأنهما إن كانا جادين في صنع السلام، فإن شكل ذلك السلام معروف لهما وبوسعهما تحقيقه. نجم عن سنوات المفاوضات تصور عام لمفردات ذلك السلام. أما السؤال الجوهري فيتعلق باستعداد كلا الجانبين لاتخاذ خطوات فعلية لتحقيقه. كما علمتني تلك السنوات أن أغلب الأمور في الشرق الأوسط لا تُؤخذ بظاهرها. أردت أن أصدق كلا الزعيمين، برغم شكوكي إن كانا مستعدين لتحويل الكلام إلى واقع ملموس. وهكذا كان لا بدّ أن نضع كل شيء تحت اختبار حاسم.

ثانيهما، أنني، رغم أن قضية قيام دولة فلسطينية لم تعد تلك القضية الملحّة والجوهرية على النحو الذي كانت عليه في المنطقة، كنت مقتنعاً بالأمر الآتي: مقابل قيام دولة فلسطينية، سيكون جيران إسرائيل العرب مستعدين لإقامة علاقة مختلفة جذرياً مع إسرائيل، بما في ذلك ترتيبات أمنية جديدة تعود بالفائدة على الجميع. وهو أمر أوضحوه لي على أعلى مستوى وفي مناسبات عديدة. وكان ظني أن إعادة هيكلة المنطقة ستكون بمثابة حافز كبير لإسرائيل ومكافأة كبيرة لرئيس الوزراء الإسرائيلي الراغب في تقديم التنازلات اللازمة للتوصل إلى حل الدولتين.

بيد أنّ درساً واحداً على وجه الخصوص، كان له الفضل في تحديد مقاربتي لعملية السلام؛ ألا وهو أن الشيطان يكمن في سياسة الخطوة - خطوة. أعلم أن ما أقوله هنا يبدو غير منطقي. ففي العديد من نماذج حل النزاعات، يُفتَرض أن تكون أي خطوة إلى الأمام هي خطوة إيجابية وتبني الثقة. لكنني أعتقد أن هذه القاعدة لم تعد صالحة للتطبيق بين الإسرائيليين والفلسطينيين، لسبب بسيط هو أنها أخفقت كثيراً في الماضي. جرّبناها مراراً وتكراراً، وفي كل مرة كان يطرأ حادث، مقصود في الغالب، فيقوِّض دائماً أي زخم لتلك الجهود. واعتقدت أن جميع «قضايا الوضع النهائي» تحتاج إلى حل، واسع النطاق على الأقل، ومرة واحدة، حتى لو استغرق التنفيذ سنوات من

الاختبارات. كان على كلا الطرفين استيعاب النهاية التي ترضي تطلّعاتهم الأساسية.

أما تلك التطلعات، فواضحة للغاية. تتمثل تطلُّعات الإسرائيليين في الاعتراف بإسرائيل دولةً يهوديةً، والقدس عاصمة لها، مع اعتراف دولي بذلك والتعهد بحفظ أمنها. وتتمثّل تطلّعات الفلسطينيين في دولة فلسطينية واضحة الحدود وتمتلك مقومات الحياة، عاصمتها القدس الشرقية، مع حل عادل لقضية اللاجئين. والقاسم المشترك لتطلّعات الطرفين تحديد مسار واضح لإنهاء الصراع وجميع المطالبات للأبد. أي إنك بحاجة إلى رؤية سلام شاملة، متفق عليها نظريًّا من الجانبين، إما هذا، وإمّا أنك تترك الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام المُفسدين. وتحضرني هنا عبارة بليغة لنتنياهو، حتى وإن كانت هي في حد ذاتها مفارقة: «لا أستطيع أن أموت مرفوعاً على صليب صغير» ؛ لن يكون أي زعيم من كلا الطرفين راغباً في تحمُّل مخاطر كبيرة مقابل خطوات صغيرة.

ولم يكن إقناع الإدارة بأي من هذه الأفكار بالمهمة السهلة، وأنا أتفهم السبب. كان في إدارة أوباما العديد من المحنكين الذين خاضوا خلال فترة ولايته الأولى حرباً ضروساً في عملية السلام. وكلّي يقين من أن بعضهم قد ارتاب بعد أن أشارت تقارير عديدة في العام 2012 إلى أن رئيس الوزراء نتنياهو كان مؤيداً للمرشح الرئاسي ميت رومني. ولكن من بين أولئك الذين ارتأوا أن علينا ألا نبذل جهداً جديداً في ملف السلام، لم أسمع منهم بديلاً عملياً لحل الدولتين. فإذا لم يكن هناك من بديل، فكيف لنا أن ننأى بأنفسنا عن العملية برمّتها، بينما تتقلّص فرص الحل؟ فإذا غادرتم الآن، فإن حلم السلام يستحيل كابوساً في المستقبل.

وبالرغم من كل أسباب التشاؤم، كنت أرى أن لحظة المضي قدماً سانحة. فقبل أن أصبح وزيراً للخارجية، دعاني الملك عبد الله، ملك الأردن، إلى تجمُّع صغير لقادة مخولين بعملية سلام، انعقد في قصره الملكي الذي يقع على امتداد شاطئ جميل غرب مدينة العقبة، قرب الحدود مع إسرائيل. إنه مكان مثالي لإجراء محادثات سرية عالية المستوى بعيداً من الفضول الإعلامي. اجتمع وزراء خارجية من معظم دول الخليج، ورئيس الوزراء البريطاني السابق توني بلير، وكبار ممثلي روسيا والولايات المتحدة، وآخرون من المنطقة لمناقشة الطرق التي من خلالها يتيح الموقف في المنطقة فرصاً جديدة أمام السلام والأمن والإصلاح الاقتصادي. لقد قلبت الثورات العربية الوضع رأساً على عقب. وهنا، عبَّر القادة الإقليميون عن مخاوف تجاه إيران وتهديدات التطرُّف الديني أكثر كثيراً من مخاوفهم بشأن الصراع الإسرائيلي -

الفلسطيني. اعتبروا إيران والتطرف الديني أخطار وجود. كانت القضية الفلسطينية مهمة لشعوبهم، ولكنها لم تكن محورية في تفكيرهم الاستراتيجي. ومع ذلك، ولئن كانت لديهم أسباب عديدة تدفعهم إلى المزيد من التقارب مع إسرائيل، فإنهم شعروا بأن من غير الممكن المضي قدماً في ذلك الاتجاه، ما دامت القضية الفلسطينية من دون حل.

ولطالما كان السلام مع العالم العربي محور أي صفقة تصب في مصلحة إسرائيل. فلم يكن من الممكن أن يقتصر الأمر على سلام مع الفلسطينيين. ورأيت أمامي مقدرات أكبر لهذا النوع من التقارب الإقليمي، أكثر من أي وقت مضى. وكانت مساندة الدول العربية ضرورة للفلسطينيين من أجل صنع السلام مع إسرائيل بأي حال.

أما بخصوص الشق الأمني، فإن مواءمة المصالح بين إسرائيل والدول العربية السُنّية في المنطقة في مواجهة إيران قد مثّلت فرصة لإعادة ترتيب المشهد. ومع توافر الإرادة والتحلّي بشيء من الإبداع، يمكننا إنشاء تحالفات جديدة هنا. ومع حسن اختيار النهج، يكون بوسعنا التصرف حيال الشواغل الأمنية لإسرائيل بتعاون متكامل مع مصر والأردن وبلدان أخرى في المنطقة.

أما الناحية الاقتصادية، فإن بزوغ نجم إسرائيل قوةً تكنولوجية يتيح فرص التكامل التجاري بين الجميع. ومن شأن جذب استثمارات خاصة على نطاق واسع أن يطلق العنان لمقدرات استثنائية تشجِّع التنمية المستدامة في جميع أنحاء الأراضي الفلسطينية وكذلك دول المنطقة برمّتها.

كان في تجاهل إمكانية التقارب بين إسرائيل والدول العربية السنّية إضاعةً لفرصة استراتيجية هائلة. ومن شأن إعادة هيكلة المنطقة، وهي مقبولة جميع الأطراف بدرجة أكبر من أي وقت مضى، أن توفِّر تدابير أمنية قوية مع مزايا اقتصادية غير مسبوقة لإسرائيل والفلسطينيين والمنطقة. كنت، ولا زلت، مقتنعاً بأن هناك سبيلاً لانتهاز تلك الفرص. غدونا نعيش في زمن مختلف، وعلينا أن نفكِّر وفق هذا المتغيّر. وصار في متناولنا أدوات مختلفة.

قد تكون اللحظة سانحة، ولكنها تعتمد في نهاية المطاف على رغبة الجانبين وعزيمتهما. تحضرني مقولة أُغرِم بها مارتن إنديك، السفير الأميركي السابق لدى إسرائيل: «يمكنك جلب ناقتين إلى ينبوع ماء في قلب الصحراء، لكن لا يمكنك إجبارهما على الشرب» . فلا يمكن أن نكون ملكيين أكثر من الملك. ولا يمكن فرض حلول السلام على الطرفين. وبغضّ النظر عن مدى منطقية أمر ما، وبغضّ النظر عن الرهانات القائمة، ومهما تكن الآمال والفوائد الملموسة بادية، فإن لم تكن السياسة حاضرة والقيادات أهلاً لها، فلن تكون

هناك أي لحظة سانحة. لا بد أن يكون لدى الزعيمين استعداد لتحمُّل المخاطر، وعزيمة التزام تحقيق الغاية التي يرغبان حقاً في تحقيقها.

في حواراتي الكثيرة مع رئيس الوزراء نتنياهو والرئيس عباس على مدار سنين، وكذلك خلال بواكير عملي كوزير للخارجية، أبدى الرجلان تفهماً للمخاطر وضرورة انتهاز الفرص. قالا إنهما راغبين في إعادة المحاولة إذا كان الجانب الآخر جاداً في مسعاه. وما بعث الأمل في نفسي هو إصرار رئيس الوزراء نتنياهو في حديثه الشخصي معي على أنه مستعد للمخاطرة، وراغب فيها، حتى لو تعرض ائتلافه الحاكم لخطر الانهيار، من أجل صنع السلام إذا ما استوفيت شروطه.

لذا، كنت أرغب في وضع الكلام موضع اختبار. فإذا كان الطرفان عازمَيْن بحق، فإن على الولايات المتحدة القيام بدور لا غنى عنه باعتبارها البلد الوحيد القادر على دعم الجانبين وتشجيعهما لتحقيق تلك الغاية. وكنت أرى أن الأمر يستحق مخاطرة السقوط في مصيدة الإخفاق. فمن غير المنطقي أن نتوقع من رئيس الوزراء نتنياهو والرئيس عباس تحمُّل مخاطر كبيرة من أجل السلام، ما لم نكن مستعدين بدورنا لخوض الاختبار.

شرعت في هذه الرحلة بدافع التزام شخصي للغاية تجاه إسرائيل. فعلى مدار ثمانية وعشرين عاماً، مثّلت واحداً من أكثر المجتمعات اليهودية نشاطاً بتوجهها المدني في أميركا، في ماساتشوستس. وعرفت إسحق رابين وشيمون بيريز عن قرب واحترمتهما. وقد آمن القائدان أن إسرائيل ستكون أكثر أمناً على المدى الطويل في حال قيام دولة فلسطينية. فمن خلال عملية سلام حقيقية يمكن لإسرائيل أن تكسب الاعتراف بها دولةً يهودية آمنة، بل إن رئيس الوزراء رابين قد بذل حياته بكل معنى الكلمة في سبيل هذه القناعة.

لن أنسى ما حييت لحظة حطت بي الطائرة في تل أبيب لحضور فعاليات الذكرى الأولى لاغتيال رابين.

توجّهت مباشرة إلى «ميدان رابين» ، بصحبة داليا، ابنة رئيس الوزراء الراحل، حيث المكان الذي اغتيل فيه والدها. كنا على بعد خطوات من البقعة التي وقف فيها القائد، في آخر لحظات حياته، ليغني مع الحشود كلمات الأغنية الشهيرة «شير لا شالوم» :

لا تهمس بصلاة؛

بل غنِّ أنشودة سلام

بأعلى صوت.

لا تقل سيأتي اليوم؛

كنْ أنت هذا اليوم.

أعادتني تلك الكلمات إلى أيام الكنيسة في مدرسة سانت بول، حيث أنشدت، وقت أن كنت فتى، نشيد «صلوا من أجل سلام أورشليم» . عرفت إسرائيل وطناً للشعب اليهودي؛ أرض اللبن والعسل. ولما كنت صغيراً، شاهدت في انبهار أحداث فيلم «الخروج» (1960). ألهمتني حكاية الحرية: حكاية شعب ناضل من أجل موضع قُدِّم إليه في العالم، في كفاح من أجل البقاء ونيل حق الاعتراف به.

زرت إسرائيل مرات عديدة وشعرت برابط شخصي بيني وبينها. وفي رحلتي الأولى إلى هناك عام 1986، بصحبة صديقي الزعيم الحقوقي والمدني ليني زكيم ومجموعة من خمسة عشر صديقاً يهودياً من ماساتشوستس، وقفنا فوق قمة مسادا الخلابة، حيث بذل ألف شهيد حياته في تضحية كبرى منذ ألفي عام، من أجل الدفاع عن وطن الأجداد اليهود.

كان مرشدنا رجل يُدعى يادن رومان. شخصيته لافتة. شغل منصب رئيس تحرير وناشر مجلة إيريتز، وهو طالب رائع ومدرِّس تاريخ. وعندما وصلنا إلى قمة مسادا، جلس في ركن هادئ. قدم إلينا شرحاً تاريخياً طويلاً لذلك اليوم الذي انسحب فيه اليهود إلى مسادا. وصف تفاصيل الحصار الطويل الذي أعقب ذلك. ومثل أي معلم قدير، حملت حكايته العديد من المواقف المثيرة التي تستدعي نقاشاً مفيداً، وهو ما اعتقد أنه قصده بالفعل. هل ماتوا حقاً؟ هناك عدد من النظريات المتداولة والمختلفة حيال تلك القصة. بعد ساعة، أجرينا تصويتاً لحسم رأي المجموعة. وجاءت النتيجة بالإجماع؛ اتفقنا على أن الأحداث قد جرت على النحو الذي وصفه المؤرخ الروماني فلافيوس جوزيفوس. عندئذ، طلب منا يادن الوقوف عند الحافة، حيث صحنا في نفس واحد: «آم يزرائيل تشاي!» . ثم أنصتنا. وبعد لحظات، تردد الصدى من صخور الجهة الأخرى، قوياً واضحاً، لتلك العبارة العبرية التي تعني «يعيش شعب إسرائيل!» . انتابتني قشعريرة، وأنا أتخيلها أصوات أجيال الماضي وهي تخاطبنا.

وفي إحدى الزيارات الأخرى، كنت في قاعدة عوفدا الجوية، في قلب صحراء النقب الإسرائيلية. سألت العقيد، قائد المطار، إن كان مسموحاً لي

القيام بجولة جوية، وكنت أتمنى ذلك. أخبرني أن تل أبيب رفضت الطلب، لكنه سيطلب من القيادة تحقيق ذلك الأمر مجدداً. وبعد دقائق، عاد وقال لي إننا حصلنا على إذن. سلّمني خوذة ولباس الطيران. وعندما توجهنا إلى الطائرة، عرض عليّ الجلوس في قمرة القيادة الأمامية، وقال: «ستكون الطائرة طائرتك، ما إن نقلع عن الأرض» .

سرعان ما كنا على ارتفاع تجاوز عشرة آلاف قدم. وقد استمتعت بفرصة أن أرى بأم عيني مدى ضيق حدود إسرائيل، وكيف أن هذا الضيق ينبض بالحياة بصورة لا يمكنك أن تتخيّلها وأنت تطالع خريطة. طريقة مثلى لاستيعاب مدى تعرُّض أمن إسرائيل للخطر. ولا يوجد هامش للخطأ. هكذا بكل بساطة. انتبهت لصوت العقيد، وهو يتحدث إليّ عبر اللاسلكي: «سيناتور، من الأفضل أن تعود أدراجك سريعاً. أنت على وشك التحليق فوق مصر. استدر بالطائرة!» . سحبت الطائرة بكل قوة وسرعة. كنت في ذلك النهار على وشك اختراق المجال الجوي المصري والأردني. وبينما حلّقت فوق النقب، طلبت من العقيد الإذن لأقوم ببعض المناورات الأكروباتية. ولما وافق، زدت من سرعة الطائرة وسحبت عصا القيادة حتى أرسم بالطائرة دائرة في الجو. ولحظة كنا رأساً على عقب، أدركت فجأة أن السماء صارت تحتي والأرض فوقي.. هأنذا، أخيراً، أرى وضع الشرق الأوسط بكل وضوح؛ رأساً على عقب.

أثناء وجودي في منصب وزير الخارجية، وفي كل مرة تحط فيها طائرتي في تل أبيب، وأهبط في الدرج المصطبغ باللونين الأزرق والأبيض، أشعر وكأنني في زيارة لفرع من عائلة أميركية، اختار أن يكون منزله في صحراء الشرق الأوسط.

لقد أبرز تاريخ عائلتنا البعيد طبيعة الرابط الشخصي بيننا، وإن كان بعيداً. ففي العام 2003، أجرت جريدة بوسطن غلوب بحثاً لافتاً في الأنساب. وبعد سنوات، حصل «كام» على تأكيد أن شقيق الجدة، أوتو، وشقيقتها، جيني، كانا في معسكر تريزين النازي، حيث مات أوتو. وأرسلوا جيني إلى معسكر اعتقال تريبلينكا، حيث قضت بدورها. وفي ياد فاشيم شاهد كام تلك السجلات المروعة. وكان كام قد تحوّل إلى اليهودية قبل سنوات عندما تزوج كاثي، التي ستصبح رئيسة معبدها ومحامية بارعة. وفي العام 2014، سافر كام إلى جمهورية التشيك وزار منطقة تيرزين، وأدرك أن أسلافنا قد أعدموا في غرف الغاز لمجرد أنهم يهود. هكذا صرت أفكر في كل من إسرائيل وجذوري في ضوء جديد. وفي الأيام الأولى من فترة توليَّ وزارة الخارجية، وفي يوم ذكرى الهولوكوست، وضعت إكليلاً باسم الولايات المتحدة في ياد فاشيم. وعندما

أفكِّر في مصير أجدادي الذين لم يحالفهم الحظ بالوصول إلى العالم الجديد ليكونوا ضمن آل كيري، أشعر بأهمية فكرة وجود وطن آمن للشعب اليهودي. وأفهم لماذا يرى كثيرون في إسرائيل تلك «البلدة المشرقة على الرابية» .

على الجانب الآخر، لم أكن أعرف الكثير عن الفلسطينيين حتى صرت عضواً في مجلس الشيوخ. فلم يعرف معظم جيلي الفلسطينيين إلا من خلال أخبار تتحدث عن ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية وأبو نضال. وفي زياراتي إلى مختلف المجتمعات الفلسطينية، في رام الله وأريحا، عرفت الكثير عن الآمال الفلسطينية، وتفاصيل حياتهم اليومية. والتقيت بعض الذين أصبحوا من أثرياء رجالات الأعمال. كما التقيت البسطاء من الشباب. وقد تماهت محنتهم مع أسس العدالة التي أؤمن بها.

كنت أنزعج كثيراً كلما قدت السيارة عند نقاط التفتيش الإسرائيلية، فأشاهد طابوراً طويلاً من الفلسطينيين، أغلبهم من النساء والأطفال، ينتظرون بالساعات حتى ينتقلوا من حي إلى آخر في الضفة الغربية. تخيّلت إحساسي لو عجزت عن الخروج من وسط مدينة بوسطن للوصول إلى موعد في شارلستون بعد انتظار يدوم ثلاث ساعات. تحدثت مع أشخاص لم يتمكنوا من زيارة أقاربهم الذين يعيشون على بعد أميال فحسب، في أرض كانوا يعيشون فيها منذ مئات السنين. استمعت إلى من حكى لي قصصاً عن نقاط التفتيش، التي تمنعه أو تعرقل وصوله إلى العمل، أو المستشفى، أو السوبر ماركت. أحسست بما يشعرون به من إهانة عميقة في حياتهم اليومية. وأستطيع أن أرى في أعينهم رغبة في الحصول على أساسيات صارت في نظرهم ترفاً، بينما هي بديهيات في حياتنا.

تُذكّر تلك التجارب الفلسطينيين دائماً بأن نضالهم قد انتهى بهم إلى شعب بلا دولة؛ إن لم يكن بلا مأوى، وتحت رحمة ما كان في بعض الأحيان احتلالاً قاسياً للغاية. وبينما كانوا شعباً يحاول الاحتفاظ بكرامته في مواجهة حالة عجز كلي، كان لجوؤه إلى الإرهاب للتخلّص من مخاوفه حلاً غير أخلاقي وغير مجدٍ.

أما نحن، كأميركيين، فإن الحرية تعني لنا المقدرة على العيش في مجتمع ديمقراطي، وأن يكون لك رأي فيمن يحكمك، وأن يكون الجميع سواسية أمام القانون. ولكن الحرية في نظر الكثير من الفلسطينيين تعني ما هو أبسط من ذلك بكثير. فالحرية تعني لهم القدرة على الانتقال من مكان إلى آخر، وأن تسافر إلى خارج بلدك، وأن توفر لأطفالك قوت يومهم. نؤمن، نحن الأميركيين، بأن لنا حقًّا بديهيًّا في الحياة والحرية والسعادة. ولكن هذا الحق في أوساط كثير من الفلسطينيين حلم بعيد المنال.

بصفتي كوزير للخارجية، كانت مسؤوليتي الأساسية هي الدفاع عن قيمنا ومصالحنا في العالم. وهي مهمة تتطلب مني أن أنشغل بالسلام في الشرق الأوسط باسم بلدي. ولكنه كان شاغلي الشخصي أيضاً. إسرائيل هي حليفتنا الأهم والديمقراطية الحقيقية الوحيدة في المنطقة. ومن مصلحة الولايات المتحدة الاستراتيجية حماية أمن إسرائيل وصونه. لهذا السبب قدّمت إدارة أوباما ما وصفه رئيس الوزراء نتنياهو نفسه بأنه «مستويات غير مسبوقة» من التعاون والمساعدة في النطاق الأمني، بما في ذلك تقديم أكبر حزمة مساعدات عسكرية في تاريخ العلاقات بين البلدين.

آمنت بأن أهم مساعدة نقدمها إلى إسرائيل هي التوصل إلى حل نهائي للنزاع مع الفلسطينيين، حتى يتمكنوا من العيش في سلام مع جيرانهم. لقد كنت موقناً من أن وقوفنا موقف المتفرج المكتوف اليدين في حين أن أطرافاً خطرة تجد لنفسها موضع قدم داخل منطقة لنا فيها مصالح حيوية، فتهددها، سيكون بمثابة تنصّل فادح من مسؤولياتنا.

إيجازاً أقول إنّني كنت أرغب في تحقيق السلام في الشرق الأوسط، لأن المخاطر كانت كبيرة، وكان هناك الكثير من الإسرائيليين والفلسطينيين العاديين؛ أغلبهم من الصغار، الذين لم يكن لهم دور في هذا الصراع، ولكنهم وقعوا في أتونه ومعاناته. فمن الظلم أن يعيش أي طفل، إسرائيلياً كان أو فلسطينياً، على هذا النحو.

خلال رحلة قمت بها كرئيس للجنة العلاقات الخارجية، قبل أربع سنوات من أن أصبح وزيراً للخارجية، تأكدت من مدى سوء الوضع؛ ومدى صعوبة السياسة إذا تسنّت لي فرصة المشاركة بشكل أكثر مباشرة في العملية الدبلوماسية. كان ذلك عام 2009، بُعَيد انتهاء الحرب في غزة، وكانت إسرائيل على وشك انتخاب رئيس وزراء جديد.

كنت أنوي السفر إلى قطاع غزة مع تيريزا. وغزة واحدة من أشد المناطق بؤساً وأكثرها كثافة سكانية في العالم، حيث الصعوبات الشديدة والفرص النادرة. فمن بين سكان غزة البالغ عددهم 8 , 1 مليون نسمة، يحتاج 3 , 1 مليون شخص إلى معونة يومية تتمثل في المسكن والمأكل. ولا تحصل معظم المنازل على كهرباء إلا لنصف يوم، و5% فقط من كم الماء المتوفر آمن للشرب. وعلى الرغم من أنها احتياجات ملحة، فإن حماس والجماعات المسلحة الأخرى لا تتوقف عن إعادة التسليح وتخصيص موارد إعادة الإعمار لبناء الأنفاق، مما يهدّد بمزيد من الهجمات على المدنيين الإسرائيليين، وهو خطر لا يمكن لأي حكومة تحمُّله.

يعاني أهل غزة تحت حكم حماس. وقد رغبت في الزيارة، حتى أقف بنفسي على الظروف، وأحيط باحتمالات وقف تصعيد العنف.

لم يزر أي وفد أميركي تلك المنطقة خلال سنوات إدارة بوش الثماني. فقد كانت منطقة غير آمنة. وكان من الصعب سياسياً الذهاب إلى منطقة تسيطر عليها بشكل أساسي منظمة إرهابية أجنبية. هكذا كنت على دراية بالمخاطر، لكنني كنت أستبعد أن تخاطر حماس بإلحاق ضرر بسيناتور أميركي. ووضعنا خطة للدخول إلى غزة تحت مظلة وكالة الأمم المتحدة لإغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى وتشغيلهم (الأونروا).

في الليلة التي سبقت مغادرتنا، جلست لتناول شراب مع جيم كننغهام، سفيرنا في إسرائيل، وأخبرته أنني كنت أخطط للذهاب إلى غزة في اليوم التالي. لم يحاول جيم تجميل رده، وقال بنبرة جافة: «لا يمكننا مساندة رحلتك، سيناتور. نحن نطلب منكم رسمياً عدم القيام بذلك» . كان يقصد في الحقيقة أن يقول: «نعتقد أن هذه فكرة مريعة، وإذا ما لحق بكم مكروه، فليس الخطأ خطأنا» . ولكنني لم أفهم سبب هذا الرفض المقنع لسيناتور أميركي. لقد سبق لقادة دول أخرى أن ذهبوا إلى غزة.

قلت لجيم: «أعلم أنك مطالب رسمياً بتحذيرنا. ولكنني ذاهب إلى غزة غداً، لذا أسألك بيني وبينك فقط؛ ما الوضع الأمني؟ هل أعرِّض حياتي للخطر؟» . عندما وجد الدبلوماسي المخضرم أنه مجبر على التحدث بصورة غير رسمية، تردّد لحظة، ثم نظر إليّ وقال وهو يخفض صوته حتى لا يسمعه أحد في المطعم: «حسناً.. ليس هناك في الغالب من خطر عليك. لكنني لم أقل لك ذلك قط» .

هذا ما كنت أود سماعه.

في اليوم التالي، أقلّتني مروحية عسكرية إسرائيلية بصحبة تسيبي ليفني، التي كانت أكثر شخصية مهتمة باستمرار عملية السلام مع الفلسطينيين. طرنا إلى سديروت في إسرائيل، التي كانت هدفاً لآلاف الصواريخ على مدى السنوات الثماني الماضية. أردت أن أطّلع بنفسي على وقوع حياة الإسرائيليين تحت تهديد مستمر. وأخبرني مسؤولون أمنيون الأمر الآتي: منذ اللحظة التي يعلمون فيها أن صاروخاً قد أطلق من غزة، يكون أمام السكان خمس عشرة ثانية فقط ليلوذوا بمكان آمن. وسمعنا عن أطفال تعرضوا لهذا الموقف طوال حياتهم.

عقب تلك الجولة، تركنا تسيبي في سديروت، وتوجّهنا إلى محطة وقود على مشارف معبر كيرم شالوم، ومنها إلى المكان الذي تنطلق منه الصواريخ: غزة.

فارقت موكبي الذي يتألف من عدة سيارت كبيرة، وجميع أفراد فريق الأمن، ودلفت إلى سيارة صغيرة تابعة للأمم المتحدة الصغيرة؛ وكان ذلك أصغر موكب يصاحبني، ومن دون أي حماية. وحده السائق مسلّح بمسدس صغير. ومع ذلك، شعرت بأن ذلك يصبّ في مصلحتنا وليس ضدنا. رأيت أن الفلسطينيين يتقبّلون استقبال، وليس تهديده ضيفٍ رفيع المستوى، مهتمٍ بمعرفة طبيعة أوضاعهم.

سبق لي أن رأيت آثار الحروب، فلم تكن المشاهد في غزة مستغربة. ولكنني تأثرت بفداحة الأزمة الإنسانية. وكأنك تتجوّل بسيارتك داخل أحد مشاهد «ماد ماكس» العبثية؛ ذلك الذي تدور أحداثه بعد خراب العالم. ولكن الفارق هو أنني أقبع في سيارة تويوتا صغيرة بيضاء.

زرنا مدرسة دولية تعرّضت للقصف، وقلت لنفسي: كيف يمكن لحماس أن تبرر استخدام أماكن مثل هذه لإخفاء الأسلحة أو لإطلاق الصواريخ منها نحو إسرائيل؟ أي وحوش يمكن أن تحوِّل مكاناً يتعلّم فيه الأطفال الصغار إلى ساحة للعنف؟ في الوقت نفسه، شعرت بإحباط عميق لأن العديد من الأطفال الأبرياء كانوا محاصرين في دوامة من العنف لم يكن لهم أي علاقة بها. وتساءلت، لحظة مروري بفتاة صغيرة وهي تلعب في حطام إلى جانب الطريق: في أي صورة يرانا هؤلاء؟ سبق أن سألت نفسي هذا السؤال في فييتنام وأفغانستان. لم أكن أريد للفتاة أن تراني شبحاً يحتمي بنافذة مضادة للرصاص، يمر بها وهو في طريقه إلى مكان أكثر أماناً. رغبت في الخروج من السيارة والتحدث إلى تلك الفتاة، ومحاولة جسْر الهوة الهائلة بين طفلة تتجول في أنقاض غزة وسيناتور أميركي يرافقه موكب. أردت أن أنظر في عينيها وأمسك يدها وأخبرها أن بلادي تهتم بأزمتها.

بعد دقائق، لم تكن لدي رغبة في البقاء في السيارة أكثر مما بقيت. فلم يكن من المعقول أن أدخل غزة من دون أن أرى الأمور عن قرب فعلاً. لم أشعر بالتهديد، ولم أعتقد أنني قد أتعرض للهجوم وسط مجموعة من الأبرياء وأمام الكاميرات. خرجت من السيارة برفقة تريزا، وبدأت بالسير نحو المدرسة. كانت هناك قافلة من الفلسطينيين توقفت وخرج الناس منها. لثانيةٍ لم أكن متأكداً إن كانوا يريدون الحديث معي أو تلقيني درساً، ولكنهم أخرجوا كاميرات وأخذوا يطرحون الأسئلة. أجريت مقابلاتٍ عفوية، لكن حذرة، على الهواء واقفاً أمام المدرسة، مما أثار قلق الموظفين التابعين لي كثيراً. حينها

داعب أحدهم تريزا قائلاً: «في أفضل الأحوال سنكون قد تحدثنا مع أعضاء جماعة إرهابية أجنبية على الهواء مباشرةً. أما في أسوأ الأحوال، فسوف نكون جميعاً على وشك الموت» .

في النهاية، حقّقت تلك الرحلة الغرض المأمول منها. عندما رأيت الرئيس عباس لاحقاً أخذني جانباً ووضع يده على كتفي وقال: «أريد أن أشكرك على ما قمت به، فصورتك وأنت تسير وسط الأنقاض كانت أكثر قيمة للفلسطينيين من ألف بيان» .

كان عباس عذب اللسان، مدافعاً قديماً عن القضية الفلسطينية، بدأ كفاحه كأحد مفوضي عرفات. وعلى مدار مسيرته، ظل متمسكاً على الدوام، بالتوصُّل إلى حلٍ وسط مع الإسرائيليين. فقد أسهم بالفعل في تعزيز هذا الجهد من خلال اتفاقية أوسلو. قبل كل شيء، وعلى مر كل تقلبات الحرب والانقسامات داخل أروقته السياسية، ظل متمسكاً بدولةٍ فلسطينيةٍ مسالمة على نحوٍ ثابت. قد يكون عباس رجلاً يصعب التعامل معه، كما تعوّد أن يقول، ويضيف أموراً معاكسة تماماً لأهدافه. وفي الوقت نفسه، فهمت أيضاً أنه كان في موقفٍ لا يُحسد عليه، فإسرائيل لم تقم أي اعتبار أو احترام لأي سلطة يتولّاها، وهو لم يكن رجل سياسة في الأصل. بل كان لاعباً مخضرماً في دوائر منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمة فتح، لم يكن يجيد التعاطي مع السياسة اليومية للشعب الفلسطيني. كان رجلاً أبيّاً، بيد أنه أحياناً كان يبدو محاصراً أو متعباً من أثر سنوات الإحباط، عاجزاً عن إظهار تطورٍ حقيقي لشعبه. كانت منظمة حماس والعناصر المتطرفة الأخرى تبرز بمنتهى العنف ذلك الإحباط الذي كان يشعر به الكثير من الفلسطينيين. أما عباس، فبكل بساطة لم يكن ينوي أن يسلك هذا الدرب. فبرغم كل الإحباطات التي يتعامل معها، ظل الرجل ملتزماً صراحةً التعايش السلمي مع إسرائيل، كما أنه في حقيقة الأمر رفع التعاون الأمني مع إسرائيل إلى أعلى مستوياته.

أردت أن يعرف الرئيس عباس أن الولايات المتحدة ستحاول فهم الموقف والتعامل بإنصاف مع كلا الجانبين. لم يكن ليحدث أي تطور إن لم تكن لدينا صدقية لدى الجانبين. عرف الرئيس عباس أنني كنت داعماً قوياً لإسرائيل، ولكن رحلتي إلى غزة أسهمت في مد جسور الثقة بيننا. كان الفلسطينيون بحاجةٍ إلى معرفة وجهة نظرهم، أو الشعور على الأقل بأنني أتفهّمها.

أيضاً، دفعت نهاية الحرب في غزة إسرائيل إلى مفترق طرق من الناحية السياسية، وهو أمرٌ لمسته أولاً خلال تلك الرحلة. كان الإسرائيليون قد أنهوا من فورهم الاقتراع في انتخاباتٍ عاجلة. كان لزاماً على الرئيس شيمون

بيريز أن يختار ما بين بيبي نتنياهو وتسيبي ليفني لتشكيل ائتلاف. فازت تسيبي بمقعدٍ زائد في الكنيست عن نتنياهو، الأمر الذي منحها فرصة أولى افتراضية لتشكيل حكومة جديدة. ولكن كانت لبيبي اليد العليا، حيث كان هناك المزيد من الأحزاب في تيار اليمين الوسطي ينوون الانضمام إليه.

تناولت عشائي مع بيبي بفندق دافيد سيتاديل في الليلة السابقة لسفري إلى غزة. تحدثنا عما قد يحدث إذا تولى رئاسة مجلس الوزراء. كما تحدثنا عن الفرص المتاحة في القضية الفلسطينية. أعرب بيبي عن رغبته في إنهاء الصراع، ولكن بشكوكه المعتادة حيال الفلسطينيين، وبقيوده ومماطلته المحتومتين بشأن إمكانية الوصول إلى اتفاق.

لطالما سمعت آراء مختلفة من بيبي في هذا الشأن لأكثر من عشرين عاماً. في البداية جلسنا معاً، عندما لم يكن أيٌ منّا يشغل منصباً. كان يعمل في كامبريدج، وكنا نتقابل أحياناً لارتشاف القهوة في ميدان هارفارد. لطالما كانت أحاديثنا مشوّقة. استمتعت بالمداولات التي شهدتها مناقشتي الواسعة النطاق معه. كان مرحاً ودافئاً وصاحب ضحكةٍ عميقة جداً. كذلك كان حذراً في كلماته كما يفعل السياسيون المخضرمون. وقد تخلّل محادثاتنا على مر السنين خوف حقيقي حيال أمن إسرائيل. لم أتفق معه دائماً بشأن كيفية تحقيق ذلك الأمن، ولكنّني قدّرت وطنيته وإخلاصه لبلاده. كان قد فقد أخاه يوني في عملية عنتيبي عام 1976، وهي عملية إسرائيلية جريئة وناجحة قامت بها قوات الدفاع الإسرائيلية لإنقاذ رهائن إسرائيليين من مختطفيهم في مطار بأوغندا. لطالما كانت قضية الأمن أمراً شخصيًّا تماماً في نظر بيبي ... احترمت ذلك.

في تلك السنوات، عندما كنا معاً في السلك السياسي، أجرينا باستمرار مبادلاتٍ سياسية واستراتيجية قوية وسريعة. أتذكر يوم قال لي: «أتعلم؟ لو كانت لدينا سلطة التصرف في حكومتينا، لحقّقنا الكثير معاً» .

لم أنسَ هذا مطلقاً، وخصوصاً عندما أصبحت وزيراً للخارجية، وأصبح هو رئيساً للوزراء.

لطالما كان مشوِّقاً أن أقارن بين محادثاتي مع بيبي بشأن الفلسطينيين بمحادثاتي مع تسيبي في الشأن نفسه. كان بيبي يقول: «أنا متقبّلٌ حل هذه المشكلة إذا جرت تلبية كل احتياجاتي» . تضمن ذلك احتياجاته السياسية مع ائتلافه.

على النقيض، كانت تسيبي تقول: «هذه المشكلة تستنزف روح بلادنا، علينا حلها، وأنا أؤمن بأن هذا ممكن» . كان بيبي يحبّذ قول «لا مجال هناك للأعذار» ، بينما تقول تسيبي: «نحن، إسرائيل، نحتاج إلى حل هذه المشكلة، ونحتاج إلى مساعدتكم» .

جالت هذه الآراء المتناقضة في رأسي عندما سافرنا جواً مع تسيبي إلى أسديروت في نهاية شباط/فبراير 2009. كانت إسرائيل بين خيارين: إما طريق السلام وإما طريق العدوان. وصل التوتر في إسرائيل إلى ذروته.

قرر بيريز السماح لبيبي بتشكيل ائتلاف. علمت أنا وتسيبي بالخبر في اللحظة نفسها، عندما هبطت بنا الطائرة في أسديروت. آنذاك حاصرها المراسلون الصحفيون من كل حدب وصوب.

لم يفاجئني اختيار بيريز؛ فقد كان بيبي أحد أفضل السياسيين الذين قابلتهم. كان بارعاً في تحريك الغرف الخلفية والتفاوض على حد سواء. كان ليصبح في حياته السابقة زعيماً سياسياً عظيماً مخضرماً في بوسطن، يضع السيجار في فمه ويحسم الصفقات. بينما كانت تسيبي، على الطرف الآخر، مدافعة في المقام الأول وقبل كل شيء عن السلام. كانت متحمِّسة للسياسة ولبلادها. وبقدر حماس بيبي لأمن إسرائيل، كان متحمساً أيضاً للسياسة. ربما كان بيريز يفضِّل إخلاص تسيبي للسلام. ولكن لم يكن، كونه رئيساً، ليتجاهل أن بيبي كانت لديه فرصة أفضل لتشكيل ائتلافٍ حاكم.

ولما اكتمل تشكّل الحكومة الجديدة، شعرت من فوري أن الطريق نحو السلام مع الفلسطينيين أصبح أطول كثيراً وأكثر حدّة أيضاً. عرفت من سنوات نقاشاتي مع بيبي أنه كان الأعمق تفكيراً بين الزعيمين. شكّل بيبي ائتلافاً واسعاً تضمّن العديد من تيار اليمين الذي لم يرغب في دولةٍ فلسطينية. ولكنّني أعرف أيضاً أن بيبي كان مهتماً بأمر التاريخ. ولطالما ظننت أن الأمر يستحق أن نختبر إن كان حسن نيته تجاه اليمين قد يذهب به إلى لحظةٍ فارقة، تماماً مثل آرييل شارون. لو كنت يوماً في منصبٍ يجعلني أعمل في عملية سلام الشرق الأوسط مباشرةً، لخطّطت بالتأكيد كي أعرف ذلك.

عندما أصبحت وزيراً للخارجية سنة 2013، تحدثت إلى صديقي، جورج ميتشل، مبعوث إدارة أوباما الخاص إلى مفاوضات الشرق الأوسط.

أعجبتني مهارات جورج في التفاوض. ساعده انتباهه للتفاصيل وسلوكه الهادئ خلال مواقف شائكة كثيرة. أبلى بلاءً حسناً في التفاوض على اتفاق الجمعة العظيمة في أيرلندا أثناء إدارة كلينتون. وقد دقت خبرة جورج في

جهود السلام بالشرق الأوسط عدداً من نواقيس الخطر؛ أهمها أنه حذّر من إضاعة الوقت ورأس المال السياسي الهائلين في محاولة الوصول إلى تجميدٍ جزئي للاستيطان كشرطٍ مسبق للتفاوض. كما أكد أهمية رسم خارطة طريقٍ حذرة في أي اجتماعٍ منفرد بين بيبي وعباس. كم كانت نصيحته مفيدة!

عندما اجتمعت مع الرئيس أوباما لأول مرة في البيت الأبيض، وأعربت له عن اهتمامي بمحاولة إعادة تنشيط عملية السلام، كان متشككاً للغاية، وبدا أن لديه من الأسباب ما يدفعه إلى ذلك. شعر بالإحراج من جهوده خلال فترته الأولى. أوضحت القضية له أن الفرص الإقليمية والأمنية والاقتصادية الجديدة قد تغيِّر من سير الأمور. كما حدثته عن نية بيبي تقديم حلول وسط جادة من أجل سلام دائم. ثم تحدّثت إلى الرئيس عن اعتقادي بأن الفكرة تستحق التجربة على الأقل. أصغى باهتمام، ثم نظر إليّ وقال ببساطة: «انظر، أنا متشكك، ولكنّني أدعمك إذا أردت التجربة» . وإحقاقاً للحق، لطالما كان داعماً لي في هذه القضية عندما احتجت إلى دعمه. منحني الرئيس حرية عمل هائلة من أجل تجربة دفع العملية إلى الأمام.

بعد عقودٍ من التخبط والنجاحات الوشيكة والفرص الضائعة، بدت عناصر السلام الأساسية راسخة إلى حدٍ ما. بيد أنني عرفت أن إعادة المحاولة في أمر جرت المحاولة فيه مراراً لن تسفر عن شيء. آنذاك ظهرت عناصر العملية التي جعلت الإمكانيات مؤاتية أكثر مما سبق، وهي الدعم الإقليمي، والمبادرة الاقتصادية، والأمن على رأس كل ذلك. أردت أن تسير عملية السلام بخطى أكثر ثباتاً مما سبق، سيراً على الخطوط الثلاثة.

في البداية كان العمل الإقليمي. ففي العام 2002، أعلن الملك عبد الله، عاهل المملكة العربية السعودية، عن مبادرة السلام العربية، التي تعرض علاقات مطبّعة بالكامل بين كل الدول العربية وإسرائيل إثر الوصول إلى اتفاقية سلام مع الفلسطينيين. أتذكَّر زيارة مقر عمل عرفات في رام الله في كانون الثاني/يناير 2002، بعد عام ونصف العام من قمة كامب دافيد التي جمع فيها الرئيس كلينتون الجانبين. وقع انفجار أحدث فجوة هائلة في جانب المقر، كان هذا قبل أقل من عامين من وفاة عرفات. مال ناحيتي أثناء العشاء وهمس: «كان خطأً أن أرفض صفقة كلينتون» . كنت أعرف سابقاً أن واحداً من الأسباب التي أسهمت في إخفاق قمة كامب دافيد أن المنطقة لم تكن مشاركة كفاية في توفير الغطاء السياسي الذي أحتاج إليه عرفات. كما وضعت في اعتباري خبر اتصال الرئيس كلينتون حينها بنظيره المصري حسني مبارك من كامب دافيد ليلة مغادرة الجميع. طلب الرئيس كلينتون الدعم من مبارك. ونقلاً عن مبارك الذي حكى لي القصة، فإن رده كان «أي دعم؟» كانت

الرسالة واضحة لي. لم تكن الأرضية مجهزة كفاية بالتعاون مع القادة العرب في المنطقة.

تعهدت منذ خطواتنا الأولى أن نضمن مشاركة الدول العربية في كل خطوة نخطوها، والتي كان من الضروري أن تشعر بحرية تحرُّكنا في كلا المسارين في الوقت نفسه، ومما دعم الفلسطينيين ومنح إسرائيل السلام مع العالم العربي. وكلاهما كنا نراهما ضروريّين للوصول إلى اتفاقٍ نهائي.

في طريقي إلى مكتب وزير الخارجية، أمضيت وقتاً كافياً في الحديث مع جيم باكر، وزير الخارجية الأسبق، بشأن جهوده في عملية السلام، وخصوصاً محاولته في مدريد عام 1991 المتمثلة في دعوة الدول العربية إلى طاولة المفاوضات. اتفقنا على أن عنصر التعاون الإقليمي كان مؤاتياً أكثر من أي وقت سبق.

فهم فريقنا أهمية أن نبيّن لإسرائيل خارطة الطريق التي نعدّها من أجل السلام مع جيرانها. ووفقاً لذلك، فإن واحداً من أول الأشياء التي قمت بها، كان دعوة أهم الزعماء الذين كانوا أعضاءً في لجنة مبادرة السلام العربية إلى نزل ضيافة الرئيس (بلاير هاوس) بالعاصمة واشنطن لعقد اجتماع. أتذكّر الشعور بتيارٍ من الطاقة داخل الغرفة. فالجميع كانوا يستشعرون الإمكانيات التي كانت تلوح بالأفق. كان لهؤلاء الزعماء دور محوري. وقد اجتمعت بهم بصورةٍ منتظمة لضمان اطلاعهم الكامل على القضية والحصول على دعمهم. كانت مبادرة السلام العربية قد مهّدت الطريق نحو سلامٍ عربي - إسرائيلي. بيد أن بعض عناصر الخطة كانت بمثابة معضلةٍ لإسرائيل. أحد تلك العناصر قيام دولة فلسطينية بحدود العام 1967 من دون أي إشارة إلى المستنقعات. كانت المستنقعات ذات أهمية قصوى لإسرائيل، بالنظر إلى المستوطنات في الضفة الغربية. كانت هناك تطورات إسرائيلية كبرى تجري في ثلاث مناطق أو أربع بالقرب من الحدود، حتى أن الكل تقريباً قد أجمعوا في الأساس على أنها ستدخل ضمن الأراضي الإسرائيلية. كانت هناك فرضية مقبولة منذ زمن بأن هناك مستنقعات، إلا أن مبادرة السلام العربية لم تعكس ذلك.

استغرق الأمر شهوراً من الأعمال الدبلوماسية التحضيرية المكثفة مع السعوديين وغيرهم. وقد تضمّن نقاشاً منفرداً مع وزير الخارجية القطري، رئيس لجنة متابعة مبادرة السلام العربية، من أجل إتمام الاتفاق. أبدى الزعماء العرب بادرة مهمة، جوهرياً ورمزياً، عندما أعلنوا صراحةً، وللمرة الأولى، أن الحدود النهائية ستشمل المستنقعات.

كان هناك تحدٍّ مبدئيّ مهمّ آخر وجب تخّطيه، إن لم يكن التعامل معه كافياً، هو الشكوك الفلسطينية. أعرب الفلسطينيون عن قلقهم من أن الإسرائيليين والأميركيين سيشكلون معاً حزمة من المبادرات الاقتصادية ويسمَونها سلاماً. كانوا مصرّين على أن «سلاماً اقتصادياً» لن يؤدي مطلقاً إلى اتفاقٍ نهائي حقيقي. وفي الوقت نفسه، كنا نظنّ أن تحسين الاقتصاد الفلسطيني قد يساعد على بناء الثقة في إمكانية السلام.

ولهذا، ركّزنا في مبادرة رئيسية جديدة بشأن الاقتصاد الفلسطيني. كانت الفكرة واضحة: فلسطين مزدهرة لا تشكّل تهديداً أمنياً كبيراً. كلّفنا شركة ماكنزي وشركائه بتحليل الاقتصاد الفلسطيني. وافق دومينيك بارتون، المدير التنفيذي لشركة ماكنزي وشركائه، على التبرُّع بوقت الشركة، فقدّم ثمانمائة ساعة عمل بل أكثر. وأوضحت الدراسة الأمر الآتي: لو سُمح للفلسطينيين بتطوير اقتصادهم، لأصبح تحوُّل مستوى الحياة عاملاً حاسماً. ولكن لن تتحقق أفضل الإمكانيات مالم يكن هناك سلام.

كانت القطعة الأخيرة من الأحجيَّة هي الأخرى الأكثر أهمية. من جديد، قال لي رئيس الوزراء نتنياهو: «الأمن هو الأساس. يجب أن تبقى إسرائيل قادرة على الدفاع عن نفسها بنفسها. كما كان يذكّرني بانسحاب إسرائيل من قطاع غزة قائلاً: «ها قد انسحبنا من غزة، وانظر النتيجة؛ صواريخ وأنفاق. لا يمكننا تحويل الضفة الغربية إلى غزة جديدة» . أوضحت لبيبي الفكرة الآتية: لو حقّق السلام بالفعل، وتوصّل إلى اتفاقٍ بشأن علاقةٍ مستقبلية قائمة على الأمن مع دولةٍ فلسطينية غير مسلّحة، فسيكون هناك مجالٌ للتأكد من أن الضفة الغربية لن تتحول إلى غزة جديدة. لطالما كانت احتياجات إسرائيل الأمنية المشروعة أولويتنا الأولى منذ البداية. أخبرني بيبي قائلاً: «دعك من كل أعذاري» . حاولنا فعل هذا حتى عندما شككنا بأن قائمة الأعذار لن تنتهي أبداً. كان لزاماً علينا أن نفكّر بشأن الأمن بكل طريقةٍ ممكنة.

عرفنا أن من الضروري أن يضع الخطة خبراء عسكريون، لا سياسيون. ومن أجل قيادة هذا المجهود غير المسبوق، استعنّا بالجنرال جون ألين، ضابط البحرية المتقاعد ذي النجوم الأربع، الذي قاد القوات الأميركية وقوات التحالف في أفغانستان. كان جون الرجل المناسب للمهمة. كان يحظى باحترامٍ واسع، وعرفت أنه كان سيبذل قصاراه في هذه المهمة، وأنه كان سينال احترام زملائه في إسرائيل وفي الخليج. ومنذ اليوم الأول، أصبحت الأمور كلها طوع بنانه.

كانت إسرائيل، بناءً على مباحثاتٍ سابقة، قد طرحت عشرات الأسئلة المفصَّلة بشأن الأمن. وكان من المفترض أن تشكِّل الإجابات لبنات البناء

الأساسية لمبادرتنا الأمنية. تلك كانت نقطة بدايتنا. نسّقنا مع الأردنيين والفلسطينيين لتصميم نهجٍ مفصّل يساعد على ضمان أمن إسرائيل، مع احترام السيادة الفلسطينية على حد سواء. لم يكن الملك عبد الله، العاهل الأردني، ليصبح أكثر تعاوناً مما كان. كان مبدعاً، وبعد سنين من بذل الجهود، بات خبيراً بكل مفاصل القضية وكل حساسياتها. وبالنظر إلى أنه أثبت موقعه شريكاً لإسرائيل، كان في موضعٍ يسمح له بتحصيل مكسبٍ خاص.

شكلنا فريقاً منفصلاً لتقييم الاحتياجات الأمنية الفلسطينية في سياق الدولة. توقّعنا أن تستمر الولايات المتحدة في أداء دورٍ محوري مسهمة في بناء قدرةٍ فلسطينية مؤسسية، وتعزيز إمكانيات حفظ القانون والنظام، والتعاون في وضع نظامٍ قضائي فعال، ومحاربة الإرهاب والتهريب، والسيطرة على أمن الحدود والجمارك والهجرة. عرفنا أن هذا المجهود سوف يتطلب لبعض الوقت حضوراً لجيش الدفاع الإسرائيلي في الضفة الغربية. أدركنا جميعاً، كما أدرك الفلسطينيون، أن ثمة حاجة إلى وضع بروتوكول تعاون إسرائيلي - فلسطيني يُختبر على مدى وقتٍ ممتد، حتى يتسنّى لإسرائيل الثقة بالتزام الفلسطينيين وأدائهم للخدمات الأمنية. كان لزاماً التفاوض على مدة التعاون بين الجانبين وظروفه. قمنا أيضاً بوضع معايير موضوعية يمكن من خلالها تقييم الأداء على الوجه الأدقّ. كنا ملتزمين ألا ندع الأمور على عواهنها. كما سمحنا تماماً بالمدة الكافية لتدريب المؤسسات الفلسطينية وبنائها وتجهيزها واختبارها. وكنا مصّرين على ضمان أن يكون الجانب الفلسطيني قادراً على حماية المواطنين الفلسطينيين فضلاً عن حماية ممتلكاتهم من استغلالها لمهاجمة إسرائيل. ظلت تلك الجهود موضع تركيز على مر السنوات الأربع التالية.

بدأت الخطوة السابقة لعملية التفاوض جدياً، عندما ألقى الرئيس أوباما خطاباً مهماً في إسرائيل في آذار/مارس 2013، مؤكّداً من جديد أهمية حل الدولتين وتمكيني من محاولة منح عملية السلام فرصة جديدة. وبعد أيام، قابلت بيبي في فندق كينج دافيد. سأتذكّر دوماً ما قاله لي عندما نظر إلى عينيَّ مباشرة: «جون، أريد أن أمنح هذا الجهد فرصةً أخرى، ولكنْ هناك أمران يجب أن تعرفهما؛ أولاً: أن كل الناس في هذه المنطقة يكذبون كما يتنفّسون، وأنتم أيها الأميركيون يصعب عليكم فهم هذا، ثانياً: إن أقصى ما يمكنني فعله قد يكون أقل مما قد يقبله عباس» .

لازمتني كلماته من غير ريب. ربما كان بيبي يصعّد من الوضع على نحوٍ غير مسبوق.

كان واضحاً منذ البداية أن الفلسطينيين قد تكبدوا تكلفةً سياسية، لأنهم ببساطة تفاوضوا مع الإسرائيليين. كان الفلسطينيون مشكّكين على نحوٍ كبير في جدية إسرائيل، وعلى الأخص في رئيس وزرائها نتنياهو، بشأن السلام. فقد طرح حديث عباس في فندق كينج دافيد أسئلة مماثلة معنا. وقد تفهّمنا قلقه حيال الدخول في مفاوضات مخفقة تركته يبدو ضعيفاً أمام شعبه المتشكك. أخذ عباس يدخن السيجارة تلو الأخرى، موضحاً أن إسرائيل يجب أن تمنحه شيئاً، قبل الانخراط في المفاوضات، يعزّز به صدقيته في فلسطين، ويؤكد جدية نتنياهو. كان مُصرّاً على وجوب أن تطلق إسرائيل سراح المعتقلين في سجونها من قبل اتفاقية أوسلو، والذين كانت لهم قيمة رمزية لدى الفلسطينيين، على الرغم من أن بعضهم كان مداناً بهجمات إرهابية شائنة، وذلك قبل أن يستأنف المفاوضات مع إسرائيل على أساس حدود العام 1967، أو تطبيق تجميد الاستيطان.

رفض الإسرائيليون التنازلات الثلاثة كلها، فتُركنا أمام خيارٍ واحدٍ صعب، هو؛ الخروج بمجموعةٍ من الحوافز الاقتصادية الكافية لإقناع الفلسطينيين بالموافقة على العودة إلى طاولة المفاوضات. قمت بزياراتٍ عديدة إلى القدس ورام الله في ربيع ذلك العام وصيفه، من أجل المساومة على الشروط المسبقة التي أضاعت وقتاً غالياً وعزّزت الشكوك وبدّدت الآمال.

كنت، كمدَّع، قد تفاوضت بما فيه الكفاية في مجلس الشيوخ، لأعرف متى أكون في جانبٍ يريد إتمام المهمة. كان نهج الإسرائيليين في المفاوضات التأكد من أنهم سيستطيعون الدفاع عن كل كلمة كُتبت؛ وأيضاً التأكد، بحسب اعتقادي، من كثرة عددهم لكي لا يعرف أحدٌ ما يجري. أدرك الفلسطينيون أنه لو تسرب مستندٌ واحد سيُغلبون على أمرهم لا محالة. لذلك كانوا يريدون الحفاظ على سياسة إنكار كل شيء من خلال تجنُّب كتابته في المقام الأول.

ولكن ذلك عزّز من انعدام الثقة. فقد اعتقد الفلسطينيون أن الإسرائيليين كانوا يضعون العراقيل والثغرات في كل جملة، حتى يجري إبطال أي التزامٍ واضح في الواقع. كما أن الإسرائيليين رأوا أن الفلسطينيين يمانعون التزام أيٍ شيء مكتوب، وكأنهم يعدون الطريق للهروب، مما يتسق مع رواية أن الفلسطينيين كانوا دوماً يهربون من الاتفاقات.

في حزيران/يونيو، أي بعد عدة أشهر من العمل، اجتمعنا مع بيبي في جلسةٍ مهمة بفندق دافيد سيتاديل، لوضع اللمسات الأخيرة على مجموعة من الحوافز الاقتصادية لتقديمها إلى عباس. عندما انتهينا حوالى الرابعة والنصف صباحاً، كان من ضمن الأشياء التي اشتركت فيها مع بيبي الرغبة في العمل حتى وقتٍ متأخر من الليل. ذهبت مع فرانك لوفنشتاين، مستشاري المخضرم

لشؤون الشرق الأوسط، في جولةٍ وسط القدس. كان والد فرانك يُدعى «آلارد لوفنشتاين» ، اغتيل قبل عقود. ولَّد الاغتيال في نفس فرانك شعوراً بالأسى، ولكنه ولّد أيضاً شعوراً بالهدف. أراد أن يجعل العالم مكاناً أكثر إنصافاً. كان متحمِّساً للسلام في الشرق الأوسط، وفهم تفاصيله البسيطة كما يفعل أي شخص.

بينما كنا نسير في أرجاء الشوارع المهجورة على نحوٍ مخيف لهذه المدينة البارزة التي كانت في قلب هذا الصراع بأكثر من شكلٍ، فاجأني التحدي من غير ريب. أتذكّر عندما أخذت أهز رأسي، وأقول لفرانك: «هذا أمرٌ سخيف مئة في المئة. إذا كان لزاماً علينا الشجار مع الإسرائيليين على كل كلمة للتوصُّل إلى اتفاق بشأن سلسلة من الخطوات الاقتصادية التي نتفق على أنها في مصلحة الجميع، فكّر كيف سيكون الوضع عندما نصل إلى القضايا الكبرى!» .

بحلول شهر تموز/يوليو، كان لزاماً علينا أن نتابع طريقنا، أو نتنحّى تماماً. توجّب علينا أن نحدّد الخطوط الجوهرية لكل جانب من أجل استكمال المحادثات. كبّدتنا هذه العملية أربعة أيام حاسمة في عمّان. كان هناك انتقادٌ متزايد في الصحافة بأنني أضيع الوقت على هذه القضية. كنا قد تراجعنا وتقدّمنا مع كلا الجانبين مرات عديدة أكثر مما أتذكر. أردت أن أضع نهاية لهذه العملية التحضيرية.

عرفت أن أياً من الطرفين لم يكن ليتصرف من دون موعدٍ نهائي، لذا وضعت موعداً وجعلت الجميع يعرفون أننا إذا لم نتوصل إلى اتفاق، فسوف ينتهي أمرنا.

لم أكن لأعود إلى إسرائيل من دون رفع سقف التوقعات لعمليةٍ عرفت أنها قد تخفق. رتّبنا أمورنا لعقد اجتماع قمة عربية في عمّان كعذرٍ للذهاب إلى هناك. كنت قد توصّلت أخيراً إلى اتفاق مع الإسرائيليين بشأن حزمةٍ اقتصادية لعرضها على الفلسطينيين. طلبت من الرئيس عباس الحضور إلى مقر إقامة ستو جونز، السفير الأميركي في عمّان. كان العرض واضحاً تمثّل في الحزمة التي ارتأى الإسرائيليون أنها خطوات اقتصادية غير مسبوقة لجعل عباس يعود إلى طاولة المفاوضات، والتفاوض على القضايا في وضعها النهائي. كان عباس متشككاً، فقد سمع تلك الوعود الاقتصادية في الماضي، ولم تكن ذات قيمة جوهرية أو سياسية في نظره. تابعت الضغط. قال إن صائب عريقات، ذراعه اليمنى، سيعود الأسبوع المقبل ليعطي جواب عباس النهائي على العرض الإسرائيلي.

كان صائب من أكثر الشخصيات المثيرة للاهتمام التي صادفتها. خبرته لأكثر من عشرين سنة. كان يدرك الإنجازات والإخفاقات التي مرت بها عملية السلام. كما كان يعدّه البعض مسؤولاً عن الإخفاقات، وكان هؤلاء يسألون: «ما السلام الذي حقّقه على مدار سنواته؟» .

كان صائب ذا فهمٍ جيدٍ للقضايا أكثر من أي شخص قابلته. ولكنه كان أحياناً يدع إحباطه وشكوكه المتزايده تقف في طريق مفاوضاته. على الجانب الإيجابي، كان ملتزماً على نحوٍ ثابت نبذ العنف.

كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة، مستخدماً لازمة لطيفة تقول: «هل تراني أحمل لافتة فوق رأسي كتبت عليها كلمة غبي؟» . بيد أن الرجل قد يكون متقلباً وعاطفياً وغير متوقع أيضاً، وبقدر سحره كان مستفزاً، مع ميله إلى إلقاء خطبٍ لاذعة طويلة وتصريحاتٍ مثيرة. رداً على موعدي النهائي، أخبرني أن عباس لن يتمكّن من إقناع الشعب الفلسطيني بالخطوات الاقتصادية، خصوصاً وأن الشعب كان يشعر بأنها كانت مجرد إجراءات مجذومة هدفها شراء الفلسطينيين. كان الشعب الفلسطيني يرى أن الموضوع الوحيد المهم هو إقامة دولة على أرضٍ هم ساكنوها منذ زمنٍ طويل.

وفضلاً عن ذلك، كانت حماس المنافس الأول لعباس. فكلما دخل في مفاوضات مسدودة بدا ضعيفاً أمامها. كانت حماس قد أمّنت من قبل إطلاق سراح مئات المعتقلين الفلسطينيين البارزين في مقابل تحرير جلعاد شاليط، جندي جيش الدفاع الإسرائيلي المختطف. شعر عباس أنه لن يستطيع قبول ما هو أقل من إطلاق سراح سجين بارز من أجل العودة إلى طاولة المفاوضات. ظل مُصرّاً على أن إسرائيل إما أن تحرر معتقلي ما قبل أوسلو، وإما أن توافق على حدود العام 1967، وإما أن تطبق تجميد الاستيطان.

اتّصلت ببيبي وقلت له: «بيبي، نحن في نهاية المطاف، ولقد بذلت كل ما في وسعي. إن لم ينجح الأمر، فهذا مقتضاه ... ولكن عليك أن تقرِّر، فالسبيل الوحيد لإتمام هذا الأمر هو تحرير معتقلي ما قبل أوسلو. الشكوك آخذة في الازدياد. يجب أن يحدث أمر ما لتحريك المياه الراكدة، مالم تكن موافقاً على حدود العام 1967، أو تجميد الاستيطان، فلا خيار آخر أمامك» . عرفت أن من المستحيل أن يوافق بيبي على حدود العام 1967، أو تجميد الاستيطان. قلت له بعباراتٍ غير مؤكدة: «إن لم تكن تريد إطلاق سراح المعتقلين، فإنني أتفهّم موقفك، بيد أن هذا الأمر لن يفلح، ولقد خبرته تماماً» .

كان بيبي يصر إصراراً تاماً على أن إسرائيل لا تنوي إطلاق سراح معتقلي ما قبل أوسلو. وعندما واجه هذا الموعد النهائي، قال لأول مرة:

«حسناً، دعني أنظر ما يمكنني فعله» .

كانت الصحافة في الأسفل، في بهو الفندق بعمّان، وكانت أيضاً على علم بأننا نعمل على دفعةٍ أخيرة، بينما تشك في قدرتنا على ذلك.

سأل فرانك لوفنشتاين إن كان عليه العمل على الخطة «ب» مع صائب وتسيبي مالم يطلق بيبي سراح المعتقلين. ولكنّني قررت الإبقاء على الضغط مستمراً. قلت له: «لا، قطعاً لا، إذا منحت الطرف الآخر مخرجاً فسيستغله بالتأكيد» . والخطة «ب» ستؤدي إلى الإخفاق لا محالة.

إذا ادّعى الناس بأنني حاولت وأخفقت، فيمكنني تقبل هذا، ولكنني لن أقبل أنصاف حلول تدع الإسرائيليين والفلسطينيين يتخبّطون.

«انظر، إن لم تكن هذه العملية جادة، فأنا لن أضيع فيها مزيداً من الوقت، وسوف نعرف هذا الآن» .

كان الوقت يمر سريعاً، بينما رجع بيبي إليّ وقال إنهم ينوون إطلاق سراح المعتقلين على أربع دفعاتٍ منفصلة مقسّمة على المدة المتفاوض عليها. ولكنهم كانوا بحاجة إلى التزامٍ أكيد من جانب الرئيس عباس عدم الانضمام إلى أي منظمات دولية كجزء من جهوده في شرعنة الدولة الفلسطينية خارج إطار عملية التفاوض. قال بيبي إنه بحاجة إلى بناء المستوطنات من أجل أن تستمر سياسته، ولكن الأعداد التي أعطاني إياها كانت أقل كثيراً من الأعداد التي أعلنها الإسرائيليون صراحةً، خصوصاً وأن الإسرائيليين كانوا يرون أن علينا ألّا نعتبر أي بناءٍ في القدس الشرقية مستوطنة، وأيضاً بسبب عملية تطوير المستوطنات الغامضة المبهمة التي يسهل توجيه الغرض منها لخدمة أي غرض.

توجهت إلى رام الله فور حصولي على توقيع بيبي، لأرى إن كان عباس سيوافق على الصفقة. أوضحت لعباس مسألة الدفعات. قلت له إن إسرائيل ستقوم بإعلان بعض المستوطنات، وسنحاول جعلها محدودة قدر الإمكان. وافق عباس على الصيغة في ظل اندهاشه من تأمين إطلاق سراح معتقلي ما قبل أوسلو.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

توجّهنا جوّاً إلى عمّان بعد مغادرتنا مقرّ عباس. وصلنا قبل ساعة ونصف الساعة من موعد إقلاع الطائرة. اتّصلت بالبيت الأبيض، وناقشت

الشروط النهائية، ثم أعلنت في مؤتمرٍ صحفي أن الجانبين قد وافقا على استئناف المفاوضات مبدئياً، في انتظار موافقة مجلس الوزراء الإسرائيلي. بالنظر إلى حجم ما حقّقناه، بدا الأمر كإنجازٍ هائل. ولكن خلال رحلتي الجوية عائداً إلى الوطن، شعرت بثقل الأيام الماضية؛ فقد شكّلت الشكوك المتبادلة والارتياب حاجزاً صعباً.

كانت الأخبار الجيدة أننا اتفقنا على استئناف مفاوضات السلام لمدة تسعة أشهر، لكن السؤال عندئذ أصبح على النحو الآتي: كيف ننظم تلك المحادثات؟ لقد تسمّمت البئر منذ فترة طويلة. كنا بحاجة إلى مفاوض خبير لإدارة العملية، ولم يبدُ أن أيًّا من الأطراف لديه مثل هذا المفاوض. لذلك طلبت من مارتن إنديك تولّي مسؤوليات المبعوث الأميركي الخاص للمفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية. كان مارتن هو من سيقود المفاوضات اليومية في إسرائيل والضفة الغربية، بينما يواصل فرانك العمل كنائب المبعوث، وكمساعدي المؤتمن في واشنطن.

وقد أدّيا عملاً رائعاً في ظل ظروف صعبة جداً. مارتن، مواطن أميركي بالتجنُّس، ولد في بريطانيا ونشأ في أستراليا، وجعل السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين قضية عمره. فمنذ تولّيه منصب سفير الولايات المتحدة في إسرائيل في فترة رئاسة الرئيس كلينتون، وخلال تولّي بيبي لرئاسة الوزراء للمرة الأولى، حتى عمله مع وزيرَيِ الخارجية وارن كريستوفر ومادلين أولبرايت، جاء بفهم واعٍ للدبلوماسية في الشرق الأوسط. فإضافة إلى نظرته التاريخية غير العادية وعلاقاته الطويلة الأمد بالجانبين، وربّما بسببهما، كان مارتن يتمتع بوعي حاد لكثير من مفارقات الشرق الأوسط. كان من الجيد أن ينضم إلينا دبلوماسي في مهارة مارتن. وقد ساد الوئام بسهولة بين فرانك ومارتن، وتشاركا في حس فكاهي عابث.

لكن، فضلاً عن كل شيء، كان مارتن واقعياً. لقد جلب على المهمة ريبة مبرّرة في رغبة كلا الزعيمين في الوصول إلى السلام. تلك الريبة كانت وليدة بعض اللحظات الصعبة في علاقته برئيس الوزراء نتنياهو في زمن إدارة كلينتون، مقترنة بمعرفته قدرة الفلسطينيين ألّا يفوّتوا على أنفسهم الفرصة أبداً.

بعد أسبوع بلا نهاية في العمل على مواجهة المشكلات التي تطرأ في اللحظات الأخيرة، جاء وفدا المفاوضات الإسرائيلي والفلسطيني أخيراً إلى واشنطن. لكن المفاوضات كادت تنهار حتى من قبل أن تبدأ. فقبل المؤتمر الصحفي الأوّلي، شهدت قاعة الاستقبال التي تشغل الدور الثامن في وزارة الخارجية. لقاءً قصيراً جمعنا كلّنا. وقد راجعنا بياناتنا للتأكد من وجود تفهم

مشترك للأمور. وبعد الاستماع إلى المقدمات المبتذلة بشأن عملية السلام، والمتوقعة مني ومن تسيفي ليفني، التي شاركت في رئاسة وفد المفاوضات الإسرائيلي مع إسحاق مولهو الذي مثّل بيبي، كنا ننصت من دون انتباه كامل عندما قال صائب، «أتطلع إلى مفاوضات على أساس خطوط العام 1967» ، وكأنه يزجّ بشكل عارض نقطة تفاوض حرجة كتعليق جانبي.

في أقل من ثانية، تحوّل الجميع من حالة اللغو إلى الحالة الأولى للاستعداد الدفاعي. «ماذا تقول يا صائب؟» ، قلناها جميعاً في صوت واحد بينما جلس صائب في عناد وقال: «بالطبع، هذا ما نتفاوض بشأنه» . لم يتزحزح عن موقفه، لذا كان لا بد أن أخرج به إلى مكانٍ آمنٍ في غرفة الطعام المجاورة المزخرفة والخاصة بالوزير، وأن أقول له بكلماتٍ لا تقبل الشك أن يكف عن هذا الهراء. لا حاجة إلى القول إننا، بحلول وقت خروجنا لمقابلة الصحافة، كنا جميعاً قد أفقنا من نشوتنا قليلاً. وإذا بدت الابتسامات في ذلك المؤتمر الصحفي كاذبة، فلأنها كانت كذلك.

بعد انقضاء المؤتمر الصحفي من دون أن يخرج صائب بشكل مشؤوم عن النص، مضينا جميعاً إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس أوباما. كانت هذه فكرة الرئيس، وقد رحبْتُ بها طبعاً، لأنها بمثابة إشارة إلى التزامه العملية.

كان الاجتماع من ناحية ما رائعاً. كان كما لو أن المفاوضين، الذين كانوا لتوهم يتشاجرون بشأن الشروط المرجعية في وزارة الخارجية، قد تبدلوا فجأة بحضورهم في المكتب البيضاوي. فقد كان كل منهم يدلي بكلمات صادقة حول التزامه صنع السلام، واعتقادهم المشترك أن من الممكن تحقيقه هذه المرة. وكعادة الرئيس في مثل هذه الاجتماعات، دار في الغرفة للتأكد من أن الفرصة قد سنحت لكل شخص كي يدلي بما لديه قبل أن يقول هو الكلمة الأخيرة. لقد رحب ترحيباً لطيفاً بالتفاؤل السائد بين الجميع، لكنه أعرب عن شكوكه الخاصة، مذكِّراً المفاوضين بمدى صعوبة مهمتهم، وملزماً فريقه بمساعدة الطرفين على المحاولة ثانية.

بعد أن انصرف الفلسطينيون، طلب مني الرئيس ومن الإسرائيليين «أن نتمم مسار لندن» .

كان مسار لندن قناة خلفية لمحاولة صياغة اتفاقية إطار تتناول كل مشكلات الوضع النهائي حتى يعرف الجميع ما سوف يكون عليه الشكل العام لاتفاقية السلام. كان مفهوماً عظيماً، لكن إتمامه تطلّب تسويات صعبة مماثلة لتلك التي تتطلّبها عملية السلام نفسها.

بدأ المسار أثناء فترة الرئاسة الأولى للرئيس أوباما، وفي وجود مستشار الأمن القومي توم دونيلو ومستشار الشرق الأوسط دنيس روس. كانت مفاوضات سرية شملت مسؤولين كباراً من الولايات المتحدة وإسرائيل وحسين آغا، صديق عباس وزميله لفترة طويلة، والذي عاش قرب لندن ولم يكن عضواً رسمياً في الفريق الفلسطيني. لقد قضوا أكثر من عام في إعداد وثيقة طويلة ومفصَّلة تتناول كل مشكلات الوضع النهائي، وجرى تناول بعضها تحديداً أكثر من سواه.

كان توم لا يزال يشغل منصب مستشار الأمن القومي عندما تولّيت منصب وزير الخارجية. وقد أوضح هو والرئيس لتسيفي ومولهو رغبتهما في الانتهاء من اتفاقية لندن خلال أسابيع. كان الإسرائيليون مهتمّين باتفاقية لندن، التي ظلّوا يدعونها «اللعبة الوحيدة المتاحة» ، لأنهم كانوا يعتقدون أن بإمكانهم إحراز تقدُّم بالتعامل مع آغا أكبر مما هو مع صائب أو أي من الفلسطينيين الآخرين. وبينما ضم مسار لندن إسحاق مولهو، مستشار بيبي المقرّب، لم يكن من الواضح قط مدى قبول عباس تلك الاتفاقية. فمّما لا شك فيه أن انهماكنا أكثر في المفاوضات، قد رفع وتيرة قلقنا من أنه كان يستخدم مسار لندن لتقرير مدى التنازلات التي يمكن لبيبي تقديمها، مع احتفاظه هو بقدر من الإنكار المقبول. في أي حال، يبدو أنه لم يُخبرِ كبيرَيْ مفاوضيه صائب عريقات ومحمد أشتية، بهذا الأمر. وهكذا، ومنذ البداية، كان لدينا خطوط اجتهاد متباعدة، وأسرار كبيرة.

مع وجود رغبة لدى الإسرائيليين في لتقديم التنازلات في سياق القناة الخلفية السرية فقط، تعطَّلت بشدة المفاوضات المباشرة التي كان مارتن يديرها بين الإسرائيليين والفلسطينيين. وبينما كان من المفيد سماع الطرفين يوضحان بالتفصيل موقفهما من قضايا الوضع النهائي، لم يكن هناك تفاوض حقيقي يجري بين الجانبين.

في تلك الأثناء، كنا نحن نسرّع العمل فيما يخص مسار لندن، من دون أن يحدث شيء. كان مسار لندن عملية خارجية لم أستطع السيطرة عليها بالكامل. وعلى الرغم من أن الرئيس أوباما أوضح رغبته في استكمال مسار لندن بسرعة، ظلت المفاوضات دائرة لمدة طويلة، وأصبح الأمر ترقّباً لشيء لن يحدث. فقد تحدّث المشاركون في نغمات موقرة عن عملية صياغة تكاد تكون غامضة، تحتاج خلالها الأفكار إلى وقت «لتتشبع» ، وأن مثل هذه الجهد لا يمكن ببساطة تعجّله. كل هذا كان شيئاً حسناً وطيباً، لكننا لا نملك ترف إعطائهم مدة زمنية غير محدودة لإنهاء عملهم، ذلك أن العد التنازلي لفترة الأشهر التسعة المتبقية على المفاوضات الأخرى كان قد بدأ.

بمرور الوقت، زاد شعوري بالإحباط الشديد بسبب ما بدا أنه انعدامٌ لتقدير الحاجة الملحة إلى استكمال مسار لندن. في لحظة من اللحظات الحرجة، اتّصلت للاستفسار عن موعد اجتماعهم القادم، ليقال لي إنهم لا يخططون للاجتماع قبل عشرة أيام أخرى. فجمعتهم معاً في مسكن سفيرنا بلندن لمعرفة إن كانت الوثيقة لا تزال على الطاولة أم لا. كان بعض أعضاء فريقي والبيت الأبيض يظنون أن الوثيقة تميل كثيراً إلى مصلحة الطرف الإسرائيلي. وفي حين أن الرئيس عباس لم يسبق له رؤية الوثيقة بالفعل، مقابل دراية بيبي الجيدة لها، فإن شيئاً واحداً اتفق عليه الجميع، هو أنها لم تُدفن بعد.

بينما كانت تلك العملية تدور، تحوَّل جزء كبير من الاهتمام اليومي إلى الجهد الأمني للجنرال ألين. وقد واصل جون ذكر أنه يجري محادثات بنّاءة مع جيش الدفاع الإسرائيلي. لكنه أدرك في النهاية أن من كانوا يتعاونون معه بحماسة، يتراجعون. فقد أخبرني أنه توصَّل إلى أبعد ما يمكنه التوصُّل إليه مع العسكريين، وأنه قد خاب أمله لدى اكتشافه تغيُّراً مفاجئاً في موقف نظيريه. أخبرني جون شخصياً أن التحوُّل كان مفاجئاً جدّاً، جليّاً جداً، بما لا يدع في ذهنه أي مجال للشك أن السياسة كان لها دخل في ذلك. كان واضحاً أن نظيريه لا يشعرون بالارتياح، وأن وزير الدفاع، بوغي يعلون، ورئيس الوزراء يحدّان من حركتهم بخصوص المدى الذي يمكنهم الذهاب إليه لحل مشكلة الأمن. ومع علمي بمعارضة يعلون لحل الدولتين، لم يشكّل ذلك مفاجأة تامة لي.

كان الجنرال ألن قد بحث بالفعل عدداً كبيراً من الاحتمالات وضيق الخيارات. فعلى أساس العمل الذي جرى بالفعل، صمّمنا إستراتيجية أمنية شاملة لإسرائيل. كنا نعرف أن الخطة يجب أن تكون حاسمة وقوية وقادرة على تلبية كل حالات الطوارئ التي على جيش الدفاع الإسرائيلي مواجهتها. كان أحد مخاوف إسرائيل الرئيسية بخصوص الانسحاب من وادي نهر الأردن، هو ما قد يأتي به المستقبل إلى الأردن نفسه. فقد أبدى بيبي قلقاً كبيراً من احتمال أن تجد إسرائيل نفسها بعد 30 عاماً أو 40 في مواجهة حشد من الإرهابيين أو جيش أمة أخرى على الحدود الأردنية. وكان لزاماً علينا الإجابة عن هذا، عن أسئلة أخرى مماثلة.

كان الفلسطينيون قد قبلوا بالفعل، كما قبلوا من قبل، أن تبقى دولتهم إلى الأبد منزوعة السلاح. بها شرطة، ولكن لا شيء أكثر من هذا: لا أسلحة ثقيلة ولا قوة جوية. إضافة إلى هذا، فإن جيش الدفاع الإسرائيلي سوف يكون الضمان النهائي. كانت هذه شروط صريحة ومهمة، تضع على الفور إسرائيل في وضع أمني معزّز. لكننا ذهبنا أبعد من أي مناقشات أمنية سابقة.

أولاً، كان من الواضح أن الإسرائيليين لن يشعروا أبداً بالأمان إن هم خرجوا من الضفة الغربية ما لم يكن لهم حق إعادة الانتشار فيها في حالة الطوارئ. تفهّم الفلسطينيون هذا الموقف. أضف إلى ذلك أن من المفهوم بشكل أساسي أن قدرة أميركا الرادعة ستكون حاضرة نيابة عن إسرائيل لعقود قادمة في الوقت الذي كنا مستعدين فيه لأخذ هذا الأمر على عاتقنا. وإضافة إلى اقتراح أن تكون هناك قوات قادرة مشتركة من القوات المصرية والأردنية، وافقنا على الأمر الآتي: إذا تطلّب الأمر وجود قوات أميركية على الأرض لتوفير مزيد من الردع أو الدفاع، فإننا سنفعل ذلك. واقترحنا وضع القوات الأميركية على الجانب الأردني، مما يشير أيضاً إلى التزام الولايات المتحدة التزاماً قويًّا باستقرار الأردن. فالقوات الأميركية ستعمل كعامل ردع فعال ضد أي تهديد يأتي من الشرق، على أن تبقى بعيدة عن الأضواء في عملها بشكل مشترك مع الجيش الأردني. كان السلام في الشرق الأوسط يستحق مثل هذا الثمن.

عرضنا أيضاً وضع القوات الأميركية على الجانب الفلسطيني، وساند الفلسطينيون تماماً حضوراً أميركياً غير محدد المدة على الحدود وفي مختلف أنحاء الضفة الغربية. وفضلاً عن ذلك، دعمنا احتفاظ الإسرائيليين بقوات على الحدود لمدة من الوقت يجري الاتفاق عليها، لكنها بالتأكيد عدة أعوام، وربما كانت أطول من هذا كثيراً، بالاستناد إلى الوضع السائد على الأرض.

إضافة إلى ذلك، اقترحنا ترتيبات واسعة لم يسبق لها مثيل لأمن الحدود. لقد تخيّلنا سياجين. واحداً على كل جانب من جانبي نهر الأردن، مراقباً بكاميرات الفيديو وخاضعاً للسيطرة بشكل ثابت، بما يخلق عملياً منطقة عازلة بعمق كيلومترين تتيح وقتاً كافياً لمنع أي تهديدات. كذلك وفرنا لإسرائيل القدرة على نشر قوات استجابة سريعة بمروحيات لديها سلطة الإقلاع الفوري للاستجابة لأي خرق خلال دقائق إذا أخفق الفلسطينيون في التصرف بفاعلية. وتصورنا منطقتي انطلاق منفصلتين لهذه الاستجابة الإسرائيلية السريعة - واحدة في الطرف الشمالي من الحدود في إسرائيل، والثانية في مستوطنة قريبة - ما يسمح بزمن استجابة أقل من 10 دقائق ما بين الإبلاغ ووصول القوات. ولكوننا واقعيين، فإن إسرائيل وكل من عداها تقريباً، قبل فترة طويلة من ذلك الإقلاع الفوري، سيكونون قد اكتشفوا تعبئة العدو أياماً، إن لم يكن أسابيع، مسبقاً. الغرض من هذه القدرة السريعة هو التعامل مع ما يفترض أنه وحدة صغيرة أو نشاط سري أو إرهابي - ولإبادة ذلك التهديد - اعتماداً على أفضل القدرات التقنية الأميركية.

ما يهم هو أننا لم نفكر قط في انسحاب مفاجئ أو تسليم فوري للمسؤولية الأمنية بالكامل. لقد قبل الفلسطينيون ضرورة إثبات قدرتهم على ضمان الأمن، وكانوا راغبين في القيام بذلك. بيد أن موافقتهم على المشاركة الأمنية كانت تطمح إلى أن تكون دولتهم المستقبلية طرفاً مشاركاً ومعترفاً به في اتفاقية دولية. فكّرنا في اختبار هذه الخطة لمدة تمتد بحسب ما يقتضي بيان فاعليتها في تلبية المعايير الموضوعية، التي كان لا بد من إثبات النجاح في تحقيقها، قبل أي انسحاب لجيش الدفاع الإسرائيلي.

كانت تلك الخطوات مجتمعة جديرة بإيجاد أكثر الحدود أماناً في العالم، بينما تضمن قدرة إسرائيل على الدفاع عن نفسها، بنفسها، دائماً. لقد اعتقدنا أن هذه الأنظمة التي تشتمل على الحدود الأمنية المتكاملة والزائدة، مع الوجود الأميركي، سوف تسهِّل أكثر قبول الفلسطينيين بعض الإجراءات الضرورية لضمان الاحتياجات الأمنية لإسرائيل.

خلال تلك الفترة كلّها، كانت محادثاتنا مع الفلسطينيين حول التعاون الأمني محادثات بنّاءة. فقد وافق الرئيس عباس أن يلتزم «إلى الأبد» مشاركة إسرائيل في تنسيق مشترك لمكافحة الإرهاب. كان الغرض من ذلك توفير منفعة استثنائية لكل من الإسرائيليين والفلسطينيين. فقد كان كل منهما مهتمًّا بضمان عدم تمكّن أي إرهابي من التسلل إلى الضفة الغربية. وقد كان بناء القدرة التعاونية إلى ما يفوق ما هي عليه اليوم، بغية تعزيز استقرار وأمن الشعبين وأمنهما؛ الأمر الذي امتدحه مسؤولو الأمن الإسرائيليون.

وصفت لبيبي السبل التي يمكننا عن طريقها ضمان برنامج طويل الأمد من التعاون العميق بين الشين بت والموساد وجيش الدفاع الإسرائيلي وأجهزة الأمن الفلسطينية. وأكدت فائدة ذلك التنسيق لمكافحة الإرهاب بانضمام الأردن ومصر والولايات المتحدة إليه. كان من الممكن إرساء غطاء أمني يفوق في قوته عدة مرات أي شيء جرت تجربته يوماً في الضفة الغربية، أو بين الإسرائيليين والفلسطينيين. لو أن تلك التدابير الأمنية طُبِّقت بالتزامن مع اتفاقية للسلام، وجرى رفع الاحتلال بمرور الوقت، مع تلبية الشروط، وحدثت زيادة هائلة في الفرص الاقتصادية، لما وُجد ما يحول دون رؤية العلاقة بين إسرائيل والدولة الفلسطينية في الضفة الغربية تتبدّل بالطريقة نفسها التي تبدّلت بها العلاقة بين الأردن وإسرائيل. ففي 1967، كان الأردن وإسرائيل في حالة حرب. اليوم، هما شريكان في السلام. لمَ لا يكون الفلسطينيون كذلك أيضاً؟

عندما كنا مستعدين آخر المطاف لتقديم الخطة، جلست في مكتب بيبي مع وزير الدفاع بوغي يعلون بينما كان الجنرال ألين يعرض عليه الخطة

بالتفصيل. كانت لحظة مفصلية. لقد ظننت أننا إذا استطعنا إزالة المخاوف الأمنية لإسرائيل، نكون قد حللنا واحدة من أصعب المشكلات.

لقد أوضحنا تماماً أن لبّ تفكيرنا كان المبدأ الأساسي المتمثِّل في عدم انسحاب إسرائيل حتى يثبت بوضوح وبشكل موضوعي أن النظام الأمني مُجدٍ. ورغم ذلك، فإن الجنود الإسرائيليين كانوا سيبقون على مقربة، مستعدّين للعودة بكامل قوتهم خلال ساعات لمواجهة أي تهديد يبرز. ترُك الإطار الزمني للانسحاب المرحلي لجيش الدفاع الإسرائيلي مفتوحاً، معتمداً كلِّيًّا على استطاعة النظام الأمني تلبية المعايير التي جرى الاتفاق عليها. وقدّمنا خرائط مفصَّلة تبيِّن بالضبط كيف تتجلّى حالات الطوارئ، والتي نسقّناها كلها مع الأردنيين. وأكدنا مراراً وتكراراً أنها ستكون الأميال الـستين الأكثر أماناً من الحدود في أي مكان في العالم. وأكدت أنا لبيبي بقولي: «لقد قللنا المخاطر إلى أدنى مستوى ممكن. فمع تعزيزات الجنرال ألين ومنطقة أمن حدودية تمتد لمسافة كيلومتر على الأقل داخل الأردن، سيكون لديك دائماً نظام إنذار مبكر يتيح لك كثير من الوقت للدفاع عن نفسك، بنفسك، ضد أي تهديد» .

كان رد فعل بيبي المبدئي إيجابياً. أتذكَّر أنه قال: «إذا أخفقت هذه العملية، فلن يكون ذلك بسبب الغلاف» ، يعني أمن حدود نهر الأردن. غادرت تلك الليلة وقد انتابني شعور بالتفاؤل الحذر.

ذلك التفاؤل كان عمره قصيراً. ففي الصباح التالي، اجتمعت ببيبي للنظر في ما حقّقناه من تقدُّم، ولمناقشة كيفية دمج مفاهيم الجنرال ألين في مسار لندن. كان بيبي في حالة مزاجية مختلفة تماماً. قال: «لن نترك تلك المنطقة حتى نقرِّر نحن بأنفسنا، أي إسرائيل، أننا آمنون؛ ولن يحدث هذا إلا بعد وقت طويل جداً» . كان بيبي على استعداد لقبول بعض التعزيزات التي كنا نقدِّمها، لكنّه أوضح أنها لن تؤدّي إلى سحب إسرائيل لجيش الدفاع الإسرائيلي من حدود الضفة الغربية مع الأردن، ما لم يقرِّروا هم طبقاً لتقديرهم فقط أنهم مستعدون لعمل هذا. فضلاً عن ذلك، وبينما كنا نحن نركّز في الحدود، بدأ بيبي تأكيد الحاجة إلى وجود جيش الدفاع الإسرائيلي في كل أنحاء الضفة الغربية. الواقع أن بيبي كان يؤكد وجوداً طويل الأمد في الضفة الغربية، يقرِّر مدته طرف واحد هو إسرائيل؛ من دون معايير، ومن دون حوافز، ومن دون هدف ليعمل الفلسطينيون من أجله. كان رفضاً سريعاً لخطة أمنية كانت تعد بفوائد غير عادية لإسرائيل وللمنطقة.

أصبح واضحاً الآن لنا جميعاً أن بيبي غير مهتم حقّاً بتناول الأمور الأمنية بطريقة يمكن أن تسمح بانسحاب نهائي لجيش الدفاع الإسرائيلي في النهاية، حتى مع تلبية علامات مرجعية مهمة على الطريق. الواقع أنه لم يكن سيوافق

على أي عملية واقعية لانسحاب جيش الدفاع الإسرائيلي. بدا لي أنه اعتقاد راسخ. ظللت أقول: «بيبي، يمكن وضع الجيش الإسرائيلي بالكامل على مقربة من الحدود، والقوات الأميركية على الحدود» . فأجاب: «نحن لا نريد تعريض القوات الأميركية لإطلاق النار من أجل حماية إسرائيل» . فأجبت: «نحن أيضاً لا نريد التعرض لإطلاق النار. واللحظة التي يبدأون فيها إطلاق النار علينا عبر تلك الحدود، يمكن لجيش الدفاع الإسرائيلي أن يعود إلى الانتشار في ظرف ساعات، إن كان هناك تهديد حقيقي» .

استنتجت أن الأمر لم يكن بشأن الأمن، وتساءلت عما قاله بوغي عالون لبيبي في الليلة التي تلت انصرافنا. كنا قد بلغنا نقطة تحول. فإن لم يمكن لبيبي أن يقبل طريقة يقبلها الجانبان لحل مشكلة الأمن، فإن من الصعب جدًّا رؤية المفاوضات تنجح أبداً.

لذلك أخبرته أنه، على ما أظن، يخلق عقبة كأداء ما لم يقبل أفضل نصيحة من أكثر العقول العسكرية عبقرية لدى حليفه. فابتسم وقال إن علينا تأجيل المناقشة في ذلك الوقت.

بينما كان بيبي يرافقني إلى خارج مكتبه، أشار إلى صورة جمعتنا معاً على أحد الرفوف. «انظر. إنني أخبر كل شخص أنني أنا وأنت صديقان طيبان، وصورتك هي الصورة الوحيدة التي أضعها هنا» . فضحكت. «ولا أزيلها عندما تغادر المكان أيضاً!» وربّت على ظهري في محاولة واضحة لتلطيف الأجواء من أي مشاعر سيئة نتيجة رفضه السريع لخطة أمنية قضينا وقتاً كبيراً جدّاً في إعدادها.

مع اقتراب نهاية العام 2013، كنت مصرّاً أن تنتهي مجموعة لندن من عملها، وأن تقدم الوثيقة إلى عباس. كانت النسخة النهائية تضم بعض الأفكار والمفاهيم المبدعة، ولكن فيما يتصل بالقضايا الرئيسية، بما فيها القدس، لم يتمكن الطرفان من الاتفاق على أي شيء ذي مغزى.

فضلاً عن ذلك، بدا للبيت الأبيض أن مسار لندن ينحاز كثيراً إلى إسرائيل، حيث لن يرغب عباس أبداً في مفاوضة اتفاقية تستند إليه. ولم يكن البيت الأبيض مستعداً للعمل طبقاً له إلا إذا قبله الطرفان فقط.

أخيراً، عرض آغا وثيقة لندن على عباس وقت عيد الميلاد المجيد. وبلّغنا سريعاً أن عباس لا يرغب في قبولها. اقترح بيبي تحويلها إلى وثيقة أميركية يقبلها الجانبان «مع التحفظ» . وبينما أمكننا دمج بعض عناصر الجهد المبذول

في لندن، كان علينا بشكل جوهري أن نعد وثيقة جديدة. وهكذا أهدِرت شهور حرجة.

كنا عندئذ قد بدأنا العمل المركَّز على وضع إطار أميركي جديد. وإذا كنا سنقدِّمه كوثيقة أميركية يقبلها الجانبان، فمن الضروري أن تكون متوازنة. لقد أجرينا سلسلة من المكالمات المكثفة والمُؤمّنة مع بيبي، وتحدثنا إلى الفلسطينيين للحصول على إسهاماتهم. كذلك استفاد الإطار أيضاً من الدروس المستفادة من المفاوضات العامة والمسار الخاص في لندن.

أراد الإسرائيليون أن نناقش الوثيقة معهم بشكل حصري، ثم نفرضها على الفلسطينيين. وزيادة على هذه الإشارة للمشكلات لم يرغب الإسرائيليون في ذكر أي شيء عن عاصمة فلسطينية في القدس الشرقية. كنا نعرف أن ليس هناك سبيل كي يقبل الفلسطينيون مبادئ وضع نهائي ما لم تتضمَّن عاصمة فلسطينية في القدس الشرقية. فهم لن يقبلوا سيادة الإسرائيليين على الحرم الشريف، ثالث الأماكن المقدسة في الإسلام. في الوقت نفسه، كان بيبي واضحاً في أنه لن يقترب من هذه القضية. لذا كان لزاماً علينا أن نكون مستعدين للذهاب إلى أبعد مما كان الإسرائيليون راغبين في عمله.

في شباط/فبراير 2014، اجتمعنا بعباس في باريس لإطلاعه على آخر مستجدات الإطار. وفي خلوة خاصة جمعتني بعباس، أخبرته أننا مستعدون للمرة الأولى أن ندعم علناً الإجماع الدولي على عاصمة فلسطينية في القدس الشرقية، كجزء من حل شامل يتناول مطالب الجانبين.

كنت متفائلاً في أننا نضع شيئاً مهمّاً على الطاولة. لكن، منذ اللحظة التي دخلت فيها الغرفة، كان واضحاً أن لغة جسده تنذر بشؤم. كان عباس يعاني من نزلة برد، وبدا منهكاً، وكانت حالته الذهنية بخصوص حالة سلبية. بدا منعزلاً وغير راغب في خوض مفاوضات جادة.

لم يفد أيضاً أن الإسرائيليين قد أعلنوا لتوِّهم إعلاناً كبيراً عن وحدات سكنية إسرائيلية جديدة في القدس الشرقية. كانت إعلانات المستوطنة تلك إذلالاً شديداً لعباس. أتذكّر أنه في وقت ما وصف كيف يرى من نافذة مكتبه في رام الله، عملية بناء المستوطنات الإسرائيلية. هذا الإعلان الأخير كان له تأثير ضار بشكل خاص في إدراكه لمدى جدية هذه المفاوضات.

عندما أوضحت لعباس ما كانت الولايات المتحدة مستعدَّة لعمله كجزء من الإطار، بالكاد ردّ. بدا كما لو أن الفلسطينيين قد فقدوا الثقة بالعملية كلّها.

قبل أسبوعين من مجيء عباس إلى واشنطن كي يجري مع الرئيس أوباما لقاءً نهائيّاً في آذار/مارس 2014، قال المفاوضون الإسرائيليون لمارتن إنديك والفريق في إسرائيل إن عباس «يهرب» . واقترحوا أن نضع شيئاً على الطاولة يميل أكثر إلى مصلحة الفلسطينيين مما كنا نناقشه معهم، لمجرد اختبار نيّاته. أخذنا هذا كضوء أخضر لتقديم إطارنا الأكثر ميلاً إلى الفلسطينيين، عندما جاء عباس إلى البلدة.

لدى وصوله، اصطحبته وكبار مفاوضيه إلى بيتي في جورج تاون. أردت مكاناً خاصاً وشخصياً أكثر من وزارة الخارجية. لذا طلبنا طعاماً صينياً في البيت، وجلسنا لتناوله في غرفة الطعام. لم يرد الفلسطينيون أن نرسل إليهم نسخة مطبوعة من الوثيقة، كما أوضحوا، لأنه سيكون عليهم عرضها على اللجنة المركزية لفتح كي توافق عليها. من المؤكد أن الوثيقة بالكامل كان سيجري تسريبها، الأمر الذي يقضي على أي مساحة سياسية قائمة. لذا، قرأت أنا أجزاء منها على عباس في وقت لاحق من تلك الليلة؛ وقرأ مارتن وفريقه الوثيقة بالكامل على صائب، الذي دوّنها حرفياً.

في اليوم التالي، عندما التقى الرئيس أوباما عبّاس في المكتب البيضاوي، كان واضحاً بشأن ما هو مطلوب عمله مع اقترابنا من نهاية فترة الأشهر التسعة التي تقرّرت للتفاوض، حيث قال: «الوقت ينفد. ونحن نحتاج إلى تلقّي ردكم على هذا بأسرع ما يمكن، في ظرف أيام وليس أسابيع» .

على مدى الأيام التالية، واصل الفلسطينيون قول إنهم يدرسون الاقتراح، لكنهم لم يردّوا حقاً.

كان من الواضح، مع اقتراب فترة المفاوضات من نهايتها، أنهم غير راغبين في تقديم أي تنازلات. كان عباس قلقاً من أن أي تسويات قد تفضحه أمام شعبه. لم يكن مقتنعاً أننا يمكن أن نقنع بيبي. لذلك خشي أن يواجه هو ردود الأفعال السلبية لقبوله التنازلات من دون الحصول على شيء في المقابل.

مع اقتراب الموعد النهائي بسرعة لإطلاق الدفعة الأخيرة من السجناء الفلسطينيين، والموقف الراسخ للإسرائيليين المتمثِّل بألّا يطلقوا سراح المزيد من السجناء إلا إذا جرى تمديد الفترة، كان من الصعب أن تستمر المجادلة، فهي لحظة لاستثمار رأس المال السياسي. لذلك ركّزنا انتباهنا في هذا التحدي الفوري.

كانت مشكلة الدفعة الأخيرة من السجناء أن إسرائيل قد أبقت أسوأ الرجال للنهاية. نتيجة لذلك، احتاج الإسرائيليون إلى تمديد حقيقي للمفاوضات، وليس بضعة أشهر فقط، لكي يتقبّلوا الألم السياسي الذي يأتي به إطلاق سراح أولئك الرجال. في المقابل، أراد الفلسطينيون تنازلات إضافية من الإسرائيليين، خصوصاً التحديد الصادق لنشاط الاستيطان، حتى يبرروا للمشكِّكين من شعبهم مواصلتهم للتفاوض. حتى يحدث هذا، طلب منا الإسرائيليون إطلاق سراح الجاسوس الإسرائيلي المدان جوناثان بولارد.

ساورت الشكوك الرئيس، لكنه لم يستبعد إطلاق سراح بولارد. أظن أن ذلك كان مغلّباً لرغبته في دعمي ودعم فريقه، على إحساسه بأي ثقة بأن بيبي سيفي بما قاله. كانت له مثل هذه التجارب مع نتنياهو خلال فترة رئاسته الأولى، عندما انهار كل شيء في مواجهة رفض بيبي تمديد الاتفاق الهش لتعليق بناء المستوطنات الذي قضت هيلاري كلينتون والسيناتور ميتشل شهوراً في التفاوض عليه. كانت آثار الجراح لا تزال واضحة على الرئيس وعلى كل شخص عمل على إعداد ذلك المشروع خلال فترة الرئاسة الأولى. لقد أصبح الرئيس أوباما يعتقد أن بيبي ليس جاداً بشأن إقامة دولة فلسطينية.

فهمت أنا رؤية الرئيس. ففي ذلك الوقت، كانت لدي أنا أيضاً شكوك هائلة حول قدرة الزعيمين على تحقيق السلام.

بينما كان واضحاً لنا جميعاً في ذلك الوقت أن الظروف غير مؤاتية لتحقيق اتفاق شامل، بدا لي أننا لا نزال قادرين على اتخاذ خطوات مهمة لمنع إغلاق النافذة أمام حل الدولتين. وحيث إن ذلك الجهد لم يتعارض مع أولوياتنا الأخرى، فقد كان الأمر يستحق محاولة الإبقاء على الطرفين في حالة سعي إلى السلام، وليس في حالة حرب.

كانت فترة عقوبة بولارد تقترب من نهايتها. مع ذلك، ولأسباب مفهومة جداً، عارض معظم العاملين في دوائر الاستخبارات أي إطلاق سراح مبكر. في النهاية، كانت لدينا مفاوضات ثلاثية حسّاسة لتبيّن إن كان من الممكن التوصُّل إلى اتفاق يمدِّد المفاوضات ويضمن فوائد إضافية للفلسطينيين مقابل إطلاق سراح بولارد.

تواصلنا جيئةً وذهاباً مع الإسرائيليين، بينما عمل بيبي على تهيئة الدعم السياسي للتنازلات التي سوف يكون عليه تقديمها لتمديد المفاوضات. وكان الفلسطينيون يفقدون صبرهم. كانت سياساتهم تزداد صعوبة. وكانت لحظة فارقة في نظر لبيبي. وقد حثثته أن يقدم عرضاً موثوقاً لكي يقنع الرئيس أوباما أن الأمر يستحقّ التفكير في بولارد، ويقنع عباس بالموافقة على

التمديد. لقد قلت لبيبي صراحة: «أنت لا تفعل هذا من أجل عباس. أنت تفعله لتمكّننا من الحصول على ما تريده» .

وبينما كنا نتعامل مع تعقيدات الصفقة، أخبرنا عباس فجأة أنه يخطط للانضمام رسمياً وبسرعة إلى عدّة منظمات دولية ما لم نتوصل إلى اتفاق. كان هذا ينتهك أحد الوعود الأساسية التي قطعها عباس للإسرائيليين لبدء المفاوضات. وهو ما يعني في الأساس أن اللعبة قد انتهت.

استمرت المفاوضات حتى الدقيقة الأخيرة في محاولة للتوصل إلى تفاصيل التمديد وإطلاق السجناء. لكن في النهاية، نفد صبر الفلسطينيين على العملية.

وقف عباس في اجتماع لزعماء فتح، وفي استعراض كبير على الملأ، وقع صكوك الانضمام، التي تدفع من طرف واحد إقامتهم لدولة. كانت الرسالة واضحة. فبدلاً من انتظار عملية بدا له أنها ستخفق من تلقاء نفسها، كان عباس يحاول الفوز برضا الشارع الفلسطيني؛ فإما أن يجبر إسرائيل على إعطائه ما يريد، وإما أن يكون هو من تحدى إسرائيل بتوجّه غير مسبوق.

في النهاية، كانت هناك ذكريات مخيّبة كثيرة جراء سنوات من الإخفاق. لم يعتقد عباس أن الحكومة الإسرائيلية جادة بشأن المفاوضات الشاملة. وكان الإسرائيليون، من جانبهم، مقتنعين أن عباس كان يبحث عن مخرج. لم يشعر أي من الطرفين أن الآخر جاد بما يكفي ليتحمّل من أجله ضغوطاً سياسية، جرّاء اتخاذ قرارات صعبة. لقد وقعنا في حلقة مفرغة من سوء الظن. لقد دمّر المسار التراكمي للتوقعات الفاشلة، وغياب المثابرة، الثقة في أي خطوة قادمة.

قرب نهاية نيسان/إبريل، كانت قد بقي لنا أربعة أيام أو خمسة لمحاولة التوصل إلى مخرج في الدقيقة الأخيرة، عندما سمعنا تقارير عن اتفاق حماس وفتح على تشكيل حكومة وحدة وطنية. كان هذا المسمار الأخير الذي دُقَّ في النعش.

أصابني الفلسطينيون بإحباط شديد لأسباب عديدة. فقد أعطوا نقّادهم في إسرائيل كل الذخيرة التي يحتاجون إليها لضربهم. أصبح بإمكان بيبي أن يلوم الفلسطينيين، قائلاً إنهم اختاروا طريق الإرهاب بدلاً من طريق السلام. كذلك كنت غاضباً أيضاً من عدم رد الفلسطينيين مطلقاً على عرض الرئيس أوباما؛ لقد كان أفضل عرض يمكن أن يتمنّوه، وهم أضاعوا التزامه تجاههم.

شعرت أيضاً بالاستياء، لأن عباس، بعد كل ما فعلته أنا على مر السنين لبناء الثقة بيني وبينه، تجنب المحادثة النهائية التي كانت معيَّنةً بيننا.

لكنني لم أهتم بالمشاركة في لعبة إلقاء اللوم في العلن بخصوص ذلك.

أما أنا فرأيت أن الجانبين كليهما قد فضّلا طريق السياسة على طريق تحقيق التقدم. سأحترم إلى الأبد أن بيبي تحمَّل المخاطرة السياسية لإطلاق سراح السجناء، لكنني آمنت أنه وقع طواعية ضحية سياسته الداخلية، التي أشارت تسيفي دائماً إلى أنه هو نفسه من ابتكرها. لقد بدا لي أنه كان أكثر راحة كزعيم لحزبه السياسي، الليكود، يخوض منافسةٍ يرغب في نتيجتها أن يكون هو من تولّى منصب رئيس وزراء إسرائيل لأطول فترة، عوضاً عن المخاطرة بكل شيء، كما فعل رابين وكما فعل بيريز، محاولاً أن يكون هو من حقّق أخيراً السلام.

هناك مجموعة من الشعارات التقليدية المقبولة التي يجري تداولها خلال العملية. أحد أكبر تلك الشعارات أن إسرائيل تقول إنها بلا شريك في عملية السلام، بينما يقول الفلسطينيون إن إسرائيل تريد فقط استخدام عملية السلام كغطاء لمواصلة سيطرتها المتعنِّتة على الضفة الغربية. وهكذا يظل كلا الجانبين عالقّين في دائرة التهكُّم. أتذكّر أنني في لحظة ما قلت لمارتن: «أشعر أنني أتفاوض مع عمدة القدس وعمدة رام الله» . في النهاية، كان سوء الظن عميقاً جداً، وقصص التمييز قد تأصّلت في الأعماق على الجانبين، حتى أن كلاً منهما لا يريد الوصول إلى ما يريد السكان باستماتة تحقيقه.

كان هدفنا، حتى من دون عملية سلام، تفادي اشتعال الأمور. إذ كان التزامنا نحو إسرائيل وقلقنا بشأن الفلسطينيين يفوقان الإحباط العميق الذي شعرنا به من مفاوضات السلام. لذلك حاولت المماطلة فترة إضافية لحل النزاع. إذ كنت على الدوام أعتقد أن المفاوضات تحدّ من احتمالية العنف. وبالفعل، ما إن انتهت المفاوضات في أوائل شهر حزيران/يونيو ٢٠١٤، حتّى اختُطف واغتيل ثلاثة مراهقين إسرائيليين على أيدي أعضاء تابعين لحماس في الضفة الغربية. ورداً على ذلك، شنّت إسرائيل غارة شاملة على الضفة الغربية للعثور على الخاطفين وتفكيك شبكات أعضاء حماس الموجودة هناك. وفي ذلك الوقت، بدأت حماس بإطلاق الصواريخ من غزة على إسرائيل، فتفاقمت الأمور حتى وصلت إلى حرب تبادل نيران مشتعلة. بالطبع كانت أكبر مخاوف بنيامين هو أن يتسلّل أعضاء حماس من تحت أسوار غزة لاختطاف الإسرائيليين خلسة. لم يكن مستعداً لهذه المخاطرة، مما جعل تصاعد

الأوضاع أمراً حتمياً. مع حمّى الحرب، طلب مني الرئيس أوباما السفر إلى المنطقة لاستطلاع قدرتنا على إيقافها.

كان الوضع مشتعلاً. إذ قتل مئات الفلسطينيين، ومن بينهم نساء وأطفال، في تبادل النيران، غالباً ما وضعتهم حماس هناك عن عمد. أكدت دعم حكومة الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه، أردنا القيام بما نستطيع لإيقاف نزف الدماء، إذ كان هناك العديد من الأبرياء يعانون بالفعل في الجانبين.

كانت مصر هي الدولة المناسبة للتوسُّط في إنهاء الحرب، بسبب علاقتها مع إسرائيل وسيطرتها على عبور حدود غزة. وكان الإسرائيليون مصمّمين أن يكون المصريون وسطاء في إخماد الحرب. لذا كانت أولى محطاتي هي مصر. وسرعان ما رأيت أن المصريين كانوا يتعاونون مع الإسرائيليين، ويشاركونهم رغبتهم القوية في التغلب على حماس. بل إنهم لم يكونوا يتعاملون مع عناصر حماس الذين يتمتعون بالقوة لإيقاف الحرب. كان علينا العثور على مَن يستطيع أن يجبر حماس على وقف إطلاق الصواريخ. والدولة الوحيدة التي لديها هذه السلطة كانت قطر، التي توفِّر الكثير من التمويل لحماس (بما في ذلك أحياناً دفع رواتب الموظفين الحكوميين في غزة بموافقة إسرائيل) وتركيا التي كانت تدعمهم بشكل كبير سياسياً.

بعد أيام قضيتها في مصر، توجّهتُ إلى إسرائيل، وكانت الحرب في ذروتها. وعندما هبط صاروخ من حماس قرب مطار بن جوريون، أصدرت إدارة الطيران الفيدرالية تحذيرات السلامة، وتوقفت العديد من الناقلات الجوية الأميركية عن الذهاب إلى إسرائيل لأن الخطر كان عالياً. كان بنيامين ساخطاً على هذا القرار. آنذاك طلبت أن تهبط طائرتنا في مطار بن جوريون، مع موافقة الطيارين والقوات الجوية، إذ رأيت أنها خطوة مهمة لإثبات دعمنا لإسرائيل.

قابلنا بنيامين، في غرفة اجتماعات تحت الأرض، مع مجلس الحرب، حيث عرض علينا خرائط توضح الأنفاق الواصلة من غزة. كان التوتر يخيّم على الجو. وتلك المرة كانت من المرات القليلة التي رأيت فيها بنيامين مقهوراً للغاية ولا يظهر نشاطه وطاقته وشجاعته المعتادة. تأثرت برؤية قائد إسرائيل محاصراً بهذا الشكل. لذلك سرّعت جهودنا لضمان تمكين إسرائيل من معالجة مشكلة الأنفاق، كجزء من حل النزاع. كان من الواضح أن الإسرائيليين يشعرون أن العالم يصطف ضدهم، مع هجوم الإرهابيين عليهم ومواجهتهم الضغط العالمي لقتل المواطنين. بدا كما لو كانت أسوأ كوابيس الإسرائيليين تتحقق. وفي هذه اللحظة، رأيت بنيامين ضعيفاً بشكل لم أعهده فيه. وقد

زادني ذلك تصميماً على فتح المطار للناقلات الأميركية بأسرع وقت ممكن. وذلك ما جرى ففي اليوم التالي قررت إدارة الطيران الفيدرالية أن المطار آمن، وتخطّينا حجر العقبة ذاك.

كانت جهودنا للتفاوض منصبَّة على اقتراح بنيامين أن نتفاوض لوقف إطلاق نار إنساني. أكد بنيامين أن إسرائيل لن توقف الحملة حتى تنتهي من إخلاء الأنفاق. وهذا لم يتحقّق بعد. ويتطلب وقف إطلاق النيران، في العادة، عودة كلا الطرفين إلى الوضع السابق؛ وفي حالة وقف إطلاق النار الإنساني، يبقى الطرفان حيث هما للسماح بوصول معونات الإغاثة. حاولنا صياغة اتفاقية تحقِّق هذا الوضع لإنهاء القتال، والسماح لإسرائيل أن تنهي تدمير الأنفاق التي وصلت إليها بالفعل خلف الخطوط.

تواصلت مع قطر وتركيا، ودفعتهما إلى إجبار حماس على قبول وقف إطلاق النار الإنساني. فوافقوا، وقاموا بالمساعدة. وفي النهاية، أطلقنا مشروع وثيقة تحقِّق الهدف الأساسي، وهو السماح لإسرائيل بالاستمرار في تدمير الأنفاق، والبدء بإجراءات إيقاف الحرب. كانت صفقة صعبة؛ لكننا حققنا معظم ما أراده بنيامين. بالطبع علمت أن الإسرائيليين ستكون لديهم تعليقات على الوثيقة، وكنت أدرك تماماً أننا سنعود إلى جولة أخرى مع تركيا وقطر عندما نستقبل تعليقات بنيامين. اتصلت ببنيامين لكي أطلب منه تسلُّم الوثيقة وإعادتها مع التعديلات المطلوبة. أخبرته أنني أتطلّع إلى الحديث معه حولها. بعد التفاوض مع فريقه على مدار تسع أشهر، علمت أن هذا الأمر سيستغرق جولات عدة وكنا مستعدين لذلك.

وبناء على تعليماتي، أرسلت بعنوان «مسودة: سري. لغرض المناقشة فقط» ، مباشرة إلى البريد الإلكتروني الشخصي لمستشار الأمن القومي الإسرائيلي، لكي يجري تدارسها عن كثب.

ثم اتصلت ببنيامين قائلاً: «هل رأيت الوثيقة؟» أجاب: «نعم يا جون، ولدي الكثير من التعليقات عليها» .

ما إن بدأنا المناقشة، حتى اعتذر بنيامين قائلاً إن عليه حضور اجتماع مجلس الوزراء. وبعد ساعتين، ومن دون أي مناقشات إضافية أو إخطار، وجدنا تقارير من الصحافة الإسرائيلية تحتوي على الوثيقة نفسها! شعرت بالسخط الشديد، وسرعان ما اتصلت به قائلاً: «أرسلت إليك وثيقة خاصة وكنت أنتظر سماع تعليقاتك. وقد حصلت لك على ما أردته. والآن صارت الوثيقة في الجرائد مع تقارير أخبار تقتبس قول موظفين إسرائيليين كبار:

«يتفاوض كيري لحساب حماس» . كنت تعرف أن هذه النسخة مسوّدة فقط يا بنيامين، وأننا في منتصف إجراءات التفاوض بشأنها بناءً على اقتراحاتك. والآن ها أنا أراها في الصحافة؟ هذا مشين بحق. لقد كان وقف إطلاق النار الإنساني اقتراحك. والآن تُسرِّب هذه الوثيقة تحت إيحاء أنني أحاول فضّ النزاع لمصلحة حماس؟» . غمغم بنيامين بشيء ما حول أنه لم يسربها، وأنه سيعمل على حل الموقف، وتوضيح الأمور للصحافة، وهذا ما لم يفعله على الإطلاق.

كنت مستاءً للغاية، عندما رأيت كيف أخبرنا بنيامين بشيء وأخبر وزارته والصحافة بشيء مختلف تماماً. وفقدت شيئاً من ثقتي الشخصية به.

أخيراً في أوائل آب/أغسطس، استطعنا أن نجعل إسرائيل وحماس تتفقان على وقف إطلاق النار الإنساني في الصباح التالي. وبالنظر إلى صعوبة التواصل بداخل غزة والفصائل المتنوعة التي تعمل بشكل مستقل، كنا ندرك أن وقف إطلاق النار المحتمل قد يخفق قبل أن يبدأ رسمياً. ففي الوقت الذي توجّه فيه فريقنا للتفاوض، نصب حماسيٌّ كميناً لجندي إسرائيلي وقتله، واشتُبه في اختطاف جندي آخر. فكانت هذه هي نهاية هذه المفاوضات.

استمرت الحرب إلى نهاية الصيف. ولم يبدُ أن أيّاً من الطرفين مستعد للتراجع. لم تكن هذه الحرب لتنتهي بوثيقة أو اتفاقية حتى يشعر الطرفان أنهما حققا هدفهما.

كان السؤال هو: متى يرى الطرفان عدم جدوى القتال المستمر ويقرِّران التوقُّف؟ كانت الوثيقة التي انتهيا إليها مبهمة للغاية وبالكاد أنهت القتال. كانت أقل قوة لمصلحة إسرائيل من الوثيقة التي كنت أتفاوض بشأنها، والتي تضمّنت تأكيدات لأمن إسرائيل وأهمية الوصول إلى حل للأزمة طويل الأمد.

في النهاية، دمّرت إسرائيل الأنفاق، لكن وقف إطلاق النار لم يحل أي من المشكلات الأساسية.

في مؤتمر متبرعين لإعادة إعمار غزة الذي أقيم في القاهرة في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٤، وصفت التراجيديا التي تكرِّر نفسها مرة أخرى. كانت هذه هي المرة الثالثة في أقل من ست سنوات التي أجبر فيها أهل غزة على مواجهة جهود إعادة الإعمار. هذه هي المرة الثالثة في أقل من ست سنوات التي نرى فيها اندلاع الحرب مخلّفة الدمار الكامل في غزة. كانت هذه هي المرة الثالثة في أقل من ست سنوات التي اضطررنا فيها إلى الاعتماد على وقف إطلاق النار فقط لإيقاف العنف.

سئمنا من مؤتمرات إعادة الإعمار التي عالجت تبعات الصراع؛ لكنها لم تفعل شيئاً لمنع الصراع التالي. لم يأت أي منا لإعادة بناء غزة فقط لنفكر بأننا سنعود مجدداً بعد سنتين إلى الطاولة نفسها للحديث عن إعادة بناء غزة مجدداً.

وقف إطلاق النار ليس سلاماً. حتى أطول فترات وقف إطلاق النار لا تعد بديلاً لحماية إسرائيل ودولة الفلسطينيين.

لم تبث انتخابات آذار/مارس ٢٠١٥ في إسرائيل روحاً جديدة في عملية السلام. حرصنا على الابتعاد عن الانتخابات، إذ أردنا تفادي أي إيحاء بالانحياز إلى طرف دون آخر. بالطبع، تابعناها عن بعد. وأشارت تقارير الأخبار في إسرائيل إلى إمكانية خسارة بنيامين. أذكر عندما كنت في شرم الشيخ أحضر مؤتمراً للتنمية الاقتصادية في الجمعة السابقة للانتخابات، كان العديد من الحاضرين يناقشون فرص بنيامين. كان واضحاً أن منافس بنيامين إسحاق هرتزوج، الذي ترأس حزب العمل اليساري العلماني، راغباً في العمل على مفاوضات السلام مع الفلسطينيين.

على مدار الأيام التالية، قام بنيامين بمجهود هائل لإنقاذ منصبه. في الواقع، قام بتفكيك جميع أحزاب اليمين، إذ أخبر المنتخبين الميّالين إلى اليمين أن التصويت لأي حزب يميني آخر يعد تصويتاً لهرتزوج وتسيبي ليفني. أثار بنيامين مخاوف الناس من أن «العرب الإسرائيليين سيخرجون للتصويت في جماعات» . في النهاية فاز بهامش كبير وأنشأ مجلس وزراء بأعلى نسبة لحزب اليمين في تاريخ إسرائيل، مع معارضة أغلبية أعضائه لحل الدولتين. لا يخفى على أحد أن الرئيس أوباما لم يكن راضياً عن بعض من تكتيكات وبيانات بنيامين التي تتبرأ من عملية السلام وتبدو عنصرية ضد الفلسطينيين؛ وأوضح كيف أنه لا يرى جدوى من العودة إلى المفاوضات التي قال الإسرائيليون بالفعل أنها لن تنجح. هناك العديد من التكهنات حول العلاقة الشخصية بين الرئيس أوباما وبنيامين، لكن ما شهدته في تلك الأوقات كان خلافات سياسية صادقة حول الموضوعات المهمة التي تمس دولتينا.

أمر الرئيس بمراجعة شاملة لإعادة تقييم جميع سياساتنا المبنية على الدفاع عن حل الدولتين.

وكانت هذه نقطة تحوُّل هائلة، وجّهتنا إلى مسار مختلف طوال المدة الباقية من الحكومة. إذ، بالرغم من عدم تغيُّر معظم سياساتنا، فإن نظرتنا الأساسية إلى نيّات إسرائيل بخصوص فلسطين كانت قد تغيّرت.

كان العنصر الرئيسي لإدارة الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني هو إنهاء الحرب في غزة؛ بالإضافة إلى محاولة إيقاف اندلاع الحرب في الضفة الغربية، وأخيراً جعل الطرفين يتخذان إجراءات على أرض الواقع تظهر تقدماً نحو تحقيق حل الدولتين. كان مبنى الحرم القدسي الشريف أحد المصادر الأساسية للصراع. وقد تصاعد التوتر مع إسرائيل على الحراسة اليومية. في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥، نتج عن الصراع موجة من العنف الفلسطيني هدّدت بالخروج عن السيطرة.

كان الملك عبد الله مهتماً بهذا الموقع، خصوصاً بسبب دور الأردن التاريخي في حكمه. ذلك أن مسجد الحرم الشريف مهم لمعتنقي الديانات السماوية الثلاث: اليهود والمسلمين والمسيحيين. ومن بين جميع الدوافع، كان هذا هو الدافع الذي قد يُشعل حرباً دينية في المنطقة. قضينا ثلاثة أيام مرهقة نعمل على مدار الساعة للعثور على تصاريح تخطيط من الطرفين. كانت كل كلمة وفاصلة ونقطة خاضعة للنقاش والنقد القاسي. كان مجهوداً مثمراً، وإن لم يكن مثالياً. وقد أصدر بنيامين تصريحه باللغة الإنجليزية على فيسبوك في منتصف الليل، بينما لم يصرّح الملك عبد الله فعلياً بما كان من المفترض أن يقوله، وإن كان التوتر قد قل، وهبط مستوى العنف. رأى كل من الطرفين أن يترك الأمر على ما هو عليه. وفي الشرق الأوسط، يكون هذا أحياناً أفضل ما تستطيع.

في غياب المفاوضات، وجّهنا تركيزنا إلى تحسين الوضع على أرض الواقع. اعتقدت أن من المهم للغاية الدفع إلى إجراءات لخلق شروط ملائمة لاستئناف المفاوضات المباشرة مع صنع أفق سياسي، عبر البدء بتحقيق حل الدولتين.

عندما أتى بنيامين إلى واشنطن لمقابلة الرئيس أوباما في تشرين الثاني/نوفمبر، اجتمعنا في مناقشة بدا فيها داعماً للغاية للخطوات التي اتخذناها على أرض الواقع. وبعد ذلك بأيام سافرت إلى إسرائيل لأتابع معه. كانت وجهة نظري هي الآتية: لو قام بنيامين بخطوات تقديرية يُسمح من خلالها للفلسطينيين أن يبنوا بحرية على أرضهم، نستطيع التخلص من الضغوط العالمية وجعل الفلسطينيين يتراجعون عن مجهوداتهم في المنتديات العالمية، لكن بنيامين لم يتزحزح، قال لي: «لن أكافئ أولئك الأشخاص في وسط موجة هجوم على شعبي» .

عدنا إلى عباس. وبصراحة، كان اجتماعنا من أسوأ اجتماعاتي معه على الإطلاق. فقد طفح بي الكيل منه، لكن لم يكن بيدي شيء أعرضه عليه مع وجود إسرائيل تحت الهجوم. وفي الوقت نفسه، أحبطنا للغاية أنه لم يكن

مستعداً لاتخاذ خطوات أقوى نحو ما كنا ندفعه إليه، بما في ذلك إدانة تصرُّفات العنف الفردية بوضوح.

لم تثمر مجهوداتنا مع الفلسطينيين عن شيء. عملنا بجهد على إنشاء طريق إلى الأمام مع الإسرائيليين، بناء على الخطوات التي اقترحوا أنهم مستعدون لها؛ لكنهم يرفضونها الآن بسبب العنف. أتفهم وجهة نظر كلا الطرفين؛ وفي الوقت نفسه، لم يكن بيدنا شيء لنقدِّمه. عندما غادرنا، أخبرت بنيامين، بحزن أكثر مما هو غضب، بأننا وصلنا إلى طريق مسدودة مجدداً.

كان من الواضح أن علينا أن نقدم على عمل كبير لتغيير الوضع. بعد أيام، خاطبت منتدى سابان السنوي للولايات المتحدة وإسرائيل في معهد بروكنجز. أردت من الذين يعارضون حل الدولتين أن يشرحوا كيف يمكن لحل الدولة الواحدة أن ينجح. وأردت رفع درجة الوعي بين الجميع بخصوص هذا الوضع غير المنيع والذي قد يدوم ما لم تتخذ إجراءات جادة بسرعة. في الواقع، احتكرت إسرائيل معظم السيطرة على معظم الضفة الغربية لاستخدامها الحصري، الأمر الذي يمنع نقل سلطة مدنية أعلى إلى الفلسطينيين، وهو ما نادت به اتفاقيات أوسلو.

ازداد الوضع ضراوة، مع زيادة عدد المقيمين في المستوطنات الإسرائيلية التي تُقدّر بحوالى ١٣٠ مستوطنة في شرق خطوط العام ١٩٦٧. عندما غادرت الوزارة، زاد سكان المستوطنات في الضفة الغربية وحدها، باستثناء القدس الشرقية، بنحو 270 ألفاً منذ أوسلو، بما فيها 100 ألف فقط منذ العام ٢٠٠٩. وكان أكثر من 90 ألف مستوطن يعيشون شرق الجدار الإسرائيلي الذي صنعه الإسرائيليون أنفسهم. وقد زاد تعداد المستوطنات البعيدة هذه بحدود عشرين ألف مستوطنة منذ العام ٢٠٠٩. وفي الوقت نفسه، أقام آلاف المستوطنين الإسرائيليين ما يقارب مئة بؤرة استيطانية غير شرعية في الضفة الغربية بعلم الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة إن لم يكن بدعمها.

ومع توسع المستوطنات الإسرائيلية، كان يجري إيقاف الإعمار الفلسطيني في كثير من مناطق الضفة الغربية وهدم المباني الفلسطينية بمعدَّل كبير. في تلك الأثناء، كانت الشركات الإسرائيلية تجني الكثير من الأموال في الضفة الغربية، والمزارع الإسرائيلية تزدهر في وادي نهر الأردن، وتصطف المنتجعات الإسرائيلية على طول شواطئ البحر الميت التي لم تكن متاحة للإعمار الفلسطيني.

لا أعتقد أن معظم الناس في إسرائيل، وبالتأكيد في أي مكان آخر من العالم، يدركون إلى أي حد جرى عكس قرارات اتفاقيات أوسلو. طرحت سلسلة من الأسئلة في منتدى سابان وسواه عن آثار هذه السياسة في أمن إسرائيل على المدى الطويل. نوّهت إلى أن هذه التصرفات تقود إلى واقع دولة واحدة غير قابل للإلغاء على أرض الواقع. وأعتقد أن هذا الأمر قد ساعد على إثارة نقاش في إسرائيل عن مستقبل السلطة الفلسطينية وحل الدولتين. لكنه لم يوضح تماماً، كما أردت، مدى حقيقة الدولة الواحدة التي هي في طور الصياغة.

لذلك وجّهنا اهتمامنا إلى الحل الوحيد المتبقّي لدينا، ألا وهو إثارة اهتمام شركائنا والمجتمع العالمي القوي بالعثور على حل للتقدم إلى الأمام. في تموز/يوليو ٢٠١٦، طرحنا فكرة استئناف اتفاقيات أوسلو للنقل، واقتراحات خاصة لتحقيق حل الدولتين على أرض الواقع، في تقرير للجنة الرباعية حول الشرق الأوسط، وهي لجنة أقيمت لدراسة مفاوضات السلام بالشرق الأوسط، تضمّ أعضاء من الأمم المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا. كان التقرير قاسياً على الطرفين وحياديًّا للغاية، ومنحت اقتراحاته المجتمع العالمي بعض الإجراءات الاستدلالية ليعتمد عليها.

كانت الجبهة الإقليمية هي كل ما تبقى لدينا الآن، كانت بطاقتنا الأخيرة. رأيت من محادثاتي مع بنيامين أنه مهتم اهتماماً بالغاً بالعمل على الصعيد الإقليمي الذي كان يلاقي اهتماماً كبيراً من المجتمع الإسرائيلي. وأدركت أيضاً أن الكثير من حكام العرب والحكام الأوروبيين كانوا مستعدين لقبول اتفاقية وضع نهائي، تعالج مخاوف إسرائيل الرئيسية، بما في ذلك الحاجة إلى الوفاء بمتطلبات الأمن القانونية. وهذا هو ما ركّزنا فيه انتباهنا.

للاستفادة من كل المجهودات التي قمنا بها في المفاوضات، وإطلاع المجتمع العالمي على أفكارنا لحل الصراع، شرعنا في كتابة مسوَّدة بمبادئ الوضع النهائي، أي الشروط المتفق عليها عالمياً لنعود إليها في المفاوضات المباشرة، وهو أمر لم نفعله من قبل. كانت الفكرة تكمن في استخدام صياغة محددة كفاية لتكون مفيدة وعامة، حيث تتيح مساحة للتفاوض بين الطرفين، مع الأخذ في الحسبان الحساسيات السياسية للطرفين وما نستطيع أن نحصل على دعم المجتمع العالمي له. كنا نعلم، بناءً على سنتين من المناقشات مع المجتمع العالمي أن معظم الدول، بما فيها الدول في المنطقة، مستعدة للاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية، في حال توازن المبادئ الأساسية. وأدركنا أيضاً أن بإمكاننا استخدام صياغة أكثر قوة من ذي قبل بشأن أمن إسرائيل. وأوضحنا كذلك أن حل مشكلة اللاجئين لن يتضمن إعادة اللاجئين

الفلسطينيين إلى داخل إسرائيل. عملنا عن كثب مع البيت الأبيض لكتابة مسوّدة بالمبادئ. ثم شرعنا في خلق إجماع عالمي عليها.

كان التركيز الأساسي في السعوديين، إذ لديهم تأثير كبير في العالم العربي. كانت الدبلوماسية خلف الكواليس وبناء العلاقات ضروريين للتقدم. قمت بعدة رحلات إلى المملكة العربية السعودية، واستضفت الكثير من الاجتماعات مع دول الخليج، ولاسيما الإماراتيين الذين اعتقدت أنهم مستعدّون لتغيير علاقتهم مع إسرائيل إذا استطاعوا إدارة السياسات.

بعد أن حصلت على موافقة المصريين والأردنيين على هذه المبادئ النهائية، مبادئ كيري؛ وحصلت على توضيحات من السعوديين أنهم مستعدون لدعم ما يتسق مع هذه الخطوط، عقدت اجتماعاً سرياً في العقبة في كانون الثاني/يناير ٢٠١٧ مع بنيامين والملك الأردني عبد الله والرئيس المصري عبد الفتاح السيسي. كانت لحظة مهمة. حيث كانت الدول المهمة في العالم العربي مستعدة لقبول مطالب إسرائيل الأساسية، بما فيها الاعتراف بالدولة اليهودية وحل مخاوفها الأمنية. كان المصريون والأردنيون تحديداً مستعدّين للعمل مباشرة مع إسرائيل والفلسطينيين على استراتيجية أمنية شاملة نحو حل الدولتين. أبدت السعودية والآخرون استعداداً لاتخاذ إجراءات للوفاء بوعد مبادرة السلام لتطبيع العلاقات مع إسرائيل.

كل ما كان على بنيامين هو قبول تلك العروض. لا زلت أتذكّر الجلوس معه في شرفة إحدى فيلات الملك الكبيرة في العقبة. اعتقدت أنه سيكون معجباً بالمدى الذي وصلنا إليه من أخذ العالم إلى الاتجاه الذي أراده بشأن تلك الموضوعات. لكنني أدركت من لغة جسده أن هذا ليس ما أراده فعلياً. أثناء شرحي كل ما سبق ذكره لبنيامين، صادف اصطدام طائرة صغيرة من دون طيار بشجرة إلى جانب الشرفة التي كنا جالسين فيها. ضحك كلانا ببعض العصبية من كيفية دخول هذا المشهد على مجرى المناقشة. أجاب بنيامين: «جون، إن شعب إسرائيل ليس مستعداً لمبادئ الوضع النهائي هذه. فأنا أهتم بشأن أمن مصر وأمن الأردن، وليس العكس» . ثم طرح عرضه البديل. ألا وهو اتخاذ إجراءات صغيرة بطيئة على أرض الواقع فيما يتعلق بالفلسطينيين، وأراد في المقابل مفاوضات مع السعوديين ودول الخليج الأخرى، من أجل التوصُّل إلى السلام.

كانت العقبة نقطة تحوُّل في تفكيري. أدركت أن محاولة الوفاء بمطالب بنيامين لن تنجح، لأن الأهداف كانت دائماً تتحرّك. ونتيجة لذلك، ركَّزت في عقد اجتماع عالمي لإعلان مبادئ الوضع النهائي، بالرغم من عدم

موافقة الإسرائيليين والفلسطينيين عليها، في محاولة مني لخلق أرضية من أجل استئناف المفاوضات، عندما يصبح الطرفان مستعدَّيْن.

في ذلك الوقت، جرى تداول عدة مبادرات والتنافس بينها. فقد عرض المصريون الاجتماع بالأطراف، وتحدّث الروس عن استضافة قمة. وكان الفرنسيون يعملون على مؤتمر السلام الخاص بهم. اجتمعتُ مع الرؤساء العرب الرئيسيين لإقناعهم بدعم مبادئ الوضع النهائي على الملأ. وأبدى جميعهم دعمهم للمبادئ، لكنهم كانوا يخشون إعلان هذا الدعم علناً، لأنهم سيتلقّون الكثير من النقد. كنا ندرك أننا نحتاج إلى دعم العرب كي تصبح هذه المبادئ مقبولة لدى الشعب الإسرائيلي، ومن أجل منح الغطاء السياسي للطرفين. كان الحفاظ على مشاركة الفرنسيين والفلسطينيين والمصريين بالكامل أمراً يحتاج إلى توازن دقيق. ومع اقترابنا من انتخابات الولايات المتحدة، لم يرد أحد المخاطرة سياسياً، لذا توقفت الجهود مؤقتاً حتى انتهاء شهر تشرين الثاني/نوفمبر.

في أيلول/سبتمبر، استقبلت بحزن خبر وفاة أحد أبطالي، هو شيمون بيريز. كان شيمون أحد مؤسسي إسرائيل، وغدا أحد رجال الدول العظماء في العالم. كنت فخوراً بصداقته، وكذلك كان الرئيس أوباما. رحت أفكر في كل ما مرّ، وكذلك في الغد. أتأمل ذلك، وأنا أسير إلى جانب الرئيس أوباما في موكب جنازة بيريز، في شوارع القدس.

تذكّرت أول مرة قابلت فيها شيمون شخصياً على مروج البيت الأبيض لتوقيع اتفاقيات أوسلو التاريخية. وتذكَّرت آخر مرة قابلته فيها، في عشاء سبت حميمي قبل بضعة أشهر من وفاته، حيث تبادلنا نخباً لمستقبل إسرائيل، والسلام الذي كان يأمله بشدة لشعبه.

لخّص الأمر ببساطة وبلاغة، كما كان يفعل دائماً: «منحت الاتفاقية الأصلية الفلسطينيين نسبة ٤٨٪، والآن هبطت إلى ٢٢٪. أعتقد أن نسبة ٧٨٪ كافية لنا» .

ثم تذكّر شيمون محادثته مع فريدريك ويليام دي كليرك، الرئيس الأسبق لجنوب أفريقيا الذي قضى على التمييز العنصري. أخبره دي كليرك أنه ادَّخر القدر الكافي من الأموال لتحمُّل العقوبات الاقتصادية لدولته. كانت مُدَّخرة لسدادها بالكامل. لكن ما لم تتحمّله على الإطلاق، كما قال، هو التكلفة الأخلاقية للتمييز العنصري. لم يكن هناك أي قدر كافٍ من الأموال لتسديدها، وكانت تستنزف روح دولته. ذكر شيمون هذه المحادثة لي وقال: «إذا لم نحل هذه المشكلة، فإنني أخشى أن يحدث هذا لدولتي» .

أثناء تشييعنا شيمون إلى مثواه، تساءل الكثيرون منا إن كان السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين قد دفن أيضاً مع أحد أكبر المنادين به.

صمَّمت ألا أترك هذا الأمر يحدث. لم أستطع الاستسلام للتشاؤم، وآمنت أيضاً أن هذه هي أفضل طريقة لتكريم شيمون، الذي لم يستسلم قط، وميراثه في القتال إلى النهاية. وقد جعلني هذا أضاعف من جهودي في طرح مجموعة المبادئ المتفق عليها عالمياً، لشق طريق إلى مفاوضات جادة حول حل الدولتين.

كان الطريق طويلاً أمامنا. في الواقع، عندما كنا في جنازة شيمون، بدأ الإسرائيليون ببناء أول مستوطنة جديدة في الضفة الغربية، منذ ما يزيد على عشرين عاماً. وصلتنا أخبار المستوطنة حالما غادرنا. ومع وصولنا إلى أرض الوطن، كانت الأخبار منتشرة في الإعلام. لم يكن هناك معنى آخر لذلك: إن الإعلان عن مستوطنة جديدة أثناء تشييع رئيس الولايات المتحدة لرئيس إسرائيلي راحل، بعد إنهاء صفقة مُنحت فيها إسرائيل مساعدات عسكرية بمقدار ٣٨ مليار دولار، قد أظهر موقف الائتلاف الحاكم من الحكومة.

اغتنم الفلسطينيون فرصة هذه الأخبار كي ينظّموا تقريراً لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يدين المستوطنة الإسرائيلية. فقد أدركوا أنهم إذا حدّدوا صياغة تتوافق مع سياسة الولايات المتحدة على مدار عقود طويلة بشأن إقامة المستوطنات، فسوف يضعوننا في موقف حرج للغاية.

تذكّرت أسبوع عيد الميلاد سنة ٢٠١٤، حيث قضيت إجازتي، حتى ليلة عيد الميلاد، وأنا أُجري المحادثات الهاتفية لإقناع الدول الأخرى بمعارضة تقرير فلسطيني في مجلس الأمن. كانت حجتي الوحيدة هي أنه سيدمِّر أي احتمال لعملية سلام حقيقية. هذه الحجة لم يعد لها أي معنى بعد الآن.

أدركنا مدى النيران السياسية التي ستنهال علينا إذا لم نحتجّ على التقرير. وفي الوقت نفسه، كان من الصعب الاحتجاج على سياسة إسرائيلية كانت إسرائيل تعلم بأن الولايات المتحدة تعارضها بشدة، وترى أنها تتعارض مع مصلحتهم أو مصلحتنا.

كان علينا اتخاذ قرار.

وقد أعلن الرئيس المنتخب ترامب أنه سوف يرسل سفيراً إلى إسرائيل مناصراً بشدة للمستوطنات، ومعارضاً لحل الدولتين. وفي الوقت نفسه، أظهر الإسرائيليون أنهم مستخفّون تماماً بسياستنا عبر بدئهم بعملية تشريع إقامة المستوطنات، التي كانت بمثابة الاستيلاء على أجزاء كبيرة من

الضفة الغربية. إن تزايد المستوطنات غير شرعي، حتى بموجب قانون إسرائيل نفسه ذلك أن تلك المستوطنات تقوم عادة على الأراضي الفلسطينية في مواقع استراتيجية تجعل إنشاء دولة فلسطينية صالحة أمراً مستحيلاً. كان السياسيون اليمينيون في إسرائيل يتفاخرون علناً بأن حل الدولتين قد بات مستحيلاً، وأنهم يعتزمون الاستيلاء على الضفة الغربية. لم نستطيع الدفاع عن تصرفات الإسرائيليين في الأمم المتحدة، بعد أن أحدثت تصاعداً هائلاً لم يسبق له مثيل في مسألة الاستيطان.

خضنا الكثير من المناقشات في البيت الأبيض حول سياسة الاستيطان والدفاع عنها في شكلها الحالي الفج والفاضح. كان البعض يرى أن علينا تقبُّل الأمر لأنه لا يستحق التضحية السياسية. لم يكن الرئيس أوباما راغباً، في اتخاذ قرار يرى أنه يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة ببساطة جرّاء السياسة. أتذكَّره يقول ما معناه: «إذا لم نكن مستعدين للتمسك بما نراه صحيحاً الآن، فما هي وظيفتنا؟» .

في النهاية، لم نوافق على كل ما جاء في تقرير الأمم المتحدة. ذلك أن بعض المسائل المهمة لم تُعالَج بقدر كاف، أو لم تذكر حتى على الإطلاق. لكننا لم نستطع الاحتجاج بقلب مطمئن عبر تقرير يندِّد بالعنف الفلسطيني، والتحريض ضد إسرائيل. وكرّرنا الإجماع العالمي الأزلي حول المستوطنات، ودعونا الأطراف إلى بدء اتخاذ إجراءات استدلالية لتحقيق حل الدولتين على أرض الواقع.

امتنعت سفيرتنا في الأمم المتحدة، سامانثا باور، عن التصويت. وعدت إلى واشنطن بعد إجازة عيد ميلاد قصيرة مع عائلتي، لمواجهة النقد المتوقَّع.

انتقد الإسرائيليون التقرير لدعوته القدس الشرقية أرضاً محتلة. لكن لم يكن هناك شيء جديد بالتأكيد في التقرير بخصوص هذه المسألة. كان واحداً من التقارير الكثيرة لمجلس الأمن التي تتضمّن القدس الشرقية كجزء من الأراضي التي احتلتها إسرائيل في العام ١٩٦٧، ومنها التقارير الصادرة عن مجلس الأمن تحت ولاية الرئيسين ريغان وجورج إتش. دبليو. بوش. لطالما اعترفت كل حكومة للولايات المتحدة منذ العام ١٩٦٧، مع المجتمع العالمي بأكمله، بالقدس الشرقية كجزء من الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب الأيام الستة. احترمت حكومة أوباما روابط إسرائيل التاريخية والدينية العميقة بالمدينة ومواقعها المقدسة. لكن التقرير لم تكن له أهمية الحكم الصادر كنتيجة لمفاوضات الوضع الدائم حول القدس الشرقية، تلك المدينة التي تعكس الروابط التاريخية والوقائع على أرض الواقع.

شعرت أن من واجبي دحض كل هذه الحجج.

أتذكر جلوسي مع وكيلة الوزارة السابقة ويندي شيرمان في مكتبي، مع مسوَّدة الخطاب الذي كنت أنوي إلقاءه حول التقرير. نتمتع أنا وويندي بروابط قوية بالمجتمع اليهودي. وذكّرتني بما كنا نعلمه كلانا: «سيدي الوزير، إذا ألقيت هذا الخطاب، فإنك ستخسر بعض الأصدقاء» . تطلّعت خارج نافذة مكتبي إلى المول في واشنطن، وقلت لويندي: «أدرك هذا، لكنني قمت بالعديد من الأمور في حياتي لأنني اعتقدت أنها صائبة، وليس لأنها سهلة. آخرون كثيرون قاموا بذلك أيضاً، وهم على استعداد تام لتلقّي العواقب. أعتقد أن هذا هو الأمر الصائب الذي يجب القيام به الآن، وبالتأكيد لن أتراجع لمجرد احتمال حدوث ارتداد سياسي» .

أرسلت خطاب المسوَّدة إلى الرئيس أوباما في هاواي، وأجابني: «جون... أنا أدعمك» .

كنت راضياً عن قولنا للحقيقة بأوضح ما أمكننا. لكن ما أحبطني بشأن رد الفعل على الخطاب هو ضياع جميع مجهوداتنا على الجبهة الإقليمية لإنشاء مبادئ الوضع النهائي وسط ضجيج النقد. كانت حُجتي مبنية على اهتمامي والتزامي نحو إسرائيل. أحياناً يجب عليك أن تقول الحقيقة القاسية للأصدقاء، وهذا هو مقياس الصداقة الحقيقية.

قبل انتهاء فترة توليَّ منصبي، حانت لنا فرصة أخيرة للتركيز مجدداً في مبادئ الوضع النهائي التي عملنا بجهد على مدار السنوات السابقة لصنعها. أردنا أن نوضح إطار العمل الذي قد يؤدي إلى السلام. أردنا أن نرسم طريقاً إيجابياً نحو المستقبل حتى ينتهجه كلا الطرفين عندما يكونان مستعدين. كان الفرنسيون يقيمون مؤتمراً حول السلام في الشرق الأوسط في كانون الثاني/يناير ٢٠١٧. فتوجّهنا إلى المؤتمر مع تحدّي أن نجعل الجميع يوقّعون على بيان يدعم مبادئ الوضع النهائي بوضوح.

وعلى مدار اليومين التاليين، تحاورنا مع معظم وزراء الخارجية في الغرفة، للعمل على المسائل المتبقية. وصلنا في النهاية إلى الهدف المرسوم. وافقت كل دولة على البيان الداعم لمبادئ الوضع النهائي، وبالتالي حصلنا على الموافقة بالإجماع. وبعد ذلك، شكرنا عددٌ من وزراء الخارجية على جهودنا. أتذكّر قول جان مارك أيرولت، وزير الخارجية الفرنسي الذي استضاف المؤتمر: «إن كيري يتحدث بالنيابة عنا جميعاً حول هذه المسألة» . كانت نتيجة مرضية جدّاً لعمل متواصل دام سنتين متتابعتين، وفي الوقت نفسه خيبة أمل غريبة. إذ كان معظم الناس يركِّزون في انتخابات دونالد

ترامب، ولم يبدوا إلّا القليل من الانتباه لأهمية اللحظة. فقد كانت هذه اللحظة هي الأولى التي أجمع فيها المجتمع العالمي على دعم مبادئ الوضع النهائي، لإنهاء الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني.

والآن، إلى أين نذهب؟

أنا شخص متفائل للغاية، وما زلت أرى طريقاً واحداً إلى الأمام. الآن يعيش عدد متساوٍ تقريباً من اليهود والفلسطينيين بين نهر الأردن والبحر المتوسط. يمكنهم اختيار العيش معاً في دولة واحدة، أو الانفصال إلى دولتين. لكنْ هناك واقع أساسي: مع حل الدولة الواحدة، فإن إسرائيل يجب أن تكون دولة يهودية أو ديمقراطية، إذ لا يمكن لها أن تصير الاثنتين معاً، ولن تكون في حالة سلام فعْليّ على الإطلاق. وفضلاً عن ذلك، فإن الفلسطينيين لن يحصلوا أبداً على أرضهم الخاصة في حل الدولة الواحدة.

لذلك أؤمن بشدة أن الإسرائيليين والفلسطينيين يحتاجون إلى حل عادل ومستدام للفصل في الضفة الغربية. ولكنّنا لسوء الحظ، نتجه في الطريق المعاكس. هذه إحدى الوقائع اللافتة حول الوضع الراهن: يجري الآن تنفيذ القرار الحالي بمصادرة المستقبل، «حل الدولة الواحدة أو الدولتين» ، عملياً على أرض الواقع كل يوم، بالرغم من رغبات معظم الأشخاص.

أعلم أن معظم الإسرائيليين والفلسطينيين سيخبرونك سريعاً أنهم بقدر ما يريدون السلام، يرونه حلماً بعيداً قد لا يتحقق. ولكننا لا نملك ترف الاستسلام للإحباط، واعتبار الأمر قدراً محتوماً.

في البداية، يهم كلا الطرفين اتخاذ خطوات بغية تغيير جذري لما هو قائم على أرض الواقع. يجب أن يتصرَّف الفلسطينيون تصرُّفاً أكثر حزماً ضد العنف والتحريض اللذين يزيدان من شكوك الإسرائيليين بهم. أوضحنا أنا والرئيس أوباما مراراً للرئاسة الفلسطينية أن من الضروري إيقاف جميع عمليات التحريض على العنف. كما ندّدنا بالعنف والإرهاب، وانتقدنا الرئاسة الفلسطينية على عدم التنديد بذلك. وعارضنا المقاطعة، وحرّضنا على التراجع عن محاولات نزع الشرعية عن إسرائيل في المنتديات العالمية، والمطالبة بإيقاف إسرائيل في المحكمة الجنائية الدولية، إذ لا ينتج عن هذا إلا عرقلة فرص السلام.

في الوقت نفسه، فإن العناصر الأكثر تشدُّداً في الطيف السياسي لإسرائيل لا تنظر إلى مستقبل إسرائيل إلّا على أنها دولة واحدة. إذا كانت هناك دولة واحدة، فسرعان ما سيتّضح لك أنّ ملايين الفلسطينيين يعيشون

إلى جانبك، في أراض معزولة وسط الضفة الغربية، بلا حقوق سياسية حقيقية؛ وبأنظمة شرعية وتعليمية ومواصلات منفصلة؛ وتفاوتات هائلة في الدخل؛ وتحت احتلال عسكري دائم يحرمهم أبسط حرياتهم. وما سيحصل عليه الفلسطينيون هو الانفصال وعدم المساواة. هل ثمة من يصدّق أن مثل هذا الأمر سيكون ناجحاً؟

يجب ألا نغفل عن الهدف النهائي؛ وهو ما وصفه الرئيس كينيدي بالسلام الحقيقي: «ذلك السلام الذي يُكسِبُ الحياةَ على الأرض قيمتَها، ذلك السلام الذي يمكّن الإنسان والأمم من النمو والأمل وبناء حياة أفضل لأطفالها» . هذا هو المستقبل الذي يجب أن يعمل من أجله الجميع. الأمر يعود إلى الإسرائيليين والفلسطينيين لاتخاذ القرارات الصعبة من أجل السلام. لكننا جميعاً نستطيع المساعدة. وبخصوص دورنا، فإننا عملنا مع المجتمع العالمي للعثور على طريق للتقدم نحو الأمام: إجراءات فعلية تبدأ بإلغاء عملية الفصل، وإعادة بناء الثقة، وإيجاد مبادىء للوضع النهائي يوافق عليها الطرفان، عندما يجدان أنهما أصبحا مؤهَّلَينْ للموافقة. لكن سواءاختيرت هذه الطريقة أو سواها، فإن عملية السلام الدائم ستتطلب قرارات صعبة من الطرفين على حد سواء. من أجل الأجيال المستقبلية للإسرائيليين والفلسطينيين، من أجل شعوب المنطقة، وشعوب الولايات المتحدة وكل شعوب العالم التي دعت وعملت من أجل السلام للأجيال، دعونا نأمل أن يصبح الإسرائيليون والفلسطينيون مستعدين لاتخاذ هذه القرارات، قبل أن يفوت الأوان.

أمّا أنا، فإنّني أتذكر ترنيمة تعلّمتها في كنيسة المدرسة الثانوية: «أصلّي لسلام القدس» . إنها أغنية تستحق أن نشدو بها، وبالرغم من الجروح التي أصابتني، فإنني، عندما يتحقق السلام بين شعبين يستحقانه بالتأكيد، سأكون فخوراً، لأنني حاولت.

الفصل الثامن عشر: تفادي حرب

دخل وزير الخارجية الإيراني، جواد ظريف، من باب غرفة صغيرة بلا نوافذ، لا يزيد حجمها على حجم خزانة ملابس، تقع قرب قاعة مجلس الأمن في مبنى الأمم المتحدة. لم تحتوِ الغرفة على أكثر من مكتب وكرسيين. بترتيب مسبق، كنتُ أنتظرُ هناك، وقد دخلتُ من باب في الجانب الآخر. كان ذلك أول لقاء لوزيرَيْ خارجية أميركي وإيراني منذ حوالى أربعين عامًا.

من خلال تقويمات حلفائنا، بمن فيهم إسرائيل، وخبرائنا، كانت إيران تتقدم سريعًا نحو امتلاك الأسلحة النووية. لم يشك أحد في أن إيران قد أتقنت فعلًا دورة الوقود النووي. فبعد أن كان لدى إيران 164 جهاز طرد مركزي لتخصيب اليورانيوم في الأيام الأولى من حكم إدارة جورج دبليو بوش أصبحت، بحلول العام 2011 تشغّل 19000 جهاز من أجهزة الطرد المركزي المنتشرة فيها، والبالغ عددها 27000. لقد خزَّن الإيرانيون كمية كافية من اليورانيوم المخصَّب، أي ما يكفي لصنع ما بين ثماني قنابل وعشر، إذا ما أقدموا على صنع سلاح. كانت تفصلهم بضعة أشهر عن البدء بتشغيل مفاعل نووي لإنتاج ما يكفي من اليورانيوم المخصَّص لصنع أسلحة نووية وقنابل إضافية. وقدَّر خبراؤنا أن تتمكَّن إيران من التقدُّم، وامتلاك سلاح نووي، خلال فترة تراوح بين شهرين وثلاثة أشهر.

وبالقدر نفسه المنذر بالسوء، كان كثير من حلفائنا الأقوياء في المنطقة يمارسون الضغط على الولايات المتحدة لقصف المنشآت النووية الإيرانية. ولسنوات، كان رؤساء الوزراء والملوك والرؤساء في المنطقة يجادلون بخصوص ضربات استباقية يجب أن تنفّذها الولايات المتحدة.

عقَّد سلوك إيران في المنطقة المشهد النووي كثيرًا. فقد كانت إيران تختبر الصواريخ؛ وتدعم حزب الله الذي وُصف بأنه منظمة إرهابية؛ وتتدخّل في العراق؛ وتهدِّد المملكة العربية السعودية، في حين تدعم الحرب الأهلية في اليمن. في الواقع، كانت المخاطر كبيرة.

إذا كانت الولايات المتحدة ستفرض قيودًا مناسبة على برنامج إيران النووي، وتتجنّب الانخراط في حرب من جانب واحد في الشرق الأوسط، فمن الضروري أولاً بحسب اعتقادنا استنفاد كل الوسائل الدبلوماسية الممكنة. لقد تعلّمنا، طوال سنين، أن أميركا، بما تمثّله من قِيَم، تكون أقوى عندما تظهر النضج والصبر لبناء ائتلاف واسع من الدعم. هذا ما فعله جورج بوش الأب في حرب الخليج، وهذا ما فعلناه في تنفيذ استراتيجية لإلحاق الهزيمة بداعش (المعروفة بتنظيم الدولة الإسلامية، أو الدولة الإسلامية في العراق والشام). كنا ندرك تمامًا سلوك إيران العدواني في المنطقة. ولهذا السبب بالضبط فرضنا العقوبات على أنشطتها المتعلقة بالصواريخ، وانتهاكات حقوق الإنسان، والإتجار بالأسلحة.

ولكن على الرغم من كل المشكلات التي تمثّلها إيران للعالم والمنطقة، فقد عرف الرئيس أوباما، وفريق الأمن القومي كاملًا، أن التعامل مع إيران سيكون أسهل، ويكون العالم أكثر أمانًا، إذا لم يكن شبح السلاح النووي يحوم حول كل القضايا التي واجهناها. كان علينا أن نتعامل مع برنامج إيران النووي.

وإذ جلست مع ظريف في غرفة الاجتماعات الصغيرة التابعة للأمم المتحدة لنبدأ محادثتنا الأولى، كانت تلك الحقيقة الصارخة تتصدّر أفكاري. كان المقصود أن يكون الاجتماع تبادلًا موجزًا.

تحدّثت مع جواد في تلك الغرفة الصغيرة حوالى ساعة. كنتُ قد استقيت معلومات عنه قدر المستطاع من الأصدقاء والزملاء الذين عملوا معه في الأمم المتحدة. بدا واضحًا أنه قام بالأمر نفسه، مشيرًا إلى عملي مع العُمانيين، وأمثلة أخرى على أدائي في المنطقة.

فوجئت بسهولة استخدام جواد للمصطلحات الإنكليزية. فدراسته الأميركية والأعوام التي قضاها ممثلًا دائمًا لإيران في الأمم المتحدة قد وفّرتا له أساسًا متينًا في السياسة الأميركية. كان قارئًا جيدًا ومثقفًا وذكيًّا. كان كذلك متحدِّثًا باسم نظامٍ إيراني، لدينا اختلافات جوهرية معه.

بدأنا حديثنا بالمجاملات والعموميات اللتين تناولتا سنواته في نيويورك والأمم المتحدة والحياة في إيران وأسرته وسياساتنا ووظيفتي ومجلس الشيوخ. ثم غصنا في العمل. أوضحتُ أن الإدارة مستعدة أن تكون جادة، لكنها لا تشعر أنها على عجلةٍ من أمرها أو مجبرة على التوصل إلى اتفاق على برنامج إيران النووي. فعدم التوصل إلى صفقة أفضل من إتمام صفقة سيئة. وسيكون من الضروري استعداد إيران لتثبت أنها ستلتزم مقاييس الوكالة

الدولية للطاقة الذرية، بل أكثر من ذلك، وإلّا فإننا سنضيع وقتنا. قال إن إيران لم تكن مستميتة للتوصّل إلى اتفاق. وذكر فتوى آية الله، التي نُشرت عام 2003، معلنًا فيها أن إيران لن تسعى إلى امتلاك سلاح نووي. قلت إننا، على ما اتَّضح، في حاجة إلى أكثر اتفاق دولي قابل للتحقّق على الإطلاق. كان الأمر مفهومًا: لكل منا نقاط أساسية واضحة لا يمكن تجاوزها، لكننا كنا جادين في محاولة إيجاد طريق للمضي قدمًا.

قبل مغادرتنا، ناقشنا أهمية الخصوصية. منذ البداية، اعترف كلانا بأن إنشاء علاقة بيننا سيكون ضروريًّا لإحراز النجاح. نحن نحتاج إلى خط مفتوح يمكننا التواصل من خلاله عند نقطة اللاعودة، في اللحظات المتوترة. لهذا السبب، تعهّدنا في ذلك الاجتماع تجنُّب العمل على طريق المنازعات العلنية، عبر الصحافة. بدلًا من ذلك، سنبذل كل ما في وسعنا لحلها سرًّا، بمعزل عن الآخرين.

كانت الصحافة على دراية تامة بأنني وظريف سنجري على الأرجح محادثات في ذلك اليوم، لأننا قرّرنا أن نحضر اجتماعًا عامًّا لما يُسمى بمجموعة الخمسة زائد واحد، وهي المجموعة التي تشكَّلت من قبل للتركيز في برنامج إيران النووي. كان الأعضاء الخمسة الدائمون في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة (الصين وفرنسا وروسيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة) ومعهم ألمانيا، إضافة إلى الاتحاد الأوروبي، يجتمعون على مستويات أدنى، وفي شكل متقطِّع لسنوات، وهدفهم قياس احتمالات التوصُّل إلى اتفاق يقضي على مخاوف المجتمع الدولي من البرنامج النووي الإيراني المتنامي. كانت تلك المرة الأولى التي ينضم الدبلوماسيون على مستوى وزير خارجية إلى محادثات مجموعة الخمسة زائد واحد. تكدَّس المراسلون كقطع السردين في مواقع المراقبة المحدَّدة، متلهفين إلى التعليقات على ما تكشف داخل غرفة مجلس الأمن في الأمم المتحدة. أدركت أنا وظريف مقدار الاهتمام. لقد محا اجتماعنا أربعين عامًا من التجاهل المتبادل.

حدث كل ذلك في خضم أنشطة الجمعية العمومية للأمم المتحدة سنة 2013، في أسبوع مفعم بالطاقة من شهر أيلول/سبتمبر، عندما يحل الزعماء الأجانب ضيوفًا على مدينة نيويورك، ويتجنب سكانها نصف قطر مؤلف من عشرة مبانٍ تحيط بمقر الأمم المتحدة في شرق وسط المدينة، خوفًا من انتظار أكثر من مئة موكب تتحرَّك في أرجاء المنطقة. إنها الفوضى المضبوطة. لم يكن غريبًا أن يكون لدي أكثر من اثني عشر اجتماعًا وحدثًا على مفكرتي ذلك اليوم. وكل اجتماع، كل حركة، مخطَّط لهما ومصمّمان بدقة.

فاجتماعي مع ظريف الذي دام ساعة دفع بعضهم إلى الهرولة لتقصّي هذا اللقاء العفوي.

وصفت التقارير الإعلامية هذا الاجتماع الأول بأنه مدخل إلى فصل جديد بين الولايات المتحدة وإيران. لكنَّ حوار دولتينا قد بدأ بالفعل قبل ذلك بكثير.

ففي أيار/مايو 2011، عندما كنت لا أزال رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، تعرّفت إلى مبعوث السلطان قابوس في سلطنة عمان، وهو رجل يدعى سالم الإسماعيلي. يتصف سالم بأنه ذكي وحاسم. وهو أيضًا متحدِّث لبق ومتواضع. وأنا، في الواقع، متأكد أن من الأفضل استبعاده عن هذه القصة. لكن الحقيقة هي أن دوره حاسم جدًّا، فلا يمكن تجاهله.

سمعت عن سالم للمرة الأولى بعد أن سجنت الحكومة الإيرانية ثلاثة متنزّهين أميركيين كانوا يتجولون عن غير قصد في الجبال الإيرانية. اشتُبِه بأنهم جواسيس. عندما أُفرج عن الأولى بينهم، سارة شودر، في أيلول/سبتمبر 2010، سلطتِ الضوء علنًا على الدور الذي أدَّاه سالم في إطلاقها، وشكرت «صديقها العزيز سالم الإسماعيلي» بعد ساعات من مغادرتها للمجال الجوي الإيراني. ولكن بعد أشهر من عودة سارة إلى الوطن، ظل المتنزهان الآخران، جوش فتال وشين باور، في عهدة إيران. ومع رفض الولايات المتحدة وإيران التفاوض مباشرة في الأمر، كان السلطان قابوس وسالم يعملان كوسيطين فعليين لحكومتينا على تسهيل إطلاق جوش وشين.

طلب سالم الاجتماع معي لمناقشة تلك المسألة. وعرض السفر إلى واشنطن من مسقط للحوار. وعلى الرغم من نجاحه القياسي في إطلاق سارة شورد، فإن السلطان شكك في مدى فهم الإدارة لجدوى علاقته مع الإيرانيين.

منذ الدقائق الخمس الأولى للقائي سالماً، أدركت أن هدفه يتجاوز قضية المتنزّهين. تحدّثنا عن ضرورة عودة جوش وشين سريعًا إلى الوطن، لكنه انتقل فورًا إلى إمكانات التقدُّم على جبهات أخرى أيضًا. كان على رأس القائمة مسار إيران الحالي لامتلاك سلاح نووي. لقد أوضح لي سالم خلال الاجتماع الأول أن السلطان قابوس شعر أن في إمكانه أن يكون مفيدًا في التقدُّم بحل يقبله الطرفان. كان من الواضح كذلك أن العُمانيين لم يتصرفوا من باب حسن النية فحسب. كانوا يعلمون أن إيران المسلحة نوويًّا ستقوِّض في شكل أساسي استقرار المنطقة. وكانوا قلقين، كما كنا، من أن تقترب طهران أكثر فأكثر من امتلاك السلاح.

أطلق شين وجوش في أيلول/سبتمبر 2011، والفضلُ في ذلك يعود إلى الجهود العُمانية إلى حدّ بعيد. وأنا أرى، وكذلك يرى كثيرون في إدارة أوباما، بمن فيهم الرئيس أوباما نفسه، أن السلطان قابوس قد أثبت جدّيته وتأثيره لدى الإيرانيين.

وبعد أن أثبت العُمانيون حسن نيّاتهم، اعتقدت أن من المناسب أن أعرف إذا كان بإمكانهم المساعدة على سدّ فجوة الاتصالات مع الإيرانيين، أم لا. كنا نحتاج إلى مزيد من التبصُّر في تفكيرهم، وإلى تقويم أفضل للإمكانات. بدأت، أنا وسالم، نتحدّث بانتظام، سواء على الهاتف، أو باللقاء شخصيًّا من وقت إلى آخر. كنا حذرين من الآذان الفضولية والميكروفونات. ولما كنّا نعرف أن بعضَ مَن في الولايات المتحدة وخارجها قد دافعوا عن العمل العسكري باعتباره الحل الوحيد لوضع حدّ للتقدم النووي الإيراني، أردنا أن نتجنّب أن يكون الحل الدبلوماسي مستحيلاً، حتى قبل أن تتاح لأمتينا فرصة الجلوس والتحدُّث.

أطلعت أقلّ عدد من الأشخاص المخوّلين في الإدارة على محادثاتي، وتعاملت معظم الوقت مع توم دونيلون. وساد اتفاق عام على أن الأمر يستحق استكشاف إمكان تحقيق تقدُّم على الجبهة النووية على الأقل، بالنظر إلى نجاح إطلاق المتنزّهين. وبدأت، بموافقة الرئيس أوباما، بالتخطيط لرحلة إلى مسقط للقاء السلطان قابوس، على أمل التوصل إلى رؤية أفضل لما يمكن تحقيقه. اقترحت على الرئيس أوباما ضم شخص آخر إلى الدائرة نحتاج إليه هو: زعيم الغالبية في مجلس الشيوخ هاري ريد.

تبيّن لي أن الوقت الوحيد المتاح لي بغية إجراء الرحلة سيكون قبل نهاية العام، مما يعني، ويا للأسف، أنني سأفوِّت على الأقل تأكيد التصويت لريتشارد كوردراي رئيسًا لمكتب حماية المستهلك المالي الجديد. كان عليَّ أن أخبر هاري ألا يعتمد على حضوري للتصويت. كنت مدينًا له بتعليل ذلك.

التقينا في مكتبه بمبنى الكابيتول، وأطلعته سريعًا على المحادثات مع سالم، موضحًا أن الرئيس أوباما يريدنني أن أسافر إلى مسقط للقاء السلطان. بدأت بتعليل أهمية بقاء موضوع الرحلة سريًّا، لكنه أوقفني قبل أن أتمادى في الحديث؛ لقد أدرك دقة الوضع، وقال إن من غير المرجَّح أن يحظى بالترشيح من خلال مجلس الشيوخ في أي حال (لن يتأكد تعيين كوردراي رسميًّا قبل تموز/يوليو 2013).

كنت مغتبطًا، في تلك اللحظة، كما دومًا، لوجود هاري في مكتب القائد. كان صعب المراس في قاعة مجلس الشيوخ، ولكن خلف الأبواب المغلقة، لا

يمكن إيجاد زميل داعم قدره. قال إنه يعتقد أن الرحلة فكرة جيدة. وأراد إعلامي بأنه سيحافظ على سرية كل ما أطلعته عليه. مذذاك وحتى اليوم، بقي على وعده. تلك ميزة قدماء مجلس الشيوخ.

تنطبق السرية أيضًا على موظفيَّ. أطلعت اثنين فقط من مساعديَّ على القصة كاملة. عندما أصبح واضحًا أن تصويت كوردراي سيجري في غيابي، علمنا أن الصحافة ستبحث عن السبب. لم نكذب يومًا على الصحافة، ولكنْ عندما تدفّقت التحقيقات، طلب رئيس هيئة موظفينا من فريقنا الصحافي عدم التعليق، واستيعاب كل الضربات التي تلي. لحسن حظنا، انطفأت القصة بعد ثمانٍ وأربعين ساعة.

وصلت إلى قصر السلطان، صباح 8 كانون الأول/ديسمبر 2011. لم أقابل السلطان قابوس من قبلُ قط، لكنني علمت عن مكانته وسمعته كمحاور عميق ذي علاقات جيدة مع كلا الطرفين المنقسمين طائفيًّا في المنطقة، وكزعيم أوصل بلاده إلى الحداثة بعد أن كانت طرقها ترابية. تسلّم السلطة في سبعينات القرن العشرين، وكانت عُمان تفتقر إلى البنية التحتية والرعاية الصحية والتعليم. استخدم السلطان عائدات بلاده النفطية لبناء المدارس والمستشفيات وشق الطرق وتوفير المياه النظيفة. عمل طويلًا على سد الفجوة بين دول الخليج السنّية والدول الشيعية مثل إيران، مخاطرًا حتى بعلاقاته مع شركائه الخليجيين. جعله حياده أحد القادة القلائل الذين وثق بهم كل من الرئيس الأميركي والمرشد الأعلى الإيراني.

كانت زيارتي الأولى لعُمان لا تنسى. لم تكن بدايةً لمساعٍ استمرت سنوات فحسب، بل كانت إحدى الزيارات التي حظيت فيها باستقبال حار نابع من القلب لم أحظَ به في أي مكان آخر. جلستُ والسلطان قابوس على شرفة أحد قصوره الواسعة المرصَّعة بالحجارة والمطلّة على الخليج، وناقشنا السياسة والفن والموسيقى وتقديرنا المشترك للسيارات الكلاسيكية. وقتَ الغداء، اصطحبني إلى جزء آخر من القصر، أكبر من الأول، حيث استمتعنا بوليمة شرق أوسطية محاطين بفرقة الأوركسترا الملكية التي عزفت مجموعة من الأغاني الأميركية، لنصل في النهاية إلى الموضوع الذي شغل ذهنينا: هل تستطيع الولايات المتحدة الأميركية وإيران التغلب على شكوكهما والبدء بالتفاوض على حل للتحدي النووي؟

أخبرني السلطان باعتقاده أن هناك فرصة حقيقية متاحة. تقليديًّا، داخل الحكومة الإيرانية، كان المتشددون في مجلس الأمن القومي الأعلى يديرون القضية النووية. ولكنْ ما شجّع السلطان أن المرشد الأعلى علي خامنئي، قرّر نقل الإشراف إلى وزارة الخارجية، مما يعني أنها ستكون تحت

سلطة الوزير علي صالحي، وهو خبير نووي مدرّب في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. كان صالحي الأب الروحي للبرنامج النووي الإيراني. ولهذا السبب، كان يتمتع بثقة المرشد الأعلى. لكن السلطان جادل بأن صالحي كان أحد أكبر المدافعين في طهران لإعطاء الدبلوماسية فرصة. لقد اكتشفت لاحقًا أن وجهة نظر السلطان في ما يتعلق بصالحي كانت صائبة، كالعادة.

وعلى الرغم من إحساس السلطان بالفرصة، فقد استوعبنا العقبات الحقيقية أمام التقدم. تأتي على رأس القائمة عقود من عدم الثقة المتبادلة والخيبات. كانت لدى كلا الجانبين مخاوف سياسية مهمة أيضًا؛ وللمفارقة، لم تكن متباينة تمامًا: كانت كل من الحكومتين تخوض انتخابات، وعليها أن تسترضي دوائر كبيرة من الأشخاص الأقوياء الذين يعارضون، في شدة، المحادثات المباشرة بين الدولتين. في المشهد العام، كانت إيران في نظر الأميركيين دولة إرهابية، مذنبة بتهمة تدمير سفارتنا واحتجاز رهائن، وقتل أميركيين بالعبوات الناسفة والقنابل في العراق ولبنان، والتدخل في شؤون حكومات المنطقة من أجل نشر «ثورتها» . أما الإيرانيون فكانوا يرون في أميركا «الشيطان الأكبر» ، غير الجديرة بالثقة، والتي تحاول إطاحة حكومتهم مع وكالة الاستخبارات المركزية، المؤيدة للشاه وشرطته السرية التي نكَّلت بالناس، المذنبة بوقوفها على الحياد حين أطلق صدام حسين الغاز على الإيرانيين؛ وتذمّرت بعد ذلك من دعم إيران للأسد. كانت التصوّرات والمشاعر قوية لدى كلا الجانبين. يقتضي كل ذلك الكثير من العمل، وسيكون إيجاد طريقة مقبولة للطرفين للمضي قدمًا، صعبًا، بل ربما كان مستحيلاً.

مع أخذ ذلك في الاعتبار، شاركني السلطان قابوس توجيهًا مهمًّا في ذلك الاجتماع الأول: «يجب أن ترتكز المفاوضات على إحساس حقيقي بالاحترام المتبادل» ، على ما قال لي، مضيفًا: «إذا شعر الإيرانيون أن التصرف معهم يُظهر شعورًا بالتنمُّر أو التفوق، فسوف يقاطعون المفاوضات فورًا» . أخذت النصيحة على محمل الجد. كانت المحادثات التي تلت متوترة غالبًا، إن لم تكن حادة. ولكن على الرغم من الاختلافات الجوهرية الضخمة، فإنها كانت مستترة بعباءة الاحترام. أحدث ذلك كل الفرق.

غادرت مسقط متشجّعًا بمحادثتنا، وعدت إلى واشنطن قبل أيام قليلة من عيد الميلاد. أطلعتُ سريعًا البيت الأبيض ووزارة الخارجية على المستجدات. كان لايزال هناك عدد من الأسئلة بلا إجابة، لكنَّ الرئيس أوباما وافق على أن الأساس لحوار حقيقي مع الإيرانيين يبدو قائمًا.

كذلك وافق على أن الاستمرار في التواصل مع الإيرانيين عبر الرسائل التي تمر عن طريق مسقط لن يحقِّق تقدمًا سريعًا؛ نحتاج في النهاية إلى الجلوس وجهًا لوجه مع الإيرانيين أنفسهم. رتبت رحلةً للعودة إلى مسقط في 3 كانون الثاني/يناير 2012 لأناقش كيف يستطيع العمانيون المساعدة على إجراء حوار كهذا.

مدتني تلك المحادثات الأولية بالطاقة. خلال عطلة الميلاد مع الأسرة في كيتشوم، إيداهو، قضيتُ وقتًا طويلًا على الهاتف مع سالم وموظفيَّ وغيرهم من المشاركين في هذا الجهد. أعتقدُ الآن أننا نملك فرصةً حقيقيةً لمنع سباق التسلح النووي في الشرق الأوسط. أردتُ التأكد أننا لن نهدرها.

أخذت مع ذلك وقت راحة. طوال الأعوام الخمسة والعشرين الماضية، تعوّدنا، يوم عيد الميلاد، أن نلعب الهوكي على الجليد بعد الظهر مع جيراننا في وادي صن. إنها متعة رائعة، عادةً. يلعب الناس من كل الأعمار، من سن الرابعة إلى الرابعة والسبعين. ليس هوكي جليديًّا بالمعنى «الحقيقي» ، على الرغم من أنه يتطلب مهارة فعلية في التزلج؛ نلعب لعبة الهوكي المعروفة بـ «بروم» ، أي مزيج من الهوكي وكرة القدم، مع عصاة صغيرة ذات شفرة قصيرة وكرة مطاطية صُلبة. ارتدى عدد قليل من الناس حتى الخوذات الحامية للوجه أو سراويل الهوكي. ومع أنها في العادة لعبة خفيفة الحدة، فإن السرعة فيها قد تتصاعد، بالاستناد إلى من يملك الكرة.

في مرحلة ما، كنت أطارد الكرة، عندما انزلق توم هانكس، وهو واحد من جيراننا في ولاية إيداهو، وسقط أمامي مباشرة. كان عليَّ إما أن أرتطم به، وإما أن أحاول القفز فوقه وتجنُّب الاصطدام. انتقيت الخيار الثاني. ولكن، لسوء الحظ، وإذ كنت في طريقي للقفز فوقه، بدأ بالنهوض إذ لم يرني آتيًا نحوه. فعلقت به قدماي وارتفعتا عاليًا فيما سقطتُ وارتطم وجهي بالجليد، وسُمع صوت تكسُّر في كل الأرجاء. حدث الأمر سريعًا، ولم تُتح لي الفرصة لتخفيف حدَّة الصدمة بكفيَّ أو ذراعي. عرفتُ فورًا أنني كسرتُ أنفي. ذهبتُ مباشرة إلى المستشفى حيث أعلموني أنَّ عليَّ الانتظار حتى يخف الورم، لتُجرى لي جراحة. انتهى بي الأمر مع عينين محوطتين بكدمات سوداء ضخمة، مثل الراكون وأنف مكسور ومتورم تمامًا كأنني ملاكم تعرض للضرب. بعد أسبوع، أي عندما كان من المقرر أن أعود إلى الشرق الأوسط، كانت الكدمات بالكاد خفَّت. وضعت نظّارة سوداء كبيرة وانطلقت.

في مسقط، باشرنا العمل بسرعة كبيرة. أعرب الرئيس أوباما عن عدد من المخاوف نقلتها إلى السلطان. فشغله بشكل خاص تساؤلان معيّنان، هما: ما مدى جدية الإيرانيين؟ وهل يملك أي موفد يُرسل للاجتماع معنا سلطة

التفاوض في الواقع، أم أنهم انخرطوا في عملٍ سيُستخدم ضدّنا لاحقًا؟ قبل أن نوافق على أي اجتماع، أمَلنا أن يسأل السلطان قابوس عن دوافع إيران. هل يمكنه إيلاء الثقة للدبلوماسيين المكلفين التفاوض نيابة عن إيران؟ سألت السلطان إن كان مستعدًّا لزيارة إيران كي يقف شخصيًا على النيات الإيرانية كاملة. وفي بادرة استثنائية، قام السلطان الذي نادرًا ما سافر رسميًّا بسبب مشكلات صحية بزيارة رسمية لطهران، حيث التقى المرشد الأعلى آية الله خامنئي لمناقشة الإمكانات.

أثار السلطان قابوس كذلك قضية تخصيب اليورانيوم التي كانت إحدى النقاط الأساسية للصراع في المفاوضات السابقة على برنامج إيران النووي. لقد جادلت إيران، سنوات، أنها تملك كل الحق في تخصيب اليورانيوم، باعتبارها طرفًا في معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية، مادامت تخضع كليًّا لقيود المعاهدة. لقد أوضحنا باستمرار، أن معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، وهي الركيزة الأساسية للجهد العالمي لمنع انتشار الأسلحة النووية، لا تحدِّد سوى الحق في الحصول على الطاقة النووية. فهي لا تمنح الأطراف مطلقًا «حقًّا» محدّدًا في تخصيب اليورانيوم بنفسها. هذه حقيقة توخّيت التشديد عليها منذ اليوم الأول لمناقشتي مع العمانيين، وبالتالي مع الإيرانيين. ومع ذلك، فإن هناك ثلاثة عشر بلدًا، جميعها أعضاء في معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، بمن فيها الولايات المتحدة، تملك القدرة على تخصيب اليورانيوم في إطار قيود معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، وتشملها مساءلة صارمة وتدخلية أكثر من تلك المطبَّقة على الدول الأخرى. جادل الإيرانيون أنهم ما داموا في حالة امتثال تام، فينبغي السماح لهم أن يقوموا بما تقوم به الأمم الأخرى من الناحية القانونية. كان لديهم الحق في الحصول على الطاقة النووية السلمية. وقد أصروا على أنهم لا يريدون أن يُجبروا على الاعتماد على الروس، أو أي بلد آخر لوقود مفاعلهم النووي.

هل تملك إيران «الحق» في التخصيب؟ إذا لم تتوافر لدينا الرغبة في مناقشة إمكانية أن يستمرّ التخصيب الإيراني تحت قيود محدّدة، فلن نحظى باحتمال أن نصل في الوقت المناسب ونحاسب ونتمتّع بالشفافية وضبط النفس، لنعرف أن إيران لم تكن تسعى إلى برنامج الأسلحة بصورة مؤكّدة. قد لا تكون هناك طريقة لإيصال إيران إلى طاولة المفوضات. ينتقد الشخص العادي في إيران فكرة أن بلاده لا تستطيع أن تفعل ما تفعله أمة أخرى ذات سيادة، لمجرد أن الولايات المتحدة تقول ذلك. ويرى الإيرانيون الأمر استسلامًا كاملًا لإرادة أميركا التي تدخّلت طويلًا في سيادة بلادهم تحت حكم الشاه. إنها تطلب الكثير لتتقبله حتى إدارة إيرانية أكثر اعتدالًا.

لطالما كان موقف الولايات المتحدة أن أي تخصيب، مهما يكن طفيفًا، سيكون بمثابة خرق للمعاهدة. لكنَّ شركاءنا في المفاوضات في مجموعة الخمسة زائد واحد تخلّوا بالإجماع عن هذا الموقف. قرّروا، بالنظر إلى ما تفعله دول أخرى تحديداً، أن بعض التخصيب مستقبلًا يجب مناقشته، ليأخذ الإيرانيون أي مفاوضات على محمل الجد. علمتُ كذلك في محادثات خاصة، أنَّ إدارة جورج دبليو بوش، على الرغم من موقفها العلني، قد وافقت بهدوء وسرّية على هذا الموقف، مع أنها لم تحدّد قط الأساس أو المستويات التي يمكن أن يبلغها ذلك التخصيب. في قرارة نفسي، وافقت على الأمر. كذلك فعل الرئيس أوباما، على ما علمت.

في الأسابيع التالية، بقيتُ أنا وسالم على اتصال وثيق، نتحدث بانتظام عبر الهاتف وأحيانًا نلتقي في هذه المدينة أو تلك. في إحدى ليالي فصل الربيع، قضينا ساعات على طاولة في مطعم مورتون ستيك هاوس في جورج تاون، نصوغ مخططًا تفصيليًّا يبيّن كيف ينجحُ حوار سرّي لقناة خلفية، وصلنا فيه إلى طريقة حضور الوفود الجلسات ومغادرتها من دون إثارة الشكوك، فضلاً عن عدد الأشخاص الذين سيشاركون.

رأيت أنَّ الثغرة واضحة في عمل دبلوماسي.

وافق معظم أعضاء مجلس الأمن القومي على ضرورة استكشاف القناة العمانية. ساورت هيلاري كلينتون بعض الشكوك الأولية حيال العُمانيين. لم تكن مقتنعة حتى ذاك الوقت أنَّ في إمكانهم الوفاء بذلك المسعى، أو أننا يجب أن نثق بالمسار الذي يُقدَّم. اعترف الجميع بتاريخ التعامل الصعب مع إيران، لكنهم أدركوا أيضًا أن الفرص الدبلوماسية السابقة قد أهدرت. تذكّرنا جميعًا التقارير عن الثغرة التي رفضتها إدارة بوش، عام 2003، عندما كانت إيران تُشغِّل فقط 164 جهاز طرد مركزي. لم تُجرَ محادثات مباشرة قط. في غضون ذلك، وعلى الرغم من العقوبات القاسية التي وضعناها ، صنعت إيران أكثر من 1700 جهاز طرد مركزي جديد.

فهمتُ حذر هيلاري، حتى لو اختلفت معها. في مرحلة ما، عقد توم دونيلون اجتماعًا في مكتبه. كانت مهمتي، على ما أخبرني، محاولة إقناع هيلاري بأننا يجب أن ننتهز هذه الفرصة. لا يعني ذلك أنها لم تكن داعمة للمساعي الدبلوماسية من أجل التصدي للتحدي النووي الإيراني، بل كانت كذلك. لكنها لم تكن واثقة أن الثغرة متاحة كما يدعي العمانيون. لقد التقت السلطان قابوس قبل حوالى عام من رحلتي إلى مسقط، وظلت غير مقتنعة بأن لدى إيران أي رغبة في التوصُّل إلى اتفاق. كانت قلقة من أننا سنبدو

متحمّسين جدًّا للتوصُّل إلى اتفاق، وسنُحرَج قبل حل أي شيء. المهم أنها دعمت هذا النهج في النهاية.

وافق الرئيس أخيرًا على القناة الخلفية، على الرغم من تردُّد صدى الجدل الداخلي بوضوح. بداية فصل الربيع ذاك، أجرى اتصالًا بالسلطان لمناقشة التفاصيل. لا أعلم بالضبط ما قيل، لكنَّ سالماً اتصل بمكتبي في مجلس الشيوخ فور انتهاء المكالمة. كان قلقًا. ترك حديث الزعيمين السلطان قابوس غير مطمئن، ولم يكن متأكدًا من التزام الولايات المتحدة كما أبلغته. هل لي أن أتحدث معه؟ اتصلت بالسلطان وطمأنته إلى أننا على المسار الصحيح.

لن يكون الحفاظ على الزخم سهلًا. أوَّلًا، بدا التردُّد في تحديد موعد. قدَّم العمانيون تكرارًا الاقتراحات: في العشرين من نيسان/إبريل: لا. في الرابع والعشرين منه: لا. في الأول من أيار/مايو، أو في الثامن من أيار/مايو: لن ينجح الأمر. بعد مدة، شعروا بالإحباط، لأنهم لم يتلقّوا الإجابة.

كذلك كان هناك تردُّد حيال الجهة التي سترسلها الإدارة إلى الاجتماع. وهل يُعدُّ انضمامي إلى الوفد منطقيًّا؟ لقد أوضح لي السلطان أنه سيكون مرتاحًا أكثر إلى وجودي، منذ أن تعرَّف إليَّ أنا وسالم. لكنني أدركت أيضًا أنني كمرشّح سابق للرئاسة وسيناتور قديم ذي صلات وثيقة بالرئيس الحالي، سيلفت حضوري الأنظار على ما يُفترض أن يكون تبادلًا سريًّا. في أحد الأيام، عندما كنتُ، أنا وتوم دونيلون، نناقش قضية الوفد، قال بشكل عفوي: «بالاعتماد على ما سيحدث في الولاية الرئاسية التالية، لا تريد أن تكون على اتصال مباشر مع الإيرانيين» . كانت نقطة صحيحة، على الرغم من أنني فوجئت. حدث ذلك قبل بضعة أشهر من فوز الرئيس أوباما عليَّ خلال المناقشات التمهيدية لحملة العام 2012، إذ تنافست مع ميت رومني، ليعلمني أنَّ شخصًا ما سيتواصل معي لمناقشة إمكان أن أكون جزءًا من الإدارة في الولاية الثانية.

كان همي الرئيسي أن يُعقد الاجتماع وفي أسرع وقت، وليس مَنْ سيُشارك في الوفد. مضى أكثر من عام على لقائي الأول مع سالم. في تلك الأثناء، واصلت إيران تقدُّمها أكثر نحو امتلاك السلاح. علينا أن نُرسل فريقًا، أيَّ فريق، لنحدِّد أن التفاعل المباشر ممكن أم لا، قبل أن نفوّت الفرصة نهائيًّا.

أرسل الرئيس أوباما، بحكمة، نائب رئيس أركان هيلاري، جيك سوليفان، والموظف في مجلس الأمن القومي بونيت تالوار، الذي أصبح لاحقًا مساعدي في الشؤون السياسية والعسكرية في الوزارة، إضافة إلى خبير في

تكنولوجيا المعلومات ومترجم فوري. كان جيك وبونيت، وكلاهما ذكيّان وقديران، يؤديان دورين رئيسيين في فريق الأمن القومي، لكنهما لم يكونا معروفين كثيرًا في ذلك الوقت، مما جعلهما مثاليين لهذه المهمة. اتّخذا بعض الإجراءات الاستثنائية لحماية سرية رحلتهما. لم يخاطر أحد بأي أمر.

انطلق الاجتماع من دون عراقيل. ولكنْ لم يظن أي من الطرفين أنه مثمر بشكل خاص. صدرت تعليمات إلى جيك وبونيت بعدم إظهار أي عرض على التخصيب، مما أغضب الإيرانيين، الذين أبدوا بدورهم، القليل من الاستعداد لقبول قيود متواضعة حتى على برنامجهم.

ومع ذلك، فإن حقيقة أنهم حضروا إلى الاجتماع بمباركة المرشد الأعلى، أوضحت أنهم يأخذون آفاق الدبلوماسية على محمل الجد. كان ذلك في حد ذاته تطوّرًا مهمًّا، وهو علامة مشجّعة عقب ما يقرب من أربعين عامًا فارغة إلّا من القدح والذم.

خلال الصيف، تطوَّر الوضع الخارجي بشكل خطير. أرسلت إسرائيل إشارات، علنية وسرية، إلى أن إيران تقترب من خط أحمر. وردًّا على ذلك، كانت إشارات أكثر تدل أن الجيش الإسرائيلي مستعدٌّ للهجوم. وصل الأمر إلى حد أن خبراء الأمن الوطني كانوا يدرسون مراحل القمر لمعرفة متى سيحدث ذلك. واقترحت الحكمة الشائعة أن يختار القادة العسكريون الإسرائيليون أول الشهر القمري، عندما تكون السماء مظلمة خصوصًا، مما يساعد على الهجوم خلسةً.

كانت الأولوية في تلك اللحظة هي إقناع إسرائيل بالامتناع عن قصف إيران، على الأقل مؤقتًا. وجرى تعليق القناة الخلفية لكل النيات والأغراض. وستمر شهور قبل أن تجتمع إيران والولايات المتحدة مجدّدًا.

كان لنظام العقوبات الصارم، الذي نتّبعه نحن وشركاؤنا، أثر كبير في الاقتصاد الإيراني من دون شك. لكنه عزز في الوقت نفسه عزم الإيرانيين على تسريع برنامجهم النووي. كان الوقت ينفد. كنا أساسًا على عتبة إيران المسلحة نوويًّا.

لقد حان الوقت، على ما قرر الرئيس أوباما، للإشارة إلى إيران أن الولايات المتحدة ترغب في مناقشة إمكان التوصُّل إلى اتفاق، تستطيع طهران من خلاله مواصلة تخصيب اليورانيوم على أساس محدود. في النهاية، توصَّل بقية شركائنا في مفاوضات مجموعة الخمسة زائد واحد، فعلًا إلى هذا

الاستنتاج. كنا الممانعين الوحيدين. في مرحلة ما، يُحتمل أن تتقاسم الولايات المتحدة المسؤولية في أن يفوِّت العالم فرصة لحل الأزمة سلميًّا.

بدأنا، يساعدنا العمانيون، بالتخطيط لجلسة أُخرى مع الإيرانيين. كنت أؤيد كثيرًا بيل بيرنز، نائب وزير الخارجية، الذي يقود الوفد الأميركي. حظي بيل، وهو موظف في الخدمة الخارجية، باحترام كبير في فوغي بوتوم. لقد برز كأحد الدبلوماسيين المحترفين الأكثر قدرة الذين عرفتهم الإدارة. كنت أعلم أنه يحظى باحترام وزيرة الخارجية السابقة كلينتون، وكذلك الرئيس. في الواقع، أنني، من جملة الخطوات الأولى التي قمت بها عندما تسنمت منصب وزارة الخارجية، قد طلبت من بيل تأجيل تقاعده، الذي خطّط له منذ مدة طويلة من الخدمة الخارجية، وبقائه نائبًا للوزير، لأنني كنت أعلم إلى حد بعيد أهمية خبرته في المفاوضات مع إيران. كنت محظوظًا لأنه وافق على ذلك.

لقد عرفت، أنا والرئيس، أن مشاركة بيل في القناة الخلفية ستحقّق هدفين: أولًا، ستثبت مدى جديتنا في شأن المحادثات؛ ثانيًا، كنا نأمل أن يشجع ذلك على مشاركة عالية المستوى من الجانب الإيراني. وقد أراد الرئيس أوباما التأكد من عقد الاجتماع بعد أن أُقسم اليمين كوزير للخارجية. أردنا أن يبدو واضحًا أن الحكومة الأميركية موحَّدة مع البدء بهذه المحادثات.

أقسمتُ اليمين في 1 شباط/فبراير 2013. سافر بيل وبقية أعضاء الوفد إلى مسقط، مطلع آذار/مارس. سلّم الرسالة التي يحتاج الإيرانيون إلى سماعها، وهي أن الولايات المتحدة ستكون مستعدة لاستكشاف برنامج محلي محدود وسلمي حصريًّا لتخصيب الطاقة، شرط أن تلتزم إيران قيودًا صارمة ودائمة وقابلة للتحقق.

عُلِّقت العملية مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية الإيرانية في حزيران/يونيو 2013. عندما فاز المرشح الأكثر اعتدالًا، حسن روحاني، فوجئنا وتشجّعنا. قام روحاني بحملة لإصلاح علاقات إيران مع المجتمع الدولي. كذلك قضى ستة عشر عامًا كسكرتير لمجلس الأمن القومي الأعلى. وعبر هذا المنصب، شارك بعمق في الجولات السابقة للمفاوضات النووية. لم نكن نعلم أن ذلك سيؤكِّد أنه مفيد أو العكس، لكنَّنا تصوَّرنا أن بعض الخبرة أفضل من الجهل.

شعرنا بالراحة كذلك حيال تعيين روحاني لجواد ظريف وزيراً للخارجية، والإشراف على الملف النووي. كانت سمعته من حوالي عشر سنوات كممثل دائم لإيران في الأمم المتحدة، طيبة جيدًا. عرف الملعب الدولي مثل أي فرد آخر. قضى أعوامًا في الولايات المتحدة، وكان يتقن اللغة الإنكليزية؛ وهو

متضلع جدًّا من الثقافة الأميركية. إضافة إلى ذلك، عُيّن سلف جواد، علي ظريف، الذي كان أساسيًّا في إنشاء القناة الخلفية، لقيادة برنامج الطاقة الذرّية الإيراني. بدا أن تلك التعيينات تعزِّز هدف إيران الجاد. لقد كنت متفائلًا بحذر من أن جهدنا سيعاد تنشيطه، وهو اعتقاد تأكّد لي عندما سمعت من سالم أن فريق روحاني لم يُضِع وقتًا في التواصل مع العُمانيين برسالة واضحة: كانوا حريصين على المضي قدمًا.

قاد بيل وفدًا آخر إلى مسقط بعد أسابيع من تنصيب روحاني في آب/ أغسطس. تحدّثنا ليلًا بينما كان هناك. ووصف التغيير الأساسي في جو المحادثات. وللمرة الأولى، لمس وفدنا إحساسًا حقيقيًّا بأن الإيرانيين يشاركوننا رغبتنا في إيجاد طريق للمضي قدمًا.

في السابق، كانت الاجتماعات، إلى حدٍّ بعيد، خطاباً مطوَّلاً تلو آخر. وكان كل شخص يتحدث ليليه آخر. أما الآن فقد بدأ حوار حقيقي. عندما عاد بيل، سألته عن مدى قربنا من إيجاد أرضية مشتركة؛ فقال: «لسنا في الملعب بعد، لكننا وصلنا على الأقل إلى موقف السيارات» . كانا عامين من التواصل الوثيق للقناة الخلفية يستحقّان المجازفة.

بعد أسابيع قليلة من انعقاد الجمعية العمومية للأمم المتحدة للعام 2013، سافرت ويندي شيرمان، وكيلة وزارة الخارجية للشؤون السياسية التي لا تقدَّر بثمن، إلى بروكسل، لعقد اجتماع تنسيقي مع المديرين السياسيين لوفدَيْ مجموعة الخمسة زائد واحد والاتحاد الأوروبي. لم يكن الأمر جديدًا على ويندي؛ فتجربتها مع المفاوضات النووية المتعددة الأطراف تعود إلى زمن إدارة كلينتون. ومع ذلك، استعدت لسلسلة من المناقشات الصعبة: لقد حان الوقت لإعلام شركائنا بالقناة الخلفية التي كنا نتقدَّم بها سرًّا مع إيران.

وفق ويندي، لم يُصدم أحد؛ بل غضبوا جميعًا.

لم تكن السرية سبب إحباطهم؛ فقد تفهَّم معظمهم أسبابنا لاتباع هذا النهج. أُحبطوا لأنهم حاولوا طوال أعوام إقناع الولايات المتحدة بقبول برنامج تخصيب إيراني محدود كجزء من صفقة نووية شاملة، وقد رفضنا تأييد مثل هذه الخطة. ثم انطلقنا بمفردنا وناقشنا الكثير مع الإيرانيين من دون أن نسمح لشركائنا في المفاوضات بأن يعرفوا أن موقفنا قد تغيّر. أحيانًا، تحطُّ الدبلوماسية الدولية من قدر العلاقات بين الناس. فقد كانت الدول التي نعمل معها منزعجة من أننا التففنا عليها، وأرادتنا أن نعلم أنها تتوقع منذ تلك اللحظة المشاركة بالكامل.

كان رد فعل شركائنا السلبي مفهومًا، وتوقّعنا ذلك. ولكنْ لم يساورني أدنى شك في أن الولايات المتحدة سلكت مسار العمل الصحيح. في نهاية المطاف، كان على الإيرانيين أن يثقوا بأن الولايات المتحدة لن تكون مفسدة للمحادثات، وأننا كنا جادين، كأي جهة، في التوصل إلى اتفاق، وكان علينا أن نتوصَّل إلى الشعور نفسه باليقين بخصوص موقف الإيرانيين. وقد مكّنت القناة الخلفية دولتينا من الوصول إلى خط أساس لحسن النية. بعد تسجيل إحباطهم، سلَّم شركاؤنا في مجموعة الخمسة زائد واحد بأن التقدُّم الذي أحرزته الولايات المتحدة وإيران كان أمرًا جيدًا في الواقع. ويمكن للمحادثات الآن أن تبدأ جديًّا.

تمثَّل هدفنا الأول في التوصُّل إلى اتفاق مؤقت يمنحنا الوقت للتفاوض على صفقة شاملة وطويلة الأجل. من جانبنا، كنا نعلم أننا لا نستطيع الجلوس إلى الطاولة، ما دام البرنامج النووي الإيراني يتقدّم بقوته كاملة. وفي الوقت نفسه، أراد الرئيس روحاني، الذي كان السبب الرئيسي لانتخابه أنه تعهَّد إعادة إحياء الاقتصاد الإيراني المتدهور، الحصول على بعض الراحة من العقوبات الصارمة التي جعلت الحياة بائسة لكثير من أبناء شعبه. لذلك احتجنا إلى ترتيب مؤقت من شأنه، طوال مدة مفاوضاتنا، تجميد برنامج إيران في مقابل تخفيف متواضع للعقوبات النووية التي فرضها العالم. في هذه المرحلة، كانت الولايات المتحدة وإيران قد ناقشتا بالفعل في المحادثات الثنائية ما يمكن أن يبدو عليه هذا الاتفاق المؤقت. مطلعَ تشرين الثاني/نوفمبر، عندما كانت ويندي والمديرون السياسيون الآخرون يستعدون للاجتماع في جنيف، اتصلت ويندي لتخبرني أنَّ الأمور تسير إلى الأمام، على ما تظن. واعتقدت أن الوقت قد حان الوقت كي آتي إلى جنيف لمحاولة ترسيخ الاتفاق المؤقت.

لم يمضِ وقت طويل حتى يؤكد وزراء خارجية دول مجموعة الخمسة زائد واحد سفرهم إلى جنيف. ربما أمكننا بناء بعض الزخم. هذا ما كنت أفكِّر فيه على ما أذكر. يجب أن يكون هدفنا محاولة بذل قصارانا لترسيخ اتفاق مؤقت. ولكن تذكر دائمًا أنَّ عدم التوصل إلى صفقة أفضل من الحصول على صفقة سيئة. لم يتوقع أحد منا مفاجأة وزير الخارجية الفرنسية لوران فابيوس.

لدى وصوله إلى الفندق في جنيف، امتنع فابيوس عن التحدث إلى الصحافة التي خيَّمت حول فندق أنتركونتيننتال حيث تُجرى المحادثات. قال فابيوس لمحطة إذاعة فرنسية بصوته العميق الرنان: «وأنا أتحدّث إليكم، لا أستطيع القول إن هناك أي يقين من إمكان إبرام اتفاق» . وحذَّر من أن فرنسا لن تقبل «صفقة بأي ثمن» .

فوجئتُ عندما سمعت تعليقات فابيوس. لقد أطلعته على الكثير من الأحاديث التي أفضت إلى الاجتماع، وشارك فريقه في كل إجراءات المديرين السياسيين لمجموعة الخمسة زائد واحد مع ويندي. لم يتصل بي عن طريق الموظفين أو يحاول التحدث إليَّ شخصيًّا، أو القيام بأي من الأمور الأخرى التي يقوم بها الوزراء قبل بث شكاواهم إلى الجمهور. لم يكن ينبغي أن تتكشف عملية تعاونية متعدِّدة الأطراف بهذه الطريقة. بغض النظر عن ذلك، أدركت أنني يجب أن أفعل ما يمكنني لإعادة الأمور إلى مسارها.

اتصلت بفابيوس، وطلبت أن نجتمع في جناحه. أقمنا جميعًا في الفندق نفسه. بعد المجاملات الأولية، طلبت منه أن يحدِّد الأمور التي تُقلقه في مسوَّدة النص. لم تكن الإجابة موضوعية على ما أذكر. لم يقدِّم كلمة أو جملة واحدة. لم يكن لديه توصيات لطريقة تحسينها. تلك هي الحياة.

خائبًا قليلًا، غادرت جناح فابيوس، وبدأت بالتحضير لما أصبح للتو اجتماعًا أكثر تعقيدًا مع ظريف، في وقت لاحق من ذلك المساء. كان انطباع إيران بأن البلدان في مجموعة الخمسة زائد واحد تأتي من مكان موحد. وفي الواقع، كانت تلك قوتنا. فابيوس، الذي سيصبح صديقًا حميمًا وشريكًا مهمًّا في المفاوضات، أوضح للعالم أن ثمة إمكانية لأن تسود بعض الاختلافات داخل فريقنا.

سرعان ما أصبح واضحًا أننا لن نغادر جنيف باتفاق مؤقت، على الأقل ليس خلال تلك الزيارة. عرفت الدول الأوروبية الأخرى أنها لا يمكن النظر إليها على أنها أضعف من فرنسا. لذلك كان عليها أيضًا معارضة النص. وفي النهاية، حذت الولايات المتحدة حذو الباقين. كانت توجيهات الرئيس أوباما واضحة: تظل الأولوية الأولى هي الوحدة بين مجموعة الخمسة زائد واحد. وكان الرئيس يعتقد أن من الضروري التوصل إلى صفقة، وحمايتها متى عُقدت على حدٍّ سواء.

لذلك وقفنا إلى جانب فرنسا وبقية شركائنا، معلنين أن الفجوة بين إيران والولايات المتحدة ظلت شاسعة جدًّا. سنعود إلى بلداننا، ونحاول مرة أخرى في غضون بضعة أسابيع. عندما وصل موكبي إلى مدرج مطار جنيف، أخذت هاتفي الخلوي وطلبت مركز عمليات وزارة الخارجية. سألت: هل يمكنكم الاتصال بوزير الخارجية فابيوس؟

قلتُ، عندما بدأ الاتصال: «لوران، سأراك في غضون أسبوعين. أتطلع إلى العمل معك لسد أي ثغرة، وللتأكد من أنَّ الجميع متفقون على الهدف نفسه. آمل أن توافق على أننا نحتاج إلى توخّي الحذر في شأن ما نقوله

للصحافة. إذا كان هناك أي مشكلة، يرجى الاتصال بي شخصيًّا» . أنهيت المكالمة؛ خرجت من السيارة وصعدت السلالم الطويلة إلى حجرة طائرة البوينغ سي - 32 البيضاء التابعة لسلاح الجو الأميركي، بيتنا في السماء.

عدنا إلى جنيف بعد أسبوعين، أي يوم السبت 23 تشرين الثاني/نوفمبر. لقد كنت أنا وكاثي أشتون، الممثلة الرفيعة المستوى للاتحاد الأوروبي، على اتصال دائم منذ مغادرتنا جنيف. اتفقنا على خطة جديدة للعبة: في الوقت الراهن، سأركز أنا في فرنسا وبقية مجموعة الخمسة زائد واحد، على أن تتصل هي بإيران. بعد الاجتماع مع ظريف، قدّمت كاثي النص المُحدَّث للاتفاق الذي تضمّن تغييرات طفيفة على النص السابق. وافقت عليه بنسبة متفاوتة كل الدول، إلّا بلادي، لسخرية القدر.

وافق الوفد الأميركي على الجوانب الفنية للنص: الخطوات التي ستتخذها إيران لتجميد برنامجها، وتدابير التحقق، والعملية التي من خلالها سنوفر تخفيفًا متواضعًا للعقوبات؛ وكلها أمور جرى التفاوض عليها في قناتنا الثنائية السرية. مخاوفنا تكمن في ديباجة الاتفاق. كنا نعلم أن هذا القسم، أي الفقرتين الأوليين من النص، سيُقرأ بإمعان ويحلِّله الأصدقاء والنقاد على حد سواء. قد يتوقف البعض حتى عن القراءة بعد هذه النقطة. من المهم أن تكون كل كلمة صحيحة.

قضى الوفد الأميركي سريعًا على آمال شركائنا الذين استعدوا لعقد مؤتمر صحافي، آخر ساعات بعد الظهر لإعلان الاتفاق. ترجّحنا إقبالًا وإدبارًا مع إيران حتى وقت متقدم من الليل. وصل الأمر إلى اختيار الكلمة والصياغة. إنها تفاصيل اللحظات الأخيرة التي تُفقِد الدبلوماسيين صوابهم. كان المشهد في غرفتي بالفندق، الثالثة من صباح الأحد كمشهد من مسرحية: جلستُ في ركنٍ مستخدمًا الهاتف الآمن أشرح لمستشارة الأمن القومي سوزان رايس السقطات والتغييرات التي نعمل عليها. كان بيل في الغرفة المجاورة على الهاتف مع نظيره في القناة السرية، مجيد تخت روفاني، يحاول الحصول على توقيع الإيرانيين. وبيننا، كان الخبراء والمساعدون يكتبون بشكل محموم على أجهزة البلاك بيري، تمدُّهم بالطاقة على ما يبدو أكياس الإسبرسو اللامتناهية.

وأخيرًا، عندما اقتربت الساعة من الرابعة صباحًا، توصّلنا إلى اتفاق، اتفاق أردنا إنجازه بإحكام وفي أسرع وقت ممكن، لئلا يعود أي شخص لاحقًا في ذلك اليوم بوجهة نظر مختلفة. أيقظنا الوزراء الآخرين، الذين ذهبوا حتمًا إلى أسرّتهم قبل ذلك بساعات، ونبَّهنا الصحافة إلى أن الإعلان قد بات قريبًا.

ونحن نشق طريقنا إلى قصر الأمم حيث سيعقد المؤتمر الصحافي، تلقّت هيلغا شميد، نظيرة ويندي في الاتحاد الأوروبي، مكالمة هاتفية من عباس عرقجي، أحد نواب ظريف. أراد الإيرانيون إدراج أربع نقاط أخرى في الاتفاق.

مرّرت هيلغا الهاتف إلى ويندي: «عباس» ، قالت له، «لا مزيد من النقاط التي يجب إدراجها. لقد استيقظ الوزراء الآخرون الآن، وهم يشقّون طريقهم إلى القصر. لقد حُدِّد موعد المؤتمر الصحافي، وانتهى الأمر» . فهم عباس. في الخامسة من صباح الأحد 24 نوفمبر/تشرين الثاني 2013، أي بعد حوالي عامين من رحلتي الأولى لزيارة السلطان قابوس، أعلنت الولايات المتحدة وشركاؤنا الدوليون وإيران اتفاقًا مبدئيًّا يمكّننا من البدء بمفاوضات مباشرة وشاملة. وأهم من ذلك، وللمرة الأولى منذ عقود، لن يسرَّع برنامج إيران النووي، بل سيُجمّد، بل سيتراجع في بعض الجوانب.

سرعان ما أقلّتني الطائرة، وعدت إلى المنزل في الوقت المناسب لعيد الشكر. رأيتُ أنَّ علينا جميعًا أن نكون شاكرين لأمور كثيرة حدثت ذلك العام. بات العالم أكثر أمنًا صباح ذلك اليوم، وأينعت ثمار الكثير من العمل الشاق. ولكنْ لم يخالجني أي وهم: بدأ العمل الشاق الأصعب للتو.

في 20 كانون الثاني/يناير 2014، دخل الاتفاق المؤقَّت، أو ما سُمي خطّة العمل المشتركة، حيّز التنفيذ. جمَّد الإيرانيون إنتاج اليورانيوم العالي التخصيب. توقفوا عن تركيب أجهزة الطرد المركزي، وخفّفوا من تطوير المفاعل الذي يعمل بالماء الثقيل قرب مدينة أراك. وفي المقابل، بدأنا بالإفراج عن أقساط بقيمة 2 , 4 مليارات دولار من أموال إيران الخاصّة المجمَّدة في مصارف العالم.

قبل هذه الخطوة، كان هناك احتمال أن تحاول إيران إبقاءنا إلى طاولة المفاوضات سنوات، فيما هي تقترب أكثر فأكثر من امتلاك قنبلة. مع وضع خطة العمل المشتركة، لا يمكن استخدام الوقت ضد أي من الجانبين. لن يصبح الوضع أخطر، إبَّان تفاوضنا.

ولكنْ، وإذ أزيلت هذه العقبة، بقيت عقبة أُخرى. كثَّف منتقدو الاتفاق من جميع الأطراف هجماتهم، مع بدء المرحلة الجديدة من المحادثات. كانت مجموعة من الحزبين من زملائي السابقين في مجلس الشيوخ، بقيادة السيناتورات مارك كيرك وبوب مينديز وتشاك شومر، تضغط على تشريع قانون العقوبات الذي، إذا مرَّ، سيؤدي إلى نسف المحادثات. وحظيت جهودهم

بدعم قوي من لجنة الشؤون العامة الأميركية - الإسرائيلية، وهي أقوى مجموعة ضغط مؤيدة لإسرائيل. كان بيبي نتنياهو غاضبًا، وقال لكل مَنْ يصغي إليه إنَّ خطة العمل المشتركة كانت «خطأ تاريخيًّا» .

وفي حين عاد خبراؤنا إلى الطاولة، جعلت السياسة ميدان اللعب في كل من الولايات المتحدة وإيران أكثر تعقيدًا. ففي مطلع تموز/يوليو، ألقى آية الله خطابًا أعلن فيه عن رغبة إيران في عدم خفض تخصيب اليورانيوم، كما كنا نناقش، بل في زيادة طاقة التخصيب عشرة أمثال. في المستقبل، على ما وصف القائد الأعلى، ستصنع إيران الآلاف من أجهزة الطرد المركزي الجديدة خلال السنوات المقبلة. كان ذلك تأكيدًا فظيعًا وغير متوقَّع، حتى ظريف زعم أنه صُدِم به، متيحاً لمنتقدينا في المنطقة، وفي الكابيتول هيل، المزيد من الأسباب لتفجير غضبهم وانتقاداتهم. كانت مدة الأشهر الستة التي خصّصناها للتفاوض مجرد تفكير قائم على التمنّي. لم يكن من الممكن التوصُّل إلى أي اتفاق بحلول نهاية تموز/يوليو. مدّدنا المحادثات وخطة العمل المشتركة أربعة أشهر أخرى، حتى 24 تشرين الثاني/نوفمبر 2014.

في تلك المرحلة، بقيتُ على تواصل مستمر مع فريقنا للتفاوض اليومي بقيادة ويندي شيرمان، وكذلك مع شركائنا الدوليين. كان عليّ أن أعقد اجتماعات ثلاثية الأطراف مع كاتي أشتون وجواد، وأن ألتقي من ثم جواداً وجهًا لوجه. كان العمانيون يتدخّلون للتوسط من وقت إلى آخر. كنا نحاول سد الثُّغر التي ظهرت، لكنَّ التوتر استمرَّ في التصاعد.

في تشرين الثاني/نوفمبر، أي قبل أسبوعين فقط من الموعد النهائي، توقفت في عُمان للاجتماع مع جواد وفريقه. كنت في طريقي إلى الصين في زيارة جرت جدولتها منذ مدة طويلة. لكنني كنت أتمنى أن تساعد المحادثة الشخصية على التخفيف من حدة التوتر الذي كان يتصاعد.

كان الاجتماع مواجهةً تامةً، إذ أدار كل منا للآخر الأذن الصمّاء. وبدا الأمر سيئًا جدًّا إلى حد أننا قرّرنا الاجتماع مجدّدًا بعد أيام، وأنا عائد إلى دياري من بكين. لكنَّ الاجتماع الثاني كان بلا جدوى مثل الأول. بدت اجتماعاتنا صعبة دائمًا. ولكن حتى ذلك الوقت سادها الهدوء والاحترام. أما الأسبوع الذي شهد اجتماعنا فكان فيه كل منا يصرخ في وجه الآخر، ونحن متحلقون حول طاولة المحادثات. كانت تلك المرة الأولى التي نفقد فيها صبرنا، لكنَّها لن تكون الأخيرة.

مع اقتراب الموعد النهائي، بدأ الخبراء بالبحث عن حلول لمشكلات معقدة جدًّا. كانت التفاصيل حساسة. أحرزنا بعض التقدم. ولكنْ بعد مدة

وجيزة من وصولي إلى فيينا للجولة النهائية، بدا جليًّا أننا نحتاج إلى مزيد من الوقت.

بدأنا بالتحضير لتمديد آخر، سيكون شرح سببه أصعب. ففي انتخابات منتصف الولاية الأميركية، عام 2014، فاز الجمهوريون بغالبية مقاعد مجلس الشيوخ. وسيكون من شبه المستحيل تجنُّب تشريع قانون العقوبات الجديد، مدة أطول. سيعطي كل تأخير صدقية لذرائعهم بأن المحادثات كانت غير مجدية، وأن من المستحيل التوصُّل إلى اتفاق. سيكون صعباً إقناعهم بتمديد ثانٍ. ولكن إذا استطعنا القيام بذلك، فيجب أن نوضح أن ذلك آخر جهد نبذله. لن نجلس إلى طاولة المفاوضات بعد اليوم.

اتّفقنا، لأسباب عدَّة منها المخاوف المتعلّقة بجدولة المواعيد، على الإعلان عن موعدين نهائيين منفصلين للمحادثات. سنمنح أنفسنا أربعة أشهر، حتى 31 آذار/مارس، للتوصُّل إلى اتفاق سياسي يعيّن الحدود الأساسية للصفقة. وإذا كانت ثمة ضرورة، فسوف يلزم ثلاثة أشهر أخرى، حتى 30 حزيران/يونيو، لحل التفاصيل الفنية.

في الليلة التي سبقت الإعلان عن التمديد، جلست في جناح فندقي مع مساعدين، ننقّح ملاحظاتي بخصوص المؤتمر الصحافي الذي سنعقده في اليوم التالي. بدأ صبري ينفد مع الإيرانيين. كانوا يجازفون من خلال عدم الاعتراف بصعوبات الميدان السياسي في الولايات المتحدة. أردت في بياني، أن أوضّح، صراحة، أن الوقت ينفد. ومع ذلك، كنت أعتقد أن المقطع الأول من المسوَّدة يذمُّ إلى حد بعيدٍ ظريفاً. كان قاسيًا جدًّا. لم أشأ أن يتمكَّن المتشددون، في كلا الجانبين، من استخدام كلماتي في الدفاع عن تأكيدهم أننا كنا نضيّع وقتنا بالدبلوماسية. كنت أعرف كذلك الإيرانيين حق المعرفة، كي أفهم أنهم إذا شعروا بالإهانة أو التعالي، فقد يندفعون إلى التصلُّب في موقفهم أكثر من الإذعان والاستسلام. ما زلت أملك إيماناً قويّاً بأنَّ النجاح ممكن، ولكن علينا توخّي الحذر. ذلك أن كل خطوة نقوم بها، وكل كلمة نقولها، تحملان قدراً كبيراً من الأهمية.

كانت المسوّدة التالية للملاحظات أقلُّ تهجمًا. لكنني رأيتُ أن من المهم إضافة شيء عن الاحترام المتبادل بين الجانبين. لقد أكد السلطان قابوس أهمية الاحترام. شعرت، بقوة، أننا لن نكسب أي شيء من خلال تنفيس الاحتقان علنًا في لحظة حرجة. قلتُ لفريقي: «كنت، على الدوام، أشعر أن جواد مفاوض قوي وهو هنا بحسن نية. أريد التعبير عن ذلك. أعلم أنني سأواجَه بحماقات جرّاء ذلك؛ لكنني أريد أن تظل الأمور ودية. يعمل فريق

جواد بأقصى جهد، كما نعمل، للوصول إلى وضع أفضل. إنه يستحق أن نعترف بفضله، في هذا الأمر» .

هاجمني بعض النقاد بسبب كل كلمة نمّت عن لياقة دبلوماسية تجاه إيران أو وزير خارجيتها. هذا هو العالم الذي نعيش فيه. كنت أنظر إلى الهدف البعيد الأمد، وليس إلى ما يصدر ليوم واحد في الصحف. كان الغرض من المحادثات منع دولة من الحصول على سلاح نووي. وإذا تطلّب الأمر بناء التفاوض على الاحترام مع حكومة على خلافات خطيرة معنا، فليكن كذلك. كانت طريقتي وطريقة جواد لإبقاء المحادثات على المسار الصحيح أن نعمل جديًّا للحفاظ على الكياسة التي أسّسنا لها.

بدأنا العمل عام 2015. ومع اقترابنا أكثر من اتفاق، علا صوت نقادنا أكثر. في هذه المرحلة، كنا نقدّم إحاطات سرية منتظمة إلى الكونغرس وشركائنا الخليجيين والإسرائيليين لشرح تطور سير المحادثات، ولضمان استيعابهم لطريقة تفكيرنا. كنا نحرز تقدمًا، وقد استوعب بعضهم ذلك أفضل مما استوعبه بعضهم الآخر.

خلال محادثاتنا الطويلة والحامية أحيانًا، أبدى رئيس الوزراء نتنياهو عدم رضاه. لكننا بقينا على تواصل دائم. حرصت على الاتصال ببيبي فور كل جلسة تفاوض، لأُطلعه على التطورات. أما ويندي فقدّمت إلى المجتمع الأمني الإسرائيلي إحاطات بالمعلومات، كانت أحياناً بصورة شخصية ومعمّقة. وبينما كان بيبي والمقربون منه يعارضون ما نقوم به، دعم معظم قادة قوات الأمن الإسرائيلية على مستوى عالٍ نتيجة الاتفاق، وسوف يواصلون ذلك، حتى بعد مغادرة الرئيس أوباما منصبه.

في 19 كانون الثاني/يناير 2015، ومع حلول العصر، التقيت سفير إسرائيل في الولايات المتحدة، رون ديرمر، في مكتبي بواشنطن. كنت أعرفه منذ وقت طويل، وقد أيّدت تعيينه عندما كان بعضٌ مَن في البيت الأبيض قلقين من الموافقة على ذلك. وبعد أن أصبحت وزيرًا، واصلنا علاقة يسودها الانفتاح والاحترام. لقد استمتعت بيوم عيد الفصح الرائع في منزله. بعد ظهر ذلك اليوم، وكانت المفاوضات الإيرانية قد وصلت إلى ما يشبه المرحلة الأخيرة من رحلة طويلة، جلست مع رون ساعة كاملة، نتحدث عن مستقبل المنطقة، وطبعًا، عن التقدم الذي أحرز بين دول مجموعة الخمسة زائد واحد وإيران.

صباح اليوم التالي، أعلن رئيس مجلس النواب جون بوينر أن رئيس الوزراء نتنياهو قبل دعوته لزيارة واشنطن في آذار/مارس لإلقاء كلمة في جلسة مشتركة للكونغرس. لقد ذهلت. كان رون قبل يوم يجلس في مكتبي

وهو يعلم بأمر الإعلان، ولم يعطني حتى تلميحات بسيطة أنه كان يعمل مع رئيس البرلمان لإعداد تلك الزيارة. كنت مصدومًا، كما كان الرئيس وكل مَن في الإدارة.

كان الأمر بمثابة خروج تام عن البروتوكول والتقاليد. في الماضي، كان البيت الأبيض والكونغرس يتشاوران قبل توجيه دعوة من هذا النوع إلى مسؤول أجنبي. في هذه الحال، ترك الكونغرس عمدًا الرئيس أوباما خارج الحلقة، وذلك يُعزى جزئيًّا إلى أن رئيس الوزراء نتنياهو دُعي خصيصًا لتقويض جهود الإدارة الدبلوماسية. وكان المؤشّر الآخر المثير للقلق أن الكونغرس لم يعد يعمل في مجال السياسة الخارجية كمؤسسة تنتمي إلى البلد والتاريخ، بل نيابةً عن حزب، وللحظة الآنية.

كنت أعلم أن انعدام ثقة إسرائيل بقادة إيران كان عميقًا، وكلنا نتشارك في الأمر. ولكن بقبول دعوة جمهوريي الكونغرس، كشفت الحكومة الإسرائيلية عدم احترامها للرئيس أوباما. لم تتعافَ العلاقة بين الرئيسين قط بعد ذلك.

مطلع آذار/مارس، وبينما شق بيبي طريقه إلى مبنى الكابيتول الأميركي، كنت في مونترو بسويسرا، لإجراء سلسلة من المفاوضات مع الإيرانيين. وكنت أستعد نفسيًّا لما سيقوله.

بُثَّ الخطاب مباشرة، على نطاق دولي، بما يشمل سويسرا. كان القليلون منا في منتصف جلسة متوترة مع الإيرانيين، لذلك فوَّتُه. لكنَّ معظم أعضاء الوفد شاهدوه ونقلوا أبرز ما جاء فيه. قرأته لاحقًا، وتابعت بعض المقتطفات على الأخبار. قال بيبي بحماسة للكونغرس إن الاتفاق «لا يعترض مسار إيران نحو امتلاك القنبلة، بل يمهِّد مسار إيران لامتلاكها» . لم يكن مستغربًا أن يشوّه نتنياهو الاتفاق في شكل فاضح. لقد ألقى بيانًا، بديباجة سياسية محض، وليس تحليلًا نزيهًا لاستراتيجية منع الانتشار النووي، أو حجة موضوعية لطريقة تجعل إسرائيل أكثر أمانًا من دون الاتفاق. ولكن مرة أخرى، أدرك الجميع أن الخطاب كان نداءً لشد العصب، خطابًا عاطفيًّا طويلًا مدروسًا لتعبئة مؤيديه في الولايات المتحدة، وإخافة أعضاء مجلس الشيوخ من الموافقة على الاتفاق.

وبصفتي مؤيدًا ثابتًا لإسرائيل ينظر دائمًا إلى اختلافاته مع بيبي من خلال وجهة نظر سياسية، لا شخصية، شعرت بخيبة أمل. طوال مسيرتي في مجلس الشيوخ، كنت أدعم إسرائيل بإخلاص. وكوزير، واصلت بطرائق لا تعد ولا تحصى مساعدتها على تجنُّب الهجمات في المنظمات الدولية. وتدخلتُ

ضد قرارات غير عادلة، وأوصيت باستخدام حق النقض في الأمم المتحدة. لقد فعل الرئيس أوباما الكثير لدعم إسرائيل، إن لم يكن أكثر من أي رئيس آخر. لقد تصرَّفنا على الدوام بما يتماشى مع مصلحة إسرائيل العليا في المحافل الدولية. اعتقدت أننا نستحق أفضل من خطاب غير عادل وغير أخلاقي. لقد تعرّضنا للذم إلى جانب الإيرانيين، وهو أمر غريب فعلًا. وكان، في نظر مَن تجمعوا منا في مونترو ذلك اليوم، إحدى أكثر لحظات الرحلة التي لا يمكن تفسيرها.

تعوُّدنا تدفُّق النقد اللاذع المستمر من طرف ثالث بحلول ذلك الوقت. سنخرج من اجتماع متوتر، وحتى ساخن، مع الإيرانيين، لنتلقف رياح بيانٍ غاضب صادر عن شخص كان ظاهريًّا إلى جانبنا. قضيت ثلاث ساعات محاولًا إقناع جواد بأن عرضًا على بندٍ معيَّن هو أفضل ما يمكن أن يأمل فيه، لأجري فقط مكالمة مع نظير من المنطقة أراد توبيخي لحجم ما كنت أتنازل عنه. فالقتال من أجل صفقة جيدة على عدة أجنحة في وقت واحد جعل المهمة أكثر صعوبة.

بعد أيام قليلة من خطاب بيبي، قاد السيناتور توم كوتون الجمهوري من أركنساس، 46 من زملائه في مجلس الشيوخ في إرسال رسالة إلى الحكومة الإيرانية. جادلت الرسالة بصورة أساسية أن إدارة أوباما لم تتحدث باسم الولايات المتحدة. لقد حذّرت إيران من أن تثق بنا، مما يوحي بأن أي اتفاق سيُنقض بجرَّة قلم، فور إخلاء أوباما لمنصبه.

خدمت في مجلس الشيوخ ثمانية وعشرين عامًا، وكنت رئيسًا للجنة العلاقات الخارجية، آخر أربعة أعوام منها. أدركت كم كان حدثاً غير مسبوق أن يتدخّل عضو في الكونغرس مباشرة مع الزعماء الأجانب، ويحاول تقويض موقف رئيس يجلس في وسط المفاوضات، ناهيك بمفاوضات كانت فيها المخاطر كبيرة. كان تصرف غير مسؤول ومتهوِّراً. لم أستطع إلَّا أن أتخيل كيف يكون رد فعل الجمهوريين لو فعل الديمقراطيون ذلك مع الرئيس ريغان، خلال مفاوضاته مع الاتحاد السوفيتي.

رأيت ظريف في اليوم التالي. ما إن ألقيت عليه السلام حتى سحب نسخة من الرسالة. شرحت عدم الدقة في بيان كوتون، وحثثته على مواصلة التركيز في تضييق الفجوات بيننا. كنا نقترب أكثر من اتفاق، ولن نسمح لأي سهو بأن يهزنا. وفي النهاية، لم نجد طريقة لإسكات الرافضين أفضل من العودة إلى الوطن مع صفقة جيدة في اليد.

بحلول نهاية العام 2014، نجحت، بصورة أو بأخرى، في إقناع جواد باستحالة أن يوافق الرئيس أوباما على صفقة لا تمدِّد ما يُسمّى مدة انقطاع إيران عن تخصيب اليورانيوم إلى ما لا يقلّ عن عام. أصبح هذا المبدأ الرئيسي من المبادئ الأساسية التي استرشدت بها المحادثات من تلك النقطة. يعني ذلك أننا نحتاج إلى أن يكون الخبراء النوويون الأميركيون واثقين بأن الإيرانيين، إذا قرّروا خرق الاتفاق وتكثيف عمليات التخصيب، فسوف يحتاجون إلى سنة على الأقل كي يتمكّنوا من الحصول على ما يكفي من المواد الانشطارية لتزويدهم بقنبلة نووية. من وجهة نظرنا، كان عامٌ أكثرَ من وقت كافٍ للولايات المتحدة وحلفائها لمتابعة وسائل «بديلة» (أفسّرها عسكرية) لمنع إيران من التسلُّح نوويًّا.

يُحتسب وقت الانقطاع بناءً على عدد من العوامل: بدءاً بحجم المخزون الحالي لليورانيوم المخصَّب، مرورًا بعدد أجهزة الطرد المركزي التي قد تُشغَّل، إلى حجم تقدُّم أجهزة الطرد المركزي تلك، وصولًا إلى الطريقة التي ستُبنى بها. كمنت المشكلة في بعض المدخلات التي استخدمها خبراؤنا لحل هذه الأرقام. كان هناك الكثير مما يمكن أن نوضحه للإيرانيين عن سبب تفاوت قبولنا بعض المقترحات الفردية. أحبط ذلك ظريف. كان جزءٌ كبير من الإيضاحات لسبب اختيار مقاربةٍ دون أخرى، يعتمد على الرياضيات والعلوم بدلًا من السياسة. ولمّا لم يكن أيٌّ منا عالماً، ربّما كان من الصعب إقناع بعضنا بعضًا بفاعلية موقف أكثر من آخر.

قبل دخولنا إلى غرفة العمليات بعد ظهر أحد الأيام لعقد اجتماع لمجلس الأمن القومي، تلقّت ويندي رسالة إلكترونية من عباس. أبلغنا الإيرانيون أنهم سيرسلون علي صالحي إلى الجولة المقبلة من المحادثات للإشراف على المفاوضات الفنية. كان صالحي أحد أهم علماء الفيزياء النووية في إيران؛ وقد شغل منصب رئيس منظمة الطاقة الذرية في البلاد. أراد عباس أن يعرف مَن سنرسل لكي يكون محاورًا لصالحي.

اختلت ويندي بي وبسوزان رايس جانبًا، وقرأت الرسالة الإلكترونية على هاتفها البلاك بيري. بصوت واحد، نطقنا، نحن الثلاثة، الإجابة الواضحة: أُرني.

ومثلَهُ مثل جميع أمناء الطاقة، أشرف أُرني مونيز على الترسانة النووية الأميركية. لكنه، على عكس وزراء الطاقة الآخرين، كان يحمل أيضًا دكتوراه في الفيزياء النووية ولديه عقود من الخبرة في المجال. ومع أن صالحي ومونيز لم يلتقيا قط، فإن مساريهما قد تقاطعا لسنوات قليلة، في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، في العقد السابع من القرن الماضي. اتضح

أن لذلك عواقب: كان صالحي فخورًا جدًّا بتلقيه علومه في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. وكان أرني أستاذًا هناك، حين كان صالحي يحصِّل شهادته. لم يكن لدى أرني المؤهلات المناسبة فحسب، بل أُطلع تمامًا على أكثر الجوانب الحساسة في المفاوضات. كان يتابع باستمرار مناقشاتنا الداخلية. وكان مستعدًّا للمباشرة فورًا.

بعد لحظات من قراءة ويندي رسالة عباس الإلكترونية، شق أُرني طريقه إلى غرفة العمليات. عندما بدأ اجتماع مجلس الأمن القومي، نقلنا أنا وسوزان، إليه النبأ: «نأمل في ألَّا يكون لديك مشروعات لنهاية هذا الأسبوع» ، كما قلنا. «سوف تسافر إلى سويسرا» .

لم نكن نعرف أساسًا هل أُرسِل صالحي بهدف التوصُّل إلى اتفاق أو بهدف منعه. على هذا النحو، كان قريبًا جدًّا من آية الله خامنئي. في البداية، اعتقد معظم زملائنا العاملين في المجال النووي أنَّ قرار الإيرانيين إرساله كان علامة سيئة. كان يُنظر إليه على أنه الشخص الذي سيرفض الاتفاق. وقدّروا أنه سيتردد في اتخاذ أي خطوة قد تقوّض برنامج البلد النووي الذي بناه الإيرانيون من الصفر.

كنتُ ممن رأوا أنَّ وجوده قد يكون إيجابيًّا. لم أكن أعتقد أنَّ الإيرانيين سوف يُرسلون صالحي إذا كان هدفهم الوحيد هو عرقلة التقدم. كانت هناك طرائق كثيرة ليقوموا بذلك. تعني لي مشاركته أنهم يريدون الوصول إلى الحل الصحيح. يعني ذلك أنهم كانوا جادين في التوصُّل إلى اتفاق.

تبيَّن لي أنني كنت على حق. ظاهريًّا، كان صالحي ومونيز مختلفين تمامًا. فصالحي الذي يضع نظّارة محدَّدة بإطار فولاذي، وتبدو لحيته مشذبة بعناية، كان معسول الكلام وجديًّا. وكان مونيز، الذي يصل شعره إلى كتفيه، اجتماعيًّا وسهل الطباع. لكنَّ اختلافاتهما لا صلة لها بالموضوع. فقد تحدثا اللغة العلمية نفسها. كما أن حضورهما لتركيز البحث في المسائل التقنية وتمتُّعهما بسلطة واعية متبادلة، قد أتاحا للآخرين التركيز في المشهد الأكبر. لقد بدأت المحادثات تسير بخُطى أسرع.

مع اقتراب موعدنا النهائي الأول، وصلنا إلى مدينة لوزان السويسرية في 26 آذار/مارس 2015، بهدف التوصُّل أخيرًا إلى الاتفاق السياسي الذي وعدنا العالم به.

نزلنا في فندق بوريفاج، وهو فندق يقع على شاطئ بحيرة جنيف. وقد شهد نصيبه العادل من الدبلوماسية في الماضي، بما يشمل التوقيع على

معاهدة لوزان عام 1923 التي حلّت الإمبراطورية العثمانية. كان ظريف على دراية كبيرة بهذا التاريخ. فقد قال ممازحاً: «إذا كان لدينا إعلان لنقدّمه في النهاية، فلا يمكننا أن نقوم به في بوريفاج» ؛ «فالتجارب الماضية السيئة كثيرة» .

كان، لكل وفد من الوفود الأميركي والفرنسي والبريطاني والألماني والصيني والروسي والإيراني ووفد الاتحاد الأوروبي، مساحات مكتبية في الفندق. وقد شُغِلت قاعة الوفد الأميركي على مدار الساعة. كان الخبراء، من الخبراء النوويين إلى خبراء العقوبات إلى الخبراء في القانون الدولي، يجتمعون بانتظام مع نظرائهم الأجانب. وبين تلك الاجتماعات، كانوا على أهبة الاستعداد لتلبية طلبنا إلى إحدى جلساتنا على مستوى الوزراء. كان فريق الاتصالات العائد إلينا متمركزًا حول طاولة المؤتمرات، متلهفًا للحصول على تحديثات مني أو من ويندي شيرمان، أو من أحد المفاوضين الآخرين. (كانوا يبحثون أيضًا عن ملجأ من الصحافيين الذين توزعوا في جزء آخر من الفندق وانتظروا بصبر نافد التفاصيل لتزويد محرِّريهم بالمعلومات في كل جزء من العالم). كان الوقت حاسمًا، وكان الجميع على علم بأن عقارب الساعة لا تتوقّف.

كنا أيضًا على اتصال دائم بواشنطن. وفي المساء، عندما يكون الوقت ظهرًا في العاصمة واشنطن، كان عدد قليل منا يتجمّعون في خيمة صغيرة، حيث جهَّز فريقنا لتكنولوجيا المعلومات مؤتمر فيديو آمنًا. كنا نطلع الرئيس وسوزان رايس ووزير الخزانة جاك لو وآخرين على آخر خطوات التقدُّم المحرز، أو عدمه، ونناقش الاستراتيجية لليوم التالي.

كانت تلك الاجتماعات الافتراضية بعض أكثر الاجتماعات المثمرة التي شهدتها على الإطلاق. كانت قيادة الرئيس أوباما واضحة ومهمة. فهو مطّلع على كل جانب من جوانب الاتفاق، يطرح الأسئلة الصحيحة، ويتخذ قرارات صعبة كلّما طُلِب منه ذلك. لكنَّه وثق بنا كذلك. كان ينزل عند رأي أرني أو جاك أو رأيي، إذا تبيّن له أن لدينا إحساسًا أفضل بما يمكن إنجازه. كنا نعلم بالضبط موقفه، ومقدار الحرية المتاح لنا للمناورة في قاعة المفاوضات. كان ذلك نموذجًا لطريقة عمل الإدارة. وأتمنى أن يكون ذلك النوع من التعاون على مستوى الإدارة أكثر شيوعاً.

ولكنْ حان الوقت الآن لنرى إن كان بمقدورنا التوصل إلى اتفاق، أو كان يجب أن نتَّفق على وقف المبارزة. كان كل تقدُّم يترافق، ويا للأسف، بخطوة عكسية شبه يومية. لا أعلم إن كان الإيرانيون ينخرطون في استراتيجية مدروسة، أم أنهم يحصلون على رد سلبي من الزعماء في إيران،

بعد إبلاغهم مفاوضات كل يوم. في كلتا الحالين، أصبح الأمر موهنًا للعزيمة نوعًا ما. فما إن نصل إلى وضع مقبول في إحدى الأمسيات، حتى يعيد الإيرانيون إلى الوراء صباح اليوم التالي بعض التقدم الذي أحرزناه في الليلة الماضية. كان الأمر أشبه بثلاث خطوات إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء، وكان استخدامًا غير منتج لوقتنا المحدود.

«الحمد لله أنَّ الموعد النهائي الحقيقي محدَّدٌ في حزيران/يونيو، وليس في آذار/مارس» . هذا ما قاله لي وزير الخارجية الصينية وانغ يي لي في مرحلة ما، «وإلَّا لن ننجح في التوصل إلى اتفاق» . لكنَّ الصينيين لم يكونوا مضطرين إلى التعامل مع الكونغرس الذي كان متحمِّسًا للخسارة. كان الموعد النهائي في آذار/مارس بالنسبة إلى الوفد الأميركي حقيقيًّا وماثلًا بقوة. فقد كانت الغالبية الجمهورية جاهزة عند أول إشارة ضعف لتنفيذ عقوبات جديدة على إيران، ونسف المحادثات. لذا، وفي محاولة لضمان أن تضيف كل جلسة مفاوضات جديدًا إلى سابقتها، قلّصنا مقدار الوقت بين اجتماعاتنا. كنا نعمل حتى وقت متقدم من الليل، كل ليلة. في إحدى الليالي، عملنا مباشرة حتى التاسعة من صباح اليوم التالي. ثم نمنا ساعتين أو ثلاث ساعات، وعدنا من فورنا إلى طاولة المفاوضات.

قال لنا الرئيس أوباما ألَّا نترك طاولة المفاوضات، إذا كنا نحرز تقدُّمًا، لمجرد أن انتصف الليل. طلب منا أن نتنبه للموعد النهائي، ولكنْ أن نعمل طوال اليوم التالي أو اليومين التاليين إذا كان ذلك يعني أننا قد نصل إلى حيث يجب.

فعلنا ذلك بالضبط. واستمرت الثغر تضيق. لقد بدأنا ببناء بعض الزخم من خلال الشعور بأن الاتفاق بات في متناول اليد. وقبل أن ندرك ذلك، كنا نناقش الحقائق السياسية التي يواجهها كل جانب في وضع تصريح. حتى تلك اللحظة، أحجمنا عن كتابة أي شيء على الورق، أملًا في منع التسريبات أو التشريح المبكر لخطوط الحوار الكبرى. كانت لويندي فكرة مبتكرة بإحضار لوح عريض وأقلام ممحاة، حيث سلطنا الضوء على كل عنصر من عناصر الاتفاق، مما سهّل وضع موجز عنه أثبت فائدته.

كنا حريصين، إذا أردنا إصدار بيان، على أهمية أنْ نشرح بوضوح وبتعابير مألوفة، ما جرى الاتفاق عليه. بثبات، جمعنا وثيقة تحدد النقاط المتفق عليها، تطلبت صياغتها إجراء مفاوضات أخرى استغرقت ساعات طويلة.

عندما شعرنا جميعًا بالارتياح في النهاية، أكدت لجواد أننا لن نصدر الوثيقة قبل أن نعقد مؤتمرًا صحافيًّا مشتركًا في اليوم التالي. «انتظر لحظة!»

، صاح جواد، «لا يُقصد بهذه الوثيقة أن تكون علنية!» .

لم أكن أصدّق ما سمعت. «جواد» ، قلتُ، «إنها الرابعة فجرًا. لقد قضينا ثماني عشرة ساعة في التفاوض على كل كلمة في هذه الوثيقة. إذا كنت لا تريد جولة أخرى من العقوبات، فيجب أن تكون علنيةً. بالطبع ستكون عامة!» .

لو عدنا إلى الولايات المتحدة مدّعين أننا وضعنا اتفاقًا على سلسلة من المبادئ، ثم قلنا للكونغرس والجمهور إننا لا نستطيع أن نطلعهم على تلك المبادئ، لكنّا عرضة للسخرية. الأهم من كُل ذلك أننا لن ننال ذرّة صدقية من الكونغرس لمنعه من تمرير العقوبات. ولن تنجو المفاوضات من فرض عقوبات إضافية ستعدُّها القيادة الإيرانية سوء نية، على أقل تقدير.

في صباح اليوم التالي، ذهبت لرؤية ظريف، وشرحت له هذا الواقع. إذا لم نتمكن من وضع ورقة وقائع، على ما قلت له، فقد نعود إلى بلدنا.

أخيرًا، سلَّم بالأمر، وقال: «كن حذرًا في كلامك، لا تتجاوز الحد. أوضِح أنه اتفاق، وليس شيئًا تُجبرنا على قبوله. وإلّا، سيكون من الصعب جدًّا المضي قدمًا» .

لقد احترمنا طلبه، في ورقة الوقائع كما في بياني العلني للصحافة. فعلى سبيل المثال، كنا حريصين على القول، «إن إيران وافقت على أن تقوم بكذا» ، بدلًا من «أن على إيران أن تفعل كذا» . أدركت أن لجواد واقعه السياسي الخاص. فإذا عدَدنا أننا نحقّق جولة نصر على حساب الإيرانيين، فسوف يقطع المتشددون في بلاده علينا الطريق قبل أن نتقدَّم أكثر.

في ذلك المساء من 2 نيسان/إبريل 2015، أعلنا عن إطار عمل تفصيلي، ولاسيّما الخطوط العريضة للاتفاق، ولكن من دون التفاصيل الأساسية التي يجب أن تُضاف خلال الأشهر التالية. لقد كان إنجازًا مهمًّا، لكنَّ مفاوضات صعبة كانت لا تزال في انتظارنا. لم يرغب أحد منا في الإعلان عن اتفاق إطار. وقد اضطررنا إلى إجراء ذلك بسبب تهديد الكونغرس بالعقوبات. كان لفرض مزيد من العقوبات أن يُنهي العملية. لكن إطلاق الإطار جعل الطريق أصعب، لأنه أظهر إلى أي حدٍّ وصلنا، وإلى أي مدى كان إمكان التوصُّل إلى اتفاق نهائي حقيقيًّا. كنا نعلم أنَّ ذلك سيُبرز الخصوم من كلا الجانبين بصورة مؤكّدة.

ذهب الوفد إلى مطعم إيطالي قريب لتناول العشاء في الحادية عشرة من تلك الليلة، وهو الوقت المناسب لنا كي نلحق برحلة الثانية بعد الظهر إلى

واشنطن. اقترح أرني نخبًا، لكنني لم أكن مستعدًا للاحتفال. فذكّرت الفريق «بأننا لم نصل إلى الاتفاق بعد» . كنت مفسدًا للبهجة، وكنت أعلم ذلك. ولكن الاحتفال كان، في نظري، سابقًا لأوانه. بعد كل ما سبق، أجَّلنا حتى الجولة التالية بعض أصعب القضايا، مثل توقيت تخفيف العقوبات ونوع البحث والتطوير الذي سيُسمح لبرنامج إيران النووي أن يقوم به. فالصفقة الشاملة لم تكن مؤكدة.

كان لا بد من الإعلان عن تقدُّمنا في لوزان. فالطريقة الوحيدة للتشبث بالمكاسب التي حقّقناها هي إصدار أكبر عدد ممكن من التفاصيل. كان معارضو المحادثات على استعداد لإفشال المشروع إن لم نفعل ذلك. لو استطعنا إنجاز الاتفاق كاملًا قبل الإعلان عن نتيجة غير نهائية لكان الأمر أكثر فاعلية. لم يعطنا الكونغرس أي خيار.

قوبل إطار العمل الذي أُعلن في لوزان بترحاب كبير. كان طموحًا أكثر كثيراً مما توقّع معظم الناس. وقد أشاد به الخبراء، وبعضهم كان مُشكِّكًا فيه علنًا حتى تلك اللحظة. لكننا كنا نعلم أن الاستجابة، والوقت الإضافي الذي وفَّره لنا، سيأتيان بثمن باهظ.

كل التفاصيل التي وضعناها استهدفها الخصوم. ركّز النقاد في ما بدا أنه أضعف جوانب الصفقة، قياساً على القضايا العالقة؛ وبدأوا بتوجيه انتقاداتهم بناءً على ذلك.

وفي الوقت نفسه، أغضبت الإشادة التي تلقّتها مجموعة الخمسة زائد واحد في الصحافة الإيرانيين، وأحرجتهم. كان واضحًا، منذ اللحظة التي طُبعت فيها العناوين الرئيسة، أنَّ الإيرانيين سوف يحاولون في الجولة المقبلة تعويض تلك الأمور التي انتقدهم عليها معارضو الصفقة في بلادهم.

كنت أحيانًا أتمنّى أن يقرأ الأميركيون، أو يسمعوا بعض الانتقادات القاسية التي يتعرض لها جواد ظريف وزملاؤه؛ لعلهم يفكرون بطريقة أوضح في ما كنا نحقِّقه في لوزان. تُرك كلا الجانبين مكشوفًا جدًّا.

* * *

تلاشى الزخم الذي تحقّق في لوزان تلاشياً شبه فوري، كما كان متوقّعاً. فقد دفع الجمهوريون سريعًا التشريع الذي يتطلّب مراجعة الكونغرس لنص الصفقة النهائي. وبالنظر إلى عدم قدرة الكونغرس على تمرير الكثير من أي شيء، فقد رأت إدارة أوباما عملية المصادقة الرسمية من الكونغرس بمنزلة حكمٍ بالإعدام. بعد سلسلة مفاوضات مكثّفة قادها رئيس لجنة العلاقاتِ

الخارجية فيَ مجلس الشيوخ بوب كوركر، الجمهوري من ولاية تينيسي، أقرّ مشروع قانون. بموجب هذا التشريع، الذي وقّعه الرئيس أوباما ليصبح قانونًا في أيار/مايو، يتبيّن الآتي: إذا استكملنا الصفقة بحلول 9 تموز/يوليو كما هو مخطط لها، فسوف يكون أمام الكونغرس شهر لمراجعتها، وسوف يُسمح بعد ذلك لمجلس الشيوخ بالتصويت لمنع الرئيس أوباما من رفع العقوبات؛ وإذا استكملنا الصفقة بعد 9 تموز/يوليو، وذلك ما انتهى إليه الأمر، فسوف يكون لدى الكونغرس ستون يومًا لمراجعة الصفقة. وفي حال موافقة ثلثي أعضاء مجلس الشيوخ على رفض الاتفاق، يمكنهم منع الرئيس من تنفيذ الصفقة.

كان ذلك أمرًا أساسيًّا: لن يكون من الضروري لنا إقناع غالبية ساحقة من أعضاء مجلس الشيوخ بالتصويت لدعم هذه الصفقة، الأمر الذي قد يكون مستحيلًا، بالنظر إلى حملة الضغط العدواني المعادية لإيران، التي جرّدتها جماعات مثل لجنة الشؤون العامة الأميركية - الإسرائيلية وغيرها. وبدلًا من ذلك، سنحتاج إلى امتناع أربعة وثلاثين عضوًا من أعضاء مجلس الشيوخ عن التصويت لرفض الصفقة، من أجل دعم حق النقض المحتوم للرئيس. نحتاج أيضاً إلى امتناع واحد وأربعين عضواً عن التصويت لمنع تعطيل التشريع الذي سيمنع إقرارها تمامًا. فتوفير تلك الأصوات سوف يكون مهمة صعبة جدًّا في حد ذاته، لكن ذلك التشريع، الذي أقرَّه مجلس الشيوخ بشبه إجماع، أتاح لنا فرصة للمواجهة.

بالطبع، لم يكن لدينا بعد اتفاق نهائي للدفاع عنه. وفي نهاية أيار/مايو، عقدنا اجتماعًا متوترًا جدًّا مع الإيرانيين والاتحاد الأوروبي في فندق إنتركونتيننتال بجنيف. وعقب اتفاق لوزان وردود الفعل التي تناولته، طرح آية الله خامنئي عددًا من المعايير الجديدة التي عددناها عالية السقف: من حسابات وقت الاختراق إلى أعداد أجهزة الطرد المركزي. لقد فهمتُ أن الإيرانيين كانوا يردون على عاصفة النقد التي واجهوها في الداخل. لكنَّني شعرت أنهم يقوِّضون كل ما حققناه قبل بضعة أسابيع فقط. في مرحلة ما، كنت غاضبًا مما سمعته؛ فخبطت يدي بقوة على الطاولة. ارتد القلم الذي كنت أحمله بطريق الخطأ من يدي وطار مباشرة نحو عباس عرقجي، وحطّ قرب صدره. صمت الجميع لحظة؛ كانت تلك أكثر مرَّة يرونني أعبِّر فيها عن نفسي. لقد اعتذرت لعباس في الحال، لكن الحادثة فاجأتنا جميعًا، وأعادت الأمور إلى نصابها؛ فاستأنفنا محادثة محترمة ومعقولة، إن لم تكن مثمرة جدًّا. لقد صُنِّف هذا الاجتماع، الذي دام ست ساعات، مع اجتماع مسقط، على أنهما الأسوأ، لكنَّ ذلك كان ضروريًّا. تحتاج أحيانًا في الدبلوماسية إلى عقد اجتماع لا يحدث فيه شيء إيجابي على الإطلاق. فهو يجبر الجميع على العودة إلى بلدانهم، ونيل استراحة ومعاودة النظر في أسباب التفاوض في المقام الأول. وكثيرًا ما

وجدت أن الاجتماعات الأقل إنتاجًا هي التي تمهِّد الطريق للاجتماعات المثمرة أكثر.

لكن، في هذه الحال، تَبِعت اجتماعنا نكسة من نوع آخر. ففي صباح اليوم التالي، وكان يوم أحد، ذهبتُ في جولةٍ على الدراجة، وهو أمر حاولت أن أقوم به في الرحلات الطويلة لممارسة بعض التمارين في الهواء الطلق وتصفية ذهني لساعةٍ أو ساعتين. قدنا مسافةَ ساعة للخروج من جنيف إلى مدينة كلوز الصغيرة، على الحدود مع فرنسا. كنت على وشك الشروع في تسلّق الجبل عند ممر لا كولومبيار عند سفح جبال الألب الفرنسية، وهو مرحلة قصيرة من سباق فرنسا للدرّاجات. كنت بدأت أتحرك للتو، ببطء شديد، وأنا أحاول إخلاء الطريق أمام دراجة نارية للشرطة إلى يساري. وبينما كنت أنظر في ذلك الاتجاه، ارتطمت دراجتي برصيف لا يكاد يرى، ووقعت على جانبي الأيمن. وانكسرت ساقي. عندما حاولت النهوض، لم أُفلح. لم أستطع تحريك ساقي. وضعتُ يديَّ على فخذي، ورأيت كل يد تذهب في اتجاه معاكس. التفتُّ إلى رجل الأمن الذي هرع لمساعدتي، وقلت: «لقد كسرتُ ساقي» . شكَّل العلو بين الرصيف والطريق الزاوية الخطأ بالضبط لكسر عظم فخذي.

كنتُ أتألم، لكنَّ شعوري الأساسي كان الإحباط. كنتُ غاضبًا من نفسي لما حدث لي، ومصابًا بخيبة أمل كبيرة لعدم قدرتي على الاستمتاع بوقتي وتسلُّق الممر. والأهم من كل ذلك أننا كنا بانتظار الأسابيع الأخيرة والحاسمة من المفاوضات كي نتوصَّل إلى اتفاق. فعقدت العزم ألّا تكون إصابتي حجر عثرة.

كان مقرّراً أن أتوجَّه من جنيف إلى إسبانيا ثم إلى باريس لترؤس اجتماع مهم للتحالف العالمي الذي كنا نقوده ضد داعش. كنت لا أزال أعتزم تمامًا القيام بتلك المحطات فور إتمام معالجة ساقي. ولكنْ بعد أن عاينني الأطباء السويسريون، قالوا إنني في ظرف لا يسمح لي باتخاذ أي خطوة. وقالوا إن الكسر كان على بعد بوصة واحدة من شريان الفخذ، أسفل الورك، وهو مكان خطير لعظم مهشَّم. كنت في حاجة إلى جراحة على الفور.

اتصل بي الرئيس أوباما عندما سمع الخبر. فأكّدت له أنني لن أفوِّت أي فرصة. لست متأكدًا مما اعتقده، ولكنْ لم يكن من الممكن أن يكون أكثر دعماً، آنذاك وفي الأيام المقبلة.

عدت إلى بوسطن في طائرة بوينغ سي-17، وإلى جانبي الدكتور دينيس بيرك، جرّاح العظام الرائع الذي أجرى لي عملية استبدال مفصل

الورك قبل أعوام. كان قد توجَّه إلى جنيف لمعاينتي ومرافقتي إلى الديار لإجراء الجراحة. وبقي معي في رحلة العودة نائب رئيس أركان الموظفين، توم سوليفان، ومستشاري الأعلى للاتصال الاستراتيجي، غلين جونسون، ومساعدي منذ مدة طويلة، جايسون منينجر، وعدد قليل من أفراد الأمن. أثناء عبورنا المحيط الأطلسي، أخبرني دينيس أنَّ عليَّ أن أهوِّن الأمر على نفسي لبضعة أسابيع، وإلا سأكون خارج نطاق العمل مدة أطول كثيراً مما يلزمني.

عندما وصلنا إلى مطار لوغان الدولي، نُقِلتُ في سيارة إسعاف من الطائرة إلى مستشفى ماساتشوستس العام، الذي يبعد خمس دقائق من بيتي في بوسطن. سمعت ما قاله لي الأطباء، وأصغيت. ولكنْ كان أمامي عمل يجب أن أنجزه. صباح اليوم الذي خضعت فيه للجراحة، انعقد اجتماع التحالف ضد تنظيم داعش الذي كان من المقرر أن أحضره في باريس. استيقظت في الساعة الرابعة والنصف فجرًا، للاتصال بالمجتمعين. (أخبرني أصدقائي في وزارة الخارجية لاحقًا أهمية ذلك الصوت «غير المجسّم» الذي بُثَّ في اجتماعهم لتشجيع الجهود الإضافية من أجل سحق داعش سريعًا). خلال الأيام العشرة التالية، أجريت مكالمات كثيرة، وعقدت اجتماعات افتراضية كثيرة، قدر ما أمكنني، من سريري في المستشفى.

وخضعتُ كذلك لتمارين العلاج الطبيعي. في البداية، شكَّك أطبائي في أن أتمكّن من السفر إلى الخارج لإتمام المفاوضات الإيرانية في نهاية الشهر. سوف أمشي مستعيناً بعكازين، شهرين على الأقل؛ وكانت هناك مخاطر تتعلق بالسفر بسرعة كبيرة بعد الجراحة. لكن الإيرانيين لم يتمكّنوا من المجيء إلى الولايات المتحدة، ولم يكن من الممكن ببساطة التفاوض على مثل هذه الصفقة عبر الهاتف. كنت أعرف أنني يجب أن أكون على ما يرام ليُسمَح لي برحلة عبر المحيط الأطلسي. كنت كل يوم أعمل باتجاه هذا الهدف. وأخيرًا، صدر حكم الأطباء: كنت في حال جيدة ويمكنني السفر. صعدت إلى الطائرة المتجهة إلى فيينا في قاعدة أندروز الجوية صباح يوم 26 حزيران/يونيو. رفعني مصعد هيدروليكي إلى باب الطائرة، لأنني لم أستطع تسلُّق السلالم.

عُقِدَت الجولة الأخيرة من المفاوضات في قصر كوبورغ، وهو مسكن ضخم حُوِّل فندقًا، يعود تاريخه (وقبو النبيذ فيه) إلى القرن السادس عشر. يعني تأسيسه منذ قرون أن تصميم طبقاته كان معقّدًا بعض الشيء؛ فالانتقال من مكتب إلى آخر يعني غالبًا تبديل المصاعد وسلوك ممرات طويلة كالمتاهة. لحسن الحظ، تفهمت الوفود الأخرى وإدارة الفندق، حالتي وتمكّنت من تزجية

الوقت الذي كنا لا نتفاوض فيه في جناح قبالة المصعد مباشرةً في الطبقة الثانية.

كان الصيف قد حلَّ، وكان الجو في فيينا حارًّا جدًّا. في كوبورغ، كان تكييف هواء جناح الطبقة العلوية الذي قضى فيه الوفد معظم وقته في طبع الأرقام وضبط التصريحات، دون المستوى المطلوب. لكنَّ الفريق الرائع للبعثة الدبلوماسية الأميركية في فيينا، قد أحضر الكثير من المراوح، وألصق النوافذ بشريط بلاستيكي للحفاظ على الهواء البارد في الداخل. كان أفراد فريق السفارة أبطالًا مجهولين: لقد عملوا على ضمان عدم تفويتنا أي فرصة على بعد آلاف الأميال من المقر الرئيس في فوغي بوتوم. وراقبوا التحديثات والتقارير الاستخبارية من جميع أنحاء العالم، وسهّلوا الاجتماعات والنقل اللوجستي لمساعدتنا في أي لحظة. وحافظوا حتى على مخزون الثلاجة وتدفُّق القهوة على مدار الساعة.

وكان مختلف الخبراء الضروريين جدًّا لبعثتنا أبطالًا كذلك. لقد عمل كثر منهم في فيينا، بعيدًا عن أُسَرهم، مدة أطول بأسابيع من الآخرين. لقد فاتهم حضور أعراس ومناسبات سنوية وجنازات وأعياد ميلاد أطفال، أي إنهم ضحوا بكل جانب من جوانب الحياة الأُسَرية لتحقيق هدف سياسة عامة حيوي. ولكن ما من أحد منهم تذمُّر أو حتى طلب استراحة. كان كل فردٍ من الفريق ملتزمًا بشدة هذه المهمة. كانوا أفضل مجموعة من الأشخاص المحترفين والقديرين الذين عملت معهم ذات يوم.

ومع انتهاء حزيران/يونيو وحلول تموز/يوليو، سرعان ما اتضح أننا سنفوِّت كذلك مشروعات الرابع من حزيران/يونيو التي خطَّط لها كل منا. حاول رولاند، المدير المبتهج والمبهج في كوبورغ، تحقيق أفضل النتائج. ارتدى بنطلوناً مرصعًا بالنجوم طوال اليوم، واستضاف مأدبة شواء سريع على شرفة الفندق، أنهاها بالهوت دوغ والهامبرغر. كانت استراحةً لطيفة ونادرة خلال المحادثات الماراثونية.

وبالعودة إلى غرفة المفاوضات، كانت الأمور تزداد صعوبة. ومع تضييقنا لنطاق القضايا، ضاق كذلك مجال التنازلات. واصلنا النقاش في الأرقام والترتيبات والوثائق والجداول الزمنية.

في إحدى الليالي، اجتمعتُ أنا وأُرني مونيز مع ظريف وصالحي في قاعة المفاوضات الرئيسة في الطابق الثاني. تساءلنا أيماطل الإيرانيون، ونحن غير متأكدين من اتجاههم أو نياتهم، أم أنهم ينتظرون تعليمات من طهران؟ وجدنا أنفسنا نرفع أصواتنا مرة أخرى. جاء أحد مساعديّ إلى الغرفة،

وأبلغنا أن ما نقوله يتردد في البهو ويسمعه كلّ مَن في الطبقة. هرعت فور ذلك إلى وزير الخارجية الألمانية فرانك فالتر شتاينماير، وأخبرني أن اجتماعي مع ظريف «بدا بنَّاءً» من خلال ما كان يسمعه.

لم يكن كذلك. في اليوم التالي، نقلتُ محادثتنا المطوَّلة إلى بقية وزراء مجموعة الخمسة زائد واحد، وقضينا ساعات في العمل على اقتراح يتضمن أفكارًا تتعلق بعدد من النقاط الخلافية التي اعتقدنا أنها ستساعد على سد بعض الفجوات بين الجانبين.

ودعونا من ثمَّ ظريف إلى قاعة المؤتمرات الكبيرة. وبعد حوالى ثلاثين ثانية من عرض ما توصّلنا إليه، رفضه.

«هذا مهين. أنتم تحاولون تهديدي!» ، على ما صاح قائلًا، وهو ينهض ليرحل. «لا تهدّدوا إيرانيًّا أبدًا» .

تبع ذلك صمت قصير، قبل أن يكسر وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف التوتر: «أو روسيًّا!» .

سُمعت ضحكات عصبية بعد تهكُّم لافروف، لكنَّ الاجتماع كان قد انتهى. توجهتُ مستاءً إلى غرفة الطعام في كوبورغ لتناول العشاء مع الفريق المفاوض الأميركي. جلسنا إلى طاولة كبيرة مستديرة، وخلال تناولنا طبق وينر شنيتزل للمرة السادسة ذلك الأسبوع، استخلصنا ما حدث للتو. للمرة الأولى منذ بدء المحادثات، اعتقدت أن مغادرة فيينا من دون صفقة ستكون ضرورية. لقد بدأنا نتحدث كيف سنشرح ذلك الإخفاق، وكيف يمكننا أن نصف كم كان الإيرانيون غير عقلانيين بطريقة لا تبعث على طمأنة مَن يدعون إلى عملٍ عسكري، ممّا يؤدي إلى اندلاع صراع أكبر بشكلٍ غير مقصود.

أويتُ إلى فراشي تلك الليلة آملًا أن يرى الإيرانيون قيمة ما اقترحناه. في صباح اليوم التالي، زرت جواد في جناحه. أردت أن أتحدث معه شخصيًّا لأرى إن كنا قد وصلنا بالفعل إلى طريق مسدودة.

«جواد» ، بدأتُ، «باختصار، هل تريد أن تقوم بهذا العمل أم لا؟» . تحدثنا، لبعض الوقت، عن المخاطر والطريق التي قطعناها للوصول إلى حيث كنا. أخبرني جواد أنه تحدث مع المسؤولين في طهران. كان يعتقد أنهم قد استجابوا بشكل بنّاء لبعض الأفكار التي طرحها، وأراد أن نجتمع لمعرفة إن كان ممكناً التراجع عن شفير الهاوية. أخبرته أنني على استعداد للاستماع، لكن هناك أمورًا معيّنة لا يمكننا أن نبتعد عنها. غادرت تلك المحادثة مع شعور بأن

جواد قد فكّر طوال الليل، وحل المشكلات التي كان يعتقد أنها كانت مستعصية على الحل.

بقينا في فيينا أيامًا أُخَر. أَعتقدُ أنَّ الإيرانيين ربما ظنوا أن في إمكانهم تضييق الخناق علينا بسبب تشريع الكونغرس الذي يتطلّب مدة أطول كي يراجع الاتفاق إذا لم تنتهِ المفاوضات بحلول الموعد النهائي الذي حدّده تشريع كوركر في 9 تموز/يوليو. لن ندع الموعد النهائي يخيفنا. لم نكن راغبين في التضحية بأي شيء لمجرد الوفاء بمهلة نهائية تعسُّفية من الكونغرس، حتى لو كان ذلك يعني أن الكونغرس يلزمه في النهاية مِثْلا الوقت لمراجعة الاتفاق.

كل يوم كنا نقترب أكثر، لكن ظريف لا يزال غير قادر على إقناع نفسه بالموافقة. ومساء 13 تموز/يوليو، أي في الليلة السابعة عشرة على وجودنا في فيينا، دعوت ظريفاً ولافروف والممثلة العليا للاتحاد الأوروبي الجديدة فيديريكا موغيريني، إلى الجناح الأميركي في كوبورغ. خلفت فيديريكا كاتي أشتون، وكانت تعرف لافروف وظريفاً معرفة جيّدة. جلستُ هناك مع قدمي الممدودة على مسند صغير، واستمعنا إلى ظريف يفنِّدُ كل الأسباب التي جعلت الصفقة التي كنا نعمل من أجلها غير جيدة بما يكفي لإيران. وحوالى منتصف الليل، قاطعه لافروف الذي كان متلهفًا للمغادرة في رحلة إلى أوزبكستان في اليوم التالي، قائلًا: «جواد، هل يتعلق الأمر بأنَّك لا تملك السلطة للتوصل إلى اتفاق؟ إذا كان الأمر كذلك، فرجاءً أخبرنا. أنت تضيِّع وقتنا» .

كان ظريف غاضبًا من استفزاز لافروف. نهض عن الأريكة مستاءً، وبدأ يتجه نحو الباب، معترضًا بقوة على تهكُّم لافروف. قفزت سريعًا قدر المستطاع وسرت على عكازي لاعتراضه. «أنا أعلم أنَّ سيرغي لم يكن يقصد إهانتك» ، قُلتُ لظريف، محاولًا تهدئته. لقد عملنا ساعات طويلة صعبة. كان التوتر حادًّا جدًّا. «نحن نعتقد أنْ ليس هناك أي أمر آخر يمكننا القيام به. تلك هي الصفقة. إنها لحظة الحقيقة. هل تقبلها أم ترفضها؟» .

بعد لحظات، اعترف بأنه كان على استعداد لقبول الاتفاق، لكنَّه يحتاج إلى شيء آخر، من جُملة أمورٍ طلبها، يجعلُ الاتفاق عادِلًا من وجهة نظره.

انتقلتُ بأسرع ما يمكنني إلى الغرفة المجاورة حيث كان روبرت مالي من مجلس الأمن القومي وجون فينر وويندي شيرمان، وآخرون ينتظرون التطورات.

قلتُ لهم: «لن نبتعد عن أي شيء في المضمون، ولكنْ دعونا نجد شيئًا يجعله يتخطى المرحلة الحرجة من دون أن يكلفنا الكثير. ذلك كل ما يعترض طريقنا. هل لديكم أفكار؟» . نظرتُ حولي ولم ألقَ إلّا وجوهًا مستهجنة.

بدأ كريس باكيماير، مرشدنا الرئيس في ما يتعلق بالعقوبات، الكلام بحذر. «هناك أمر واحد...» ، قال.

كانت وزارة الخزانة مستعدة لإزالة عدد إضافي من الأسماء من قائمة الإيرانيين الذين أُخضعوا للعقوبات. لقد أرجأنا استخدام هذه الورقة للحظة كهذه، ورقة احتفظت بها الولايات المتحدة في جيبها الخلفي. لقد حان الوقت لرميها.

«إنهم لاعبون صغار» ، نصح كريس. «قد لا يكون ذلك كافيًا» . لكنني كنت مقتنعًا بأن الأمر المهم هو المبادرة، واحترام الخيارات الصعبة التي اتخذها الإيرانيون. أمسكت بعكازي واتجهت إلى الباب.

عدتُ إلى الغرفة التي كان يجلس فيها سيرغي وجواد. قلتُ لجواد إننا كنا على استعداد لاتخاذ خطوة أخرى لإنهاء هذا الأمر. عرضت عليه مجموعة من الأسماء الإضافية التي كنا على استعداد لشطبها من قائمة العقوبات. سألت: «هل بإمكاننا عقد صفقة؟» .

توقّف هنيهة بدت أزلية: وأجاب «بل عقد اتفاق» .

حدث ذلك بعد منتصف الليل، ولم يكن لدينا الكثير من الوقت، أو الطاقة، للاحتفال. بعد بضع مصافحات، عدت إلى غرفتي، حيث اتصلت بالرئيس لنقل الخبر. شكرني وشكرته، وقلت له إنني أستعد للمبارزة التي تنتظرنا في الكابيتول هيل. لقد حصلنا على الصفقة التي أردناها؛ بات علينا الآن الاحتفاظ بها.

عندما مرَّ تشريع كوركر، ارتأى بعضنا أننا سنكون في وضع أفضل كلَّما قلَّ الوقت المتاح كي يراجع الصفقة. توصلتُ إلى اقتناع بأن العكس هو الصحيح. لقد أخذ معظم الأعضاء هذه العملية بجدية بالغة، وكنا فرحين لامتلاكنا ستين يومًا لإطلاعهم عليها بدقة، والإجابة عن أي أسئلة يطرحونها.

كانت جلسات الاستماع قاسية. قال لي كوركر إنني تعرضت للابتزاز. وقال آخرون إننا خُدعنا. ووصفوا الاتفاق بأنه مثير للسخرية. لكنني كنت واثقًا بمزايا هذه الصفقة أكثر من أي شيء قمتُ به على الإطلاق. بعيدًا عن الأضواء، ذهبتُ أنا وويندي وأُرني وجاك لو إلى كابيتول هيل للقاء أعضاء

مجلس الشيوخ سرًّا. حصلنا على دعم بعض الحلفاء الأساسيين، بمن فيهم أعضاء مجلس الشيوخ ديك ديربن وكريس مورفي وجان شاهين، الذين كانوا يُحصون الأصوات باستمرار ويشيرون إلى أعضاء مجلس الشيوخ الذين يحتاجون إلى الإقناع. لم نأخذ تصويتًا واحدًا كأمر مسلَّم به. وحاولنا تغيير رأي حتى أشد المعارضين. كانت تلك قضية تحتاج إلى كل الأيدي القادرة على المساعدة، استكملها إعداد «غرفة حرب» في البيت الأبيض. وكان جهدًا جماعيًّا يعتمد على أفضل ما في كل وكالة معنية، ومجتمع الاستخبارات، وفريق العمل في البيت الأبيض، بما يشمل سوزان رايس. كان كريس باكماير يعيش عمليًّا في الكابيتول هيل. وكان أعضاء مجلس الشيوخ المتردِّدون يقرأون النص بدقة، ويسعون إلى الحصول على إجابات عن كل الأسئلة التي كانت لديهم. سافرت السيناتورة باربرا ميكولسكي، التي كانت تعارض التصويت، إلى فيينا للاجتماع بالمسؤولين في الوكالة الدولية للطاقة الذرية، والتوصُّل إلى فهم أفضل لجوانب الشفافية والتحقق من الاتفاق مباشرة من الخبراء الدوليين. ببطء، أعلن عدد متزايد من أعضاء مجلس الشيوخ أنهم سيصوّتون لمصلحتنا. في الثاني من أيلول/سبتمبر، ولدى عودتها من فيينا، أصبحت باربرا ميكولسكي السيناتورة الرابعة والثلاثين التي تعلن دعمها للاتفاق، مما يمنحنا عددًا كافيًا من الأصوات للحفاظ على حق النقض. في النهاية، صوَّت اثنان وأربعون من أعضاء مجلس الشيوخ إلى جانبنا. سوف يمضي اتفاق إيران قدمًا.

كان من المقرر أن يبدأ تنفيذ خطة العمل المشتركة الشاملة في ما سُمِّي «يوم التنفيذ» على نحو مناسب إن لم يكن خلّاقًا. لم يكن هناك تاريخ محدد مرتبط به في النص؛ بدلًا من ذلك، سيكون التاريخ في الموعد الذي تؤكد فيه الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن إيران قد أكملت سلسلة من الخطوات لتقليص برنامجها النووي. وفي المقابل، سوف تعلِّق الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة عقوباتها النووية. وبالنظر إلى عدد الإجراءات التي ينبغي لإيران اتخاذها، كشحن كل اليورانيوم المخصَّب تقريبًا إلى خارج البلاد، وإزالة معظم أجهزة الطرد المركزي من مُنشأة فوردو، والسماح للمفتشين بالتأكد من أنها لم تعد تجري أنشطة نووية في موقع عسكري يُسمى بارشين، وإبطال مفاعل الماء الثقيل في آراك، توقَّعنا أن يستغرق الإيرانيون حوالى تسعة أشهر لإكمال دورهم، الأمر الذي سيجعل يوم التنفيذ في تاريخ ما من آذار/مارس 2016. لكن إيران عملت سريعًا، لأنّها، كما يعتقد البعض، ربما أملت في الوصول إلى تخفيف العقوبات قبل انتخابات البلاد في شباط/فبراير 2016. بحلول منتصف كانون الأول/ديسمبر، أبلغتنا الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن يوم التنفيذ يمكن أن يكون بعد أسابيع، وليس شهورًا.

لقد أجري تفاوضان غير مترابطين بين الولايات المتحدة وإيران، تقود كل منهما فرقٌ منفصلة تمامًا، لكن يحفّزهما الاختراق النووي. وقد وصلا إلى ذروتهما في الوقت نفسه تقريبًا.

يتعلق الأوَّل بجهودنا الطويلة الأمد لتوفير الإفراج عن أربعة مواطنين أميركيين إيرانيين مسجونين ظلمًا في إيران. وما عُقِد اجتماع لم نُمارس فيه ضغطًا، في مرحلة ما، من أجل إطلاق الأميركيين. ردًا على ذلك، كان الإيرانيون يثيرون نقاط حوار تتعلق بشدة التهم الموجّهة إليهم، ويثيرون بصورة مبهمة وجود عدد من الإيرانيين في السجون الأميركية يرغبون في إطلاق سراحهم كذلك. بحلول نهاية العام 2014، أدركنا احتمال وجود إمكان حقيقي للتبادل. ولن يكون مناسباً لنا، على ما نعتقد، التفاوض للإفراج عنهم في مسار المحادثات النووية، لأننا لم نُرِد أن يجعل الإيرانيون حياتهم ورقة مساومة للتوصُّل إلى اتفاق نووي أدنى مستوى. وبناءً على ذلك، عيَّنت كلتا الدولتين فرقًا منفصلة تمامًا لاستكشاف التبادل المحتمل. لقد اخترنا بريت ماكغورك، وهو دبلوماسي متمرِّس ساعد، أخيرًا، على تحقيق انتقال سياسي سلمي في العراق، لقيادة الوفد الأميركي. بدأ بريت، ومجموعة صغيرة من الزملاء، الاجتماع شهريًّا في جنيف مع نظرائهم الإيرانيين. عُقدت المحادثات سرًّا، بالنظر إلى الحساسية الواضحة التي تنطوي عليها. في الواقع، لم يكن لدى معظم المفاوضين النوويين، وحتى لدى كثر من كبار المسؤولين في إدارتنا، أي فكرة عن حدوثها.

استغرق الأمر بعض الوقت لتحقيق تقدم. في البداية، أعطانا الإيرانيون قائمة منافية للعقل بالسجناء الذين أرادوا الإفراج عنهم؛ كانت قائمة طويلة تضم عشرات الأسماء، وتضمّنت أشخاصًا متهمين بالإرهاب وجرائم عنف أُخرى. كان الرئيس أوباما واضحًا في أنه سينظر فقط بخصوص إطلاق من اتُّهموا بجرائم غير عنيفة. بعد الاتفاق النووي، اكتسبت المفاوضات بعض الزخم. وبحلول خريف العام 2015، توصل المفاوضون إلى قائمة تضم سبعة إيرانيين، وُجّهت إليهم جميعًا تهمة ارتكاب جرائم غير عنيفة، وكنا مستعدين للإفراج عنهم في مقابل حرية الأميركيين. في وقت من الأوقات، بدا وكأنَّ مواطنينا سيعودون إلى ديارهم بحلول عيد الشكر، ولكنْ ويا للأسف، حدَّت بعض المطبّات من سرعة العملية، وتأخّر التبادل حتى منتصف كانون الثاني/ يناير.

في العقد السابع من القرن العشرين، أي قبل الثورة الإيرانية، باعت الولايات المتحدة الحكم الإيراني الحليف آنذاك معدات عسكرية بقيمة مئات الملايين من الدولارات. تأخّرت حكومة الشاه كثيرًا في تسديد المدفوعات

المطلوبة. وتوصَّل الطرفان إلى اتفاق، مطلع العام 1979 لإعادة جدولة المبيعات. عندما استولى آية الله الخميني على السلطة، واحتجز موظّفي سفارتنا رهائن، كان جليًّا أنَّ الولايات المتحدة لن تقدِّم تلك الأسلحة إلى إيران. تمثّلت المشكلة الوحيدة في أن إيران كانت قد سدّدت ثمن الكثير منها. كانت تلك الأموال محفوظة في حساب في وزارة الخزانة الأميركية. ولطالما طالبت إيران بإعادة الأموال، مع فائدة. تقدّمت طهران بمطالبات أمام محكمة دولية في لاهاي بمبلغ 10 مليارات دولار، إضافة إلى فائدة، وبما يشمل إعادة تلك الأموال. كان لديها قضية قانونية صلبة لهذا الجزء من مطالبتها، وكان من المقرر أن تبدأ جلسات الاستماع. تستطيع المحكمة أن تلزم الولايات المتحدة بتسديد فاتورة ضخمة. ووافقت الإدارة في النهاية على تسوية المطالبة بهذه الأموال، على غرار ما قامت به الإدارات السابقة من تسوية مطالبات أخرى مع إيران، وكانت التسوية بتسديد أقل من خمس ما كانوا الإيرانيون يحاولون المطالبة به، أي 7 , 1 مليار دولار. استُمد هذا الرقم من مبلغ الأموال في الحساب الإيراني في الخزينة، إضافة إلى مبلغ يُحتسب جزئيًّا للفائدة.

وفي حين يُعدُّ مبلغ 7 , 1 مليار دولار كمية كبيرة من المال، يبقى أفضل كثيراً من 10 مليارات دولار. ولكن قبل أن تسدِّد الولايات المتحدة المال، كانت هناك بضعة أمور أخرى يجب أخذها في الاعتبار. أوَّلاً وقبل كل شيء، أراد الرئيس أوباما التأكد من أن قرار المضي قدمًا في الدفع كان صفقة جيدة للبلاد من حيث الاستحقاقات، وليست تنازلًا. وطلب إلى جميع أعضاء مجلس الوزراء المعنيين أن يفكروا بعناية إن كانوا يعتقدون أن هذه التسوية منطقية في قيمتها الظاهرية، وأن يرسلوا إليه توصية كتابية فردية. وهو لن يمضي في الاتفاق إلّا إذا كانت هناك موافقة بالإجماع على ذلك. اتفقنا جميعًا على أن التسوية كانت عادلة، وأن بإمكانها أن توفر على دافعي الضرائب مليارات الدولارات. قال لي المحامون المهنيون في وزارة الخارجية، الذين قادوا هذا التفاوض، إنها صفقة أفضل مما كانوا يتوقّعون.

بعد أن قرر الرئيس أننا سنمضي قدمًا، طُرِحت مسألة التوقيت. وفي حين أن التسوية لم تكن لها صلة بتبادل السجناء، لم يكن في وسع أي من حكومتينا تجاهل حقيقة التوصل إلى كلا الاتفاقين، وإلى أن تنفيذ أي منهما يمكن أن يتداخل مع الآخر، أو أن يكون لأي رد فعل سياسي في أي من البلدين تأثير في تنفيذهما. وعلى الرغم من الاختراقات الدبلوماسية، فإننا لا نزال نفتقد ثقة أحدنا بالآخر. كان تبادل الأسرى، كما كنا نعلم، أكثر أهمية لنا مما

كان لهم. لذلك كانت حماقة أن نسدِّد المدفوعات قبل إطلاق الأميركيين، إذا قرروا فقط التراجع عن المقايضة. لقد جرى انتخاب روحاني رئيسًا، لتحسين الاقتصاد المتعطّش إلى السيولة بفعل عقوباتنا. لذلك كان وضع اللمسات الأخيرة على تسوية لاهاي أولوية رئيسية. وإذ لم نناقش الأمر قط، انتاب الإيرانيين، على ما أظنّ، قلق من أن نتراجع عن كلمتنا، ونحاول تأخير دفع ما جرى الاتفاق عليه في حال إطلاق سراح الأميركيين قبل دفع مبالغ التسوية.

في النهاية، ولكل هذه الأسباب، ارتأى الطرفان أن من المنطقي إنهاء كل الأمور على الفور: سوف ننفذ الاتفاق النووي، وندفع مبالغ التسوية، ونتبادل الأسرى في آنٍ. كنا نعلم أن تنسيق كل هذه الأجزاء المثيرة للمشاعر سيكون صعبًا؛ وأن التنظير سيكون سيئًا؛ كنا نتيح لشعب ذي دوافع سياسية فرصة لمهاجمتنا. مع أخذ ذلك في الاعتبار، كنا نتمتّع بشفافية حيال حقيقة أن السداد قد جرى ولماذا. ورغم كل شيء، لا يزال الكثير من النقاد، حتى اليوم، يقولون إننا قدّمنا فدية سرية، وحاولنا أن نخفيها عن الشعب الأميركي. ذلك ببساطة غير صحيح، كما يعلم كثر ممن يشيّعون هذه الكذبة.

ومع انتهاء العام 2015 وحلول العام 2016، كانت الوكالة الدولية للطاقة الذرية تستعد للموافقة على أن إيران قد استوفت كل الالتزامات المطلوبة في خفض برنامجها النووي. لقد أزف «يوم التنفيذ» . وخطّطتُ للانضمام إلى ظريف وموغيريني في أوروبا لتوقيع الأوراق المناسبة في 16 كانون الثاني/ يناير.

لقد قضت كل فِرَقِنا ساعاتٍ طويلةً في إعداد تفاصيل ما سوف يصبح يوم عمل دبلوماسي مصممًا بدقة، يشمل المعاملات المعقَّدة والخطوات القانونية والسياسية في ست دول: متى تُقلع الطائرات، ومتى تُوقَّع الوثائق، ومَنْ سيكون حاضراً كي يقوم بعمل معيَّن... لكنْ بناء على القول المأثور الذي ذكّرنا به روبرت بيرنز، فإن أفضل الخطط لن تخلو من الخطأ، بغض النظر عن دقة التخطيط لها. ولم يكن ذلك استثناءً. وباستعادة أحداث ذلك اليوم، وبالنظر إلى التعقيد، كان لا مفرّ من الخطأ.

في اليوم الذي سبق يوم التنفيذ، استيقظنا على أنباء مفادها أن القضايا غير النووية التي كنا نأمل في حلها ذلك اليوم كانت تصطدم بعقبات. فالطائرة التي تحمل الشريحة الأولى من أموال التسوية التي نعتزم تسليمها إلى إيران ستتأخر ساعات. ولما كانت العقوبات التي طبّقناها كانت فعالة جدًّا، فإن المفارقة كانت في شبه استحالة نقل الأموال التي ندين بها إلكترونيًّا في مدة زمنية معقولة. لذلك اتفقنا على تسديد المدفوعات نقدًا بدلًا من ذلك،

الأمر الذي أصبح مصدرًا آخر لنظريات المؤامرة التي لا أساس لها. كل هذا يعني أن التبادل الكامل سيتأخّر ساعات.

وبرزت كذلك عقبات أخرى كثيرة في اللحظة الأخيرة.

فمن ناحية، كانت الرحلة العسكرية السويسرية التي يُفترض أن تنقل الأميركيين المحررين حديثًا من إيران إلى سويسرا تواجه مشكلة في الحصول على موافقة بعض الدول على الطيران في المجال الجوي الدولي. وقد رفضت ثلاث دول إعطاء الضوء الأخضر عند طلب الطيار، لأنَّ الرحلة انطلقت من طهران، وكانت قلقة من أن يؤدي السماح بذلك إلى انتهاك نظام العقوبات الدولي الذي فرضناه نحن. لقد أجرينا سلسلة من المكالمات الهاتفية العاجلة ووجّهنا الرسائل الإلكترونية إلى سفرائنا، طالبين منهم على الفور إبلاغ حكوماتهم المضيفة بالغرض الإنساني الحساس للرحلة من طهران، وحثّهم على الموافقة على مسار الرحلة من دون تأخير.

هبطنا في فيينا، وقت الغداء، وتوجّهتُ مباشرة إلى قصر كوبورغ. شعرت بشيء من الغرابة وأنا أسير في الفندق، حيث قضينا ليالي كثيرة حتى وقت متأخِّر ونحن جالسون إلى طاولة المفاوضات. كان شبه فارغ في غياب الطاقة الجلية التي كانت خلال محادثات منتصف الصيف. بدا المبنى الجميل ضخمًا وباردًا. عندما مررت قرب قاعة الطعام حيث التهمت الكثير من أطباق وينر شنيتزل قبل أشهر، لاحظت أنها كانت مظلمة وغير مستخدمة. ساد الممرات هدوء شديد، وشعرت للحظة بالقلق من أن يكون ذلك نذير شؤم.

أثناء مناقشاتنا لخطة العمل المشتركة الشاملة، علمنا بأمر زوبعة أُخرى تحدث في الولايات المتحدة: لم يَعُد أحد الإيرانيين الذين وافقنا على إطلاق سراحهم مهتمًّا بإتمام الصفقة. كان عليه حكم بملايين الدولارات يريد شطبه، ويريد عفوًا، وليس تخفيف الحكم، من الرئيس أوباما. لن يحدث ذلك، ولكنْ من دون تعاونه، قد يتعرّض التبادل بأكمله للخطر. وهكذا نجح الضغط الرئيسي الذي مارسته حكومته وحكومتنا وأفراد أسرته. وكانوا جميعاً يحاولون التحدث إليه وإقناعه بالتعقُّل. حاول الإيرانيون أيضًا أن يجعلونا نضمن أنَّ مواطنيهم الذين سيُفرج عنهم من السجون في الولايات المتحدة، سيعودون إلى إيران، وسط ما يفترض أن يكون استقبالًا حاشدًا ورسميًّا. لقد قلنا لا، لم يكن ذلك جزءًا من الصفقة. وكما تبيّن، لم يكن أي منهم يريد العودة.

بالعودة إلى فيينا، عندما تهيّأنا لوضع اللمسات الأخيرة على الأوراق المطلوبة لخطة العمل المشتركة الشاملة، تلقّت فيديريكا موغيريني كلمة مفادها أن لدى وزير الخارجية الفرنسية لوران فابيوس، أسئلة جديدة يريد

إجابة عنها قبل توقيعه على الخط المنقط نيابة عن الاتحاد الأوروبي. كان الأمر مفاجئًا، لأنه كان قد وقّع سابقًا على كل ما يعترض عليه الآن. غير أنه أثار بالمثل «مخاوف» في اللحظات الأخيرة كما فعل في جنيف ولوزان وفيينا. ولكنْ هذه المرة، كانت هناك بعض المخاطر في التأخير. كان جواد يتلقى باطِّراد صورًا للرئيس روحاني وأعضاء مجلسه بأكمله في انتظار إعلان التنفيذ والنظرات الصارمة تشع من عيونهم. وقد بدأوا يشككون في أننا كنا نؤخر عمدًا تنفيذ خطة العمل المشتركة الشاملة لسبب ما. كانت الأعصاب تنهار، على أقل تقدير.

عملت فيديريكا جديًّا لمحاولة إقناع لوران، الذي كان في باريس، بمزايا ما جرى اقتراحه (ووافق عليه منذ مدة طويلة). قضت أكثر من ساعة على الهاتف معه. وبحلول التاسعة والنصف مساءً، ظنت أنها حقّقت تقدمًا، لكنه لم يوافق تمامًا. أدركتُ أن الساعة تدور والوقت ينفد، وأن الأمور قد تتعطّل سريعًا، لذلك، في محاولة لتعجيل العملية، أحضرت جواداً وفديريكا إلى جناحي. اتصلنا بلوران معًا. بعد أن مررت هاتفي مداورة علينا نحن الثلاثة، مرات عدة، وضعته في النهاية على مكبر الصوت وسط طاولة القهوة. استمعنا إليه قبل أن نقترح بعناية أننا نستطيع، بدلًا من تغيير الصفقة، وهو أمر مستحيل، استخدام عبارات جديدة في البيان المشترك بين الاتحاد الأوروبي وإيران الذي سيصدر خلال المؤتمر الصحافي. شرحنا كيف اعتقدنا أن التصحيح الذي قمنا به سيبدِّد مخاوفه، ثم توقفنا مؤقتًا لتقدير مدى ارتياحه إلى الخطة. قال جواد أخيرًا: «هل سنوقّع صفقة يا لوران؟» . بعد ثوانٍ، قال صوت فابيوس البعيد: «نعم» .

بعد دقائق من مغادرة جواد وفديريكا جناحي في كوبورغ متوجِّهين إلى مركز الصحافة، جلست لتوقيع الوثائق التي ترفع العقوبات الأميركية المتعلقة بالتسلح النووي عن إيران. وبينما كنت أوقّع، رن جرس هاتف جون فينر. كان بريت، يتصل من جنيف. ثمة مشكلة تواجهنا: فقد أُبلغ مراسل صحيفة الواشنطن بوست جيسون رضائيان، وهو أحد الأميركيين الذين أفرجت عنهم إيران، أنَّ زوجته، وهي صحافية تدعى ياغنيه صالحي، لن تتمكّن من مرافقته إلى خارج البلاد. إذ صدرت بحقّها، على ما يبدو، تهماً قضائية بارزة. وقال الإيرانيون إنَّ ذلك جعل أمر إرسالها إلى الولايات المتحدة في الواقع أمراً مستحيلًا. لم أصدق ذلك. كان لدينا اتفاق صريح على السماح للزوجات بمرافقة السجناء المفرج عنهم. اتصلت بظريف بأسرع ما يمكنني، لكنه كان على المنصة في المؤتمر الصحافي. توجّهنا إلى المركز الصحافي. وما إن أصبح ظريف في الكواليس، حتى أمسكت به لشرح ما علمته من بريت. تجهَّم

وجهه. لقد فهم على الفور مدى خطورة الوضع. أكد لي أنه سيعالج المسألة فورًا، وشرع للتوِّ في حث زملائه في طهران على العمل.

قبل أن نغادر إلى واشنطن، اتّصلت بظريف مرة أخرى لأتأكد من أن زوجة جيسون قد سُمِح لها بالمغادرة. فأكد لي أنَّ القضية قد حُلَّت. فقد ذهب المسؤولون في النهاية إلى منزل القاضي، منتصف الليل، حتى يتمكّن من توقيع أمر بالسماح لياغنيه بالرحيل.

كانت رحلتنا قد أوشكت على الإقلاع قبل أن نتلقى مكالمة أخرى من بريت: كانت ياغنيه ووالدة جايسون، ماري، التي توجّهت من الولايات المتحدة إلى إيران في زيارة لكنَّتها، مفقودتين. لا يمكن لأحد اقتفاء أثرهما. لقد عادت الظروف تعاكسنا مجددًا. كنت على استعداد لضرب رأسي بحائط الطائرة الداخلي، مقتنعًا بأن أحدًا لا يستطيع كتابة سيناريو لمثل هذا اليوم إذا حاول. بدأت موجة أخرى من المكالمات الهاتفية والرسائل الإلكترونية المحمومة. وأخيرًا، اتّصل بريت بشقيق جايسون، علي، الذي أشار إلى أنه كان على اتصال بالمرأتين. كانتا متحصّنتين في شقة، خائفتين وغير متأكدتين ممّن يجب أن تثقا به، وهو رد فعل معقول بالنظر إلى كل ما عانتاه. أعطى علي بريت رقم هاتف يستطيع عبره التواصل معهما وكلمة السرّ «أرز المانجو اللزج» للإشارة إلى أنَّهما تستطيعان الوثوق به. عندما تحدث بريت مع ياغنيه، طلب عنوانها وقال لها إنَّ جوليو هاس، السفير السويسري في إيران، الذي كان شريكًا ميدانيًّا أساسيًّا في طهران، سيرافقها إلى الطائرة. وصل هاس بعد دقائق واصطحب السيدتين إلى المدرج. وبعد وقت قصير، أقلّتهما طائرة عسكرية سويسرية متجهة إلى زوريخ، ثم عادتا إلى الولايات المتحدة. وأخيرًا، كان جايسون، الذي أُطلق من السجن، حرًّا حقًّا: كان في أحضان حب حياته مرة أخرى.

بعد أكثر من عامين من الجهد المكثف والمعقد، وُقّع الاتفاق أخيرًا. ما الذي حقّقناه؟ لقد تجنّبنا الحرب بالتأكيد، إلى أن تُقرر إيران محاولة فسخ الاتفاق، أو إلّا إذا قرَّرت ذلك. لقد شهدنا فعلًا أنَّ إيران تتّخذ خطوات كبيرة لتجميد برنامجها وتفكيكه. لكنَّ الأهم من كل ذلك، أنَّها تعهدت لستّ دول أخرى ولمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بأن تتقيد دائمًا بمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية؛ وبأن تلتزم، طوال مدة الاتفاق، البروتوكول الإضافي للمعاهدة الذي يفرض تفتيش أي منشأة يُشتبه باستخدامها لأغراض نووية غير مشروعة: فمخزونها من اليورانيوم المخصَّب سيُحدَّد لمدة 15 عامًا بـ300 كيلوغرام، وهي كمية قليلة جدًّا من الناحية المادية لصنع قنبلة؛

وسوف يجري تفكيك عشرات الآلاف من أجهزة الطرد المركزي، وليقتصر عددها على 5000، وستُراقَب كل أجهزة الطرد المركزي على مدار 24 ساعة في اليوم، 7 أيام في الأسبوع، 365 يومًا في السنة، طوال 20 عامًا؛ أما مستوى تخصيب اليورانيوم في إيران فسيقتصر على 61 , 3%، وهو مستوى متدنٍّ جدًّا لتشغيل قنبلة نووية؛ وأما مفاعل البلوتونيوم الوحيد في البلد فسيدمر؛ وسيخضع تعدين اليورانيوم في إيران للتعقُّب من البداية إلى الختام طوال 25 سنة؛ وستقبل إيران 130 مفتشًا إضافيًّا يعيشون ويعملون كل يوم فيها، لضمان الامتثال إلى كل بند من بنود الاتفاق. وبعد انقضاء عشر سنوات على الأقل، سيتطلب الأمر من إيران سنة أو أكثر لفسخ اتفاقنا والتحرك نحو امتلاك قنبلة.

إليكم النقطة الأساسية: سيكون من المستحيل على إيران أن تبني قنبلة خلال عشرة أعوام ونصف العام على الأقل، «على الأقل» . وإذا بدأت بعد ذلك بالمحاولة، فسنعرف على الفور، وسيكون لدينا ما يكفي من الوقت لاستخدام كل خيار آنذاك كان متاحًا لنا قبل دخول الاتفاق حيز التنفيذ، وربما أكثر. فقد كنّا دائمًا محتفظين بقدرتنا على قصف إيران إذا لم تلتزم.

وبالنظر إلى الوضع الذي واجهناه عندما جلست، أول مرة، مع جواد ظريف بعد ظهر ذلك اليوم في نيويورك، حين أتقنت إيران دورة الوقود النووي، وكانت على بعد شهر أو اثنين من اقتناء السلاح، فإن القيود التي وضعناها وفَّرت لنا وقتًا مهمًّا، وأتاحت أفضل فرصة للسلام، فضلًا عن أننا حافظنا حتى على الأمن، وعلى كل خياراتنا العسكرية. بالنسبة إليّ، كانت صفقة رائعة، جعلت الولايات المتحدة وإسرائيل والمنطقة والعالم أكثر أمنًا.

الفصل التاسع عشر: الجرح المفتوح

لم يكن ذلك الصبي الهزيل بقميصه الكستنائيّ أكبر سناً من حفيدي. كانت ذراعه الملتوية بصورة قبيحة تترجَّح رغماً عنه، إلى الأمام تارة، وإلى الوراء تارة أخرى. تكاد تسمع أنينه وهو يمشي مشتّت الذهن، زائغ البصر، وقد ضاقت عيناه حتى كادت حدقتاهما تختفيان. اكتظَّ المستشفى بجثث الأمهات والآباء والأجداد والفتية والفتيات المستلقين وأيديهم على صدورهم. الآباء يبكون بكاءً مفجعاً وهم ينظرون إلى جثث أطفالهم الذين فارقوا الحياة وهم في أسرَّتهم نائمون، فيما رسمت التشنجات على أجساد أبرياء آخرين ملامح قاسية غريبة. لا شيء هنا غير الألم واليأس والموت. فأربعة آلاف وأربعمائة شخص، ثلثهم من الأطفال، قتلوا بلا تمييز.

عندما تنظر إلى ذلك المشهد، تحسب للوهلة الأولى، أن معركةً أو كارثةً طبيعيةً قد وقعت ههُنا، وتلك هي آثارها. غير أن أمراً واحداً يحيِّرك للحظة، وهو أنك لا ترى في المكان قطرة دمٍ واحدة، ولا يظهر على تلك الجثث المتناثرة أي خدوش أو كدمات أو جروح تدل على حدوث عنف جسدي، رغم قساوة المشهد وشراسته، لتدرك بعد حين أنَّ الغازات السامة هي التي أزهقت أرواح هؤلاء الأبرياء من غير شفقة ولا رحمة.

وقد أفاد الأطباء المحليون أن جميع الأعراض التي ظهرت على أجساد الضحايا تشير إلى تعرضهم لأحد غازات الأعصاب؛ وكان من بين هذه الأعراض: الاختناق، وضيق التنفس، والتشنجات العضلية اللا إرادية، والغثيان، والرعشة، والدوخة، وعدم وضوح الرؤية، واحمرار العينين وضيق بؤبؤهما، وخروج الزبد من الفم، والسوائل من الأنف والعينين. وقد يؤدي كُلٌّ من هذه الأعراض إلى موتٍ رهيب.

لم يخطىء أحدٌ في فهم ما حدث؛ إذ أطلق نظام بشار الأسد من المناطق الخاضعة لسيطرته في وقت مبكر من ذلك اليوم، وبالتحديد في حوالي الساعة الثانية صباحاً بتوقيت سورية، عدة صواريخ مزوّدة بأسلحة

كيميائية انبعثت منها أبخرة مميتة انتشرت في عدة ضواحٍ من ضواحي دمشق؛ ومنها تلك المنطقة التي تسيطر عليها المعارضة.

وقد شعرت، وأنا على بعد آلاف الأميال أجلس في مكتبي الخاص المبطّن بالألواح الخشبية، والواقع في الطابق السابع من مبنى هاري إس ترومان، بالغثيان والحنق. توقفت عن مشاهدة مقاطع الفيديو وتصفّح الصور والخرائط السرية الموجودة على الآيباد. ونظرت من النافذة، فشعرت أن المدينة فارغة بصورة مرعبة؛ ذلك أن واشنطن تبدو في العادة موحشة في شهر آب/أغسطس. كانت الساعة السابعة صباحاً، وقد أنارت الشمس عند شروقها نصب لنكولن التذكاري، وأحاطته بأشعتها البرتقالية الدافئة. وما كدت أصدّق أن هذه الشمس التي بزغت بسلام فوق واشنطن، هي نفسها تلك التي ارتفعت بالفعل في ذلك الصباح فوق الغوطة السورية، ملقية بأشعتها الصباحية الهادئة على ذلك الرعب المدقع. تخيل كيف وضع الآباء أطفالهم في السرير في الليلة السابقة، ولم تستيقظ عائلات بأسرها مرة أخرى.

انتهك الأسد القانون الدولي بصورة صارخة منتهكاً بذلك قوانين الإنسانية. وقد أثبتت المكالمات الملتقطة حدوث تنسيق حكومي رفيع المستوى في سورية بشأن هذا الهجوم. لذلك لم تكن تلك الجريمة جريمة حرب ارتكبتها وحدة عسكرية مارقة فحسب، بل كانت سياسة من سياسات النظام الرسمية، نُفّذت من دون رحمة.

لم يكفَّ نظام الأسد عن سحق شعبه منذ بدء الانتفاضات في العام 2011 بطرق تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. وعندما تقلدت مقاليد وزارة الخارجية، كان قد قُتل بالفعل أكثر من مائة ألف سوري. فالأسد يمتلك أكبر ترسانة غير معلن عنها في العالم من الأسلحة الكيميائية، والتي حذّر الرئيس أوباما، قبل عام واحد تقريباً، الأسد علانيةً من استخدامها. وكان الهدف من هذا التحذير منع وقوع هذا النوع من الأعمال الوحشية. وكان الرئيس آنذاك قد هدّد بحدوث «عواقب وخيمة» إذا تجاوز نظام الأسد هذا الخط. والآن، وفي هذا اليوم الحار من أيام آب/أغسطس، تجاوز الأسد، الذي كان يدافع بضراوة في ميدان المعركة، الخط الأحمر للتحذيرات الأميركية والقانون الدولي والسلوك المتحضِّر، بصورة علنية وبترفّع.

وتساءلت وقتئذٍ عن مدى اليأس وسوء التقدير والضعف والدهاء الذي قاده إلى هذه النقطة. وكنت قد قضيت مع الأسد عام 2009 وقتاً أكثر مما قضيته مع أي من الأميركيين أنفسهم بخلاف السفير الأميركي. وكان الأسد يبدو دائماً وكأنه متورط في موقف يصعب عليه التعامل معه. لذلك تساءلت إن كانت عائلته هي من قادته إلى هذا العمل الهمجي، أم إنَّ ذلك كان مبادرة

منه لاستعادة السيطرة على ساحة المعركة، وتكرار اللجوء إلى الخطط الوحشية التي نفّذها والده في مذبحة حماة عندما قضى على عشرين ألف مواطن سوري.

ولكن معرفة السبب الآن لم تعد تهمّ كثيراً أمام اختياره المتعمّد للسلاح. فالأسد، الذي بدا في يوم من الأيام وكأنه استبداديًّا عن غير قصد، ارتكب الآن هذه الجريمة الشنعاء، ولم يكن ذلك عن غير قصد. إن الأسد، في واقع الأمر، مجرم لا سبيل إلى إصلاحه يدمِّر بلده بصورة بشعة. الآن، بتنا ندرك أن الأسد بمقدوره استخدام ترسانته من الأسلحة الكيميائية بصورة عشوائية.

كان هذا السيناريو بالتحديد هو ما يثير قلقنا في الحكومة الأميركية بعدما أكد الخبراء الأميركيون، قبل بضعة أشهر، نيَّةَ النظام استخدام غاز السارين على نطاق ضيق في بعض المناطق المنعزلة، ما دفعني إلى التعجيل برحلتي الأولى إلى موسكو كوني وزيراً للخارجية، في أيار/مايو 2013؛ ذلك أن الرئيس أوباما أراد منّي أن أوضح للرئيس بوتين أننا على دراية قاطعة بما يفعله الأسد. وقد كان من مصلحة بوتين آنذاك كبح جماح وكيله. ولم نحدد حينها ما يمكن أن يحدث إنْ لم يفعل ذلك. كان لقائي مع بوتين مفيداً. أعرب فيه عن أسفه من رد أميركا على الصحوة العربية، ولاسيما «التخلّي» في مصر وليبيا عن السلطويين «الذين يمكن التعويل عليهم» ، مشيراً إلى أن تنامي موجة التطرف في ليبيا، في فترة ما بعد القذافي، يعد دليلاً على ما يحدث عندما يسقط الحكام الأقوياء من دون إعداد بديل.

آنذاك، أوضحت للرئيس بوتين أن ثمة فرصة أمام العالم الآن للتكاتف من أجل دفع الانتقال المنظَّم للسلطة في سورية، لاسيما وأن أعمال الأسد الخطيرة الناجمة عن يأسه باتت تشير إلى ضرورة حدوث ذلك. غير أن بوتين كان مُتَلَوّناً؛ إذ قال إنه يخشى من انهيار الدولة السورية وسوء تصرف الأسد؛ لكنه أضاف أن هذا ليس وقت إجراء «هندسة اجتماعية» في البلدان ذات السيادة. وأوضح بوتين أنه إذا انهارت مؤسسات الدولة وأصبحت الترسانة التي تضمّ أسوأ أنواع الأسلحة في العالم غير آمنة، يمكن وقتئذٍ أن نعمل معاً على إزاحة نظام الأسد بصورة آمنة.

وقد حذرتُ الروس من أننا سوف نتخذ إجراءات رداً على أي جريمة يستخدم فيها النظام الأسلحة الكيميائية، حتى وإن حدثت في أماكن منعزلة. وبعد فترة ليست بالطويلة، أعلن البيت الأبيض أنه سوف يزيد من نطاق دعمه لمعارضة الأسد وحجم هذا الدعم.

وصلنا إلى أواخر آب/أغسطس. وكان الأسد قد أظهر للعالم بوضوحٍ ودونٍ جزع أن بمقدوره تجاوز كل الحدود من أجل الحفاظ على نظامه. وكان لزاماً علينا أن نرد سريعاً من أجل تعزيز قاعدة الخط الأحمر. لقد أردنا أن نحمّله مسؤولية كمدانٍ بجريمة أمام العالم بأسره، وأن نرسل، في الوقت نفسه، رسالة إلى موسكو وطهران مفادها أننا كنا نعني تماماً ما نقول. وعلى الفور، بدأت الاتصالات الهاتفية والاجتماعات؛ ذلك أن فريق الأمن القومي كان يحاول التوصُّل إلى أكثر الردود فاعلية.

كنت أعتقد أن الرئيس أوباما سوف يقول إنه مضطر إلى توجيه ضربات عسكرية إلى القوات التابعة للنظام. وفي المقابل، أساء الأسد التقدير، أَيّمَا إساءة؛ لأنه بفعلته هذه قد استدعى انقلاب العالم بأسره عليه. وكنت أرى أن الضربات العسكرية يمكن أن تحقق عدداً من الأهداف، منها توجيه رسالة صريحة بأن الولايات المتحدة الأميركية تلتزم الخط الأحمر، وسوف تعمل دائماً على عدم تخطّيه بحلفائها أو من دونهم. وسوف تركّز في أن المعايير الدولية المتعلقة باستخدام أسلحة الدمار الشامل محصّنة، وأنها سوف تدافع عنها؛ وهي رسالة مهمة يجب أن يدركها بصورة واضحة عدد من الأنظمة بينها إيران. وبالإضافة إلى ذلك، كنت أعتقد أن هذه الضربات العسكرية قد تمكّننا أخيراً من دفع الأسد إلى تغيير حساباته؛ إذ سوف توضح له مقدار خطئه في تقدير مدى تسامح العالم تجاه أفعاله الشنيعة. وكنت أرى أيضاً آنذاك أن هذه الضربات من شأنها أن تؤدي إلى حدوث انفتاح دبلوماسي وتدفع البلدان إلى التكاتف حول هدف نهائي يمكن أن يقودنا إلى سورية ما بعد الأسد، مع الحفاظ على مؤسسات الدولة. وعلاوة على ذلك، كانت هذه الضربات ستجعل حُماة الأسد في إيران وروسيا يدركون أن ثمة حدوداً لحرية الأسد في التصرف وقدرته على اكتساب مزية على الصعيد الميداني. كنت أعرف أن تصرُّف الأسد كان نابعاً من ضعف وليس من قوة. ولم يكن هناك حل عسكري حاسم للحرب في سورية، لكن المعارضة كانت تقوم بما يكفي لإثارة قلقه.

وكنت أرى كذلك أن هذه الضربات قد تؤدي، إذا تغيّرت حسابات روسيا، إلى بدء التفاوض على رحيل الأسد وتشكيل حكومة انتقالية (تتكوّن من عناصر النظام الأكثر قبولاً إلى جانب ممثلي المعارضة العلمانية)، أو إجراء انتخابات يختار فيها الشعب السوري زعيمه المستقبلي. والأهم من ذلك كله، أن الأسد قد يرى بعد هذه الضربات أنه لن يستطيع الخروج من هذه الحرب الأهلية. وكان الرد العسكري المستهدف والدقيق يناسب تماماً هذه الجريمة المروّعة التي ارتكبها الأسد، غير أنني كنت أرى أن قيمته الكبرى تتمثل في تيسير بدء المفاوضات الدبلوماسية.

نقلت كل هذه الأفكار إلى زملائي في المحادثات التي جرت بعد ظهيرة ذلك اليوم وفي اليوم التالي، خلال الاجتماع الذي استغرق ثلاث ساعات ونصف الساعة، في غرفة دراسة الموقف بالبيت الأبيض، والذي ترأّسته سوزان رايس التي شغلت مؤخراً منصب مستشار الرئيس للأمن القومي. كان هناك اتفاق عام حول الطاولة على أن الرد العسكري يعد مناسباً. وقد كان ذلك الاتفاق مثار تشجيع لي؛ ذلك أن القيادة العسكرية كانت، قبل هذه الواقعة، مترددة بشأن مشاركة أكثر فاعلية في سورية. والآن، يبدو أن ثمة إجماعاً على ضرورة الرد بقوة رغم عدم التيقن من الخطوة التالية. ولم يكن متبقياً سوى تحديد هدف الرد وتوقيته.

وقد أعرب كلٌّ من الجنرال مارتن ديمبسي، رئيس هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة، وتشاك هاغل، وزير الدفاع، عن دعمهما للقيام بتدخل عسكري محدود. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يدعمان فيها ذلك منذ أن تقلّدت منصب وزير الخارجية في شباط/فبراير. وعلى الجانب الآخر، أعرب دينيس ماكدونو، رئيس طاقم موظفي البيت الأبيض، عن تخوّفه وقلقه من ألا يكون من مصلحتنا الاستراتيجية أن نُستدرج إلى سورية؛ ذلك أنه عانى الأمرَّين، هو وقدماء المحاربين في الفريق خلال الفترة الأولى، بسبب رؤيتهم انزلاق ليبيا إلى حالة الفوضى التي شهدتها، بعد أن أدى فرض الحظر الجوي إلى القضاء على الميزة العسكرية للديكتاتور، الأمر الذي أفضى إلى مقتله على يد شعبه، وأغرق البلاد في موجة من الفوضى القَبَلية. لكن ثمة آخرين كانوا قلقين من أن نتسبب بذلك في هجرة المزيد من اللاجئين إلى البلدان المجاورة التي تعاني بالفعل من استيعاب التدفق المستمر للعائلات النازحة. وإحقاقاً للحق، لم يذكر أيّ من الجانبين حجة غير منطقية. كانت المسألة تتعلق بموازنة الخيارات الصعبة التي تفضي جميعها إلى نتائج غير مؤكدة. وكان هذا بالضبط هو سبب اجتماع مجلس الأمن القومي، أي تقديم وجهات نظر مختلفة توضح الرؤية أمام الرئيس صاحب القرار النهائي.

ما لم يكن بمقدوري توقُّعه بسهولة هو القرار الذي سوف يتخذه الرئيس؛ ذلك أنني، في العام السابق، لم أكن قد التحقت بعد بفريق الإدارة. وكان الرئيس قد أعلن عام 2012 عن وجود خط أحمر في سورية لن يسمح بتجاوزه. غير أنني لمست في الأشهر الأولى التي أمضيتها في العمل حذر الرئيس ومنهجيته؛ إذ كان يستند في أحكامه إلى المعلومات الراهنة. ولطالما كان يطلب تحليلات شاملة للعواقب المحتملة غير المقصودة. وقد أُعجبت بطريقته في التفكير. ذلك أن أميركا، على مر السنين، فقدت من أفراد القوات المسلحة نتيجة اتخاذ الرؤساء قراراتٍ إيديولوجية متهورة، عدداً أكبر كثيراً مما فقدته نتيجة اتخاذهم قراراتٍ مدروسة بعناية تستند إلى الحقائق.

وقد عايشت، خلال الأشهر الستة الأولى لي في العمل، بعض اللحظات التي تعلمت منها الكثير. ففي وقت سابق من ذلك الربيع، وبينما كنا نجلس حول الطاولة نفسها، ونناقش كيفية دعم المعارضة السورية، نكزت دون قصد أحد أعشاش الدبابير الصغيرة؛ إذ قلت إننا، منذ إعلان الإدارة سنة 2012 «ضرورة رحيل الأسد» وتكرارها ذلك عدة مرات، قد خاطرنا بالظهور بمظهر الضعف إن لم نزد من دعمنا للمعارضة. فتأكيدنا ضرورة رحيل الأسد، وعدم تقديم المساعدة المطلوبة لمن يحاولون تحقيق ذلك، قد يبدوان ضرباً من ضروب العجز. ولم أقصد بتعليقي هذا إهانة أحد؛ ذلك أنه كان الأساس البديهي لأي قرار نوصي به.

ويبدو أنني أصبت بهذا التعليق وتراً حساساً لدى دينيس ماكدونو؛ إذ قال بعصبية شديدة: «إذا كنت تقول إن الرئيس يبدو ضعيفاً، فإنني أعتبر هذا شيئاً مسيئاً» . لم يكن هذا ما قلته. وفي اعتقادي، إذا قال شخص إنه سيُقدم على فعل شيء ما، فعليه أن يُقدِم عليه. ثمة فرق كبير بين ما قلت وذلك. حاولت أن أخفّف من حدة التوتر مع دينيس. وقد أوضح لي نائبي بيل بيرنز أن الكثيرين داخل أروقة البيت الأبيض يرون أن خوف الإدارات السابقة من الظهور بمظهر «الضعف» كان مبرراً في بعض الأحيان لقرارات سيئة لم تكن في مصلحة أميركا، خصوصاً في الشرق الأوسط، وأن لذلك تاريخاً طويلاً.

وقد شهدت فترة كبيرة من ذلك التاريخ. فقد زجّ بنا الرؤساء في قلب فييتنام مخافة أن يبدو تصحيح المسار ضعيفاً في الداخل والخارج. لكننا لم نكن، من وجهة نظري، نتناقش حول اشتباك عسكري عميق، ولم نكن على شفا أزمة، ولم يقترح أي شخص شيئاً يضعنا على منحدر زلق. كنا نناقش فقط طرائق تعزيز السياسة التي وضعها الرئيس قبل عام. وكنا نُفعِّل، بالإضافة إلى ذلك، معياراً من معايير السلوك المقبولة عالمياً في التعامل مع النزاعات. وتساءلت وقتها: ألا يزال هناك شعور بغصة في الحلق بسبب رؤية تحوُّل الربيع العربي إلى شتاء استبدادي، أم أن قتل دبلوماسيينا في بنغازي العام السابق قد أثر سلباً في الكيفية التي ينظر بها البيت الأبيض الآن إلى تعميق مشاركتنا في مكان آخر؟ وقد سبق دخولي إلى غرفة دراسة الموقف، على ما يبدو، استعراض عدد من السوابق التاريخية.

ومع ذلك، عندما اجتمعنا في آب/أغسطس عقب الهجمات الكيميائية الوحشية؛ اعتقدت أن لا مفر من اتخاذ إجراء عسكري، ويُفضّل أن يُنفّذ سريعاً لأسباب عديدة، من بينها مباغتة الأسد حتى لا يضع المدنيين الأبرياء في الأماكن الرئيسية التي يمكن استهدافها، وبالتالي يثنينا عن ضربها. لذلك أوضحت أن عنصري المفاجأة والسرعة عنصران في غاية الأهمية.

وسرعان ما تبين أن كلا العنصرين غير مُدرَجين على جدول الأعمال.

وقد حدّثنا مارتن ديمبسي عن العديد من الخيارات العسكرية، كان من بينها إطلاق صواريخ توماهوك من المدمّرات المنتشرة في البحر الأبيض المتوسط، علماً بأن البنتاغون كان قد جمع بالفعل قائمة بالأهداف المحتملة قبل أسابيع، تضمّنت منشآت عسكرية ومباني تملكها الحكومة.

اجتمعنا في اليوم التالي مع الرئيس. وركَّزت المحادثة في الكيفية التي سوف نوجه بها الضربات، وليس في التدخل العسكري من عدمه، وكانت الخيارات العسكرية بسيطة نسبياً. وقد ناقشنا مدى قوة موقفنا القانوني؛ ذلك أن روسيا قد تستخدم حق الفيتو ضد أي رد مؤثر في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. ورغم كل ما حدث، كانت روسيا لا تزال تدّعي أن الأسد لم ينفذ الهجوم؛ وذلك في تباهٍ مبتذل للعناد والاستعراض الدعائي. ويبدو أن الروس يتعاملون مع كل شيء على أنه لعبة. غير أن حق الفيتو قد منحهم ميزة قوية في الملعب.

تعثّرت مناقشاتنا الداخلية بشأن الذريعة القانونية للتدخل، علماً بأن هناك ثلاثة أضواء خضراء قانونية أساسية يمكن أن تتذرع بها أي دولة لاستخدام القوة: أولها أن تتصرّف من منطلق الدفاع عن النفس، وثانيها أن تتصرف بناء على دعوة من الحكومة الشرعية للبلد، وثالثها أن تتصرف بناء على قرارٍ من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. وهذه الذرائع الثلاث لا تقبل الجدل. وبالتالي ثمة إجراء يكون من منطلق «جوهر» القانون، بمعنى أن يكون من منطلق أمر يمكن، بحسب الظروف، أن يقبل الأخذ والرد ولكنه مقنع بشكل كافٍ ويمكن الاستفادة منه. في أواخر التسعينات، استخدم الرئيس كلينتون وحلفاؤنا في الناتو القوة العسكرية من أجل وقف التطهير العرقي الذي كان يقوم به سلوبودان ميلوسوفيتش في كوسوفو. وعرف كلينتون أنه لن يحظى بدعم مجلس الأمن؛ ذلك أن روسيا كانت تدعم ميلوسوفيتش. وبدلاً من ذلك، برّرت الإدارة الأميركية أعمالها آنذاك متذرعةً بـ «مشروعية» العمل الإنساني.

إن ما فعله الأسد بأولئك الأطفال الأبرياء النائمين كان، بلا شك، حالة إنسانية طارئة ذات عواقب أمنية كبيرة على المنطقة وسواها من المناطق. وكنت أرى أنها سوف تكون سابقة خطيرة وانتهاكاً صارخاً للقانون الدولي أن تتمكّن حكومة من قتل مواطنيها بالغازات وتفلت من العقاب، بسبب امتلاك بوتين حق الفيتو النهائي على ما هو قانوني وما هو غير قانوني. وقد كانت هناك منظمات أخرى متعددة الأطراف يمكن، كما حدث مع ليبيا، أن تدعم التدخل، منها جامعة الدول العربية، وربما حلف الناتو.

وطرح الرئيس أوباما مسألة إشراك الكونغرس. وبدوري أيّدت مسألة التشاور مع الكونغرس، ومعي بايدن نائب الرئيس وتشاك هاغل وزير الدفاع؛ ونحن ثلاثة أعضاء سابقين في مجلس الشيوخ. كنا نعرف أن كل شيء سوف يجري بسلاسة، لاسيما وأننا سوف ننال مبتغانا من الكونغرس. لكنني أكدت أن التدخل العسكري الدقيق والمفاجئ، بدلاً من القصف لأشهر، لا ينبغي أن يتطلب وقتاً لانتظار تصريح رسمي من الكونغرس، مع الأخذ في الحسبان أن الكونغرس سيكون، كما هو مقرَّر، في عطلة حتى التاسع من أيلول/سبتمبر. لذلك كان لا بد من التدخل السريع.

وفي الفترات التي تخلّلت مداولاتنا الداخلية واتصالاتنا المحلية، كنت أجري محادثات هاتفية مع رؤساء خارجية البلدان الأخرى. وقد أبدت بعض البلدان الأوروبية تردُّدها بشأن التدخل بسبب المسائل المتعلقة بالشرعية؛ إذ كانت هذه البلدان تخشى التدخل من دون موافقة الأمم المتحدة. ولكن الأردن دعم التدخل علماً بأن الهجوم كان على بعد أميال فقط من حدوده. أما السعودية، فحذّرت من أن صدقيتنا باتت على المحك.

كانت محادثة روسيا، كما كان متوقعاً، محادثة عجيبة؛ إذ اعترض فيها سيرغي لافروف على فكرة إدانة نظام الأسد، وأضاف قائلاً: لمَ نستبعد أن يكون المتمردون هم من قاموا بتجميع المواد الكيميائية بطريقة ما دون علمنا، واستخدامها في مواطنهم محاولين حشد التعاطف الدولي؟ فقلت له: إذا لم يكن لدى الأسد ما يخفيه، فمن الأولى أن يسمح لمفتشي الأمم المتحدة بفحص الموقع المعني على الفور والأدلة لا تزال جديدة. وبدلاً من ترحيب الأسد بالمفتشين، واصل قصفه للمناطق التي يسيطر عليها المتمردون والتي وقعت فيها الهجمات من أجل تدمير الأدلة عن بكرة أبيها، وإضعاف صدقية أي نتائج نهائية.

وفي الأيام التالية، انضم الروس إلى جبهة السوريين التي كانت تزرع الشكوك بين العامة. بل إن الأمر وصل بأحد أعضاء البرلمان الروسي أن أخبر الصحفيين بأن الولايات المتحدة الأميركية «مقتنعة» بأن الأسد قد استخدم أسلحة كيماوية كما كانت «مقتنعة» من قبل بوجود أسلحة دمار شامل في العراق. إنها القصة القديمة نفسها.

ورأيت، كما رأت سوزان رايس، أن الجهود الدعائية الروسية السخيفة تتطلب رداً؛ ذلك أن من غير الممكن بأي حال من الأحوال أن نقف مكتوفي الأيدي أمام هذه الاتهامات. لقد عملت وسوزان رايس معاً في حملتي الانتخابية عام 2004، وكانت سوزان من كبار قادتها. ورأينا أن من المتوجّب عدم السماح للأسد أو لروسيا بإعادة كتابة التاريخ من دون رادع. في صباح

يوم الاثنين الموافق السادس والعشرين من آب/أغسطس، ذهبت، بناءً على توجيهات الرئيس، إلى قاعة المؤتمرات الصحفية الواقعة في الطابق الثاني من وزارة الخارجية للرد على الروس. وأخبرت المراسلين أن الأدلة التي جمعناها بالفعل، بما في ذلك تلك المتاحة للجميع، كعدد الضحايا وأماكنهم، والأعراض التي عانى منها القتلى والجرحى، والروايات المباشرة التي صدرت عن المنظمات الإنسانية العاملة هناك بالفعل، تؤكّد بما لا يقبل الشك أن المسؤول عن ذلك هو الأسد، وأن النظام يعمل جاهداً للتغطية على ذلك. وهذا أمر لا جدال فيه.

لم يخبرنا الرئيس بأي قرار نهائي رسمي. غير أن المناقشات التي جرت داخل أروقة غرفة العمليات الموقف جعلتني على ثقة أننا على بعد بضعة أيام فقط، وليس أسابيع، من شن ضربات جوية.

لم يكن الكونغرس قد انعقد بعد؛ فعقدت أنا وسوزان رايس وجيم كلابر، مدير الاستخبارات الوطنية، مؤتمراً هاتفياً لإطلاع الأعضاء الديمقراطيين والجمهوريين على الأدلة، وأسباب اعتقاد الإدارة أن الأمر يستدعي الرد. وكنا مستعدين تماماً وعلى وشك الوصول إلى ما نريد؛ إذ بدا رؤساء وأعضاء لجان الأمن القومي ذات الصلة داعمين للتدخل. وقد استشعرت حينذاك أن رؤساء لجان مجلس الشيوخ يفضّلون، في الواقع، أن نكتفي بهذه المكالمة، وأن نتصرف بلا مشاورات إضافية في الكونغرس، بسبب ازدحام أجندتهم التشريعية للغاية هذا الخريف. غير أن العديد من الأعضاء طلبوا منا القدوم إليهم للحصول على تصريح بذلك.

الملاحظة الوحيدة التي سمعتها وأثارت قلقي كانت من النائب الجمهوري عن ولاية كنتاكي، ورئيس لجنة المخصصات في مجلس النواب، هال روجرز، الذي أبدى دعمه لشن هجمات ضد الأسد؛ غير أنه كان متحفِّظاً بشأن السياسة العالمية؛ إذ قال: «إذا كانت روسيا ليست معك، والأمم المتحدة ليست معك، أيكون مجدياً عندئذ أن يكون الكونغرس معك؟» . كانت هذه النصيحة بنّاءة وصادقة، غير أنها تفترض سيناريو خيالياً يتصوّر موافقة الكونغرس، الذي لم يكن في طور الانعقاد بعد. وكان روجرز أحد الأعضاء الأقوياء في مجلس النواب. غير أن زميله راند بول، السيناتور عن كنتاكي، والحديث العهد بمجلس الشيوخ، كان يميل إلى وصف الدعم الأميركي للمعارضة السورية بأنه في حقيقته «تسليح للقاعدة» . وواقع الحال هو أن سياستنا لم تصادف مثل هذا الموقف الحساس والوضع الملتبس منذ أمد بعيد. ومع ذلك، بقيت كلمات روجرز عالقة في ذهني.

كنت أتحدث إلى الكابيتول هيل تارة، وإلى حلفائنا تارة أخرى. كنا نعمل بالفعل جنباً إلى جنب مع تشاك هاغل ووزراء دفاع البلدان العربية المؤثرة، من أجل بناء تحالف كبير يمثل المنطقة بأسرها، وليس الغرب فحسب. وقد أخذنا في الحسبان أيضاً ألا يبدو الأمر وكأنه تحالف سني في مواجهة حكومة شيعية.

وقد أكد وزير الخارجية البريطاني وليام هيغ، الذي كانت مكالمته من بين مكالمات وزراء الخارجية الأكثر تكراراً على قائمة الاتصال السريع المُدرجة في هاتفي، التزام رئيس الوزراء ديفيد كاميرون العمل خطوة خطوة بالتزامن مع الولايات المتحدة. وكان كاميرون قد قطع إجازته وعاد إلى لندن. لكن حدث تطور مفاجىء؛ إذ أعلن كاميرون، من دون سابق إشعار لنا، أنه سوف يمضي قدماً في خطط لإجراء تصويت في البرلمان البريطاني للموافقة على القيام بعمل عسكري. كان كاميرون واثقاً بموافقة البرلمان لأن ذلك ما يحدث عادة في الأنظمة البرلمانية، غير أنه أساء التقدير هذه المرة. ففي 29 آب/أغسطس، صوّت البرلمان ضد قرار التدخل العسكري؛ إذ لا يزال تعاون رئيس الوزراء البريطاني توني بلير مع جورج دبليو بوش في حرب العراق يلقي بظلاله على الحياة السياسية في بريطانيا العظمى. وقد أقرّ كاميرون، بكل تأدب، أنه سوف يحترم قرار البرلمان.

في أعقاب ذلك، هاتفت على الفور وزير الخارجية الفرنسي لوران فابيوس الذي أكد أن الرئيس فرانسوا أولاند لا يزال عند التزامه، سواء تدخّلت المملكة المتحدة أم لم تتدخل. وربما كان دافع فرنسا من ذلك أن تستبق الريادة في حمل راية إثبات الوجود الأوروربية.

ورغم ذلك، كنت أخشى أن نفقد الزخم. فالوقت كان يمر. مرت ثمانية أيام على الهجمات وعلمنا أن الأسد ماضٍ في اتخاذ تدابير مضادة تعرّض حياة المدنيين للخطر.

وقد بعث التصويت الذي جرى في لندن بموجات هزَّت سياستنا في الداخل. وأعاد هذا التصويت إحياء ذكريات حرب العراق. وفي الوقت نفسه، كان الروس أيضاً ينصبون شراكهم مؤكدين علانية عدم اتّخاذ خطوات عسكرية قبل انتهاء تحقيق الأمم المتحدة. كان الروس يحاولون هدر الوقت على أمل تبديد الإحساس بالضرورة الملحّة للتدخل؛ ذلك أن التحقيق الذي كانت تجريه الأمم المتحدة سوف يحدد فقط إن استخدمت أسلحة كيميائية أم لا، ولا يُحدِّد الطرف الذي استخدمها. وبطبيعة الحال، في نهاية أي تحقيق، ثمة فيتو روسي ينتظره في مجلس الأمن.

ولم يكن في وسعنا الانتظار؛ إذ كان يجب مكافحة الجهود الرامية إلى تغيير الموضوع.

لذلك ألححت على إدارتنا كي تفصح عن تقرير رُفعت عنه السرية يتعلق بالهجوم الذي استُخدمت فيه الأسلحة الكيميائية؛ وذلك من أجل مساعدة البلاد أن تحكم بنفسها على ما حدث، ومن أجل فضح المغالطات التي يروِّج لها حلفاء الأسد في موسكو. وقد طُلب مني الإدلاء ببيان عام كان واقعياً ومؤثراً في الوقت نفسه.

ولما كنت قد عايشت النقاشات التي دارت بشأن العراق عام 2002، أردت أن أتأكد من أن قضيتي سوف تصمد أمام اختبار الحقيقة؛ ذلك أن خطاب وزير الخارجية كولن باول المخزي في الأمم المتحدة بشأن أسلحة الدمار الشامل الموجودة في العراق لا يزال يطارده حتى الآن. لذلك لم أكن لأتفوّه بكلمة واحدة لست على يقين من دقّتها. لكنني أردت أيضاً أن يعرف كل أميركي يشاهدني على التلفزيون من البيت الحقيقة المتمثلة في أن ما نقوله ليس مجرد شكوك أو تخمينات، لأننا نعرف حقيقة ما حدث في ضواحي دمشق.

عملت طوال الليل والنهار، ومعي مدير مكتبي ونائبي بيل بيرنز، في تداول التعديلات وصقل النص وتدقيقه، حتى ما قبل موعد خطابي بدقائق. وقد وافق البيت الأبيض على البيان. وكانت القضية التي أوشكت على طرحها قضية دقيقة من أول كلمة إلى آخر كلمة. أردت أن أعرض الوقائع كما تعوّدت أن أعرضها عندما كنت مدَّعياً. بدا الأمر أشبه بمرافعة ختامية في إحدى المحاكمات: ها هو ما نعرفه، وها هو سبب أهميته. شعرت عند طرح القضية بالنقاء الأخلاقي نفسه الذي شعرت به عندما أدليت بشهادتي أمام لجنة العلاقات الخارجية عام 1971.

دخلت قاعة المعاهدات، وبدأت البث التلفزيوني المباشر. وبعد استعراض جميع الأدلة، قلت: «لم يعد السؤال الأساسي الآن: ما الذي نعرفه؟ بل أصبح السؤال: ما الذي سيفعله العالم الحر حيال ذلك؟» . كنت أفكر في قائد آخر استخدم الغاز لقتل شعبه عندما قلت:

«حين تجمّعت نُذُر العواصف السابقة في سماء التاريخ، وعندما كان في وسعنا وقف الجرائم التي لا توصف، جرى تحذيرنا من إغراءات النظر إلى الاتجاه الآخر. فالتاريخ حافل بالزعماء والقادة الذين حذَّروا من التقاعس واللامبالاة، وخصوصاً الصمت، عندما كان الأمر لا يحتمل ذلك... وقد تمثّلت هذه الأهمية في العالم المتحضِّر، منذ مئة سنة تقريباً، وفي رد مباشر على

وحشية الحرب العالمية الأولى ورعبها المطلق، قد اتفق على أن الأسلحة الكيميائية يجب ألّا تُستخدم مرة أخرى أبداً. كان ذلك هو تصميم العالم حينذاك، وأدى إلى بذل الجهود على مدى ما يقرب من قرن من الزمن لتحديد خط أحمر واضح للمجتمع الدولي» .

لكن هذه القضية ليست ببساطة قضية تعاطف ومساندة نقدِّمها إلى 1459 روحاً أُزهقت في سورية قبل أيام، بل إن المبادئ القائمة منذ أمد طويل باتت على المحك. ولم أكن واقع الأمر أرغب في أن تتجاهل التغطية الإعلامية الآنية حقيقة أن هذا الخط ليس خطاً أحمر للرئيس أوباما وحده، بل هو خط أحمر للعالم بأسره، كان قد خطه قبل قرن من الزمان تقريباً.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة، وبينما كنت في المنزل أقرأ ملفاً بأحدث المستجدات، تلقّيت، حوالي الساعة التاسعة والنصف، اتصالاً هاتفياً من مركز العمليات التابع لوزارة الخارجية يخبرني أن الرئيس يود التحدث معي على خط آمن. وبينما كنت في طريقي إلى أعلى متجهاً إلى المنطقة المثبت فيها هاتفي الآمن، كنت أُجهِّز نفسي للمحادثة، ظناً مني أن صواريخ التوماهوك على وشك الانطلاق.

ولكن، بدلاً من ذلك، أخبرني الرئيس أنه فكر بصورة أكبر للتدخل، وتحدث بشأنه حديثاً مستفيضاً مع ماكدونوف أثناء تجوالهما في حدائق البيت الأبيض. وهو يعتقد اعتقاداً جازماً بأن الأمر يستدعي الرد، غير أنه يريد من الكونغرس أن يأذن له باستخدام القوة حتى يكون جزءاً من هذه العملية حتى نهايتها. ولكن كان من الواضح أن الرئيس قد غيَّر رأيه. وأخبرني أيضاً أنه يريد أن يجتمع بمجلس الأمن القومي في الصباح. وقد أكدت له أننا سنفعل كل ما بوسعنا للحصول على تفويض بالتدخل العسكري.

انتهيت من المكالمة، وعدت بذاكرتي إلى الأيام السابقة التي تشاورت فيها مع أعضاء الكونغرس عبر الهاتف. لم أعترض على القيام بأي تصويت؛ غير أن أحداً لم يلمح إلى أن هذا هو المسار الذي قد نسلكه. ظننت أيضاً أن الرئيس قد أدرك بالفعل ميزة التدخل العسكري السريع وكبح جماح المعارضة المتنامية. وحتى هذا اليوم، أقول إنني لم أكن أعرف طريقة تفكير الرئيس، لكن ما أعرفه أن الكثير منا قد أخطأ توقُّع قراراته.

ربما لم أكن على دراية بعد بالنهج الذي يتّبعه الرئيس، لأنني كنت حديث عهد بالمنصب الجديد. ولكن سوزان رايس كانت أيضاً حديثة عهد بمنصبها الجديد في البيت الأبيض مستشارةً للأمن القومي. علماً بأنها ظلت تدافع بقوة عن ضرورة التدخل. ربما لم أتقن بعد قراءة أفكار باراك أوباما، أو

ربما لم نكن ندرك مدى تردده في التوغل بصورة أكبر في سورية من دون موافقة الكونغرس. قد يرى أن التدخل من دون موافقة الكونغرس أولاً يمكن أن يثير له ضروباً شتى من المتاعب، بل قد يشعل الدعوات إلى عزله، خصوصاً في ظل تشكيك المعارضة في كل ما يتعلق به.

في الواقع، لم تكن هناك أهمية حقيقية لكل هذه الافتراضات. فالرئيس اقتنع بقصف مواقع النظام السوري، لكنَّه يريد أن يشاركه الكونغرس في هذا المسعى. ووظيفتي الآن أن أبذل كل ما بوسعي للمساعدة في ضمان تأييدهم له.

كان ثمة أساس منطقي، قانوني وعملي، في طلب موافقة الكونغرس؛ فرغم أن جميع التدخلات المماثلة في بنما وهايتي وكوسوفو والبوسنة وليبيا قد جرت دون إذن الكونغرس، فإنك تكون أقوى دائماً عندما تتحدث ومؤسسات الدولة في صفك. ولكن الآن، بعد أن رفض البرلمان البريطاني قرار ديفيد كاميرون، باتت مهمة تمرير القرار في الكابيتول هيل مهمة صعبة. وكان ديمبسي يرى أن فاعلية الضربات الجوية سوف تكون سيان، سواء جرت في غضون ثلاثة أيام من الجريمة التي ارتكبها الأسد أم في ثلاثة أسابيع. بالطبع، لم أوافقه الرأي في ذلك، غير أن وقتاً طويلاً كان قد مضى بالفعل، ولم يعد لأي عنصر من عناصر المفاجأة أي أهمية. وافترضت أننا سوف نحصل على موافقة الكونغرس.

أدركت متأخراً أن سوزان رايس كانت هي الوحيدة التي تنبّأت، من بيننا، بما قد يقدم الكونغرس على فعله؛ إذ قالت إن الحصول على تفويض رسمي يعد ضرباً من ضروب المستحيل. لن يمنح الجمهوريون أوباما أي تفويض للقيام بأي شيء. غير أن احترامي للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ والصلاحيات المخوَّلة للمجلس على وجه الخصوص جعلتني أفكر بغير ذلك. ظننت أن الكونغرس سوف يحمل الأسد المسؤولية، ولاسيما في ظل دعم إسرائيل للتدخل العسكري، بالإضافة إلى وحشية الهجمات التي نفّذها الأسد ومحدودية التدخل الذي كنا نناقشه. وحذّرت الرئيس من أن الكونغرس الجمهوري سوف يحاول دائماً أن يزيد من الضغط عليه من أجل السياسة فقط، وسوف يكون لذلك، إذا ما حدث، عواقب قد تؤثر به طوال فترة رئاسته؛ إذ يمكن أن يجعل الجمهوريون الرئيس يبدو وكأنه بطة عرجاء. ولكنني، في النهاية، خلصت إلى أن الكونغرس سوف يفعل بالضبط ما يردّده معظم أعضائه منذ عامين بشأن ما يريدون فعله في سورية. ووافقني في ذلك هاغل وبايدن. إلا أننا، نحن أباطرة مجلس الشيوخ، كنا على خطأ، والوحيدة التي كانت على صواب هي سوزان.

أما دينيس ماكدونو، فقد كان له تعبير يردِّده على الدوام، هو «ارتداء السترة الواقية» . وكان هذا التعبير ذا أهمية خاصة في مناقشتنا؛ ذلك أنه يتعلق بالمسؤولية المشتركة للمؤسستين الواقعتين على طرفي شارع بنسلفانيا. فالشيء المهم أن يرتدي الكابيتول هيل السترة معنا. والفرصة الآن باتت مؤاتية للكثيرين ممن يحثّون الولايات المتحدة الأميركية على القيام بالمزيد بشأن سورية، كي يثبتوا دورهم في تمرير هذا القرار، عندما يتحدثون في البرامج التلفزيونية.

ورغم ذلك، قضيت مع الجنرال ديمبسي ووزير الدفاع هاغل أسبوعاً كاملاً في الإدلاء بشهاداتنا في الكابيتول هيل أمام أربع لجان مختلفة في جلسات دامت مدتها أكثر من عشرين ساعة مرت عليَّ، وكأنها مئتا ساعة. وفي الواقع، أجد، عندما أعود بذاكرتي، أن التفكير في أن الجدل لم يكن ليفضي إلى شيء؛ فقد كان علينا أن نقنع نصف أعضاء الكونغرس بأننا لن نفعل سوى النزر اليسير في سورية، ونقنع النصف الآخر في الوقت نفسه بأننا سنفعل الكثير.

ولم يرغب بعض أعضاء الكونغرس بشكل واضح في التصويت على أي شيء يمكن تصويره على أنه «انحياز» لباراك أوباما. فالسيناتور ماركو روبيو كان أحد الصقور الذين كانوا يسعون إلى زيادة المساعدة العسكرية للمعارضة السورية، وأحد المحافظين الجدد الذين عابوا على الرئيس أوباما «ارتعاش يده في الوقت الذي يموت فيه السوريون الأبرياء على أيدي نظام لا رحمة عنده» . أما الآن فيقول «فات الأوان» . وهذا أمر دفعني إلى التساؤل: علامَ فات الأوان؟ فات الأوان أن نوضح أن الديكتاتور لا يمكنه أن يقصف الأطفال بالغازات السامة ويفلت من العقاب. الشيء الوحيد الذي تغير هو أن ماركو كان يستعد آنذاك لخوض الانتخابات الرئاسية عام 2016، وكان قلقاً من انطباعات الناخبين المحافظين الذين يكرهون الرئيس.

أما على الجانب الديمقراطي، فكانت كارثية قرار الحرب على العراق الذي اتخذه الرئيس بوش سبباً في نجاح الكثيرين في انتخابات الكونغرس. لذلك بات بعضهم قلقاً من إعطاء أي رئيس «تفويضاً مطلقاً» مرة أخرى للتدخل في أي مكان. وحقيقة أننا كنا نتحدث عن عملية محدودة وموجَّهة، من دون نشر أي قوات على الأرض، لم تشكّل فارقاً في نظرهم. ذلك أنهم قد يسمعون «سورية» ولكنهم يرون «العراق» . فمخلّفات سياسة جورج دبليو بوش وديك تشيني الخارجية لا تزال تلقي بظلالها على دوائر صنع القرار في الولايات المتحدة الأميركية. ويتكرّر فيها الآن رد الفعل الرافض العنيف نفسه الذي واجهه كاميرون في بريطانيا العظمى.

أما الآخرون، فقد تبلدت مشاعرهم بشأن ما كان يحدث في سورية حتى وصل الأمر بالجمهورية المعتدلة سوزان كولينز، السيناتورة عن ولاية مين، أن تتساءل: هل ثمة فارق حقًّا بين هجمات الأسد على شعبه بالقنابل وهجمات الأسد على شعبه بالغازات السامة. وقد ذُهلت عندما سمعت ذلك؛ إذ كيف يمكن لعضوة مجلس الشيوخ التي عُرف عنها الرصانة أن تنسى بهذه السرعة والبساطة سبب حظر العالم المتحضر للأسلحة الكيميائية.

وفي الوقت الذي حاولنا فيه إقناع الديمقراطيين بأن العملية سوف تكون موجّهة ومحدودة، اعتذر المحافظون قائلين: لا نريد القيام بالمزيد. ولم يجلب صديقاي جون ماكين وليندسي غراهام أي أصوات تؤيّد زيادة التدخل، لكنهما قاما بعمل رائع وصبّا جام انتقاداتهما على طريقتنا في التعامل مع الأمر. شعرت وقتئذٍ بخيبة أمل شخصية؛ ذلك أن جون وليندسي كانا يريدان رحيل الأسد. وكنا نتحدث، نحن الثلاثة كل أسبوع تقريباً، حول الجهود التي أبذلها من أجل زيادة الضغط على الأسد. وكانا يعرفان أنني أخوض معركة شاقة في الداخل من أجل تحقيق ذلك المسعى. لكنهما لم يقبلا أن تكون معاقبة الأسد بالغارات الجوية التي تكبح جماحه، هي أقصى رد فعل متاح أمام هذا الرئيس وهذا الكونغرس الآن. وبدلاً من أن نلتقي في منتصف الطريق، شعر جون وليندسي بارتياح أكبر في تدمير استراتيجيتنا. لقد كانت تجربة مثيرة للاهتمام أن أناضل ضد الصديق والغريم في آن.

وكان متظاهرون من منظمة كود بينك المناهضة للحرب يرفعون اللافتات، في كل جلسة استماع، ويرددون هتافات من قبيل: «لا تقصفوا سورية» و«سوف تلطخون أيديكم بالدماء» . وذكّرني ذلك بتلك السنوات التي قضيتها ناشطاً. لذلك عندما طرق الرئيس بالمطرقة في محاولة منه لإسكاتهم، دافعت عن حقهم في الاحتجاج. ولكنني تساءلت: أين اللافتات التي تحمل صور الأطفال الذين انتزعت أرواحهم تلك الأسلحة، التي حظرها العالم بعد أن شهد من هولها ما شهد خلال الحرب العالمية الأولى؟ ألا يشعرون بالغضب الأخلاقي ضد ديكتاتور قتل مئات العائلات وهم نيام على أسرّتهم؟ ألا تزال آثار التدخل في العراق عميقة إلى درجة تجعل المرء لا يستطيع التفريق بين استعمال القوة المبرر ودخولنا في حرب، بمحض إرادتنا، لم يكن لنا أن نخوضها على الإطلاق؟ إن الشخص الحقيقي الذي لطخ يديه بالدماء هو، في الواقع، الدموي الدمشقي الذي لا بد من أنه يشعر بالارتياح الشديد بسبب ما يدور في أروقة الكونغرس.

بدأت لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، التي ترأستها سابقاً قبل أقل من عام، بإجراء أول تصويت تجريبي بشأن قرار السماح للرئيس

أوباما باستخدام القوة العسكرية في سورية. ووافقت اللجنة على تمرير القرار. غير أن التصويت جاء بأغلبية عشرة أصوات فقط مقابل سبعة. حتى إد ماركي، السيناتور عن ماساتشوستس وزميلي السابق وصديقي الذي حل محلي عندما أصبحت وزيراً للخارجية، لم يصوّت بالموافقة بل صوت فقط «بالحضور» ، موضحاً أن شبح موافقته على الحرب في العراق لا يزال يطارده حتى اللحظة. وقد أخبرني أنه كان ليصوِّت ضد القرار لو لم يكن وزير الخارجية هو صديقه الذي يثق به.

قارنت مع جو بايدن الملاحظات والأرقام، وتوصّلنا إلى إمكانية أن نخسر في تصويت الكونغرس النهائي. وسوف تكون هذه النتيجة ضربة قوية للحظر الدولي للأسلحة الكيميائية، وللصدقية الأميركية، وللأجندة الكبرى للرئيس.

ومع استمرار المناقشات الداخلية، كنت أُجري مكالمات هاتفية على مدار الساعة مع جميع وزراء خارجية البلدان الأخرى المعنية بملف سورية. وكنت دائم التواصل مع سيرغي لافروف. ولطالما اختبرت مكالمتنا الهاتفية معاً مدى قوة صبري. كنت أحاول إقناعه بأن أجهزة الاستخبارات الأميركية أرقى من أي محاولة للتشكيك بشأنها على الإطلاق. والأسد هو المسؤول بصورة واضحة عن هذه الجريمة النكراء. فيحاول أن يقنعني بأن التدخل العسكري سيكون له تداعيات خطيرة، وأن من غير الممكن أن نعرف، على وجه اليقين، حقيقة ما جرى في الغوطة.

وبعد تصويت لجنة العلاقات الخارجية بيوم واحد، عاد سيرغي لافروف ليشكِّك مرة أخرى في نتائج أجهزتنا الاستخبارية. فما كان مني إلا أن قلت له: «لا يوجد أدنى شك في هذه النتائج. وعليك أن تصدق أنني، أنا وتشاك هاغل أيضاً، نتذكّر تماماً واقعة العراق» .

وكان رده الآتي: «حتى وإن كنتم على صواب، فسوف يكون التدخل العسكري محفوفاً بالمخاطر» .

فقلت له: «أنا لا أعتقد ذلك، سيرغي. هناك دائماً ما يمكننا القيام به. فإذا وافق الأسد، مثلاً، على شحن كل ما تتضمّنه مستودعاته من الأسلحة الكيميائية...» .

«الأمر في غاية الخطورة» . قاطعني لافروف بهذه العبارة زاعماً أن المتطرفين قد يضعون أيديهم عليها أثناء نقلها. ورغم أنه بدا متفائلاً في موسكو في شهر أيار/مايو، بشأن الجهود المشتركة الرامية إلى التخلص من

الأسلحة الكيميائية، فإنه قد تنصَّل من المشاركة في هذه المهمة على الإطلاق.

دفعني ذلك إلى مبادرته بالسؤال: «ألا تعتقد أن بمقدورنا العمل مع الأمم المتحدة للتخطيط من أجل تأمين عبور آمن؟» .

«لا أعرف» كانت تلك إجابته التي استمر بعدها في إلقاء محاضرة عن التدخل العسكري الأميركي من دون دعم من المجتمع الدولي أو الكونغرس الأميركي.

اكفهر وجهي من ادعاءات سيرغي المفاجئة بأنه يفهم القيود السياسية الداخلية المفروضة على إدارة أوباما.

وفي ذلك المساء، طلب لافروف التواصل معي هاتفياً مرة أخرى.

كان الرئيس أوباما في سان بطرسبرج لحضور قمة مجموعة العشرين مع الرئيس بوتين الذي تطرّق إلى إمكانية تدخّل المجتمع الدولي من أجل تأمين مخزون الأسلحة الكيماوية الموجود في سورية ونقله إلى خارجها تمهيداً للتخلص منه. وكانت سوزان رايس قد هاتفتني لإبلاغي بالمحادثة.

أخبرت لافروف أنني سأتحدث مع الرئيس أوباما. عرف سيرغي بالفعل أنني رأيت أن الفكرة تستحق البحث. وقد أراد أن يبعث إليّ برسالة مفادها أن ثمة إمكانية لإحداث تقدُّم على مسار تلك الأسلحة.

لم يكن الرئيس أوباما متفائلاً، لكنه رأى وجوب مواصلتي مناقشة ذلك الأمر مع لافروف، لا سيما وأن حظوظنا ضئيلة في الحصول على موافقة الكونغرس. ولكن الأسد لم يعترف علانية بحيازة أسلحة كيميائية. لذلك كان إقناع السوريين بالاعتراف أنهم يحوزون هذه الأسلحة، ناهيك بالتخلي عنها، ضرباً من ضروب الخيال.

مرت ثلاثة أسابيع تقريباً على الليلة التي بث فيها الأسد الرعب في قلوب الأبرياء.

وبينما أنا في لندن أعقد مؤتمراً صحفياً مع وزير الخارجية ويليام هيغ، طرحت مارغريت برينان، من شبكة السي بي إس نيوز، سؤالاً مهماً: «هل هناك من شيء، يمكن لحكومة الأسد أن تقدّمه أو تعرضه في هذه المرحلة يَحُول دون توجيه أي ضربة إلى نظامها؟» .

كانت محادثاتي مع لافروف لا تزال حاضرة في ذهني. لذلك أجبت من فوري قائلاً: «بالتأكيد، يمكنه تسليم جميع ما لديه من أسلحة كيميائية إلى المجتمع الدولي الأسبوع القادم. عنيتُ أن يسلّمها كلها، من دون تأخير، وأن يسمح بمحاسبة كاملة وشاملة» .

ثم عبّرت بعد ذلك عن تشكيكي في إمكانية قيامه بذلك، فرميت الطعم ثم سحبته قليلاً حتى نؤمن الموقف الذي يمكن أن يتناسب مع توجهاتنا، وذيّلت إجابتي قائلاً: «لكنّه لن يقوم بذلك، ومن الواضح أنه لا يريد القيام بذلك» .

وفي طريق عودتنا من لندن إلى واشنطن، وما إن أقلعت بنا الطائرة، حتى تلقّيت رسالة تقول إن لافروف يريد التحدث معي بصورة عاجلة. كان لافروف وبوتين قد تباحثا في الأمر وهما الآن على استعداد للإدلاء ببيان يعلنان فيه قبول عرضي للضغط على الأسد بغية إخراج ترسانته الكيميائية من سورية. غير أنني أوضحت أننا لسنا مهتمين بالبيانات البرّاقة قدر اهتمامنا بالنتائج المؤكدة والقابلة للتحقّق. وعلى الفور، رويت ما دار خلال المكالمة لسوزان رايس.

ولكن في الوقت الذي رأيت فيه أن هذه المبادرة تستحق الترحيب، خشيت أن نخسر بموافقتنا عليها تلك اللحظة التي لطالما تمنيتها أكثر من أي شيء آخر، وهي لحظة تحوُّل الضربات الجوية إلى قوة تفسح المجال أمام بدء المساعي الدبلوماسية. ولكن إذا لم يأذن لنا الكونغرس باستخدام القوة، يكون بذلك قد سلب من أيدينا السلطة بصورة فعلية وقوّض سلطة القائد العام.

لذلك طلب مني الرئيس أن أضع مبادرة نزع الأسلحة الكيميائية تحت الاختبار. وفي مساء اليوم التالي، ألقى الرئيس خطاباً في وقت الذروة يهدف إلى شحذ الدعم الشعبي لاتخاذ إجراءات ضد الأسد. ولكنه عدّل كلمته، وقال إن المبادرة الأميركية - الروسية «يمكن أن تفضي إلى إزالة التهديد الذي تمثّله أسلحة سورية الكيميائية من دون اللجوء إلى القوة» . وتابع: «لقد طلبت من الكونغرس تأجيل التصويت على طلب استخدام القوة العسكرية بما يسمح باستمرار المسعى الدبلوماسي» .

وبعد يومين، سافرت إلى جنيف على رأس فريق من الدبلوماسيين والمحامين ممن يمتازون بخبرة إقليمية كبيرة في مجال الأسلحة الكيميائية، وحظر الانتشار النووي. ومن حسن طالعنا أن لدينا مجموعة متميزة من الدبلوماسيين في وزارة الخارجية ومن الموظفين في شتى مؤسسات الدولة يعملون على مدار الساعة لحشد الخبرات التقنية لأي قضية مهما تكن معقدة.

هؤلاء الأفراد يمثلون ثروة وطنية حقيقية. فمنذ اللحظة الأولى لاندلاع الحرب وفريقنا يدرس مشكلة الأسلحة الكيميائية حتى توصّل بالفعل إلى السبل الممكنة لنزع الأسلحة. لذلك كنا على استعداد للتعامل مع أي شيء قد يلقيه علينا الروس.

لكن من المثير للدهشة أن الوفد الروسي لم يكن يحمل أي شيء جاهز ملموس، وحضر إلى جنيف من دون أي صياغة محدّدة ننطلق من أساسها. وأعتقد أن الروس فوجئوا بمدى جاهزيتنا وإلمامنا بمختلف تفاصيل المهمة؛ ذلك أن فريقنا كان مستعداً جيداً.

قضيت مع لافروف ساعات في قاعة المؤتمرات في فندق إنتركونتيننتال، ناقشنا خلالها حجم المخزونات السورية، والخيارات التقنية التي يمكن استخدامها من أجل تدمير الأسلحة، وأفضل الطرائق التي يمكن من خلالها متابعة عملية تدمير الأسلحة والتحقق منها، وكيفية حماية الأفراد الذين سوف توكل إليهم مهمة القيام بهذا العمل. وفي هذه الأثناء، كان المتخصصون الأميركيون يعملون في مجموعة من الغرف مع نظرائهم الروس على مناقشة التفاصيل. ويبدو أن روسيا، تلك الدولة التي لا تزال تتظاهر علناً بأنها تصدق أن الأسد لم يستخدم الأسلحة الكيميائية على الإطلاق، باتت أقرب كثيراً الآن من موقفنا بصورة تجازوت توقعاتنا.

ومع ذلك، ظهرت الانقسامات وبصورة خاصة حول كيفية تنفيذ الاتفاقية. فبعدأن اتفقنا على ضرورة تقنين مجلس الأمن للصيغة التي توصّلنا إليها، رفضت روسيا أن يكون القرار الذي يمرّره المجلس في نهاية المطاف ملزماً قانونياً. وفي الواقع، لم نكن نثق بالنظام السوري، مما دفعنا إلى الاعتقاد بأنه سوف يحاول إخفاء بعض الأسلحة أو العناصر الكيميائية. لذلك حاولنا أن نضغط حتى نفسح المجال لأكبر قدر ممكن من الشفافية. فالأسد سوف يحاول أن يحتال، وأردنا التأكد من أن سورية يمكن أن تُعاقب إذا ما خالفت الاتفاقية.

قضيت مئات الساعات في التفاوض مع لافروف على مدار السنوات الأربع التي عملت فيها وزيراً للخارجية. وفي الواقع، يتمتع لافروف بالذكاء والحذر، وله طابع خاص، كما عُرف عنه قيامه ببعض الحيل الذهنية ولجوئه إلى أساليب يسعى من خلالها إلى الحصول على بعض المزايا على طاولة المفاوضات. وبعد عدة ساعات من الجدال حول القرار هل سيكون ملزماً قانونياً أم لا، مرّر لي أحد أعضاء فريقي ملحوظة يخبرني فيها أن الوفد الروسي قد وضع حقائبه في مدخل الفندق من أجل إشاعة انطباع وكأنها في انتظار التحميل إيذاناً بالمغادرة. وجدته تحرُّكاً فظّاً، فقد قاموا بذلك لإيهامنا

أنهم على وشك المغادرة. في الواقع، كنا قد وصلنا إلى الشوط الأخير من المناقشات. لذلك كنت أعرف أن الوفد لن يغادر من فوره.

ولكنني سألت نظيري الروسي قائلاً: «سيرغي، تقول الصحافة إنك على وشك المغادرة. هل أنت مغادر حقاً؟ هل نحن نهدر وقتنا الآن؟» .

أكد لي سيرغي أن ذلك غير صحيح، وأشعل سيجارة أخرى، وعاد إلى العمل من دون ورقة الضغط المفتعلة التي كان يريد استخدامها.

وبحلول صباح اليوم التالي، وبعد أقل من أسبوع من المؤتمر الصحفي الذي عقدته في لندن، تمكّنت مع لافروف من الإعلان عن إطار أميركي - روسي مفصّل بشأن نزع الأسلحة الكيميائية السورية المعلن عنها. وعندما عرضنا المسوّدة على مجلس الأمن في السابع والعشرين من أيلول/سبتمبر، وافق عليها جميع الأعضاء الخمسة عشر بالإجماع. وثمة مَن تساءل عما إذا كان ذلك يشكّل نقطة تحوّل في مسار عمل المنظومة الدولية تجاه الأزمة السورية. وفي الواقع، لم تكن بمثابة نقطة تحوّل، غير أنها، في أحسن الأحوال، كانت نقطة إيجابية وسط النقاط السلبية المأساوية العديدة التي قد تحدث فيما بعد.

الملف السوري صعب. والمخاطر واضحة. فالحرب الأهلية، إذا ما تُركت من دون ضوابط، قد تصبح حاضنة للعنف في المنطقة، وأن تصبح أرضاً ممهدة يستغلها الجهاديون في تنفيذ أجندتهم، وساحة حرب بالوكالة لكل من إيران وروسيا، وملاذاً آمناً لأعداء حليفتنا إسرائيل، وساحة خصبة ينفّذ فيها الأكراد تطلّعاتهم، ومكبّاً تستخدمه مختلف البلدان السنّية لإبعاد المتطرفين عن أراضيها. كل هذه المخاطر اجتمعت في سورية حتى جعلت منها مكاناً له تبعات استراتيجية علينا وعلى حلفائنا، وهي تبعات لا يمكن تجنّبها.

لم يكن الوقت في مصلحتنا، بالنظر إلى الطابع العلماني المعقد للبلاد. فالأمور سوف تزداد سوءاً في سورية ما دام كلا الطرفين ووكلاؤهما يظنان أن النصر يمكن أن يحدث في ميدان المعركة. ولما كانت عواقب الصراعات في العالم تؤول دائماً إلى الولايات المتحدة الأميركية، فإن مصلحتنا تتمثل في انتهاء الحرب عاجلاً. وقد تحدّثت عن هذه المسألة الحيوية الخطيرة عندما مثلت أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ في كانون الثاني/يناير 2013 في جلسة التأكيد.

وشرحت للجنة أن «الرئيس الأسد يعتقد في الوقت الحالي أنه لا يخسر، كذلك، تعتقد المعارضة أنها تنتصر» . وإضافة إلى ذلك، أخبرت اللجنة

ما كنت أؤمن به طوال فترة عملي كوزير للخارجية: «نحن بحاجة إلى تغيير حسابات بشار الأسد» . وأوضحت أننا يجب أن نجعل الأسد «يرى أن الأمر قد قُضيَ، وأن النذر القادمة لا تبشر بالخير» حتى «يحافظ على أرواح الناس ويوحّد الدولة خلال المرحلة الانتقالية» . لم يكن الأسد قلقاً من مشاركة الولايات المتحدة الأميركية مشاركة فعلية. وفي الوقت نفسه، كان معظم الخبراء يرون أن الأسد بات ضعيفاً؛ إذ يعاني من انشقاقات كبيرة في صفوف كبار العسكريين والسياسيين. واعتقدت أن الوقت قد حان لزيادة الضغط. ولكن في الوقت الذي عمّ فيه قلق كبير، كلًّا من البيت الأبيض والكابيتول هيل، بسبب ما يحدث، كان هناك قلق أكبر بسبب ما قد يحدث إذا قمنا بالمزيد. لقد كانت مشكلة سورية صعبة بكل المقاييس، وأصبحت أكثر صعوبة بسبب إخفاقنا في انتقاء خيارات تعطينا قوة أكبر.

وبعد التوصل إلى الاتفاق في جنيف، أصبحت المهمة العاجلة التي نواجهها الآن متمثلة في ضمان إزالة أطنان من أخطر الأسلحة المدمّرة في العالم من المستودعات المنتشرة في جميع أنحاء سورية في خضم حرب أهلية دامية.

وكان علينا أولاً أن نحدِّد الأسلحة ونؤمّنها ونجمعها ثم ننقلها إلى ميناء اللاذقية حيث يمكن شحنها من هناك إلى خارج البلاد. كان علينا بعد ذلك أن نعرف أفضل مكان يمكننا تدمير هذه الأسلحة فيه. وخلال المرحلة الأولى، المتمثلة في نزع الأسلحة من سورية، اعتمدنا على روسيا في الضغط على السوريين من أجل التزام الاتفاق. وكان السوريون يحاولون استغلال العملية بشتى الطرائق. يخبروننا أنهم يحتاجون إلى معدات عسكرية ضخمة غير ضرورية؛ كالمركبات المستخدمة لنقل الدبابات، للإسهام في نقل الأسلحة. كانت تسعة مطالب من كل عشرة من مطالبهم غير معقولة، وحتى أنّ الروس أنفسهم أخبروهم بذلك.

كانت المرحلة الثانية المتمثلة في تدمير الأسلحة تشكّل تحدياً، لأننا لم نتمكن من العثور على مكان للقيام بذلك. حاولنا إقناع الأردن وتركيا على أمل اختصار المسافة التي يجب أن تقطعها الأسلحة، لكن لم يرغب أي منهما في تحمُّل نتائج هذه المخاطرة التي يمكن أن تعرّض أيّاً من شعبيهما للقتل بالغاز من دون قصد. وأما الولايات المتحدة الأميركية، فكانت بعيدة للغاية. وروسيا من جانبها أخبرتنا بوجود قانون محلي يحظر جلب الأسلحة الكيماوية الأجنبية إلى البلاد. وفي النهاية، وافقت ألبانيا أن يجري تدمير الأسلحة على أراضيها. غير أنني سرعان ما تلقّيت، بعد فترة وجيزة من الموافقة، اتصالاً هاتفياً سمعت فيه أصوات المتظاهرين وهم يهتفون في الخلفية، بينما كان رئيس

وزرائها يشرح لي الموقف قائلاً: «لك أن تستمع بنفسك إلى ما أواجهه. كنت أرغب في القيام بذلك. الآن، أعتذر منك لا يمكنني القيام بذلك أبداً» .

وأخيراً، توصّلنا إلى خطة لتدمير الأسلحة في البحر. وكانت إحدى طرائق تدمير المواد الكيميائية التي كانت في مستودعات الأسد هي تحليلها بالماء، الأمر الذي سيفضي إلى توليد خزانات كبيرة من النفايات السائلة التي يمكن حرقها فيما بعد. وقام خبراء الأسلحة الكيميائية من منظمة حظر الأسلحة الكيميائية بتطوير نموذج أولي لمحرقة كانت صغيرة بما يكفي لوضعها على متن إحدى السفن، وقامت هذه المنظمة أيضاً بإيجاد سفينة مبطنة، وعملت على تحديثها وتعديلها وتركيب المحرقة الخاصة بها، ودرّبت طاقماً للعمل عليها ثم أنزلتها بالماء. كان ذلك مثالاً عملياً على كيفية حل المشكلات بصورة مبتكرة.

وبحلول تموز/يوليو 2014، كانت الفِرَق قد نقلت ما يقرب من 1300 طنٍّ من الأسلحة الكيميائية ودمّرتها بحلول أيلول/سبتمبر. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تُنزع فيها أسلحة دمار شامل، في خضم نزاع، كانت لتشكّل مصدر قوة في يد من يمسك بها من أطراف القوى المتنازعة. الآن، انتهينا من 1300 طنٍّ من الأسلحة الكيميائية التي لم تعد متاحة لا للأسد ولا للمتطرفين، الذين ربما قاموا بالتأكيد، أثناء انتشارهم على الأراضي السورية، بتأمين بعض منها في مكان ما. وفي بلد تشترك حدوده مع حدود إسرائيل، كان تخفيف هذا التهديد الهائل إنجازاً في حد ذاته. ولهذين السببين وحدهما، كان الاتفاق الذي جرى التوصل إليه في جنيف قيّماً. ولكن في طيّاته حصته من المأساة.

وذلك أننا لطالما أعتقدنا أن الأسد ربما وجد طريقة تجنّبه الإعلان عن كامل ما لديه من مخزون. ورغم ذلك، تعمل منظمة حظر الأسلحة الكيميائية والعالم بناءً على أفضل ما لديهما من تقديرات. وفي الوقت الذي كان فيه نزع 1300 طنٍّ من الأسلحة الكيميائية إنجازاً ضخماً، كنا قلقين من إخفاء الأسد للعوامل الكيميائية في مكان ما. وقد كان إثبات ذلك ضرباً من ضروب المستحيل، رغم أننا بدأنا به في الأمم المتحدة على الفور.

بيد أنّ الأهم من ذلك أن العالم بأسره كان قد اطّلع بأم العين على فداحة القتل الذي ارتكبه الأسد دون أي رحمة. ولكن القاتل يجب معاقبته وليس فقط تجريده من ترسانة أسلحته. لذلك رأت المعارضة والعديد من البلدان التي تدعمها أن الأسد يفلت بذلك من الجريمة التي ارتكبها. وأكدت أن هذا الهجوم المروّع إن لم يدفع العالم إلى التدخُّل، فلن يدفعه شيء آخر. ورأت المعارضة والبلدان الداعمة لها كذلك أن الأسد وروسيا يمكن أن يريا

الآن أن أميركا المتعبة من الحرب لم يعد لديها ما تفعله؛ إذ لم يعد لديهما ما يخشيانه. والواقع أن المعارضة والدول الداعمة لها لم تكن مخطئةً في ذلك تماماً. فقد أدى إفلات الأسد من العقاب إلى تدمير آمال الناس، وجعلهم يرون أنه قد يتمكّن من خداع المؤسسات التي تسعى إلى الحفاظ على احترام سيادة القانون إذا ما مثل أمامها. وفي الوقت الذي كان يعرف فيه الجميع أن الأسد يجب أن يكون خلف القضبان في لاهاي، كانت تلك البلدان الأكثر قدرة على القيام بأي فعل، ونحن منها، غارقةً في حالة الجمود الداخلي.

وشعرت بالقلق من أن يؤدي استمرار القتال إلى جذب أسوأ عناصر المنطقة إلى سورية بأعداد أكبر، للانضمام إلى الجهاديين. ومع زيادة عدد اللاجئين زيادة كبيرة، خشيت أيضاً من التأثير المدمِّر لذلك على النسيج الاجتماعي والسياسي في أوروبا. وأكدت للمعارضة أنني لن أكف أبداً عن محاولة إنهاء الصراع الذي حطّم سورية. وحتى لو كنا نفتقر إلى القوة التي كانت ستوفرها لنا الضربات العسكرية، فإننا بحاجة إلى بذل كل ما في وسعنا لإنهاء الحرب. ووعدتها أنني سأحاول تأمين دعم إضافي من أجل تغيير الواقع في ساحة المعركة.

وبدأت الدفة في ساحة المعركة بالتغيُّر ولكن ليس نحو الأفضل؛ إذ كثف النظام هجماته واستولى على حمص ومدن أخرى في الوقت الذي أحرزت فيه المعارضة تقدماً على الجانب الشرقي الجنوبي من البلاد. وقد أدت هذه المعارك المتبادلة إلى موت الآلاف كل شهر بالإضافة إلى تهجير مئات الآلاف. ففي العام 2013 وحده، اضطر أكثر من مليون شخص إلى الفرار من ديارهم.

وفي الطرف الآخر من الكرة الأرضية، وبالتحديد في واشنطن العاصمة، كان الأمر كما لو كنا في عيد غراوندهوغ[23]. تتكرر في كل مرة نجتمع فيها النقاشات نفسها من قبيل «الدبلوماسية لن تجدي نفعاً لأننا لا نمتلك المساحة الكافية» ؛ «نحن بحاجة إلى المزيد من الخيارات. هل علينا أن نوجه ضربات مباشرة إلى سورية؟» ؛ «كيف ستبدو هذه الضربات؟» ؛ «إذا لم نوجه ضربات إلى النظام السوري، فما الذي يمكن أن نفعله ويكون أقل وطاة من ذلك؟» ؛ «هل هذا يكفي لتغيير حسابات الأسد؟» ؛ «نحن نحتاج إلى المزيد من الخيارات» . ولم يكن ثمة نهاية لهذه النقاشات التي تدور في حلقة مفرغة.

وفي 23 كانون الثاني/يناير 2014، أكّدتُ أن بشار الأسد «مغناطيس جاذب للإرهاب» . وأثناء اجتماع وزراء الخارجية من جميع أنحاء العالم في جنيف بسويسرا تحت رعاية الأمم المتحدة للتركيز في الحرب الأهلية

السورية، ألقى وزير الخارجية السوري، وليد المعلم، خطاباً شائناً وصف فيه كل معارضي الأسد بالإرهابيين. وكان ذلك بمثابة إهانة مقززة للشعب السوري الذي وقف ضد وحشية الأسد ولم ينل في المقابل، لما يقرب من عامين، سوى القصف بالغازات السامة والبراميل المتفجرة، والتجويع وتحوُّل أفراده إلى لاجئين. والآن، يلوم المستبد شعبَه على كارثة المقاتلين الأجانب الذين يستفيدون من حالة الفوضى التي تشهدها سورية، ويتنقلون ذهاباً وإياباً عبر الحدود العراقية - السورية بكل سهولة.

وعلى بعد آلاف الأميال في واشنطن، كانت هناك مناوشات بسيطة داخل مجلس الأمن القومي بين أولئك الذين يرون أننا لا نمتلك سوى خيارات سيئة في سورية، وأننا لن نستطيع تغيير النتيجة، وأولئك الذين يريدون تحقيق أقصى استفادة من الخيارات السيئة، وعدم اكتفائنا، على الأقل، بمحاولة إحداثنا فارقاً، لأن بمقدورنا إحداثه بالفعل. أما أنا، فكنت أعتقد أن من الممكن استخدام الضغط الإضافي بصورة لا تزج بنا في سورية على نحو يجلعنا لا نستطيع الخروج منها، ولكن بصورة تغيّر الديناميكيات نحو الأفضل. وكان ذلك مجرد اعتقاد وليس حقيقة مثبتة. ومع ذلك، لم أنجح قط في إقناع الرئيس بأنه اعتقاد يستحق العمل عليه، وأن المخاطر، بالصورة التي كانت عليها، تستحق أن نأخذها على عاتقنا.

ومما يعقّد أي تحليل أن الحرب قد استمرت في التغيُّر. وبات هناك الآن حربان على الأقل لا تقل وحشية إحداهما عن الأخرى وهما: الحرب الأهلية السورية بين الأسد والمعارضة المحلية (إلى جانب معركة وكلائهما أو بمعنى آخر رعاة الأسد في طهران وموسكو من ناحية والبلدان السنّية من ناحية أخرى)، والتوغل المتزايد للإرهابيين الأجانب في كل من سورية والعراق.

وأصبح قتال الأسد في سورية قضية الساعة التي أثارت انتباه الجهاديين الطموحين في دول المنطقة وفي أوروبا؛ وذلك بتحريض من بعض أصدقائنا السنّة الذين كانوا سعداء برؤية الشباب الغاضبين يقاتلون النظام الشيعي المارق. وقد أدّت وسائل الإعلام الاجتماعية دوراً مؤثراً بشكل مثير للصدمة؛ إذ كانت من أوائل وسائل تجنيد كل هؤلاء. وفي العراق، تصاعدت مشاعر الاستياء الطائفي المتأججة بين السنة والشيعة بصورة كبيرة؛ جرّاء ضعف القيادة وانقسامها. وساعد رئيس الوزراء نوري المالكي بطريقة غريبة على خلق البيئة التي سمحت بقيام داعش؛ وذلك من خلال زيادة سلطة النخبة الشيعية، بدلاً من توحيد العراق. وكانت حكومته في فوضى وجيشه في هرج ومرج.

وفي الوقت الذي أصبحت فيه المعادلة برمّتها أكثر تعقيداَ، تحوّلت الحرب الأهلية السورية إلى قطب يجذب شيئاً آخر، وباتت تشكّل تهديداً، يختلف عن تهديد الأسد نفسه، دفع الولايات المتحدة الأميركية إلى ضرورة الردّ بصورة قوية. ذلك القطب تعدَّدت أسماؤه: فتارةً يُطلق عليه اسم تنظيم الدولة الإسلامية، أو الدولة الإسلامية في العراق والشام، وتارة أخرى داعش. لكنه في كل الأحوال كان بمثابة شر مطلق. وقد شن متطرفون متشددون يتبنّون العنف هجوماً على محافظة الأنبار في العراق، واستولوا على مدينة الفلوجة وأجزاء من الرمادي، مركز محافظة الأنبار. وحذّر خبراؤنا آنذاك من أن هذه المجموعة تعتبر بمثابة «القاعدة لكنها تتناول منشطات» ؛ ذلك أنها مؤهّلة ومتطرّفة ومموّلة بصورة كافية تمكّنها من التجمُّع، واحتلال الأراضي، والتقدم بصورة أكبر نحو مدن مثل بغداد وأربيل.

وأطلقت هذه المجموعة على نفسها تسمية الدولة الإسلامية في العراق والشام، في حين أطلقت عليها بلدان المنطقة اسم «داعش» ، وهو اختصار لاسم التنظيم باللغة العربية وهو ما يبغضه هؤلاء الإرهابيون. لكن بغضّ النظر عن الاسم، كنا بحاجة إلى سياسة تضمن ألّا ينشِىء عناصر هذه المجموعة على الإطلاق الخلافة الكاملة التي يسعون إليها بكل جُرأة. لذلك، كان علينا أن نهاجمهم بكل الطرائق الحيوية، قبل أن يعيدوا ترتيب الشرق الأوسط بصورة نهائية، ويحوِّلوه إلى الصورة البغيضة والقبيحة التي يريدونه عليها.

وفي أوائل حزيران/يونيو، سقطت الموصل، ثاني أكبر مدينة في العراق بعد انهيار الجيش العراقي بمجرد أن واجهه المقاتلون المتطرفون. وطلب رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بشدة من الولايات المتحدة الأميركية القيام بضربات جوية، مما جعل الرئيس أوباما في وضع حرج. وفي الحقيقة، لم يكن أوباما وحده في ذلك الوضع، بل كنا جميعاً كذلك. فالعراق مهدَّد بصورة خطيرة. ولكننا رأينا أن الضربات الجوية وحدها لن تكون الحل؛ ذلك أن المالكي كان ميؤوساً منه. لذلك لم تكن ممكنة هزيمة داعش والمالكي على رأس السلطة في بغداد.

وبسبب حرصنا على عدم تكرار الماضي، التزمنا إلتزاماً مطلقاً الفكرة القائلة بأن العراقيين وحدهم هم من يستطيعون أن يقرّروا تغيير قيادتهم. لا شيء آخر يمكن أن يحقق النجاح. وانخرطنا على الفور في جهود دبلوماسية ناعمة بعيدة عن الأنظار، من أجل تشجيع الانتقال السلمي. وقمت، وكذلك قام نائب الرئيس بايدن، بزيارات منفصلة إلى بغداد في حزيران/يونيو للاجتماع مع المالكي. وكان نائب الرئيس قد كوّن خبرة كبيرة في الشؤون العراقية خلال

فترة عمله كرئيس للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ أو في البيت الأبيض. وكان لمساعده السابق توني بلينكن دور فعّال في مساعدة فريقنا على عبور مياه الفترة الانتقالية. وكنا في وضع صعب للغاية؛ ذلك أننا كنا نعلم أن زيادة الضرورة العسكرية الاستراتيجية تضغط على داعش، لكننا كنا نعرف أيضاً أن القيام بذلك ربما خفّف الضغط السياسي على المالكي. ولم نكن نريد تحقيق تقدُّم قصير المدى يتسبّب في إدانتنا بالإخفاق على المدى الطويل. لذلك كان التوقيت في غاية الأهمية.

أدرك المالكي حجم الأزمة في ظل وقوع ثلث بلاده تحت سيطرة داعش، لكنه لم يعط في البداية أي إشارة تدل على أنه سوف يغادر السلطة. لذلك التقى دبلوماسيون أميركيون سرّاً زعماء عراقيين، من أجل تأكيد عدم ثقتهم بالمالكي، والتعبير عن رغبتنا. وقد بعثنا برسالة مفادها أن الدعم الذي يحتاجون إليه لا يُحتمل أن يستمر في ظل وجود المالكي على رأس السلطة. فالعراق يحتاج إلى زعيم يحكم بطريقة شمولية وليست طائفية. واستقر العراقيون على حيدر العبادي. وفي أوائل شهر آب/ أغسطس، طلب الرئيس العراقي رسمياً من العبادي أن يحل محل المالكي، وأن يشكل حكومة ائتلافية جديدة بصفته كرئيس للوزراء. بدا المالكي غير متقبل للأمر في البداية، غير أنه سرعان ما رضخ في غضون أيام بمجرد أن فهم أن إيران الشيعية لم تعد تؤيّد بقاءه في المنصب أكثر من الأميركيين؛ ذلك أن داعش باتت أيضاً تشكّل تهديداً لها في هذه المرحلة.

وبينما كنا نساعد العراق على تنظيم بيته السياسي، ونمكّنه من التصدّي للإرهابيين على جبهات متعدّدة، أثبتت داعش بربريتها للعالم مرة أخرى.

كان جيمس فولي صحفياً شاباً من نيوهامبشاير التقيت، عائلته عام 2011 بعد أسره واحتجازه في ليبيا أثناء تغطيته للربيع العربي. وبصفتي كرئيس لجنة العلاقات الخارجية، قمت بما أستطيع القيام به مع وزارة الخارجية من أجل الإفراج عنه. وانتهت هذه القصة نهاية سعيدة بإطلاق سراحه. والآن، بعد عامين، وبعد أن أصبحت وزيراً للخارجية، علمت أن جيم قد اُختطف مرة أخرى، ولكن هذه المرة أثناء تغطيته للحرب في سورية. اعتصر ذلك قلبي؛ إذ كان جيمس واحداً من بين مجموعة أميركية من الصحفيين وعمال الإغاثة الإنسانية الذين عبروا الحدود إلى سورية لإحداث تغيير؛ غير أنها اعتُقلت على أيدي المتطرفين. التقيت آباء العديد منهم. وكان التأثر والتوتر على وجوههم أبلغ من أي كلمة تُقال. وعلى الفور، أجريت عشرات المكالمات الهاتفية، وتحدّثت بصورة مباشرة مع وزراء خارجية بلدان الخليج حول استخدام نفوذهم

إن كان لهم أي نفوذ من أجل تحديد مكان الأميركيين الأسرى وإطلاق سراحهم. وفي الواقع، كانت إحدى العائلات من ماساتشوستس محظوظة؛ إذ أُطلق سراح مختطَفِها حياً بمجرَّد تدخُّل قطر.

وإحقاقاً للحق، بذل الرئيس أوباما جهوداً استثنائية من أجل إجازة وتنفيذ مهمة إنقاذ تتضمّن إنزال قوات أميركية على الأراضي السورية؛ ذلك أننا كنا نعتقد أن الأميركيين محتجزون لدى داعش. وفي البيت الأبيض، تابعنا داخل غرفة العمليات هذه المهمة لحظة بلحظة في وقت تنفيذها. ولن أنسى أبداً الانقباض الذي شعرنا به جميعاً عندما سمعنا صوت ضابط العمليات الخاصة الشجاع لدى دخوله وتفقده غرف الموقع الذي وردتنا معلومات عن احتجاز الرهائن فيه، وهو يقول عبر الشبكات اللاسلكية: «الموقع فارغ.. أكرر.. الموقع فارغ» . في الواقع، لم يجد المكلفون بالمهمة في الموقع أي رهائن.

وفي التاسع عشر من آب/أغسطس، بينما كنت أحضر أحد الاجتماعات، مرر لي أحد المساعدين ملاحظة، ووجهه شاحب، تقول إن تسجيلاً مصوّراً ظهر على موقع يوتيوب يزعم أنه يظهر عملية ذبح جيمس فولي على يد قاتل ملثم جبان يغطّيه السواد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. شاهدت التسجيل برفقة رئيس هيئة الأركان الذي كان قد تعرف أيضاً إلى عائلة الصحفي. ووقتئذٍ، استحال شعوري العميق بالظلم والحزن إلى غضب عارم، بالنظر إلى أن هناك شيئاً ما في هذا العالم مقززاً وخاطئاً إلى الحدّ الذي لا يمكن أن يتصوّره عقل. أغمضتُ عينيّ وأردت أن يعود هذا الصحفي الشاب الشجاع إلى بيته مع عائلته آمناً وحيّاً. وبالإضافة إلى ذلك، شعرت برغبة شديدة في إبادة داعش عن وجه البسيطة تماماً. ولكن لا يمكنني الآن إلّا السعي من أجل تحقيق شيء واحد فقط من هذين الشيئين.

وكانت الدلائل الملحة آنذاك تشير إلى أن تهديد داعش كان تهديد كيان هذه المنطقة برمّتها. فعلى مقربة من الحدود التركية، قام المتطرفون بترويع الأقلية الدينية المتمثلة في العائلات الإيزيدية هناك. قتلوا الرجال وسبَوا النساء. وهكذا، أُجبر الأيزيديون على الفرار من منازلهم، وتشرّد عشرات الآلاف منهم في جبل سنجار من دون طعام أو ماء أو دواء. كان ذلك يعني أن إبادة جماعية على وشك الحدوث. وكانت داعش تقترب من المدينة الكردية أربيل، وفيها مقر القنصلية العامة الأميركية.

جلسنا في غرفة العمليات نوازن الخيارات العسكرية. كان الرئيس أوباما هادئاً ومتفهّماً كالمعتاد. وكان من الواضح بصورة غير معلنة أن الرئيس الذي أُنتخب عام 2008 ووعد بإخراج الولايات المتحدة الأميركية من حرب العراق، ليس لديه خيار سوى توجيه ضربات جوية داخل ذلك البلد مرة أخرى،

من أجل إنقاذ الإيزيديين والتصدّي للهجمات التي تقوم بها داعش. وكان ذلك هو الأمر الوحيد الذي أعطاه أوباما. وبعد ذلك وبالتحديد في السابع من آب/ أغسطس، أمطرت الضربات الجوية داعش، بالقرب من جبل سنجار. وتناثرت العناصر الداعشية في أعقاب هذه الضربات كالصراصير التي تفرّ من ضوء أحد المصابيح اليدوية.

لكن الرئيس، وقبل أن يذهب بعيداً في تلك المعركة، أراد أن يطمئن بصورة صريحة إلى أن الولايات المتحدة الأميركية تنتهج استراتيجية شاملة مُعدَّة بعناية تتجاوز نطاق مجرَّد الضربات الجوية. وقد حدَّد الرئيس، قبل نشر قواتنا العسكرية لمحاربة داعش بطريقة دائمة، ثلاثة شروط يجب الوفاء بها: ُأولها تحسُّن الحكم في العراق، وثانيها وجود تحالف إقليمي، وثالثها وجود استراتيجية دبلوماسية شاملة.

رتّبنا بعض الأمور الأساسية بالفعل، لكنني شرعت في العمل على الفور، واجتمعت بكبار الخبراء في وزارة الخارجية للتأكد من عدم وجود أي ثغرات في الاستراتيجية التي نتبنّاها. وبعد ثلاثة أيام، سلّمت مذكّرة للرئيس. بالإضافة إلى الدعم العسكري، يمكن تحديد المصادر الأساسية التي تزوِّد داعش بالدعم المالي وتضييق الخناق، من ثَمّ، على تلك المؤسسات التي تزوِّد الإرهابيين بالأموال والنفط. ويمكن أيضاً النيل من قدرة داعش على تجنيد المقاتلين الأجانب، من خلال تبادل البيانات والمعلومات الاستخبارية ذات الصلة مع البلدان الأخرى، ومن خلال تعزيز قدرة وزارة الأمن الداخلي على منع التجنيد في الولايات المتحدة الأميركية. ويمكن التصدّي كذلك للدعاية المتطرّفة التي تنشرها داعش من خلال العمل مع شركائنا في المنطقة على مواجهة خطابات الكراهية التي يبثها الإرهابيون، وإظهار أصوات الزعماء المسلمين المسالمين. وعلاوة على ذلك، يمكن تخصيص موارد كبيرة من أجل تحسين الوضع الإنساني لأولئك الذين نالت منهم يد داعش. لكن الأهم من ذلك هو تكوين أكبر تحالف ممكن. ومن شأن التزامنا العسكري أن يمنحني القدرة على تحقيق كل هذه الخطوات الضرورية الأخرى. وبذلك لا تكون أميركا وحدها في المواجهة.

وافق الرئيس على الاستراتيجية برمّتها. وأصبحت هذه المذكّرة الأساس الذي انبنت عليه استراتيجيتنا من ذلك التاريخ فصاعداً. شعرت وكأن عناني قد انطلق بعد منحي الصلاحيات الكاملة لتشكيل تحالف حاسم يمكن أن ينقذ أصدقاءنا من براثن الرعب المتطرّف. تشجّعنا مع إدراكنا أننا نوظف جميع مواردنا في مشروع واحد يلقى الدعم الكامل من الجميع.

وقد ضمنت مع تشاك هاغل التزام حلفائنا في الناتو هذه الاستراتيجية. وتحرّكنا من أجل دفع البلدان العربية للتعاون معنا بأسرع وقت ممكن. وكان من الواضح لنا جميعا أننا بحاجة إلى جبهة إسلامية موحَّدة لمواجهة المرجعية الإسلامية التي كانت تدّعيها داعش في حملتها الإرهابية؛ ذلك أننا لم نستطع تحمُّل أي شرخ قد يحدث في العلاقة بيننا وبين العالم الإسلامي. كنت سيناتوراً خلال حربَي العراق؛ ومع أننا لا نزال نعيش عواقب الحرب الثانية في العراق التي مزّقها الصراع الداخلي فإن حرب العراق الأولى كانت نموذجاً يُحتذى به تمثّل في عاصفة الصحراء التي نفّذها تحالف ضم عدداً كبيراً من البلدان ولا سيما تلك الموجودة في الشرق الأوسط. وسافر الوزير جيمس بيكر شخصياً آنذاك إلى عشرات البلدان من أجل تأمين موافقتهم على المشاركة في العملية. لذلك كنت بحاجة إلى إجراء الأمر نفسه، معتمداً في ذلك على العلاقات الشخصية التي بنيتها خلال السنوات التي كنت فيها سيناتوراً في مجلس الشيوخ، والآن خلال فترة عملي كوزير للخارجية.

ولكن الدعم الخليجي لا يتأتى تلقائياً. فإقناع الزعماء السنّة بإلزام جيوشهم وأبواقهم بالمشاركة في حرب ضد متطرفين سُنّة يحاربون ألد أعدائهم في سورية، ويقاتلون من أجل إعادة الهيمنة السنّية في العراق، لا يخلو أبداً من تعقيداته الخاصة. وأتذكّر واحداً من اجتماعات وزراء الخارجية في إسطنبول تحدّث فيه بعض أصدقائي من المنطقة بصورة صريحة عن زيادة دعم المقاتلين الأكثر قوة، من أجل التعجيل برحيل الأسد، ثم خوض حرب «ثانية» في المستقبل عندما يرحل الأسد. لكننا كنا بحاجة إلى أن يتحرّك الجميع بالاتجاه نفسه في آن. فالحرب الثانية بدأت للتو.

وكان الكثيرون في المنطقة ينتظرون أن يسترشدوا بالموقف الذي ستتخذه المملكة العربية السعودية. وكان السعوديون لا يزالون غاضبين بسبب عدم شن الولايات المتحدة الأميركية غارات عسكرية على الأسد بعد الهجوم الذي نفّذه بالأسلحة الكيميائية. ومع ذلك، كنت أتمنّى أن يكون بناء تحالف لمحاربة داعش بمثابة إعادة ترتيب دبلوماسي يمكن أن ينهي آخر المطاف الحرب الأوسع في سورية. ومع أن الأسد كان هو من جذب المتطرفين إلى العراق وسورية، فإنه كان علينا أوّلاً أن نعمل معاً لبناء تحالف من أجل مواجهة المتطرفين.

في المملكة العربية السعودية، وبسبب ارتفاع درجات الحرارة للغاية، غالباً ما تُعقد الاجتماعات ليلاً عندما تنخفض درجات الحرارة قليلاً. وفي وقت متأخر من إحدى الليالي، توجّهت إلى القصر الصيفي في جدّة، الذي يقع في بقعة سحرية على شاطىء البحر الأحمر مباشرة. ودخلت للاجتماع مع الملك

عبد الله، ابن الأعوام التسعين، والأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية الأطول خدمة في العالم. وكان سعود الفيصل خريجاً فخرياً من خريجي جامعة برنستون جاءت حكمته وكياسته من عمله كوزير للخارجية في المملكة لمدة تجاوزت الأربعين عاماً. لقد أصبح صديقاً جيداً، غير أن الشلل الرعاش جعله يواجه صعوبة في الكلام، لكنّه كان حاذقاً كما كان دائماً، وكانت ابتسامته دافئة.

حتى الملك نفسه لم يكن بصحة جيدة ذلك الوقت. كان يؤدّي مسؤولياته بكل شجاعة؛ لكنك لا تستطع أن تتنبأ أبداً بموعد لقائه مرة أخرى أو مدى قوته حينها. وقد أعربت له عن تقديري؛ إذ بذل جهداً، وقضى معي أقصى ما استطاع من الوقت. تحدّثنا لساعات عن سورية والعراق والمنطقة. ولم يكن الملك عبد الله ليتجاهل خيبة أمله بشأن عدم قصف سورية، لكن كان له رأي بعيد النظر عن الصداقة القائمة بين الولايات المتحدة والمملكة، وهي الصداقة التي بدأت في عهد فرانكلين روزفلت عام 1945، ومرت بلحظات مؤلمة خلال أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وخلال هذا الاجتماع، أعرب الملك عبد الله عن قلقه من أن قوى التطرُّف السنّي باتت تشكل تهديدًا طويل المدى للمملكة نفسها التي سوف يتركها في يوم من الأيام لآخرين في بيت آل سعود، بل تهديداً للإسلام نفسه. وفي الخلفية، كنا نسمع الأدعية والآيات القرآنية التي لا ينقطع صداها العذب في القصر، بينما كان يتلمس مسبحة الصلاة في يده.

كان الملك يخطط لدعوة مجموعة من زعماء المنطقة للقائي من أجل مناقشة مسألة التحالف. لم يدع الملك عبد الله العراق. فالجراح بين البلدين لم تزل غير ملتئمة. ولكنني سألت الملك إن كان بإمكان رئيس الوزراء عبادي أن يرسل وزير خارجيته الجديد. وافق الملك عبد الله على ذلك. ولم تكن هذه الدعوة ممكنة قط قبل شهر فقط من ذلك الوقت.

كنا نبني بصورة بطيئة، ولكن ثابتة، تحالفاً واقعياً وليس على الورق فقط.

بدأنا باستعادة الأراضي في العراق المدينة بعد المدينة، والميل تلو الآخر، ورحبت الحكومة الجديدة بما كنا نقوم به. لكن في سورية، كانت داعش تستولي على المزيد والمزيد من الأراضي من دون عقاب. لذلك كان علينا القضاء على الملاجئ التي كان التنظيم يبنيها هناك.

وأذن الرئيس بتوجيه ضربات جوية للنيل من داعش في الرقة، عاصمة التنظيم التي أعلن عنها، وفيما حولها وفي كوباني، وهي بلدة تقع في شمال

سورية بالقرب من الحدود التركية. وفي الليلة الأولى، طارت قواتنا العسكرية إلى جانب القوات السعودية والإماراتية والبحرينية والأردنية والأوروبية. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تتعاون فيها قواتنا العسكرية لمحاربة المتطرفين السنّة، وهي علامة فارقة في الحرب ضد الإرهاب.

وبحلول أوائل العام 2015، ارتفع عدد البلدان الأعضاء في التحالف إلى أكثر من ستين بلداً من كل مكان في العالم. وقد أخذنا بزمام المبادرة مرة أخرى في ظل إطلاق الآلاف من الغارات الجوية، وزعزعة الهيكل القيادي في داعش، وتقويض قدرتها على نشر المعلومات والدعاية التي كانت تطلقها، وتجفيف منابع التمويل التابعة لها، وتدمير شبكات التوريد الخاصة بها، وتشتيت أعضائها، وإجبار التنظيم على تغيير تكتيكاته بصورة منتظمة.

استعادت القوات العراقية سدّي الموصل والحديثة بالإضافة إلى الأراضي القريبة من مدينة تكريت. وفي سورية، حطّمنا مراكز قيادة داعش، ودمّرنا بنيتها التحتية النفطية وتمكّنا من رفع الحصار عن كوباني. وفي الواقع، أحرزت المعارضة التي كانت محاصرة منذ فترة طويلة تقدماً ملحوظاً، وكانت تتجه نحو اللاذقية معقل النظام. وفي تلك الأثناء، كان الأسد في غاية التوتر.

لكن داعش حافظت على موطئ قدم لها في سورية؛ ويُعزى ذلك أكثر ما يعزى إلى وسيلة التجنيد القوية التي استخدمها التنظيم، وهي ادعاؤه أنه سوف يحارب الأسد. إنها خطوة ثم خطوة؛ نلاحق داعش أولاً، ثم نتعامل مع الأسد. لكن، في الشارع السنّي، تساءل الكثيرون عن السبب في أنّ أولئك الذين زعموا معارضتهم للأسد كانوا يقاتلون الجهاديين الذين يقولون إنهم يحاربونه أيضاً.

كان الأمر فوضوياً. وفي خريف العام 2015، أصبح أكثر فوضوية.

كنت أتمنى أن يؤدي تقدُّم المعارضة إلى جانب تدخُّلنا العسكري ضد داعش في النهاية إلى إجبار النظام على العودة إلى طاولة المفاوضات. وبدلاً من ذلك، تضاعف دعم مؤيّدي الأسد، كإيران وحزب الله، عندما رأوا أن المعارضة حقّقت بعض المكاسب. وكانت إيران، وكذلك حزب الله، يدركان جيداً أن مشاركتنا كانت تقتصر على وقف داعش، وهي معركة نتشارك فيها، وتقتصر على مساعدة المعارضة. وعندما لم تؤدِّ زيادة الدعم الذي يقدّمانه إلى تحسين وضع الأسد، فعل أكبر الداعمين ما كان يريده الجميع تماماً. ففي 30 أيلول/سبتمبر 2015، شن الجيش الروسي أولى غاراته الجوية ضد المعارضة في سورية. وهنا، تغير الصراع بصورة أساسية، وأصبح من المتعذّر تغييره مرة أخرى.

أعلمنا الروس بأنهم يرسلون قواتهم العسكرية إلى سورية كما جرت العادة، أي من دون أي تبادل للمعلومات معنا. وقبل يوم من انطلاق الغارات الروسية، التقيت أنا والرئيس أوباما الرئيس بوتين في نيويورك. وناقشنا الوضع في سورية باستفاضة. ولم يلمح بوتين إطلاقاً إلى ما سوف يحدث هناك.

في صباح اليوم التالي، وبمجرد أن علمت بالخبر، التقيت سيرغي لافروف في رواق الأمم المتحدة. وقلت له: «سيرغي، هل أنتم الآن تقومون بغارات في سورية وتنقلون القوات؟ ما الأمر؟» بدا متفاجئاً وقال في البداية: «مستحيل، ماذا تقصد؟» ، فعرضت عليه التقارير الإعلامية. تغيّر لون وجهه بعض الشيء، وغادر سريعاً. ورأيته فيما بعد يتحدث على هاتفه المحمول. ربما كان سيرغي يتحايل؛ لكن كان من المعروف عن بوتين أنه يتعامل مع الأمور المتعلقة بقضايا مثل سورية وأوكرانيا، اللتين كانت لهما خصوصية شديدة عنده، بسرّية تامة.

في كلتا الحالتين، تجاوز الروس الحدود إلى درجة يعرفون أننا لن نجاريهم فيها. في بعض الأحيان، تكون «القوة الدبلوماسية» مجرّد طريقة راقية لتحديد من لديه الحصة الكبرى. وسورية تُعدّ لبوتين الدولة العميلة منذ فترة طويلة تعود بدايتها إلى الحرب الباردة، وهي الموقع الذي تتمركز فيه قواعده البحرية، وموطىء القدم الوحيد له في الشرق الأوسط. لذلك لم تكن التكلفة التي يدفعها كبيرة للغاية في مقابل حماية استثماراته. في الحقيقة، أنا لم أتمكّن من توضيح القضية نفسها بصورة مقنعة في غرفة دراسة الموقف.

وبعد أسبوع أو أسبوعين، انتقلت أنا وتيريسا إلى بوسطن في عطلة طويلة نادرة بعيداً عن واشنطن. لكنني كنت قلقاً. لم أستطع النوم. كان شبح سورية يطاردني؛ ذلك أن استراتيجيتنا حتى تلك اللحظة، كانت تتمثل في ممارسة الضغط على الأسد من خلال مساعدتنا للمعارضة، على أمل إجباره على اللجوء إلى طاولة المفاوضات. أما وقد تدخل الجيش الروسي الآن، فإن أي قوة بسيطة كان من الممكن أن نغتنمها ذهبت أدراج الرياح. انتعش النظام مرة أخرى. وللمعارضة أن تتوقع شتاءً دموياً.

طرحت على نفسي سؤالاً مختلفاً: ماذا لو ركَّزنا في المقام الأول على إنهاء سفك الدماء وتقديم المساعدات الإنسانية إلى مَن يحتاجون إليها؟ إذا حدث وقف حقيقي لإطلاق النار، فقد نتمكّن من إحراز تقدم على الصعيد السياسي.

وسوف تكون مشاركة روسيا في كل خطوة من هذه الخطوات أمراً أساسياً، لا يمكن تجنبه.

كان البيت الأبيض متشكِّكاً. لمَ تؤيّد روسيا وقف إطلاق النار؟ وماذا بشأن قيادة التفاوض على الانتقال السياسي؟ كانا سؤالين منطقيين. لذلك أقررت قائلاً: ربما عجزنا عن إنجاز ذلك. لكنني كنت أعتقد أن للبيت الأبيض إجابات معقولة عن مثل هذه الأسئلة. فمن ناحية، تبنّت كلٌ من إيران وروسيا مبادئ مماثلة لمبادئنا بشأن كيفية حدوث الانتقال السياسي. لذلك كنت أزعم أنهم قد يرحِّبون بوقف إطلاق النار من أجل تحقيق نتيجة سياسية معقولة؛ ذلك أن روسيا، في ثمانينات القرن العشرين، تورَّطت في الوحول الأفغانستانية وتعلّمت درساً قاسياً. وكان بوتين عقيداً شاباً في الاستخبارات السوفيتية في تلك السنوات التي وقع فيها أفضل ضباط الجيش الروسي وألمعهم في مفرمة لحم، يقاتلون في معركة ما كان لهم أن ينتصروا فيها. وبالتالي لن يرغب الروس في النزف إلى الأبد في سورية. لذلك يُحتمل أن يوافقوا على استراتيجية خروج تحمي مصالحهم.

ولكن الأهم من ذلك هو: ماذا لدينا من بدائل؟ هكذا سألت متابعاً: هل يرى أي شخص إجابة مجدية يمكننا فرضها بصورة انفرادية، بينما تحلّق روسيا بطائراتها فوق سورية؟ كنت أعرف أنني لم أكن أمتلك أفضل أوراق اللعب، لكنني فضّلت اللعب بهذه الورقة بدلاً من الجلوس فحسب، و«الإعجاب بالمشكلة» في الوقت الذي يتزايد فيه عدد النازحين يوماً بعد يوم، وتُسقط فيه البراميل المتفجرة بصورة عشوائية على المدارس، وتُدمّر فيه مدينة حلب الأسطورية، ويبدو فيه المجتمع الدولي عاجزاً أمام العالم عن محاسبة المسؤولين عن تلك الفظائع.

وفي أواخر الخريف، قبل لافروف اقتراحي بتجميع مجموعة من البلدان، عُرفت فيما بعد باسم المجموعة الدولية لدعم سورية. ولكن لم يكن لينجح أي حل ما لم تكن جميع الأطراف الرئيسية جزءاً من العملية بما في ذلك إيران. وقد استغرق الأمر أسابيع من العمل، لكن في نهاية الأمر، عندما عقدنا أول اجتماع، كان وزيرا خارجية إيران والسعودية جالسين على الطاولة نفسها التي يجلس عليها وزراء خارجية تركيا والعراق ومصر. وبالنظر إلى التوترات التي كانت قائمة بين جميع الأطراف، فإن ذلك كان يعد بحد ذاته علامة فارقة إن لم يكن تقدماً كبيراً. وفي النهاية، اتفقت جميع البلدان الواحدة والثلاثين على بيان يتعلق بشكل عملية السلام المحتملة.

وبحلول كانون الأول/ديسمبر 2015، اتفقنا على سلسلة من المبادئ لتوجيه عملية السلام أقرّها بالإجماع لاحقاً مجلس الأمن بالقرار رقم 2254،

الذي كان بمثابة خارطة طريق جديدة تدعم تشكيل حكومة سورية انتقالية، وعقد انتخابات ديمقراطية بإشراف الأمم المتحدة في غضون عام. وعلى الفور، بدأ التخطيط لوقف إطلاق النار وزيادة وصول المساعدات الإنسانية.

وفي 11 شباط/فبراير 2016، عقدت المجموعة الدولية لدعم سورية اجتماعاً آخراً في ميونيخ للتحدث عن وقف إطلاق النار والتقدم الإنساني. وكالمعتاد، دام الاجتماع أكثر مما كان يُفترض له. ورفضت المعارضة السورية بشدة استخدام مصطلح «وقف إطلاق النار» ؛ ذلك أنهم يرون أنه يعني ضمناً توقُّفهم عن قتال الأسد. وكان من الأسهل تقبُّل مصطلح «وقف الأعمال العدائية» . في الواقع، لم أكن أهتم بالمسمّى قدر اهتمامي بما سوف يترتب عليه. هل يمكن أن يتوقّف العنف، وأن يسمح بتوصيل المساعدات الإنسانية؟ هل يمكن أن يفسح المجال أمام الزعماء لإقناع الأطراف المتنازعة بإجراء مفاوضات حقيقية للتوصل إلى تسوية سياسية؟

وفي منتصف ليل 27 شباط/فبراير 2016، بدأ تنفيذ وقف الأعمال العدائية. في البداية كانت مدته أربعاً وعشرين ساعة بعد ذلك أصبحت مدته ثماني وأربعين ساعة، ثم أسبوعًا، ثم أسبوعين، ثم ثلاثة أسابيع.

ثم بدأ انتهاك هذه الهدنة ببطء في البداية، ثم بسرعة أكبر بعد ذلك؛ إذ ادعى النظام أنه يقصف الإرهابيين في الوقت الذي كان يضرب فيه بصورة رئيسية الثوار الأكثر اعتدالاً. وبطبيعة الحال، لكل فعل رد فعل. لذلك بدأت المعارضة بالطبع بمهاجمة قوات النظام. ولم يمضِ وقت طويل حتى عاد العنف مرة أخرى إلى ما كان عليه قبل وقف الأعمال العدائية، بل أصبح أسوأ في بعض الأماكن. ولم يحمِّل أحدٌ الأسد أو المعارضة المسؤولية. والأسوأ من ذلك أن المتطرفين في تنظيم القاعدة والذين يطلق عليهم الآن «جبهة النصرة» قد اختلطوا مع من نطلق عليهم المعارضة المعتدلة، وهي حقيقة مزعجة، دفعت عدداً من أنصار المعارضة إلى عدم الرغبة في المواجهة.

ورأى بعض الزملاء في واشنطن أن ذلك يكفي؛ إذ يعتقدون أنه لم يعد ثمة ما يمكن القيام به أكثر من ذلك. وبطبيعة الحال، لم أوافقهم الرأي؛ ذلك أننا وضعنا المبادىء الصحيحة على الطاولة، وأن علينا أن نجد طريقة لتفعيلها مرة أخرى. ولم أكن لأتوقف عن المحاولة إلا عندما يطلب مني الرئيس أوباما ذلك. هو، في الواقع، لم يطلب مني ذلك.

لكنني لم أنجح قط في إقناعه بإعطائي الأداة التي لطالما رغبت فيها والمتمثلة في تقديم دعم أكبر؛ لا أقول إرسال قوات إلى سورية، أو القيام

بعملية واسعة النطاق، بل تنفيذ غارة جوية صغيرة على هدف مناسب لتكون بمثابة رسالة موجهة.

ومن الغريب أن إشراك البنتاغون في مناقشة الخيارات العسكرية الأكثر جرأة لم يكن أمراً سهلاً؛ حتى أنني لا أزال أذكر أحد الاجتماعات العالقة بذاكرتي. كنا قد انتهينا للتو من اجتماعنا المعتاد، إلى حد الرتابة، بشأن الخيارات المتاحة للتعامل مع الأزمة السورية. واتفقنا على عدد من الخطوات البسيطة. وبعد ذلك، طرحت على جميع المجتمعين في غرفة دراسة الموقف سؤالاً أساسياً: «دعونا نكن صادقين. هل يرى أي منكم أن ثمة خياراً قادراً على تغيير أي شيء فعلاً بخصوص الأسد أو روسيا؟» اتفق الجميع على الآتي: لا يمكن لأي من الخيارات الحالية أن تغيّر من مجريات الأمور. فالتفتُّ إلى شاشة الفيديو التي كان يظهر عليها قائد القيادة المركزية الأميركية الجنرال لويد أوستن الموجود في مدينة تامبا، وقلت:

«جنرال أوستن، إذا قال لك القائد العام: أريد منك إنهاء هذه المأساة التي تعيشها سورية في غضون الأشهر الستة أو التسعة القادمة، فهل لديك خيارات يمكن أن تقترحها وتفضي إلى تحقيق ذلك الهدف؟» .

فقال الجنرال أوستن مجيباً: «سيدي الوزير، لا أظن أن الرئيس يفكر في ذلك» .

فقلت له: «حسناً، ولكنني لم أسألك عمّا يدور في رأس الرئيس. إنني أريد أن أعرف: هل من خيارات عسكرية حقيقية يمكن أن تنهي هذه الحرب في غضون ستة أشهر أو تسعة؟» .

«بالطبع هناك خيارات. ولكن الرئيس لا يريد...» .

تدخّلت هنا سوزان رايس في المحادثة، وأنقذتني من شعوري الواضح بالإحباط، وأنا مدين لها بذلك في الواقع؛ وقالت: «يقول الرئيس على الدوام إنه يريد أفكاراً جديدة. إذا كانت لديك خيارات إضافية لم تُقدَّم بالفعل، فلتقدِّمها حتى تُعرض على الرئيس» .

لم أكن الوحيد الذي يدعو إلى المزيد من التدخُّلات الأشد فاعلية؛ ذلك أن سامانثا باور، سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، وإلى حد ما جون برينان، مدير وكالة الاستخبارات المركزية، كانا يعتقدان أن المخاطر المترتِّبة على عدم اتخاذ المزيد من الإجراءات تفوق تلك المخاطر المترتِّبة على استخدام القوة العسكرية المحدودة. لكن البنتاغون، والأهم من ذلك الرئيس،

لم يقتنعا كالعادة بمدى أهمية القيام بعمل عسكري صريح، من أجل دعم المعارضة السورية مهما تكن محدوديته.

كانت وزارة الدفاع تعارض ذلك البديل الوحيد المتاح تماماً، وترى أن من الضروري العمل بصورة مباشرة مع روسيا من أجل تهدئة النزاع. وكنا جميعاً نعرف آنذاك أن وقف إطلاق النار، وإدخال المساعدات الإنسانية، ما كانا لينجحا من دون منع السلاح الجوي السوري من الطيران. فالضربات الجوية للنظام كانت هي السبب الرئيسي في إخفاق وقف إطلاق النار، والدافع الأساسي الذي أجبر العديد من السوريين إلى اللجوء، والمصدر الأول الذي تنبني عليه قوة النظام العسكرية التي تجعل المعارضة المعتدلة تشعر وكأنها أهداف سهلة. وأخبرني الرئيس بوتين، وكذلك لافروف، أنهما راغبان وقادران على إبقاء طائرات الأسد في قواعدها. وفي المقابل، يرغبان في أن نتعاون معهم عسكرياً في قتال داعش وجبهة النصرة. ودفعني ذلك إلى التفكير: إذا كانت داعش وجبهة النصرة من بين أعدائنا، ومن المفترض أننا نستهدفهما في أي حال، فلمَ لا نرغب في التنسيق الدقيق مع روسيا من أجل تدمير داعش بصورة سريعة، مع تحسين فرصة الوصول إلى تسوية سياسية؟ في النهاية، اتفقنا علناً على الخطوط العريضة للتسوية. وبسبب تصاعد حدة المعارك، وطول الحرب والآثار السلبية لذلك على المنطقة وأوروبا، وتهديد داعش الذي كان يؤدّي وجودها يوماً بعد يوم إلى زيادة التحديات الأخرى التي نواجهها في المنطقة، لمَ لا نرغب في التعجيل باختبار اقتراح قتال داعش والقاعدة؟ إذا نجح، فإننا بذلك نقاتل الإرهابيين الفعليين في الوقت الذي سوف تكون روسيا قد منحتنا حق الوصاية على أي ضربة جوية. وإذا لم ينجح، فستخلصنا من التشويش والجدل المستمر بشأن تحديد المسؤوليات. وبذلك نكون قد كشفنا الروس. إذاً ما السيىء في هذا الاقتراح؟

رفض وزير الدفاع الجديد، آش كارتر، الفكرة على الفور؛ إذ لم يعجبه أن تظهر الولايات المتحدة الأميركية بمظهر المتعاون مع روسيا في أي قضية. ولم يكن يثق بروسيا، وكان يرى، من وجهة نظر عسكرية، أن الغنائم التي سوف يغتنمها الروس ستزيد على المكاسب التي سوف تجنيها الولايات المتحدة الأميركية جرّاء ذلك. صحيحٌ أننا علّقنا شتى أنواع التعاون العسكري مع موسكو عام 2014، بعد أن ضمت إليها شبه جزيرة القرم. لكن العقوبات المفروضة على روسيا بشأن أوكرانيا سوف تظل على حالها. وكنت أنوي التساهل مع أي ادعاء تطلقه روسيا بأنها حقّقت بعض الانتصارات الساحقة في العلاقات العامة بسبب التعاون العسكري، إذا كان ذلك يعني أن سلاح الأسد لن يقتل السوريين، وإذا كنا سنتمكّن من تدمير الإرهابيين بصورة أسرع.

لم أستطع آنذاك فهم سبب عدم مرونة آش، ولا أزال كذلك حتى هذه اللحظة. لم يغير رأيه على الإطلاق. وفي الوقت نفسه، لم يكن لديه أي اقتراح يمكن أن يفضي إلى إنهاء الحرب الأهلية السورية، وكل ما فعله هو الاستهزاء بالفكرة الوحيدة المتاحة.

وبعد الكثير من النقاشات، أعطانا الرئيس الضوء الأخضر لإعداد اقتراح مفصّل.

من حيث الشكل، كانت الخطة بسيطة، وهي بدء وقف إطلاق النار فوراً، ومنع قوات الأسد من الطيران، ودخول القوافل الإنسانية إلى المناطق المحاصرة. إذا حدث ذلك بسلاسة لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، فسوف يبدأ الجيش الأميركي بالتنسيق مع الروس من خلال ما أطلقنا عليه خلية التنفيذ المشتركة. وبمجرد الانتهاء من هذه المرحلة بنجاح، فإن المفاوضات ستبدأ من أجل إنهاء الحرب.

بدا لي ذلك الاقتراح منطقياً غير أن آش عارضه؛ إذ يرى أننا نحتاج إلى سبعة أيام من الهدنة، وليس مجرد يومين، قبل أن نبدأ العمل مع الروس على قتل الإرهابيين.

أصابتني الصدمة. فاستمرار الهدنة مدة سبعة أيام بدا لي ضرباً من ضروب المستحيل؛ إذ لا يمكن إغفال وجود الأعداد الكثيرة من العناصر المخرِّبة، من طرف الأسد من ناحية ومن طرف داعش وجبهة النصرة من ناحية، وجميعها ترغب في أن تخفق هذه المساعي. لمَ؟ لأن جزءاً من الاتفاق كان أن تتعهّد روسيا أن تبقي الطائرات السورية في قواعدها، وهذا ما لم يكن يريده الأسد، والجزء الآخر من الاتفاق كان أن نستهدف، نحن وروسيا، معاً جبهة النصرة وتنظيم داعش اللذين لا يريدان ذلك أيضاً بالطبع. لذلك كان منح الأطراف الفاعلة سبعة أيام لقطع الهدنة، وهذا آخر ما كان لدينا. لكن آش ثبت على موقفه. وقّع الرئيس على خطتي الشاملة، غير أنه قبل الشرط الذي وضعه آش وهو ضرورة صمود الهدنة سبعة أيام. كان محكوماً على الخطة بالإخفاق، حتى قبل أن نخرج من غرفة دراسة الموقف.

اجتمعنا مع الروس في جنيف من أجل مراجعة الاقتراح، ووضعه في صيغته النهائية. وتوصّلنا إلى اتفاق بحلول ظهر يوم الجمعة التاسع من أيلول/ سبتمبر. ولكن بالنظر إلى تأخّر توقيت واشنطن ست ساعات عن توقيت سويسرا، انتظرنا بعض الشيء؛ إذ كنا بحاجة إلى مراجعة الاقتراح في صيغته النهائية. وبعد تسع ساعات من إرسال النص إلى واشنطن، أرادت واشنطن

إضافة سطر واحد، لكن لافروف قال إنه يعتبره حشواً لا داعي له. فأخبرته بإصرار واشنطن عليه. وهنا تحوّل سيرغي وغضب بشدة كما كان متوقعاً وقال بحدة: «تباً، هل تمزحون معي؟ هذا وارد فعلاً في هذه الاتفاقية اللعينة! لقد غطّينا حقًّا هذه النقطة!» .

أكّدت له ثانية أننا نحتاج إلى إضافة هذا السطر. وفي النهاية، رضخ لافروف وقال: «حسناً، يمكننا إدخال هذه الإضافة بشرط واحد، وهو أن نضيف أيضًا، بعد هذه الجملة الجديدة، مباشرة: ‘كما هو موضح أدناه في هذه الفقرة اللعينة’» . استبعدنا الشتيمة ووافقنا على ما دون ذلك. وقد تضمّن النص النهائي لاتفاق التاسع من أيلول/سبتمبر إضافتيْ كل من واشنطن ولافروف.

بدأت أيام «الهدنة» السبعة المتَّفق عليها بهدوء في منتصف أيلول/سبتمبر، قبل أن تتوجّه بلدان العالم إلى نيويورك من أجل حضور انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة الأخير بالنسبة إليّ كوزير للخارجية. وفي السابع عشر من أيلول/سبتمبر، ظهر على هاتفي خبرٌ مثيرٌ للقلق ضمن تنبيهات الأخبار العاجلة، يفيد بأن غارة جوية أميركية قتلت، من دون قصد، سبعين عنصراً من قوات النظام السوري.

تواصلت مع لافروف، الذي بدا غاضباً للغاية، في أسرع وقت. الروس يتهموننا باستهداف السوريين عن قصد ملمحين بصورة خبيثة إلى أن من غير الممكن أن يرتكب الجيش الأميركي، بسبب قدراته القتالية، مثل هذا الخطأ. لذلك اتهموا الجيش مباشرة بعدم الرغبة في العمل معهم، وبالتالي التصدي لإمكانية ذلك عن قصد. وقد دافعت بشدة في السر والعلن، وقلت إن هذه الحادثة غير مقصودة تماماً، غير أن شيئاً مما قلت لم يكن ليغيّر قناعة لافروف بأنها كانت حادثة مروّعة.

وبعد يومين، جرى قصف قافلة إنسانية أثناء محاولتها نقل مساعدات إلى المدنيين في حلب. ولم يكن هناك أي طائرات في المنطقة المجاورة سوى الطائرات التابعة للسوريين والروس، كما أشارت تقارير شهود العيان، وكذلك تقارير تتبع حركة الطائرات، بأصابع الاتهام إلى السلاح الجوي السوري. فالمعارضة لم يكن لديها أي طائرات. كل شيء توقعته حدث بالفعل. قضينا شهورًا في التفاوض على مسار تلك القافلة. وفي الواقع، لم يكن قصف عمال الإغاثة أمراً دنيئاً فحسب، بل كان القصاصة الأخيرة في العملية الدبلوماسية التي علّق عليها الكثيرون جدّاً آمالاً كثيرة. ولم نختبر قط مدى إمكانية أن يؤدي التعاون - من أجل مناهضة التطرف وتطبيق وقف إطلاق النار ضد الأسد إلى

جانب الوصاية على الطلعات الروسية والسورية، إلى إحضار الجميع حول طاولة المفاوضات.

وبعد يومين آخرين، جلست أنا ولافروف في مقعدين متباعدين في جلسة مجلس الأمن. وتحدث لافروف قبلي. وبينما كنت أستمع إليه، لم أستطع احتواء شكوكي. فشل الاتفاق بهذه الصورة السريعة، بدءاً بحادثنا المؤسف، الذي أعقبه قصف للقافلة الإنسانية، أعاد الروس بصورة واضحة إلى تكتيكات الوضع الراهن. لقد استعدت في هذه اللحظة المناسبة كل ما حدث. ورغم الهجوم على القافلة، دعا لافروف إلى استئناف المحادثات السياسية السورية - السورية سريعاً «من دون أي شروط مسبقة» . ودعا إلى إجراء تحقيق «شامل ومهني» بشأن الهجوم الذي وقع على القافلة. ونفى إمكانية أن يكون الروس أو السوريون هم من هاجموا القافلة في الوقت الذي تثبت فيه الأدلة والمنطق خلاف ذلك. وطلب من نظرائه «الامتناع عن ردود الفعل العاطفية» .

وبعد ذلك، جاء دوري في الحديث.

وبدأت حديثي قائلاً: «لقد استمعت إلى زميلي من روسيا. وقال إن من المتوجّب ألّا يفرض أحد شروطاً مسبقة، لكي يأتي إلى طاولة المفاوضات.... كيف يمكن أن يجلس أشخاص على طاولة المفاوضات مع نظام يمطر المستشفيات بالقنابل وغاز الكلور مرة تلو الأخرى، ويعمل في مأمن من العقاب؟ أيفترض أن تجلس إلى الطاولة نفسها وأن تتجاذب أطراف حديث حلو الكلام في جنيف... في الوقت الذي وقّعت على وقف لإطلاق النار ولا تلتزمه؟»

وكنت أكثر من أي شخص آخر أرغب أن تستمر المحادثات، لكنني لم أكن لأسمح لروسيا بأن تفلت بفعلتها من خلال التلاعب الفادح بالكلام.

وتابعت: «دعونا نفكر في ما حدث في اليومين الأخيرين. أولاً، زعم السكرتير الصحفي للرئيس بوتين... أن الهجوم على القافلة الإنسانية كان بصورة ما رداً ضرورياً على هجوم مزعوم من جانب جبهة النصرة في أماكن أخرى في البلد: كان هذا هو الزعم الأول. ثم قال سفير روسي إن القوات الروسية والسورية لم تكن تقصف المنطقة، لكنها كانت تستهدف قرية خان طومان. ثم سمعنا رواية مختلفة تماماً: قالت وزارة الدفاع في الاتحاد الروسي إن قافلة المعونة كان يرافقها متشددون في شاحنة بيك آب مثبت عليها مدفع هاون، وهو ما لم نرَ، رغم ذلك، دليلاً عليه. وفي أي حال، لن يبرر ذلك انتهاك وقف أعمال القتال... ثم تحوّلت وزارة الدفاع في الاتحاد الروسي تحوّلاً تاماً وأنكرت تورط روسيا. ووفقاً لما ذكره المتحدث باسم الوزارة، إيغور

كوناشينكوف، لم تنفّذ روسيا ولا سورية غارات جوية ضد القافلة الإنسانية التابعة للأمم المتحدة في الضواحي الجنوبية الغربية لمدينة حلب» .

«ثم مضى كوناشينكوف خطوة أبعد، وقال إن الأضرار التي لحقت بالقافلة كانت نتيجة مباشرة لاشتعال النيران في الشحنة، وأن الشاحنات والأغذية والأدوية قد احترقت فحسب من تلقاء ذاتها. هل يصدق أحد هنا ذلك؟» .

وبينما كنت في طريقي إلى خارج قاعة مجلس الأمن، شعرت للمرة الأولى أننا وصلنا إلى نهاية الطريق. فإذا كان الروس مصرّين على اعتماد خطاب الوقائع البديلة هذا، فإن هذا يعني أن المفاوضات قد انتقلت بذلك من مرحلة الاستبعاد إلى مرحلة الاستحالة.

وفي تشرين الثاني/نوفمبر، بعد فوز دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية، حاولت للمرة الأخيرة تحقيق قدر من التقدم حتى وإن كان قليلاً. وكان ترامب قد أبدى إعجابه بمهارة الأسد في القيادة. لذلك كنت أرى أن شركاءنا في الخليج يحاولون التحلّي بروح التعاون في الأشهر الأخيرة من إدارة أوباما. وعلاوة على ذلك، عملنا جميعاً بفاعلية على عدد من عمليات وقف إطلاق النار التي لم تكتمل، غير أنها أنقذت بعض الأرواح، وقدّمنا مساعدات إنسانية إلى أماكن لم تصل إليها أي مساعدات إنسانية خلال أربع سنوات. كانت الخطوات رغم صغرها لا تزال خطوات. الروح الواحدة التي أُنقذت لا تزال روحاً رغم المأساة التي تعيشها وسط شلالات الرعب. وفي لوزان، استضفت وزراء خارجية روسيا وإيران والمملكة العربية السعودية وقطر وتركيا والعراق ومصر. ولكن كل ما قمنا به هو التفاوض على إخلاء حلب وتسليمها إلى النظام. في الواقع، لم أشعر يوماً بالعبثية قدر شعوري بها في ذلك اليوم.

بخصوص إدارتنا، فإن الجهود الدبلوماسية لإنقاذ سورية قد ماتت، ولا تزال جراح سورية مفتوحة.

ولا أزال أتساءل كل يوم، وحتى هذه اللحظة: كيف كان من الممكن لنا أن نضمد جراح سورية وكيف يمكن للعالم أن يفعل ذلك الآن؟

الفصل العشرون: حماية كوكب الأرض

توافدت درّاجات الشرطة النارية الأنيقة، من طراز بي إم دبليو، ترافق مواكب السيارات موكباً تلو الآخر إلى مكان محدّد بدقة، عند بوابة قاعة المعارض في مطار لو بورجيه، ليس بعيداً عن الموقع الذي حلّ فيه تشارلز ليندبيرغ بطائرته «روح سانت لويس» ، بعد رحلته الجوية الشهيرة التي عبر خلالها المحيط الأطلنطي عام 1927. ثم انفصلت سيارات الليموزين السوداء عن الموكب، واندفعت نحو مدخل كبير فُرش بسجادة حمراء ضخمة. وهناك ترجَّل قادة العالم، واحداً تلو الآخر، من سياراتهم ليحظوا بمراسم استقبال رسمي من جانب الرئيس الفرنسي فرانسوا هولاند. وصُوِّب عدد هائل من عدسات الكاميرات على القادة، وهم يقفون لالتقاط الصور، في ترتيب دقيق، ومشهد ثابت متكرِّر تحت الشمس يسجّله جمهور المتابعين والتاريخ.

وصل الرئيس أوباما في سيارة ليموزين كبيرة الحجم يسمّونها «الوحش» . كنت أرى أن من غير المناسب أن نصل إلى مقر مؤتمر الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغيُّر المناخ، ونحن في قلب هذا الوحش الآلي العملاق الذي يلتهم غالوناً من الوقود لقطع قرابة 3,7 أميال. لكن الخدمة السرية لا تضع حماية المناخ أو مثل تلك الرسائل الضمنية في حسبان أمن الرئاسة. مشى الرئيس على السجادة الحمراء، بينما التف الباقون حول منطقة المراسم.

توالت المواكب: رئيس الصين شي، رئيس وزراء الهند ناريندرا مودي، الرئيس الروسي بوتين، الملك عبد الله ملك الأردن. كان الرؤساء ورؤساء الوزارات والملوك والأمراء، وعددهم 150 شخصية، قد حضروا جميعاً إلى باريس، لأن العالم بدا وكأنه قد أجمع، في نهاية المطاف، على الحاجة الملحّة إلى التصدّي لتغيُّر المناخ. ولا أذكر أن أي اجتماع أو حدث آخر، بخلاف فعاليات الجمعية العامة للأمم المتحدة، قد شهد هذا الحشد من الحضور. لكنّه، على خلاف الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك، كان كل شيء فيه يجري

على وجه السرعة وفي الوقت نفسه، وفي اليوم نفسه، مختزلاً في إطار بضع ساعات. كان محفلاً استثنائياً. كما كانت فرصة للتضامن مع فرنسا. فقبل أسبوعين فقط، قام متطرفون إسلاميون بتفجير أنفسهم، وأطلقوا سيلاً من الرصاص داخل قاعة موسيقية في باريس، وفي ملعب لكرة القدم، وخارج حانات ومطاعم، مما أسفر عن مقتل 130 شخصاً، وإصابة مئات آخرين من الأبرياء. وتسبَّبت المخاوف الأمنية في إلغاء مسيرة مخطّطة منذ فترة طويلة لأجل حماية كوكب الأرض. ويالها من مفاجأة مذهلة: باريس في شلل تام بسبب ثلة تسعى إلى تدمير الحضارة، بينما كان مئات من قادة العالم يتجمّعون في محاولة لإنقاذ تلك الحضارة من تهديد وجودي مختلف.

داخل قاعة المعرض، تجمَّع رؤساء الدول معاً لالتقاط ما يُعرف بـ «الصورة العائلية» ، وكلهم يقفون متجاورين بانتظام على المنصة، وكأنهم طلبة يلتقطون صورة تذكارية. كانوا يستقبلون بعضهم بعضاً كأصدقاء قدماء، سواءً أكانوا قد التقوا من قبل، أم كانوا يتبادلون الكراهية علناً. حتى أن «بيبي» نتنياهو ومحمود عباس قد تصافحا للمرة الأولى منذ خمس سنوات. فبعض القضايا تكون مهمة للغاية، حتى أنها تجبر الأعداء على العمل في قضية مشتركة بينهم.

بعد ذلك، وفي تجاوز آخر للبروتوكول المعتاد في مثل تلك اللقاءات، مشى الجميع معاً ببطء، عبر ممر مغطّى إلى قاعة الجلسات العامة، التي كانت عبارة عن خيمة كبيرة ذات هيكل صلب جرى إعدادها للمؤتمر. كانت لحظة مساواة نادرة، يمشي فيها الزعماء متجاورين من دون تمييز، بغض النظر عن رغبتهم في تبادل الحديث، أو عدمه. كدت أضحك، وأنا أراقب لغة الجسد لبعض الزعماء أثناء مشيهم في الممر. لم يرَ أيٌّ منّا مثل هذا التجمع لقادة العالم، وهو يتدفق عبر رواق ضيق، كطلبة في مدرسة ثانوية، ينتقلون من حصة إلى أخرى.

كان هذا هو الافتتاح الرسمي للمؤتمر الحادي والعشرين للأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغيُّر المناخ. وسوف ينقضي اليوم الأول منه في إلقاء رؤساء الدول خطَبهم أمام الجلسة العامة. حيث قدّموا على التوالي وصفاً لشواغل بلدانهم، وحثّوا المؤتمر على المبادرة إلى العمل قبل فوات الأوان.

لم يكن السبيل إلى عقد هذا المؤتمر سهلاً كما قد يوحي هذا التجمع الكبير. ففي نظر كثير من الحاضرين، لا تزال هناك مشكلات صعبة يتوجَّب حلها. حيثُ ترغب الدول الأقل نموًّا في تلقّي بلدانها الفقيرة المزيد من تكنولوجيا الطاقة النظيفة في شكل منح وتبرُّعات، وخصوصاً أنها بالكاد

مسؤولة عن المشكلة الخاضعة للمناقشة. بينما تأمل الدول أو الجزر في النجاة من خطر الاختفاء تحت المحيط الذي لا تنفك مياهه تتصاعد. وبالمقابل، تريد الدول المنتجة للنفط حماية مصدر ثروتها ومحور اقتصادها، وهي تنتقل إلى اقتصاد من نوع جديد. لكل منطقة غريزة البقاء الخاصة بها. وبالطبع، واجهت الدول العشرون الكبرى، المسؤولة عن قرابة 80% من انبعاثات غازات الدفيئة حول العالم، ضغطاً هائلاً من المصالح الاقتصادية القوية.

ذهبت بي أفكاري إلى ليلة منذ أسابيع، سبقت تنصيبي وزيراً للخارجية. وكنت ليلتها أستمتع في لاس بلاسيتا، وهو مطعم صغير في كابيتول هيل يقدِّم أطباقاً سلفادورية، بعشاء مع رئيس هيئة موظّفي مجلس الشيوخ، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لموظفي وزارة الخارجية، بمعيتي. كنا نتحدث عن عبء العمل وازدحام جدول الأعمال، ونحن نستمتع بطبق الغواكامولي، وهو مزيج من صلصة الأفوكادو والمارغريتا، فكانت طريقة ممتعة في التخطيط للمستقبل.

في مناسبة سابقة، تحدث إليّ وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر عن مدى أهمية أن نحدد هدفين أو ثلاثة من الأهداف ذات الأولويات، وأن نعمل عليها دوماً. هكذا أخرجت مفكرتي، ودوّنت قائمة قصيرة وقائمة طويلة. وفي العام 2013، كانت هناك تحديات واضحة ودائمة أمام أي وزير خارجية أميركي: الأسلحة النووية، الحروب، الإرهاب، التطرف الديني. لكنني أردت أن أرتقي بأولوية أخرى، لا تقل إلحاحاً وخطورة في نظري، ولكن لا تُخصّص لها الموارد الكافية في وزارة الخارجية، والمدهش أن جميع الدوائر لا ترى فيها أزمة من الأساس. فقد أردت أن أعمل من أجل البيئة، تماماً مثلما عملت سلفي، هيلاري كلينتون، لقضايا المرأة. ولمَ ركَّزتُ في البيئة؟ الرد بكل بساطة هو أنني، حتى باعتباري شخصاً يؤمن بالعلم، وبعد ربع قرن من العمل في هذه القضية، كنت أعرف حقيقة علمية مؤكدة، هي أن تغيُّر المناخ يشكِّل تهديداً وجودياً للبشرية. فلا أرى أن لنا كوكباً بديلاً غير هذا الذي نعيش فيه.

إنني أتعجَّب بشدة، وأنا أجد أن هناك من الأفّاقين في الولايات المتحدة، ومن دون أدلة، ومن دون استقصاء علمي، مَن يزعم أن لا علاقة بين صنيع الإنسان وتفاقم أزمة تغيُّر المناخ. إنه أمر أفدح من حقبة التضليل المعلوماتي القديمة أيام الحرب الباردة. أما الأمر الأكثر مدعاة للقلق، فهو أن الرئيس الحالي للولايات المتحدة يساند مثل تلك الآراء الكارثية، ويقف في صف خيارات من شأنها أن تكبّدنا خسائر في الأرواح والثروات.

كان منبع هذا الاهتمام العميق بالبيئة، وحرصي على طرحه في الحياة العامة، هو اختيارات والدتي، واستلهام مواقف ريتشل كارسون الناشطة من أجل البيئة. لم تكن أمي تتحدّث معنا بشكل صحيح وملحّ عن البيئة، ولكنها

زرعت فينا تلك القيمة من خلال مثال قوي وراقٍ في الوقت نفسه. فيوم كنت في مدرسة بوتوماك، شجّعتنا على الخروج لنمشيَ وسط الطبيعة، حيث قمنا بدفن كلبتي ساندي. كان بوسعها تعرُّف أنواع لا تعد ولا تحصى من الطيور، وتحرص على الاستيقاظ مبكراً في بعض الأحيان، للخروج ومراقبة الطيور. وكانت من أوائل من أدركوا أهمية إعادة التدوير. وخدمت في لجنة الصحة في مجتمعها المحلي. وعلّمتنا أن نحترم محيطنا، وأن نجمع القمامة، وألا نكون سبباً في التلوُّث. كانت هي من رسَّخ عقيدتي المبكرة بشأن معنى النظام البيئي.

كان حولنا في جزيرة نوشون، بطبيعة الحال، موائل طبيعية تعاملت معها منذ سنواتي الأولى بكل احترام وتوقير. ولمّا كان معهد وودز هول لعلوم المحيطات يقع على الجانب الآخر من الجزيرة، فإننا لم نكن نزوره لنفتن بما فيه من أنواع الحياة البحرية وما نسمعه ونراه من قصص الاستكشاف فحسب، بل كنا كثيراً ما نصادف باحثي المعهد، وهم منهمكون في جمع العيّنات من شواطئ الجزيرة. وكانت والدتي معجبة كثيراً بجاك كوستو. وتحرص على مشاهدة الحلقات التلفزيونية التي يقدمها.

ويوم نُشر «الربيع الصامت» Silent Spring في العام 1962، وكنت في عامي الأول بجامعة ييل، غرست «راشيل كارسون» في جيل كامل شعوراً بوجود قضية ملحَّة أخلاقياً. كانت روايتها التي تتحدث عن تواطؤ الشركات والتراخي الحكومي والحرص على إخفاء الآثار القاتلة للمبيدات الحشرية على البشر، سبباً في أن أنتبه في ذلك الوقت لأمور مهمة. كنا آنذاك سُذَّجاً إلى حد بعيد، ولا يخطر لنا أن تعمل الشركات أو الحكومة على تضليل المستهلكين. كنا ننتبه بدهشة واستغراب لأمر أضحى اليوم من مسلَّمات الحياة. كما أخفت شركات السجائر كل دليل على أن التدخين سبب رئيسي في الإصابة بالسرطان؛ ولم نكن نعلم أن مكبّ نفايات ووبورن قد يكون سبباً آخر في إصابة الناس بالسرطان؛ بينما تتنصّل شركات الفحم من أي مسؤولية عن الأمطار الحمضية؛ والأمثلة الأخرى وفيرة. ولما كانت راشيل كارسون قد قرعت ناقوس الخطر، كان لي شرف المشاركة في تدشين الحركة البيئية الحديثة.

واليوم، في العام 2013، أي بعد مرور ثلاثة وأربعين عاماً على أول احتفال بيوم الأرض، بالإضافة إلى جهودي الكثيرة لأجل استصدار تشريعات بشأن المحيطات ومصائد الأسماك والأمطار الحمضية والمُناخ في مجلس

الشيوخ، كنت متحمِّساً لأنني كوزير للخارجية أمثّل رئيساً وإدارة ملتزمة بشدة التوصل إلى اتفاق عالمي بشأن تغيُّر المناخ في مؤتمر باريس 2015.

وحتى نحقق هذا الهدف، كنت مقتنعاً بأن الخطوة الأولى الأساسية هي إيجاد طريقة للتعاون مع الصين. فمن المؤسف أن تكون الصين والولايات المتحدة على طرفي نقيض في هذه القضية لعقود من الزمن. ولكن الوقت قد حان لإحداث تغيير في هذه المعادلة. وقد تحدثت في هذا الصدد مع الرئيس أوباما خلال اجتماعنا الأول بعد أن رشَّحني إلى المنصبّ. وجدته متحمِّساً. كانت لديه آمال فيما يمكن أن نفعله بشأن تغيُّر المناخ خلال فترة ولايته الثانية. لكننا كنا ندرك مدى صعوبة المهمة.

وقبل أربع أعوام، أي في كانون الأول/ديسمبر 2009، حضرت مفاوضات الأمم المتحدة حول المناخ في كوبنهاغن. وكان الهدف من المؤتمر التوصُّل إلى اتفاق عالمي بشأن الحد من انبعاثات غازات الدفيئة في كل دولة. وسبق لي أن حضرت العديد من تلك المؤتمرات، منذ مؤتمر ريو عام 1992. في كوبنهاغن، ساد التفاؤل بسبب مشاركة الولايات المتحدة. ولكن التفاؤل لم يكن الثمرة المنشودة. ففي حين كان شغف الرئيس أوباما في العمل على قضية المناخ تغيُّراً إيجابياً، كانت هناك قضايا صعبة يجب العمل عليها. أولها وأهمُّها تصنيف بلدان العالم إلى دول «متقدمة» ، وأخرى «نامية» .

كان من الأسباب الرئيسية لإخفاق بروتوكول كيوتو عام 1997، فرض متطلبات عديدة على الولايات المتحدة وبقية الدول المتقدمة، في حين لم يفرض أي شيء على الدول النامية، بما في ذلك الصين والهند؛ برغم أنهما تقفان وراء الكمية الكبرى من الانبعاثات. وفي ذلك الوقت، كانت الصين بالفعل ثاني أكبر مصدر للتلوُّث في العالم. وعلى الرغم من أنها قد وعدت بأنها ستقوم بجهود جدية، فإن عدم التقيد بجدول زمني يُقاس عليه، كان ينفي تلك الجدية. لم نكن بحاجة إلى تعهُّد جميع الدول باتخاذ الخطوات نفسها، لكننا احتجنا بالتأكيد إلى أن تتخذ كل الدول إجراءات جادّة تكفل للجميع مستقبلاً تنخفض فيه نسبة الكربون في الهواء.

أما العقبة الرئيسية الأخرى، فكانت الشفافية. فثمة انعدام للثقة إلى حد بعيد. لم يكن معظم المندوبين مرتاحين لفكرة السماح للدول بالمشاركة في تحديد مستويات خفض الانبعاثات. ليكون عليهم، من ثم، أن يثقوا بجديتها حيال تنفيذ ما تعهدت به. لقد مررنا بهذه التجربة، وبشكل صارخ، في اتفاقية المناخ الأول، التي جرى التوصل إليها في مؤتمر اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ للعام 1992 في ريو، التي اعتمدت بالكامل على التزامات طوعية، كان من الطبيعي أن تتبخَّر سريعاً. لقد أدركنا أهمية وجود

أطراف ثالثة تعمل على ضمان شفافية البلدان، بشأن الإجراءات التي تتَّخذها، وأن تتحقق من جدية الجهود التي تبذلها. ولم تكن الصين لتوافق على أمر مثل هذا. وهكذا قادت بشكل غير رسمي تياراً مضاداً قوامه كتلة الدول النامية. حيث اعتبرت الصين تدابير الشفافية القوية انتهاكاً لسيادتها.

لم أكن عضواً في فريق التفاوض الرسمي في كوبنهاغن؛ فذلك من اختصاص وزارة الخارجية. لكنني، بصفتي كرئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، عقدت عدة اجتماعات مع مفاوضين من الوفود الأميركية والأجنبية. كان سخطهم واضحاً. ذلك أنهم لم يحرزوا أي تقدم في أي قضية من القضايا الرئيسية. كنت أعرف بخبرتي أنها ليست بالمهمة السهلة؛ إذ كيف يجري ذلك وأنت تتعامل مع ما يقرب من مئتي دولة؟ لكن المفاوضات كانت أشد تعثُّراً مما توقعت. بدت المحادثات عقيمة تماماً.

تمثّل أمل فريق الرئيس أوباما في التوصل إلى اتفاق بحلول الوقت الذي يصل فيه الرئيس. لكنه، عندما وصل إلى كوبنهاغن، وجد أن عليه الكثير من العمل ليقوم به. تملَّصت الصين، ومعها ما يُسمى بمجموعة الدول النامية السبع والسبعين في العالم من أي مسؤولية عن تنفيذ تخفيضات كبيرة في مستوى الانبعاثات. واضطر الرئيس إلى التنقل على عجل من اجتماع إلى آخر. كان يقوم بجهود دبلوماسية شخصية عاجلة، في محاولة لاستخلاص أي نجاح في كوبنهاغن، حتى أنه دخل إلى اجتماع كان مقتصراً على قادة الصين والهند والبرازيل وجنوب أفريقيا. وتمكّن الرئيس أوباما من إقناع نظرائه بالالتفاف حول قائمة مبادئ، على الأقل، أصبحت تعرف بمسمى اتفاق كوبنهاغن. لكنه لم يكن الاتفاق الكامل الذي كان يطمح إليه.

ووفق منظور الجماعة البيئية، مثّلت كوبنهاغن إخفاقاً ذريعاً. ذلك أنها لم تبشِّر بالتخفيض المطلوب والملحّ للانبعاثات. ولكنها حقَّقت هدفين مهمين: أولهما، موافقة الاقتصادات الرئيسية في العالم، المتقدِّم منها والنامي، على تقديم التزامات وطنية للحد من التلوث. وثانيهما، الموافقة على مبدأ الشفافية. سيكون هذا على الأقل ركيزة لجهود لاحقة.

كانت مفاوضات سابقة قد حدَّدت الموعد النهائي الرئيسي لإبرام الاتفاقية في باريس عام 2015. والتزمت الأطراف بذل مزيد من الجهد بغية خفض الانبعاثات. هكذا أصبح التوصُّل إلى اتفاق في باريس محور كل جهودنا.

وفي غضون الأعوام التي ترأستُ خلالها لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، دخلت في نقاشات مستمرة مع الصين حول تغيُّر المُناخ. وكنت ألتقي في كثير من الأحيان شيه تشن هوا، الوزير الصيني المسؤول عن

مفاوضات المُناخ. التقينا في الصين، وفي الولايات المتحدة، وفي مؤتمرات شملت مختلف أنحاء العالم، الأمر الذي نمّى بيننا علاقة شخصية وثيقة. وذات مرة، التقينا في مطعم بمطار ترانزيت بحسب جداول رحلاتنا. وبالإضافة إلى ذلك، التقيت عدداً من المسؤولين الحكوميين الصينيين الرفيعي المستوى، ومنهم شي جين بينغ، الذي سيصبح لاحقاً رئيساً للبلاد. أكد لي جميعهم أن الصين تدرك مدى أهمية المشكلة وإلحاحها، وأنها مستعدة لأن تكون شريكة في الحل. أعرف أن الكلام سهل، ولكن تلك المحادثات العديدة جعلتني أعتقد أن هناك انفراجاً. أحسست أن حدوث شراكة حقيقية أمر ممكن.

أضحى عليّ أن أضع كل ذلك على طاولة الاختبار، بعد أن تولّيت وزارة الخارجية.

وبعد أن أدّيت اليمين رسمياً في الأول من شباط/فبراير 2013، كان أحد أبكر اجتماعاتي مع تود ستيرن، مبعوث الرئيس بشأن المناخ، وكذلك فريقه. طلبت إليه من فوري أن يدلي برأيه في كيفية توسيع نطاق التعاون بخصوص ملف المناخ بين الولايات المتحدة والصين. كان تود داعماً لي، ولكنه أبدى تشككه عندما أدرك أنني أتحدث عن تعاون موسَّع في غضون أسابيع أو أشهر، وليس أعواماً. قال إن هذه ليست آلية عمل اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغيُّر المناخ؛ وهي كذلك ليست آلية عمل الصينيين. تبيّن لي أن علينا أن نبدأ خطوة خطوة؛ حتى أن قرار البدء باستكشاف مجالات التعاون، على سبيل المثال، يستلزم مناقشات على مستوى الموظفين؛ ليصل في نهاية المطاف إلى تود؛ ويأتي، من ثمَّ، دور كبار المسؤولين. أي دوري أنا. نبّهني داني راسل، الذي سيصبح بعد بضعة أشهر مساعد وزير الخارجية لشؤون آسيا، إلى أن نهج الصين في التعامل مع أي ملف يتّسم بالبطء والثبات والتدريج. لا يفضّل الصينيون اتخاذ القرارات الرفيعة المستوى بغتة. وأنا أتفهّم تأنيهم وأقدِّره، لكن لا وقت لدينا لنضيعه.

أعرف، من واقع تجربتي الخاصة، أن للصين نهجاً عريقاً. لكنني اعتقدت أيضاً أن الصين مستعدة للقيام بما هو أكثر. وعندما وصل وزير الخارجية الصيني يانغ جيتشي لتهنئتي بُعَيد أدائي اليمين، انتهزت الفرصة وأخبرته بما يدور في خَلَدي. قلت له: «إن الصين والولايات المتحدة تتسبّبان في أكثر من 45% من حجم الانبعاثات العالمية. فإذا وجدنا طرائق بناءة للتعامل مع هذا الملف، يمكننا أن نكون مثالاً يحتذى للعالم» . وقد اتفق معي على أن التعاون المناخي بين الولايات المتحدة والصين، إنما هو تعاون مفيد للبلدين والعالم. وقال: «إنني أشاركك في اهتماماتك. نحن في حاجة للعمل معاً» .

وتحدثت مع الوزير يانغ مرة أخرى في الأسابيع التي سبقت أول زيارة لي للصين، في نيسان/إبريل 2013. أخبرته أنني أخطط للقدوم إلى بكين وبجعبتي بعض الأفكار حول ما يمكننا تحقيقه معاً.

طلبت إلى تود والفريق صياغة مذكِّرة تتضمّن تفصيلاً لهذا التصوُّر للتعاون بين الصين والولايات المتحدة. ولكن تود أخبرني بأسلوبه المهذب أنّني أسأت فهم طبيعة الأمور. وقال إن الصينيين لا يريدون أن يكونوا محل تجاهل، ونحن نعرض أفكارنا في اجتماع شخصي مع يانغ، الذي كان في ذلك الحين قد ترقّى إلى منصب عضو في مجلس الدولة. أوضح تود أن من الأفضل بحث أي اقتراحات وتمحيصها مع مسؤوليهم في المستويات الدنيا. أقلقني ما أحسسته من أن ذلك يعني السقوط في فخ البيروقراطية. ربما كانت هذه هي طبيعة الأمور، لكنني رأيت أننا في حاجة إلى تغيير تلك الديناميكية. ورأيت أن من الخطأ أن تكون زيارتي الرئيسية الأولى للصين من دون إحراز أي تقدم حقيقي.

تراجع تود أمام إصراري. وأرسل إليّ المذكِّرة التي طلبتها. وغادرت إلى الصين وفي نيتي تقديمها. وعلى متن الطائرة، وبينما كنت أراجعها مع داني راسل، أثار داني مرة أخرى مخاطر استعجال الصينيين. قلت له إنني مرتاح إلى المحادثة التي جمعتني بيانغ. وثقت بالعلاقة، وشعرت شخصياً بأننا لا نتعجّلهم إلى حد لا يطيقونه.

عرضت الأفكار على يانغ، عندما وصلنا إلى الصين. وأسعدني أنّه تقبَّلها بصدر رحب. وبحلول نهاية تلك الرحلة، وكانت بعد مرور شهرين من ولايتي، أطلقنا معاً مجموعة عمل تغيُّر المناخ بين الولايات المتحدة والصين، في التزام من أكبر دولتين منتجتين للانبعاثات، وأكبر اقتصادين في العالم، العمل معاً من أجل الحد بشكل كبير من تنامي الانبعاثات العالمية. وبعد ثلاثة أشهر، اعتمدت الصين والولايات المتحدة خمس مبادرات مشتركة لمجموعة العمل، مع التركيز في مجموعة من تحديات المناخ: من انبعاثات المركبات الثقيلة، وصولاً إلى تطوير الشبكات الذكية. وهكذا، أصبحنا أخيراً نتعامل مع هذا التهديد، العالمي ليس كمنافسين، بل كزميلين في فريق واحد.

كانت بداية. داوينا بها بعض جراح السنوات الماضية. لكنني ما زلت أشعر أننا في حاجة إلى إنجاز مشترك كبير يهيّئنا لتحقيق النجاح بعد عامين في باريس. أردت أن نكون قادرين على الوقوف مع الصينيين جنباً إلى جنب، وأن نعلن عن نهج تعاون يسهم في قيادة مجموعة الـ77 والعالم المتقدِّم إلى نجاح أكيد في باريس. وتوصّل أحد أعضاء فريقنا إلى فكرة أخرى في هذا الصدد، تستند إلى مقترح الولايات المتحدة السابق بأن تقدُم الدول أهداف خفض

الانبعاثات الخاصة بها قبل انعقاد مؤتمر العام 2015. فماذا لو أن الولايات المتحدة والصين حدّدتا سقف تلك الأهداف بإعلان كلٍّ منهما أهدافها الطموحة، وذلك أثناء قمة الرئيسين في بكين أواخر العام 2014؟ لقد رأيت فيها فكرة تحمل مقوِّمات النجاح، شرط استعداد الصينيين لبذل جهد كافٍ.

كنت أسعى إلى تعزيز المبدأ الذي سبق أن اعتمدناه في المفاوضات السابقة؛ وهو أن المسؤولية «مشتركة، ولكن الاختلاف في التعامل معها» ، أي قبول العالم المتقدِّم أن العديد من البلدان لم يكن في وسعها ببساطة أن تتحمَّل تبعات النهج نفسه الذي تستطيع تبنّيه. سوف يعلن كل منا عن أفضل ما يمكنه القيام به. ومن شأن ذلك أن يقدِّم النموذج الذي تحتذي به جميع الدول الأخرى. سوف نحدِّد أهدافاً قابلة للقياس وقابلة للتحقيق؛ وبالتالي ندعو جميع الدول إلى المشاركة فيها. وسوف يعني ذلك أن على الولايات المتحدة أن تعجِّل بتحديد هدفها. وما دمنا نستطيع إزالة هذه العقبة، يتبدّد الجمود الناجم عن المقارنة بين الدول النامية والمتقدِّمة. سوف نصل إلى باريس متَّحدين، الأمر الذي يجعل تحقيق هدفنا المشترك المتمثل في التوصل إلى اتفاقية مناخ عالمية شاملة، أسهل كثيراً.

أبدى الرئيس أوباما موافقته، بافتراض نجاحنا في إقناع الصينيين، على تحديد أهداف طموحة، حتى لا نفقد صدقيتنا. وما دام هدفهم صادقاً ومناسباً، فسوف نساعدهم ونحميهم من الانتقادات الدولية. كما أن تقاسم الأضواء مع الولايات المتحدة بهذه الطريقة الإيجابية يسهم أيضاً في تعزيز سعي الصين إلى تصدُّر المشهد العالمي. والأهم من ذلك أن هذا الطموح العالي يعود بالنفع على كلا الشعبين، وبقية شعوب العالم، في حال رَفْعِنا السقف إلى حد كافٍ. إن الصينيين يفضّلون صياغة مقترحات السياسات بما يكفل تحقيق مصلحة الطرفين، لكنهم كانوا في بعض الأحيان يضعون على طاولة المفاوضات ما لا يُحقّق سوى مصلحة الصين وحدها. بيد أن تعاوننا هذه المرة يُعدّ انتصاراً للجميع.

قضينا الصيف وأوائل الخريف نتفاوض سرّاً. فلو أن أي معلومة تسرَّبت قبل الأوان، لانهارت المبادرة بأكملها. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2014، أي قبل شهر من زيارة الرئيس أوباما للصين، دعوت يانغ جيتشي إلى بوسطن لبضعة أيام. كنت أريد أن تكون زيارته مثمرة وذات طابع شخصي قدر الإمكان. كان بعضُنا يشعر بالقلق من أن جهودنا لن تكتمل مع حلول وقت زيارة الرئيس إلى بكين. وبعد جلسة عمل صباحية، استضفت عضو مجلس الدولة يانغ لتناول الغداء في ليغال سي فوود عند ميناء بوسطن. وطلبت إلى تود ستيرن وجون بوديستا، مستشار الرئيس أوباما الذي كان يتولّى الاستعدادات في البيت

الأبيض لرحلة الصين، وكذلك كان مستشار الرئيس لشؤون المناخ، أن يكونوا معنا.

ولم يكن اختيار مكان الغداء اعتباطاً. فقبل بضعة عقود، شهد الميناء فضيحة بيئية وطنية، استهتر بها جورج دبليو بوش خلال حملته الانتخابية للرئاسة عام 1988. وكان ينطوي صيد الأسماك أو السباحة على مخاطرة كبيرة، لتزايد احتمالات الإصابة بالأمراض. واليوم، بعد مهمة تنظيف كلّفت ملياري دولار، أضحى المرفأ إضافة اقتصادية إلى المدينة. لذا أردت أن أظهر ليانغ جيه تشي عياناً أن بالإمكان تحويل كارثة بيئية إلى فرصة للازدهار الاقتصادي.

وكان اللقاء داخل قاعة خاصة في الطابق العلوي، صحبة مجموعة من المسؤولين الحكوميين الآخرين. وقفنا على الشرفة التي تطلّ على رصيف الميناء، نتأمل في الميناء ومنظره الرائع. وبعد ذلك، تحدّثنا على مائدة الغداء عن مسؤوليتنا المشتركة، بالنظر إلى حجم دولتينا وقوتهما، تجاه قيادة العالم نحو التصدي لتهديدات تغيُّر المناخ. قضينا، بعد ظهر ذلك اليوم، ساعاتٍ معاً. ومع أننا كنا صديقين منذ أعوام، فإنني شعرت بعد هذا اللقاء، أننا غدونا عند مستوى جديد من التفاهم. لقد أسهم اجتماع بوسطن في بلورة التحضيرات للقاء الرئيسين، وإصدار ذلك الإعلان القوي. وبرغم حدوث جدالات ما قبل اللحظة الأخيرة حول الأهداف، فإنّ العمل الشاق الذي قامت به وزارة الخارجية، والإسهام المهم من البيت الأبيض، بما في ذلك زيارة لاحقة للصين، قد سدّا كل الفجوات.

مر شهر. وفي يوم المحاربين القدماء، عندما كنت مع الرئيس أوباما في بكين، وقف هو والرئيس شي جنباً إلى جنب ليعلنا عن أهداف كل دولة بخصوص خفض الانبعاثات. كانت لحظات فارقة؛ ذلك أن دولتين كانتا لحقب من الزمن قائدتين لمعسكرين متعارضين تماماً بخصوص قضية تغيُّر المناخ، هاهما تتفقان معاً، وتغدوان شريكتين في مواجهة تهديد مشترك. كنا داخل إحدى القاعات الفرعية الفخمة في قاعة الشعب الكبرى، عندما كان أقوى رئيسين في العالم يدليان بتفاصيل إعلان لم يتوقعه أحد. وبعد أعوام طويلة، ألح فيها كثيرون علينا في محاولة ثنينا عما نقوم به، زاعمين أن من السذاجة السعي لمجرد المحاولة. وبعد أعوام طويلة من الجهد المبذول في السفر والتنقل من مؤتمر إلى آخر، شعرت أخيراً أننا في لحظة حسمت كل شيء. أضحى الإخفاق في ريو وكيوتو وكوبنهاجن تاريخاً وماضياً. اليوم، في بكين، يدرك الجميع أن الأمر ممكن. من شأن هذا اليوم أن يحفِّز مختلف البلدان في أنحاء العالم على أن تحذو حذونا بأهداف طموحة. أردنا أن نرسل إليهم رسالة

فحواها النجاح في باريس ممكن. بدأ السد العتيد الذي نطحناه لعقود يتصدع، ويوشك أن ينهار.

كان لزاماً علينا الحفاظ على الزخم، مع اقتراب موعد قمة كانون الأول/ديسمبر 2015 في باريس. ولم يمض وقت طويل حتى أعلن الاتحاد الأوروبي عن هدفه، وهو ما كان يعني أن أكبر ثلاثة كيانات مسبِّبة للتلوث في العالم ترفع راية التغيير. يالها من مؤشرات إيجابية. ولكن الصمت بقي غالباً على السواد الأعظم من بلدان العالم. وأصبح من الأولويات القصوى أن نشجِّع أكبر عدد ممكن من الدول على تحديد أهدافها مسبقاً قبل انعقاد قمة باريس. ومن الواضح بداهةً أن بعض الدول تفتقر إلى الموارد اللازمة لتحديد أهداف طموحة وواقعية، ناهيك بصياغة وتنفيذ سياسات من شأنها أن تساعدها بالفعل على تحقيق تلك الأهداف. ومن حسن حظ تلك البلدان أن الولايات المتحدة استطاعت حشد مجموعة كبيرة من خبراء المناخ لمهمة مساعدتها. قدّمنا إلى الحكومات مساعدة فنية واسعة النطاق حتى يتسنّى لها تحديد مستويات خفض الانبعاثات، ووضع أهداف، وتبنّي استراتيجيات للتنمية المستدامة. وكان منطلقنا هو حقيقة أن الانبعاثات في أي بقعة من العالم تهدِّد مستقبل البشرية بأسرها. وتمثّلت مصلحتنا الوطنية في التأكد من تبنّي مختلف دول العالم أعلى الأهداف طموحاً.

كان بمقدور فريق العمل بوزارة الخارجية متابعة تقدُّم الدول عن كثب. ومن جانبي، تأكدت أن الملف من أولويات باقي وزراء الخارجية، فكنت أطرح موضوع تغيُّر المناخ في أغلب الاجتماعات الثنائية. في البداية، كنت أشعر أن بعض الوزراء لا يأخذون الأمر بالجدية اللازمة، ذلك أن قضية تغيُّر المناخ لم تكن في نظر الكثيرين منهم من المهمّات التي تُعنى بها وزارة الخارجية. ولكنني كنت أرى أن الآثار الأمنية العالمية المترتبة على تغيُّر المناخ تفرض، من وجهة نظري، هذه القضية على أعلى المستويات الحكومية. ومن منطلق هذه القناعة، كنت أعقد كل أيلول/سبتمبر اجتماعاً سنويّاً لوزراء الخارجية يركز في قضية المناخ، على هامش اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة. ولم يمض وقت طويل حتّى أُحيط الجميع بأبعاد مشكلات المناخ، إحاطة كاملة. وصرت في كثير من الأحيان أجد من يسبقني إلى إثارة الموضوع.

مع اقتراب موعد محادثات باريس، كان من الضروري أن نتأكد من جاهزيتنا التامة. وفي تلك المرحلة، أدرك الرئيس أوباما ضآلة الأمل بإقرار إصلاح تشريعي في الولايات المتحدة، للحد من انبعاثات الكربون. لذلك قرر ألا خيار سوى استخدام سلطته التنفيذية في إطلاق خطة الطاقة النظيفة. وقد ساعد هذا القرار، بالإضافة إلى سياسات أخرى مثل المعيار الموحد لاقتصاد

الوقود CAFE، تستهدف استهلاك الوقود في السيارات، والاستقطاعات الضريبية لاستثمارات الطاقة المتجدّدة، على التأكد من أننا في طريقنا لخفض الانبعاثات على الصعيد المحلّي، وبشكل كبير.

ولكن، كنا بحاجة أيضاً إلى إجراء تغييرات في نهجنا تجاه ملف تغيُّر المناخ من منظور سياسة أوسع نطاقاً. وكنت قد لاحظت كيف يعمل فريقنا المعني بالمناخ في عزلة تامة داخل وزارة الخارجية. فلم يكن لدى معظم المكاتب الإقليمية فهم شامل وإحاطة متكاملة بهذه القضية، ناهيك بالمفاوضات المتعلقة بها. ومن الأدوات المتاحة لوزير الخارجية إصدار توجيه بالسياسات حتى يمكن توزيعها على الإدارة بأكملها. وهكذا بادرتُ إلى استغلالها في إعطاء الأولوية القصوى لملف تغيُّر المناخ. كنت أستهدف أن يصبح جميع الدبلوماسيين مطّلعين بدرجات متفاوتة على أبعاد هذه القضية، وأصدرت توجيهاتي إلى جميع المناصب والمكاتب بجعل هذه القضية أولوية عملهم الدبلوماسي اليومي.

ومن ناحية أخرى، جعلت من عمل الإدارة على ملف تغيُّر المناخ ركيزة رئيسية لوثيقة المراجعة الدبلوماسية والتنموية الرباعية، والتي توضع لتوجيه تخطيط وزارة الخارجية من إدارة إلى أخرى. وقد أدى ذلك، مثلاً، إلى إضافة وحدات معنية بالمناخ إلى مصادر تدريب الموظفين الجدد في الوزارة.

وفي الأعوام المقبلة، سوف يفرض تغيُّر المناخ كمّاً هائلاً من التحديات لموظفي الخدمة الخارجية في جميع أنحاء العالم. ومن المحتمل أن يكون هناك أعداد كبيرة من اللاجئين نتيجة ما يسبّبه تغيُّر المناخ من كوارث جفاف، وعواصف وأعاصير، ومجاعات ناجمة عن إخفاق كارثي للمحاصيل، وحرائق، وشح مياه، وتراجع مخزون الثروة السمكية، وارتفاع مستوى سطح البحر، وهجرة أنواع الكائنات بما في ذلك البشر، هرباً من درجات الحرارة القاتلة، والأمراض والأوبئة الجديدة، وإخفاق النظم الصحية في مواجهتها؛ وهي مجرد أمثلة على التحديات التي تفرض نفسها اليوم فعلياً. كان شغلي الشاغل واقعاً قاسياً لا نجد فيه بلداً من بلدان العالم يبذل جهداً كافياً بما يكفل لشعبه العيش بشكل مستدام.

ولما كنّا أصحاب قوة اقتصادية، وقوة عسكرية، وأصحاب قيم، إلى الدرجة التي ألزمتنا بهذا الدور المسؤول الذي نؤدّيه في العالم، فإن من المنطقي أن تقود الولايات المتحدة جهود التجاوب مع الأزمات العالمية. ولا شك في أن تغيُّر المناخ يأتي في صدارة تلك القائمة من الأزمات. ويلزم وزارة الخارجية إعطاء أولوية لهذا التهديد. ويجب على كل شخص فيها أن ينتبه لمدى

الترابط بين كل تلك القضايا والأزمات. فكل ما تتخذه حكومات الدول الأخرى من خيارات؛ وجميعها في صميم الدبلوماسية، يؤثر في بلادنا ومواطنينا.

عندما حانت اللحظة التي اجتمع فيها العالم أخيراً في باريس نهاية العام 2015، كان الجميع يعلمون أن رؤساء الدول لن يحضروا مختلف جوانب مسار التفاوض والمباحثات. كان الهدف من حضورهم مدّ تلك المفاوضات بالزخم. وبالإضافة إلى خطاب يوم الافتتاح، قضى الرئيس أوباما يومين في اجتماعات مع باقي الرؤساء، ومنهم بالطبع الرئيس الصيني شي ورئيس الوزراء الهندي مودي. وكما هو متوقع، كان من الصعب إجراء محادثات مثمرة تتلاءم وجداول أعمال مئة وخمسين قائداً وزعيماً. والأصعب هو التنقل من مكان إلى مكان بكل سلاسة وسهولة في ظل متطلبات التنسيق وتفاصيل الدواعي الأمنية. وقد غادر معظم رؤساء الدول باريس في غضون يوم أو يومين، وتركوا لنا مهمة التفاوض في جلسات يومية.

كان من المقرر أن أكون حاضراً في أكبر قدر ممكن من جلسات المحادثات. فبذلت كل ما في وسعي، وعانيت الأمرَّين خلال العديد من المؤتمرات على مدار السنوات السابقة. وكنت أتوق أن أشهد بنفسي لحظات جني الثمار، وهي اللحظات التي كان لنا فيها فضل كبير، بعد أن أقنعنا الصين بأن تكون طرفاً في تلك المفاوضات. لكنني اضطررت إلى المغادرة لبضعة أيام في خضم أسبوعَيِ المفاوضات، لحضور الاجتماع الوزاري السنوي لحلف الناتو في بروكسل، والذي ناقشنا فيه سياستنا في أفغانستان؛ وحضور الاجتماع الوزاري لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا الذي انعقد في بلغراد؛ لكنني كنت حريصاً على العودة إلى المفاوضات فور انقضاء مهمتي. كانت مفاوضات باريس أولوية قصوى، والجميع ينتظرون أن تحقّق أعمق تأثير إيجابي على مستوى العالم. فلا يمكننا أن نفوِّت هذه الفرصة. وكانت جميع الأطراف على علم بأن الدعوة إلى مؤتمر باريس قد حدَّدت فترة أسبوعين لمسار المفاوضات. وكان موعد اختتام أعمال المؤتمر هو الحادي عشر من كانون الأول/ديسمبر. فيا لها من ضغوط.

لو أننا نتحدث عن الخبرة بهذا الملف، لما كان هناك، على ما أعتقد، من هو أعمق خبرة من الولايات المتحدة. فبالإضافة إلى فريقي المباشر، كان هناك تود مع فريق كامل مختص بالمناخ. كان فريقاً استثنائياً ومخلصاً للقضية، وعمل سنواتٍ بلا كلل للاعتناء بكل خطوة نخطوها في هذه الرحلة. ومن دونه لم يكن التوصل إلى اتفاق ليلوح في الأفق من الأساس. ولدينا أيضاً خبراء من وكالة حماية البيئة، ووزارات الخزانة، والطاقة، والزراعة، فضلاً عن مكتب الممثل التجاري الأميركي. وهناك عدد من مسؤولي البيت الأبيض، ومنهم

بريان ديسي، الذي خلف جون بوديستا مستشاراً لأوباما في قضايا المناخ. وكنت قد التقيت بريان لأول مرة يوم كان متدرباً لديّ في مجلس الشيوخ. وسرعان ما شحذ ما يمتلكه من مهارات الفراسة وحسن التقدير. لذلك سعدت بالعمل معه مرة أخرى. إنه كادر بارع، يتمتع كل شخص فيه بمهارة ينفرد بها. لذا كانت لديّ ثقة تامة بممثلي الولايات المتحدة في تلك المفاوضات.

كنا ندرك، ونحن في الطريق إلى باريس، طبيعة العراقيل الكبرى التي ظلت أمامنا. لكننا مع بدء المحادثات، أصبحنا نشعر بديناميكية تتنامى. إن كل مفاوضات كبيرة من هذا النوع تنتهي منحصرة في بعض تيارات يوجّهها قادة إقليميون، أو الدول الكبرى ذات المصالح الكبيرة. وكما كنا نأمل، فقد وجدنا دينامية المواجهة بين البلدان النامية والبلدان المتقدمة دينامية ذات طبيعة مختلفة عن نسخ المؤتمر السابقة. ولكننا الآن أمام تحدّيات جديدة فرضت نفسها. فبدلاً من مواجهة مباشرة بين الولايات المتحدة والصين، يراقبها الجميع في رهان على هذا الطرف أو ذاك، ساد وفاق نسبي بين الدولتين. غير أن ذلك قد أدى ببعض البلدان، ولا سيما الدول الجزر التي يشكِّل تغيُّر المناخ تهديداً لوجودها، إلى القلق من أننا سنتوصل إلى اتفاق ضعيف يلبّي احتياجات دولتينا، وليس احتياجات الدول الأفقر.

هذا تخوُّفٌ يحسب له حساب. وتتطلب تهدئته دبلوماسية حذرة. التقيت قادة الجزر الصغيرة عدة مرات من قبل، وكذلك فعل الرئيس أوباما. وانتهزنا كل فرصة ممكنة لطمأنتهم بالتزامنا تجاه مستقبلهم. ولتأكيد ذلك، انضممنا إلى تحالف دول تقوده جزر ماريشال، هدفه المعلن التوصل إلى اتفاق طموح.

ورغم أن الولايات المتحدة تتفهّم بكل تأكيد مسؤولياتها كأغنى دولة في العالم، وصاحبة تاريخ طويل من تلوّث البيئة بانبعاثات الكربون، وأنها دعمت كلّيًّا ما سُمّي صندوق الأمم المتحدة للمناخ الأخضر لمساعدة الدول الأفقر في التعامل مع تغيُّر المناخ، فإننا أدركنا عدم قدرتنا على العودة إلى الوطن وفي جعبتنا اتفاق يفرض على الولايات المتحدة قانون دفع أي تعويضات عن التلوُّث الذي كنا نسبِّبه في حقب لم نستوعب فيها العواقب الراهنة. تلك عقبة كأداء.

كان حل هذه المعضلة ضرورة. ولكن فريق المفاوضين الأميركي وجد أن كبير مفاوضي دولة توفالو عنيد بخصوص هذه النقطة تحديداً. وفي حين كان رئيس وزراء بلاده، إنيل سوبواغا، أكثر معقولية، فإن كبير مفاوضيه كان هو المسؤول الأول عن الملف، وهو الحاضر دوماً في الاجتماعات. وبالتالي لم نحرز سوى تقدُّمٍ ضئيل. وهكذا اتفقنا أن أطلب اجتماعاً ثنائياً معه، لا يحضره سوانا، أملاً في أن يثمر عن تقدُّم إيجابي.

التقيته، وأخبرته أننا نحترم حرصهم على تسجيل موقف، وإلحاق البنود التي تنظِّم كل ما يتعلق بالخسارة والضرر؛ وأن لا خلاف على أهمية تلك البنود لتوفالو وشركائها في المفاوضات، ولكنها ستلحق في قسم من الاتفاقية مغاير لما اقترحوه. نحن نريد أن تكون نصوص المسؤولية والتعويض في صدارة الوثيقة وقلبها، حيث يهمّنا جدّاً أن نوضح أننا لا نقدِّم ذريعة لإقامة العديد من الدعاوى ضد دول العالم المتقدِّم.

ربما بدت هذه التسوية بسيطة اليوم، ولكن إقناع بعض الدول بها آنذاك كان مهمة عسيرة للغاية. وكما قد تتصوَّر، كانت الحماسة عالية بين الدول الأقل تطوراً، ولا سيما الدول الجزر التي كانت قضيتها قضية وجود، رغم أنها لم تكن السبب في المشكلة من أساسها. قناعتهم هي أن الدول الأكثر تقدُّماً تدين لهم بتعويض عن الأضرار. صحيحٌ أنَّنا اعترفنا بأن القرارات السيئة، التي صدرت أصلاً عن جهل ثم استمرّت جرّاء رفض عنيد لتقبُّل الحقائق، قد أسهمت في تفاقم هذه المشكلة العالمية، لكن لا سبيل لأن يُلزِم أي بلد ثري، أو ينتظر أن يكون ثرياً، نفسه بالتوقيع على بنود المسؤولية والتعويض. من هنا كان التوصُّل إلى تفاهم مع توفالو مسألة حاسمة ومحل ترحيب.

ومع اقتراب موعد انتهاء المحادثات، قام الفرنسيون، الذين استضافوا المؤتمر وكانت دولتهم ترأس المؤتمر حاليًّا، بإصدار مسوَّدات أولية لنص الاتفاقية. سارعنا بإعداد نسخ منها وتوزيعها على جميع خبرائنا، الذين تطلَّب الأمر منهم نصف ساعة لقراءتها والإحاطة بها. عقب ذلك، التحق كبار أعضاء الوفد بعدد من الخبراء في القضية في المساحة المكتبية المخصَّصة للولايات المتحدة، وحلَّلوا بدقة مختلف البنود: ما هو في مصلحة الولايات المتحدة وما هو في غير مصلحتها. وعلى الرغم من أن حضوري لم يكن منتظراً، فإنني وجدت فائدة في استماعي إلى الخبراء في خضم هذا النقاش. وجدت أن الاستماع إلى أشخاص كان كل منهم خبيراً في قسم بعينه من أقسام الاتفاقية، أفضل وسيلة أحدِّد بها ما يمكن أن «نمنحه» وما يمكن أن «نأخذه» .

واصلنا العمل جميعاً، ونحن نسابق الزمن، قبل يوم الجمعة الحادي عشر من كانون الثاني/ديسمبر، الموعد الأخير. وفي الصباح، تواصلت مع تود وحدَّدنا معاً قائمة الدول التي يلزمني الضغط عليها في ذلك اليوم. وكان الرئيس أوباما على الخط من واشنطن، حيث أجرى اتصالات مع نظرائه، ومنهم مودي، رئيس وزراء الهند، وديلما روسيف، رئيسة البرازيل.

ولكن الأمور تعثَّرت بحلول ليلة الخميس، بل شعرت في بعض الأحيان أننا نرتد إلى الوراء. عدت إلى فندقي قرب الحادية عشرة ليلاً، لإجراء اتصال مؤمن بواشنطن. لكن فريق الاتفاقية، الذي كان ساخطاً محبطاً لما كان

يسمعه في قاعة المفاوضات، طلب مني العودة إلى المفاوضين حوالي منتصف الليل. وفهمت سبب تعجُّله عندما وصلت إلى هناك؛ لقد تطوّر الاجتماع الذي ضم جميع الأطراف مرة أخرى إلى جدال حول المتطلبات: هل يُفترض أن تكون متفاوتة بين البلدان المتقدِّمة والبلدان النامية، أم لا؟ وفي لحظة، خشيت من أن تحلّ علينا الحجة نفسها، التي جعلتنا منقسمين لسنوات عديدة، والتي تخلّصنا منها بضمان تعاون الصين، بوجهها القبيح. جلست بين المندوبين، أستمع. وجدت العديد من الوجوه الجديدة. وأعربت البلدان الأقل نموّاً عن غضبها من أنّها تدفع ثمن نموّ الدول المتقدمة التي طوّرت اقتصاداتها من دون اعتبار لتأثير احتراق الوقود الأحفوري في البيئة. وفضلاً عن ذلك، فإنهم الآن وقد هيمنت الأجواء السلبية، لم يقتنعوا بحقيقة أن الدول الأشد ثراءً تتحمَّل قدراً كافياً من العبء. ذلك أن عبارة «مسؤولية مشتركة ولكنها متفاوتة» كانت في نظرهم تحدِّد مقدار ما تتحمّله كل دولة من دول العالم المتقدِّم من أعباء. شعرتُ بأن أفق الخلاص بعيد ولا يكاد يظهر.

كنا نجلس إلى طاولة مستطيلة هائلة الحجم؛ ووراء كل مفاوض من المفاوضين الستين، فريق من المساعدين يجلس خلفه في حلقة إضافية حول الطاولة. تلاقت عيناي عينيْ الرئيس، فطلبت الكلمة. قلت لهم: «أنا منزعج من بعض ما سمعته» . استفضت في الكلام، مستمدّاً الطاقة من الإشفاق على مجهودات سنوات طوال خبرنا فيها العديد من الحجج، كما خشينا خلالها مخاطر جمة. بدأت بتذكيرهم بأن من حضر المؤتمرات السابقة يعرف أن ما يدور الآن نقاش قديم. «كانت في الواقع حجة عقيمة على مر السنين. وعندما كنا في كيوتو حاولنا الحصول على تخفيضات إلزامية تفرض على الدول المتقدمة أكثر مما تفرضه على سواها، وهو ما كان مناسباً ومنطقياً، لأنها أسهمت في المشكلة أكثر من سواها. لكن ذلك أضحى هباءً الآن، لأن العديد من الدول، بما فيها دولتي، رفضت حقيقة أن بعض الدول لن تفعل أي شيء، حتى وإن كانت تسهم بشكل مطَّرد في المزيد من الضرر. وما لم نتشارك في المسؤولية ونعترف بها، فإننا بذلك ننضم جميعاً عن غير قصد منا إلى حلف انتحاري قاتل» . ثم انتقلت إلى النقطة الأكثر أهمية: «من العبث أن نقول إن الاتفاقية التي نحن بصدد المصادقة عليها تفتقر إلى التفاوت ومراعاة ظروف كل دولة على حدة. إن المساهمات موضوع النقاش أمر طوعي تماماً. وتحدّده كل دولة وفق ما يتراءى لها» .

«أنتم أمام اتفاقية هي في الواقع أعظم نموذج للتمييز يمكنكم أن تتخيّلوه. فكل دولة تقرِّر لنفسها ما هي مستعدة للقيام به، وما هي قادرة على القيام به!» . أخبرتهم أننا قريبون جداً. وشجّعت المفاوضين على عدم المبالغة

في تدقيق نص الاتفاقية إلى حد القضاء عليها. «نحن أقرب ما يكون إلى شيء معقول يمكن لجميع الأمم أن تقبله. فلا تجعلوا من الكمال عدوّاً للمصلحة» .

عدت إلى الفندق حوالي الثانية والنصف صباحاً. واستمرت المحادثات على مستوى الخبراء. لذا طلبت من رئيس الموظفين، جون فينر، البقاء حرصاً على إبقاء الأمور في المسار الصحيح، ونبّهته أن يتصل بي إذا احتاج منّي أن أعود. دامت المفاوضات حتى الخامسة صباحاً. وعندما عاد جون في النهاية إلى الفندق، كان متفائلاً بأن الصيغة النهائية لنص الاتفاقية ستكون جاهزة في غضون الساعات الأربع وعشرين القادمة. يبدو أن المندوبين قد عادوا مجدداً إلى المبدأ التنظيمي الأساسي لاتفاقية باريس، وهو الآتي: تحدّد كل دولة أفضل ما يمكنها بذله من جهود. لن نجعل أنفسنا مرة أخرى أسرى أهداف التخفيض الإجبارية، رغم علمنا جميعاً بضرورتها الملحة.

شهد اليوم التالي جهود اللحظة الأخيرة للتوصُّل إلى إجماع. صودف أن كان عيد ميلادي، وأدرك الجميع أمنيتي الوحيدة في هذا اليوم. وفي بادرة لطيفة، زار بيوش غويال، وهو وزير من الهند وواحد من مفاوضيها الرئيسيين، مكتبنا ليقدّم طاقة أزهار كبيرة. كانت إيماءة رائعة ومؤشّراً على أننا قد نتغلّب على عقبتنا الأخيرة مع الهند. واستمر التفاوض حتى ليلة الجمعة. حيث قرّرنا أن ننفضَّ عند منتصف الليل، على أن يكون الحسم يوم السبت. يوم السبت 12 كانون الثاني/ديسمبر، وقرابة وقت الغداء أصدر الفرنسيون النسخة النهائية من الاتفاقية. وكالعادة، أعددنا نسخاً، ووزعناها علينا، لنقرأ وندرس ونراجع في هدوء.

كان تود أول من اكتشف خطأ. ففي الصفحة الحادية والعشرين جملة من المفترض أن تنص على أن الدول المتقدمة «ينبغي» أن تخفض الانبعاثات بأي مقدار تقترحه، ولكنها بدلاً من ذلك تقول إن الدول المتقدّمة «سوف تقوم» بخفض الانبعاثات بذلك المقدار. إن كلمة «ينبغي» غامضة ملتبسة، ولا تحمل تداعيات قانونية لإغفال هدفنا. أما «سوف تقوم» فتعني أن تقصيرنا في تحقيق هدفنا يمثل خرقاً قانونياً للاتفاقية. ونحن إذا قبلنا هذه الصياغة نكون قد تجاوزنا ما اتُّفق عليه مع الكونغرس، الذي لن يوافق على أي تخفيضات إلزامية.

من الواضح أن تغيير الكلمة هذه عمل لا يمكن الإقدام عليه إلا عن قصد، لأننا قضينا وقتاً كافياً في التفاوض حول هذه الجملة بالذات؛ وكان واضحاً أن جميع الأطراف متفقة على استخدام كلمة «ينبغي» في نهاية المطاف. بادرت إلى الاتصال بلوران فابيوس، وزير الخارجية الفرنسي، الذي

كان يرأس المفاوضات، وشرحت له الأمر. بدا متفاجئاً بحق. وأكد لي أنه سيصوّب الخطأ على الفور، وسوف يبحث في كيفية وقوعه.

لم نكن متيقنين مما ينتظرنا في قاعة المؤتمرات الرئيسية، عندما وصلنا إليها قرب السادسة مساءً. هل أحيطت بقية الدول بمشكلة اللحظة الأخيرة المتمثلة في ينبغي/سوف؟ هل يعترض عليها أحد؟ وسرعان ما وجدت الوزير شيه، كبير مفاوضي الصين، الذي أكد لي أنهم موافقون على النص كما طلبنا تعديله. وكذلك حال الهند وجنوب إفريقيا.

لمحت بول أوكويست، رئيس وفد نيكاراجوا، أمام القاعة يتحدث مع فابيوس. بدا أنه يريد أن يستفيد من فرصة سانحة لوضع العراقيل أمام الاتفاقية، لأنه يعتقد أنها غير مرضية بما يكفي لمساعدة دول مثل دولته على مواجهة تحديات المناخ. تحدثت إلى الروس والصينيين، وطلبت منهم محاولة إقناعه بألا يقف حجر عثرة. وتحدثوا هم وآخرون معه بهدوء على هامش الجلسة العامة. واتصلت بعد ذلك بمركز عمليات وزارة الخارجية من هاتفي الجوال، وطلبت منه ربطي هاتفياً برئيسة نيكاراغوا. شرحت لها المشكلة التي يشعلها ممثلها، وحذّرتها بلطف من أنه سيكون من المؤسف بحق لو كانت نيكاراغوا الدولة الوحيدة التي تقف في طريق نجاح قمة باريس. لا أعرف إن كانت قد اتصلت بأوكويست أم لا، ولكنه تراجع عن موقفه في النهاية. وبُعَيْد ذلك، ترك فابيوس كل شيء والتحق بالرئيس هولاند والأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون على المنصة. وبادر بشرح التغيير الذي أجري على النص أمام الجلسة العامة، وأدلى بملاحظات موجزة حول النص عموماً، قبل أن يقول: «لم أسمع أي اعتراض» .

لحظتها، ضرب بالمطرقة على المنصة، وهو يقول: «جرت المصادقة على اتفاق باريس للمناخ» .

ما إن سمعت كلماته حتى غمرتني مشاعر عارمة. إنها ثمرة أعوام طويلة من العمل المضني لكثيرين. ضجت قاعة الجلسة العامة بالتصفيق والهتاف، وتبادل الجميع التهاني والعناق والمصافحات. نظرت حولي وتأملت الغبطة الصادقة على وجوه آلاف المندوبين والعديد من الناشطين الذين تحقَّقت آمالهم. لقد أنجزنا المهمة. واقترب مني العديد من أعضاء الوفود المختلفة لالتقاط صور «السيلفي» معي. وتبادلت التهاني مع الأمين العام بان كي مون، وآل غور، ولوران فابيوس وفريقه، الذين تعاونّا معهم عن كثب. وكان لوران نِعْم الرئيس للمؤتمر، في كامل تركيزه وانضباطه، وتعامله مع جميع الوفود بمهارة ودبلوماسية بارعة.

وعندما هدأت حماسة القاعة، وتخافتت الصيحات والهتافات إلى تمتمات، طلب رئيس الجلسة من بعض الشخصيات الإدلاء بكلمة بهذه المناسبة. وعندما جاء دوري، رغبت في تنبيه القاعة إلى أننا رغم أهمية الإنجاز الذي حققناه، نحتاج إلى تذكُّر الحقيقة الآتية: نحن لا نغادر باريس مكتفين بما في جعبتنا من ضمان بأننا سنحافظ على معدل رفع درجة حرارة الأرض درجتين مئويتين فحسب، أي الهدف المنصوص عليه في الاتفاقية. فالأهمية الحقيقية لإنجازنا تتمثل في الرسالة التي نبعث بها إلى القطاع الخاص في أنحاء العالم؛ ألا وهي أن هناك 196 دولة ملزمة الآن بالتحرُّك معاً بشأن سياسات الطاقة. إننا نأمل أن تؤدي تلك الرسالة إلى فتح الباب أمام سيل من الاستثمارات في مجال أوجه الطاقة المستدامة والبديلة والمتجدِّدة. والسبب؟ أن الحل الناجع لمشكلة تغيُّر المناخ هو سياسة الطاقة، وبوسع التكنولوجيا التي نمتلكها اليوم، إذا انتشرت بالسرعة الكافية، أن تحل هذه الأزمة. كنا نراهن على أن تدرك عبقرية رجال الأعمال أن السياسة العامة تعزِّز أكبر سوق عرفها العالم على الإطلاق، سوقٍ قوامها اليوم أربعة وخمسة مليارات مستخدم للطاقة وتبلغ قيمتها تريليونات الدولارات، وسوف تنمو على مدار السنوات الثلاثين القادمة لتستوعب تسعة مليارات مستخدم، ومضاعفات تلك التريليونات من الدولارات. لم تفرض الحكومات أي عبء على الأفراد. فهي دعوة إلى السوق كي تنجز المهمة وتجني أرباحاً في ذات الوقت. ذلك هو النجاح الحقيقي لاتفاق باريس. كانت باريس تدعو القطاع الخاص أن ينقذنا من أنفسنا.

عدت إلى الفندق حوالي الحادية عشرة مساءً، وتناولت عشاءً سريعاً قبل التوجُّه إلى استوديو تلفزيوني قريب لجولة من المقابلات مع الفِقَر الإخبارية المختلفة، والتي تذاع يوم الأحد. فقد كان من المهم أن نحدِّد لأنفسنا ما جرى إنجازه، وما لم يجرِ، بدلاً من أن نترك الساحة لآخرين يرغبون في التنظير بهذا الشأن. وبرغم ما كنت عليه من إنهاك، فإنني كنت حريصاً على ذلك الموعد، الذي أزف فيه الأخبار التي سعدت لها أيما سعادة، بعد التوصُّل إلى اتفاق قضينا عقوداً من الجهود المضنية لإنجازه.

تساءلت للحظة عن السبب الذي يمنعنا من إجراء تلك المقابلات على الهواء في اليوم التالي. لكنني سرعان ما تذكَّرت أن من المقرّر سفري إلى روما عند السابعة صباحاً، لعقد اجتماعات حول الوضع السياسي المتدهور في ليبيا. ومن هناك، أطير إلى موسكو لبحث الملف السوري.

وكما هي الحال دوماً خلال الأعوام الأربعة التي تولّيت فيها وزارة الخارجية، يبقى النوم لعدد كافٍ من الساعات أملاً بعيد المنال.

بعد بضعة أشهر، أي في 22 نيسان/إبريل 2016، المعروف بـ«يوم الأرض» ، كنت في الأمم المتحدة بنيويورك للتوقيع رسمياً على اتفاقية باريس، بالنيابة عن الرئيس أوباما والولايات المتحدة. كان يوماً مؤثراً بحق، وخصوصاً ان ابنتي أليكس، التي كانت تسكن في نيويورك وقتها، كانت هناك لتقضي الوقت معي، وكذلك حفيدتي إيزابيل ابنة العامين.

قبل أن أصل إلى الأمم المتحدة، توقفت للحظة كي أستحضر التاريخ الذي أوصلنا إلى يومنا هذا. فكّرت في يوم الأرض الأول عام 1970. حينها شاركت ملايين الأميركيين في جلسات توعوية بهدف توعية العامة حول التحديات البيئية التي واجهناها. فكّرت في مؤتمر المناخ الأميركي الافتتاحي في ريو دي جانيرو. آنذاك تكلّمت طويلاً مع زوجتي المستقبلية تريزا. فكّرت في العجلة التي شعرنا بها عام 1992. وبالطبع، فكرت في التقلّبات الكثيرة الطارئة على صراع المناخ الذي أدّى بنا إلى ليلة كانون الأول/ديسمبر في «لو بورجيه» ، عندما بدا للمرة الأولى أن العالم قد مضى إلى الأمام.

ولكن، عندما جلست ولعبت مع حفيدتي في الغرفة الخضراء خلف طاولة القراءة، منتظراً دوري في الخروج والتوقيع على الاتفاقية، لم أعد أفكر في الماضي، بل في المستقبل، مستقبلها، ذلك العالم الذي سيرثه أطفالها يوماً ما.

كنت أحمل إيزابيل بين يدي، أداعبها، عندما علمت أن الولايات المتحدة قد دُعيت للتوقيع على الوثيقة. خرجت من فوري مع إيزابيل قبل أن تعرف والدتها. فاجئني تصفيق الناس لوجود إيزابيل. كان هذا رد فعلي نفسه منذ لحظاتٍ معدودة. كانت تلك لحظتها ولحظة حوالي ملياري طفل في العالم دون الخامسة عشرة. لم تجفل إيزابيل قط. لم تنكمش من دخولنا المفاجئ قاعة الجمعية العمومية. بدت منبهرة بالوضع كله. جلست على ركبتي اليسرى، وقّعتُ على الوثيقة، ثم وقفتُ ومشيت على حافة المنصة، بينما كانت والدتها تراقبنا. عندما أعدت إيزابيل إلى حضن والدتها، قالت الفتاة بثبات: «أمي، أنا لم أوقع على الورقة» ، وكأنها تشعر بأن دورها سُرق منها. لم تعلم، ولا نحن أيضاً، الأثر الذي تركته حتى من دون توقيعها.

منذ تلك اللحظة، ظل الناس من كل مناحي الحياة، ومن كل أنحاء العالم، يخبرونني كم أثرت فيهم تلك اللحظة. قالوا إنهم تذكّروا أبناءهم وأحفادهم، كما فكّروا في المستقبل.

بدأ عشقي للمحيط، عندما كنت في الثالثة من عمري. شاهدت عددًا من صوري في ذلك العمر، ألاعب الأمواج الرقيقة قرب شاطئ ناوشون

بمجرفةٍ بلاستيكيةٍ صغيرة ودلو. فتنتني القواقع الحية والرخويات وأسراب الروبيان الموسمية تتمايل يميناً ويساراً على نغمات المياه. كانت أمي تضطر إلى سحبي لتناول وجبة العشاء. وعندما كبرت حرصت كثيراً على ارتداء ملابس السباحة. أحببت رائحة هواء البحر وصراخ النوارس المنقضّة على الأسماك الميتة أو الرخويات المكشوفة وقت الجزْر. كان هناك نمط حياة متكرِّر قرب البحر. وفي عمرٍ صغيرٍ للغاية، ارتبطت بالمحيط الذي دفعني في النهاية إلى الأسطول والعيش دائماً قُرب المياه.

لمست التعقيد الجميل للعالم الكائن تحت المياه مبكرًا؛ فثلاثة أرباع الكوكب مغطاة بالمحيطات. ولم أفهم التراكب المعقَّد الذي أنشأ تلك العلاقة بين الإنسان والمحيط إلّا بعملي في مجال تغيُّر المناخ.

ما أعرفه حقاً هو أن المحيطات مسؤولة عن الحياة كما نعرفها. فنسبة 51% من الأكسجين الذي نتنفسه مصدرها المحيط. ولتيارات المحيط أهمية بالغة لدرجة الحرارة والطقس. حتى تأثير الدفيئة نفسه هو ما ينظم درجة حرارة الأرض؛ وقد ظل حتى وقت قريب يسهم في الحفاظ على درجة حرارة الأرض بمعدل 57 درجة فهرنهايت، تضمن استمرار الحياة.

يتغيَّر كل هذا الآن؛ فدرجة حرارة المياه آخذة في الارتفاع، والثلوج آخذة في الانصهار. والمساحات المناسبة لمصايد الأسماك تغرقها مستويات مياه البحار الآخذة في الارتفاع. والحموضة الناتجة من الانبعاثات الغازية المتزايدة تكتسح الشعاب المرجانية، وتقتلها، وتغيّر النظام البيئي الأساسي. وتكاد كل المصائد السمكية تعاني من ارتفاع معدلات الصيد، بل إنها تلاشت تماماً، بالنظر إلى تدفّق الأموال الباحثة عن الأسماك، على ندرتها.

ولا يقتصر الانتباه الفوري على تغيُّر المناخ، فالمحيطات نفسها في خطر. أعرف أن هذا قد يبدو غير مفهوم، بالنظر إلى مدى المحيطات وقوتها. ولكن الحقيقة تقول إن البشر يلقون فيها الكثير والكثير من المخلّفات، والفوارغ البلاستيكية، والمواد الكيميائية، والصرف الصحي، ومخلّفات الزراعة والصناعة، إلى درجة تزايدت فيها أعداد الأماكن التي تلوّثت فيها المحيطات. هناك الآن أكثر من خمسمئة منطقة ميتة في المحيطات، والعدد آخذ في الازدياد. يكمن الخطر في أننا لا نفهم كلّياً أثر كل ما نفعل. ولكن بما أن هذا النظام البيئي نظامٌ حي، فإن آخر ما يجب أن نتهاون فيه هو السماح باحتمالات القضاء عليه. أضف إلى ذلك أننا نفرغ المحيطات من كنوزها. فنحن نستغل المصادر السمكية التي حفظت الحياة لأجيال، ولا قانون هناك في أعالي البحار.

وكما هي حال تغير المناخ، لا يمكن التغلّب على التهديدات التي تواجه محيطنا إلا بتعاونٍ عالمي واسع النطاق. حرصت على محاولة عرض فرصة التعاون بصفتي وزيراً. سافرنا مسافة بعيدة لتعزيز التوعية للمحيطات؛ لتصبح قضية حكومية دولية أساسية؛ كي لا يقتصر الأمر على الأصوات غير الحكومية المناضلة في هذا الشأن.

بعد مدةٍ قصيرة من وصولي إلى حي فوجي بوتوم، طلبت إلى الفريق الشروع في التخطيط لقمةٍ عالمية تساهم في توحيد العالم لقيادة هذا النوع من التعاون. كانت لديّ رغبة في تنظيم مؤتمر على أعلى مستوى، حيث يلتزم فيه كل مشارك، يقف على المنصة، خطة للكشف عن الصيد الجائر ومحاكمة مرتكبيه، وسياسة جديدة للإسهام في خفض التلُّوث البلاستيكي، أو تعزيز البرامج البحثية لتساعدنا على فهم أفضل للتغيُّرات الكيميائية التي يشهدها المحيط، بسبب تغيُّر المناخ.

لم يكن هذا التوجيه الذي كان موظفو وزارة الخارجية يتوقّعونه، حتى أنهم حاروا في البداية فيما كنت أفكر فيه بالضبط. حاولوا جاهدين تنفيذ توجيهي غير المعتاد. عملنا جنباً إلى جنب لتنظيم مؤتمرٍ مختلف لا يقتصر هدفه على تحذير المهتمين بحماية المحيطات، بل على تعزيز سلامة محيطاتنا لتبلغ أعلى المستويات التي تأملها الحكومة. وبينما كنا نواجه الكثير حيال تغيُّر المناخ، كانت لدينا رغبة في تحذير الجميع من الحالة المتردّية التي بلغتها المحيطات، وقيادة تحركٍ حقيقي حريص، يكون من شأنه جذب انتباه عواصم العالم من أقصى العالم إلى أدناه.

أكبّ فريق عمل وزارة الخارجية على المهمة. كان العمل من أجل جذب انتباه نظرائي الأجانب تحدّياً آخر. كان بعضهم، مثل بورج برينديي، وزير الخارجية النرويجي، حريصاً على المشاركة من البداية. كان الرجل زعيماً، ولكن القضية نفسها لم تكن من الأمور التي ألف وزراء الخارجية تناولها. وقد كلّفنا الأمر إقناعاً وتوظيفاً.

استضفنا أول مؤتمرٍ باسم «محيطنا» في وزارة الخارجية عام 2014، وحقّق نجاحاً أكثر مما توقعت. التزمت الحكومات تقديم الحماية الرسمية إلى أكثر من أربعة ملايين كيلومتر مربع من مياه المحيطات، وذلك من بين أمورٍ أخرى. كما تطوّعت تشيلي في قلب الحدث باستضافة المؤتمر الثاني في فالبرايسو عام 2015. ثم استضافت وزارة خارجيتنا المؤتمر الثالث عام 2016، الذي قدّم فيه الرئيس أوباما خطاباً رئيسيّاً حضره أكثر من عشرين وزير خارجية أو زعيم دولة. غادرنا بحلول الوقت، ولكن مؤتمرات «محيطنا» وفّرت أكثر من تسعة مليارات دولار في تعهدات بحماية المحيط من كل شيء: من

التلوث البلاستيكي إلى الصيد غير القانوني الجائر غير المبلغ عنه. كما أضافت الدول عشرة ملايين كيلومتر كمناطق مائية محمية رسمياً بشكل جماعي، وهي رقعة من المحيط تعادل مساحتها تقريباً مساحة الولايات المتحدة. هاجمنا الصيد الجائر، ووضعنا نظاماً رقمياً للتتبُّع، بهدف ضمان المحاسبة في أعالي البحار.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أكثر أمر مُجدٍ خرجنا به من هذه المؤتمرات كان الزخم الذي ولّدته ففي العام 2017، استضاف الاتحاد الأوروبي المؤتمر السنوي الرابع باسم «محيطنا» ، وفيه التزمت إندونيسيا والنرويج وبيرو استضافة المؤتمر مستقبلاً، لضمان استعراض زعماء العالم للتطور المحقَّق حتى تاريخه كل عام، فضلاً عن إصدار التزاماتٍ جديدة. أصبحت سلامة محيطاتنا تلقى اهتماماً عالمياً، ومن الواجب على كل فردٍ الحفاظ عليها.

أوضح الرئيس أوباما لمجلس الوزراء، خلال عامه الأخير في البيت الأبيض، أنه توقّع منا تحقيق النجاح في مهمتنا. تضمّن هذا بالتأكيد مجهوداتنا في تغيُّر المناخ. وعلى مدار الشهور العديدة التالية، عملنا جاهدين لحث الصين، وكثير من شركائنا الدوليين، بأكبر قدر ممكن، على تنفيذ اتفاقية باريس على الدوام. أنجزنا هدفنا في أقل من عام من تحديده، وبصورة أسرع حتى مما توقّع أشد المتفائلين بيننا.

سوف تستمر اتفاقية باريس بعيداً عمّا يخطط له أي رئيس أميركي، لأنها تواجه تحدياً كبيراً، فهمه وأدركه زعماء العالم المسؤولون. والأهم من كل ذلك أنها تعطي كل دولة فرصة لرسم سبيلها. ولهذا السبب بالذات، ذهب البعض إلى القول بأن الاتفاقية لا تحقق الكثير من الأهداف، انطلاقاً من أننا على وشك أن نشهد ارتفاع درجة حرارة الأرض بمقدار أربع درجات مئوية. ولكن الاتفاقية تعطينا أرضيةً للأهداف الدولية بشأن المُناخ قد نبني عليها الكثير. كما تقدِّم دعماً إلى دول كثيرة تحتاج إلى مساعدة في تحقيق الأهداف. ولا تترك دولة وحدها في مواجهة تغيُّر المناخ. وتجمع عدداً من الأدوات لتساعد الدول النامية على الاستثمار في البنية التحتية والتكنولوجيا والعلم لتحقيق الهدف. وتدعم الاتفاقية أكثر الدول تضرُّراً، حتى تتمكن أكثر من التأقلم مع التأثيرات المناخية التي تواجهها الكثير من تلك الدول. كما تمكننا من تعزيز أملنا بمرور الوقت، مع تطور التكنولوجيا، ومع انخفاض سعر الطاقة النظيفة. وتدعو الاتفاقية الأطراف إلى إعادة النظر في تعهُّداتها الوطنية كل خمسة أعوام، من أجل ضمان مواكبة التكنولوجيا، وتسريع التحوُّل العالمي إلى اقتصاد الطاقة النظيفة. وتضع هذه العملية، التي هي

أساس اتفاقية باريس، إطاراً صُمّم خصيصاً ليبقى، ودرجة من المسؤولية العالمية لم تتوفّر من قبل.

يمتد التطور البيئي الذي حققناه عام 2016 وحده إلى ما هو أبعد من اتفاقية باريس. فعلى سبيل المثال، لم تغطِّ مجهوداتنا في باريس الطيران العالمي. فإذا كان هذا القطاع دولةً، فإنها كانت ستُعد ضمن أكثر الدول المسبِّبة للانبعاثات الغازية في العالم. لذلك شهد مطلع تشرين الأول/أكتوبر 2016، بدعمٍ أميركي، قيام منظمة الطيران المدني الدولية بوضع اتفاقية قطاعية للحدّ من انبعاثات الكربون.

وبعد أسابيع، سافرت إلى كيجالي، رواندا، للعمل مع ممثلين من حوالي مئتَيْ دولة للحد من الإنتاج والاستخدام العالمي للمركبات الكربونية الفلورية الهيدروجينية، والغازات الدفيئة غير المعروفة، والأخطر آلاف المرات من ثاني أكسيد الكربون. ركّز جانب من زيارتي في أن العالم لا ينتبه كثيراً للمفاوضات التي كانت أصعب مما توقعنا. أتذكّر اجتماعاً عصيباً مع الوفد الهندي. ففي حين أن بقية الأطراف وافقوا على النص، كان الهنود يدفعون بشدة نحو ما اعتبرناه نحن تغييراً غير معقول مطلقاً. وأخيراً، تكلمت مع وزيرهم، وقلت: «سيتصل الرئيس أوباما بمودي، رئيس الوزراء، لاحقاً اليوم. وسوف يكون الاتصال إما لتوضيح أن الوفد الهندي منع وحده مئتي دولة من التوصل إلى اتفاق، وإما لشكره على تعاونه في مواجهة أحد المخاوف العالمية» . وفي النهاية، سويّنا الخلاف، ولكن كانت التوترات مرتفعة جداً، إلى درجة أننا، عندما ظننا أننا قد توصّلنا إلى اتفاق صفّق كلا الوفدين في قاعةٍ صغيرة، حتى طُلب منا الهدوء. وفي النهاية، نجحنا، وأصبح من شأن تعديل كيجالي وحده أن يساعدنا على تجنُّب ارتفاع درجة حرارة الأرض بمقدار نصف درجة مئوية بنهاية القرن. وفي الوقت نفسه، فتح لنا آفاقاً جديدة لدعم عددٍ من الصناعات.

كان العام 2016، آخر عامٍ لنا في البيت الأبيض، عامًا بارزًا في دبلوماسية المناخ. فقد حققنا ثلاثة إنجازات في الشأن البيئي، مدعومين باتفاقية باريس، وتعديل كيجالي، واتفاقية منظمة الطيران المدني الدولية. كان هذا أكثر الأعوام تأثيراً في هذا الشأن، أتذكّره منذ التشريع الرئيس المُعتمد في مطلع سبعينات القرن الماضي. حقّق إصرار الرئيس أوباما غرضه. وتجمّعت كل خطوة من تلك الخطوات لتحريك النقاش في الشأن المُناخي بالاتجاه الصحيح. بدا زعماء العالم أخيراً متيقظين لضخامة التحدّي المُناخي. كان هناك أمل أن يقوم المجتمع الدولي بما هو ضروري لاجتياز هذا الاختبار الجيلي.

قضيت يوم انتخابات العام 2016 في طائرتنا الحربية المتجهة إلى نيوزيلاند بصحبة فريقي. كان الاتصال ضعيفاً، ونحن فوق المحيط الهادئ. لكن من حين إلى حين، كان أصدقائي في بوسطن وواشنطن يراسلونني عبر البريد الإلكتروني بشأن آخر تطورات مسح اقتراع الناخبين. وبين الفينة والأخرى، كنت أتمشّى قاصداً المقصورة الرئيسة أُطلِع كبار الموظفين على المستجدات. أقول لهم: «جاءني خبرٌ أو اثنان عن مسح اقتراع الناخبين ... دعونا نعرف كيف يسير الوضع» .

بحلول الوقت، هبطت الطائرة في كريستشرش. وبدا جيداً أن دونالد ج. ترامب سيكون رئيسنا الجديد. وبينما جلست أشاهد خطاب انتصاره مع بعض أعضاء فريقي في جناحي، حاولت إدراك ما قد يعنيه انتصار ترامب في التطور الذي حقّقناه إبّان إدارة أوباما. كنت قلقاً أكثر من أي شيءٍ آخر حيال ما سيفعله، أو ما لن يفعله، الرئيس ترامب لمكافحة تغيُّر المُناخ. فإن آخر ما ينتظره الكوكب أن يسكن البيت الأبيض رئيسٌ ينكر خطورة الوضع.

بعد أيام من انتخابات العام 2016، توجّهت إلى مراكش بالمغرب لحضور أول مؤتمر للتغيُّر المُناخي منذ باريس. عملت مع كاتب خطابي على وضع خطابٍ «ودّي لكنه جاد» ، وكأننا نقول: «لا تفكِّروا أن العمل الشاق قد انتهى» ، مشيرين إلى ضرورة محاسبة الدول بعضها لبعض وفق الأهداف التي وضعناها العام الماضي. لقد اتّضح أن هذا الأمر لن يجدي بعد الآن؛ فالولايات المتحدة انتخبت رئيساً وصف تغيُّر المناخ بالبدعة الصينية. وقد احتاج خبراء المناخ والمفاوضون في مختلف أنحاء العالم إلى سماع من يخبرهم بالسبب الذي يجعلهم مؤمنين بأن الاتفاقية ستستمر.

وبناء على ذلك أعدنا كتابة الخطاب. وعندما وصلت إلى مراكش، ذكّرت مجتمع المناخ بما حققناه جنباً إلى جنب، وكم كان الأمر مستحيلاً على أي زعيم أن يقلب التحول إلى الطاقة النظيفة، وهو تحوُّل كان سيفرض نفسه بفضل اتفاقية باريس في المقام الأول. أعربت عن أملي في أن الرئيس ترامب قد يكون أكثر تحمُّلاً للمسؤولية مقارنة بما بدا عليه أثناء حملته الانتخابية. كما أنني أكّدت لهم سبب أهميّة جهودنا المشتركة. فليس هناك أخطر من مستقبلٍ سيرثه أبناؤنا وأحفادنا. قلت أمام القاعة الممتلئة كلّيّاً: «إن لمن الضروري أن نذكّر أنفسنا بأننا لا نسير في طريق تؤدّي إلى الهلاك في النهاية... الأمر ليس مسألة قضاء وقدراً، بل إنه خيارٌ في أيدينا، خيارٌ لا نزال نمسك بزمامه. هذا اختبارٌ لقوة إرادتنا، لقدرتنا. نحن قادرون على محاسبة أنفسنا أمام الحقيقة القاسية. الأمر يتطلّب أن نحاسب أنفسنا وفق الحقائق لا

الآراء، وفق العلم لا النظريات التي لا يمكن إثباتها، وليس وفق السياسة المبتذلة، بالتأكيد» .

استغرقت زيارتي للمغرب أقل من أربع وعشرين ساعة. لكنني عندما كنت هناك، طلبت إلى جوناثان بيرشنج (لا علاقة له بديك)، الذي حلّ محله تود، مبعوثنا الخاص للتغيُّر المناخي، أن يجمع أعضاء فريق التفاوض الأميركي. فقد أردت مخاطبتهم.

عندما دخلت الغرفة التي حجزها بيرشنج، نظرت إلى المجموعة المذهلة من الموظفين الرسميين الذين كرّسوا الكثير من وظائفهم لمواجهة هذا التحدي. تبدَّلت البسمات الفرحة التي ارتسمت على وجوههم في باريس لتصبح تعبيراتٍ متخشبة. لم يعرفوا ماذا سيحدث.

كنت صريحاً معهم. قلت إنني أيضاً لا أعرف ما سوف يحدث. ولكنني أخبرتهم بالآتي: حتى وإن استمر ترامب في تعهُّده أثناء الحملة بالخروج من اتفاقية باريس، وحتى وإن ترك الطاقة المتجددة وشرع في زيادة دعم الفحم والوقود الأحفوري، حتى وإن فعل كل شيء لإبادة التطوُّر الذي حقّقناه، وهذا من ضمن سلطته، فسوف يستمر كل ما حققناه. في العام 2017، مدّت الطاقة الشمسية شبكيّاً 75% من كهربائنا الجديدة في الولايات المتحدة. وأسهم الفحم بنسبة 0,2%. حتى رئيس مثل ترامب لا يمكنه إلغاء ما تفرضه السوق.

كانت سوق الطاقة تسير في الاتجاه الصحيح. فقد التزم المجتمع الدولي، وفهم رؤساء الوزراء ورؤساء الدول في كل مكان التحدّي كما لم يفهموه منا قبل. وكذلك فعل رؤساء البلديات والمحافظون وكبار رجال الأعمال الأميركيون. واقتنع العالم بالتهديد المُناخي، سواء بدعم الرئيس الأميركي، أو من دونه.

واليوم، أشعر بغضبٍ متزايد، لأن سياسة الهوى المتقلِّب المبتذلة البغيضة هذه تُدمِّر ما تبقّى من الريادة الأميركية في هذا الشأن. أشعر كأن جهل شخص آخر وعشوائيته يسرقان المستقبل من أبنائي وأحفادي، ومن الكوكب بأسره.

لا يزال عقلي يذكّرني برحلتي إلى القارة القطبية الجنوبية. ولكي تشاهد وتفهم مدى خطورة التهديد المناخي، عليك أن تذهب إلى هناك. كنت أول وزير خارجية وأبرز مسؤولٍ أميركي يذهب في رحلةٍ إلى هذا المكان.

سافرت بمروحية فوق الغطاء الجليدي في غرب القارة القطبية الجنوبية، ثم توجّهت إلى الرف الجليدي لبحر روس نفسه، ومن هناك توجّهت إلى محطة ماكموردو في القارة القطبية الجنوبية لأشاهد ما يحدث وأفهمه أكثر.

تتكوّن القارة القطبية الجنوبية من جُرف جليدية عديدة يصل عمقها، في بعض المناطق، إلى ثلاثة أميال. ولو لم نكن مسؤولين بشأن تغيُّر المناخ، وانصهر كل ذلك الجليد، لارتفعت مستويات البحار في مكانٍ ما إلى ما بين مئة قدم ومئتين في القرنين المقبلين. وعلى مدار الأعوام الخمسين المنقضية، اعتقد علماء المناخ أن الرف الجليدي في المنطقة الغربية من القارة القطبية الجنوبية وحده سيتعرض للانصهار، مُهدِّداً حياتنا بالكامل. إلا أن قطعاً ضخمة، منها واحدة بحجم جزيرة رودي، انفلقت ووجدت طريقها نحو البحر. وفي حال انفلاق الرف الجليدي بالكامل وانصهاره في البحر، سوف ترتفع مستويات البحار العالمية إلى ما بين ما يراوح أربعة أمتار وخمسة.

اكتشفت بوجودي هناك أن من غير الممكن إنكار قوة خلق الرب. فالديانات الإبراهيمية الثلاث العظيمة (اليهودية، والإسلامية، والمسيحية) تدعو المؤمنين إلى حماية الخلق. يتحدث كل نهج حياتي مبنيّ على القيم، وكل فلسفة، عن مسؤوليتنا بعضنا تجاه بعض وتجاه الخلق. لقد حافظ سكان أميركا الشمالية الأوائل، السكان الأصليون، على توازنٍ جميل، مستخدمين العناصر المتوافرة حولهم.

لكن إذا لم يكن الدين كافياً لإيقاظ ضميرك، فالعلم سيفعل بالتأكيد. استمعت في القارة القطبية الجنوبية إلى علماء بارزين، وليس إلى سياسيين أو نقّاد، بل هم أشخاص كرسوا حياتهم كلها للبحث المستفيض، وتوصّلوا إلى نتائج قائمة على حقائق لا أهواء. كانوا واضحين تماماً؛ كلما عرفوا أصبحوا أكثر حذراً بشأن سرعة وقوع تلك التغيُّرات.

وصف عالم من نيوزيلاند اسمه جافين دنبار ما نراه بأنه «عصفور في منجم فحم» [24]. وحذّر من أن هناك حدوداً إذا تعدّيناها، لا يمكننا العودة منها. فالضرر الذي سيقع علينا سوف تستغرق إزالة آثاره قروناً، هذا إذا كان ممكناً إزالة آثاره من الأساس.

أخبرني العلماء في القارة القطبية الجنوبية أنهم لا يزالون يحاولون اكتشاف مدى سرعة هذا التغيُّر. ولكنهم متأكّدون من أنه يحدث بالفعل، يحدث بسرعة لم يتوقعوها من قبل. وأوضح لي عالمٌ جيولوجي جليدي أميركي، ذكْر

اسمه وحده يفي بالغرض، هو «جون ستون» ، عندما قال: «إن الفترة الكارثية ربّما بدأت بالفعل» .

سيكون وقع تلك الكلمات على كل من يهتمّ بالعالم وبمستقبلنا، أكثر من منبّه بالتأكيد، وبالنسبة إلى دبلوماسي أو زعيم، لا يهم من يسكن البيت الأبيض، فالعالم والحقيقة يجب أن يكونا محرِّكَيْن، بينما لا يزال هناك وقت للتحرك.

خاتمة

الرابع من تموز/يوليو، سنة ٢٠١٨. فيما كنتُ أنجزُ هذا الكتاب، حاولتُ جاهدًا مقاومةَ سلطةِ الحنينِ المُخدِّرة. فكتابةُ المذكّرات فضاءٌ يُغري بالنّظر إلى الماضي، ويكاد يوهم أنَّ النتائج الجيّدة التي حقّقناها في الحياة، كانت قدراً محتوماً. من السهل دائمًا تصوُّر أن الأمور «في ذلك الحين» ، كانت أحسن. لقد غرس والداي في نفسي احترامًا عظيمًا للتاريخ، وشجّعاني على أن أعيشه، ولطالما ساعداني على صناعة جزءٍ منه. ولكنّ التاريخ، التاريخ الحقيقيّ، وليس ديماغوجيّةَ الماضي الأسطوريِّ المزيّفة، المحسوبة، والتي يجري تسويقُها بهدف التعبئة لصالح الحركات الرجعيّة الغافلة، يُلهمنا، لقدرته على تذكيرنا، أنّ الأيام لم تكن دائمًا سهلة. إنّ جنود شتاء فالي فورج، يُلهمون، ليس لأنّهم كانوا يعرفون أنّهم سوف ينتصرون، بل لأنَّ تصميمهم كان رائعاً. إذ كانت تتوافر لديهم كلّ الأسباب التي تجعلهم يتصوّرون أنّهم في نهاية المطاف، قد يجدون أنفسَهم معلّقينَ في طرفِ حبلِ مشنقة بريطانيّ... ومع ذلك واظبوا، ولم يتراجعوا.

من السهل أن يضع المرءُ على عينيه نظّارةورديّةً، وأن ينظرَ إلى الوراء، نحو تلك الأيام الخوالي، ويقول: «لقد كان زمنًا جميلًا» أو هيِّنًا، لكنَّ الحقيقة هي أنّه لم يكُن كذلك. لقد حاولتُ تفادي تلك الأفخاخ في كتابة قصّتي.

أقول هذا، لأنني فكّرت في كتابةِ أنني وُلدت في حقبةٍ اتّسمت بالرقة والبساطة مقارنةً مع الزمن الراهن، في داخل البلد أو خارجه. ولكن بعد التفكُّر، لم تستغوِني تلك الفكرةُ قط. إنَّ في أميركا الخمسينات التي صوّرها مسلسل (Leave It To Beaver)، الكثيرَ الذي يثيرُ الإعجاب: كانت معظم الوظائف تشملُ التقاعدَ والأمانَ الاقتصاديّ، وكنّا بلدًا متفائلًا. لكنّنا كنّا أيضًا بلدًا تسوده قوانينُ جيم كراو العنصريَّة، وترتفع فيه لافتاتُ «للبيض فقط» ، ترقِّطُ المشهدَ العامَّ في نصف مساحةِ بلدنا، وفي النصف الآخر، تكون خفيَّة،

لكنّها كانت حقيقةً مُضمَرة. كان زمناً اتّسم بالانتقاص من قدْر النساء، وكان المثليّون الأميركيّون يتخفّون تجنُّبًا للاضطهاد.

لقد احتاج التغيير إلى عدة سنوات، صوّت بعدها الكونغرس على قانون الحقوق المدنية سنة ١٩٦٤. كنتُ في ذلك الحين قد دخلتُ الجامعة.

داس جو ماكارثي، الحريّات المدنيّة، وجعل الرعب الأحمر[25] يدخل بيوتنا، وقد قسَّمَنا ذلك وشتّتنا بطرائق خطرة. أمّا خارج البلد، فكنّا نتنعّمُ بما تبقّى من توهُّج نصرِ الحربِ العالميّةِ الثانية، ونعيدُ، عبر مشروع ماريشال، بناء اقتصادات أعدائنا السابقين. لكن حربًا باردةً محفوفةً بالخطر، خلَفَت الحرب العالمية الثانية. ولم نكد نُفيق من نشوة نصر سنة ١٩٤٥، حتى وجدنا أبناء أميركا يموتون في كوريا، حيث كنّا نخوضُ ضدّ الاتحادِ السوفيتي حربًا بالوكالة. بعد مرور عقدٍ من الزمن، شاهدتُ على شاشة تلفزيون مُشَوَّشة بالأبيض والأسود، الرئيس كينيدي وهو يقودنا إلى أزمةِ صواريخ كوبيّة، مع وجود خطرٍ حقيقيٍّ بحدوث محرقةٍ نوويّة. إنّ سوءَ تفسيرِنا المأسويّ لحقيقة الحرب الباردة، قادنا توًّا إلى مستنقع جنوب شرق آسيا، حيث دفعَ ما يقاربُ ستين ألفًا من الأميركيين الثمنَ الأغلى. أمّا ريتشارد نيكسون، فقد جلب لنا التجسُّسَ المنزليّ على المعارضين، وأساءَ استخدام وزارة العدل لأغراض سياسيّة، وشنَّ الهجمات على الصحافة الحرّة، ووضعَ قائمة بأسماء «أعداء الرئاسة» ، فأوقعنا في مستنقعٍ، أسماهُ الرئيس جيرالد فورد «كابوسنا الوطني» . وقد اكتشفت وأنا في السابعة والعشرين من العمر، مدى الصعوبة التي يعيشها المرء، عندما يكون هدفًا في مرمى نيران بيتٍ أبيضَ مارق. كانت القنابل الأنبوبيّةُ تنفجرُ في الأماكن العامّة، وتحرق أعمالُ الشغب في عدة مدن أحياء بأكملها، ويجري اغتيال قادة لا يمكنُ تعويضُهم... والقائمةُ تطول.

لقد قلتُ الكثير عن هذه القصة في صفحات هذا الكتاب، ليس لاستحضار ماضٍ صعب، بل لنتذكّر كلّنا كيف غيّرنا مسارَ بلدنا. لقد آمن الطيِّبون، هنا في وطننا وفي الخارج، أنّ العالم يمكن أن يكون مختلفًا، وأفضل. فقد تنظّم المواطنون، وقاتلوا من أجل هدف، فخرجنا في المسيرات، وأدلينا بأصواتنا، وطُرحنا أرضًا... ونهضنا ثانيةً.

كلاّ، «لم يكن الزمن الجيد القديم جيدًا دائمًا» . هذه ليست إهانة لأميركا، بل تأكيدٌ لها، لأميركا قادرة على أن تجعل نفسها أقوى، على الرغم

من المصاعب الطويلة والنكسات الحارقة، عندما يقف مواطنوها كل يوم، ويقرِّرون أنّ الأمور لا تجري على النحو المطلوب.

يعكس تاريخي الشخصي قصّة إيمانٍ بأميركا جرى اختبارُها وتعديل مسارها؛ ولم يكن إيماني سلبيًّا خاملاً، بل شغوف ببلدنا ووعدِه. إنها قصّةُ رحلةٍ بدأت في النصفِ الأخيرِ من القَرن العشرين، وعايشت فجرَ الحادي والعشرين. إنهما عصرانِ مختلفانِ من التحوُّلِ المذهلِ في طريقةِ عيشِنا، وتعلُّمِنا، وعملِنا، وارتباطِنا بعضنا ببعض؛ عصرانِ مختلفانِ، لم يتوقّف خلالهما التشكيكُ بالمسلّماتِ والافتراضات القديمة ودحضها، كما خضعَ الإيمانُ بالمؤسّساتِ إلى فحصٍ عميقٍ ودقيق. إنها أيضًا قصّةٌ تحكي كيف نستمع، ونتعلّم، ونواجهُ المشكلات، ونتبنّى رؤيةً مستقبليّةً تُلبِّي آمالَنا وتطلّعاتِنا.

في النهاية، أعتقدُ أنّها قصّة تفاؤل، لكنّها بالتأكيد، ليست القصّة الورديّة حيث الأشياء كلّها هيِّنة، والأمور كلّها تسير من تلقائها. إنها قصة التفاؤل المجبولُ بالجهد والعرق.

في حياتي، رأيت أشياء يصعبُ تخيُّل حدوثها، إن لم يكن مستحيلًا، لكنّها حدثَت، وتحدثُ المرّة تلو المرّة، وتعلّمتُ من أولئك الذين لوَوْا ذراعَ التاريخ. أردتُ رواية قصصهم إلى جانب قصّتي.

تذكّرني كلّ هذه الروايات وتردادها بأنّ العالم كان دائمًا مُعقَّدًا... إنه معقّدٌ حقّاً.

كان القادةُ دائمًا تشوبُهم العيوب، حتى إنَّ بعضهم كان شرّيرًا حقودًا، وكان آخرون صغارًا جدًا وعاجزين عن مواجهة تحديات عصرهم. لقد كانت المعركة الوطنيّة دائمًا مسرحَ صراعٍ مستمرّ.

هذا ما يجعلُني اليومَ أزدادُ تفاؤلًا. فقد رأيتُ بأمِّ عيني أنّ المؤسّسات التي بناها المؤسِّسون الأوائل للحفاظ على وحدة أميركا، كانت تعمل على نحوٍ أفضل، عندما كانت أميركا في حاجة ماسّة إليها. وندوبُ الجراحِ في جسدِ أميركا تثبتُ ذلك. أعرف أيضًا أننا عندما كنّا نواجه تحدّيات قاسية، كنّا ننجح في نهاية المطاف.

أنا متفائل لأنّ أميركا تملك سجلًا طويلًا يمتدُّ إلى ٢٤٢ سنة، من تحويل المراحل الصعبة إلى تقدُّم تاريخيّ. وأنا متفائلٌ بفضل الأشخاص الذين التقيتُهم، وبفضل ما علّمتني إيّاه الحياة.

كيف لا أكون، وقد بدأتُ خدمتي للبلد في حرب، حرب مريرة، أتلفَت نسيجَ أميركا وكادت تمزّقه؟! لقد أنهيتُ آخرَ دورٍ في خدمتي للبلد بمهمّة سلام. في الشهر الأخير من خدمتي كوزير للخارجيّة، عدتُ إلى فييتنام مرَّةً أخرى، إلى دلتا الميكونغ، حيث الأنهار التي كنت أقوم فيها بدوريّات قتاليّة، والتي غدت اليوم أنهارًا تحميها الولايات المتحدة من التدهور البيئي.

على نهر باي هاب، حيث رأيتُ الموتَ وجهًا لوجه قبل ثماني وأربعين سنة، وحدّقت إلى فوّهة قاذفٍ صاروخيٍّ فييتنامي من طراز كونغ B-40، التقيتُ مجدّداً رجلًا كانت مهمّتُه قتلي وقتل طاقمي ذلك اليوم من سنة ١٩٦٩. كنّا في العمر نفسه. كان قصيرًا وعروقه ظاهرة، وكان جسمه خالياً من أي شحم. كانت السنون والمحن قد رسمت على وجهه خطوطها، لكنَّها كانت ترتسم ابتسامةً مرحِّبة لا تشوبها مسحة كراهيةٍ أو ضغينة. نظرتُ إليه وقلت: «يا لهذا الجنون!» قبل سنين طويلة، عندما كنّا شابّين، كان كلانا يستجيب لنداء قادته، محاولًا قتل الآخر. لكنّنا الآن، نقف بسلام، سلام كان لي دورٌ صغيرٌ في جعله حقيقيًّا من خلال إحلال السلام في بلدي أوّلًا... إذا كان ذلك لا يجعل منك شخصًا متفائلًا، فما من شيءٍ يستطيع أن يفعل.

ذلك هو السبب الذي دفعني إلى تأليف هذا الكتاب. أردت أن أقول لكم إنَّ الحقيقة الراسخة التي تعلّمتُها في رحلتي، هي أنكم تستطيعون تغيير بلدكم وتغيير العالم. قد تخفقون في البداية، ولكنكم لا ينبغي أن تستسلموا. يجب أن تنهضوا وتقاتلوا من أجل الحق ثانيةً... وستنجحون. فالخطوات الصغرى تُضاف إلى الخطوات الكبرى، والتاريخ تراكميّ، ونحن نستطيع جميعًا أن نُسهم في التغيير إذا كنّا نريد خوض سباق المستقبل، رغم كل الصعوبات.

لِمَ هذا الكتاب؟ ولمَ الآن؟ ليس لأنّني لم أعُد وزيرًا للخارجيّة أو سيناتوراً، بل لأنّ القضايا التي حدّدَت شكلَ حياتي حتى اليوم، لم تكن قط محفوفةً بالمخاطر كما هي اليوم. فديمقراطيتنا موضع شكٍّ وجدل. لكنّني لا أزال أثق بقدرتنا على استعادتها، فديمقراطيتنا حيّة، بقدر ما ينبض بالحياة كلّ شخص يعيش فيها. إنها متغيِّرة باستمرار، تتطوّر وتُعيد اختراعَ نفسها. لكنّ عافيتها تتوقَّف على إرادة المواطنين في إبقائها حيّة. إن قوّة الولايات المتحدة ليست مشتّقةً من حزب، ولا من قائد، ولكن من موردٍ طبيعيٍّ متجدِّدٍ حقًا، بل من تصميم مواطنينا والتزامهم أن يجعلوا من المثال الأميركي حقيقةً لا لبس فيها.

حتى بعد رحلةٍ استثنائيّة، لا أزال أتعلّم، ولا أزال أقاتل. وإذا كان هناك من شيءٍ يمكن أن تأخذوه من الرحلة الأميركية التي وصفتُها في صفحات هذا الكتاب، فإنني آمل أن يكون هذا. لا يوجد عيبٌ واحد في أميركا اليوم، أو في العالم ككلّ، لا يمكن إصلاحه، بمساعدة مواطنينا ومساندة شعوب الأرض. فكما قال جون كينيدي، عندما سعى ونجح في إحراز أوّل تقدّمٍ في مجال السيطرة على الأسلحة النووية: «إنّ مشكلاتنا من صنع الإنسان، وبالتالي، فإنَّ الإنسان نفسه قادرٌ على حلّها» .

آمل، بعد أن تنتهوا من قراءة هذه الصفحات، أن تؤمنوا بالإمكانيات أكثر، وبالعقبات أقلّ، وأن يتجرّأ معظمكم على المحاولة أكثر. سوف أستمرُّ في الاستفادة من أيامي الإضافيّة لأقوم بدوري، وأنجز حصّتي من العمل. أرى كثيرين آخرين يقاتلون على الخطوط الأماميّة لتاريخنا. ليست الأيام الإضافيّة هديّةً لمن خدموا في الحرب من دون غيرهم؛ إنها هديّةٌ لنا جميعًا، نحن الذين حالفنا الحظ بأن نكون مباركين بحرية النهوض والسعي إلى أميركا أفضل وعالم أفضل... إلى الأمام.

شكر وتقدير

كنت محظوظًا إلى حدٍّ لا يمكن أن تصفه الكلمات، لوقوف أشخاص استثنائيين إلى جانبي، بغية توجيهي ونصحي وتحذيري وتشجيعي وتحدّيَّ ومسامحتي وتعليمي وحبّي على مدى المغامرة الكبرى التي خضتها، ومغامراتٍ أخرى سأخوضها في المستقبل، على ما آمل.

هذا الكتاب «مسح» لحوالى ثلاثة أرباع قرن. أقول مسحًا لأنني نعمتُ بحياة نشيطة ومفعمة بالأحداث إلى حدٍّ أنني أستطيع تأليف كتاب منفصل عن محطات فردية في رحلتي، تتناول نشأتي، وحرب فييتنام، والسنوات التي قضيتها كناشط لإيقافها، ومكتب المدعي العام للمقاطعة وممارسة القانون، وخوض الحياة السياسية في ماساتشوستس، وثمانية وعشرين عامًا رائعة في مجلس الشيوخ، وأربع سنوات حافلة في منصب وزير الخارجية. يدوِّن «كل يوم هو إضافة» تفاصيل الرحلة كاملةً بشكلٍ يوضّح للقارىء من أنا وما الذي حفّزني. إنَّه صادق وشامل، حتى وإن كان بالضرورة مكثفًا.

إنَّ التحدي المتمثل في توجيه الشكر إلى الذين جعلوا الرحلة وسردها ممكنين، أمر شاق. من السهل جدًّا نسيان شخص ما أو عدم إيلاء اهتمام عن غير قصد لمدة زمنية حيال أخرى. لم تبدأ حياتي في السياسة كمحافظ أول أو سيناتور، ولم يبدأ انغماسي في الدبلوماسية في وزارة الخارجية. آمل أن يجد جميع الذين رافقوني طوال الرحلة، ومن خلال كل تلك الوجهات، انعكاساً لهم في العِبَر التي أوصلتني إلى حيث وصلت، وأن يكملوا الطريق من بعدي. عندما أنظر إلى الماضي، أتذكر كلمات تينيسون: «أنا جزء من كل ما قابلت» . إنَّ الكثيرين والكثيرين من الناس الذين التقيتهم، وعملت معهم، وألهموني، وفرضوا الاحترام، هم جزء مني وجزء من هذا الكتاب إلى الأبد. أدرك تمامًا، وأنا في الرابعة والسبعين من العمر، أن هناك حقيقة في القول المأثور: «إذا رأيت سلحفاة على أحد أعمدة السياج، ستعلم أنها لم تصل إلى هناك بمفردها» .

أبدأ مع الكتاب نفسه. وأقدّم الشكر إلى فريقي الصغير المخلص الذي عمل معي خلال العام ونصف العام الماضي، لمساعدتي في الكتابة والبحث والتحقق من صحة الوقائع والإشراف على تحرير سردي وشروحاتي التي كنت أستفيض فيها أكثر من الضروري. عمل كل من ستيفاني إبنر وأندرو إمبري معي في وزارة الخارجية، حيث كانا عضوين موهوبين في فريق السياسة والتخطيط. سافرا معي كثيرًا في آلتنا الطائرة التي كانت أشبه بطبق بتري للاختبارات. وتحمّلا ساعات مرهقة يبحثان ويكتبان خلالها وهما في طريقهما إلى دول العالم. اتفقا على تمديد تلك الرحلة ومرافقتي بعد أن غادرت وزارة الخارجية، وكلاهما قام بعمل رائع في البحث وتنظيم كميات هائلة من المواد ومساعدتي على تقليل الفوضى (على ما آمل). سيساهم كل منهما في الجدل العام في أميركا مدة طويلة.

لم يكن بالإمكان التعامل مع هذا الكتاب من دون مهارة صديقي ومساعدي ديفيد ويد. كان رئيس أركاني في مجلس الشيوخ وفي وزارة الخارجية. يعرف صوتي وحياتي. لقد تخلّت زوجته إليزابيث وابناهما الشابان روبرت وأليك عن الكثير من الوقت معه كزوج وكأب، ليتحقق ذلك.

كان مات سمرز بطلًا مجهولًا في فريقي، منذ أن جاء ليعمل لديّ كمتدرب في مجلس الشيوخ، وصعد سلم الكثير من الوظائف ليصبح لا يقدر بثمن. إنه مخلص جدًّا وقادر بشكل لا يمكن تصوره، وهو شخص يتولّى مهمات حساسة وتفاصيل صغيرة بالالتزام نفسه. وكانت جولي ويركالا منظمة جدولي منذ العام 2003. كانت سنواتها الخمس عشرة على الأرجح سنوات صعبة؛ فقد أسهمت في تنظيم حياتي وتنقلاتي حول العالم بهدوء ودقة. معًا، فإن ولاءهما ويقظتهما المستمرة نيابة عني يجعلان حياتي العامة المستمرة ممكنة اليوم.

أشكر لدار «سايمون وشوستر» اعتبارها أنَّ سيرتي هذه تستحق النشر. فقد ساعدتني حماسة جوناثان كارب على الاهتمام الوقت والجهد. دفعتني كلماته المشجِّعة على الاستمرار في الكتابة. أما بوب بيندر، الطويل الأناة والمحرر الرائع، فقد آمن بهذا الكتاب منذ البداية. عايش بوب، كمحرر ومواطن، معظم القضايا التي أثيرت في سجل الأحداث هذا. كان فاعلاً، وصعباً أحياناً، في تقييمه العمليّ، للكليشيهات والكلام الفارغ. كانت مهارته لا تقدر بثمن في المساعدة على اقتطاع ما لا يلزم والمحافظة على المهم. بوب لا يجامل. كان لا بُدّ من نيل موافقته؛ وكان العمل من أجل ذلك ممتعاً. أنا أشكر له توجيهه المطَّلع.

تحظى دار «سايمون وشوستر» بفريق موهوب: آمل أن أكون قد استوفيت المعايير العالية لجوانا لي، المحررة المساعدة، وجوناثان إيفانز،

مدير التدقيق اللغوي، وريتشارد رورِر، الناشر المساعد، وكاري غولدستين، مديرة الدعاية، وجوليا بروسر، نائبة مديرة الدعاية، وجاكي سيو، نائبة الرئيس والمديرة التنفيذية للفنون التجارية. كذلك أقدِّر إلى الأبد المصوِّرَيْن الموهوبين اللذين التقطا لحظتين متميزتين في حياتي: جورج بتلر، الذي تظهر صوره على غلاف الكتاب الإنكليزي وداخله، وكيلي كامبل، الذي تظهر صورة التقطها على غلاف الطبعة الإنكليزية الخلفي.

وأتقدّم من بوب بارنت، بالشكر، ليس لمساعدتي على اجتياز المسار إلى «سايمون وشوستر» فحسب، بل لحماسته التي لا نهاية لها حيال كل ما يتبعه. تعرفت إلى بوب جيدًا عام 2012 عندما كلِّفت أن أؤدي دور المرشح الجمهوري للرئاسة في المناظرة التمهيدية. كانت تلك بيئة أكثر ألفة سمحت لي بالتعرّف إليه بشكل أفضل!

طلبتُ في الأسابيع الأخيرة التي سبقت صدور الكتاب من عدد قليل من أصدقائي الأقدمين قراءة فصوله الرئيسية، ومن بعضهم قراءته من البداية إلى النهاية. وهنا أتقدَّم بالشكر العميق إلى رئيس الأركان السابق في مجلس الشيوخ ورئيس التخطيط السياسي في الدولة، وهو شخصية في هذا الكتاب وحليف استثنائي في الحياة، السفير ديفيد ماكين، وصديقي لخمسة وأربعين عامًا، روبرت شروم، وكلاهما أهملا كل شيء لقراءة المخطوطة، وقدّما اقتراحات مدروسة ومتعمقة. ديفيد ماكين كاتب رائع في حد ذاته، وقد ألَّف خمسة كتب في السنوات التي عمل فيها معي، ولا تتفوّق على هدية بوب شروم لكلمة الإهداء المكتوبة إلّا هدية صداقته. وأود كذلك أن أشكر لصديقي المقرّب تيم كولينز ملاحظاته المذهلة سواء على الأقسام التي كتب عنها أو بعض الأمور التي لم يقلها. إن عقل تيم الرشيق والفضولي يدفع دومًا إلى تخطّي الحدود، وأنا ممنون للعلاقة الفكرية والشخصية.

وأشكر لإفلين سمول، أداء دور السابر لأفكاري ومشاركتي في سنوات من الحكمة.

أردت أن أتأكد من أن جغرافية جنوب فييتنام ومهماتنا كانتا قابلتين للتتبع في صيغة مفهومة. وأنا أشكر الفريق في مكتبة جامعة ييل، وكذلك ديفيد مدييروس في مركز ستانفورد الجيوفضائي، اللذين عملا على تحقيق ذلك.

وتتطلب أي كتابة محدَّدة تعكس الأحداث بدقة كما تكشَّفت، الرجوع إلى الوثائق الحكومية والتنسيق مع وزارة الخارجية. وهُنا أشكر باهر غوداني،

الذي كان مفيدًا بشكل لا يصدق في توفير حيّز في وزارة الخارجية، وتحديد ملاحظاتي الشخصية، والعمل معنا لضمان التعامل مع أي مرجع حساس بشكل مناسب.

وقد أسهم مجموعة من الزملاء في جامعة ييل بالوقت والتفكير ومهارة البحث. وأنا أشكر لكريس هو مساعَدته على تنظيم تلك الجهود.

تطول وتطول قائمة الأصدقاء الذين كانوا جزءًا من هذه الرحلة لشملهم جميعًا هنا. ولكنني محظوظ برفاق مميزين، رجالًا ونساء، شاركوا بصورة مباشرة في كل صفحة أو كل خطوة، بالاسم أو بالمساهمة. أحبهم جميعًا، وأشكر حسن طالعي، لأنني حظيت بتلك الرفقة. هناك أخي، كام، وأختاي، بيغي وديانا، وأقاربي الذين أثروا حياتنا. لقد استندت إلى أصدقاء منذ نشأتي، من المدرسة الثانوية إلى الكلية، بمن فيهم ديفيد ثورن، ودان باربييرو، وهارفي بوندي، ولويس روثرفورد، ومجموعة كبيرة من الأصدقاء من ييل، من أخويتي، ومن أنشطة خارج المنهج الدراسي، وفرق رياضية، وفرق مناظرة، وكلية جوناثان إدواردز.

أضع حياتي في أيدي الذين خدمت معهم على متن سفينتي باترول كرافت فاست 94 و44، ولا نزال إخوة حتى هذا التاريخ: بيل زالادونيس، جيم واسر، ديفيد ألستون، درو ويتلو، ديل ساندوسكي، فريد شورت، جين ثورسون، ومايك مديروس. بيد أننا خسرنا رفيقين من الطاقم في وقت مبكر جدًّا، هما تومي بلودو وستيف هاتش. كان كل منهما بطلاً، وأنا ممتنٌّ إلى الأبد لجميع الذين خدموا في قوارب سويفت، وكل ما قدّمه بعضنا إلى بعض على تلك الأنهار.

لدي إخوة وأخوات أيضًا من الحركة الداعية إلى وقف الحرب، ونحن أصدقاء حتى اليوم: تومي فاليلي وكريس غريغوري وجون هيرلي وجورج بتلر. ولن أنسى زملاء الدراسة من كلية الحقوق في جامعة بوسطن الذين أحدثوا فرقًا في حياتي، أخصّ شريكيَّ في المحكمة الصورية رونا شنايدر وتوم هاينز، وبول كين، مستشارنا، ومجموعتي الدراسية. هناك أصدقاء من كل خطوة في رحلتي السياسية، في حملة العام 1972 وما بعدها، بمن فيهم جون مارتيلا وتوم كيلي ودان باين، ومكتب المدعي العام، وحملة الحاكم، والحاكم مايكل دوكاكيس وكيتي اللذان كانا صديقين داعمين ومخلصين.

الصداقات التي كوّنتها في مجلس الشيوخ طوال ثمانية وعشرين عامًا، وأذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، صداقاتي مع كريس غريلي، باتي فولي، كارين هينك، أيانا بريسلي، غريغ ستيوارت، ميغان كارول، سيتي وارن،

روجر لاو، دان غروس، برندان «ب-مان» أودونيل، لاري كارمن، جيم شاير، ماري آن مارش، روجر فيسك وكثيرين ممّن عملوا معي في ولاية ماساشوسيتس نيابة عن الدولة والبلاد. وأقول شكراً للذين فقدناهم، ماري بابي، جانيت بوني، بيل برادلي، لويز إيشريدج. وجين هيلر، وأشكر أيضاً درو أوبراين، الثاقب الفكر وذراعي اليمنى في ماساتشوستس سنوات كثيرة. أما أصدقائي في واشنطن الذين وقفوا إلى جانبي وحفزوني للسير قدمًا، فهم، إضافة إلى من ذكرتهم من قبل، رون روزنبليث، جوناثان وينر، فرانسس زوينيغ، تريشيا فيرون، نانسي ستيتسون، جيم جونز، بات غراي، هيذر زيشال، جون فيليبس، جورج أبار، غريغ روتشيلد، تيم بارنيكل، سكوت بونتون، ديفيد ليتر، وآخرون كثر؛ كنت أتمنّى لو تتوافر لي مساحة لشكرتهم جميعاً، بمن فيهم الراحلة جايونا بيل.

شكرًا للذين عملوا بجهد في حملتي الرئاسية. أتمنى لو أستطيع شكرهم بشكل فردي، لكنني أود أن أخص جيم جوردان، ماري بيث كاهيل، جون ساسو، مايكل وولي، جاك كوريغان، ستيفاني كاتر، إيمي داسي، جان وبيلي شاهين، هارولد شاتبيرغر، جون سويني (الرئيس السابق للاتحاد الأميركي للعمل ومؤتمر المنظمات الصناعية). وأخص أيضاً قادة العمل المنظم، جيري كروفورد، جيم مارغوليس، توم كيدي، مايك ماكري، ماركوس جادوت، نيك كليمونز، جيل ألبر، جودي ريردون، كين روبنسون، تاد ديفين، مايك دونيلون، جون نوريس، وطبعًا مارفن نيكلسون. ومن الفريق الاستثنائي الذي أبقى الأضواء مسلَّطة خلال الحملة وبعد الحملة، أشكر بيتر ماروني، الراحل بوب فارمر، جاكسون دان، ليه غارلند، لو سوسمن، بوب كرو، ألن سولومونت، آن فينوكين، جوان لوكي، بيرني شوارتز، جاكماننغ، لايل هاولاند. وأنت يا جون ماكس، أشكر لك الحس السليم والفكاهة. وإنّني ممتنٌّ إلى الأبد للذين تحمّلوا عبئًا ومسؤولية بعد حملة الانتخابات الرئاسية.

هناك فريق متخصص في وزارة الخارجية عمل في ظروف صعبة لجعل بلدنا أقوى. شكرًا لنواب وزير الخارجية الثلاثة الرائعين: بيل بيرنز، هيذر هيغينبوتوم، توني بلينكن. وشكراً لسفيرتنا لدى الأمم المتحدة، سامانثا باور، وزملائي في مجلس الأمن القومي والبيت الأبيض، بمن فيهم سوزان رايس وتوم دونيلون وفاليري جاريت ودينيس ماكدونو وبيت راوس. وشكرًا لنائب الرئيس بايدن الذي سيكون دائمًا صديقًا جديرًا بالثقة.

أشكر فريق وزارتي الرفيع المستوى الذي عمل على مدار الساعة من دون شكوى لتنجح مهمتنا، والمؤلّف من جون فينر، رئيس الموظفين الذي يملك قدرة استثنائية ورئيس السياسات والتخطيط؛ ويندي شيرمان، توم

شانون، ليزا كينا، جين بساكي، جون كيربي، فرانك لوينشتاين، كريستي كيني، بات كينيدي، جوليا فريفيلد، جو ماكمانوس، جون باس. وأتقدّم بالشكر أيضاً إلى جون ناتر، كلير كولمان، جو سيمراد، نيك كريستيانسن، كريس فلاناجان، سيندي تشانغ، وإلى جميع «مساعديّ المميزين» ، على كل ما فعلوه للحفاظ على سير الأمور في ماهوغاني رو. وشكرًا لغلين جونسون الذي عمل بجد وكان رفيقًا رائعًا في رحلة عالمية. وشكراً لجيسون ماينينغر، المتعدِّد المواهب والمهارات الذي كان دائمًا إلى جانبي في السراء والضراء في كل من مجلس الشيوخ ووزارة الخارجية. وأشكر له صداقته وولاءه والكثير من جولات ركوب الدراجة في الصباح المبكر. وشكري لمركز العمليات وموظفي «الاتصالات» ، شريان الحياة للقسم؛ وللأمن الدبلوماسي الذي يحمي ليس فقط وزير الخارجية، بل سفاراتنا وقنصلياتنا في مختلف أنحاء العالم أيضًا. وأخيرًا، أشكر جميع الرجال والنساء في البعثات الدبلوماسية الذين يضحون بحياتهم وأسرهم باستمرار ويتجوّلون في كل أنحاء العالم، غالبًا إلى مناطق خطرة في العالم، ويفوِّتون مناسبات خاصة وعُطَل مع أحبائهم، وكل ذلك باسم الدبلوماسية.

بالإضافة إلى العمل مع الأشخاص الموهوبين الذين يمثلون بلدنا، فإن أحد الامتيازات الاستثنائية للعمل كوزير للخارجية هو التعرف إلى الزملاء والأصدقاء الذين يمثلون بلادهم بمهارة وشغف متساويين. ومنهم دبلوماسيون، مثل السيدة كاثي أشتون البريطانية، وناصر جودة الأردني، والنرويجي بورج برند، متخصّص البيئة الملتزم، والشيخ عبدالله بن زايد آل نهيان من دولة الإمارات العربية المتحدة، وعادل الجبير من المملكة العربية السعودية. أذكر أيضاً مبعوثين مميّزين من الأذكياء، مثل سالم الإسماعيلي، وقادة دول مثل السلطان قابوس من سلطنة عمان؛ وزعماء دينيين تذكِّرني حياتهم المفعمة بالإيمان بالحقائق الكونية التي تربط بيننا، بمن فيهم رئيس أساقفة كانتربري جوستين ويلبي، الآغا خان، والكاردينال بييترو بارولين من الكرسي الرسولي. لقد تشرّفت بالعمل عن كثب على مجموعة متنوعة من القضايا الحرجة مع الكثيرين من نظرائي الأوروبيين مثل فيليب هاموند ووليام هيغ من المملكة المتحدة، وفرانك والتر شتاينماير من ألمانيا، ولوران فابيوس من فرنسا، وفديريكا موغيريني، الممثلة العليا للاتحاد الأوروبي، وكثيرين غيرهم. هناك آخرون كثر لا يمكن ذكرهم، وجميعهم كانوا على صلة سريعة بتلك السنوات الأربع، وكثر منهم يظلون كذلك اليوم، لكنَّ صداقتهم وزمالتهم ستلزمان ذاكرتي.

شكرًا لأشخاص كثيرين من مختلف جوانب حياتي، كانوا متعاونين جدًّا خلال عملية الكتابة: مارتن إنديك، ويل إمبري، توم سوليفان، داني راسل،

بيرني أرونسون، دان فيلدمان، ريك ستينغل، دوغ فرانتز، روب مالي، سلمان أحمد، بريت ماكغورك، توم كونتري مان، بيري كاماك، أنتوني وير، سو بيناز، ميلاني ناكاجاوا، كاثلين فرانجيون، توريا نولاند.

وأشكر، لأصدقائي في مجلس الشيوخ والبيت الأبيض الذين يواصلون القتال، خدمتهم وصداقتهم. كذلك أشكر، لزملائي في مجلس الشيوخ الذين لم يعودوا معنا، تيدي كينيدي وجون غلين ودان إنوي وروبرت بيرد، إرشادهم ومساهماتهم التي لا حصر لها في بلدنا.

وأشكر لسكّان ماساتشوستس، سماحهم لي بتمثيلهم لثلاثة عقود تقريباً في مجلس الشيوخ الأميركي. آمل أنني كنت على قدر تطلّعاتهم. كان ذلك شرفًا لي.

وأتقدم بالشكر من الرئيس أوباما، الذي أتاح لي فرصة العمل معه بوصفي وزير الخارجية الثامن والستين، والذي سعى إلى السلام كملاذ أول. لقد صنعت ثقته كل الفرق.

أما ابنتاي، ألكسندرا وفانيسا، وزوجاهما، فأقول لهم: أتمنى أن تعرفوا دائمًا مدى شكري للهبة التي تمثِّلها أسرتنا. وأخاطب أفراد أسرة هاينز الممتدة، جوني، أندريه وكريس، و«النكهة الحادة» المميزة التي أضافوها، قائلاً: أشكر لكم دعم مغامرتي، والمساهمة في التدخلات التي ترافقت معها، والمساعدة في مزج الأُسَر، فالمهمة لم تكن سهلة قط.

تيريزا: لقد علَّمتني موهبتك في العناية وأسلوبك السلس في التهدئة، وسعة إدراكك التي تقدِّر ما هو الأهم في الحياة، أي الوقت الثمين، أن أنتهز اللحظات المهمة، وأن أقدِّر دائمًا ما لدينا. لقد دعمتني بشكل مثير للدهشة من خلال كل ذلك، وكنتِ دومًا إلى جانبي عندما كانت الطريق شديدة الانحدار.

جون كيري

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنّشر

سلسلة السّياسة

روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول - الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني - الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث - إلى البرية
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (المجلّدات الثلاثة في كتاب واحد)
- زمن المحارب
- ويلات وطن

د. عصام نعمان

- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- العرب على مفترق
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟
- هل يتغيّر العرب؟

د. محمد حسنين هيكل

- آفاق الثمانينات
- بين الصحافة والسياسة
- حديث المبادرة
- الحل والحرب!
- خريف الغضب
- زيارة جديدة للتاريخ
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- عند مفترق الطرق
- قصّة السويس
- لمصر.. لا لعبد الناصر
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدّعي الاشتراكي

د. سليم الحص

- تعالَوا إلى كلمة سَواء
- سلاح الموقف
- صوتٌ بِلا صدى
- عُصارة العمر
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- قِطاف من التجارب
- للحقيقة والتاريخ
- ما قَلَّ ودَلّ
- محطّات وطنيّة وقوميّة
- نحن... والطائفيّة
- ومضات في رحاب الأمة

د. وليد رضوان

- تركيا بين العلمانيّة والإسلام في القرن العشرين
- العلاقات العربية التركية
- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا

جوزيف أبو خليل

- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان وسوريا: مشقّة الأخوّة
- لبنان... لماذا؟

بول فندلي

- أميركا في خطر

سلسلة السّياسة

- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- من يجرؤ على الكلام

كريم بقرادوني

- السلام المفقود
- صدمة وصمود
- لعنة وطن

شكري نصرالله

- السنوات الطيبة
- مذكرات قبل أوانها

شادي خليل أبو عيسى

- رؤساء الجمهورية اللبنانية
- قيودٌ تتمزّق
- الولايات غير المتحدة اللبنانية

إعداد مريم البسّام

- حقيقة ليكس
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل (الجزء الأول)
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل (الجزء الثاني)
- مصر ثورة العشرين عاماً عبر تلفزيون الجديد

غادة عيد

- ...؟! أساس الملك
- الخلوي أكبر الصفقات
- سوكلين وأخواتها: النفايات - ثروة... وثورة

موريال ميراك - فايسباخ

- عبر جدار النار
- مهووسون في السلطة
- السياسة الخارجيّة التركيّة - موريال ميراك - فايسباخ وجمال واكيم

جيمي كارتر

- السلام ممكن في الأراضي المقدسة
- ما وراء البيت الأبيض

إسلام كريموف

- أوزباكستان: على تعميق الإصلاحات الاقتصادية
- أوزباكستان: على عتبة القرن الواحد والعشرين

بيار سالينجر - إريك لوران

- حرب الخليج
- عاصفة الصحراء
- المفكرة المخفية لحرب الخليج

جمال واكيم

- جريمة ولا عقاب
- سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط
- السياسة الخارجيّة التركيّة - موريال ميراك - فايسباخ وجمال واكيم
- صراع القوى الكبرى على سوريا

د. علي وهب

- الأخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية
- الصراع الدولي للسيطرة على الشرق الأوسط

سلسلة السّياسة

ستيفن غرين

- بالسيف: أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط
- مساومات مع الشيطان

نعوم تشومسكي

- احتلّوا
- صناعة المستقبل
- غزّة في أزمة – نعوم تشومسكي وإيلان بابه

د. سمير التنّير

- أميركا من الداخل
- أوباما.. والسّلام المستحيل
- معمودية النار

جون كولي

- تواطؤ ضدّ بابل
- الحصاد

بنازير بوتو

- ابنة القدر
- المصالحة: الإسلام والديموقراطية والغرب

د. عبد السلام المجالي

- بوّابة الحقيقة
- رحلة العمر: من بيت الشعر إلى سدّة الحكم

إيلان بابه

- غزّة في أزمة – نعوم تشومسكي وإيلان بابه
- الفلسطينيّون المنسيّون

بالتعاون مع جامعة كولومبيا

- الانتقال العسكري – نارسيس سيرّا
- أنماط الديمقراطية – أرند ليبهارت
- الديمقراطية والإسلام في إندونيسيا – تحقيق: ميرجام كونكلر وألفريد ستيبان
- الديمقراطية: أبحاثٌ مختارة – تحرير: لاري دايموند ومارك ف. بلاتنر
- ديمقراطيات في خطر! – تحرير: ألفرد ستيبان
- شرح أسباب الانتفاضات العربية – تحرير: مارك لينش
- عن الديمقراطية – روبرت أ. دال
- المقاومة المدنية في الربيع العربي – تحرير آدم روبرتس ومايكل ج. ويليس ورروري مكارثي وتيموثي غارتون آش

د. ياسر عبد الحسين

- الحرب العالمية الثالثة – داعش والعراق وإدارة التوحّش
- السياسة الخارجية الإيرانية

تيم واينر

- الأعداء
- إرث من الرماد: تاريخ «السي.آي.إيه.»

جيريمي سكاهيل

- بلاكووتر: أخطر منظمة سرية في العالم
- حروب قذرة

سلسلة السّياسة

نوال السعداوي

- ذكرياتٌ بين الثورة والإبداع
- نوال السعداوي والثورات العربية

إيمانويل ماكرون

- إيمانويل ماكرون تحت الاستجواب - مقالات
- ثورة

هيلاري رودهام كلينتون

- خيارات صعبة
- ما الذي حدث

صادق النابلسي

- حزب الله: من فتنة الربيع العربي إلى جيوبولتيك المنطقة
- قيام طائفة... أمّة موسى الصدر

- أبي لافرنتي بيريا - سيرغو بيريا
- الأحزاب السياسية في العراق - عبد الرزاق مطلك الفهد
- اختراع الديموقراطية - منصف المرزوقي
- أرض لا تهدأ - د. معين حداد
- الأسد - باتريك سيل
- أسرار مكشوفة - إسرائيل شاحاك
- الأشياء بأسمائها - العقيد عاكف حيدر
- أصوات قلبت العالم - كيري كندي
- أمبراطورية الإرهاب - أليهاندرو كاسترو أسبين
- الأمّة اللبنانيّة - د. إسماعيل الأمين
- الأمة العربية إلى أين؟ - د. محمد فاضل الجمالي
- امرأة تبحث عن وطن - ماريا المعلوف
- الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة - عائشة محمد المحياس
- أوضاع العالم ٢٠١٣ - برتران بادي ودومينيك فيدال
- الأيادي السود - نجاح واكيم
- إسرائيل والصراع المستمر - ربيع داغر
- البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي - وجدي نجيب المصري
- بكامل رصيدنا - بولا برودويل وفيرنون لوب
- بالعطاء... لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم - بيل كلينتون
- بلا هوادة - د. حسن موسى
- بيتٌ من حجر - أنتوني شديد
- التحدي الإسلامي في الجزائر - مايكل ويليس
- التشكيلات الناصرية في لبنان - شوكت أشتي
- تعتيم - آمي وديفيد جودمان
- تقي الدين الصلح: سيرة حياة وكفاح (جزآن) - عمر زين
- التمادي في المعرفة - نورمان فنكلستاين
- توازن الرعب - هادي زعرور
- الثورات العربية في ظل الدين ورأس المال - راضي شحادة
- ثورات الفيسبوك - مصعب حسام الدين قتلوني
- ثوراتٌ في كل مكان - بول مايسون
- حرب تحرير الكويت - د. حبيب الرحمن
- حرب الشفق - د. ديفيد كريست
- حربا بريطانيا والعراق (١٩٤١ - ١٩٩١) - رغيد الصلح
- حركات ثورية - ستيف كراوشو وجون جاكسون
- حروب الأشباح - ستيف كول
- حروب الظلّ - مارك مازّيتي
- حروب الإمبراطوريات - تحرير روبرت غيروارث وإيريز مانيلا
- الحروب الميسّرة - نورمان سولومون

سلسلة السّياسة

- حزب الله والدَّولة في لبنان: الرؤية والمسار - الدكتور حسن فضل الله
- الحكّام العرب - رودجر أوين
- حياتي مع طالبان - عبد السلام ضعيف
- الخلوي: أشهر فضائح العصر - ألين حلاق
- خوف - بوب وودورد
- الخيارات الصعبة - د. إيلي سالم
- دارفور: تاريخ حرب وإبادة - جولي فلنت وألكس دي فال
- دروب دمشق - كريستيان شينو - جورج مالبرونو
- الدولة الديموقراطية - د. منذر الشاوي
- ديبلوماسيّة إسرائيل السريّة في لبنان - كيرستين شولتزه
- الديبلوماسية على نهر الأردن - د. منذر حدادين
- الرايات السود - علي صوفان بالاشتراك مع دانيال فريدمان
- رؤية للمستقبل - الرئيس أمين الجميل
- رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف (١٩٨٩ - ١٩٩٨) - محمود عثمان
- السايفربانك - جوليان أسانج
- سجن غوانتانامو: شهادات حيّة بألسنة المعتقلين - مايفيتش رخسانا خان
- السكرتير السابع والأخير - ميشيل هيلير
- سورية: مملكة الأسد - ديفيد دبليو ليش
- صراعات الجبل الخامس - إميل خوري
- الصراع على السلطة في لبنان: جدل الخاص والعام - زهوة مجذوب
- الصهيونية الشرق أوسطية والخطّة المعاكسة - إنعام رعد
- صيف من نار في لبنان - الجنرال آلان بيلليغريني
- ضريبة الدم - ت. كريستيان ميلر
- الضوء الأصفر - عبدالله بو حبيب
- الطبقة الخارقة - دايفيد ج. روثكوبف
- طريق أوسلو - محمود عباس (أبو مازن)
- عدوّ عدوّي - لورا أيزنبرغ
- العرب والإسلام في أوزباكستان - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- عزيزي الرئيس بوش - سيندي شيهان
- العلاقات الأردنية - اللبنانية - أسعد كاظم جابر الغزّي
- العلاقات اللبنانية السورية - د. غسان عيسى
- العودة إلى الصِّفر - ستيفن كينزر
- الفرص الضائعة - أمين هويدي
- فنّ التجسُّس - هنري أ. كرامبتون
- الفهم الثوري للدين والماركسية - زاهر الخطيب
- في قلب المملكة: حياتي في السعودية - كارمن بن لادن
- قراصنة أميركا الجنوبية: أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية - طارق علي
- قصور من الرمل - أندريه جيروليماتوس
- قضيّة سامّة - يوست ر. هيلترمان
- قضيّتي ضد إسرائيل - أنطوني لوينستاين
- القياصرة الأميركيون - نايجل هاملتون
- كل يوم هو يوم إضافي - جون كيري
- لبنان بين ردَّة وريادة - ألبير منصور
- اللوبي - إدوارد تيفنن
- اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية - ستيفن والت وجون ميرشايمر
- اللوبي الصهيوني في فرنسا - شاكر نوري
- الماسونية: دولة في الدولة - هنري كوستون
- المال... إن حَكَم - هنري إده
- ما بعد القتال - حسام مطر
- مبادئ المعارضة اللبنانية - الرئيس حسين الحسيني
- محو العراق - مايكل أوترمان وريتشارد هيل وبول ويلسون

سلسلة السّياسة

- مدن تحت الحصار – ستيفن غراهام
- مذكرات نيلسون مانديلا – نيلسون مانديلا
- المراقبة الشاملة – أرماند ماتّلار
- مزارع شبعا: حقائق ووثائق – منيف الخطيب
- مصر على شفير الهاوية – طارق عثمان
- مفاتيح السياسة الروسية – ستيفن وايت
- منبر الحوار ٢٠٠٨ – لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج – مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- ميادين التدخّل – جيمس ستوكر
- نار وغضب – مايكل وولف
- نحو دولة حديثة: بعيداً عن ٨ و١٤ آذار – الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- نظرية الاحتواء – إيان شابيرو
- النفط: استراتيجيّاً وأمنيّاً وعسكريّاً وتنمويّاً – د. هاني حبيب
- النفط والحرب والمدينة – د. فيصل حميد
- هكذا.. وقع التوطين – ناديا شريم الحاج
- الهياكل المالية للتنظيمات الإرهابية – صادق علي حسن
- الواجب – روبرت م. غايتس
- الوجه الآخر لإسرائيل – سوزان نايثن
- الولايات المتحدة: الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية – تحرير: برند هام
- وهم السلم الأهلي – حسين يعقوب
- ويليس من تونس – ناديا خياري
- ٥٠٠ يوم – كورت آيكنوالد

Notes

[1 ←]
غراني لفظ يعادله «تيتا» في المحكية العربية.

[2 ←]
اقتباس من موعظة السيد المسيح على الجبل «أنتم نور العالم، لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل، ولا يوقدون سراجًا ويضعونه تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت».

[3 ←]
زوجته الأولى (المترجم)

[4 ←]
مصارعة الثيران.

[5 ←]
رياضة جماعية تلعب بكرة مطاطية وعصا طويلة تنتهي بشبكة مصممة لتلقي تلك الكرة؛ يستخدم اللاعبون عصا اللاكروس لالتقاط الكرة وتمريرها وتسديدها نحو المرمى.

[6 ←]
لعبة الدجاجة أو الجبان، تشبه سيارتين مندفعتين بأقصى سرعة، الواحدة باتجاه الأخرى حتى الاصطدام. يُطلق لقب الدجاجة على السائق الذي ينعطف متجنّبًا الاصطدام في اللحظة الأخيرة.

[7 ←]
أي إنَّ الشباب الذين جاؤوا للمشاركة في المهرجان، كانوا قد قصّوا شعورهم، وحلقوا ذقونهم وشواربهم تدليلاً على النظافة.

[8 ←]
كان هدف هذه العملية وقف تسرُّب الوحدات والسلاح من شمال فييتنام، إلى جنوبها عبر البحر والأنهار.

[9 ←]
شخصية الأرنب في الرسوم المتحركة - والت ديزني.

[10 ←]
«هارفرد بيتس يال» (Harvard Beats Yale).

[11 ←]
If I had a Hammer

[12 ←]
Leaving on a Jet Plane

[13 ←]
(الاسم الذي يُطلق على نيو همشاير-المترجم)

[14 ←]
(المتنزّه المحاذي لنصب فييتنام في واشنطن-المترجم).

[15 ←]
(شركة لبيع الأسلحة وأدوات الصيد-المترجم).

[16 ←]
(اسم مجلة معناه المرتزق-المترجم).

[17 ←]
(الاسم الذي تُكنّى به أوهايو-المترجم)

[18 ←]
قصّة تشويق سياسية نُشرت للمرة الأولى سنة 1959، من تأليف ريتشارد كوندن، عن ابن أسرة سياسية أميركية مرموقة، غُسل دماغه ليصير القاتل غير المدرك، في مؤامرة شيوعية-المترجم.

[19 ←]

الأخطاء اللفظية التي اشتهر بها بوش. (المترجم)

[20←]
No Surrender

[21←]
وسيلة يعتمدها من يريدون إجراء تعديل دستوري ما، من خلال اللجوء إلى رفع عريضة، بحد أدنى معيّن من التواقيع، بحيث يصبح ممكناً طرحها للتصويت العام-المترجم

[22←]
له عن شركة المطبوعات كتاب: «بكامل رصيدنا: سيرة الجنرال ديفيد بتريوس»، 2015.

[23←]
عيد فأر الأرض: مناسبة يتمّ الاحتفال بها سنوياً في الولايات المتحدة وكندا.

[24←]
يُراد بهذا المصطلح قرع جرس إنذار، أو التنبيه من خطر ما. حيث تعوّد عمال مناجم الفحم اصطحاب طيور الكناريّ معهم إلى مناجم الفحم، لأنّها أكثر حساسية من البشر للغازات الخطرة والمؤذية. فإذا مات الكناريّ، يدرك عمال المناجم أن هناك غازات خطرة، فيغادرون المنجم. ومن هنا انتشر تداول هذا التعبير إشارةً إلى الخطر. (المترجم)

[25←]
حقبة ماكارثي التعسفية في محاربة الشيوعية.